



نفحات الرحمن

في تفسير القرآن

تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندی

تحقيق قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة قم

المجلد الرابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



نفحات الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي

(١٢٩١-١٣٧١هـ)

الجزء الرابع

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم

نہاوندی. محمد ۱۲۵۲-۱۳۳۰
نفحات الرحمن فی تفسیر القرآن/تالیف محمد بن عبدالرحیم النہاوندی؛
تحقیق

قم: موسسه البعثہ، مرکز الطباعة و النشر ۱۳۸۶
ج۶

دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴، ج ۱: ۵-۷۵۹-۳۰۹-۹۶۴، ج ۲: ۹-۷۶۰-۳۰۹-۹۶۴، ج ۳: ۷-۷۶۱-۳۰۹-۹۶۴، ج ۴: ۵-۷۶۲-۳۰۹-۹۶۴، ج ۵: ۳-۷۶۳-۳۰۹-۹۶۴، ج ۶: ۱-۷۶۴-۳۰۹-۹۶۴

فیبا

عربی

کتابنامہ

تفاسیر شیعہ - قرن ۱۴

بنیاد بعثت. واحد تحقیقات اسلامی

بنیاد بعثت. مرکز چاپ و نشر

BP۹۸/ن۹۷

۲۹۷/۱۷۹

م ۸۴/۳۷۴۹۰



مرکز الطباعة و النشر فی موسسة البعثة

نفحات الرحمن فی تفسیر القرآن ج ۴

الشیخ محمد بن عبدالرحیم النہاوندی

تحقیق: قسم الدراسات الاسلامیة - موسسة البعثة - قم

الطبعة الاولى ۱۴۲۸ق.

الکمية: ۲۰۰۰ نسخه

التوزيع: موسسة البعثة

طهران - شارع سمیه - بین شاعری الشہید مفتح و فرصت - الرقم ۱۰۹

هاتف: ۸۸۸۲۲۳۷۴ فاکس: ۸۸۳۲۵۴۶۴

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة لموسسة البعثة

شابک ج. ۴: ۵-۷۶۲-۳۰۹-۹۶۴

شابک دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴

في تفسير سورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [١]

ثم لما ختم الله تعالى سورة النحل المحتوية لاثبات التوحيد بالبراهين القاطعة، وردّ شبهات المشركين فيه وفي صدق القرآن العظيم ونبوة خاتم النبيين، وأمر النبي ﷺ باتّباع إبراهيم عليه السلام، أردفها بسورة الاسراء المشتملة على جُلّ تلك المطالب العالية وإظهار شرف نبيه محمد ﷺ على إبراهيم عليه السلام، حيث بيّن فيها أنّه تعالى أسرى بحبيبه وعبده إلى قاب قوسين أو أدنى ليريه من آياته الكبرى، وإنما أرى خليفه ملكوت السماوات والأرض وهو في مكانه من الأرض، إلى غير ذلك من المناسبات التي توجب تعاقبهما، فابتدأ فيها بذكر أسمائه الحسنى على حسب دأبه تعالى ورسمه تعليمًا للعباد بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم شرع فيه بتنزيه ذاته المقدّسة من الشرك والمعجز بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي﴾ فعل بقدرته الكاملة أعجب العجائب وأبدع البدائع، وهو أنّه ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ وحبيبه محمد ﷺ وأعرج به^١ ﴿لَيْلًا﴾. قيل: ذكر الليل وتنكيره للدلالة على قلة مدّة الإسراء، وهو بعض الليل^٢.

وقيل: لما وصل النبي ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في معارجه، أوحى الله إليه: يا محمد، بم أشرفك؟ قال: «يا ربّ بأن تنسبني إلى نفسك بالعبودية» فأنزل الله فيه^٣: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ومكة المعظّمة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ قيل: هو بيت المقدس^٤ ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ بالثّمار والأزهار وقرار الأنبياء وهبوط الملائكة فيه ﴿لِنُرِيَهُ﴾ بعضاً ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ العظام التي لم تره غيره من الأنبياء ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقواله ﴿الْبَصِيرُ﴾ بنورانيته ومسانحته لعالم الأنوار وبأحواله وأخلاقه وأعماله.

١. في النسخة: وأعرجه. ٢. تفسير الرازي ٢٠: ١٤٦، تفسير روح البيان ٥: ١٠٣.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٤٦. ٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٤٦.

وقيل: إن المراد السميع لما يقولون للرسول عند دعواه المعراج، البصير بما يعملون في هذه الواقعة^١.

روى بعض العامة أنه بات ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب في بيت أم هانئ بنت أبي طالب، ونام بعد أن صلى الركعتين اللتين كان يصليهما في وقت العشاء، ففُرج عن سقف بيتها ونزل جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، ومع كل واحد منهم سبعون ألف ملك فأيقظه جبرئيل بجناحه، قال ﷺ: «فمعت إلى جبرئيل، فقلت: أخي جبرئيل مالك؟ فقال: يا محمد، إن ربي تعالى بعني إليك، وأمرني بأن آتيه بك في هذه الليلة بكرامة لم يُكرّم بها أحد قبلك ولا يُكرّم بها أحد بعدك، فأنت تُريد أن تكلم ربك وتُنظر إليه وترى في هذه الليلة من عجائب ربك وعظمته وقدرته» قال: «فتوضأت وصليت ركعتين».

قال الراوي: وشق جبرئيل صدره الشريف من الموضع المنخفض بين الترقوتين إلى أسفل بطنه، فجاء بطشت من ماء زَمْزَمَ، واستخرج قلبه فغسله ثلاث مرات، ونزع ما كان فيه من أذى، ثم جاء بطشت من ذهب يمتلئ إيماناً وحكمة، فأفرغ فيه، ثم أعاد القلب إلى مكانه، والتأم صدره الشريف، فكانوا يرون أثراً أكثر الخيط^٢ في صدره.

قال ﷺ: «ثم جاء جبرئيل بدابة بيضاء، فقلت: يا جبرئيل، ما هذه الدابة؟ فقال: هذا البراق فاركب عليه حتى تمضي إلى دعوة ربك، فأخذ جبرئيل بلبامها وميكائيل بركابها وإسرافيل من خلفها، فقصدت أن أركبها فجمحت الدابة وأبت، فوضع جبرئيل يده على وركها، وقال لها: ألا تستحين مما فعلت؟! فوالله ما ركبك أحد أكرم على الله من محمد، فرشحت عرقاً من الحياء، فقالت: يا جبرئيل، لم أستصعب منه إلا ليضمن أن يشفع لي يوم القيامة، لأنه أكرم الخلائق على الله، فضمن لها ذلك»^٣.
 روي أنه ﷺ قال: «لما أخرج بي إلى السماء، بكت الأرض من بعدي، فنبت الأصفر من نباتها، فلما رجعت قطر عرقي على الأرض، فنبت ورد أحمر، ألا من أراد أن يشم رائحتي فليشم الورد الأحمر».
 قال: فركبه^٤، فانطلق البراق يهوي به يضع حافره حيث أدرك طرفه، حتى بلغ أرضاً، فقال له جبرئيل: انزل فصل ركعتين ها هنا. ففعل، ثم ركب فقال له جبرئيل: أتدري أين صليت؟ قال: «لا».
 قال: صليت بمدين، فانطلق البراق يهوي به، فقال له جبرئيل: انزل فصل ففعل، ثم ركب، فقال: أتدري أين صليت؟ قال: «لا». قال: صليت ببیت لَحْم، وهي قرية تلقاء بيت المقدس حيث ولد

٢. في تفسير روح البيان: المخيط.

٤. في النسخة: فركبها.

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٤٧.

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٠٦.

عيسى عليه السلام.

وبينا هو على البَرقِ إذ رأى غفرياً من الجنِّ يطلبه بـشعلةٍ من نار، كلما التفت رآه، فقال له جبرئيل: ألا أعلمك كلماتٍ تقولهنّ، إذا أنت قلتَهنّ طفت شعلته وحرّ لفيه؟ فقال: «بلى». فقال جبرئيل: قل أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامات اللّاتي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر، من شرّ ما ينزل من السماء، ومن شرّ ما يعرّج فيها، ومن شرّ ما ذرأ في الأرض، ومن شرّ ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار، إلّا طارقاً يطرق بخيرٍ يا رحمن.

فقال عليه السلام ذلك، فانكبّ لفيه، وطفئت شعلته، فرأى عليه السلام قوماً يزرعون ويحصدون من ساعته، وكلّما حصدوا عاد كما كان، فقال: «يا جبرئيل، ما هذا؟» قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تُضاعف لهم الحسنة بسبعمائة، وما انفقوا من خيرٍ فهو يخلفه.

فنادى منادٍ عن يمينه: يا محمّد، انظرني أسألك، فلم يُجبه، فقال: «ما هذا يا جبرئيل؟» قال: هذا داعي اليهود، أما إنك لو أحببته لتهودت أمّتك، ونادى منادٍ عن يساره كذلك، فلم يُجبه، فقال: «ما هذا يا جبرئيل؟» فقال: هذا داعي النصارى، أما إنك لو أحببته لتنصّرت أمّتك، فرأى امرأةً حاسرةً عن ذراعها، فقالت: يا محمّد، انظرني أسألك، فلم يلتفت إليها، فقال: «من هذه يا جبرئيل؟» قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أحببتها لاخترت أمّتك الدنيا على الآخرة.

إلى أن قال: ومضى عليه السلام حتى أتى إيليا من أرض الشام، فاستقبله من الملائكة جمٌ غفيرٌ لايحصى عددهم، فدخلها من الباب [اليمني] الذي فيه مثال الشمس والقمر، ثم انتهى إلى بيت المقدس، وكان بباب المسجد حَجَرٌ، فأدخل جبرئيل يده فيه فخرقه، فكان فيه كهنية الحلقة وربط به البَرق. ثم دخل عليه المسجد، ونزلت الملائكة، وأحيا الله له آدم ومن دونه من الأنبياء، فسلموا عليه وهنّأوه بما أعطاه الله من الكرامة، وقالوا: الحمد لله الذي جعلك خاتم الأنبياء، فنعم النبي أنت، ونعم الأخ أنت، وأمّتك خير الأمم. ثم قال جبرئيل: تقدّم يا محمّد وصلّ باخوانك من الأنبياء ركعتين، فصلّى بهم ركعتين، وكان خلف ظهره إبراهيم، وعن يمينه إسماعيل، وعن يساره إسحاق، وكانوا سبعة صفوف: ثلاثة [صفوف] من الأنبياء المرسلين، وأربعة من سائر الأنبياء.

قال عليه السلام: «لما وصلت إلى بيت المقدس وصليت فيه ركعتين، أخذني العطش أشدّ ما أخذني، فأتيت بئانين؛ في أحدهما لبن، وفي الآخر خمر، فأخذت الذي فيه اللبن - وكان ذلك بتوفيق ربّي - فشربته إلّا قليلاً منه، وتركت الخمر، فقال جبرئيل: أصبت الفطرة يا محمد، أما إنك لو شربت الخمر لغوّت أمّتك كلّها، ولو شربت اللبن كلّهُ لما ضلّ أحدٌ من أمّتك بعدك. فقلت: يا جبرئيل: اردّد عليّ

اللبن حتى أشربه كله. فقال جبرئيل: قُضي الأمر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيى عن بينة.

ثم قال جبرئيل: قم يا محمد، فقمث فاذا بسلّم من ذهب قوائمه من فضة، مركّب من اللؤلؤ والياقوت، يتلأل نوره، وأسفله على صخرة بيت المقدس، ورأسه في السماء، فقيل لي: يا محمد، اصعد. فصعدت فانتهيت إلى بحر أخضر عظيم أعظم ما يكون من البحار، فقلت: يا جبرئيل، ما هذا البحر؟ فقال: يا محمد، هذا بحر في الهواء لا شيء فوقه يتعلّق به، ولا شيء تحته يتقرّفه، ولا يدري قعره وعظمته إلا الله، ولولا أنّ هذا البحر كان حائلاً لاحترق ما في الدنيا من حرّ الشمس.

قال: «ثم انتهيت إلى سماء الدنيا، واسمها رقيع، فأخذ جبرئيل بعصدي، وضرب بابها به^١، وقال: افتح الباب. قال الحارس: من أنت؟ قال: جبرئيل. قال: ومن معك؟ قال: محمد. قال: أو قد بعث محمد؟ قال: نعم. قال: الحمد لله. ففتح [لنا] الباب ودخلنا، فلمّا نظر إليّ قال: مرحباً بك يا محمد، ولنعم المجيء مجيئك. فقلت: يا جبرئيل، من هذا؟ قال: هذا إسماعيل خازن سماء الدنيا، وهو يتنظر قدومك، فاذنّ وسلّم عليه، فدنوت وسلّمت، فردّ عليّ السلام وهأنّي، فلمّا صرت إليه قال: أبشّر يا محمد، فإنّ الخير كله فيك وفي أمّتك. قال: وإذا جنوده قائمون صفوفاً، ولهم زجلّ بالتسبيح يقولون: سُبوح قُدّوس ربّ الملائكة والرّوح، قُدّوس قُدّوس لربّ الأرباب، سبحان العظيم الأعظم».

قال: «ثم انتهيت إلى آدم، فاذا هو كهينته يوم خلقه الله، وكان تسبيحه: سبحان الجليل الأجلّ، سبحان الواسع الغنيّ، سبحان [الله] العظيم وبحمده، فاذا هو تُعرّض عليه أرواح ذريّته المؤمنين، فيقول: روح طيبة ونفّس طيبة خرجت من جسد طيب، اجعلوها في عليّين، وتُعرّض عليه أرواح ذريّته الكفّار، فيقول: روح خبيثة ونفّس خبيثة خرجت من جسد خبيث، اجعلوها في سجين» قال ﷺ: «فتقدّمت إليه وسلّمت عليه، فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح».

قال ﷺ: «ورأيت رجالاً لهم مَشافير كمَشافير الإبل^٢، في أيديهم قطع من نار كالأنهار - أي الحجارة التي [كلّ] واحد منها ملء الكفّ - يقذفونها في أفواههم ثمّ تخرج من أديبارهم، قلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: أكلّة أموال البتامي ظلّماً.

ثمّ رأيت رجالاً لهم بطون أمثال البيوت، فيها حيّات ثرى من خارج البُطون بطريق آل فرعون يَمُرّون عليهم كالابل المهيومة^٣ حين يُعرّضون على النّار، لا يقدرّون أن يتحوّلوا من مكانهم ذلك -

٢. مشفر الإبل: بمثابة الشفة للانسان.

١. في النسخة: وضرب بابها.

٣. أي العطشى.

وفي رواية: كلما نهض أحدهم خر- قلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا.
ثم رأيت أخونة عليها لحم طيب، ليس عليها أحد، وأخرى عليها لحم مئتّن عليها ناس يأكلون منه. قلت: يا جبرئيل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين تركوا الحلال ويأكلون الحرام.
ثم رأيت نساءً معلقات ببديهن، فقلت: يا جبرئيل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن [على] الرجال ما ليس من أولادهن.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبرئيل، قال الحارس: من أنت؟ قال: جبرئيل. قال: ومن معك؟ قال: محمد. قال: أو قد بعث؟ قال: نعم، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة؛ عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، ومعهما نفر من قومهما، فرحبا بي ودعوا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبرئيل، فقيل: من أنت؟ قال: جبرئيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قال: أو قد بعث؟ قال: نعم، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف ومعه نفر من قومه، وإذا هو أعطي شطر الحسن، فرحبا بي، ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبرئيل قيل: من هذا؟ قال: جبرئيل قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث؟ قال: نعم، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحبا بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبرئيل، قيل: من هذا؟ قال: جبرئيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد بعث؟ قال: نعم، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصف لحيته سوداء، تكاد تضرب إلى شترته من طولها، وحوله قوم من بني إسرائيل، وهو يقص عليهم، فرحبا بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبرئيل، قيل: من هذا؟ قال: جبرئيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بعث؟ قال: نعم، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى، فرحبا بي ودعا لي بخير، فلما جاوزت بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل الجنة من أمتي.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبرئيل، قيل: من هذا؟ قال: جبرئيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بعث؟ قال: نعم. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم، فسلم عليه وسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح، والنبي الصالح، وإذا إبراهيم رجل أشمط^٢

١. جمع خوان: ما يؤكل عليه.

٢. في النسخة: أشمط، والأشمط: الذي يختلط سواد شعره ببياض.

جالس عند باب الجنة على كُرسيٍّ، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وهو من عقيق محاذٍ للكهبة بحيث لو سقط سقط عليها، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون، وإذا أنا بأمتي شطرين: شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس، وشرط عليهم ثياب رَمِدة^١. فدخلت البيت المعمور، ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض، وخُجِبَ الآخرون الذين عليهم الثياب الرَمِدة، فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور».

وفي رواية: «أن أطفال المؤمنين والكافرين في كفالة إبراهيم، فلما رآهم رسول الله ﷺ مع إبراهيم، قال: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء أولاد المؤمنين الذين يموتون صغاراً. قال له: وأولاد الكافرين؟ قال: وأولاد الكافرين».

وقال إبراهيم لرسول الله ﷺ: أقرأ أمك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأن عرّسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

قال ﷺ: «استقبلني جارية لَغْساء^٢، قد أعجبتني، فقلت لها: لمن أنت؟ قالت: لزيد بن حارثة». قال: «ورأيت فوجاً من الملائكة نصف أبدانهم [من] النار، ونصفها من الثلج، فلا النار تُذيب الثلج، ولا الثلج يُطفئ النار، وهم يقولون: اللهم كما أَلَفَتْ بين النار الثلج أَلَفْ بين قلوب عبادك المؤمنين». قال: ﷺ: «ثم ذهب بي جبرئيل إلى سِدرة المُنتهى، وهي شجرة فوق السماء السابعة في أقصى الجنة، إليها ينتهي الملائكة بأعمال أهل الأرض من السعداء، واليها تنزل الأحكام، وإذا أرواقها كآذان الفيلة»^٣.

قيل: إنه عرج من السماء السابعة إلى السُدرة على جناح جبرئيل^٤، وإنه ﷺ رأى جبرئيل عند السُدرة على الصورة التي خلقه الله عليها^٥، ثم عرج منها على الرُفرف - وهو بساطٌ عظيمٌ على قول، أو هو كالمِحفّة^٦ - ورأى أن جبرئيل لما وصل إلى السُدرة التي هي مقامه تأخر فلم يتجاوز، قال ﷺ: «أفي مثل هذا المقام يترك الخليل خليله؟» فقال: لو تجاوزت لأحترقت بالنور^٧. وفي رواية قال: لو دنوت أئُمَّةً لأحترقت^٨.

فقال: «يا جبرئيل، هل لك [من] حاجة إلى ربّي؟ قال: يا محمد، سَل الله لي أن أبسط جناحي على

١. الرّيد: الكدر الذي صار على لون الرماد.

٢. جارية لَغْساء: في لونها أدنى سواد مشربة من الحمرة.

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٠٨ - ١٢٠.

٤. تفسير روح البيان ٥: ١٢٠.

٥. تفسير روح البيان ٥: ١٢١، والمِحفّة: هودج لا قُبّة له، تركب فيه المرأة.

٦ و٧. تفسير روح البيان ٥: ١٢٠.

الصراف لأمتك حتى يجوزوا عليه^١.

قال ﷺ: «ثُمَّ رَجَّ بِِي فِي النُّورِ، فَخَرَقَ بِي سَبْعُونَ أَلْفَ حِجَابٍ، لَيْسَ [فِيهَا] حِجَابٌ يُشَبِّهُ حِجَابًا، غَلِظَ كُلَّ حِجَابٍ خَمْسَمِائَةَ عَامٍ، وَانْقَطَعَ عَنِّي حَسَّ كُلِّ مَلَكٍ، فَلَجَقَنِي عِنْدَ ذَلِكَ اسْتِحَاشٌ، فَعِنْدَ ذَلِكَ نَادَى مُنَادٍ بِلُغَةٍ أَبِي بَكْرٍ: قِفْ فَإِنَّ رَبَّكَ يَصَلِّي^٢»، أَي يَقُولُ: سُبْحَانِي سُبْحَانِي، سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي.

أقول: العجب كل العجب أن المنادي في ذلك المقام لم يجد لغةً ولساناً لم ينطق بالشرك، واختار لغةً ولساناً نطق بالشرك دهرًا دهرًا.

«وَجَاءَ نِدَاءٌ مِنَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى: ادْنُ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ، ادْنُ يَا أَحْمَدَ ادْنُ يَا مُحَمَّدَ، فَأَدْنَانِي رَبِّي حَتَّى كُنْتُ كَمَا قَالَ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى^٣» ونادى جَبْرِئِيلُ مِنْ خَلْفِهِ: يَا مُحَمَّدَ، إِنَّ اللَّهَ يُثْنِي عَلَيْكَ، فَاسْمِعْ وَأَطِعْ، وَلَا يَهُولُكَ كَلَامُهُ. فَبَدَأَ بِالثَّنَاءِ وَهُوَ قَوْلُهُ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ». فقال تعالى: السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. فقال ﷺ: «السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ». فقال جَبْرِئِيلُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَتَابِعَهُ جَمِيعُ الْمَلَائِكَةِ^٤.

رَوَى عَنْهُ ﷺ قَالَ: «سَأَلَنِي رَبِّي فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَجِيبَهُ، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ بِلا تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْدِيدٍ، فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا، فَأَوْرَثَنِي عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَعَلَّمَنِي عُلُومًا شَتَّى، فَعِلْمٌ أَخَذَ عَلَيَّ كِتْمَانَهُ إِذْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِهِ غَيْرِي، وَعِلْمٌ خَيْرَنِي فِيهِ، وَعِلْمٌ أَمَرَنِي بِتَبْلِيغِهِ إِلَى الْعَامِّ وَالْخَاصِّ مِنْ أُمَّتِي^٥». ثُمَّ قَالَ ﷺ: «فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَزَلْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ أَتَيْتُ مُوسَى فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أَمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أَمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَأَتَيْتُ اللَّهَ فَقَدِ جَرَّبَتِ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالَجَةِ، وَلَقِيتَ الشَّدَّةَ فِي مَا أَرَدْتَ فِيهِمْ مِنَ الطَّاعَةِ».

قال ﷺ: «فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَخَرَرْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَقُلْتُ: أَيُّ رَبِّي، خَفَّفَ عَنْ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى وَأَخْبَرْتَهُ، فَقَالَ: إِنَّ أَمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعْ بَيْنَ رَبِّي وَمُوسَى وَيَحُطُّ خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قَالَ مُوسَى: بِمِ أَمَرْتُ؟ قُلْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ. قَالَ: ارْجِعْ

٢. تفسير روح البيان ٥: ١٢١.

١. تفسير روح البيان ٥: ١٢١.

٣. النجم: ٨/٥٣. ٤. تفسير روح البيان ٥: ١٢١.

٥. تفسير روح البيان ٥: ١٢٢.

١٢ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

إلى ربك فاسأله التخفيف. فقلت: قد راجعت ربِّي حتَّى استحييت، ولكن أَرْضَى وأَسَلِّمْ، فلما جاوزت نادى منادٍ: أمضيت فريضتي يا مُحَمَّد، وهي خمس صلوات في كلِّ يومٍ وليلة بكلِّ صلاة عشر، فتلک خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كُتِبَ له حسنة، ومن علمها كُتِبَ له عشر، ومن همَّ بسنةٍ فلم يعملها لم يُكُتَبْ شيءٌ، وإن عملها كُتِبَ سنة واحدة^١.

وَرَوَى أَنَّهُ كَانَتْ الصَّلَاةُ خَمْسِينَ، وَالْعُسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ سَبْعَ مَرَاتٍ، وَغَسَلَ الْبَوْلَ مِنَ الثُّوبِ سَبْعَ مَرَاتٍ، وَلَمْ يَزَلْ ﷺ يَسْأَلُ رَبَّهُ حَتَّى جُعِلَتِ الصَّلَاةُ خَمْسًا، وَغَسَلَ الْجَنَابَةَ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَغَسَلَ الْبَوْلَ مِنَ الثُّوبِ مَرَّةً^٢.

وعن أنس، قال قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي إِلَى السَّمَاءِ تَحْتَ الْعَرْشِ سَبْعِينَ مَدِينَةً، كُلُّ مَدِينَةٍ مِثْلَ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ سَبْعِينَ مَرَّةً، مَمْلُوءَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، يَسَبِّحُونَ اللَّهَ وَيَقْدِّسُونَهُ، وَيَقُولُونَ فِي تَسْبِيحِهِمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِمَنْ شَهِدَ الْجُمُعَةَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِمَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. وَرَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي إِلَى السَّمَاءِ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ: الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالْقَرْضُ بِثَمَانِيَةِ عَشْرٍ. فَقُلْتُ: يَا جَبْرِئِيلُ، مَا بَالُ الْقَرْضِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ. قَالَ: لِأَنَّ السَّائِلَ يَسْأَلُ وَعِنْدَهُ شَيْءٌ، وَالْمُسْتَقْرِضُ لَا يَسْتَقْرِضُ إِلَّا مِنْ حَاجَةٍ.

وَرَأَيْتُ رِضْوَانَ خَازِنِ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا رَأَى فَرِحَ بِي وَرَحَّبَ بِي، وَأَدْخَلَنِي الْجَنَّةَ، وَأَرَانِي فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ مَا وَعَدَ اللَّهُ فِيهَا لِأَوْلِيَائِهِ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَرَأَيْتُ فِيهَا دَرَجَاتٍ أَصْحَابِي، وَرَأَيْتُ فِيهَا الْأَنْهَارَ وَالْعَيُونَ، وَسَمِعْتُ فِيهَا صَوْتًا وَهُوَ يَقُولُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. فَقُلْتُ: مَا هَذَا الصَّوْتُ يَا رِضْوَانُ؟ قَالَ: هُمْ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ وَأَزْوَاجُهُمْ.

وَسَمِعْتُ آخَرَ يَقُولُ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ فَقُلْتُ: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: أَرْوَاحُ الْحَجَّاجِ، وَسَمِعْتُ التَّكْبِيرَ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الْفُرَاةُ. وَسَمِعْتُ التَّسْبِيحَ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ. وَرَأَيْتُ قُصُورَ الصَّالِحِينَ.

وَعَرَّضْتُ النَّارَ عَلَيَّ، وَإِنْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ السَّابِعَةِ، فَادَا عَلَى بَابِهَا مَكْتُوبٌ: وَإِنْ جَهَنَّمَ لِمَوْعِدِهِمْ أَجْمَعِينَ. قَالَ: وَأَبْصَرْتُ مَلَكًا لَمْ يَضْحَكْ فِي وَجْهِهِ، فَقُلْتُ: يَا أَخِي جَبْرِئِيلُ، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: مَالِكُ خَازِنِ النَّارِ، لَمْ يَضْحَكْ مِنْذُ خَلَقَهُ اللَّهُ، وَلَوْ ضَحَكَ إِلَى أَحَدٍ لَضَحَكَ إِلَيْكَ، فَقَالَ لَهْ جَبْرِئِيلُ: يَا مَالِكُ، هَذَا مُحَمَّدٌ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلِّمْ عَلَيَّ وَهَنَّا بِي بِمَا صَرْتُ إِلَيْهِ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالشَّرَفِ.

قَالَ: فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَعْزِضَ عَلَيَّ النَّارَ بِدُرَكَاتِهَا، فَعَرَضَهَا عَلَيَّ بِمَا فِيهَا، وَإِذَا فِيهَا غَضَبُ اللَّهِ، لَوْ طُرِحَتْ فِيهَا الْحِجَارَةُ وَالْحَدِيدُ لَأَكَلَتْهَا، وَإِذَا قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الْجِيفَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ

الذين يأكلون لحوم الناس - أقول: يعني يغتابونهم - ورأيت قوماً تُنزع أَسْتِهِمْ من أَفْئِيتِهِمْ، فقلت: من هم؟ قال: هم الذين يَخْلِفُونَ بالله كاذبين. ورأيت جماعة من النساء عُلّقن بشعورهنّ، فقلت: من هنّ؟ قال: هنّ اللاتي لا يستترن من غير محارمهنّ. ورأيت جماعة منهنّ لباسهنّ [من] القَطِيرَان. فقلت: من هنّ؟ قال: نائحات».

فلَمَّا نَزَلَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا نَظَرَ إِلَى أَسْفَلٍ مِنْهُ، فَإِذَا هُوَ بِهَرَجٍ وَدُخَانٍ وَأَصْوَاتٍ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ؟» قَالَ: هَذِهِ الشَّيَاطِينُ يَحْمُونَ عَلَى أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ حَتَّى لَا يَنْظُرُوا إِلَى الْعَلَامَاتِ، وَلَا يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَأَوْا الْعَجَائِبَ. وَنَزَلَ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَتَوَجَّهَ إِلَى مَكَّةَ وَهُوَ عَلَى الْبَرَقِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَيْتِهِ، أَوْ إِلَى بَيْتِ أُمِّ هَانِئٍ^١.

قيل: كَانَ ذَهَابَهُ وَإِيَابَهُ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ، أَوْ أَرْبَعَ سَاعَاتٍ^٢. وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ قَدَرُ لِحْظَةٍ^٣.

الْقَمِي، عَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ مَرَّةً، وَإِلَى الْكَعْبَةِ مَرَّةً، ثُمَّ قَالَ: «سُحَّانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا» وَكَرَّرَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى إِسْمَاعِيلَ الْجُعْفِيِّ، فَقَالَ: «أَيُّ شَيْءٍ يَقُولُ أَهْلُ الْعِرَاقِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَا عِرَاقِي؟» قَالَ: يَقُولُونَ أَسْرَى بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ.

فَقَالَ: «لَيْسَ كَمَا يَقُولُونَ، وَلَكِنَّهُ أَسْرَى بِهِ مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ» وَإِشَارَ بِيَدِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَ: «مَا بَيْنَهُمَا حَرَمٌ»^٤.

وَعَنِ الصَّادِقِ ﷺ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْمَسَاجِدِ الَّتِي لَهَا فَضْلٌ، فَقَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، وَمَسْجِدُ الرَّسُولِ» قِيلَ: وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى؟ فَقَالَ: «ذَاكَ فِي السَّمَاءِ، إِلَيْهِ أَسْرَى رَسُولُ اللَّهِ».

فَقِيلَ: إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ إِنَّهُ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ؟ فَقَالَ: «مَسْجِدُ الْكُوفَةِ أَفْضَلُ مِنْهُ»^٥.

وَعَنْهُ ﷺ: أَنَّهُ سُئِلَ كَمْ عَرِجَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَرَّتَيْنِ»^٦.

وَعَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: «أَتَى جِبْرِيلُ بِالْبَرَقِ أَصْفَرَ مِنَ الْبَغْلِ وَأَكْبَرَ الْحِمَارِ، مُضْطَرِبَ الْأُذُنَيْنِ عَيْنَاهُ فِي حَافِرِهِ وَخِطَامُهُ مَدَّ بِصَرِهِ»^٧.

وَزَادَ فِي (الْكَافِي): «أَنَّهُ إِذَا انْتَهَى إِلَى جَبَلٍ قَصُرَتْ يَدَاهُ وَطَالَتْ رِجْلَاهُ، فَإِذَا هَبَطَ طَالَتْ يَدَاهُ

١. تفسير روح البيان ٥: ١٢٣.

٢. تفسير القمي ٢: ٢٤٣، تفسير الصافي ٣: ١٦٦.

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٢٥.

٤. تفسير العياشي ٣: ٢٤٥٧/٣٥، تفسير الصافي ٣: ١٦٦.

٥. الكافي ١: ١٣/٣٦٧، تفسير الصافي ٣: ١٦٧.

٦. تفسير العياشي ٣: ٢٤٤٧/٣١، تفسير الصافي ٣: ١٦٧، وفي تفسير العياشي: فِي حَوَافِرِهِ، خَطْوُهُ مَدَّ بِصَرِّهِ.

وقضرت رجلاه، أخذب العُرف^١ الأيمن، له جناحان من خلفه^٢.

وعن (العيون) عن النبي ﷺ: «أَنَّ [الله] سَخَّرَ لي البَرق، وهي دابة من دواب الجنة ليست بالقصير ولا بالطويل، فلو أَنَّ الله أَذِنَ لها لجالت الدنيا والآخرة في جرية واحدة، وهي أحسن الدواب لونا»^٣.
القمي عن الصادق عليه السلام: «جاء جَبْرِئِيلُ وميكائيل وإسرافيل بالبَرق إلى رسول الله ﷺ، فأخذ واحدًا باللباس، وواحدًا بالركاب، وسَوَّى الآخر عليه ثيابه، فتضعضت البَرق، فلطمها جَبْرِئِيلُ، ثُمَّ قال [لها]: اسكُني يا بَرق، فما رَكِبَكَ نبي قبله، ولا يَرَكِبَكَ بعده مثله» قال: «فترقتُ^٤ فرفته ارتفاعاً ليس بالكثير، ومعه جَبْرِئِيلُ يريه الآيات من السماء والأرض. قال النبي ﷺ: [فبينما] أنا في مسيري إذ نادى منادٍ عن يميني: يا محمد، فلم أجبه، ولم ألتفت إليه، ثُمَّ نادى منادٍ عن يساري: يا محمد، فلم أجبه، ولم ألتفت إليه، ثُمَّ استقبلتني امرأة كاشفة عن ذراعها وعليها من كل زينة الدنيا، فقالت: يا محمد، انظُرني حتَّى أَكَلِمَكَ فلم ألتفت إليها.

ثُمَّ سرْتُ فسمِعت صوتاً أفرغني [فجاوزتُ به] فنزل بي جَبْرِئِيلُ فقال: صلِّ، فنزلتُ وصليتُ، فقال لي: تدري أين صليت؟ فقلتُ: لا. فقال: صليتُ بطَّيِّه وإليها مهاجرك. ثُمَّ رَكِبْتُ ومضينا ما شاء الله، ثُمَّ قال لي: إنزل فصلً، فنزلتُ وصليتُ، فقال لي: تدري أين صليت؟ فقلتُ: لا. قال: صليتُ [بطور سِيناء حيث كلم الله موسى تكليماً، ثُمَّ رَكِبْتُ فمضينا ما شاء الله، ثُمَّ قال لي: أنزل فصلً، فنزلتُ وصليتُ، فقال لي: تدري أين صليت؟ فقلتُ: لا، قال: صليتُ في] بيت لحم بناحية بيت المقدس حيث ولد عيسى بن مريم.

ثُمَّ رَكِبْتُ فمضينا حتَّى انتهينا إلى بيت المقدس، فربطت البَرق بالحلقة التي كانت الأنبياء يرتبطون بها، فدخلتُ المسجد ومعني جَبْرِئِيلُ إلى جَنِّبِي، فوجدنا إبراهيم وموسى وعيسى في من شاء الله من أنبياء الله قد جُمِعوا إليّ، وأقمْتُ الصلاة، ولا أَشُكُّ أَنَّ جَبْرِئِيلَ يستقدماً، فلَمَّا استَووا أخذ جَبْرِئِيلُ بعَضَدي ففدمني وأممتهم ولا فخر، ثُمَّ أتاني الخازن بثلاث أوانٍ: إناء فيه لَبَن، وإناء فيه ماء، وإناء فيه خمر، وسمِعتُ قائلاً يقول: إن أخذ الماء غَرِقَ وغرقت أُمته، وإن أخذ الخمر غَوَى وغوت أُمته، وإن أخذ اللَّبَن هُدِيَ وهُديت أُمته. قال: فأخذتُ اللَّبَنَ وشربت منه، فقال لي جَبْرِئِيلُ: هُديتُ وهُديت أُمَّتَكَ.

١. أي طويل العُرف. ٢. الكافي ٨: ٣٧٦/٥٦٧، تفسير الصافي ٣: ١٦٧.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٤٩/٣٢، تفسير الصافي ٣: ١٦٧.

٤. في المصدر: ولا أشك إلا وجبرئيل استقدماً.

٤. في المصدر: فرقت به.

ثم قال لي: ماذا رأيت في مسيرك؟ فقلت: ناداني منادٍ عن يميني. فقال لي: أو أجبته. قلت: لا ولم التفت إليه. قال: ذلك داعي اليهود، ولو أجبته لتهودت أمتك من بعدك. ثم قال: ماذا رأيت؟ فقلت: ناداني منادٍ عن يساري. فقال لي: أو أجبته؟ فقلت: لا، ولم التفت إليه. فقال: ذاك داعي النصارى، ولو أجبته لتنصرت أمتك من بعدك. ثم قال: ماذا استقبلك؟ فقلت: لقيت امرأة كاشفةً عن ذراعيها عليها من كل زينة الدنيا. فقالت: يا محمد، انظرني حتى أكلّمك. فقال لي: أفكلمتها؟ فقلت: لم أكلّمها ولم التفت إليها. فقال: تلك الدنيا، ولو كلّمتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة.

ثم سمعت صوتاً أفرغني، فقال لي [جبرئيل]: تسمع يا محمد؟ قلت: نعم. قال: هذه صخرة قدفتها على شفير جهنم منذ سبعين عاماً، فهذا حين استقرت. قالوا: فما ضحك رسول الله ﷺ حتى قبض. قال: فصعد جبرئيل وصعدت معه إلى سماء الدنيا وعليها ملك يقال له إسماعيل، وهو صاحب الخطفة التي قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾^١ وتحته سبعون ألف ملك، تحت كل ملك سبعون ألف ملك. فقال: يا جبرئيل، من معك؟ فقال: محمد. قال: أو قد بُعث؟ قال: نعم، ثم فتح الباب، فسلمت عليه وسلم علي، واستغفرت له واستغفر لي، وقال: مرحباً بالأخ الناصح والنبي الصالح، وتلقني الملائكة حتى دخلت سماء الدنيا، فما لقيني ملك إلا كان ضاحكاً مستبشراً حتى لقيني ملك من الملائكة لم أر خلقاً أعظم منه، كرهه المنظر، ظاهر الغضب. فقال لي مثل ما قالوا من الدعاء إلا أنه لم يضحك، ولم أر فيه [من] الاستبشار ما رأيت ممن ضحك من الملائكة.

فقلت: من هذا يا جبرئيل، فإني قد فرغت منه؟ فقال: يحق أن تفرغ منه، وكلنا نفرغ منه، إن هذا مالك خازن النار، لم يضحك قط، ولم يزل منذ ولّاه الله جهنم يزداد غضباً وغيظاً على أعداء الله وأهل معصيته، فيستقم الله به منهم، ولو ضحك إلى أحدٍ كان قبلك، أو كان ضاحكاً إلى أحدٍ بعدك، لضحك إليك، ولكنه لا يضحك. فسلمت عليه فردّ السلام علي، وبشّرني بالجنة.

فقلت لجبرئيل وهو بالمكان الذي وصفه الله: ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ﴾^٢: ألا تأمره أن يريني النار؟ فقال له جبرئيل: يا مالك، أر محمدًا النار. فكشف عنها غطاءها، وفتح باباً منها، [فخرج] لهيب ساطع في السماوات، وفارت وارتفعت حتى ظننت ليتناولني مما رأيت. فقلت: يا جبرئيل، قل له فليرد عليها غطاءها، فأمرها وقال: ارجعي، فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه.

ثم مضيت فرأيت رجلاً آدمًا^٣ جسيماً فقالت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أبوك آدم. فاذا هو

تعرض عليه ذريته فيقول: رُوح طيب وريح طيبة من جسد طيب ثم تلا رسول الله ﷺ: ^١ «إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ» ^٢ إلى آخرها. قال: فسلمت على أبي آدم وسلم عليّ، واستغفرت له واستغفر لي، وقال: مرحباً بالابن الصالح، والنبي الصالح، والمبعوث في الزمن الصالح.

ثم مررت بمَلَكٍ من الملائكة جالس على مجلس ^٣، وإذا جميع الدنيا بين ركبتيه، وإذا بيده لوح من نور ينظر إليه مكتوب فيه، كتاب ينظر فيه ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً إلا وهو مقبل عليه كهيئة الحزين، فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا مَلَكُ الموت دائب في قبض الأرواح. فقلت: يا جبرئيل ادنني منه حتى أكلّمه، فأدناني منه فلمست عليه، فقال له جبرئيل: هذا نبي الرحمة الذي أرسله الله إلى العباد، فرحب بي وحياني بالسلام، وقال: أبشّر يا محمد، فإنّي أرى الخير في أمتك. فقلت: الحمد لله المَنَّان ذي النعم على عباده، ذلك من فضل ربّي ورحمته عليّ.

فقال جبرئيل: هو أشدّ الملائكة عملاً. فقلت: أكلّ من مات أو هو ميت فيما بعد هذا يقبض روحه؟ فقال: نعم: قلت: ويراهم حيث كانوا ويشهدهم بنفسه؟ فقال: نعم. فقال مَلَكُ الموت: ما الدنيا كلّها عندي فيما سخرها الله لي ومكنتني منها إلا كالذرّهم في كفّ الرجل يقلّبه كيف يشاء، وما من دارٍ إلا وأنا أنصفّحها كلّ يوم خمس مرات، وأقول إذا بكى أهل الميت على ميتهم: لا تبكوا عليه، فإنّ لي فيكم عودة وعودة حتى لا يبقى منكم أحد، فقال رسول الله ﷺ: كفى بالموت طامة يا جبرئيل. فقال جبرئيل: إنّ ما بعد الموت أطم وأطم من الموت.

قال: ثم مضيت فاذا أنا بقوم بين أيديهم موائد من لحم طيب ولحم خبيث يأكلون الخبيث ويدعون الطيب، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون الحرام ويدعون الحلال، وهم من أمتك يا محمد.

فقال رسول الله ﷺ: ثم رأيت ملكاً من الملائكة جعل الله أمره عجبا، نصف جسده نار، والنصف الآخر ثلج، فلا النار تذيب الثلج، ولا الثلج يطفىء النار، وهو ينادي بصوت رفيع يقول: سبحان الذي كفّ حرّ هذه النار فلا تذيب الثلج، وكفّ برد [هذا] الثلج فلا يطفىء حرّ هذه النار، اللهم يا مؤلف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين. فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا مَلَكُ الله وكله الله بأكتاف السماوات وأطراف الأرضين، وهو أنصح ملائكة الله لأهل الأرضين من عباده المؤمنين،

يدعو لهم بما تسمع منه منذ خلقه، ومَلَكَانِ يناديان في السماء؛ أحدهما يقول: اللَّهُمَّ اعْطِ كُلَّ مَنْفِقٍ خَلْفًا، والآخر يقول: اللَّهُمَّ اعْطِ كُلَّ مَسْكٍ تَلْفًا.

ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ لَهُمْ مَشَافِرُ كَمَشَافِرِ الْإِبِلِ^١، يُقَرِّضُ اللَّحْمَ مِنْ جَنُوبِهِمْ وَيَلْقَى فِي أَفْوَاهِهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الْهَمَّازُونَ لِلْمَازُونَ.

ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ تَرَضَّخَ رُؤُوسُهُمْ بِالصَّخَرِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنَامُونَ عَنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ.

ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ تُقَذِّفُ النَّارَ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَتَخْرُجُ مِنْ أَدْبَارِهِمْ. فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا.

ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ يُرِيدُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَقُومَ فَلَا يَقْدِرُ مِنْ عِظَمِ بَطْنِهِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ، فَإِذَا هُمْ بِسَبِيلِ آلِ فِرْعَوْنَ يَرِيعُونَ عَلَى النَّارِ عُذُوءًا وَعَشْيًا، وَيَقُولُونَ: رَبَّنَا مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ؟

قَالَ: ثُمَّ مَضَيْتُ فَإِذَا أَنَا بِنِسْوَانٍ مَعْلَقَاتٍ بِثَدْيِهِنَّ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ اللَّوَاتِي يُورِثْنَ أَمْوَالَ أَزْوَاجِهِنَّ أَوْلَادَ غَيْرِهِمْ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى امْرَأَةٍ أَدْخَلَتْ عَلَى قَوْمٍ فِي نِسْبِهِمْ مِنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، فَاطَّلَعَ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ وَأَكَلَ خَزَائِنَهُمْ.

قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِمَلَائِكَةٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهُمْ كَيْفَ شَاءَ، وَوَضَعَ وَجُوهَهُمْ كَيْفَ شَاءَ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ أَطْبَاقِ أَجْسَادِهِمْ إِلَّا وَهُوَ يُسَبِّحُ اللَّهَ وَيُحَمِّدُهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِأَصْوَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، أَصْوَاتِهِمْ مَرْتَفَعَةٌ بِالتَّحْمِيدِ وَالْبِكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، فَسَأَلْتُ جَبْرِئِيلَ عَنْهُمْ، فَقَالَ: كَمَا تَرَى خَلْقُوا، إِنَّ الْمَلَكَ مِنْهُمْ إِلَى جَنْبِ صَاحِبِهِ مَا كَلَّمَهُ قَطُّ، وَمَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ إِلَى مَا فَوْقَهَا، وَلَا خَفَضُوهَا إِلَى مَا تَحْتَهَا خَوْفًا مِنْ اللَّهِ وَخُشُوعًا، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيَّ إِيْمَاءً بَرُّوهُمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَيَّ مِنَ الْخُشُوعِ. فَقَالَ لَهُمْ جَبْرِئِيلُ، هَذَا مُحَمَّدٌ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى عِبَادِهِ رَسُولًا نَبِيًّا، وَهُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدُهُمْ، أَفَلَا تَكَلِّمُونَهُ [قَالَ:] فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ جَبْرِئِيلَ أَقْبَلُوا عَلَيَّ بِالسَّلَامِ، وَأَكْرَمُونِي، وَبَشَّرُونِي بِالْخَيْرِ لِي وَلَا تُنْتِي.

قَالَ: ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَإِذَا فِيهَا رَجُلَانِ مُتَشَابِهَانِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَانِ يَا جَبْرِئِيلُ؟ قَالَ: أَبْنَا الْخَالَةِ يَحْيَى وَعِيسَى، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَا عَلَيَّ، وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُمَا وَاسْتَغْفَرَا لِي، وَقَالَا: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَإِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ [مِثْلُ مَا فِي السَّمَاءِ الْأُولَى] وَعَلَيْهِمُ الْخُشُوعُ، وَقَدْ

١. الْمِشْفَرُ لِلْبَعِيرِ بِمَنَْابَةِ الشَّفَةِ لِلنَّاسَانِ.

وضع الله وجوههم كيف شاء، ليس منهم مَلَكٌ إلا يسبح الله ويحمده بأصواتٍ مختلفة.

ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ [فَضَّلَ حُسَيْنَهُ عَلَى سَائِرِ الْخَلْقِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا أَخُوكَ يُوسُفُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ، وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي. وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَالْمَبْعُوثِ فِي الزَّمَانِ الصَّالِحِ. وَإِذَا فِيهَا مَلَائِكَةٌ [عَلَيْهِمْ] مِنَ الْخَشُوعِ مِثْلَ مَا وَصَفْتُ فِي السَّمَاءِ الْأُولَى وَالسَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَقَالَ لَهُ جَبْرِئِيلُ فِي أَمْرِي مَا قَالَ لِلْآخَرِينَ، وَصَنَعُوا مِثْلَ مَا صَنَعَ الْآخَرُونَ.

ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، وَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ رَفَعَهُ اللَّهُ مَكَانًا عَلِيًّا، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ، وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَإِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْخَشُوعِ مِثْلَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ، فَبَشَّرُونِي بِالْخَيْرِ لِي وَلِأُمَّتِي.

ثُمَّ رَأَيْتُ مَلَكًا جَالِسًا عَلَى سُرِيرٍ تَحْتَ يَدَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ أَلْفٍ^١ مَلَكٌ، تَحْتَ كُلِّ مَلَكٍ سَبْعُونَ أَلْفَ أَلْفٍ^٢ مَلَكٌ، فَوَقَّعَ فِي قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ هُوَ، فَصَاحَ بِهِ جَبْرِئِيلُ، فَقَالَ: قُمْ، فَهُوَ قَانِمٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ كَهْلُ عَظِيمِ الْعَيْنِ لَمْ أَرْ كَهْلًا أَكْهَلَ^٣ مِنْهُ، حَوْلُهُ ثَلَاثَةُ أَلْفٍ^٤ مَلَكٌ، فَأَعْجَبَنِي كَثْرَتُهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا الْمَجِيبُ لِقَوْمِهِ^٥ هَارُونَ بْنُ عِمرَانَ. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ، وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَإِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْخَشُوعِ مِثْلَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ.

ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، وَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ أَدَمُ كَأَنَّهُ مِنْ شَعْرِهِ لَوْ^٥ أَنَّ عَلَيْهِ قِمِيصِينَ لَنَفَذَ شَعْرَهُ فِيهِمَا، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: زَعَمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنِّي أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى اللَّهِ، وَهَذَا رَجُلٌ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنِّي. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: [هَذَا] أَخُوكَ مُوسَى بْنُ عِمرَانَ. فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ، وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي، وَإِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْخَشُوعِ مِثْلَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ.

ثُمَّ صَعِدْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَمَا مَرَرْتُ بِمَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، احْتَجِمْ وَأْمُرْ أَتَنَكَ بِالْحِجَامَةِ، وَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ أَشْمَطُ^٦ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِئِيلُ، مَنْ هَذَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ فِي جِوَارِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَبُوكَ إِبْرَاهِيمُ،

١. وفي المصدر: سبعون ألف.

٢. وفي المصدر: أعظم.

٣. وفي المصدر: المحبب في قومه.

٤. وفي المصدر: آدم طویل عليه سمره ولولا.

٥. الشَّطَط: بياض يخالطه سواد في الشعر.

٦. الشَّطَط: بياض يخالطه سواد في الشعر.

وهذا محلّك ومحلّ من أتى من أمّك، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^١ فسلمت عليه وسلم عليّ، وقال: مرحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح، والمبعوث في الزمن الصالح. وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات، فبشروني بالخير لي ولأمّتي.

قال رسول الله ﷺ: ورأيت في السماء السابعة بحاراً من نور تتلأأ يكاد تلتأؤها يخطف بالأبصار، وفيها بحارٌ مظلمةٌ وبحارٌ تلج ترعد^٢، فلما فرغت ورأيت هؤلاء سألت جبرئيل، فقال: أبشر يا محمد، واشكر كرامة ربك، واشكر الله ما صنع إليك [قال: ففتبّني الله بقوّته وعونه حتى كثّر قولي لجبرئيل وتعجّبي، فقال جبرئيل: يا محمد أتعظم ما ترى؟ إنّما هذا خلق من خلق ربك، فكيف بالخالق الذي خلق ما ترى وما لا ترى من خلق ربك أعظم من هذا؟ إنّ بين الله وبين خلقه تسعين^٣ ألف حجاب، وأقرب الخلق إلى الله أنا وإسرافيل، وبيننا وبينه أربعة [حجب: حجاب من نور، وحجاب من ظلمة، وحجاب من غمام، وحجاب من ماء.

قال: ورأيت من العجائب التي خلق الله وسخره على ما أراد ديكاً رجلاه في ثخوم الأرضين السابعة، ورأسه عند العرش، وملكاً من ملائكة الله خلقه الله كما أراد رجلاه في ثخوم الأرضين السابعة، ثم أقبل مُصعداً حتى خرج في الهواء إلى السماء السابعة، وانتهى فيها مُصعداً حتى انتهى قرنه إلى قرب العرش وهو يقول: سبحان ربي حيث ما كنت، لا تدري أين ربك من عظم شأنه، وله جناحان في منكبَيْهِ إذا نشرهما جاوزوا المشرق والمغرب، فاذا كان في السحر^٤ نشر جناحيه وخفّق بهما، وصرخ بالتسبيح، يقول: سبحان الله الملك القدّوس، سبحان الله الكبير المتعال، لا إله إلا هو الحي القيوم. فاذا قال ذلك سبّحت دُيُوك الأرض كلّها، وحفّت بأجنحتها، وأخذت بالصراخ، فاذا سكّت ذلك الديك في السماء سكّت دُيُوك الأرض كلّها، ولذلك الديك زُغب أخضر وريش أبيض كاشدّ بياضاً ما رأيته قط، وله زُغب أخضر أيضاً تحت ريشه الأبيض كاشدّ خضرة ما رأيته قط.

قال: ثم مضيت مع جبرئيل، فدخلت البيت المعمور فصلّيت فيه ركعتين ومعني أناس من أصحابي عليهم ثياب جدد، وآخرون عليهم ثياب خُلّقان^٥، فدخل أصحاب الجدد، وحسب أصحاب الخُلّقان. ثم خرجت فأتانا لي نهران: نهر يسمّى الكوثر، ونهر يسمّى الرحمة، فشربت [من] الكوثر، واغتسلت من الرحمة، ثم اتفاد إليّ حتى دخلت الجنة، فإذا على حافتيها بيوت وبيوت أزواجي، وإذا

٣. في المصدر: سبعون.

٢. في المصدر: تلج ورعد.

١. آل عمران: ٦٨/٣.

٥. الخُلّقان: جمع خلق، أي بال.

٤. زاد في المصدر: ذلك الديك.

ثُرابها كالْمِسْك، وإذا جارية تنغمس في أنهار الجنة، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ فقالت: لزيد بن حارثة فبشّرت بها حين أصبحت، وإذا بطيرها كالْبَيْخَت^١، وإذا زُمانها مثل الدّلاء العظام، وإذا شجرة لو أرسل طائر في أصلها ما دارها سبعمان^٢ سنة، وليس في الجنة منزل إلّا وفيه فَوْحٌ منها، فقلت: ماهذه يا جَبْرَيْل. فقال: هذه شجرة طُوبَى، قال الله تعالى: ﴿طُوبَى لِّهَٰمْ وَحَسُنَ مَا يَٰبِ﴾^٣.

قال رسول الله ﷺ: فلما دخلتُ الجنّة رجعت إلى نفسي فسألت جَبْرَيْل عن تلك البحار وهولها وأعاجيبها، فقال: هي سرادقات الحُجب التي احتجب الله تبارك وتعالى بها، ولولا تلك الحُجب لَهتكَ نورُ العرش كلّ شيء فيه.

فانهيت إلى سِدرة المُنتهى، فاذا الورقة منها تَطَلَّ أُمَّةٌ من الأمم، فكنت [منها] كما قال الله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾^٤ فناداني ﴿أَمَرَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^٥ وقد سبق ذلك في آخر سورة البقرة. فقال رسول الله ﷺ: يا رَبِّ، أعطيت أنبياءك فضائل فأعطني. فقال: قد أعطيتك في ما أعطيتك كلمتين من تحت عرشي: لا حول ولا قوة إلّا بالله، ولا منجى منك إلّا إليك. قال: وعلمتني الملائكة قولاً أقوله إذا أصبحت وأمست: اللهم إن ظلمي أصبح مستجيراً بعفوك، وذنبي أصبح مستجيراً بمغفرتك، وذُلِّي أصبح مستجيراً بعزّك، وفقرِي أصبح مستجيراً ببغناك، ووجهي [الفاني] البالي أصبح مستجيراً بوجهك الباقي^٦ الذي لا يفنى.

ثُمَّ سَمِعْتُ الْأَذَانَ، فإذا مَلَكٌ يُؤَذِّنُ لَمْ يَزُ في السماء قبل تلك الليلة، فقال: الله أكبر، الله أكبر، فقال: صدق عبدي، أنا أكبر. فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله، أشهد أن لا إله إلّا الله. فقال الله: صدق عبدي أنا الله لا إله غيري. فقال: أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله. فقال الله: صدق عبدي إن محمداً عبدي ورسولي. أنا بعثته وأنا اتجّبه. فقال: حيّ على الصلاة، [حيّ على الصلاة] فقال: صدق عبدي، ودعا إلى فريضتي، فمن مشى [إليها] رغباً فيها محتسباً، كانت كفارة لما مضى من ذنوبه. فقال: حيّ على الفلاح، [حيّ على الفلاح]. فقال الله: هي الصلاح والنجاح والفلاح، ثُمَّ أَمَمْتُ الملائكة في السماء كما أَمَمْتُ الأنبياء في بيت المقدس.

قال: ثُمَّ غَشِيَتْنِي صَبَابَةٌ، فخررتُ ساجداً، فناداني رَبِّي: إِنِّي قد فرضتُ على كلّ نبيّ كان قبلك خمسين صلاة، وفرضتها عليك وعلى أمتك، فقم بها أنت في أمتك فقال: رسول الله: فأنحدرت حتّى مررت بابراهيم فلم يسألني عن شيء، ثُمَّ انتهيت إلى موسى، فقال: ما صنعت يا محمداً؟ فقلت:

١. البُخْت: الإبل الحُرّاسانية.

٢. النجم: ٩/٥٣.

٣. البقرة: ٢٨٥/٢.

٤. في المصدر: الدائم.

٥. في المصدر: تسعة.

قال رَبِّي: فرضت على كل نبي كان قبلك خمسين صلاة، وفرضتها عليك وعلى أمتك. فقال: [موسى] يا محمد، إن أمتك آخر الأمم وأضعفها، وإن ربك لا يزد عليك شيئاً، وإن أمتك لا تستطيع أن تقوم بها، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. فرجعت إلى ربي فأنتهيت إلى سيدة المتهمي، فخررت ساجداً، ثم قلت: فرضت علي وعلى أمتي خمسين صلاة، ولا أطيق ذلك ولا أمتي، فخفف عني. فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع لا تطيق. فرجعت، فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: لا تطيق ارجع، وفي كل رجعة أرجع إليه آخر ساجداً حتى رجع إلى عشر صلوات، فرجعت إلى موسى وأخبرته، فقال: لا تطيق. فرجعت إلى ربي فوضع عني خمساً، فرجعت إلى موسى وأخبرته، فقال: لا تطيق. فقلت: قد استحييت من ربي، ولكن أصبر عليها. فناداني [مناد]: كما صبرت عليها فهذه الخمس بخمسين، كل صلاة بعشر، ومن هم من أمتك بحسنة يعملها فعملها كتبت له عشراً، وإن لم يعمل كتبت له واحدة، ومن هم من أمتك بسية فعملها كتبت عليه واحدة، وإن لم يعملها لم أكتب عليه [شيئاً]، فقال الصادق عليه السلام: جزي الله موسى عن هذه الأمة [خيراً] فهذا تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الآية^١.

وعن (كشف الغمة) عن النبي صلى الله عليه وآله: أنه سئل بأي لغة خاطبك ربك ليلة المعراج؟ فقال «خاطبني بلغة علي بن أبي طالب، فألهمت أن قلت: يا رب [أنت] خاطبتني أم علي؟ فقال: يا محمد^٢، أنا شيء ليس كالأشياء، ولا أقاس بالناس، ولا أوصف بالأشياء، خلقتك من نوري، وخلقك علياً من نورك، فأطلعت على سرائر قلبك، فلم أجد إلى قلبك أحب من علي بن أبي طالب، فخاطبتك بلسانه كيما يطمئن قلبك»^٣.

وعن الصادق عليه السلام: «لما أسري برسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيت المقدس حمّله جبرئيل على البراق، فأتيا بيت المقدس، وعرض عليه محاريب الأنبياء، وصلى بها، وردّه فمرّ رسول الله صلى الله عليه وآله في رجوعه بغير لقريش، وإذا لهم ماء في آية، وقد أضلوا بغيراً لهم، وكانوا يطلبونه، فشرّب رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك الماء، وأهريق باقيه.

فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله قال لقريش: إن الله تعالى قد أسرى بي إلى بيت المقدس، وأراني آثار الأنبياء ومنازلهم، وإني مررت بغير في موضع كذا وكذا، وقد أضلوا بغيراً لهم، فشرّبت من ما نهم، وأهرقت باقيه. فقال أبو جهل: قد أمكتكم الفرصة [منه]، فاسألوه كم الأساطين فيها والقناديل؟

٢. في المصدر: يا أحمد.

١. تفسير القمي ٢: ٣، تفسير الصافي ٣: ١٦٧.

٣. كشف الغمة ١: ١٠٦، تفسير الصافي ٣: ١٧٧.

فقالوا: يا محمد، إن ها هنا من دخل بيت المقدس، فصف لنا كم أساطينه وقناديله ومحاربه، فجاء جبرئيل فعلق صورة بيت المقدس تجاه وجهه، فجعل يُخبرهم بما يسألونه عنه، فلما أخبرهم قالوا: حتى تجيء العير ونسألهم عما قلت، فقال لهم رسول الله ﷺ: تصديق ذلك أن العير تطلع عليكم مع طلوع الشمس، يقدّمها جمل أوزق^١ فلما كان من الغد أقبلوا ينظرون إلى العقبة، ويقولون: هذه الشمس تطلع الساعة، فبينما هم كذلك إذ طلعت عليهم العير حين طلع القرص يقدّمها جمل أوزق، فسألوهم عما قال رسول الله ﷺ، فقالوا: لقد كان هذا ضلّ جمل لنا في موضع كذا وكذا، ووضعنا ماء فأصبحنا وقد أهرق الماء، فلم يزد لهم إلّا عتوًّا^٢.

روت العامة: أن النبي ﷺ لما رجع من ليلته قصّ القصّة على أمّ هانئ، وقال: «إني أريد أن أخرج إلى قريش وأخبرهم بذلك». فقالت: أنشدك بالله يا بن عمّ أن لا تحدث بهذا قريشاً فيكذبك من صدقك. فلما كان الغداة تعلّقت بردائه، فضرب يده على رداءه فانتزعه من يدها، وانتهى إلى نفر من قريش في الحطيم وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود، وأولئك النفر: طعيم بن عديّ، وأبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة. فقال: «إني صليت العشاء في هذا المسجد، وصليت به الغداة، وأتيت فيما بين ذلك بيت المقدس» وأخبرهم عما رأى في السماء من العجائب، وأنه لقي الأنبياء، وبلغ البيت المعمور ويدرة المنتهى^٣.

وروي أنه لما دخل المسجد الحرام، وعرف أن الناس يكذبونه، وما أحب أن يكتم ما هو دليل على قدرة الله، وعلو مقامه الباعث على اتّباعه، فعَدّ حزناً، فمرّ به أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه ﷺ، ففطن كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ قال: «نعم أسري بي الليلة». قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قال: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟! قال: «نعم». قال: رأيت أن دعوت قومك تحدثهم بما حدثتني؟ قال: «نعم». قال: يامعشر كعب بن لؤي، فانفضّت إليّ المجالس وجاءوا حتّى جلسوا إليهما، فقال: «إني أسري بي». قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس، فنشر لي الأنبياء وصليت به وكلمتهم». فقال أبو جهل كالمستهزئ: صفهم لنا. فقال ﷺ: «أما عيسى ففوق الرُّبّة^٤ دون الطويل عريض الصدر جاعد الشعر» [أي في شعره ثنيّ وتكسر] «تعلوه ضُبهة» أي [يعلو شعره شُفرة «ظاهر الدم» أي يعلوه] حُمرة «كأنما خرج من دِيّماس» أي حمام «أما موسى فضخّم آدم» أي أسمر طويل «كأنه رجال شنوءة» وهم طائفة من اليمن معروفون بالطول كثير الشعر، غائر العينين، متراكم الاسنان،

١. الأورق من الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد.

٢. أمالي الصدوق: ٧١٩/٥٣٣، تفسير الصافي ٣: ١٧٦.

٣. الرُّبّة: الوسيط القائمة.

٤. تفسير روح البيان ٥: ١٢٥.

مَتَقَلَّصَ الشَّفَتَيْنِ، خَارِجَ اللَّتَةِ، عَابَسَ. وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَأَشْبَهُ النَّاسَ بِي خَلْقًا وَخُلُقًا^١.

فَضَجَّوْا وَعَظَمُوا ذَلِكَ، وَصَارَ بَعْضُهُمْ يَصْفَقُ، وَبَعْضُهُمْ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مَتَعَجِّبًا وَمُنْكَرًا، قَالُوا: نَحْنُ نَضْرِبُ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ مُصْعَدًا شَهْرًا وَمُنْحَدَرًا شَهْرًا، أَنْزَعُمُ أَنْكَ أَتَيْتَهُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَاللَّاتُ وَالْعُزَّى لَا نَصَدَقُكَ. وَارْتَدَّ نَاشٍ مِمَّنْ كَانَ آمَنَ بِهِ، وَسَعَى رَجَالٌ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ قَدْ قَالَ ذَلِكَ فَلَقَدْ صَدَقَ. قَالُوا: أَتُصَدِّقُهُ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: إِنِّي أَصَدِّقُهُ عَلَى أَعْدٍ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنِّي أَصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ فِي غُدُوٍّ وَرَوْحَةٍ.

وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ يَعْرِفُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَقَالُوا: صِفْ لَنَا بَيْتَ الْمَقْدِسِ، كَمْ لَهُ [مِنْ] بَابٍ؟ قَالَ ﷺ: «فَكَرِهْتُ كَرْبًا شَدِيدًا لَمْ أَكْرَبْ مِثْلَهُ [قَطًّا]، لِأَنَّهُمْ سَأَلُونِي عَنْ أَشْيَاءَ لَمْ أَثْبُتْهَا، وَكُنْتُ دَخَلْتُهُ لَيْلًا وَخَرَجْتُ مِنْهُ لَيْلًا، فَقُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَى اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفَّقْتُ أَخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»، فَقَالُوا: أَمَّا النِّعَتُ فَقَدْ أَصَابَ. فَقَالُوا: مَا آيَةُ ذَلِكَ يَا مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ ﷺ: «[آيَةُ ذَلِكَ] إِنِّي مَرَرْتُ بِعِيرٍ بَنِي فُلَانٍ بِوَادِي الرُّوحَاءِ، وَهُوَ مُحَلٌّ قَرِيبٌ مِنَ الْمَدِينَةِ «قَدْ أَضَلُّوا نَاقَةَ لَهُمْ، وَانْتَهَيْتُ إِلَى رِحَالِهِمْ، وَإِذَا قَدْ حُ مَاءٌ فَشَرِبْتُ مِنْهُ، فَاسْأَلُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ». قَالُوا: فَأَخْبَرْنَا عَنْ عَيْرِنَا. قَالَ: «مَرَرْتُ بِهَا فِي التَّنْعِيمِ» وَهُوَ مُحَلٌّ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ «فَأَخْبَرَهُمْ بَعْدَ جَمَالِهَا وَأَحْوَالِهَا، وَأَنَّهَا تُقَدَّمُ مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، يَتَقَدَّمُهَا جَمَلٌ أُورَقٌ عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ» أَيُ جُوالِقَانِ^٢ «أَحَدَاهُمَا سُودَاءُ، وَالْأُخْرَى بَرْقَاءُ»^٣ فَايْتَدَرُ الْقَوْمُ الثَّنِيَّةَ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: هَذِهِ وَاللَّهِ الشَّمْسُ قَدْ أَشْرَقَتْ. فَقَالَ آخَرٌ: هَذِهِ وَاللَّهِ الْعَيْرُ قَدْ أَقْبَلَتْ، يَتَقَدَّمُهَا جَمَلٌ أُورَقٌ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدٌ، عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ، فَتَابَ الْمُرْتَدُّونَ وَأَصْرَ الْمُشْرِكُونَ، وَقَالُوا: إِنَّهُ سَاحِرٌ^٣.

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ مِعْرَاجَ النَّبِيِّ ﷺ مَرَّةً يَبْدُوهُ الْعَنْصُرِيُّ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالْأَخْبَارُ بِهِ مُتَوَاتِرَةٌ، وَإِنْ كَانَ تَفْصِيلُ خُصُوصِيَّاتِهِ وَقَضَايَاهُ مَنَقُولٌ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ، فَلَا تُشْبِهُهُ فِي أَنْ يُنْكَارَ أَصْلُهُ - كَمَا تُسَبِّحُ إِلَى عَائِشَةَ وَمَعَاوِيَةَ - كَفَرٌ وَخُرُوجٌ عَنْ رِبْقَةِ الْإِسْلَامِ، وَالتَّشْكِيكُ فِيهِ بِأَنْ صُعُودَ الْجِسْمِ الثَّقِيلِ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَسُرْعَةَ حَرَكَتِهِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ وَخَرَقَ الْأَفْلَاقَ غَيْرَ مَعْقُولٍ، إِنَّمَا نَشَأُ عَنِ الْجَهْلِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْكَامِلَةِ. وَأَمَّا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ مِنَ الْأُمُورِ الْبَعِيدَةِ عَنِ الْأَنْظَارِ فَمَطْرُوحٌ أَوْ مَوْجَهٌ بِوُجُوهِ قَرِيبَةٍ إِلَى الْإِعْتِبَارِ.

١. الجوالق: وعاءٌ من صوفٍ أو شعرٍ أو غيرهما.

٢. برقاء: لعلهُ يريدُ بِيَضَاءٍ مُشْرِقَةٍ كَالْبَرْقِ، وَفِي رُوحِ الْبَيَانِ: أَيُ فِيهَا بَيَاضٌ وَسُودٌ، أَيُ جُوالِقٍ مَخْطُوطٍ بِبَيَاضٍ.

٣. تفسير روح البیان ٥: ٢٦٦.

وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي
وَكَيْلًا * ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا [٢ و ٣]

ثم أنه تعالى بعد بيان إكرام نبيه ﷺ بإسرانه إلى السماوات، بين إكرام موسى بإسرانه إلى الطُور وإيتائه التوراة بقوله: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ المعهود - وهو التوراة - بعد إسرانه إلى الطُور، وكان من فضائل ذلك الكتاب أننا قررناه ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى﴾ ورشاداً ﴿لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إلى كلِّ حقٍّ وخيرٍ، لاحتوائه للعلوم الكثيرة والأحكام الوفيرة، وكان أهم ما فيه أننا كتبنا فيه ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ يا بني إسرائيل لأنفسكم ﴿مِّن دُونِي﴾ ومما سواي ﴿وَكَيْلًا﴾ وإلهاً تفوضون إليه الأمور، وترجعون إليه في الحوائج يا ﴿ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا﴾. ﴿مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة يوم الطوفان، وأنعمنا عليه بالنجاة حين هلاك جميع ما في الأرض من الحيوان والنبات، فإن نجاة آبائكم من أعظم النعماء عليكم؛ لأنه لو لم يكونوا لم تكونوا، فيجب أن يقابلوه بالشكر كما شكر نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ مبالغاً في أداء حقِّ النعمة، ومجدداً إلى القيام بوظائف العبودية.

رؤي أنه ﷺ كان إذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء أجاعني». وإذا شرب قال: «الحمد لله الذي سقاني، ولو شاء أظمأني» وإذا اكتسى قال: «الحمد لله الذي كساني، ولو شاء جردني». وإذا تغوط قال: «الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية، ولو شاء حبسه»^٢.

وعن الباقر ﷺ، أنه سُئِلَ ما عني بقوله في نوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾؟ فقال: «كلمات بالغ فيهن» قيل: وما هن؟ قال: «كان إذا أصبح قال: أصبحت أشهدك ما أصبحت بي من نعمة أو عافية في دين أو دنيا فأثما منك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد على ذلك، ولك الشكر كثيراً. كان يقولها إذا أصبح ثلاثاً، وإذا أمسى ثلاثاً»^٣.

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ
عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ
فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا [٤-٦]

١. في النسخة: حقه. ٢. تفسير روح البيان ٥: ١٣٦.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٤٦٣/٣٦، الكافي ٢: ٣٨٨/٣٨، تفسير الصافي ٣: ١٧٧.

ثم أنه تعالى بعد بيان أن إيتاء التوراة كان لهداية بني إسرائيل، بين عدم هدايتهم بها بقوله: ﴿وَقَضَيْنَا﴾ وحكمنا حكماً مبنوياً مرسلأ ﴿إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بكتبه ﴿فِي﴾ ذلك ﴿الْكِتَابِ﴾ المنزل على موسى ﷺ أنكم يا بني إسرائيل والله ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ بالكفر وقتل الأنبياء ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ المقدسة والبيت المقدس وحواليه ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ أولاهما: مخالفتهم، التوراة وقتل أشعياء^١، وحبس أرميا ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ وتستكبرن عن طاعة الله ﴿عُلُوًّا﴾ واستكباراً ﴿كَبِيرًا﴾ وطفيناً عظيماً ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ﴾ العقوبة على المرة السابقة من الإفسادتين، وحن^٢ حين المجازاة على ﴿أَوْلَاهُمَا بَعَثْنَا﴾ وسلطانا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لعقوبتكم على معاصيكم ﴿عِبَادًا﴾ وناساً مخلوقين ﴿لَنَا﴾ حال كونهم ﴿أُولَىٰ بِأَيْسَ﴾ وذوي بطش ﴿شَدِيدٍ﴾ فقتلوكم ونهبوا أموالكم، فلما لم يجدوا من تظاهر منكم وما ظهر من أموالكم ﴿فَجَاسُوا﴾ وفتشوا ﴿خِلَالِ الدِّيَارِ﴾ وفرج البيوت وما بين جدرها ليقتلوا من استخفى منكم، وينهبوا ما سترتم من أموالكم ﴿وَكَانَ﴾ وعد تعذيبكم ﴿وَعْدًا﴾ لا بد من كونه ﴿مَفْعُولًا﴾ ومُنْجَزاً غير مخلف.

قيل: إن المراد من العباد المبعوثين جالوت وجنوده^٣. وقيل: نُحِتَ نَصْرَ المجوسي ملك بابل، حارب بني إسرائيل وغلب عليهم وأكثر القتل فيهم، حتى قتل أربعين ألفاً من علمائهم، وأسر سبعين ألفاً منهم، وغنم أموالهم، وأحرق التوراة، وخرب المسجد، فبقوا في الذل والشدة إلى قريب من مائة سنة، فضجوا وتابوا من عصيانهم وإفسادهم وعثوهم^٤.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا﴾ وأعدنا ﴿لَكُمْ الْكَرَّةَ﴾ والدولة والغلبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بعد كونكم مغلوبين تحت سلطنتهم وسطوتهم ﴿وَأَمَدَدْنَاكُمْ﴾ وقويناكم ﴿بِأَمْوَالٍ﴾ كثيرة بعد ما نهب أموالكم ﴿وَبَيْنَينَ﴾ وأولاد بعدما شبوا ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ وعدداً مما كنتم، أو من أعدائكم.

قيل: إن كورش الهمداني غزا أهل بابل، فظهر عليهم، وسكن ديارهم، ثم تزوج امرأة من بني إسرائيل، فطلبت من زوجها أن يردها إلى أرضهم، فردهم كورش إلى بيت المقدس وقتل بُحْت نَصْرَ، وخرج بنو إسرائيل من الأسر، ورجع إليهم الملك، وصاروا إلى أحسن مما كانوا عليه^٥.

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُئُوا
وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا [٧]

١. في روح البيان ٥: ١٣٢. شعيا.

٢. في النسخة: وأحان.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٥٦.

٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٥٥، تفسير روح البيان ٥: ١٣٢.

٥. تفسير روح البيان ٥: ١٣٣.

ثم أنه تعالى بعد حكاية شدة بلانهم بعد عصيانهم، وحسن حالهم بعد توبتهم، وإنايتهم، نبه على أن نفع الإيمان والطاعة عائد إليهم، وضرر الكفر والعصيان وارد عليهم لا يتعداهم بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل في العقائد والأعمال، فقد تبين لكم أنكم ﴿أَحْسَنْتُمْ﴾ وحصلتم الخير والثواب الدنيوي والأخروي ﴿لَأَنْقِصَكُمْ﴾ واستفتحتم أبواب البركات على ذواتكم ﴿وَأِنْ أَسَأْتُمْ﴾ بالكفر والطغيان ﴿فَلَهَا﴾ ضررها من الدّل والشدة في الدنيا والعذاب في الآخرة، وفي ذكر فعل الاحسان مرتين دون الاساءة، إشارة بغلبة رحمته تعالى على غضبه ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ﴾ العقوبة على المزة ﴿الْآخِرَةِ﴾ من طغيانكم كقتل يحيى وزكريا والاجتماع لقتل عيسى، بعثنا عليكم جمعاً آخر ﴿لِيَسْتَوُوا﴾ ويغزوا ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ من شدة الحزن والكآبة فسود أو تغير ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ الأقصى ويخربوه ﴿كَمَا﴾ أن أعداءكم ﴿دَخَلُوهُ﴾ وخربوه ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عقوبة على طغيانكم الأول ﴿وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا﴾ واستولوا عليه من النفوس والأموال ﴿تَثِيرًا﴾ وإهلاكاً فظيعاً لا يوصف.

قيل: إن الذين بعثهم الله لعقوبة بني إسرائيل ططوس النصراني^١، حاصر بلادهم، وقتل نفوسهم، ونهب أموالهم، وخرب بيت المقدس^٢.

وقيل: إن هردوس ملك بابل غزا بني إسرائيل، وقال لرئيس جنده: كنت خلّفت بالهي لأن ظفّرت بأهل بيت المقدس لأقتلهم حتى تسيل دماؤهم وسط عسكري، فاقتلهم أنت. فدخل بيت المقدس، وقام في البقعة التي كانوا يقرّبون فيها القربان، فوجد فيها دماً يغلي فسألهم عنه فقالوا: دم قربان لم يُقَبَّل منا. فقال: ما صدّقتموني. فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من رؤسائهم وعلمائهم^٣ وأزواجهم، فلم يسكن الدم.

ثم قال: إن لم تُصدّقوني ما تركت منكم أحداً. فقالوا: إنه دم نبي [كان] ينهانا عن المعاصي، ويخبرنا بأمركم، فلم تُصدّقه فقتلناه، فهذا دمه. فقال: ما كان اسمه؟ قالوا: يحيى بن زكريا. قال: الآن صدّقتموني، لمثل هذا يتقم ربكم منكم.

وكان قتل يحيى بيد ملك من بني إسرائيل يقال له لا حت^٤ حمّله على قتله امرأة اسمها إربيل، وكانت قتلت سبعة من الأنبياء، وقتل يحيى كان بعد رفع عيسى، فلما رأى أنهم صدّقوا خزرجاً ساجداً، ثم قال: يا يحيى، قد علم ربّي وربك ما أصاب قومك من أجلك وما قُتل منهم، فاهدأ باذن الله قبل أن لا أبقى أحداً منهم، فهدأ فرّغ عنهم القتل، وقال: آمنت بما آمنت به بنو إسرائيل، وأيقنت أنه لا رب

٢. تفسير روح البيان: ٥: ١٣٣.

٤. في تفسير روح البيان: لا حت.

١. في روح البيان: ططوس الرومي.

٣. في تفسير روح البيان: وغلماهم.

غيره.

وقال لبني إسرائيل: إن هردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، ولست أستطيع أن أعصيه. قالوا: أفعل ما أمرت، فأمر أن يُحفر خندقاً ويذبحوا دوابهم حتى سال الدم في العسكر، فلما رأى هردوس ذلك أرسل إليه أن ارفع عنهم القتل، فسلب عنهم الملك والرئاسة، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، ثم أنصرف إلى بابل^١.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا [٨]

ثم رَغِبَهم الله تعالى في الإيمان والطاعة والأعمال الصالحة، ورَهَبَهم عن الفساد والطغيان بقوله: **«عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ»** بعد الانتقام منكم إن بقيتم على الإيمان والأعمال الصالحة، أو إن ثَبُتَ توبة أخرى وكفتم عن العصيان والطغيان **«وَإِنْ عُدتُّمْ»** مرةً ثالثة إلى ما كنتم عليه من العصيان **«عُدْنَا»** إلى الانتقام منكم بالقتل والأسر في الدنيا **«وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا»** ومَحْبَسًا، أو مَقْرًا ومهادًا في الآخرة، ولا يمكنهم الخروج منها أبدًا، وكان من حُبِّ ذاتهم أنهم بعد ما رأوا من العقوبات وسَمِعُوا من التهديد، عادوا إلى العصيان بتكذيب النبي وِكِيان علائمه وتُعوته المذكورة في التوراة والانجيل وتحريفهما، فعاد الله عليهم بالتعذيب على أيدي المسلمين، فقتلوا كثيرًا منهم، وأجلوا كثيرًا، وضرب الله على سائرهم الجزية والذلة إلى يوم القيامة.

والقَمِي قال: **«وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ»** أي أعلمناهم، ثم انقطعت مخاطبة بني إسرائيل، وخاطب الله أمة محمد فقال: **«لَتَفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ»** يعني فلاناً وفلاناً وأصحابهما، ونقضهم العهد **«وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا»** يعني ما اذعوه من الخلافة **«فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا»** يعني يوم الجمل **«بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ»** يعني أمير المؤمنين وأصحابه **«فَجَاسُوا خِلَالِ الدِّيَارِ»** أي طلبوكم وقتلوكم **«وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا»** يعني يتم ويكون **«ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَوَّةَ عَلَيْهِمْ»** يعني لبني أمية على آل محمد **«وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا»** من الحسن والحسين ابني علي عليه السلام وأصحابهما [فقتلوا الحسين بن علي] وسبوا نساء آل محمد **«فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ»** يعني القانم وأصحابه **«لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ»** يعني تسود وجوهكم **«وَلِيَذْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ»** يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وأمير المؤمنين عليه السلام **«وَلِيَسْتَبْرُوا مَا عُلِّمُوا تَنْبِيْرًا»**^٢ أي يعلو عليكم فيقتلوكم.

ثم عطف على آل محمد فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي ينصركم على عدوكم. ثم خاطب بني أمية فقال: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ يعني إن عدتم بالسفاني عُدنا بالقائم من آل محمد ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [أي] حبساً يُحصرون فيها^١.

عن (الكافي) و(العياشي) عن الصادق عليه السلام في تأويل الإفسادتين بقتل علي عليه السلام وطعن الحسن عليه السلام، والعلو الكبير بقتل الحسين عليه السلام، والعباد أولى البأس بقوم يبعثهم الله قبل خروج القائم، فلا يدعون واتراً لآل محمد إلا قتلوه، ووعد الله بخروج القائم عليه السلام والكرّة عليهم بخروج الحسين عليه السلام في سبعين من أصحابه عليهم البيض المذهب حين كان الحجة القائم^٢ بين أظهرهم^٣. وعن (العياشي): «ثم يملكهم الحسين عليه السلام حتى يقع حاجباه على عينيه»^٤.

وعنه عليه السلام: «أول من يكرّ إلى الدنيا الحسين بن علي عليه السلام [وأصحابه] ويزيد بن معاوية وأصحابه، فيقتلهم حدو القذّة^٥ بالقذّة» ثم تلاه هذه الآية^٦.

وعن الباقر عليه السلام: «أن العباد أولى بأس شديد هم القائم عليه السلام وأصحابه»^٧.

أقول: الظاهر أن المراد من الروايات تطبيق ما يقع في هذه الأمة على ما وقع في بني إسرائيل حدو النعل بالنعل، لا صرف الآية عن ظاهرها وحصر المراد منها فيما وقع بعد الرسول ﷺ.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا [٩]

ثم لما وصف الله التوراة بكونها هدى لبني إسرائيل، وصف القرآن بكونه هدى لكافة الناس إلى أحسن الأديان بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الذي أنزل إليك يا محمد ﴿يَهْدِي﴾ الناس كافة إلى يوم القيامة ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ من سائر الملل، وإلى الشريعة التي هي أسد وأتقن من سائر الشرائع بحيث لا يمكن أن تساويها ملة وشريعة في الاستقامة والاتقان.

١. تفسير القمي ٢: ١٤، تفسير الصافي ٣: ١٧٩.

٢. هذه عبارة تفسير الصافي، وفي الكافي: «المذهب لكل بيضة وجهان، المؤدّون إلى الناس أن هذا الحسين قد خرج حتى لا يشكّ المؤمنون فيه، وأنه ليس بدجال ولا شيطان والحجة القائم...» وفي تفسير العياشي نحوه.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٤٦٤/٣٧، الكافي ٨: ٢٥٠/٢٠٦، تفسير الصافي ٣: ١٧٩.

٤. تفسير العياشي ٣: ٢٤٦٤/٣٧، تفسير الصافي ٣: ١٧٩.

٥. القذّة: ريشة الطائر بعد تسويتها وإعادها لتزكّب في الشّهم، والقول يُضرب مثلاً للشّيشين يستويان ولا يتفاوتان.

٦. تفسير العياشي ٣: ٢٤٦٧/٣٩، تفسير الصافي ٣: ١٧٩.

٧. تفسير العياشي ٣: ٢٤٦٥/٣٨، تفسير الصافي ٣: ١٧٩.

وعن الصادق: «يدعو إلى الإمام»^١.

وعن الباقر عليه السلام: «يهدي إلى الولاية»^٢.

وعن السجاد عليه السلام: «الإمام منا لا يكون إلا معصوماً، وليست العصمة في ظاهر الخلقة [فيُعرف بها]، ولذلك لا يكون إلا منصوفاً» فقليل: ما معنى العصمة؟ قال: هو الاعتصام^٣ بحبل الله، وحبل الله هو القرآن، والقرآن يهدي إلى الإمام، وذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^٤. ثم أخبر سبحانه بأنهم النفع الذي يكون للعمل بالشرعية الأقوم بقوله: ﴿وَيُبَشِّرْ﴾ هذا القرآن ﴿الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ﴾ آمنوا به و﴿يَعْمَلُونَ﴾ بما فيه من الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ من أداء الواجبات وترك المحرمات ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وثواباً عظيماً.

وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا [١٠ و ١١]

ثم أخبر سبحانه بأعظم الضرر على مخالفته بقوله: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ كأغلب المشركين واليهود على ما قيل من أنهم منكرون للمعاد الجسماني^٥ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيناً ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة، وجعل الإخبار بالعذاب من البشارة إما من باب التهكم، أو الازدواج، أو لأن تعذيب أعداء المؤمنين مما تُسر به قلوبهم.

ثم ذم سبحانه من لا يعرف قدر القرآن وعظمة هذه النعمة بكونه غير مميز بين الخير والشر بقوله: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ﴾ لنفسه ﴿بِالشَّرِّ﴾ ويبالغ في طلبه بلسانه باعتقاد أنه خيرُه وصلاحه، أو يطلب الأعمال السيئة المفضية إلى الشر بنحو يشابه ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ لغاية جهله وعدم تميزه نفعه عن ضرره، وما يصلحه عما يفسده، وكون نظرة إلى العاجل ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ جنسه بالطبع ﴿عَجُولًا﴾ ومسارعاً في الأمور بلا تأمل فيها وتدبيرٍ في عواقبها.

عن الصادق عليه السلام: «واعرف طريق نجاتك وهلاكك، كيلا تدعو الله بشيء عسى أن يكون فيه هلاكك وأنت تظن أن فيه نجاتك، قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ﴾ الآية»^٦.

قيل: إن المراد بالإنسان الداعي بالشرّ النَّصْر بن الحارث القائل: اللهم إن كان هذا هو الحق من

١. الكافي ١: ٢/١٦٩، تفسير الصافي ٣: ١٨٠. ٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤٦٩/٣٩، تفسير الصافي ٣: ١٨٠.

٣. في معاني الأخبار: فقليل له: يا ابن رسول الله، فما معنى المعصوم؟ فقال: «هو المعتصم...».

٤. معاني الأخبار: ١/١٣٢، تفسير الصافي ٣: ١٨٠. ٥. تفسير الرازي ٢٠: ١٦٢.

٦. مصباح الشريعة: ١٣٢، تفسير الصافي ٣: ١٨١.

٣٠ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

عندك فأمطر علينا ججارة، فُضِرَت عتقه بدعائه، والقائلون لرسول الله ﷺ: آتنا بعذاب الله، أو متى هذا الوعد إن كنت من الصادقين؟^١

وقيل: هو الذي يلعن نفسه وأهله وولده عند الغضب.^٢

وروت العامة أن النبي ﷺ دفع إلى سودة بنت زمعة أسيراً، فأقبل يش بالليل، فقالت له سودة: مالك تن؟ فشكا ألم القيد، فأرخت له من كفاه، فلما نامت أخرج يده وهرب، فلما أصبح النبي ﷺ دعا به، فأعلم بشأه، فقال: «اللهم اقطع يدها»، فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله يدها بدعائه ﷺ، فقال النبي: «إني سألت الله أن يجعل دعائي على من لا يستحق عذاباً من أهلي رحمةً، لأنني بشر أغضب كما تغضبون، فلترد سودة يدها»^٣. هذا ما رواه بعض المفسرين، وفيه ما لا يخفى من منافاته لغاية جلمه وعصمته.

وقيل: إن المراد بالإنسان العجول هو آدم^٤. روى بعض العامة أنه لما انتهت الروح إلى شرة آدم، نظر إلى جسده فأعجبه، فذهب لينفض فلم يقدر، فهو قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^٥. وعن الصادق عليه السلام: «قال: لما خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه، وتب ليقوم قبل أن يستتم خلقه فسقط، فقال الله عز وجل: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾»^٦.

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا
فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُنَا

تَفْصِيلُ [١٢]

ثم لما مدح الله التوراة والقرآن بكونهما هُديَّ شبيهما في تعاقبهما وأفضلية القرآن على التوراة وأنفعيته منها، وكونه ناسخاً لها بالليل والنهار، بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ بسبب تعاقبهما واختلافهما طولاً وقصرًا ﴿آيَتَيْنِ﴾ ودليلين على وجود الصانع القادر الحكيم للعالم، يهدي المتأمل فيهما إلى معارف الله وكمال قدرته وحكمته، فكأنه سبحانه قال: جعلنا التوراة والقرآن آيتين على الحق والصواب، ثم نسخنا التوراة بالقرآن الذي هو أفضل وأنفع، كما جعلنا الليل والنهار آيتين على وجود الصانع الواحد القديم ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ وأذهبنا بضوء النهار، كما نسخنا التوراة بنزول القرآن الذي هو كضوء النهار ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ومضيئة يرى بضونها كل شيء.

٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٠: ١٦٣.

١- ٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٦٢.

٦. تفسير العياشي ٣: ٢٤٧١/٤٠، تفسير الصافي ٣: ١٨١.

﴿لَتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا في ضونها ﴿فَضْلًا﴾ ورزقاً مقدراً ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بمقتضى ربوبيته لكم ﴿وَلَتَعْلَمُوا﴾ بتعاقبهما ﴿عَدَدَ السَّيِّئِينَ﴾ المتوقف عليه صلاحكم ﴿وَالْحِسَابَ﴾ الراجع إلى الدقائق والساعات والأيام والشهور، كما جعل القرآن مبصراً، يرى بنوره كل ما تحتاجون إليه من مصالح الدين والدنيا، لتبتغوا فضلاً كثيراً من ربكم في الدنيا والآخرة ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ مما تحتاجون إليه في المعاش والمعاد ﴿فَضْلَةً﴾ ويبتاه في القرآن ﴿تَفْصِيلاً﴾ وأضحاً وتبييناً بليغاً وافياً.

وقيل: إن وجه النظم أن هذا القرآن سبب هداية جميع الناس إلى أحسن الأديان، وكان التوحيد من أهم العقائد، شرع في الاستدلال عليه بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ﴾.

وقيل: إن الوجه أنه تعالى بعد ذكر مته على الخلق بإعطائهم نعمة القرآن الذي هو أتم النعم الدينية، ذكر مته عليهم بإعطائهم النعمة العظيمة الدنيوية، وهي اختلاف الليل والنهار، لتشابه النعمتين، أو أن القرآن كما هو مركب من المحكم والمشابه، كذلك الدهر مركب من الليل والنهار، فالمشابه هو الليل، والمحكم هو النهار، وكما أن الغرض من التكليف لا يتم إلا بوجود المحكم والمشابه، كذلك الانتفاع بالوقت والزمان لا يكتمل إلا بوجود الليل والنهار^١.

وقيل: إن المراد بآية الليل القمر، وبآية النهار الشمس، ومحو القمر انتقاصه قليلاً قليلاً إلى المحاق^٢.

وقيل: محوه: الكلف الذي يظهر في وجهه^٣. روت العامة أن الشمس والقمر كانا سواء في النور والضوء، فأرسل الله جبرئيل فأمر جناحه على وجه القمر، فطمس عنه الضوء^٤. وعن أمير المؤمنين عليه السلام في (النهج): «أجعل شمسها آية مبصرة لنهارها، وقمرها آية منخوة من ليْلِها، وأجراهما وقدر مسيرهما في تدرج مدرجهما^٥، لتمييز بين الليل والنهار بهما، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما»^٦.

وفي (العلل) عن النبي صلى الله عليه وآله أنه سئل: ما بال الشمس والقمر لا يستويان في الضوء والنور؟ قال: «لما خلقهما الله عز وجل أطاعا ولم يعصيا شيئاً، فأمر الله جبرئيل أن يمحو ضوء القمر، فمحاه فأثر المحو في القمر خطوطاً سوداء، ولو أن القمر ترك على حاله بمنزلة الشمس ولم يمحَ، لما عُرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل، ولا عِلِم الصائم كم يصوم، ولا عُرف الناس عدد السنين، وذلك

٢ - ٤: تفسير الرازي ٢٠: ١٦٤.

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٦٣.

٥. في المصدر: وأجراهما في منافل مجراهما، وقدر سيرهما في مدارج درجهما.

٦. نهج البلاغة: ١٢٨ - الخطبة ٩١، تفسير الصافي ٣: ١٨١.

قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ الآية^١.

وعن (الاحتجاج): قال ابن الكواء لأمر المؤمنين عليهم السلام: أخبرني عن المحو الذي يكون في القمر. فقال: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، رجل أعمى يسأل عن مسألة عمياء! أما سمعت الله يقول: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾»^٢.
وعن الصادق عليه السلام: «لما خلق الله القمر كتب عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي أمير المؤمنين، وهو السواد الذي ترونه»^٣.

وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا
* أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [١٣ و ١٤]

ثم وصف الله القرآن بكونه هادياً للملّة الأقوم، ونهاراً مبصراً ومفضلاً لكل شيء، ومتمماً للحجة، هدّد المخالفين له بقوله: ﴿وَكُلُّ﴾ فرد من أفراد ﴿إِنْسَانٍ﴾ مكلف من العرب والعجم والأسود والأحمر ﴿أَلْزَمْنَاهُ﴾ وقلّدناه ﴿طَائِرَةً﴾ وعمله، خيراً أو شراً ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ فإن كان خيراً يكون له زينة، وإن كان شراً كان غلاً وشيناً على رقبته.
عن الباقر عليه السلام: «خيرهُ وشرهُ معه حيث كان لا يستطيع فراقهُ»^٤.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ﴾ من قبره، أو نُظهر له من ستر الخفاء ومن مكتب الآخرة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ووقت المحاسبة ﴿كِتَابًا﴾ مسطوراً فيه عمله من الثّمر والقُطْمير بيد الرقيب والعِتيد وهو ﴿يَلْقَاهُ﴾ ويجده ﴿مَنشُورًا﴾ ومبسوطاً، وحينئذٍ يقول الله بلسان الملائكة: يا فلان ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾.
قيل: إنّ الكافر يقول: يا ربّ إنك [أقصيت أنك] لست بظلام للعبيد، فاجعلني أحاسب نفسي. فيقال له: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^٥ ومحاسباً.

وقال بعض العامة: إنّ الكتاب هي النفس التي انتفتحت فيها الأحوال والأعمال الدنيوية والأخروية، فما دامت الروح مشغولة بتدبير البدن، كانت تلك الآثار مخفية عنها، فكانه كان ذلك الكتاب مطوياً، فبعد انقطاع علاقة الروح من الجسد، وقيامها من مكانها، وصعودها إلى العالم العلوي، تشاهد القوة العاقلة تلك الآثار المكتوبة بالكتابة الذاتية في جوهر الروح والنفس، فكان الكتاب صار منشوراً بعد ما كان مطوياً، فقال للانسان في تلك الحالة: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾^٦.

١. علل الشرائع: ٣٣/٤٧٠، تفسير الصافي ٣: ١٨١.
٢. الاحتجاج: ١٥٨، تفسير الصافي ٣: ١٨١.
٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٦٩.
٤. تفسير الرازي ٢٠: ١٧٠.
٥. تفسير الصافي ٣: ١٨١.
٦. تفسير الرازي ٢٠: ١٧٠.

أقول: لا مجال للشك في ما دلّت عليه الآيات والروايات من وجود كتاب مكتوب فيه الأعمال يؤتى كل نفس من المؤمن والفاسق يوم القيامة بيمينها أو شمالها، ويقول: ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا منافاة بينها وبين وجود الكتاب النفساني الذي ذكر، فيجب الالتزام بظاهر الآية وتفسيرها بما كتبه المَلَكَان.

عن الصادق عليه السلام، في هذه الآية، قال: «يُذَكَّرُ الْعَبْدُ جَمِيعَ مَا عَمِلَ وَكُتِبَ عَلَيْهِ حَتَّى كَأَنَّهُ فَعَلَهُ تِلْكَ السَّاعَةَ، فَلَذَلِكَ قَالُوا: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ﴾ الْآيَةُ»^١.

مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا [١٥]

ثم أنه تعالى بعد بيان عدم انفكاك الانسان عن عمله، بيّن اختصاص نتائج تعامله بقوله: «مَنْ أَهْتَدَىٰ» إلى الحق والصواب بهداية القرآن وعَمِلَ بما فيه «فَإِنَّمَا يَهْتَدِي» ويكون نفع هدايته وعمله «لِنَفْسِهِ» وعائد إلى شخصه لا يتعدى إلى غيره «وَمَنْ ضَلَّ» عن الحق وانحرف عن طريق الصواب، ولم يؤمن بالقرآن، ولم يعمل بأحكامه «فَإِنَّمَا يَضِلُّ» وضرر ضلاله «عَلَيْهَا» وتبعاته راجعة إليها ! تتجاوز إلى غيرها، ثم قرر ذلك بقوله: «وَلَا تَزِرُ» ولا تحمِلُ نفس «وَازِرَةٌ» وحاملة للوزر والثقل أو للإثم «وِزْرَ» نفس «أُخْرَىٰ» وإثما كي تتخلص النفس الأخرى من الإثم، أو يخفّف عنها، وحاصل المراد عدم مواخذة أحد بذنب غيره.

ثم أنه تعالى بعد نفي الظلم عن نفسه بأحد بذنب غيره، أثبت لنفسه اللطف بعباده بقوله: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ» أحداً من الناس، وما صحّ لنا بمقتضى اللطف عقوبة أحدٍ منهم «حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا» من البشر يُبَلِّغُهُمْ أَحْكَامَنَا وَيَبَيِّنَ لَهُمْ تَكَالِيفَنَا.

واعلم أن هذا التفسير مبني على القول بصحة العقوبة على مخالفة الأحكام العقلية، إلا أن مقتضى اللطف تأييدها بالأحكام الشرعية، كما ذهب إليه بعض.

وأما إذا قلنا بترتب العقوبة على مخالفة الأحكام العقلية، فلا بد إما من القول بكون المراد من الرسول في الآية مطلق البيان، سواء كان بتوسط الرسول الظاهر أو الرسول الباطن، وإنما عبر [عن] مطلق البيان ببعث الرسول لأنّ الغالب تحقّق البيان به، أو المراد من الرسول مطلقه سواء أكان عقلاً أو

١. في مجمع البيان: جميع أعماله وما كتب.

٢. تفسير العياشي ٣: ٤١/٢٤٧٧، مجمع البيان ٦: ٦٢٢، تفسير الصافي ٣: ١٨٢، والآية من سورة الكهف: ٤٩/١٨.

بشراً، أو خصوص الرسول الظاهر، وتخصيص عموم النفي بالأدلة الدالة على حُجَّة الأحكام العقلية بما إذا لم يحكم العقل بالوجوب أو الحرمة. وعلى هذه الوجوه الثلاثة يكون مدلول الآية نفي الظلم عن ذاته المقدسة، وقبح العقاب بلا بيان، فيكون دليلاً على البراءة عند الشك في التكليف وعدم وجدان الحُجَّة عليه.

وما قيل: من أن المراد بالعذاب في الآية العذاب الدنيوي، والمقصود من قاعدة البراءة نفي العذاب مطلقاً دنيوياً كان أم آخروياً، ونفي العذاب الدنيوي لا يدل على نفي العذاب الآخروي منه إلا بالفحوى، وهو ممنوع. فيه: أن قوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا﴾ دالٌّ على تنزيه ذاته المقدسة من ارتكاب هذا الفعل لقبحه وعدم لياقته بمقام حكيمته وألوهيته، ولا يتفاوت في ذلك بين كون العذاب دنيوياً أو آخروياً.

ثم لا يخفى أن نفي العذاب إلى الغاية لا يدل على وقوعه بعدها وإن لم يتحقق عصيان كما توهم، بل الظاهر أنه بيان كون البعث من شرائط صحة العذاب إذا وجد مقتضية وارتفعت موانعه من التوبة والشفاعة وأمثالهما.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ
فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا [١٦ و ١٧]

ثم بين الله أن العذاب الدنيوي لا يكون إلا بعد كمال الاستحقاق بالطغيان بقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا﴾ وعزما على ﴿أَنْ نُهْلِكَ﴾ ونعدم ﴿قَرْيَةً﴾ من القرى ونعذب أهلها بعذاب الاستئصال، لخبث ذاتهم وسوء أخلاقهم ﴿أَمَرْنَا﴾ بتوسط الرسول ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ وجبابرتها والمتنعمين من أهلها ورؤوسها المتبعية فيهم بالطاعة والتسليم لأحكامنا.

وقيل: إن المراد أكثرنا مترفيها وفساقها وطغاتها^١، أو المراد: إذا أردنا أن نهلك قرية بسبب عصيان أهلها، لا تعاجلهم بالعقوبة، بل أمرناهم بالرجوع عن العصيان والتوبة عن السيئات^٢، أو المراد من الأمر تسبب أسباب الفسق من توفير النعم وتهئية المرغبات إلى العصيان وما يفضيهم إليه^٣.

﴿فَفَسَقُوا﴾ وتمرّدوا وخرجوا عن طاعتنا ﴿فِيهَا﴾ وتبعهم سائر أهلها ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ وثبت

٢. تفسير الرازي ٢٠: ١٧٦.

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٧٥.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٧٥، ١٧٦.

عليهم كلمة العذاب بسبب كمال استحقاقهم له ﴿فَدَمَّرْنَاَهَا﴾ وأفنيها أهلها ودورها، ومحونا آثارها بالعذاب ﴿تَذْمِيرًا﴾ وفناء عجيباً بديعاً.

ثم بين سبحانه أن عادته من أول الخلقة أخذ المتمردين بالعذاب بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً ما عذبنا ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ والأمم المتمردة ﴿مِن بَعْدِ﴾ عصر ﴿نُوحٍ﴾ وإهلاك أمته بالطوفان كعاد وثمود وقوم لوط وأضرابهم، وإنما خص إكثار العذاب بمن بعد نوح؛ لأنه أول نبي بالغ قومه في تكذيبه. ثم أنه تعالى بعد إظهار قدرته على التعذيب، بين كمال علمه بالمعاصي الباطنية والظاهرية بقوله: ﴿وَكَفَى﴾ يا محمد ﴿بِرَبِّكَ﴾ اللطيف بك ﴿يَذُنُّوبِ عِبَادِهِ﴾ الخفية والجلية والباطنية والظاهرية ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فيعاقب عليها، فليحذر مكذبوك من المشركين وأهل الكتاب من أن يتبتلوا بمثل ما ابتلي به الأمم الماضية المهلكة بتكذيبهم الرسل.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا [١٨-٢١]

ثم لما هدّد الله الكفار بالعذاب، وكان كثير منهم متنعّمين في الدنيا مستدلين بتنعمهم على كرامتهم على الله، ردّهم سبحانه بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ النعم ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ واللذات الدنيوية السريعة الزوال بأعماله الحسنة كإعانة الضعفاء وإغاثة الملهوفين ونظائرهما ﴿عَجَلْنَا لَهُ﴾ في إعطاء النعم الدنيوية، وأسرعنا ﴿فِيهَا﴾ ولكن لا نعطى الكلّ للكل، بل نعطى ﴿مَا نَشَاءُ﴾ إعطاءه منها ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أن نعطيه منها، فلا يفوز كلّهم بكلّ مطالبهم، بل كثير منهم محرومون عن الدنيا، فمن فاز منهم بها أخذناها منه سريعاً ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ بدل النعم التي عجلناها ﴿لَهُ جَهَنَّمَ﴾ وفنون العذاب الذي فيها. ثم إن كان أشدّ العذاب هو الآلام المقرونة بالذلّ والبعد، بين غاية ذلّ الكافر المتنعّم المتكبّر وبُعده بقوله: ﴿يَصْلَاهَا﴾ ذلك المتّزف المتكبّر، ويدخلها حال كونه ﴿مَذْمُومًا﴾ ومهاناً باللوم و﴿مَدْحُورًا﴾ ومطروداً من ساحة رحمة الله.

ثم قيل: إن هذه الآية تقرير لقوله: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾^١ والمقصود أن من يريد

بعمله الدنيا والرياسة ويستتكف من طاعة الأنبياء تكبراً وخوفاً من زوال رناسته، جعل طائرته شوماً سائقاً له إلى أشد العذاب ﴿وَمَنْ أَرَادَ﴾ بعمله ﴿الْآخِرَةَ﴾ وثوابها الدائم ﴿وَسَعَى لَهَا﴾ في مدة عمره ﴿سَعْيَهَا﴾ الانتق بها، واجتهد في الأعمال المفيدة فيها من أداء الواجبات الإلهية وترك المحرمات الإسلامية بنية التقرب إلى الله ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسوله إيماناً لا شرك معه ولا تكذيب ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المؤمنون العاملون المخلصون ﴿كَانَ سَعْيُهُمْ﴾ وجُهدهم في طاعة الله ﴿مَشْكُوراً﴾ ومثاباً عليه عند الله. عن النبي ﷺ: «من أراد الآخرة فليترك زينة الحياة الدنيا»^١.

﴿كُلًّا﴾ من الفريقين: المريدين للدنيا، والمريدين للآخرة ﴿ثُمَّدُّهُمْ﴾ هم ونزیدهم من النعم سواء ﴿هُؤُلَاءِ﴾ المَعَجَلُ لهم ﴿وَهُؤُلَاءِ﴾ المشكورون سعيهم، ونوسع في أرزاقهم ونكثر أموالهم وأولادهم بالقدر الذي يقتضيه الصلاح، وإنما يكون ذلك الامداد والزيادة ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ وفضله الذي لا تناهي له حسب ما اقتضته الحكمة البالغة ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ﴾ وتفضله على عباده بالنعيم الدنيوية والأخروية ﴿مَحْظُوراً﴾ وممنوعاً عن أحدٍ من قبله، وإنما يمنع العطاء النعم الأخروية عن أنفسهم بعصيانهم وسوء اختيارهم.

﴿أَنْظُرْ﴾ يا محمد، أو أيها الناظر بنظر الاعتبار الى الفريقين، إنا ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في الأمداد والعطايا الدنيوية، فترى مؤمناً مؤسراً ومؤمناً مُعْسِراً، ومؤمناً مالكاً ومؤمناً مملوكاً، وكذلك الكفار، فاذا كان مراتب التفاضل في متاع الدنيا وحُظوظها بهذه الكثرة التي تكون فوق حد الإحصاء، وتفاوت درجات الخلق فيه أكثر من أن تدري، فكيف بدرجات الآخرة؟ ﴿وَوَاللهَ﴾ ﴿لِلْآخِرَةِ﴾ ونعمها وحُظوظها ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ من الدنيا ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ وأعظم تفاوتاً، فإن نسبة عظم درجاتها وكثرة تفاضلها وتفاوتها إلى درجات الدنيا والتفاضل فيها، كنسبة الدنيا والآخرة، فمن كان راغباً في فضيلة الدنيا وعلو الدرجة فيها، فلتكن رغبته في تحصيل فضيلة الآخرة وعلو الدرجة أزيد وأكثر.

روي أن ما بين أعلى درجات الجنة وأسفلها مثل ما بين السماء والأرض^٢. وعن الصادق عليه السلام: «لا تقولن الجنة واحدة، إن الله يقول: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾^٣ ولا تقولن درجة واحدة، إن الله يقول: (درجات بعضها فوق بعض) إنما تفاضل القوم بالأعمال». قبل له: إن المؤمنين يدخلان الجنة، فيكون أحدهما أرفع مكاناً من الآخر، فيشتهي أن يلتقي

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٧٨.

٢. روضة الواعظين: ٤٣٤، تفسير الصافي ٣: ١٨٣.

٣. الرحمن: ٥٥/٦٢.

٣. مجمع البيان ٦: ٦٢٨، تفسير الصافي ٣: ١٨٤.

صاحبه؟ قال: «من كان فوقه فله أن يهبط، و[من] كان تحته لم يكن له أن يصعد؛ لأنه لم يبلغ ذلك المكان، ولكنهم إذا أحبوا ذلك واستهوهو التقوا على الأسرة»^١.

وعن النبي ﷺ: «إنما يرتفع العباد غداً في الدرجات، وينالون الزُلْفَى من ربهم على قدر عقولهم»^٢.

وعن ابن عباس: يرفع درجة العالم فوق المؤمن بسبعمان درجة بين كل درجتين، كما بين السماء والأرض^٣.

وعن النبي ﷺ: «أن في الجنة مدينة من نور، لم ينظر إليها ملك مقرب ولا نبي مرسل، جميع ما فيها من القصور والغرف والأزواج والخدم من النور، أعدّها الله للعالمين، فإذا ميز الله أهل الجنة من أهل النار، ميز أهل العقل فجعلهم في تلك المدينة، فيجزى كل قوم على قدر عقولهم، فيتفاوتون في الدرجات، كما بين المشارق والمغارب بألف ضعف»^٤.

وعنه ﷺ: «أن في الجنة درجة لا ينالها إلا أصحاب الهموم»^٥.

وعنه ﷺ: «أن في الجنة درجة لا ينالها إلا ثلاثة أقسام: عادل، وذو رَجَم واصل، وذو عيال صبور» فقال [عليه السلام]: «ما صبر ذي العيال؟» قال: «لا يَمُرَّ على أهله ما يُنْفِق عليهم»^٦.

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا [٢٢]

ثم لما بين الله سبحانه أن شرط فائدة الأعمال في الآخرة هو الإيمان، بين أن أهم ما يجب الإيمان به التوحيد بقوله مخاطباً لنبية ﷺ لاظهار غاية الاهتمام به: ﴿لَا تَجْعَلْ﴾ ولا تَخْتَر يا محمد بهوى نفسك، أو لا تعتقد أن ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ الواجب الوجود ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ مشاركاً في الألوهية والعبادة ﴿فَتَقْعُدَ﴾ وتصير، أو تمكث في العالم، أو في جهنم حال كونك ﴿مَذْمُومًا﴾ وملاماً عند العارفين بالله من العقلاء والمؤمنين والأنبياء والملائكة ﴿وَمَخْذُولًا﴾ عند الله، ممنوعاً عنك أطافه، فلا ينضرك أحدٌ بدفع العذاب عنك، وإنما عبّر سبحانه عن الصيرورة أو المكث بالقعود؛ لأن فيه معنى الذل والهوان والعجز، أو لأن من شأن المذموم المخذول أن يقعد في ناحية متفكراً نادماً على ما فرط، أو لأن من لا يقدر على طلب خير يقعد أيساً منه.

٢. تفسير الصافي ٣: ١٨٤.

١. تفسير العياشي ٣: ٦١/١٥٥، تفسير الصافي ٣: ١٨٤.

٤. تفسير روح البيان ٥: ١٤٥.

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٤٥.

٦. تفسير روح البيان ٥: ١٤٦.

٥. تفسير روح البيان ٥: ١٤٦.

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا *
وَاخْضَعْ لَهُمَا طَبَّاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرِّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي
صَغِيرًا [٢٣ و ٢٤]

ثمَّ أنه تعالى بعد النهي عن اعتقاد ألوهية غيره، أمر بتخصيص العبادة به بقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وحكم حكماً بتيّاً ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أيها الناس شيئاً ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ لاختصاص استحقاق العبادة به ذاتاً ونعمة ﴿وَقُلْ﴾ بأن تحسِنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ كاملاً لكونهما بعد الله سبحانه أعظم إحساناً إليكم، وأكثر حقاً عليكم، حيث إنهما من مبادئ وجودكم، ومتكفل تربيتكم وحفظكم ومعاشكم بلا توقع عوض منكم.

ثمَّ أنه تعالى بعد الأمر بالاحسان إليهما، نهى عن الإساءة إليهما بقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ وإن يصلن ﴿عِندَكَ﴾ وفي كفك وكفالك ﴿الْكِبَرَ﴾ في السنِّ والضعف في القوى الموجبين لضيق صدرهما وثقل مؤنتهما وكثرة زحمتهما ﴿أَحَدُهُمَا﴾ أباً أم أمناً ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ وإن أضجرك بما تستقدر منهما وتشتغل من مؤنتهما وخدمتهما ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا﴾ في حال الاجتماع، أو لأحدهما حال الانفراد ﴿أَفْ﴾ ولا تُظهِر عندهما الانضجار من نفسك.

عن الصادق (عليه السلام): «إن أضجرك فلا تقل لهما أف»^١.

وعنه (عليه السلام): «لو عَلِمَ الله شيئاً أدنى من الأف لنهى عنه، وهو من أدنى العقوق»^٢.

قيل: يعني لا تتقدَّر منهما شيئاً، كما لم يتقدَّر منك حين كنت تخرأ وتبول في جِبرهما^٣.

وقال مجاهد: يعني إذا وجدت منهما راحة تؤذيك فلا تقل لهما أف^٤.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تُضجر قلوبهما بكلمة غير ملائمة لطبعهما من ردٍّ أو تكذيب. عن

الصادق (عليه السلام): «ولا تنهرهما، إن ضرباك»^٥.

وقيل: إن المعنى لا تنههما من شيء أراداه^٦.

ثمَّ أنه تعالى بعد النهي عن استقبالهما بكلمة مؤذية لهما، أمر بأن يواجههما بالكلام الطيب بقوله:

١. تفسير العياشي ٣: ٢٤٨٣/٤٢، الكافي ٢: ١/١٢٦، تفسير الصافي ٣: ١٨٥.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤٨٢/٤٢، الكافي ٢: ٧/٢٦١، تفسير الصافي ٣: ١٨٥.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ١٨٩.

٤. تفسير العياشي ٣: ٢٤٨٣/٤٢، الكافي ٢: ١/١٢٦، تفسير الصافي ٣: ١٨٥.

٥. مجمع البيان ٦: ٣٦١، جوامع الجامع ٤: ٢٥٤، وفيهما: لا تمتنع من شيء أراداه منك.

﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وكلاماً حسناً جميلاً.

سئل [سعيد] بن المسيب عن القول الكريم فقال: «هو قول العبد المذنب للسيد الغفَّ».

وعن عطاء: هو أن تتكلم معهما، ولا ترفع عليهما صوتك، ولا تشدَّ إليهما نظرك^١.

ثم بعد الأمر بتكريمهما قولاً، أمر سبحانه بالتواضع لهما في الفعل بقوله: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ وأظهر لهما غاية التواضع ﴿مِنْ﴾ فَرُطَ ﴿الرَّحْمَةِ﴾ عليهما، والرافة بهما، لافتقارهما إليك بعد ما كنت أفقر الخلق إليهما.

عن ابن عباس: كن مع الوالدين كالعبد المذنب الذليل الضعيف للسيد الغفَّ الغليظ^٢.

قيل: ينظر إليهما بنظر المحبة [والشفقة] والترحم^٣.

وفي الحديث: «ما من ولد ينظر إلى الوالد وإلى والدته نظر رحمة إلا كان له بها حجة وعمرة». قيل:

وإن نظر في اليوم ألف مرة؟ قال: «نعم، وإن نظر في اليوم مائة ألف»^٤.

عن الصادق عليه السلام: «لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمة ورقية، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما، ولا يدريك فوق أيديهما، ولا تقدّم قدّامهما»^٥.

وعنه عليه السلام: «من العقوق أن ينظر الرجل [إلى] والديه، فيحدّ النظر إليهما»^٦.

وعن الكاظم عليه السلام: «سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وآله: ما حقّ الوالد على ولده؟ قال: لا يسميه باسمه، ولا يمشي بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسب له»^٧.

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «رغم أنفه» ثلاث مرات، قالوا: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك أبويه عند الكبر - أحدهما أو كلاهما - ولم يدخل الجنة»^٨.

ثم أضاف سبحانه إلى ما ذكر الأمر بالدعاء لهما بقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ واشتمل رحمتك الواسعة لهما في الدنيا والآخرة ﴿كَمَا﴾ رحماني و﴿رَبِّتَانِي﴾ حين كنت ﴿صَغِيرًا﴾.

رُوي أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: إن أبوي بلغا من الكبر أتني ألي منهما ما وليا نني في الصغر، فهل قضيت حقهما؟ قال: «لا، فإنهما كانا يعلان ذلك وهما يُحَبَّان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت

٢. تفسير روح البيان ٥: ١٤٧.

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٩٠.

٤. تفسير روح البيان ٥: ١٤٨.

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٤٨.

٥. تفسير العياشي ٣: ٢٤٨٣/٤٣، الكافي ٢: ١/٢٦٦، تفسير الصافي ٣: ١٨٥.

٦. الكافي ٢: ٧/٢٦١، تفسير الصافي ٣: ١٨٥.

٧. الكافي ٢: ٥/١٢٧، تفسير الصافي ٣: ١٨٥، واستسب له: عَرَضَه للسبّ، يقال: استسب لأبيه: إذا سبّ أبا غيره.

٨. جوامع الجامع: ٢٥٤، تفسير الصافي ٣: ١٨٥.

فجلب بذلك السبّ إلى أبيه.

ثريد موتهما^١.

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا *
وَأَتِذَا الْقُرْآنُ يُقْرَأُ وَآتَى الْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرُوا نَفْسَكُمْ بِغَيْرِ حَرٍّ وَلَا بِغَيْرِ إِحْسَانٍ (٢٥ و ٢٦)

ثم أنه تعالى بعد الأمر بإخلاص العبادة وعدم التضجر من الوالدين، حذر الناس من المخالفة بقوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ وضمانركم من الاخلاص في العبادة وعدمه، والتضجر من الوالدين وعدمه.

ثم رغبهم في تزكية أنفسهم بقوله: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ ومنزهين عن رذائل الأخلاق وسيئات الأعمال، تكونوا من الأوابين والراجعين إلى الله في ما فرط منكم من خطوئ غير الله في قلوبكم، أو صدور أذية قولية أو عملية منكم، والتائبين إليه من زلاتكم، واعلموا أن الله يغفر لكم ﴿فَإِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ والتائبين - كما عن الصادق عليه السلام^٢ - ﴿غَفُورًا﴾ لا يؤاخذهم بما صدر منهم من الهفوات والزلات التي لا يخلو منها البشر،

ثم أنه تعالى بعد بيان جملة من حقوق الوالدين، بين حق الأرحام وغيرهم من الناس بقوله: ﴿وَأَتِ﴾ يا محمد ﴿ذَا الْقُرْبَى﴾ وصاحب الرحم ﴿حَقَّهُ﴾ المقر من الله. قيل: هو النفقة إذا كانوا فقراء^٣. وقيل: هو المودة والزيارة وحسن العشرة والمساعدة في حوائجهم^٤.

﴿و﴾ آتِ الْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴿حَقَّهُمْ﴾ عن الصادق عليه السلام^٥: «لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَأَتِذَا الْقُرْآنُ يُقْرَأُ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا جَبْرِئِيلُ، [قَدْ] عَرَفْتَ الْمَسْكِينِ، فَمَنْ ذُو الْقُرْبَى؟ قَالَ: هُم أَقَارِبُكَ، فَدَعَا حَسَنًا وَحُسَيْنًا وَفَاطِمَةَ، فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعْطِيَكُمْ مِمَّا أَفَاءَ عَلَيَّ. قَالَ: أُعْطِيَكُمْ فَذَكَرَ»^٥.

وعن السجاد عليه السلام^٦: أنه قال لبعض الشاميين: «أما قرأت هذه الآية ﴿وَأَتِذَا الْقُرْآنُ يُقْرَأُ﴾؟» قال: نعم. قال: «فنحن أولئك الذين أمر الله نبيه ﷺ أن يعطيهم حقهم»^٦.

وعن الرضا عليه السلام - في حديث له مع المأمون - : «والآية الخامسة: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْآنُ يُقْرَأُ﴾ خصوصية خصهم الله ﷺ العزيز الجبار بها، واصطفاهم على الأمة، فلما نزلت هذه الآية على رسول

٢. تفسير العياشي ٣: ٤٤/٢٤٨٦، تفسير الصافي ٣: ١٨٦.

٤. تفسير روح البيان ٥: ١٥٠.

١. تفسير روح البيان ٥: ١٤٨.

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٥٠.

٥. تفسير العياشي ٣: ٤٥/٢٤٩٠، تفسير الصافي ٣: ١٨٧.

٦. الاحتجاج: ٣٠٧، تفسير الصافي ٣: ١٨٧.

الله قال: ادعوا لي فاطمة فدُعيت له، فقال يا فاطمة، قالت: لبيك يا رسول الله. فقال: هذه فَدَكٌ، وهي ممَّا لم يُوجَف عليه بخيل ولا ركاب، وهي لي خاصَّة دون المسلمين، فقد جعلتها لك لما أمرني الله به، فخذِها لك ولولدك^١.

وعن الكاظم عليه السلام: «أن الله تعالى لما فتح على نبيِّه ﷺ فَدَكٌ وما والاها لم يُوجَف عليه بخيل ولا ركاب، فأنزل الله على نبيِّه ﷺ ﴿وَأَتِذَا الْقَرْيَتِي حَقَّه﴾ فلم يدر رسول الله من هم، فراجع في ذلك جَبْرِئِيل، وراجع جَبْرِئِيل رَبِّه، فأوحى الله إليه: أن ادفع فَدَكٌ إلى فاطمة، فدعاها رسول الله ﷺ، فقال [لها]: يا فاطمة، إن الله أمرني أن أدفع إليك فَدَكٌ. فقالت: قد قَبِلْتُ يا رسول الله من الله ومنك^٢. وقال العلامة في (نهج الحق): روى الواقدي وغيره من نَقَلَة الأخبار وذكروه في أخبارهم الصحيحة: أن النبي ﷺ لما فتح خيبر اصطفى قُرًى من قُرَى اليهود، فنزل جَبْرِئِيل بهذه الآية ﴿وَأَتِذَا الْقَرْيَتِي حَقَّه﴾ فقال محمد ﷺ: ومن ذو القربى، وما حَقُّه؟ قال: فاطمة، فدفع^٣ إليها فَدَكٌ والعوالي، فاستغلَّتْها حتى توفِّي أبوها، فلما بويع أبو بكر منعها، فكلمته في ردِّها عليها، وقالت: إنَّها لي [وإنَّ أبي دفعهما لي] فأبى عمر دفعهما إليها، فقال أبو بكر: لا أمنعك ما دفع إليك أبوك. فأراد أن يكتب [لها] كتاباً، فاستوقفه عمر بن الخطاب، وقال: إنَّها امرأة، فطال بها بالبيَّة على عليٍّ ما ادَّعت، فأمرها بها أبو بكر، فجاءت بأمِّ أيمن وأسماء بنت عُمَيْس مع علي، فشهدوا بذلك، فكتب لها أبو بكر فبلغ ذلك عمر، فأخذ الصحيفة^٤ فمحاها، فحلفت أن لا تكلمهما، وماتت ساخطة عليهما^٥. انتهى.

ونسب السيد الأجل القاضي نور الله هذه الرواية إلى ابن مردويه^٦ وصدر الأئمة أيضاً. وعن الصادق عليه السلام - في حديث - «ثم قال جلَّ ذكره: ﴿وَأَتِذَا الْقَرْيَتِي حَقَّه﴾ وكان عليٌّ عليه السلام، وكان حَقُّه الوصية التي جُعِلَتْ له والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار النبوة^٨.

ثم أنَّه تعالى بعد الأمر ببذل المال للأقارب، نهى عن التبذير وإفساد المال وصرفه في المصارف السفهية بقوله: ﴿وَلَا تُبْذَرُ﴾ ولا تُعْصَد المال بصرفه فيما لا ينبغي ﴿تَبْذِيرًا﴾ يسيراً، فكيف بالكثير. زوي عن ابن عمر: قال رسول الله ﷺ لسعد وهو يتوضأ: «ما هذا أتسرف يا سعد؟» فقال: أو في الوضوء سرف؟ قال: «نعم، وإن كنت على نهر جارٍ^٩.

١. أنمالي الصدوق: ٨٤٣/٦١٩، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٣٣/١، تفسير الصافي ٣: ١٨٦.

٢. الكافي ١: ٤٥٦/٥، تفسير الصافي ٣: ١٨٦. ٣. في المصدر: تدفع. ٤. زاد في المصدر: ومزقها.

٥. نهج الحق: ٣٥٧. ٦. إحقاق الحق ٣: ٥٤٩.

٧. زاد في الكافي وتفسير الصافي: علم. ٨. الكافي ١: ٢٣٣/٣، تفسير الصافي ٣: ١٨٧.

٩. تفسير الرازي ٢٠: ١٩٣.

٤٢ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

وعن الصادق عليه السلام أنه قال لرجل: «اتق الله ولا تسرف ولا تنقر، وكُن بين ذلك قَوَامًا، إِنَّ التَّبَذِيرَ مِنَ الْأَسْرَافِ، قَالَ [الله]: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾»^١.

وعنه عليه السلام، أنه سُئِلَ عن هذه الآية، فقال: «مَنْ أَنْفَقَ شَيْئًا فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ فَهُوَ مَبْذَرٌ، وَمَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ مُقْتَصِدٌ»^٢.

وعنه عليه السلام، أنه سُئِلَ أفيكون تبذير في حلال؟ قال: «نعم»^٣.

وعنه عليه السلام، أنه دعا بِرُطَبٍ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ يَرْمِي بِالنُّوَى، فَقَالَ: «لَا تَفْعَلْ، إِنَّ هَذَا مِنَ التَّبَذِيرِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ»^٤.

إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ آتِبَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا [٢٧ و ٢٨]

ثُمَّ ذَمَّ سَبْحَانَهُ الْمُبْذِرِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ وَالْمُوَافِقِينَ لَهُ فِي الصِّفَةِ وَالْعَمَلِ، أَوْ أَعْوَانَهُمْ فِي إِهْلَاكِ أَنْفُسِهِمْ تَابِعِينَ لَهُمْ فِي كُفْرَانِ النِّعَةِ ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ مُبَالِغًا فِي صَرْفِ نِعَمِ اللَّهِ مِنْ عَقْلِهِ وَحَيَاتِهِ وَقَوَاهِ فِي الْمَعْصِيَةِ.

وعن مجاهد: أنه رفع رأسه إلى أَبِي قُبَيْسٍ وَقَالَ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَنْفَقَ مِثْلَ هَذَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُسْرِفِينَ، وَلَوْ أَنْفَقَ دِرْهَمًا وَاحِدًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَانَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ^٥.

ثُمَّ أَمَرَ سَبْحَانَهُ بِمُوَاجَهَةِ الْأَقَارِبِ وَالْمَسَاكِينِ بِالْبُشْرِ وَجَمِيلِ الْقَوْلِ إِذَا لَمْ يَتِمَكَّنِ الْإِنْسَانُ مِنْ مُسَاعَدَتِهِمْ بِالْمَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ وَصَرَفَتْ وَجْهَكَ ﴿عَنْهُمْ﴾ حَيَاءً مِنَ التَّصْرِيحِ بِرَدِّهِمْ بِسَبَبِ كَوْنِكَ صَفَرِ الْيَدِ عَدِيمِ الْمَالِ ﴿آتِبَاءَ رَحْمَةٍ﴾ وَطَلَبِ السَّعَةِ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ إِذَا كُنْتَ ﴿تَرْجُوهَا﴾ مِنْهُ تَعَالَى ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ وَكَلَامًا لِينًا جَمِيلًا، كَانَ تَعْدُهُمْ بِوَعْدِ يَوْعِ قُلُوبِهِمْ رَاحَةً وَسُرُورًا. رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا سُئِلَ شَيْئًا وَلَيْسَ عِنْدَهُ سَكَتَ حَيَاءً، وَأَمَرَ بِالْقَوْلِ الْجَمِيلِ لَثَلَا يَعْتَرِيهِمُ الْوَحْشَةُ بِسُكُوتِهِ^٦.

وقيل: القول الميسور الدعاء لهم باليسر^٧.

١. تفسير العياشي ٣: ٢٤٩٩/٤٧، الكافي ٣: ١٤/٥٠١، تفسير الصافي ٣: ١٨٨.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤٩٧/٤٦، تفسير الصافي ٣: ١٨٨.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٤٩٨/٤٦، تفسير الصافي ٣: ١٨٨.

٤. تفسير العياشي ٣: ٢٥٠٢/٤٧، تفسير الصافي ٣: ١٨٨.

٥. تفسير أبي السعود ٥: ١٦٨، تفسير روح البيان ٥: ١٥١.

٦. تفسير البيضاوي ١: ٥٦٩، تفسير أبي السعود ٥: ١٦٨، تفسير روح البيان ٥: ١٥١.

٥. تفسير الرازي ٢٠: ١٩٣.

روي أنه ﷺ كان لما نزلت [هذه] الآية إذا سئل ولم يكن عنده ما يعطي قال: «يرزقنا الله وإياكم من فضله»^١.

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا [٢٩]

ثم علمه الله تعالى أدب الانفاق بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ متقبضة وممسكة عن الانفاق، كأنها تكون ﴿مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ لا تتدبر على مدها وإعطاء شيء بها ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ ولا توسعها ﴿كُلَّ الْبَسْطِ﴾ وكمال السعة بحيث لا يستقر فيها شيء ﴿فَتَقْعُدَ﴾ وتمكث بين أهلك ومعارفك ﴿مَلُومًا﴾ يلومونك^٢ بسوء التدبير وإضاعة المال وإلقاء الأهل والأولاد في المحنة والمشقة و﴿مَحْسُورًا﴾ ومتقطعاً عن الحيل والتدابير في تنظيم أمورك وأمور عيالك.

عن الصادق عليه السلام: «أن رسول الله ﷺ كان لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلا أعطاه، فأرسلت إليه امرأة ابناً لها فقالت: انطلق إليه فأسأله فان قال [لك]: ليس عندنا شيء، فقل: أعطني قميصك. قال: فأخذ قميصه وأعطاه، فأدبه الله على القصد»^٣.

والقمي، قال: كان سبب نزولها أن رسول الله ﷺ كان لا يرّد أحداً يسأله شيئاً عنده، فجاءه رجل فسأله فلم يحضره شيء، فقال: «يكون إن شاء الله». فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك، فأعطاه قميصه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ نهاه الله أن يتخلل أو يسرّف ويقعد محسوراً من الثياب. فقال الصادق عليه السلام: «المحسور: الغريان»^٤.

وعنه عليه السلام - في حديث - «علم الله نبيه ﷺ كيف يُثَبِّق، وذلك أنه كان عنده أوقية من ذهب، فكره أن تبيت عنده فتصدق بها، فأصبح وليس عنده شيء، وجاءه من يسأله فلم يكن عنده ما يعطيه، فلامه السائل، واغتمّ هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه، وكان رحيماً رقيقاً، فأدب الله نبيه ﷺ بأمره فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ الآية. يقول: [إن الناس] قد يسألونك ولا يعذرونك، فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حُيرت من المال»^٥.

وعنه عليه السلام: «الإحسار: الفاقة»^٦.

١. مجمع البيان ٦: ٦٣٤، تفسير الصافي ٣: ١٨٨.

٢. في النسخة: يلامونك.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٥٠٣/٤٨، الكافي ٤: ٧/٥٥، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.

٤. تفسير القمي ٢: ١٨، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.

٥. في الكافي وتفسير الصافي: رقيقاً.

٦. الكافي ٥: ١٦٧، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.

٧. الكافي ٤: ٦/٥٥، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.

وعنه عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ في هذه الآية: الإحسار، الإقتار»^١.

وعنه عليه السلام، في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ قال: ضمَّ يده فقال: «هكذا» ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، قال: وبسط راحته وقال: «هكذا»^٢.

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا [٣٠]

ثم بين سبحانه أن مقتضى ربوبيته رعاية صلاح العباد في توسعة المعاش وتضييقه تسكيناً لقلب النبي ﷺ بقوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ» توسعة رزقه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق على من يشاء التضييق عليه على حسب اختلاف مصالح الأشخاص ونظام العالم ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ ومصالحهم ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فالتفاوت بينهم في الغنى والفقر إنما هو لاختلافهم في الأحوال والمصلحة، والله العالم بها، فلا تغتم لفقر أحد.

في الحديث القدسي: «أَنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ» وقال: «وَأِنِّي لأعلم بمصالح عبادي»^٣. وفي (نهج البلاغة): «وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ، فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا، وَقَسَمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ، فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمِيسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غِنْيِهَا وَفَقِيرِهَا»^٤.

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً

كَبِيرًا [٣١]

ثم لما بين سبحانه أن الرزق والتوسعة والتضييق فيه بتقدير الله، وكان العرب على ما قيل يقتلون أولادهم خوفاً من الفقر^٥، نهاهم عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ أيها العرب ﴿أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ ولمخافة الفقر، فإن رزقهم ليس عليكم حتى تخافوا منه، بل ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ لا غيرنا ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ﴾ لأي دأع ﴿كَانَ خِطْأً كَبِيرًا﴾ وذنباً عظيماً.

قيل: إن هَرَمَ بن حَيَّان قال لأويس: أين تأمرني أن أكون؟ فأوماً إلى الشام، فقال هَرَمَ كيف المعيشة

١. تفسير العياشي ٣: ٤٨/٢٥٠٥، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.

٢. تفسير العياشي ٣: ٤٨/٢٥٠٤، التهذيب ٧: ٢٣٦/١٠٣١، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.

٣. الكافي ٢: ٢٦٣/٨ «نحوه»، تفسير الصافي ٣: ١٨٩.

٤. نهج البلاغة: ٩١/١٣٤، تفسير الصافي ٣: ١٩٠.

٥. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩٠، تفسير روح البيان ٥: ١٥٣.

بها؟ فقال أويس: أف لهذه القلوب التي قد خالطها الشك فما تنفعها العظة.^١
 قيل: إن العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن التكسب، ولأن فقرها يُنفر أكفائها عن تزويجها، فيحتاجون إلى تزويجها بغير أكفائها، وهو عارٌ شديد.^٢

وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا [٣٢]

ثم لما وصف سبحانه قتل الأولاد بالذنب الكبير، أردفه بذكر بعض الكبائر التي منها الزنا بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ﴾ ولا تتركبوه أبداً ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ فعله ﴿فَاحِشَةً﴾ شديدة القبحاء ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ سبيله، وبشس طريقاً طريقه، فإنه موجب لاختلال الأنساب وهيجان الفتن وشيوع الفساد.
 وعن الباقر عليه السلام - في حديث - قال: «﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وهو أشد الناس عذاباً، والزنا من أكبر الكبائر»^٣.

وعن الصادق عليه السلام، عن أبيه، عن جدّه، عن علي عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله في وصيته له: «يا علي، في الزنا ست خصال: ثلاث منها في الدنيا، وثلاث في الآخرة، فأما التي في الدنيا: فيذهب بالبهاء، ويُعجل الفناء، ويقطع الرزق. وأما التي في الآخرة: فسوء الحساب، وسخط الرحمن، والخلود في النار»^٤.

وروى بعض العامة عن بعض الصحابة: «ياكم والزنا، فإن فيه ست خصال: ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة، فأما التي في الدنيا: فتقصان الرزق، وتقصان العمر، والبغض في قلوب الناس. وأما الثلاث التي في الآخرة: فغضب الرب، وشدة الحساب، والدخول في النار»^٥.

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ

سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا [٣٣]

ثم ذكر سبحانه قتل النفس المحترمة التي هي أكبر الكبائر العملية بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها بوجهٍ من الوجوه ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ المقرّر في الشرع المطهر من القصاص والحدّ والدفاع.

٢. تفسير الرازي ٢٠: ١٩٦ - ١٩٧.

١. تفسير روح البيان ٥: ١٥٤.

٣. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩٠.

٤. الخصال ٣/٣٢١، من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٢٤/٢٦٦، تفسير الصافي ٣: ١٩٠.

٥. تفسير أبي السعود ٥: ١٧٠، تفسير روح البيان ٥: ١٥٤.

عن النبي ﷺ: «إني أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»^١.

قيل: وما حقها، يا رسول الله؟ قال: «زنا بعد إحصان، وكفر بعد إيمان، وقتل نفس فيقتل بها»^٢. ثم ذكر حكم القصاص بقوله: «وَمَنْ قُتِلَ» من المؤمنين حال كونه «مَظْلُومًا» ومحترماً دمه بأن لم يصدر منه ما يجوز قتله «فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ» ووارث دمه من وراثت ماله إن كانوا، ومن الإمام الذي هو وارث من لا وارث له «سُلْطَانًا» واستيلاءً على القاتل إن شاء قتله، وإن شاء أخذ الدية، فإن اختار القتل «فَلَا يُشْرَفُ» ولا يتجاوز الحد المقرر «فِي الْقَتْلِ» بأن يقتل غير القاتل مع القاتل، أو يمثل بالمقتص منه، أو يقتل عوض القاتل أشرف قومه، وليس لأحد مزاحمة القاتل في استيفاء حقه «إِنَّهُ» في شرع الاسلام «كَانَ مَنصُورًا» من قبل الله.

القمي: يعني ينصر ولد المقتول على القاتل^٣.
عن الكاظم ﷺ: أنه سئل عن هذه الآية، وقيل له: فما هذا الاسراف الذي نهى الله [عنه؟] قال: «نهى أن يقتل غير قاتله، أو يمثل بالقاتل».

قيل: فما معنى قوله: «إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا»؟ قال: «وَأَيُّ نُصْرَةٍ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُدْفَعَ الْقَاتِلَ [إِلَى] أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ فيقتله، ولا تبعة تلزمه من قتله في دين أو دنيا»^٤.

عن العياشي [عن أبي عبدالله ﷺ]: «إذا اجتمع العدة على قتل رجل واحد، حكّم الوالي أن يقتل أيهم شاءوا، وليس لهم أن يقتلوا أكثر من واحد، إن الله عز وجل يقول: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا» إلى قوله: «فَلَا يُشْرَفُ فِي الْقَتْلِ»»^٥.

وعن الصادق ﷺ: «نزلت في الحسين ﷺ، لو قُتِلَ أَهْلُ الْأَرْضِ بِهِ مَا كَانَ سَرَفًا»^٦.
وقيل: إن الاسراف في القتل ترجيحه على أخذ الدية، والمراد بالنهى النهي عن اختيار القتل^٧، وإنما قدّم النهي عن الزنا على النهي عن القتل، مع أن القتل أكبر الكبائر العملية؛ لأنّ الجِماع مقدّمة وجود الانسان، والقتل إعدامه بعد الوجود، وبيان حكم مقدّمة وجود الانسان مقدّم بالطبع على حكم مترتب

١. سنن الترمذي ٥: ٣٣٤١/٤٣٩، مسند أحمد ٤: ٨. ٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٠٠، تفسير روح البيان ٥: ١٥٥.

٣. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩١.

٤. الكافي ٧: ٣٧٠، تفسير الصافي ٣: ١٩١، وفيهما: ولا دنيا.

٥. تفسير العياشي ٣: ٢٥١٠/٤٩، الكافي ٧: ٢٨٤/٩، تفسير الصافي ٣: ١٩١.

٦. الكافي ٨: ٣٦٤/٢٥٥، تفسير الصافي ٣: ١٩١. ٧. تفسير الرازي ٢٠: ٢٠٢.

على وجوده، كذا قيل^١.

ثم أعلم أن بالتفسير الذي ذكرنا للمظلوم، يندفع الاعتراض على الآية بأنها تدل على أن موجب جواز القتل منحصر في كون المقتول مظلوماً، مع أن سببه غير منحصر فيه، بل له أسباب كثيرة كالكفر بعد الإيمان وكثير من المعاصي التي حدّها^٢ القتل.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ
الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً [٣٤]

ثم أنه تعالى بعد النهي عن إتلاف النفوس نهى عن إتلاف مال اليتامى الذين هم أضعف الضعفاء بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ ولا تصرفوا فيه بطريقة من الطرق وخضلة من الخصال ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الطرق والخصال، وهو التصرف الذي لا يكون فيه إفساد والذي تكون فيه الغيبة، وكونوا مستمرين على ذلك ﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ وكمال قواه وعقله ورشده.

ثم أكد العمل بالأحكام المذكورة التي هي عهود الله بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ الذي بينكم وبين ربكم من العمل بأحكامه والنذر واليمين، أو بينكم وبين الناس كالبيع وغيرها من المعاملات. ثم هدّد سبحانه على مخالفته بقوله: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ﴾ يوم القيامة عنه ﴿مَسْئُولاً﴾ حين المحاسبة قيل: إنه بتقدير المضاف، والمعنى أن صاحب العهد^٣.

وقيل: المسؤول بمعنى المطلوب، والمراد أنه يطلب من المعاهد أن يفي به^٤. وقيل: إنه فرض العهد شخصاً عاقلاً يسأل عنه، ويقال له: لم يوف بك، تبيكيتاً للناكث^٥.

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا
* وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْئُولاً [٣٥ و ٣٦]

ثم بعد إيجاب الوفاء بالعهد، أوجب سبحانه إيفاء الحقوق بقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ وأتموه ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ لمستحقّه ولا تخسروه حين عاملتم بالكيل ﴿وَزَنُوا﴾ ما عاملتموه بالوزن ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ والميزان ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ والعدل السوي.

٢. في النسخة: حدّه.

٥. تفسير الرازي ٢٠: ٢٠٦.

١. تفسير الرازي ٢٠: ١٩٩.

٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٠: ٢٠٦.

عن الباقر عليه السلام: «هو الميزان الذي له لسان»^١. «ذَلِكَ» الإيفاء بالكيل والوزن «خَيْرٌ» لكم في الدنيا؛ لأنه موجب لرغبة الناس في معاملتكم، ولذكركم بالجميل في الناس «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» وعاقبة في الآخرة.

ثم لما نهى سبحانه عن قتل النفوس وإتلاف أموال اليتيم، وأمر بتأدية حقوق الناس، نهى عن إتلاف نفوسهم وأموالهم وأعراضهم بالقول بقوله: «وَلَا تَقْفُ» ولا تثقل، كما عن القمي^٢ «مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» عن محمد ابن الحنفية: يعني شهادة الزور^٣. وعن ابن عباس: يعني لا تشهد إلا بما رأيته عيناك وسمعت أذنك، ووعاه قلبك^٤.

وقيل: إن المراد [منه: النهي عن] القذف ورمي المحصنين والمحصنات بالأكاذيب^٥.

وقيل: المراد النهي عن الكذب. وقيل: إن المراد النهي عن البهتان^٦.

وعن القمي: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم، قال رسول الله: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة أقيم في طينة خبال، أو يخرج مما قال»^٧. قيل: إن طينة خبال صديد جهنم.

وقيل: إن المراد مطلق القول بما لا علم به، سواء أكان على الله، أو على الناس. وقيل: إن المعنى لا تتبع ما لا تعلم.

واستدل جماعة بهذه الآية بناءً على حرمة العمل بالظن والخبر غير العلمي في الأحكام الشرعية، وفيه أنه صحيح لو لم يكن على حجتيهما دليل قطعي، وإلا كان العمل بهما عملاً بالعلم، أو كان عموم النهي مخصصاً به.

ثم هدّد الله على القول أو العمل بغير العلم بقوله: «إِنَّ أَلْسِنَةً وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلٌّ» واحد من «أُولَئِكَ» الأعضاء التي رئيسها الفؤاد «كَانَ عَنْهُ مَشْهُولًا» في القيامة، فيشهد بأعمالكم ومعاصيكم، فلا تستطيعون ردّها، فإن جميع الأعضاء في الآخرة حيّة بحياة مستقلة شاعرة ناطقة، كما قال تعالى: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»^٨.

عن الصادق عليه السلام: في هذه الآية: «يَسْأَلُ السَّمْعُ عَمَّا سَمِعَ، والبصر عما نظّر إليه، والفؤاد عما عقد عليه»^٩.

وعنه عليه السلام، قال له رجل: إن لي جيراناً ولهم جوار يتغنيين ويضربن بالعود، فربما دخلت المخرج

١. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩٢.

٢. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩٢.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ٢٠٨.

٤. النور ٢٤/٢٤.

٥. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩٢.

٦. تفسير الرازي ٢٠: ٢٠٨.

٧. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩٢.

٨. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٣: ١٩٢.

فَأُطِيلَ الْجُلُوسَ اسْتِمَاعاً مَنِي لَهْنٍ؟ قَالَ ﷺ: «لَا تَفْعَلْ».

فقال: والله ما هو شيء آتبه برجلي، إنما هو سماع أسمع به بأذني؟ فقال ﷺ: «تالله كذبت^١، أما سمعت الله يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾^٢ الخبر. وعن السجادة ﷺ: «ليس لك أن تتكلم بما شئت؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ولأن رسول الله ﷺ قال: رَجِمَ الله عبداً قال خيراً فغَنِمَ، أو صَمَتَ فسَلِمَ، وليس لك أن تسمع ما شئت؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾»^٣.

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً *
كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً [٣٧ و ٣٨]

ثم أنه تعالى بعد النهي عن الكبائر الموبقة، والأمر بالوفاء بالعهد وإيفاء الحقوق، وكلها من وظائف اليد واللسان والقلب، وبيان مسؤولية الأعضاء والجوارح، نهى عن مشي الخيلاء^٤ والتكبر الذي هو وظيفة الرجلين بقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ﴾ أيها الانسان ﴿فِي﴾ وجه ﴿الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ وتكبراً، أو فخراً، أو بطراً، أو فرحاً، كما عن القمي^٥.

ثم نبه سبحانه على عدم لياقته للتعظم والتكبر بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ﴾ ولن تنقُبَ حال انخفاضك في المشي ﴿الْأَرْضَ﴾ بقوة قدميك وشدة وطئك ﴿وَلَن تَبْلُغَ﴾ حال ارتفاعك ﴿الْجِبَالَ﴾ ولن تصل إلى رؤوسها ﴿طُولاً﴾ وتتطاورك، فمع هذا العجز يكون التكبر عين الحماقة، إذ التكبر إنما يكون بكثرة القوة وعظم الجثة، وكلاهما مفقودان فيك.

وعن أمير المؤمنين ﷺ في وصيته لمحمد بن الحنفية: «وفرض على الرجلين أن تنقلهما في طاعته، وأن لا تمشي بهما مشية عاصٍ، فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾»^٦. ثم بين سبحانه علّة النهي عن الخصال الاثني عشر بقوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ المذكور في تضعيف الآيات المشتملة على الأوامر والنواهي من الخصال الخمس والعشرين ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ وقيحه، وهو الذي نهى عنه، وهي اثنتا عشرة خصلة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ ومبغوضاً.

١. في الكافي والعياشي: لله أنت، وفي من لا يحضره الفقيه والتهذيب: يا الله أنت. وفي الصافي: تالله أنت.
٢. تفسير العياشي ٣: ٥٢/٢٥٢. من لا يحضره الفقيه ١: ٤٥/١٧٧، التهذيب ١: ١١٦/٣٠٤، الكافي ٦: ٤٣٢/١٠، تفسير الصافي ٣: ١٩٢. ٣. علل الشرائع: ٨٠/٦٠٦، تفسير الصافي ٣: ١٩٢.
٤. في النسخة: المشي عن الخيلاء.
٥. تفسير القمي ٢: ٢٠، تفسير الصافي ٣: ١٩٣.
٦. من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٨٣/١٦٢٧، تفسير الصافي ٣: ١٩٣.

قيل: إنما وصف المنهيات بمطلق الكراهة مع كون جميعها أو جلها من أكبر الكبائر، إيداناً بكفاية مجرد كراهة الله تعالى لشيء في وجوب الالتزام بتركه^١.

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا [٣٩]

ثم حث سبحانه في العمل بالتكاليف المفصلة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من التكاليف ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ وما يستقل بحسنه وصلاحة العقل السليم، أو من الأحكام المحكمة التي لا تقبل النسخ، أو من الأحكام التي كانت في ألواح موسى، كما عن ابن عباس^٢. ولما كانت دليلاً على الرُخْدانية، ختم سبحانه الأحكام بما بدأها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾ أيها الانسان ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ تنبيهاً على أن التوحيد أول المقاصد وآخرها، وأن عمدة الغرض منها تكميله. ثم أنه تعالى بعد التهديد أولاً على الشرك بالعذاب الدنيوي، هدّد عليه آخراً بالعذاب الآخروي بقوله: ﴿فَتُلْقَىٰ﴾ في الآخرة ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ حال كونك ﴿مَلُومًا﴾ عند نفسك وغيرك على ما كنت عليه من الشرك ﴿مَدْحُورًا﴾ ومطروداً من رحمة الله.

عن القمي: المخاطبة للنبي ﷺ، والمعنى للناس^٣.

عن الباقر عليه السلام - في حديث - «ثم بعث الله محمداً ﷺ وهو بمكة عشر سنين، فلم يمُت بمكة في تلك العشر سنين أحد يشهد أن إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا أدخله الله الجنة بإقراره، وهو إيمان التصديق، ولم يعذب الله أحداً ممن مات وهو متبع لمحمد ﷺ على ذلك إلا من أشرك بالرحمن، وتصديق ذلك أن الله عز وجل أنزل عليه في سورة بني إسرائيل آية^٤ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾^٥ أدب وعظة وتعلم ونهي خفيف، ولم يعدّ عليه، ولم يتواعد على اجتراح شيء مما نهى عنه، وأنزل نهياً عن أشياء حذر عليها ولم يغفل فيها، ولم يتواعد عليها، وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِنْ لَقِيتُمْ﴾ وتلا الآيات إلى قوله: ﴿مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾^٦.

١. تفسير أبي السعود ٥: ١٧٢، تفسير روح البيان ٥: ١٥٩.

٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢١٤، تفسير أبي السعود ٥: ١٧٣، تفسير الصافي ٣: ١٩٣.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٠، تفسير الصافي ٣: ١٩٣. ٤. في الكافي وتفسير الصافي: بمكة.

٥. الإسراء: ٢٣ - ٣٠.

٦. الكافي ٢: ١٢٥، تفسير الصافي ٣: ١٩٤، والآيات من سورة الإسراء: ٣١/١٧ - ٣٩.

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا
* وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا [٤٠ و ٤١]

ثم أنه تعالى بعد النهي عن الاشراك، ذم المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله على هذا القول الفضيع، وأنكر عليهم بقوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾ وخصكم ﴿رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ وفصلكم على نفسه بأفضل الأولاد في اعتقادكم ﴿وَاتَّخَذَ﴾ لنفسه ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ أولاداً ﴿إِنَاثًا﴾ وبنات مع اعتقادكم بأنهن أخس الأولاد، وهذا مما تنكره العقول، فإن الموالى لا يختارون لأنفسهم الأردأ ويعطون الأجود الأصفى للعبيد ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الجهال الحمقاء، والله ﴿لَتَقُولُونَ﴾ بقولكم: إن الله اتخذ لنفسه ولداً، وهو إناث ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ وكلاماً شنيعاً في الغاية، بحيث لا يقول به من له أدنى مسكة، لبداهة أن الولادة من خصائص الجسم، والله تعالى مجسم الأجسام وخالق الوالد والولد، ولا يعقل أن يكون جسماً، ومن لوازم الحاجة، وهو تعالى غني بالذات. وعلى فرض المحال لا يمكن أن يختار لنفسه أخس الأولاد، وهو موجد لهم، فيالها من ضلالة، وما أقبحها!

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وبيّنا أكررنا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ الحجج والحكم والبرهان ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ وليستنبهوا ويتدبروا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ هذا القرآن وتصريف البراهين والمواعظ التي منه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ واشمئزازاً منه ومن الحق.

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا [٤٢ و ٤٣]

ثم أنه تعالى بعد النهي عن الشرك، استدلل على بطلانه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ﴾ تعالى ﴿آلِهَةٌ﴾ أخرى من الأصنام والكواكب وغيرها ﴿كَمَا﴾ هم ﴿يَقُولُونَ﴾: إن لله شركاء في الألوهية ﴿إِذَا﴾ البتة ﴿لَابْتَغَوْا﴾ وطلبوا ﴿إِلَى﴾ معارضة ﴿ذِي الْعَرْشِ﴾ وخالق الموجودات والغلبة عليه في الألوهية والايجاد والتدبير في العالم ﴿سَبِيلًا﴾ ووسيلة، كما هو دأب الملوك بعضهم مع بعض، ولو طلبوا لفسد نظام العالم. وقيل: يعني لطلبوا لأنفسهم إلى التقرب إلى تعالى سبيلاً بتحصيل الكمالات الفائقة والمراتب العالية، حتى يمكنهم أن يقربوكم إليه ويشفعوكم لديه^١.

ثم نزه ذاته المقدسة عن الشرك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ وتنزهه وارتفع بذاته ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من وجود الشريك والولد له ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ وارتفاعاً عظيماً لا غاية له، لأن المنافاة بين وجوب الوجود

لذاته والقديم والحادث والباقي والغاني والغني المطلق والمحتاج المطلق بحد لا تُعقل الزيادة عليه.

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا [٤٤]

ثم نبّه سبحانه على أن تسبيحه لا ينحصر بذاته المقدسة بل ﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾ ما في ﴿السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ من الملائكة والأرواح المقدسة، وتنزهه عن جميع القناص الامكانية والضدّ والبَدّ والولد، ثم عمّم تسبيحه لجميع الموجودات بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الأشياء، وما من موجود من الموجودات ﴿إِلَّا﴾ وهو ﴿يُسَبِّحُ﴾ ربّه ملابساً ﴿بِحَمْدِهِ﴾ على نعمه ﴿وَلَكِنْ﴾ أنتم ﴿لَا تَفْقَهُونَ﴾ ولا تفهمون ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾ لقصور فهمكم واحتجاب أسماعكم وعدم التدبّر في آيات حدوئهم وإمكانهم.

عن الصادق عليه السلام: «تَقْضَى الْجَذَرُ تَسْبِيحَهَا»^١.

وعن الباقر عليه السلام: سُئِلَ هل تَسْبِيحُ الشجرة اليابسة؟ فقال: «نعم، أما سمعت خشب البيت كيف يُقْضَى، وذلك تسبيحه لله، فسبحان الله على كلّ حال»^٢.

أقول: ظاهر الروايتين أن طرّو النقص على الموجودات، وظهور التغيير فيها، دالّ على تنزّه خالقها من النقص والتغيير، وكون جميعها تحت قدرة مُوجِّدها وتديره وإرادته، ولما لم يتدبّر المشركون في تلك الآيات لغفلتهم وجهلهم وانهماكهم في الشهوات، صاروا مستحقّين للعذاب، ولكن لا يُعاجلهم الله به ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ غير عجولٍ في تعذيب العصاة غير الأهلين للغفران ﴿غَفُورًا﴾ لذنوب الأهلين له.

وقيل: إن التسبيح في الآية على معناه الحقيقي، وهو قول: سبحانه الله، كما عن ابن مسعود، قال: لقد كنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل^٣.

وعن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾^٤ كان داود إذا سَبَّحَ جاورته الجبال بالتسبيح^٥.

وعن مجاهد: كلّ الأشياء تسبح الله، حيّاً كان أو جماداً، وتسبيحها: سبحانه الله وبحمده^٦.

١. تفسير العياشي ٣: ٢٥٢٣/٥٤، الكافي ٦: ٤/٥٣١، تفسير الصافي ٣: ١٩٥.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٥٢٨/٥٤، تفسير الصافي ٣: ١٩٥.

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٦٣. ٤. سورة ص: ١٨/٣٨.

٥. تفسير روح البيان ٥: ١٦٣. ٦. تفسير روح البيان ٥: ١٦٣.

وروي أَنَّ الحَصَاة سَبَّحَتْ فِي كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ^١. وفي الحديث: «ما من طير يُصَاد إِلَّا بتضييعه التسبيح»^٢.

أقول: الحقُّ أَنَّ جميع الموجودات لها تسبيح تكويني وتسبيح اختياري، وإنما يسمعه من له أذن سامعة كالنبيِّ والكَمَلين من المؤمنين.

عن النبي ﷺ، قال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث»^٣. ويمكن أن يكون المراد من الآية المباركة كلا التسيحين بإرادة القدر المشترك، أو عموم المجاز.

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا
* وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي
الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا [٤٥ و ٤٦]

ثمَّ لما بيَّن سبحانه آيات توحيده وكمال ذاته، وذمَّ المشركين بعدم فهمهم وتفقههم لها، ذمَّهم بإعراضهم عن القرآن المبين لمعارفه وللبراهين الدالة على توحيدة، وتنزَّهه عما لا يليق بوجوب وجوده وكمال ذاته، وعدم فهمهم وتفقههم ما فيه، ومعاداتهم للنبي ﷺ بقوله: «وَإِذَا قَرَأْتَ يَا مُحَمَّدُ الْقُرْآنَ الْحَاوِي لِلْحُكْمِ وَالْمَعَارِفِ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ حِجَابًا وَسِتْرًا يَسْتُرُكَ عَنْهُمْ حَتَّى لَا يُوْذُنُوكَ، وَكَانَ ذَلِكَ الْحِجَابَ أَيْضاً مَسْتُورًا» عن أعينهم، أو المراد حِجَابًا ذَا سِتْرٍ يَسْتُرُكَ عَنْهُمْ «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً» وأعطية كراهة «أَنْ» يفهموا القرآن و «يَفْقَهُوهُ» حقَّ فهمه وفقهه، ويعرفوا جهات إعجازه ودلائل صدقه «وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا» وثقلًا عن سَمَاعَةِ اللاتقِ به، قيل: إِنَّ الآية نزلت في قوم كانوا يؤذون النبي ﷺ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى النَّاسِ^٤.

وَرُوي أَنَّهُ ﷺ كَانَ كُلَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ قَامَ عَنْ يَمِينِهِ رَجُلَانِ، وَعَنْ يَسَارِهِ آخِرَانِ مِنْ وَلَدِ قُصَيٍّ، يُصَفِّقُونَ وَيُضْفِرُونَ وَيُحْلِطُونَ عَلَيْهِ بِالْأَشْعَارِ^٥.

وعن أسماء: أَنَّهُ ﷺ كَانَ جَالِسًا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، إِذَا قَبِلَتْ امْرَأَةٌ أَبِي لَهَبٍ وَمَعَهَا فِهْرٌ^٦ تُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ:

مَذْمَمًا أَتَيْنَا وَدِينَهُ قَلِينَا

٢. تفسير العياشي ٣: ٥٤/٢٥٢٧، تفسير الصافي ٣: ١٩٥.

٤. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٠.

٦. الفهر: الحجر.

١. تفسير روح البيان ٥: ١٦٤.

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٦٣.

٥. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٠، تفسير أبي السعود ٥: ١٧٦.

وامره عصينا

فقال أبو بكر، يا رسول الله، معها فيه، أخشاها عليك: فتلا رسول الله ﷺ، هذه الآية، فجاءت فما رأت رسول الله، وقالت: إن قُرَيْشًا [قد] عَلِمَتْ أَنِّي ابنة سَيْدِهَا، وَأَنْ صَاحِبِكَ هَجَانِي^١.

وروي أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي سَفْيَانَ وَالنَّضِيرِ^٢ وَأَبِي جَهْلٍ وَأُمِّ جَمِيلٍ امْرَأَةَ أَبِي لَهَبٍ، كَانُوا يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَحَجَبَ اللَّهُ أَبْصَارَهُمْ إِذَا قَرَأَ، وَكَانُوا يَمُرُّونَ بِهِ وَلَا يَرُونَهُ^٣.

وقيل: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَطْلُبُونَ مَوْضِعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي اللَّيَالِي، لِيَتَهَوَّأَ إِلَيْهِ وَيُؤْذَنُوا، وَيَسْتَدْلُونَ عَلَى مَوْضِعِهِ بِاسْتِمَاعِ قِرَاءَتِهِ، فَأَمَنَهُ اللَّهُ مِنْ شَرِّهِمْ، وَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حِجَابًا لَا يُمْكِنُهُمُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ مَعَهُ، وَيَبَيِّنُ أَنَّهُ جَعَلَ فِي قُلُوبِهِمْ مَا يَشْغَلُهُمْ عَنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَفِي آذَانِهِمْ مَا يَمْنَعُ مِنْ سَمَاعِ صَوْتِهِ. ويجوز أن يكون ذلك مرضاً شاعلاً يمنعهم عن المصير إليه^٤.

وقيل: إِنَّ الْقَوْمَ لَشَدَّةَ امْتِنَاعِهِمْ عَنْ قَبُولِ دَلَالِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، صَارُوا كَأَنَّهُ حَصَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ تِلْكَ الدَّلَائِلِ حِجَابٌ وَسَائِرٌ، وَإِنَّمَا نَسَبَ [الله] سُبْحَانَهُ ذَلِكَ الْحِجَابَ إِلَى نَفْسِهِ: لِأَنَّهُ لَمَّا خَلَّاهُمْ مَعَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا مَنَعَهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْأَعْرَاضِ، صَارَتْ تِلْكَ التَّخْلِيَةُ كَأَنَّهَا هِيَ السَّبَبُ لَوْقُوعِهِمْ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ^٥.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ الصَّلَاةُ، تَسْمِيَةً لِلْكُلِّ بِاسْمِ جُزْئِهِ^٦.

رُوي أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُؤْذَنُونَ النَّبِيَّ ﷺ مَصْلِيًّا، وَجَاءَتْ أُمُّ جَمِيلٍ امْرَأَةُ أَبِي لَهَبٍ بِحَجَرٍ لَتَرُضَخَهُ فَنَزَلَتْ^٧.

ثُمَّ ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِالنُّفْرِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَحْدَهُ بقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخُذْهُ﴾ بِأَنْ سَمِعُوا مِنْكَ آيَةً فِيهَا ذِكْرُ اللَّهِ وَذَمُّ الشُّرْكِ، أَوْ لَمْ تَذْكُرْ مَعَ اسْمِ اللَّهِ اسْمَ آلِهَتِهِمْ ﴿وَلَوْ أَعْلَىٰ أَذْبَارِهِمْ﴾ وَهَرَبُوا وَنَفَرُوا مِنْ اسْتِمَاعِهِ ﴿نُفُورًا﴾ وَاشْتِمَازًا، وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ أَعْرَضُوا عَنْكَ حَالِ كَوْنِهِمْ نَافِرِينَ^٨.

عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ، يَجْهَرُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ، فَتَوَلَّى قُرَيْشٌ فِرَارًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ﴾ الْآيَةُ^٩.

والقمي، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا تَهَجَّدَ بِالْقُرْآنِ تَسْمَعُ لَهُ قُرَيْشٌ لِحَسَنِ صَوْتِهِ، فَكَانَ إِذَا قَرَأَ

١. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢١، تفسير أبي السعود ٥: ١٧٥.

٢. كذا في المصدر أيضاً، ولعله التضرع بن الحارث.

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٦٧.

٤ و٥. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٢.

٦ و٧. تفسير روح البيان ٥: ١٦٧.

٨. الكافي ٨: ٣٨٧/٢٦٦، تفسير الصافي ٣: ١٩٥.

٩. تفسير روح البيان ٥: ١٦٨.

(بسم الله الرحمن الرحيم) فروا عنه^١.

وعن العياشي، عنه عليه السلام: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس جهر ببسم الله الرحمن الرحيم، فتخلف من خلفه من المنافقين عن الصفوف، فإذا جازها في السورة عادوا إلى مواضعهم، وقال بعضهم لبعض: إنه ليردد اسم ربه ترداداً، إنه ليحب ربه، فأنزل الله ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ﴾ الآية^٢.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ
الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ
فَضَّلُوا فَلَا يَسْتَبْطِعُونَ سَبِيلًا [٤٧ و ٤٨]

ثم هدّد الله المستهزئين بالقرآن بقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ﴾ وبالوجه الذي يصنفون ﴿بِهِ﴾ من الاستهزاء والتكذيب ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ﴾ وحين يصنفون ﴿إِلَيْكَ﴾ وأنت تتلو القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ وحين يشارون في شأنك ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ والمتجاوزون عن حدّ العقل في نجواهم ومسايرتهم: إنكم إن اتبعتم محمداً فيما يدعوكم إليه ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ومجنوناً أو مخدوعاً خدّعه الذين علّموه، أو خدّعه الشيطان، فأوهمه أنه ملك.

ثم أظهر التعجب من مقالاتهم الواهية بقوله: ﴿أَنْظِرْ﴾ يا محمد نظر التعجب إلى هؤلاء الحمقاء ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ وقالوا فيك ما لا يجوز أن يقال من قولهم: هو شاعر، أو كاهن، أو مجنون، أو ساحر ﴿فَضَّلُوا﴾ عن منهاج الحقّ أو الججاج ﴿فَلَا يَسْتَبْطِعُونَ﴾ أن يجدوا ﴿سَبِيلًا﴾ إليه، ولا يمكنهم الطعن فيك بما يقبله العقل.

نقل الفخر الرازي عن المفسرين أنه أمر رسول الله ﷺ علياً عليه السلام أن يتخذ طعاماً ويدعو إليه أشراف قريش، ففعل ودخل عليهم رسول الله ﷺ، وقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى التوحيد، وقال: «قولوا لا إله إلا الله حتى تطيعكم العرب، وتدين لكم العجم»، فأبوا ذلك عليه، وكانوا عند استماعهم القرآن والدعوة إلى الله يقولون بينهم متناجين: هو ساحر، أو هو مسحور، وما أشبه ذلك، فنزلت الآية^٣.

وعن ابن عباس: أن أبا سفيان والنّضر بن الحارث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي ﷺ ويستمعون إلى حديثه، فقال النّضر يوماً: ما أدري ما يقول محمد، غير أنني أرى شفتيه تتحرك بشيء.

١. تفسير القمي ٢: ٢٠، تفسير الصافي ٣: ١٩٥.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٥٣١/٥٥، تفسير الصافي ٣: ١٩٦.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٣.

وقال أبو سفيان: إني لأرى بعض ما يقول حقاً. وقال أبو جهل: هو مجنون. وقال أبو لهب: هو كاهن.
وقال خويط بن عبد الغزى: هو شاعر^١.

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَّانًا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً
أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي
فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ
يَكُونُ قَرِيبًا [٤٩-٥١]

ثم لما وصف الله المشركين بأنهم لا يؤمنون بالآخرة، حكى شبهتهم في المعاد بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾
إنكاراً للبعث، وتقريراً لكون النبي فاسد العقل: يا محمد ﴿أَوَّانًا﴾ معنا و﴿عِظَامًا﴾ بالية ﴿وَرُفَاتًا﴾
وأجزاء متفتتة ﴿أَوَّانًا لِمَبْعُوثُونَ﴾ من القبور حال كوننا مخلوقين ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ومحيين بحياة ثانية
مع تفرق تراب أجسادنا في العالم واختلاطه بغيره وعدم تميزه؟ هيهات، لا يمكن ذلك أبداً، فردهم
الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿كُونُوا﴾ في المثل ﴿حِجَارَةً﴾ صلبة ﴿أَوْ حَدِيدًا﴾ الذي هو أصلب
منها ﴿أَوْ خَلْقًا﴾ آخر ﴿مِمَّا يَكْبُرُ﴾ ويعظم ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ قبوله للحياة لغاية بعده عنها في نظركم،
فأنكم تحيون وتبعثون لا محالة.

قيل: إن المراد مما يكبر في صدورهم السماوات والجبال^٢. وقيل: إنه الموت، ونسب إلى جمهور
المفسرين، إذ ليس في النفس شيء أكبر من الموت^٣.

والقمي عن الباقر عليه السلام: «الخلق الذي يكبر في صدوركم الموت»^٤. والمعنى لو كنتم عين الموت
لأمتكم وأحييكم لا محالة، لإمكانه وعدم القصور في القدرة، واقتضاء الحكمة البالغة وجوبه، إذ لولا
البعث لكان الخلق الأول عبثاً، وتعالى الله من العبث علواً كبيراً، فإذا أجبتهم عن شبهتهم تلك^٥
﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ إنكاراً واستبعاداً: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا﴾ وبيعتنا مع كمال المباعدة بين ترابنا وبين الإعادة
والبعث ﴿قُلْ﴾ يا محمد، يعيدكم القادر ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ واخترع خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وفي بدو
خلقكم في هذا العالم من غير مثال يحتذيه من تراب لم يشم رائحة الحياة، فإذا أجبتهم وعينت
معادهم^٦ ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ﴾ ويحركون نحوك ﴿رُءُوسَهُمْ﴾ تعجباً وإنكاراً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاء
﴿مَتَى﴾ البعث، وفي أي وقت ﴿هُوَ قُلْ﴾ لهم ﴿عَسَى﴾ وأرجو ﴿أَنْ يَكُونُ﴾ ذلك الوقت ﴿قَرِيبًا﴾

١. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢١.
٢. تفسير روح البيان ٥: ١٧٠.
٣. تفسير الصافي ٣: ١٩٦.
٤. في النسخة: ذلك.
٥. في النسخة: معيدهم.

لأن كل آت قريب، أو لأنه مضى أكثر الزمان وبقي أقله.

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا [٥٢]

ثم عَيَّن الله وقت الاعادة وسهولتها بقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ الله يبعثكم من القبور أو إسرافيل بنفخه الأخير في الصور ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ الدعوة، وتمثلون [أمر] الداعي [سواء أ] كان هو الله أو إسرافيل فيما دعاكم إليه، وتخرجون من الأجداث سراعاً متقادين لله رافعين أصواتكم ﴿بِحَمْدِهِ﴾ على قدرته على إعادتكم.

عن سعيد بن جبیر: أنهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، ويقدمونه ويحمدونه حين لا ينفعهم ذلك^١، أو تستجيبون بأمره على القول بمجنى الحمد بمعنى الأمر، أو متقادين لإسرافيل حامدين لما فعل بكم غير مستعصين ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ بعد البعث وروية الأحوال ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ وما كنتم في الدنيا، أو في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ اختصاراً للمدة الماضية، أو تقريباً لوقت البعث.

عن ابن عباس: يريد ما بين النفختين الأولى والثانية، فإنه يزال عنهم العذاب في ذلك الوقت، قال: والدليل عليه قوله في سورة يس: ﴿مَنْ يَعْثُونا مِنْ مَّرْقَدِنَا هَذَا﴾^٢ فظنهم بأن هذا لبث قليل عائد إلى لبثهم فيما بين النفختين^٣ الأولى والثانية.

وقيل: يوم يدعوكم خطاب للمؤمنين، فإنهم يحمّدون الله على إحسانه إليهم^٤.

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُزَحِّكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا [٥٥-٥٣]

ثم أنه تعالى بعد إقامة الحجة على التوحيد والمعاد وبيان معارضة المشركين للرسول وشدة عداوتهم للحق، أمر المؤمنين بمداداتهم ومجادلتهم بالتّي هي أحسن صوناً من الفساد^٥ بقوله: ﴿وَقُلْ

١. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٧، تفسير روح البيان ٥: ١٧٠.

٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٢٨.

٣. يس: ٣٦/٥٢.

٤. في النسخة: صوناً للفساد، ويريد صوناً من الفساد المترتب على المحاشنة في القول والسب والشتم لأن المشركين سيقابلونهم بمثله.

لِعِبَادِي» المؤمنين الذين يجادلون المشركين ﴿يَقُولُوا﴾ عند محاورتهم معهم الكلمة ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الكلم ولا يخاشنونهم في القول، ولا يخلطون خُجَّتَهُم بالسُّبِّ.

ثم نبه سبحانه على فائدة تحسين الكلام بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ﴾ ويثير الفتن ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين المشركين، ويغري بعضهم على بعض، وتشتد العداوة بينهم، ويزداد الغضب والتنافر فيهم، فيمنع حصول المقصود، وهو هدايتهم ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ﴾ من بدو خلقتهم ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ في عداواته، ومبغضاً متجاهراً يبغضه.

ثم علم سبحانه المؤمنين تحسين الكلام مع المشركين بقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ وأخبر بعقائدكم وأعمالكم ﴿إِنْ يَشَأْ﴾ الرحمة عليكم بالتوفيق للإيمان والعمل الصالح ﴿يَزَحْمُكُمْ﴾ بلا مزاحم ولا راد ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ﴾ تعذيبكم باماتتكم على الكفر يميئتمكم و ﴿يُعَذِّبُكُمْ﴾ بلا عجز ولا دافع، ولا تصرحوا لهم بأنكم أهل النار، فإنه يهيجهم على الشرع أنه لا يعلم عاقبة أحد إلا الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ نكل إليك أمورهم من الرحمة والتعذيب، فتجبرهم على الإيمان، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً، فدارهم ومُر أصحابك بالمُداراة وترك المخاصمة. عنه ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِمُدَارَاةِ النَّاسِ، كَمَا أَمَرَنِي بِاقَامَةِ الْفَرَائِضِ»^١.

وقيل: إن المراد من العباد في الآية الكفار، عبر عنهم به جذباً لقلوبهم وميلاً لطباعهم إلى دين الاسلام^٢، والمعنى: قل - يا محمد - للذين يقرّون بكونهم عباداً لي يعتقدوا بالعقائد التي هي أحسن من التوحيد والمعاد، ولا يصيروا على العقائد الباطلة، فإن الشيطان يحملهم على التعصب، والشيطان عدو لهم، فلا ينبغي أن يلتفتوا إلى قوله وتسويلاته، وقل لهم: ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم بأن يوفقكم للإيمان والهداية، وإن يشأ يميئتمكم على الكفر، وأنتم لا تطلعون على تلك المشيئة، فاجتهدوا أنتم في طلب الحق، ولا تقيموا على الباطل، لئلا تَحْرَمُوا من السعادات الأبدية، ثم قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ حتى تشدد عليهم وتغلظ لهم في القول، فإن اللين والرفق أثر في قلوبهم، وأفيد في حصول المقصود من هدايتهم.

ثم أنه تعالى بعد قوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ بين سعة علمه، وعدم قصره بأحوال المشركين، بل محيط بأحوال جميع أهل العالم بقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأحوالهم وخصالهم وما يليق بكل واحد منهم ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ﴾ كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى بالكتاب والشرع وعموم الرسالة وكثرة المعجزات ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ آخر لعلنا بتفاوت مراتبهم في

الفضائل النفسانية والكمالات الروحية.

ثم نبه سبحانه على أن التفضيل إنما هو بالفيوض المعنوية من العلم والكتاب لا بالسلطنة بقوله: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾، وفضلناه به لا بالملك والسلطنة، فإذا كان كذلك فلا يُبعد في أن نفضل محمداً ﷺ على جميع الخلق من الأولين والآخرين بإتيانه القرآن الذي هو أفضل الكتب السماوية، وتعميم رسالته إلى يوم القيامة.

وقيل: إن وجه تخصيص داود وكتابه بالذكر أن في الزبور أن محمداً خاتم الأنبياء، وأن أمته خير الأمم^١.

وقيل: إن وجهه أن اليهود كانوا يقولون: إنه لا نبي بعد موسى، ولا كتاب بعد التوراة. فنقض الله كلامهم بإنزال الزبور على داود^٢.

أقول: الظاهر أن اليهود يُنكرون بعث رسول بعد موسى له شرع غير شرعه، ونزول كتاب ناسخ لكتابه، لا بعث مطلق الرسول ونزول مطلق الكتاب.

عن الصادق عليه السلام: «سادة النبيين والمرسلين خمسة، وهم أولو العزم من الرسل، وعليهم دارت الرحى: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وفضله على جميع الأنبياء»^٣. وفي (العلل) عن النبي ﷺ: «أن الله تعالى فضل الأنبياء المرسلين على ملائكته المقربين، وفضلني على جميع النبيين والمرسلين، والفضل بعدي لك يا علي وللأئمة من ولدك، وإن الملائكة لخدّامنا وخدّام محييين»^٤.

وعن ابن عباس: أنه جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يتذاكرون، وهم ينتظرون خروجه، فخرج حتى دنا منهم، فسَمِعَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، فسمِعَ حديثهم فقال بعضهم: عجباً إن الله اتخذ إبراهيم من خلقه خليلاً! وقال آخر: ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً؟ وقال آخر: ماذا بأعجب من جعل عيسى كلمة الله وروحه؟ فقال آخر: ماذا بأعجب من آدم اصطفاه الله عليهم؟ فسَلَّمَ رسول الله ﷺ على أصحابه، وقال: «قد سَمِعْتُ كلامكم وعَجَبْتُ من أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وأن موسى كلم الله وهو كذلك، وأن عيسى روح الله وكلمته وهو كذلك، وأن آدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على

١. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٠.

٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٠.

٤. علل الشرائع: ١/٥، تفسير الصافي ٣: ١٩٨.

٣. الكافي ١: ٣/١٣٤، تفسير الصافي ٣: ١٩٨.

الله ولا فخر، وأنا أول من يحرك خَلْقَ الْجَنَّةِ فيفتح الله لي فأدخلها ومعى قراء المهاجرين [ولا فخر]¹.

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا [٥٦]

ثم أنه تعالى بعد إبطال مذهب عبدة الأصنام وقولهم بانكار المعاد، أمر نبيه ﷺ برّد قول عبدة الملائكة والجنّ والمسيح والغرير بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للذين يعبدون الملائكة والجنّ والمسيح والغرير ﴿ادْعُوا﴾ أيها المشركون ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ وتخيّلتم بأهوانكم أنهم آلهتكم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ تعالى ومما سواه لحوانجكم، فإن المعبود لا بد أن يكون قادراً على إزالة الضر من عابديه، وإيصال النفع إليهم، وأما آلهتكم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ﴾ من المرض والفقر وغيرهما، ولا يتقدرون على إزالته ﴿عَنْكُمْ﴾ بوجه من الوجوه ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ونقله منكم إلى غيركم. قيل: إنها نزلت في الذين كانوا يعبدون الملائكة². وقيل: في الذين عبدوا المسيح³. وقيل: في الذين عبدوا نغراً من الجنّ، فأسلم النفر، وبقي أولئك متمسكين بعبادتهم⁴.

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا [٥٧]

ثم بين سبحانه عجز آلهتهم واحتياجهم إلى الله بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ الآية ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ هم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون ﴿إِلَى رَبِّهِمْ﴾ ومالك أمورهم ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ والقربة بالطاعة والعبادة له ﴿أَيُّهُمْ﴾ وكل واحد منهم فرض أنه ﴿أَقْرَبُ﴾ إليه تعالى بكونه شغله ذلك الابتغاء والطلب ﴿وَيَرْجُونَ﴾ ويأملون ﴿رَحْمَتَهُ﴾ تعالى بالوسيلة ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ بتركها كدأب سائر العباد، فكيف بمن دونهم؟ فأين هم من كشف الضر فضلاً عن الألوهية ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ وحقيقاً بأن يحترز منه كل أحد حتى الرسل والملائكة، وإن لم يحذره المشركون لغاية غفلتهم وانهماكهم في الشهوات، وإنما استدلل سبحانه بعجز الملائكة وغيرهم ممن ادّعوا ألوهيتهم عن كشف الضر وبابتغائهم الوسيلة لتسليم المشركين كونهم عباداً لله مخلوقين بقدرته مربوبين بتربيته.

وَأَنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ

٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣١.

٥. في النسخة: يكون.

١. تفسير روح البيان ٥: ١٧٤.

٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣١.

ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا [٥٨]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ كَوْنَ عَذَابِهِ حَقِيقًا بَانَ يُحَذَّرُ مِنْهُ، بَيَّنَّ ابْتِلَاءَ الْكَفَّارِ فِي الدُّنْيَا بِشَدِيدِ عَذَابِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من قرى المشركين، وما من بلدة من بلادهم ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهِلْكُوهَا﴾ بعذاب الاستئصال الْمُثْنِي لجميع أهلها ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون عذاب الاستئصال من قبل أكابرهم وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الأموال وأخذ الجزية ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ الحكم والدأب الإلهي ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ السِّبِين واللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ ومكتوباً لا يتطرق إليه التغيير. وقيل: إِنَّ المراد به القرية^١ الصالحة والطالحة، أما الصالحة فتهلك بالموت، وأما الطالحة فبالعذاب^٢.

عن الصادق عليه السلام، قال: «بالقتل أو الموت وغيره»^٣.
وعنه عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: «هُوَ الْفَنَاءُ بِالْمَوْتِ»^٤.
وعن الباقر عليه السلام: «إِنَّمَا أَمَّةٌ مُحَمَّدٌ مِنَ الْأُمَمِ، فَمَنْ مَاتَ فَقَدْ هَلَكَ»^٥.

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا [٥٩]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ سَبْحَانَهُ ابْتِلَاءَ بَعْضِ الْقُرَى بِعَذَابِ الْاسْتِئْصَالِ لِتَكْذِيبِهِمُ الرِّسْلَ مَعَ ظُهُورِ الْمَعْجَزَاتِ الْقَاهِرَةِ، أَظْهَرَ مَتْنَهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ تَعْذِيبِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا﴾ من ﴿أَنْ نُرْسِلَ﴾ ونَزَلَ ﴿بِالْآيَاتِ﴾ الْقَاهِرَةِ وَالْمَعْجَزَاتِ الْمَقْتَرَحَةِ مِنَ الْمَشْرِكِينَ شَيْئًا ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا﴾ الْعَتَاةُ ﴿الْأَوَّلُونَ﴾ وَالْكَفَّارُ السَّابِقُونَ، كَقَوْمِ عَادٍ وَثَمُودٍ وَأَضْرَابِهِمَا، فَاسْتَحَقُّوا لِذَلِكَ عَذَابَ الْاسْتِئْصَالِ، فَلَوْ أَرْسَلْنَا الْمَعْجَزَاتِ الَّتِي اقْتَرَحَهَا الْمَشْرِكُونَ وَكَذَّبُوا بِهَا، لَاسْتَوْجِبُوا عَذَابَ الْاسْتِئْصَالِ كَسَابِقِيهِمْ، فَمَنَّا عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِبَرَكَةِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ بَانَ لَا نَسْتَأْصِلُهُمْ بِالْعَذَابِ، أَلَمْ يَسْمَعُوا أَنَّا أَرْسَلْنَا صَالِحًا بِالنُّبُوَّةِ، واقترح قومه عليه وسألوه معجزة قاهرة فأجبتهم ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ بَانَ أَخْرَجْنَاهَا مِنَ الصَّخْرَةِ لِتَكُونَ لَهُمْ مَعْجَزَةً ﴿مُبْصِرَةً﴾ وموجبةً لليقين بصدق صالح وصحة دينه بحيث لم يبق معها لأحد مجال الشك في كونها معجزة، وفي صدق نبوة صالح ﴿فَظَلَمُوا﴾ الناقاة بَانَ عَقَرُوهَا وَكَذَّبُوا بِهَا ﴿وَعَرَضُوا

١. في النسخة: المراد بالقرية.

٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٣.

٣. تفسير العياشي ٣: ٥٧/٢٥٣٦، وفيه: والموت أو غيره، تفسير الصافي ٣: ١٩٨.

٤. من لا يحضره الفقيه ١: ٥٦٢/١١٨، تفسير الصافي ٣: ١٩٨.

٥. تفسير العياشي ٣: ٥٦/٢٥٣٤، تفسير الصافي ٣: ١٩٨.

أنفسهم للهلاك، وإنما ذكر سبحانه من الأمم المهلكة خصوص ثمود لأنهم كانوا من العرب مثلهم، وكانوا عالمين بحالهم ومشاهدين آثار هلاكهم.

عن القمي، عن الباقر عليه السلام: «أَنَّ مُحَمَّدًا عليه السلام سَأَلَهُ قَوْمُهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَآيَةً، فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وَكَثُرَ إِذَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَرْيَةٍ آيَةً فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا أَهْلَكْنَاهُمْ، فَلِذَلِكَ أَخْرَجْنَا عَنْ قَوْمِكَ الْآيَاتِ»^١.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ﴾ غير المقترحة من القرآن وسائر المعجزات ﴿إِلَّا﴾ لتكون ﴿تَخْوِيفاً﴾ وإنذاراً لهم بعذاب الآخرة، فَإِنَّ أَمْرَ أَمْتِكَ التي بُعِثَتْ إِلَيْهِمْ مؤخَّرٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَرَامَةً لَكَ.

عن سعيد بن جبیر: أَنَّ الْقَوْمَ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَكَ أَنْبِيَاءُ، فَمِنْهُمْ مَنْ سُحِّرَتْ لَهُ الرِّيحُ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى، فَأَتَانَا بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَعْجَزَاتِ، فَأَجَابَ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ يَقُولُ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ الآية^٢.

وعن ابن عباس: أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا الرَّسُولَ عليه السلام أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَباً، وَأَنْ يَزِيلَ الْجِبَالَ لَهُمْ حَتَّى يَزْرَعُوا [تِلْكَ] الْأَرْضَ الَّتِي تَحْتَهَا، فَطَلَبَ الرَّسُولُ عليه السلام ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنْ شِئْتَ فَعَلْتَ ذَلِكَ، لَكِنْ بِشَرَطِ أَنَّهُمْ إِنْ كَفَرُوا أَهْلَكْتَهُمْ. فَقَالَ الرَّسُولُ عليه السلام: «لَا أُرِيدُ ذَلِكَ بَلْ تَنَأَى^٣ بِهِمْ»، فَنَزَلَتْ^٤.

وقيل: إِنَّ وَجْهَ الْجَوَابِ أَنَّ الْأَوَّلِينَ شَاهَدُوا هَذِهِ الْمَعْجَزَاتِ، وَكَذَّبُوا بِهَا، فَعَلِمَ اللَّهُ مِنْكُمْ أَنَّكُمْ لَوْ شَاهَدْتُمُوهَا لَكُذِّبْتُمْ، فَكَانَ إِظْهَارُهَا عِبْثاً^٥.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا آلَ رَأْسٍ أَرْسِيَّتَكَ إِلَّا فِتْنَةً

لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّثُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا

كَبِيرًا [٦٠]

ثُمَّ لَمَّا صَارَ عَدَمُ إِجَابَةِ الرَّسُولِ مَسْأَلَةَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَا اقْتَرَحُوهُ مِنَ الْآيَاتِ سَبَباً لُجْرَتِهِمْ عَلَيْهِ وَطَعْنِهِمْ فِي رِسَالَتِهِ، قَوَّى سُبْحَانَهُ قَلْبَهُ الشَّرِيفَ بِوَعْدِهِ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ يَقُولُ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ بِتَوَسُّطِ جِبْرَائِيلَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ قُدْرَةً وَعِلْماً، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى أَمْرٍ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَلَا تُنَالُ بِهِمْ وَلَا تَخَفُ مِنْهُمْ فَانْهَمَ لَنْ يَضُرَّوكَ شَيْئاً، وَإِنَّ رَبَّكَ سَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ، وَيُؤَيِّدُكَ حَتَّى يُظْهِرَ دِينَكَ

٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٤.

١. تفسير القمي ٢: ٢١، تفسير الصافي ٣: ١٩٩.

٤. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٤.

٣. في تفسير الرازي: تَنَأَى.

٥. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٤.

على سائر الأديان.

وقيل: إن المراد من الناس أهل مكة، والمعنى: وإذ بشرناك بأن الله أحاط بأهل مكة بالقهر والغلبة، ويظهر دولتك عليهم، فهو نظير قوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾^١.

رؤي أنه لما تراحف الفريقان يوم بدر، ورسول الله ﷺ في العريش، كان يدعو ويقول: اللهم إني أسألك عهدك ووعدك لي، ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: سيهزم الجمع ويولون الدُّبُرَ^٢.

في ذكر رؤيا النبي ﷺ ثم قيل: إن الله أرى النبي ﷺ في المنام مصارع الكفار، فأخبرهم بها فكذبوه، فذكره الله تلك الرؤيا^٣ بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آلَ رُؤَيْسَةَ لَافِرِضٍ مِنَ الْإِنْسَانِ﴾^٤ لتكون ﴿فِتْنَةً﴾ وابتلاء ﴿لِلنَّاسِ﴾ وسبباً لتكذيبهم.

وقيل: إن المراد بالرؤيا الرؤيا التي رآها أنه يدخل مكة، وأخبر بذلك أصحابه، فلما منع [عن البيت الحرام] عام الخديبية كان ذلك فتنة لبعض القوم، وقال عمر لأبي بكر: أليس قد أخبرنا رسول الله ﷺ أنا ندخل البيت ونطوف به؟ فقال أبو بكر: [أنه] لم يُخبر أنا نفعل ذلك في هذه السنة، فسنفعل ذلك في سنة أخرى، رواها الفخر الرازي^٥.

وقيل: المراد رؤياه المعراج^٥، فإنه كما كان له معراج في البقطة كان له معراج في النوم. وعن سعيد بن المسيب: رأى رسول الله ﷺ بني أمية يتزؤون على مِثْبَرَةٍ نَزَوِ الْقِرْدَةِ، فسأه ذلك، قال الفخر: هذا قول ابن عباس في رواية عطاء. ثم قال: واعترضوا على هذين القولين، بأن هذه السورة مكية، وهاتان الواقعتان مدينتان، ثم رده بأن الواقعتين مدينتان، أما رؤيتهما في المنام فلا يبعد حصولهما في مكة^٦.

وعن ابن عباس: رأى رسول الله ﷺ في المنام أن ولد مروان يتداولون مِثْبَرَهُ^٧. وعن العياشي، عن الباقر عليه السلام: أنه شغل عن هذه الرؤيا. فقال: «إن رسول الله ﷺ أرى أن رجلاً من بني تميم وعددي على المنابر يزدون الناس عن الصراط القهقري»^٨.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «أن رسول الله ﷺ قد رأى رجلاً من نارٍ على منابر من نار، يزدون الناس

٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٥.

٤. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٦.

١. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٥، والآية من سورة القمر: ٥٤/٤٥.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٦، تفسير أبي السعود ٥: ١٨٢.

٥. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٦، تفسير أبي السعود ٥: ١٨١، تفسير روح البيان ٥: ١٧٨.

٦. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٦، وفيه: حصولها في مكة. ٧. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٧.

٨. تفسير العياشي ٣: ٢٥٤٤/٥٨، تفسير الصافي ٣: ١٩٩.

على أعقابهم القَهْقري، قال: ولنا نسَمِي أحداً^١.

وفي رواية أخرى: «إِنَّا لَا نَسَمِي الرجال، ولكن رسول الله ﷺ رأى قوماً على مَنبَرِهِ يُصَلُّونَ الناس بعده عن الصراط القَهْقري»^٢.

وفي رواية عن النبي ﷺ قال: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ صَيَّانَ بَنِي أُمَيَّةَ يَرْتُقُونَ عَلَى مَنبَرِي هَذَا، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ مَعِيَ؟ فَقَالَ: لَا وَلَكِنْ بَعْدَكَ»^٣.

وعن (الكافي) عن أحدهما ﷺ: «أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَثِيباً حَزِيناً، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا لِي أَرَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَثِيباً حَزِيناً؟ فَقَالَ: وَكَيْفَ لَا أَكُونُ وَقَدْ رَأَيْتُ فِي لَيْلَتِي هَذِهِ أَنَّ بَنِي تَيْمٍ وَبَنِي عَدِيَّ وَبَنِي أُمَيَّةَ يَصْعَدُونَ مَنبَرِي هَذَا، يَزِدُّونَ النَّاسَ عَنِ الْإِسْلَامِ الْقَهْقري. فَقُلْتُ: يَا رَبِّ فِي حَيَاتِي أَوْ بَعْدَ مَوْتِي؟ فَقَالَ: بَعْدَ مَوْتِكَ»^٤.

وفي رواية مضمرة أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَامَ فَرَأَى أَنَّ بَنِي أُمَيَّةَ يَصْعَدُونَ الْمَنَابِرَ، فَكَلِمَا صَعِدَ مِنْهُمْ رَجُلٌ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ، فَاسْتَيْقِظَ جَزْوعاً مِنْ ذَلِكَ، فَكَانَ الَّذِينَ رَأَوْهُ اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ، فَأَتَاهُ جَبْرِئِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، ثُمَّ قَالَ جَبْرِئِيلُ: [إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ] لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً إِلَّا مَلَكَ أَهْلَ الْبَيْتِ [ضَعْفِيهِ]»^٥.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديث - قال: «أَمَّا معاوية وابنه سيلبانهما بعد عثمان، ثُمَّ يَلِيهَا سَبْعَةٌ مِنْ وَلَدِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ تَكْمِلَةُ اثْنِي عَشَرَ إِمَاماً ضَلَالَةً، وَهُمْ الَّذِينَ رَأَوْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَنبَرِهِ يَزِدُّونَ النَّاسَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقري، عَشْرَةٌ مِنْهُمْ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ، وَرَجُلَانِ أَسَّسَا ذَلِكَ لَهُمْ، وَعَلَيْهِمَا أَوْزَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^٦.

إلى غير ذلك من الروايات الخاصة المتوافقة على أَنَّ الرُّوْيَا كَانَتْ نَزْوِ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى مَنبَرِ النَّبِيِّ ﷺ، ﴿وَذَكَرْنَا الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ لذلك، قيل: هي شجرة الرُّقُوم، وَسَمِيَتْ مَلْعُونَةً لِأَنَّهَا فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، وَهُوَ أَبْعَدُ الْأَمْكَنَةِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ^٧. أَوْ لِأَنَّهَا طَعَامُ الْكُفَّارِ الْمَلْعُونِينَ، أَوْ لِأَنَّهَا مَكْرُوهَةٌ مَبْغُوضَةٌ، كَمَا يُقَالُ: طَعَامُ مَلْعُونٍ، أَيْ ضَارٌّ مَكْرُوه. قيل: إِنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ يَزْعُمُ أَنَّ نَارَ

١. تفسير العياشي ٣: ٥٧/٢٥٤٠، تفسير الصافي ٣: ١٩٩.

٢. تفسير العياشي ٣: ٥٨/٢٥٤١، تفسير الصافي ٣: ٢٠٠.

٣. تفسير العياشي ٣: ٥٨/٢٥٤٢، تفسير الصافي ٣: ٢٠٠.

٤. الكافي ٨: ٣٤٥/٥٤٣، تفسير الصافي ٣: ٢٠٠. ٥. تفسير العياشي ٣: ٥٩/٢٥٤٥، تفسير الصافي ٣: ٢٠٠.

٦. الاحتجاج: ١٥٥، تفسير الصافي ٣: ٢٠٠.

٧. زاد في الاحتجاج: مثل جميع.

٨. تفسير روح البيان ٥: ١٧٨.

جهنم تُحَرِّقُ الحجر حيث قال: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^١ ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ فِي النَّارِ شَجَرًا، وَالنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ، فَكَيْفَ تُولَدُ فِيهَا الشَّجَرُ؟^٢

وقال ابن الزُّبَيْرِي: مَا نَعْلَمُ الرَّقُومَ إِلَّا التَّمْرَ وَالزَّيْدَ، فَتَزَقُّمُوا مِنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾^٣.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِهَا أَبُو جَهْلٍ أَوْ [الْحَكَمُ بْنُ أَبِي] الْعَاصِ^٤. وَقِيلَ: إِنَّهَا شَجَرَةُ الْيَهُودِ^٥.

وعن ابن عباس: الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ: بَنُو أُمَيَّةَ^٦.

وعن الباقر عليه السلام - فِي رِوَايَةٍ - قِيلَ: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ﴾؟ قَالَ: «هُمْ بَنُو أُمَيَّةَ»^٧.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ افْتِنَانِ النَّاسِ بِهِمَا^٨، بَيَّنَّ أَنَّهُ يَخَوْفُ النَّاسَ بِالْمُعْجَزَاتِ وَالْآيَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَخَوُّهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التَّخْوِيفَ ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ وَعَتَوُا عَظِيمًا وَتَمَادَيَا فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا خُشْيَ لَكَ دُرِّيئُهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا [٦١ - ٦٤]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ سَبَبُ عَتَوِ الْمُشْرِكِينَ وَمَعَارَضَتِهِمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِذْنَانَهُ الْكِبَرَ وَالْحَسَدَ، بَيَّنَّ أَنَّ هَاتَيْنِ الرَّذِيلَتَيْنِ أَوَّلُ مَا غَضِيَ اللَّهُ بِهِ، وَأَقْوَى الْأَسْبَابِ لِلْكُفْرِ فِي بَدْوِ الْخَلْقَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ﴾ تَكْبَرًا وَتَعْجَبًا مِنْ أَمْرِهِ بِالسُّجُودِ لَهُ: ﴿أَسْجُدُ﴾ يَا رَبِّ، وَأَنَا مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ﴾ وَكَانَ مَبْدَأُ خَلْقَتِهِ ﴿طِينًا﴾ قِيلَ: إِنْ «طِينًا» مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، وَالْمَعْنَى لِمَنْ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ^٩.

ثُمَّ لَمَّا رَأَى اللَّعِينُ تَبْعِيدهَ وَطَرْدَهُ مِنَ الرَّحْمَةِ وَتَقَرُّبِ آدَمَ وَتَكْرِيمِهِ ﴿قَالَ﴾ حَسَدًا وَعُدُوَانًا لِآدَمَ:

١. البقرة: ٢٤/٢. ٢. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٧.

٣. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٧، والآية من سورة الصافات: ٦٣/٣٧.

٤. تفسير البيضاوي ١: ٥٧٥.

٥. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٧.

٦. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٧.

٧. تفسير الرازي ٢٠: ٢٣٧.

٨. تفسير أبي السعود ٥: ١٨٣.

٩. كذا، ولعل المراد الرؤيا والشجرة الملعونة.

يا رب ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ وأخبرني عن ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ﴾ وفصلته ﴿عَلَيْ﴾ بأن أمرني بالسجود له مع ملائكتك، لم كرمته علي وشرفته بالخلافة وأنا خير منه بعزتك؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ حياً وأنظرني ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وقيل: يعني إن أبقيتني على صفة الإغواء والضلالة^١ ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ ولاستأصلن ﴿ذُرِّيَّتَهُ﴾ بالعذاب، أو لأستولين عليهم بالإغواء ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ منهم، وهم المخلصون الذين عصمتهم من اتباع الشهوات والخطايا والزلات.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى تبيداً وإهانة أو تهديداً له: ﴿أَذْهَبْ﴾ يا ملعون وافعل ما شئت ﴿فَمَنْ تَسِبَّكَ مِنْهُمْ﴾ على الضلالة والعصيان وأطاعك في الكفر والطغيان ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ يا إبليس ويا اتباع إبليس ﴿جَزَاءُكُمْ﴾ على مخالفتي حال كونها ﴿جَزَاءٌ مَوْفُوراً﴾ كاملاً تاماً ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ وحرك إلى المعصية، أو استزَلَّ ﴿مَنْ أَسْتَطَفْتُ﴾ أن تستغزه أو تزله من ذرية آدم وقدرت أن تهيجه لمخالفتي ﴿مِنْهُمْ بِصُورَتِكَ﴾ ودعائك ووسوستك.

وقيل: إن المراد بصوته: الغناء والتمزيم^٢. وقيل: الأصوات التي ليس فيها رضا الله. ﴿وَأَجْلِبْ﴾ وصيح، أو اجمع، أو استمع ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وعلى إغوانهم ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ﴾ وفرسانك ومُشَاتِكَ. وقيل: بجميع جُنْدِكَ. وقيل: بجميع قواك وغاية جهدك^٣.

عن ابن عباس: كل راکبٍ أو راجلٍ في معصية الله فهو من خيل إبليس وجنوده^٤. ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ بترغيبهم إلى تحصيلها من الوجه المحرم، أو إلى التصرفات المحرمة فيها، أو إلى جعل البحيرة والسائبة وأخواتهما، أو إلى أن يجعلوا فيها نصيباً لغير الله ﴿وَيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بتهميجهن إلى الزنا، أو تسميتهن بعبد اللات، أو عبد العزى، أو إلى دعوة أولادهم إلى اليهودية أو النصرانية أو سائر الأديان الباطلة، أو إلى الاقدام في قتلهم، أو إلى ترغيبهم في الفحش أو القتل والقتال والجرف الخبيثة.

وعن الصادق عليه السلام، أنه قرئت عليه هذه الآية ثم قال: «إن الشيطان ليحيى حتى يقعد من المرأة كما يقعد الرجل منها، ويحدث كما يحدث، وينكح كما ينكح» قيل: بأي شيء يعرف؟ قال: «بحبنا وبغضنا، فمن أحبنا كان نطفة العبد، ومن أبغضنا كان نطفة الشيطان»^٥.

وعنه عليه السلام: «إذا ذكر اسم الله تنحى الشيطان، وإن فعل ولم يُسمَ أدخل ذكره، وكان العمل منهما

١. تفسير روح البيان ٥: ١٨١.

١. تفسير روح البيان ٥: ١٨٠، وفيه: والإضلال.

٢. تفسير الرازي ٢١: ٦، تفسير أبي السعود ٥: ١٨٤.

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٨١.

٤. الكافي ٥: ٢٠٢، تفسير الصافي ٣: ٢٠٣.

[جميعاً] والنطفة واحدة^١.

والقمي قال: ما كان من مالٍ حرام فهو شريك الشيطان، فإذا اشترى به الإمام ونكحهنَّ وولد له فهو شريك الشيطان، كلما^٢ تلد [يَلْزَمُهُ] منه، ويكون مع الرجل إذا جامع فيكون الولد من نطفته ونطفة الرجل^٣. والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

﴿وَعَذَابُهُمْ﴾ يا إبليس بالمنافع الدنيوية، والأمن من الضرر بها، بأن يُنكَرَ المعاد والجَنَّة والنار، أو وَعَذَابُهُمْ بتسويق التوبة، أو بالأمانى الباطلة، أو بشفاعة الأصنام عند الله، أو بالأنساب الشريفة، ثم زجر عن قبول وعده بقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وكذباً مزيناً في قلوبهم متعقباً بالندامة والخسران.

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا [٦٥]

ثم عَيَّن الله القليل الذي استثناه الشيطان من عموم إغوانه بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المخلصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾ من حيث الإغواء ﴿سُلْطَانٌ﴾ واستيلاء، لعدم تأثير دعوتك وتسويلك في قلوبهم، لأنهم يتوكلون على رَبِّهِمْ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ لهم ﴿وَكِيلًا﴾ وحافظاً من كيد الشيطان، ومدبراً أمورهم على وفق الصلاح، ومسبباً لأسباب سعادتهم وموفقاً لهم لجميع الخيرات.

وقيل: لما أخبر سبحانه باستيلاء الشيطان على من سوى المخلصين خاف المؤمنون منه خوفاً عظيماً، فأخبرهم عن كمال قدرته ولطفه بهم بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ والمعنى: أن الشيطان، وإن كان قادراً على الاضلال، ولكنَّ الله أقدر وأرحم بعباده من الكل، فهو يدفع كيد الشيطان ويعصمهم من إغوانه^٤ إذا توكلوا عليه.

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّه كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا

* وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ

أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا [٦٦ و ٦٧]

ثم استشهد سبحانه على لطفه الخاص بعباده بلطفه العام لجميع الناس بقوله: ﴿رَبُّكُمُ﴾ هو القادر اللطيف ﴿الَّذِي يُزْجِي﴾ ويسير أو يسوق نفعاً ﴿لَكُمْ﴾ ولطفاً بكم ﴿الْفُلْكَ﴾ والسفن ﴿فِي الْبَحْرِ﴾

٢. في تفسير القمي: كما.

٤. تفسير الرازي ٢١: ٩.

١. الكافي ٥: ٣/٥٠١، تفسير الصافي ٣: ٢٠٣.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٢، تفسير الصافي ٣: ٢٠٤.

بقدرته الكاملة ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا لأنفسكم بعضاً ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ ونعمه بالتجارة ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ من بدو خلقكم ﴿بِكُمْ رَحِيماً﴾ وعطوفاً حيث هيأ لكم جميع ما تحتاجون إليه، وسهّل عليكم أسباب معيشتكم، وحَفَظَكم من خَطَرَاتِ البحر ومهالكه.

ثم استدلّ على توحيده بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ﴾ وأصابكم ﴿الْفُضْرُ فِي الْبَحْرِ﴾ وظهرت لكم أمارات الفرق من تلاطم البحر وتراكم الأمواج من كل مكان و﴿ضَلَّ﴾ وذهب من خواطركم ﴿مَنْ تَدْعُونَ﴾ وتلتجئون إليه في حوائجكم ﴿إِلَّا إِلَهًا﴾ تعالى وحده لا رتكاز التوحيد وانحصار القدرة والتصرف في عالم الوجود في الله الذي هو خالق جميع الموجودات في فطرة الانسان.

رُوي أن رجلاً قال للصادق عليه السلام: يا بن رسول الله، دلّني على الله، فقد أكثر عليّ المجادلون وحيروني. فقال [له]: «يا عبدالله، هل ركبت سفينة قط؟» قال: بلى. قال: «فهل كُسرَت بك حيث لا سفينة تُنجيك ولا سباحة تُغنيك؟» قال: بلى. قال: «فهل تعلق قلبك هناك أنّ شيئاً من الأشياء قادرٌ على أن يخلصك من وَرْطَتِكَ؟» قال: بلى. قال عليه السلام: «فذلك الشيء هو الله القادر على الإنقاذ حين لا مُنْجى»^١.

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ والساحل سالمين^٢ ﴿أَغْرَضْتُمْ﴾ عنه تعالى وكفرتم تلك النعمة وسائر نعمه بأشراككم له في العبادة غيره ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ بجنسه وطبعه ﴿كَفُوراً﴾ لِنِعَمِ رَبِّهِ، ومبالغاً في مقابلتها بالعصيان، وإنّما يصير شاكراً بتوفيق الله وهدايته.

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيّاً بِهِ نَبِيعاً [٦٨ و ٦٩]

ثم هدّهم على الكفران بقوله: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ﴾ من أن يهلككم الله بسبب ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ وقطعته التي تحتكم، وحسبتم أنّها المأمن لكم مثل قارون ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ في البرّ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من فوقكم ريحاً ﴿حَاصِباً﴾ مرامياً بالأحجار الصغار، فيكون أشدّ من الغرق، كما أرسل على قوم لوط ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا﴾ أحداً يكون ﴿لَكُمْ وَكِيلاً﴾ وحافظاً ومُنْجِياً منه.

وحاصل المراد كما تحتاجون إليه تعالى في أن يحفظكم من الغرق وأنتم في البحر، كذلك تحتاجون إليه في أن يحفظكم من الهلاك وأنتم في البرّ، إذ كما أنّه قادرٌ على أن يُغْرِقَكُم في الماء

قادرٌ على أن يهلككم من جانب التحت، بأن يغيبكم في التراب، أو من جانب فوق بأن يُمطر عليكم الحجارة.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ بعد خروجكم ونجاتكم من البحر من ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ بسبب إيجاد الحوانج المهمة التي لا يمكنكم صرف النظر عنها ﴿تَارَةً﴾ ومرة ﴿أُخْرَى﴾ بعد المرة الأولى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ وأنتم في البحر ﴿قَاصِفًا﴾ وشديداً ﴿مِنْ الرِّيحِ﴾ فيكسر فلككم ﴿فَيُفَرِّقَكُم﴾ في البحر جزاء ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بالله وبنعمة إنجائه الأول، وأشركتم به غيره في العبادة ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ﴾ بسبب إغراقكم، ولا تألفوا ﴿عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ وحامياً يتبعنا بمطالبة العلة والسبب.

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا [٧٠]

ثم أنه تعالى بعد المنة بتسهيل سير الانسان في البحر، وحفظه من المهالك، وكفرانهم تلك النعمة، بالغ في إظهار منته عليهم بعد إهانة عدوهم إبليس بإكرامهم وتفضيلهم بالنعم بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وأعلينا شأنهم كرامة وتولية شأن شاملة لجميع أفرادهم برّهم وفاجرهم، حيث خصصناهم بأحسن الصور، وأشرف الأرواح، واعتدال القامة، والأخذ باليدين، والأكل بالأصابع، وزينة اللحى والذوائب، وقابلية الكتابة، والتكلم باللسان، وتعلم الصنائع والجرف والعلوم، ووجدان العقل المدرك للكليات، والمميز بين الخير والشر، وملاحظة عواقب الأمور، وغير ذلك من الخصائص.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ على الحيوانات الحاملة ﴿و﴾ في ﴿الْبَحْرِ﴾ على السفن والزوارق ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ﴾ وأطعمناهم ﴿مِنْ﴾ أنواع النعم ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ والمستلذات مما يوجد بصنعهم وبغير صنعهم ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ بالمعارف الالهية والأخلاق النفسانية ﴿عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ في عالم الوجود، وهم ما عدا الملائكة، كما عن ابن عباس^١. أو ما عدا العقول المجردة والأنوار الاسفهدية^٢، أو ما عدا آدم وحواء ﴿تَفْضِيلًا﴾ عظيماً ظاهراً.

عن الصادق عليه السلام: «يقول فضلنا بني آدم على سائر الخلق ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يقول: على الرطب واليابس ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يقول: من طيبات الثمار كلها ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ يقول: ما من دابة ولا طائر إلا وهي تأكل وتشرب بفمها، لا ترفع يدها إلى فيها طعاماً ولا شرباً، إلا ابن آدم

١. تفسير الرازي ٢١: ١٦.

٢. الاسفهد: معرب كلمة (اسهبهد) فارسية، لها معاني عدة، ولعل المراد هنا النفس الناطقة، أو القوة المتكلمة في الإنسان، كما عرّفها الفلاسفة الاشراقيون من الفرس. راجع: لغت نامه دهخدا ٦: ٢٠٨٣ و ٢٣٣١.

فأنه يرفع إلى فيه بيده طعامه»^١.

عن الباقر عليه السلام: «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ» قال: «خَلِقَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْكَ غَيْرَ الْإِنْسَانِ، فَأَنَّهُ خَلِقَ مُتَتَّبِعاً»^٢.

وقيل: إن المراد ببني آدم خصوص المؤمنين^٣.

القمي عنه عليه السلام:^٤ «أَنَّ اللَّهَ لَا يَكْرِمُ رُوحَ الْكَافِرِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ» إلى أن قال: «وَالرُّزْقُ الطَّيِّبُ: هُوَ الْعِلْمُ»^٥.

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْبِيَ كِتَابَهُ بِإِمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا [٧١]

ثم أنه تعالى بعد بيان كرامة الإنسان في الدنيا ردعاً لهم من الشرك، بيّن درجاتهم في الآخرة تهديداً لهم على العصيان بقوله: ﴿يَوْمَ﴾ والتقدير: اذكروا يوم القيامة فإنه يوم ﴿نَدْعُوا﴾ فيه ﴿كُلُّ أُنَاسٍ﴾ وأمة وأهل عصر من بني آدم الذين أكرمناهم وفضلناهم في الدنيا ونصّهم في الدعوة ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ ومقتداهم وخليفته. وقيل: يعني ندعوهم باسم إمامهم^٦. فيقال: يا أمة إبراهيم، ويا أمة موسى، ويا أمة عيسى، ويا أمة محمد، ويا شيعة عليّ والمعصومين من ذريته.

عن الصادق عليه السلام: قال: «بإمامهم الذي بين أظهرهم، وهو قائم أهل زمانه»^٧.

وعن الباقر عليه السلام في هذه الآية، قال: «يجيء رسول الله عليه السلام في قومه^٨، وعليّ عليه السلام في قومه، والحسن عليه السلام في قومه، والحسين عليه السلام في قومه، وكلّ من مات بين أظهر^٩ قوم جاءوا معه»^{١٠}.

وعنه عليه السلام: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْتَ إِمَامَ [النَّاسِ] كُلِّهِمْ أَجْمَعِينَ؟ فَقَالَ: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَلَكِنْ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَّةٌ عَلَى النَّاسِ^{١١} مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَقُومُونَ فِي النَّاسِ فَيُكَذِّبُونَ وَيُظْلِمُهُمْ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَأَشْيَاعُهُمْ، فَمَنْ وَالَاهُمْ وَأَتَّبِعَهُمْ

١. أمالي الطوسي: ١٠٧٢/٤٨٩، عن زيد بن علي، عن أبيه عليه السلام، تفسير الصافي ٣: ٢٠٥.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٥٥٧/٦٣، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦.

٣. تفسير روح البيان ٥: ١٨٥.

٤. تفسير القمي ٢: ٢٢، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦.

٥. الكافي ١: ٣/٤٥١، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦.

٦. في تفسير القمي: طهراني.

٧. زاد في تفسير العياشي والكافي: من الله.

٨. أي عن الباقر عليه السلام.

٩. مجمع البيان ٦: ٦٦٣.

١٠. في تفسير القمي: في فرقة، وكذا ما بعدها.

١١. تفسير القمي ٢: ٢٣، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦.

وَصَدَقَهُمْ فَهُوَ مِنِّي وَمَعِيَ وَسِيلِقَانِي، أَلَا وَمَنْ ظَلَمَهُمْ وَكَذَّبَهُمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَا مَعِيَ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيٌّ»^١.
وعن الحسين عليه السلام، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: «إِمَامٌ دَعَا إِلَى الْهَدْيِ فَأَجَابُوهُ إِلَيْهِ، وَإِمَامٌ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَأَجَابُوهُ إِلَيْهَا، هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾»^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «سَيَدَعِي كُلُّ أَنْاسٍ بِإِمَامِهِمْ، أَصْحَابُ الشَّمْسِ بِالشَّمْسِ، وَأَصْحَابُ الْقَمَرِ بِالْقَمَرِ، وَأَصْحَابُ النَّارِ بِالنَّارِ، وَأَصْحَابُ الْحِجَارَةِ بِالْحِجَارَةِ»^٣.

وعنه عليه السلام: «أَنْتُمْ وَاللَّهُ عَلَى دِينِ اللَّهِ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: «عَلَيَّ إِيْمَانُنَا، وَرَسُولُ اللَّهِ إِيْمَانُنَا، وَكَمْ مِنْ إِمَامٍ يَجِيئُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَلْعَنُ أَصْحَابُهُ وَيَلْعَنُونَهُ»^٤.

وعن (المجمع) عنه عليه السلام: «أَلَا تَحْمَدُونَ اللَّهَ، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُدْعَى كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَنْ يَتَوَلَّوْنَهُ، وَفَزَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَفَزَعْتُمْ إِلَيْنَا، فَإِلَى أَيْنَ تَرَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ بِكُمْ؟ إِلَى الْجَنَّةِ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ» قَالَهَا ثَلَاثًا^٥.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْإِمَامِ الْكِتَابُ، فَيُدْعَى: يَا أَهْلَ التَّوْرَةِ، وَيَا أَهْلَ الْإِنْجِيلِ، وَيَا أَهْلَ الْقُرْآنِ^٦.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْإِمَامِ هُوَ الدِّينُ، فَيَقَالُ يَا يَهُودَ، يَا نَصَارَى، يَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ^٧.

وقيل: إِنَّ الْإِمَامَ جَمْعُ أُمٍّ، كَخِيفَ جَمْعُ خُفٍّ، فَيَقَالُ: يَا بَنَ فُلَانَةٍ، إِجْلَالًا لِبَعْضِ النَّاسِ كَعِيسَى وَالْحُسَيْنِ، وَسُتْرًا عَلَى أَوْلَادِ الزِّنَا^٨.

عن ابن عباس وعائشة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَدْعُو النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِهِمْ سِتْرًا مِنْهُ عَلَى عِبَادِهِ»^٩.

وعلى أي تقدير «فَمَنْ أُوتِيَ» وَأَعْطِيَ «كِتَابُهُ» وصحيفة أعماله من السُّعْدَاءِ وَالصُّلَحَاءِ «بِإِيْمَانِهِ» تشريفًا وتبشيرًا لَهُ «فَأُولَئِكَ» السُّعْدَاءُ «يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ» مسرورين بما فيه من الحَسَنَاتِ «وَلَا يُظْلَمُونَ» وَلَا يُنْقَصُونَ مِنْ أَجُورِ أَعْمَالِهِمُ الْمَكْتُوبَةِ فِيهِ «فَتِيلًا» وَقَدْرًا قَلِيلًا.

١. تفسير العياشي ٣: ٢٥٦٤/٦٥، الكافي ١: ١/١٦٨، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦.

٢. أمالي الصدوق: ٢٣٩/٢١٧، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦، والآية من سورة الشورى: ٧/٤٢.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٥٦١/٦٤، تفسير الصافي ٣: ٢٠٦.

٤. تفسير العياشي ٣: ٢٥٦٣/٦٤، تفسير الصافي ٣: ٢٠٧.

٥. في المصدر: ودعانا. ٧. مجمع البيان ٦: ٦٦٣، تفسير الصافي ٣: ٢٠٧.

٨. تفسير الرازي ٢١: ١٧، تفسير روح البيان ٥: ١٨٧. ٩. تفسير روح البيان ٥: ١٨٧.

١٠. تفسير أبي السعود ٥: ١٨٧، تفسير روح البيان ٥: ١٨٧.

١١. تفسير روح البيان ٥: ١٨٧.

عن ابن عباس الفتييل: هو الوسخ الذي يظهر بقتل الانسان إبهامه بسبابته^١.
 قيل: إنما خص أصحاب اليمين بالقراءة؛ لأن أصحاب الشمال إذا أطلعوا على ما في كتابهم أخذهم الحياء والخجل والعجز عن إقامة حروف الكتاب، أو يستولى الخوف والوحشة على قلوبهم، ويثقل لسانهم فيعجزوا عن القراءة، وأما أصحاب اليمين فهم يقرأون كتابهم على أحسن الوجوه، ثم لا يكتفون بقراءتهم وحدهم، بل يقولون لأهل المحشر: «هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً»^٢.

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا [٧٢]

ثم أنه تعالى بعد بيان نعمته العظيمة على الإنسان في الدنيا وإحسانه إليه^٣ في الآخرة، هدّد الكافرين لنعمه بقوله: «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ» النعم الجسيمة الدنيوية، أو في هذه الدنيا «أَعْمَى» القلب عن معرفة نعمته ورؤية نعمه عليه، أو بطريق تفرّبه إليه «فَهُوَ فِي» أمر «الْآخِرَةِ» ومعرفة أحوالها وطريق السلامة فيها، أولى بأن يكون «أَعْمَى» القلب وفاقد البصيرة.
 عن عكرمة، قال: جاء نفرٌ من أهل اليمن إلى ابن عباس، فسأله رجلٌ عن هذه الآية، فقال: اقرأ ما قبلها، فقرأ «رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلُوكَ» إلى قوله: «تَفْضِيلًا»^٤ قال ابن عباس: من كان في هذه النعم التي قد رأى وعاین أعمى، فهو في أمر الآخرة التي لم ير ولم يعاین أعمى^٥. «وَأَضَلُّ سَبِيلًا». وفي نقل آخر عنه قال: من كان في الدنيا أعمى عمّا يرى من قدرة الله في خلق السماوات والأرض، والبحار والجبال، والناس والدواب، فهو عن أمر الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً، وأبعد عن تحصيل العلم به^٦.

وقيل: يعني من كان في الدنيا ضالاً كافراً، فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً، لأنه في الدنيا يهتدي إلى التخلص من أنواع الآفات، وفي الآخرة لا يهتدي إلى ذلك، وفي الدنيا تُقبَل توبته، وفي الآخرة لا تُقبَل^٧.

وقيل: يعني من كان في هذه الدنيا أعمى عن معرفة الله، فهو في الآخرة أعمى عن طريق الجنة^٨.
 وقيل: يعني من كان في هذه الدنيا منهمكاً في الشهوات، ومنغمراً في ظلمات الجهل، فهو في الآخرة أعمى ليس معه شيء من أنوار معرفة الله، فيكون منغمراً في ظلمات شديدة وحسرة

١. تفسير الرازي ٢١: ١٨.

٢. تفسير الرازي ٢١: ١٨، والآية من سورة الحاقة: ١٩/٦٩.

٣. تفسير الرازي ٢١: ١٨.

٤. الإسراء: ١٧/٦٦-٧٠.

٥. في النسخة: إليهم.

٦. تفسير الرازي ٢١: ١٩.

٧. تفسير الرازي ٢١: ١٩.

عظيمة.

وقيل: يعني من كان في هذه الدنيا أعمى القلب، حُشِرَ يوم القيامة أعمى العين والبصر، فيقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا؟^١

وعن الباقر عليه السلام: «من لم يدله خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ودوران الشمس والقمر والآيات العجيبات على أن وراء ذلك أمراً أعظم منه، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً»^٢.
وعن الرضا عليه السلام: «إياك وقول الجهال [من] أهل العمى والضلال الذين يزعمون أن الله جلّ وتقدس موجود في الآخرة للحساب والثواب والعقاب، وليس بموجود في الدنيا للطاعة والرجاء، ولو كان في الوجود لله عز وجل نقص واهتصاص لم يوجد في الآخرة أبداً، ولكن القوم تاهوا وعموا وصموا عن الحق من حيث لا يعلمون، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يعني أعمى عن الحقائق الموجودة»^٣.

وعن (الخصال) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أشد العمى من عمي عن فضلنا وناصبنا العداوة بلا ذنب سبق إليه منا، إلا أن دعونا إلى الحق، ودعاه من سوانا إلى الفتنة في الدنيا فأتاها، ونصب البراءة منا والعداوة [لنا]»^٤.

وعن الصادق عليه السلام، أنه سئل عن هذه الآية فقال: «ذلك الذي يسوف نفسه الحج - يعني حجة الاسلام - حتى يأتيه الموت»^٥.

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا [٧٤ و ٧٣]

ثم لما كان من لوازم عمى القلب الاغترار بوساوس أهل الضلال، نهى المؤمنين عنه بتهديد نبيه المعصوم من كل زلل عليه بقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ والمعنى وإن الشان أن المشركين قَرَّبُوا ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ويَصْرِفُونَكَ بخدعهم ومكرهم ﴿عَنِ﴾ تبليغ ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من الأحكام والوعد والوعيد ﴿لِتَفْتَرِيَ﴾ وتختلق ﴿عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ مما يلقونه إليك ﴿وَإِذَا﴾ والله ﴿لَا تَخَذُوكَ﴾ واختاروك لأنفسهم

١. تفسير الرازي ٢١: ١٩، والآية من سورة طه: ١٢٥/٢٠.

٢. التوحيد: ٦/٤٥٥، تفسير الصافي ٣: ٢٠٧.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٧٥، التوحيد: ١/٤٣٨، تفسير الصافي ٣: ٢٠٧.

٤. الخصال: ١٠/٦٣٣، تفسير الصافي ٣: ٢٠٧.

٥. تفسير القمي ٢: ٢٤، تفسير العياشي ٣: ٢٥٧٠/٦٦، الكافي ٤: ٢/٢٦٨، تفسير الصافي ٣: ٢٠٧.

﴿خَلِيلًا﴾ وصديقاً مع أنك تكون لنا حبيباً ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئْنَاكَ﴾ على الحقِّ وعصمتك من الزلل بالملكة القدسية وتأييدك بروح القدس ﴿لَقَدْ كِدْتَ﴾ وقُرِبت من أنه ﴿تَزَكَّى﴾ وتَمِيل ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وتعزِّم على موافقة مرادهم بمقتضى الطبيعة البشرية ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ وركونا يسيراً لقوة مقتضياته من كثرة خدعهم وشدة احتيالهم.

عن ابن عباس: نزلت في وفد ثقيف، أتوا رسول الله ﷺ فسألوه شَطَطًا، وقالوا: متعنا باللات سنة، وحرّم وادينا كما حرّم مكة شجرها وطيرها ووحشها، فأبى ذلك رسول الله ﷺ ولم يُجِبْهم، فكفروا ذلك الالتماس، وقالوا: إنا نحب أن تعرف العرب فضلنا عليهم، فإن كرهت ما نقول وخشيت أن تقول العرب: أعطيتهم ما لم نعطنا. فقل: الله أمرني بذلك، فأمسك رسول الله ﷺ عنهم، وداخلهم الطمع، فصاح عليهم عمر، وقال: أما ترون أن رسول الله ﷺ [قد] أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه، فأنزل الله هذه الآية^١.

وروي أنهم جاءوا بكتابهم فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب [من] محمد رسول الله إلى ثقيف لا تعشرون ولا يحشرون. فقالوا: ولا يجنون. فسكت رسول الله ﷺ، ثم قالوا للكاتب: اكتب ولا تجنون، والكاتب ينظر إلى رسول الله ﷺ، فقام عمر وسل سيفه، وقال: أسعرتم قلب نبينا أسعر الله قلوبكم ناراً، فقالوا: لسانا نكلمك، إنما نكلم محمدًا، فنزلت^٢.

وروي أن قريشاً قالوا له: اجعل آية العذاب آية رحمة^٣. حتى تؤمن بك، فنزلت^٤. وقيل: إن كفار مكة أخذوا رسول الله ﷺ ليلة بمكة قبل الهجرة، فقالوا: كُف يا محمد عن ذم آلها وتسميها، فلو كان ذلك حقاً كان فلان وفلان بهذا الأمر أحق منك. فوقع في قلب رسول الله ﷺ أن يكف عن شتم آلهم، فنزلت^٥.

وعن سعيد بن جبير أنه ﷺ كان يستلم الحجر، فمنعه قريش وقالوا: لا ندعك حتى تستلم آلها، فوقع في نفسه أن يفعل ذلك مع كراهية، فنزلت^٦.

عن الصادق عليه السلام، أنه سُئِلَ عن هذه الآية فقال: «لما كان يوم الفتح، أخرج رسول الله ﷺ أصناماً من المسجد، وكان منها صنم على المروة، وطلبت قريش أن يتركه، وكان ﷺ مستحيياً، فهم يتركه، ثم أمر بكسره، فنزلت»^٧.

١ و٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٠.

٣. في تفسير الرازي: اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة.

٤-٦. تفسير الرازي ٢١: ٢٠.

٧. تفسير العياشي ٣: ٢٥٧٤/٦٨، تفسير الصافي ٣: ٢٠٨.

عن الصادق عليه السلام: «ما عاتب الله نبيه فهو يعني به من قد مضى في القرآن، مثل قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَا﴾ إلى أن قال: عنى بذلك غيره»^١.

وعن الرضا عليه السلام، في حديث المأمون في عصمة الأنبياء حيث سأله عن قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ﴾^٢ قال: «هذا مما نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة، خاطب الله بذلك نبيه صلى الله عليه وآله والمراد به أمته، وكذلك قوله عز وجل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾^٣ وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَا﴾ الآية»^٤.

إِذَا لَأَذْنَبْنَا ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * وَإِنْ كَادُوا لَيْسْتَغْفِرُواكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا [٧٥-٧٧]

ثم هدد على الركون إلى الكفار بقوله: ﴿إِذَا﴾ والله ﴿لَأَذْنَبْنَا﴾ عذاباً يكون ﴿ضِعْفُ﴾ العذاب الذي يكون لغيرك ومثليه بهذا العمل في ﴿الْحَيَاةِ﴾ الدنيا ﴿وَضِعْفُ﴾ ذلك في ﴿الْمَمَاتِ﴾ لكونك أعرف الخلق بعظمة الله وحقوقه ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ومدافعاً عنك.

روى الثعلبي: أنه لما نزلت الآية قال النبي صلى الله عليه وآله: «اللهم لا تكلني إلى نفسي ولو طرفة عين»^٥. ثم أنه تعالى بعد ذكر جيل المشركين في افتتان النبي صلى الله عليه وآله عن تبليغ الوحي والاضرار به في دينه، ذكر همهم باخراج النبي صلى الله عليه وآله من مكة والاضرار به في دنياه بقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيْسْتَغْفِرُواكَ﴾ وليزعمونك سريعا ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ التي هي وطنك، وهي مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾. قيل: إن أهل مكة شاوروا في اخراج النبي صلى الله عليه وآله منها، فاتفق رأيهم على أن يفرطوا في اظهار عداوته وإيذائه حتى يضطر إلى الخروج، فنزلت^٦.

ثم هددهم بقوله: ﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ﴾ ولا يَمَكُون ولا يحيون ﴿خِلَافَكَ﴾ وبعد خروجك في الدنيا ﴿إِلَّا﴾ زماناً ﴿قَلِيلًا﴾ ومدةً يسيرة، وقد كان كذلك، فإن الذين توافقوا على إخراجهم من مكة واضطروه إلى المهجرة إلى المدينة، أهلكوا بيد بعد مدة قليلة، وذلك الاهلاك كان ﴿سُنَّةً﴾ الله ودأبه على قانون الحكمة البالغة لأجل ﴿مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ مع أعدائهم الذين أخرجوهم من بين أظهرهم ﴿وَلَا تَجِدُ﴾ يا محمد، في شأنك وشأن مخرجيك من أعدائك ﴿لِسُنَّتِنَا﴾ وعادتنا القديمة من إهلاكهم ﴿تَحْوِيلًا﴾ وتغييراً.

١. تفسير العباسي ١: ٢٩/٨٤، الكافي ٢: ١٤/٤٦١، تفسير الصافي ٣: ٢٠٩. ٢. التوبة: ٤٣/٩.

٣. الزمر: ٦٥/٣٩. ٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٠٢، تفسير الصافي ٣: ٢٠٨.

٥ و ٦. تفسير روح البيان ٥: ١٩٠.

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا [٧٨]

ثم لما ذكر سبحانه منه على نبيه ﷺ بحفظه من كيد أعدائه وفتنتهم، ووعد بهلاك مخرجيه من مكة ونصرته عليهم، أمره بالاقبال إليه والقيام بوظائف العبودية التي أهمها الصلاة بقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ وأدمها كما قيل ﴿لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ وزوالها عن خط نصف النهار إلى غسق الليل وظلمته الشديدة الحاصلة بعد زوال الحمرة المغربية.

عن جابر، قال: طعم عندي رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فقال النبي ﷺ: «هذا حين ذلكت الشمس»^١.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أتاني جبرئيل لذلوك الشمس، حين زالت الشمس، فصلى بي الظهر»^٢.

وعن الباقر عليه السلام، أنه سئل عما فرض الله من الصلاة؟ فقال: «خمس صلوات في الليل والنهار» فقيل: هل سمانهن وبينهن في كتابه؟ فقال: «نعم، قال الله تعالى لنبيه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وذلوكها زوالها، ففيما بين ذلوك الشمس إلى غسق الليل أربع صلوات سمانهن الله وبينهن وقتنهن، وغسق الليل: انتصافه، ثم قال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فهذه الخامسة»^٣.

والعياشي عنهما عليه السلام، في هذه الآية، قال: «جَمَعَتِ الصَّلَوَاتُ كُلَّهِنَّ، وذلوك الشمس: زوالها، وغسق الليل: انتصافه» وقال: «إِنَّهُ ينادي منادٍ من السماء كل ليلة إذا انتصف [الليل]: من رَقَدَ عن صلاة العشاء إلى هذه الساعة فلا نامت عيناه ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ قال: صلاة الصبح. وأما قوله: ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: تحضره ملائكة الليل والنهار»^٤.

وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عن أفضل المواقيت في صلاة الفجر، فقال: «مع طلوع الفجر، إن الله يقول: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يعني صلاة الفجر يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فإذا صلى العبد الصبح مع طلوع الفجر أثبتت له مرتين: أثبتتها ملائكة الليل وملائكة النهار»^٥.

٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٥.

١. تفسير الرازي ٢١: ٢٥.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٥٧٨/٧٠، الكافي ٣: ٢٧١/١، من لا يحضره الفقيه ١: ٦٠٠/١٢٤، التهذيب ٢: ٩٥٤/٢٤١،

تفسير الصافي ٣: ٢١٠. ٤. تفسير العياشي ٣: ٢٥٨٣/٧٢، تفسير الصافي ٣: ٢١٠.

٥. الكافي ٣: ٢٨٣/٢، تفسير الصافي ٣: ٢١٠.

وروى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَّ ذُلُوكَ الشَّمْسِ غُرُوبُهَا»^١. ورووه أيضاً عن ابن عباس وابن مسعود وابن جبير^٢، ورووا عن ابن عباس: أَنَّ غَسَقَ اللَّيْلِ: دخوله بظلمته^٣.
أقول: على هذين القولين يكون المراد من الصلاة صلاة المغرب، أو هي مع العشاء، وقيل: إن تسمية صلاة الفجر بقرآن الفجر تدلُّ على استحباب إكثار تلاوة القرآن فيها^٤.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا [٧٩]

ثم خص سبحانه نبيه ﷺ بفريضة زائدة بقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ وفي بعض منه ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ بالقرآن وأترك النوم مشتغلاً بصلاة الليل المصحوبة أو المقرونة ﴿بِهِ﴾ واعلم أنَّ هذه الصلاة تكون فريضة ﴿نَافِلَةً﴾ وزائدة على الصلوات الخمس ﴿لَكَ﴾ خاصة لا يشاركك في وجوبها أحد من أمتك.
عن الصادق عليه السلام، أَنَّهُ سُئِلَ عن النوافل فقال: «فريضة» ففرَّغ السامعون، فقال: «إِنَّمَا أعني صلاة الليل على رسول الله ﷺ، إِنَّ الله يقول: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾» الخبر^٥.
ثم حثَّ نبيه ﷺ بقوله: ﴿عَسَىٰ﴾ ويُرْجى ﴿أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ﴾ من قبرك ويقيمك أو يُعْطِيكَ ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ عند جميع الأولين والآخرين من الأنبياء وغيرهم، وهو مقام الشفاعة. وفي الدعاء المشهور: وابعته المقام المحمود الذي وعدته^٦، يَغِيْطُهُ به الأولون والآخرين^٧.
وعن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ في هذه الآية: «هو المقام الذي أضغع [فيه] لأمتي»^٨.
وعنه ﷺ قال: «إِذَا قُمْتَ المَقَامَ المَحْمُودَ شَفَعْتَ في أَصْحَابِ الكِبَايَرِ مِنْ أُمَّتِي، فَيُشَفَّعَنِي الله فيهم، والله لا تَشَفَّعَ فيمن آذَى ذُرِّيَّتِي»^٩.
وعن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: لو قد قُمْتُ المَقَامَ المَحْمُودَ لَشَفَعْتُ في أَبِي وَأُمِّي»^{١٠}
وأخ لي كان في الجاهلية^{١١}.

وعن أحدهما عليه السلام في هذه الآية، قال: «هي الشفاعة»^{١٢}.

وعنه عليه السلام، أَنَّهُ سُئِلَ عن شفاعَةِ النبي ﷺ يوم القيامة، فقال: «يُلْجِمُ الناس يوم القيامة العَرَقَ،

١ و ٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٥.

٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٧، تفسير أبي السعود ١٨٩: ٥.

٤. التهذيب ٢: ٢٤٢/٩٥٩، تفسير الصافي ٣: ٢١٠.

٥. مصباح المنهج: ٤٤٦.

٦. روضة الواعظين: ٥٠٠، تفسير الصافي ٣: ٢١١، تفسير الرازي ٢١: ٣١.

٧. روضة الواعظين: ٢٧٣، تفسير الصافي ٣: ٢١١.

٨. تفسير القمي ٢: ٢٥، تفسير الصافي ٣: ٢١١.

٩. زاد في تفسير القمي والصافي: وعمي.

١٠. تفسير العياشي ٣: ٢٥٩٠/٧٨، تفسير الصافي ٣: ٢١١.

فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا، فيأتون آدم، فيقولون: [يا آدم] اشفع لنا عند ربك. فيقول: إن لي ذنباً وخطيئة، فعليكم بنوح فيأتون نوحاً فيزدهم إلى من يليه، ويزدهم كل نبي إلى من يليه حتى ينتهوا إلى عيسى، فيقول: عليكم بمحمد رسول الله ﷺ. فيعرضون أنفسهم عليه ويسألونه فيقول: أن انطلقوا، فينطلق بهم إلى باب الجنة، ويستقبل باب الرحمن ويخبر ساجداً، فيمكث ما شاء الله، فيقول الله: ارفع رأسك وأشفع تُشَفِّعْ وَسَلِّ ثَغْطَ، وذلك قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾^١.

وبهذا المعنى روايات كثيرة، وادّعى بعض العامة إجماع المفسرين عليه، وادّعى الفخر الرازي اتفاق الناس عليه^٢.

وقيل: إنه مقام القرب من الله، عن حذيفة: يجمع الناس في صعيد واحد، فلا تتكلم نفس، فأول مدعٍ محمد ﷺ، فيقول: «ليبك وسعديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يدك، وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت». فهذا هو المراد من قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ﴾ إلى آخره^٣.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر أهل المحشر: «ثم يجتمعون في موطن آخر يكون فيه مقام محمد، وهو المقام المحمود، فيُثْنِي على الله بما لم يُثْنِ عليه أحد من قبله، ثم يُثْنِي على كل مؤمن ومؤمنة، يبدأ بالصدّيقين والشهداء ثم الصالحين، فيُحَمِّدُهُ أهل السماوات والأرض، فذلك قوله عز وجل: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ﴾ إلى آخره، فطوبى لمن كان له في ذلك اليوم^٤ حظ ونصيب، وويل لمن لم يكن له في ذلك اليوم حظ ولا نصيب»^٥.

أقول: لا منافاة بين الروايات، فإن مقام القرب والمقام الذي يُحَمِّدُهُ جميع الخلق هو مقام الشفاعة، كما يُشِيرُ به قوله: «طوبى لمن كان له» إلى آخره.

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً [٨٠]

ثم أنه تعالى بعد أمره بإقامة الصلاة، أمره بالتوجه والتوسل إليه في حفظه عن التوجه إلى غيره وعن شر الأعداء بقوله: ﴿وَقُلْ﴾ حين إرادتك الدخول في الصلاة ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي﴾ فيها ﴿مُدْخَلَ

٢ و ٣. تفسير الرازي ٢١: ٣٢.
٥. التوحيد: ٥/٢٦١، تفسير الصافي ٣: ٢١١.

١. تفسير القمي ٢: ٢٥، تفسير الصافي ٣: ٢١١.
٤. في التوحيد: المقام، وكذا التي بعدها.

صِدْقٍ ﴿وَادْخُلَا حَسَنًا مَّدْوَحًا﴾ وَأُخْرِجْنِي ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴿وَإِخْرَاجًا حَسَنًا مَّدْوَحًا﴾ وَأَجْعَلْ لِي ﴿فِي دَعْوَتِي إِلَى دِينِكَ وَعِبَادَتِكَ﴾ مِن لَّدُنْكَ ﴿وَبِرَحْمَتِكَ﴾ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿وَبَيِّنَةً قَاهِرَةً تُغْلِبُنِي بِهَا عَلَى مَنْ خَالَفَنِي﴾.

وقيل: إنه تعالى لما بشره بالبعث للمقام المحمود، أمره بأن يسأل حسن الحال عند دخوله في القبر وخروجه منه^١.

وقيل: إنه لما أخبره بتصميم المشركين بإخراجه من مكة بقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾^٢ أمره بالهجرة، وأن يسأله أن يجعل دخوله في المدينة وخروجه من مكة، أو دخوله في مكة بعد الهجرة والعود إليها بعد فتحها، وخروجه منها ورجوعه إلى المدينة، دخولاً وخروجاً مرضياً، ملقى بالكرامة، وأمناً من كل مكروه^٣.

القمي: قال: نزلت يوم فتح مكة، لما أراد رسول الله ﷺ دخولها أنزل الله: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ أَذْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الآية^٤.

أقول: الأقوى نزولها قبل الهجرة، ولا يبعد النزول ثانياً حين دخوله مكة وفتحها. وقيل: إن المراد ربّ ادخلني في القيام بمهمات أداء دينك وشريعتك، وأخرجني^٥ منها إخراجاً لا يبقى علي منها تبعة وبقية^٦.

وقيل: يعني ربّ ادخلني في بحار دلائل توحيدك وتنزيهك وتقديسك^٧، ثم أخرجني من الاشتغال بالدليل إلى ضياء معرفتك^٨.
أقول: لا يناسب هذا المعنى مقام خاتمته.

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا [٨١]

ثم لما سأل الله النُصرة على الأديان الباطلة، أمره سبحانه بالاعلان بدينه الحق واضمحلال الأديان الباطلة، تبشيراً باستجابة دعائه بقوله: ﴿وَقُلْ﴾ يا محمد، للناس وكافة أهل الأديان الباطلة ﴿جَاءَ﴾ الدين ﴿الْحَقُّ﴾ وملة التوحيد وشرعة الاسلام من جانب الله ﴿وَزَهَقَ﴾ واضمحَلَّ الدين ﴿الْبَاطِلُ﴾

١. تفسير الرازي ٢١: ٣٣، تفسير أبي السعود ٥: ١٩٠. ٢. الإسراء: ١٧/٧٦.

٣. تفسير الرازي ٢١: ٣٢ و ٣٣، تفسير أبي السعود ٥: ١٩٠.

٤. تفسير القمي ٢: ٢٦، تفسير الصافي ٣: ٢١٢. ٥. زاد في تفسير الرازي: منها بعد الفراغ.

٦. تفسير الرازي ٢١: ٣٣. ٧. في تفسير الرازي: وقدسك.

٨. تفسير الرازي ٢١: ٣٣.

ومذهب الشرك والبدع المخترعة بالأهواء الزائغة ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ﴾ كأننا ما كان ﴿كَانَ زَهُوقًا﴾ ومضحلاً:

روى الفخر الرازي وغيره من العامة عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل ينكث بِمِخْصَرَةٍ كانت بيده [في] عين واحدٍ واحدٍ ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ فينكث لوجهه حتى ألقى جميعها، وبقي صنم خُزاعة فوق الكعبة، وكان من صُفر، فقال: يا علي ارم به، فصعد فرمى به فكسره^١.

وعن الصادق عليه السلام، عن أبيه، عن أبائه: «دخل رسول الله ﷺ مكة والأصنام حول الكعبة، وكانت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعن^٢ بِمِخْصَرَةٍ في يده ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا» وما يبدي وما يعيد، فجعلت تنكث لوجهها^٣.
وعن الباقر عليه السلام، في هذه الآية: «إذا قام القائم ذهب دولة الباطل»^٤.

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا [٨٢]

ثم لما أمر سبحانه نبيه ﷺ بتلاوة القرآن والتهجد به، بين فضيلة القرآن وفوائده بقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ السور والآيات التي ﴿مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ من الأمراض الجسمانية والروحانية، كالشك والزَّيغ والأخلاق الرذيلة ﴿وَمَا هُوَ﴾ رَحْمَةٌ وهداية ورشاد إلى العقائد الحقَّة والأخلاق الفاضلة والأعمال المحمودة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به والمتمسكين بما فيه والعاملين بأحكامه.

عن الصادق عليه السلام - في حديث - «إنما الشفاء في علم القرآن، لقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ لأهله لاشك فيه ولا مرية، وأهله أئمة الهدى»^٥.

وعنه عليه السلام: «ما اشتكى أحد من المؤمنين شكاية قط وقال بإخلاص نية ومسح موضع العلة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ إلا عوفي من تلك العلة أية علة كانت، ومصدق ذلك في الآية حيث يقول: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾»^٦.

وعنه عليه السلام: «لا بأس بالرَّقية والعودة والنُّشرة إذا كانت من القرآن، ومن لم يُشْفِهِ القرآن فلا شفاء الله،

١. تفسير الرازي ٢١: ٣٣، تفسير روح البيان ٥: ١٩٤، تفسير أبي السعود ٥: ١٩١.

٢. أمالي الطوسي: ٦٨٣/٣٦٦، تفسير الصافي ٣: ٢١٢.

٣. في أمالي الطوسي: يطعها.

٤. الكافي ٨: ٤٣٢/٢٨٧، تفسير الصافي ٣: ٢١٢.

٥. تفسير العياشي ٣: ٢٥٩٦/٧٩، تفسير الصافي ٣: ٢١٣.

٦. طب الأئمة عليهم السلام: ٢٨، تفسير الصافي ٣: ٢١٣.

٧. في طب الأئمة عليهم السلام: شكاة.

وهل شيء أبلغ من هذه الأشياء من القرآن؟! أليس الله يقول: ﴿وَتُنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ «الخبر»^١.

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالشرك والكفر به ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ وهلاكاً وكفراً بأبصارهم على تكذيبه والطعن فيه.

وعن الباقر عليه السلام: «نزل جبرئيل عليه السلام على محمد ﷺ [بهذه الآية] ولا يزيد الظالمين آل محمد حقهم إلا خساراً»^٢.

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا [٨٣]

ثم بين سبحانه أن الظلم إنما هو بكفران النعم بقوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا﴾ النعم الدنيوية من الصحة والمال والجاه ﴿عَلَى﴾ نوع ﴿الْإِنْسَانِ﴾ وبني آدم ﴿أَعْرَضَ﴾ وحول وجهه عن الحق، ولم يعتن بدعوة الرسول، ولم يقبل دين الله ﴿وَنَسَا﴾ وتباعد من الهدى ﴿بِجَانِبِهِ﴾ ونفسه، أو لوى عنه عطفه وولاه ظهره استكباراً وتعظماً، وامتنع عن طاعة الله ورسوله حباً للدنيا وغفلة عن العقبي ﴿وَإِذَا مَسَّهُ﴾ وأصابه ﴿الشَّرُّ﴾ من المرض والفقر وسائر الشدائد ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ ومنقطع الرجاء من رحمة الله جهلاً بسعة كرمه وفضله، فلا يذكر الله ولا يقبل إليه، ولا يقبل دعوة الرسول، ولا يطيعه في حال من الأحوال، وهذا غاية من هو في الضلال، ودونه من إذا مسه الشر فذو دعاء عريض. وفي إسناد الإنعام إلى نفسه دون الشر إذاً بأن النعمة من فضله، دون الشر فإنه بذنوب الخلق، أو بأن الأول هو المقصود بالذات، والثاني مقصود بالتبع.

عن ابن عباس: أن المقصود بالإنسان هنا الوليد بن المغيرة^٣.

قال الفخر الرازي: هذا بعيد، بل المراد أن نوع الإنسان [من] شأنه ذلك^٤.

أقول: فيه أن المراد أن مورده خاص، وإن كان موضوع الحكم عاماً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوهُ﴾^٥.

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [٨٤ و ٨٥]

١. طب الأنمة عليه السلام: ٤٨، تفسير الصافي ٢١٣: ٢. تفسير العياشي ٣: ٢٥٩٧/٧٩، تفسير الصافي ٣: ٢١٣.
٣ و ٤. تفسير الرازي ٢١: ٣٥.
٥. الحجرات: ٦/٤٩.

ثم يبين سبحانه أن اختلاف النفوس ناشيء عن اختلاف طيناتهم وقلوبهم المستلزمة لاختلاف نياتهم وقصورهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿كُلُّ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ﴿يَعْمَلُ﴾ عمله ﴿عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ وسجيته وجنبته^١ التي اختلافها يلازم اختلاف النية والطريقة، فاستعمل اللازم في الملزوم. عن الصادق عليه السلام: «النية أفضل من العمل، ألا وإن النية هي العمل، ثم تلا: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ يعني على نيته»^٢.

وعنه عليه السلام: «إِنَّمَا خُلِدَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، لِأَنَّ نِيَاتَهُمْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَوْ خُلِدُوا فِيهَا أَنْ يَغْضُوا اللَّهَ أَبَدًا، وَإِنَّمَا خُلِدَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ لِأَنَّ نِيَاتَهُمْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَوْ بَقُوا فِيهَا أَنْ يُطِيعُوا اللَّهَ أَبَدًا، فَبِالنِّيَّاتِ خُلِدَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ» ثم تلا: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾^٣.

وعنه عليه السلام أنه سئل عن الصلاة في البيع والكناس، فقال: «صَلَّ فِيهَا» قلت: أصلي فيها وإن كانوا يصلون فيها؟ قال: «نعم، أما تقرأ ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾»^٤.

ثم بشر سبحانه المهتدين وهدد الضالين بقوله: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ وأصوب طريقاً، وبمن هو أضل سبيلاً وأسوء منهجاً، فيجازي كلًّا بطريقته وسيرته، ثم لما كان اختلاف الطينات ملازماً لاختلاف الأرواح المتعلقة بها، حكى سبحانه سؤال الناس عن الروح بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ بِإِذْنِ رَبِّهِ لَا يَدْرِي وَايَ السَّائِرِينَ إِلَّا تَخْهَمُ الْهُجُوجُ﴾^٥ وجوهرة شريفة قدسية مخلوقة ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وقدرته في عالم الملكوت، لا مادة لها ولا مدة، بل هي من الابداعيات الموجودة بصرف الإرادة المعبرة عنها بلفظ (كُنْ) كسائر المجردات البسيطة، ويُعبّر عن عالمها بعالم الأمر والبقاء، كما يُعبّر عن عالم الماديات والأجسام بعالم الخلق والفناء، وعليه يكون الجواب بيناً ومفصلاً لإبهام فيه.

نسي بيان الروح عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن الروح، فقال: «هي من قدرته من المَلَكُوتِ»^٥.

وعنه عليه السلام: «مَثَلُ رُوحِ الْمُؤْمِنِ وَبَدَنِهِ كَجَوْهَرَةٍ فِي صَنْدُوقٍ، إِذَا أُخْرِجَتِ الْجَوْهَرَةُ مِنْهُ طُرِحَ الصَّنَدُوقُ وَلَمْ يُعْبَأْ بِهِ». وقال: «إِنَّ الْأَرْوَاحَ لَا تُمَازَجُ الْبَدَنَ وَلَا تُدَاخِلُهُ، إِنَّمَا هِيَ كَالْكُلِّ لِلْبَدَنِ مُحِيطَةٌ بِهِ»^٦.

أقول: أي متعلقة به تعلق التدبير والتصرف.

١. الجُنَّةُ: الخلقة والطبيعة. ٢. الكافي ٢: ١٣/٤، تفسير الصافي ٣: ٢١٤.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٦٠٠/٨٠، الكافي ٢: ٦٩/٥، تفسير الصافي ٣: ٢١٤.

٤. تفسير العياشي ٣: ٢٥٩٩/٨٠، من لا يحضره الفقيه ١: ٧٣١/١٥٧، التهذيب ٢: ٢٢٢/٨٧٦، تفسير الصافي ٣: ٢١٤.

٥. تفسير العياشي ٢: ٢٣٢٤/٤٢٨، تفسير الصافي ٣: ١٠٨.

٦. بصائر الدرجات: ١٣/٤٨٣، تفسير الصافي ٣: ١٠٨.

[في (الاحتجاج) عن الصادق عليه السلام: «الروح لا يوصف بثقل ولا خفة، وهي جسم رقيق ألبس قالباً كثيفاً» فهي بمنزلة الريح في الزُّق^١، فاذا نفخت فيه امتلأ الزُّق منها، فلا يزيد في وزن الزُّق وتُوجها، ولا يُنقصه خروجها، وكذلك الروح ليس لها ثقل ولا وزن».

قيل: افيتلاشى الروح بعد خروجه عن قلبه أم هو باقٍ؟ قال: «بل هو باقٍ إلى يوم يُنفخ في الصور، فعند ذلك تَبْطُلُ الأشياء وتَقْنى، فلا حَسَّ ولا محسوس، ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها، وذلك أربعمائة سنة يسبَّت^٢ فيها الخلق، وذلك بين النَّفْخَتَيْنِ».

وقال: «إنَّ الروح مقيمة في مكانها؛ روح المؤمن^٣ في ضياء وفُسحة، وروح المُسيء في ضيق وظلمة، والبدن يصير تُراباً»^٤.

وعن كميل بن زياد، قال: سألت مولانا أمير المؤمنين علياً عليه السلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، أريد أن تعرّفني نفسي. قال: «يا كميل، وأي الأنفس تريد أن أعرفك؟» قلت: يا مولاي، هل هي إلّا نفس واحدة؟ قال: «يا كميل، إنّما هي أربعة: النامية النباتية، والحسية الحيوانية، والناطقة القدسية، والكلية الالهية - إلى أن قال - والناطقة القدسية لها خمس قوى: فكر، وذكر، وعلم، وحلم، وبهاة، وليس لها انبعاث، وهي أشبه الأشياء بالنفوس الفلكية، ولها خاصيتان: النزاهة والحكمة.

والكلية الالهية لها خمس قوى: بقاء في فناء، ونعيم في شقاء، وعزّ في ذلّ، وفقر في غناء، وصبر في بلاء، ولها خاصيتان: الرضا، والتسليم، وهذه هي التي مبدؤها من الله، وإليه تعود، قال الله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^٥ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾^٦ والعقل [في] وسط الكل»^٧.

وعن أحدهما عليه السلام في هذه الآية، سئل ما الروح؟ قال: «التي في الدواب والناس؟» قيل: وما هي؟ قال: «هي من الملكوت والقدرة»^٨.

وقيل: إنّ المراد أن الروح وحقيقته من الأسرار الخفية التي استأثر الله بعلمه لا يكاد يحوم حولها عقول البشر^٩.

﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ﴾ أيها الناس ﴿مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في جنب علم الله، وإن كان كثيراً بالنسبة إليكم،

١. الزُّق: وعاء من جلد يُخزّ شعرة ولا يُنتف. ٢. سَبَّت: نام واستراح وسكن.

٣. في المصدر: المحسن. ٤. الاحتجاج: ٣٥٠، تفسير الصافي: ٣: ١٠٩.

٥. الحجر: ٢٩/١٥. ٦. الفجر: ٢٧/٨٩ و ٢٨. ٧. بحار الأنوار ٦١: ٨٥، تفسير الصافي: ٣: ١١١.

٨. تفسير العياشي: ٣: ٢٦٠٥/٨١، تفسير الصافي: ٣: ٢١٤، وفيهما: من القدرة.

٩. تفسير أبي السعود: ٥: ١٩٢.

فإن كثيراً من الأمور لا يمكنكم العلم بحقيقته وحدوده، ومنها الروح، فإنه لا يُعرَف إلا بآثاره وعوارضه الخاصة به.

رُوي أن رسول الله ﷺ لما قال ذلك قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه؟ فقال: «بل نحن وأنتم لم تؤت من العلم إلا قليلاً» فقالوا: ما أعجب شأنك، ساعة تقول: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا»^١ وساعة تقول: هذا؟! فنزلت: «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ» الآية^٢.

القمي، قال: إن اليهود سألو رسول الله ﷺ عن الروح، فقال: «الروح من أمر ربي وما أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» قالوا: نحن خاصة؟ قال: بل الناس [عامّة] قالوا: فكيف يجتمع هذان يا محمد؛ تزعم أنك لم تؤت [من] العلم إلا قليلاً، وقد أُوتيت القرآن، وأوتيتنا التوراة، وقد قرأت «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» فانزل الله: «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ» إلى آخره^٣. يقول: علم الله أكبر من ذلك، وما أُوتيتُمْ كثير فيكم قليل عند الله^٤.

وعن الباقر عليه السلام قال: «تفسيرها في الباطن أنه لم يؤت العلم إلا أناس يسير فقال: «وَمَا أُوتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» منكم».

وعن الصادق عليه السلام - في حديث - «ووصف الذين لم يؤتوا من الله فوائد العلم، فوصفوا ربهم بأدنى الأمثال، وشبهوه بالمتشابه منهم فيما جهلوا به، فلذلك قال: «وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» فليس له شبه ولا مثل ولا عدل»^٥.

وقيل: إن نظر السائلين إلى السؤال عن حقيقة الروح وقدمه وحدوثه، فأجاب عن كليهما بكون الروح خالية عن العلوم، ثم تحدث فيها العلوم قليلاً قليلاً، فلا تزال في التغيير من حال إلى حال، ومن النقص إلى الكمال، وهو آية الحدوث^٦.

وقيل: إن المراد بالروح هنا هو القرآن، حيث إنه تعالى سمّاه في آيات عديدة روحاً، لأن به تحصل حياة القلوب، وهو المناسب لما قبل الآية من قوله: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ» الآية^٧، ولما بعده من قوله: «وَلَكِنَّ شَيْئًا لَّنْذَهَبْنَ»^٨ الآية، وقوله: «قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ»^٩ الآية، فيكون المراد أن القرآن هل هو سحر أو كهانة أو شعر أو نازل من الله؟^{١٠}

١. البقرة: ٢٦٩/٢. ٢. تفسير الرازي ٢١: ٥٣، والآية من سورة لقمان: ٢٧/٣١.

٣. تفسير القمي ٢: ١٦٦، تفسير الصافي ٤: ١٥٠. ٤. تفسير العياشي ٣: ٢٦٠/٦/٨٢، تفسير الصافي ٣: ٢١٥.

٥. التوحيد: ١/٣٢٤، تفسير الصافي ٣: ٢١٥. ٦. تفسير الرازي ٢١: ٣٨.

٧. الإسراء: ٨٢/١٧. ٨. الإسراء: ٨٦/١٧. ٩. الإسراء: ٨٨/١٧. ١٠. تفسير الرازي ٢١: ٣٨.

في وصف الملك المسمى بالروح الملائكة قدراً وقوة^٢. وقيل: إن المراد به جبرئيل^١، وقيل: إن المراد به المَلَك الذي هو أعظم من سائر

وروى الفخر الرازي عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «هو مَلَك له سبعون ألف وجه، لكل وجه سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يُسَبِّح الله بتلك اللغات كلها، ويخلق الله من كل تسبيحة مَلَكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة».

قال^٣: ولم يخلق الله خلقاً أعظم من الروح غير العرش، ولو شاء أن يبتلع السماوات السبع والأرضين السبع ومن فيهنّ بلقمة واحدة لفعل^٤.

ثم اعترض الناصب عليه بوجوه لا يليق بالمؤمن العاقل نقلها والجواب عنها. القمي عن الصادق عليه السلام، أنه سُئِلَ عن هذه الآية فقال: «خلق^٥ أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو مع الأئمة، وهو من المملوكات»^٦.

وعنه عليه السلام أيضاً أنه سُئِلَ عنه فقال: «خلق عظيم، أعظم من جبرئيل وميكائيل، لم يكن مع أحدٍ مِّن مضي غير محمد [هو] مع الأئمة يُسَدِّدُهم، وليس كلما طلب وجد»^٧.

وعنهما عليه السلام: «إنما الروح خلق من خلقه، له بصر وقوة وتأيد يجعله في قلوب المؤمنين والرسل»^٨.

أقول: يُحْتَمَلُ أن يكون المراد بذلك المَلَك النفس الكلية التي تتحرك بها المتحركات من الأفلاك والملائكة والكواكب والحيوانات، والمراد من رؤوسها الموجودات التي تعلّق بها، ومن تكلمه باللغات الكثيرة، نُطِقَ تلك الموجودات بالتسبيح وغيره، ومن كونه مع النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام قوة ظهورها فيهم بحيث لم يكن في غيرهم هذا الظهور والآثار.

وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِلاً * إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا [٨٦ و ٨٧]

ثم لما ذكر سبحانه قلّه علم الناس بالنسبة إلى علمه، نبّه على أن هذا القليل بفضل منه تعالى وإنعامه

١. تفسير الرازي ٢١: ٣٩.

٢. في المصدر: قالوا. ٣. تفسير الرازي ٢١: ٣٩.

٤. في المصدر: ملك. ٥. تفسير القمي ٢: ٢٦، الكافي ١: ٣/٢١٥، تفسير الصافي ٣: ٢١٤.

٦. تفسير العياشي ٣: ٢٦٠٣/٨١، الكافي ١: ٤/٢١٥، تفسير الصافي ٣: ٢١٤.

٧. تفسير العياشي ٣: ٢٦٠٢/٨١، تفسير الصافي ٣: ٢١٤.

بتوسط إنزاله القرآن، ولو شاء لَسَلَبَهُ عنهم بقوله: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن العظيم الذي فيه تبيان كل شيء ونحوه من صدورهم وصحفهم بحيث لا يبقى منه في العالم أثر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ﴾ بعد ذهاب القرآن ﴿بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ وولياً يرّده إليك ويُعيدُه في الصدور والدفاتر ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ كانت ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ فإنها هي التي ترّده إليك، كما أنها هي التي أبقت في حفظك وحفظ غيرك ﴿إِنَّ فَضْلَهُ﴾ وإحسانه ﴿كَانَ عَلَيْكَ﴾ من بدو خَلْقِكَ في العوالم إلى الآن ﴿كَبِيرًا﴾ وعظيماً حيث ختم بك الرسل، وأتاك بالقرآن، وأعطاك أفضل الأوصياء في الدنيا، والمقام المحمود في الآخرة.

قُلْ لَّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا [٨٨]

ثم لما بين تفصّله على النبي ﷺ بإزاله القرآن عليه، أمره بالتحديّ به بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للذين يقولون إنه كلام البشر والله: ﴿لَّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ وانفقوا ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ في الفصاحة والبلاغة، وجزالة المعنى، وبِدَاعَةِ الأسلوب وكثرة العلوم ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ولا يقدرّون على ترتيب مثابه ﴿وَلَوْ﴾ فرض أنه ﴿كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ﴾ آخر منهم ﴿ظَهِيرًا﴾ ومعاضداً ومعاوناً في الاتيان بمثله مع أن فيهم الفصحاء ومهّرة البيان والخطباء والشعراء. عن (العيون) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أن الله تعالى نزل هذا القرآن بهذه الحروف التي يتداولها جميع العرب» ثم قال: ﴿قُلْ لَّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ الآية^١.

وروي أن ابن أبي العوجاء وثلاثة نفر من الدهرية^٢ اتفقوا على أن يُعارض كل واحد منهم ربع القرآن، وكانوا بمكة، وعاهدوا على أن يجيئوا بمعارضته في العام القابل، فلما حال الحول واجتمعوا في مقام إبراهيم، قال أحدهم: إني لما رأيت قوله: ﴿يَا أَرْضُ أَبْلَغِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾^٣ الآية، كفتت عن المعارضة. وقال الآخر: وكذا أنا لما وجدت قوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾^٤ أيسست عن المعارضة. وكانوا يسْرون ذلك، إذ مرّ عليهم الصادق عليه السلام وقرأ عليهم ﴿قُلْ لَّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ الآية، فبهتوا^٥.

إن قيل: إنه ظهر عَجَزُ الإنس عن الاتيان بمثله، فمن أين يعلم عجز الجن عنه مع احتمال أن يكون

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٦/١٣٠، تفسير الصافي ٣: ٢١٦.

٢. الدهرية: قوم يقولون: لا رب ولا جنة ولا نار، ويقولون: ما يهلكنا إلا الدهر. ٣. هود: ٤٤/١١.

٤. يوسف: ٨٠/١٢. ٥. الخرائج والجرائع ٢: ٥/٧١٠، تفسير الصافي ٣: ٢١٦.

القرآن من كلام الجنِّ وَطَّمَهُمْ، وَإِنَّمَا أَلْقَاهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِإِضْلالِ النَّاسِ، وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ بِعَجْزِهِمْ يَلْزَمُ الدَّورَ.

قلنا: إِنَّ قَاعِدَةَ اللَّطْفِ مَقْتَضِيَةٌ لِإِظْهَارِ مَعَارِضِهِ بِنَحْوِ مِنَ الْإِنْعَاءِ، فَلَمَّا لَمْ يَظْهَرْ عَلِمْنَا أَنَّهُمْ أَيْضاً عاجزون عن إتيان مثله وأنه من الله تعالى.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً [٨٩]

ثم وصف سبحانه القرآن بجامعية العلوم بقوله: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا» وَكَرَّرْنَا «لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ» نَحْوٍ مِنْ أَنْهَاءِ التَّحْدِيدِ، وَبِرَهَانٍ مِنْ بَرَاهِينِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ وَصَحَّةِ النَّبُوَّةِ وَرَدِّ شُبُهَاتِ الْمُشْرِكِينَ فِيهَا، وَكُلِّ صَنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الْعُلُومِ وَالْأَحْكَامِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَأَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَيْفِيَةِ دَعْوَاهُمْ وَبَيَانِ مَعَاجِزِهِمْ، وَمَعَارِضَةِ أُمَمِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى التَّمَرُّدِ وَالْعِنَادِ، وَابْتِلَانِهِمْ بِالْعَذَابِ، وَذِكْرِ الْوَعْظِ وَالنُّصْحِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ بَيَانًا يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ «مَثَلٍ» فِي الْغَرَابَةِ وَالْوُقُوعِ فِي النَّفْسِ «فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ» مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ «إِلَّا كُفُوراً» وَجُحُوداً لِلْحَقِّ وَإِنْكَاراً لِلنِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الْقُرْآنِ وَرِسَالَةِ الرَّسُولِ.

عن الباقر عليه السلام: «نَزَلَ جِبْرِئِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ هَكَذَا: «فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ - بِوَلَايَةِ عَلِيٍّ - إِلَّا كُفُوراً»».

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْقَالاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَاباً تُفَرِّقُوهَ قُلُوبَ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولاً [٩٠-٩٣]

ثم بين الله سبحانه كفران المشركين نعمة القرآن بعدم اكتفائهم به في الإعجاز والتماسهم المعجزات الأخر تعتاً ولجاجاً بقوله: «وَقَالُوا» يَا مُحَمَّدُ «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ» وَلَا نَعْتَرِفُ بِنُبُوتِكَ أَبَداً «حَتَّى تَفْجُرَ» وَتُخْرِجَ «لَنَا مِنْ» هَذِهِ «الْأَرْضِ» الَّتِي نَسَكَّهَا «يَنْبُوعاً» وَعَيْنَاءُ كَثِيرَةً الْمَاءِ «أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ» وَبِسْتَانٌ كَثِيرُ الْأَشْجَارِ، وَكَانَتْ أَشْجَارُهَا «مِنْ» جَنْسِ «نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ»

وتجري ﴿الْأَنْهَارُ﴾ العديدة (خِلَالَهَا) وفيما بين أشجارها (تَفْجِيرًا) وإجراء كثيراً ﴿أَوْ تُسْقَطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ﴾ ومثلما توهمت أنك نبي ذو معجزة، أو أن الله يفعل ما يشاء ﴿عَلَيْنَا كَيْسًا﴾ وقطعاً، أو كما قلت، أو يسقط عليهم كَيْسًا من السماء فيقولون: سحاب مركوم ﴿أَوْ تَأْتِي﴾ إلينا ﴿بِالْهَبَاءِ وَالْمَلَانِكَةِ قَبِيلًا﴾ ومقابل لنا بحيث نراه، أو فوجاً كما عن ابن عباس^١، أو ضامناً أو كفيلاً ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ وذَهَبٌ تسكن فيه وتخلص من الفقراء ﴿أَوْ تَرْقَى﴾ وتصعد ﴿فِي﴾ معارج ﴿السَّمَاءِ﴾ ومدارجها ونحن ننظر إليك ﴿وَلَنْ تُؤْمِنَ لِوَقَيْكَ﴾ ولا نصدق نبوتك أبداً لأجل عروجك في السماء ﴿حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ من السماء ﴿كِتَابًا﴾ فيه تصديق نبوتك ونحن ﴿نَقْرُؤُهُ﴾ كي لا يبقى لنا فيه شبهة السحر.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المقترحين تعجباً من اقتراحهم، أو تنزيهاً لساحة الربوبية من أن يكون محكوماً بحكمهم، أو من ما لا يفيد في إيمانهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وتَزَهَّ عَمَّا لا ينبغي له من إجابته كما فيما تسألونه تعتاً ولجاجاً، وإن تسألوني أن أفعل تلك الأمور بقوة نفسي وقدرتي، فأخبروني ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ عاجزاً مثلكم؟ وإنما أكون ﴿رَسُولًا﴾ والرسول ليس فاعلاً لما يشاء، ولا حاكماً على الله، وإنما عليه أن يأتي معجزة كافية في إثبات نبوته، وقد آتيتكم فوق ما فيه الكفاية.

عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة وأبا سفيان والنضر بن الحارث وأبا البختري والوليد بن المغيرة وأبا جهل وعبدالله بن أبي أمية [وأمية] بن خلف ورؤساء قُريش، اجتمعوا عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشرف قومك اجتمعوا لك ليكلّموك، فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً يحبّ رشدهم ويعزّ عليه عتّبهم، حتى جلس إليهم فقالوا: يا محمد، إنا لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، وما بقي أمرٌ قبيحٌ إلّا وقد جثته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا تطلب به ما لا جعلنا لك من الأموال ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن [كنت] تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الرئي^٢ الذي يأتيك قد غلب عليك - وكانوا يسمّون التابع من الجن الرأي - بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى تُبرئك منه أو نعذّر فيك.

فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم، ولا للشرف فيكم،

١. تفسير الرازي ٢١: ٥٧.

٢. الرئي: الجنّي يعرض للانسان ويطلع على ما يزعم من الغيب. ويقال: به رئي من الجن: أي من.

ولا للملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضناه، فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيّق بلاداً ولا أقلّ مالا ولا أشدّ عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، أو يسطّ لنا بلادنا، وليجرّ فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول أحقّ هو أم باطل، فإن فعلت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولا كما تقول.

فقال رسول الله ﷺ «ما بهذا بُعثت، وإنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه أصبر لأمر الله».

قالوا: فإن لم تفعل هذا، فسل ربك أن يبعث ملكاً يُصدقك، وسله أن يجعل لك جناتٍ وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويُعنيك بها عمن سواك، فانك تقوم في الأسواق، وتلتبس المعاش.

فقال: «ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا».

قالوا: سله أن يسقط علينا السماء، كما زعمت إن ربك إن شاء فعل. فقال ﷺ: «ذلك إلى الله، إن شاء فعل» وقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً.

وقام عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، [وهو] ابن عاتكة بنت عبد المطلب، ابن عمّة النبي، ثم أسلم بعد وحسن إسلامه، فقال: لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً وترقي فيه، وأنا أنظر حتى تأتينا وتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. فانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا لما فاتته من متابعة قومه، ولما رأى من مباحدهم عنه، فأنزل الله الآيات^١.

وعن تفسير الإمام ﷺ، عن أبيه: «أن رسول الله ﷺ كان قاعداً ذات يوم بمكة بفناء الكعبة، إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش، منهم: الوليد بن المغيرة المخزومي، وأبو البختري بن هشام، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل السهمي، وعبدالله بن أبي أمية المخزومي، وكان معهم جمع ممن يليهم كثير، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه يقرأ عليهم كتاب الله، ويؤدي إليهم من أمره

ونهيهم. فقال المشركون بعضهم لبعض: لقد استفحل أمر محمد، وعظم خطبه، فتعالوا نبدأ بتفريعه وتبكيته وتوبيخه، والاحتجاج عليه، وإبطال ما جاء به، ليهون خطبه على أصحابه، ويصغر قدره عندهم، ولعله ينزع عما هو فيه من غيّه وباطله وتمردّه وطغيانه، فإن انتهى وإلا عاملناه بالسيف الباتر. قال أبو جهل: فمن الذي يلي كلامه ومجادلته؟ قال عبدالله بن أبي أمية: أنا إلى ذلك، أفما ترضاني له قرناً حسيباً ومجادلاً كفيّاً؟ قال أبو جهل: بلى. فأتوه بأجمعهم، فابتدأ عبدالله بالكلام، فقال: يا محمد، لقد ادّعت دعوى عظيمة، وقلت مقالاً هائلاً، زعمت أنك رسول رب العالمين، وما ينبغي لرب العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسلاً [له]. وأنت بشر مثلنا تأكل كما نأكل وتمشي في الأسواق كما نمشي، فهذا ملك الرّوم، وهذا ملك الفرس لا يبعثان رسلاً إلا كثير المال عظيم الخطر^١ له قصور ودور وقساطيط وخيام وعبيد وخدّام، ورب العالمين فوق هؤلاء كلهم فهم عبيده، ولو كنت نبياً لكان معك ملك يصدّقك وتُشاهده، بل لو أراد الله أن يبعث إلينا نبياً، لكان يبعث إلينا ملكاً لا بشراً مثلنا، ما أنت يا محمد إلا مسحور ولست بنبي.

فقال رسول الله ﷺ: هل بقي [من كلامك] شيء؟ فقال: بلى، لو أراد الله أن يبعث إلينا رسلاً لبعث أجلاً من [فيما] بيننا مالا وأحسنه حالاً، فهلا نزل القرآن الذي تزعم أن الله أنزله عليك وبعثك به رسلاً على رجلٍ من القريتين عظيم؛ إما الوليد بن المغيرة بمكة، وإما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف؟

فقال رسول الله ﷺ: هل بقي من كلامك شيء؟ فقال: بلى، لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً بمكة هذه، فإنها ذات حجارة وعرة وجبال، تكسح أرضها وتخفيها وتجرى فيها العيون، فإننا إلى ذلك محتاجون، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتأكل منهما وتطعمنا، فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تُسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، فأنت قلت لنا: ﴿وَيَٰنِيزُوا كِشْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾^٢ فلعلنا نقول ذلك، وقال: أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، تأتي به وبهم وهم لنا مقابلون، أو يكون لك بيت من زُخرف نُعطينا منه وثغنيّا به، فلعلنا نطغي، فأنت قلت لنا: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطِفٌ﴾^٣ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَنِي^٣.

ثم قال: أو ترقى في السماء، أي تصعد في السماء، ولن نؤمن لرؤيتك، أي لصعودك، حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه فيه: من الله العزيز الحكيم إلى عبدالله بن أبي أمية المخزومي ومن معه، أن آمنوا بمحمد بن عبدالله بن عبدالمطلب فانه رسولي وصدقوه في مقاله فانه من عندي، ثم لا أدري يا

محمد إذا فعلت هذا كله أؤمن بك أم لا أؤمن بك، ولو رفعتنا إلى السماء وفتحت أبوابها وأدخلتنا لها لقننا: إنما سكرت أبصارنا وسحرتنا.

فقال رسول الله ﷺ: أبقى شيء من كلامك يا عبدالله؟ قال: أو ليس فيما أوردته عليك كفاية وبلاغ؟ ما بقي شيء، فقل ما بدا لك، وأفصح عن نفسك إن كانت لك حجة، وآتنا بما سألناك.

فقال رسول الله ﷺ: اللهم أنت السامع لكل صوت، والعالم بكل شيء، تعلم ما قاله عبادك، فأنزل عليه ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿قُصُورًا﴾، وأنزل عليه ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ الآية، وأنزل عليه ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ﴾ الآية.

فقال رسول الله ﷺ: أما ما ذكرت من آتي أكل الطعام، إلى أن قال رسول الله ﷺ: وأما قولك لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، إلى آخر ما قلت، فأنك اقترحت على محمد رسول رب العالمين أشياء منها ما لو جاءك به لم يكن برهاناً على نبوته، ورسول الله يرتفع من أن يغتم جهل الجاهلين ويحتج عليهم بما لا حجة فيه.

ومنها ما لو جاءك به لكان فيه هلاكك، وإنما يؤتى بالحجج والبراهين ليُزَمَّ عباد الله الإيمان لا بما يهلكون به، وإنما اقترحت هلاكك، ورب العالمين أرحم عباده وأعلم بمصالحهم من أن يهلكهم كما يقترحون.

ومنها المُحال الذي لا يصح ولا يجوز كونه، ورسول الله يُعَرِّفُكَ ذلك، ويقطع معاذيرك، ويضيِّق عليك سبيل مخالفتك، ويُلجِّئك بحجج الله إلى تصديقه حتى لا يكون لك عنه محيد ولا محيص.

ومنها ما قد اعترفت على نفسك أنك فيه معاندة متمردة، لا تقبل حجة، ولا تُصنِّي إلى برهان، ومن كان كذلك فداؤه عذاب النار النازل من سمائه أو في جحيمه، أو سيوف أوليائه.

وأما قولك يا عبدالله لن نؤمن لك حتى تفجر [لنا] من الأرض ينبوعاً بمكة هذه، فإنها ذات أحجار وصخور وجبال تكسح أرضها وتحفرها وتجري فيها العيون، فأننا إلى ذلك محتاجون، فأنك سألت هذا وأنت جاهل بدلائل الله. يا عبدالله، رأيت لو فعلت كنت من أجل ذلك نبياً، رأيت الطائف التي [لك] فيها بساتين، أما كان هناك مواضع فاسدة صعبة أصلحتها وذللتها وكسحتها وأجريت فيها عيوناً استنبطتها؟ قال: بلى. قال: وهل لك في هذا نظراء؟ قال: بلى، قال: أفصرت بذلك أنت وهم أنبياء! قال: لا. قال: فكذلك لا يصير هذا حجة لمحمد لو فعله على نبوته، فما هو إلا كقولك لن نؤمن لك

حتى تقوم وتمشي على الأرض، أو حتى تأكل الطعام كما يأكل الناس.

وأما قولك يا عبدالله: أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتأكل منها وتطعمنا، فنفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو ليس لك ولأصحابك جنان من نخيل وعنب بالطائف تأكلون وتطعمون منها، وتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أفصرت بهذا أنبياء؟ قال: لا. قال: فما بال اقتراحكم على رسول الله أشياء لو كانت كما تقترحون لما دلت على صدقه، بل لو تعاطاها لدلّ تعاطيه على كذبه؛ لأنه حينئذٍ يحتج بما لا حجة فيه، ويخدع الضعفاء عن عقولهم وأديانهم، ورسول رب العالمين يجلّ ويرتفع عن هذا.

ثم قال ﷺ: يا عبدالله، وأما قولك: أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، فأنك قلت: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ فإن في سقوط السماء عليكم هلاككم وموتكم، وإنما تريد بهذا أن تهلك، ورسول رب العالمين أرحم بك من ذلك ولا يهلكك، ولكنه يقيم عليك حجج الله، وليس حجج الله لنبيه على حسب اقتراح عباده؛ لأن العباد جهال بما يجوز من الصلاح وبما لا يجوز منه من الفساد، وقد يختلف اقتراحهم ويتضاد حتى يستحيل وقوعه، فإنه لو كان إلى اقتراحاتهم [واقعة] لجاز أن تقترح أنت أن تسقط السماء عليكم، ويقترح غيرك أن لا تسقط السماء عليكم، بل أن ترتفع الأرض إلى السماء وتقع [السماء] عليها، وكان ذلك تضاداً وتنافيً ويستحيل وقوعه، والله لا يجري تدبيره على ما يُلزِمُه المحال.

ثم قال ﷺ: وهل رأيت يا عبدالله طبيباً كان دواؤه للمرضى على حسب اقتراحاتهم، وإنما يفعل به ما يعلم صلاحه فيه أحبه العليل أو كرهه، فأنتم المرضى والله طبيبك، فان انقذتم لدوائه شفاكم، وإن تمردتم عليه أسقمكم، وبعد فمتى رأيت يا عبدالله مدعي حق من قبل رجل أوجب عليه حاكم من حكامهم فيما مضى بينة [على] دعواه على حسب اقتراح المدعى [عليه] إذن ما كان يثبت لأحد على أحد دعوى ولا حق، ولا كان بين ظالم ومظلوم، ولا صادق ولا كاذب فرق.

ثم قال: يا عبدالله، وأما قولك: أو تأت بالله والملائكة قبيلاً يقاتلوننا ونعذبهم. فإن هذا من المحال الذي لا خفاء به، إن ربي عز وجل ليس كالمخلوقين يجبن ويذهب ويتحرك ويقابل شيئاً حتى يؤتى به، فقد سألت بهذا المحال، وإنما هذا الذي دعوت إليه صفة أصنامكم الضعيفة المتقوصة التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تعلم ولا تغني عنك شيئاً ولا عن أحد.

يا عبدالله، أو ليس لك جنان وضياع بالطائف وعقار بمكة وقوام عليها؟ قال: بلى. قال: أفتشاهد جميع أحوالها بنفسك أو بسفراء بينك وبين معامليك؟ قال: بسفراء. قال: أرايت لو قال معاملك

وَأَكْرَمْتَ وَخَدَمْتَ لِسَفَرَانِكَ: لَا نَصَدِّقْكُمْ فِي هَذِهِ السَّفَارَةِ إِلَّا أَنْ تَأْتُونَا بِعِبَادِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةٍ لِنَشَاهِدَهُ وَنَسْمَعَ مَا يَقُولُونَ عَنْهُ شِفَاهًا، أَكُنْتَ تَسْوَعُهُمْ هَذَا، أَوْ كَانَ يَجُوزُ لَهُمْ عِنْدَكَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَمَا الَّذِي يَجِبُ عَلَى سَفَرَانِكَ؛ أَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْتَوْهُمْ عَنْكَ بِعَلَامَةٍ صَحِيحَةٍ تَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِهِمْ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ سَفِيرَكَ لَوْ أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ مِنْهُمْ هَذَا، عَادَ إِلَيْكَ فَقَالَ: قُمْ مَعِيَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ اقْتَرَحُوا عَلَيَّ مَجِيئَكَ، أَلَيْسَ يَكُونُ هَذَا لَكَ مُخَالَفًا، وَقَوْلُ لَهُمْ: إِنَّمَا أَنْتَ رَسُولٌ لَا مَشِيرَ وَلَا أَمْرَ؟ قَالَ: بَلَى.

قَالَ: فَكَيْفَ صَرْتَ تَقْتَرِحُ عَلَى رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا لَا تُسَوِّغُ لَأَكْرَمَتِكَ وَمَعَامَلِيكَ أَنْ يَقْتَرِحُوهُ عَلَى رَسُولِكَ إِلَيْهِمْ، فَكَيْفَ أَرَدْتَ مِنْ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ يَسْتَدِمَّ^١ إِلَى رَبِّهِ بَأَنْ يَأْمُرَ عَلَيْهِ وَيَنْهَى، وَأَنْتَ لَا تُسَوِّغُ مِثْلَ ذَلِكَ لِلرَّسُولِ لَكَ إِلَى أَكْرَمَتِكَ وَقَوْمِكَ؟! هَذِهِ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ لِابْطَالِ جَمِيعِ مَا ذَكَرْتَ فِي كُلِّ مَا اقْتَرَحْتَهُ [يَا عَبْدَ اللَّهِ].

وَأَمَّا قَوْلُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ: أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ - وَهُوَ الذَّهَبُ - أَمَا بَلَغْتَ أَنْ لِعَزِيزٍ مِصْرَ بِيوتًا مِنْ زُخْرَفٍ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَفَصَارَ بِذَلِكَ نَبِيًّا؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَكَذَلِكَ لَا يُوجِبُ لِمُحَمَّدٍ لَوْ كَانَ لَهُ نَبُوَّةٌ، وَمُحَمَّدٌ لَا يَقْتَنِمُ جَهْلَكَ بِحُجَجِ اللَّهِ.

وَأَمَّا قَوْلُكَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ قُلْتَ: وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ [يَا عَبْدَ اللَّهِ الصُّعُودُ إِلَى السَّمَاءِ أَصْعَبُ مِنَ النُّزُولِ عَنْهَا، وَإِذَا اعْتَرَفْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِأَنَّكَ لَا تُؤْمِنُ إِذَا صَعِدْتَ فَكَذَلِكَ حُكْمُ النُّزُولِ].

ثُمَّ قُلْتَ: «حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ»، وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَا أَدْرِي أَوْ مِنْ بَكَ أَوْ لَا أَوْ مِنْ بَكَ. فَأَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ مُقَرَّرٌ بِأَنَّكَ تُعَانِدُ بَعْدَ حُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْكَ، فَلَا دَوَاءَ لَكَ إِلَّا تَأْدِيبُهُ عَلَى يَدِ أَوْلِيَائِهِ مِنَ الْبَشَرِ أَوْ مَلَائِكَتِهِ الزَّبَانِيَةِ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ كَلِمَةً^٢ جَامِعَةً لِابْطِلَانِ كُلِّ مَا اقْتَرَحْتَهُ.

فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ «سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» مَا أَبْعَدَ رَبِّي مِنْ أَنْ يَفْعَلَ الْأَشْيَاءَ عَلَى قَدَرٍ مَا يَقْتَرِحُ الْجَهَّالُ بِمَا يَجُوزُ وَبِمَا لَا يَجُوزُ! وَهَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا، لَا يَلْزُمُنِي إِلَّا إِقَامَةُ حُجَّةِ اللَّهِ الَّتِي أُعْطَانِي، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَمُرَ عَلَى رَبِّي وَلَا أَنْهَى وَلَا أَشِيرَ، فَأَكُونُ كَالرَّسُولِ الَّذِي بَعَثَهُ مَلَكَ إِلَى قَوْمٍ مِنْ مُخَالَفِيهِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ يَأْمُرُهُ أَنْ يَفْعَلَ بِهِمْ مَا اقْتَرَحُوهُ عَلَيْهِ»^٣.

أَقُولُ: لَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ عِبَارَةَ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ مَقْتَرِحَاتِهِ لَمْ تَكُنْ عِبَارَةَ الْآيَاتِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ عَيْنَ عِبَارَاتِ

٢. فِي الْمَصْدَرِ: حِكْمَةٌ.

١. اسْتَدِمَّ إِلَيْهِ: فَعَلَ مَا يَدْمُهُ عَلَيْهِ.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣١٤/٥٠١، الاحتجاج: ٢٩، تفسير الصافي: ٣: ٢١٧.

الآيات لَزِمَ أنهم أتوا بمثل بعض القرآن، بل إنَّما عبَّرَ الامام عن مطالبهم بعبارات القرآن، والقول بأن العبارات قليلة، والقليل لا ينافي التحدي، ضعيف غاية.

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا
* قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ
مَلَكًا رَسُولًا * قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا
بَصِيرًا [٩٤-٩٦]

ثم لما حكى سبحانه اقتراحات البشر على النبي ﷺ، حكى بعض شبهاتهم في نبوته بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ من ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ بالحق ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ سبب ﴿الْهُدَىٰ﴾، والرشاد إليه من النبي والكتاب، أو ما منعهم من الايمان بالرسول بعد ظهور دلائل صدقه ووفور معجزاته مانع ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ تعجباً وإنكاراً: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا﴾ فينا ﴿رَسُولًا﴾ إلينا مع قدرته على بعث المَلِك، وكونه أقرب قبولاً؟

﴿قُلْ﴾ يا محمد في جوابهم: لَمَّا كُنتُمْ بَشَرًا لَا تَقْدِرُونَ عَلَى رُؤْيَةِ الْمَلِكِ عَلَى صورته، ولا تستأنسون به، وجب على الله بمقتضى حكمته البالغة أن يبعث الرسول إليكم من البشر حتى يمكنكم مجالسته والاستفادة منه و ﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ﴾ مكان البشر ﴿مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ على أقدامهم ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء، فيسمعوا من أهلها ويتعلموا منهم ما يجب عليهم علمه، وكانوا ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ومستقرين فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا﴾ ليكون ﴿رَسُولًا﴾ منا إليهم يبلغهم المعارف والأحكام، ويهديهم إلى وظائف العبودية.

و﴿قُلْ﴾ لهم: إن تريدوا الشاهد والدليل على صدق دعواي ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ومصدقاً لدعواي ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ حيث أظهر المعجزات القاهرة الدالة على صدقي، بحيث لم يبق لأحد مجال الشك فيه ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ ظواهرهم وبواطنهم ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فيجازي من صدقي وأطاعني بقلبه ولسانه وظاهره وباطنه بأفضل الجزاء، ويعاقب من أنكرني أشد العقاب.

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًىً وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ
زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا

وَرَفَاتًا أَعْتَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا [٩٧ و ٩٨]

ثُمَّ بَنَى سَبْحَانَهُ عَلَى أَنْ وَفَّرَ الدَّلَائِلَ لَا يُوْجِبُ الْإِيْمَانَ إِلَّا مَعَ تَوْفِيقِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ وَيُوفِّقُهُ لَتَلْبِيعَةِ الرَّسُولِ ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ بِالْخُصُوصِ ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ﴾ بِسَلْبِ التَّوْفِيقِ مِنْهُ وَيُخَذِّلُهُ وَيَكِلُهُ إِلَى نَفْسِهِ ﴿فَلَنْ تَجِدَ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿لَهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وَأَحْبَاءَ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ تَعَالَى يَهْدُونَهُمْ إِلَى الْحَقِّ.

فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ، وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْهَدَايَةِ شَيْءٌ، وَلَوْ كَانَتِ الْهَدَايَةُ إِلَيَّ لَأَمَنَ كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّمَا إِبْلِيسُ مَزِيّنٌ وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الضَّلَالَةِ شَيْءٌ، وَلَوْ كَانَتِ الضَّلَالَةُ إِلَيْهِ لَأَضَلَّ كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»^١.

ثُمَّ هَدَى الضَّالِّينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ مَا شِئْنَا «عَلَى وُجُوهِهِمْ» بَدَلًا مِنْ أَقْدَامِهِمْ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى رَجْلَيْهِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمَشِّيه عَلَى وَجْهِهِ»^٢.

وَعَنْ أَحَدِهِمَا ﷺ: «عَلَى وُجُوهِهِمْ» قَالَ: «عَلَى جِبَاهِهِمْ»^٣ حَالُ كَوْنِهِمْ «عُمِيًّا» مَكْفُوفِي الْأَبْصَارِ «وَبُكْمًا» خَرَسَ الْأَلْسُنَ «وَصَمًّا» مَسْدُودِي الْأَذَانِ، لِأَنَّهُمْ غَضُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَنِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ، وَتَصَامَمُوا عَنِ اسْتِمَاعِ الْحَقِّ وَالنُّصْحِ، وَأَبَوْا عَنِ النُّطْقِ بِمَا فِيهِ رِضَا اللَّهِ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَا يَزِيدُونَ مَا يَسْرَهُمْ، وَلَا يَنْطِقُونَ بِمَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ، وَلَا يَسْتَمْعُونَ مَا يُلْذَّ مَسَامِعَهُمْ^٤. ثَقِيلُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: أَلَيْسَ أَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارُ﴾^٥ وَقَالَ: «سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا»^٦ وَقَالَ: «دَعَا هُنَاكَ ثُبُورًا»^٧ وَقَالَ: «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا»^٨ وَقَالَ حِكَايَةً عَنِ الْكَفَّارِ: «وَاللَّهُ زَيْنًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ»^٩ فَنَبَتْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ وَيَسْمَعُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ، فَكَيْفَ قَالَ هَاهُنَا: عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصَمًّا؟

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عُمِيًّا عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا جَعَلَهُ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ، بُكْمًا عَنِ مَخَاطَبَةِ اللَّهِ وَمَخَاطَبَةِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، صَمًّا عَنِ سَمَاعِ ثَنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَوْلِيَائِهِ^{١٠}.

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٠٥.

٢. تفسير الرازي ٢١: ٦٠، مجمع البيان ٦: ٦٨٢، عن أنس بن مالك.

٣. تفسير العياشي ٣: ٨٢/٢٦١٠، تفسير الصافي ٣: ٢٢٤.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٠٦.

٥. الكهف: ٥٣/١٨.

٦. الفرقان: ١٢/٢٥.

٧. الفرقان: ١٣/٢٥.

٨. النحل: ١١١/١٦.

٩. الأنعام: ٢٣/٦.

١٠. تفسير الرازي ٢١: ٦١.

وقال مقاتل: إنه حين يقال لهم: ﴿أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾^١ يصيرون عُمياً وبُكمًا وضُمًا، أما قبل ذلك فهم يَرَوْنَ ويسمعون ويتَطَلَّعون^٢.

وقيل: إنهم راؤون سامعون ناطقون في الموقف، فإذا أخذوا يذهبون من الموقف إلى النار، جعلهم الله عُمياً وبُكمًا وضُمًا^٣.

ويمكن القول بأنهم حال حشرهم عُمي وبُكم وضُم، ثم عند ظهور أهوال القيامة من ظهور لهب النار وتغيظ جهنم وزفيرها، وعتاب الله لهم، يصيرون رائيين سامعين ناطقين.

ثم يكون ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومنزلهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ فيستقرّون فيها أبداً ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ وسكنت بسكون لَهَبِهَا، وهو حين أكلت جلودهم ولحومهم بحيث لم يبقَ ما تتعلق به النار ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ ولَهَبِهَا بتبديل جلودهم بجلود غيرها ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب ليس بسبب التشقي بل ﴿جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ وبراہین توحیدنا ومعجزات نبینا، ﴿و﴾ بأنهم ﴿قَالُوا﴾ إنكاراً للمعاد ﴿أَعِدَّا﴾ متنا و﴿كُنَّا عِظَامًا﴾ نَجْرة بالية ﴿وَوَرَقَاتًا﴾ وأجزاء متفرقة ﴿أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ من القبور إلى المحشر حال كوننا مخلوقين ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ومُحيون حياة ثانية.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّورًا * قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ
خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا [١٠٠ و ٩٩]

ثم لما كان منشأ استبعادهم المعاد الجهل بقدرة الله، أنكر عليهم ترك التفكير فيها بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ قيل: إن التقدير ألم يتفكروا، ولم يعلموا^٤ ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مع غاية عظمهما، وكون خلقهما أعجب من خلق الكفار البتة ﴿قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ ويوجد لهم ثانياً بصورتهم الأولى بعد صيرورتهم رُصماً ورُفَاتاً ﴿و﴾ لكن ﴿جَعَلَ﴾ الله بحكمته البالغة لاعادته ﴿لَهُمْ﴾ وبعثه إياهم ﴿أَجَلًا﴾ معيناً ووقتاً محققاً ﴿لَا رَيْبَ﴾ للعلاء ﴿فِيهِ﴾ أنه آت، وهو يوم القيامة.

وقيل: إن المراد بالأجل وقت الموت^٥ ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ وامتنع الكافرون عن الانقياد للحق، ولم يرضوا لأنفسهم ﴿إِلَّا كُفُّورًا﴾ وثُفُوراً عنه وجُحوداً به.

١. المؤمنون: ١٠٨/٢٣. ٢. تفسير الرازي ٢١: ٦١، تفسير روح البيان ٥: ٢٠٦. ٣. تفسير الرازي ٢١: ٦١.

٤. تفسير أبي السعود: ٥: ١٩٧، تفسير روح البيان ٥: ٢٠٦.

٥. تفسير البضاوي ١: ٥٨٣، تفسير الصافي ٣: ٢٢٤.

ثُمَّ لَمَّا سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ تَجْفِيرَ الْعُيُونِ لَهُمْ وَتَكْثِيرَ أَمْوَالِهِمْ، ذَمَّهُمْ سَبْحَانَهُ بِأَنْ كَثُرَ الْأَمْوَالُ لَا تَزِيدُهُمْ إِلَّا بُخْلًا بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدٌ، لَهُؤُلَاءِ الْمُقْتَرِحِينَ عَلَيْكَ الْمُنْكَرِينَ لِلْمَعَادِ: ﴿لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ ﴿خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ وَرِزْقَهُ الَّذِي يَقْسِمُهُ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ ﴿إِذَا﴾ وَاللَّهُ ﴿لَأَمْسَكْتُمْ﴾ عَنْ بَذْلِ شَيْءٍ مِنْهُ وَبَخْلَيْتُمْ ﴿خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ وَمَخَافَةَ النَّفَادِ لَطَوَّلَ أَمْلَكُمْ، وَتَوَهُّمُ بَقَائِكُمْ وَخُلُودِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَغَفَلْتُمْ عَنِ الْمَوْتِ ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ لَجْهَلِهِ بِفَنَائِهِ وَتَوَهُّمِ دَوَامِ حَاجَتِهِ ﴿قَتُورًا﴾ وَمِبَالِغًا فِي الْبُخْلِ وَالصَّنَةِ.

القَمِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: لَوْ كَانَتِ الْأُمُورُ^١ بِيَدِ النَّاسِ، لَمَّا أَعْطَوْا شَيْئًا مَخَافَةَ الْفَنَاءِ^٢ ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أَيَّ بُخْلًا^٣.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَحْبُورًا * فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا [١٠١-١٠٤]

ثُمَّ لَمَّا سَأَلَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مَعْجَزَاتٍ عَدِيدَةً اقْتِرَاحًا وَتَعْتًا، سَلَى نَبِيَّهُ ﷺ وَبَالَغَ فِي رَدِّ الْمُشْرِكِينَ بِبَيَانِ عَدَمِ إِيمَانِ مُعَانَدِي مُوسَى مَعَ رُؤْيَتِهِمُ الْمَعْجَزَاتِ الْعَظِيمَةَ مِنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ وَمَعْجَزَاتٍ قَاهِرَاتٍ ﴿فَسْتَلْ﴾ يَا مُحَمَّدٌ فِي حَضُورِ الْمُشْرِكِينَ ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى يُصَدِّقُوا، وَيَعْلَمَ الْمُشْرِكُونَ صَدَقَ قَوْلُكَ بِتَصَدِيقِهِمْ إِيَّاكَ، وَشَهَادَتِهِمْ بِصَحَّةِ خَبْرِكَ ﴿إِذْ﴾ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مُوسَى ﴿جَاءَهُمْ﴾ بِتِلْكَ الْآيَاتِ وَهُمْ مُطَّلَعُونَ عَلَيْهَا.

وَقِيلَ: يَعْنِي سَلَّ مُؤْمِنِي بَنِي إِسْرَءِيلَ كَعْبَدَ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَضْرَابِهِ لَتَزْدَادَ [بِقَيْنًا وَطِمَآنِيَةً، أَوْ لِيُظْهِرَ صَدَقًا]^٤، أَوِ الْمُرَادُ قُلْنَا لِمُوسَى اسْأَلْ مِنْ فِرْعَوْنَ أَنْ يُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ^٥، أَوِ الْمُرَادُ فَاسْأَلْ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَمَّا جَرَى بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ.

قِيلَ: إِنَّهَا صَبْرُورَةُ الْعَصَا تُعْبَانَا، وَالْيَدُ الْبَيْضَاءُ، وَالطُّوفَانُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالْجُرَادُ، وَالْقَمَلُ، وَالْدَّمَ، وَالطَّمَسُ^٦.

١. فِي الْمَصْدَرِ: الْأَمْوَالُ. ٢. فِي الْمَصْدَرِ: النَّفَادُ. ٣. تَفْسِيرُ الْقَمِي ٢: ٢٩، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٢٢٤.

٤. أُتْبِنَاهُ مِنْ تَفْسِيرِ أَبِي السَّعُودِ ١٩٨: ١٩٨. ٥. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٥: ٢٠٨.

٦. تَفْسِيرُ الرَّازِي ٢١: ٦٤، تَفْسِيرُ الْبِيضَاوِيِّ ١: ٥٨٣، تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٥: ١٩٨، تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٥: ٢٠٨، وَقَدْ ذَكَرَ فِي الْمَتْنِ ثَمَانِ آيَاتٍ.

وعن الصادق عليه السلام: «هي: الجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطوفان، والبحر، والحجر، والعصا ویده»^١.
وعن الكاظم عليه السلام: وقد سأله يهودي عنها، فقال: «العصا، وإخراج يده من جيبه بيضاء، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ورفع الطور، والتمنّ والسُلوى آية واحدة [وفلق البحر]»^٢.

روى الفخر الرازي عن صفوان بن عسال أنه قال: إن يهودياً قال لصاحبه: أذهب بنا إلى هذا النبي نسأله عن تسع آيات، فذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسألاه عنها، فقال: «هَنْ أَنْ لَا يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً، وَلَا يُسْرِفُوا، وَلَا يَزْنُوا، وَلَا يَقْتُلُوا، وَلَا يَسْحَرُوا، وَلَا يَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلَا يَقْذِفُوا الْمُحْصَنَةَ، وَلَا يُولُوا الْفِرَارِ يَوْمَ الزَّحْفِ، وَعَلَيْكُمْ يَا يَهُودَ أَنْ لَا تَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ». فقام اليهوديان فقَبَلَا يديه ورجليه، وقالوا: نشهد أنك نبي، ولولا نخاف القتل لاتبعناك، الخير»^٣.

فلم ينفع في إيمان المعاندين، فإنه عليه السلام لما أظهرها «فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ عِنَاداً وَلَجَاجاً وَاسْتِكْبَاراً: «إِنِّي لَأَظُنُّكَ» واتَّخِيلَ «يَا مُوسَى» أَنَّكَ صِرْتَ «مَسْحُوراً» وَمَجْنُوناً، أَوْ مَخْتَلَّ الْعَقْلَ بِسِحْرِ السَّحَرَةِ، وَلِذَا تَتَكَلَّمُ بِمَثَلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ.

وقيل: يعني أتوهم أنك ذو السحر، وإنما تفعل هذه الأفاعيل بالسحر «قَالَ لَهُ مُوسَى: وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ» أنه «مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ» الآيات التي أظهرتها «إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» ومُدَبِّرُهَا حال كونها، أو لتكون للناس «بَصَائِرٌ» ودلائل واضحة على صدقي فيما أقول، وإنما أنت معاند ومكابرة «وَإِنِّي» والله «لَأَظُنُّكَ» وأعتقد أنك «يَا فِرْعَوْنُ» تصير «مَسْهُوراً» وهالِكاً، أو تكون مصروفاً من كل خير مطبوعاً على الشر، أو غير بصير وناقص العقل «فَأَرَادَ» فرعون على حسب ظنه الكاذب في حق موسى عليه السلام وأتباعه من بني إسرائيل «أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ» ويُرْجِعَهُمْ «مِنْ» وجه «الْأَرْضِ» بالقتل، أو يُخْرِجَهُمْ من أرض مصر، كما أرادت قريش أن يُخْرِجُوكم من مكة «فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ» وأتبعه من القبط «جَمِيعاً» في البحر، ونَجَّيْنَا موسى عليه السلام ومن معه جميعاً منه.

عن الباقر عليه السلام: «أراد فرعون أن يُخْرِجَهُمْ من الأرض، وقد عَلِمَ فرعون وقومه ما أنزل تلك الآيات إِلَّا اللَّهُ»^٤.

«وَقُلْنَا» غِبْ^٥ إغراق فرعون وقومه وإهلاكهم «مِنْ بَعْدِهِ» بتوسط موسى «لِبَنِي إِسْرَائِيلَ» التابعين لموسى «أَسْكِنُوا الْأَرْضَ» التي أراد أعداءكم أن يُخْرِجُوكم منها وتعيشوا فيها برفاه وسعة

١. تفسير القمي ٢: ٢٩، الخصال: ٢٣٣/٤، تفسير الصافي ٣: ٢٢٥.

٢. تفسير الرازي ٢١: ٦٤.

٣. قرب الإنسان: ٣١٨/١٢٢٨، تفسير الصافي ٣: ٢٢٥.

٤. تفسير القمي ٢: ٢٩، تفسير الصافي ٣: ٢٢٦.

٥. أي بعد.

مدة أعماركم في الدنيا ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ ووقت قيام الساعة ﴿جِئْنَا بِكُمْ﴾ في عرصة القيامة أنتم وأعداؤكم حال كونكم ﴿لَقِيفًا﴾ ومختلطاً ببعضكم ببعض، ثم يمتاز المؤمن من الكافر، فنحكم بينهم بما يستحقون.

عن الباقر عليه السلام: «﴿لَقِيفًا﴾ يقول، جميعاً». وفي رواية «أي من كل ناحية»^١.

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا [١٠٥ و ١٠٦]

ثم أنه تعالى بعد ذكر معجزات موسى عليه السلام وامتناع قومه من الايمان به، بين عظم شأن القرآن الذي هو أعظم معجزات حبيبه بقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ﴾ ومعه، أو بغرض إظهار الحق محضاً ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ عليك ﴿وَبِالْحَقِّ﴾ ومعه، أو على النبي الحق ﴿نَزَلَ﴾ من عندنا، وإن اقترح الكفار المعاندين عليك غيره وتمردوا من الايمان بك، فليس عليك شيء، فأنما بعثناك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا﴾ إلى الناس ﴿إِلَّا﴾ لتكون ﴿مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين، ومخوفاً لهم من العقاب ﴿و﴾ أنزلنا ﴿قُرْآنًا﴾ عظيم الشأن، وأنما ﴿قُرْآنًا﴾ وجعلناه مميزاً للحق عن الباطل، أو أقساماً من الخبر والأمر والنهي والوعد والوعيد والأمثال والعيبر، أو متفرقاً ومتدرجاً في النزول ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ ومهل وتأن حتى يكون أيسر للحفظ وأعون للفهم ﴿وَنَزَّلْنَاهُ﴾ عليك ﴿تَنْزِيلًا﴾ خاصاً موافقاً للحكمة ومناسباً للمقامات.

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا [١٠٧-١٠٩]

ثم هدّد سبحانه المنكرين بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للجاحدين للقرآن المقترحين عليك غيره من المعجزات: إن الله قد أتم عليكم بنزوله الحجة إن شئتم ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ به لا يتفاوت في علو شأنه وعظم قدره وتامة الحجة به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ والمعرفة بمعنى النبوة ودلائلها^٢ بقرائتهم الكتب السماوية، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل، والمعجز والسحر، وبشروا ببعثة محمد ونزول القرآن ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ وهم

٢. في النسخة: ودلائله.

١. تفسير القمي ٢: ٢٩، تفسير الصافي ٣: ٢٢٦.

الخصيصون من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وورقة بن نوفل وأضرابهما ﴿إِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن الذي تستهزون به وتقولون إنه كلام البشر وأساطير الأولين ﴿يَخْرُجُونَ﴾ على الأرض ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ ويسقطون على الوجوه حال كونهم ﴿سُجَّدًا﴾ لله تشكراً على إنجاز وعده وإتمام نعمته ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في سجودهم: ﴿سُبْحَانَ رَبَّنَا﴾ وتنزه إلها اللطيف بنا عن الخلف في الوعد ﴿إِنْ﴾ الشأن ﴿كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا﴾ ببعث محمد ﷺ في آخر الزمان، وإنزال الكتاب الذي هو أفضل الكتب عليه، أو وعده بالمعاد والحشر للحساب كما قيل ﴿لَمَفْعُولًا﴾ ومُنْجَزًا البتة وواقعاً لا محالة، لاستحالة الخلف منه^١ ﴿وَيَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ عند استماع القرآن وهم ﴿يَتَكُونُونَ﴾ من خشية الله ومواعظه، ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ سماع القرآن ﴿خُشوعًا﴾ وضراعة، كما يزيدهم علماً وعرفاناً بالله، ويقيناً بصدق نبيه وجماله كتابه، فإذا كان حال العلماء عند استماع القرآن وتلاوته هذا، فأَيُّ اعتناء بتكذيب هؤلاء السفلة الحمقاء؟

قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا [١١٠]

ثم لما ذكر سبحانه خُضُوع العلماء وتضرعهم إليه، بين كيفية الدعاء وتسميته بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لمن يدعو الله ﴿أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ لا تفاوت بين الاسمين ﴿أَيًّا﴾ من الاسمين ﴿مَا تَدْعُوا﴾ وتقولوا في دعائكم كان حسناً مرضياً عند الله، بل عليكم أن تَخْصُوه بهذين الاسمين ﴿فَلَهُ﴾ بالخصوص ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ لأن له الصفات العليا.

رُوي أن اليهود قالوا الرسول ﷺ: إِنَّكَ لَتَقُلْ ذكر الرحمن، وقد أكثره الله في التوراة، فنزلت^٢. وقيل: إنها نزلت حين سَمِعَ المشركون رسول الله ﷺ يقول: «يا الله، يا رحمن» فقالوا: إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر^٣.

ثم أنه تعالى بعد تعليم كيفية دعائه وتسميته، بين كيفية قراءة القرآن بقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾ ولا تعل بصوتك ﴿بِصَلَاتِكُمْ﴾ وقراءتك فيها ﴿وَلَا تَخَافُ بِهَا﴾ بحيث لا تسمع نفسك ﴿وَابْتَغِ﴾ واطلب في كيفية القراءة ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المذكور من النحوين ﴿سَبِيلًا﴾ وطريقة.

عن ابن عباس، في هذه الآية، قال: كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقرآن^٤، فإذا سمعه المشركون

٢. تفسير روح البيان ٥: ٢١٢.

١. تفسير روح البيان ٥: ٢١١.

٣. تفسير الصافي ٣: ٢٢٧، تفسير روح البيان ٥: ٢١٢. ٤. في تفسير الرازي: بالقراءة.

سَبَّوْهُ وَسَبَّوْا مِنْ جَاءَ بِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ فَيَسْمَعُ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوْا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿وَلَا تُخَافُتْ بِهَا﴾ فَلَا تَسْمَعُ أَصْحَابُكَ ﴿وَأَتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^١.

وَرُوي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَافَ بِاللَّيْلِ عَلَى دَوْرِ الصَّحَابَةِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُخْفِي صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ^٢ فِي صَلَاتِهِ، وَكَانَ عُمَرُ يَرْفَعُ صَوْتَهُ، فَلَمَّا جَاءَ النَّهَارُ وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «لَمْ تُخْفِي صَوْتَكَ؟» فَقَالَ: «أُنَاجِي رَبِّي، وَقَدْ عَلِمَ حَاجَتِي». وَقَالَ لِعُمَرَ: «لَمْ تَرْفَعْ صَوْتَكَ؟» فَقَالَ: «أُزْجِرُ الشَّيْطَانَ، وَأَوْقِظُ الْوَشَنَانَ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يَرْفَعُ صَوْتَهُ قَلِيلًا، وَأَمَرَ عُمَرَ أَنْ يَخْفِضَ صَوْتَهُ قَلِيلًا^٣. وَعَنْهُمَا ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ بِمَكَّةَ جَهَرَ بِصَوْتِهِ، فَيَعْلَمُ بِمَكَانِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَكَانُوا يُؤْذِنُونَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ عِنْدَ ذَلِكَ»^٤.

وَعَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: «نَسَخْتُهَا ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾»^٥.

وَعَنِ الْبَاقِرِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ لِلصَّادِقِ ﷺ: «يَا بُنَيَّ عَلَيْكَ بِالْحَسَنَةِ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ تَمْحُوهُمَا. قَالَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا أَبَاهُ؟ قَالَ: مِثْلُ قَوْلِ: اللَّهُ: ﴿وَلَا تُجْهَرُ﴾ الْآيَةَ، وَمِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُجْعَلْ يَدُكَ مَغْلُولَةً﴾^٦ الْآيَةَ» الْخَبَرُ^٧. وَعَنِ الصَّادِقِ ﷺ، أَنَّهُ سُئِلَ: أَعْلَى الْأَمَامِ أَنْ يُسْمِعَ مَنْ خَلْفَهُ وَإِنْ كَثُرُوا؟ قَالَ: «لِيَقْرَأَ^٨ وَسَطًا» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ^٩.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَوَاتِكَ كُلِّهَا، وَلَا تُخَافُتْ بِهَا كُلِّهَا، وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، بِأَنْ تُجْهَرَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ وَلَا تُخَافُتْ بِصَلَاةِ النَّهَارِ^{١٠}.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالصَّلَاةِ الدُّعَاءَ، رُويَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «إِنَّمَا ذَلِكَ فِي الدُّعَاءِ وَالْمَسْأَلَةِ، لَا تَرْفَعُ صَوْتَكَ فَتَذْكُرَ ذُنُوبَكَ فَيُسْمِعَ ذَلِكَ فَتَعْبِرَ بِهَا»^{١١}.

وَعَنِ الصَّادِقِ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «الْجَهْرُ بِهَا: رَفْعُ الصَّوْتِ، وَالْمَخَافَةُ: مَا لَا تَسْمَعُ نَفْسُكَ^{١٢}، وَاقْرَأْ مَا بَيْنَ ذَلِكَ»^{١٣}.

وَعَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: «الْأَجْهَارُ: أَنْ تَرْفَعُ صَوْتَكَ تَسْمَعُهُ مِنْ بَعْدِ عُنُقِكَ، وَالْإِخْفَاتُ أَنْ لَا تُسْمِعَ [مَنْ]

١. تفسير الرازي ٢١: ٧٠. ٢. في تفسير الرازي: بالقراءة.

٣. تفسير الرازي ٢١: ٧٠، تفسير روح البيان ٥: ٢١٣. ٤. تفسير العياشي ٣: ٢٦١٧/٨٤، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨.

٥. تفسير العياشي ٢: ٤٣٩/٢٣٥٨، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨ والآية من سورة الحجر: ٩٤/١٥.

٦. الإسراء: ٢٩/١٧. ٧. تفسير العياشي ٣: ٢٦٢١/٨٤، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨.

٨. في تفسير العياشي: يقرأ قراءة. ٩. تفسير العياشي ٣: ٢٦١٤/٨٣، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨.

١٠. تفسير الرازي ٢١: ٧٠. ١١. تفسير الرازي ٢١: ٧١.

١٢. في تفسير القمي: بإذنك. ١٣. تفسير القمي ٢: ٣٠، تفسير الصافي ٣: ٢٢٧.

معك إلا يسيراً»^١.

وعن الصادق عليه السلام: «الجهر بها: رفع الصوت، والاختفات: ما لم تسمع أذنك، وما بين ذلك: قدر ما تسمع أذنك»^٢.

وعنه عليه السلام: «المخافتة: ما دون سمعك، والجهر: أن ترفع صوتك شديداً»^٣.

وعنه عليه السلام: «تفسيرها لا تجهر بولاية علي وما أكرمت به حتى أمرك بذلك ﴿وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ يعني لا تكتمها علياً، وأعلمه بما أكرمت به ﴿وَأَبْتِغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ يعني سلمي أن أذن لك أن تجهر بأمر علي وبولايته، فأذن له باظهار ولايته يوم غدیر خم»^٤.

أقول: المراد بالتفسير هنا هو التأويل.

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا [١١١]

ثم أنه تعالى بعد تعليم كيفية الدعاء وقراءة القرآن، علم كيفية تحميد بقوله: ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد، إذا أردت تحميد ربك على نعمه وإفضاله، فاحمده بصفاته التي فيها تنزيهه عن أعظم النقائص بأن تقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ولم يختل لنفسه^٥ «وَلَدًا» ذكوراً أو إناثاً، لأن إيجاد الولد من صفات الأجسام ومن شؤون الحاجة، وهو تعالى خالق الأجسام وغني بالذات، وفيه رد على اليهود القائلين بأن العزيز ابن الله، وعلى النصارى القائلين بأن المسيح ابن الله، على بني مدلج القائلين بأن الملائكة بنات الله.

﴿وَلَمْ يَكُنْ﴾ في الأزل، ولا يكون إلى الأبد «لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ» والسلطنة في عالم الوجود، لاستلزام وجود الشريك التعدد والتحدّد في الذات، ويمتنع التعدّد والتحدّد في واجب الوجود، وفيه رد على النصارى القائلين بأن الله ثالث ثلاثة، وعلى عبدة الكواكب والأصنام.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ﴾ وصديق ومعاون «مِنْ» أجل دفع «الذَّلِّ» عن نفسه بمولاته، لأن له العزة جميعاً، وفيه رد على الصابئين القائلين بأنه لولا أولياء الله لذلل، فلمّا عرفته بكمال الذات والصفات فعظمه «وَكِبْرُهُ» من جميع النقائص تعظيماً و«تَكْبِيرًا» كثيراً.

١. تفسير القمي ٢: ٣٠، تفسير الصافي ٣: ٢٢٧.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٦١٩/٨٤، تفسير الصافي ٣: ٢٢٧.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٦١٥/٨٣، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨.

٤. في النسخة: يختار نفسه.

٥. تفسير العياشي ٣: ٢٦٢٢/٨٥، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨.

عن الصادق عليه السلام أنه أمر من قرأ هذه الآية أن يكبر ثلاثاً^١.

وعنه عليه السلام قال رجل عنده: (الله أكبر) فقال: «الله أكبر من أي شيء؟» فقال: من كل شيء. فقال: «حدّثه» فقال الرجل: كيف أقول؟ قال: «قل الله أكبر من أن يُوصَف»^٢.

وفي رواية أخرى قال: «أو كان شيء فيكون أكبر منه؟» فقل: وما هو؟ قال: «أكبر من أن يُوصَف»^٣. وروى بعض العامة: كان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية، ويسمّيها آية العِزّة^٤.

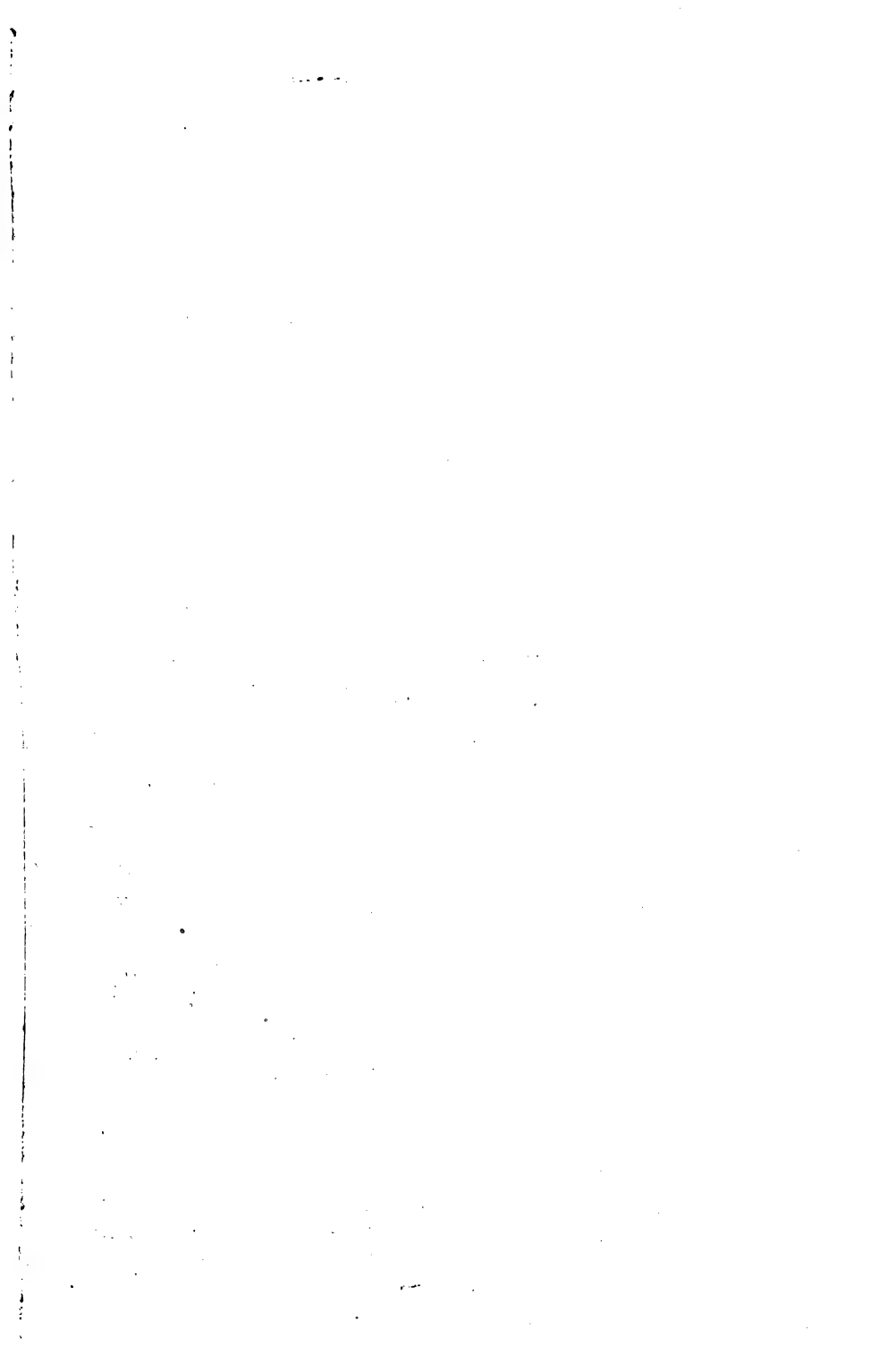
وعن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بآية العِزّة». قيل: يا رسول الله، ما هي؟ قال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي﴾ إلى آخرها^٥.

وفي (الفتية) في وصية النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «أمان لأمتي من السرّ ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾» إلى آخر السورة^٦.

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة بني إسرائيل في كلّ ليلة جمعة، لم يمُت حتى يدرك القائم عجل الله فرجه الشريف [ويكون من أصحابه]»^٧.

الحمد لله الذي منّ عليّ بالتوفيق لاتمام تفسير سورة الاسراء المباركة وأسأله أن يديمه عليّ.

١. التهذيب ٢: ١١٩٥/٢٩٧، تفسير الصافي ٣: ٢٢٩. ٢. الكافي ١: ٨/٩١، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨.
٣. الكافي ١: ٩/٩١، تفسير الصافي ٣: ٢٢٨. ٤. تفسير البيضاوي ١: ٥٨٦، تفسير روح البيان ٥: ٢١٣.
٥. تفسير روح البيان ٥: ٢١٣، الجامع للقرطبي ١٠: ٣٤٥. ٦. الإسراء: ١١٠/١٧.
٧. من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٢٤/٣٦٨، تفسير الصافي ٣: ٢٢٩. ٨. ثواب الاعمال: ١٠٧، تفسير الصافي ٣: ٢٢٩.



في تفسير سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ
بِأَسْأَ شَدِيداً مِنَ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ
أَجْرًا حَسَنًا * مَا كُنْ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ
بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا
كَذِبًا [٥-١]

ثم لما ختم سبحانه السورة المباركة المبتدأة بثناء ذاته بقدرته على تكميل محمد ﷺ وأسرانه إلى
أعلى مراتب العبودية، ورفعهم إلى مقام قاب قوسين أو أدنى، المختومة بحمد نفسه وثنائها بالصفات
الكمالية، ونزاهته من اتخاذ الولد والشريك والولي، أردفها بسورة الكهف المبدوءة. بحمد ذاته
المقدسة على أعظم نعمائه، وهو بعث خاتم الانبياء ﷺ لهداية الناس وإنزال أعظم الكتب إليه
المختومة بأمر نبيه ﷺ بدعوة الناس إلى توحيده وتنزيهه من الشريك، والقيام بوظائف العبودية
والأعمال الصالحة، فابتدأ فيها على حسب دأبه في الكتاب العزيز بذكر اسمائه المباركة، بقوله: ﴿بِسْمِ
اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم افتتحها بحمد ذاته على أعظم النعم بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ،
بتوسط جبرئيل ﴿الْكِتَابَ﴾ الذي هو أَفْضَلُ الْكُتُبِ ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ وَاخْتِلَالًا فِي اللَّفْظِ،
وتناقضاً في الآيات، واختِلَافاً فِي الْمَطَالِبِ، وانحرافاً عن الحق، وجعله ﴿قَيِّمًا﴾ ومستقيماً، كما عن
ابن عباس^١، أو كافلاً لمصالح الخلق إلى يوم القيامة.

وعن القمي، قال: هذا مقدّم ومؤخّر، لأن معناه: الذي أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له
عوجاً^٢.

أقول: نَسَبَ الواحدي هذا القول إلى جميع المفسرين^١.

وقيل: إن المقصود من قوله: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ أنه كامل في نفسه، ومن قوله: ﴿قَتِيمًا﴾ أنه قائم بأمور غيره ومُكَمَّل للناس، ومن المعلوم أن كماله في نفسه مقدَّم بالطبع على مُكَمِّلته لغيره، فالترتيب المذكورة موافق للعقل^٢.

وقيل: إن المعنى: وَلَمْ يَجْعَلْ لِعَبْدِهِ عِوَجًا وتوجُّهاً إلى غير ذاته المقدَّسة، بل جَعَلَهُ مستقيماً في جميع أحواله^٣.

ثُمَّ بَيَّن سبحانه الغرض من إنزاله بقوله: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ﴿بَأْسًا﴾ وَعَذَابًا ﴿شَدِيدًا﴾ صَادِرًا ﴿مِنْ لَدُنْهِ﴾ تعالى من عذاب الاستئصال في الدنيا، أو العقوبة بالنار في الآخرة ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَرسالة رسوله وَصدق كتابه ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ﴾ الْأَعْمَالَ ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ وَالْعِبَادَاتِ الْخَالِصَاتِ لوجه الله ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ فِي مَقَابِلِ إِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ﴿أَجْرًا﴾ حَسَنًا ﴿مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّعِيمِ الدَّائِمَةِ﴾ حال كونهم مقيمين في ذلك الْأَجْرِ ﴿مَا كُتِبَ﴾ وَبَاقِينَ ﴿فِيهِ أَبَدًا﴾ لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا تَقَادُّ لَهُ ﴿وَيُنْذِرَ﴾ بِالْخُصُوصِ، أَكْفَرَ الْكُفْرَةِ وَأَجْهَلَهُمْ؛ وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ﴾ وَاخْتَارَ لِنَفْسِهِ ﴿وَلَدًا﴾ ذِكُورًا، كَالْيَهُودِ الْقَانِلِينَ بِأَنَّ الْعَزِيزَ ابْنَ اللَّهِ، وَالنَّصَارَى الْقَانِلِينَ بِأَنَّ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، أَوْ إِنَاثًا، كَبَنِي مُدْلِجِ الْقَانِلِينَ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ.

وَالْحَالُ أَنَّ الْقَانِلِينَ بِهَذَا الْقَوْلِ السَّخِيفِ ﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾ أَقَلَّ رُتْبَةٍ ﴿مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِإِبَائِهِمْ﴾ الَّذِينَ قَلَّدُوهُمْ فِي ذَلِكَ، بَلْ قَالُوا بِهِ بِمَحْضِ الْجَهْلِ، وَهَوَى النَّفْسِ، وَعَدَمِ التَّفَكُّرِ فِي كَوْنِهِ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ الْعَاقِلُ ﴿كَثِيرٌ﴾ وَعَظُمَتْ تِلْكَ الْمَقَالَةُ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا ﴿كَلِمَةً﴾ بَاطِلَةٌ وَمَقَالَةٌ فَاسِدَةٌ فِي غَايَةِ الْقَبَاحَةِ وَالشَّنَاعَةِ ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ خُرَافَةٌ عَلَى اللَّهِ.

وقيل: إن فيه معنى التعجب، والمراد: مَا أَكْبَرَهَا كَلِمَةً وَمَقَالَةً! ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ فَظِيحًا.

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا
مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَعِيدًا جُرُزًا [٦-٨]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّن سبحانه فضيلة القرآن، وغاية جهل المشركين وشدة حُفْمِهِم المَوْجِبَةَ لِتَأَثُّرِ قَلْبِ

٢. تفسير الرازي ٢١: ٧٥.

٤. تفسير الرازي ٢١: ٧٨.

١. تفسير الرازي ٢١: ٧٥.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٢١٥.

النبي ﷺ وحزنه، سلاه سبحانه بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ﴾ وقاتل أو مُثْعَبٌ ﴿نَفْسَكَ﴾ الشريعة ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ ومفارقتهم حين فاروقك، أو للتحرر عليهم ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا﴾ القرآن الذي هو أحسن ﴿الْحَدِيثِ﴾ وأفضل الكتب، لأجل أنك تأسف ﴿أَسْفًا﴾ وتحزن حزناً شديداً.

وحاصل المراد أنه تعالى شبه حال نبيه ﷺ في شفقتة ورحمته على الأمة بمن يتوقع منه إهلاك نفسه من شدة الحزن على مفارقة الأحبة، فسلاه بأنه لا يعظم حزنك بسبب كفرهم، فإنه ليس عليك إلا الإنذار والتبشير، لا إيجاد الإيمان في قلوبهم، وإنما المقصود من إرسال الرسل، وجعل التكليف، والإنذار والتبشير، امتحان الخلق وتميز النفوس الطيبة من النفوس الخبيثة، فعامل معهم بالمدارة والامتحان كما نعامل معهم^١.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ وخلقنا ﴿مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ من المعادن، والنباتات، والحيوانات، لأجل أن يكون ﴿زِينَةً لَهَا﴾ وأهلها ﴿لِيَتْلَوْهُمْ﴾ ونمتحنهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وأخلص عبادة، وأزهد في الدنيا، وأقنع بالكفاف منها، وأتيم أفتح عملاً، وأرغب في الدنيا، وأحرص على جمع زخارفها. ثم أنهم يكفرون ويتمردون، ومع ذلك لا أقطع عنهم النعم، وأداري بهم^٢، فانت يا محمد أيضاً دار بهم ولا تترك - لحزنك على كفرهم ولجأهم - دعوتهم إلى الحق ﴿وَإِنَّا﴾ بعد انقضاء الدنيا والله ﴿لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ وأرضاً بلا نبات، كما عن الباقر ﷺ، أو خراباً، كما عن القمي^٣. وعن السجاد ﷺ: «أن الله لم يحب زهرة الدنيا وعاجلها لأحد من أوليائه، ولم يرغبهم فيها وفي عاجل زهرتها وظاهر بهجتها، وإنما خلق الدنيا وأهلها ليلوهم أيهم أحسن عملاً^٤».

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا [٩]

ذكر أصحاب الرقيم ثم استشهد على غاية لطفه بالمؤمنين المعرضين عن الدنيا طلباً لآخرته بقصة أصحاب الكهف فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾ وساكني الغار الواسع في الجبل ﴿وَالرَّقِيمِ﴾ قيل: هو اسم كلبهم، أو اسم قريتهم، أو جبلهم، أو الوادي الذي كان الجبل فيه، أو اللوح الذي كتبت فيه أسماؤهم ووسمهم وترجمة أحوالهم^٥.

وعن الصادق ﷺ «هم قوم فُقدوا، وكتب ملك تلك الديار بأسمائهم وأسماء آبائهم وعشائرهم في

١. كذا، والظاهر: فعاملهم بالمدارة والامتحان كما نعاملهم. ٢. كذا، والظاهر: وأداريهم.

٣. تفسير القمي ٢: ٣٦، تفسير الصافي ٣: ٢٣١. ٤. الكافي ٨: ٢٩/٧٥، تفسير الصافي ٣: ٢٣١.

٥. تفسير البيضاوي ٢: ٤، تفسير أبي السعود ٢٠٦: ٥، تفسير روح البيان ٥: ٢١٨.

صُحِفَ مِنْ رِصَاصٍ^١.

وَرَوَى أَنَّ أَصْحَابَ الرُّقِيمِ كَانُوا ثَلَاثَةَ نَفَرٍ غَيْرِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، خَرَجُوا مِنْ بِلَدِهِمْ لِحَاجَةٍ فَأَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَالْتَجَأُوا إِلَى غَارٍ، فَلَمَّا دَخَلُوا فِيهِ سَقَطَ حَجَرٌ عَظِيمٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَسَدَ بَابُ الْغَارِ بِحَيْثُ لَمْ يُمْكِنَ لَهُمُ الْخُرُوجُ مِنْهُ، فَيَاسُوا مِنَ الْحَيَاةِ، فَتَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ، فَتَوَسَّلَ كُلُّ مِنْهُمْ إِلَى عَمَلٍ خَالَصَ لَهُ صَدْرُ مِنْهُ، فَشَفَّعُوهُ عِنْدَ اللَّهِ فَنَجَّاهُمْ اللَّهُ بِهِ^٢.

وَعَلَى أَيِّ تَقْدِيرٍ ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا﴾ أَمراً ﴿عَجَباً﴾ لَا تَحْسَبُ ذَلِكَ، فَإِنَّ وَاقَعَتَهُمْ فِي جَنْبِ عَجَائِبِ آيَاتِنَا - مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَرْبِيئِهَا بِالْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ - لَا عَجَبَ فِيهَا. الْقَمِي: يَقُولُ قَدْ آتَيْنَاكَ مِنَ الْآيَاتِ مَا هُوَ أَعْجَبُ [مِنْهُ]^٣.

قِيلَ: إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ تَعَجَّبُوا مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ فَسَأَلُوا عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ امْتِحَانًا، فَنَزَلَتْ^٤. وَقِيلَ: إِنَّ النَّصْرَ بْنَ الْحَارِثِ كَانَ مِنْ شَيَاطِينِ قَرِيشٍ، وَكَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَيَنْصِبُ لَهُ الْعِدَاوَةَ، وَكَانَ قَدِيمَ الْحَيَاةِ وَتَعَلَّمَ بِهَا أَحَادِيثَ رُسْتَمَ وَإِسْفنديَارَ، وَكَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ مَجْلِسًا ذَكَرَ فِيهِ اللَّهُ وَحَدَّثَ قَوْمَهُ مَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَكَانَ النَّصْرُ يَخْلُفُهُ فِي مَجْلِسِهِ إِذَا قَامَ، فَقَالَ: أَنَا وَاللَّهِ - يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ - أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْهُ، فَهَلُمُّوا فَأَنَا أَحَدُكُمْ بِأَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِهِ: ثُمَّ يُحَدِّثُهُمْ عَنْ مَلُوكِ فَارَسَ.

ثُمَّ أَنَّ قَرِيشًا بَعَثُوهُ وَبَعَثُوا مَعَهُ عُتْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ إِلَى أَحْبَارِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ، وَقَالُوا لَهُمَا: سَلُوهُمُ عَنْ مُحَمَّدٍ وَصَفَتِهِ، فَأَخْبَرُوهُمُ بِقَوْلِهِ، فَإِنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَعِنْدَهُمْ [مِنْ] الْعِلْمِ مَا لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ، فَخَرَجَا حَتَّى قَدَمَا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَسَأَلُوا أَحْبَارَ الْيَهُودِ عَنْ أَحْوَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ أَحْبَارُ الْيَهُودِ: سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنْ نَبِيَّةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ، مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ؟ فَإِنَّ حَدِيثَهُمْ عَجِيبٌ. وَعَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا مَا كَانَ نَبُوءَةً؟ وَسَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ مَا هُوَ؟ فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ فَهُوَ نَبِيٌّ، وَإِلَّا فَهُوَ مُتَوَلِّلٌ.

فَلَمَّا قَدِمَ النَّصْرُ وَصَاحِبُهُ مَكَّةَ قَالَا: قَدْ جِئْنَاكَم بِفَصْلٍ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَأَخْبَرُوا بِمَا قَالَهُ الْيَهُودُ، فَجَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَسَأَلُوهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أَخْبِرْكُمْ بِمَا شِئْتُمْ غَدًا» وَلَمْ يَسْتَنْ^٥، فَانْصَرَفُوا. وَمَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا يَذْكُرُونَ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى أَرْجَفَ أَهْلَ مَكَّةَ بِهِ وَقَالُوا: وَعَدْنَا مُحَمَّدَ

٢. مجمع البيان ٦: ٦٩٧.

١. تفسير العياشي ٣: ٢٦٢٩/٨٨، تفسير الصافي ٣: ٢٣٢.

٣. تفسير القمي ٢: ٣١، تفسير الصافي ٣: ٢٣١.

٤. تفسير الرازي ٢١: ٨١.

٥. أي لم يقل: إن شاء الله تعالى.

غداً، واليوم خمس عشرة ليلة، فسَقَ ذلك عليه ﷺ، ثُمَّ جاء جَبْرِئِيلُ من عند الله بسورة أصحاب الكهف، وفيها معاتبه الله إياه على حُزنه عليهم، وخبر أولئك الفتيّة، وخبر الرجل الطّواف^١.

والقمي عن الصادق عليه السلام: «كان سبب نزول سورة كهف أن قريشاً بعثوا ثلاثة نفر إلى نَجْران: النضر بن الحارث بن كَلْدَة، وعُقْبَة بن أبي مُعَيْط، والعاص بن وائل السَّهْمِي، ليتعلّموا من اليهود والنصارى مسائل يسألونها رسول الله ﷺ، فخرجوا إلى نَجْران، إلى علماء اليهود، فسألوهم فقالوا: سلوه عن ثلاث مسائل، فَإِنْ أجابكم فيها على ما عندنا فهو صادق.

ثُمَّ سلوه عن مسألة واحدة، فَإِنْ ادَّعى علمها فهو كاذب، قالوا: وما هذه المسائل؟ قالوا: سلّوه عن فتية كانوا في الزَّمن الأول، فخرجوا وغابوا وناموا، كم بقوا في نومهم حتى انتبهوا؟ وكم كان عددهم؟ وأي شيء كان معهم من غيرهم؟ وما كان قصّتهم؟ وأسألوه عن موسى حين أمره الله تعالى أن يتبع العالم ويتعلّم منه من هو؟ وكيف تبعه؟ وما كان قصّته معه؟ وأسألوه عن طائف طاف مغرب الشّمس ومطلّعها حتى بلغ سدّ يأجوج ومأجوج، من هو؟ وكيف كان قصّته؟ ثُمَّ أسألوا عليهم أخبار هذه الثلاث مسائل، وقالوا لهم: إن أجابكم بما أملينا عليكم فهو صادق، وإن أخبركم بخلاف ذلك فلا تصدّقوه. قالوا: فما المسألة الرابعة؟ قالوا: سلّوه متى تقوم الساعة؟ فَإِنْ ادَّعى علمها فهو كاذب، فَإِنْ قيام الساعة لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى.

فرجعوا إلى مكة، واجتمعوا إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يدّعي أن خبر السماء يأتيه، ونحن نسأله عن مسائل، فإن أجابنا عنها عِلِمنا أنه صادق، وأن لم يُخبرنا عِلِمنا أنه كاذب، فقال أبو طالب: سلّوه عمّا بدا لكم. فسألوه عن الثلاث مسائل.

فقال رسول الله ﷺ: غداً أخبركم، ولم يستثن، فاحتبس الوحي عليه أربعين يوماً حتى اغتم النبي ﷺ وشك أصحابه الذين كانوا أمّنا به، وفرحت قريش واستزوّوا به وأذوه، وحزن أبو طالب، فلمّا كان بعد أربعين يوماً نزل عليه جَبْرِئِيلُ بسورة الكهف.

فقال رسول الله ﷺ: يا جَبْرِئِيلُ، لقد أبطأت؟ فقال: إنا لا نقدر أن ننزل إلا بإذن الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾^٢. الخبر.

إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشْداً * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَى

الْحَزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ أَمْتُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى [١٠-١٣]

قصة أصحاب الكهف
ثم حكى سبحانه قصتهم بقوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْنَةُ﴾ والتقدير: أذكر إذ أوى والتجأ ﴿الْفِتْنَةُ﴾ الذين كانوا من أشرف بلدة أفسوس (من بلاد الروم) وأبناء أشرفها بعدما أكرههم دقيانوس أو طغيانوس (ملك الروم) على الشُّرك وعبادة الأصنام، فأبوا عن ذلك وهربوا منه ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ والغار الواسع الذي كان في جبل كان بنواحي بلدتهم يقال له: يَنْجَلُوس^١ على ما قيل^٢، فاختفوا من خوف القتل فيه، فاشتغلوا فيه بالعبادة والمناجاة ﴿فَقَالُوا﴾ تضرعاً إلى الله: ﴿رَبَّنَا أَيُّ مَلِكٍ أَمَرَنَا﴾ ﴿آتِنَا﴾ وأعطنا ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ ومن خزان رحمتك الواسعة العامة ﴿رَحْمَةً﴾ خاصة من المغفرة، والأمن من الأعداء، والسلامة في الدين، والسعة في الرِّزْق ﴿وَهَيِّئْ﴾ وأصلح وأتم ﴿لَنَا﴾ بلفظك ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن فيه من هَجْر الوطن المألوف، والفرار من الكفار، والقيام لطاعتك، والاهتمام بتحصيل رضاك ﴿رَشَدًا﴾ ووصولاً إلى أعلى المقاصد، من الاهتداء إليك والتقرب لَدَيْكَ، فاستجبنا دعاءهم ﴿فَقَضَرْنَا﴾ جِجاباً من النوم ﴿عَلَى أَذَانِهِمْ﴾ يمنحها من سماع الأصوات: فناموا جميعاً ﴿فِي﴾ ذلك ﴿الْكَهْفِ﴾ واستراحوا فيه ﴿سِنِينَ﴾ كثيرة، كانت تعدّ ﴿عَدَدًا﴾ معيناً ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ وأيقظناهم من نومهم المشابه للموت ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ونختبر ﴿أَيُّ الْحَزْبَيْنِ﴾ والفريقين المختلفين في مدة لبثهم في النوم ﴿أَحْصَى﴾ وأصبط ﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ وبَقُوا في النوم ﴿أَمْدًا﴾ وزماناً، أو غاية زَمان بَعَثَهُمْ.

عن ابن عباس: المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة مَلِكاً بعد ملك، فالملوك حزب، وأصحاب الكهف حزب^٣.

وقيل: الحزبان من الفتية، لأنهم اختلفوا بعد انبياهم في أنهم كم ناموا؟^٤
وقيل: إنهما المسلمون، فإنهم اختلفوا^٥ في مدة لبث أصحاب الكهف^٦.

ثم بيّن سبحانه سبب التجانهم إلى الكهف، وسؤالهم الرشد بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وبيّن لك خبر أصحاب الكهف و﴿نَبَأَهُمْ﴾ حال كون ذلك النبأ مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ ودلائل الصدق، من إعجاز البيان، ومطابقته للكتب، أو متلبساً بالمطابقة للواقع من غير زيادة ونقصان ﴿إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ﴾ وشبان

١. يَنْجَلُوس: اسم الجبل الذي فيه أصحاب الكهف. ٢. بحار الأنوار ١٤: ٤٣٢.

٣. تفسير الرازي ٢١: ٨٤.

٤. في تفسير الرازي: قال الفراء: إن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا.

٦. تفسير الرازي ٢١: ٨٤.

﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ ورَفَضُوا عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، واهتدوا إلى الحقِّ بالنظر والاستدلال ﴿وَرَزَّذَانَهُمْ هُدًى﴾ على هدىً وبقيناً على يقين، ونوراً في القلب على نور، وثباتاً على ثبات، بروية آثار توحيد الله وقدرته، والعلم بنتائج الإيمان وحسن عاقبته.

قيل: إن سبب إيمانهم أن حوارياً من حواربي عيسى أراد أن يدخل مدينتهم، فقيل له: إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلا سجد له، فامتنع من خولها، وأتى حماماً كان قريباً من المدينة، فأجر نفسه فيه، فكان يعمل فيه، فتعلق به فتية من أهل المدينة، فجعل يُخبر خبر السماء وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه.

ثم إن ابن الملك أراد دخول الحمام بامرأة، فنهاه الحواري فانتهره ابن الملك، فلما دخل مع المرأة ماتا في الحمام، فقيل للملك: إن العامل في الحمام قتله، فهرب الحواري فطلبه الملك ولم يجده، فقال: من كان يصحبه؟ فسموا الفتية، فهربوا إلى الكهف^١.

وقيل: إن دقيانوس سحر ممالك الروم، ثم جاء إلى بلد يقال له أفسوس فاتخذ دار سلطته وبنى فيه مذبحاً للأصنام، وأمر أهل البلد بعبادتها، وكان يقتل كل من تمرّد عن طاعته، وكان في المدينة سنة شبان كلهم من عظماء البلد ومن أولاد العظماء، وكانوا مؤمنين بالله، فاعتزلوا عن الناس، واشتغلوا بعبادة الله، وسألوا الله أن يحفظهم من فتنة الملك الجبار وأن يأمنهم من شره، فأخبر دقيانوس بدينهم واعتزالهم، فأمر بإحضارهم وأصرّ في انصرافهم عن التوحيد والتزامهم بعبادة الأصنام، فامتنعوا عن طاعته^٢.

وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ
مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا
يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذْ
اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ
رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا [١٤-١٦]

فأخبر الله عن تأييده لهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وثبتناهم على الدين وألهمناهم الصبر، وشرحنا صدورهم للإيمان حتى اقتحموا مضايق الصبر على القتل، أو هجر الأقارب والأهل، وتركوا

الجاه والنعم، واجترأوا على الصدع بالحق من غير خوف وحذر^١ من بأس دقيانوس الجبار ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يديه ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وحده ﴿لَنْ نَدْعُوهُ﴾ أو لا نعبد أبداً ﴿مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ ومعبوداً آخر، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، فإما إن قلنا بالوهية غيره ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ وقولاً متجاوزاً عن حدود العقل.

قيل: إن دقيانوس لما رأى تمردهم أمر أن يثرب منهم الحلل وقال: أنتم شبان ليس لكم كثير سن ولا تجربة، وإني أمهلكم أياماً قليلاً لكي تتفكروا في صلاحكم من طاعتي ومخالفتي، فخرج الملك من البلد فأعنتهم الغيبة الفرصة^٢، وقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ وأهل بلدنا أعرضوا عن الله و﴿اتَّخَذُوا﴾ لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ وعبدوا الأصنام لفرط جهلهم وغاية ضلالهم، مع أن الألوهية لا بد لها من دليل قاطع، وهؤلاء القوم الذين يعبدون الأصنام ﴿لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ ولم لا يقيمون على صحة عبادتهم حجة واضحة؟ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشرك إليه.

عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿قَامُوا﴾ قال: إنهم كانوا عظماء مديتهم، فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد، فقال رجل منهم أكبر القوم: إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أحداً يجده. قالوا: ما نجد؟ قال: أجد في نفسي أن ربي رب السماوات والأرض^٣.

وقيل: إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم في الكهف^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا في زمان ملك جبار عاتٍ، وكان يدعو أهل مملكته إلى عبادة الأصنام، وكانوا هؤلاء قوماً مؤمنين يعبدون الله عز وجل ووكل الملك بباب المدينة وكلاء، ولم يدع أحداً يخرج حتى يسجد للأصنام، فخرج هؤلاء بعلقة الصيد»^٥.

وعنه عليه السلام أيضاً: «خرج أصحاب الكهف على غير معرفة ولا ميعاد، فلما صاروا في الصحراء أخذ بعضهم على بعض العهود والمواثيق، فأخذ هذا على هذا، وهذا على هذا، ثم قالوا: أظهروا أمركم، فأظهروه فإذا هم على أمر واحد»^٦.

وعنه: «ما بلغت تقية أحد تقية أصحاب الكهف، إنهم كانوا يشهدون الأعياد، ويشدو الزناير^٧، فأعطاهم الله أجرهم مرتين»^٨.

٣. تفسير الرازي ٢١: ٩٧.

١. في النسخة: وحذار. ٢. تفسير روح البيان ٥: ٢١٩.

٥. تفسير القمي ٢: ٣٢، تفسير الصافي ٣: ٢٣٢.

٤. تفسر الرازي ٢١: ٩٨.

٦. تفسير العياشي ٣: ٢٦٣/٨٨، تفسير الصافي ٣: ٢٣٥.

٧. الزناير: جمع زنار، وهو شيء يشده الذمي على وسطه.

٨. تفسير العياشي ٣: ٢٦٣/٨٩، تفسير الصافي ٣: ٢٣٤.

وعنه عليه السلام أنه ذكر أصحاب الكهف فقال: «لو كلفكم قومكم ما كلفهم» فقل: ما كلفهم قومهم؟ فقال: «كلفهم الشُّرك بالله العظيم، فأظهروا لهم الشُّرك وأسروا الإيمان حتى جاءهم الفرج»^١.
وعنه: «أن مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف: أسروا الإيمان وأظهروا الشُّرك، فاتاهم الله أجرهم مرتين»^٢.

أقول: مقتضى هذه الروايات أنهم لم يُظهروا إيمانهم في بلدهم، لا عند دقيانوس ولا عند القوم، فلا بد من كون المراد من (قيامهم) إظهارهم على إظهار التوحيد بعضُهم لبعض.
عن الصادق عليه السلام: «أنهم مَرَوْا في طريقهم برِيع، فدَعَوْه إلى أمرهم فلم يُجيبهم، [وكان مع الزاعي كَلْبٌ] فأجابهم الكلب وخرج معهم»^٣.

وروى بعض العامة أن الراعي قال لهم: لا تخافوا مِنِّي فَإِنِّي أَحَبُّ الله، فوافقهم وصاحبهم في الطريق مع كلبه، فذهبوا حتى قربوا من جبل قريب من بلدهم يقال له ينجلوس، فقال له تملخوا كبيرهم حين أمنا من كيد قومهم^٤: ﴿وَإِذْ﴾ فارقتم قومكم و﴿اعْتَرَلْتُمُوهُمْ﴾ وجانبتموهم واعتزلتم ﴿وَمَا يَغْبُدُونَ﴾ من الأصنام ﴿إِلَّا اللَّهَ فَأَوْا﴾ والتجأوا ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ الذي يكون في هذا الجبل، واتَّجِدُوهُ ماوى ومسكناً، واعبدوا ربكم فيه ﴿يُنشِئْ﴾ ويبسط ﴿لَكُمْ﴾ ويوسع عليكم ﴿رَبُّكُمْ﴾ ومالك أمركم اللطيف بكم بعضاً ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ الواسعة في الدارين، ﴿وَيُهَيِّئْ﴾ ويسهل ﴿لَكُمْ﴾ موافقاً لصلاحكم ﴿مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ الذي أنتم عليه من الفرار بدينكم ﴿مِرْقَاقاً﴾ ومستراحاً.
قيل: إنهم لما قربوا من الجبل قال لهم الراعي: إن في هذا الجبل كهفاً فأَوْا إليه، فتوجَّهوا إلى الغار، ولما سكنوا فيه أنطقَ الله الكلب فقال لهم بلسان فصيح: إِنِّي أَحَبُّ من أَحَبَّ الله، فناموا أنتم وأنا أخرسكم، فسلطَ الله عليهم النوم فناموا^٥.

قيل: إن دقيانوس رجع إلى بلد أفسُس بعد أيام، فسأل عن الشُّبان فأخبروه بفرارهم، فأحضر آباءهم وكلفهم أن يُحضروا أبناءهم، فقالوا: إنهم أخذوا أموالنا وهرَّبوا^٦.

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ

١. تفسير العياشي ٣: ٢٦٣٢/٨٨، تفسير الصافي ٣: ٢٣٤.

٢. الكافي ١: ٢٨/٣٧٣، تفسير الصافي ٣: ٢٣٤.

٣. تفسير القمي ٢: ٣٢، تفسير الصافي ٣: ٢٣٣.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢١٩.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٢١٩.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٤.

وَمَنْ يَضِلُّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا [١٧]

ثم بين الله كيفية حفظهم أحياء^١ في الغار مدة طويلة بقوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ يا محمد لو رأيتهم إذا طلعت من أفق المشرق ﴿تَازُورُ﴾ وتبيل ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ الذي يكونون فيه ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ وجهته من الكهف، فلا يقع عليهم شعاعها فيؤذيهم ﴿وَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ﴾ ومالت إلى أفق المغرب تراها ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾ وتعديل من سمت رؤوسهم ﴿ذَاتَ الشَّمَالِ﴾ وجانبه من الكهف ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ﴾ ومُنسَعٍ ﴿مِنْهُ﴾، فصار الله أجسادهم من الفساد بعدم وصول حر الشمس إليهم في حال من الأحوال، ووصول الهواء الطيب والسيب إليهم.

قيل: إن ذلك كان لأجل أن باب الكهف كان في طرف الجنوب^٢. وقيل: إنه كان بقدره الله وحرقه للعادة كرامة لهم^٣، وإليه أشار سبحانه بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الصنع الذي صنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها حالتي الطلوع والغروب مع كونهم في مغرض شعاعها آية ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ العجيبة الدالة على كمال علمه تعالى وقدرته وإكرامه المؤمنين به الموحدين له.

ثم بين سبحانه حسن نتائج التوحيد والإيمان ترغيباً إليه، وسوء تبعات الشرك زجراً عنه بقوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ ويوفقه لقبول توحيده ومعارفه ﴿فَهُوَ﴾ بالخصوص ﴿الْمُهْتَدِ﴾ إلى كل فلاح ونجاح وخير وسعادة في الدارين ﴿وَمَنْ يَضِلُّ﴾ عن الحق ويحرفه إلى الطريق الباطل بخذلانه ﴿فَلَنْ تَجِدَ﴾ يا محمد ﴿لَهُ﴾ أبداً ﴿وَلِيًّا﴾ وناصراً و﴿مُرْشِدًا﴾ وهادياً يهديه إلى الحق وطريق الصواب. وفيه التنبيه على أن إيمانهم خدوئاً وبقاءً بلطف الله وتوفيقه.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «أن الله تبارك وتعالى يضل الظالمين يوم القيامة عن دار كرامته ويهدي أهل الإيمان والعمل الصالح إلى جنته». الخبر^٤.

وَتَحْسِبُهُمْ أَيَقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ زِرَاعِهِ بِالْوَصِيدِ لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا
* وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا زُكُومُ أَعْلَمَ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى

١. في النسخة: حيّاً. ٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٤.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٥.

٤. معاني الأخبار: ١/٢٠، التوحيد: ١/٢٤١، تفسير الصافي ٣: ٢٣٥.

الْمَدِينَةَ فَلْيَنْظُرْ أَفِيهَا أَرْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْكُلْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا [١٨ - ٢٠]

ثم بعد بيان كيفية حفظهم بين سبحانه حالهم في الكهف بقوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ لو رأيتهم يا محمد فيه ﴿أَيْقَاطًا﴾ متبينين لافتيح عيونهم كأنهم ناضرين ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ ونبام ﴿وَتَقْلُبُهُمْ﴾ وتحوّل أجسادهم ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ وجانيه تارة ﴿وَذَاتَ الشَّمَالِ﴾ وناحيته أخرى في كل سعة، كما قال أبو هريرة^١. أوفي كل تسع سنين، كما عن مجاهد^٢. لئلا تأكل الأرض لحومهم ولا تبيهم، كما عن ابن عباس^٣. ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ﴾ ومفترش ﴿ذِرَاعَيْهِ﴾ ويديه ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ وفناء الكهف، أو باباه كأنه يخرجهم.

قد سبق القول بأنه كلب الراعي، وقيل: إنه كلب صيدهم^٤، وقيل: إنه كلب نبح عليهم في الطريق فطردوه مراراً، فقال لهم الكلب: لا تخشوا مني فأني أحب أحياء الله، فناموا حتى أحركهم^٥. وروى بعض العامة أنه كان أسداً^٦.

عن الصادق عليه السلام: «لا يدخل الجنة من البهائم إلا ثلاثة: حمار بلعم بن باعورا، وذنب يوسف، وكلب أصحاب الكهف»^٧.

وروى بعض العامة أنه يدخل مع المؤمنين في الجنة عشرة من الحيوانات: ناقة صالح، وعجل إبراهيم، وكبش إسماعيل، وبقرة موسى، وخوت يونس، وحمار عزيز، ونملة سليمان، وهدد بلقيس، وكلب أصحاب الكهف، وناقة محمد ﷺ، فكلهم يصيرون على صورة كبش ويدخلون الجنة^٨.

وروى الثعلبي أن من سلم على نوح كل يوم ليلة أمين من لدغ العقرب، ومن كتب: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وجعله معه، أمين من ضرر الكلب^٩.

ثم بين سبحانه هيبته الحافظة لهم بقوله: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتُ﴾ يا محمد وأشرفت ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالمعانة ﴿لَوَلِّيتُ﴾ وفررت ﴿مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ من هيبة صورتهم ﴿وَلَمَلَّيْتُ﴾ وامتلا صدرك ﴿مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ وخوفاً، لطول شعورهم وأطفارهم، وفتح أعينهم كاليقظان الذي يريد أن يتكلم، كما قيل^{١٠}.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٦.

١. ٥٠. تفسير الرازي ٢١: ١٠١.

٨ و ٩. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٦.

٧. تفسير القمي ٢: ٣٣، تفسير الصافي ٣: ٢٣٣.

١٠. تفسير الرازي ٢١: ١٠١، تفسير روح البيان ٥: ٢٢٧.

نُقل أن معاوية مرَّ بالكهف فقال: لو كُشف عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس له: ليس لك ذلك، قد منع الله من هو خير منك. فقال: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم. فبعث أناساً وقال لهم: اذهبوا فأنظروا، فلما دخلوا الكهف جاءت ريح فأخرجتهم^١.

ثم قيل: إنه مات دقيانوس واتقضى ملكه، وتعاقت ملوك كثيرة بعده إلى أن وصل الملك إلى رجل يقال له تندروس، وكان مؤمناً صالحاً، واختلف أهل مملكته في صحة الحشر، وأنكره أكثرهم، كلما نصحه الملك لم يقبلوا. فأراد الله أن يقيم لهم دليلاً على الحشر، فابقض أصحاب الكهف^٢.

فحكى الله سبحانه ذلك لأمة محمد ﷺ تأكيداً للحجة عليهم بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ الْإِنَّمَاءُ لأصحاب الكهف في المدة الطويلة، مع حفظ أجسادهم وثيابهم من البلى﴾ ﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾ وأيقظناهم من نومهم ﴿لَيْسَاءَ لَوْلَا﴾ فيما ﴿يَبْتَهِمُ﴾ وكان تساولهم أن ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ وهو رئيسهم يقال له مكشليبا أو مكسلمينا، أو تملیخا، كما عن ابن عباس^٣ للفتية لما رأى من طول شعورهم وأظفارهم: ﴿كَمْ لَيْسْتُمْ﴾ في النوم يا أصحابي؟ فأجاب الآخرون و﴿قَالُوا﴾ نظراً إلى أن دخولهم في الكهف كان أول النهار وحسبانهم الوقت آخره: ﴿لَيْسْنَا يَوْمًا﴾ فلما رَأَوْا أن الشمس لم تَغْرُبْ بعد قالوا: ﴿أَوْ بَقِصَ يَوْمٌ﴾ وقيل: إنهم انتبهوا حين ارتفاع الشمس فقالوا: إن ثَمْنَا أمس كانت مدة نومنا يوماً، وإن ثَمْنَا في اليوم كانت مدته بعض يوم، فلما رأى بعضهم أمارات طول المدة، من طول الشعر والأظفار ولا يمكنهم تعيينها^٤ ﴿قَالُوا﴾ أعرضوا عن البحث ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسْتُمْ﴾ واشتغلوا بما يهتكم، فإن تريدون قُوتَ اليوم ﴿فَابْتَثُوا﴾ وأرسلوا ﴿أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ والقبضة المضروبة ﴿هَذِهِ﴾ التي عندهم ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ التي كنا فيها ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ المبعوث في أهل المدينة من بائعي الطعام ﴿أَيُّهَا﴾ ومن يكون فيها ﴿أَزْكَى﴾ وأطيب وأجل ﴿طَعَامًا﴾ وماكولاً ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ﴾ وقوتٍ تقومون به ﴿مِنْهُ﴾.

قيل: كان في زمان كون الفتية في المدينة جماعة مؤمنون يكتُمون إيمانهم، وكانت ذبيحتهم محللة^٥، وكان غرضهم الشراء منهم.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ ولْيبالغ في الاختفاء وعدم التعرّف، من حين الدخول في المدينة إلى الخروج منها ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ البتة ﴿بِكُمْ﴾ ذلك المبعوث ﴿أَحَدًا﴾ من أهل المدينة؛ لأنه إن عرفكم واحد منهم شاع خبركم فيها.

١. تفسير البياضاي ٢: ٧، تفسير روح البيان ٥: ٢٢٧، وفيهما: ريح فأخرجتهم.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٨. ٣. تفسير الرازي ٢١: ١٠٣، وفيه: يملیخا.

٤. تفسير البياضاي ٢: ٧. ٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٢٩.

ثُمَّ حَكَى سَبْحَانَهُ مَبَالِغَهُمْ فِي الْإِخْتِفَاءِ بِذِكْرِ عِلَّتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا﴾ وَيَطْلِعُوا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وَيَظْفَرُوا بِكُمْ ﴿يُزْجِمُوكُمْ﴾ وَيَقْتُلُوكُمْ بِالرُّمْيِ بِالْأَحْجَارِ إِنْ ثَبَّتُمْ عَلَى دِينِكُمْ ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَيَدْخُلُوكُمْ فِيهَا إِنْ لَمْ تَوْطِنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الْقَتْلِ ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَأُ﴾ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ. فَإِنَّ الْإِجَابَةَ الظَّاهِرَةَ قَدْ تَوَدَّى إِلَى الْإِجَابَةِ الْحَقِيقَةِ الْوَاقِعَةِ.

ثُمَّ قِيلَ: إِنَّهُمْ بَعَثُوا تَمْلِيخًا - وَكَانَ لَهُ كَمَالٌ عَقْلٍ وَفَطَانَةٍ - إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا رَأَى بِابِهَا مَتَغَيَّرًا، فَلَمَّا دَخَلَهَا رَأَى أَسْوَاقَهَا وَسُكُكَهَا وَأَوْضَاعَ أَهْلِهَا عَلَى غَيْرِ النُّحُو الَّذِي رَأَاهَا سَابِقًا، فَغَلَبَتْ الْحَيْرَةُ عَلَيْهِ، فَجَاءَ إِلَى دَكَّةِ الْخَبَازِ فَأَعْطَاهُ دِرْهَمًا لِيَشْتَرِيَ بِهِ الْخُبْزَ، وَكَانَ عَلَيْهِ اسْمُ دَقْيَانُوسٍ أَوْ صُورْتِهِ، فَتَخَيَّلَ أَنَّهُ وَجَدَ كَنْزًا فَأَرَاهُ أَهْلُ السُّوقِ، فَانْتَشَرَ الْخَبَرُ فِيهِ حَتَّى اتَّصَلَ الْخَبَرُ بِحَاكِمِ الْمَدِينَةِ، فَطَلَبَ تَمْلِيخًا وَهَدَّاهُ وَقَالَ: جَنَنِي بِبَقِيَّةِ الْكَنْزِ، فَقَالَ تَمْلِيخًا: إِنَّا مَا وَجَدْنَا كَنْزًا، إِنَّمَا أَخَذْتُ هَذَا الدَّرْهَمَ مِنْ دَارِ أَبِي بِالْأَمْسِ، وَجِئْتُ الْيَوْمَ لِأَشْتَرِيَ بِهِ مِنَ السُّوقِ طَعَامًا. فَسَأَلُوهُ عَنْ اسْمِ أَبِيهِ وَحَلِيتِهِ فَأَخْبَرَهُمْ، فَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ فَكَذَّبُوهُ، فَأَخَذَتْهُ الدَّهْشَةُ. فَقَالَ: أَذْهَبُوا بِي إِلَى دَقْيَانُوسِ الْمَلِكِ. فَإِنَّهُ عَارَفٌ بِي وَبِأَبِي فَاسْتَهْزَؤُوا بِهِ^١ وَقَالُوا: إِنْ دَقْيَانُوسُ مَاتَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ، فَقَالَ تَمْلِيخًا: أَنَا وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِي فَرَرْنَا مِنْهُ بِالْأَمْسِ إِلَى جَبَلٍ قَرِيبٍ مِنْ هَذَا الْبَلَدِ، وَالْيَوْمَ بَعَثَنِي أَصْحَابِي لِأَشْتَرِيَ لَهُمُ الطَّعَامَ، لَا أَعْلَمُ غَيْرَ هَذَا الَّذِي أَقُولُ.

فَذَهَبَ الْحَاكِمُ بِهِ إِلَى الْمَلِكِ، فَاسْتَحْبَرَهُ الْحَالَ، فَأَخْبَرَهُ تَمْلِيخًا بِمَثَلِ مَا أَخْبَرَ بِهِ غَيْرَهُ، فَتَوَجَّهَ الْمَلِكُ وَأَشْرَفَ الْبَلَدَ مَعَ تَمْلِيخًا إِلَى الْغَارِ، فَتَقَدَّمَهُمْ تَمْلِيخًا، وَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِالْقَضِيَّةِ، فَلَمَّا وَصَلَ الْمَلِكُ إِلَى الْكَهْفِ رَأَى لَوْحًا مَنْصُوبًا عَلَى بَابِهِ، مَكْتُوبٌ فِيهِ أَسْمَاءُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَقَصَّتُهُمْ، فَقَرَّءَهُ وَأَطْلَعُوا عَلَى أحوالهم^٢.

وَكَذَلِكَ أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا اقْبَلُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمُ الَّذِينَ عَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا [٢١]

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ عِلَّةَ إِطْلَاعِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الْإِنَّمَاءُ، وَالْبَعْثُ الدَّالِّينَ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِنَا وَحُكْمَتِنَا ﴿أَعَثَرْنَا﴾ النَّاسَ وَأَطْلَعْنَاهُمْ ﴿عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا﴾ بِتِلْكَ الْإِنَّمَاءِ وَالْبَعْثِ ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بِالْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْحِسَابِ ﴿حَقٌّ﴾ وَصَدَقَ، لَا تُخْلَفُ فِيهِ لَوْقُوعُ نَظِيرِهِ فِي الْفِتْيَةِ ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾

والقيامة آتية ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ ولا مجال للشك في وقوعها، اذكر يا محمد ﴿إِذْ﴾ الناس ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ فيما ﴿يَبْتَغِيهِمْ أَمْزُهُمْ﴾ وفي تدبير إخفاء مكانهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ﴾ وعلى باب كهفهم ﴿بُنْيَانًا﴾ وجداراً يمنع من تطرّق الناس إليهم، ومن إطلاع الناس على مكانهم ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وبشأنهم، لا حاجة إلى إطلاع الغير بمكانهم.

وقيل: إن الكفار قالوا: إنهم منا فابتؤا عليهم صومعة^١. ثم قال سبحانه: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ منهم، فتكون الجملة معترضة.

﴿قَالَ﴾ الْمَلِكُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴿الَّذِينَ غَلَّبُوا﴾ واطَّلَعُوا ﴿عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ وحالهم: والله ﴿لَتَسْتَخَذْنَ عَلَيْهِمْ﴾ ونبيّن على باب كهفهم ﴿مَسْجِدًا﴾ يصلي فيه المسلمون، ويتركون بمكانهم. وقيل: إن كلمة ﴿إِذْ﴾ متعلّقة بأعثرنا، والمعنى: أعثرنا عليهم حين يتنازعون في أمر البعث^٢.

رؤي أن ملك ذلك الوقت كان يُنكر البعث إلا أنه مع كفره كان منصفاً، فجعل الله أمر الفتية دليلاً للملك^٣. وقيل: بل اختلفت الأمة في ذلك الزمان، فقال بعضهم: الجسد والروح يُبعثان، وقال آخرون: الروح تُبعث، وأما الجسد فتأكله الأرض^٤.

ورؤي أن قوم تدرّوس لما اختلفوا في البعث مُقرّرين وجاحدين، دخل الملك بيته وأغلق بابه، ولبس مسحاً، وجلس على رماح، وسأل ربه أن يُظهِرَ الحق، فألقى الله في قلب رجل من الرعاة، فهذ السد الذي بناء دقيانوس على باب الكهف لإهلاك الفتية ليَتَّخِذَ حظيرة لغنمه، فعند ذلك بعثهم الله تعالى. فلما انتشر خبرهم واطّلع عليهم الملك وأهل المدينة مُسلمهم وكافرهم، كلّمهم وحمدوا الله على الآية الدالّة على البعث.

ثم قالت الفتية للملك: نستودعك الله ونُعِيذك به من شرّ الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم فاناموا وماتوا، فألقى الملك عليهم ثيابه، وأمر فجعل لكل واحد تابوتاً من ذهب، فرأهم في المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج، وبنى على باب الكهف مسجداً^٥.

وقيل: إنهم كانوا يتنازعون في أن أصحاب الكهف ماتوا بعد العود إلى الكهف، أو ناموا كنومهم السابق^٦؟ وقيل: يتنازعون في أنهم على أي دين؟ قال الكفار: إنهم كانوا على ديننا، فبني عليهم بنياناً، وقال المؤمنون: إنهم على ديننا ونُتخذ عليهم مسجداً. وقيل: إن التنازع كان في مدّة لبثهم. وقيل: في عددهم، وأسمائهم، وأحوالهم، ومدّة لبثهم، فلما لم يهتدوا إلى شيء منه قالوا: ربهم أعلم بهم. وقيل:

٥. المسح: الكساء من شعر.

٧. تفسير الرازي ٢١: ١٠٥.

١. تفسير الرازي ٢١: ١٠٥.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٣٢.

إِنْ هَذَا اعْتِرَاضٌ وَكَلَامٌ مِنْ اللَّهِ، رَدًّا لِلْخَائِضِينَ فِي حَدِيثِهِمْ^١.

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ
وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا
تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا [٢٢]

ثم حكي سبحانه التنازع في عددهم بقوله: ﴿سَيَقُولُونَ﴾. إِنْ أَصْحَابَ الْكَهْفِ عَدَدُهُمْ ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ لَا
أَزِيدُ وَ﴿رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. وظهر الآية أَنَّ هذا التنازع كان في عهد النبي ﷺ، كما روي أَنَّ السَّيِّدَ
وَالْعَاقِبَ وَأَصْحَابَهُمَا مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ كَانُوا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَرَى ذِكْرَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فَقَالَ السَّيِّدُ -
وَكَانَ يَعْقِبِيًّا -: كَانُوا ثَلَاثَةً رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَقَالَ الْعَاقِبُ - وَكَانَ تُسْطُورِيًّا -: كَانُوا خَمْسَةً سَادِسُهُمْ
كَلْبُهُمْ، وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: كَانُوا سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ^٢، فنزل: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ
خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ يَكُونَانِ ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وَرَمِيًّا بِمَا يَخْفَى عَلَى النَّاسِ،
وَكَلَامًا مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ، أَوْ ظَنًّا بِهِ ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

قيل: في تعقيب القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ دلالة على أَنَّ القول الثالث ليس كذلك^٣.
وقيل: إِنَّ ذِكْرَ الْوَاوِ هُنَا دَالٌّ عَلَى إِبْتِاثِ هَذَا الْقَوْلِ وَتَصْحِيحِهِ^٤.
عن ابن عباس قال: حين وقعت الواو انقطعت العدة، يعني لم يبق بعدها عدة عَادَ يُعْتَدُ بِهَا، وَثَبِتَ
أَنَّهُمْ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قَطْعًا وَجْزًا^٥.

﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدَ تَحْقِيقًا لِلْحَقِّ وَرَدًّا عَلَى الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ﴾ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، مِنَ الْيَهُودِ
وَالنَّصَارَى ﴿بِعَدَّتِهِمْ﴾ وَعَدَدُهُمْ، وَتَعَدُّهُ تَعَالَى ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مِنَ النَّاسِ كَالنَّبِيِّ وَالْوَصِيِّ
وَالَّذِينَ وَفَّقَهُمُ اللَّهُ لِلْإِسْتِشَادِ بِالْقُرْآنِ عَلَى الْحَقِّ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَا مِنْ ذَلِكَ الْقَلِيلِ^٦.
روى الفخر الرازي وبعض العامة عن علي رضي الله عنه: «أَتَهُمْ سَبْعَةٌ نَفَرٌ وَأَسْمَاؤُهُمْ هَذَا: يَمْلِيخَا،
وَمُكْسَلَمِينَا، وَمُسْلَثِينَا، وَهَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ كَانُوا أَصْحَابَ يَمِينِ الْمَلِكِ، وَكَانَ عَنْ يَسَارِهِ مَرْنُوسٌ،
وَدَبْرُنُوسٌ، وَسَادْنُوسٌ، وَكَانَ الْمَلِكُ يَسْتَشِيرُ هَؤُلَاءِ السَّتَّةَ فِي مَشْهُمَاتِهِ، وَالسَّابِعُ هُوَ الرَّاعِي الَّذِي
وَأَفْقَهُمْ لَمَّا هَرَبُوا مِنْ مَلِكِهِمْ، وَاسْمُهُ كَفْشَطُيُوشُ أَوْ كَفِشِطُيُوشُ، وَاسْمُ كَلْبِهِمْ قَطْمِيرٌ^٧.

٣. تفسير الرازي ٢١: ١٠٦.

١. تفسير الرازي ٢١: ١٠٥.

٥. جوامع الجامع: ٢٦٤، تفسير روح البيان ٥: ٢٣٣.

٤. تفسير الرازي ٢١: ١٠٦.

٦. جوامع الجامع: ٢٦٤، تفسير الرازي ٢١: ١٠٦، تفسير روح البيان ٥: ٢٣٣.

٧. تفسير الرازي ٢١: ١٠٦، تفسير أبي السعود ٥: ٢١٦، تفسير روح البيان ٥: ٢٣٣.

وعن (المجمع): أسماؤهم: مكسلمينا، تملیخا، ومرطولس، ونيونوس، وسارينوس، ودبريرنس، وكشوطبنوس^١.

وقيل: مكشيلينا، وتمليخا، ومثلنيا، ودبرنوش، ومرنوش، وشادنوش، ومرطونس^٢.

وقيل: مكشيلينا، ونملسا، وتمليخا، ومرطونس، أو بسوطولس، ونيورس أو بسرطوس، وبكريوس، وبطيوس^٣.

عن ابن عباس: أن أسماء أصحاب الكهف تصلح للطلب، والهرب، وإطفاء الحريق، ثكتب في خرقه ويرمى بها في وسط النار، وليكاء الطفل ثكتب وتوضع تحت رأسه في المهد، وللحرث ثكتب في قوطاس وترفع على خشب منصوب في وسط الزرع، وللضربان وللحمى المثلثة^٤، والصّداغ، والغني، والجاه، والدخول على السلاطين تشد على الفخذ اليمنى، ولعسر الولادة تشد على الفخذ اليسرى، ولحفظ المال، والركوب في البحر، والنجاة من القتل^٥.

وعن الصادق عليه السلام: «أنه يخرج مع القائم عليه السلام من ظهر الكعبة سبعة وعشرون رجلاً، خمسة عشر من قوم موسى الذين كانوا يهدون بالحق وبه يعدلون، وسبعة من أهل الكهف، ويوشع بن نون، وسلمان، وأبو دجانة الأنصاري، والمقداد، ومالك الاشر، فيكونون بين يديه أنصاراً وحكاماً»^٦.

ثم لما أخبر الله نبيه بعدد أصحاب الكهف، نهاه عن مناظرة أهل الكتاب فيهم بقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ ولا تجادل يا محمد أهل الكتاب ﴿فيهم﴾ وفي شأنهم ﴿إِلَّا مِرَاءً﴾ وجدالاً ﴿ظَاهِراً﴾ غير متعمق فيه، بأن تُخبرهم بما أوحى إليك من غير تجهيل لهم والرد عليهم، لظهور جهلهم به، فإن الجدال مع وضوح بطلان قول الخصم منافٍ لمكارم الأخلاق ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾ ولا تسأل شأنهم ﴿مِنْهُمْ﴾ ومن غيرهم من الخائضين فيه ﴿أَحَدًا﴾ بعد ما علمك الله أحوالهم بالوحي، فلا حاجة لك إلى الاستفتاء والسؤال، خصوصاً مع جهل غيرك.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَائٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ
وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا * وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ
مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ

١. مجمع البيان ٦: ٧١٠.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٣٣.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٣٣.

٤. التي تعاود المريض كل ثلاثة أيام مرة.

٥. روضة الواعظين: ٢٦٦، تفسير الصافي ٣: ٢٣٧.

أَحَدًا [٢٣-٢٦]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِظْهَارِ لُطْفِهِ بِنَبِيِّهِ ﷺ بِنَهْيِهِ عَنِ الْمُجَادَلَةِ وَالسُّؤَالِ، نَهَاهُ عَنِ اعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ الْمُسْتَلْزِمَةِ لِأَمْرِهِ بِالْاعْتِمَادِ عَلَى مَشِيتَتِهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَائٍ﴾ من الأشياءِ وأمر من الأمور ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ﴾ الشَّيْءَ ﴿عَدَا﴾ اعتماداً على استقلالك في فعله في حالٍ من الأحوال ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ذلك الشَّيْءَ والأمر. وعن الصادق عليه السلام قال: «ما لم ينقطع الكلام»^١.

وَقَدْ مَرَّتْ رَوَايَةُ الْعَامَةِ وَالْخَاصَّةِ فِي أَنَّهُ احْتَبَسَ الْوَحْيَ عَنْهُ ﷺ لَعَدَمِ تَعْلِيْقِهِ الْوَعْدَ بِالْجَوَابِ عَلَى مَشِيتَةِ اللَّهِ^٢.

وَفِي رَوَايَةٍ عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ فَسَأَلُوهُ عَنْ أَشْيَاءَ فَقَالَ لَهُمْ: تَعَالَوْا عَدَا أَحَدُكُمْ، وَلَمْ يَسْتَنْ، فَاحْتَبَسَ جَبْرِئِيلُ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَائٍ﴾ الْآيَةُ»^٣.

ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ بِذِكْرِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ بِقَوْلٍ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ وَتَرَكْتَ ذِكْرَهُ. وَفِي رَوَايَةٍ عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام قال: «ذَلِكَ فِي الْيَمِينِ، إِذْ قُلْتُ وَاللَّهِ لَأَفْعَلَ كَذَا، فَإِذَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ لَمْ تَسْتَنْ فَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^٤.

وَعَنْهُ عليه السلام قال: «قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: الْإِسْتِنَاءُ فِي الْيَمِينِ مَتَى مَا ذَكَرَ، وَإِنْ كَانَ بَعْدَ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ»^٥.

وَعَنْهُ عليه السلام: «لِلْعَبْدِ أَنْ يَسْتَنْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْبَعِينَ يَوْماً إِذَا نَسِيَ»^٦.
وَعَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام - فِي رَوَايَةٍ - قَالَ: «وَقَدْ قَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي الْكِتَابِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَائٍ﴾ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» أَنْ لَا أَفْعَلُهُ، فَانْ سَبَقَتْ^٧ مَشِيتَةُ اللَّهِ فِي أَنْ لَا أَفْعَلُهُ فَلَا أَقْدِرُ عَلَى أَنْ أَفْعَلُهُ، فَلِذَلِكَ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أَيِ اسْتَنْ مَشِيتَةَ اللَّهِ فِي فِعْلِكَ»^٨.
وَعَنْهُ عليه السلام: «إِنَّ آدَمَ لَمَّا أَسْكَنَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ فَقَالَ لَهُ: يَا آدَمُ لَا تَقْرَبْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ. فَقَالَ: نَعَمْ، وَلَمْ يَسْتَنْ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَائٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ وَلَوْ بَعْدَ سَنَةٍ»^٩.

١. جوامع الجامع: ٢٦٤، تفسير الصافي: ٣: ٢٣٨. ٢. مَرَّتْ الرَوَايَةُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٩) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ.

٣. مِنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه ٣: ١٠٨١/٢٢٩، وَتَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٢٣٨، عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام.

٤. الْكَافِي ٧: ٣/٤٤٨، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٢٣٨.

٥. تَفْسِيرُ الْعِشَاشِي ٣: ٢٦٤٦/٩٢، الْكَافِي ٧: ٦/٤٤٨، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٢٣٨.

٦. مِنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه ٣: ١٠٨١/٢٢٩، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٢٣٨.

٧. فِي الْكَافِي: أَفْعَلُهُ، فَتَسْبِقُ. ٨. الْكَافِي ٧: ٢/٤٤٨، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٢٣٩.

٩. تَفْسِيرُ الْعِشَاشِي ٣: ٢٦٣٩/٩٠، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٢٣٩.

وعن الصادق عليه السلام: «أنه أمر بكتاب في حاجة فكُتِب، ثم عَرِض عليه ولم يكن فيه استثناء فقال: كيف رَجَوْتُمْ أَنْ يَتِمَّ هذا وليس فيه استثناء؟ انظروا كل موضع لا يكون فيه استثناء فاستثنوا فيه»^١.

وقيل: إن المراد أذكر ربك بالنسيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء^٢.

وقيل: يعني أذكر ربك إذا نسيت شيئاً، فإن ذكر الله يذكر المنسي^٣.

ويُحْتَمَل أن يكون المراد: إذا نسيت شيئاً فلا تنسني ذكر الله، بل اذكره في كل حال.

وقيل: إن المراد من ذكر الله الصلاة: والمعنى صل الصلاة المنسية إذا ذكرتها^٤.

ثم لما أعطاه الله آية عظيمة دالة على نبوته، وهو إخباره بقصة أصحاب الكهف، أمره سبحانه بسؤال آيات أعظم منها بقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا﴾ النبا المُنْجِب، من الآيات الدالة على نبوتي ﴿رَشِّدًا﴾ ودلالة للناس على صدقي، وقد فعل ذلك سبحانه حيث أعطاه من الآيات ما هو أعظم من ذلك كإخباره بقصص الأنبياء المتباعدة أيامهم، والحوادث النازلة في الأعصار الآتية إلى يوم القيامة.

وقيل: لما جعل اليهود حكاية أصحاب الكهف دليلاً على نبوته، هَوَّن الله أمره وقال: ﴿قُلْ عَسَى﴾ الآية، كما هَوَّن أمر أصحاب الكهف بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ الآية^٥.

وقيل: إن المعنى إذا وَعَدْتُ بشيء قل: إن شاء الله، وقل: عسى أن يهديني ربي لشيء أحسن وأكمل مما وعدتكم به^٦.

وقيل: إن المراد أن ذكر ربك عند نسيان شيء أن تقول: عسى ربي أن يهديني لشيء آخر بدل هذا المنسي أقرب منه رَشِّدًا أو أدنى خيراً ومنفعة^٧.

ثم أنه تعالى بعد الإخبار بعدد الفتية أخبر بمدة لبثهم في الكهف بقوله: ﴿وَلَبِثُوا﴾ في النوم ﴿فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ كانت من ﴿سِنِينَ﴾ شمسية ﴿وَالْعَرَبُ﴾ ﴿أَزْدَادُوا﴾ عليها ﴿تِسْعًا﴾ لأن سنتهم قمرية، وكل مائة سنة قمرية تزيد على مائة سنة شمسية بثلاث سنين. هذا هو الواقع في مدة لبثهم، فإن نازعوك فيها فلا تجادلهم و ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم ومن كل أحد ﴿بِمَا لَبِثُوا﴾ من المدة إذ ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والعلم بخفياتهما لا يشركه فيه أحد من الملائكة والرسل فضلاً عن غيرهم.

١. الكافي ٢: ٧/٤٩٤، تفسير الصافي ٣: ٢٣٩.

٥. في النسخة: لسؤال. ٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٣٤، والآية ٩ من هذه السورة.

٧. تفسير الرازي ٢١: ١١١. ٨. تفسير روح البيان ٥: ٢٣٥.

٢-٤. تفسير الرازي ٢١: ١١١، تفسير أبي السعود ٥: ٢١٧.

رُوي أن يهودياً سأل علياً عليه السلام عن مدة لبثهم، فأخبره بما في القرآن فقال: إِنَّا نَجِدُ فِي كِتَابِنَا ثَلَاثَمِائَةَ، فقال عليه السلام: «ذلك بسني الشمس، وهذا بسني القمر»^١.

وقال القمي وبعض العامة: قوله تعالى: ﴿وَلَيْثُوا﴾ من قول القائلين بأنهم ثلاثة أو خمسة، والمعنى: وقالوا لبثوا في كهفهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْثُوا﴾ الآية^٢. لأنه محيط بجميع الموجودات، ومدبر للعالم، فإذا كان كذلك كان عالماً بهذه الواقعة لا محالة^٣.

ثم أنه تعالى بعد بيان إحاطته على الخلق علماً، بين إحاطته على الناس قدرةً وتديراً بقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ ومدبر أمر. وقيل: إن المعنى ما لأصحاب الكهف [من دون الله] من وليٍّ. وعلى كل تقدير لا يعلم أحد واقعتهم إلا بإعلامه، فإذا حكم بأن مدة لبثهم مقداراً معيناً، فإنه مستقل في الحكم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ﴾، فليس لغيره الحكم بخلافه.

قيل: اختلف الناس في زمان أصحاب الكهف، قيل: إنهم كانوا قبل موسى لِذِكْرِ خبرهم في التوراة، ولذا سأل اليهود رسول الله ﷺ عن قصتهم. وقيل: إنهم دخلوا الكهف قبل المسيح، وأخبر المسيح بهم. ثم بعثوا بعد رفع المسيح. وقيل: إنهم دخلوا الكهف بعد المسيح^٥.

وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتْتَحِدًا [٢٧]

ثم أنه تعالى بعد الجواب عن سؤال قريش واليهود عنهم امتحاناً واقتراحاً، أمر نبيه ﷺ بتلاوة كتابه المتضمن لكل شيء وعدم الاعتناء باقتراحات القوم بقوله: ﴿وَأَتْلُ﴾ يا محمد ﴿مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ الذي هو أحسن الحديث وأفضل الكتب، وأستأنس به، ولا تلتفت إلى اقتراحات المشركين وثرواتهم من قولهم: إئت بقرآن غير هذا أو بدله، فإنه ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ ولا مغير لآياته من الجن والإنس، وإن تظاهروا على ذلك، لأننا له لحافظون ﴿وَلَنْ تَجِدَ﴾ أبداً وإن أجهدت نفسك في الطلب أحداً ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ تعالى يكون لك ﴿مُتْتَحِدًا﴾ وملجأً يلجئ إليه في مهماتك، وفي البليات التي تنزل عليك.

١. مجمع البيان ٦: ٧١٥، تفسير الصافي ٣: ٢٣٩.

٢. نحوه في: تفسير القمي ٢: ٣٤، وتفسير الصافي ٣: ٢٤٠، وتفسير الرازي ٢١: ١١١.

٣. لم يذكر تفسير قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَاسْمِعْ﴾. ٤. تفسير الرازي ٢١: ١١٢.

٥. تفسير الرازي ٢١: ١١٣.

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا
تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا [٢٨]

ثم لما كان من أباطيل الكفار وثرهاتهم التماسهم من النبي ﷺ طرد المؤمنين الخالصين من
مجلسه، أمره سبحانه بمجالستهم وصحبتههم وعدم الاعتناء بقول أعدائهم بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾
واحبسها على المجالسة والمصاحبة ﴿مَعَ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ ويتضرعون إليه
﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ وأول النهار وآخره لطلب التوفيق والتيسير والغفو عن التقصير.

وقيل: والغداة والعشي كناية عن جميع الأوقات والمداومة على العبادة^١. وقيل: إن المراد بالدعاء
في الغداة صلاة الصبح، وبالدعاء بالعشي صلاة العصر^٢. وعنهما عليه السلام: «إنما عني بهما الصلاة»^٣.
حال كونهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بدعائهم أو صلاتهم ﴿وَجْهَهُ﴾ تعالى ورضاه ﴿وَلَا تَعْدُ﴾ ولا تتجاوز
﴿عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ إلى غيرهم من أهل الدنيا وطالبي زخارفها حال كونك ﴿تُرِيدُ﴾ من النظر إلى
غيرهم من المترفين والمجالسة معهم ﴿زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وخطاها ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في طرد الفقراء
عن مجلسك ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ بالخذلان والطبع ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وأطاع تسويلات نفسه
وانهمك في شهواته ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ وفعله أو شأنه ﴿فُرُطًا﴾ وظلماً على النفس وتجاوزاً عن الحد
وبتدلاً للحق.

رُوي أنَّ رؤساء الكفار طلبوا من النبي ﷺ طرد فقراء المسلمين من مجلسه، كعمار، وصهيب،
وخبّاب وغيرهم، وقالوا: أطرّد هؤلاء الذين ريحهم ريح الصّنان حتى نجالسك، فإن أسلمنا أسلم
النّاس، وما يمتنعنا من اتّباعك إلّا هؤلاء، فإنهم قوم أرذلون^٤.

القمي: نزلت في سلمان الفارسي، كان عليه كساء من صوف، فدخل عبيبة بن حصين على
النبي ﷺ وسلمان عنده، فتأذى عبيبة بريح كساء سلمان، وكان عرق فيه، وكان يوم شديد الحر،
فعرّق في الكساء، فقال: يا رسول الله، إذا نحن دخلنا عليك فاخرج هذا وأضرابه من عندك، فإذا نحن
خرجنا فادخل من شئت، فأنزل الله ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ الآية. وهو عبيبة بن حصين
بن حذيفة بن بدر القراري^٥.

وعن (المجمع): نزلت في سلمان وأبي ذر وصهيب وخبّاب وغيرهم من فقراء أصحاب

٣. تفسير العياشي ٣: ٩٣/٢٦٤٩، تفسير الصافي ٣: ٢٤٠.

٥. تفسير القمي ٢: ٣٤، تفسير الصافي ٣: ٢٤٠.

١. تفسير الرازي ٢١: ١١٥.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٣٨.

النبي ﷺ، وذلك أن المؤلفة قلوبهم جاءوا إلى رسول الله ﷺ؛ غيبة بن حصين والأقرع بن حابس وذو وهب، فقالوا: يا رسول الله، إن جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وروائح صنائعهم^١ - وكانت عليهم جباب الصوف - جلسنا نحن إليك، وأخذنا عنك، ولا يمنعنا من الدخول عليك إلا هؤلاء. فلما نزلت الآية قام النبي ﷺ، يلتمسهم، فأصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله عز وجل فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي معهم المحيا ومعهم الممات^٢.

عن أبي سعيد الخدري قال: كنت جالساً في عصابة من ضعفاء المهاجرين، وإن بعضهم ليسر بعضاً من العري، وقارئ يقرأ القرآن، فجاء رسول الله ﷺ فقال: ماذا كنتم تصنعون؟ قلنا: يا رسول الله، كان واحد يقرأ من كتاب الله ونحن نستمع، فقال: الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم. ثم جلس وسطنا وقال: أبشروا يا صعاليك^٣ المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل الأغنياء بمقدار خمسين ألف سنة^٤.

وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ
بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا^[٢٩]

ثم لما علق الكفار إيمانهم على طرد فقراء المسلمين، أمر الله نبيه ﷺ بالإعلان بعدم اعتنائه بإيمانهم بقوله: ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المتكبرين الغافلين ﴿الْحَقُّ﴾ الذي جنتكم به يكون ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ لا مني، ونفعه وضرره راجع إليكم، لا إلي ولا إلى آخر، وأنا لا أدعوكم إليه لأنتفع من إيمانكم حتى أطيعكم فيما تحبون ﴿فَمَن﴾ كان من أهل السعادة و﴿شَاءَ﴾ الإيمان وخير الدارين ﴿فَلْيُؤْمِن﴾ بالدين الحق، لتامة الحجة، ووضوح البراهين ﴿وَمَن﴾ كان من أهل الشقاوة و﴿شَاءَ﴾ الكفر والضرر على نفسه ﴿فَلْيُكْفِر﴾ فإنني لا أبالي بإيمان من آمن، وكفر من كفر، ولا أطلب إيمانكم بطرد أولياء الله من مجلسي.

ثم هددهم الله بضرر كفرهم ووخامة عاقبتهم بقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ وهيتنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر في الآخرة ﴿نَارًا﴾ خارجة [في] حرها عن الوصف، مشتملة عليهم ومحيطه بهم

٢. مجمع البيان ٦: ٧١٧، تفسير الصافي ٣: ٢٤٠.

٤. تفسير الرازي ٢١: ١١٨.

١. الضنان: الثمن، الريح الكريهة.

٣. الضغلول: الفقير، وجمعه: صعاليك.

كانها شرادق و «أَخَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا» وفساطيطها. قيل: إن شرادق يستر يُدار به حول الخيمة^١.
عن أبي سعيد الخُدري قال: قال النبي ﷺ: «شَرَادِقُ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ كُفْتُ، كُلُّ جِدَارٍ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً»^٢.

وعن ابن عباس: هو الدُّخان الذي قال الله: «إِنطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ»^٣.
«وَأَن يَسْتَفِيضُوا» ويطلبوا الماءَ من الحَطَشِ «يُغَاثُوا» وَيُؤْتُوا بعد استغاثتهم «بِمَاءٍ» جَارٍ «كَالْمُهْلِ» والحديد المذاب، أو النحاس، أو الذهب المذاب، أو الصديد وقبح أهل جهنم، أو القطران، أو دُرْدِيّ^٤ الزَّيْتِ المغلي، يعني يُجعل المَهْلُ لهم مكان الماء الذي طَلَبُوهُ، وإطلاق الماء عليه من باب التَهَكُّمِ، فإذا قَدِمَ إليهم ليشربوه «يَشْوِي» وَيُحْرِقُ «الْوُجُوهُ» من فَرط حرارته. عن النبي ﷺ: «إِذَا قَرَّبَ إِلَيْهِ سَقَطَ فَرْوَةٌ وَجْهَهُ»^٥. «يَنْسُ الشَّرَابُ» ذلك الماء المَحْرَقُ «وَسَاءَتْ» النَّارُ من حيث كونها «مُرْتَفَقًا» وَمَتَكًا، أو منزلاً، أو مستراحاً.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا *
أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَذْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ
ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ
نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا [٣٠ و ٣١]

ثم أنه تعالى بعد تهديد الكفار بسوء عاقبة الكفر بشر المؤمنين بحسن عاقبة الإيمان بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» بالله ورُشله والِدَارِ الآخرة «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» وفعلوا العبادات الخالصات، ثَوْبِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا «إِنَّا لَا نُضِيعُ» وَلَا يُبْطِلُ «أَجْرَ» كُلِّ «مَنْ أَحْسَنَ» وأخلص «عَمَلًا» لمنافاته الحكمة المقتضية لإعطاء كُلِّ مستحقِّ حَقِّهِ.

ثم شرح الأجر بقوله: «أُولَئِكَ» المؤمنون الصالحون «لَهُمْ» بالاستحقاق «جَنَّاتٌ عَذْنٍ» وتخلد «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ» وتحت غُرْفِهِمْ وقُصُورِهِمْ «الْأَنْهَارُ» الكثيرة، أو الأربعة المعهودة «يُحَلَّوْنَ» وَيَزِينُونَ «فِيهَا» بأنواع «مِنْ أَسَاوِرَ» جنسها «مِنْ ذَهَبٍ» عن سعيد بن جبيرة: يُحَلَّى

١ و ٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٤١.

٣. مجمع البيان ٧: ٧١٩، تفسير الرازي ٢١: ١٢٠، ونسبه إلى بعضهم، والآية من سورة المرسلات: ٣٠/٧٧.

٤. الدردعي: ما رَسَب أسفل الزيت أو نحوه من كل شيء مانع.

٥. تفسير أبي السعود ٥: ٢٢٠، تفسير روح البيان ٥: ٢٤١، والفَرْوَةُ: الجِلْدَةُ ذات الشعر.

كُلِّ واحدٍ منهم ثلاثة أساور^١.

أقول: لعلَّ كُلَّ سوار له شكلٌ خاصٌّ، وهو ما يلبس في الذراع ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ لأنَّ الخُضرة - على ما قيل - أحسن الألوان وأكثرها طراوة^٢، وجنس الثياب ﴿مِنْ سُندُسٍ﴾ وحرير رقيق ﴿وَمِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وديباجٍ غليظٍ حال كونهم ﴿مُتَّكِنِينَ﴾ كالملوك ﴿فِيهَا عَلَى الْأَرْائِكِ﴾ والسرر الموضوعة في البيوت المزينة.

عن الباقر عليه السلام: «الأرائك، السرر، عليها الجبال»^٣.

ثم مدح سبحانه ذلك الأجر العظيم بقوله: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ تلك الجنات ونعمها ﴿وَحَسَنَتْ﴾ تلك الأرائك من حيث كونها ﴿مُزْتَفَقًا﴾ ومتكأ، أو مقرًّا للاستراحة، وقد قال سبحانه ما قال في حق الكفار من قوله: ﴿يُسَّ الثَّوَابِ وَسَاءَتْ مُزْتَفَقًا﴾ بهذا التذليل. وإنما أتى (يُحْلَوْنَ) بصيغة المبني للمفعول، و(يَلْبَسُونَ) بصيغة المبني للفاعل؛ لأنَّ العروس يلبس ثيابه بنفسه، وأما تَحْلِيته فغالباً [ما] يكون بيد الغير، أو للإشارة إلى أنَّ لبس الثياب يكون بسبب أعمالهم، وأما التَّحْلِيَة فإنَّها من كرامات الله الزائدة تفضلاً به.

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلَا أَكْبَتَتَيْنِ أَتَتْهُمَا كَلْبَةٌ مِّنْ شَيْءٍ وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا [٣٣ و ٣٢]

ثم لما كان الكفار المتنفرون من فقراء المؤمنين مفتخرين عليهم بكثرة أموالهم وأتباعهم، بيّن الله سبحانه زوال الغنى والثروة في الدنيا ودوام المعارف والأعمال الصالحة للمؤمنين في الدارين، للكافر الغني والمؤمن الفقير بقوله: ﴿وَأَضْرَبَ﴾ يا محمد ﴿لَهُمْ مَثَلًا﴾ بديعاً، وبيّن لهم بهذا المثل حالهم بياناً واضحاً، وهو أنَّ ﴿رَجُلَيْنِ﴾ كان واحد منهما مؤمناً والآخر كافراً و﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ الكافر ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ وبستانين كانت أشجارهما ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ متنوعة وكثيرة مختلفة وأحطنا بالجنتين ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾.

قيل: هذه الصفة مما يؤثرها الدهاقين في كرومهم، فإنَّهم يجعلونها مخفوفةً بالأشجار المثمرة^٤.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ كثيراً من أنواع الحبوب، وفي ذكر الصفات دلالة على اتساعها

١. مجمع البيان ٦: ٧٢٠، تفسير روح البيان ٥: ٢٤٣.

٢. تفسير الفمي ٢: ٢١٦، تفسير الصافي ٣: ٢٤٢، والحيال: جمع حَجَلَة - ساتر كالثَّيْبَة يُزَيَّن بالثياب والسُّنُور

٣. تفسير الرازي ٢١: ١٢٤.

٤. للعروس.

واستجماعها لأنواع الأقوات والفواكه الفانقة ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ أَتَتْ أَكْلَهُمَا﴾ وثمرها المترقب منها في جميع الأوقات ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ﴾ ولم تنقص ﴿مِنْهُ شَيْئاً﴾ ولو يسيراً، مع أن المعهود من سائر البساتين إتمام الثمر في عام وتقيصه في عام ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ وشققنا، أو أجرينا فيما بين كل من الجنتين و﴿خَلَّاهُمَا نَهْرًا﴾ على حدة، ليدوم شربهما ويكثر بهاوهما.

قيل: إنما قدم إتياء الأكل على تفجير النهر للدلالة على استقلال كل منهما في حسن الجنين، والدلالة على أن إتيان الأكل لم يكن متوقفاً على السقي، كقوله ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

وَكَانَ لَهُ تَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا [٣٨-٣٤]

ثم أنه تعالى بعد توصيف الجنين ذكر حال الكافر بقوله: ﴿وَكَانَ لَهُ تَمَرٌ﴾ ومال كثير غير الجنين، من الذهب والفضة، أو فواكه آخر غير العنب والرطب.

عن تفسير الجلالين: أن الرجلين كانا ابني ملك في بني إسرائيل، اسم أحدهما يهودا وكان مؤمناً، واسم الآخر قُطروس وكان كافراً، مات أبوهما فَوَرِثَا منه ثمانية آلاف ديناراً، فتقاسماها بينهما، فاشتري الكافر أرضاً بألف دينار وبنى داراً بألف دينار، وتزوج امرأة بألف دينار، واشتري خدماً ومَتَاعاً بألف دينار، فقال المؤمن: اللهم إن أخي اشترى أرضاً بألف دينار، وأنا اشترى منك أرضاً في الجنة، فتصدق بألف دينار، وإن أخي بنى داراً بألف دينار، وأنا اشترى منك داراً في الجنة فتصدق به، وإن أخي تزوج امرأة بألف دينار وأنا أجعل ألفاً صدقاً للبحور، فتصدق به، وإن أخي اشترى خدماً ومَتَاعاً بألف دينار، وأنا اشترى منك ولداناً مخلصين بألف، فتصدق به. ثم أصابته الحاجة، فجلس لأخيه على طريقه، فمر به أخوه في حَسَمِهِ، فقام إليه فنظر أخوه إليه وقال: ما شأنك؟ فقال: أصابني حاجة، فأتيت لتصيبني بخير. فقال: وما فعلت بمالك وقد اقتسمنا مالاً وأخذت شطره؟ فقَصَّ عليه

القصة، قال: إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الْمُتَصَدِّقِينَ بِهَذَا، إِذْ هَبَ لَا أُعْطِيكَ شَيْئاً، فطرده ووبَّخه^١.

﴿قَالَ﴾ الكافر ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ وأخيه ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ ويكالمه مفتخراً عليه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً﴾ وثروته ﴿وَأَعَزُّ نَفْراً﴾ من البنيين والخدم والأعوان ﴿وَدَخَلَ﴾ يوماً ﴿جَنَّتُهُ﴾ مع أخيه المؤمن ﴿وَهُوَ﴾ بكفره ﴿ظَالِمٌ﴾ وضار ﴿لِنَفْسِهِ﴾ ومعجب بماله ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ﴾ ولا احتمل ﴿أَنْ تَسِيدَ﴾ وتنفى ﴿هَذِهِ﴾ الجنة ﴿أَبَدًا﴾ وما دُمْتُ حَيًّا ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ﴾ التي يبعث من في القبور ﴿قَائِمَةً﴾ وآتية فيما بعد ﴿وَلَيْتَنِي رُودِدْتُ﴾ ورجعتُ بعد الموت ﴿إِلَى رَبِّي﴾ بالبعث على الفرض وزعمك، والله ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ يومئذٍ بعد انقطاعي من هذه الجنة ﴿خَيْرًا مِنْهَا﴾ في الآخرة ﴿مُنْقَلَبًا﴾ ومرجعاً ﴿قَالَ لَهُ﴾ صاحبه وأخوه المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ ويكالمه ويجادله منكرًا عليه، ومتعجباً من مقالاته الفاسدة ﴿أَكْفَرْتَ﴾ يا أخي ﴿بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾ من أصل مخلوقٍ ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ بقدرته الكاملة وحكمته البالغة ﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق أصلك منه خَلَقَكَ ﴿مِنْ نُّطْقَةٍ﴾ أمشاج ومني دافع في الرِّجَم ﴿ثُمَّ﴾ سَوَّاهُ ﴿وَخَلَقَكَ مَعْتَدًا فِي الْخَلْقِ وَالْقَامَةِ﴾ وجعلك ﴿رَجُلًا﴾ وإنساناً ذَكَرًا بالغاً، فمن كان له القدرة والحكمة والنعمة هل يساويه غيره في الصفات؟ وهل يعجز عن إعادة خلقك مع اقتضاها الحكمة؟ حاشا وكلًا ﴿لِكَيْتَا﴾ قالوا: أصله لكن أنا مؤمنٌ موحد معتقد وقائل بأنه ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ تعالى ﴿رَبِّي﴾ ومالك أمري ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي﴾ في الألوهية والربوبية ﴿أَحَدًا﴾ من خلقه.

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَ
وَلَدًا ۖ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ
فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۖ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً هَٰ غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا [٤١-٣٩]

ثم لame على كُفرانه النعمة بقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ﴾ وهلا حين وردت في بستانك ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ - من إبقاء الجنة وإفنائها - كان، وهلا قلت حين رأيت جنتك في غاية الحسن والبهاء وكثرة المنفعة اعترافاً بعجزك عن تعميرها وأنه بقدرة الله ومعونته، وأن ما فيها من الأشجار والثمار والعمارة بمشيئة الله ﴿لَا قُوَّةَ﴾ بشيء من الحيوانات والنباتات ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

في الحديث: «من رأى شيئاً فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لم تضره العين»^٢.
وفي حديث آخر: «من رأى أحداً أعطي خيراً من أهل أو مال، فقال عنده: ما شاء الله لا قوة إلا بالله،

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٤٥.

٢. تفسير أبي السعود ٥: ٢٢٢، تفسير روح البيان ٥: ٢٤٧.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٤٧.

لَمْ يَزَ فِيهِ مَكْرُوهًا». وَرُوي أَنَّهَا دَوَاءٌ مِنْ تِسْعَةِ وَتِسْعِينَ دَاءً أَيْسَرُهَا الِهَمُّ^١.

ثُمَّ أَنَّ الْمُؤْمِنَ بَعْدَ إِنْكَارِهِ عَلَى الْكُفْرِ وَلَوْ مَهْ عَلَى كُفْرَانِهِ النِّعْمَةَ، أَجَابَهُ عَنْ فَخْرِهِ بِالْمَالِ وَالنَّعْرِ بِقَوْلِهِ: «إِنْ تَرَى أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا» الْآنَ، فَلَا تَغْتَرَّ بِحَسَنِ حَالِكَ وَكَثْرَةِ مَالِكَ وَلَا تَشْتَمَّ^٢ بِسُوءِ حَالِي وَشِدَّةِ فَقْرِي «فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي» وَيُعْطِيَنِي فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ جَنَّةً «خَيْرًا» وَأَفْضَلَ «مِنْ جَنَّتِكَ» الَّتِي تَفْتَخِرُ بِهَا «وَيُزِيلَ عَلَيْهَا» عِقُوبَةَ عَلَى كُفْرِكَ وَكُفْرَانِكَ «حُسْبَانًا» وَعَذَابًا «مِنْ السَّمَاءِ» مِنْ بَرْدٍ أَوْ صَاعِقَةٍ «تُضْضِجُ» وَتَصِيرُ جَنَّتَكَ بِذَلِكَ الْبَلَاءِ «صَعِيدًا زَلَقًا» وَأَرْضًا لَا نَبَاتَ فِيهَا «أَوْ يُضْجِجُ» وَبَصِيرَ «مَأْوَاهَا» الَّذِي يَجْرِي فِيهَا «غُرُورًا» وَذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ بِحَيْثُ لَا تَنَالُهُ الْأَيْدِي وَالْأَفْئَالُ، بَلْ لَا يَبْقَى مِنْهُ أَثَرٌ «فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا» بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ فَضْلًا عَنْ وَجْدَانِهِ وَرَدِّهِ.

وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا [٤٢-٤٤]

ثُمَّ أَخْبَرَ سَبْحَانَهُ بِوُقُوعِ بَعْضِ مَا تَوَقَّعَهُ الْمُؤْمِنُ فِي أَمْوَالِ الْكَافِرِ بِقَوْلِهِ: «وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ» وَأَهْلَكَ أَمْوَالَهُ بَانَ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ فَأَهْلَكَتْهَا وَغَارَ مَاؤُهَا كَمَا عَنْ (الْمَجْمَعِ)^٣ «فَأَصْبَحَ» الْكَافِرُ وَصَارَ «يَقْلُبُ كَفَّيْهِ» ظَهَرَ لِبَطْنٍ تَأْسَفًا وَتَحَسُّرًا «عَلَى مَا أَنْفَقَ» وَصَرَفَ «فِيهَا» وَفِي تَعْمِيرِهَا مِنْ الْأَمْوَالِ حَيْثُ رَأَى الْجَنَّةَ «وَهِيَ خَاوِيَةٌ» وَسَاقِطَةٌ «عَلَى عُرُوشِهَا» وَدَعَانِمُهَا الْمَصْنُوعَةُ لِكُرُومِهَا، لَمَّا رَأَى الْكَافِرُ صَدَقَ أَخِيهِ فِيمَا هَدَّاهُ عَلَى شِرْكِهِ وَغُرُورِهِ، وَكَانَ يَتَمَنَّى التَّوْحِيدَ «وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا» وَلَمْ يَنْفَعِهِ النَّدَمُ وَالتَّمَنَّى.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ كَثْرَةُ أَعْوَانِهِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ مَالِهِ، تَفَرَّقَ عَنْهُ أَعْوَانُهُ وَخَدَمَهُ «وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ» وَجَمَاعَةٌ «يَنْصُرُونَهُ» بِدَفْعِ الْهَلَاكِ عَنْ مَالِهِ، أَوْ إِعْطَانِهِ مِثْلَهُ «مِنْ دُونِ اللَّهِ» لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى نَصْرِهِ، وَهُوَ لَمْ يَنْصُرْهُ لَاسْتِحْقَاقِهِ الْعَذَابَ وَالْخِذْلَانَ «وَمَا كَانَ» بِنَفْسِهِ «مُنتَصِرًا» وَمَدَافِعًا عَنْ مَالِهِ بِقُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ. ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ نُصْرَتَهُ لِلْمُؤْمِنِ عَلَى أَخِيهِ الْكَافِرِ الْمُفْتَخِرِ عَلَيْهِ، بَيَّنَّ أَنَّ دَأْبَهُ تَعَالَى كَذَلِكَ فِي كُلِّ مَوْرِدٍ يَكُونُ الْكَافِرُ بِصَدْدٍ إِذْ لَالَ الْمُؤْمِنُ بِقَوْلِهِ: «هُنَالِكَ» وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ الَّذِي يَكُونُ الْكَافِرُ بِصَدْدٍ

٢. فِي النِّسْخَةِ: وَلَا تَشْتَمْنِي.

١. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٥: ٢٤٧.

٣. مَجْمَعُ الْبَيَانِ ٦: ٧٢٨، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٢٤٣.

إذلال المؤمن تكون ﴿الْوَلَايَةُ﴾ ونصرة المؤمن ﴿لِلَّهِ الْحَقُّ﴾ والمعبود الصدق، فيوالي أوليائه ويغلبهم على أعدائه في الدنيا، وأما في الآخرة ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿خَيْرُ ثَوَابًا﴾ وأفضل أجراً لأولياته ﴿وَحَيْرٌ عَقْبًا﴾ ومالاً لهم، وأسوأ عقوبة وعاقبة لأعدائه وأعدائهم.

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا * أَلَمْالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا [٤٦ و ٤٥]

ثم ضرب الله مثلاً آخرَ لحِقارة الدنيا وسرعة زوالها بقوله: ﴿وَأَضْرِبْ﴾ يا محمد، لقومك واذكر ﴿لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ونظيرها في زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمئنوا بها، ولا ينعكفوا عليها، فإنها ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ﴾ بسبب ذلك الماء، والتف وتكاثف ﴿بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ من رباحينها، وزرعها، وغيرهما ﴿فَأَصْبَحَ﴾ ذلك النبات، وصار بعد غاية بهجته ونضارته ﴿هَشِيمًا﴾ ومكسوراً ليسه، بحيث ﴿تَذْرُوهُ﴾ وتفرقه ﴿الرِّيَّاحُ﴾ الخفيفة حتى لا يبقى منه أثر. كذلك الإنسان ينمو ويشب ويقوى، فإذا انقضى أجله أتاه صرصر الموت، فجعله كأن لم يكن شيئاً مذكوراً ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإيجاد والإبقاء والإفناء ﴿مُقْتَدِرًا﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان زوال حياة الدنيا، بين زوال المال والأولاد الذين هما أعظم زينتها بقوله: ﴿أَلَمْالُ وَالْبَنُونَ﴾ اللذان يفتخرون بهما مما به ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ينقطعان عنكم بانقضائها ﴿وَالْبَاقِيَاتُ﴾ معكم في جميع العوالم من البرزخ والمعاد، هي الأعمال ﴿الصَّالِحَاتُ﴾ والعبادات الخالصات من الصوم والحج والصلاة وغيرهما ﴿خَيْرٌ﴾ من الفانيات الفاسدات التي منها المال والأولاد ﴿عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ وأجراً وعائدة ﴿وَحَيْرٌ أَمَلًا﴾ وأموالاً؛ لأن صاحبها يتأل بها في الآخرة ما كان يأمل في الدنيا.

عن الصادق عليه السلام: «إِنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿أَلَمْالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إِنَّ الثَّمَانِي رَكَعَاتُ صَلَاتِ الْعَبْدِ آخِرَ اللَّيْلِ زِينَةُ الْآخِرَةِ»^١.

وعنه عليه السلام: «أَنَّ مِنَ الْبَاقِيَّاتِ [الصَّالِحَاتِ] الْقِيَامَ صَلَاةَ اللَّيْلِ»^٢. وقيل: هنَّ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ^٣.

١. تفسير العياشي ٣: ٢٦٥٧/٩٥، التهذيب ٢: ٤٥٥/١٢٠، تفسير الصافي ٣: ٢٤٤.

٢. مجمع البيان ٦: ٧٣١، تفسير الصافي ٣: ٢٤٤. ٣. تفسير الرازي ٢١: ١٣١، تفسير أبي السعود ٥: ٢٢٥.

وعن الصادق عليه السلام: «إن الباقيات الصالحات هي الصلوات، فحافظوا عليها»^١.

وعنه عليه السلام: «هي الصلوات الخمس»^٢.

وقال جمع من العامة: هي التسيحات الأربع^٣.

وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خذُوا جُسُكُم^٤، قالوا: يا رسول الله عدو حضر؟ قال: لا، ولكن خذُوا جُسُكُم من النار، قالوا: فبِم تأخذ جُسُكُنَا، يا رسول الله؟ قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة ولهن مقدمات ومؤخرات، وهن الباقيات الصالحات»^٥.

وعن الباقر عليه السلام: «مر رسول الله صلى الله عليه وآله برجل يغرس غرساً في حائط له، فوقف عليه وقال: ألا أدلك على غرس أثبت أصلاً، وأسرع إيناعاً، وأطيب ثمرأ وأبقى؟ قال: بلى، فدلني يا رسول الله، فقال: إذا أصبحت وأمسيت فقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإن لك إن قلته بكل تسيحة عشر شجرات في الجنة من أنواع الفاكهة، وهن من الباقيات الصالحات»^٦.

وعن الصادق عليه السلام أنه قال للخصين بن عبد الرحمن: «لا تستصغر مودتنا، فإنها من الباقيات الصالحات»^٧.

أقول: الجمع بين الأخبار أن كل عمل واعتقاد فيه رضا الله، فهو من الباقيات الصالحات.

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا *
وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ
نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا [٤٧ و ٤٨]

ثم أنه تعالى بعد بيان خسارة الدنيا، وذكر ما يوجب التزهيد منها وترغيبهم في الصالحات، ذكر بعض أهوال القيامة تنبيهاً على كثرة الحاجة بها فيها بقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ في الهواء والجو على هيئتها بعد قلعهما من الأرض، أو [نسير] أجزاءها بعد جعلها هباءً منبثاً ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ﴾ يا محمد ﴿بَارِزَةً﴾ وظاهرة من تحت الجبال، والعمارات، والأشجار. أو بارزة الجوف لا يبقى في بطنها شيء من الموتى والكثوز، وبعثنا الناس من القبور ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ وجمعناهم إلى عرصة القيامة وموقف الحساب، مؤمنهم وكفارهم ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ ولم نترك ﴿مِنْهُمْ﴾ تحت الأرض ﴿أَحَدًا﴾.

١. تفسير العياشي ٣: ٢٦٥٥/٩٤، تفسير الصافي ٣: ٢٤٤.

٢. مجمع البيان ٦: ٧٣١، تفسير الصافي ٣: ٢٤٤.

٣. في تفسير العياشي: جُسُكُم، وكذا ما بعدها.

٤. الكافي ٢: ٣٦٧/٤، تفسير الصافي ٣: ٢٤٥.

٥. تفسير أبي السعود ٥: ٢٢٥، تفسير روح البيان ٥: ٢٥١.

٦. تفسير العياشي ٣: ٢٦٥٦/٩٤، تفسير الصافي ٣: ٢٤٤.

٧. مجمع البيان ٦: ٧٣١، تفسير الصافي ٣: ٢٤٤.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ كَيْفِيَّةَ حَشْرِ الْخَلْقِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَعُرِضُوا﴾ بعد حشرهم ﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ كما يُعْرَضُ الْجَنْدُ عَلَى الْمَلِكِ حال كونهم ﴿صَفًّا﴾ صَفًّا، ومُجْتَمِعِينَ غير متفرقين ولا مختلطين يُرى جميعهم كما يُرى واحدٌهم.

عن الصادق عليه السلام: «هُم يَوْمَئِذٍ عَشْرُونَ وَمِائَةُ أَلْفٍ صَفٍّ فِي عَرْضِ الْأَرْضِ»^١.

فيقول الله لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ من الدنيا بلا مال وأولاد وأعوان خُفَاءَ عُرَاءَ ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

عن عائشة قلت: يا رسول الله، كيف يُحْشَرُ النَّاسُ يوم القيامة؟ قال: «عُرَاءَ خُفَاءَ» قلت: والنساء؟! قال: «نعم» قلت: يا رسول الله، نستحي! قال: «يا عائشة، الأمرُ أشَدُّ من ذلك، لَنْ يَهْمَهُمْ أَنْ يَنْظُرُوا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»^٢.

ثُمَّ يَخَاطَبُ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ ويقول سبحانه لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿بَلْ رَعِمْتُمْ﴾ واذعيتهم بالكذب في الدنيا ﴿أَلَنْ تَجْعَلَ لَكُمْ﴾ أبداً ﴿مَوْعِدًا﴾ ووقتاً تُنْجِزُ فيه ما وعدناه على السنة الرُّسُل من البعث ونُبُعَاتِهِ، فاليوم قد تعيَّن لكم صدق ما أخبروكم، وشاهدتم أنَّ السَّاعَةَ حَقٌّ، والبعثُ صِدْقٌ، وتركتهم في الدنيا ما كنتم تَتَخَيَّرُونَ به من الأموال والأولاد والأعوان.

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا [٤٩]

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ كَيْفِيَّةَ الْمَحَاسِبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ الذي فيه أعمال الخلق في أيديهم ﴿فَتَرَى﴾ يا محمد، أو أيها الرائي ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ والعصاة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ وخائفين ﴿مِمَّا﴾ هو مكتوب ﴿فيه﴾ من العقائد الفاسدة، والأعمال السيئة، والذنوب الصغيرة والكبيرة، فينادون ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حين اطلاعهم على أعمالهم المكتوبة فيه تغيُّرها^٣ وقُطْمِيرها^٤ تعجباً وتحسراً: ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾ وهلكتنا احْضَرِي فهذا أوانك ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ وأي شيء له، فإنه ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ ولا يترك فعلة ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ وضبطها ﴿وَوَجَدُوا﴾ جميع ﴿مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا ﴿حَاضِرًا﴾ ومثبوتاً فيه، وإنما يعترفون به لأنهم يجدونه مطابقاً لما كتبوه في صحائف نفوسهم بِقَلَمٍ

١. الاحتجاج: ٣٥٠، تفسير الصافي ٣: ٢٤٥.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٥٢.

٣. القُطْمِير: القِشْرَة الرفيعة بين الثَّوَّة والثمر.

٤. التَّغْيِير: التَّكْنَةُ في ظهر الثَّوَّة.

أعمالهم.

قيل: إنما قَدِمَ ذكر الصغيرة لكونها جازة إلى الكبيرة^١، ويَحْتَمِلُ أن يكون [المراد] من حضور الأعمال تجسّمها في نظَرهم مضافاً إلى رؤيتها في كتابها. أو يكون المراد رؤية جَزَائِها وشهودها ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ بكتابة ما لم يعمل، أو العقوبة زائدة على الاستحقاق.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا * مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا [٥٠ و ٥١]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ افْتِخَارِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى فَقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَكْبَرِهِمْ عَلَيْهِمْ، ذَكَرَ تَكْبِيرَ إِبْلِيسَ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ رَدْعاً لَهُمْ وَيَبَاناً لِسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبَرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ لَهُ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فَإِنَّهُ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ؛ لِأَنَّهُ ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ الْمَخْلُوقُ مِنَ النَّارِ الْمَجْبُولُ عَلَى التَّرَفُّعِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمَخْلُوقِينَ مِنَ النُّورِ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^٢.

ثُمَّ وَبَّحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُتَكَبِّرِينَ عَلَى اتِّبَاعِهِ مَا غَايَةَ عِدَاوَتِهِ لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ «أَوْلِيَاءَ» وَاجِبَاءَ مُتَبَوِّعِينَ «مِنْ دُونِي» وَبَدَلًا مِنِّي «وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ» مُبْغَضٌ، وَحَقِّمَ أَنْ تُعَادَوْهُمْ وَتُبْغِضُوهُمْ لَا أَنْ تُؤَالِفُوهُمْ، وَأَنْ تُخَالِفُوهُمْ لَا أَنْ تُطِيعُوهُمْ «بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ» وَالْكَافِرِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ «بَدَلًا» مِنْ اللَّهِ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتِهِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ تَعَالَى فَقْدَانَهُمْ لِمَا يُوجِبُ التَّكَبُّرَ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَهُوَ كُفْرُهُمْ أَعْوَانَ اللَّهَ وَشُرَكَاءَهُ فِي الْخَلْقِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَمَا أَحْضَرْتُهُمْ حَيْثُ لَا سَتْعِينَ بِهِمْ فِي خَلْقِهِمَا، أَوْ أَشَاوَرَهُمْ فِي إِيجَادِهِمَا «وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ» مَعَ كَمَالِ حَقَارَتِهِمْ بِأَنْ يُعِينِنَا بَعْضُهُمْ فِي خَلْقِ بَعْضٍ آخَرَ، وَمَا شَاوَرْتَهُمْ فِي تَدْبِيرِ الْعَالَمِ «وَمَا كُنْتُ» مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْمَوْجُودَاتِ إِلَى الْأَبَدِ «مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ» مِنَ الشَّيْطَانِ وَذُرِّيَّتِهِ وَاتِّبَاعِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لِنَفْسِي فِي الْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ «عَصَدًا» وَعَوْنًا.

قيل: إن المراد ما أشهدت الذين اتَّخَذْتُمُوهُمْ أَوْلِيَاءَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا أَشْهَدْتُ بَعْضَهُمْ

خَلَقَ بَعْضٌ^١. وقيل: إن المراد أنه ليس لهم العلم بالمغيبات ولا يَخْلُقُ أنفُسهم، فكيف تعبدونهم وتَدْعُونَ أنهم شركائي في العبادة؟^٢

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا
مَصْرَفًا [٥٢ و ٥٣]

ثم أنه تعالى بعد توبيخ المشركين المتكبرين على اتِّباعهم الشيطان ونفي أهلية التكبر عنهم، عاد إلى تهويلهم بأحوال القيامة وتقريعهم على الشُّرك فيها بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ الله للمشركين تضرعاً وتهكُّماً: أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركائي في الألوهية والعبادة، وأنهم شفعاؤكم في هذا اليوم، كي يُنَجِّوكم من العذاب بالقهر، أو يشفعوا لكم^٣ ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ ونادوهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ واستغاثوا بهم فلم يغثوهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ من الداعين والمدعويين ﴿مَوْبِقًا﴾ ومهلكاً وهو النار، أو وادياً من جهنم، أو بَرَزَخاً بعيداً يهلك فيه السائر، أو عداوة شديدة مهلكة. وقيل: إن البين بمعنى المواصله، والمعنى: جعلنا مواصلتهم في الدنيا هلاكهم في الآخرة^٤. ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ﴾ والمشركون بعد يأسهم من آلهتهم ﴿النَّارَ﴾ التي أعدت لهم ﴿فَظَنُّوا﴾ وأيقنوا ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ ومخالطوها.

عن أمير المؤمنين عليه السلام «يعني: أيقنوا أنهم داخلوها»^٥.

وعنه عليه السلام: «وقد يكون بعض ظن الكافر يقيناً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ الآية، أي: أيقنوا أنهم مواقعوها»^٦.

﴿وَلَمْ يَجِدُوا﴾ لأنفسهم ﴿عَنْهَا مَصْرَفًا﴾ ومَعْدَلاً إلى غيرها أو مهرباً؛ لأن الملائكة يَسْئَلُونهم إليها، أو لأنها مُحِيطَةٌ بهم من كل جانب.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ
جَدَلًا [٥٤]

٢. مجمع البيان ٦: ٧٣٥، تفسير روح البيان ٥: ٢٥٦.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٥٨.

٦. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٣: ٢٤٧.

١. تفسير الرازي ٢١: ١٣٨.

٣. في النسخة: يشفعوكم.

٥. التوحيد: ٥/٢٦٧، تفسير الصافي ٣: ٢٤٧.

ثم أنه تعالى بعد ردع الكفار المفتخرين على فقراء المؤمنين بكثرة المال والولد بالبيانات التي كلها كالمثل في الغرابة والحسن، وذكر المثليين المتقدمين، بين سبحانه شدة شقاوتهم وقساوتهم وعدم تأثرهم بها بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وكررنا أو أوردنا على وجوه كثيرة من النظم ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ صلاحاً ونفعاً ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافة إلى يوم القيامة ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ بديع ومعنى عجيب وشبيه ونظير وعبر ودلائل على الحق ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كَانَ الْإِنْسَانُ﴾ بجنسه وطبعه ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ وأشدّه خصومة بالباطل.

قيل: من طبيعة الإنسان المجادلة والمخاصمة، وبها يقطعون الطريق على أنفسهم، فتارة يجادلون الأنبياء ولا يقبلون النبوة والرسالة حتى يقاتلوهم، وتارة يجادلون في الكتب المنزلة ويقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء، وتارة يجادلون في محكماتها، وتارة يجادلون في منشأها، وتارة يجادلون في ناسخها ومنسوخها، وتارة يجادلون في تفسيرها وتأويلها، وتارة يجادلون في أسباب نزولها، وتارة يجادلون في قراءتها، وتارة يجادلون في قديمها وحديثها، إلى غير ذلك حتى لم يفرغوا من المجادلة إلى المجاهدة، ومن المخاصمة إلى المعاملة، ومن المنازعة إلى المطاوعة، فلماذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ
سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي
وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوعًا [٥٦ و ٥٥]

ثم أنه تعالى بعد بيان أن القرآن جامع لجميع الدلائل والعبر والعلوم، بين تمامية الحجة على الناس به، وعدم تصور العذر لهم في ترك الإيمان بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ من ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ بالله ورسوله ودينه الحق ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ وحين أتاهم الرسول، وقرّر لهم دلائل التوحيد ورسالته، وجميع ما يجب الإيمان به بما لا مزيد عليه ﴿وَ﴾ من أن ﴿يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ ويتوبوا إليه من شركهم ومعاصيهم ﴿إِلَّا﴾ انتظار ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمُ﴾ العقوبة الدنيوية التي هي ﴿سُنَّةُ﴾ الله ودأبه في القرون ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ والأُمم الماضية الجاحدين لكل حق، المعارضين للرسول ﴿أَوْ﴾ أن ﴿يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الأخروي ﴿قُبُلًا﴾ وعباناً، أو أنواعاً.

وحاصل المعنى - والله أعلم - أنهم لا يؤمنون إلا عند نزول عذاب الاستئصال، أو حين تواصل عذاب الدنيا عليهم بعذاب الآخرة، وحينئذ لا ينفعهم الإيمان.

ثم لما بين الله أن حيلة الإنسان على الجدال بين أنهم يجادلون ويقترحون على الرسل مع أن وظيفتهم التبشير والإنذار بقوله: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الناس ليعرض من الأغراض ﴿إِلَّا﴾ لغرض واحد وهو أن يكونوا ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين المطيعين بالثواب ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ للكافرين والعصاة بالعذاب، لا ليوافقتهم أهواء الناس وإتيانهم بمقترحاتهم وعملهم بمتوقعاتهم، من طرد الفقراء، ومجالسة المتكبرين ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ رسلهم ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ كقولهم: لا يكون الرسول إلا ملكاً، أو من يكون له بيت من زخرف، إلى غير ذلك ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ بجدهم ويزيلوا ﴿بِهِ الْحَقَّ﴾ الذي جاءهم به الرسول عن مقره ويظلموه ويظنوا نوره ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ الدالة على الحق ومعجزات الرسول ﴿وَمَا أَنْذَرُوا﴾ وخوفوا به من العذاب على الكفر ﴿هُزُوا﴾ وسخرية.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا [٥٧]

ثم ذمهم سبحانه بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وهل يكون أحد، أكثر إساءة على نفسه ﴿مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ وتليت عليه حجج الله ومواعظه بالعبارات التي تكون في أعلى درجة الإعجاز ﴿فَأَعْرَضَ﴾ ولوى رأسه ﴿عَنْهَا﴾ وألقاها وراء ظهره ولم يتدبرها ولم يتفكر فيها ﴿و﴾ مع ذلك ﴿نَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ وتغافل عما أرتكبه من السيئات وعن سوء عاقبتها.

ثم بين سبحانه علّة إعراضهم وتناسيهم بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ بسبب كفرهم وعصيانهم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الخبيثة المظلمة ﴿أَكِنَّةً﴾ وأعطية حين تلاوة القرآن عليهم كراهة ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ ويفهموا ما فيه من الأعجاز والحكم والمعارف والأحكام ﴿و﴾ جعلنا ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وثقلنا وصمماً ﴿و﴾ كراهة أن يستمعوه حق الاستماع ﴿و﴾ لذا ﴿إِنْ تَدْعُهُمْ﴾ يا محمد ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ الذي هو دين الإسلام ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ لعدم تأثر قلوبهم بقولك، كعدم تأثرهم بالقرآن، فلا تنعّب في دعوتهم ولا تحزن على ضلالتهم.

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا

لِيَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ٥٨ و ٥٩

ثم ذكر سبحانه علة إهلاكهم بقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ للذنوب و﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ على العباد يحلم ويرحم و﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ ولا يحلم عنهم ﴿لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ بالصاعقة، أو الخسف، أو غيرهما مما يهلكهم بالاستئصال في الدنيا، أو بإماتتهم وإحراقهم بالنار في الآخرة ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ ووقت معين لمؤاخذتهم فيه ﴿لَنْ يَجِدُوا﴾ حين مجيئ ذلك الموعد ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ومما سواه تعالى ﴿مَوْئِلًا﴾ وملجأ يلتجئون إليه.

ثم استشهد على إهلاك الكفار وأخذهم في موعدة بالقرى المهلكة بقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ المهلكة من قرى عاد وثمود وأضرابهما ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بعذاب الاستئصال ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والطغيان وتكذيب الرسل والإعراض عن الآيات، ولكن لم نعالجهم، بل قررنا ﴿وَجَعَلْنَا لِيَهْلِكِهِمْ﴾ وإنزال العذاب عليهم ﴿مَوْعِدًا﴾ ووقتاً معيناً متدأ لم يتقدم إهلاكهم عليه ولم يتأخر عنه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاءَ لَا أَبْرَحَ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا *
فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا [٦٠ و ٦١]

ثم أنه تعالى بعد بيان أن الفخر والكبر خلق الشيطان، بين أن صفة التواضع وتبعية العالم منكران أوليان ورسله، بذكر قصة موسى عليه السلام وتبعية الخضر بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ بن عمران بن بصير ﴿لِقَتَاءَ﴾ وخادمه يوشع بن نون، أو أخيه يوشع، أو عبده ﴿لَا أَبْرَحَ﴾ ولا أزال أسير وأذهب ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ بحر فارس وبحر روم وملتقاهما على ما قيل^١، وهو الموضع الذي وعده الله بقاء الخضر فيه. أو مجمع موسى والخضر، فإن موسى بحر العلم الظاهر، والخضر بحر العلم الباطن ﴿أَوْ أَمْضِيَ﴾ وأسير في الأرض ﴿حُقْبًا﴾ ومدة طويلة، أو ثمانون سنة على ما قيل^٢، ورواه القمي عن الباقر عليه السلام^٣.

وقال القمي: لما أخبر رسول الله ﷺ قريشاً بخبر أصحاب الكهف قالوا: أخبرنا عن العالم الذي أمر الله موسى أن يتبعه وما قصته؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَتَاءَ﴾^٤.

١. تفسير الرازي ٢١: ١٤٥، تفسير روح البيان ٥: ٢٦٣.

٢. تفسير الرازي ٢١: ١٤٦، تفسير روح البيان ٥: ٢٦٤.

٣. تفسير القمي ٢: ٤٠، تفسير الصافي ٣: ٢٤٨.

٤. تفسير القمي ٢: ٣٧، تفسير الصافي ٣: ٢٤٨.

نسي قصة موسى وروى بعض العامة أنه لما ظهر موسى ﷺ على مصر مع بني إسرائيل بعد هلاك القبط، أمره الله أن يذكر قومه أنعام الله عليهم، فخطب خطبةً بليغة رقت بها القلوب، وذرفت العيون، فقال واحد من علماء بني إسرائيل: يا موسى، من أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله تعالى، فأوحى إليه: بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين، وهو الخضر، وكان في أيام أفريدون الملك العادل العاقل قبل موسى ﷺ، وكان على مقدمة القرنين الأكبر، وبقي إلى أيام موسى ﷺ، وقد بعث هو في أيام كشتاسب بن لهراسب - على ما قيل - فقال موسى ﷺ: يا رب، أين أطلبه، وكيف يتيسر لي الظفر به والاجتماع معه؟ قال: اطلبه على ساحل البحر عند الصخرة، وتخذ حوتاً ممْلُوحاً في مِكْتَلٍ يكون زاداً لك، فحيث فقدته فهو هناك. فأخذ حوتاً فجعله في مِكْتَلٍ فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني. قال: وزعم أهل التوراة أن موسى هذا هو موسى بن ميثاء بن يوسف، وكان نبياً قبل موسى بن عمران^١.

وقال بعضهم: إن موسى ﷺ لما أعطى الألواح وكلمة الله قال: من الذي أفضل مني وأعلم؟ فقيل: عبد الله يسكن جزائر البحر^٢.

وفي رواية عامية أخرى: أن موسى ﷺ لما أوتي من العلم ما أوتي، ظن أنه لا أحد مثله، فاتاه جبرئيل وهو بساحل البحر فقال: يا موسى، أنظر إلى هذا الطير الصغير يهوي إلى البحر يضرب بميقاره فيه ثم يرتفع، فأنت فيما أوتيت من العلم دون قدر ما يحيل هذا الطير بميقاره من البحر^٣.

وفي رواية عامية: أن موسى ﷺ سأل ربه أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأني عبادك أفضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: فأني عبادك أعلم؟ قال: الذي يتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى، أو تزده عن ردى. فقال موسى ﷺ: إن كان في عبادك أعلم مني فادلني عليه، فقال: أعلم منك الخضر. قال: فأين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: يا رب، كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مِكْتَلٍ فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني^٤.

والقمي رحمه الله لما كلم الله موسى ﷺ تكليماً، فأنزل الله الألواح عليه، وفيها كما قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾^٥ رجع موسى ﷺ إلى بني إسرائيل، فصعد المِيز، فأخبرهم أن الله قد أنزل عليه التوراة وكلمه، قال في نفسه: ما خلق الله خلقاً أعلم مني. فأوحى الله إلى جبرئيل:

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٢.

٢. تفسير الرازي ٢١: ١٤٤.

٣. تفسير الرازي ٢١: ١٤٥.

٤. الاعراف: ٧/١٤٥.

أدرك موسى فقد هلك، وأُعلِّمته أن عند ملتقى البحرين عند الصخرة رجلٌ أعلم منك، فسير إليه وتعلَّم من علمه. فنزل جَبْرِئِيلُ إلى موسى فأخبره، وذَلَّ موسى في نفسه، وعَلِمَ أَنَّهُ أَخْطَأَ ودخله الرُّعب، وقال لوصيِّه يوشع: إِنَّ الله قد أمرني أَنْ أتبع رجلاً عند ملتقى البحرين وأتعلَّم منه، فتزوَّد يوشع خوتاً مملوحتاً.

وعن الصادق عليه السلام قال: «بيننا موسى عليه السلام قاعدٌ في ملاء من بني إسرائيل، إذ قال له رجل: ما أرى [أحدًا] أعلم بالله منك، قال موسى عليه السلام: ما أرى. فأوحى الله إليه: بل عبدي الخضر. فسأل السبيل إليه، فكان له آية الحوت إن افتقده، وكان من شأنه ما قصَّ الله»^٢.

فذهب موسى ويوشع عليه السلام حتى بلغا مجمع البحرين ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ ومكاناً يلتقي وسط ما امتد من البحرين، أو الموضع الذي يجتمع فيه موسى والخضر الذي كان في طلبه، جلس هو وفتاه على الصخرة التي كانت قريبة من عين الحياة.

ثم نام موسى عليه السلام، وتوضأ يوشع من العين، فوقعت قطرة من ماء العين على الحوت المملوح فحيي، فذهب في البحر، فتحير يوشع من هذا الأمر، فقام موسى عليه السلام من النوم، وتوجَّه إلى الطريق، وأسرع في السير وتبعه يوشع و﴿نَسِيَا حَوْتَهُمَا﴾ الذي جعل فقدانه أماراة وجدان المطلوب، أما موسى عليه السلام فنسى تذكر الحوت لصاحبه، وأما صاحبه فنسى الإخبار بأمر الحوت ﴿فَاتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ ومسلكاً.

القمي: فلما خرجا وبلغا ذلك المكان، وجدا رجلاً مُستلقياً على قفاه فلم يُعرِّفاه، فأخرج وصي موسى الحوت وغسله بالماء، ووضع على الصخرة ومضيا ونسيا الحوت، وكان ذلك الماء ماء الحيوان، فحيي الحوت ودخل في الماء، فمضى موسى ويوشع معه حتى عييا^٣.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: أَنَّهُ قال لبعض اليهود وقد سأله عن مسائل: «أما قولك أول عين نبعت على وجه الأرض، فإن اليهود يزعمون أَنها العين التي ببيت المقدس تحت الحجر وكذبوا، هي عين الحيوان التي انتهى موسى عليه السلام وفتاه إليها، فغسل فيها السمكة المألحة فحييت، وليس من ميت يُصِيبه ذلك الماء إلا حيي، وكان الخضر في مقدمة ذي القرنين يطلب عين الحياة فوجدها وشرب منها، ولم يجدها ذو القرنين»^٤.

وفي رواية: أن موسى ويوشع عليه السلام انطلقا بمشيان، فاتهما إلى شيخٍ مستلقٍ معه عصاه موضوعة إلى

٢. تفسير العياشي ٣: ١٠٣/٢٦٧٢، تفسير الصافي ٣: ٢٤٩.

٤. إكمال الدين: ٥/٢٩٨، تفسير الصافي ٣: ٢٥٠.

١. تفسير القمي ٢: ٣٧، تفسير الصافي ٣: ٢٤٨.

٣. تفسير القمي ٢: ٣٧، تفسير الصافي ٣: ٢٤٩.

جانبه عليه كساء، إذا قَتَعَ رأسه خرجت رِجلاه، وإذا غَطِيَ رِجله خرج رأسه، فقام موسى يصلي وقال ليوشع: احْفَظْهُ^١ علي، قال: فقطرت قطرة من السماء في المِكْتَل فاضطرب الحوت، ثم جعل يَيْب من المِكْتَل إلى البحر، وهو قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾^٢ ثم جاء طيرٌ فوق في ساحل البحر، ثم أدخل منقاره في البحر فقال: يا موسى، ما أخذت من ربك ما حمل [ظهر] ينقاري من جميع ماء البحر^٣.

وفي رواية عنهما عليهما السلام: «لما كان من أمر موسى عليه السلام ما كان، أعطي مِكْتَلًا فيه حوت مملح، وقيل له: هذا يدلك على صاحبك عند مجمع البحرين صخرة عندها عين^٤ لا يصيب منها شيء ميتًا إلا حيي، يقال لها عين الحياة، فانطلقا حتى بلغا الصخرة، فانطلق الفتى يغسل الحوت في العين، فاضطرب في يده فخدشه وتفلت منه ونسيه الفتى»^٥.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْعِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا [٦٢-٦٥]

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَاهُ﴾ يوشع: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ والحوت الذي أعدناه لأكلنا أول النهار، بالله ﴿لَقَدْ لَقِينَا﴾ وأصبنا ﴿مِنْ سَفَرِنَا هَذَا﴾ الذي نحن فيه ﴿نَصَبًا﴾ وتعباً شديداً وعياً كثيراً.

عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لم يجد موسى النَّصْبَ حتى جاوزا^٦ المكان الذي أمره به»^٧. وعن الصادق عليه السلام: «إنما أعيى حيث جاوزا^٨ الوقت»^٩.

فلما جاء يوشع بالسفرة تذكر قصة الحوت ﴿وَقَالَ﴾: يا موسى ﴿أَرَأَيْتَ﴾ وهل اطلعت على الأمر العجيب، فإنا ﴿إِذْ أَوَيْنَا﴾ ووصلنا ﴿إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ ونزلنا عندها ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ﴾ وتركْتُ

١. في تفسير العياشي: احفظ.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٦٧/١٠١، تفسير الصافي ٣: ٢٤٩.

٤. في تفسير العياشي: عين مجمع البحرين.

٦. في تفسير روح البيان: جاوز.

٨. في تفسير العياشي: جاوز.

٢. في تفسير العياشي: فوق على.

٥. تفسير العياشي ٣: ٢٦٦٥/٩٧، تفسير الصافي ٣: ٢٥٠.

٧. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٥.

٩. تفسير العياشي ٣: ٢٦٧/١٠١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٠.

﴿الْحَوْتَ﴾ على الصخرة، أو نسيث أن أذكر لك أمره وما شاهدت من العَجَبِ، وهو أنه حبي واضطرب ووقع في الماء.

قيل: إن علّة نسيانه - وإن كان أمره من شدّة غرابته ممّا لا يُنسى اعتياده مشاهدة أمثال ذلك من موسى ﷺ، فقلّ اهتمامه به، أو استغراقه في أنوار جمال الألوهية وانجذاب شراشره^١ إلى جناب قدس الربوبية^٢.

ثم لما كان نسيانه ذلك سبباً لتجاوز موسى ﷺ من ذلك المكان وارتفاعه في التعب، اعتدّر إليه بقوله: ﴿وَمَا أَنْسَانِيَهُ﴾ شيء، ﴿إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لك وأخبرك به ﴿وَاتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾ سبيلاً أو اتخذاً ﴿عَجَباً﴾.

قيل: إن وجه التعجّب حياته بعد الموت والتشويه، وانقلابه من المكنث، وإلقاء نفسه في البحر، وجعل الله تعالى الماء على الحوت كالطاق والسّرب^٣. وإنما نَسَب يُوْشع النسيان إلى الشيطان لكونه نقصاً أو لإظهار هُضم النفس.

وقيل: إن بعد إخبار يوشع بأمر الحوت ﴿قَالَ﴾ موسى: عجباً ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرت من أمر الحوت^٤ ﴿مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ ونطلب لكونه أمانة الفوز بالمقصود من لقاء الخضر ﴿فَارْتَدَّا﴾ ورجعا من مكانهما إلى مكان الصخرة ﴿عَلَى آثَارِهِمَا﴾ وطريقهما الذي جاء منه، وهما يقصّان ﴿قَصَصاً﴾ ويتفحصان تفحصاً عن أثرهما وطريقهما إلى المكان الذي نسيا فيه الحوت، فأتيا الصخرة ﴿فَوَجَدَا﴾ عندها ﴿عَبْدًا﴾ عظيم الشأن ﴿مِنْ عِبَادِنَا آتِينَ﴾ الوحي والنبوة اللتين تكونان ﴿رَحْمَةً﴾ وتفضلاً ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾.

وقيل: إن الصوفية قالوا: إن المراد من الرحمة طول العمر لا النبوة^٥. وقيل: إنه كان نبياً ولم يكن مرسلًا^٦ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ خاصاً بنا وهو علم الغيب.

أقول: ذهب الأكثرون إلى أنه الخضر، كما في الروايات السابقة؛ وإنما سمي خضراً لأنه لا يقف موقفاً إلا اخضر ذلك الموضع^٧.

عن الصادق ﷺ: «إِنَّ الْخَضِرَ كَانَ نَبِيًّا مَرْسَلًا، بعثه الله إلى قومه، فدعاهم إلى توحيده، والإقرار

١. الشراشر: النفس، والمحبة، وقيل: جميع الجسد، يقال: ألقي عليه شراشره، أي نفسه حرصاً ومحبة.

٢. تفسير البيضاوي ٢: ١٧، تفسير روح البيان ٥: ٢٦٦.

٣. تفسير الرازي ٢١: ١٤٧، والسّرب: الطريق. والسّرب: حفير تحت الأرض لا مثقل له، والقناة الجوفاء.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٧. ٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٧٠.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٨. ٧. تفسير الرازي ٢١: ١٤٩.

بأنبيائه ورسله وكتبه، وكانت آيته أنه كان لا يجلس على خشبة يابسة ولا أرض بيضاء إلا اهتزت خضراء، وإنما سمي الخضر لذلك، وكان اسمه بليابن ملكا بن عامر^١ بن أرفخشذ بن سام بن نوح^٢. وقال بعض العامة: إنه بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالح^٣ بن أرفخشذ بن سام بن نوح^٤. وروى أبو الليث عن النبي ﷺ «أنه كان ابن ملك من الملوك، فأراد أبوه أن يستخلفه من بعده، فلم يقبل وهرب منه، ولحق بجزائر البحر»^٥.

وقيل: إن أباه كان ملكاً، وأمه كانت بنت فارس، واسمها الها، وأنها ولدته في مغارة، وأنه ترك هنالك وشاء ثرضعه في كل يوم من غنم رجل من القرية، فأخذه الرجل فرباه، فلما شب طلب الملك أبوه كاتياً، فجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصحف التي نزلت على إبراهيم وشيث. فدخل الخضر فيمن قديم عليه من الكتاب، فلما استحسّن خطّه ومعرفته ونجابهته سأله عن جلية أمره، فعرف أنه ابنه، فضمه لنفسه وولاه أمر الناس. ثم فرّ الخضر من الملك وزهد في الدنيا، وسار إلى أن وجد عين ماء الحياة فشرب منها^٦.

وعن ابن عباس: أن الخضر بن آدم لصلبه، ونسب له في أجله حتى يكذب الدجال^٧. وعن ابن العساكر: أن آدم لما حضره الموت أوصى بنيه أن يكون جسد معهم في غار، فكان جسد في مغارة معهم، فلما بعث الله نوحاً ضمّ ذلك الجسد في السفينة بوصية آدم، فلما خرج منها قال لبنيه: إن آدم دعا بطول العمر لمن يدفنه من أولاده إلى يوم القيامة، فذهب أولاده إلى الغار ليدفنه، وكان فيهم الخضر، فكان هو الذي تولى دفن آدم، فأنجز الله ما وعده^٨. وقيل: إنه ابن خالة ذي القرنين، وكان في سفره معه، وشرب من ماء الحياة، فمد الله عمره^٩. وقيل: إنه كان من ذرية إسحاق^{١٠}.

وعن البغوي: أربعة من الأنبياء أحياء إلى يوم القيامة، اثنان في الأرض وهما الخضر وإلياس عليه السلام، وإثنان في السماء إدريس وعيسى عليه السلام^{١١}.

وقال بعض العامة: أن أبا عمر إمام الحديث في وقته روى أن رسول الله ﷺ حين غسل وكفن سمعوا قائلاً يقول: السلام عليكم يا أهل البيت، إن في الله خلفاً من كل هالك، وعوضاً من كل تالف، وعزاء من كل مصيبة، فعليكم بالصبر فأصبروا واحتسبوا. ثم دعا لهم، ولا يزون شخصه، فكانوا يزون

٢. علل الشرائع: ١/٥٩، تفسير الصافي: ٣: ٢٥١.

٤ و ٥. تفسير روح البيان: ٥: ٢٦٧.

٧ و ٨. تفسير روح البيان: ٥: ٢٦٨.

١. في علل الشرائع: باليا بن ملكا بن عابر.

٣. في تفسير روح البيان: شالح.

٦. تفسير روح البيان: ٥: ٢٦٧.

٩-١١. تفسير روح البيان: ٥: ٢٦٨.

أنه الخضر^١.

وعن كتاب (الهواتف) لبعض العامة: أن علي بن أبي طالب عليه السلام لقي الخضر وعلمه الدعاء، وذكر فيه ثواباً عظيماً، ومغفرة لمن قاله في أثر كل صلاة وهو: يا من لا يشغله سَمْعٌ عن سَمْعٍ، ويا من لا تغلظه المسائل، ويا من لا يتبرم من إلحاح المُلِحِّين، أذقني بَرْدَ عَفْوِكَ وَحَلَاوَةَ مَغْفِرَتِكَ^٢.
وروى بعض أكابر العامة أن الخضر يظهر مع أصحاب الكهف عند ظهور المهدي عليه السلام ويستشهد، ويكون من أفضل شهداء عسكر المهدي عليه السلام^٣.

وعن الصادق عليه السلام في الحديث السابق: «فرجع موسى عليه السلام فقَصَّ أثره حتى انتهى إليه وهو على حاله مستلقٍ، فقال له موسى عليه السلام عليك، [فقال: وعليك السلام] يا عالم بني إسرائيل. قال: ثم وثب فأخذ عصاه بيده» الخبر^٤.

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا [٦٦ - ٧٠]

«قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى شَرْطٍ، أَوْ بَانِيًا عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ» علماً يكون هو «رُشْدًا» لي في ديني، ودلالة لي إلى خيري، أو عَلَّمْتَ وأرشدت به «قَالَ» الخضر: يا موسى «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» لأنِّي وَكَلْتُ بِأَمْرٍ^٥ لا تُطِيقُهُ، وَوَكَلْتُ بِأَمْرٍ^٦ لا أُطِيقُهُ. كما عن الصادق عليه السلام^٧.
ثم بالغ في صرفه عن مصاحبته بإشيعاد الصبر على ما يرى بقوله: «وَكَيفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا» وَعِلْمًا، ولم يَقِفْ على حقيقته «قَالَ» موسى عليه السلام: «سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا» معك غير معترض عليك «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا» ولا أخالفك فيما تطلب مني.

عن الصادق عليه السلام «فَلَمَّا اسْتَشْنَى الْمَشِيئَةَ قَبْلَهُ»^٨.

وفي حديث عن أحدهما عليه السلام: «فَلَمَّا سَأَلَ الْعَالِمَ عِلْمَ الْعَالَمِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَسْتَطِيعُ صَحْبَتَهُ وَلَا

١ و ٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٦٨.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٦٧/١٠٢، تفسير الصافي ٣: ٢٥١.

٤ و ٥. في علل الشرائع: بعلم.

٦. تفسير العياشي ٣: ٢٦٦٥/٩٨، علل الشرائع: ١/٦٠، تفسير الصافي ٣: ٢٥٢.

٧ و ٨. علل الشرائع: ١/٦٠، تفسير الصافي ٣: ٢٥٢.

يحتمل علمه ولا يصبر معه، فعند ذلك قال: فكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً؟ فقال له موسى عليه السلام وهو خاضع يستلطفه^١ على نفسه كي يقبله: «سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا»^٢.

عن الصادق عليه السلام: «كان موسى عليه السلام أعلم من الخضر»^٣.

ثم «قَالَ» الخضر إيداناً للرضا بضجته: «فَإِنْ أَتَيْتَنِي وَصَحْبَتِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ حِكْمَةٍ شَيْءٍ» وفعل تشاهده من أفعالي وتذكيره في نفسك مني «حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ» وأبتدوك «مِنْهُ ذِكْرًا» وبياناً، فَإِنْ كَلَّمَا أَفْعَلَهُ له مصلحة تامة وغاية حميدة أطلعك عليها.

عن الرضا عليه السلام: «يقول: لا تسألني عن شيء أفعله ولا تذكرك علي حتى أخبرك بخبره، قال: نعم»^٤.

قيل: إِنْ موسى عليه السلام صرف يوشع إلى بني إسرائيل، وبقي هو مع الخضر^٥.

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتُهَا لِتُعْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُزْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا تُكْرَهُ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَتَخَدْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا [٧١-٧٧]

«فَانْطَلَقَا» وذهبا: قيل: وتبعهما يوشع^٦ «حَتَّى إِذَا رَكِبَا» البحر «فِي السَّفِينَةِ» روي أنهما مرا بالسفينة فاستحملا ملاحيتها، فعفروا الخضر، فحملوهما بغير أجره^٧. فبينما تسير السفينة قام الخضر و«خَرَقَهَا» وشقها لما بلغوا وسط البحر.

عن الرضا عليه السلام في حديث: «فمروا ثلاثهم حتى انتهوا إلى ساحل البحر، وقد شجنت سفينة وهي تريد أن تعبر: فقال أرباب السفينة: نحمل هؤلاء الثلاثة نغر فإنهم قوم صالحون فحملوهم، فلما

١. في تفسير العياشي: يستلطفه.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٦٧٠/١٠٠ عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٣: ٢٥٢.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٦٦٧/٩٨، تفسير الصافي ٣: ٢٥٢.

٤. تفسير القمي ٢: ٣٩، تفسير الصافي ٣: ٢٥٣. ٥. تفسير أبي السعود ٥: ٢٣٥، تفسير روح البيان ٥: ٢٧٧.

٦ و ٧. تفسير روح البيان ٥: ٢٧٧.

جَنَحَتِ السَّفِينَةُ فِي الْبَحْرِ قَامَ الْخِضْرُ إِلَى حَوَائِبِ السَّفِينَةِ فَكَسَرَهَا فَحَشَاها بِالْخِرْقِ^١ وَالطِّينِ، فغَضِبَ مُوسَى ﷺ غَضَبًا شَدِيدًا وَ﴿قَالَ﴾ لِلْخِضْرِ مَعْرَضًا عَلَيْهِ: ﴿أَخْرَجْتُهَا﴾ وَشَقَقْتُهَا ﴿لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا﴾^٢ مَعَ أَنَّهُمْ مُخِينُونَ بِنَا حَيْثُ حَمَلُونَا بِلاَ أَجْرَةٍ! بِاللَّهِ ﴿لَقَدْ جِئْتُ﴾ وَفَعَلْتُ ﴿شَيْئًا﴾ وَفِعْلًا ﴿إِمْرًا﴾ وَشَيْعًا، أَوْ عَظِيمًا، أَوْ عَجَبِيًّا.

القمي: هو المنكر، وكان موسى يُنكر الظلم فَأَعْظَمَ مَا رَأَى^٣ ﴿قَالَ﴾ الْخِضْرُ لِمُوسَى ﷺ إِنكَارًا عَلَيْهِ، أَوْ تَقْرِيرًا: ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾ لَكَ ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وَأَنْتَ وَعِدْتَنِي الصَّبْرَ، فَلَمْ خَالَفْتَ؟ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى مَعْتَذِرًا إِلَى الْخِضْرِ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ وَصَيْتَكَ بَتَرَكِ السُّؤَالَ مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ، وَلَا مُوَاخِذَةً عَلَى النَّاسِي ﴿وَلَا تُزِيقْنِي﴾ وَلَا تُعْتَنِنِي ﴿مِنْ أَمْرِي﴾ الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ مِنْ مُتَابَعَتِكَ ﴿عُسْرًا﴾ وَمُشَقَّةً، بَلْ يَسِّرْ مُتَابَعَتَكَ عَلَيَّ بِالْإِغْضَاءِ وَتَرَكِ الْمُنَاقَشَةَ، فَإِنِّي مُشَتَاتٌ إِلَى صَحْبَتِكَ، وَلَا يُمْكِنُنِي ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ تُرَفِّقَ بِي وَتَسَامِحْنِي فِيمَا يَصْدُرُ مِنِّي.

فَقَبِلَ الْخِضْرُ عُذْرَ مُوسَى، وَخَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ ﴿فَانْطَلَقَا﴾ وَذَهَبَا مَعًا ﴿حَتَّى إِذَا﴾ مَرَا بِبَقْرِيَّةٍ ﴿وَلَقِيَا﴾ فِي خَارِجِهَا - عَلَى مَا قِيلَ^٤ - ﴿غُلَامًا﴾ صَبِيحًا، فَأَخَذَهُ الْخِضْرُ وَذَهَبَ بِهِ خَلْفَ الْجِدَارِ ﴿فَقَتَلَهُ﴾.

وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّهُمَا خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الْخِضْرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، فَأَخَذَ الْخِضْرُ بِرَأْسِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ»^٥.

وَعَنْ الرُّضَا ﷺ فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ: «فَخَرَجُوا مِنَ السَّفِينَةِ، فَظَنَرَ الْخِضْرُ إِلَى غُلَامٍ يَلْعَبُ بَيْنَ الصَّبْيَانِ حَسَنَ الْوَجْهِ، كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَفِي أُذُنَيْهِ دُرَّتَانِ، فَتَأَمَّلَهُ الْخِضْرُ ثُمَّ أَخَذَهُ وَقَتَلَهُ، فَوُثِبَ مُوسَى ﷺ عَلَى الْخِضْرِ وَجَلَدَ بِهِ الْأَرْضَ»^٦. ﴿قَالَ﴾ انْكَارًا لِفِعْلِهِ ﴿أَقْتُلْتُ﴾ يَا خِضْرُ ﴿نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ طَاهِرَةً مِنَ الذُّنُوبِ ﴿بَغِيرٍ﴾ قَتَلَ ﴿نَفْسٍ﴾ مُحْتَرَمَةً يُوجِبُ الْقِصَاصُ!^٧

قِيلَ: إِنَّ الْغُلَامَ كَانَ بِالْغَا، لِأَنَّ الصَّغِيرَ لَوْ قُتِلَ أَحَدًا لَا يُقْتَصُّ مِنْهُ^٧. وَفِيهِ: لَعَلَّ الْمُرَادَ بَيَانُ إِنْحِصَارِ مَجُوزِ الْقَتْلِ فِي الْحُدُودِ وَالْقِصَاصِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الصَّغِيرِ أَحَدٌ مِنْ مَوْجِبَاتِهِ.

وَقِيلَ: لَعَلَّ الصَّغِيرَ كَانَ يُقَادُّ فِي شَرْعِ مُوسَى، كَمَا أَنَّ الصَّغَارَ كَانُوا مَكْلُفِينَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ، وَفِي عَامِ

١. فِي النُّسخَةِ: بِالْخِرْقِ.

٢. تَفْسِيرُ الْقَمِيِّ ٢: ٣٩، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ٣: ٢٥٤.

٣. تَفْسِيرُ الْقَمِيِّ ٢: ٤٠، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ٣: ٢٥٣.

٤. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٥: ٢٧٩.

٥. تَفْسِيرُ الْقَمِيِّ ٢: ٣٩، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ٣: ٢٥٤، وَجَلَدَ بِهِ الْأَرْضَ: صَرَعَهُ.

٦. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٥: ٢٧٩.

خبير رُفِعَ القلم عنهم^١.

وروت العامة أن علياً عليه السلام وهو ابن ثمانين سنين، وقد أجمعوا على صحّة إسلامه^٢.

ثم بالغ موسى عليه السلام في توبيخ الخضر بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ وفعلت يا خضر ﴿شَيْئاً﴾ وفعلاً ﴿تُكْرَأُ﴾ وقيحاً غايته، ومنكر أنكر من الفعل الأول، لأن خرق السفينة وإن كان تغريضاً للتلف إلا أنه قابل للتدارك، بخلاف قتل الغلام فإنه إتلاف غير قابل للتدارك. ﴿قَالَ﴾ الخضر توبيخاً لموسى على عدم وفائه بالعهد وتركه العمل بالوصية: يا موسى ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾ مراراً ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

عن الصادق عليه السلام: «قال الخضر: إن العقول لا تحكم على أمر الله، بل أمر الله يحكم عليها، فسلم لما ترى مني وأصبر عليه، فقد كنت علمت أنك لن تستطيع معي صبراً»^٣ ﴿قَالَ﴾ موسى: أعف يا خضر عن خطي في هذه المرة ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ وخالفك مرة ثالثة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ وإن سألت صحبتك، وأبعدني وإن التمسك قربك ﴿قَدْ بَلَغْتَ﴾ ووجدت في تبعدي وعدم قبول التماسي ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ ومن قبلي ﴿عَذْرًا﴾ مقبولاً لا أقدر [على] رده. وفي الحديث: «رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك، ولو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب»^٤.

﴿فَانْطَلَقَا﴾ وذهبا معاً بعد ما شرطاً ذلك ﴿حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ يقال لها أنطاكية، وكانت ذات أعين وشور عظيم من صخر داخله خمسة أجبل، ودورها اثنا عشر ميلاً كذا قيل^٥. وقيل: إنها أيلة^٦. وقيل: البصرة^٧. وقيل: جردان من أرمينية^٨. وقيل: بركة من الروم^٩. وعن الصادق والرضا عليه السلام: «هي الناصرة، وإليها تنسب النصارى»^{١٠}.

قيل: كانت عادة أهل البلد أنهم يشدون أبوابها في أول الليل ولا يفتحونها لأحد، فجاء موسى والخضر حتى وصلا إلى القرية عند العشاء، فوجدا أبوابها مسدودة، فسألوا أهلها أن يفتحوا لهما الباب فأبوا ذلك^{١١}، ولما كانا جانعين ﴿اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا﴾ وطلبنا منهم الضيافة ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا هَمَّا﴾

٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٠.

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٧٩ - ٢٨٠.

٤. تفسير الصافي ٣: ٢٥٤، تفسير روح البيان ٥: ٢٨٠.

٣. علل الشرائع: ١/٦١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٣.

٦. تفسير الرازي ٢١: ١٥٦، تفسير أبي السعود ٥: ٢٣٧.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٨١.

٧. تفسير البيضاوي ٢: ١٩.

٨. تفسير البيضاوي ٢: ١٩، وفيه: باجروان، وفي مراصد الاطلاع ١: ٦٠، وفي معجم البلدان ١: ١٩٢: جُردان.

٩. تفسير أبي السعود ٥: ٢٣٧.

١٠. تفسير العياشي ٣: ٢٦٧١/١٠٢، علل الشرائع: ١/٦١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٤.

١١. تفسير روح البيان ٥: ٢٨١.

وَيُطْعِمُوهُمَا.

قيل: ذكر أهلها في موضع ضمير الجمع، للدلالة على التأكيد وزيادة التشنيع على سوء صيغهم، فإن الإباء عن الإطعام والضيافة مع كونهم أهل القرية وقادرين عليها أفتح وأشنع.^١

وقيل: إنهما لم يسألا، وإنما كان نزولهما عليهم بمنزلة السؤال.^٢

ثم قيل: إنهم بأثو خارج القرية إلى الصباح، فلما فتحوا في النهار أبوابها، دخلوها وساروا في سبككها^٣ ﴿فَوَجَدَا﴾ فيها ﴿جِدَاراً يُرِيدُ﴾ ويُسرف ﴿أَنْ يَنْقُضَ﴾ ويسقط لزيادة ميله ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الخضر وسواه بالاشارة بيده، كما عن النبي ﷺ^٤. أو يوضع يده عليه، كما عنه ﷺ أيضاً. وعن الصادق عليه السلام في (العلل)^٥.

قيل: كان طول الجدار في السماء مائة ذراع^٦، فلما رأى موسى عليه السلام هذا الإحسان من الخضر إلى أهل القرية مع غاية لآمتهم وشدة ضرورتهما إلى الطعام، اعترض على الخضر و﴿قَالَ﴾ له: لِمَ عَمِلْتَ هذا العمل مجاناً؟ إِنَّكَ ﴿لَوْ شِئْتَ﴾ والله ﴿لَتَّخَذْتَ﴾ من أهل القرية ﴿عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ حتى نشترى به طعاماً نسدُّ به الرمق.

عن الرضا عليه السلام في الحديث السابق: «حتى إذا أتيا بالعشي قرية تُسمى الناصرة، ولم يضيفوا أحداً قط، ولم يُطعموا غريباً، فاستطعموهم فلم يُطعموهم ولم يضيفوهم»^٧.

وفي رواية: «ولم يضيفوا أحداً بعدهما حتى تقوم الساعة»^٨.

فنظر الخضر إلى حائط قد مال^٩ لينهدم، فوضع يده عليه وقال: فَمَ يَأْذِنُ الله فقام، فقال موسى عليه السلام: لم يَنْبَغِ أَنْ تُقِيمَ الْجِدَارَ حَتَّى يُطْعَمُونَا وَيَأْوِنَا، وهو قوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾^{١٠}.

قيل: لما قال موسى عليه السلام ﴿أَخَرَفْتُهَا لِتَغْرِقَ أَهْلَهَا﴾^{١١} قال: أليس كُنْتَ في البحر ولم تغرق من غير سفينة؟ ولما قال: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾^{١٢} قال الخضر: أليس قَتَلْتَ الْقِنَظِي بِغَيْرِ ذَنْبٍ؟ ولما قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قال: أُنْسِيَتْ شَقِيكَ لِبَنَاتِ شُعَيْبٍ مِنْ غَيْرِ أَجْرَةٍ؟^{١٣}

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا

١. تفسير أبي السعود ٥: ٢٣٧، تفسير روح البيان ٥: ٢٨٢.

٢ و ٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٨١.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٢.

٥. علل الشرائع: ١/٦١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٤.

٦. تفسير القمي ٢: ٣٩، تفسير الصافي ٣: ٢٥٥.

٧. تفسير القمي: زال.

٨. تفسير القمي ٢: ٣٩، تفسير الصافي ٣: ٢٥٥.

٩. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٢.

١٠. الكهف: ٧١/١٨.

١١. الكهف: ٧٤/١٨.

السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ رِزْقُهُمْ
مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا [٧٨ و ٧٩]

ثم لما خالف موسى ﷺ العهد مرة ثالثة ﴿قَالَ﴾ الخضر: ﴿هَذَا﴾ الفراق ﴿فِرَاقٌ﴾ أو هذا السؤال موجب للفراق ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ وَسَبَبَ انقطاع وَضَلِي وَوَضَلْتُ ﴿سَأَلْتُكَ﴾ وأخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ وحكمة الأمور المسؤول عنها.

عن النبي ﷺ: «[وَرَدَدْنَا] أَنْ موسى كان صَبَرَ حَتَّى يَقْصُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا»^١.
ثم شرع الخضر في بيان الحكم بقوله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقها ﴿فَكَانَتْ﴾ ملكاً ﴿لِمَسَاكِينَ﴾
وعدة ضعفاء عَجَزَة عن دفع الظلم عن أنفسهم.

قيل: كانوا عشرة إخوة، خمسة منهم رَمَى^٢، وخمسة منهم ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بها ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ مزاجرة،
للكسب^٣ والمعيشة ﴿فَأَرْدَتْ﴾ بأمر الله ﴿أَنْ أَعْيِبَهَا﴾ وأنقصها بالكسر ﴿وَكَانَ رِزْقُهُمْ﴾ وخلفهم،
أو أمامهم ﴿مَلِكٌ﴾ كافر يقال له جلندي: بجزيرة الأندلس ببلدة قرطبة على ما قيل^٤. وهو ﴿يَأْخُذُ كُلَّ
سَفِينَةٍ﴾ صحيحة جيدة وَجَدَ ﴿غَصْبًا﴾ وظلماً، من أربابها. فكان الخرق بقصد التعيب لتسلم
السفينة من الغصب لا بقصد الإغراق.

قيل: إِنَّ الْمَلِكَ كان من وراء الموضع الذي رَكِبُوا فِي السفينة^٥. ورؤي أَنَّ الخضر اعتذر إلى القوم،
وذكر لهم شأن الملك، ولم يكونوا يعلمون بخبره^٦.

قيل: فبينما هم كذلك استقبلتهم سفينة فيها جنود الملك، وقالوا: إِنَّ الْمَلِكَ يريد أَنْ يَأْخُذَ سفيتكم
إِنْ لَمْ يَكُنْ بِهَا عَيْبٌ، ثُمَّ صَعِدُوا إِلَيْهَا وَكَشَفُوهَا، فوجدوا مَوْضِعَ اللُّوحِ مفتوحاً فَأَنْصَرَفُوا، فلَمَّا بَعُدُوا
عنهم أَخَذَ الخضر ذلك اللوح وردّه إلى مكانه^٧.

أقول: كُلَّ ذَلِكَ منافٍ لِمَا ذكره الله من إطلاع موسى ﷺ على الحكمة حين إرادة الخضر مفارقتها.

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا
أَنْ يُبَدِّلَهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ

١. تفسير الصافي ٣: ٢٥٥، تفسير روح البيان ٥: ٢٨٣. ٢. أي مرضى.

٣. تفسير أبي السعود ٥: ٢٣٧، تفسير روح البيان ٥: ٢٨٣.

٤. نقض الشيء: أفسده بعد إحكامه. ٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٤.

٦. تفسير الرازي ٢١: ١٦٠. ٧. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٤.

٨. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٤.

يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ
يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ
تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا [٨٠-٨٢]

ثم قال: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتله ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ موحدين ﴿فَخَشِينَا﴾ وخفنا من ﴿أَنْ يُزْهِقَهُمَا﴾ ويغشيهما أو يكلفهما ﴿طُغْيَانًا﴾ على الله ﴿وَكُفْرًا﴾ بؤخانيته فيتبعانه فيكفران ويطغيان لشدة حبهما إياه ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ الله ويعوضهما عنه ولداً ﴿خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءٌ﴾ وطهارة من الذنوب، وديناً وصلاًحاً - وإنما قال ذلك في مقابل قول موسى ﷺ، قتل نفساً زكية - ﴿وَأَقْرَبَ﴾ منه ﴿رُحْمًا﴾ وأكثر عطفاً وأوصل بولديه وأبويهما.

عن ابن عباس: أبدلهما [الله] جارية، تزوجها نبي من الأنبياء، فولدت سبعين نبياً^١.

وعن الصادق ﷺ: «أنهما أبدلا بالغلام المقتول ابنة، فولد منها سبعون نبياً»^٢.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ المائل الذي أقمته ﴿فَكَانَ لِفُلَانَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ اسمها أصرم وصريم على ما قيل^٣. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ من الذهب والفضة على قول، وقيل: كان لوحاً من ذهب أو من زخام مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عَجِبْتُ لِمَنْ يُؤْمِنُ بالقدر كيف يحزن، وعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤْمِنُ بالرزق كيف ينصب، وعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤْمِنُ بالموت كيف يفرح، وعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤْمِنُ بالحساب كيف يغفل، وعَجِبْتُ لِمَنْ يَعْرِفُ الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها. لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤْمِنُ بالنار كيف يضحك. وفي الجانب الآخر مكتوب: أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، وحدي لا شريك لي، خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير وأجرته على يدي، والويل لمن خلقته للشر وأجرته على يدي^٤.

وعن أمير المؤمنين والصادق ﷺ: «كان ذلك الكنز لوحاً من ذهب فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله محمد رسول الله، عَجِبْتُ لِمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الموت حق كيف يفرح، عَجِبْتُ لِمَنْ يَقِرُّ بالقدر كيف يحزن، عَجِبْتُ لِمَنْ يَذْكُرُ النار كيف يضحك، عَجِبْتُ لِمَنْ يَرَى الدنيا وتصرف أهلها حالاً بعد حال كيف يطمئن إليها»^٥.

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٥.

٢. الكافي ٦: ١١/٧، من لا يحضره الفقيه ٣: ١٥٤٢/٣١٧، تفسير الصافي ٣: ٢٥٦.

٣. تفسير أبي السعود ٥: ٢٣٨، تفسير روح البيان ٥: ٢٨٦.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٦.

٥. معاني الأخبار: ١/٢٠٠، تفسير القمي ٢: ٤٠، تفسير الصافي ٣: ٢٥٧.

وعن الصادق عليه السلام أنه سُئل عن هذا الكنز فقال: «أما إنّه ما كان ذهباً ولا فضّة، وإنّما كان أربع كلمات: لا إله إلا أنا، من أيقن بالموت لم يضحك سيّئه، ومن أيقن بالحساب لم يفرح قلبه، ومن أيقن بالقدر لم يخش إلا الله»^١.

وعن الرضا عليه السلام: «كان [في الكنز الذي قال الله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ لوح من ذهب] فيه: بسم الله الرحمن الرحيم [محمد رسول الله]، عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بالموت كيف يفرح قلبه، وعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بالقدر كيف يحزن، وعَجِبْتُ لِمَنْ رَأَى الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يَرْكَنُ إليها. وينبغي لمن عَقَلَ عن الله [أن] لا يَتَّهِمُ الله في قَضَائِهِ ولا يَسْتَبْطِنُهُ في رِزْقِهِ»^٢.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾ المسمّى بكاشح - على ما قيل^٣ - «صَالِحاً» تَقِيّاً أميناً، يضع الناس ودائعهم عنده فيؤدّها إليهم سالمة - كما قيل^٤ - فحَفِظَ بِصَلاحِ أبيهما في أنفُسِهِما ومالِهِما. عن ابن عباس قال: حَفِظَ بِصَلاحِ أبيهما^٥ وما ذُكِرَ منهما صلاح. روت العامة عن الصادق عليه السلام: «كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء»^٦.

والعياشي عنه عليه السلام: «إن الله لِيَحْفَظَ ولد المؤمن [لأبيه] إلى ألف سنة، وإنّ الغلامين كان بينهما وبين أبيهما سبعمائة سنة»^٧.

وعنه عليه السلام: «إن الله لِيَصْلِحَ بِصَلاحِ الرّجل المؤمن ولده وولد ولده، ويَحْفَظُهُ في دُورَتِهِ ودُورَاتِ حَوْلِهِ، فلا يَزَالُونَ في حِفْظِ الله؛ لِكِرَامَتِهِ على الله» ثم ذكر الغلامين وقال: «ألم تَرَ أن الله شَكَرَ صَلاحَ أبويهما لهما»^٨.

قال بعض العامة: فما بالكَ بسيد الأنبياء بالنسبة إلى قرابته الطاهرة الطيبة المطهرة؟^٩ أقول: ويلّ لم غصب فِدك، الذي كان كنزاً لهم، ولم يَرَعْ رسول الله ﷺ فيهم. نقل بعضهم: أن هارون هم يقتل بعض العلوية، فلما دخل عليه العلوي أكرمه وخلّى سبيله، فقبل له بماذا دعوت حتى أنجاك الله منه؟ قال: قلت: يا من حَفِظَ الكنزَ على الصبيّين بِصَلاحِ أبيهما، احْفَظْني لِصَلاحِ آبائي^{١٠}.

١. تفسير العياشي ١٠٨/٢٦٩٠، الكافي ٢: ٦/٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٥٦.

٢. تفسير العياشي ١٠٨/٢٦٩١، الكافي ٢: ٩/٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٥٧.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٦.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٧.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٨.

٦. تفسير الرازي ٢١: ١٦٢، تفسير روح البيان ٥: ٢٨٧.

٧. تفسير العياشي ١٠٩/٢٦٩٤، تفسير الصافي ٣: ٢٥٧.

٨. تفسير العياشي ٣: ١٠٦/٢٦٨٧، تفسير الصافي ٣: ٢٥٧.

٩. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٨.

١٠. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٩.

﴿فَارَادَ رَبُّكَ﴾ بأمره بتسوية جدار الغلامين ﴿أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ وَيَصِلَا إِلَى حَدِّ كَمَالِهِمَا مِنَ البلوغ وكمال العقل وحسن التدبير في المال ﴿وَيَسْتَخْرِجَا﴾ مِنْ تَحْتِ الْجِدَارِ ﴿كَنْزُهُمَا﴾ بسهولة، وَلَوْلَا إِقَامَتُهُ لَخَرِبَ وَخَرَجَ الْكَنْزُ وَظَهَرَ قَبْلَ اقْتِدَارِهِمَا عَلَيْهِ وَضَاعَ بِالْكَلِيَّةِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تِلْكَ الْإِرَادَةُ مِنْهُ تَعَالَى ﴿رَحْمَةً﴾ عَظِيمَةً لِهَاجِئِهِمَا ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ وَلِذَا فَعَلْتَ مَا رَأَيْتَ ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ أَوْ مَا فَعَلْتُ جَمِيعَ مَا رَأَيْتَ مِنْ خَزَنِ السَّفِينَةِ وَغَيْرِهِ ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ وَرَأَيْتِي، بَلْ فَعَلْتُهُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَحْيِهِ ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

قيل: إِنَّ الْخَضِرَ فِي تَأْوِيلِ خَرَقِ السَّفِينَةِ نَسَبَ إِرَادَةَ التَّعْيِيبِ إِلَى نَفْسِهِ، لِكُنُونِ التَّعْيِيبِ ظَاهِرَ الْقُبْحِ، وَفِي تَأْوِيلِ الْقَتْلِ إِلَى ضَمِيرِ «نَا» لِكُنُونِ الْكُفْرِ مِمَّا يَجِبُ أَنْ يَخْشَاهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَفِي تَأْوِيلِ إِقَامَةِ الْجِدَارِ إِلَى الرَّبِّ لِكُنُونِ بُلُوغِ الْأَشَدِّ لَيْسَ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ تَعَالَى وَخَدِّهِ^١.

قيل: لَمَّا أَسْنَدَ الْخَضِرُ الْإِرَادَةَ إِلَى نَفْسِهِ أَوَّلًا، أَلْهَمَ بِأَنَّهُ مَنْ أَنْتَ حَتَّى تَكُونَ لَكَ الْإِرَادَةُ؟ ثُمَّ جَمَعَ فِي الثَّانِيَةِ حَيْثُ قَالَ: فَارَدْنَا، فَالْهَمَ بِأَنَّهُ مَنْ أَنْتَ وَمُوسَى حَتَّى تَكُونَ لَكُمَا الْإِرَادَةُ؟ فَخَصَّ فِي الثَّالِثَةِ الْإِرَادَةَ بِاللَّهِ^٢.

وقيل: إِنَّهُ فِي خَرَقِ السَّفِينَةِ ذَكَرَ الْعَيْبَ فَأَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَفِي قَتْلِ الْغَلَامِ عَبَّرَ عَنْ نَفْسِهِ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ تَنْبِيهًا عَلَى عَظَمَتِهِ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَلِذَا لَمْ يَقْدَمْ عَلَى الْقَتْلِ إِلَّا لِحِكْمَةٍ بِالْغَةِ، وَلَمَّا ذَكَرَ فِي الْغَلَامَيْنِ رِعَايَةَ صَلَاحِهِمَا أَضَافَ الْإِرَادَةَ إِلَى اللَّهِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الشَّرَاعِي لِصَلَاحِ الْخَلْقِ هُوَ اللَّهُ^٣.

وعن الصادق عليه السلام في قوله: ﴿فَارَدْتُ أَنْ أُعَيِّبَهَا﴾^٤: «نَسَبَ الْإِرَادَةَ إِلَى نَفْسِهِ لَعَلَّهُ ذَكَرَ الْعَيْبَ»^٥ إِلَى أَنْ قَالَ: «وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَخَشِينَا﴾ إِنَّمَا اشْتَرَكِ فِي الْأَنَانِيَّةِ، لِأَنَّهُ خَشِيَ اللَّهَ لَا يَخْشَى؛ لِأَنَّهُ لَا يَقُوتُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَمْرٌ أَرَادَهُ. وَإِنَّمَا خَشِيَ الْخَضِرَ مِنْ أَنْ يُحَالِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا أَمْرُ بِهِ، فَلَا يُدْرِكُ ثَوَابَ الْإِمْضَاءِ فِيهِ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ سَبَبًا لِرَحْمَةِ أَبِي الْغَلَامِ، فَعَمِلَ فِيهِ وَسْطَ الْأَمْرَيْنِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ مِثْلَ مَا كَانَ عَمَلُ فِي مُوسَى عليه السلام لِأَنَّهُ صَارَ فِي الْوَقْتِ مُخْبِرًا، وَكَلِمَةُ اللَّهِ مُخْبِرًا»^٦.

أقول: لَمَّا كَانَ فَهْمُ الرِّوَايَةِ فِي غَايَةِ الْإِشْكَالِ تَرَكْتُ نَقْلَ بَقِيَّتِهَا.

روي أَنَّ مُوسَى عليه السلام لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُعَارِقَ الْخَضِرَ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: لَوْ صَبَرْتَ لَأَتَيْتُ أَلْفَ عَجَبِيَّةٍ، كُلُّ عَجَبِيَّةٍ أَعْجَبُ مِمَّا رَأَيْتَ. فَبَكَى مُوسَى عليه السلام عَلَى فِرَاقِهِ وَقَالَ لَهُ: أَوْصِنِي يَا نَبِيَّ اللَّهِ. قَالَ: لَا تَطْلُبْ

٣. تفسير الرازي ٢١: ١٦٢.

١ و ٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٧.

٤. الكهف: ٧٩/١٨. ٥. في علل الشرائع: التعييب.

٦. علل الشرائع: ١١/٦١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٧.

العلم لتحَدَّث به الناس واطْلُبْهُ لَتَعْمَلَ بِهِ، وَكَنْ نَفَاعاً وَلَا تَكُنْ ضَرَاراً، وَكَنْ بَشَاشاً وَلَا تَكُنْ عَبُوساً غِضَاباً، وَإِيَّاكَ وَاللَّجَاجَةَ، وَلَا تَمْشِ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، وَلَا تَضَحَكْ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ، وَلَا تَعَيِّرِ الْمُذْنِبِينَ لَعَلَّ اللَّهَ يَغْفِرَ خَطَايَاهُمْ بَعْدَ النَّدَمِ، وَإِيَّاكَ عَلَى خَطِيئَتِكَ مَا دُمْتَ حَيًّا، وَلَا تَوَخَّرْ عَمَلُ الْيَوْمِ إِلَى الْغَدِ، وَاجْعَلْ هَمَكَ فِي مَعَادِكَ، وَلَا تَخْضُ فِي مَا لَا يَغْنِيكَ، وَتَدَبَّرِ الْأُمُورَ فِي عِلَاقَتِكَ، وَلَا تَذَرِ الْإِحْسَانَ فِي قُدْرَتِكَ. فَقَالَ لَهُ مُوسَى عليه السلام: قَدْ أَبْلَغْتَ فِي الْوَصِيَّةِ.

إِلَى أَنْ قَالَ: فَقَالَ لَهُ الْخِضْرُ: أَوْصِنِي أَنْتَ يَا مُوسَى. فَقَالَ مُوسَى عليه السلام لَهُ: إِيَّاكَ وَالْعَصَبَ إِلَّا فِي اللَّهِ، وَلَا تُحِبِّ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا تُخْرِجُكَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ. فَقَالَ الْخِضْرُ: قَدْ أَبْلَغْتَ فِي الْوَصِيَّةِ، الْخَبْرُ^١.
أَقُولُ: فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ فَوَائِدٌ مِنْ شَرَفِ الْعِلْمِ وَحَسَنِ طَلْبِهِ، وَتَبَعِيَّةِ الْعَالَمِ وَالتَّذَكُّلِ لَهُ وَعَدَمِ الْمِبَادَرَةِ فِي الْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهِ، وَمَعْرِفَةِ لُطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وَرِعَايَتِهِ تَعَالَى حَقُوقَهُمْ فِي ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَحُسْنِ الْإِعْتِدَارِ مِنَ الْمَقْصَرِّ وَقَبُولِ عُذْرِهِ، وَمُدَارَاةِ الْمَعْلَمِ مَعَ الْمُتَعَلِّمِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَغْرِهُ الْمَتَأَمِّلُ فِيهَا.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا [٨٣]

ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ الْقِصَّةَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي سَأَلَ الْيَهُودُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهَا امْتِحَانًا لِنُبُوَّتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ الْأَكْبَرُ الَّذِي مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَسْرَاهَا. وَاسْمُهُ إِسْكَندَرُ بْنُ فِيلِقُوسَ الْيُونَانِيِّ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿سَأَتْلُوا﴾ وَأَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ وَخَبِيرًا، أَوِ الْمَعْنَى سَأَتْلُوا مَا فِي شَأْنِهِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ قَرَأْنَا عَلَيْكُمْ. قِيلَ: كَانَ بَعْدَ نَمْرُودٍ فِي عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ، وَعَاشَ أَلْفًا وَسِتِّمِائَةَ سَنَةً^٢.

وَعَنِ الْعِيَّاشِيِّ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «أَنَّ اسْمَهُ عِيَّاشٌ، اخْتَارَهُ اللَّهُ وَبَعَثَهُ إِلَى قَرْنٍ مِنْ قُرُونِ الْأُولَى فِي نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ، وَذَلِكَ بَعْدَ طُوفَانِ نُوحٍ»^٣.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ فِي زَمَانِ إِبْرَاهِيمَ^٤.

وَعَنْهُ: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ بِمَكَّةَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهَا ذُو الْقُرْنَيْنِ، فَلَمَّا كَانَ بِالْأَبْطَحِ قِيلَ لَهُ: فِي هَذَا الْبَلَدِ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ ذُو الْقُرْنَيْنِ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَرْكَبَ فِي بَلَدَةٍ فِيهَا إِبْرَاهِيمُ. فَزَلَّ وَمَشَى إِلَيْهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ وَاعْتَنَقَهُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَاتَّقَ بَعْدَ السَّلَامِ^٥.

وَقِيلَ: إِنَّهُ إِسْكَندَرُ الرُّومِيُّ، وَكَانَ وَزِيرُهُ وَأُسْتَاذُهُ أَرَسْطَاطَالِيْسُ، وَكَانَ بَعْدَ إِسْكَندَرَ إِبْرَاهِيمَ بِأَكْثَرٍ مِنْ

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٧.

٣. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠/١١٢، تفسير الصافي ٣: ٢٦٠.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٩١، وفيه: عند السلام.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٠.

ألفي سنة، وقبل المسيح بما يقرب من ثلاثمائة سنة^١.

عن الكاظم عليه السلام: «أَنْ نَفْرَأَ مِنَ الْيَهُودِ أَتَوَا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا أَلَيْبَى الْحَسَنِ جَدِّي: إِسْتَاذُنْ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ نَسْأَلُهُ، إِلَى أَنْ قَالَ: فَدَخَلُوا، فَقَالَ ﷺ: أَسْأَلُونِي عَمَّا جِئْتُمْ لَهُ، أَمْ أُبَيِّنُكُمْ؟ قَالُوا: أُنَبِّئْنَا، قَالَ: قَدْ جِئْتُمْ تَسْأَلُونِي عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ. قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: كَانَ غُلَامًا مِنْ أَهْلِ الرُّومِ، ثُمَّ مَلَكَ وَأَتَى مَطْلَعُ الشَّمْسِ وَمَغْرِبُهَا» الخبر^٢.

قيل: كان بعد نَمُود، وكان الخضر على مُقَدِّمة جيشه ووزيره^٣.

في نكتة تسمية إسكندر بذي القرنين: وَأَمَّا لُقِّبَ بِذِي الْقَرْنَيْنِ؛ لِأَنَّهُ بَلَغَ قَرْنِي الشَّمْسِ وَجَانِبَيْهَا: مَشْرِقَهَا وَمَغْرِبَهَا. وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ النَّبِيِّ^٤.
القرنين

أو لِأَنَّهُ رَأَى فِي الْمَنَامِ كَأَنَّهُ دَنَا مِنَ الشَّمْسِ حَتَّى أَخَذَ بَقَرْنَيْهَا فِي شَرْقِهَا وَغَرْبِهَا، فَقَصَّ رُؤْيَاهُ عَلَى قَوْمِهِ فَلَقَّبُوهُ بِهِ. وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام^٥.

أو لِأَنَّهُ كَانَ فِي رَأْسِهِ قَرْنَانِ كَالظَّلْفَيْنِ يَتَحَرَّكَانِ، فَلَبِسَ الْعِمَامَةَ لِذَلِكَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ لَبَسَهَا^٦. أو لِأَنَّهُ انْقَرَضَ فِي زَمَانَةِ قَرْنَانِ^٧. أو لِأَنَّهُ كَانَ لِنَاجِيَةِ قَرْنَانِ^٨. أو لِأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَهُ النُّورَ وَالظُّلْمَةَ، فَكَانَ إِذَا سَرَى يَهْدِيهِ النُّورُ مِنْ أَمَامِهِ، وَتَمُدَّهُ الظُّلْمَةُ مِنْ وَرَائِهِ^٩. أو لِأَنَّهُ دَخَلَ فِي النُّورِ وَالظُّلْمَةِ^{١٠}. أو لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ عِلْمِ الظَّاهِرِ وَعِلْمِ الْبَاطِنِ^{١١}. أو كَانَ لَهُ ذَوَاتَانِ^{١٢} مِنْ يَمِينِ رَأْسِهِ وَيسارِهِ. أو لِأَنَّهُ كَانَ كَرِيمِ الطَّرْفَيْنِ^{١٣}. أو كَانَ يِقَاتِلُ بِيَدِهِ وَرِكَابِهِ^{١٤}. أو لِأَنَّهُ ضُرِبَ عَلَى قَرْنِهِ الْأَيْمَنِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ فَمَاتَ، ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ بَعْدَ مِائَةِ عَامٍ. ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى قَرْنٍ مِنَ الْقُرُونِ الْأُولَى فِي نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ، فَضَرَبُوهُ ضَرْبَةً عَلَى قَرْنِهِ الْأَيْسَرِ فَمَاتَ، ثُمَّ أَحْيَاهُ اللَّهُ بَعْدَ مِائَةِ عَامٍ. كَمَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ^{١٥}.

وفي رواية عنه عليه السلام: «أَنْ قَوْمَهُ ضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ الْأَيْمَنِ فَغَابَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَغِيبَ، ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ الثَّانِيَةَ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ الْأَيْسَرِ، فَغَابَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَغِيبَ، ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ الثَّالِثَةَ» إِلَى أَنْ قَالَ:

٢. قرب الاسناد: ١٢٢٨/٣٢١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٨.

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٠.

٤. تفسير الرازي ٢١: ١٦٤.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٠.

٥. الخرائج والجرائح ٣: ٦٨/١١٧٥، وتفسير الصافي ٣: ٣٦١، عن أمير المؤمنين عليه السلام.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٠.

٧. تفسير أبي السعود ٥: ٢٤١.

٨. تفسير أبي السعود ٥: ٢٤٠.

٩. تفسير الرازي ٢١: ١٦٤، تفسير أبي السعود ٥: ٢٤١.

١٠. تفسير الرازي ٢١: ١٦٥.

١١. جامع الاحكام ١١: ٤٨.

١٢. تفسير أبي السعود ٥: ٢٤٠.

١٣. مجمع البيان ٦: ٧٥٦، جامع الاحكام ١١: ٤٨.

١٤. جامع الاحكام ١١: ٤٨.

١٥. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٢، تفسير الرازي ٢١: ١٦٤، تفسير الصافي ٣: ٢٦٠.

«وفيكُم مثله» أو قال: «لو فيكم مثله» وأراد نفسه^١.

وقالت العامة: إِنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لَقَبَ بِذِي الْقَرْنَيْنِ لِمَا كَانَتْ شَجَّتَانِ فِي رَأْسِهِ، أَحَدُهُمَا عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وَدَّ لَعْنَهُ اللَّهُ، وَالْآخَرُ مِنْ ابْنِ مُلْجَمَ لَعْنَهُ اللَّهُ^٢.

وقالوا: إِنَّهُ مَلَكَ الدُّنْيَا^٣.

قيل: إِنَّهُ لَمَّا مَاتَ أَبُوهُ جُمِعَ مُلُوكُ الرُّومِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا طَوَائِفَ، ثُمَّ جُمِعَ مُلُوكُ الْمَغْرِبِ وَقَهَرَهُمْ، وَأَمْعَنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مِصْرَ، فَبَنَى الْإِسْكَانِيَّةَ، وَسَمَّاها بِاسْمِ نَفْسِهِ، ثُمَّ دَخَلَ الشَّامَ، وَقَصَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَوَرَدَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَذَبَحَ فِي مَذْبَحِهِ، ثُمَّ انْعَطَفَ إِلَى أَرْمِينِيَّةَ، وَبَابِ الْأَبْوَابِ^٤، وَدَانَتْ لَهُ الْعَرَاقِيُونَ وَالْقِبْطُ وَالْبَرْبَرُ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى دَارِ ابْنِ دَارَا وَهَزَمَهُ مَرَّاتٍ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ صَاحِبُ حَرْسِهِ، فَاسْتَوْلَى الْإِسْكَانَدَرُ عَلَى مَمَالِكِ الْفَرَسِ، ثُمَّ قَصَدَ الْهِنْدَ وَالصِّينَ، وَغَزَا الْأُمَمَ الْبَعِيدَةَ، وَرَجَعَ إِلَى خُرَّاسَانَ، وَبَنَى الْمُدُنَ الْكَثِيرَةَ، وَرَجَعَ إِلَى الْعِرَاقِ، وَمَرَّضَ بِشَهْرٍ زَوْرَ وَمَاتَ بِهَا^٥. وقيل: إِنَّهُ كَانَ نَبِيًّا^٦.

وعن الباقر عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ أَنْبِيَاءَ مُلُوكًا إِلَّا أَرْبَعَةَ بَعْدَ نُوحٍ: أَوَّلُهُمْ ذُو الْقَرْنَيْنِ، وَاسْمُهُ عِيَّاشٌ» إِلَى أَنْ قَالَ: «فَأَمَّا عِيَّاشُ فَإِنَّهُ مَلَكَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^٧.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في رواية: «وَعَوَّضَهُ [اللَّهُ] مِنَ الضَّرْبَتَيْنِ اللَّتَيْنِ عَلَى رَأْسِهِ قَرْنَيْنِ فِي مَوْضِعِ الضَّرْبَتَيْنِ أَجُوفَيْنِ، فَجَعَلَ عَزَّ مُلْكُهُ وَآيَةُ نُبُوَّتِهِ فِي قَرْنِهِ»^٨.

وقيل: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا^٩.

وعن الباقر عليه السلام: «أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وَلَكِنَّهُ كَانَ عَبْدًا صَالِحًا أَحَبَّ اللَّهُ فَاحِبَهُ»^{١٠}.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ، أَنْبِيَاءُ كَانَ، أَمْ مَلِكًا؟ فَقَالَ: «لَا نَبِيَّ وَلَا مَلِكَ، بَلْ عَبْدٌ أَحَبَّ اللَّهُ فَاحِبَهُ»^{١١}.

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَاتَّبَعِ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ

١. تفسير القمي ٢: ٤١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٩.
٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٠.
٣. جوامع الجامع: ٢٧٠.
٤. باب الأبواب: مدينة على بحر طبرستان، وهو بحر الخزر.
٥. تفسير الرازي ٢١: ١٦٣، تفسير أبي السعود ٥: ٢٤٠.
٦. تفسير الرازي ٢١: ١٦٥.
٧. تفسير العياشي ٣: ٢٦٩٩/١١٠، تفسير الصافي ٣: ٢٥٩.
٨. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٢، تفسير الصافي ٣: ٢٦٠.
٩. تفسير أبي السعود ٥: ٢٤٠، تفسير روح البيان ٥: ٢٩٠.
١٠. كمال الدين: ١/٣٩٣، تفسير الصافي ٣: ٢٥٩.
١١. تفسير القمي ٢: ٤١، تفسير الصافي ٣: ٢٥٩.

مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذَّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ أَنْتَبِعَ سَبِيًّا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا [٨٤-٩٠]

ثم شرع سبحانه في ذكر قصته بقوله: ﴿إِنَّا مَكِّنَّا﴾ وأقَدَرْنَا ﴿لَهُ﴾ من حيث القوى والأسباب ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كلها مشرقها ومغربها ﴿وَأَيَّتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء، وكل أمر من الأمور التي لها دخل في قدرته وسلطانه ﴿سَبِيًّا﴾ ووسيلةً توصله إليه من العلم والتدبير والرأي والمال والجند، فإذا أَرَادَ شَيْئًا ﴿فَأَنْتَبِعَ﴾ واتخذ له ﴿سَبِيًّا﴾ وطريقاً يوصله إليه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: ثم رَفَعَهُ اللهُ إلى السماء الدنيا، فَكَسَطَ لَهُ عَنِ الْأَرْضِ كُلَّهَا جِبَالَهَا وَشُهُولَهَا وَفَجَاحَهَا حَتَّى أَبْصَرَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَأَتَاهُ اللهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَعَرَفَ بِهِ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، وَأَيَّدَهُ فِي قُرْنِهِ بِكَسَفٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، ثُمَّ أَهْطَلَ إِلَى الْأَرْضِ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ: أَنْ يَسِرَّ فِي نَاحِيَةِ غَرْبِ الْأَرْضِ وَشَرْقِهَا، فَقَدْ طَوَيْتَ لَكَ الْبِلَادَ، وَذَلِكَ لَكَ الْعِبَادَ، فَأَرْهَبْتَهُمْ مِنْكَ. فَسَارَ إِلَى نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ، فَكَانَ إِذَا مَرَّ بِقَرْيَةٍ يَزَارُ فِيهَا كَمَا يَزَارُ الْأَسَدُ الْمُتَغَصَّبَ، فَيَنْبَغِتُ مِنْ قُرْنِهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ وَصَوَاعِقُ تَهْلِكُ مِنْ نَاوَاهُ وَخَالَفَهُ^١.

وعن ابن عباس: أَنَّهُ عِنْدَمَا تَوَاضَعَ لِإِبْرَاهِيمَ وَعَاتَقَهُ، سَخَّرَ لَهُ السَّحَابَ^٢.

قيل: كَانَتِ السَّحَابُ تُحْمِلُهُ وَعَسَاكِرُهُ وَجَمِيعَ آلَاتِهِمْ إِذَا أَرَادُوا غَزْوَةَ قَوْمٍ^٣.

وقال بعض العامة: أَنَّهُ سَخَّرَ لَهُ السَّحَابَ، وَبَسَطَ لَهُ النُّورَ، وَكَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ عَلَيْهِ سَوَاءً^٤. وَقَدْ مَرَّ أَنَّهُمْ قَالُوا: سَخَّرَ لَهُ النُّورَ وَالظُّلْمَةَ، فَكَانَ إِذَا سَرَى يَهْدِيهِ النُّورُ مِنْ أَمَامِهِ، وَتَمُدُّهُ الظُّلْمَةُ مِنْ وَرَائِهِ^٥.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أَنَّهُ سَثَلَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ، فَقَالَ: «سَخَّرَ لَهُ السَّحَابَ، وَقَرَّبَتْ لَهُ الْأَسْبَابَ، وَبَسَّطَ لَهُ النُّورَ، وَقَالَ: كَانَ يَضِيءُ^٦ [بِاللَّيْلِ كَمَا يَضِيءُ] بِالنَّهَارِ» الْخَبَرُ^٧. فَسَارَ طَلِبًا لِمَاءِ الْحَيَاةِ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ وَشَتَّتْهُ الْأَرْضُ مِنْ جِهَتِهَا الْمُتَّصِلَةِ^٨ بِالْبَحْرِ الْمُحِيطِ بِحَيْثُ إِذَا نَظَرَ إِلَى

١. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٢، تفسير الصافي ٣: ٢٦٠.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٩١.

٣. تفسير الرازي ٢١: ١٦٤، تفسير أبي السعود ٥: ٢٤١ وقد تقدّم آنفاً في تفسير الآية (٨٣) من هذه السورة.

٤. في تفسير العياشي: يبصر، وكذا التي بعدها.

٥. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٢/١١٢، تفسير الصافي ٣: ٢٦٠.

٦. في النسخة: من جهته المتصل.

الشمس ﴿وَجَدَهَا﴾ حين غُرُوبِهَا ﴿تَغْرُبُ﴾ وَتَغِيْبُ ﴿فِي عَيْنٍ﴾ ذات ﴿حَمِيَّةٍ﴾ وطِينٍ أَسْوَدَ وَماءٍ كَثِيرٍ.

قيل: لَمَّا بَلَغَ موضعاً لم يبقَ بعده عِمارة في جانب المغرب، وجد الشمس كأنها تَغْرُبُ في وَهْدَةٍ مُظْلَمَةٍ، كما أَنَّ الرَّاكِبَ في البحر يَرَاهَا كأنَّهَا تَغْرُبُ في البحر إذا لَمْ يَرِ الساحل، وفي الحقيقة تَغْرُبُ وَرَاءَ البحر، وإلا فإِنَّه كان من عُلَمَاءِ النُّجُوم، وكان معلوماً عنده أَنَّ الأرض كُرَوِيَّةٌ، والسماءُ مُحِيطَةٌ بِهَا، والشمس في الفَلَكِ الرَّابِعِ، ولا يمكن جُلُوس قومٍ عند الشمس كما حكاه الله بقوله: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ مع أَنَّ الشمسَ أَكْثَرُ من الأرض مَرَّاتٍ كَثِيرَةً، فكيف يمكن دخولها في عَيْنٍ من الأرض؟!^١ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «في عين حامية، في بحر دون المدينة التي تلي المغرب» يعني جَابِلْقَا.^٢ وعنه عليه السلام: «لَمَّا انْتَهَى مَعَ الشمس إلى العين الحامية، وجدها تَغْرُبُ فيها، ومعها سبعون ألف ملك يَجْرُونَهَا بِسَلْسَلِ الحديد والكلاليب، يَجْرُونَهَا من قَعْرِ البحر في قُطْرِ الأرض الأَيْمَنِ، كما تجري السفينة على ظَهْرِ الماء»^٣.

قال الفخر الرازي: قال أهل الأخبار في صفة ذلك الموضع أشياء عجبية، قال ابن جُريج: هناك مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها سَمِعَ النَّاسُ وَجِبَةَ الشمس حين تَغِيْبُ.^٤ أقول: وقال بعض العامة: هم أهل جَابِلْقَص، وهي مدينة يقال لها بالسريانية جرجلسا^٥، لها عشرة آلاف باب، بين كلِّ بابين فَرَسَخٌ، يسكنها قومٌ من بقية ثمود الذين آمنوا بصالح وآمنوا بالنبي صلوات الله عليه وآله لَمَّا مَرَّ بِهِمْ في ليلة الإسراء^٦. وقال بعض علمائهم: حديث جابلصا وجابلقا، وإيمان أهاليهما ليلة المعراج، وأتتهما من الإنسان الأول، فمشهور^٧.

وقيل: إِنَّ القوم الذين وجدهم ذو القرنين كانوا عِبَدَةَ الأصنام، لهم أعينٌ خُضِرَتْ وشعورٌ خُحِرَ، يَلْبَسُونَ جُلُودَ الحيوانات، ويَأْكُلُونَ لحوم البحر^٨.

﴿قُلْنَا﴾ بِطَرِيقِ الإِلْهَامِ: ﴿يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذِّبَ لَهُمْ بِالْقَتْلِ عَلَى كُفْرِهِمْ﴾ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٢.

٢. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٧/١٢٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦١، وفي معجم البلدان عن ابن عباس: أن جابلقا مدينة بأقصى المغرب، وأهلها من ولد عاد. معجم البلدان ٢: ١٠٥.

٣. في النسخة: في.

٤. تفسير الرازي ٢١: ١٦٧.

٥. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦١.

٦. في تفسير روح البيان: جرجيسا. والذي في معجم البلدان: جَابِرْس. مدينة بأقصى المشرق، وأن بها بقايا المؤمنين من ثمود، وفي مادة (جابلق) عن ابن عباس: أن أهل جَابِرْس من ولد ثمود. معجم البلدان ٢: ١٠٥.

٧. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٣.

فيهم» وتسلك معهم طريقاً «حُسناً».

أقول: هو مبالغة في (ذي حَسَن). أو محذوف المضاف، والمعنى أمراً ذا حَسَن، بإبقائهم أحياء^١، وإرشادهم إلى التوحيد، وتعليمهم الشرائع، فأختر ما تراه الأصلح من الأمرين فيهم «قَالَ» ذو القرنين: أدعُوهم إلى التوحيد والعمل الصالح «أَمَّا مَنْ ظَلَمَ» على نفسه بالإصرار على الكفر «فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ» بالقتل، قيل: كان يَطْلُخُ الكافر في القَدَرِ^٢ «ثُمَّ يُؤَذِّ» في الآخرة «إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ» فيها «عَذَاباً نُكْرًا» ومنكراً وشديداً لا يتصوره أحد.

عن الصادق عليه السلام: «أَيُّ فِي النَّارِ»^٣. «وَأَمَّا مَنْ» أَجَابَ دَعْوَتِي وَ «آمَنَ» بالله «وَعَمِلَ» عَمَلًا «صَالِحًا» وَخَالِصًا لله وَمرضياً عنده «فَلَهُ» مَنِي فِي الدُّنْيَا وَمِنْ الله فِي الدَّارَيْنِ «جَزَاءً» وَثَوْبَةً «الْحُسْنَى» أَوْ جَزَاءً عَظِيمًا عَلَى فِعْلَتِهِ الْحُسْنَى.

قيل: كان يُعْطِي المؤمنَ وَيَكْسِيهِ^٤ «وَسَنَقُولُ لَهُ» بعضاً «مِنْ أَمْرِنَا» وَحَكْمَنَا مَا يَرَاهُ «يُسْرًا» وسهلاً عليه لا مشقة فيه في أمر الخراج والزكاة.

«ثُمَّ أَتَيْنَا» وَسَلَّكَ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ «سَبِيلًا» وَطَرِيقًا مُوصِلًا لَهُ إِلَى بِلَادِ الْمَشْرِقِ، فَسَارَ بِجُنْدِهِ «حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ» وَتَمَتَّتْهُ الْأَرْضُ مِنْ جِهَتِهِ.

قيل: بَلَغَهُ فِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً^٥. وقيل: أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ^٦. فَرَأَى الشَّمْسَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ وَ «وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا» وَحِجَابًا مِنَ النَّبَاتِ وَالْأَنْبِيَةِ وَالْأَشْجَارِ وَالْجِبَالِ، فَكَانُوا عُرَاءً لَا يَسْتَظِلُّونَ بِشَيْءٍ.

عن الباقر عليه السلام: «لَمْ يَعْلَمُوا صُنْعَةَ الْبُيُوتِ»^٧.

وَالْقَمِي: لَمْ يَعْلَمُوا صُنْعَةَ الثِّيَابِ^٨.

قيل: كَانُوا إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ دَخَلُوا فِي الْأَسْرَابِ أَوْ الْبَحْرِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، فَإِذَا عَرِثَتْ أَوْ زَالَتْ عَنْ سَمْتِ رُؤُوسِهِمْ خَرَجُوا وَاضْطَافُوا السَّمَكَ وَالْحَيَوَانَاتِ الْبَحْرِيَّةَ لِمَعِيشَتِهِمْ^٩.

وقيل: لَمْ يَكُنْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَأَجْسَادِهِمْ شَعْرٌ، كَأَنَّمَا سَلِخَتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ^{١٠}.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّهُ وَرَدَ عَلَى قَوْمٍ قَدْ أَحْرَقَتْهُمْ الشَّمْسُ وَغَيَّرَتْ أَجْسَادَهُمْ وَأَلَوَانَهُمْ حَتَّى

١. في النسخة: حَيًّا. ٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٣.

٣. تفسير القمي ٢: ٤١، تفسير الصافي ٣: ٢٦٢. ٤. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٣.

٥ و ٦. تفسير أبي السعود ٥: ٢٤٣، تفسير روح البيان ٥: ٢٩٤.

٧. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٨/١٢٣، مجمع البيان ٦: ٧٥٨، تفسير الصافي ٣: ٢٦٢.

٨. تفسير القمي ٢: ٤١، تفسير الصافي ٣: ٢٦٢. ٩ و ١٠. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٤.

صَبَرْتَهُمْ كَالظُّلْمَةِ^١.

كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * أَتَوْنِي زُرًّا الْحَدِيدَ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتَوْنِي أَفْرَغَ عَلَيْهِ قَطْرًا * فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَاةً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا [٩١-٩٨]

﴿كَذَلِكَ﴾ السلوك الذي كان لِيِذِي الْقَرْنَيْنِ مع أهل المغرب، سَلَكَ مع هؤلاء القوم الذين كانوا في جهة المشرق، أو كذلك السلطان والاعتدال الذي كان له في ناحية المغرب كان له في ناحية المشرق ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من أمر القوم، أو بما عنده من الصلاحية لِلْمُلْكِ الْعَظِيمِ وَالْإِسْتِقْلَالِ، أو بما عنده من الأسباب والعُدَّة والعدد والقدرة ﴿خُبْرًا﴾ وعِلْمًا، بحيث لَا يَخْفَى علينا شيءٌ من أمره ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ﴾ ذُو الْقَرْنَيْنِ وَأَخَذَ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ أُولَئِكَ الْقَوْمِ ﴿سَبَبًا﴾ وطريقًا ثالثًا إلى ناحية الشَّمال كما قيل^٢.

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): «سَبَبًا فِي نَاحِيَةِ الظُّلْمَةِ»^٣. فَسَارَ بِأَسْبَابِهِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وَالْجَبَلَيْنِ الْعَالِيَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا فِي مُنْقَطِعِ أَرْضِ التُّرْكِ مِمَّا يَلِي الْمَشْرِقَ، عَلَى قَوْل^٤. أَوْ فِي مَا بَيْنَ أَرْمِينِيَّةَ وَأَذْرَبِيجَانَ عَلَى آخِر^٥.

وقيل: إِنَّ مَوْضِعَ السَّدَّيْنِ فِي الرِّيعِ الشَّمَالِيِّ^٦ إِلَى الْغَرْبِيِّ مِنَ الْمَعْمُورَةِ.

إِذْ ﴿وَجَدَ﴾ ذُو الْقَرْنَيْنِ ﴿مِنْ دُونِهِمَا﴾ وَعِنْدَهُمَا، أَوْ مِنْ وَرَائِهِمَا ﴿قَوْمًا﴾ وَجَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ وَكَانُوا ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ وَلَا يَقْرَبُونَ أَنْ يَفْهَمُوا ﴿قَوْلًا﴾ وَكَلَامًا مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ مِنْ إِشَارَةٍ

١. تفسير العياشي ٣: ١١٣/٢٧٠٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦٢.

٢. تفسير الصافي ٣: ٢٦٢، تفسير روح البيان ٥: ٢٩٦.

٣. تفسير العياشي ٣: ١١٣/٢٧٠٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦٢.

٤. تفسير الرازي ٢١: ١٦٩، تفسير أبي السعود ٥: ٢٤٤.

٥ و ٦. تفسير الرازي ٢١: ١٦٩.

ونحوها.

﴿قَالُوا﴾ بلسان ثرجمانهم أو بإلهامهم لغة اسكندر، أو بإلهامهم لغتهم. قيل: كان ذو القرنين مثلهما باللغات^١ ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل والغارة وإتلاف الزروع والثمار. وهما قبيلتان من الترك على قول^٢. أو يأجوج من الترك، ومأجوج من الجبل والديلم على آخر^٣.

وقيل: إن المؤرخين قالوا إنه كان لئوح ثلاثة أولاد: بسام، وحام، ويافث، فسام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبش والزنج والثوبة^٤، ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج^٥. وعن الهادي عليه السلام: «جميع الترك والصقالب ويأجوج ومأجوج والصين من يافث حيث كانوا»^٦. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «قالوا: يا ذا القرنين، إن يأجوج ومأجوج خلف هذين الجبلين، وهم يفسدون في الأرض، إذا كان إبان زروعنا وثمارنا خرجوا علينا، فرعوا في ثمارنا وفي زروعنا حتى لا يبقوا منها شيئاً»^٧ ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾ ومقداراً من أموالنا ﴿عَلَى﴾ شرط ﴿أَنْ نَجْعَلَ﴾ بتلك الأموال التي تعطيك ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً﴾ وحاجزاً يمنعهم من الخروج علينا ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين: لا حاجة لي إلى أموالكم، فإن ﴿مَا مَكَّنِي فِيهِ﴾ وأقدرني عليه ﴿رَبِّي﴾ من المال

والأسباب والملك ﴿خَيْرٌ﴾ مما عندكم من الأموال و[ما] يتبدلونه من الخرج، فإن تريدوا^٨ السد ﴿فَأَعِثُّونِي﴾ وساعدوني عليه ﴿بِقُوَّةٍ﴾ من العمال والصناع لا بالأموال ﴿أَجْعَلَ﴾ إذن ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ وحاجزاً عظيماً، أكبر وأوثق من السد. ثم كأنهم قالوا: فأمرنا بما تريد قال ﴿آتُونِي﴾ يعرض ما أعطيك من المال ﴿زُبْرَ الْحَدِيدِ﴾ وقطعات عظيمة منه.

قيل: إنهم قالوا ليس لنا من الحديد ما يسع هذا العمل، فدلهم على معدن الحديد والنحاس^٩، ثم قاس ما بين الصدفين فوجده ثلاثة أميال^{١٠}. وقيل: مائة فرسخ^{١١}.

ثم أمر بحفر ما بين السدين فحفروه حتى بلغ الماء، ثم جعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب بدل الطين، وجعل البنيان من زبر الحديد، بين كل زبرتين الحطب والقحم^{١٢} ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ وجائى الجبلين بتنضيد الزبر بعضها فوق بعض، أمر بوضع المنافع حوله فوضعها، ثم ﴿قَالَ﴾ للعملة: ﴿اتَّقُوا﴾ على زبر الحديد، فتقخوا في السد المنصود من الحديد

٢ و٣. تفسير الرازي ٢١: ١٧٠.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٧.

٧. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦٣.

٨. في النسخة: تريدون. ٩. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٨.

١. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٧.

٤. الثوبة: جبل من الناس، موطنهم جنوب مصر.

٦. علل الشرايع: ١/٣٢، تفسير الصافي ٣: ٢٦٣.

والحطب ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ﴾ مُحَمَّى كَأَنَّهُ صَارَ ﴿نَارًا قَالَ﴾ للذين أذاّبوا النَّحَاسَ: ﴿أَتُونِي﴾ النَّحَاسَ الْمُذَابَ ﴿أَفْرِغْ﴾ عَلَى السَّدِّ وَأَصْبِ ﴿عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ وَنَحَاسًا مُذَابًا.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فاحتفروا له جبل حديد، فقطعوا له أمثال اللّين، فطرح بعضه على بعض في ما بين الصّدْفَيْنِ، ثم جعل عليه الحطب، وألهب فيه النار، ووضع عليه المتأفخ فنفخوا عليه، فلما ذاب قال: اتوني بقطر، فاحتفروا جبلاً من نحاس، فطرحوه على الحديد، فذاب معه واختلط به»^١.

فلَمَّا تَمَّ السَّدُّ جَاءَ يَاجُوجُ وَمَاجُوجُ ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ وَمَا قَدَرُوا ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وَيَعْلَوْهُ لارتفاعه وَمَلَاسَتِهِ ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ أَنْ يَجْعَلُوا ﴿لَهُ نَقَبًا﴾ وَخَرْقًا مِنْ أَسْفَلِهِ لِثَخَائِهِ وَصَلَابَتِهِ ﴿قَالَ﴾ ذُو الْقَرْنَيْنِ: ﴿هَذَا﴾ السَّدُّ وَالْإِقْتِدَارُ عَلَى تَسْوِيَتِهِ ﴿رَحْمَةً﴾ وَنِعْمَةً عَظِيمَةً ﴿مِنْ رَبِّي﴾ عَلَى عِبَادِهِ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بَقِيَامِ السَّاعَةِ وَقُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَظَهَرَتْ مَبَادِيهِ مِنْ خُرُوجِ الدَّجَالِ، وَنَزُولِ عِيسَى، هَدَمَ اللَّهُ السَّدَّ ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ وَأَرْضًا مُسْتَوِيَةً ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بِقِيَامِ السَّاعَةِ، أَوْ بغيره ﴿حَقًّا﴾ وَصِدْقًا لِلْبَيْتَةِ، لَا خُلْفَ فِيهِ.

عن النبي صلى الله عليه وآله أَنَّهُ عَدَّ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَكُونُ قَبْلَ السَّاعَةِ خُرُوجَ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ^٢.
وعن القمي: إِذَا كَانَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ انْهَدَمَ السَّدُّ، وَخَرَجَ يَاجُوجُ وَمَاجُوجُ إِلَى الدُّنْيَا وَأَكَلُوا النَّاسَ^٣.
أقول: فِي كَيْفِيَّةِ خَلْقِ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ وَطُولِ أَعْمَارِهِمْ وَكَثْرَةِ عِدْدِهِمْ وَتَخْرِيبِهِمُ السَّدَّ وَأَعْمَالَهُمْ بَعْدَ الْخُرُوجِ، رَوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ طَرُقِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، أَعْرَضْنَا عَنْ نَقْلِهَا لِطَوِيلِهَا وَيُعْدهَا عَنِ الْأَذْهَانِ.

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا *
وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (٩٩-١٠٠)

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ حَالِ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ بَعْدَ إِندِكَالِ السَّدِّ وَخُرُوجِهِمْ مِنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَرَكْنَا﴾ وَخَلَيْنَا، أَوْ جَعَلْنَا ﴿بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ﴾ وَيَخْتَلِطُ أَوْ يَضْطَرِبُ ﴿فِي بَعْضٍ﴾ كَأَمْوَاجِ الْبَحْرِ، لَا يَمُرُّونَ عَلَى إِنْسَانٍ إِلَّا قَتَلُوهُ، وَلَا عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَكَلُوهُ، وَلَا عَلَى مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ دُودًا بَعْدَ نَزُولِ عِيسَى فَيَقْتُلُهُمْ دَفْعَةً كَثْفَسٍ وَاحِدَةٍ، عَلَى مَا فِي الرَوَايَاتِ^٤.
وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْيَوْمِ فِي الْآيَةِ يَوْمَ السَّدِّ وَمَنْعِهِمْ مِنَ الْخُرُوجِ^٥.

١. تفسير العياشي ٣: ١١٣/٢٧٠٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦٤.

٢. الخصال: ٤٤٧/٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٦٤.

٣. تفسير القمي ٢: ٤١، تفسير الصافي ٣: ٢٦٤.

٤. تفسير الرازي ٢١: ١٧٢.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٢٩٩ و ٣٠٠.

وقيل: يوم القيامة، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام ^١.

وقيل: إن ضمير الجمع في بعضهم راجع إلى جميع الخلق ^٢.

ثم ذكر سبحانه الآية الثانية بقوله: ﴿وَتُفَخَّ فِي الصُّورِ﴾ النفخة الثانية التي عندها الحشر ﴿فَتَحْمَتْنَاهُمْ﴾ في صعيد واحد بعد تفتت أعضائهم ﴿جَمْعاً﴾ عجباً للجباب والخواء ﴿وَعَرْضاً﴾ وأبرزنا ﴿جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾ بحيث تكون مكشوفة بأحوالها ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ بينهم ﴿عَرْضاً﴾ وإبرازاً هائلاً، حيث يَرَوْنَ لَهَا، ويسمعون تَغِيظَهَا وزفيرها.

في الحديث: «يُؤْتَى بِهِمْ يَوْمَئِذٍ وَلَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مع كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُوهَا» ^٣.

الَّذِينَ كَانَتْ أَغْنَتْهُمْ فِي غَطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً *
أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ
لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ^[١٠١ و ١٠٢]

ثم وصف الكفار بأذم صفاتهم بقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ﴾ في الدنيا ﴿أَغْنَتْهُمْ فِي غَطَاءٍ﴾ وحجاب غليظ مانع ﴿عَنْ﴾ رؤية الآيات المؤدية بالتفكير فيها إلى ﴿ذِكْرِي﴾ بالتوحيد والتمجيد ﴿وَكَانُوا﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لقرط إعراضهم عن الحق وعداوتهم للرسول ﴿سَمْعاً﴾ لذكري واستماعاً لكلامي، وفيه دلالة على أنهم أسوء حالاً من الأصم، حيث إن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيغ به، وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة.

عن الصادق عليه السلام أنه سئل: أتستطيع النفس المعرفة؟ فقال: «لا». [فقيل: يقول الله ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَغْنَتْهُمْ فِي غَطَاءٍ﴾ الآية؟ قال: «هو كقولهم: ﴿وَمَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾» ^٤. قيل: فعابهم؟ قال: «لم يعيهم بما صنع هو بهم، [ولكن] عابهم بما صنعوا، ولو لم يتكلفوا لم يكن عليهم شيء» ^٥.

وعن الرضا عليه السلام: «أن غطاء العين لا يمنع من الذكر، والذكر لا يرى بالعين، ولكن الله شبه الكافرين بولاية علي بن أبي طالب بالعميان؛ لأنهم كانوا يستقلون قول النبي ﷺ فيه، ولا يستطيعون له سمعاً» ^٦.

٢. مجمع البيان ٦: ٢٦٦.

١. تفسير العياشي ٣: ٢٧٠٣/١١٤، تفسير الصافي ٣: ٢٦٦.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٠٢. ٤. هود: ٢٠/١١.

٥. تفسير العياشي ٣: ٢٧١٢/١٢٣، تفسير الصافي ٣: ٢٦٦.

٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٣/١٣٦، تفسير الصافي ٣: ٢٦٦.

وعن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: «يعني بالذكر ولاية أمير المؤمنين» قال: «كانوا لا يستطيعون إذا ذكر عندهم علي عليه السلام أن يسمعوا ذكره، لشدة بغضهم له، وعداوة منهم له ولأهل بيته»^١.
ثم وضح الله الكافرين المعرضين عن آيات التوحيد على شركهم بقوله: «أَفَحَسِبَ» والتقدير لا شرك^٢ «الَّذِينَ كَفَرُوا» وأشركوا بي «أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي» كالملائكة وعيسى وعزير والأصنام والشياطين ويختاروهم لأنفسهم «مِنْ دُونِي» ومما سواي، أو متجاوزين إياي «أُولِيَاءَ» ومعبودين، أو ناصرين لهم، ومُنَجِّهِمْ من عذابي، فقد ضلُّوا وأخطأوا في حبائهم وتوهمهم «إِنَّا أَعْتَدْنَا» وهَيْئًا «جَهَنَّمَ» وما فيها من أنواع العذاب «لِلْكَافِرِينَ» بَوْخْدَانِيَّتِي، ورسالة رسولي، والدَّارِ الآخرة «نُزُلًا» وماوئ، أو تشریفًا لِيُزَوِّدَهُمْ علي، كما تُعَدُّ التَّشْرِيفَات لِيُزَوِّدَ الصَّيْفُ ذِي الشَّانِ^٣، وفيه غاية التَّهَكُّم.

وعن ابن عباس: أنه موضع النزول والمأوى^٤.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا [١٠٦-١٠٣]

ثم بين الله غاية جهلهم وخسرانهم بقوله: «قُلْ» يا محمد لهذه المشركين: «هَلْ نُنَبِّئُكُمْ» وأخبركم «بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا» وبِالْأَقْوَامِ الَّذِينَ هم أشدَّ الخلق ضرراً على أنفسهم من جهة أعمالهم.

ثم كأنه قيل: من هم؟^٥ يبيِّنهم لنا، فأجابهم بقوله: «الَّذِينَ ضَلَّ» وبَطَلَ «سَعِيَّهُمْ» واهتمامهم في الأعمال التي هي في أنفسها حسنة «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» ومدة أعمارهم فيها «وَهُمْ يَحْسَبُونَ» ويتوهمون «أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» ويعملون صالحاً ينفعهم في الآخرة، بجهلهم بشرائط صحة العمل واعتقادهم أنهم على الحق مع عدم النظر في دلالة، وتقصيرهم فيه.
قيل: أريد بهم الرهبان^٦. وعن مجاهد: هم أهل الكتاب^٧.

١. تفسير القمي ٢: ٤٧، تفسير الصافي ٣: ٢٦٦.

٢. كذا.

٣. في النسخة: الضيف الشئون.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٠٣.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٣٠٤.

٦ و٧. تفسير الرازي ٢١: ١٧٤.

وروى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سأله ابن الكوّاء عنهم فقال: «هم أهل حرّوراء» أي الخوارج.

وعن القمي: نزلت في اليهود، وجرت في الخوارج^١.

وعن الباقر عليه السلام: «هم النصارى والقسيّسون والرّهبان، وأهل الشبهات والأهواء من أهل القبلة، والحرورية وأهل البدع»^٢.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال: «كفّرة أهل الكتاب: اليهود والنصارى، وقد كانوا على الحقّ فابتدعوا في أديانهم، وهم يُحْسِنُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا». ثم قال: «وما أهل التّهروان منهم يبعيد»^٣.

ثم أنه تعالى بعد بيان ضلالهم في الأعمال وغاية خسranهم فيها، بيّن سبحانه سوء عقائدهم الذي كان سبباً لخسرانهم فيها بقوله: «أُولَئِكَ الْخَاسِرُونَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا» وَجَحَدُوا بِآيَاتِ وَحْدَانِيَةِ رَبِّهِمْ وَلَقَائِهِ بعد الموت والحضور في محضر عدله في الآخرة للحساب وجزاء الأعمال «فَحِطَّتْ» وضاعت بسبب ذلك «أَعْمَالُهُمْ» التي عملوها في الدنيا باعتقاد انتفاعهم بها في الآخرة «فَلَا تَقِيمُ» ولا تنصب «لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا» وميزاناً، لعدم ترتّب الثواب عليها حتى يحتاج إلى تعيين مقداره، أو ترجيحها على سيئاتهم.

وقيل: إن المراد لا نجعل لأنفسهم مقداراً أو اعتباراً^٤.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «أنه ليأتي الرجل السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة»^٥.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديث يذكر فيه أهل الموقف وأحوالهم -: «ومنهم أئمة الكفر وقادة الضلالة، فأولئك لا يقيم لهم ووناً، ولا يغبأ بهم، لأنهم لم يغبؤوا بأمره تعالى ونهيه يوم القيامة، فهم في جهنم خالدون، تَلْفَحُ وَجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ»^٦.

وعن القمي: وزن، أي حسنة^٧.

ثم أنه تعالى بعد بيان خسranهم وعدم الاعتناء بشأنهم في الآخرة، بيّن جزاءهم على كفركهم وأعمالهم الباطلة السيئة بقوله: «ذَلِكَ الْجَزَاءُ الَّذِي نَذَرُ جَزَاؤَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ جَهَنَّمُ» فَإِنَّا نَدْخِلُهُمْ فِيهَا «بِمَا كَفَرُوا» بتوحيدي «وَاتَّخَذُوا آيَاتِي» مِنَ الْقُرْآنِ وَمِعْجَزَاتِ الرُّسُولِ صلى الله عليه وآله.

١. تفسير القمي ٢: ٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٦٧.

٢. الاحتجاج: ٢٦١، تفسير الصافي ٣: ٢٦٧.

٣. مجمع البيان ٦: ٧٦٧، تفسير الصافي ٣: ٢٦٧.

٤. تفسير الصافي ٣: ٢٦٧، تفسير روح البيان ٥: ٣٠٥.

٥. تفسير القمي ٢: ٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٦٨.

٦. الاحتجاج: ٢٤٤، تفسير الصافي ٣: ٢٦٧.

﴿وَرُسُلِي﴾ جَمِيعاً ﴿هَؤُلَاءِ﴾ وَشَجَرِيَّةٌ.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حِوَلًا [١٠٧ و ١٠٨]

ثم لما ذكر سبحانه وعيد الكفار بإعداد جهنم نُزُلًا، أتبعه يوعد المؤمنين الصالحين بجعل الفردوس نُزُلًا لهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانية الله ورسالة رسوله ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ التي هي من لوازم الإيمان ودليل صدقه في الدنيا ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ التي هي أفضل الجنات ﴿نُزُلًا﴾، أو تشريفًا، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبدًا ﴿لَا يَبْتَغُونَ﴾ ولا يَطْلُبُونَ ﴿عَنْهَا حِوَلًا﴾ وانتقالًا إلى أحسن وأعلى منها، إذ لا مزيد عليها ولا ملالة من الإقامة فيها.

قيل: إن الفردوس رتوة خضراء في الجنة أعلاها وأحسنها، ويقال لها شرة الجنة^١. وفي الحديث: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها، فيها تتفجر الأنهار الأربعة، وفوقها عرش الرحمن، فإذا سألتهم الله فأسألو الفردوس»^٢. وفي حديث آخر: «جنت الفردوس أربع: جنتان من فضة، أبيئتهما^٣ وما فيهما من فضة، وجنتان من ذهب، أبيئتهما وما فيهما من ذهب»^٤. وعن كعب: ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر^٥.

القمي رحمه الله: هذه الآية نزلت في أبي ذر، والمقداد، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، جعل الله عز وجل لهم جنت الفردوس نُزُلًا، أي: مأوى ومنزلًا^٦.

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ

١. مجمع البيان ٦: ٧٦٩، تفسير الصافي ٣: ٢٦٨، تفسير روح البيان ٥: ٣٠٦.

٢. تفسير الرازي ٢١: ١٧٥، تفسير روح البيان ٥: ٣٠٦.

٣. في تفسير روح البيان: أبيئتهما، وكذا التي بعدها.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٠٦.

٥. تفسير أبي السعود ٥: ٢٥٠.

٦. تفسير القمي ٢: ٤٦، تفسير الصافي ٣: ٢٦٨.

أَحَدًا [١٠٩ و ١١٠]

ثم لما بين سبحانه في السورة المباركة دلالات التوحيد والرسالة والأمثال العالية والمواعظ الشافية وقصص الأولين، تَبَّه على كمال القرآن وفصله بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لقومك ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ الذي في الدنيا وماؤه ﴿مِدَادًا﴾ وحينئذٍ ﴿لِكَلِمَاتٍ﴾ عِلْمٌ ﴿رَبِّي﴾ وحكمته، والله ﴿لَتَنْفَذَ الْبَحْرُ﴾ وفني ماؤه بحيث لم يبق منه ﴿قَبْلُ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ وتنفى معلوماته وحكمه ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ وخَلَقْنَا ضِغْفَرَهُ كَيْ يَكُونَ الْبَحْرُ الْمَوْجُودُ فِي الْعَالَمِ ﴿مَدَدًا﴾ ومعوذة لَنَفَذَ أيضًا، ولا تَنْفَذَ الكلمات، لأنَّ كَلِمًا وَجِدَ وَيُوجَدُ مِنَ الْبَحْرِ يَكُونُ مَحْدُودًا وَمُتَنَاهٍ، وهنا علم الله تعالى غير محدود ولا مُتَنَاهٍ.

قيل: نزلت حين قال حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبٍ: في كتابكم ﴿وَمَنْ يُوْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^١ ثم تقرأون ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^٢ [فنزلت هذه الآية]، والمراد: وما أوتيتهم وإن كان كثيراً ولكنّه قطرة من بحار كلمات الله^٣.

ثم لما بين سبحانه كمال كلامه المَوْحَى إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ، أمره بالتواضع والإعلان بِأَن كَلِمًا عَلِمَهُ إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَوَحْيِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لقومك ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أحتاجُ إِلَى مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَأَتَضَرَّرُ بِمَا تَضَرَّرُونَ بِهِ، لَا مَيِّزَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فِي لَوَازِمِ الْجِسْمَانِيَّةِ، وَإِنَّمَا الْمَيِّزُ فِي الْكَلِمَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ وَالْفَضَائِلِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي أَهْلَتْنِي لِأَنَّ ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ مِنْ قِبَلِ رَبِّي الْعُلُومُ الْكَثِيرَةُ وَالْمَعَارِفُ الْوَفِيرَةُ الَّتِي أَهْمُّهَا ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾ ومعبودكم ﴿إِلَهٌ﴾ ومعبودٌ ﴿وَاحِدٌ﴾ يستحقُّ العبادَةَ، وَلَا يَافِلُ غَيْرُهُ لَهَا.

عن العسكري عليه السلام قال: «يعني قُلْ لَهُمْ أَنَا فِي الْبَشَرِيَّةِ مِثْلَكُمْ، وَلَكِنْ رَبِّي خَصَّنِي بِالنَّبُوَّةِ دُونَكُمْ، كَمَا يُخَصُّ بَعْضُ الْبَشَرِ بِالْفَنَى وَالْجَمَالَ دُونَ بَعْضٍ مِنَ الْبَشَرِ، فَلَا تُتَكَبَّرُوا أَنْ يُخَصَّنِي أَيْضًا بِالنَّبُوَّةِ»^٤.
﴿فَمَنْ كَانَ﴾ يؤمن بالله ورسوله و﴿يُزْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ وتَوَابَهُ وَكَرَامَتَهُ ﴿فَلْيَفْعَلْ﴾ لِذَلِكَ الْمَطْلُوبِ ﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾ ومرضيًا عِنْدَ اللَّهِ، وَلْيَعْبُدْهُ عِبَادَةً خَالِصَةً مِنَ الشَّرِكِ الْجَلِيِّ وَالْخَفِيِّ وَالْأَغْرَاضِ الْفَنَاسِيَّةِ ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ مِنْ خَلْقِهِ.

عن الباقر عليه السلام: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: مَنْ صَلَّى مُرَاءَةَ النَّاسِ فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَمَنْ زَكَى مُرَاءَةَ النَّاسِ فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَمَنْ صَامَ مُرَاءَةَ النَّاسِ فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَمَنْ حَجَّ مُرَاءَةَ النَّاسِ فَهُوَ

١. البقرة: ٢٦٩/٢. ٢. الاسراء: ٨٥/١٧. ٣. تفسير الرازي ٢١: ١٧٦.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٥٠٤، الإحتجاج: ٣١، تفسير الصافي ٣: ٢٦٩.

مشرك، ومن عمل عملاً مما أمر الله به وراء الناس فهو مشرك، ولا يقبل الله عمل مزاء^١.
وعنه عليه السلام أنه سئل عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنساناً فيسره ذلك؟ قال: «لا بأس، ما من أحد إلا ويحب أن يظهر له في الناس الخير، إذا لم يصنع ذلك لذلك»^٢.
وعن الرضا عليه السلام: إنه كان يتوضأ للصلاة، فأراد رجل أن يصب الماء على يديه، فأبى وقرأ هذه الآية، وقال: «وها أنا ذا أتوضأ للصلاة وهي العبادة، فأكره أن يشركني فيها أحد»^٣.
أقول: هذه الرواية تدل على أن المراد بالإشراك في الآية مطلق الإشراك سواء أشرك الغير في نيته أو في نفس عمله.

وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال: «العمل الصالح المعرفة بالأنمة ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدٌ﴾ التسليم لعلي عليه السلام، لا يشرك معه في الخلافة من ليس ذلك له، ولا هو أهله»^٤.
والقمي عنه عليه السلام: ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدٌ﴾، قال: «لا يتخذ مع ولاية آل محمد غيرهم، ولا يتهم العمل الصالح، من أشرك بعبادة ربه فقد أشرك بولايتنا وكفر بها، وجحد أمير المؤمنين عليه السلام حقه وولايته»^٥.

وفي (الفقيه) عن النبي صلى الله عليه وآله: «من قرأ هذه الآية عند منامه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ إلى آخرها، سَطَعَ له نورٌ إلى المسجد الحرام، حَشَو ذلك النور ملائكة يستغفرون له حتى يُصْبِح»^٦.
وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما من عبد يقرأ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ إلى آخر السورة، إلا كان له نورٌ من مضجعه إلى بيت الله الحرام، فإن كان من أهل بيت الله الحرام كان له نورٌ إلى بيت المقدس»^٧.
وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام: «ما من عبد يقرأ آخر الكهف عند نومه إلا تَقَطَّ في الساعة التي يُريد»^٨.

وعنه عليه السلام: «من قرأ سورة الكهف في كل ليلة الجمعة، كانت كفارة ما بين الجمعة إلى الجمعة».
قال: وزوي في من قرأها يوم الجمعة بعد الظهر والعصر مثل ذلك^٩.
وفي (المجمع) عنه عليه السلام: «من قرأ سورة الكهف في كل ليلة جمعة لم يمُتْ إلا شهيداً، وبَعَثَهُ الله

١. تفسير القمي ٢: ٤٧، تفسير الصافي ٣: ٢٦٩.
٢. الكافي ٣: ١/٦٩، تفسير الصافي ٣: ٢٦٩.
٣. تفسير القمي ٢: ٤٧، تفسير الصافي ٣: ٢٧٠.
٤. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٥٨/٢٩٧، تفسير الصافي ٣: ٢٧٠.
٥. ثواب الاعمال: ١٠٧، تفسير الصافي ٣: ٢٧٠.
٦. الكافي ٣: ٧/٤٢٩، تفسير الصافي ٣: ٢٧٠.
٧. الكافي ٢: ١٨/٢٢٥، تفسير الصافي ٣: ٢٦٩.
٨. تفسير العياشي ٣: ٢٧٢٢/١٢٦، تفسير الصافي ٣: ٢٧٠.
٩. في النسخة وتفسير الصافي: من.

مَعَ الشُّهَدَاءِ، وَوَقَّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الشُّهَدَاءِ»^٢.

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ عَلَى تَوْفِيقِكَ إِنِّي لِإِتِمَامِ تَفْسِيرِ السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ.

١. في النسخة: وبيعته الله من.

٢. مجمع البيان ٦: ٦٩١، ثواب الأعمال: ١٠٧، تفسير الصافي ٣: ٢٧٠.

في تفسير سورة مريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ
إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبَّ شَقِيًّا *
وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا
* يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا [١-٦]

ثم لما خُتِمَت سورة الكهف التي فيها بيان الرحمة الخاصة على أصحاب الكهف بقوله: ﴿يُنشَرُ
لَكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ وعلى الخضر بقوله: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِزِّدِنَا﴾ وعلى ذي القرنين بقوله:
﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ وإظهار قدرته الكاملة في قصة أصحاب الكهف وسائر القصص، وفيها إثبات
النبوة والمعاد، ثم ختمها بتهديد المشركين وتبشير المؤمنين، أُزِدَتْ بسورة مريم التي فيها بيان
رحمته الخاصة على زكريا ومريم وكثير من الأنبياء، وإظهار قدرته الكاملة في ولادة يحيى وعيسى
وإثبات النبوة والمعاد، ثم ختمها بما ختم به السورة السابقة، فابتدأها بذكر أسمائه بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم افتتحها بالحروف المقطعة بقوله: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ جَلْبًا لتوجه الناس إلى المطالب التي بعدها، وقد
سبق تأويلها في طرفة بيان المتشابهات^١.

وقيل: إنها اسم هذه السورة^٢ التي فيها ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ بن أوزين^٣ بن رجيم بن
سليمان بن داود، من سبط يهودا، على ما قيل^٤.
وقيل: إنه من ولد هارون أخي موسى، وهما من سبط لاوي^٥.

١. راجع: الطرفة (١٨) من مقدمة المؤلف.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٣١٢.

٣ و ٤. تفسير روح البيان ٥: ٣١٣.

٥. في تفسير روح البيان: آزر.

قيل: إن التقدير هذا المتلوه عليك ذكر رحمة ربك التي رجم بها عبده زكريا^١.

وقيل: إن التقدير أعني عبده^٢.

وعن الباقر عليه السلام: «ذَكَرْتُ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا» فرحمه^٣، «إِذْ نَادَى رَبَّهُ» ودُعا^٤ «بِدُعاء»

ودُعاء «خَفِيًّا» في محراب بيت المقدس من بعد تقرب القران، على ما قيل^٥.

وإنما أخفى دُعاءه: لأنه أقرب إلى الإخلاص والإجابة. كما في الحديث: «خَيْرُ الدُّعَاءِ مَا خَفِيَ»^٥.

أو لخوفه من اطلاع مَوَالِيه الذين كان يخافهم^٦. أو لكونه في الصلاة^٧. أو لئلا يَلامَ على طلب الولد

في الشيخوخة. أو ليُصغفه وهرمه^٨.

و«قَالَ» في دُعاءه: «رَبِّ إِنِّي وَهَنٌ» وَضَعُفٌ «الْعَظْمُ مَيْئٌ».

قيل: اشتكى سقوط أضراسه^٩ «وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا» وَابْتَضَّ شَعُورُهُ هَرَمًا «وَلَمْ أَكُنْ» مِنْ بَدْوِ

عُمري إلى الآن «بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا» وَخَانِبًا، بَلْ كُلُّمَا دَعَوْتُكَ اسْتَجِبْتَ لِي، فَعَوْدَتِي إِنْجَاحٌ مَسْأَلَتِي

حين كنت قوياً، فكيف تزُدني عن بَابِكَ مَعَ كَمَالِ رَجَائِي بِكَرَمِكَ وَنِهَايَةِ ضَعْفِي وَشِدَّةِ حَاجَتِي إِلَى

رَحْمَتِكَ؟ فَتَوَسَّلْ بِرَحْمَتِهِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ ذِكْرِ مَا يَسْتَدْعِي الْإِجَابَةَ وَالرَّافِعَةَ مِنْ كِبَرِ السِّنِّ وَضَعْفِ

الحال.

ثم ذكر ارتباط حاجته بأمر الدين المقتضي لِقَضَائِهَا بقوله: «وَأِنِّي» أرى نَفْسِي مُشْرِفَةً عَلَى الْمَوْتِ

و«خَفْتُ الْمَوَالِي» وَبَنِي الْعُمُومَةِ «مِنْ وَرَائِي» وَبَعْدَ مَوْتِي أَنْ لَا يُحْسِنُوا خِلَافَتِي عَلَى بَنِي

إِسْرَائِيلَ، فَيَغَيِّرُوا دِينَهُمْ. قيل: كان بنو عمه شِرَارَ بَنِي إِسْرَائِيلَ^{١٠}.

وعن الباقر عليه السلام في تفسير الموالى قال: «هم العمومة وبنو العم»^{١١}.

والقمي يقول: خَفْتُ الْوَرْتَةَ بَعْدِي^{١٢} «وَكَاثِبَ أَمْرَاتِي» وَزَوْجَتِي إِشَاعَ بِنْتَ فَاوُذَ عَلَى قَوْلِ^{١٣}.

أو بنت عمران على آخر^{١٤} «عَاقِرًا» لَمْ تَلِدْ أَبَدًا «فَهَبْ لِي» وَأَعْطِنِي «مِنْ لَدُنْكَ» وَمِنْ مَخْضِ

رَحْمَتِكَ وَتُضَلِّكَ وَسَعَةِ قُدْرَتِكَ بِطَرِيقِ الْإِخْتِرَاعِ وَخَرَقِ الْعَادَةِ «وَلِيًّا» وَوَلَدًا مِنْ صُلْبِي «يَرْتُنِي»

جَمِيعَ تَرَكَّتِي مِنَ الْمَالِ وَالْعِلْمِ وَالْدِينِ وَالنَّبُوءَةِ، كَمَا رَوَاهُ الْفَخْرُ الرَّازِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ

١. تفسير الرازي ٢١: ١٨٠.

٢. تفسير الرازي ٢١: ١٧٩.

٣. تفسير القمي ٢: ٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٧٣.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٣١٣.

٥. مجمع البيان ٦: ٧٧٦، تفسير الصافي ٣: ٢٧٣.

٦. تفسير الرازي ٢١: ١٨٠، تفسير روح البيان ٥: ٣١٣.

٧. تفسير الرازي ٢١: ١٨٠.

٨. تفسير الرازي ٢١: ١٨٠، تفسير البيضاوي ٢: ٢٧.

٩. تفسير روح البيان ٥: ٣١٣.

١٠. تفسير روح البيان ٥: ٣١٤.

١١. مجمع البيان ٦: ٧٧٦، تفسير الصافي ٣: ٢٧٣.

١٢. تفسير القمي ٢: ٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٧٣.

١٣ و ١٤. تفسير روح البيان ٥: ٣١٤.

والضحَّاك^١.

﴿وَيُورِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ بن إسحاق، أو يعقوب بن ماثان أخي عمران بن ماثان أبي مريم الملك، كما عن الكلبي ومقاتل^٢ ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ وَمَرْضِيًّا عِنْدَكَ قَوْلًا وَفِعْلًا.

نسي أن الانبياء والعَجَب من بعض العامة أَنَّهُمْ خَصَّوْا الْإِرْثَ فِي الْآيَةِ بِالْعِلْمِ وَالنَّبُوءَةِ وَالذِّنِّ، لِلرَّوَايَةِ يُورِثُونَ الْمَالَ خِلَافًا لِلْعَامَةِ
المجعولة عندنا المقبولة عندهم عن النبي ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»^٣. مع أَنَّ الْفَخْرَ الرَّازِيَّ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَالضَّحَّاكَ أَنَّهُمْ

خَصَّوْا الْإِرْثَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِالْمَالِ^٤.

وعن ابن عباس والسُّدِّيَّ ومجاهد والشَّعْبِيَّ والحسن والضَّحَّاك أَنَّ الْمِيرَاثَ فِي ﴿يُورِثُنِي﴾ الْمَالَ، وَفِي ﴿وَيُورِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ النَّبُوءَةُ^٥.

ولا يخفى أَنَّ قَوْلَ هَؤُلَاءِ الْأَعَاظِمِ يُنَافِي الرَّوَايَةَ الَّتِي رَوَاهَا أَبُو بَكْرٍ وَتَفَرَّدَ بِتَقْلِيدِهَا، مِثْلُهَا إِلَى أَنَّ فَاطِمَةَ عليها السلام اسْتَدَلَّتْ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَنَظَائِرِهَا مِمَّا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يُورِثُونَ الْمَالَ عَلَى كَيْدِ الرَّوَايَةِ^٦، وَقَرَّرَهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ^٧، وَلَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِكُونِهِمَا جَاهِلِينَ بِتَفْسِيرِ الْآيَةِ، مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ زَقَّاهُمَا الْعِلْمَ زَقًّا، خُصُوصًا عِلْمَ الْقُرْآنِ، مَعَ أَنَّ زَكَرِيَّا جَعَلَ وَجُودَ الْوَلَدِ لَهُ مَأْمَنًا مِنْ خَوْفِهِ مِنْ مَوَالِيهِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ الْأَمْرُ إِذَا كَانَ خَوْفُهُ مِنْ أَنَّ يَكُونَ بَتُّو عَمَهُ وَارِثِينَ لِمَالِهِ، فَيَصْرِفُوهُ فِي الصَّرْفِ عَنِ الْحَقِّ وَتَغْيِيرِ الدِّينِ، وَإِلَّا فَكَمْ مِنْ نَبِيٍّ كَانَ مَغْلُوبًا لِلْأَشْرَارِ وَمَغْمُومًا وَخَائِفًا مِنَ الْكُفَّارِ.

ودعوى أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمَرَادُ مِنَ الْإِرْثِ إِرْثُ الْمَالِ، لَزِمَ الْقَوْلُ بِعَدَمِ اسْتِجَابَةِ دَعَاءِ زَكَرِيَّا؛ لِأَنَّ يَحْيَى قُتِلَ فِي حَيَاةِ زَكَرِيَّا وَلَمْ يَرِثْ مَالَهُ، فَبَاطِلٌ جَدًّا. لِلْمَنْعِ مِنْ قَتْلِهِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ، بِتَصْرِيحِ جَمْعٍ مِنَ الْأَعَاظِمِ كَالزَّمْخَشَرِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ وَغَيْرِهِمَا بِخِلَافِهِ^٨. مَعَ أَنَّ الْإِعْتِرَاضَ مُشْتَرَكٌ الْوَرُودُ؛ لِأَنَّ إِرْثَ الْعِلْمِ وَالنَّبُوءَةِ أَيْضًا لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِ الْمَوْرَثِ. وَعَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمَدْعِي لَمْ يَصِرْ يَحْيَى وَارِثًا لِنَبُوءَةِ زَكَرِيَّا أَيْضًا، مَعَ أَنَّ النَّبُوءَةَ لَمْ يُمْكِنُ أَنْ يَرِثَهَا الْأَشْرَارُ، وَأَنْ تَنْقَطِعَ مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَكَانَ لَزَكَرِيَّا وَرَثَةُ النَّبُوءَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ مِنْ صُلْبِهِ. مَعَ أَنَّهُ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «رَجِمَ اللَّهُ زَكَرِيَّا،

١. تفسير الرازي ٢١: ١٨٤.

٢. تفسير الرازي ٢١: ١٨٥.

٣. تفسير الرازي ٢١: ١٨٤، تفسير أبي السعود ٥: ٢٥٥.

٤. تفسير الرازي ٢١: ١٨٤.

٥. الاحتجاج ١: ١٠٢.

٦. كشف الغمة ١: ٤٧٧.

٨. ذكر الطبري في تفسيره ١٦: ٣٧ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: يَرِثُنِي بَعْدَ فَاتِنِي مَالِي، وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبِ النَّبُوءَةُ. ثُمَّ عَدَّدَ جَمْعًا مِنَ الْمَفْسِّرِينَ الْقَائِلِينَ بِهَذَا، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى بَقَاءِ يَحْيَى بَعْدَ وَفَاةِ زَكَرِيَّا عليه السلام.

لم يكن له من وَرَثَةٍ^١ يعني ورثة المال.

مضافاً إلى أنه سأل الله أن يجعل وارثه مرضياً، ولو كان المراد من الأثر إرث النبوة، كان هذا السؤال مستدرَكاً ولغوياً؛ لأن النبي لا يكون إلا مرضياً، والقول بأن الأنبياء وإن كانوا مرضيين إلا أن الرضا منهم مفضل عليهم. أو أن المراد بالمرضي المَرْضَى لأمرته لا يتلقى بالتكذيب والرد، أو أن المراد أن لا يكون متهما في شيء، ولا يوجد فيه مَطْعَنٌ، ولا يُنسَب إليه شيء من المعاصي. أو أن المراد ثبته على كونه مرضياً، كما قال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾^٢ أي يثبتنا على إسلامنا، فكلها خلاف الظاهر، لا يُصار إليه إلا بِدَلِيلٍ مُعْتَبَرٍ. وليست الرواية المجعولة أو الظنية على قول العامة قابلة لَصَرْفِ الآية عن ظاهرها.

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ
أَتُنِي بِكَوْنٍ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ
كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكْ شَيْئًا [٧-٩]

ثم أَخْبَرَ سبحانه باستجابة دعائه وقال بالإلهام، أو بتوسط الملك: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ
وَلَوْ ذَكَرْ^٤ يَكُونُ مِنْ كَرَامَةِ عَلِيٍّ أَنْ سَمِيَّاهُ قَبْلُ وَلادته ﴿اسْمُهُ يَحْيَى﴾ لأنه أحياه عُفْرَتَهُ، كما عن
ابن عباس^٥. أو لأنه أحياه قلبه بالإيمان والطاعة^٦. أو لأنه اشْتَهَدَ الشَّهَدَاءُ أحياء^٧. أو لأن الدين به
يحيى^٨. أو لأنه ذابح الكبش الأثْلَحَ الذي هو صُورَةُ الموت في القيامة فيذبحه فيحيا الفريقان^٩. أو
لجميع الوجوه و﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ ولا في الأزمنة السابقة ﴿سَمِيًّا﴾ وموافقاً في الاسم، كما عن
ابن عباس^{١٠}. عن القمي: لَمْ يُسَمَّ بِاسْمِهِ أَحَدٌ قَبْلَهُ^{١١}.

﴿قَالَ﴾ زكريا استعظماً لِقُدْرَةِ الله واستِغْجَاباً مِنْ وَقُوعِ الخارق للعادة: ﴿رَبِّ أَتُنِي بِكَوْنٍ لِي
وكيف يتولد مِنِّي ﴿غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لم تَلِدْ في شبابها فكيف وهي الآن عَجُوزٌ ﴿وَقَدْ
بَلَغْتُ﴾ أنا ﴿مِنَ﴾ أَجْلِ ﴿الْكِبَرِ﴾ في السِّنِّ ﴿عِتِيًّا﴾ ومستهاء.

وإنما ذكر ذلك للاعتراف بأن وجود الولد منه مع كونه شيخاً فانياً، ومن امْرَأَتِهِ مع كونها عَجُوزًا

١. تفسير الرازي ٢١: ١٨٤. ٢. البقرة: ١٢٨/٢. ٣. تفسير الرازي ٢١: ١٨٥.
٤. في النسخة: ذكور. ٥. ٧-٥. تفسير الرازي ٢١: ١٨٦. ٨. تفسير الرازي ٢١: ١٨٧.
٩. لم نجد رواية في هذا المعنى في تفسير هذه الآية أو في سبب تسمية يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن وردت عدة روايات
وبنفس المضمون دون ذكر اسم يحيى في تفسير الآية ٣٩ من هذه السورة، وسيأتي بعضها في هذا التفسير، راجع:
تفسير أبي السعود ٥: ٢٦٦، تفسير روح البيان ٥: ٣٣٥، تفسير الرازي ٢١: ٢٢١. ١٠. تفسير الرازي ٢١: ١٨٦.
١١. تفسير القمي ٢: ٤٨، تفسير الصافي ٣: ٢٧٤.

عاقراً، لا يكون إلا بقدرته القاهرة وإلغاء الأسباب الظاهرة.

وقيل: إن المقصود من السؤال عن وجود الغلام منهما أنه يكون يردهما إلى الشباب؟ أو مع إبقائهما على حال الهرم؟^١

﴿قَالَ﴾ سبحانه بالإلهام، أو بتوسط الملك: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ لا خُلف فيه ولا غلط. قيل: إن المعنى: الأمر كذلك، تصديقاً له. ثم ابتداء بقوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ^٢ هُوَ عَلَى هَيْئٍ﴾ وقيل: ذلك إشارة إلى مبهم يفسره بقوله: ﴿هُوَ عَلَى هَيْئٍ﴾^٣.

قيل: إن معنى قوله: ﴿أَنْتَ يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ هو أنك تعطيني الغلام على حالنا من الشيخوخة؟ ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ يعني نعم يهب لك الغلام، وانثما على تلك الحالة^٤. ثم استدلل على قدرته بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكْ شَيْئاً﴾ مذكوراً، فمن كان قادراً على خلقك من العدم قادرٌ على خلق الولد من الشيخ والشيخة بطريق أولى.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً [١٠ و ١١]

ثم لما لم يبين سبحانه وقت الولادة، سأل الله آية تدل على وقتها بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ ودلالة تدل على تحقق الولد لأتلقى نعمتك بالشكر بذو حدوثها ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿آيَتُكَ﴾ ودليلك على ذلك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ بكلام دنيوي، ولا تقدر على التطلق بغير ذكر الله ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ بأيامها مع كونك ﴿سَوِيّاً﴾ وسالماً من الأمراض والآفات الموجبة لاعتقال اللسان. قيل: إنه رجع تلك الليلة إلى امرأته فقربها، فانهقدت الطُفلة في رحمها، ثم اشتغل بالعبادة والصلاة في محرابه المختص به، فلما أصبح امتنع عليه التكلم مع الناس^٥ ﴿فَخَرَجَ﴾ في صبيحة ليلة، حملت فيها امرأته ﴿عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ والمصلى.

قيل: إن القوم كانوا من وراء المحراب ينتظرون أن يفتح لهم الباب فيدخلوا ويصلوا، إذ خرج زكريا عليهم متغير اللون صامتاً فأنكروه وقالوا: مَالِكٌ يَا زَكْرِيَا^٦ ﴿فَأَوْحَى﴾ وأشار ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بيده أو بغيرها ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ لله وصلوا ﴿بُكْرَةً﴾ وبين الطلوعين ﴿وَعَشِيّاً﴾ وبين الزوال والمغرب، على ما قيل^٧.

٢. تفسير الرازي ٢١: ١٨٨.

١. تفسير الرازي ٢١: ١٨٨، تفسير روح البيان ٥: ٣١٧.

٤. تفسير الرازي ٢١: ١٨٩.

٣. تفسير الرازي ٢١: ١٨٨.

٦. تفسير أبي السعود ٥: ٢٥٨، تفسير روح البيان ٥: ٣١٨.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٣١٨.

٧. تفسير روح البيان ٥: ٣١٨.

وقيل: كان القوم يَصَلُّون في الوقتين بإذنه^١. ثم مضى الحال على زكريا كذلك ثلاثة أيام بلياليها، ثم عاد إلى حالته الأولى.

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً
وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا [١٢-١٤]

ثم تولد يحيى عليه السلام بعد مضي مدة حملِه ونمًا، وكان في صغره يَلتَمِس الصفوف ويوافق الأخيار في الرياضة والعبادة، حتى نزل عليه الوحي، وخاطبَه الله إلهامًا بقوله: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ﴾ المنزل على موسى واعمل به ﴿بِقُوَّةٍ﴾ وجد واستظهار بالتوفيق والتأييد، واضبر على مشاق النبوة وتحمل أعباء الرسالة.

نسي ذكر صفات يحيى وفضائله ثم أخبر سبحانه بجلالة شأنه في الصبي بقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ من العقل الكامل وفهم حقائق التوراة والفقه في الدين والنبوة والرسالة في وقت كونه ﴿صَبِيًّا﴾ غير بالغ الخُلُم ﴿وَوُكِّلَ لَهُ﴾ آتيناؤه ﴿حَنَانًا﴾ وعطوفته عظيمة ورحمة خاصة ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ وبسعة فضلنا ﴿وَزَكَاةً﴾ وطهارة من كل ذنب ونقص ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ وخائفا من ربه، أو مخترزا من كل ما لا يليق بمقامه، ﴿وَوُكِّلَ لَهُ﴾ كان ﴿بَرًّا﴾ ورَحِيمًا ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ ومُحْسِنًا إليهما ﴿وَلَمْ يَكُنْ﴾ في أن من أوان عمره ﴿جَبَّارًا﴾ ومتكبراً عليهما، أو على أحد من الناس، أو مُسِينًا إليهما، أو إلى أحد ﴿عَصِيًّا﴾ وعاقا لهما، أو عاصياً لربه.

وعن تفسير الإمام عليه السلام: «ما ألحق الله صبيًّا برجالٍ كاملِي العقول إلا هؤلاء الأربعة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، والحسن، والحسين».

ثم ذكر قصتهم، وذكر في قصة يحيى قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ قال: «ومن ذلك الحكم أنه كان صبيًّا فقال له الصبيان: هل تَلْعَب؟ قال: والله ما للعب خُلِفنا، وإنما خُلِفنا للجدِّ لأمرٍ عظيم. ثم قال: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يعني تَحَنُّنًا ورحمةً على والديه وسائر عبادنا ﴿وَزَكَاةً﴾ يعني طهارة لمن آمن به وصدقه ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ يتقى الشرور والمعاصي ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ مُحْسِنًا إليهما مطيعاً لهما ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ يقتل على الغضب، ويضرب على الغضب، [لكنه] ما من عبد لله تعالى إلا وقد أخطأ أو همَّ بِخَطِيئَةٍ إلا يحيى بن زكريا فلم يَذْنِب ولم يَهَمْ بِالذَّنْبِ^٢.

١. تفسير الرازي ٢١: ١٩١.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٦٥٩، تفسير الصافي ٣: ٢٧٥.

وعن الباقر عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ مَا عَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا؟﴾ قَالَ: «تَحَنُّنُ اللَّهِ» ثُمَّ سُئِلَ فَمَا بَلَغَ مِنْ تَحَنُّنِ اللَّهِ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «كَانَ إِذَا قَالَ: يَا رَبِّ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: لِيَبْكُ يَا يَحْيَى»^١.

وعن الصادق عليه السلام: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَالَ فِي دُعَائِهِ: يَا رَبِّ يَا اللَّهُ، نَادَهُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ: لَيْبِكُ يَا يَحْيَى سَلْ حَاجَتَكَ»^٢.

وعن (الكافي) عن الباقر عليه السلام: «مَاتَ زَكَرِيَّا فَوَرِثَهُ يَحْيَى الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَهُوَ صَبِيٌّ صَغِيرٌ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ^٣.

وعن الجواد عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ اخْتَجَّ فِي الْإِمَامَةِ بِمِثْلِ مَا اخْتَجَّ بِهِ فِي النَّبُوَّةِ فَقَالَ: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْخُكْمَ صَبِيًّا﴾»^٤.

وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا [١٥]

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ بِأَكْرَامِهِ وَتَعْظُمِهِ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَسَلَامٌ﴾ وَأَمَّا مِنْ اللَّهِ ﴿عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ مِنْ أَنْ يَنَالَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ مَا يَنَالُ سَائِرُ بَنِي آدَمَ ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ﴾ مِنَ الْقَبْرِ ﴿حَيًّا﴾ إِلَى الْمَحْشَرِّ مِنْ عَذَابِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا.

رَوَى بَعْضُ الْعَامَّةِ: «أَنَّ أَوْحَشَ مَا يَكُونُ الْخَلْقُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: يَوْمَ يُوَلَّدُ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجًا مِمَّا كَانَ فِيهِ، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيَرَى قَوْمًا مَا شَاهَدَهُمْ قَطُّ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى نَفْسَهُ فِي مَحْشَرٍ عَظِيمٍ. فَأَكْرَمَ اللَّهُ يَحْيَى فَحَيَّاهُ^٥ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ الثَّلَاثَةِ»^٦.

وعن الرضا عليه السلام: «أَنَّ أَوْحَشَ مَا يَكُونُ هَذَا الْخَلْقُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: يَوْمَ يُوَلَّدُ وَيُخْرَجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ فَيَرَى الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيَعَايِنُ الْآخِرَةَ وَأَهْلَهَا، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى أَحْكَامًا لَمْ يَرَهَا فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ سَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى يَحْيَى فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْمَوَاطِنِ وَأَمَّنَ رَوْعَتَهُ»^٧ وَتَلَا الْآيَةَ^٨.

ثُمَّ اعْلَمَ أَنَّ فِي ذِكْرِ الْقِصَّةِ فَوَائِدَ كَثِيرَةً: مِنْهَا تَعْلِيمُ آدَابِ الدُّعَاءِ، أَوَّلُهَا: الْإِخْفَاءُ فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾^٩، الثَّانِي: ذِكْرُ عِزِّ النَّفْسِ وَضَعْفِهَا قَبْلَ سُؤَالِ الْحَاجَةِ، الثَّلَاثُ: ذِكْرُهُ كَثْرَةً نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، الرَّابِعُ: نِدَاءُ اللَّهِ بِوَصْفِ الرِّبَوِيَّةِ، الْخَامِسُ: إِظْهَارُ عَدَمِ كَوْنِ قَصْدِهِ بِالْدُّعَاءِ مُحْضٍ الدُّنْيَا بِلِ صَلَاحِ الدِّينِ.

١. الكافي ٢: ٣٨٩/٣٨، تفسير الصافي ٣: ٢٧٥.
 ٢. المحاسن: ٣٠/٣٥، تفسير الصافي ٣: ٢٧٥.
 ٣. الكافي ١: ٣١٣/١، تفسير الصافي ٣: ٢٧٥.
 ٤. الكافي ١: ٣١٥/٧، تفسير الصافي ٣: ٢٧٥.
 ٥. في تفسير الرازي: فحْضُهُ.
 ٦. تفسير الرازي ٢١: ١٩٣.
 ٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٥٧/١١، تفسير الصافي ٣: ٢٧٦.
 ٨. الأعراف: ٥٥/٧.

ومنها: بيان رفعة مقام زكريا ويحيى عليهما السلام، وكونهما نبيين مع كونهما من البشر. ومنها: بيان كمال قدرته تعالى. ومنها: بيان غاية لطفه بأوليائه. ومنها: وجوب البرّ بالوالدين، إلى غير ذلك.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَاتَّخَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا * فَتَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا آخُتُ هَازُونِ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءٌ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ

بَغِيًّا^(١٦-٢٨)

ثم أنه تعالى بين^١ كمال قدرته على خلق الولد من غير فحل بقوله: ﴿وَأَذْكُرُ﴾ يا محمد للناس ﴿فِي﴾ هذا ﴿الْكِتَابِ﴾ العظيم ﴿مَرْيَمَ﴾ بنت عمران بن ماثان وقصة احتيالها بعبسى ووقته بقوله: ﴿إِذِ اتَّخَذَتْ﴾ وَتَحَّتْ ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ وأقاربها وأنت ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ من بنت خالتها، أو أختها ابشاع زوجة زكريا.

قيل: احتاجت يوماً إلى الغسل، وكان وقت الشتاء، فجاءت إلى ناحية شرقية من الدار مقابل للشمس^٢ ﴿فَاتَّخَذَتْ﴾ وأزخت للستر من أهلها ﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾ وأدنى مكان منهم ﴿حِجَابًا﴾ وسترًا يسترها منهم إذا تعرّت.

وقيل: إنها طلبت خلوة للعبادة لئلا تشتغل عنها^٣.

والقمي: خرّجت إلى النخلة اليابسة^٤ ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جبرئيل ﴿فَتَمَثَّلَ﴾ وتصور ﴿لَهَا﴾

٢. تفسير روح البيان ٥: ٣٢١.

٤. تفسير الرأزي ٢١: ١٩٦.

١. في النسخة: بعد بيان.

٣. تفسير الرأزي ٢١: ١٩٦.

بصورة البشر فرأته ﴿بَشَرًا﴾ شاباً أُمرد حَسَنَ الوجه ﴿سَوِيًّا﴾ ومُعْتَدلاً في الخِلْقَةِ والقامة.
وقيل: كان لها في منزل زكريا محرابٌ مخصوصٌ تسكنه، وكان إذا خرج أغلق عليها بابها، فتمنَّتْ
أَنْ تَتَّخِذَ خُلُوةً في الجَبَلِ لِتُفْلِي^١ رأسها، فانفجرت^٢ السَّقْفُ فخرجت إلى المَفَاةِ، فجلست في
المشرفة. وراء الجبل، فاتاها المَلَكُ^٣ في صورة شاب أُمرد وَضِيءِ الوجه جَعَدَ الشَّعْرُ.
وقيل: إِنَّهُ ظَهَرَ لَهَا في صورة يوسف أحد خُدَّام بيت المقدس^٤، فَلَمَّا رَأَتْهُ ﴿قَالَتْ﴾ تَعَفُّاً وَتَوَرَعاً:
يَا شَابُ ﴿إِنِّي أُعَوِّذُ بِالرَّحْمَنِ﴾، وَالتَّجَا إِلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ الواسعة ﴿مِنْكَ﴾ ومن شَوْءٍ قَضَدَكَ وَصَيَّنْعَكَ
﴿إِنْ كُنْتُ﴾ مؤمناً ﴿تَقِيًّا﴾ ثِبَالِي بالاستعاذة بالرحمن، فلا تتعرَّضْ لي واتَّعِظْ بتعويذي ﴿قَالَ﴾
جَبْرِئِيلُ: لَا تَخَافِي^٥ مِنِّي وَلَا تَوْهَمِي^٦ السُّوءِ فِي حَقِّي ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعدت به
جِئْتُكَ ﴿لَأَهَبَ لَكَ﴾ وَأُعْطِيكَ بِالْفَتْخِ فِي رُوعِكَ ﴿عُلَامًا زَكِيًّا﴾ طاهرًا من كُلِّ لَوْثٍ وَذَسٍّ، ومِبْرَءً
من كُلِّ نَقْصٍ وَثَنِينَ، فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ ﴿قَالَتْ﴾ تَعَجُّبًا من وقوع الأمر الخارق للعادة، لَا اسْتِبْعَادًا
من قُدْرَةِ اللَّهِ: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي﴾ وكيف يتولَّد مِنِّي ﴿عُلَامٌ وَ﴾ الْحَالُ أَنَّهُ ﴿لَمْ يَمَسِّنِي﴾ ولم يُبَايِرْني
﴿بَشَرًا﴾ بالنكاح ﴿لَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ وفاجرةً ﴿قَالَ﴾ جَبْرِئِيلُ: ﴿كَذَلِكَ﴾ الذي قُلْتَ ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى
هَيْئٍ﴾. قَدْ مَرَّتِ الْوُجُوهُ فِي ﴿كَذَلِكَ﴾ وما بعده.

ثم ذَكَرَ سبحانه علَّةَ خُرُوجِ الْعَادَةِ بِوَهْبِ الْغَلَامِ بِغَيْرِ فَحْلٍ بقوله: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً﴾ وبُرهَانًا قاطعًا
لِلنَّاسِ عَلَى قُدْرَتِنَا وَرِسَالَةِ هَذَا الْغَلَامِ.

قيل: إِنَّ التَّقْدِيرَ لثَبِينَ بِهِ قُدْرَتُنَا^٧ ﴿لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً﴾ عظيمةً ﴿مِنَّا﴾ عليهم، هدايةً لهم بهدایتِهِ
﴿وَكَانَ﴾ ذلك الْخَلْقُ الْعَجِيبُ ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ ومُقَدَّرًا في علمي السابق لا يَدُ من وقوعه.

ثم قيل: إِنَّ جَبْرِئِيلَ نَفَّخَ فِي جَنِّيْهَا^٨، أَوْ ذَبَّلَهَا^٩، أَوْ أَخَذَ بِكُمَّهَا وَنَفَخَ فِي دِرْعِهَا^{١٠}.

عن ابن عباس: فاطمأت مريم إلى قول جَبْرِئِيلَ، فَدَنَا مِنْهَا فَتَفَخَّخَ فِي جَنِّيِّ دِرْعِهَا^{١١} ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾
عَقِيبَ نَفْخِ جَبْرِئِيلَ.

عن الباقر عليه السلام: إِنَّهُ تَنَاولَ جَنِّيَّ دِرْعِهَا^{١٢} فنَفَخَ فِيهِ نَفْخَةً، فَكَمَلَ الْوَلَدَ فِي الرَّحِمِ في سَاعَتِهِ، كَمَا
يَكْمُلُ فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ فِي تِسْعَةِ أَشْهُرٍ، فَخَرَجَتْ مِنَ الْمُسْتَحَمِّ وَهِيَ حَامِلٌ فَحَجَّجَ^{١٣} مُثْقَلٌ، فَظَرُثَ

١. في النسخة: لتضل. ٢. في النسخة: فانفجر. ٣. تفسير الرازي ٢١: ١٩٦.

٤. تفسير الرازي ٢١: ١٩٦. ٥. في النسخة: تخف. ٦. في النسخة: ولا توهم.

٧. تفسير أبي السعود ٥: ٢٦١. ٨-١٠. تفسير الرازي ٢١: ٢٠١.

١١. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٤. ١٢. في مجمع البيان: مدرعتها.

١٣. كذا، وفي مجمع البيان: محج، وفي الصافي: محجج، ولعلها تصحيف: تفحج، أي تباعد بين رجلها، كما هو شأن

إليها خالتها فانكرتها، ومضت مريم على وجهها مستحبة من خالتها ومن زكريا^١.

وعنه عليه السلام: «أُن مريم حملت بعيسى تسع ساعات»^٢.

﴿فَانْتَبَذَتْ﴾ مريم وَاَعْتَزَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا وَعِيسَى فِي بَطْنِهَا وَتَبَاعَدَتْ ﴿بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ وموضعا بعيدا من قومها.

روى بعض العامة عن وهب: أن مريم لما حملت بعيسى عليه السلام كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار، وكانا مُتَطَلِّقَيْنِ إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكانا يتخذمان ذلك المسجد، ولا يعلم في زمانهما أحد أشدَّ اجتهادا وعبادة منهما، وأول من عَرَفَ حَمْلَ مريم يوسف، فتَحَيَّرَ في أمرها، فكلما أراد أن يَتَهَمَهَا ذكر صلاحها وعبادتها وأنها لم تَغِبْ عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يَبْرِّءَهَا رأى الذي ظَهَرَ منها مِنَ الْحَمْلِ، فأول ما تَلَكَّمُ أن قال: إِنَّهُ وَقَعَ فِي قَلْبِي مِنْ أَمْرِكَ شَيْءٌ، وقد حَرَصْتُ عَلَى كَيْفَانِهِ، فَغَلَبَنِي ذَلِكَ، فرأيت أن الكلام فيه أشقى لصدري. فقالت: قُلْ قَوْلًا جَمِيلًا. قال: أخبريني - يا مريم - هل يَبْثُ زَرْعٌ بغير بَذَرٍ؟ وهل تَبْثُ شَجَرَةٌ بغير عَرْسٍ؟ وهل يَكُونُ وَلَدٌ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ؟ قالت: نَعَمْ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَنْبَتَ الزَّرْعَ يَوْمَ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ بَذَرٍ، وَهَذَا الْبَذَرُ إِنَّمَا حَصَلَ مِنَ الزَّرْعِ الَّذِي أَنْبَتَهُ مِنْ غَيْرِ بَذَرٍ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْبَتَ الشَّجَرَ مِنْ غَيْرِ عِثٍّ، وَإِلْقَادَرَةَ جَعَلَ الْغَيْثَ حَيَاةَ الشَّجَرِ بعدما خَلَقَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى حِدَةٍ؟ أَوْ تَقُولُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُنْبِتَ الشَّجَرَ حَتَّى اسْتَعَانَ بِالْمَاءِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِنْبَاتِهَا؟

فقال يوسف: لَا أَقُولُ هَذَا، وَلَكِنِّي أَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ، فَيَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فقالت له مريم: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَأَمْرَأَتَهُ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى؟ فعند ذلك زالت التَّهْمَةُ عَنْ قَلْبِهِ، وَكَانَ يَتُوبُ عَنْهَا فِي خِدْمَةِ الْمَسْجِدِ لِاسْتِثْلَاءِ الضَّعْفِ عَلَيْهَا بِسَبَبِ الْحَمْلِ وَضِيقِ الْقَلْبِ، فَلَمَّا دَنَا بِفَاسِهَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهَا أَنْ اخْرُجِي مِنْ أَرْضِ قَوْمِكَ لِئَلَّا يَقْتُلُوا وَلَدَكَ، فَاحْتَمَلَهَا يَوْسُفُ إِلَى أَرْضِ [مِصْرَ] عَلَى حِمَارٍ لَهُ، فَلَمَّا بَلَغَتْ تِلْكَ الْبِلَادَ أَدْرَكَهَا النَّفَاسُ، فَالْجَأَتْ إِلَى أَصْلِ نَخْلَةٍ، وَذَلِكَ فِي زَمَانٍ بَرْدٍ، فَاحْتَضَتْهَا فَوَضَعَتْ عِنْدَهَا^٣.

وقيل: إِنَّهَا اسْتَحْيَتْ مِنْ زَكَرِيَّا، فَذَهَبَتْ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ، لَا يَعْلَمُ بِهَا زَكَرِيَّا^٤.

وقيل: إِنَّهَا خَافَتْ مِنْ قَوْمِهَا عَلَى وَلَدِهَا^٥. وعلى أَيِّ تَقْدِيرٍ خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهَا، أَوْ مِنْ مَنْزِلِ

→ النساء المنفلات بالحمل.

١. مجمع البيان ٦: ٧٨٩، تفسير الصافي ٣: ٢٧٧.

٢. الكافي ٨: ٣٣٢/٥١٦، تفسير الصافي ٣: ٢٧٧.

٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٠١.

٤ و ٥. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٢.

زكريّا في جوف الليل إلى خارج بيت المقدس على ما قيل^١. أو من دمشق إلى كربلاء، كما عن السجّاد عليه السلام^٢. فأخذها الطلق «فَأَجَاءَهَا» وَانْجَاءَهَا «الْمَخَاضُ» وَوَقَعَ الْوَلَادَةُ «إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ» الْيَابِسَةِ لَتَسْتَبِيرَ بِهَا وَتَعْتَمِدَ عَلَيْهَا عِنْدَ الْوَلَادَةِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهَا قَابِلَةٌ تُعِينُهَا، أَوْ لِإِظْهَارِ الْمَعْجَزَةِ فِي الْجِذْعِ، وَهُوَ مَا بَيْنَ الْعِزِّ وَالْعُصْنِ، وَكَانَ مَجِيئُهَا إِلَى الْجِذْعِ بِالْهَامِ اللَّهُ.

القمي: كان ذلك اليوم سوق، فَاسْتَقْبَلَهَا الْحَاكَةُ، وَكَانَتِ الْحَاكَةُ أَتْبَلْ صِنَاعَةٍ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَاقْبَلُوا عَلَى بِغَالٍ شُهْبٍ، فَقَالَتْ لَهُمْ مَرِيْمُ: أَيْنَ النَّخْلَةُ الْيَابِسَةُ؟ فَاسْتَهْزَؤُوا بِهَا وَزَجَرَوْهَا. فَقَالَتْ لَهُمْ: جَعَلَ اللَّهُ كَسْبَكُمْ بُورًا، وَجَعَلَكُمْ فِي النَّاسِ عَارًا؛ ثُمَّ اسْتَقْبَلَهَا قَوْمٌ مِنَ التَّجَارِ فَدَلُّوْهَا عَلَى النَّخْلَةِ الْيَابِسَةِ، فَقَالَتْ لَهُمْ: جَعَلَ اللَّهُ الْبِرْكَهَ فِي كَسْبِكُمْ، وَأَخَوَجَ النَّاسَ إِلَيْكُمْ؛ فَلَمَّا بَلَغَتْ النَّخْلَةُ أَخْذَهَا الْمَخَاضِ فَوَضَعَتْ بَعِيسَى، فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَيْهِ «قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا»^٣ الْأَمْرُ، أَوْ هَذَا الْيَوْمِ، أَوْ هَذَا الْحَمْلِ «وَكُنْتُ نَسِيًّا» وَشَيْئًا مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُطْرَحَ لِحَقَارَتِهِ وَدَنَاءَتِهِ كَخِرْقَةِ الطَّمْثِ وَ«مَنْسِيًّا» عِنْدَ النَّاسِ لَا يَذْكُرُنِي أَحَدٌ.

قيل: إِنَّمَا قَالَتْ ذَلِكَ كَيْ لَا يَقَعَ أَحَدٌ فِي الْمَعْصِيَةِ، لِلتَّكَلُّمِ فِيهَا، وَإِلَّا فَإِنَّهَا كَانَتْ رَاضِيَةً مُسْرُورَةً بِوُقُوعِ مَا بُشِّرَتْ بِهِ^٤.

والقمي: «قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا» مَاذَا أَقُولُ لَخَالَتِي^٥، وَلَيْتَنِي إِسْرَائِيلُ؟ «فَنَادَاهَا» عِيسَى «مِنْ تَحْتِهَا» وَمِنْ مَكَانٍ أَسْفَلَ مِنْهَا، أَوْ مِنْ تَحْتَ النَّخْلَةِ تَطْيِيبًا لِغَلْبِهَا وَإِزَالَةً لِلْوَحْشَةِ عَنْهَا: «أَلَا تَحْزَنُنِي» بِسَبَبِ وِلَادَتِي وَفَحْطِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ «قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ» وَفِي مَكَانٍ أَسْفَلَ مِنْكَ «سَرِيًّا» وَنَهْرًا صَغِيرًا جَارِيًّا.

عن ابن عباس: أَنَّ حَبْرَيْلَ ضَرَبَ بِرِجْلِهِ الْأَرْضَ، فَظَهَرَتْ عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ، فَجَرَى جَدُولًا^٦.

وقيل: إِنَّ السَّرِيَّ سَيِّدُ الْقَوْمِ وَشَرِيفُهُمْ^٧ «وَهَزِي» وَاجْذِبِي «إِلَيْكَ» وَنَحُوكِ «بِجِذْعِ النَّخْلَةِ» الَّتِي فَوْقَ رَأْسِكَ «تُسَاقِطُ عَلَيْكَ» إِسْقَاطًا مُتَوَاتِرًا «رُطْبًا جَنِيًّا» طَرِيًّا، أَوْ صَالِحًا لِلاِجْتِنَاءِ. قِيلَ: كَانَ مِنَ الْعَجْزَةِ، وَهِيَ أَفْضَلُ التَّمْرِ^٨ «فَكُلِّي» يَا مَرِيْمُ مِنَ الرُّطْبِ «وَاشْرَبِي» مِنْ مَاءِ السَّرِيِّ «وَقَرِّي عَيْنًا» وَطَبِيبِي نَفْسًا، وَأَرَفُضِي عَنْكَ مَا أَحْزَنَكَ وَأَهْمَكَ، فَإِنَّ اللَّهَ نَزَّ سَاحَتِكَ بِالْخَوَارِقِ: مِنْ جَرِي

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٦.

٢. التهذيب ٦: ١٣٩/٧٣، تفسير الصافي ٣: ٢٧٧.

٣. تفسير القمي ٢: ٤٩، تفسير الصافي ٣: ٢٧٨.

٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٣.

٥. في المصدر: لخالتي.

٦. تفسير القمي ٣: ٤٩، تفسير الصافي ٣: ٢٧٨.

٧. تفسير أبي السعود ٥: ٦٦٢، تفسير روح البيان ٥: ٣٢٧.

٨. تفسير أبي السعود ٥: ٦٦٢، جوامع الجامع: ٢٧٣.

٩. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٨.

النَّهْرَ، وَاخْضِرَارِ النَّخْلَةِ الْيَابِسَةِ، وَإِنْمَارَهَا قَبْلَ وَقْتِهَا.

قيل: إِنَّ الْمَنَادِي كَانَ جَبْرِئِيلَ^١، فَإِنَّهُ كَانَ لَهَا كَالْقَابِلَةِ.

قيل: إِنَّمَا قَدَّمَ الْأَكْلَ لَكُونَ حَاجَتَهَا إِلَيْهِ أَشَدَّ^٢، وَأَخَّرَ تَأْمِينَهُ عَنِ الْخَوْفِ لِقُلْتُهُ بِبَشَارَةِ جَبْرِئِيلَ، وَإِنَّمَا جَاءَ رِزْقُهَا فِي الْمَخْرَابِ مِنَ الْجَنَّةِ حَالِ طِفْلَوْنِهَا لَعَدَمِ تَعَلُّقِ قَلْبِهَا بِشَيْءٍ هُنَاكَ، وَأُمِرَتْ بِهَرَجِ النَّخْلَةِ هُنَا لِعَاقِبَتِهَا بِالْوَلَدِ، وَإِنَّمَا أُمِرَتْ بِهَرَجِ النَّخْلَةِ لِأَنَّهَا تَعَجَّبَتْ مِنْ وَجُودِ الْوَلَدِ بِلَا فَعْلٍ، فَأَرَاهَا اللَّهُ الرُّطْبَ مِنَ النَّخْلَةِ الْيَابِسَةِ لِأَنَّهَا لَا تُثْمِرُ إِلَّا بِالتَّأْيِيرِ^٣ مِنْ لِقَاحِ الذَّكَرِ.

في الحديث: «إِذَا وَلَدَتْ امْرَأَةٌ فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَأْكُلُ الرُّطْبَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رُطْبٌ فَتَعَرَّ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ شَيْءٌ أَفْضَلَ مِنْهُ لَأَطْعَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ حِينَ وَلَدَتْ عِيسَى^٤».

قيل: إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ الْمَلَانِكَةَ لِيَكُونُوا عِنْدَ مَرْيَمَ حِينَ وَلَادَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا تَوَلَّدَ حَفَوا بِهِ وَقَمَطَوْهُ فِي حَرِيرِ الْجَنَّةِ، وَوَضَعُوهُ عِنْدَ مَرْيَمَ^٥.

ثُمَّ عَلَّمَهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ طَرِيقَ التَّخَلُّصِ مِنْ اعْتِرَاضِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ النَّبَشْرِ أَحَدًا﴾ وَإِنْ رَأَيْتَ مِنَ الْآدَمِيِّينَ شَخْصًا اعْتَرَضَ عَلَيْكَ ﴿فَقُولِي﴾ فِي جَوَابِهِ بِالْإِشَارَةِ: ﴿إِنِّي لَا أَتَكَلَّمُ وَلَا أُجِيبُكَ لَأَنِّي﴾ ﴿تَذَرْتُ﴾ وَجَعَلْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَصُومَ ﴿لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ وَامْسَاكًا مِنَ الْكَلَامِ، أَوْ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمَفْطَرَاتِ ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ قِيلَ: كَانَ صِيَامَ عَبَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْإِمْسَاكَ مِنَ الطَّعَامِ وَالْكَلَامِ، وَقَدْ تُسَيِّخُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ^٦.

عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَّ الصِّيَامَ لَيْسَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَخَذَهُ» ثُمَّ قَالَ: «قَالَتْ مَرْيَمُ: ﴿إِنِّي تَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أَيَّ صِمَاتٍ، فَإِذَا صُمْتُمْ فَاحْفَظُوا أَلْسِنَتَكُمْ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ»^٧. ثُمَّ احْتَضَنَتْ مَرْيَمَ وَلَدَهَا، وَرَجَعَتْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ مَرْيَمَ خَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهِمْ حِينَ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، وَجَاءَتْهُمْ عِنْدَ الظُّهْرِ وَمَعَهَا صَبِيٌّ^٨ ﴿تَحْمِلُهُ﴾ رُوي أَنَّ زَكَرِيَّا افْتَقَدَ مَرْيَمَ، فَلَمْ يَجِدْهَا فِي مَخْرَابِهَا، فَاعْتَمَ غَمًّا شَدِيدًا، وَقَالَ لَابْنِ خَالِهَا يُوسُفَ: أَخْرِجْ فِي طَلْبِهَا، فَخَرَجَ يَقْتَصُّ أَثَرَهَا حَتَّى لَقِيَهَا تَحْتَ النَّخْلَةِ، فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَى قَوْمِهَا، وَهُمْ أَهْلُ بَيْتِ صَالِحُونَ، وَزَكَرِيَّا جَالِسٌ مَعَهُمْ، بَكَوْا وَحَزَنُوا^٩ وَ﴿قَالُوا﴾ تَوْبِيخًا

٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٦.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٨.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٨.

٨. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٩.

١. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٤.

٣. أَثَرُ النَّخْلِ: لَفْحُهُ وَأَصْلَحُهُ.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٨.

٧. الكافي ٤: ٣/٨٧، تفسير الصافي ٣: ٢٧٩.

٩. تفسير روح البيان ٥: ٣٢٩.

لها: ﴿يَا مَرْيَمُ﴾ والله ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ وفعلت ﴿شَيْئًا﴾ وفعلًا ﴿فَرِيئًا﴾ وعظيمًا، أو منكراً عجيباً ﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ﴾ الصالح ونظيره في العبادة والتقوى، وقيل: كان لها أخ صالح اسمه هارون^١، وقيل: إن المراد هارون أخو موسى^٢.

عن النبي ﷺ: «إِنَّمَا عَنَّا هَارُونُ النَّبِيُّ، وَكَانَتْ مِنْ أَعْقَابِهِ، وَإِنَّمَا قِيلَ يَا أُخْتُ هَارُونَ كَمَا يَقَالُ يَا أَخَا هَمْدَانَ، أَيْ يَا وَاحِدًا مِنْهُمْ»^٣.

وعنه ﷺ: أَنَّهُ بَعَثَ الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ إِلَى نَجْرَانَ، فَقَالُوا: أَلَسْتُمْ تَقْرَأُونَ: ﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ﴾ وبينهما كذا وكذا، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «أَلَا قُلْتُ: إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ أَبْنَاءَهُمْ^٤ وَالصَّالِحِينَ مِنْهُمْ»^٥.

قال بعض العامة: إن هارون كان رجلاً مُغْلَبًا بالفسق فشبهوها به^٦.

وعن القمي: أن هارون كان رجلاً فاسقاً زانياً، فشبهوها به^٧.

ثم بالغوا في توبيخها بقولهم: ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ﴾ عمران ﴿أَمْرًا سَوِيًّا﴾ ورجلاً فاسقاً زانياً، كما عن ابن عباس^٨. قيل: كان أشرف الأخبار^٩ ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ﴾ حنة ﴿بَغِيًّا﴾ وزانية، فلم كنت سيئة العمل، ومن أين جئت بهذا الولد؟

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ
آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ
عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ
الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ [٢٩-٣٤]

فلما بالغ القوم في توبيخها، بل قيل إنهم هموا برجمها، وكان عيسى عليه السلام في حجرها يرتضع^{١٠} ﴿فَأَشَارَتْ﴾ مريم ﴿إِلَيْهِ﴾ وأجابتهم بالإيماء: أن هذا الرضيع في حجرى يُجَنِّبُكُمْ وأنا صائمة لا أتكلم، فعَضِبُوا غَضَبًا شَدِيدًا و﴿قَالُوا﴾: لَسَخَرِيَّهَا بِمَا أَشَدَّ مِنْ زَنَاهَا ﴿كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ﴾ شأنه أن يكون ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ أو من كان في حجر أمه يرتضع حال كونه ﴿صَبِيًّا﴾ لا يفهم السؤال ولا يُقَدِّرُ

٤. في النسخة: بآبائهم.

٦. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٨.

٧. تفسير القمي ٢: ٥٠.

٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٨.

٥. سعد السعدي: ٢٢١، تفسير الصافي ٣: ٢٧٩.

٧. تفسير القمي ٢: ٥٠، تفسير الصافي ٣: ٢٧٩.

١٠. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٨.

على الجواب؟ فلما سمع عيسى عليه السلام منهم ذلك ترك الرضاع، واثكأ على يساره، وأشار إلى نفسه بسبأته.

وقيل: إن زكريا عليه السلام أتى مريم عند ذلك، وقال لعيسى عليه السلام: انطق بحجتك إن كنت أمرت بها^١. فعند ذلك «قَالَ» عيسى: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ» ردأ على من يقول إنه الله أو شريكه أو ولده. «آتَانِي الْكِتَابُ» المسمى بالإنجيل «وَجَعَلَنِي نَبِيًّا» في الصبي، كما هو قول بعض العامة، ومدلول بعض رواياتنا^٢. وعن ابن عباس أنه قال: المراد أنه حكم وقضى بأنه سيبعثني من بعد، ثم سكت عيسى وعاد إلى الصغر، ولما بلغ ثلاثين سنة بعثه الله^٣، ثم قال: «وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا» ونفاعة كما عن القمي، وجمع من العامة^٤، أو ثابتاً على الحق والدين^٥. أو مستعلياً بالحجة وغالياً مفلحاً^٦، أو معلماً للبشر دينهم^٧ وجميع ما فيه خيرهم «أَيُّنَ مَا كُنْتُ» في برٍّ أو بحر أو سهل أو جبل «وَأَوْصَانِي» وأمرني أمراً مؤكداً «بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ».

عن الصادق عليه السلام قال: «زكاة الرؤوس، لأن كل الناس لئست لهم أموال، وإنما الفطرة على الغني والفقير والصغير والكبير»^٨. «مَا دُمْتُ حَيًّا» في الدنيا «وَوَجَعَلَنِي بُرًّا» ومُحْسِنًا «بِوَالِدَتِي» مَرْزُومٍ «وَلَمْ يَجْعَلَنِي جَبَّارًا» ومتكبراً و«شَقِيًّا» وعاصياً بالعقوق وغيره.

عن الصادق عليه السلام: أنه عد من الكبائر العقوق قال: «لأن الله جعل العاق جباراً شقيًّا في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: «وَبَرًّا بِوَالِدَتِي» الآية^٩، أغلن فيه بتبرته أمه، وأنه ولد بغير أب، ثم سأل السَّلامَةَ التي بشر الله بها يحيى عليه السلام بقوله: «وَالسَّلَامُ» والأمان الذي بشر الله به يحيى عليه السلام يكون «عَلَيَّ» أيضاً «يَوْمَ وَلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» وقد مر تفسيره^{١٠}.

وقيل: إن اللام في (السَّلام) للاستيفراق، والمعنى: كل السَّلام عليّ، ولا يكون لأعدائي الذين اتَّهَمُوا مَرْزُومَ بِلِ عَالِيهِمُ اللَّغْنِ^{١١}.

روي أن عيسى عليه السلام قال ليحيى: أئت خير مَنِي، سَلَّمَ الله عَلَيْكَ، وَسَلَّمْتُ عَلَى نَفْسِي^{١٢}. وقيل: إن تسليمه على نفسه بتسليم الله عليه^{١٣}.

١. تفسير الرازي ٢١: ٢٠٨.

٢. راجع: تفسير روح البيان ٥: ٣٣١، الكافي ١: ٣١٣ - ١/٣١٤ و٢.

٣. تفسير القمي ٢: ٥٠، تفسير الصافي ٣: ٢٨٠، تفسير البيضاوي ٢: ٣٠، تفسير أبي السعود ٥: ٢٦٤.

٤. تفسير الرازي ٢١: ٢١٤. ٥. تفسير القمي ٢: ٥٠، تفسير الصافي ٣: ٢٨٠.

٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨٦/٣٣، تفسير الصافي ٣: ٢٨١.

٧. في الآية (١٥) من هذه السورة. ٨. تفسير الرازي ٢١: ٢١٦.

ثم أنه تعالى بعد ذكر ولادة عيسى عليه السلام وحكاية اعترافه بالعبودية لله، بيّن بطلان قول النصارى بأنه ابن الله بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ المتولد من مريم بنفخ جبرئيل المعترف بالعبودية لله ورسالته هو ﴿عيسى ابن مريم﴾ لا الذي قالت النصارى بألوهيته، أو إنه ابن الله، قلنا لكم ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ والصدق. وقيل: إن المعنى أن عيسى كان قول الحق^١ وكلمة الله وروحه ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْثُرُونَ﴾ وفي شأنه يشكون ويختلفون.

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [٣٩-٣٥]

ثم بين امتناع كونه ولداً لله بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ وما صحَّ ﴿لَهُ أَنْ يَتَّخِذَ﴾ لنفسه ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾ لأن الولد لابد أن يكون مسانخاً لوالده، ولا تعدد لواجب الوجود ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتنزه من أن يكون له جنس وجسم وحاجة إلى الولد، لأنه ﴿إِذَا قَضَىٰ﴾ وأراد ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور وشيئاً من الأشياء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ ويشاء بالمشيئة التكوينية ﴿فَيَكُونُ﴾ ذلك الأمر ويوجد ذلك الشيء بصرف إرادته ومشئته بلا ريث، كالمأمور المطيع للأمر المطاع.

ثم عاد سبحانه إلى بيان بقية ما قال عيسى عليه السلام في المهد، أو بعد بعثته، بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ فإذا كان كذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده ولا تشرکوا به شيئاً من خلقه في الألوهية والعبادة، واعلموا أن ﴿هَذَا﴾ التوحيد الذي دعوتكم إليه وأمرتكم به ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ موصِّل لكم إلى كل خير وسعادة، لا يضل ولا يشقى سالكه ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ والجماعات الكثيرة من الناس المتحزبين ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ فقال حزب: إنه الله، وحزب: إنه ابن الله، وحزب: إنه شريك الله وثالث ثلاثة، وحزب: إنه عبد الله ونيبه ﴿فَوَيْلٌ﴾ ثابت وهلاك دائم ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من المختلفين ﴿مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ومعاينة أهوال القيامة ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ﴾ وما أسمعهم للهدى! ﴿وَأَبْصِرْ﴾ وما أبصرهم بالحق! ﴿يَوْمَ﴾ هم ﴿يَأْتُونَنَا﴾ فيه للحساب وجزاء الأعمال، فيصير الحق عندهم أبين من الشمس. وقيل: إن المعنى أسمع يا محمد بهم وأبصرهم وعرفهم حالهم في اليوم الذي أتونا^٢ فيه ﴿لَكِنِ

الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ» الذي تَمَّعَهُم البصيرة وتمييز الحق من الباطل - وهو الدنيا - مستقرّون ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ومُصْرُّونَ على الخطأ الواضح، ويكونُ عليهم حسرة ﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ يا محمد وخَوْفُهُمْ من يوم القيامة الذي يكون لهم ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ ووقت الندامة على الضلالة في الدنيا، وذلك الوقت ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وختم عليهم العذاب، ولم يبق لهم مجال التدارك.

عن النبي ﷺ أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فقال: «حين يُجاء بالموت على صورة كَبَشٍ أَمْلَحٍ، فيَذْبَحُ والفريقان يَنْظُرَانِ، فيزداد أهل الجنة فَرَحاً على فَرَحٍ، وأهل النار غَمّاً على غَمٍّ»^١. وعن الصادق عليه السلام: أنه سُئل عن هذه الآية فقال: «يُنَادِي منادٍ من عند الله عزَّ وجلَّ، وذلك بعد ما صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار: يا أهل الجنة وأهل النار، هَلْ تَعْرِفُونَ الموتَ في صورة من الصُّور؟ فيقولون: لا، فيؤتى بالموت في صورة كَبَشٍ أَمْلَحٍ، فيُوقَفُ بين الجنة والنار، ثم ينادون جميعاً: أشرِفوا وانظروا إلى الموت، فيُشْرِفُونَ، ثم يأمر الله عزَّ وجلَّ به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خَلُودٌ فلا موت، ويا أهل النار خَلُودٌ فلا موت أبداً، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي قُضِيَ على أهل الجنة بالخُلُود فيها، وقُضِيَ على أهل النار بالخُلُود فيها»^٢.

وفي رواية: «فيُفَرِّحُ أهل الجنة فرحاً لو كان أحد يومئذ ميتاً لماتوا فرحاً، وَيَشْهَقُ أهل النار شَهَقَةً لو كان أحد ميتاً لماتوا»^٣.

ثم أنه تعالى بعد الأمر بإنذارهم من ذلك اليوم ذَمُّهُمْ بقوله: ﴿وَهُمْ﴾ اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ من ذلك، ومن شدة حسرته، ومما يُثْعَلُ بهم فيه ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك اليوم حتى يَزُوْنَهُ، أو لا يؤمنون بك حتى يقبلوا إنذارك.

وقيل: إنَّ الجملتين حاليتين من الضمير المستتر في قوله: ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ والمعنى هم مستقرّون في ضلالٍ، وهم في غَفْلَةٍ، وهم لا يؤمنون، وما بين الحال وذی الحال اعتراض^٤.

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ * وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ
إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا
يُعْغِي عَنْكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي
أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً [٤٠-٤٣]

١. تفسير الرازي ٢١: ٢٢١، تفسير روح البيان ٥: ٣٣٥.

٢. تفسير القمي ٢: ٥٠، تفسير الصافي ٣: ٢٨٢.

٣. مجمع البيان ٦: ٧٩٥، تفسير الصافي ٣: ٢٨٢.

٤. تفسير أبي السعود ٥: ٢٦٦، تفسير روح البيان ٥: ٣٣٥.

ثُمَّ بَالَعَ سَبْحَانَهُ فِي إِرْعَابِ الْقُلُوبِ بَيَانِ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ خَاصَّةٌ لَا غَيْرَنَا ﴿تَرْتِثُ﴾ وَتَمْلِكُ ﴿الْأَرْضَ﴾ كُلَّهَا ﴿وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ وَمَا فِيهَا، فَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ مُلْكٌ وَسُلْطَانٌ غَيْرِنَا بَعْدَ النَّفْخَةِ الْأُولَى فِي الصُّورِ ﴿وَالَّذِينَ﴾ وَإِلَى حُكْمِنَا ﴿يُزْجَعُونَ﴾ وَيُزْدَوْنَ، فَحَسَبَ أَعْمَالَهُمْ وَنَجَزِيهِمْ حَسَبَ اسْتِحْقَاقِهِمْ، وَفِيهِ تَخْوِيفٌ عَظِيمٌ وَإِنْدَارٌ بَلِيغٌ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ نُبُوَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَعْوَتِهِ إِلَى التَّوْحِيدِ، ذَكَرَ نُبُوَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَعْوَتِهِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ كُنَّا﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿فِي﴾ هَذَا ﴿الْكِتَابِ﴾ الْكَرِيمِ لِقَوْمِكَ حَذَّكَ ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَهُ، فَإِنَّهُمْ مَفْتَخِرُونَ بِالْإِنْتِسَابِ إِلَيْهِ، مَقْرُونَ بِفَضْلِهِ وَحُسْنِ طَرِيقَتِهِ، وَقَالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّهُ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿كَانَ﴾ مُوَحِّدًا أَوْ صِدِّيقًا، وَمُتَلَاذِمًا لِلْحَقِّ وَمُبَالِغًا فِي تَصَدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ، وَكُتُبِهِمْ وَدِينِهِمْ، وَكَانَ هُوَ أَيْضًا ﴿نَبِيًّا﴾ عَظِيمِ الشَّانِ رَفِيعِ الْمَنْزِلَةِ.

وَإِذْ تَرَى ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ أَرَزَّ بَلِينَ وَلَطْفٍ وَأَدَبٍ ﴿يَا أَبَتِ﴾ لَا تَهْدَ فِي حُكْمِ الْعَقْلِ مِنْ كَوْنِ الْمَعْبُودِ قَادِرًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، سَمِيعًا لِدَعَاءِ الدَّاعِينَ وَمَسْأَلَةِ الْمُحْتَاجِينَ، بَصِيرًا بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ وَأَفْعَالِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ، مَغْنِيًا عَنْهُمْ، وَنَافِعًا لَهُمْ حَتَّى تَكُونَ عِبَادَتُهُ جَالِبَةً لِلنَّفْعِ، وَلَا يَكُونُ لَعْوًا وَلَا عَثْرًا، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ أَنْتَ ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ دُعَاكَ وَتَصْرُعُكَ ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ عِبَادَتَكَ وَخُضُوعَكَ ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ﴾ وَلَا يَنْفَعُكَ فِي حَوَائِجِكَ ﴿شَيْئًا﴾ سِيرًا لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي﴾ مِنْ قَبْلِ رَبِّي بِالْوَحْيِ وَالْإِلْهَامِ ﴿مِنْ الْعِلْمِ﴾ بِالْوَاقِعِيَّاتِ وَحَقَائِقِ الْأُمُورِ ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ إِذْ قَدْ ﴿فَاتَّبَعْنِي﴾ وَوَافَّقَنِي فِي الْعُقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ، وَأَقْبَلَ تَضَجِّي، وَلَا تَسْتَكْفِفُ عَنِ التَّعَلُّمِ مِنِّي، فَإِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ ﴿أَهْدِكَ﴾ وَارْتُدَّكَ ﴿صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ وَطَرِيقًا مُسْتَقِيمًا، يُوصلُكَ إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ وَخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَفِيهِ مِنْ حُسْنِ الدَّعْوَةِ مَا لَا يَخْفَى، حَيْثُ لَمْ يَدْعِ لِنَفْسِهِ الْعِلْمَ الْفَانِقَ وَلِأَبِيهِ الْجَهْلَ الْمُفْرَطَ، وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ، بَلَى ادَّعَى لِنَفْسِهِ زِيَادَةَ الْعِلْمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وَسَأَلَهُ الرِّفَاقَةَ فِي مَسْلَكٍ يَكُونُ أَغْرَفَ بِهِ.

يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَرِلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا أَعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا

وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا [٥٠-٤٤]

ثم بعد توبيخ أبيه على عبادة الأوثان زجره عنها بقوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾ إن عبادة الأصنام في الحقيقة عبادة الشيطان لكونها بتسويله، و ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ ولا تتبع خطواته وتسويلاته ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ﴾ في بدو خلقه أهلك آدم ﴿لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ حيث أمره بالسجود له فأبى واستكبر، ثم أغلن بعداوته لذريته، ومن الواضح أن طاعة العاصي مع شدة عداوته ثورث اليقم وتزليل النعم.

ثم حوِّفه مع إظهار المودة له^١ بقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ﴾ إن مت على ما أنت عليه من عبادة الأصنام من ﴿أَنْ يَمْسَكَ﴾ ويصيبك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ من الرّحمن مع سعة رحمته ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ﴾ بسبب طاعتك له ﴿وَلِيًّا﴾ وقرباً في العذاب الدائم، أو قريباً إليك وتليه.

فلما سمع أبوه ﷺ هذه النصائح، غضب وأنكر عليه اعتزاله عبادة الأصنام بقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ﴾ ومغرض ﴿أَنْتَ عَنْ﴾ عبادة ﴿إِلَهِي﴾ والأصنام التي أعبدتها ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ فإن الإغراض عن عبادتها لا ينبغي من عاقل فضلاً عن أن يقدم أحد على صرف الغير عنها، فباللات والغزى لئن لم تنته، ولم تنصرف من هذا القول الذي تهتكت عنه وعن إعراضك عن عبادة الأصنام الذي أزعرك عنها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ ولأقتلك برمي الأحجار، وقيل: يعني لأشتتك^٢، إذن فاحذرني ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ وتباعذ مني ﴿مَلِيًّا﴾ وزماناً طويلاً، لتسلم من بأسى، ولا تنطق عندي بهذه الخرافات.

فلما رأى إبراهيم ﷺ شدة غضب أزر عليه، وعدم قبوله الهداية والنصح ﴿قَالَ﴾: يا أبتي ﴿سَلَامٌ﴾ مِنِّي ﴿عَلَيْكَ﴾ لأصيبك بمكروه، ولا أقابلك بما يؤذيك، بل أحسن إليك في مقابل إساءتك. وقيل: إنه سلام توديع ومشاركة^٣، والمعنى أنا الآن أهجر وأفارقك، ولكن ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ وأسأله أن يوفقك للهداية وقبول الحق، وأرجو أن يجيب دعائي ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ولطيفاً في الغاية وبلوغاً في البر والعناية ﴿وَأَعْتَزَلَكَ﴾ وأنباعد عنكم يا عبدة الأصنام لما لا تقبلون نصحي ولا تهتدون بقولي ﴿وَأَعْتَزَلَ﴾ ما تدعون، وتعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ وحده وأعبده ﴿عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي﴾ اللطيف بي ﴿شَقِيًّا﴾ وخائباً، كما أنتم أشقياء خانيون في دعائكم الأصنام، وفي إظهار الرجاء باستجابة دعائه إظهاراً للتواضع والأدب، وأن الاجابة بالتفضل والكرم لا بالاستحقاق.

﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ﴾ وفارقهم في المكان بعد اليأس من اجتماعهم معه في الدين وتركهم ﴿وَمَا

١. في النسخة: به. ٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٢٨، تفسير روح البيان ٥: ٣٣٧.

٣. جوامع الجامع: ٢٧٥، تفسير الرازي ٢١: ٢٢٨، تفسير روح البيان ٥: ٣٣٧.

يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» وَلَمْ يَعارِضْهُمْ، بل هاجر من بلدهم وذهب إلى الأرض المقدسة ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾ بدل أقربائه الكثرة ﴿إِسْحَاقَ﴾ من صلبه بعد إسماعيل ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ من إسحاق ﴿وَوَكَّلْنَا﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وهذا من أفضل المواهب وأعظم النعم ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ﴾ مع منصب النبوة كل خير ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ وَفَضَّلْنَا.

وعن العسكري عليه السلام: «ووهبنا لهم - يعني لإبراهيم وإسحاق ويعقوب - من رحمتنا رسول الله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ﴾ في الناس إلى آخر الدهر ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ وثناء جميلاً ﴿عَلِيًّا﴾ ورفيعاً. عن العسكري عليه السلام: «يعني أمير المؤمنين عليه السلام»^١. فلم يتضرر إبراهيم عليه السلام من هجر الأقارب في الله، بل انتفع به أعلى المنافع الدنيوية والأخروية.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ
جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ
نَبِيًّا [٥١-٥٣]

ثم أنه تعالى بعد بيان مواهبه لإبراهيم عليه السلام والطافه به، ذَكَرَ مواهبه لموسى عليه السلام بقوله: ﴿وَأَذْكُرُ﴾ يا محمد لقومك، وأتلّ عليهم ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ الكريم ﴿مُوسَى﴾ بن عمران بن يصهر بن لاوي بن يعقوب ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أَخْلَصَهُ اللهُ للعبودية وبرّاة من الشرك والأخلاق الرذيلة والنقائص الخلقية والخلقية ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ مِنْ الله إلى عباده ﴿وَنَبِيًّا﴾ يُنبِئُهُمْ بما أوحى إليه، وإنما أُوْخِرَ ذكر نبوته عن ذكر رسالته مع كونها أخص وأرفع؛ لأنّ الإنباء بما أوحى إليه بعد إرساله، ولرعاية الفواصل. عن الباقر عليه السلام أنه سُئِلَ عن هذه الآية: ما الرسول وما النبي؟ فقال: «النبي الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يرى المَلَك، والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويُعَين المَلَك»^٢. ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ حين رجوعه من مدين يريد مصر، وكَلَّمْنَاهُ بصوتٍ عالٍ ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ وناحيته التي كانت في الطُّرفِ ﴿الْأَيْمَنِ﴾ منه، أو من موسى عليه السلام ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ إلينا تَقَرُّبٍ تشريفٍ حيث اخترناه لرفعة مقامه وعلو منزلته عندنا ﴿نَجِيًّا﴾ ومُخاطَباً بنحو المناجاة والمسارة، فشبهه سبحانه حال موسى عليه السلام بحال من قَرَّبَهُ المَلَكُ لمناجاته واصطفاه لمصاحبتِهِ.

وقيل: إنّ المنجي من النَّجاة، والمعنى قَرَّبْنَاهُ حال كونه نَجِيًّا من أعدائه^٣، مُسْتَخْلَصًا من مكاندهم

٢. الكافي ١: ١٣٤، تفسير الصافي ٣: ٢٨٤.

١. تفسير القمي ٢: ٥١، تفسير الصافي ٣: ٢٨٤.

٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٣١.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ وَبَفَضْلِنَا عَلَيْهِ وَرَأَيْنَاهُ بِـ «أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا» حَيْثُ قَالَ: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ * هَارُونَ أَخِي * أَشْدُّ بِهِ أَزْرَى * وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي^١.

عن ابن عباس: كان هارون أكبر من موسى ﷺ، وإنما وهب الله له نبوته لا شخصه وأخوته^٢.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ
يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا [٥٤ و ٥٥]

ثم أنه تعالى بعد ذكر إسحاق ويعقوب اللذين كانا شجرة الانبياء، وذكر موسى ﷺ الذي كان أفضل فرزعهما، ذكر إسماعيل بن إبراهيم ﷺ بقوله: ﴿وَأَذْكُرُ﴾ يا محمد ﴿فِي﴾ هذا ﴿الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ قيل: إنما فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه إظهاراً لِكَمَالِ الاعتناء بشأنه^٣، والمعنى أتل يا محمد على قومك قصة جدك إسماعيل ﷺ، ويُنِيرُ لَهُمْ غُلُوَّ مقامه ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ فيما بينه وبين الله، لم يخالف شيئاً مما أمر به، وفيما بينه وبين الناس.

عن ابن عباس: إن إسماعيل ﷺ وَعَدَ صاحباً له أن ينتظره في مكان فانتظره [سنة]^٤.

وعن الصادق ﷺ: «إِنَّمَا سُمِّيَ صَادِقَ الْوَعْدِ لِأَنَّهُ وَعَدَ رَجُلًا فِي مَكَانٍ فانتظره في ذلك المكان سنة، فسماه الله عز وجل صادق الوعد، ثم إن الرجل أتاه بعد ذلك، فقال له إسماعيل: ما زلت منتظراً لك»^٥.

وقيل: إنه وعد نفسه الصبر على الذبح، فوفى به^٦.

﴿وَكَانَ﴾ مع ذلك ﴿رَسُولًا﴾ ومبلغاً من الله إلى جُزْئِهِم والعَمَالِيق وقبائل اليمن على ما قيل^٧. و﴿نَبِيًّا﴾ القمي: [وهو إسماعيل بن حزقيل^٨. وفي المجمع]: قال: هو إسماعيل بن إبراهيم ﷺ، كان إذا وعد لم يخلف، وكان مع ذلك رسولاً نبياً إلى جُزْئِهِم، قال: وقيل: إن إسماعيل بن إبراهيم مات قبل أبيه، وأن هذا هو إسماعيل بن حزقيل^٩.

وعن الصادق ﷺ قال: «إِن إسماعيل الذي قال الله في كتابه: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ الآية، لم يكن إسماعيل بن إبراهيم، بل كان نبياً من الأنبياء بعثه الله إلى قومه فأخذوه وسلخوا فروة رأسه،

١. طه: ٣٢-٢٩/٢٠. ٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٣١.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٤٠. ٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٢، تفسير روح البيان ٥: ٣٤٠.

٥. الكافي ٢: ٨٦/٧، تفسير الصافي ٣: ٢٨٥. ٦. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٢، تفسير روح البيان ٥: ٣٤٠.

٧. تفسير روح البيان ٥: ٣٤١. ٨. تفسير القمي ٢: ٥١، وتفسير الصافي ٣: ٢٨٥.

٩. مجمع البيان ٦: ٨٠٠، تفسير الصافي ٣: ٢٨٥.

فاتاه ملك فقال: إن الله بعثني إليك فمُرني بما شئت، فقال: لي أسوة بما صنع بالأنبياء^١.
 «وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ» وأقاربه «بِالصَّلَاةِ» التي هي أفضل العبادات البدنية «وَالزَّكَاةِ» التي هي
 أفضل العبادات المالية «وَكَانَ» هو «عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا» وَمُخَوَّبًا لِنِيلِهِ بأعلى درجات العبودية
 والطاعة والانقياد.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا * أُولَٰئِكَ
 الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ
 ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ
 خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٦-٥٨)

في ذكر ترجمة إدريس النبي ﷺ ثم لما كان إدريس - على ما قيل - أول من تظاهر بالنبوة، ذكره الله بقوله: «وَأَذْكُرُ» يا
 محمد «فِي» هذا «الْكِتَابِ» لقومك «إِدْرِيسَ» وإنما لُقب به لكثرة دراسته، نزل
 عليه ثلاثون صحيفة، وكان اسمه اخنوخ، وولد قبل موت آدم ﷺ بمائة سنة، أو بعد
 موته بمائة سنة، وكان جد أبي نوح، وهو أول من وضع الميزان والمكيال، واتَّخَذَ السَّلَاحَ وجاهد في
 سبيل الله، وسبى واسترق بني قابيل، وخط بالقلم، ونظر في علم الحساب والنجوم، وخاط الثياب،
 ولبس القطن وكانوا يلبسون الجلود^٢.
 «وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا» رفيعاً عن ابن عباس: إنه رُفِعَ إلى السماء حياً، ثم قبض روحه فيها^٣. وقيل:
 إنه بقي حياً في السماء الرابعة^٤.

وقيل: إن أربعة من الأنبياء في الأحياء؛ اثنان في الأرض: الخضر والياس، واثنان في السماء: إدريس
 وعيسى^٥.

ثم أنه تعالى بعد مدح كل واحد من الأعظم المذكورين بالتفصيل، جمَعَهُمْ في الثناء والتجليل
 بقوله: «أُولَٰئِكَ» الأعظم المذكورون بعض من «الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» بأنواع النعم الدينية
 والدنيوية وأصناف المواهب الصورية والمعنوية «مِنْ» بين «النَّبِيِّينَ» الذين هم «مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ»
 ونسله كإدريس ومن قبله في الذكر «وَمِمَّنْ» كان في أصلاب من «حَمَلْنَا» هم في السفينة «مَعَ

١. علل الشرائع: ٢/٧٧، تفسير الصافي ٣: ٢٨٥.

٢. لم يذكر المصنف تفسير قوله تعالى: «إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا» وقد تقدّم القول فيه عند الآية (٤١) من هذه السورة.

٣. ٥. تفسير روح البيان ٥: ٣٤٢.

نُوحٌ، كمن عدا إدريس ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كإسحاق ومن بعده ﴿وَو﴾ ذرية ﴿إِسْرَءِيلَ﴾ كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى. وفيه دلالة على أن ولد البنت كعيسى من الذرية ﴿وَو﴾ هم ﴿وَمَنْ هَدَيْنَا﴾ هم إلى الحق والحقيقة والدين ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ هم للرسالة، واضطفتناهم لأنواع الكرامة، وهم كانوا في العبودية والخضوع لله بحيث ﴿إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِ الرَّحْمَنِ﴾ المنزلة في بيان عظمتهم والبشارة بثوابه والتهديد بعقابه ﴿خَرُّوْا﴾ وسقطوا على الأرض ﴿سُجَّدًا﴾ وواضعين جباههم عليها خشوعاً لله ﴿وَبُكْيَا﴾ مسبلي الدموع من الرُّهبة والخوف والشوق، فإذا كانوا مع علو مقامهم ورفعة منزلتهم وقربهم من الله، وكونهم من ذراري النبيين ومن أعظام المرسلين عند سماع الآيات بتلك المثابة، فغيرهم أولى بأن يكونوا كذلك.

قيل: إن المراد بالسجود هو الصلاة^١. وقيل: هو سجود التلاوة^٢. وقيل: هو كناية عن غاية الخضوع والخشوع^٣، وفيه دلالة على كون البكاء من آداب التلاوة. عن النبي ﷺ: «أَتْلُوا الْقُرْآنَ وَإِنكُورُوا، فَإِن لَّمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا»^٤. وعن ابن عباس: إذا قرأتم^٥ سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه^٦.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا
* إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
شَيْئًا [٥٩ و ٦٠]

ثم لما مدح الله سبحانه أنبياءه بالقيام بالعبودية وغاية الخضوع لله، ذم أعقابهم من اليهود والنصارى الذين هم من بني إسرائيل ومشركي العرب، الذين هم من ولد إسماعيل بقوله: ﴿فَخَلَفَ﴾ الأنبياء المذكورون وعقبوا ﴿وَمِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ وعقب سوء ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ وتركوها وأخروها عن وقتها المقرر لها، أو أضاعوا ثوابها بالمعاصي ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ وسعوا في استعمال اللذات النفسانية كشرب الخمر والزنا ونظائرها.

عن ابن عباس: هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة، وشربو الخمر، واستحلوا نكاح الأخت من الأب^٧. وعن الصادق عليه السلام في تفسير إضاعة الصلاة قال: أضاعوها بتأخيرها عن وقتها من غير أن تركوها^٨.

٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٤، تفسير روح البيان ٥: ٣٤٣.

٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٤.

٧. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٥.

٦. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٤.

٥. في النسخة: قرء.

٨. مجمع البيان ٦: ٨٠٢، تفسير الصافي ٣: ٢٨٧.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير اتباع الشهوات: «مَنْ بَنَى الْمَشِيدَ، وَرَكِبَ الْمَنْظُورَ، وَلَبِسَ الْمَشْهُورَ»^١ «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ» في القيامة «غَيًّا» وشرًّا.

وقيل: إنَّ غَيًّا اسم وادٍ في جهنم يستعبد من حرِّه أوديتها، أعد للزاني، وشارب الخمر، وأكل الربا، وشاهد الزور، ولأهل العقوق، وتارك الصلاة.^٢

«إِلَّا مَنْ تَابَ» مِنَ الشَّرِّ والمعاصي إلى الله «وَأَمَّنَ» بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ «وَعَمِلَ صَالِحًا» بعد التوبة والإيمان «فَأُولَئِكَ» التَّائِبُونَ الْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ «يَدْخُلُونَ» فِي الْآخِرَةِ «الْجَنَّةَ» الموعودة «وَلَا يَظْلَمُونَ» وَلَا يُنْقَصُونَ مِنْ جَزَاءِ إِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ «شَيْئًا» وقليلًا، وفي إطلاق الظلم على تنقيص الجزاء دلالة على أَنَّهُ بالاستحقاق.

جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا [٦١-٦٣]

ثُمَّ يَبَيِّنُ سبحانه أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تَكُونُ وَاحِدَةً مُوقَّتَةً بقوله: «جَنَّاتٍ عَدْنٍ» وبساتين دائمة لا خروج منها، وقد سبق القول بأنَّ عَدْنَ اسم تلك الجنات «الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ» بِهَا وهي بِالْغَيْبِ عنهم لم يَرَوْهَا فِي الدُّنْيَا «إِنَّهُ» تَعَالَى «كَانَ» مَا تَعَلَّقَ «وَعْدُهُ» بِهِ «مَأْتِيًّا» وَجَانِبًا لَا يُمْكِنُ الْخُلْفُ فِيهِ، وَمِنْ صِفَاتِ الْجَنَّاتِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا» وَكَلَامًا بِاطِلًا لَا فائدة فِيهِ «إِلَّا سَلَامًا» قِيلَ: يَعْنِي لَكِنْ يَسْمَعُونَ تَسْلِيمَ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ تَسْلِيمَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ^٣ «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ» وَغِذَاؤُهُمْ «فِيهَا بُكْرَةً» وَأَوَّلَ النَّهَارِ «وَعَشِيًّا» وَآخِرَهُ.

قِيلَ: إِنَّ الْبُكْرَةَ وَالْعَشِيَّ كناية عن الدوام، أَوْ المراد بِمِقْدَارِ الْبُكْرَةِ وَالْعَشِيِّ، إِذْ لَا لَيْلَ فِيهَا وَلَا صَبَاحَ، بَلْ هُمْ فِي النُّورِ أَبَدًا، وَإِنَّمَا وَصَفَ الْجَنَّةَ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرَبَ لَا تَعْرِفُ مِنَ الْعَيْشِ أَفْضَلَ مِنَ الرِّزْقِ فِي الْوَقْتَيْنِ^٤.

ثُمَّ يَبَيِّنُ عظمة شأنِ الْجَنَّةِ بقوله: «تِلْكَ الْجَنَّةُ» الموصوفة بالصفات الفائقة «الَّتِي نُورِثُ» وَنُملِكُ بَعْضًا «مِنْ عِبَادِنَا» وَهُوَ «مَنْ كَانَ» فِي الدُّنْيَا «تَقِيًّا» وَمُحْتَزِرًا مِنَ الشَّرِّ والعقائد الفاسدة والأعمال السيئة، فَالتَّقْوَى سَبَبٌ لِّلصِّيرورةِ الْمُتَّقِي مَالِكًا لِلْجَنَّةِ، كَمَا أَنَّ مَوْتَ الْمُؤَرِّثِ سَبَبٌ لِّلصِّيرورةِ

٢. تفسير روح البيان ٥: ٣٤٥.

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٤٤.

٣. تفسير أبي السعود ٥: ٢٧٣، تفسير روح البيان ٥: ٣٤٥.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٤٥.

وارثه مالِكاً لِمَا تَرَكَهُ.

وَمَا تَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
نَسِيًّا * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ
لَهُ سَمِيًّا [٦٤ و ٦٥]

ثم أنه تعالى بعد بيان المطالب العالية والأخبار الغيبية، بين أن جميعها كلامه المنزل على نبيه ﷺ بتوسط الملائكة بحكاية اعتذار الملك من تأخير نزوله على نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَمَا تَنْتَزِلُ﴾ عليك يا محمد ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وإذنه.

قيل: إن المعنى قال الله لجبرئيل: قل لمحمد ما تنزل وقتاً من الأوقات إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته^١، وليس لنا استقلال في أمر من الأمور، لأننا تحت قدرته وسلطانه حيث إن ﴿لَهُ﴾ تعالى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ وكل شيء يكون قدامنا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ووراءنا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المذكور من الجهتين، فلا تمالك أن تنتقل من جهة إلى جهة ومن مكان إلى مكان إلا بإذنه وإرادته.

وقيل: إن المراد من ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما قبل وجودهم، ومن ﴿مَا خَلْفَنَا﴾ ما بعد فناهم^٢، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ زمان وجودهم وبقائهم.

وقيل: إن المعنى ما مضى من أعمارنا وما بقي منها وما نحن فيه^٣.

وقيل: يعني له تعالى الأرض التي بين أيدينا، والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض^٤. وعلى أي تقدير المقصود أن الله محيط بنا وبكل شيء بحيث لا تخفى عليه خافية ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ حين عدم إذنه لنا بالنزول إليك ﴿نَسِيًّا﴾ وتاركاً لك، أو غافلاً عنك.

قيل: إنه أبطأ جبرئيل على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ له: ما حبسك يا جبرئيل؟ فنزلت^٥.

وقيل: إنه أبطأ عليه لتركه الاستثناء في الوعد بجواب اليهود عن المسائل الثلاث التي مر ذكرها في سورة الكهف^٦، فقال له النبي ﷺ: «أَبْطَأَتْ عَلَيَّ سَاءَ ظَنِّي، وَاشْتَقْتُ إِلَيْكَ» فقال جبرئيل: إني كنت أشوق، ولكني عتبت مأموراً، إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست^٧. فأنزل الله هذه، فعلى هذا يكون ذلك من وجوه النظم.

١. تفسير أبي السعود ٥: ٢٧٣، تفسير روح البيان ٥: ٣٤٧.

٢ - ٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٩.

٦. في تفسير الآية (٩) من سورة الكهف.

٧. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٨، تفسير روح البيان ٥: ٣٤٧.

وعن (المجمع) عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَجَبْرَتِيل: «ما منعك أن تزورنا؟» فنزلت^١.

وقيل: يجوز كون الآية من كلام أهل الجنة بعضهم مع بعض، والمعنى: ﴿وَمَا تَنْتَزِلُ﴾ الجنة ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي في الجنة مستقبلاً ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ مما كان في الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [أي ما بين] الوقتين، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ لشيء مما خلق فيترك إعادته؛ لأنه عالم الغيب لا يغرب عنه مثقال ذرة^٢.

وقيل: إن قوله: ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ابتداء كلام منه تعالى في مخاطبة الرسول تقريراً لكلام أهل الجنة، ويتصل به قوله: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^٣ والحق أن الكل كلام الملك، وكأنه قال: وما كان ربك يا محمد نسيّاً لك، وجائزاً عليه الغفلة والسهو، حتى يضرك إبطاؤها بالنزول عليك، وإنما لا يجوز عليه النسيان لأنه ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وخالقهما ومدبرهما، ولو كان نسيّاً لاختل نظام العالم وتدبيره لأمر الموجودات، فإذا كان ربك كذلك ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ واجتهد في طاعته ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ وأخس نفسك على مشاقها، ولا تحزن بإبطاء الوحي ونزولنا عليك، وباستهزاء الكفرة وشماتة الأعداء بك، فإنه تعالى يراقبك ويراعيك ويُلطف بك في جميع الأحوال والعوالم ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ أحداً يكون رباً للموجودات ورحمناً في الدنيا والآخرة حتى يكون ﴿لَهُ﴾ تعالى ﴿سَمِيًّا﴾ ومشاركاً في الأسماء والصفات.

عن ابن عباس: لا يسمّى بالرحمن غيره^٤.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَتَوِيلُهُ هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا اسْمَهُ اللَّهُ غَيْرَ اللَّهِ»^٥.

قيل: إن المشركين كانوا يطلقون اسم الإله على الصنم والوثن، ولا يطلقون اسم الله على غيره تعالى^٦.

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا
خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا [٦٦ و ٦٧]

ثم لما ذكر الله كمال قدرته وحكمته وتدبيره في الموجودات، وأمر نبيه ﷺ بعبادته، ولا فائدة في العبادة إذا لم يعتقد العابد بالحشر والحساب، مع كونهما من لوازم حكمته بحكم العقل، ونَحْ المشركين المنكرين للحشر المستبدين له بقوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ الذي يُنكر الحشر والمعاد استبعاداً له وتعجباً من مدعيه: ﴿أَإِذَا مَا مِثْ﴾ وأذخلك في القبر وصيرت تراباً ورَفَاتاً ﴿لَسَوْفَ

٢ و ٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٣٩.

١. مجمع البيان ٦: ٨٠٥، تفسير الصافي ٣: ٢٨٨.

٥. التوحيد: ٥/٢٨٨، تفسير الصافي ٣: ٢٨٨.

٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٠.

٦. تفسير البضاوي ٢: ٣٦.

أَخْرَجَ» من القبر حال كوني ﴿حَيًّا﴾ سَوِيًّا وَإِنْسَانًا كَامِلًا؟
ثم أنكر سبحانه عليهم القول بقوله: ﴿أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ مع عقله وضمته، ولا يتفكر ﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وفي يَدُو وجوده في هذا العالم ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا شَيْئًا﴾ مذكوراً، بل كان عَدَمًا صِرْفًا؟
في (الكافي) عن الصادق عليه السلام قال «لا مقدراً ولا مكنوا»^١.

وعنه عليه السلام في رواية أخرى: «لم يكن شيئاً في كتاب ولا علم»^٢.

وعن القمي: أي لم يكن ثمة ذكره^٣.

ومن الواضح أن القادر على خلقه أولاً بلا مثال قادر على خلقه ثانياً بتلك الصورة، بل يكون خلقه أهون وأسهل عند العاقل.

فَوَرِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ
مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى
بِهَا صِلِيًّا * وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنْجِي
الَّذِينَ آمَنُوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [٦٨-٧٢]

ثم أنه تعالى بعد ثقل إنكار منكري الحشر، واستبعاد إمكانه، واستدلاله تعالى على إمكانه، أخبر بوقوعه، وهذا منكريه بتعذيبهم بقوله: ﴿فَوَرِّكَ﴾ لَنَحْشُرَنَّهُمْ في القبور ثم ﴿لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ منها، ولنُسوقَهُمْ إلى عَرَصَةِ الْقِيَامَةِ ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ المُنْوِينَ لَهُمْ معهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ البتة ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ وفي أطرافها حال كونهم ﴿جِثِيًّا﴾ وجُلُوساً على رُكَبِهِمْ لشدة هولهم بحيث لا يمكنهم القيام على أرجلهم.

قيل: إن عادة الناس أنهم في مواقف المطالبات من الملوك يجلسون على رُكَبِهِمْ، لما في ذلك من الاستظهار والقلق وغاية التدلل.

وعن ابن عباس «جِثِيًّا» يعني: جماعات^٤.

قيل: إن الكفرة يُحْشَرُونَ مع قرنائهم من الشياطين الذين أغوهم، كل مع شيطانه في سِلْسِلَةٍ^٥ ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ﴾ وَنَجْزِبُنَّ ﴿مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ وفِرْقَةٍ من الفرق الذين تابَعُوا^٦ غَاوِيَا من العَوَاة الذين يقال فيهم:

٢. المحاسن: ٢٣٤/٢٤٣، تفسير الصافي ٣: ٢٨٨.

١. الكافي ١: ٥/١١٤، تفسير الصافي ٣: ٢٨٨.

٤. تفسير الرازي ٢١: ٢٤١ و ٢٤٢.

٣. تفسير القمي ٢: ٥٢، تفسير الصافي ٣: ٢٨٨.

٦. تفسير أبي السعود ٥: ٢٧٥.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٣٤٩.

٧. في النسخة: تابعت.

﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾.

وقيل: إن التقدير أيُّهم هو أشد وأزيد ﴿عَلَى الرَّحْمَنِ﴾ وخالق الموجودات برحمته العامة ﴿عِثْيَا﴾ وتمرّداً وظغياناً، ليعلم أن عذابه أشد حتى يخصّه به.

وحاصل المراد - والله العالم - أنه تعالى يحضر جميع الفرق الضالة أولاً حول جهنّم، ثم يميّز بعضهم من بعض، فمن كان أزيد منهم تمرّداً وأصرّ على الكفر، يلقى أولاً في جهنّم، ويخصّ بأشدّ العذاب، ثم يميّز من دونهم في التمرد وهكذا.

والحاصل أنه يتّدا بالأعصى فالأعصى على الترتيب إلى آخرهم، كما قال: ﴿ثُمَّ لَنُخُنَّ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ﴾ بجهنّم وأحقّ ﴿بِهَا صِلِيًّا﴾ والقاءً أو دخولاً ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾ أيها الناس مؤمنكم وكافركم ﴿إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ﴾ إنجاز ذلك الوعد ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ أنراً ﴿حَتْمًا﴾ وواجباً و﴿مَقْضِيًّا﴾ ومحكوماً به يحكمهم بمبرم، لا يمكن عدم نفوذه ﴿ثُمَّ تُنَجَّى﴾ وتخلص من النار المؤمنين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشّرك والمعاصي ﴿وَنَذَرُ﴾ ونترك ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر والعنوّ ﴿فِيهَا﴾ حال كونهم ﴿جِثْيَا﴾ وجميعاً، أو جالسين على رُكبيهم، للعجز عن القيام والحراك.

قال بعض العامة: المراد بالورود الحضور حولها، مستدلاً بما عن النبي ﷺ من أنه قال: «لا يدخل النار أحدٌ شهيد بدرانٍ والحديبية» فقالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال ﷺ: «[فمه؟] ﴿ثُمَّ تُنَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾»^١. فعلم أن المراد من الورد القرب منها، وإلا لم يكن ما قاله ﷺ جواباً عن سؤال حفصة، وهذا كقول العرب: وردت بلد كذا وماء كذا، يعني أشرفت عليه، دخلت فيه أو لم تدخله، وكقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «أما تسمع الرّجل يقول: وردنا ماءً باني فلان، فهو الورد ولم يدخل»^٣ وأستدل بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾^٤.

وقيل: إن المراد منه الدخول فيها^٥، ثم يتبع المؤمنين منها وينذر الظالمين فيها. روي أن عبد الله بن رواحة قال للنبي ﷺ: أخبر الله عن الورد، ولم يخبر عن الصدور؟ فقال ﷺ: «يَا بَنِي رَوَاحَةَ، اقرأ ما بعدها: ﴿ثُمَّ تُنَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾»^٦.

وعن جابر بن عبد الله، أنه سئل عن هذه الآية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الورد الدخول،

١. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٣. ٢. القصص: ٢٨/٢٣.

٣. تفسير القمي ٢: ٥٢، تفسير الصافي ٣: ٢٨٩.

٤. تفسير القمي ٢: ٥٢، والآية من سورة الأنبياء: ١٠١/٢١.

٥. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٣.

٦. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٣.

١٩٦ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

لا يَتَّقِي بَرًّا وَلَا فَاجِرًا إِلَّا دَخَلُهَا، فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَرْدًا وَسَلَامًا، حَتَّى إِنَّ لِلنَّاسِ صَجِيجًا مِّنْ بَرْدِهَا^١.

وعن (المجمع) عن النبي ﷺ قال: «يَرِدُ النَّاسَ النَّارَ ثُمَّ يَصْدُرُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَأُولَئِكَ كَلْعَمِ الْبَرَقِ، ثُمَّ كَمَرِ الرِّيحِ، ثُمَّ كَحَضَرِ الْفَرَسِ، ثُمَّ كَالرَّاكِبِ، ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، ثُمَّ كَمَشْيِهِ»^٢

وعنه ﷺ: «تَقُولُ النَّارُ لِلْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: حُزْرًا يَا مُؤْمِنُ، فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهْبِي»^٣

وروي أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ النَّارَ كَالسَّمَنِ الْجَامِدِ، وَيَجْمَعُ عَلَيْهَا الْخَلْقَ، ثُمَّ يَنَادِي الْمَنَادِيُّ: خُذِي أَصْحَابَكَ وَذُرِّي أَصْحَابِي، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهْبِي أَعْرَفُ بِأَصْحَابِهَا مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا^٤.

قيل: حكمة ورود المؤمنين في النار أنهم إذا عَلِمُوا الْخَلَاصَ مِنْهَا زَادَهُمْ شُورًا وَزَادَ الْكُفَّارَ غَمًّا، حَيْثُ تَظْهَرُ فَضِيحَتُهُمْ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ مَعَ الْغُصَّةِ فِي النَّارِ يَتَرَعَّوْنَهُمْ وَيُبْكُونَهُمْ فَيَزِيدُ ذَلِكَ غَمًّا لِلْكَفَّارِ وَسُرُورًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُظْهِرُونَ لِلْكَفَّارِ صِدْقَ قَوْلِهِمْ فِي الْحَشْرِ وَالْعَذَابِ وَكَذِبَ الْكَفَّارِ فِي الْإِنْكَارِ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا شَاهَدُوا الْعَذَابَ صَارَ سَبَبًا لِمَزِيدِ الْيَذَابِ لَهُمْ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ^٥.

وعن الصدوق: أَنَّهُ لَا يُصِيبُ أَحَدًا مِّنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ أَلَمٌ فِي النَّارِ إِذَا دَخَلُوهَا، وَإِنَّمَا يُصِيبُهُمُ الْأَلَمُ عِنْدَ الْخُرُوجِ مِنْهَا، فَتَكُونُ تِلْكَ الْأَلَامُ جَزَاءً بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَمَا اللَّهُ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ^٦.

أقول: إِنَّمَا التَّأَلُّمُ عِنْدَ الْخُرُوجِ يَكُونُ لِلَّذِينَ اكْتَسَبُوا السَّيِّئَاتِ، وَلَمْ يَغْفِرْ لَهُمْ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ شَمَلَتْهُمْ الْمَغْفِرَةُ وَالشَّافَعَةُ.

وعن النبي ﷺ أَنَّهُ سُلِّ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ قَدْ وَعَدْنَا رَبَّنَا أَنْ تُرَدَّ النَّارُ؟ فَيَقَالُ لَهُمْ: قَدْ وَرَدَتْ مُوَاهَا وَهِيَ خَامِدَةٌ^٧.

وعن ابن مسعود: وَرَوَدَهَا الْجَوَازُ عَلَى الصَّرَاطِ الْمَمْدُودِ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى الْجَنَّةِ سِوَى الصَّرَاطِ، فَالْمُرُورُ فِي حَكْمِ الْوُرُودِ^٨، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُنْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾^٩ فالمراد الْبُعْدُ مِنْ عَذَابِهَا، وَلَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا لِأَنَّ حَسِيسَهَا كَسَائِرُ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ مَحْجُوبَةٌ عَنْهُمْ.

وعن ابن عباس: إِنَّ الْآيَةَ مَخْتَصَّةٌ بِالْكَفَّارِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ

١- ٤. مجمع البيان ٦: ٨١٢، تفسير الصافي ٣: ٢٨٩.

٢- ٧. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٤.

٣- ٦. اعتقادات الصدوق: ٢٩/٧٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٠.

٤- ٩. الأنبياء: ١٠١/٢١ و ١٠٢.

٥- ٨. تفسير روح البيان ٥: ٣٥٠.

جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ^١.

وعن مجاهد، قال: ورود المؤمن في النار [هو] مس الحمى جسده في الدنيا، لقوله ﷺ: «الحمى من فَيْح^٢ جهنم، فأبردوها بالماء»^٣.

وفي الحديث: «الحمى حظ كل مؤمن من النار»^٤.

وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيَا^٥ [٧٣ و ٧٤]

ثم أنه تعالى بعد إثبات بطلان الشرك ووعيد المشركين بالعذاب عليه، حكى استدلالهم على صحة قولهم بحسن مآلهم في الدنيا وشوء حال المؤمنين الموحدين فيها بقوله: ﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ القرآنية الدالة على التوحيد والوعد والوعيد مع كونها معجزات ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ من حيث العبارات والمعاني ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَأَصْرُوا عَلَى الشُّرْكِ والعناد كالنَّصْرِ بن الحارث وأضرابه ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانية الله الفقراء منهم أَظْهَرُوا أيها المؤمنون ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ مِنَّا ومنكم ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿مَقَامًا﴾ وَمَسْكَنًا ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وَمَجْلِسًا من حيث اجتماع الأشراف ووجوه قریش فيه.

رُوي أَنَّ المشركين كانوا يَرْجُلُونَ^٥ شُعُورَهُمْ وَيَذْهَبُونَهَا وَيَتَطَيَّبُونَ وَيَتَزَيَّنُونَ بِالزَّيْنَةِ الفاخرة، فإذا سَمِعُوا الآيات الواضحات وَعَجَزُوا عن معارضتها أو الطعن فيها، قالوا مفتخرين بِالْحُظُوظِ الدنيوية على فقراء المؤمنين: لو كنتم على الْحَقِّ وكُنَّا على الْبَاطِل لكان حالكم في الدنيا أحسن، لأنَّ الْحَكِيم لا ينبغي له أَنْ يُوقَعَ أوليائه في الْعَذَابِ وَالذَّلِّ، وأعداءه في الْعِزِّ وَالرَّاحَةِ، ولكن الأمر بالعكس^٦.

ثم ردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ بعذاب الْاِسْتِثْنَالِ بسبب الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ مِنْ قَبْلِهِمْ كثيراً ﴿مِّنْ﴾ أَهْلِ قَرْنٍ، وأهل عصر كانوا هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا، وَمَتَاعًا يُزَيَّنُونَ به بيوتهم ﴿وَأَحْسَنُ رِءْيَا﴾ وَمَنْظَرًا منكم.

عن الْبَاقِرِ (ع): «الْأَثَاثُ الْمَتَاعُ، وَرِئْيَا الْجَمَالُ وَالْمَنْظَرُ الْحَسَنُ»^٧. فلو كانت الْأَنْمِيعَةُ الدنيوية وحظوظها التي تفتخرون بها دليلاً على الْكِرَامَةِ عند الله لم يهلكوا بالعذاب.

١. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٣، تفسير الجامع ١١: ١٣٨، والآية من سورة الأنبياء: ٩٨/٢١.

٢. الْفَيْحُ: سطوع الحر وفورانه، وفي النسخة: قَيْح. ٣ و ٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٥١.

٥. رَجُلُ الشَّعْرِ: سَرْحُهُ. ٦. تفسير روح البيان ٥: ٣٥١.

٧. تفسير القمي ٢: ٥٢، تفسير الصافي ٣: ٢٩١.

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا
الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا * وَيَزِيدُ اللَّهُ
الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
مَرَدًّا [٧٦ و ٧٥]

ثم بين سبحانه أن النعم الدينية جذلان من الله واستدراج لا لطف وكرامة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد،
لقريش المفخرين بالحطام الدنيوية ﴿مَنْ كَانَ﴾ مستقراً ﴿فِي الصَّلَاةِ﴾ والشرك والبعد عن الحق
﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ وليمهل ﴿لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ وليعينه على ما هو فيه بطول العمر وكثرة المال والنعم ﴿مَدًّا﴾
وإمهالاً كثيراً مستمراً ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾ وعانوا ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ بلسان الأنبياء، وذلك الموعد ﴿إِمَّا
الْعَذَابَ﴾ الدنيوي ﴿وَأِمَّا السَّاعَةَ﴾ والقيامة وما فيها من الأحوال والنكال ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حين وقوع
أحدهما ﴿مَنْ هُوَ﴾ من الفريقين ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ ومن هو خير مقاماً ﴿وَمَنْ﴾ ﴿أَضْعَفُ جُنْدًا﴾ وأقل
أنصاراً وأقوى أعواناً، هم أم المؤمنون، فإن قيلوا وغلب المسلمون عليهم علموا أنهم أضعف جنداً.
القمي: العذاب: القتل، والساعة: الموت^١.

وقيل: إن العذاب عذاب الله عند الموت^٢. وقيل: عذاب القبر^٣. وقيل: تغير حالهم في الدنيا من
الغنى إلى الفقر، ومن العز إلى الذل، ومن الأمن إلى الخوف^٤.

ثم بين سبحانه معاملته مع المؤمنين بقوله: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بهدأته إلى
التوحيد ودين الحق ﴿هُدًى﴾ وإيماناً وقيناً. وقيل: يعني ثواباً^٥.

وعن الصادق عليه السلام: ﴿ويزيدهم يوم خروج القائم هدى على هدى بإتباعهم القائم
حيث لا يجحدونه ولا ينكرونها﴾^٦.

﴿وَالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ﴾ التي مر تفسيرها في سورة الكهف^٧ ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿عِنْدَ رَبِّكَ
ثَوَابًا﴾ وأجراً في الدنيا والآخرة مما يفتخر به المشركون من الحطام والحطوظ العاجلة ﴿وَخَيْرٌ
مَرَدًّا﴾ ومالاً لأن مآلها النعم الدائمة، ومآل حظوظ الكفار العذاب الأبدي^٨.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ

١. تفسير القمي ٢: ٥٢، تفسير الصافي ٣: ٢٩١.

٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٧.

٣. الكافي ١: ٩٠/٣٥٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٢.

٤. في النسخة: الأبدية.

٥. تفسير الرازي ٢١: ٢٤٨.

٦. في الآية (٤٦) من سورة الكهف.

عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِيئُهُ
مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا [٧٧-٨٠]

ثُمَّ بَيَّنَّ اللهُ غَايَةَ غُرُورِ الْمُشْرِكِينَ بِمَا لَهُمْ عِنْدَ اللهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ فِي الْأَوْهِيَةِ وَرِسَالَةِ رَسُولِنَا وَيَوْمَ جَزَائِنَا ﴿وَقَالَ﴾ غُرُورًا: وَاللهُ ﴿لَأُوتِيَنَّ﴾ فِي الْقِيَامَةِ ﴿مَالًا﴾ كَثِيرًا ﴿وَوَلَدًا﴾ كَمَا أُوتِيْتَهُمَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَتَعَجَّبَ مِنْ غَايَةِ حُمْقِهِ وَجَهَالَتِهِ.

رُوي أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ. وَقِيلَ: فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَإِنَّهُ كَانَ لِخَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ ذَنْبٌ عَلَيْهِ فَاقْتَضَاهُ فَقَالَ: لَا وَاللهِ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ. فَقَالَ خَبَابٌ: لَا وَاللهِ لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، لَا حَيًّا وَلَا مَيِّتًا وَلَا حِينَ تُبْعَثُ، فَقَالَ الْعَاصُ أَوْ الْوَلِيدُ: فَإِنِّي إِذَا مِتُّ بُعِثْتُ؟ قَالَ خَبَابٌ: نَعَمْ، قَالَ: إِذَا بُعِثْتُ وَجِئْتَنِي فَيَسْكُونُ لِي شِمَّةٌ مَالٍ وَوَلَدٌ فَأَعْطِيكَ.

وَقِيلَ: صَاغَ خَبَابٌ لَهُ خُلِيًّا فَاقْتَضَاهُ، فَطَلَبَ الْأَجْرَةَ مِنْهُ، فَقَالَ: إِنِّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تُبْعَثُونَ، وَأَنْ فِي الْجَنَّةِ ذَهَبًا وَفِضَّةً وَحَرِيرًا، فَأَنَا أَفْضِيكَ ثُمَّ، فَإِنِّي أُوتِي مَالًا وَوَلَدًا حِينْتُنِي^١.

وَعَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «أَنَّ الْعَاصِ بْنَ وَائِلَ بْنَ هِشَامِ الثَّرَاشِي ثُمَّ السَّهْمِي، وَهُوَ أَحَدُ الْمُسْتَهْزِئِينَ، وَكَانَ لَخَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ عَلَيْهِ حَقٌّ فَأَتَاهُ بِتَقَاضَاهُ، فَقَالَ لَهُ الْعَاصُ: أَلَسْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَالْحَرِيرَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَمَوْعِدٌ [مَا] بَيْنِي وَبَيْنَكَ الْجَنَّةُ، فَوَاللهِ لَا أُوتِيَنَّ فِيهَا خَيْرًا مِمَّا أُوتِيتَ فِي الدُّنْيَا»^٢.

فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَطْلَعُ الْغَيْبُ﴾ وَهَلْ بَلَغَ مِنَ الْقُرْبِ عِنْدَ اللهِ إِلَى أَنْ أُوتِيَ الْعِلْمُ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ﴿أَمْ أَتَّخَذُ﴾ مِنَ اللهِ الْعَالِمِ بِالْمَغِيبَاتِ، وَكَانَ لَهُ ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ وَمِيثَاقًا عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُ مَا يَقُولُ ﴿كَلَّا﴾ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَمْرَيْنِ بَلْ ﴿سَنَكْتُبُ﴾ عَلَيْهِ وَتُبَّتْ وَتُحْفَظُ ﴿مَا يَقُولُ﴾ مِنَ الْكَذِبِ ﴿وَنَمُدُّ لَهُ﴾ بَدَلُ مَا يَدْعِيهِ لِنَفْسِهِ مِنَ الْإِمْدَادِ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ، وَتُعْطِيَهُ أَوْ نَطْوُلُ لَهُ ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿مَدًّا﴾ وَعَطَاءٌ وَطَوْلًا لَا نِهَايَةَ لَهُ ﴿وَنَرِيئُهُ﴾ وَنَأْخُذُ مِنْهُ بِمَوْتِهِ ﴿مَا يَقُولُ﴾ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ الَّذِي يَكُونُ لَهُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ وَوَاحِدًا لَا يَكُونُ مَعَهُ شَيْءٌ مِمَّا يَفْتَخِرُ بِهِ فِي الدُّنْيَا.

وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا [٨١ و ٨٢]

ثم أنه تعالى بعد بيان اغترارهم بالنعم الآخرة، أو استهزائهم بها، يَبَيِّنُ غُرُورَهُمْ بِالْأَصْنَامِ وَغَايَةَ حَقْمِهِمْ يَقُولُ: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِ آفَهِ﴾ ومن مخلوقاته ﴿آلِهَةً﴾ ومعبودين ﴿لِيَكُونُوا﴾ تلك الآلهة ﴿لَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿عِزًّا﴾ وسبباً للنيل بالمقاصد، أمّا في الدنيا فبإنجاح حوائجهم، وأمّا في الآخرة فبشفاعتهم عند الله، وتُضَرِّتُهُمْ لَهُمْ، وإنجائهم إِيَّاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، فَرَدَّعَهُمُ اللَّهُ عَنْ هَذَا التَّوَهُّمِ الْفَاسِدِ يَقُولُ: ﴿كَلَّا﴾ ليس كما توهموه، بل ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ويُنْكِرُونَ وَلَا يَتَّبِعُونَ حِينَ يَزُونُ سُوءَ عَاقِبَتِهِمْ، ويقولون: مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿وَيَكُونُونَ﴾ حين مشاهدة أصنامهم ﴿عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ وأعداء بعد أن كانوا لهم مُجِيبِينَ كَحُبِّ اللَّهِ.

قيل: إِنَّ ضَمَانَةَ الصُّنْعِ كُلِّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى الْأَصْنَامِ، والمعنى ستكفر الأصنام، وَيَجْحَدُونَ عِبَادَتَهُمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا جَمَادَاتٍ لَمْ يَشْعُرُوا بِعِبَادَتِهِمْ، وَيَكُونُونَ أَعْوَانًا عَلَى ضُرَرِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْكَبُ فِيهِمُ الْعُقُولَ فَيُنْطِقُهُمْ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ عَذَّبْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عِبَدُونَا.^١
وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الضَّدِّ ضِدَّ الْعِزِّ [وَهُوَ الذُّلُّ وَالْهَوَانُ]^٢، والمعنى: يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ذُلًّا وَهَوَانًا، وَإِنَّمَا أَفْرَدَ الضَّدَّ لِفَرَضِ وَحْدَةِ الْكُلِّ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْآلِهَةِ الْمَلَائِكَةِ، لِأَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ يَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ^٣، ويقولون: سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْتَنَا مِنْ دُونِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «أَيُّ يَكُونُونَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ ضِدًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَتَبَرَّوْنَ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ» ثُمَّ قَالَ: «لَيْسَ الْعِبَادَةُ هِيَ السُّجُودُ وَالرُّكُوعُ، وَإِنَّمَا هِيَ طَاعَةُ الرِّجَالِ، مِنْ أَطَاعَ مَخْلُوقًا فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ فَقَدْ عَبَدَهُ»^٤.

أقول: يعنى ليس العبادة منحصرّة في الرُّكُوعِ والسُّجُودِ، فالآية تنعم بعبادة الأصنام وطاعة رؤساء الضلال.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا * فَلَا تَنْجَلَ عَلَيْهِمْ
إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا [٨٤ و ٨٣]

ثُمَّ تَبَيَّنَ سَبْحَانَهُ عَلَى أَنَّ اسْتِيلَاءَ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِمْ يَعْثُهُمْ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ يَقُولُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم تعلم يا مُحَمَّدٌ ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا﴾ وَسَلَطْنَا ﴿الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بسبب خُبث ذاتهم وسوء اختيارهم، وَخَلَيْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ ﴿تَؤْزُهُمْ﴾ وتغريهم وتهيجهم على المعاصي والشرور وعبادة الأصنام ﴿أَزًّا﴾

٢ و ٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٥٠.

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٥٥.

٤. تفسير القمي ٢: ٥٥، تفسير الصافي ٣: ٢٩٢.

وَتَهَيَّجاً شديداً بأنواع الوسوس والتسويلات.

وعن القمي: نزلت في مانعي الخمس والزكاة والمعروف، يبعث الله عليهم شيطاناً، فيُنْفِقُ ما يجب عليه من الزكاة في غير طاعة الله، ثمَّ يَعَذِّبُهُ على ذلك^١.

﴿فَلَا تَعْجَلْ﴾ في نزول العذاب ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وهلاكهم حتى تستريح أنتَ والمؤمنون من شرهم، وتُطَهِّرَ الأرض من لوث وجودهم، وتأمِنها من فسادهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ﴾ أيام آجالهم وأنفاسهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ فَإِنَّهُ لم يَبَقْ من عمرهم إلا أيام قليلة وأنفاس محصورة.

روي أن ابن عباس إذا قرأها بكى، وقال: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك^٢.

عن الصادق عليه السلام: أَنَّهُ سُئِلَ عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ قال: «ما هو عندك؟» قال السائل: عدد الأيام، قال: «إِنَّ الآبَاءَ وَالْأَمْهَاتَ يُحْصُونَ ذلك، [لا] وَلَكِنَّهُ عِدَدُ الْإِنْفَاسِ»^٣. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «نَفْسُ الْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ»^٤.

وقيل: إِنَّ المعنى إِنَّمَا نَعُدُّ [أنفاسهم و] أعمالهم عَذَاباً، فنجازيهم على قليلها وكثيرها^٥.
وقيل: يعني إِنَّمَا نَعُدُّ الأوقات إلى وقت الأجل المُقَدَّر لكل منهم^٦، ثمَّ نَعَذِّبُهُم على أعمالهم.

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا
* لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا [٨٧-٨٥]

ثمَّ عَيَّنَ سبحانه وقتَ كُفْرِهِم بعبادة الأصنام وابتلائهم بالعذاب بقوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ﴾ فيه ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ والمحترزين من الشُّرْك والعِصْيَان، ونُخْرِجُهُم من قبورهم أحياء، أو نجمعهم ﴿إِلَى﴾ محلِّ كرامته ﴿الرَّحْمَنِ﴾ وربِّهم الرَّحِيم بهم حال كونهم ﴿وَفْدًا﴾ وقادمين عليه راجين لثوابه وإنعامه، كما ينزل المحتاجون على الملوك طامعين لجوائزهم.

وقيل: إِنَّ المعنى أَذْكَرُ يا مُحَمَّدُ اليوم الذي نَمَيِّزُ بين المتقين والمجرمين، بأنَّ نَحْشُرُ أهل الإيمان والطاعة إلى رحمة الرَّحْمَنِ كالأضياف النَّازِلِينَ على المَلِكِ الكريم.

روي بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام: قال: «ما يُحْشَرُونَ والله على أَرْجُلِهِمْ، ولكن على نُوقِ رِحَالِهَا ذهب، وعلى نَجَائِبِ شُرْجِهَا ياقوت، وَأَزِمَّتْهَا زَبَرَجَدٌ، ثُمَّ يَنْطَلِقُ بِهِمْ حَتَّى يَفْرَعُوا باب

١. تفسير القمي ٢: ٥٣. ٢. تفسير روح البيان ٥: ٣٥٥.

٣. الكافي ٣: ٣٣/٢٥٩، تفسير الصافي ٣: ٢٩٣. ٤. نهج البلاغة: ٤٨٠ الحكمة ٧٤، تفسير الصافي ٣: ٢٩٣.

٥. ٦. تفسير الرازي ٢١: ٢٥٢.

الجنة^١.

وعن الصادق عليه السلام قال: «سأل علي عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله عن تفسير هذه الآية، قال: يا علي، إن الوَفْد لا يكونون إلا زُكَبَاءً، أولئك رجال اتقوا الله، فَاحْبَبَهُم الله واختصهم ورضى أعمالهم فسمَّاهُم الْمُتَّقِينَ، ثم قال: يا علي، أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إِنَّهُم لَيَخْرُجُونَ من قبورهم وإن الملائكة لتستقبلهم بِتُوقٍ من نُوق العِزِّ عليها رِحَالُ الذَّهَبِ مُكَلَّلَةٌ بالدُّرِّ والياقوت، وَجِلَالُهَا الاستِبرق والسُّندُس، وَخِطَامُهَا جُدُلُ الْأُزْجَان، وَزِمَامُهَا من زَبَرَجَد، فتطير بهم إلى المحشر، مع كل رجلٍ منهم ألف ملك من قُدَّامَةٍ وعن يمينه وعن شماله، يَرْفُونَهُمْ رَفًّا حتى يتنهبوا بهم إلى باب الجنة الأعظم.

وعلى باب الجنة شَجَرَةٌ، الْوَرَقَةُ منها يستظلُّ تحتها مائة ألف من النَّاس، وعن يمين الشجرة عين مطهرة مُرَكَّبَةٌ، يسقون منها شربة شربة، فَيُطَهَّرُ الله بها قُلُوبَهُم من الحسد، وَيُسْقَطُ عن أبشارهم الشُّغْرُ، وذلك قوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾^٢ من تلك العين المطهرة، ثم ينصرفون إلى عين أخرى عن يسار الشجرة فيغتسلون فيها، وهي عين الحياة فلا يموتون أبداً.

ثم يُوقَفُ بهم قُدَّامَ العرش، وقد سَلِمُوا من الآفات والأسقام والحرِّ والبرد أبداً، فيقول الجِبَّار للملائكة الذين معهم: أَخْشَرُوا أُولِيَانِي إلى الجنة فلا تُوقِفُوهم مع الخلائق فقد سَبَقَ رضائي عنهم، ووجبت رحمتي لهم، فكيف أريد أن أوقفهم مع أصحاب الحسنات والسيئات، فَتَسْوِقُهُم الملائكة إلى الجنة، فإذا انتهوا إلى باب الجنة الأعظم ضرب الملائكة الحَلَقَةَ ضربةً فَتَصَرَّ صَرِيرًا، فَيَبْلُغُ صوت صريرها كلَّ حوراء خلقها الله وأعدَّها لأوليائه، فَيَتَبَشَّرْنَ إذا سمعنَّ^٣ صرير الحَلَقَةَ، وتقول بعضهن لبعض: قد جاءنا أولياء الله، فَيُفْتَحُ لهم الباب، فَيَدْخُلُونَ الجنة، فَيُشْرِفُ عليهم أزواجهم من الحُور العين والأدميين، فَيَقْلَنَ: مرحباً بكم، فما أشوقنا إليكم! ويقول لهنَّ أولياء الله مثل ذلك^٤.

وعن القمي - في رواية - فقال علي عليه السلام: «مَنْ هَؤُلَاءِ يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وآله: هَؤُلَاءِ شيعتك يا علي، وأنت إمامهم، وهو قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾^٥ على الرحائل ﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ والعصاة كما تُسَاقُ البهائم بإهانة واستخفاف ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ حال كونهم ﴿وِزْدًا﴾ ومُشَاءَ عِطَاشًا، وعباد الله ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ لأَحَدٍ ولا يَتَدَرُونَ عليها ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، وإذنًا، فكيف بالأصنام التي لا قَدْرَ لها عند الله حتى تُقَبَّلَ شفاعتها، ويأذن لها

٢. الإنسان: ٢١/٧٦.

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٥٦.

٤. تفسير القمي ٢: ٥٣، تفسير الصافي ٣: ٢٩٤.

٣. في النسخة: فيتباشرون بهم إذا سمعوا.

٥. تفسير القمي ٢: ٥٤، تفسير الصافي ٣: ٢٩٥.

فيها في حق أحد.

وقيل: يعني لا يملك المشركون الشفاعة لأحد، ولكن الشفاعة لمن اتَّخَذَ عند الرحمن عهداً، وهو الإيمان، فإن المؤمنين هم الشفعاء فيشفعون^١.

عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «أُعْجِزَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَّخِذَ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا؟». قالوا: وكيف ذلك؟ قال: «يَقُولُ كُلُّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، إِنِّي أَعْهَدُ إِلَيْكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحَدَّكَ لَا شَرِيكَ [لَكَ]، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، وَأَنْتَ إِنْ تَكَلَّنِي إِلَى نَفْسِي تُقَرِّبَنِي مِنَ الشَّرِّ، وَتُبَاعِدَنِي مِنَ الْخَيْرِ، وَإِنِّي لَأَتَّقُ بِرَحْمَتِكَ، فَاجْعَلْ لِي عَهْدًا تَوْفِيقِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ. فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ طَبَعَ [اللَّهُ] عَلَيْهِ بِطَائِعٍ، وَوَضَعَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى نَادِيًا: أَيُّنَ الَّذِينَ لَهُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدٌ؟ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ»^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «لَا يَشْفَعُ لَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ» [إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا] يعني إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ بِوَلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام والأئمة عليهم السلام من بعده، فهو العهد عند الله^٣.

وعنه عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه، قال: «قال رسول الله ﷺ: مَنْ لَمْ يُحْسِنْ وَصِيَّتَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ كَانَ نَقْصًا فِي مَرْوَتِهِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُوصِي عِنْدَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: إِذَا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ قَالَ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، إِنِّي أَعْهَدُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، أَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحَدَّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، وَأَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ، وَالْحِسَابَ حَقٌّ، [وَالْقَدْرَ] وَالْمِيزَانَ حَقٌّ، وَأَنَّ الدِّينَ كَمَا وَصَفْتَ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ كَمَا شَرَعْتَ، وَأَنَّ الْقَوْلَ كَمَا حَدَّثْتَ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَمَا أَنْزَلْتَ، وَأَنْتَ اللَّهُ [الْمَلِكُ] الْحَقُّ الْمُبِينُ، جَزَى اللَّهُ مُحَمَّدًا خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَحَيَّى اللَّهُ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ بِالسَّلَامِ.

اللَّهُمَّ يَا عُدَّتِي عِنْدَ كُرْبَتِي، وَيَا صَاحِبِي عِنْدَ شِدَّتِي، وَيَا وَلِيَّيَ فِي نِعْمَتِي، إِلَهِي وَإِلَهَ آبَائِي، لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَدًا، فَإِنَّكَ إِنْ تَكَلَّنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ كُنْتُ أَقْرَبَ مِنَ الشَّرِّ وَأَبْعَدَ مِنَ الْخَيْرِ، فَأَنْسِ فِي الْقَبْرِ وَحْشَتِي، وَاجْعَلْ لِي عَهْدًا يَوْمَ الْقَاكَ مَشْهُورًا.

ثم يُوصِي بِحَاجَتِهِ، وَتَصْدِيقَ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: «لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٥٦، تفسير أبي السعود ٢: ٢٨٢، وفيهما لا يملك المجرمون بدل المشركون.

٢. تفسير الرازي ٢١: ٢٥٣، تفسير روح البيان ٥: ٣٥٦.

٣. تفسير القمي ٢: ٥٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٥.

إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا^١، فهذا عهد الميت، والوصية حق على كل مسلم، وحق عليه أن يحفظ هذه الوصية ويتعلمها، وقال علي عليه السلام: علمنيها رسول الله، وقال: علمنيها خير نبي^٢.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا [٨٨-٩٥]

ثم أنه تعالى بعد رد عبدة الأصنام، رد القائلين بأن لله ولداً من اليهود والنصارى وطائفة من قريش بقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾.

عن الصادق عليه السلام: «هذا حيث قالت [قريش]: إن الله عز وجل اتخذ ولداً من الملائكة إناثاً^٣. ثم وجه الخطاب إليهم توبيخاً لهم بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾، وأدعيتهم ادعاءً عجيماً، وقُلْتُمْ قَوْلًا مُنْكَرًا فُظِيحاً ﴿تَكَادُ﴾ وتقرَّب من فظاعة هذا القول ﴿السَّمَاوَاتُ﴾ من أن ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ ويستطعن ﴿مِنْهُ﴾ من فوقكم ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ وتنصدع أجزاؤها من تحتكم ﴿وَتَخِرُّ﴾ وتنهَّد ﴿الْجِبَالُ﴾ الرواسي ﴿هَذَا﴾ وتهدم هدماً شديداً.

والمعنى أن عظم تلك الكلمة بحيث لو تصوَّرت بصورة محسوسة جسمانية لا تحمّلها هاتيك الأجرام العظام، بل لتفتت^٤ من ثقلها، أو المراد أن فطاعتها في استجلاب الغضب واستيجاب السخط بحيث لولا جلّم الله تعالى لخرب العالم وبدد قوائمه غضباً على المتفوهين بها لأجل ﴿أَنْ دَعَوْا وَسَمَوْا لِلرَّحْمَنِ﴾ الخالق لكل شيء ﴿وَلَدًا﴾ من ذكر أو إناث ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ ما ينبغي لِلرَّحْمَنِ، وما يليق به ﴿أَنْ يَتَّخِذَ﴾ لنفسه مع كمال قدرته وغناه ﴿وَلَدًا﴾ لاستحالة كاستحالة أخذ الشريك، لوضح أنه ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الملائكة والأنبياء وغيرهما، وما أحد منهم ﴿إِلَّا﴾ أنه ﴿آتَى الرَّحْمَنِ﴾ ومثلجى إليه حال كونه ﴿عَبْدًا﴾ مملوكاً متقاداً خاضعاً، راجياً منه الإنعام والتفضل، ولا يكون الولد عبداً لوالده، وكلهم محاطون بعلمه وقدرته، بحيث إنه تعالى ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ وحصرهم ﴿وَعَدَّهُمْ﴾ بالأشخاص والأنفاس والآجال ﴿عَدًّا﴾ بالغا ﴿وَكُلُّهُمْ﴾

١. تفسير القمي ٢: ٥٥، من لا يحضره الفقيه ٤: ٤٨٢/١٣٨، الكافي ١: ١/٢٠١، التهذيب ٩: ٧١١/١٧٤، تفسير الصافي ٣: ٢٩٥.

٢. في النسخة: تفتنت.

٣. تفسير القمي ٢: ٥٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٦.

٤. في النسخة: قوائمها.

آتِيهِ ﴿وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ﴾، كَمَا عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام ^١ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لِلْعَرَضِ عَلَيْهِ ﴿فَرْدًا﴾ وَحِيدًا، لَا نَاصِرَ لَهُمْ وَلَا تَائِعَ.

فِي الْحَدِيثِ الْقَدِيسِيِّ: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: إِنَّتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» ^٢.

أَقُولُ: إِنَّمَا يَكُونُ شَتْمًا لِأَنَّهُ فِيهِ نِسْبَةُ الْإِحتِياجِ.

وَعَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: «أَنَّ الشَّجَرِ لَمْ يَزَلْ حَصِيدًا كُلَّهُ حَتَّى دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا» إِلَى أَنْ قَالَ: «فَعِندَ ذَلِكَ أَقْشَعَرَ الشَّجَرُ، وَصَارَ لَهُ شَوْكٌ حَدَادًا» ^٣.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ وُدًّا [٩٦]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ سُوءِ عِقَانَدِ الْمُشْرِكِينَ وَسُوءِ حَالِهِمْ وَعِدَاوَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، ذَكَرَ حُسْنَ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَحَبَّةَ رَبِّهِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَرِسَالَةِ رَسُولِهِ وَدَارِ جَزَائِهِ ﴿وَعَمِلُوا﴾ الْأَعْمَالَ ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ وَالْمَرْضِيَّاتِ عِنْدَ اللَّهِ ﴿سَيَجْعَلُ﴾ وَيُحَدِّثُ الْبَيْتَ ﴿لَهُمُ الرَّحْمَنُ﴾ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ ﴿وُدًّا﴾ فِي الْقُلُوبِ وَحُبًّا فِي الصُّدُورِ بِلَا سَبَبٍ ظَاهِرٍ سِوَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، كَمَا جَعَلَ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمُ الرُّعْبَ وَالْهَيْبَةَ مِنْهُمْ.

قِيلَ: كَانَ الْمُؤْمِنُونَ مَمْقُوتِينَ فِي مَكَّةَ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ، فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ بَعْدَ قُوَّةِ الْإِسْلَامِ ^٤.

وَقِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ فِي الْقِيَامَةِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يُحِبُّهُمْ إِلَى خَلْقِهِ بِمَا يُغَرِّضُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ ^٥، وَيُنْشُرُ مِنْ دِيْوَانِ أَعْمَالِهِمْ.

عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جَبْرِئِيلُ: قَدْ أَحْبَبْتُ فَلَانًا فَأَجِبُوهُ، فَيَنَادِي جَبْرِئِيلُ بِذَلِكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ فَمَثَلَ ذَلِكَ» ^٦.

وَعَنِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ قَالَ: مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ: لَا مَحَبَّةَ لِأَحَدٍ فِي الْأَرْضِ حَتَّى يَكُونَ ابْتِدَآؤُهَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، يَنْزِلُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاءِ، ثُمَّ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ قَوْلُهُ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ^٧.

وَقَالَ الْعَلَامَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي (نَهْجِ الْحَقِّ): رَوَى الْجُمْهُورُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: نَزَلَتْ فِي أَمِيرِ

١. تفسير القمي ٢: ٥٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٧.

٢. تفسير القمي ١: ٨٥، ٨٦، تفسير الصافي ٣: ٢٩٧، وفيهما زيادة: حَذَرُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ الْعَذَابُ.

٣. تفسير الرازي ٢١: ٢٥٥، تفسير روح البيان ٥: ٣٥٩.

٤ - ٥. تفسير الرازي ٢١: ٢٥٥.

المؤمنين عليّ عليه السلام، قال: الوُدّ المحبة في قلوب المؤمنين^١.

وقال القاضي في (إحقاق الحق): الرواية مذكورة في (تفسير الرازي والنیشابوري) وكتاب (الصواعق المحرقة) لابن حجر، ونقل عنه أنه قال: وصَحَّ أَنَّ العباس شكَا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ما يَتَّقُونَ من قريش [من] تعيسهم وجوههم، وقطعهم حديثهم عند لقائهم، فغَضِبَ صلى الله عليه وآله غضباً شديداً حتى احمرَّ وجهه ودرَّ عرق بين عينيه، وقال: «والَّذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يُحبِّبكم^٢ الله ورسوله^٣».

عن الصادق عليه السلام قال: «سبب نزول هذه الآية أَنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كان جالساً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: قُلْ يا علي: اللهم اجعل لي في قلوب المؤمنين وُدّاً، فأنزل الله [الآية]^٤. وعنه عليه السلام: «دعا رسول الله صلى الله عليه وآله لأمر المؤمنين عليه السلام في آخر صلاته، رافعاً به صوته، يُسمع الناس، يقول: اللهم هَبْ لعلِّي المودة في صدور المؤمنين، والهيبة والعظمة في صدور المنافقين، فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية^٥».

وعنه عليه السلام في هذه الآية، قال: «ولاية أمير المؤمنين هي الوُدّ الذي قال الله^٦.

وعن الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلِّي عليه السلام قل: اللهم اجعل لي عندك عهداً، واجعل [لي] في قلوب المؤمنين وُدّاً، فقالهما، فنزلت الآية^٧.

وقيل: إِنَّ المراد سيجعل لهم الرحمن وُدَّهُم، أي محبوبهم في الجنة^٨.

فَإِنَّمَا يَسْرُونَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا [٩٧ و ٩٨]

ثم أَنه تعالى بعد وعيد المشركين على الشُّرك والعِصيان، ووعد المؤمنين على الإيمان والعمل الصالح، بين أَنهما الغرض من إنزال القرآن بلغة العرب بقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسْرُونَاهُ﴾ وسهلنا عليك فهمه وتلاوته بأن جعلناه ﴿بِلِسَانِكَ﴾ ولغتك.

وقيل: إِنَّ بَاء (بلسانك) بمعنى على، والتيسير متضمن معنى الإنزال، والفاء في (إنما) فاء التعليل، والمعنى بلغ يا محمد هذا المنزل، أو بشر به وأنذر، لأنَّا يسرناه منزليْن له بلسانك ولغتك^٩ ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ

١. نهج الحق: ١٨٠. ٢. في النسخة: يحبهم. ٣. إحقاق الحق ٣: ٨٧.

٤. تفسير القمي ٢: ٥٦، تفسير الصافي ٣: ٢٩٧. ٥. تفسير العياشي ٢: ٣٠٢/١٩٩٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٧.

٦. الكافي ١: ٣٥٨/٩٠. ٧. مجمع البيان ٦: ٨٢٢، تفسير الصافي ٣: ٢٩٧. ٨. تفسير الرازي ١: ٢٥٦.

٩. تفسير أبي السعود ٥: ٢٨٤.

الْمُتَّقِينَ» من الشُّرْك والعِصْيَان بما أَعِدَّ لَهُم في الآخرة من الثواب العظيم ﴿وَتُنذِرُ﴾ وتُخَوِّف ﴿بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ وَجَمْعًا لَّجُوجًا عَثُودًا أو أَشْدَاءَ الخصومة، وفي الحديث: «أَبْغَضُ الرِّجَالِ أَلَدُ الْخَصْمِ»^١.

عن الصادق عليه السلام: «فَيَأْتِمَا يَسْرُونَاهُ» يعني القرآن، و﴿قَوْمًا لَّدَا﴾ يعني أصحاب الكلام والخصومة»^٢.

وعن النبي صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: «هو عليّ و﴿قَوْمًا لَّدَا﴾ قال: بنو أمية قوماً ظلمة»^٣. وعن الصادق عليه السلام، قال: «فإنما يسره الله على لسانه حين أقام أمير المؤمنين علماً، فبشّر به المؤمنين، وأنذر به الكافرين، وهم الذين ذكرهم الله في كتابه لَدَا أي كفاراً»^٤.

ثم أنه تعالى بعد ذكر لجأج القوم، هدّدهم ووعظهم بحال الأمم الماضية المهلكة بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ بالعذاب أو بالموت ﴿قَبْلَهُمْ﴾ وفي الأزمنة السابقة على زمانهم ﴿مِنْ قَوْمٍ﴾ وأهل عصرٍ من المكابرين للرسل بحيث لم يبق منهم عينٌ ولا أثرٌ، فأنظر يا محمد ﴿هَلْ تُجِسُّ﴾ وتذكر بحواصك ﴿مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ مِنْ أُولَئِكَ الْقُرُونِ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ وصوتاً خفياً.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية، قال: «أهلك الله من الأمم ما لا تحصون، فقال: يا محمد ﴿هَلْ تُجِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي ذكراً»^٥.

عنه عليه السلام: «مَنْ أَدَمَّنَ قِرَاءَةَ سُورَةِ مَرْيَمَ، لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُصِيبَ مَا يُغْنِيهِ»^٦ في نفسه وماله وولده، وكان في الآخرة من أصحاب عيسى بن مريم، وأعطى^٧ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلَ مُلْكِ سُلَيْمَانَ فِي الدُّنْيَا»^٨.

٢. تفسير القمي ٢: ٥٦، تفسير الصافي ٣: ٢٩٨.

٤. الكافي ١: ٩٠/٣٥٨، تفسير الصافي ٣: ٢٩٨.

٦. في النسخة: يغنيه ما يصيب.

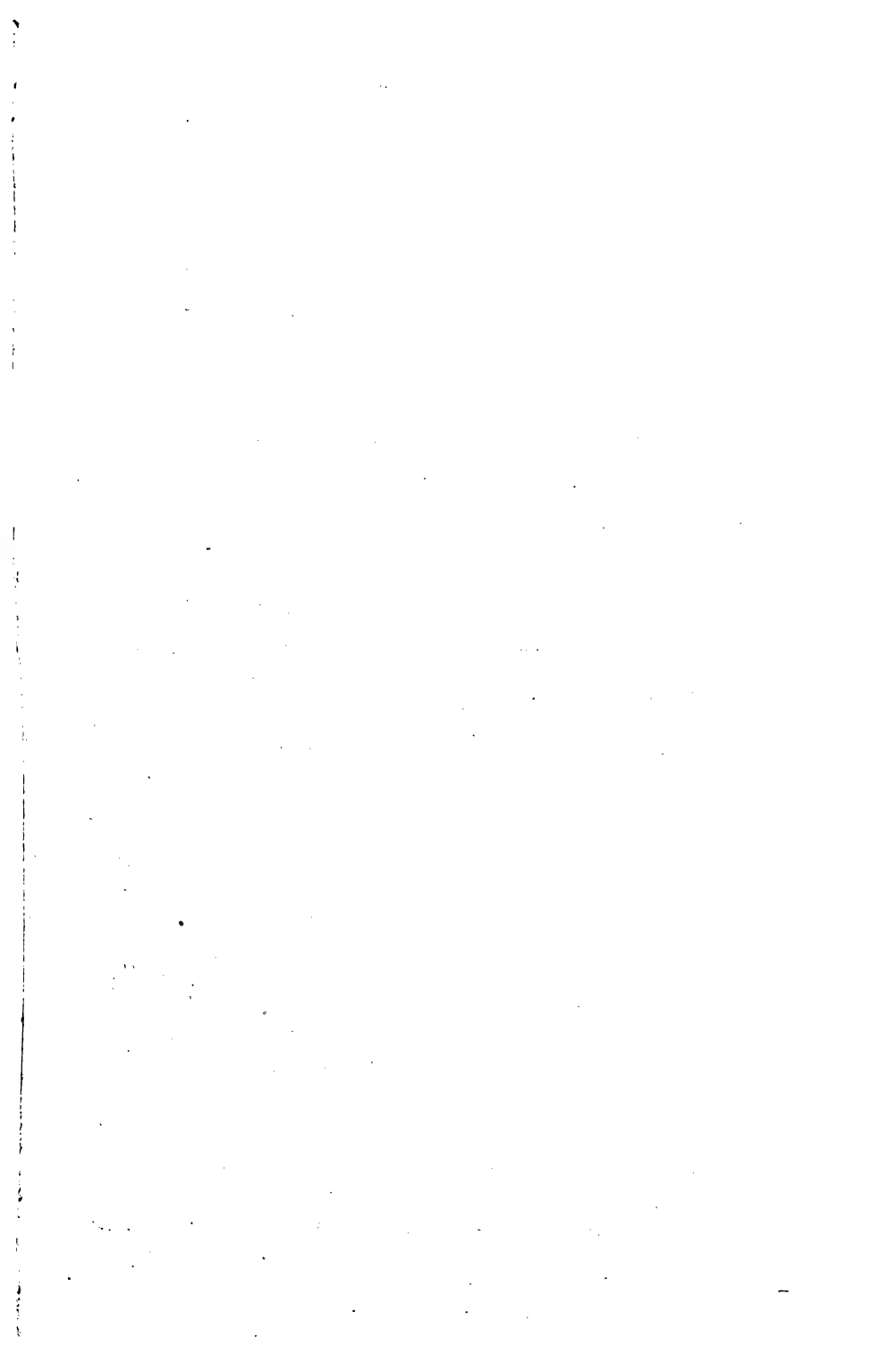
٨. نواب الأعمال: ١٠٨، تفسير الصافي ٣: ٢٩٨.

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٦٠.

٣. روضة الواعظين: ١٠٦، تفسير الصافي ٣: ٢٩٨.

٥. تفسير القمي ٢: ٥٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٨.

٧. زاد في نواب الأعمال: في الآخرة.



في تفسير سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه * مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَن يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِّمَّنْ
خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [١-٥]

ثم لما ختم سبحانه السورة المباركة ببيان تيسير القرآن على نبيه ﷺ للتبشير والإنذار، وهدد معارضيه بذكر إهلاكه الأمم الماضية بالشرك والطغيان، أزدفها بسورة طه المبتدئة بالتأكيد في بيان غرض إنزال القرآن، المتضمنة لذكر هلاك فرعون وقومه وغيره من المطالب المناسبة للسورة السابقة المختمة بتهديد المشركين، فابتدء فيها بذكر أسمائه المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم افتتحها بذكر الحروف المقطعة بقوله: ﴿طه﴾ وقد مرَّ في الطرف الثامنة عشرة تأويلها، وذكر أنها من أسماء النبي ﷺ، كما روي أنه قال: «أنا محمد، وأنا أحمد، والفتاح، والقاسم، والحاشر، والعاقب، والمأحي، وطه، ويس»^١.

وعن بعض العامة: أن الصادق عليه السلام قال: «إنه قَسَمَ بطهارة أهل البيت وهدايتهم»^٢.

وقيل: إنه قسم بطوبى والهاوية. وقيل: بطيبة ومكة. وقيل غير ذلك^٣.

ثم خاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ يا محمد ﴿لِتَشْقَى﴾ وتقع في تعب الأشف والحزن على كفر قومك، أو في تعب الجهد في إيمانهم، أو في تعب العبادة بحيث تشرف على الهلاك.

روت العامة أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماء فقال له جبرئيل: أبقِ على نفسك، فإن لها عليك حقاً^٤.

وروا أنه ﷺ كان إذا قام في الليل، ربط صدره بحبل حتى لا ينام^٥.

٢. تفسير الرازي ٣: ٢٣، تفسير روح البيان ٥: ٣٦١.

٤. تفسير الرازي ٤: ٢٢. ٥. في تفسير الرازي: من.

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٦١.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٦١.

٦. تفسير الرازي ٤: ٢٢.

وقيل: كان يقوم على رجل واحدة. وقيل: كان يسهر طول الليل^١.

والقمي عنهما عليهما السلام: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام على أصابع رجليه [حتى تورت] فأنزل الله **﴿طه﴾** بلغة طي يا محمد **﴿مَا أَنْزَلْنَا﴾** الآية^٢.

وعن الباقر عليه السلام: «كان رسول الله ﷺ عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله، لم تثعب نفسك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟»

قال: «وكان ﷺ يقوم على أطراف أصابع رجليه، فأنزل الله: **﴿طه﴾** ما أنزلنا» الآية^٣.

وعن الكاظم عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «لقد قام رسول الله ﷺ عَشْرَ سنين على أطراف أصابعه حتى تورت قدماءه واضفر وجهه، يقوم الليل [أجمع] حتى غوتب عليه في ذلك، فقال الله عز وجل: **﴿طه﴾** ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» بل لتسعد به^٤.

وقيل: إن السورة من أول ما نزل بمكة، وكان ﷺ حينئذٍ مقهوراً لأعدائه، فأنزلت تسلياً له، والمراد أنك لا تبقى على هذه الحالة من التعب والمشقة من مكابدة الأعداء، فإننا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقى شقياً وموهوناً بينهم، بل لتصير معظماً مكرماً^٥.

وقيل: إن جماعة من قريش قالوا للنبي ﷺ: إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك. فقال ﷺ: «بل بُعِثَ رحمة للعالمين» قالوا: بل أنت تشقى. فنزلت الآية ردّاً عليهم، وتعريفاً لمحمد ﷺ بأن دين الإسلام هو السلام، والقرآن سبب لكل سعادة، والكفر هو الشقاء^٦.

ثم بين سبحانه حكمة إنزال القرآن بقوله: **﴿إِلَّا﴾** لِيَكُونَ **﴿تَذْكِرَةً﴾** وَعِظَةً **﴿لِمَن يَخْشَى﴾** سوء العاقبة، ويتأثر بالآيات والتدبر، فإنه الممتنع بها.

وقيل: إن **﴿إِلَّا﴾** بمعنى (لكن)^٧.

ثم بين عظم شأن القرآن بقوله: **﴿تَنْزِيلًا﴾** قيل: أي نزل تنزيلاً^٨ متدرجاً بديعاً **﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْاَعْلَى﴾** والمرفوعات، وهو **﴿الرَّحْمَنُ﴾** الذي **﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾** وسرير الملك، أو عالم الوجود **﴿اِسْتَوَى﴾** واشتوى بقدرته، أو بعلمه وتدبيره، أو بفيضه المنبسط على جميع الذرات.

عن الصادق عليه السلام يقول: «عَلَى الْمَلَكِ احْتَوَى»^٩.

١. تفسير الرازي ٢٢: ٤. ٢. تفسير القمي ٢: ٥٨، تفسير الصافي ٣: ٢٩٩.

٣. الكافي ٢: ٦٧٧، تفسير الصافي ٣: ٢٩٩. ٤. الاحتجاج: ٢١٩، تفسير الصافي ٣: ٢٩٩.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ٤. ٦. تفسير الرازي ٣٢: ٢٢. ٧. تفسير الرازي ٢٢: ٤. ٨. تفسير الرازي ٢٢: ٤.

٩. النوحيد: ١/٣٢١، تفسير الصافي ٣: ٣٠٠.

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرُ
بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى [٧ و ٦]

وإنما وصّف ذاته بالرحمانية إشعاراً بأنّ مبدأ خلق الموجودات رحمته الواسعة ﴿لَهُ﴾ تعالى ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة والكواكب وغيرهما ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات وغيرهما، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات في الجوّ كالهواء والسحاب وغيرهما ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ قيل: إنّ ما تحت الأرضين السبع^١. وقيل: ما تحت الصخرة التي عليها الأرض [السابعة]^٢.

عن الصادق عليه السلام: «الأرض على الخوت، والخوت على الماء، والماء على الصخرة التي عليها، والصخرة على قرن ثور أمّلس، والثور على الثرى، وعند ذلك ضلّ علم العلماء»^٣.

أقول: الرواية من المتشابهات المفوّض علمها إليهم عليه السلام.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «كلّ شيء على الثرى، والثرى على القدرة، والقدرة تحمل كلّ شيء»^٤.

ثمّ بيّن سبحانه سعة علمه بقوله: ﴿وَإِنْ تَجْهَرُ﴾ وتغلّين ﴿بِالْقَوْلِ﴾ مِنَ الذِّكْرِ والدعاء، فأعلم أنّه تعالى غني عن الجهر ﴿فَإِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ والمكتوم ﴿وَأَخْفَى﴾ منه. عن الصادق عليه السلام: «السّرّ: ما أكنّته في نفسك، وأخفى: ما خطر ببالك ثمّ نسيته»^٥. وقيل: إنّ الأخفى ما استسره فيما بعد ولا تعلّمه^٦.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى * وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَىٰ
نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَىٰ
ٱلنَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ
بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى [١٢-٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان كماله في الذات والصفات، أعلن بتوحيده في الألوهية بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا تنحصر أسماؤه وصفاته فيما ذكر، بل ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ والصفات الغلbia كلّها، وفي الإتيان بضمير الغائب مع حضوره عند كلّ شيء، إشعار بغيبه ذاته وحقيقته عن ذلك الحواس

١ و ٢. تفسير أبي السعود ٦: ٥.

٣. تفسير القمي ٢: ٥٩، تفسير الصافي ٣: ٣٠٠.

٤. الخصال: ١٠/٥٩٧، تفسير الصافي ٣: ٣٠٠.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٣٦٦، وفيه: ما استسره فيما سيأتي، أي ما يلقيه الله في قلبك من بعد، ولا تعلم أنك ستحدّث به نفسك.

والعقول.

ثم أنه تعالى بعد ذكر لطفه بنبيه ﷺ ذَكَرَ الطافه بموسى بن عمران الذي هو دونه في القرب منه، تقوية لقلبه الشريف، وتحريضاً له على تحمّل أعباء الرسالة، وتقريباً لأثر التوحيد بقوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ وبلغك ﴿حَدِيثُ مُوسَى﴾ عن ابن عباس: أليس قد أتاك خبره؟^١ وفي هذا الاستفهام المبالغة في إعجاب قصته ﴿إِذْ رَأَى نَاراً﴾ رُوي أن موسى ﷺ تزوج صفوراء بنت شعيب، ثم أستاذن منه في الخروج من مَدْيَنَ لزيارة أمه وأخيه هارون في مصر، فخرج بأهله، وأخذ على غير طريق خوفاً من ملوك الشام، فلما أتى وادي طوى، وهو بالجانب الغربي من الطور، وُلِدَ له ولد في ليلة مظلمة ذات برَدٍ وشتاءٍ وثلج، وكانت ليلة الجمعة، فَقَدَحَ زَنْدَهُ، فلم تخرج منه ناراً^٢.

وقيل: كان موسى ﷺ غَيُوراً يَضْحَبُ الناس بالليل ويُفَارِقُهُم بالنهار، لئلا يزوا امرأته، فَلِذَا أَخْطَأَ الرَّفْقَةَ وَالطَّرِيقَ، فبينما هو في ذلك، إِذْ رَأَى نَاراً من بعيدٍ على يسار الطريق من جانب الطور، فظن أنها من نيران الرعاة^٣ ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ وصحبه من امرأته وولده وخدمته: ﴿اْمْكُثُوا﴾ وتوقفوا في مكانكم، ولا تتبعوني ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ وشاهدت من البعيد ﴿نَاراً﴾ فَأَذْهَبَ إِلَيْهَا ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ وشعلة أو جذوة ﴿أَوْ أَجِدُ﴾ بالسؤال من القاعدين والمُشْرِفين ﴿عَلَى النَّارِ﴾ عن الطريق ﴿هُدًى﴾ ورشاداً إليه، أو ما اهتدي به من دليل وعلامة ﴿فَلَمَّا﴾ فارق أهله، وأسرع إلى النار و﴿أَتَاهَا﴾ وانتهى سَيْرُهُ إِلَيْهَا.

عن ابن عباس: رأى شجرة خضراء، أحاطت بها من أسفلها وأعلاها نارٌ بيضاء تتقد كأضواء ما يكون، ولم يرَ هناك أحداً، فوقف متعجباً من شدة ضوء تلك النار، وشدة حُضرة تلك الشجرة، فلا النار تغير حُضرتَها، ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوء النار، فسمع تسييح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً تكلّ الأبصار عنه، فوضع يديه على عينيه، وخاف وبُهِتَ، فألقيت عليه السكينة والطُمأنينة^٤، فعند ذلك ﴿ثَوَدَى﴾ وقيل: ﴿يَا مُوسَى﴾ لا تخف ولا تحزن وليطمئن قلبك ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ اللطيف بك. وعن وهب: ظنَّ موسى ﷺ أنها نار أوقدت، فأخذ من دقائق الحطب ليقبس من لهبها، فمالت إليه كأنها تريد، فتأخر عنها وهابها، ثم لم تزل تُطْمِعُه وَيَطْمَعُ فيها، ثم لم يكن أسرع من حُمودها كأنها لم تكن، ثم رمى موسى ﷺ بنظره إلى قَرْعِهَا، فإذا حُضرتها ساطعة في السماء، وإذا نورٌ بين السماء والأرض له شعاع تكلّ عنه الأبصار، فلما رأى موسى ﷺ ذلك وضع يده على عينيه، فنودي:

٢ و ٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٦٩.

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٤.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٦٩.

يا موسى^١.

وعن الباقر عليه السلام: «فأقبل نحو النار يقتبس، فإذا شجرة ونار تلتهب عليها، فلما ذهب نحو النار يقتبس منها أهوت إليه ففرع [منها] وعدا، ورجعت النار إلى الشجرة، فالتفت إليها وقد رجعت إلى الشجرة، فرجع الثانية ليقبس، فأهوت إليه فعدا وتركها، ثم التفت وقد رجعت إلى الشجرة، فرجع إليها الثالثة فأهوت إليه فعدا ولم يعقب، أي لم يرجع، فناداه الله عز وجل «الخبر^٢.

رُوي أنه لما نودي موسى عليه السلام قال عليه السلام: «مَنْ المتكلم؟ فقال الله عز وجل: «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ» فَوَشَّوَسَ إليه إبليس: لَعَلَّكَ تَسْمَعُ كَلَامَ الشَّيْطَانِ، فقال عليه السلام: أَنَا عَرَفْتُ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بَأَنِّي أَسْمَعُهُ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ بِجَمِيعِ الْأَعْضَاءِ^٣.

قيل: تَلَقَّى موسى عليه السلام كَلَامَ رَبِّهِ تَلَقَّيًّا رُوحَانِيًّا، ثُمَّ تَحَمَّلَ ذَلِكَ الْكَلَامَ لِبَدَنِهِ، وَانْتَقَلَ إِلَى الْحَسِّ الْمَشْتَرَكِ، فَانْتَقَشَ بِهِ مِنْ غَيْرِ اخْتِصَاصٍ بِعَضْوِ جِهَةٍ^٤.

ثُمَّ قَالَ: «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ» مِنْ رَجْلَيْكَ «إِنَّكَ» تَكُونُ «بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ» الْمَطْهَرِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ وَشَوْءٍ، اسْمُهُ «طُؤَى» وَقِيلَ: طُؤَى كَيْفِي لَفْظًا وَمَعْنَى، وَالْمَعْنَى نُودِيَ مَرَّتَيْنِ، أَوِ الْمُقَدَّسُ قَدَسَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى^٥.

وعن ابن عباس: يعني الوادي المقدس الذي طَوَّيْتَهُ^٦.

فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ رُوي أَنَّهُ عليه السلام خَلَعَهُمَا وَأَلْقَاهُمَا وَرَاءَ الْوَادِي^٧. وَإِنَّمَا أُمِرَ بِالْحَفْوَةِ لِأَنَّهَا ادْخَلَ فِيهَا تَسَالُنًا: «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ» أَوْ لَتَعْظِيمِ الْوَادِي، أَوْ لِتَبَاشُرِ الْوَادِي بِقَدَمَيْهِ تَبَرُّكًا بِهِ. تَغْلِيكَ

وقيل: لكون تغليه من جلد حمار غير مذبوح، روته العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام وجمع من المفسرين^٨.

وعن الصادق عليه السلام قال: «إِنَّهُ أُمِرَ بِخَلْعِهِمَا لِأَنَّهُمَا كَانَتَا مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيِّتٍ»^٩.

وقيل: خَلَعَ التَّغْلِينَ كَنَاءَةً عَنْ تَفْرِيعِ الْقَلْبِ مِنْ حُبِّ الْأَهْلِ وَالْمَالِ^{١٠}.

وعن القائم عليه السلام - فِي حَدِيثٍ - قِيلَ لَهُ: أَخْبِرْنِي يَا [ابْنَ] رَسُولِ اللَّهِ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ مُوسَى عليه السلام «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُؤَى» فَإِنَّ فَهَاءَ الْفَرِيعَتَيْنِ يَرْغَمُونَ أَنَّهَا كَانَتْ مِنْ إِهَابِ الْمَيِّتَةِ؟

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٦. ٢. تفسير القمي ٢: ١٤٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠١.

٣ و ٤. تفسير أبي السعود ٧: ٦. ٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٨، تفسير أبي السعود ٦: ٧.

٦. تفسير أبي السعود ٧: ٧، تفسير روح البيان ٥: ٣٧١.

٨. مجمع البيان ٧: ١٠، جوامع الجامع ٢٨٠، تفسير الرازي ٢٢: ١٧، تفسير ابن كثير ٣: ١٥١، الدر المنثور ٥: ٥٥٨.

٩. تفسير القمي ٢: ٦٠، علل الشرائع ١/٦٦، تفسير الصافي ٣: ٣٠١. ١٠. تفسير أبي السعود ٦: ٧.

قال ﷺ: «من قال ذلك فَقَدْ افْتَرَى عَلَى موسى ﷺ وَاسْتَحْهَلَهُ فِي نَبَوْتِهِ؛ لَأَنَّهُ مَا خَلَا الْأَمْرُ بِيَهَا مِنْ حَصْلَتَيْنِ^١: إِمَّا أَنْ تَكُونَ صَلَاتُهُ فِيهَا جَائِزَةً [أَوْ غَيْرَ جَائِزَةٍ]، فَإِنْ كَانَتْ صَلَاتُهُ جَائِزَةً جَازَ لَهُ تَنْسِبُهَا فِي تِلْكَ الْبَقْعَةِ إِذَا لَمْ تَكُنْ مَقْدَسَةً، وَإِنْ كَانَتْ مُقَدَّسَةً مُطَهَّرَةً فَلَيْسَتْ بِأَقْدَسَ وَأَطْهَرُ مِنَ الصَّلَاةِ. وَإِنْ كَانَتْ صَلَاتُهُ [غَيْرَ] جَائِزَةً فِيهَا، فَقَدْ أَوْجَبَ عَلَى موسى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ، وَلَمْ يَعْلَمْ مَا جَازَ فِيهِ الصَّلَاةُ وَمَا لَمْ يَجُزْ، وَهَذَا كُفْرٌ».

قيل: فأخبرني يا مولاي عن التأويل فيها. قال (صلوات الله عليه): «إِنْ موسى ناجى رَبَّهُ بِالوَادِي الْمَقْدَسِ فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنِّي [قَدْ] أَخْلَصْتُ لَكَ الْمَحَبَّةَ مِنِّي، وَغَسَلْتُ قَلْبِي عَمَّنْ سِوَاكَ، وَكَانَ شَدِيدَ الْحَبِّ لَأَهْلِهِ، فَقَالَ اللَّهُ: اخْلَعْ نَعْلَيْكَ، أَيِ انْزِعْ حَبَّ أَهْلِكَ مِنْ قَلْبِكَ إِنْ كَانَتْ مَحَبَّتُكَ لِي خَالِصَةً، وَقَبْلِكَ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى سِوَايَ مَغْسُولاً»^٢.

وعن الصادق ﷺ: «يَعْنِي أَرْفَعُ خَوْفِيكَ؛ يَعْنِي خَوْفَهُ مِنْ صَيَاحِ أَهْلِهِ وَقَدْ خَلَفَهَا تَمَخُّضٌ، وَخَوْفُهُ مِنْ فِرْعَوْنَ»^٣.

وقيل: يعني فائِزُكَ الْإِلَافَاتِ إِلَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكُنْ مُسْتَغْفِراً فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالْوَادِ الْمَقْدَسِ قُدْسُ اللَّهِ تَعَالَى^٤.

وقيل: إِنْ موسى كَانَ يَلْبَسُ النُّعْلَيْنِ لِحِفْظِ رَجْلَيْهِ عَنِ النَّجَاسَةِ وَعَنْ هَوَامِّ الْأَرْضِ، فَقَالَ سَبْحَانَهُ: اخْلَعْ نَعْلَيْكَ فَإِنَّ هَذَا الْوَادِيَّ مَقْدَسٌ وَمُطَهَّرٌ مِنَ النِّجَاسَاتِ، وَأَمِنْ مِنْ لَدَغِ الْهَوَامِّ^٥.

وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ

الصَّلَاةَ لِذِكْرِي [١٣ و ١٤]

ثُمَّ نَصَبَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِلرَّسَالَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾ وَأَصْطَفَيْتُكَ لِرِسَالَتِي وَلِمَنَاجَاتِي ﴿فَاسْتَمِعْ﴾ يَا موسى ﴿لِمَا يُوحَى﴾ إِلَيْكَ مِنْ قِبَلِي.

قيل: فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾ إِظْهَارٌ لِغَايَةِ لُطْفِهِ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ إِظْهَارٌ لِغَايَةِ مَهَابَتِهِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: قَدْ جَاءَكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ مِنْ قِبَلِنَا، فَتَاهَبْ لَهُ وَاصْرِفْ جَمِيعَ قَوَاكِ وَجَوَارِحِكَ إِلَيْهِ^٦.

وَيَحْتَمِلُ تَعَلُّقُ قَوْلِهِ: ﴿لِمَا يُوحَى﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾ وَكَوْنُ (مَا) مُصَدِّرِيٍّ، وَالْمَعْنَى: أَنَا اخْتَرْتُكَ لِوَحْيِي، وَأَهْمَةُ ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ﴾ وَلَا مَعْبُودَ بِالِاسْتِخْفَاقِ فِي عَالَمِ الْوُجُودِ ﴿إِلَّا أَنَا﴾

٢. كمال الدين: ٢١/٤٦٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠٢.

١. فِي كَمَالِ الدِّينِ: خَطِيبَتَيْنِ.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٧، تفسير روح البيان ٥: ٣٧٠.

٣. علل الشرائع: ٢/٦٦، تفسير الصافي ٣: ٣٠٢.

٥. مجمع البيان ٧: ١٠. ٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٩.

وحدي لا شريك لي في العبادة، فإذا كان كذلك ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ وخصني بالعبادة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ خصوصاً ﴿لِلذِّكْرِ﴾^١ وتوجه بقلبك إلي في الأوقات، فإنها أهم العبادات، فإنها ذكرٌ ودعاءٌ وركوعٌ وسجودٌ.

وقيل: يعني لأنني ذكرتها في الكتب السماوية وأمرت بها^٢. وقيل: يعني لإخلاص ذكري وطلب وجهي، لا ثرائي بها ولا تقصد غرضاً آخر بفعلها^٣.

وقيل: يعني لأن أذكرك بالمدح والثناء^٤. وقيل: لأوقات ذكري، وهي مواقيت الصلاة^٥. وقيل: يعني أقم الصلاة حين تذكرها^٦.

عن أنس، عن النبي ﷺ، أنه قال: «من نسي صلاةً فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك»^٧. أقول: وعليه يكون في الكلام حذف، والتقدير: لذكر صلاتي.

عن الباقر عليه السلام: «إذا فاتتك صلاة فذكرتها في وقت أخرى، فإن كنت تعلم [أنك] إذا صليت التي فاتتك كنت من الأخرى في وقت، فابدأ بالتي فاتتك فإن الله يقول: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ﴾»^٨. وعنه عليه السلام: «معناه أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة، كنت في وقتها أو لم تكن»^٩.

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ [١٦ و ١٥]

ثم نبه سبحانه على علة وجوب العبادة والصلاة بقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ والقيامة ﴿آتِيَةٌ﴾ وكأنه لا محالة، وهي لكثرة أهوالها وغاية عظمها ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ واسترها عن كل أحد، ولكن اللطف ولزوم قطع الأعدار اقتضى إظهارها.

وقيل: يعني أريد أخفي وقتها، ليكون الناس على حذر منها في جميع الأوقات^{١٠}. وقيل: يعني لو صح إخفاؤها من نفسي لأخفيتها عني، فكيف أظهرها لكم؟ وفيه غاية المبالغة في لزوم إخفائها عن الناس^{١١}.

وقيل: يعني أكاد أظهرها^{١٢} بإتيانها ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ في تلك الساعة ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ وتعمل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

١. في النسخة: قلبك. ٢-٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٩.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠.

٦. مجمع البيان ٧: ١٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠٣.

٨. الكافي ٣: ٢٩٣، تفسير الصافي ٣: ٣٠٢.

٩ و ١١. تفسير الرازي ٢٢: ٢٢.

١٠. تفسير روح البيان ٥: ٣٧١.

وقيل: يعني لتجزي كل نفس بسعيها في الأمور المأمور بها^١.
﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ ولا يمتنعك عن تذكرها والتَّهْنِئَة لها، أو لا يمتنعك عن الصلاة **﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾** وسعى في موافقة ميل نفسه **﴿فَتَزِدِّي﴾** وتَهْلِك، إذن فَإِنَّ الْغَفْلَةَ عن تحصيل ما يُنْجِي من أهوال الساعة، أو عن الصلاة والقيام بوظيفة العبودية، موجبةً للهلاك في الآخرة.
 وقيل: إن المخاطب من قوله: **﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾** إلى هنا هو خاتم الأنبياء ﷺ.

وَمَا تِلْكَ بِبِمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى
 غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلَيْهَا يَا مُوسَى * فَأَلْفَاها فَاذًا هِيَ حَيَّةٌ
 تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى [١٧-٢١]

ثم قيل: إن المهابة لما عظمَتْ في قلب موسى ﷺ، أراد سبحانه استثناسه^٢ بقوله: **﴿وَمَا تِلْكَ﴾** مأخوذةً **﴿بِمِينِكَ﴾** ويدك، وفي السؤال تنبيه له على ما سيبدو له من التعاجيب^٣.
 ثم كرر الخطاب بقوله: **﴿يَا مُوسَى﴾** ازدياداً للتأنيس وإظهاراً لغاية اللطف **﴿قَالَ﴾** موسى: يا رَبِّ **﴿هِيَ عَصَايَ﴾** وفاندها إني **﴿أَتَوَكَّؤُا﴾** وأَعْتَمِدُ **﴿عَلَيْهَا﴾** وعند الإغْيَاء، أو حين الوقوف على رأس القطيع **﴿وَأَهشُّ﴾** وأسقط **﴿بِهَا﴾** الوَزَقَ من الأشجار **﴿عَلَى غَنَمِي﴾** لِتَأْكُلَ منه.
 القمي: ثم من الفرق لم يستطع الكلام فجمع كلامه^٤ وقال: **﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ﴾** وحوائج ومنافع **﴿أُخْرَى﴾** غير ذلك.
 وقيل: إنه ﷺ أجمل في الجواب رجاء أن يسأله رَبُّه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله مرة أخرى^٥.

وقيل: إنه قال موسى ﷺ: إلهي ما هذه العصا إلا كغيرها لكنتَ لما سألت عنها عرفت أن لي فيها مآرب أخرى منها: أنك كلمتني بسببها^٦.

رُوي أنه كان إذا سار وَضَعَهَا على عاتقه فَعَلَقَ بِهَا أَدْوَاتَهُ، وإذا أقام في البرية رَكَزَهَا وَعَرَضَ الرُّنْدَيْنِ على شُعْبَيْيْهَا فَاشْتَعَلَتْ، وألقى عليها كسائه واستَطَّلَ به، وإذا تعرَّضت السباع لغنمه قاتلتها بها^٧.
 قيل: إنه فهِم من السؤال بيان حقيقتها وتفصيل منافعها، حتى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة،

١. تفسير أبي السعود ٦: ٨.

٢. تفسير أبي السعود ٦: ٨.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٧٤.

٤. أي العجائب، وفي النسخة: التعاجيب.

٥. تفسير القمي ٢: ٦٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠٤.

٦. تفسير الرازي ٢٢: ٢٧.

٧. تفسير أبي السعود ٦: ١٠.

وبَدَّتْ منها خواص بديعة، عَلِمَ أنها آيات باهرة. أو كان المقصود إزالة الرهبة والمهابة من قلب موسى ﷺ والاستئناس به^١.

ثم كأنه قيل: ماذا قال الله إذن؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿قَالَ﴾ الله ﴿أَلْقَهَا﴾ مِنْ يَدِكَ ﴿يَا مُوسَى﴾ عَلَى الْأَرْضِ، لترى منها ما لم يَخْطُر بِقَلْبِكَ ﴿فَأَلْقَاهَا﴾ مِنْ غَيْرِ رَيْثٍ ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ وَثَعْبَانٌ جَسِيمٌ، وهي مع غاية عَظَمِ جُثَّتْهَا تَسْعَى﴾ وَتَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ بِسُرْعَةٍ وَجَلَادَةٍ كَالْحَيَّةِ الصَّغِيرَةِ. وفي رواية: أَنَّهُ ﷺ لَمَّا أَلْقَاهَا انْقَلَبَتْ حَيَّةً صَفْرَاءَ فِي غِلْظِ الْعَصَا، ثُمَّ انْتَفَخَتْ وَعَظُمَتْ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ بِالْجَانِّ تَارَةً، وبالثَّعْبَانِ أُخْرَى^٢.

قيل: كان لها عُرْف كَعُرْفِ الْفَرَسِ، وكان بين لَحْيَيْهَا أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا، وابتلعت كلَّ مَا مَرَّتْ بِهِ مِنَ الصَّخُورِ وَالْأَشْجَارِ حَتَّى سَمِعَ مُوسَى صَرِيرَ الْحَجَرِ فِي فَمِهَا وَجَوَّفَهَا^٣، فخافها وولَّى مُدْبِرًا، فناداه رَبِّهِ وَ﴿قَالَ﴾: يَا مُوسَى ﴿خُذْهَا﴾ بِيَدِكَ ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ مِنْهَا إِنَّا سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا وَحَالَתَهَا ﴿الْأُولَى﴾ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا.

قيل: لَمَّا قَالَ اللهُ: ﴿لَا تَخَفْ﴾ بَلَغَ اطمئنان موسى إِلَى أَنْ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي فَمِهَا وَأَخَذَ بِلَحْيَيْهَا^٤. وفي رواية: أَنَّهُ أَدْخَلَ يَدَهُ بَيْنَ أَسْنَانِهَا، فَانْقَلَبَتْ خَشَبَةً^٥.

وعن الصادق ﷺ: «فَفَزِعَ مِنْهَا مُوسَى وَعَدَا، فَنَادَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ الْآيَةَ^٦». قيل: إِنَّ حِكْمَةَ قَلْبِ الْعَصَا حَيَّةٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ مَعْرِفَةُ مُوسَى نُبُوَّةَ نَفْسِهِ بِهَا^٧، لِاحْتِمَالِ كَوْنِ النِّدَاءِ مِنْ بَابِ إِظْهَارِ غَايَةِ اللَّطْفِ وَعَدَمِ خَوْفِهِ بَعْدَ مَشَاهِدَةِ ذَلِكَ الْأَمْرِ مِنْ وَقُوعِهِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ وَقُوَّةِ قَلْبِهِ فِي الدَّعْوَةِ، وَعَلِمَهُ بِأَنَّ اللَّهَ الْقَادِرَ عَلَى قَلْبِ الْعَصَا ثَعْبَانًا، قَادِرٌ عَلَى نُصْرَتِهِ فِي إِظْهَارِ الدِّينِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْحَقِّ.

وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءِ آيَةٍ أُخْرَى * لِتُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * إِذْ هَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ أَسْرِحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي [٢٨-٢٢]

ثم أراه الله آية أخرى على نبوته بقوله: ﴿وَأَضْمَمَ﴾ وَمَدَّ ﴿يَدَكَ﴾ الَّتِي الَّتِي جَنَاحِكَ، وَإِنْطَكَ وَأَدْخِلَهَا فِي جَيْبِكَ ﴿تَخْرُجُ﴾ يَدُكَ إِذْنٌ مِنْهُ حَالُ كَوْنِهَا ﴿بَيْضَاءَ﴾ بِقُدْرَةِ اللهِ ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾

١. تفسير روح البيان ٥: ٣٧٤.

٢. تفسير أبي السعود ٦: ١٠.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢٩.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ٢٨.

٥. تفسير القمي ٢: ١٤٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠٤.

٦. تفسير الرازي ٢٢: ٢٨.

ومرض بَرَص تكون هذه ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ على قدرتي، ونبوتك، ومعجزة قاهرة غير انقلاب العصا حية.

رُوي أَنَّهُ ﷺ كان شديد الأذمة، فكان إذا أدخل يده اليمين في جيبه وتحت إبطه الأيسر وأخرجها كانت تَبْرِق مثل البرق - وقيل: مثل الشمس - من غير بَرَص، ثم إذا ردها عادت إلى لونها الأول بلا نور^١.

وعن الصادق ﷺ: «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» من غير علة، وذلك أَنَّ موسى ﷺ كان شديد السُّمرة، فأخرج يده من جيبه، فأضاءت له الدنيا^٢.

وَأَمَّا فعلنا ما فعلنا من إظهار الآيتين ﴿لِنُرِيكَ﴾ بها بعضاً ﴿مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ قيل: إِنَّ المعنى لنريك الكبرى من آياتنا^٣.

ثم أَنَّهُ تعالى بعد إعطائه الآيتين أمره بالرسالة بقوله: ﴿إِذْهَبْ﴾ يا موسى، للدعوة إلى التوحيد والتحذير من الطغيان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر بهاتين الآيتين ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ وتجاوز عن الحد في الكفر والطغيان.

عن وهب، أَنَّهُ قال: قال الله تعالى لموسى: إسمع كلامي، واحفظ وصيتي، وانطلق برسالتني، فَإِنَّكَ بعيني وسمعي، وَإِنْ معك يدي ونصري^٤، وَإِنِّي أَلْبَسْتُكَ جَنَّةً من سلطاني^٥ لتستكمل بها القوة في أمري، أبعثك إلى خلقي ضعيف من خلقي، يطرب بنعمتي، وأمين مكرري، وغرته الدنيا حتى جحد حقِّي، وأنكر ربوبيتي، وسقط عن عيني، فبلغه عني رسالتني، وادعُه إلى عبادتي، وحدَّره بقمتي، إلى أن قال: فسكت موسى سبعة أيام لا يتكلم، ثم جاءه ملك فقال: أَجِب رَّبَّكَ في ما أمرك^٦.

فلَمَّا كَلَّفَ موسى ﷺ بهذا التكليف الشاقَّ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ووسع قلبي بحيث لا يضيق بسفاهة المعاندين ولجاج العاتين، أو زِدْ حِفْظِي وذَكَائِي وجودة ذهني حتى أخفظ ما تنزل من الوحي وأفهمه، أو قَوِّ قَلْبِي حتى أجترئ على مخاطبة فرعون وقومه ومعارضتهم.

﴿وَيَسِّرْ لِي﴾ وسهل عليَّ ﴿أَمْرِي﴾ من الدعوة والتبليغ بتهيئة الأسباب ورفع الموانع ﴿وَأَخْلَلْ عَقْدَةً﴾ قليلة، وأزل كُتَّةً يسيرة ﴿مِنْ لِسَانِي﴾ كيَّ ﴿يَقْقَهُوا﴾ ويَقْقَهُوا ﴿قَوْلِي﴾ وكلامي عند تبليغ الرسالة، ولا يَسْقُ عليَّ مكالمة فرعون ومَلَيْهِ.

٢. تفسير القمي ٢: ١٤٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠٤.

١. تفسير الرازي ٢٢: ٣٠.

٣. جوامع الجامع: ٢٨٠. ٤. في تفسير الرازي: وبصري.

٦. تفسير الرازي ٢٢: ٣٠.

٥. في النسخة: جَنَّة سلطاني.

قيل: كانت اللكنة بخلفه الله تعالى^١. وقيل: كانت من جَمْرَةٍ أدخلها فاه^٢.

رُوي أن فرعونَ حملهُ يوماً، فأخذَ لحيته وتَنَفَّها، لَمَّا كانتَ مرصعةً بالجواهر، فغَضِبَ وقال: إن هذا عدوِّي المطلوب، وأمرَ بقتله، فقالتَ أَسِيَّةُ زوجته: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ صَبِيٌّ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْجَمْرِ والياقوتِ، فأحضرا بين يدي موسى، بِأنْ يُجْعَلَ الْجَمْرُ فِي طَشْتِ والياقوتِ فِي آخِرٍ، فقصِدَ إلى أخذِ الجَوهَرِ، فأمالَ جَبْرِئِيلُ يده إلى الجَمْرِ، فرفعه إلى فيه، فأخترقَ لسانه، فكانتَ منه لُكْنَةٌ وعُجْمَةٌ^٣.

وعن الباقر عليه السلام - في رواية - : «وَلَمَّا دَرَجَ مُوسَى عليه السلام كَانَ يَوْمًا عِنْدَ فِرْعَوْنَ فَعَطَسَ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَنْكَرَ فِرْعَوْنُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَلَطَمَهُ، وَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي تَقُولُ؟ فَوَثَبَ مُوسَى عليه السلام عَلَى لِحْيَتِهِ عليه السلام وَكَانَ طَوِيلَ اللَّحْيَةِ، فَهَلَبَهَا - أَيَّ قَلْعَهَا - فَأَلَمَهُ أَلَمًا شَدِيدًا، فَهَمَّ فِرْعَوْنُ بِقَتْلِهِ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: هَذَا غَلَامٌ حَدَّثَ مَا يَدْرِي مَا يَقُولُ. فَقَالَ فِرْعَوْنُ: بَلْ يَدْرِي. فَقَالَتْ لَهُ: ضَعْ بَيْنَ يَدَيْكَ ثَمْرًا وَجَمْرًا، فَإِنَّ مِيزَ بَيْنَ الْجَمْرِ وَالثَّمَرِ فَهُوَ الَّذِي تَقُولُ، فَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ ثَمْرًا وَجَمْرًا وَقَالَ لَهُ: كُلْ، فَمَذَّ يده إلى الثَّمَرِ فجاءَ جَبْرِئِيلُ فَصَرَفَهَا إِلَى الْجَمْرِ، فَأَخَذَ الْجَمْرَ فِي فِيهِ فَأَخْتَرَقَ لِسَانَهُ، وَصَاحَ وَبَكَى. فَقَالَتْ أَسِيَّةُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ أَنَّهُ لَمْ يَعْقِلْ؟ فَعَفَا عَنْهُ»^٤.

ثمَّ أن بعض العامة قال: لم يحترق بيده ولا لسانه، لكون يده آلة أخذ العصا، ولسانه آلة ذكر الله، ومنهم من قال: احترقت يده ولم يحترق لسانه، ومنهم من قال بالعكس، ومنهم من قال احترقا معاً^٥. أقول: الأظهر من الروایتين هو القول الثالث.

وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَازُونَ أَخِي * أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي

أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ

أَوْتِيَتْ سُؤْلُكَ يَا مُوسَى (٢٩-٣٦)

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ سُؤَالِ قُوَّةِ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، سَأَلَ تَقْوِيَتَهُ فِي تَحْمُلِ أَعْيَاءِ الرِّسَالَةِ بِجَعْلِ الْمُعِينِ لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا﴾ وَمُعِينًا كَانَتْهُ «مِنْ أَهْلِي» وَأَقْرَبَانِي وَخَوَاصِي الْمُتَسَبِّحِينَ إِلَيَّ فِي تَحْمُلِ أَعْيَاءِ الرِّسَالَةِ، وَلَمَّا كَانَ التَّعَاوُنُ فِي أَمْرِ دِينِكَ دَرَجَةً عَظِيمَةً يَكُونُ الْآخِ بِهَ «هَازُونَ» الَّذِي يَكُونُ «أَخِي» مِنْ أَبِي وَأُمِّي «أَشْدُدْ» وَاحْكَمْ «بِهِ أَزْرِي» وَقَوِّنِي عَلَى التَّبْلِيغِ، أَوْ قَوِّ بِهِ ظَهْرِي «وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي» وَمُنْصِبِي وَشُغْلِي مِنَ الرِّسَالَةِ وَالتَّبْلِيغِ «كَيْ نُسَبِّحَكَ» وَنُزَّهِكَ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِكَ تَسْبِيحًا

٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٧٩.

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٤٧.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ٤٧.

٤. تفسير القمي ٢: ١٣٦، تفسير الصافي ٣: ٣٠٥.

وتزنيهاً **كثيراً**، دائماً **وَنَذَرُكَ**، بصفات الجلال والجمال ذكراً **كثيراً**، فَإِنَّ التَّعَاوُنَ يَهَيِّجُ الرُّغَبَاتِ وَيُؤَثِّرُ فِي تَكَاثُرِ الْخَيْرَاتِ **إِنَّكَ** يا مولاي **كُنْتَ بِنَا** وبمصالحنا، أو بما في قلوبنا من الخُلُوصِ فِي الطَّاعَةِ، أو بغرضنا من الاستعانة **بِصِيرَا**، وعلماً.

قال العلامة (رضوان الله عليه) في (نهج الحق): وفي (مسند أحمد) قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي مُوسَى: اجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي عَلِيًّا أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرُكُهُ فِي أَمْرِي»^١. في رد بعض روايات أقول: وقد اشتهر بين العامة والخاصة قوله ﷺ: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^٢ ومن العجب أنه مع ذلك روى بعض العامة أن النبي ﷺ قال: «إِنْ لِي فِي السَّمَاءِ وَزِيرَيْنِ، وَفِي الْأَرْضِ وَزِيرَيْنِ، فَالَّذَانِ فِي السَّمَاءِ: جَبْرَيْلُ وَمِيكَائِيلُ، وَالَّذَانِ فِي الْأَرْضِ: أَبُو بَكْرٌ وَعُمَرُ»^٣.

فإن هذه الرواية تنافي الخبرين المعبرين السابقين المعتضدين بقوله ﷺ: «لَأَعْطِيَنَّ الرَّايَةَ عَدَاً رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»^٤ وقوله في حديث الطائر: «اللَّهُمَّ ائْتِنِي بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إِلَيْكَ»^٥.

والحاصل: أنه لا شبهة أن علياً عليه السلام كان أخا الرسول ﷺ، وأَخَصَّ أَهْلِهِ، وَأَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، لكونه أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ تَعَالَى، ووصية كما كان يُوْشِعُ بَنُ تُونٍ وَصِيَّ مُوسَى، وكان من شجرة واحدة، وكان ثورهما واحداً، وكان أعلم الصحابة وأعقلهم وأقضاهم بحيث قال عمر: «لا قضية لا يكون فيها أبو الحسن» «ولولا علي لَهْلَكَ عمر»^٦، وكان من النبي ﷺ بمنزلة هارون من موسى، ولم يكفر بالله طرفة عين، وقال: «سَلُونِي»^٧ ولم يسأل هو عن أحد غير النبي ﷺ، وكان حامل لوائه ومبلغ براءة عنه، ولم يخالفه في شيء، إلى غير ذلك مما لا يحصى من محامده، ومع ذلك كيف يمكن أن تكون وزارته

١. نهج الحق: ٢٢٩، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢: ١١٥٨/٦٧٨.

٢. صحيح البخاري ٥: ٢٠٢/٨٩، صحيح مسلم ٤: ٢٤٠٤/١٨٧٠، سنن الترمذي كتاب المناقب ٥/٣٧٣، مستدرك الحاكم ٣: ٣٣٧، مسند أحمد ١: ١٧٣، ١٧٥، ١٨٢، ١٨٤، ٣٣١، مصابيح السنة ٤: ٤٧٦٢/٧٠، جامع الأصول ٩: ٤٦٨/٤٧٧، أمالي المفيد: ٢/٥٧، أمالي الطوسي: ٤٥٣/٢٥٣، الكافي ٨: ٨٠/١٠٧.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ٤٨، تفسير روح البیان ٥: ٣٨٠.

٤. صحيح البخاري ٥: ١٩٧/٨٧، ١٩٨، وص ٢٣١/٢٧٩، صحيح مسلم ٤: ٣٤ - ٣٢/١٨٧١، سنن الترمذي ٥: ٣٧٢٤/٦٣٨، سنن ابن ماجه ١: ١١٧/٤٣، مسند أحمد ١: ١٨٥ و ٣٥٨ وغيرها.

٥. سنن الترمذي ٥: ٣٧٢١/٦٣٦، خصائص النسائي: ٥، فضائل الصحابة لأحمد ٢: ٩٤٥/٥٦٠، مستدرك الحاكم ٣: ١٣٠ - ١٣٢، مصابيح السنة ١٧٣/٤٧٧، أسد الغابة ٤: ٣٠.

٦. الاستيعاب بهامش الإصابة ٣: ٣٩.

٧. نهج البلاغة بتحقيق صبحي الصالح: ٢٨٩ الخطبة ١٨٩، الاستيعاب ٣: ٤٣.

لِلْأَعْدَى الْأَجْهَلِينَ، الَّذِينَ عَادُوا الصَّنَمَ فِي أَكْثَرِ عُمْرِهِمَا، وَكَانَا يَتَعَلَّمَانِ مِنْ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَضْرَابِهِمَا، وَكَانَتِ النِّسَاءُ أَفْقَهُ مِنْهُمَا^١، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مِثَالِهِمَا، ثُمَّ كَيْفَ كَانَ أَبُو بَكْرٍ مُعِينًا لَهُ فِي التَّبْلِيغِ مَعَ عَدَمِ أَهْلِيَّتِهِ لِتَبْلِيغِ بَرَاءَةِ؟

ثُمَّ «قَالَ» اللَّهُ إِبْجَابَةً لِدَعَاةِ: «قَدْ أُوتِيتَ» وَأَعْطِيتَ مِنْ قِيلِنَا «سُؤْلُكَ» وَمَطْلُوبُكَ «يَا مُوسَى» قِيلَ: أزال الله لُكْنَةَ لِسَانِهِ بِالْكُلِّيَّةِ^٢، وَقِيلَ: أزال أكثرها^٣، وجعل له هَارُونَ وَزِيرًا، وَكَانَ أَكْبَرَ سِنًا وَأَفْصَحَ لِسَانًا مِنْهُ.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي
التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ
وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي [٣٧-٣٩]

ثُمَّ قَوَّى سُبْحَانَهُ قَلْبَهُ وَهَيَّجَهُ عَلَى الْقِيَامِ بِوُضُفِيَّتِهِ بِقَوْلِهِ: «وَلَقَدْ مَنَنَّا» وَأَنعَمْنَا «عَلَيْكَ» لُطْفًا وَتَفَضُّلاً بِالنِّعَمِ الْكَثِيرَةِ «مَرَّةً أُخْرَى» فِي بَدْوٍ وَلَادَتِكَ «إِذْ أَوْحَيْنَا» بَعْدَ وَلَادَتِكَ «إِلَى أُمِّكَ» وَأَلْهَمْنَاهَا، أَوْ قَلْنَا لَهَا فِي الرُّؤْيَا، أَوْ بِتَوْسُطِ الْمَلَكِ الَّذِي تَمَثَّلَ لَهَا كَمَا تَمَثَّلَ لِمَرْيَمَ «مَا» يَجِبُ أَنْ «يُوحَى» وَيُنَبِّهَ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ اللَّازِمِ الْوُقُوعِ، أَوْ مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَعْلَمَ بِهِ إِلَّا بِالْوَحْيِ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا خَافَتْ أُمُّكَ عَلَيْكَ مِنْ فِرْعَوْنَ، أَوْحَيْنَا إِلَيْهَا «أَنْ أَقْذِفِيهِ» وَضَعِيهِ «فِي التَّابُوتِ» وَالصَّنْدُوقِ «فَأَقْذِفِيهِ» وَأَلْقِيهِ مَعَ التَّابُوتِ «فِي الْيَمِّ» وَنَهَرَ النَّيْلَ «فَلْيُلْقِهِ» بَعْدَ ذَلِكَ «الْيَمِّ» وَالنَّهْرَ بِمَوْجِهِ «بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ» عِنْدَ ذَلِكَ فِرْعَوْنَ الَّذِي هُوَ «عَدُوٌّ لِي» لِكُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ «وَعَدُوٌّ لَهُ» لِكُونِهِ مِنَ الْخَوْفِ مِنْهُ بِصَدْدِ قَتْلِهِ.

رَوَى أَنَّ أُمَّ مُوسَى جَعَلَتْ فِي التَّابُوتِ قُطْنًا، وَوَضَعَتْ مُوسَى فِيهِ، ثُمَّ أَحْكَمَتْهُ بِالْقَبْرِ لِئَلَّا يَدْخُلَ فِيهِ الْمَاءُ، وَأَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ، وَكَانَ يَدْخُلُ مِنْهُ إِلَى بُسْتَانِ فِرْعَوْنَ نَهْرٌ، فَدَفَعَهُ الْمَاءُ إِلَيْهِ، فَأَتَى بِهِ إِلَى بَرَكَةٍ فِي الْبُسْتَانِ، وَكَانَ فِرْعَوْنَ جَالِسًا ثَمَّةً مَعَ أَسِيَةِ بِنْتِ مَرْحَمٍ، فَأَمَرَ بِهِ فَأَخْرَجَ، فَفُتِحَ فَإِذَا هُوَ صَبِيٌّ أَصْبَحَ النَّاسُ وَجْهًا، وَسَمَّاهُ مُوسَى لَمَّا وَجَدَهُ فِي الْمَاءِ عِنْدَ الشَّجَرَةِ، فَإِنَّ كَلِمَةَ (مُوسَى) عَلَى مَا قِيلَ بِالْقَبْطِيَّةِ الْمَاءُ، وَكَلِمَةُ (سَا) هُوَ الشَّجَرُ^٤.

وَعَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ لَمْ يَظْهَرْ حَمْلُهَا إِلَّا عِنْدَ وَضْعِهِ، وَكَانَ فِرْعَوْنَ قَدْ

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٨٢، ١٢: ٢٠٨، ١٧: ١٧١.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٨٣.

٣ و ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٤٨.

وَكَلَّ بِنْسَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ نِسَاءً مِنَ الْقَبِيْطِ تَحْفَظُهُنَّ، وَذَلِكَ لَمَّا كَانَ بُلْعُهُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ يُوَلِّدُ فِينَا رَجُلًا يَقَالُ لَهُ مُوسَى يَكُونُ هَلَاكُ فِرْعَوْنَ وَأَصْحَابِهِ عَلَى يَدَيْهِ، فَقَالَ فِرْعَوْنَ عِنْدَ ذَلِكَ: لَأَقْتُلَنَّ ذَكَورَ أَوْلَادِهِمْ حَتَّى لَا يَكُونَ مَا يُرِيدُونَ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَحَبَسَ الرِّجَالَ فِي الْمَحَابِسِ، فَلَمَّا وَضَعَتْ أُمُّ مُوسَى بِمُوسَى نَظَرَتْ إِلَيْهِ فَحَزِنَتْ وَاعْتَثَمَتْ وَبَكَتْ، وَقَالَتْ: يَذْبَحُ السَّاعَةِ، فَعَطَفَ اللَّهُ قَلْبَ الْمَوَكَّلَةِ بِهَا عَلَيْهِ، فَقَالَتْ لِأُمِّهِ: مَا لَكَ قَدْ أَصْفَرَ لَوْنُكَ؟ قَالَتْ: أَخَافُ أَنْ يَذْبَحَ وَلَدِي، قَالَتْ: لَا تَخَافِي، وَكَانَ مُوسَى لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ.

إِلَى أَنْ قَالَ: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أُمِّ مُوسَى التَّابُوتَ، وَوَدِدَتْ: ضَعِيهِ ﴿فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي أَلِيمٍ﴾ وَهُوَ الْبَحْرُ ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^١ فَوَضَعَتْهُ فِي التَّابُوتِ، وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِ، وَأَلْقَتْهُ فِي النَّيْلِ، وَكَانَ لِفِرْعَوْنَ قَصُورٌ عَلَى شَطِّ النَّيْلِ مَنَزَهَاتٍ، فَنَظَرَ مِنْ قَصْرِهِ -وَمَعَهُ أَسِيَّةُ امْرَأَتِهِ- إِلَى سَوَادٍ فِي النَّيْلِ تَرْفَعُهُ الْأَمْوَاجُ وَالرِّيَّاحُ تَضْرِبُهُ حَتَّى جَاءَتْ بِهِ إِلَى بَابِ قَصْرِ فِرْعَوْنَ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنَ بِأَخْذِهِ، فَأَخَذَ التَّابُوتَ وَرَفَعَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا فَتَحَهُ وَجَدَ فِيهِ صَبِيًّا فَقَالَ: هَذَا إِسْرَائِيلِيُّ^٢. قِيلَ: كَمَا أَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ الْبَحْرِ فِي الْإِبْتِدَاءِ، أَنْجَاهُ مِنْهُ فِي الْإِنْتِهَاءِ بِغَرَقِ فِرْعَوْنَ^٣.

ثُمَّ ذَكَرَ مِنْهُ الْآخَرَى بِقَوْلِهِ: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً عَظِيمَةً كَانَتْهُ مِنِّْي» وَبِشِدَّتِي، قَدْ زَرَعْتُهَا فِي الْقُلُوبِ، لِيَتَعَطَّفَ عَلَيْكَ كُلٌّ مِنْ نَظَرٍ إِلَيْكَ ﴿وَلِتَضْمَنَ﴾ وَتُرَبَّى حَالُ كَوْنِكَ ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ وَحِفْظِي وَجِرَاسَتِي، أَوْ عَلَى عِلْمِي بِحَالِكَ.

رُوي أَنَّهُ كَانَ عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةٌ جَمَالٍ، وَفِي عَيْنَيْهِ مَلَاَحَةٌ لَا يَكَادُ يَصْبِرُ عَنْهُ مَنْ رَأَاهُ^٤.
وَعَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «كَانَ مُوسَى لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّْي» فَأَحَبَّهُ الْقَبِيْطِيَّةُ الْمَوَكَّلَةُ بِهِ» إِلَى أَنْ قَالَ: «فَأَلْقَى اللَّهُ فِي قَلْبِ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى مَحَبَّةً شَدِيدَةً، وَكَذَلِكَ فِي قَلْبِ أَسِيَّةَ، وَأَرَادَ فِرْعَوْنَ قَتْلَهُ فَقَالَتْ أَسِيَّةُ: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^٥ أَنَّهُ مُوسَى، وَلَمْ يَكُنْ لِفِرْعَوْنَ وَلَدٌ فَقَالَ: أَنْ أَتَوَا لَهُ ظَنَرْنَا^٦ لِرَبِّيتِهِ، فَبَجَاءَ وَابْعَدَ نِسَاءً قَدْ قُتِلَ أَوْلَادُهُمْ فَلَمْ يَشْرَبْ لَبَنَ أَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ»^٧ وَبُلْعَ أَنَّهُ أَنْ فِرْعَوْنَ قَدْ أَخَذَهُ فَحَزِنَتْ وَبَكَتْ كَمَا قَالَ اللَّهُ: «وَأَصْبَحَ فَوْادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتَشْدِي بِهِ»^٨.
قَالَ عليه السلام: «كَادَتْ أَنْ تُخْبِرَ بِخَبْرِهِ أَوْ تَمُوتَ، ثُمَّ حَفِظَتْ نَفْسَهَا، فَكَانَتْ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا

١. القصص: ٢٨/٧. ٢. تفسير القمي ٢: ١٣٥، تفسير الصافي ٣: ٣٠٦.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٣٨٢. ٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٨٣.

٥. القصص: ٢٨/٩. ٦. الطُّنْزُ: المَرْضَعَةُ لِغَيْرِ وَلَدِهَا. ٧. القصص: ٢٨/١٢.

٨. القصص: ٢٨/١٠.

عَلَىٰ قَلْبِهَا لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^١ ثُمَّ قَالَتْ لِأُخْتِهِ^٢: «قُصِّيه» أَيِ اتَّبِعِيهِ^٣، فجاءت أُخْتَهُ إِلَيْهِ
«فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُبِّ^٤» أَيِ بَعْدَ «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ»^٥ فَلَمَّا لَمْ يَقْبَلْ مُوسَىٰ بِأَخْذِ ثَدْيِ أَحَدٍ مِنَ
النِّسَاءِ اغْتَمَّ فِرْعَوْنُ غَمًّا شَدِيدًا^٦ الْخَبِرَ.

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَتَوَلَّيْتُ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي
أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ [٤٠]

ثم ذكر مِثْلَهُ عَلَيْهِ بَرَدَهُ إِلَىٰ أُمِّهِ بِقَوْلِهِ: «إِذْ تَمْشِي» وَتَذْهَبُ «أُخْتُكَ» مَرَّيْمَ إِلَىٰ بَيْتِ فِرْعَوْنَ
«فَتَقُولُ» لِفِرْعَوْنَ وَامْرَأَتِهِ حِينَ رَأَتْهُمَا يَطْلُبَانِ لَهُ مَرْضِعَةً يَقْبَلُ ثَدْيَهَا: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ»
وَيَحْضُنُهُ وَيُرِييُهُ مِنَ الْمَرْضَعَاتِ؟

رَوَى أَنَّهُ فَشَا الْخَبِرَ بِبَصَرِ أَنْ آلَ فِرْعَوْنَ أَخَذُوا غُلَامًا مِنَ اللَّيْلِ لَا يَرْضَعُ مِنْ ثَدْيِ امْرَأَةٍ، وَاضْطَرُّوا
إِلَىٰ تَتَبِعِ النِّسَاءَ، فَخَرَجَتْ مَرْيَمُ لِتَعْرِفَ [خَبْرَهُ] فَجَاءَتْهُمْ مُنْكَرَةً فَقَالَتْ مَا قَالَتْ، فَقَالُوا: مَنْ هِيَ؟
قَالَتْ: أُمِّي، قَالُوا: لَهَا لَبَنٌ؟ قَالَتْ: نَعَمْ لَبَنُ أَخِي هَارُونَ، فَجَاءَتْ بِهَا فَقَبِلَ ثَدْيَهَا، فَحَكَى اللَّهُ ذَلِكَ
بِقَوْلِهِ: «فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ» وَفَاءً بِالْوَعْدِ حَيْثُ قُلْنَا: إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ «كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا» وَيُسَرَّ قَلْبُهَا
بِلِقَانِكَ «وَلَا تَحْزَنَ» بِفِرَاقِكَ وَبَارِئِ تَضَاعُكَ مِنْ ثَدْيِ غَيْرِهَا.

عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام - فِي رِوَايَةٍ - «فَلَمَّا أَخَذَتْهُ بِحُجْرِهَا وَالْقَمَّةَ ثَدْيَهَا، التَّقَمَّهَ وَشَرِبَ، فَفَرِحَ فِرْعَوْنُ
وَأَهْلُهُ، وَأَكْرَمُوا أُمَّهُ، فَقَالَ لَهَا: رِييَهُ لَنَا، فَإِنَّا نَفْعَلُ بِكَ مَا نَفْعَلُ»^٦. فَسَأَلَهُ الرَّائِي: كَمْ كَانَ مُوسَىٰ غَائِبًا عَنْ
أُمِّهِ حَتَّىٰ رَدَّهُ اللَّهُ عَلَيْهَا؟ قَالَ: «ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ»^٧.

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ مِثْلَهُ الْآخَرَىٰ بِقَوْلِهِ: «وَوَلَّيْتُ نَفْسًا» مِنَ الْقَبْطِ بِوَكْرِهِ حِينَ اسْتَغَاثَ بِكَ الْإِسْرَائِيلِيُّ عَلَيْهِ،
فَاغْتَمَمْتَ لِذَلِكَ خَوْفًا مِنْ تَظَاهَرِ الْقَبْطِ عَلَيْكَ، وَاقْتِصَاصِ فِرْعَوْنَ مِنْكَ «فَنَجَّيْنَاكَ مِنْ» ذَلِكَ
«الْغَمِّ» بِالْهَجْرَةِ إِلَىٰ مَدْيَنَ «وَوَقَّتْنَاكَ» وَامْتِحَانِكَ بِهَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ وَالْمَتَاعِبِ الَّتِي صَبَرْتَ عَلَيْهَا فِي
طَرِيقِ مَدْيَنَ «فُتُونًا» وَامْتِحَانًا تَامًا، أَوْ امْتِحَانَاتٍ عَدِيدَةٍ، أَوْ الْمَعْنَىٰ أَخْلَصْنَاكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ
تَخْلِيصًا كَامِلًا «فَلَبِثْتَ» وَأَقَمْتَ «سِنِينَ» كَثِيرَةً «فِي أَهْلِ مَدْيَنَ» عِنْدَ شُعَيْبٍ تَخْدِمُهُ وَتَرْعَىٰ
أَغْنَامَهُ «ثُمَّ جِئْتَ» الْوَادِي الْمَقْدَسَ لِأَكْلَمِكَ وَأَرِيكَ الْآيَاتِ «عَلَىٰ قَدَرٍ» قَدْرَتِهِ وَقَضَاءِ قَضِيَّتِهِ، أَوْ

١. القصص: ٢٨/١٠. ٢. في النسخة: ابْتِغِيهِ. ٣. القصص: ٢٨/١١.

٤. تفسير القمي ٢: ١٣٥، تفسير الصافي ٣: ٣٠٦. ٥. تفسير روح البيان ٥: ٣٨٤.

٦. في النسخة: وَنَفْعَلُ. ٧. تفسير القمي ٢: ١٣٦، تفسير الصافي ٣: ٣٠٦.

على وقتٍ معينٍ، أو على مقدارٍ مُعينٍ من عُمرِكَ، وهو أربعون سنة ﴿يَا مُوسَى﴾ وَأِنَّمَا كَرَّرَ نداءه لإظهار غاية لطفه به، وانتهاء ذِكْرِ مَتَّه في المَرَّةِ الأُخرى.

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى [٤٤-٤٥]

ثم صرح بإجابة مسزوله الأهم بقوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ واصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي، وأكرمك بأعظم كراماتي، أو اخترتك لتتصرف على عادتي، وتشغل بأمري من تبليغ الرسالة، وتتقلب لوجهي لا لنفسك ولا لغيري ﴿إِذْهَبْ﴾ يا موسى ﴿أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾ معاً حسب استدعائك إلى فرعون متمسكين ﴿بِآيَاتِي﴾ والمعجزات التي أعطيتك بقدرتي ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ ولا تفترأ ﴿فِي ذِكْرِي﴾ وثنائي بما يليق بعظمتي وجلالي في حالٍ ووقتٍ، فإنه بذكر الله تطمئن القلوب. وقيل: يعني لا تفترأ في تبليغ رسالتي^١، أو لا تنسياني حيثما تقلبتما، واستمداً بذكرني واسألاني به العون والتأييد^٢.

ثم أكد سبحانه الأمر بذهابهما وقيامهما بوظيفة الرسالة بقوله: ﴿أَذْهَبَا﴾ معاً ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ وادعوا إلى توحيدِي وعبادتي ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ وتجاوز عن حدِّ العبودية بدعوى الألوهية. قيل: إن الخطاب مع غيبة هارون على التغليب^٣، أو كان بعد اجتماعهما^٤.

روي أنه تعالى لما نادى موسى ﷺ بالواد المقدس، وأرسله إلى فرعون، وأعطاه سؤله، انطلق من ذلك الموضع إلى فرعون، وشيعته الملائكة يصافحونه، وخلف أهله في الموضع الذي تركهم فيه، فبقوا فيه ينتظرونه ليلاً ونهاراً، فلم يجدوا منه خبراً، فلم يزالوا مقيمين متحيرين حتى مر بهم راعٍ من أهل مدين فعرفهم، فحملهم إلى شعيب، فمكثوا عنده حتى بلغهم خبر موسى بعد ما جاوز بنو إسرائيل البحر وغرق فرعون وقومه، فبعث بهم شعيب إلى موسى ﷺ^٥.

ثم أنه تعالى بعد الأمر بذهابهما إلى فرعون، وبيان شدة طغيانه، علمهما كيفية دعوته لئسلا من شره بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ﴾ بعد ملاقاته ﴿قَوْلًا لَّيْنًا﴾ وكلاماً رقيقاً لا خشونة فيه ولا تعنيف، كقوله: هل لك أن تزكّي، وأهديك إلى ربك، فإنه دعوة بصورة المشورة، أو كلاماً فيه حسن الأدب كالخطاب بالكُنَى والألقاب دون الاسم، وقيل: يعني عده شباباً لا هرم له، وبقاء لذة المَطْعَمِ والمَشْرَبِ والنَّكاحِ،

ودوام السلطنة إلى الموت^١ ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ وَيَتَّبِعَهُ عَلَى مَا يَحْكُمُ بِهِ عَقْلُهُ ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ من عذابي ونكالي.

عن الكاظم عليه السلام قال: «أما قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي ليناً في القول، أو قولاً له^٢. يا أبا مُصْعَب، وكان [اسم] فرعون أبا مُصْعَب، وأما قوله: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ فَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِيَكُونَ أَحْرَصَ لِمُوسَى عَلَى الذَّهَابِ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا يَتَذَكَّرُ وَلَا يَخْشَى إِلَّا عِنْدَ رُؤْيَا الْبَاسِ»^٣.
وعن أمير المؤمنين عليه السلام ما يَقْرَبُ مِنْهُ^٤.

قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا
أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأَيُّهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا
تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى [٤٥-٤٧]

رُوي أَنَّهُ أَوْحِيَ إِلَى هَارُونَ وَهُوَ بِمِصْرَ أَنْ يَتَلَقَّى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ^٥. وَقِيلَ: سَمِعَ بِاقْبَالِهِ فَتَلَقَّاهُ^٦، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَمْرِ ﴿قَالَ﴾ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ﴾ مِنْ ﴿أَنْ يُفْرَطَ﴾ وَيُعْجَلُ ﴿عَلَيْنَا﴾ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَا يَصْبِرُ إِلَى تَمَامِ الدَّعْوَةِ وَإِظْهَارِ الْمُعْجِزَةِ ﴿أَوْ أَنْ يَطْفَى﴾ زِيَادَةً عَلَى طُعْيَانِهِ السَّابِقِ إِلَى أَنْ يَقُولَ فِي شَأْنِكَ مَا لَا يَنْبَغِي لِكَمَالِ جُورَاتِهِ وَقِسَاوَتِهِ.

﴿قَالَ﴾ اللَّهُ تَسْلِيَةً لِهَمَّا: ﴿لَا تَخَافَا﴾ مِنْهُ ﴿إِنَّنِي﴾ بِحِفْظِي وَتُصْرَتِي ﴿مَعَكُمَا﴾ وَإِنِّي ﴿أَسْمَعُ﴾ كَلَامَكُمْ ﴿وَأَرَى﴾ عَمَلَكُمْ ﴿فَأَيُّهَا﴾ وَاحْضَرَا عَنْدهُ ﴿فَقُولَا﴾ لَهُ بِذَوِ الْمَلَاقَةِ: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ إِلَيْكَ لِيُعْرِفَ شَأْنَكُمْ، ثُمَّ قَوْلَا لَهُ: إِذَا عَرَفْتَنَا بِالرَّسَالَةِ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وَأَطْلِقْهُمْ مِنْ قَيْدِ الْأَسْرِ وَالْعِبُودِيَّةِ حَتَّى نَذْهَبَ بِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي كَانَتْ مَوْطِنَ آبَائِهِمْ ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بِتَذْلِيلِهِمْ وَتَبْعِيدِهِمْ وَتَحْمِيلِ الْمَشَاقِّ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ تَكُنْ فِي شَكٍّ مِنْ رِسَالَتِنَا فَإِنَّا ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ عَظِيمَةٍ وَمُعْجِزَةٍ قَاهِرَةٍ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى صِدْقِنَا فِي ادِّعَائِنَا، ثُمَّ رَغْبِهِ فِي الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَالسَّلَامُ﴾ وَالتَّحِيَّةُ الْمُسْتَتَبِعَةُ بِسَلَامَةِ الدَّارَيْنِ وَالْعَافِيَةِ الْأَبَدِيَّةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ جَاءَنَا وَ﴿اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ وَالرَّشَادَ الَّذِي جَاءَهُ مِنْ رَبِّهِ.

رُوي أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَدَهُ عَلَى قَبُولِ الْإِيمَانِ شَبَاباً لَا يَهْرَمُ، وَمُتَكَلِّفاً لَا يَنْتَرِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالْمَوْتِ، وَبِقَاءِ لَذَّةِ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَنْجَحِ عَلَيْهِ إِلَى انْقِضَاءِ أَجَلِهِ، فَإِذَا مَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ، وَكَانَ

١. تفسير الرازي ٢٢: ٥٨، تفسير أبي السعود ٦: ١٨.

٣. علل الشرائع ١/٦٧، تفسير الصافي ٣: ٣٠٨.

٤. الكافي ٧: ١/٤٦٠، تفسير الصافي ٣: ٣٠٨.

٥. تفسير أبي السعود ٦: ١٧.

هامان غائباً، وكان لا يقطعُ أمراً بدونه، فلما قَدِمَ أخبره بمقالة موسى ﷺ وإرادته الإيمان به، فقال له هامان: كنتُ أرى أن لك عقلاً ورأياً، أنت الآن ربٌّ، وثريدُ أن تكونَ مَرُوباً؟! فأبى عن الإيمان^١.

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَنْ رُبُّكُمْ يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى [٤٨-٥٢]

ثمَّ هدَّه موسى ﷺ بترك الإيمان بقوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ﴾ من قبل ربنا ﴿إِلَيْنَا﴾ بتوسط جبرئيل ﴿أَنَّ الْعَذَابَ﴾ الشديد الدائم ﴿عَلَى مَنْ كَذَّبَ﴾ بآيات ربه وبما جاء به أنبيأؤه ﴿وَتَوَلَّى﴾ وأعرض عن قبول دعوة رسله وتصديق الحق ﴿قَالَ﴾ فيرون: إن كنتم رسولِّي ربكم ﴿فَمَنْ رُبُّكُمْ﴾ الذي أرسلكم ﴿يَا مُوسَى﴾ وإنما خصَّ النداء بموسى ﷺ لكونه أصلاً وهارون تابعه، أو لعلمه برثة في لسانه، فأراد استنطاقه لتوحيده دون هارون لعلمه بفصاحته، أو لكون موسى ﷺ في تربيته، فتعجب من دعوى كونه مَرُوباً لغيره، فكأنه قال: أنا ربك، فلم تدعوا رباً غيري، وإضافة الرب إليهما لغاية عتوه.

﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ في جوابه: ﴿رَبُّنَا﴾ هو الله القادر ﴿الَّذِي﴾ بشدته ورحمته ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ﴿خَلْقَهُ﴾ والصورة المناسبة له والشكل اللائق به، الموافق لما يترتب عليه من الخواص والمنافع ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ كل واحد إلى ما يصدر وما ينبغي له، طبعاً كما في الجمادات والنباتات، واختياراً كما في الحيوانات.

وقيل: إن الخلق عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية القوالب، والهداية عبارة عن إبداع القوى المحركة والمدركة فيها، ولذا قدَّم الخلق^٢ وعطف عليه الهداية بكلمة (ثُمَّ) الدالة على التراخي. ويحتمل أن يكون المراد بالهداية الهداية إلى معرفته بقدر إدراكه واستعداده، فإن لكل شيء حياة وشعوراً على حدٍّ وجوده من الضعف والقوة، كما مَرَّ بيانه غير مرة، أو المراد أنه تعالى هداه إلى مصالح نفسه ولوامز معيشته، وعرفه الضر والنافع، كما ألهم النحل تركيب البيوت المُسدسة، ومعرفة ما يضره وما ينفعه من النباتات، وألهم الحيوانات ما به قوامها من المطعوم والمشروب والملبوس، والمنكوح، وكيفية الانتفاع بها، وعرف الذكر الأنثى وبالعكس، وهداه إلى كيفية المقاربة ليدوم النسل، وهدى الأولاد إلى أخذ الثدي ومص اللبن منها.

وعن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: «ليس شيء من خلق الله إلا وهو يعرف من شكله الذكر والأنثى». وسئل ما معنى ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ قال: «هداه للنكاح والسفاح من شكله»^١.

ثم قال فرعون: إن كان ربوبية ربك بهذا الحد من الظهور ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ والأُمم الكثيرة في الأعصار السابقة أنهم لم يعترفوا بربوبيته وعبدوا غيره؟ فقدح اللعين في الحجة القاطعة التي أقامها موسى عليه السلام بغفلة الناس عنها وعملهم بخلافها.

وقيل: إنه عليه السلام لما هدده بالعذاب على الشرك وتكذيب الرسل، قال: فما بال الأُمم الماضية أنهم أشركوا وكذبوا ولم يُعذِّبوا؟^٢

وقيل: إن الخبيث لما رأى إتيان حجة موسى عليه السلام على التوحيد، خاف أن يزيد في تقريرها فيظهر للناس صدقه وفساد مذهب نفسه، أراد أن يُصرفه عن ذلك الكلام ويَشغله بذكر قضايا الأُمم الماضية كعاد وشمود وأضرابهما، فلم يلتفت موسى عليه السلام إلى سؤاله^٣، بل ﴿قَالَ﴾: إِنَّمَا ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ لأنه من الغيوب التي تَخَصُّ به تعالى، ولا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِيهِ من الأمور المتعلقة بما أُرْسِلْتُ به، وإِنَّمَا أحوالهم مثبتة ﴿فِي كِتَابٍ﴾ ولوح محفوظ، بل لا يحتاج إلى كتاب لأنه ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ ولا يُخْطئ في علمه، بل يعلم كل شيء على ما هو في الواقع ﴿وَلَا يَنْسَى﴾ ولا يُغْفَل عن شيء بعد العلم به.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْزُقُوا أَنَّكُمْ مِنْ ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لأُولَى النَّهْيِ [٥٣ و ٥٤]

ثم عاد إلى بيان شؤونه تعالى بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ بقدرته وتفضله ﴿الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ومعداً للسكونة والراحة ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا﴾ من جبالها وأوديتها وبراريها ﴿سُبُلًا﴾ وطرقاً تَسْلُكُونَهَا من قَطَرٍ إلى قَطَرٍ وبلدٍ إلى بلد لِحَوَاجِكُمْ وقضاء مَآرِبِكُمْ ﴿وَأَنْزَلَ﴾ برحمته ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ المطَّلَّ أو جهة العلو ﴿مَاءً﴾ نافعاً بطريق الإمطار.

ثم نبه عليه السلام على زيادة اختصاص الإنبات بذاته القادرة، وكون النباتات طائعات له بأن قال: يقول الله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ وأنبتنا بسببه ﴿أَزْوَاجًا﴾ وأصنافاً ﴿مِنَ نَبَاتٍ﴾ وناميات ﴿شَتَّى﴾ ومتفرقات في الطعوم والألوان والروائح والأشكال، أو متفرقات في وجه الأرض ممَّا يأكل الناس والأنعام، وقلنا:

٢. تفسير الرازي ٢٢: ٦٦.

١. الكافي ٥: ٤٩/٥٦٧، تفسير الصافي ٣: ٣٠٩.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ٦٦ - ٦٧.

﴿كُلُوا﴾ أيها الناس منها ومن ثمارها ﴿وَأَزْعُوا﴾ فيها ﴿أَنعَمْتُكُمْ﴾ فإنها مُباحة لكم مخلوقات لاتنفعكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإنبات وَجَعَلِي الاختلافات الكثيرة فيها مع وَحْدَةِ الأرض والماء والهواء، أو في تلك النعم الجسيمة والموجودات البديعة والله ﴿لآيَاتٍ﴾ عظيمة وبراهين واضحة على وجود الصانع القادر الحكيم ﴿لأولى آلئِهْنِ﴾ وذوي العقول السليمة الرادعة عن القبايح. وقيل: إن كلام موسى ﷺ قد انقطع عند قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ شَبَحَانَهُ عَنْ صِفَةِ نَفْسِهِ^٢.

وقيل: إن المراد من ضمير المتكلم في (أخرجنا) موسى ﷺ وغيره من الناس، والمعنى فأخرجنا معاشِرَ العباد بذلك الماء المنزل وبالحرارة أزواجاً^٣.

والحق هو الوجه الذي فسرنا، لعدم مناسبة الوجه الآخر لقوله: ﴿كُلُوا وَأَزْعُوا أَنعَمْتُكُمْ﴾ والوجه الأول أيضاً غير صحيح لدلالة (الفاء) في قوله ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ على ارتباطه بالسابق. نعم يمكن أن يقال إن كلام موسى قد تم عند قوله: ﴿لَا يَنْسَى﴾.

عن الباقر ﷺ قال: «قال النبي ﷺ: إن خياركم أولو النهي. قيل: يا رسول الله، من أولوا النهي؟ قال: هم أولوا الأخلاق الحسنة، والأخلاق الرزية، وصلة الأرحام، والبررة بالأمهات والآباء، والمتعاهدون للفقراء والجيران واليتامى، ويطعمون الطعام، ويغشون السلام في العالم، ويصلون والناس نيام غافلون»^٤.

وعن الصادق ﷺ أنه سئل عن هذه الآية، فقال: «نحن والله أولوا النهي»^٥.

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى * وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى [٥٥-٥٧]

ثم لما كان فرعون في غاية التكبر والتجبر حتى ادعى الربوبية، بين مُتَبَدِّلِهِ ومُتَتَّهِاهُ، إظهاراً لغاية ذلته بقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ بِخَلْقِ آدَمَ الَّذِي هُوَ أَبُو الْبَشَرِ مِنْ تَرَابٍ، أو بخلق الأغذية التي تتولد النطف منها من الأرض ﴿وَفِيهَا﴾ بعد الموت ﴿نُعِيدُكُمْ﴾ بالدفن والاقبار ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ بالخلق والإحياء ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ ومرة ثانية بعد خلقكم في هذا العالم، وسببكم إلى المخسر للحساب وحزاء الأعمال.

١. في النسخة: ذلك. ٢ و ٣. تفسير الرازي ٢٢: ٦٨.

٥. تفسير القمي ٢: ٦١، تفسير الصافي ٣: ٣١٠.

٤. الكافي ٢: ٣٢/١٨٨، تفسير الصافي ٣: ٣١٠.

عن ابن مسعود: أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ مَلَكَ الْأَرْحَامِ أَنْ يَكْتُبَ الْأَجَلَ وَالرِّزْقَ وَالْأَرْضَ الَّتِي يُدْفَنُ فِيهَا، وَأَنَّهُ يَأْخُذُ مِنْ ثَرَابِ تِلْكَ التُّعَةِ، وَيَذَرُهُ عَلَى التُّفَةِ، ثُمَّ يَدْخُلُهَا فِي الرَّحِمِ^١.

وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ التُّفَةَ إِذَا وَقَعَتْ فِي الرَّحِمِ، بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكًا يَأْخُذُ مِنَ التُّرْبَةِ الَّتِي يُدْفَنُ فِيهَا فَمَاتُهَا^٢ فِي التُّفَةِ، فَلَا يَزَالُ قَلْبُهُ يَحِنُّ إِلَيْهَا حَتَّى يُدْفَنَ فِيهَا»^٣.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ شِدَّةَ لَجَاجِ فِرْعَوْنَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ وَبَصَّرْنَاهُ ﴿آيَاتِنَا﴾ الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالنَّبُوَّةِ ﴿كُلَّهَا﴾ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْمَعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ كَالْعَصَا وَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ وَغَيْرَهَا ﴿فَكَذَّبَ﴾ بِهَا وَنَسَبَهَا إِلَى السَّحَرِ مِنْ قُرْطِ عِنَادِهِ وَلَجَاجِهِ ﴿وَأَبَى﴾ وَامْتَنَعَ مِنْ قَبُولِهَا وَالْإِيمَانِ بِهَا، وَكَانَ مِنْ إِبَانَتِهِ أَنَّهُ ﴿قَالَ﴾: «إِنْكَارًا عَلَى مُوسَى عليه السلام وَتَقْيِيحًا لِدَعْوَتِهِ: ﴿أَجِثْنَا﴾ بَعْدَ غِيَابِكَ عَنَّا، وَرَجَعْتَ إِلَيْنَا بَعْدَ هِجْرَتِكَ مِنْ بَلَدِنَا ﴿لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ وَسُلْطَانِنَا، وَتَسْتَوْلِي عَلَى مَمْلَكَتِنَا ﴿بِسِحْرِكَ﴾ وَشَعْبَتِكَ وَتُخَيِّلَاتٍ لَا وَاقِعَ وَلَا حَقِيقَةَ لَهَا ﴿يَا مُوسَى﴾ فَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَتَخَيَّلُ ذَلِكَ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَقْصُدَهُ.

قِيلَ: كَانَ غَرَضُهُ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ حَمْلُ الْقَيْطِ عَلَى غَايَةِ مَقْتِهِ، وَتَعْثُّهُمْ عَلَى مَعَارَضَتِهِ حَيْثُ أَظْهَرَ لَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ غَرَضُ مُوسَى عليه السلام إِجْنَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بَلْ إِخْرَاجُ الْقَيْطِ مِنْ وَطَنِهِمْ وَحَبَازَةِ أَمْوَالِهِمْ وَأَمْلاكِهِمْ^٤، وَهَذَا أَصْعَبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقَتْلِ.

فَلَنَّا بَيِّنَكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى * فَتَنَّا زُفَرًا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَنتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ

مَنْ أَسْتَعْلَى [٥٨-٦٤]

ثُمَّ لَمَّا نَسَبَ مَعْجَزَاتِ مُوسَى عليه السلام إِلَى السَّحَرِ قَالَ: ﴿فَلَنَّا بَيِّنَكَ﴾ وَنَعَارَضُنَّ سِحْرَكَ ﴿بِسِحْرِ مِثْلِهِ﴾ حَتَّى يَضْحَكَ لِلنَّاسِ أَنَّكَ سَاحِرٌ، إِذَنْ ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ وَوَقْتًا مَعِينًا، أَوْ مَكَانًا مَعْلُومًا نَحْضُرُ فِيهِ لِلْمَعَارَضَةِ ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾ وَلَا تَخْلُفْ عَنْهُ ﴿نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ وَلَيْكُنِ الْمَوْعِدُ ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾

٢. أي خلطها.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٣٩٨.

١. تفسير الرازي ٢٢: ٧٠.

٣. الكافي ٣: ٢٠٣/٢، تفسير الصافي ٣: ٣١٠.

متوسطاً بيننا وبينك مسطحاً مستوياً لا يَحْجُبُ العين ارتفاعه وانخفاضه **﴿قَالَ﴾** موسى: نَعَمْ **﴿مَوْعِدُكُمْ﴾** وزمان اجتماعكم معنا للمعارضة **﴿يَوْمَ﴾** العيد الذي هو يوم **﴿الزَّيْنَةِ﴾** لقومك، قيل: هو يوم النَّيروز^١. وقيل: يوم شوقٍ لهم^٢. وعن ابن عباس: يوم عاشوراء^٣.

﴿وَأَنْ يُخْشِرَ النَّاسَ﴾ ويجتمعون من كل مكان في **﴿ضُحًى﴾** وحين ارتفاع الشمس، ليشهد عموم الناس تلك الواقعة، ولا يمكن إنكار ما وقع فيها من العَلَبَةِ، وَيَسُدُّ باب الرِّبَةِ **﴿فَتَوَلَّى﴾** وأعرض **﴿فَوَزَعُونَ﴾** عن موسى ﷺ، وخرج من المجلس، وأرسل إلى البلاد والمدائن، وأمر بحضور من كان فيها من السَّحَرَةِ في الموعد **﴿فَجَمَعَ كَثِيدَةً﴾** وما يحتال به في إبطال دعوى موسى ﷺ من السَّحَرَةِ وَالْآلَاتِ وَالْأَدْوَاتِ **﴿ثُمَّ أَتَى﴾** الموعد هو مع مَلِيه، وأتى موسى أيضاً و**﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾** نَصْحاً وَزَجْراً عن معارضتهم الحق: **﴿وَيَلْكُمْ﴾** يا قوم، ارتدعوا عما أنتم فيه من الكفر والعناد مع الحق و**﴿لَا تَقْتَرُوا﴾** ولا تكذبوا **﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾** بيتاً بنسبة الشريك إليه والسَّحَرِ إِلَى **﴿فَيَسْجِتْكُمْ﴾** ويُهْلِكْكُمْ الله ويستأصلكم **﴿بِعَذَابٍ﴾** عظيم لا يقادر قدره **﴿وَقَدْ خَابَ﴾** وحُرم من كل خير مَرَجَوْ **﴿مَنْ أَفْتَرَى﴾** وبَهَتْ على الله كان من كان.

قيل: أثر قول موسى ﷺ في بعض السَّحَرَةِ دون بعض^٤ **﴿فَتَنَازَعُوا﴾** واختلَفوا في معارضته. وقيل: إن قول موسى ﷺ غاظ السَّحَرَةَ، فتنازعوا^٥ **﴿أَمَرَهُمْ﴾** الذي أرادوه من معارضة موسى ﷺ وتنازعوا **﴿بَيْنَهُمْ﴾** في كَيْفِيَّتِهَا، وأطالوا القول في ذلك **﴿وَأَسْرَوْا السَّجُوءَ﴾** وبالغوا في إخفاء مذكراتهم، لئلا يقف عليها موسى ﷺ فيدفعها، وكان من نجاوهم أنهم **﴿قَالُوا﴾** أَيُّهَا الرُّفْقَةُ **﴿إِنْ هَٰذَا﴾** الرجلان **﴿لَسَاحِرَانِ﴾**.

وقيل: إن كلمة (إِنْ) نافية، واللام في (لَسَاحِرَانِ) بمعنى (إِلَّا)، والمعنى: ما هذان إلا ساحران^٦، **﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ﴾** وأوطانكم، ويستوليا على مملكتكم **﴿بِسُحْرِهِمَا﴾** الذي أظهرآ من قَبْل **﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾** ومذهبكم الذي هو أفضل المذاهب، وهو مذهب فرعون، ويشيعا دينهما بينكم.

وقيل: إن الطريقة اسمٌ لوجه القوم وأشرافهم، لكونهم قُدوةً لغيرهم^٧. ثم أنهم بعد ذِكْر مضار غلبة موسى ﷺ كأنهم قالوا: إذا عَلِمْتُمْ ذلك **﴿فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾** وآراءكم،

١. تفسير الرازي ٢٢: ٧٣، تفسير أبي السعود ٦: ٢٤. ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٧٣.

٤. مجمع البيان ٧: ٣٠. ٥. تفسير أبي السعود ٦: ٢٥، تفسير روح البيان ٥: ٤٠٠.

٦. تفسير الرازي ٢٢: ٧٥، مجمع البيان ٧: ٢٨. ٧. تفسير الرازي ٢٢: ٨٠، تفسير أبي السعود ٦: ٢٥.

وأجعلوها واحداً لا يخالف فيه أحد، أو أدوات سحرِكُم ورتبوها كما ينبغي ﴿ثُمَّ أَثْنُوا﴾ في الموعِد حال كونكم ﴿صَفًّا﴾ واحداً، فَإِنَّ إتيانكم مجتمعين في الموعد أشدَّ مهابة في نظر الخصم ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز ﴿الْيَوْمَ﴾ المقصد الأعلى، وهو القرب من فرعون والشرف بين الناس ﴿مَنْ أَسْتَغْلَى﴾ منكم وغلَّب على موسى.

قيل: كان الموعد مكاناً متسعاً، وخطبهم موسى ﷺ في قُطْرَمَنه، وتنازعوا أمرهم في قُطْر آخر، ثم أمروا بأن يأتوا وسطه على الوجه المذكور^١.

قيل: كان نجواهم أن قالوا حين سَمِعُوا مقالة موسى ﷺ: ما هذا ساحر، وإن غَلَبْنَا اتَّبَعْنَاهُ، أو قالوا: إن كان ساحراً غَلَبْنَاهُ، وإن كان من السماء فله أمر. ثم رجعوا بعد تلك المقالات والاختلافات إلى الإتيان على المعارضة^٢.

قيل: كانوا سبعين ألفاً مع كلٍّ منهم حَبْل وعصا، وأقبلوا على موسى ﷺ إقبالةً واحدةً في سبعين صفّاً كلَّ صفٍّ ألف^٣.

وقيل: كانوا بَضْعَةً وثلاثين ألفاً^٤. وقيل: خمسة عشر ألفاً^٥. وقيل: تسعمائة؛ ثلاثمائة من الفُرس، وثلاثمائة من الروم، وثلاثمائة من الإسكندرية^٦. وقيل: كانوا اثنين وسبعين؛ اثنان من القبط، والباقي من بني إسرائيل^٧.

وقيل: إن المراد بالصف المصلَّى لاجتماع الناس فيه في الأعياد للصلاة^٨.

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى [٦٥-٦٨]

ثم أَنهم بعد اجتماعهم وحُضورهم ﴿قَالُوا﴾ تَأَذَّباً وإظهاراً لعدم المبالاة بموسى ﷺ وصنيعه: ﴿يَا مُوسَى، لَكَ الْخِيَارُ﴾ إِمَّا أَنْ تُلْقَى، عصاك على الأرض أولاً ﴿وَأَمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ما تلقىه ﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ مقابلةً لأدبهم بأدب، أو إظهاراً للجَلادة وعدم الاعتناء بسحرهم، أو علماً بأنَّ إلقاءهم أولاً أدخَلَ في عظمة إعجازه حيث إنَّ عصاه تَلْقَفُ ما ألقوه: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم أولاً ما تلقون، فبادروا في الإلقاء ﴿فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ لتلطُّخها بالزَّبَبِ وإشراقِ الشَّمْسِ عَلَيْهَا، اضْطَرَّتْ

٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٦.

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٠٠.

٣-٧. تفسير الرازي ٢٢: ٨٣، تفسير أبي السعود ٦: ٢٦.

٨. تفسير الرازي ٢٢: ٨١، تفسير أبي السعود ٦: ٢٦.

وَاهْتَرَّتْ بِحَيْثُ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ» وَيَتَوَهَّم «مِنْ يَسْخَرِهِمْ أَنَّهَا» حَيَاتٌ «تَسْمَى» وَتَمْشِي بِسُرْعَةٍ عَلَى الْأَرْضِ «فَأَوْجَسَ» وَاضْمَرَ «فِي نَفْسِهِ» بِمَقْتَضَى الْبَشَرِيَّةِ «خِيفَةُ مُوسَى» مِنْ مُفَاجَأَةِ رُؤْيَا الْحَيَاتِ الْمُخَيَّلَةِ وَضَرَّهَا. فَلَمَّا خَافَ «قُلْنَا» لَهُ: «لَا تَحْزَنْ» مِمَّا رَأَيْتَ مِنَ السَّحَرِ «إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى» مِنْهُمْ وَالْغَالِبُ الْقَاهِرُ عَلَيْهِمْ.

وقيل: إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَافَ مِنْ أَنْ يَطُنَّ النَّاسُ أَنَّ السَّحْرَةَ سَاوَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَنْصَرَفُوا قَبْلَ أَنْ يُشَاهِدُوا مُعْجَزَتَهُ، فَيَذُومُوا عَلَى بَاطِلِهِمْ.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لَمْ يُوجَسْ مُوسَى خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا أَشْفَقَ مِنْ غَلْبَةِ الْجُهَالِ وَذُولِ الضَّلَالِ»^٢.

وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ
حَيْثُ أَتَى * فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ
آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَا تُقِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ
وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَتُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا
وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا
أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَاَنَا
وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [٦٩-٧٣]

ثم أمر الله موسى عليه السلام بمعارضة السحرة بقوله: «وَأَلْقِ» أَنْتَ أَيْضًا «مَا فِي يَمِينِكَ» مِنَ الْخَشَبِ الْيَابِسِ الصَّغِيرِ، فَإِنَّهَا بِقُدْرَةِ اللَّهِ «تَلْقَفُ» وَتَبْتَلِعُ بِسُرْعَةٍ «مَا صَنَعُوا» وَمَوْهُهُ مِنَ الْجِبَالِ الْمُخَشَّوَةِ بِالزُّبَيْ وَالْعَصَى الْمَرْبُوطَةِ بِهَا «إِنَّمَا» أَصْنَعُ مُعْجَزَةً بَاهِرَةً، وَمَا «صَنَعُوا» وَمَوْهُهُ وَزُورُهُ^٣ «كَيْدٌ سَاحِرٌ» وَحِيلَتُهُ الَّتِي لَا حَقِيقَةَ لَهَا «وَلَا يُفْلِحُ» وَلَا يَنْفُوزُ «السَّاحِرُ» بِمَطْلُوبِهِ وَلَا يُذْرِكُ بُغْيَتَهُ «حَيْثُ أَتَى» مِنَ الْأَرْضِ وَعَمِلَ فِيهَا بِالسَّحْرِ، أَوْ حَيْثُ أَتَى مَصْنُوعِي وَكَيْدِي، لِأَنِّ صُنْعِي حَقٌّ وَكَيْدِي مَبِينٌ.

عن ابن عباس: أَلْقَا جِبَالَهُمْ وَعَصِيَهُمْ مِيلًا مِنْ هَذَا الْجَانِبِ، وَمِيلًا مِنْ هَذَا الْجَانِبِ، فَخَيَّلَ إِلَى

١. تفسير الرازي ٢٢: ٨٤.

٢. نهج البلاغة: ٥١ الخطبة ٤، تفسير الصافي ٣: ٣١١، وفي النسخة: وذوي الضلال.

٣. في النسخة: ورودوه، راجع: تفسير روح البیان ٥: ٤٠٣.

موسى ﷺ أَنْ الْأَرْضَ كُلَّهَا حَيَاتٍ، وَأَنْهَا تَشْعَى فُخَافٍ، فَلَمَّا قِيلَ لَهُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أَلْقَى موسى عصاه، فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ أَعْظَمُ مِنْ حَيَاتِهِمْ، ثُمَّ أَخَذَتْ تَزْدَادُ عَظْمًا حَتَّى مَلَأَتْ الْوَادِي، ثُمَّ صَعِدَتْ وَعَلَتْ حَتَّى عَلَقَتْ ذَنْبُهَا بِطَرْفِ الْقُبَّةِ، ثُمَّ هَبَطَتْ فَأَكَلَتْ كُلَّ مَا عَمِلُوا فِي الْمِيلِينَ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا لَا يَخْشَوْنَ إِلَّا أَنَّهُ سِحْرٌ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ نَحْوَ فِرْعَوْنَ لَتَبْتَلْعَهُ فَاتِحَةً فَاهَا ثَمَانِينَ ذِرَاعًا، فَصَاحَ بِمُوسَى فَأَخَذَهَا وَهِيَ عَصَا [كَمَا] كَانَتْ، وَنَظَرَتْ السَّحْرَةَ فَإِذَا هِيَ لَمْ تَدَعْ مِنْ حِبَالِهِمْ وَعِصْيِهِمْ شَيْئًا إِلَّا أَكَلَتْهُ، فَعَرَفَتِ السَّحْرَةَ أَنَّهُ لَيْسَ بِسِحْرٍ، وَقَالُوا: أَيْنَ حِبَالُنَا وَعِصْيُنَا؟ لَوْ لَمْ تَكُنْ سِحْرًا لَبَقِيتَ^٢ ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ﴾ وَخَرُّوا عَلَى الْأَرْضِ بِسُرْعَةٍ وَشَدَّةٍ، كَأَنَّهُ أَقَاهُمْ غَيْرُهُمْ حَالِ كُونِهِمْ ﴿سُجَّدًا﴾ لِلَّهِ خَاضِعِينَ لِعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ بَعْدَ مَا رَأَوْا مِنْ إِعْجَازِ الْعَصَا.

قيل: ما أعجب [أمر]هم ألقوا حبالهم للكفر والجحود، وألقوا نفوسهم للتعظيم والسجود^٣ بعد ساعة، فما أعظم الفرق بين القائلين! و ﴿قَالُوا﴾ في سجودهم بصوت عالٍ: ﴿أَمَّا بِرَبِّ هَازُونَ وَمُوسَى﴾.

قيل: إنما لم يقولوا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، لِأَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ دَعَايَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَكَثِيرًا يَتَوَهَّمُ أَنَّ مُرَادَهُمْ فِرْعَوْنَ، لِأَنَّهُ كَانَ مُرَبِّيَ مُوسَى ﷺ^٤.
رَوَى أَنَّهُمْ لَمْ يَزْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ حَتَّى رَأَوْا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ^٥.

وعن عكرمة: لَمَّا خَرُّوا سُجَّدًا أَرَاهُمْ اللَّهُ مَنَازِلَهُمْ الَّتِي يَصِيرُونَ إِلَيْهَا فِي الْجَنَّةِ^٦.

ثم قيل: لَمَّا شَاهَدَ فِرْعَوْنَ إِيْمَانَهُمْ بِمُوسَى ﷺ، خَافَ مِنْ أَنَّ يَقْتَدِيَ بِهِمْ سَائِرُ النَّاسِ^٧، فَادَّعَى أَنَّ إِيْمَانَهُمْ كَانَ لِلتَّبَانِيِّ مَعَ مُوسَى ﷺ، وَلِذَا ﴿قَالَ﴾ تَوَيْخًا لَهُمْ ﴿أَمْسَمْتُ لَهُ﴾ وَابْتِغَاةً لَهُمْ ﴿قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ﴾ فِي الْإِيْمَانِ لَهُ، مَعَ أَنِّي رَبِّكُمْ وَأَمِيرُكُمْ، وَإِنَّمَا كَانَ إِيْمَانُكُمْ لِأَنكُمْ تَلَامِذَتُهُ وَ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ﴾ وَأَسَاتِذُكُمْ ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ﴾ فَوَاطَأَتْهُمُ مَعَهُ عَلَى أَنَّ يُظَاهَرُوا الْعَجْزَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ عَنْ مَعَارَضَتِهِ تَرْوِجًا لِأَثَرِهِ، وَتَعْظَمًا لِشَأْنِهِ، وَأَدَاءً لِحَقِّ تَعْلِيمِهِ.

ثم هَدَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿فَلَا تُطْعَمُونَ أَيُّدِيَكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ بِأَنَّهُ أَقْطَعَ مِنْ شَيْءٍ يَدًا، وَمِنْ شَيْءٍ رِجْلًا ﴿وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ﴾ وَأَعْلَقَنَّكُمْ ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ وَعَلَى أَصُولِهِ، لِتَكُونُوا عِبْرَةً لغيرِكُمْ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ وَأَدُومَ نَكَالًا أَنَا أَوْ مُوسَى، أَوْ أَنَا أَوْ رَبِّي، وَفِي كَلَامِهِ هَذَا إِيْمَاءٌ إِلَى أَنَّ إِيْمَانَهُمْ لَمْ

١. في النسخة: لو كانت. ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٨٢.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٤٠٥.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ٨٧، تفسير أبي السعود ٦: ٢٨.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ٨٦.

٦. تفسير الرازي ٢٢: ٨٧.

يكن على بصيرة، بل كان عن خوفٍ من قَهْرِ موسى وسلطانه، وإظهاراً للجَلادة والوَاقحة مع غاية خوفه من موسى ﷺ حِفْظاً لِنَاوِيهِ وترويحاً لأَمْرِهِ، فتجلّد السَّحرة في الجواب عن تهديده و ﴿قَالُوا﴾ غير مُكْتَرِثِينَ بوعيده: إِنَّا ﴿لَن نُّؤْثِرُكَ﴾ ولا نختارك بالإيمان والاتباع أبداً ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا﴾ من الله على يد موسى ﴿مِنَ﴾ المعجزات ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ والبراهين الواضحات التي لا ريب في حَقَانِيَّتِهَا ﴿وَوَ﴾ حَقَّ ﴿الَّذِي فَطَرَنَا﴾ وَخَلَقْنَا لا نُؤْثِرُكَ.

وقيل: إن (الواو) في ﴿وَالَّذِي﴾ عاطفة، والمعنى: لن نُؤْثِرُكَ على ما جاءنا وعلى الَّذِي فَطَرَنَا وَخَلَقْنَا وَخَلَقَ سائر المخلوقات^١ ﴿فَأَقْضِي﴾ يا فرعون في حقنا ﴿مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ وَأَحْكُم فِيهِ مَا أَنْتَ حَاكِم، أو افعل بنا ما أنت فاعله، فَإِنَّا لَا نَخَافُ ولا نُبَالِي، وكيف نخاف منك ولا نخاف من الله؟ أو كيف نُؤْثِرُكَ ولا نُؤْثِرُ الله؟ والحال أَنَّهُ ﴿إِنَّمَا تَقْضِي﴾ وَتَضَعُ مَا تَهْوَاهُ أَوْ تَحْكُمُ بِمَا تَرَاهُ في ﴿هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي تُزُولُ بسرعة، وإن لم تقضِ، وليس لك علينا بعد انقضاءها قضاء، فالله يقضي في الدنيا والآخرة، وَقَضَاءُ الله وعذابه أَشَدُّ وأَبْقَى، بل لا انتضاء له ولا نجاة منه.

وَأَمَّا مَا بَنَيْتَ عَلَيْهِ وَأَشْرْتَ إِلَيْهِ مِنْ أَيْمَانِنَا كَانَ لِلْمَوَاطَةِ مع موسى أو للخوف منه، فليس كذلك، بل ﴿إِنَّا أَمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ وذُنُوبَنَا التي سَلَفَتْ مِنَّا قَبْلَ إِيْمَانِنَا ﴿وَمَا أَكْزَمْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ﴾ عمل ﴿السَّخْرِ﴾ ومعارضة الرسول، أو تَعْلَمُهُ وتعليمه، كما عن ابن عباس^٢، لا للأغراض الدنيوية حتى يُضِرَّ فَنَّا عنه وعيدك بالقطع والصلب ﴿وَاللهُ خَيْرٌ﴾ وأنفع لنا منك ومن كلِّ أَحَدٍ ﴿وَأَبْقَى﴾ جزاء، ثواباً كان أو عقاباً، أو خيراً منك ثواباً إِنَّا أَمَنَّا به وأطعناه، وأبقى منك عذاباً إِنَّا كَفَرْنَا به وَعَصَيْنَاهُ.

وَأَمَّا خَصُوا السَّحْرَ الَّذِي أَكْرَهُهُمْ عَلَيْهِ فرعون بالذكر - مع كونه داخلاً في عُمومِ الْخَطَايَا - لإظهار غاية يَفْرَتُهُمْ منه، وللايْذَانِ بِأَنْ معارضة الرسول - وإن كان بالإكراه - مِمَّا يجب أَنْ يُفْرَدَ بِالاستِغْفَارِ.

روى بعض العامة أَنَّ رؤساء السَّحرة كانوا اثنين وسبعين: اثنان منهم من القِبْطِ، والباقي من بني إِسْرَائِيلَ، وكان فرعون أَكْرَهُهُمْ على تَعْلَمِ السَّخْرِ^٣. وقيل: أَكْرَهُهُمْ على مُعَارَضَةِ موسى^٤. وَرَوَى أَنَّهُمْ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ: أَرِنَا موسى نائماً ففعل، فوجدوه تَحْرُسُهُ عَصَاهُ، فقالوا: ما هذا بِسِخْرِ، فَإِنَّ السَّاحِرَ إِذَا نَامَ بَطَلَ سِخْرُهُ، فَأَبَى فرعون إِلَّا أَنْ يُعَارِضَهُ^٥.

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَنْ يَأْتِهِ

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٠٦.

٢. تفسير الرازي ٢٢: ٨٩.

٣. ٥. تفسير الرازي ٢٢: ٨٩، تفسير أبي السعود ٦: ٣٠.

مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى [٧٦-٧٤]

ثُمَّ يَبْنَوْنَ عَذَابَ اللَّهِ أَشَدَّ وَأَبْقَى، رَدًّا عَلَىٰ قَوْلِ فِرْعَوْنَ: «أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى» بقولهم: «إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ» يوم القيامة حال كونه «مُجْرِمًا» وعاصيًا له بالكفر والطغيان «فَإِنَّ لَهُ» بالاستحقاق «جَهَنَّمَ» وهو «لَا يَمُوتُ فِيهَا» فيستريح من العذاب «وَلَا يَحْيَى» حياةً منتفعاً بها، بل في كل آن يتمنى الموت من شدة العذاب والتكال ولا يتيسر له.

ثُمَّ يَبْنَوْنَ حَسَنَ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ بقولهم: «وَمَنْ يَأْتِهِ» ويلقاه في المحشر حال كونه «مُؤْمِنًا» بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِآيَاتِهِ الَّتِي مِنْهَا مَا شَهِدْنَاهُ وَ«قَدْ عَمِلَ» الْأَعْمَالِ «الصَّالِحَاتِ» وَأَتَى بِمَا كُتِبَ بِهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ، وَاحْتَرَزَ الْمَحْرَمَاتِ «فَأُولَٰئِكَ» الْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ «لَهُمْ» جَزَاءُ عَلَىٰ إِيْمَانِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ «الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ» وَالْمَنَازِلُ الرَّفِيعَةُ، وَهِيَ «جَنَّاتُ عَدْنٍ» وَبَسَاتِينٌ دَائِمَةٌ لَا فَنَاءَ لَهَا وَلَا خَرَابَ لَهَا، قُصُورٌ وَأَشْجَارٌ «تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» وَيَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ «خَالِدِينَ» وَمُقِيمِينَ «فِيهَا» أَبَدًا «وَذَٰلِكَ» الْمَذْكُورُ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ فِي تِلْكَ الْجَنَّاتِ «جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى» وَطَهَّرَ^١ نَفْسَهُ مِنْ دَنَسِ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ بِالْإِيْمَانِ وَالتَّوْبَةِ وَالطَّاعَةِ.

عن ابن عباس: كانوا [في] أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً وَ[في] آخِرِهِ شُهَدَاءُ^٢.

وقال بعض العامة: إن كلام السحرة خُتِمَ بقوله: «خَيْرٌ وَأَبْقَى» والآيات الثلاث ابتداء كلام الله تعالى^٣.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا
لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَىٰ * فَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِجُونْدِهِ فَغَارَ مِنْ آلِيمٍ مَا
غَشِيَتْهُمْ * وَأَصْلُ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ [٧٧-٧٩]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ طَيِّ ذِكْرِ مَا جَرَىٰ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَكِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْمَفْصَلَاتِ الظَّاهِرَةِ عَلَىٰ يَدِ مُوسَىٰ فِي نَحْوِ مِنْ عَشْرِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ قَتْلِهِ السَّحَرَةَ، بَيْنَ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ أَمْرُ فِرْعَوْنَ وَنَجَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ ظُلْمِهِ بقوله: «وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ» وَقُلْنَا لَهُ بِتَوْسِطِ جِبْرِيلَ: «أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي» الَّذِينَ اسْتَعْبَدَهُمْ فِرْعَوْنُ، وَاسْتَذَلَّهُمْ بِالْأَسْرِ، وَاسْتَضَعَّفَهُمْ بِتَحْمِيلِ الْمَشَاقِّ، وَسَرَّ بِهِمْ لَيْلًا مِنْ مِصْرَ «فَاصْرَبْ» وَاتَّجَذَّ «لَهُمْ» أَوْ اضْرَبْ بِعَصَاكَ، وَاجْعَلْ لَهُمْ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ «طَرِيقًا» كَانْنَا

﴿فِي الْبَحْرِ الْقُلُومُ^١ عَلَى قَوْلٍ، أَوِ الْأَصَافُ^٢ عَلَى آخِرٍ، يَكُونُ ﴿يَبْسًا﴾ وَجَافًا لَا وَحْلَ فِيهِ وَلَا نَدَاوَةً فَضْلًا عَنِ الْمَاءِ، وَجُزْءٌ مِنْهُ آمِنًا بَحِيثٌ ﴿لَا تَخَافُ دَرَكَاءُ﴾ مِنَ الْعَدُوِّ وَوُصُولُهُمْ إِلَيْكَ ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ الْفَرَقَ.

زُيِّنَ أَنْ مُوسَى ﷺ خَرَجَ بِهِمْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، وَكَانُوا سِتْمَانَةً وَسَبْعِينَ أَلْفًا، فَأَخْبِرَ فِرْعَوْنَ بِذَلِكَ^٣ ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ وَعَسَاكِرِهِ، وَكَانَتْ مَقْدَمَتُهُ سَبْعِمِائَةَ أَلْفٍ، فَقَصَّ أَثَرَهُمْ فَلَجَّعَهُمْ بَحِيثُ تَرَايَ الْجَمْعَانِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ضَرَبَ مُوسَى ﷺ بِعَصَاةِ الْبَحْرِ، فَانْفَلَقَ عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ فِرْقًا كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ، وَبَقِيَ الْمَاءُ قَانِمًا بَيْنَ الطُّرُقِ، فَغَبَرَ مُوسَى بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْأَسْبَاطِ سَالِمِينَ، وَتَبِعَهُمْ فِرْعَوْنَ بِجُنُودِهِ ﴿فَفَشَّيَهُمْ﴾ وَسَتَرَهُمْ ﴿مِنْ أَلِيمٍ﴾ وَالْبَحْرِ ﴿مَا غَشَّيَهُمْ﴾ وَمَا عَلَاهُمْ مِنَ الْأُمُوجِ الْهَائِلَةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ.

عن ابن عباس قال: خرج فرعون في طلب موسى ﷺ، وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنين والقلب، فلما انتهى موسى ﷺ إلى البحر قال: ها هنا أميرت، ثم قال موسى ﷺ للبحر: انفِرْ قَابِي، فأوحى الله إليه: أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَضَرَبَ فَأَنْفَلَقَ فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى ﷺ: ادْخُلُوا فِيهِ، فقالوا: كيف وأرضه رطبة؟ فعدا الله فهبَّتْ عَلَيْهِ الصَّبَا فَجَفَّتْ، فقالوا: نخافُ الْفَرَقَ فِي بَعْضِنَا، فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضاً، فدخلوا حتى جاوزوا البحر، فأقبل فرعون إلى تلك الطُّرُقِ، فقال قومه له: إِنَّ مُوسَى سَحَرَ الْبَحْرَ فَصَارَ كَمَا تَرَى، وَكَانَ عَلَى فَرَسٍ حِصَانٍ، وَأَقْبَلَ جَبْرِئِيلُ عَلَى فَرَسٍ أُنْثَى فِي ثَلَاثَةِ وَثَلَاثِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَصَارَ جَبْرِئِيلُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ، وَأَبْصَرَ الْحِصَانُ الْفَرَسَ الْجَبْرَ، فَاقْتَحَمَ بِفِرْعَوْنَ عَلَى أَثَرِهَا، وَصَاحَتِ الْمَلَائِكَةُ فِي النَّاسِ: أَلْحَقُوا الْمَلِكَ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ آخِرَهُمْ وَكَادَ أُولَهُمْ أَنْ يَخْرُجَ التَّقَى الْبَحْرَ عَلَيْهِمْ فَعَرَقُوا، فَسَمِعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ خَفَقَةَ الْبَحْرِ عَلَيْهِمْ فقالوا: مَا هَذَا يَا مُوسَى؟ قَالَ: قَدْ أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، فَارْجِعُوا لِيَنْظُرُوا إِلَيْهِمْ، فقالوا: يَا مُوسَى، ادْعِ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَهُمْ لَنَا حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْهِمْ، فدعا فَلَقَطَهُمُ الْبَحْرُ إِلَى السَّاحِلِ، وَأَصَابُوا سِلَاحَهُمْ^٤.

قال ابن عباس: إِنَّ جَبْرِئِيلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَدُسُّ فِرْعَوْنَ فِي الْمَاءِ وَالطَّيْنِ مَخَافَةً أَنْ يَتَوَبَّ^٥.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ وَسَلَكَ بِهِمْ مَسْلَكًا أَذَاهُمْ إِلَى الْخَبِيثَةِ وَالْخُسْرَانِ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا حَيْثُ

٢. كذا.

١. بحر القلزم: البحر الأحمر.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ٣٦١، تفسير روح البيان ٥: ٤٠٩.

٥. الحجر: أَنْتَنِي الْخَبِيلَ.

٤. الصَّبا: ريحٌ مهبّتها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار.

٧. تفسير الرازي ٢٢: ٩٤.

٦. تفسير الرازي ٢٢: ٩٣.

مَاتُوا عَلَى الْكَفْرِ وَالطُّغْيَانِ بِالْعَذَابِ الْهَائِلِ الدِّنيوي الْمُتَّصِل بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ الدَّائِمِ الْآخِرُوي ﴿وَمَا هَذِي﴾ وما أرشد إلى مطلوبٍ وخيرٍ أبداً. وفيه تأكيدٌ لغاية إضلاله وَرَدُّ لِقوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^١.

روى أن موسى لما ضرب بعصاه البحر حصل اثني عشر طريقاً يا يسأ، يتهيأ طُروقه، وبقي الماء قائماً بين الطريق والطريق كالطُود العظيم، فأخذ كل سبطٍ من بني إسرائيل في طَرِيقٍ من هذه الطرق^٢. وقيل: بل حصل طريق واحد^٣.

وقيل: إن فرعون لما خاف من دخول البحر، أمر مقدّمته بالدخول فيه، فلما دَخَلُوا وساروا فيه وما غَرِقُوا، غلب على ظنه السلامة فدخل، فلما دَخَلَ الْكُلُّ أغرَقَهُم الله^٤.

أقول: لا تنافي بين هذا وبين ما روي من تقدّم جَبْرِئِيل عليه وهو على رَمَكَةٍ^٥؛ لأنّه وإن كان ظنّ السلامة ولكن يمكن أنّه لو لم يَجْمَح فرسه لكان يحتاط، ولما جَمَح فرسه وكان له ظنّ السلامة لم يبالغ في إمساك فرسه، فلا يردّ على الرواية أن فرعون مع عقله ودهائه كيف ألقى نفسه في التهلكة.

يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ
وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ
فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ [٨٠ و ٨١]

ثم رغب الله سبحانه بني إسرائيل في طاعته بتذكيرهم النعم التي أنعم عليهم، مقدّماً لنعمة دفع الصّـر عنهم على إيصال النفع إليهم، مخاطباً لهم بلسان موسى بعد إغراق فرعون وابتلائهم بالتيه بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وقومه وخلصناكم من ظلمهم.

ثم ثأها بالنعمة الدُّيْنِيَّة التي هي أهمّ من النعم الدُّنْيَوِيَّة بقوله: ﴿وَوَعَدْنَاكُمْ﴾ ودعوناكم بواسطة نبيكم موسى ﷺ أن تأثوا ﴿جَانِبَ الطُّورِ﴾ يعني جانبه ﴿الْأَيْمَنِ﴾ من السالك من مصر إلى الشام على ما قيل^٦.

وأما أضاف الدعوة إلى جميعهم مع كون المدعو خصوص موسى، أو هو مع السبعين المختارة، لكونهم منهم، ونفعها من المناجاة وأخذ التوراة عائداً إلى جميعهم.

ثم ثلثهما بذكر النعمة العظيمة الدنيوية بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى﴾ وقد مرّ تفسيرهما

١. غافر: ٢٩/٤٠. ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٩٤.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ٩٦. ٤. تفسير الرازي ٢٢: ٩٦.

٥. الرّمكة: الفرس البرذونة تتخذ للنسل.

٢٣٨ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

وتفصيل نزولهما في سورة البقرة، وقلنا لكم بِلِسَانِ الرُّسُولِ أَوْ بِدَلَالَةِ الْفِعْلِ: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وَلَذَانِذٍ مَا نَعْمَنَا عَلَيْكُمْ مِنَ الطَّعَامِ، أَوْ مِنْ حَلَالِهِ ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾، وَلَا تَجَاوَزُوا الْحَدَّ ﴿فِيهِ﴾ بِالسَّرَفِ وَالْبَطَرِ، وَالْمَنَعِ مِنَ الْمُسْتَحَقِّ، وَالْإِذْخَارِ مِنْهُ لِأَكْثَرِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَالْإِخْلَالِ بِالشُّكْرِ ﴿فَيَجَلَّ﴾ عِنْدَ تِلْكَ الْأُمُورِ ﴿عَلَيْنَكُمْ غَضَبِي﴾ وَيَلْزَمُكُمْ عِقَابِي، وَيَجِبُ لَكُمْ انتقامي. ثم بالغ في تهديدهم ببيان شدة غضبه وعظمته انتقامه بقوله: ﴿وَمَنْ يَخْلُلْ﴾ وَيَنْزِلْ ﴿عَلَيْهِ غَضَبِي﴾ وَعَذَابِي ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ وَهَلَكَ إِلَى الْأَبَدِ، أَوْ هَوَى فِي جَهَنَّمَ وَسَقَطَ فِيهَا. عن الباقر عليه السلام سُئِلَ مَا ذَلِكَ الْغَضَبُ؟ فَقَالَ: «هُوَ الْعِقَابُ»^١.

وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى [٨٢]

ثُمَّ بَشَّرَ سُبْحَانَهُ الْعَصَاةَ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ بقوله: ﴿وَإِنِّي﴾ وَاللهُ ﴿لَفَقَّارٌ﴾ وَسَتَارٌ لِلذُّنُوبِ ﴿لِمَنْ تَابَ﴾ وَرَجَعَ عَنِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ، وَنَدِمَ عَلَى الْعِصْيَانِ الَّذِي مِنْهُ الطُّغْيَانُ فِي مَا رَزَقَ ﴿وَأَمَّنَ﴾ بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وَعَمَلًا مُسْتَقِيمًا عِنْدَ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ وَثَبَّتَ عَلَى الْحَقِّ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا قِيلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أَيُّ عِلِمٍ أَنَّ ذَلِكَ يَهْدِيهِ اللهُ وَتَوْفِيقُهُ، وَيَقِي مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ فِي إِدَامَةِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَقْصِيرٍ^٢.

وقيل: هذه الخطابات لبني إسرائيل الذين كانوا في عهد النبي ﷺ على معنى أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ مَنَّ عَلَيْهِمْ بِمَا فَعَلَ بِآبَائِهِمْ أَصَالَةً وَبِهِمْ تَبَعًا، فَإِنَّهُ لَوْلَا تِلْكَ النُّعْمُ عَلَى آبَائِهِمْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ نَسْلٌ وَلَمْ يَوْجَدْ مَنْ كَانَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ.

وقال المولى أبو السعود: ويردّه ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَغْجَلَكْ﴾ الآية ضرورة استحالة حمله على الإنشاء^٣. وفيه: أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَغْجَلَكْ﴾ رَجُوعًا إِلَى الْقِصَّةِ بَعْدَ مَوْعِظَةِ أَهْلِ عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ.

عن الباقر عليه السلام فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: «أَلَا تَرَى كَيْفَ اشْتَرَطَ وَلَمْ تَنْفَعِ التَّوْبَةَ وَالْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَتَّى^٤ اهْتَدَى، وَاللهُ لَوْ جَهَدَ أَنْ يَعْمَلَ [يعمل] مَا قَبِلَ مِنْهُ حَتَّى يَهْتَدِيَ». قِيلَ: إِلَى مَنْ جَعَلَنِي اللهُ فَذَاكَ؟ قَالَ: «إِلَيْنَا»^٥.

وعن النبي ﷺ قَالَ فِي حَدِيثٍ لِعَلِيِّ عليه السلام: «وَلَقَدْ ضَلَّ مِنْ ضَلَّ عَنكَ، وَلَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى اللهِ مَنْ لَمْ

٢. تفسير الرازي ٢٢: ٩٧.

٤. فِي النسخة: الصالح وقال ثم.

١. التوحيد: ١/١٦٨، تفسير الصافي ٣: ٣١٤.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ٣٢.

٥. تفسير القمي ٢: ٦١، تفسير الصافي ٣: ٣١٤.

يهتد إليك وإلى ولايتك، وهو قول ربي عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ الآية، يعني: إلى ولايتك^١.

وعن الباقر عليه السلام قال: «ثُمَّ اهتدى إلى ولايتنا أهل البيت، فوالله لو أن رجلاً عبدَ الله عُمره مابين الركن والمقام، ثُمَّ مات ولم يجن بولايتنا، لأكبّه الله في النار على وجهه»^٢.

وعنه عليه السلام قال وهو مستقبل البيت: «إِنَّمَا أَمْرُ النَّاسِ أَنْ يَأْتُوا هَذِهِ الْأَحْجَارَ فَيَطُوفُوا بِهَا، ثُمَّ يَأْتُونَا فَيَعْلَمُونَا وَلَا يَتَّهِمُونَا لَنَا، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ ثُمَّ أَوْماً إِلَى صَدْرِهِ وَقَالَ: «إِلَى وَلايَتِنَا»^٣.

وعن الصادق عليه السلام قال: «لهذه الآية تفسيرٌ يدلُّ ذلك التفسير، على أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ عَمَلًا إِلَّا مِمَّنْ لَقَاهُ بِالْوَفَاءِ مِنْ ذَلِكَ التفسير، وما اشترط فيه على المؤمنين»^٤.

وعنه عليه السلام قال: «إِنَّكُمْ لَا تَكُونُونَ صَالِحِينَ حَتَّى تَعْرِفُوا، وَلَا تَعْرِفُونَ حَتَّى تُصَدِّقُوا، وَلَا تُصَدِّقُونَ حَتَّى تُسَلِّمُوا أَبْوَابَ أَرْبَعَةٍ لَا يَصْلُحُ أَوَّلُهَا إِلَّا بِآخِرِهَا، ضَلَّ أَصْحَابُ الثَّلَاثَةِ وَتَاهُوا تَهَاوُتِهَا عَظِيمًا، إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهَ إِلَّا الْوَفَاءَ بِالشَّرُوطِ وَالْعَهْدِ، فَمَنْ وَفَى اللَّهَ تَعَالَى بِشَرْطِهِ، وَاسْتَعْمَلَ مَا وَصَفَ فِي عَهْدِهِ، نَالَ مَا عِنْدَهُ، وَاسْتَكْمَلَ وَعْدَهُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ الْعِبَادَ بِطَرِيقِ الْهُدَى، وَشَرَعَ لَهُمْ فِيهَا الْمَنَارَ، وَأَخْبَرَهُمْ كَيْفَ يَسْلُكُونَ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ وَقَالَ: «إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ فِي مَا أَمَرَهُ، لَقِيَ [اللَّهِ] مُؤْمِنًا بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ. هَيَّاهُتْ هَيَّاهُتْ فَاتَّ قَوْمٌ وَمَاتُوا قَبْلَ أَنْ يَهْتَدُوا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ آمَنُوا وَأَشْرَكُوا مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ»^٥.

وَمَا أَعْبَجَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ [٨٣-٨٥]

ثُمَّ رَوَى أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِشَرِيعَةٍ وَأَحْكَامٍ يَعْمَلُونَ بِهَا، فَجَاءَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِ فِي ذَلِكَ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ: أَنْ آتِ الطُّورَ مَعَ أَشْرَافِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى أُعْطِيَكَ كِتَابًا فِيهِ جَمِيعُ أَحْكَامِ شَرِيعَتِكَ، فَجَاءَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى قَوْمِهِ وَاخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَخِيَارِهِمْ،

١. أمالي الصدوق: ٨٠٣/٥٨٣، تفسير الصافي ٣: ٣١٤.

٢. مجمع البيان ٧: ٣٩، تفسير الصافي ٣: ٣١٤.

٣. الكافي ١: ٣/٣٢٣، تفسير الصافي ٣: ٣١٥.

٤. تفسير العياشي ١: ٩٠٤/٣٧٧، تفسير الصافي ٣: ٣١٥.

٥. في الكافي: بعيداً.

٦. المائدة: ٢٧/٥.

٧. الكافي ١: ٦/١٣٩ و ٢: ٣/٣٩، تفسير الصافي ٣: ٣١٥.

وخلف أخيه هارون فيهم، فلما ذهب بمن معه وقرب من الطور، أسرع في المشي، وسبقهم في الصعود على الطور شوقاً إلى كلام ربه، وأمرهم أن يتبعوه، فخطبه الله بقوله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ، وَدَعَاكَ إِلَى الْإِسْرَاعِ إِلَى الصُّعُودِ عَلَى الطُّورِ، وَأَنْ تُخَلِّفَ النَّبَأَ الَّذِينَ أَمَرْتُ أَنْ تَكُونَ مَعَهُمْ يَا مُوسَى﴾^١.

وقيل: إن المراد بقومه جملة بني إسرائيل الذين خلف هارون فيهم^٢، فلما رأى موسى ﷺ إنكاره تعالى عليه تقدّمه على قومه وحضوره منفرداً في الميقات، مع كونه مأموراً باستصحابهم وإحضارهم معه، وكون تعجيله منافياً للحزم اللائق بأولي العزم، أخذته الهيبة، فأخذ بالاعتذار و﴿قَالَ: رَبِّ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي﴾ ومن ورائي، وإنما سبقتهم بخطئ يسيرة لا تُجَلّ بالمعيّة التي أمرني بها ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ﴾ وسبقتهم يسيراً إلى الصعود على الطور ﴿رَبِّ لَتَرْضَى﴾ بمسارعتي إلى امتثال أمرك، وإهتمامي بالوفاء بوعدك، واشتياقي إلى استماع كلامك.

عن الصادق ﷺ قال: «المشتاق لا يشتهي طعاماً، ولا يلتذ بشراب، ولا يستطيب رقداً، ولا يأنس حميماً، ولا يأوي داراً، ولا يسكن عمراناً، ولا يلبس لباساً، ولا يقرّ قراراً، ويعبد الله ليلاً ونهاراً، راجياً بأن يصل إلى ما يشاق إليه، ويتأجبه بلسان شوقه، معبراً عما في سريره، كما أخبر الله عن موسى بن عمران ﷺ في معاد ربه بقوله: ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لَتَرْضَى﴾ وفسر النبي ﷺ عن حاله أنه ما أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوماً شوقاً إلى ربه^٣.

وإنما ذكر الله بصفة الربوبية، لزيادة التضرع والابتهاال رغبة في قبول عذره.

ثم أخبره الله بإفتتان قومه بعد خروجه من بينهم، لتعجيلهم وعدم صبرهم لرجوع موسى ﷺ حيث ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا﴾ وابتلينا ﴿قَوْمَكَ﴾ بني إسرائيل مع إخلافك هارون فيهم ﴿مِنْ بَعْدِكَ﴾ وزمان غيابك عنهم بعبادة العجل.

رؤى أنهم أقاموا على ما وصى به موسى ﷺ عشرين ليلة بعد ذهابه، فحسبوا مع أيامها أربعين، وقالوا: قد أقمنا العدة وليس من موسى ﷺ عين ولا أثر، ﴿وَأَضَلَّهُمْ﴾ عند ذلك ﴿السَّامِرِيُّ﴾ بتدبيره وحيلته.

رؤي أن السامري كان من بني إسرائيل، وتولد في زمان كان فرعون يقتل أبناءهم، فألقته أمه في جزيرة في النيل، فأمر الله جبرئيل أن يربيّه ويحفظه، ويأتي بما كوله ومشروبه، ثم جاء في قومه، وكان

٢. تفسير الرازي ٢٢: ٩٩.

١. تفسير روح البيان ٥: ٤١٢.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٠١، تفسير روح البيان ٥: ٤١٤.

٣. مصباح الشريعة: ١٩٦، تفسير الصافي ٣: ٣١٦.

صانعاً، فلما ذهب موسى عليه السلام إلى الطور جاء إلى هارون وقال: إن عند بني إسرائيل من زينة القبط حيث اشتعاروها منهم ولم يردوها ويتصرفون فيها، وهو حرام عليهم، فأمرهم أن يأتوا بها وأحرقها، فأمر هارون بني إسرائيل بأن يأتوا بما عندهم من زينة القبط، فأتوا بها، فحفر هارون حفرةً فألقاها فيها، فأوقد عليها النار، فلما رأى السامري أنها ذابت، أتى بقالب فصّب فيه ذلك الذهب المذاب، فأخرج منه صورة عجل، ثم ذرّ فيه من تراب أخذه من تحت حافر رمكة جبرئيل، فحيى العجل وخار، ثم قال لبني إسرائيل: هذا إلهكم وآله موسى^١.

وعن ابن عباس: كان السامري عرجاً من أهل كرمان وقع إلى مصر، وكان من قوم يعبدون البقر^٢. وفي رواية أخرى عنه: أنه كان رجلاً من القبط جاراً لموسى عليه السلام ثم آمن به^٣. والأكثرون على أنه كان من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة^٤.

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْلَ عَلَيْنَكُمُ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أَوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ [٨٦ و ٨٧]

قيل: إن الله أخبر موسى عليه السلام عن الفتنة المترتبة بلفظ الموجودة [الكائنة] على عادته^٥ ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ بعد استيفائه الأربعين وأخذه التوراة حال كونه ﴿غَضْبَانَ﴾ عليهم ﴿أَسِفًا﴾ شديد الحزن على عصيانهم.

قيل: رآهم مجتمعين على العجل يضربون الدفوف ويرقصون حوله فعاتبهم^٦ و﴿قَالَ﴾ توبيخاً: ﴿يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وصدقاً نافعاً بأن يعطيكم التوراة التي فيها هدىً ونور، ولا وعد أحسن من ذلك.

وقيل: إنه الوعد بالثواب على الطاعة^٧.

وقيل: إنه العهد على أن لا يطغوا فيما رزقهم^٨.

﴿أَفَطَالَ﴾ قيل: أن أوعدكم فطال ﴿عَلَيْنَكُمُ الْعَهْدُ﴾ وزمان الإنجاز فأخطأتم بسببه؟^٩ أو العهد ينعم

٢- ٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٠١.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٤١٥.

٩. تفسير أبي السعود ٦: ٣٥، تفسير روح البيان ٥: ٤١٥.

١. تفسير روح البيان ٥: ٤١٤.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٠١.

٧ و ٨. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٢.

الله من الإنجاء من فرعون والغرق وغيرهما، وطوله كناية عن نسيانه ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يُجَلَّ﴾ وينزل، أو يجب ﴿عَلَيْكُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَعَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ومن رُئُوسِكُمْ ﴿وَمَا لَكُمْ أَمْرُكُمْ اللَّطِيفُ بِكُمْ؟﴾ ﴿فَأَخْلَقْتُمْ﴾ لذلك ﴿مَوْعِدِي﴾ وعهدي عليكم بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من ميقات ربِّي.

قال العلماء: إن العَصَب من صفات أفعاله تعالى، لا من صفات ذاته: لأن صفات الذات لا تخلل ولا تنزل في الأجسام^١.

عن الباقر عليه السلام، قال في تفسير الغضب: «من زعم أن الله عز وجل زال من شيء إلى شيء فقد وصفه صفة مخلوق، إن الله عز وجل لا يستغyre شيء ولا يغيره شيء»^٢.

ثم أن الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل اعتدروا إلى موسى عليه السلام من فعلهم الشنيع و﴿قَالُوا﴾: يا موسى ﴿مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ﴾ ومانقضا عهدك علينا بالثبات على ما أمرتنا به ﴿بِمَلَكِنَا﴾ واختيارنا وميل قلوبنا ﴿وَلَكِنَّا﴾ غلبنا من كيد السامري إذ ﴿حُمِّلْنَا أَوْزَارًا﴾ وأحمالاً ثَقِيلَةً ﴿مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ وحلي القبط التي استعزنا بها منهم بأن جعلها في عهدتنا إلى أن تؤذيها إلى حيث تأمرنا، أو بأن الزمنا فيه حكم الغنيمة ﴿فَقَدْ فَتَّاهَا﴾ وطحناها في الحفيرة وفي النار تخلصاً من ذنبها ﴿فَكَذَلِك﴾ القذف والإلقاء ﴿أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ما معه من الحلي فيها.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَاطِرٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَزُودُ إِلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي [٩٠-٨٨]

ثم حكى سبحانه فتنة السامري لزيادة تقريرها وترتيب الإنكار والتوبيخ عليها بقوله: ﴿فَأَخْرَجَ﴾ السامري من ذلك الحلي الذي جمعه بنو إسرائيل ﴿لَهُمْ عِجْلاً﴾ وولد بقرة، وكان ﴿جَسَداً﴾ ذا دم ولحم وعظم، أو جسداً من ذهب ﴿لَهُ خَوَاطِرٌ﴾ وصوت عجل.

عن ابن عباس: أن هارون مر بالسامري وهو يصنع العجل فقال له: ما تصنع؟ قال: أصنع ما ينفع ولا يضُر فادع لي، فقال: اللهم أعطيه ما سأل. فلما مضى هارون قال السامري: اللهم إني أسألك أن يحور، فخار له السامري والمفتنون به ﴿فَقَالُوا﴾ لغاية بلادتهم، أو اعتقادهم حلول الله فيه لغاية

٢. التوحيد: ١/١٦٨، تفسير الصافي ٣: ٣١٤.

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٢.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٤.

حَقَمَهُمْ: ﴿هَذَا الْعَجَلُ إِلَهُكُمْ﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿وَالَهُ مُوسَى فَتَنَى﴾ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ هَذَا إِلَهُهُ فَذَهَبَ يَطْلُبُهُ فِي الطُّورِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ رَدَّ عَلَى السَّامِرِيِّ، وَأَنَّ الْإِلَهَ لَا يَحُلُ فِي شَيْءٍ وَلَا يَحُلُ فِيهِ شَيْءٌ. ثُمَّ اسْتَدَلَّ سَبْحَانَهُ عَلَى بُطْلَانِ دَعْوَى الْمُفْتَنِينَ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَزْجِعُ﴾ هَذَا الْعَجَلُ ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ وَلَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ جَوَابًا إِذَا سَأَلُوهُ ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ إِذَا طَلَبُوا مِنْهُ دَفْعَ ضَرِّهِ أَوْ جَلْبَ نَفْعٍ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ لَا يُمْكِنُهُ التَّكَلُّمُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الضَّرِّ وَالنَّفْعِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا.

ثُمَّ حَكَى سَبْحَانَهُ تَضَخُّعَ هَارُونَ لَهُمْ فِي بَذْوِ ضَلَالَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمُ الْعَجَلَ تَوْضِيحًا لِعَتْوِهِمْ وَحَقْمَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ﴾ تُصْحَا وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَتَنْبِيهًا لَهُمْ عَلَى خَطِيئَتِهِمْ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وَفِي بَذْوِ إِقَامَتِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ الْعَجَلِ، أَوْ قَبْلَ رَجُوعِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَيْهِمْ، أَوْ قَبْلَ قَوْلِ السَّامِرِيِّ: هَذَا إِلَهُكُمْ. قِيلَ: إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا رَأَى الْعَجَلَ خَطَرَ فِي قَلْبِهِ افْتِنَانِ الْقَوْمِ بِهِ، فَبَادَرَ فِي تَحْذِيرِهِمْ^١ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَقَالَ: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ﴾ وَأَضَلَلْتُمْ، أَوْ امْتَحَنْتُمْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ﴿بِهِ﴾ وَبِسَبِّهِ ﴿وَلِإِنَّ رَبَّكُمْ﴾ وَالْإِلَهَ الْمُنْعِمَ عَلَيْكُمْ هُوَ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ لَا الْعَجَلَ الَّذِي لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ فِي الثَّبَاتِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَدِينِ الْحَقِّ ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ هَذَا وَاتْرَكُوا عِبَادَةَ مَنْ عَرَفْتُمْ شَأْنَهُ.

نقل كلام للفخر الرازي: وَعَلِمَ أَنَّ هَارُونَ سَلَكَ فِي هَذَا الْوَعظِ أَحْسَنَ الْوُجُوهِ، لِأَنَّهُ زَجَرَهُمْ عَنِ الْبَاطِلِ أَوَّلًا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ ثَانِيًا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ﴾ ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ النَّبِيِّ ثَالِثًا بِقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى الشَّرَائِعِ رَابِعًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

أقول: لَا يَخْفَى مَا فِي كَلَامِهِ مِنَ الْوَهْنِ. ثُمَّ قَالَ: هَاهُنَا دَقِيقَةٌ، وَهِيَ أَنَّ الرَّافِضَةَ تَمَسَّكُوا بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَلِّيٍّ: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى».

ثُمَّ أَنَّ هَارُونَ مَا مَنَعَتْهُ التَّقِيَّةُ فِي مِثْلِ هَذَا الْجَمْعِ بِلِ صَعِيدِ الْمِثْبَرِ، وَصَرَحَ بِالْحَقِّ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَتَابَعَةِ نَفْسِهِ وَالْمَنَعَ مِنْ مَتَابَعَةِ غَيْرِهِ، فَلَوْ كَانَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى الْخَطَا، لَكَانَ يَجِبُ عَلَى عَلِيِّ أَنْ يَفْعَلَ مَا فَعَلَهُ هَارُونَ، وَأَنْ يَصْعِدَ الْمِثْبَرِ مِنْ غَيْرِ تَقِيَّةٍ وَلَا خَوْفٍ، وَأَنْ يَقُولَ: فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي، فَلَمَّا لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّ الْأُمَّةَ كَانُوا عَلَى الصَّوَابِ^٢، انْتَهَى كَلَامُهُ السَّخِيفُ بِطَوْلِهِ.

وَفِيهِ مِنَ الْفَسَادِ مَا لَا يَخْفَى، فَإِنَّ بَيْنَ النَّبِيِّ الْمُؤَسَّسِ لِلشَّرْعِ وَالْإِمَامِ الْحَافِظِ لَهُ الْمُجْرِي لِقَوَانِينِهِ

فَرَّقَ واضح لا يخفى على ذي مُسْكَةٍ^١، فَإِنَّ النَّبِيَّ الْمُؤَسَّسَ لَا يَجُوزُ لَهُ التَّقِيَّةُ، لِأَنَّ تَقِيَّتَهُ مُوجِبَةٌ لاختِلَالِ الْفَرْضِ مِنْ بَعْتِهِ، وَلِذَا يَجِبُ عَلَى اللَّهِ حِفْظُهُ حَتَّى يُتِمَّ رِسَالَتَهُ وَتَبْلِيغَهُ وَلَوْ بِالْأَسْبَابِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، كَمَا حَفِظَ نُوحٌ مِنَ الْقَتْلِ مَعَ تَقَرُّدِهِ وَعَدَاوَةِ أَهْلِ الْأَرْضِ لَهُ، وَإِبْرَاهِيمَ مِنْ نَارِ نَمْرُودَ وَجَعَلَهَا لَهُ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَحَفِظَهُ نَبِيَّانَا مِنْ شَرِّ الْكُفَّارِ مَعَ انْفِرَادِهِ فِي أَوَّلِ الدَّعْوَةِ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِالتَّبْلِيغِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^٢ وَأَمَنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾^٣ وَإِنَّا لَنَنْصُرُ وَرُسُلَنَا﴾^٤ وَ﴿اللَّهُ يَفْصِلُ بَيْنَ النَّاسِ﴾^٥ فَكَانَ ينادي بَيْنَ الْأَشْرَارِ مَعَ غَايَةِ تَعَصُّبِهِمْ وَلَجَاجِهِمْ وَعِنَادِهِمْ بِقَوْلِهِ: «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثَغْلُخُوا» وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى قَتْلِهِ، وَنَصَرَهُ اللَّهُ بِالرُّعْبِ وَبِجُنُودٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالرَّيْحِ، وَيَمِّنُ اتِّبَاعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَأَمَّا الْإِمَامُ فَوْظِيفَتُهُ وَطِيفَةُ الْعُلَمَاءِ، وَهِيَ حِفْظُ الدِّينِ، وَتَعْلِيمُ الْأَحْكَامِ الْوَاقِعِيَّةِ عَنْ عِلْمٍ لَا خَطَأَ فِيهِ، وَإِجْرَاءُ السِّيَاسَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَتَرْبِيَةُ النُّفُوسِ الْقَابِلَةِ، وَرَفْعُ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَ النَّاسِ، وَكَوْنُهُ مُرْجِعًا فِي جَمِيعِ الْمَنَازِعَاتِ بَعْدَ إِتِمَامِ الْحُجَّةِ عَلَى النَّاسِ بِتَبْلِيغِ الدِّينِ، وَنَصْبِهِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، بَحِثٌ لَا يَبْقَى لِأَحَدٍ عَدْرٌ فِي عَدَمِ مَعْرِفَتِهِ، كَمَا نَصَّبَ مُوسَى هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَنَبِيَّنَا عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الْغَدِيرِ، فَمِنْ حَيْثُ إِنَّ هَارُونَ كَانَ شَرِيكًا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الرِّسَالَةِ لَمْ يَحْزَ لَهُ التَّقِيَّةُ، وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهُ كَانَ خَلِيفَتِهِ فِي غَيْبَتِهِ جَازَ لَهُ التَّقِيَّةُ، وَلِذَا أَعْلَنَ بِالْحَقِّ، وَلَكِنْ لَمْ يَشْدَدْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا شَدَّدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنَ الْمِيقَاتِ، وَاعْتَذَرَ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ تَرْكِهِ التَّشَدُّدَ وَعَمَلِهِ بِالتَّقِيَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ فَظَهَرَ أَنَّ هَارُونَ اتَّقَى مِنْ قَوْمِهِ حَيْثُ لَمْ يَقَاتِلْهُمْ عَلَى عِبَادَةِ الْعِجَلِ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْنِهِمْ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ أَنْصَارَهُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، كَمَا أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَظْهَرَ خِلَافَتَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مُحَافِلٍ كَثِيرَةٍ، وَاحْتَجَّ عَلَى إِمَامَتِهِ بِالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَاصِرٌ إِلَّا ثَلَاثَةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ سَبْعَةٌ^٦، وَلِذَا لَمْ يَقَاتِلْهُمْ عَلَى عِبَادَتِهِمْ عِجَلٍ هَذِهِ الْأُمَّةُ، وَلَوْ كَانَ مَعَهُ أَرْبَعُونَ لَقَاتَلْتَهُمْ وَرَدَّهُمْ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ^٧.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّ هَارُونَ صَعِدَ عَلَى الْمَنْبَرِ وَأَظْهَرَ الْحَقَّ، فَهُوَ تَخَرُّصٌ بِالْغَيْبِ، لِعَدَمِ دَلَالَةِ آيَةٍ أَوْ رَوَايَةٍ عَلَى ضَعُودِهِ عَلَى الْمَنْبَرِ، مَعَ أَنَّ عِجَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَشْغَلِ الْمَنْبَرِ، وَلِذَا تَمَكَّنَ هَارُونَ مِنَ الصُّعُودِ عَلَيْهِ، وَأَمَّا عِجَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَإِنَّهُ كَانَ جَالِسًا عَلَى مَنْبَرِ الرُّسُولِ ﷺ وَشَاغِلًا لَهُ، وَلِذَا لَمْ يَتِمَكَّنْ

١. المُسْكَةُ: العقل الوافر والرأي.

٢. الحجر: ٩٤/١٥.

٣. البقرة: ١٣٧/٢.

٤. غافر: ٥١/٤٠.

٥. المائدة: ٦٧/٥.

٦. راجع: تفسير العياشي ١: ٣٤١/٧٨٧ و٧٨٨، الكافي ٨: ٢٤٥/٢٤١، رجال الكشي: ١٢/٦ و١٧/٨ و: ٢٤/١١.

٧. الاحتجاج: ١٩١، كتاب سليم بن قيس: ٩٣.

عليّ عليه السلام من الصُّعود عليه.

والحاصل أنّه كما أظهر هارون الحقّ مرّةً مع إشراك أغلب بني إسرائيل بالشُّرك الجَلبي، أظهر عليّ عليه السلام حقّه في المحافل الكثيرة، وأعلن بافتتان الأمة مرّاتٍ عديدة إلى أن استشهد كما تشهد بذلك احتجاجاته المروية بالضّافراً، وخطبته الشَّقْشِقِيّة التي أذعن ابن أبي الحديد بصحتها^٢، مع إشراك هذه الأمة بالشُّرك الخفيّ.

وكما لم يقاتل هارون قومه مع كثرة أنصاره، بل اكتفى بالنُّصح والموعظة، كذلك لم يقاتل عليّ عليه السلام أهل المدينة لقلّة أنصاره، بل لكون الرُّوم مع كمال قوّته وعظمته بصدد إذهاب الإسلام بعد عزّوة مَوْتِه وتَبُوك.

ولذا كان النبي صلى الله عليه وآله في مرض مَوْتِه مُصْرَعاً على بَعْث أسامة وجَبْشَه إلى تَبُوك خوفاً من تهاجم عسكر الرُّوم على أرض المسلمين إنْ بَلَّغَهُمْ خبرُ مَوْتِه صلى الله عليه وآله، فلو وقعت المقاتلة بعد النبي صلى الله عليه وآله بين المسلمين ما كان يبقى من الإسلام أثرٌ على وجه الأرض، ولذا اعتذر أمير المؤمنين عليه السلام إلى فاطمة عليها السلام حين شكّت إليه عَصَبَ فَدَكٍ من عَدَمِ مُعَارَضَةِ الغاصيين ومُقاتلتهم بأنّه لو قاتلهم لم يبقَ اسمُ الرُّسُولِ في وجه الأرض^٣.

وقال في الخطبة الشَّقْشِقِيّة: «فَطَفِقْتُ^٤ أُرْتِي بَيْنَ أَنْ أَضُولَ بَيْدَ جَدَاءَ، أَوْ أَضْبِرَ عَلَى طَخِيَةِ عَمِيَاءَ، يَشِيْبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ، حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ، فَرَأَيْتُ أَنْ الصَّبْرَ [على هاتَا] أَحَبُّ، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذَى، وَفِي الْحَلْقِ شَجِي»^٥.

ومِمَّا يَدُلُّ على إظهار عليّ عليه السلام حقّه، ومخالفته للأولين، ولِجَمْعِ من الأمة في الخلافة، ما رواه هذا

١. احتج عليه السلام على أبي بكر في أمر البيعة في مناسبات عدة، كما ناشد أهل الشورى واجتج عليهم بجملته فضائله وبين حقّه في الخلافة، راجع: بحار الأنوار ٢٩: ٣- ٦٧ و ٧٧- ٧٩، ترجمة الامام عليّ عليه السلام من تاريخ دمشق ٣: ١١٣، المناقب للخوارزمي: ٢٢١ - ٢٢٤، مناقب ابن المغازلي: ١١٢، الاستيعاب ٣: ٣٥. وفي خلافته عليه السلام جمع الناس في رجة الكوفة واستشهدهم على حديث العدير الذي هو نص على خلافته، فشهد اثنا عشر بدرياً، راجع مسند أحمد ١: ٨٨، ١١٨/١١٩، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢: ٩٩١/٥٨٥ و ٩٩٢ و ١١٦٧/٦٨٢، أسد الغابة ٢: ٢٣٣ و ٩٣: ٢٨، خصائص النسائي: ٢٢ - ٢٥، الاصابة ٤٨: ٥١٨٩/١٨٢ (ترجمة عبدالرحمن بن مدليح)، مجمع الزوائد: ٩: ١٠٤ - ١٠٥.

٢. نقل ابن أبي الحديد شيخة أبي الخير الواسطي أنه قرأ الخطبة الشَّقْشِقِيّة على ابن الخشاب، وذكر ابن الخشاب أنها من كلام أمير المؤمنين عليه السلام وأنه وقف عليها في كتب صنفت قبل أن يخلق الرضي بمانتي سنة وأنها كتبت بخطوط لعلماء كانوا قبل أن يخلق النقيب والد الرضي، راجع شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٠٥، مصادر نهج البلاغة - عبدالزهرء الخطيب ١: ٣١٥. ٣. راجع شرح ابن أبي الحديد ٢٠: ٣٢٦/٧٣٥.

٤. في النسخة: فجعلت. ٥. نهج البلاغة: ٤٨ الخطبة ٣.

الناسب في تفسيره قبل هذه الآية قال: قال بعض اليهود لعلِّي عليه السلام: ما دَفَنْتُمْ نَبِيَّكُمْ حَتَّى اخْتَلَفْتُمْ، فقال عليه السلام: «إِنَّمَا اخْتَلَفْنَا عَنْهُ، وَمَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ، وَأَنْتُمْ مَا جَفَّتْ أَقْدَامُكُمْ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ حَتَّى قُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ: «اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ»^١.

فإن معنى اخْتَلَفْنَا عَنْهُ الاختلاف في الرواية عنه، ولم تكن الرواية الْمُخْتَلَف فيها في ذلك الوقت إلا الرواية الناصئة على الخلافة، ولم يكن أحدٌ يدعى النص على خلافته إلا عليه السلام والخلصون من المؤمنين، ولم يخالفهم في ذلك إلا سامري هذه الأمة والمفتنون بالعجل.

قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى * قَالَ يَاهَاؤُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَبْتَنُوْا لَا تَأْخُذْ بِلِخِيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي [٩١-٩٤]

ثم بين سبحانه عتو بني إسرائيل وعدم قبولهم النص بقوله: «قَالُوا» في جواب هارون بعد إبلاغه في تضجهم تعللاً وتسويغاً لترك عبادة العجل: «لَنْ نَبْرَحَ» على القول بألوهية العجل، ولا نزال أبداً «عَلَيْهِ عَاكِفِينَ» ومقيمين وعبادته ملتزمين «حَتَّى يَرْجِعَ» من الطور «إِلَيْنَا مُوسَى» فإذا رجع طيع أمره، فإن أمرنا بعبادته ووافقنا عليها نستمر عليها، ولا نقبل قولك، وإن نهانا عنها نتركها. روي أنهم لما قالوه اعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً من الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى سمع الصباح وكانوا يرقصون حول العجل، فقال عليه السلام للسبعين الذين كانوا معه: هذا صوت الفتنة، فلما جاءهم قال لهم ما قال، وسمع منهم ما سمع^٢.

ثم توجه إلى هارون مغضباً و«قَالَ» له مغتاباً: «يَاهَاؤُونَ مَا مَنَعَكَ» وأي عذر لك «إِذْ رَأَيْتَهُمْ» أنهم «ضَلُّوا» وانحرفوا عن طريق التوحيد إلى الشرك، وعن طاعتك إلى مكابرتك وعصيانك «أَلَّا تَتَّبِعَنِ» في الغضب لله عليهم، وفي قتالهم على إشراكهم؟!

وقيل «لَا مَزِيدَ»، والمعنى ما منعك من أن تتبعني في ما ذكر، أو من أن تلحقني وتخبرني بما صنع القوم، وتترك المقام بين أظهرهم، كما عن ابن عباس^٣.

وقيل: يعني ما منعك من أن تتبعني في وصيتي إذ قلت لك: «اخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٥، والآية من سورة الأعراف: ١٣٨/٧.

٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٨.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٤١٨.

سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ^١ فَلَمْ تَرَكَ فَتَالَهُمْ وَأَدَبَهُمْ^٢، ثُمَّ وَبَّخَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَعَصَيْتَ﴾ وخَالَفْتَ ﴿أَمْرِي﴾
إِنَّاكَ بِالصَّلَاةِ فِي الدِّينِ وَالْمَحَامَاةِ عَلَيْهِ.

رَوَى أَنَّهُ ﷺ أَخَذَ بِشَعْرِ رَأْسِهِ بِيَمِينِهِ وَلِحْيَتِهِ بِشِمَالِهِ مِنْ شِدَّةِ غَيْظِهِ [وَغَضَبِهِ] اللَّهُ، وَكَانَ ﷺ حَدِيداً
مُتَصَلِّباً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَفَعَلَ مَا فَعَلَ بَمَرَأَى مِنْ قَوْمِهِ حِينَ رَأَاهُمْ يَعْبُدُونَ الْعِجْلَ^٣، فَلَمَّا رَأَى هَارُونَ
غَضَبَهُ عَلَيْهِ ﴿قَالَ﴾ تَرْقِيقاً لِقَلْبِهِ: ﴿يَا بَنَ أُمٍّ﴾ ارْقُ بِي وَرَاعِ حَقَّ أَمْرِكَ فِي، ﴿وَلَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا
بِرَأْسِي﴾ وَشَعْرِهِ ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إِنْ قَاتَلْتُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ وَتَفَرَّقُوا مِنْ ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ لِي حِينَ
رُجُوعِكَ أَنْتَ ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

وقيل: يعني أَنِّي خَشِيتُ إِنْ فَارَقْتَهُمْ وَاتَّبَعْتَكَ مِنْ أَنْ يَصِيرُوا حَزْبِينَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فَتَقُولُ لِي:
أَنْتَ أَوْعَيْتَ الْفِرْقَةَ فِي مَا بَيْنَهُمْ ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ وَلَمْ تَحْفَظْ بِحَسَنِ الْخُلَافَةِ عَلَيْهِمْ^٤.
قِيلَ: لَعَلَّ مُوسَى ﷺ [أَنَّمَا] أَمْرُهُ بِالذَّهَابِ إِلَيْهِ إِذَا لَمْ يُوَدَّ ذَهَابُهُ إِلَى فِسَادِ الْقَوْمِ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَمَرْتَنِي
بِاتِّبَاعِكَ إِذَا لَمْ يَحْصُلِ الْفَسَادُ، فَلَوْ جِئْتُكَ مَعَ حُصُولِ الْفَسَادِ مَا كُنْتُ مُرَاقِياً لِقَوْلِكَ^٥.

عَنِ الصَّادِقِ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ لِمَ أَخَذَ مُوسَى ﷺ بِرَأْسِ هَارُونَ يَجْرُهُ إِلَيْهِ وَبِلِحْيَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي
اتِّخَاذِهِمُ الْعِجْلَ وَعِبَادَتِهِمْ لَهُ ذَنْبٌ؟ فَقَالَ: «إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَفَارِقْهُمْ لَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ، وَلَمْ يَلْحَقْ
بِمُوسَى ﷺ، وَكَانَ إِذَا فَارَقَهُمْ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ لَهُارُونَ: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ
ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾؟ قَالَ هَارُونَ: لَوْ فَعَلْتُ ذَلِكَ لَتَفَرَّقُوا»^٦.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ مُتَكْرِي عَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ اسْتَدَلُّوا بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بِوُجُوهِ عَدِيدَةٍ عَلَى مَذْهَبِهِمُ الْفَاسِدِ،
وَأَجَابَ الْقَائِلُونَ بِعَصْمَتِهِمْ عَنْهُ بِوُجُوهِ مِنْهَا: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا عَلَى نَهَايَةِ سُوءِ الظَّنِّ بِمُوسَى ﷺ،
حَتَّى أَنَّ هَارُونَ غَاب عَنْهُمْ غَيْبَةً فَقَالُوا لِمُوسَى: أَنْتَ قَتَلْتَهُ؟ فَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى ﷺ مِنَ الْبَيْقَاتِ، وَرَأَى
فِي قَوْمِهِ مَا رَأَى، أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ لِئَدْنِيهِ وَيَتَفَحَّصَ مِنْ كَيْفِيَةِ الْوَاقِعَةِ، فَخَافَ هَارُونَ مِنْ أَنْ يَسْبِقَ إِلَى
قُلُوبِهِمْ مَا لَا أَصْلَ لَهُ، فَقَالَ إِشْفَاقاً عَلَى مُوسَى ﷺ: لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي لِئَلَّا يَظُنَّ بِكَ الْقَوْمُ مَا
لَا يَلِيقُ بِكَ، وَالْحَقُّ أَنَّ مُوسَى ﷺ أَظْهَرَ الْغَضَبَ عَلَى أَخِيهِ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ إِلَّا مَا هُوَ تَكْلِيفُهُ
وَصَلَاحُ دِينِهِ، إِظْهَاراً لَشِدَّةِ غَضَبِهِ مِنْ عَمَلِ قَوْمِهِ، وَإِعْظَاماً لَهُ، وَإِعْلَاناً بِغَايَةِ قُبْحِهِ وَشُنَاعَتِهِ.

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ

١. الأعراف: ١٤٢/٧. ٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٨.

٣ و٤. تفسير روح البيان ٥: ٤١٩. ٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٠٩.

٦. علل الشرائع: ١/٦٨، تفسير الصافي ٣: ٣١٧.

أَثَرِ الرُّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي * قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي
الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي
ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا [٩٥-٩٧]

ثم أنه ﷺ بعد قبول عذر هارون توجه إلى السامري، وكان حاضراً، أو بعد إحضاره ﴿قَالَ لَهُ: ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ وما شأنك، وأي شيء غرضك مما فعلت، أو ما الذي حملك عليه ﴿يَا سَامِرِيُّ؟﴾ وكان غرضه من السؤال إثبات بطلان عمله وكيد باعترافه، ﴿قَالَ السَّامِرِيُّ لِمُوسَى ﷺ: ﴿بَصُرْتُ﴾ وَأَنَا فِي الْقَوْمِ ﴿بِمَا لَمْ يَنْصُرُوا بِهِ﴾ ورأيت ما لم يروه، وهو أنه رأى جبرئيل راكباً على فرس، وكان كلما وضع فرسه يديه أو رجليه على الأرض اليابسة يخرج من تحته النبات في الحال فقال: ﴿فَقَبِضْتُ﴾ وَأَخَذْتُ ﴿قَبْضَةً﴾ وَكَفًّا ﴿مِنْ﴾ تَرَبٍّ ﴿أَثَرٍ﴾ فرس ﴿الرُّسُولِ﴾ وموضع حافره ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ وألقيتها في فم العجل الذي صنعته من الخلي، فكان ما كان ﴿وَكَذَلِكَ﴾ التَّسْوِيلُ من القبض والنبد ﴿سَوَّلْتُ لِي﴾ أو مثل ذلك التزيين زينت لي ﴿نَفْسِي﴾ في نظري، ففعلت ما فعلت يهوي، لا يحكم العقل، ولا بأمر الله ﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ: إِذْنٌ ﴿فَادْهَبْ﴾ وأخرج من بين الناس ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي﴾ مدة ﴿الْحَيَاةِ﴾ وزمان العمر ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ للناس ﴿لَا مِسَاسَ﴾ لأحد بي.

رؤي أنه كان إذا ماس أحدًا ذكرًا كان أو أنثى حمّ الماس والممسوس جميعاً حمى شديدة، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح بأعلى صوته لا مِسَاسَ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومواجهته، فصار وحيداً طريداً، يهيم في البرية مع الوحش والسباع^١.

عن الصادق ﷺ: «أَنَّ مُوسَى ﷺ هَمَّ بِقَتْلِ السَّامِرِيِّ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ: لَا تَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ سَخِيٌّ»^٢.
ثم أوعده موسى ﷺ بالعذاب في الآخرة بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ وَوَعْدًا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي
الْآخِرَةِ عَلَى الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ من قبل الله، يُنَجِّزُ الْبَيْتَ بعد عقوبتك في الدنيا ﴿وَانْظُرْ
إِلَى إِلَهِكَ﴾ ومعبودك ﴿الَّذِي﴾ صنعته بيدك و﴿ظَلَّتْ﴾ وَبَقِيَتْ، أَوْ صِرَتْ ﴿عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ وعلى
عبادته مقيماً، والله ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار بناءً على كون العجل ذا لحم وعظم، أو لنبرذنه بالمبرد بناءً على
كونه ذهباً ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ﴾ ولنذرته ﴿فِي الْيَمِّ﴾ والبحر رماداً ومبروداً^٣ ﴿نَسْفًا﴾ وذراً [بحيث] لا
يبقى منه عين ولا أثر، حتى يعلم أن ما يحرق ويُعْذَم آثاره لا يكون قابلاً للعبادَة.

٢. مجمع البيان ٧: ٤٧، تفسير الصافي ٣: ٣١٨.

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٢٢.

٣. في النسخة: مبرداً، وما أثبتناه من روح البيان ٥: ٤٢٢.

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا * كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا [٩٨-١٠١]

ثم عرّفهم إلههم بقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾ المستحق للعبادة والتعظيم ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدليل أنه ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وأحاط بكل شيء خبراً، يعلم عابده وعبادته، ومطيعه ومقدار استحقاقه من الثواب، وعاصيه ومقدار استحقاقه من العقاب.

ثم لما بين سبحانه قصة موسى عليه السلام و فرعون و هارون و السامري، بين عظمة شأن النبي و كتابه و أن جميعه بوحى الله بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ الحديث الذي قصصناه، أو كذلك القصص البديع ﴿نَقُصُّ﴾ و نتلو ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد بالوحي و بتوسط جبرئيل بعضاً ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ و الحوادث الواقعة على الأمم السالفة ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ و أنزلنا إليك ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ كتاباً عظيم الشأن يكون ﴿ذِكْرًا﴾ للعالمين و رشاداً إلى مهام الدنيا و الدين، و تذكرة لنعيم الله، و موعظة للمتقين، أو يكون سبباً لبقاء ذكرك إلى يوم الدين.

ثم هدّد سبحانه المعرضين عنه بقوله: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ و لم يؤمن به، و لم يهتد بهداه، و لم يتعظ بمواعظه، و لم يعمل بأحكامه ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ و عقاباً ثقيلاً حال كون المعرضين ﴿خَالِدِينَ﴾ في العقاب و مآكين ﴿فِيهِ﴾ أبداً ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ و وزرهم، و قيل: يعني ما أشوه هذا الوزر محمولاً^١ قيل: إعادة ذكر يوم القيامة لزيادة التقرير و التهويل^٢.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا [١٠٢-١٠٤]

ثم ذكر سبحانه بعض أحوال القيامة بقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ قيل: إن التقدير أذكر يا محمد لتقومك يوم ينفخ إسرافيل في الصور^٣ ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ و العصاة المتوغلين في العصيان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من قبورهم ﴿زُرْقًا﴾ و غمياً.

وقيل: إن الزرقة أسوء ألوان العين و أبغضها عند العرب^٤. و روي أن الزرقة و سواد الوجه سيماء

٢. تفسير أبي السعود ٦: ٤١، تفسير روح البيان ٥: ٤٢٤.

٤. تفسير الصافي ٣: ٣١٩، تفسير روح البيان ٥: ٤٢٥.

١. تفسير الرازي ٢٢: ١١٤.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٤٢٥.

أهل النار^١.

وقيل: إنهم يَخْرُجُونَ من قبورهم بَصَرَاءَ زُرْقًا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَيَعْمُونَ في المحشر^٢.

وقيل: إنه يَتَغَيَّرُ سَوَادُ أَعْيُنِهِمْ من شِدَّةِ العطش حتى تَزُرُقُ^٣.

وقيل: إن الزُّرْقَ يعني الطامعين في ما لا يَنَالُونَهُ^٤.

والقمي، قال: تكون أعيُنُهُمْ مُزْرَقَةً لا يَقْدِرُونَ أَنْ يَطْرِفُوهَا^٥.

﴿يَتَخَفَتُونَ﴾ وَيَسَارُونَ بالقول فيما ﴿يَبْتَئُهُمْ﴾ من شِدَّةِ الرُّعْبِ والهَوْلِ، أو من غاية الضُّعْفِ

بحيث لا يُمْكِنُهُمُ الإِجْهَارُ في الصَّوْتِ، ويقول بعضهم لبعض في إِسْرَارِهِ: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ وما مَكَّنْتُمْ في الدنيا، أو في القبر ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ من الأَيَّامِ، أو السَّاعَاتِ اسْتِقْصَاراً لِمَدَّةِ لَبْثِهِمْ فيها، وَتَحْشُرًا على إِضَاعَتِهَا، مع إِمْكَانِ تحصيل الرَّاحَةِ الأبَدِيَّةِ فيها.

وقيل: يُرِيدُونَ ما بين التَّفَخُّتَيْنِ، وهو أربعون سَنَةً يُرْفَعُ الْعَذَابُ عَنِ الْكُفَّارِ في تلك المَدَّةِ، وَيَسْتَقْصِرُونَ تلك المَدَّةَ إِذَا عَانَوْا أَهْوَالَ الْقِيَامَةِ، كما عن ابن عباس^٦.

وقيل: إنهم لَمَّا عَلِمُوا بِعَمْرِ الْآخِرَةِ، اسْتَقْصَرُوا عَمْرَهُمْ في الدنيا بالنسبة إليه^٧.

وقيل: إنهم لَمَّا رَأَوْا انْقِضَاءَ عَمْرِ الدُّنْيَا وإِتْيَانَ عَمْرِ الْآخِرَةِ، اسْتَقْصَرُوا عَمْرَ الدُّنْيَا، لِأَنَّ الذَّاهِبَ قَلِيلٌ بالنسبة إلى الْآتِي وإن قَصُرَتْ مَدَّتُهُ^٨.

ثُمَّ حَكِيَ سَبْحَانَهُ مِبَالِغَتُهُمْ في الاستقصار بقوله: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيما يَبْتَئُهُمْ ﴿إِذْ يَقُولُ أَثْمَلُكُمْ﴾ وَأَفْضَلُهُمْ ﴿طَرِيقَةً﴾ وَأَكْمَلُهُمْ عَقْلاً. القمي: أَعْلَمَهُمْ وَأَصْلَحَهُمْ^٩: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ وما مَكَّنْتُمْ في الدنيا ﴿إِلَّا يَوْمًا﴾.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا

تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا [١٠٥-١٠٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بعد توصيف القيامة وذكر بعض أحوالها، حَكَى سَوَالَ سَؤَالِ بعض منكري الحشر بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ﴾ حال ﴿الْجِبَالِ﴾ في الحشر، قيل: نزلت في مشركي مَكَّةَ حين قالوا استهزاءً: يَا

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٢٥.

٢. تفسير الرازي ٢٢: ١١٥.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٤٢٥.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ١١٥.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ١١٤.

٦. تفسير القمي ٢: ٦٤، تفسير الصافي ٣: ٣١٩.

٧. تفسير الرازي ٢٢: ١١٥.

٨. تفسير القمي ٢: ٦٤، تفسير الصافي ٣: ٣٢٠.

محمّد، كيف تكون الجبال يوم القيامة؟^١ فأمر الله نبيه ﷺ أَنْ يُجِيبَهُمْ بقوله: ﴿فَقُلْ﴾ في جوابهم ﴿يَنْسِفُهَا﴾ وَيَذَرُهَا رَبِّي﴾ في ذلك اليوم ﴿نَسْفًا﴾ وَذَرًا عَجِيبًا بِأَنْ يجعلها هَبَاءً مَثُورًا. وقيل: يعني يذهبها ويطيرها^٢ وَيَقْلَعُهَا.

عن النبي ﷺ أَنَّهُ سَثَلَ كيف تكون الجبال مع عَظَمِهَا يوم القيامة؟ فقال: «إِنَّ الله يسوقها بِأَنْ يجعلها كالرَّمَالِ، ثُمَّ يُرْسِلُ عليها الرياح فتُفَرِّقُهَا»^٣.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ ويترك مراكزها ومحالها حال كونها ﴿قَاعًا﴾ ومكاناً خالياً و﴿صَفْصَفًا﴾ ومُنْتَوِيًا بحيث ﴿لَا تَرَى﴾ يا محمّد، مع قوة بصرك وبصيرتك، أو أَيُّهَا الرائي ﴿فِيهَا عِوَجًا﴾ وانخفاضاً ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ وارتفاعاً يسيراً، وهذا تأكيد غاية استواء الأرض، ودفع توهم اجتماع قُتَاتِهَا في موضع آخر. وقيل: إِنَّ الأمتَ الانخفاض والارتفاع^٤.

القمي: القاع: الذي لا تُراب فيه، والصَّفْصَف: الذي لا نبات له^٥، والعِوَج: الحُزُون، والأمت: الإرتفاع^٦.

وقيل: الأحوال الثلاثة مرتبة، فالأولان باعتبار الإحساس، والثالث باعتبار المقياس، ولذلك ذُكِرَ العِوَج بالكسر، ويخص المعاني^٧، فَإِنَّ الاعوجاجَ الذي لا يَذَرُك بالبصر ويَدْرُك بالمقياس مُلْحَق بالمعاني.

يُؤْمِنُ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا * يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا [١٠٨ و ١٠٩]

ثم أَنَّهُ تعالى بعد بيان استواء الأرض بحيث لا يغيب أحدٌ عن أحدٍ، بَيَّنَّ كَيْفِيَّةَ الحشر بقوله: ﴿يُؤْمِنُ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ الَّذِي يَدْعُوهم إِلَى المحشر، وهو إسرائيل بالنفخة الثانية، أو مَلَك قائمٌ على صخرة بيت المقدس ينادي ويقول: أَيُّهَا الْعِظَامُ النَّخْرَةُ والأوصالُ المتفرقة واللحوم الممزقة، قُومِي إِلَى رَبِّكَ للحساب والجزاء، فيسمعون صوت الداعي، فَيَقْبِلُونَ من كُلِّ جانبٍ إِلَى جهته ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ ولا عُدُولٌ عنه، لعدم ما يوجب التعوُّج في الأرض، ولا ما يمنع النفوذ للصوت على السواء، فَيَتَّبِعُونَ الصوتَ من غير انحرافٍ ﴿وَخَشَعَتِ﴾ وَخَفِظَتْ ﴿الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ من شِدَّةِ الْفَرْعِ مع سَعَةِ

٣. مجمع البيان ٧: ٤٨، تفسير الصافي ٣: ٣٢٠.

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٢: ١١٧.

٥. تفسير القمي ٢: ٦٧، تفسير الصافي ٣: ٣٢٠.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٤٢٨.

٧. تفسير الصافي ٣: ٣٢٠، وفي النسخة: بالمعاني.

٦. تفسير القمي ٢: ٦٤، تفسير الصافي ٣: ٣٢٠.

رحمته، وَخَفَّتْ لَهَيْبَتِهِ ﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ أصواتهم ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ وَخَفِيًّا.

قيل: لا يسمع إلا صوت أقدامهم^١.

وعن بعض العامة: يُنْفَخُ في الصور النفخة الأولى، فتطير الجبال، وتتفجر الأنهار بعضها في بعض، فيمتلئ الهواء ماءً، وتثَّث الكواكب، وتتغير الأرض والسماء، ويموت العالمون، فتخلو الأرض والسماء، ثم يكشف سبحانه عن بيتٍ في سَفَرٍ، فيخرج لَهَبٌ من النار فيشتعل في البحور فتتسَّف، ويدع الأرض حمأة^٢ سوداء، والسموات كأنها عَكَر^٣ الزيت والنحاس المذاب.

ثم يفتح الله تعالى خزانة من خزائن العرش فيها بحر الحياة، فيمطر به الأرض، وهو كمنّي الرجال، فتنبت الأجسام على هَيْبَتِهَا، الصبي صبي والشيخ شيخ وما بينهما، ثم تهب من تحت العرش ريحٌ لطيفة، فتبرز الأرض ليس فيها جبل ولا وِجْ ولا أُنْت، ثم يحيي الله إسرائيل، فينفخ من صخرة بيت المقدس، فتخرج الأرواح من ثقب في الصور بعددها، ويحل كل روح في جسده حتى الوحش والطير، فإذا هم بالساهرة، أي بوجه الأرض بعد أن كانوا في بطنها^٤.

وعن الباقر عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيدٍ واحدٍ حفاة عراة، فيوقفون في المحشر حتى يعرفوا عرقاً شديداً وتشتد أنفاسهم، فيمكثون في ذلك مقدار خمسين عاماً، وهو قول الله تعالى: ﴿وَحُشِّتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ ثم ينادي من تلقاء العرش: أين النبي الأمي؟ فيقول الناس: سَم باسمه، فينادي أين نبي الرحمة؟ أين محمد بن عبد الله الأمي؟ فيتقدم رسول الله ﷺ أمام الناس كلهم حتى ينتهي إلى حوض طوله ما بين أيله وصنعاء، فيقف عليه فينادي بصاحبكم، فيتقدم علي عليه السلام أمام الناس فيقف معه، ثم يؤذن للناس فيمرون قبَّين وارِد على الحوض وبين مصروف عنه.

فإذا رأى رسول الله ﷺ من محبينا بكى فيقول: يا رب شيعة علي أراهم صُرفوا تلقاء أصحاب النار، ومُيعوا عن ورود الحوضا فينبعث الله إليه ملكاً فيقول له: ما يُبكيك يا محمد؟ فيقول: لأناس من شيعة علي، فيقول الملك: إن الله يقول: يا محمد، إن شيعة علي قد وهبُتهم لك، وصَفَحَتْ عن ذنوبهم لِحَبْمِ لِكَ وَلِعِزَّتِكَ، والحقُّهم بك، وجعلتُم في زُمرتك فأوردتهم حوضك». ثم قال أبو جعفر عليه السلام: «فكَم من بالٍ يومئذٍ وباكيةٍ ينادون: يا محمد [أه] إذا رأوا ذلك» الخبر^٥.

١. تفسير الرازي ٢٢: ١١٨، تفسير روح البيان ٥: ٤٢٨.

٢. العَكَر: الراسب من كل شيء.

٣. الحَمَا: الطين الأسود الممتن.

٤. تفسير القمي ٢: ٦٤، تفسير الصافي ٣: ٣٢٠.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٤٢٨.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ من الشفعاء واحداً ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ﴾ في أن يُشَفَّعَ ﴿لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ وأجاز ﴿وَرَضِيَ لَهُ﴾ ولأجله ﴿قَوْلًا﴾ من الشفيع في حقّه، أو المراد إلا شفاعة من أذن [له] الله في الشفاعة، ورضي للشافع قولاً لمكانته عند الله، فإن الشفاعة منصبة عظيم لا يحصل إلا لمن كان مأذوناً فيها ومرضياً عند الله.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا * وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا [١١٠-١١٢]

ثم أنه تعالى بعد بيان اشتراط قبول شفاعة الشافع بكونه مأذوناً فيها، أو كون المشفوع له مرضياً عند الله، بين إحاطة علمه تعالى بأحوال العباد بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وما تقدمهم من الأحوال، أو من أمور الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وما بعدهم مما يستقبلونه، أو ما وراءهم من أمور الدنيا. وقيل: ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وما خلفهم من أمر الآخرة والثواب والعقاب^١.

وقيل: يعني يعلم ما مضى من أمور الدنيا، وما بقي منها، وحتى تكون القيامة^٢. ﴿وَهُمْ لَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ تعالى، أو بما بين أيديهم وبما خلفهم ﴿عِلْمًا﴾.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يحيط الخلائق بالله عز وجل عِلْمًا، إذ هو تبارك وتعالى جعل على أبصار القلوب غطاءً، فلا فهم يناله بالكيف، ولا قلب يشبهه بالحدّ، فلا تصفه إلا كما وصف نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^٣ الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، والخالق، البارئ، المصور، خلق الأشياء وليس من الأشياء شيء مثله^٤.

﴿وَهُمْ يَوْمَئِذٍ عَنْتٌ﴾ وذلك ﴿الْوُجُوهُ﴾ وصار الناس كالأسارى^٥ ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ والموجود المؤثر الدائم، فلا يمكنهم الامتناع مما ينزل بهم من المجازاة، ولا يقدرون على معارضة خالقهم كما كانوا يتخيلون لأنفسهم الاستقلال في الأمور في الدنيا ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وحرّم من الثواب ونيل النعمة والراحة ﴿مَنْ حَمَلَ﴾ وارتكب ﴿ظُلْمًا﴾ وعصيانياً.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «أُطْلِبُوا اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ فِي هَذِهِ السُّورِ الثَّلَاثِ: البقرة، وآل عمران، وطه»^٦.

قال الرازي: فوجدنا المشترك في تلك السور «الله لا إله إلا هو الحي القيوم»^٧.

١. تفسير الرازي ٢٢: ١١٩.

٣. الشورى: ١١/٤٢. ٤. التوحيد: ٥/٢٦٣، تفسير الصافي ٣: ٣٢١.

٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٠، تفسير روح البيان ٥: ٤٣١.

٥. في النسخة: كالأسير.

٧. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٠.

ثُمَّ خَتَمَ اللَّهُ تَعَالَى بَيَانَ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ بَيَاناً حَسَنَ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ فِي الدُّنْيَا شَيْئاً ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ وَالْأَعْمَالِ الْحَسَنَاتِ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿ظُلْماً﴾ وَعِقَاباً بِلا جُزْمٍ، أَوْ مَنَعَ ثَوَابٍ مِنَ الْقِيَامِ بِالطَّاعَةِ ﴿وَلَا هَضْماً﴾ وَنَقَصَ ثَوَابٍ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ.

وقيل: يعني لا يخاف نقص الثواب، ولا عَدَمَ توفية الإِعْظَامِ وَالْإِكْرَامِ، أَوْ الزِّيَادَةَ عَلَى سَيِّئَاتِهِ، وَالتَّنْقِصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ^١.

عَنِ الْبَاقِرِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «هَضْماً» يَعْنِي لَا يَنْقُصُ مِنْ عَمَلِهِ شَيْءٌ، وَأَمَّا «ظُلْماً» يَقُولُ لَنْ يَذْهَبَ بِهِ^٢.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ أَلْوَعِيدٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً [١١٣ و ١١٤]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ، كَأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ، وَحَالِ الْمَجْرِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ فِيهَا، بَيَّنَّ لَطْفَهُ عَلَى النَّاسِ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الْإِنْزَالُ لِمَا سَبَقَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلزُّعْدِ وَالْوَعِيدِ فِي هَذَا الْكِتَابِ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ بِتَمَامِهِ حَالُ كَوْنِهِ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ لِتَفْهَمَهُ الْعَرَبُ، فَيَتَّقُوا عَلَى إِعْجَازِهِ وَحُسْنِ نَظْمِهِ وَأَسْلُوبِهِ وَخُرُوجِهِ مِنْ بَسْجِ كَلَامِ الْبَشَرِ ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ وَكَرَّرْنَا أَوْ فَصَّلْنَا ﴿فِيهِ﴾ مَقْدَاراً كَثِيراً ﴿مِنْ أَلْوَعِيدٍ﴾ وَالتَّهْدِيدِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ بِالْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ كَالطُّوفَانِ وَالْعَرَقِ وَالْخَسْفِ وَالرَّجْفَةِ وَأَمْثَالِهَا، وَالْعَذَابِ الْآخِرِيِّ كَأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ وَأَنْوَاعِ عَذَابِ النَّارِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وَيَحْتَرِزُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ وَيُوجِدُ ﴿لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وَأَنْتَبِهَا تَتِمُّ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى: لِيَتَّقُوا، فَإِنْ لَمْ تَحْصُلْ لَهُمُ التَّقْوَى، فَلَا أَقْلَ مِنْ أَنْ يُحْدِثَ الْقُرْآنُ لَهُمْ ذِكْرًا وَشَرْفًا وَصِيئاً حَسَنًا^٣.

ثُمَّ أَعْظَمَ ذَاتَهُ الْمُقْتَضِي لِتَعْظِيمِ مَا نَزَلَ مِنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ وَارْتَفَعَ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَنْ مِمَّا لَّهُ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ ﴿الْمَلِكُ﴾ وَالسُّلْطَانُ الْوَاقِعُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، الْحَقِيقُ بِأَنْ يُرْجَى بَوَعْدِهِ، وَيَخْشَى مِنْ وَعِيدِهِ، وَ﴿الْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ فِي مَلَكُوتِهِ وَأَلُوْهِتِهِ بِحَيْثُ يَمْتَنِعُ زَوَالُ مُلْكِهِ، وَتَغْيِيرُ سُلْطَانِهِ، وَاسْتَعَانَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَحَاجَتِهِ إِلَى إِيْمَانِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ، وَإِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ لِيُنْفَعِيَهُمْ، وَتَكْثِيلِ نَفْسِهِمْ، وَتَهْدِيدِ

نفوسهم، وحُصول استعدادهم لِتَلِّل فيوضاته ورحمته، فمن كان بهذه المرتبة من القدرة والرحمة والإحسان، [فهو] قادرٌ على حفظك من السُّهو في وحيه والنسيان في كلامه ﴿و﴾ إذا ﴿لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ ولا تُسرِعْ إلى قراءته وحفظه خوفاً من النسيان والانفلات ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ﴾ ويؤدَّى ﴿إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ ويتمَّ جَبْرِئِل قراءته عليك ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ بالقرآن، وهما لحقائقه وتنوراً بأنواره.

عن ابن عباس قال: كان ﷺ يحرص على أخذ القرآن من جَبْرِئِل، فيعجل بقراءته قبل إتمام جَبْرِئِل مخافة النسيان، فقال تعالى: لا تَعْجَلْ به إلى أن تستتم^٢ وحيه، فيكون أخذك إياه عن ثبَّت وشكون، والله تعالى يزيدك فهماً وعِلماً^٣.

وعن مجاهد: أي لا تَعْجَل بالقرآن فتقرأه على أصحابك قَبْل أن يُوحى إليك بيان معانيه^٤. وعن الضحاك: أن أهل مكة وأُسقف نجران قالوا: يا محمد، أخبرنا عن كذا وكذا، وقد ضَرَبنا لك أجلاً ثلاثة أيام فأبطأ الوحي عليه، وفشَّت المقالة بأن اليهود [قد] غلبوا محمداً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ أي بنزوله من قبل أن يُقضى إليك وحيه من اللوح المحفوظ إلى إسرائيل، ومنه إلى جَبْرِئِل، ومنه إليك ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^٥.

عن النبي ﷺ قال: «إذا أتى عليَّ يومٌ لا أزدادُ فيه عِلماً يُقرِّبني إلى الله، فلا بارك الله لي في طلوع شمس»^٦.

قيل: إن موسى ﷺ سأل الله تعالى زيادة العلم فأحالَه الله إلى الخضر، وسأل نبيُّنا ﷺ زيادة العلم ولم يُجَلِّه إلى غيره، بل علَّمه في مكتب ﴿أَدْبِنِي رَبِّي﴾ وقال: ﴿عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾^٧.

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً [١١٥]

ثم لما أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بطلب ازدياد العلم المستلزم لحفظه من السهو والنسيان، ذَكَر سبحانه نسيان آدم وزلَّته، أو لما ذكر اهتمام النبي ﷺ بالحفظ في أمر الدين وحفظ القرآن، ذَكَر قلَّة اهتمام آدم بالمحافظة لعهد بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ ووَصَّيْناه بوصيَّة لازمة الرعاية، وهي التَّهَيُّ عن الأكلِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ وفي الأزمِنة السابقة. وعن ابن عباس: من قبل أن يأكل من الشجرة^٨.

٢. في تفسير الرازي: يستتم.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٢.

٦. مجمع البيان ٧: ٥٢، تفسير الصافي ٣: ٣٢٢.

٨. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٤.

١. في تفسير الرازي: استتمام.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٢.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٢.

٧. تفسير روح البيان ٥: ٤٣٢.

﴿فَنَسِيَ﴾ وَتَرَكَ الاهتمام بالعمل بالمعهد ﴿وَلَمْ تَجِدْ﴾ وَلَمْ تَعْلَمْ ﴿لَهُ عَزْمًا﴾ وَثَبَاتًا عَلَى المعهد، وَتَصَلُّيًا فِي امْتِثَالِ النَّهْي، فَأَزَلَّهُ الشَّيْطَانُ وَغَرَّهُ.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَوْ وَزِنْتَ أَحْلَامَ بَنِي آدَمَ بِحِلْمِ آدَمَ لَرَجَحَ حِلْمُهُ» وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ تَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ وَالْمَعْنَى أَنَّ آدَمَ مَعَ ذَلِكَ الْحِلْمِ أَثَّرَتْ فِيهِ وَسُوسَةُ الشَّيْطَانِ، فَكَيْفَ فِي غَيْرِهِ؟^١

عَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَهْدَ إِلَى آدَمَ أَنْ لَا يَقْرَبَ هَذِهِ الشَّجَرَةَ، فَلَمَّا بَلَغَ الْوَقْتَ الَّذِي كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا نَسِيَ فَأَكَلَ مِنْهَا»^٢.

وَعَنْهُ ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِآدَمَ وَزَوْجَتِهِ لَا تَقْرَبَاهَا، يَعْنِي لَا تَأْكُلَا مِنْهَا فَقَالَا: نَعَمْ، وَلَا يَسْتَنِييَا فِي قَوْلِهِمَا فَوَكَّلَهُمَا إِلَى أَنْفُسِهِمَا وَإِلَى ذِكْرِهِمَا»^٣.

وَعَنِ الصَّادِقِ ﷺ: «سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا لِأَنَّهُ يَنْسَى، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾»^٤.

وَعَنْ أَحَدِهِمَا ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ: كَيْفَ أَخَذَ اللَّهُ آدَمَ بِالنِّسْيَانِ؟ فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَنْسَ، وَكَيْفَ يَنْسَى وَهُوَ يَذْكُرُهُ وَيَقُولُ لَهُ إِبْلِيسُ: ﴿مَا تَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ إِلَى آخِرِهِ»^٥.

أَقُولُ: لَا يُمْكِنُ كَوْنُ الْمَرَادِ بِالنِّسْيَانِ مَا يَقَابِلُ الذِّكْرَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ النِّسْيَانُ عَلَى النَّبِيِّ فِي وَقْتٍ مَعَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، وَأَنَّ الرِّوَايَاتِ الْكَثِيرَةَ دَالَّةٌ عَلَى تَذْكُرِهِ النَّهْيِ، فَالْأَوَّلَى بِلِ الْمَتَعَتَيْنِ حَمْلَ النِّسْيَانِ عَلَى التَّرْكِ.

عَنِ الْبَاقِرِ ﷺ قَالَ: «عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِ فِي مُحَمَّدٍ وَالْأَنْمَةِ مِنْ بَعْدِهِ فَتَرَكَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَزْمٌ فِيهِمْ أَنَّهُمْ هَكَذَا، وَإِنَّمَا سَمَّوْا أَوْلَى الْعَزْمِ لِأَنَّهُ عَهْدَ إِلَيْهِمْ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْأَوْصِيَاءِ مِنْ بَعْدِهِ وَالْمَهْدِيِّ وَسِيرَتِهِ، فَاجْمَعْ عَزْمَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَأَقْرَبُوا بِهِ»^٦.

وَعَنْهُ ﷺ - فِي حَدِيثٍ - قَالَ: «وَأَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أَوْلَى الْعَزْمِ: أَنَّنِي رَبُّكُمْ، وَمُحَمَّدٌ رَسُولِي، وَعَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْصِيَاءُهُ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا أَمْرِي وَخَزَانِ عِلْمِي، وَأَنْ الْمَهْدِيَّ أَتُصِرُّ بِهِ لِيَدِينِي، وَأُظْهِرُّ بِهِ دَوْلَتِي، وَأَنْتُمْ بِهِ مِنْ أَعْدَائِي، وَأُعْبَدُ بِهِ طَوْعًا وَكَرْهًا. قَالُوا: أَقْرَبْنَا وَشَهِدْنَا، وَلَمْ يَجْعَدْ آدَمَ وَلَمْ يَقْرَ، فَتَبَتِ الْعَزِيمَةُ لِهَؤُلَاءِ الْخَمْسَةِ فِي الْمَهْدِيِّ، وَلَمْ يَكُنْ لِآدَمَ عَزْمٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٣٤.

٢. الكافي ٨: ٩٢/١١٣، كمال الدين: ٢/٢١٣، تفسير الصافي ٣: ٣٢٣.

٣. الكافي ٧: ٤٤٨/٢، تفسير الصافي ٣: ٣٢٣. ٤. علل الشرائع: ١/١٥، تفسير الصافي ٣: ٣٢٣.

٥. تفسير العياشي ٢: ١٥٥١/١٣٨، تفسير الصافي ٣: ٣٢٣.

٦. بصائر الدرجات: ١/٩٠، علل الشرائع: ١/١٢٢، تفسير الصافي ٣: ٣٢٣.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَ لَهُ زَوْجًا أَنْ يَقُولَ لِلْمَلَائِكَةِ سَجْدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ * فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنْهُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ [١١٦-١٢٧]

ثم بين سبحانه قضية ترك عمل آدم بالعهد بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾.

قيل: إن المراد اذكر يا محمد حال آدم في ذلك الوقت ليتبين لك أنه نسي ولم يكن من أولى العزم.^٢ ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا الشَّيْطَانُ عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ حواء ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا بِشَاوِلِهِ﴾ ﴿وَمِنْ الْجَنَّةِ﴾ التي تسكنان فيها ﴿فَتَشْقَى﴾ وتحرّم عن نعمها والسكونة فيها، وتبتليان بالمتاعب في الأرض، وإِنَّمَا أَشَدُّ الشَّقَاءِ إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أنه وزوجته شريكان فيه، لاستلزام ابتلائه ابتلاءها من حيث كونه قيماً عليها، وكونها تابعة له.

ثم بين سبحانه السعادة التي يكون له فيها بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ﴾ ما دمت ﴿فِيهَا﴾ لحضور أنواع المأكولات عندك ﴿وَلَا تَعْرَى﴾ من الثياب لكون الملابس موجودة لديك ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ﴾ ولا تغطّس ﴿فِيهَا﴾ لكون الأنهار جارية في أطرافك ﴿وَلَا تَصْحَى﴾ ولا تصيبك حرارة

الشَّمْسُ: لَأَنَّ الظِّلَّ فِيهَا مَمْدُودٌ «فَوْشَوْسَ» مَعَ ذَلِكَ «إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ» حَيْثُ «قَالَ» بِصُورَةِ النُّضْحِ: «يَا آدَمُ هَلْ أَذُنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ» حَتَّى تَأْكُلَ مِنْهَا فَتُدْرِمَ حَيَاتَكَ وَرَاحَتَكَ «وَوَ» عَلَى «مُلْكٍ» وَسُلْطَانَةٍ «لَا يَبْتَلَى» وَلَا يَزُولُ، فَيَدُومُ انْتِظَامُ مَعِيشَتِكَ، فَكَأَنَّهُ قَالَ آدَمُ: نَعَمْ، فَدَلَّهُ عَلَى الشَّجَرَةِ الْمَنْهِيَةِ، فَقَرَّبَ هُوَ وَزَوْجَتَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ «فَأَكَلَا مِنْهَا» طَعْمًا فِي مَا وَعَدَهُمَا الشَّيْطَانُ، فَهَبَّتْ رِيحٌ فَالْتَفَتَ التَّاجُ مِنْ رَأْسِهِمَا، وَاخْتَطَفَتِ الْخُلَلُ مِنْ جَسَدِهِمَا «فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوَاتِنُهُمَا» وَظَهَرَتْ فِي نَظَرِهِمَا عَوْرَاتُهُمَا لِعِصْيَانِهِمَا نَهْيَ رَبِّهِمَا «وَوَطَّقَا» وَشَرَعَا «يُخَصِّفَانِ» وَيُزْلِقَانِ «عَلَيْهِمَا» لِيَلْسَنَ «مِنْ وَرَقٍ» بَيْنَ «الْجَنَّةِ».

قيل: كَانَ وَرَقُ التِّينِ مَدُورًا، فَصَارَ بِهَذَا الشَّكْلَ مِنْ أَصَابِعِهِمَا.

«وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ» وَخَالَفَ عَهْدَهُ «فَقَوَّى» وَضَلَّ عَنْ مَطْلُوبِهِ، وَهُوَ الْخُلُودُ أَوْ التَّبَاعُدُ مِنَ الشَّجَرَةِ الْمَنْهِيَةِ «ثُمَّ اجْتَنَبَهُ» وَاضْطَفَأَ «رَبَّهُ» بِالتَّوْفِيقِ لِلتَّوْبَةِ «فَتَابَ عَلَيْهِ» وَقَبِلَ تَوْبَتَهُ وَتَوْبَةَ زَوْجَتِهِ حِينَ تَابَا إِلَيْهِ «وَهَذَا» هُمَا إِلَى الثَّبَاتِ عَلَى التَّوْبَةِ وَالتَّمَسُّكِ بِالْعِصْمَةِ، ثُمَّ عَاتَبَ سَبْحَانَهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّيْطَانُ «وَقَالَ» لَهُمَا: اخْرُجَا مِنَ الْجَنَّةِ وَاهْبِطَا وَانْزِلَا إِلَى الْأَرْضِ «مِنْهَا جَمِيعًا يَنْفَضُّكُمْ لِبَغْضِ عَدُوٍّ». ثُمَّ خَاطَبَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ بِقَوْلِهِ: «فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى» مِنْ رَسُولٍ وَكِتَابٍ «فَمَنْ أَتَّبَعَ هَذَا» وَأَطَاعَ رَسُولِي وَعَمِلَ بِبَيِّنِي وَكِتَابِي «فَلَا يَضِلُّ» عَنِ الصِّرَاطِ وَدِينِ الْحَقِّ أَبَدًا «وَلَا يَشْقَى» فِي الْآخِرَةِ بِالْإِبْتِلَاءِ بِالْعُقُوبَةِ.

وقيل: إِنَّ الْخِطَابَ فِي قَوْلِهِ: «اهْبِطَا» لآدَمَ وَحَوَّاءَ وَقَوْلِهِ: «بَغْضُكُمْ لِبَغْضِ عَدُوٍّ» وَمَا بَعْدَهُ لِذُرِّيَّتِهِمَا.^٢

«وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي» وَالرُّسُولِ الْمَبْعُوثِ مِنْ قِبَلِي، وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ مِنِّي «فَإِنَّ لَهُ» فِي الدُّنْيَا، أَوْ فِي الْقَبْرِ، أَوْ فِيهَا وَفِي الْآخِرَةِ «مَعِيشَةً ضَنْكًا» وَضِيقًا وَذَاتَ شِدَّةٍ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ - وَلَوْ كَانَ ذَا تَرَوْهٍ وَمَالٍ - مَشْغُولُ الْقَلْبِ بِحَمْنِهِ وَحِفْظِهِ، وَمَتَالِمٌ دَائِمًا مِمَّا يَرِدُ عَلَيْهِ، وَحَرِيسٌ عَلَى إِزْدِيَادِهِ وَخَائِفٌ مِنْ نَقْصِهِ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ، طَعَامُهُمْ فِيهَا زَقُومٌ وَضَرِيعٌ، وَشَرَابُهُمْ حَمِيمٌ وَصَدِيدٌ.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ عَذَابُ الْقَبْرِ وَضَعْفَتُهُ»^٣. وَقِيلَ: هُوَ الْكَسْبُ الْحَرَامُ^٤. وَقِيلَ: إِنَّهُ ضَيْقُ أَبْوَابِ الْخَيْرَاتِ عَلَيْهِ^٥.

٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٢٩.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٣١.

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٣٧.

٣ و ٤. مجمع البيان ٥٥: ٥٥.

﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ وَتَبَّعَتْهُ مِنْ قَبْرِهِ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَهُوَ ﴿أَعْمَى﴾ وَفَاقَدَ الْبَصَرَ لَقَدْ بَصِيرَتُهُ فِي الدُّنْيَا. وَقِيلَ: يَعْنِي أَعْمَى عَنْ طَرِيقِ الْخَيْرِ، فَبَقِيَ مُتَحِيرًا^١.

﴿قَالَ﴾ ذَلِكَ الْمَعْرُضُ عَنِ الذِّكْرِ: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿بَصِيرًا قَالَ﴾ اللَّهُ فِي جَوَابِهِ: ﴿كَذَلِكَ﴾ الْجَزَاءُ كُنْتَ تَسْتَحِقُّهُ لِأَنَّكَ ﴿أَتَيْتُكَ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿آيَاتِنَا﴾ وَالِدَلَالِ الدَّالَّةُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْمَعَادِ وَرِسَالَةِ الرُّسُلِ ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ وَتَرَكْتَ النَّظَرَ وَالتَّفَكُّرَ فِيهَا وَالْإِيمَانَ بِهَا. وَقِيلَ: يَعْنِي مِثْلَ ذَلِكَ فَعَلْتَ أَنْتَ^٢ حَيْثُ إِنَّكَ أَتَيْتَنَا فَنَسِيتَهَا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ النَّسْيَانُ الَّذِي صَدَرَ مِنْكَ فِي الدُّنْيَا ﴿الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ وَتُتْرَكُ فِي الْعَمَى وَالْعَذَابِ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الْجَزَاءُ الْمُنَاسِبُ لِلْعِصْيَانِ ﴿نَجْزِي﴾ كُلَّ ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾ وَأَصْرَفَ فِي إِيْتَانِ الْقَبَاحِ وَالْآثَامِ، وَتَجَاوَزَ عَنِ الْحَدِّ فِي الْعِصْيَانِ، وَكَانَ مِنْ سَرَفِهِ أَنَّهُ لَمْ يَصْدَقْ ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ وَبِرَاهِمِينَ تَوْحِيدَ خَالِقِهِ وَمُتَعَمِّدِهِ ﴿وَاللَّهُ﴾ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ ﴿بَالَارِ وَمَا فِيهَا مِنْ الشَّدَائِدِ، لِغَايَةِ عَظَمَتِهِ﴾ «أَشَدُّ» مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، وَمَعِيشَةِ الضَّنْكِ ﴿وَأَبْقَى﴾ وَأَدْوَمَ مِنْهُ لِأَنَّهُ لَا انْقِطَاعَ لَهُ.

عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قَالَ: «هُوَ وَاللَّهُ النَّصَابُ» قِيلَ لَهُ: إِنَّا رَأَيْنَاهُمْ فِي ذَهْرِهِمُ الْأَطْوَلَ فِي الْكَفَايَةِ حَتَّى مَاتُوا؟ قَالَ: «ذَلِكَ فِي الرَّجْعَةِ، يَأْكُلُونَ الْعَذْرَةَ»^٣.

وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ قَالَ: «وَلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ» ﴿أَعْمَى﴾ قَالَ: «يَعْنِي أَعْمَى الْبَصَرَ فِي الْآخِرَةِ، وَأَعْمَى الْقَلْبَ فِي الدُّنْيَا عَنْ وَلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ مُتَحِيرٌ فِي الْقِيَامَةِ يَقُولُ: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى﴾ الْآيَةُ. قَالَ: «الْآيَاتُ الْأُتْمَةُ» فَتَنَسَّيْتُهَا تَرَكْتُهَا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الْيَوْمَ تُنْسَى، أَيُ تُتْرَكُ فِي النَّارِ كَمَا تَرَكْتَ الْأُتْمَةَ فَلَمْ تُطِعْ أَمْرَهُمْ وَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُمْ»^٤.

وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ لَمْ يَحْجْ قَطَّ وَلَهُ مَالٌ. فَقَالَ: «هُوَ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَعْمَى» قِيلَ: سُبْحَانَ اللَّهِ أَعْمَى؟ فَقَالَ: «أَعْمَاءُ اللَّهِ عَنْ طَرِيقِ الْخَيْرِ»^٥. وَعَنِ الْقَعْمِيِّ: «عَنْ طَرِيقِ الْمَجَنَّةِ»^٦.

وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي﴾ الْآيَةُ «يَعْنِي مَنْ أَشْرَكَ بِوَلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَيْرَهُ» ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ تَرَكَّ الْأُتْمَةَ مُعَانِدَةً، فَلَمْ يَتَّبِعْ آثَارَهُمْ وَلَمْ يَتَوَلَّهُمْ»^٧.

١. مجمع البيان ٥٦: ٧. ٢. تفسير أبي السعود ٤٨: ٦.

٣. تفسير القمي ٦٥: ٢، تفسير الصافي ٣: ٣٢٥، وفي النسخة: يَأْكُلُونَ الْغُدُقَ.

٤. الكافي ٩٢/٣٦١، تفسير الصافي ٣: ٣٢٥.

٥. ما لا يحضره الفقيه ١٣٣٢/٢٧٣، مجمع البيان ٥٦: ٧، تفسير الصافي ٣: ٣٢٥.

٦. تفسير القمي ٦٦: ٢، تفسير الصافي ٣: ٣٢٦. ٧. الكافي ٩٢/٣٦١، تفسير الصافي ٣: ٣٢٦.

أقول: هذه الروايات في تأويل الآيات لا تُفسرها.

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ أَقْزَوْنَ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ * وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ
مُّسَمًّى [١٢٨ و ١٢٩]

ثم وَبَّح سبحانه المُعْرِضِينَ عن الآيات بعدم اعتبارهم بما نزل على الأُمم الماضية من العذاب بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ قيل: إِنَّ المعنى أغفلوا فلم يتبين لهم^١ أَنَا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ وفي الأغصار السابقة على عَصْرِهِمْ ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ وَالْأُمَمِ المكذبة لرسولهم المُعْرِضَةِ عن آيات رَبِّهِمْ وهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ غافلين آمينين مما نزل بهم.

وقيل: يعني وفَرِش المُعْرِضُونَ عن الآيات يَمْشُونَ في مَسَاكِينِ أولئك الأُمَمِ المُهْلَكَةِ وقُرَاهُم، كَفَرَى ثُمُودَ، وقَوْمَ لُوطَ، وأَصْحَابِ الْجَنَّةِ، حين مسافرتهم إلى الشام، ويَشَاهِدُونَ الآثار الدالة على ما كانوا عليه من النعم، وما حَلَّ بهم من أنواع العذاب والهلاك^٢.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ العذاب النازل على الأُمَمِ السابقة بتكذيبهم الرسل وإعراضهم عن معجزاتهم، والله ﴿لَآيَاتٍ﴾ على توحيد الله وقَهَارَتِهِ ﴿لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ والعقول السليمة الناهية عن القبائح والأعمال السيئة. ثم بَيَّن سبحانه علة تأخير العذاب عن المُعْرِضِينَ عن الرسول ومعجزاته بقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ وَعِدَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير عذاب هذه الأُمَمِ إلى القيامة ببركة الرسول ﴿لَكَانَ﴾ العذاب في هذه الدنيا على كُفْرِهِمْ وعنادهم للحق ﴿لِزَامًا﴾ وإِجْبَاءً فوراً بحيث لم يتأخر عن جنائياتهم ساعة، كما صار لازماً للماضين من الأُمَمِ المكذبة ﴿وَلَوْلَا﴾ أَجَلٌ مُّسَمًّى لأعمارهم، أو لِنزول العذاب عليهم، وهو يوم بدر أو القيامة، لما تأخر عنهم أصلاً.

قيل: الفصل بين المعطوف وهو ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ والمعطوف عليه وهو ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ للدلالة على استقلال كل واحد منهما في مانعة نزول العذاب^٣.

القمي قال: اللزام الهلاك، قال: يَغْنِي كان ينزل بهم العذاب، ولكن قد أخرهم إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى^٤.

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا

١. تفسير أبي السعود ٦: ٤٩، تفسير روح البيان ٥: ٤٤٣.

٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٢، تفسير أبي السعود ٦: ٤٩، تفسير روح البيان ٥: ٤٤٣.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ٤٩، تفسير روح البيان ٥: ٤٤٣. ٤. تفسير القمي ٢: ٦٦، تفسير الصافي ٣: ٣٢٦.

وَمِنْ آتَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى [١٣٠]

ثم لما أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بتأخير عذاب قومه، أمره بالصبر على أذاهم بقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من أنك ساحر أو كاهن أو مجنون أو شاعر أو غيرها ﴿وَسَبِّحْ﴾ ونزه مقارناً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أوصل حامداً له تعالى على ما أنعم عليك من الرسالة ودين الحق والتوفيق للقيام بوظيفة العبودية وقوة الصبر ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

في فضيلة ذكر الله روي أن الذكر والتسبيح إلى طلوع الشمس أفضل من إعتاق ثمانين رَقَبَةً مِنْ وَلَدِ قَبْلِ طُلُوعِ الشَّمْسِ
إسماعيل^١ وقبل الغروب

وعن الصادق عليه السلام أنه سُئِلَ عن هذه الآية فقال: «فريضة على مُسلم أن يقول قبل طُلُوعِ الشمسِ عَشْرَ مَرَّاتٍ وقبل غروبها عَشْرَ مَرَّاتٍ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُخَيِّ وَيُجِيبُ وَيُجِيبُ وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^٢.
﴿و﴾ بعضاً ﴿مِنْ آتَاءِ اللَّيْلِ﴾ وساعاته ﴿فَسَبِّحْ﴾ الله وقَدَسِه ﴿و﴾ كذا ﴿أَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ فسبحه، وإِنَّمَا قَدَّمَ الْوَقْتَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَزِيدِ الْفَضْلِ.

وقيل: إن المراد بالتسبيح الصلاة التطوعية^٣.

وعن الباقر عليه السلام: «التَطَوُّعُ بِالنَّهَارِ»^٤.

﴿لَعَلَّكَ﴾ تنال عنده تعالى ما ﴿تَرْضَى﴾ به من المَقَامِ الْمَحْمُودِ، أو الشفاعة، أو النعم العظيمة.
عن ابن عباس: دَخَلَتْ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فِيهِ؛ فَقَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ: هو صلاة الفجر، وقبل غروبها: هو الظهر والعصر؛ لأنهما جميعاً قبل الغروب، ومن آتاء الليل فسبح: المغرب والعشاء الآخرة^٥.
وقيل: إن قوله: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ يكون تأكيداً للصَّلَاتَيْنِ^٦ الْوَاقِعَتَيْنِ فِي طَرَفَيِ النَّهَارِ، وهما صلاة الفجر والمغرب^٧.

وإنما أمره الله بعد الأمر بالصبر بالتسبيح والصلاة؛ لأن ذكر الله والتوجه إليه يُفِيدُ السُّكُونَ والراحة للقلوب، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^٨.

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ

٢. الخصال: ٥٨/٤٥٢، تفسير الصافي ٣: ٣٢٦.

٤. الكافي ٣: ١١/٤٤٤، تفسير الصافي ٣: ٣٢٧.

٦. في النسخة: للصلاة. ٧. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٣.

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٤٤.

٣. تفسير الصافي ٣: ٣٢٧.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٣.

٨. الرعد: ٢٨/١٣.

فِيهِ وَرَزَقَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى [١٣١]

ثُمَّ نَهَى سبحانه نبيه ﷺ عن التوجه إلى الزخارف التي يبد المشركون والرغبة إلى دنياهم بقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ولا تطلن نظرك استيحساناً وإعجاباً ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا﴾ ونفعنا ﴿بِهِ﴾ من الزخارف الدنيوية ﴿أَزْوَاجاً﴾ من الكفار وأصنافاً ﴿مِنْهُمْ﴾ كالوثنيين، واليهود، والنصارى وغيرهم، إنها تكون ﴿زُخْرَءَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وزينتها وبتجتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ ونختبرهم ﴿فِيهِ﴾ أو نعدبهم به ﴿وَرَزَقَ رَبُّكَ﴾ وعطاؤه من الكماف في الدنيا والثواب في الآخرة، أو الهدى والنبوة ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل مما عند الكفرة من الأموال الوفيرة ﴿وَأَبْقَى﴾ وأدوم لعدم انقطاعه أبداً.

رَوَى أَنَّهُ نَزَلَ ضَيْفٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ الرَّاوِي: فَبَعَثَنِي إِلَى يَهُودِي لِيَبْعَ أَوْ سَلَفٍ فَقَالَ: وَالله لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِرَهْنٍ، فَأَخْبِرْتُهُ بِقَوْلِهِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَهْبَ بِدِرْعِهِ إِلَيْهِ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ^١.

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ، وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^٢.

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ اسْتَوَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِساً ثُمَّ قَالَ: مَنْ لَمْ يَتَعَزَّ بِعِزِّ اللَّهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ، وَمَنْ اتَّبَعَ بِصِرْهِ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ طَالَ هَمُّهُ وَلَمْ يُشَفَّ غَيْظُهُ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ نِعْمَةٌ إِلَّا فِي مَطْعَمٍ أَوْ مُشْرَبٍ قَصُرَ أَجَلُهُ وَدَنَا عَذَابُهُ»^٣.

وَعَنْهُ عليه السلام: «إِنَّا أَنْ تَطْمَحَ بَصْرُكَ إِلَى مَنْ [هُوَ] فَوْقَكَ، وَكَفَى بِمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾^٤ وَقَالَ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الْآيَةُ»^٥.

وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ

لِلتَّقْوَى [١٣٢]

ثُمَّ بَعْدَ أَمْرِهِ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِالنَّبِيحِ والصلاة، أَمَرَهُ أَنْ يَأْمُرَ أَقَارِبَهُ بِهَا بقوله: ﴿وَأْمُرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿أَهْلَكَ﴾ وخاصة أقاربك ﴿بِالصَّلَاةِ﴾ كما أمرناك بها ﴿وَأَصْطَبِرْ﴾ وداوم أنت وهم ﴿عَلَيْهَا﴾ وَاجْتَهِدُوا فِيهَا، فَإِنَّا بِأَمْرِنَا هَذَا ﴿لَا نَسْأَلُكَ﴾ وَلَا نَطْلُبُ مِنْكَ ﴿رِزْقاً﴾ وَنَفْعاً لَنَا فَإِنَّا ﴿نُحْنُ نَرْزُقُكَ﴾. وَقِيلَ: يَعْنِي لَا تُكَلِّفَكَ أَنْ تَرْزُقَ نَفْسَكَ وَأَهْلَكَ، بَلْ نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَنَرْزُقُ أَهْلَكَ فِي الدُّنْيَا بِوَجْهِ النِّعَمِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِعَظَائِمِ الثَّوَابِ^٦، فَفَرَّغْ بِأَلْكَ لِلْعِبَادَةِ وَأَمْرُ الْآخِرَةِ ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ الْمَحْمُودَةُ مِنَ الْجَنَّةِ

٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٥.

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٥، تفسير روح البيان ٥: ٤٤٦.

٤. التوبة: ٥٥/٩.

٣. تفسير القمي ٢: ٦٦، تفسير الصافي ٣: ٣٢٧.

٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٧.

٥. الكافي ٨: ١٨٩/١٦٨، تفسير الصافي ٣: ٣٢٧.

وَالنَّعَمِ الدَّائِمَةِ ﴿لِلتَّقْوَى﴾ وَأَهْلُهَا لِأَهْلِ الدُّنْيَا.

رَوَى الْفَخْرُ الرَّازِي وَغَيْرُهُ مِنَ الْعَامَّةِ أَنَّهُ ﷺ كَانَ بَعْدَ نَزُولِ [هَذِهِ] آيَةِ يَذْهَبُ إِلَى بَابِ فَاطِمَةَ وَعَلِيٍّ ﷺ كُلِّ صَبَاحٍ وَيَقُولُ: «الصَّلَاةُ»، [وَأَنَّ] كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَشْهُرًا^١.

وَعَنِ الْبَاقِرِ ﷺ فِي هَذِهِ آيَةِ قَالَ: «أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَخْصُ أَهْلَ بَيْتِهِ وَنَفْسَهُ دُونَ النَّاسِ، لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ لِأَهْلِهِ عِنْدَ اللَّهِ مَنَزَلَةً لَيْسَتْ لغيرِهِمْ، فَأَمَرَهُمْ مَعَ النَّاسِ عَامَةً، ثُمَّ أَمَرَهُمْ خَاصَةً»^٢.

وَعَنِ الرِّضَاءِ ﷺ قَالَ: «خَصَّنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْخُصُوصِيَّةِ، إِذْ أَمَرَنَا مَعَ الْأُمَّةِ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، ثُمَّ خَصَّنَا مِنْ دُونَ الْأُمَّةِ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجِيئُ إِلَى بَابِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ ﷺ بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ آيَةِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ عِنْدَ حُضُورِ كُلِّ صَلَاةٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَيَقُولُ: الصَّلَاةُ رَحِمَكُمُ اللَّهُ، وَمَا أَكْرَمَ اللَّهُ أَحَدًا مِنْ ذُرِّيِّ الْأَنْبِيَاءِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْكِرَامَةِ الَّتِي أَكْرَمَنَا [بِهَا] وَخَصَّنَا مِنْ دُونَ جَمِيعِ أَهْلِ بَيْتِهِمْ»^٣.

وَقَالُوا لَوْلَا يَا بُنَيَّ بَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى * وَلَوْ
أَنَا أَهْلُكُنَّاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتُنَبِّئَ آيَاتِكَ
مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى * قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَتَسْغَلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ
الْصُّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى [١٣٣-١٣٥]

ثُمَّ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ، حَكَى اعْتِرَاضَهُمْ عَلَى الرَّسُولِ وَشَبَّهَتْهُمْ فِي رِسَالَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا﴾ إِضْلَالًا لِلنَّاسِ وَإِلْقَاءَ لِلشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِهِمْ: ﴿لَوْلَا﴾ وَهَلَا ﴿يَا بُنَيَّ﴾ مُحَمَّدٌ ﴿بَايَةٌ﴾ وَمَعْجَزَةٌ مِمَّا اقْتَرَحْنَا عَلَيْهِ ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِهِ فِي دَعْوَى نُبُوَّتِهِ؟ ثُمَّ رَدَّهُمْ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ لَمْ تَأْتِيهِمْ﴾ قِيلَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ: أَلَمْ تَأْتِيهِمُ الْمَعْجَزَاتُ الْكَثِيرَةُ؟! وَلَمْ تَأْتِيهِمْ ﴿بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾، وَالْكَتَبُ السَّمَاوِيَّةُ السَّابِقَةُ مِنَ الْعُقَاوِدِ الْحَقَّةِ وَأَصُولِ الْأَحْكَامِ الَّتِي اجْتَمَعَتْ عَلَيْهَا كَافَّةُ الرِّسَالِ وَأَحْبَارُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَشْتَغَلْ بِالدِّرَاسَةِ وَالتَّعَلُّمِ، وَلَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا، وَلَمْ يَزَعْ عَالِمًا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَعْجَزَاتِ، لِأَنَّهُ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْمَغْيِبَاتِ^٤.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِ(بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى) مَا فِيهَا مِنَ الْبَشَارَةِ بِعِثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنُبُوَّتِهِ^٥.

وَقِيلَ: إِنَّهَا أَخْبَارُ الْأُمَمِ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بَعْدَ سُؤَالِهِمُ الْآيَاتِ مِنْ رُسُلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِهَا، وَإِنَّهُ تَعَالَى

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٧، تفسير روح البیان ٥: ٤٤٨.

٢. مجمع البیان ٧: ٦٠، عوالي اللآلي ٢: ٤٩/٢٢، تفسير الصافي ٣: ٣٢٧.

٣. عيون أخبار الرضا ﷺ ١: ١٢٤٠، تفسير الصافي ٣: ٣٢٧.

٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٧.

كيف عاجلهم بالعقوبة، فماذا يؤمنهم من أن يكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك، وعلى أي تقدير لما كان كل من الأمور المذكورة في القرآن شاهداً على صدق نبوته، وصَّفه الله بكونه بيّنة. وتذكير الصِّمير الراجع إلى (البيّنة) لأنها في معنى الدليل البرهان^١.

ثم بين سبحانه أنه أتمَّ الحجة على الكفار والمشركين ببعثة خاتم النبيين ﷺ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ أَلَّا يَكْفُرُوا مِنْ قَبْلِهِ لَكُنَّا أَهْلًا بِعَذَابٍ﴾ أي عذاب كان، أو بعذاب مستأصل في الدنيا سابقاً على بعثة محمد ﷺ وإتيان البيّنة ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ لِكْفَرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ، لَكَانَ الْعَذَابُ قَبْلَ إِتِمَامِ الْحُجَّةِ وَ﴿لَقَالُوا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ احتجاجاً علينا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا فِي الدُّنْيَا رُسُولًا﴾ يَبْلُغُنَا دِينَكَ، وَيَقْرَأَ عَلَيْنَا كِتَابَكَ، وَيُعَلِّمُنَا أَحْكَامَكَ ﴿فَنَشْتَبِعْ﴾ بِإِرْشَادِهِ ﴿آيَاتِكَ﴾ الْمَنْزِلَةَ، وَنَطِيعَ أَحْكَامِكَ الْمَقْرُورَةَ الْمَشْرُوعَةَ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ﴾ بِالضَّلَالِ وَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ فِي الدُّنْيَا ﴿وَنَخْزَى﴾ بِالْإِتْلَاءِ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ، وَالْدُخُولِ فِي النَّارِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ تَمَّتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَانْقَطَعَ عُذْرُهُمْ فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، وَانْسَدَّ بَابُ حُجَّتِهِمْ عَلَيْنَا بِعِثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ، إِنْ عَذَّبْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَأْمَنُوا مِنْ نَزُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ كَمَا نَزَلَ عَلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ مَعَ كَمَالِ اسْتِحْقَاقِهِمْ لَهُ.

ثم هدَّدهم بالعذاب بقوله: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ: ﴿كُلٌّ﴾ مِنَّا وَمِنْكُمْ ﴿مُتَرَبِّصٌ﴾ وَمُنْتَظِرٌ لعاقبة الأمر وأثار العقائد والأعمال في الدنيا وقيل الموت، فترى لأينا الدولة والشوكة ونفوذ الكلمة، وفي الآخرة يكون لأينا الثواب والكرامة عند الله والعقاب وأنواع الهوان.

رُوي أن المشركين قالوا: تَرَبَّصْ بِمُحَمَّدٍ حَوَادِثَ الدَّهْرِ، فَإِذَا مَاتَ تَخَلَّصْنَا مِنْهُ^٢، فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وَانْتَظِرُوا أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عَنْ قَرِيبٍ إِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿مَنْ أَصْحَابُ الصُّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ وَالطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الْمَوْصِلِ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ دُنْيَوِيٍّ وَآخِرَوِيٍّ ﴿وَمَنْ اهْتَدَى﴾ إِلَى دِينِ الْحَقِّ وَطَرِيقِ الصَّوَابِ، أَتَخُنُّ أَمْ أَتَمُّ؟ وَفِيهِ غَايَةُ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ.

عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي ﷺ في حديث «قِيلَ: وَمَنْ الْوَلِيُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلِيُّكُمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَنَا، وَمَنْ بَعْدِي وَصِيِّي، وَمَنْ بَعْدَ وَصِيِّي لِكُلِّ زَمَانٍ حُجَّجٌ لِلَّهِ، لِكَيْلَا يَقُولُوا كَمَا قَالَ الضَّلَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ [حين] فَارَقَهُمْ نَبِيُّهُمْ: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الْآيَةَ، وَإِنَّمَا كَانَ تَمَامُ ضَلَالَتِهِمْ جِهَالَتُهُمْ بِالْآيَاتِ، وَهُمْ الْأَوْصِيَاءُ، فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ﴾ الْآيَةَ، وَإِنَّمَا كَانَ

٢. تفسير روح البيان ٥: ٤٥٠.

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٣٧.

٣. في كشف المحجة: كيما لا تقولون.

تربُّصهم أن قالوا: نَحْنُ فِي سَعَةٍ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَوْصِيَاءِ حَتَّى يُعْلَنَ إِمَامَ عَلَمِهِ^١.

عن الصادق عليه السلام قال: «لَا تَدْعُوا قِرَاءَةَ سُورَةِ طه، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهَا [وَيُحِبُّ مَنْ قَرَأَهَا]، وَمَنْ أَدَمَرَ قِرَاءَتَهَا أَعْطَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابَهُ بِبَيْمِينِهِ، وَلَمْ يُحَاسِبْنِهِ بِمَا عَمِلَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأُعْطِيَ فِي الْآخِرَةِ [مِنْ الْأَجْرِ] حَتَّى يَرْضَى^٢».

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ طه أُعْطِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوَابَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ^٣».

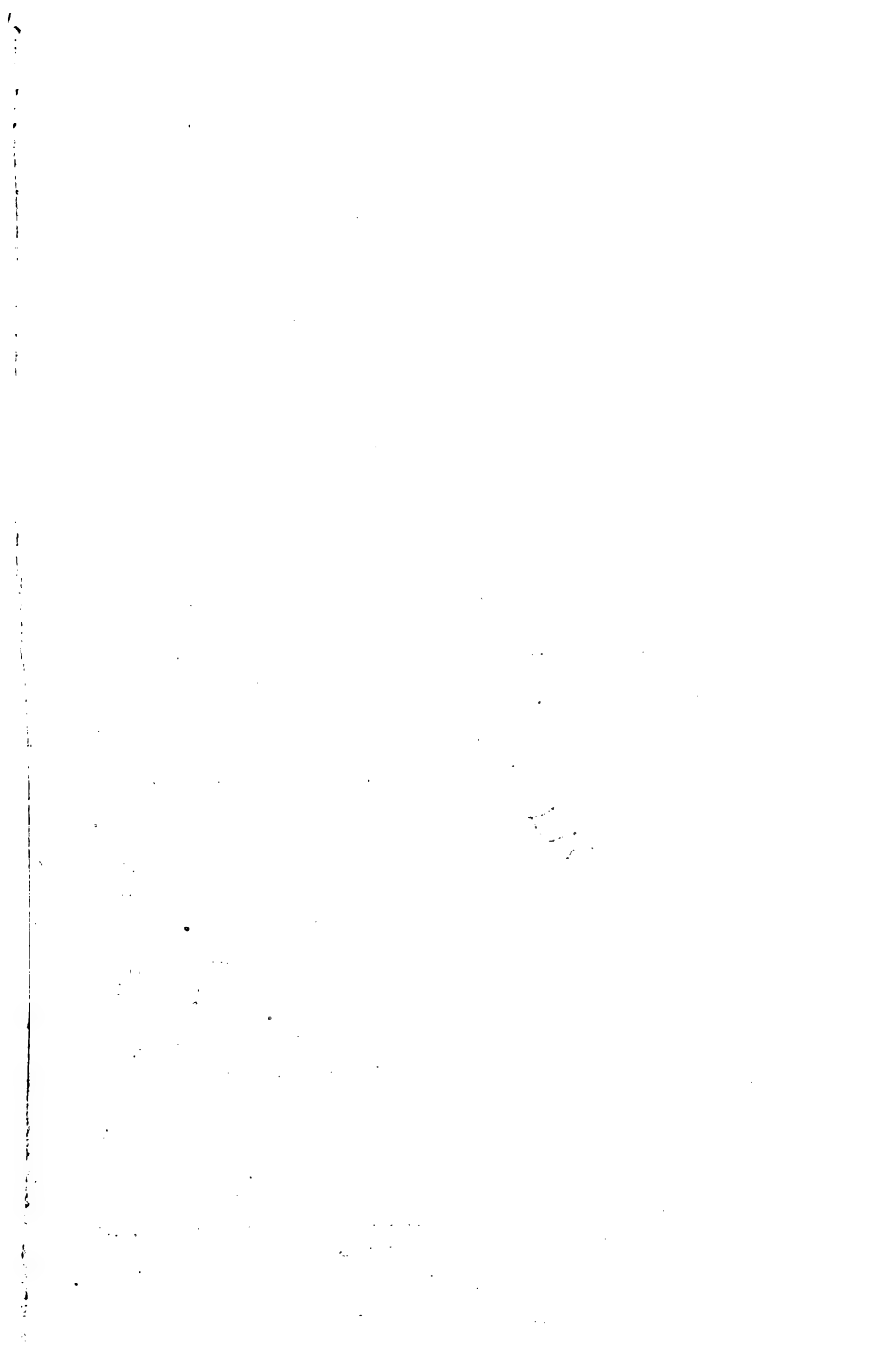
وقال: «مَا يَقْرَأُ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا سُورَةَ طه وَيَس^٤».

وَفَقَّنَا اللَّهَ لَتْلَاوَتِهَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْجَنَّةُ عَلَى تَوْفِيقِنَا لِإِتِمَامِ تَفْسِيرِهَا، وَنَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ لِتَفْسِيرِ مَا بَعْدَهَا.

١. كشف المحجة: ٢٧٣، تفسير الصافي ٣: ٣٢٨.

٢. نواب الأعمال: ١٠٨، مجمع البيان ٧: ١، تفسير الصافي ٣: ٣٢٩.

٣ و ٤. مجمع البيان ٧: ١، تفسير أبي السعود ٦: ٥٢.



في تفسير سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ [١-٣]

ثم لما ختم الله سورة طه بتهديد المغرضين عن القرآن بالعذاب الدنيوي والأخروي، وأمر نبيه ﷺ بالصبر على مقالات المشركين، وذكر شبهتهم في الرسالة والجواب عنها، وتنبئهم بتمامية الحجة عليهم ببعث محمد ﷺ، وقطع عذرهم بما في الكتب السماوية، وتهديدهم بالعذاب بقوله: ﴿فَسْتَغْلَمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾، أزدفها بسورة الأنبياء المبدوءة بتهديد المغرضين عن التفكير في أمر الآخرة، وغفلتهم عن قرب القيامة، وتوبيخهم لإعراضهم عن الذكر والقرآن، واستهزائهم به، وذكر شبهتهم في رسالة الرسول بأنه بشر، ونسبتهم معجزاته إلى السحر، وطلبهم منه غير ما أتى به من المعجزات، وسائر أقاويلهم الباطلة التي لا تليق به، وتهديدهم بعذاب الاستئصال، والاستدلال على التوحيد والبعث، وذكر قصص الأنبياء الماضين والأمم المهلكة السابقة بقوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ^١﴾، إلى غير ذلك من المطالب المربوطة بالسورة السابقة. فابتدأ فيها بذكر الأسماء المباركات على حسب ذابته تعالى في كتابه المجيد بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

ثم افتتحها بتهديد المشركين المغرضين عن الآخرة بقوله: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾، ودنا منهم اليوم الذي فيه ﴿حِسَابُهُمْ﴾، لجزاء أعمالهم؛ لأن كل آت قريب وإن طالت مدة ترقبه، أو لأن كل ساعة أقرب إليهم منه في الساعة السابقة، أو لأن بعثه من أشراط الساعة حيث قال ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»^٢ وضم بين إصبعيه ﴿وَهُمْ﴾ مستقرون ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾، تأمة منه، ساهون بالكلية عنه، منكرون له،

مع حكم العقل بوجوب إتيانه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن الآيات المنبهة لهم عن غفلتهم.
وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب لا إلى الناس، للدلالة على أنه مقبل إليهم، كأنه يلقبهم وَيَصِلُ إليهم لا محالة، وتقديم ﴿لِلنَّاسِ﴾ على ﴿حِسَابُهُمْ﴾ للمسارعة إلى إرعايهم.
ثم وَيَنْهَمُ على إعراضهم عن الآيات القرآنية بقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ﴾ وَوَعِظٍ ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ في القرآن يذكّرهم الحساب أكمل تذكير ﴿مُحَدِّثٍ﴾ وَقَتًا بَعْدَ وَقْتٍ ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ به وَيَسْخَرُونَ منه، وهم ^١ ﴿لَاهِيَةً﴾ وَتَشَاغِلَةً ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ عَمَّا يَهْتُمُّ مِنْ عَوَاقِبِ أَمْرِهِمْ وَحَالٍ مَا بَعْدَ موتهم بما لَا يُفِيدُهُمْ من أمر الدنيا وجمع زَخَارِفِهَا وَالْإِتِّدَادِ بِشَهَوَاتِهَا.
ثم يَبَيِّنُ سبحانه علّة استهزائهم بالقرآن أنها إنكارهم الرسالة الذي هو أثر جناباتهم بقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ وَبَالَغُوا فِي إِخْفَاءِ مَا تَنَاجَوُا بِهِ، أَوْ أَسْرُوا نَفْسَ تَنَاجِيهِمْ حَتَّى لَا يَشْفَعُ أَحَدُ بِهِ، وَهُمْ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَنْفُسَهُمْ بِأَفْحَشِ الظُّلْمِ فِي مَا أَسْرَوْا بِهِ، وَقَالُوا فِي نَجْوَاهُمْ قَدْ حَا فِي رَسُولَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿هَلْ هَذَا﴾ الرَّجُلِ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يَأْكُلُ وَيَمْشِي فَلَا مَزِيَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَكُونَ رَسُولًا، وَمَا أَتَى بِمُعْجَزَةٍ بَلْ مَا أَتَى بِهِ فَهُوَ سِحْرٌ ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ﴾ وَتَحْضَرُونَهُ وَتَقْبَلُونَهُ مِنْهُ ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وَتُعَانِيُونَ أَنَّهُ سِحْرٌ؟ وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ لَا يَكُونُ الرَّسُولُ إِلَّا مَلَكًا، وَلَا يَكُونُ مَا يَأْتِي الْبَشَرَ إِلَّا سِحْرًا.

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَاءَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ [٨-٤]

ثم حَكَى سبحانه قولَ نبيه ﷺ بعد إطلاعه على سرِّهم بالوحي بقوله: ﴿قَالَ﴾ الرَّسُولُ: إِنْ كُنْتُمْ أَخْفَيْتُمْ قَوْلَكُمْ مِنِّي، وَطَعَنْتُمْ فِي رِسَالَتِي، لَا تُقْدِرُونَ عَلَى إِخْفَائِهِ مِنْ اللَّهِ، لَأَنَّ ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ الَّذِي يَكُونُ ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ سِرًّا كَانَ أَوْ جَهْرًا ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِلْمَسْمُوعَاتِ مِنَ الْأَقْوَالِ

١. لا يصح موقع (وهم) الإعرابي مع لفظ الآية إلا على رفع (لاهيية) والرفع قراءة. قال صاحب الكشف: (وهم) يلعبون لاهية قلوبهم) حالان مترادفان، أو متداخلان، ومن قرأ (لاهيية) بالرفع فالحال واحدة؛ لأن (لاهيية قلوبهم) خبر بعد خبر لقوله (وهم). الكشف ٣: ١٠٢.

﴿الْعَلِيمِ﴾ بَجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ مِنَ الْأَحْوَالِ.

ثُمَّ عَادَ سَبْحَانَهُ إِلَى حِكَايَةِ بَعْضِ أَقْوَالِهِمُ الْآخِرَ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بِنِسْبَةِ الْقُرْآنِ إِلَى السَّحَرِ، بَلْ قَالُوا: إِنَّهُ أَبَاطِيلُ يَرَاهَا فِي الْمَنَامَاتِ الْكَاذِبَةِ، فَتَحَيَّلَ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ، فَأَسْتَدَّهَا إِلَيْهِ ﴿بَلْ أَفْتَرَاهُ﴾ عَلَى اللَّهِ مِنْ قِيلٍ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ أَوْ رُؤْيَا فِي الْمَنَامِ ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ لَقَعَ الْكَلَامَ الْفَصِيحَ الْمُقْفَى، فَخَيَّلَ إِلَى النَّاسِ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، وَعَلَى أَيِّ تَقْدِيرٍ لَيْسَ كِتَابُهُ مَعْجَزَةٌ مُشْتَبَّةٌ لِلنَّبُوَّةِ، وَلَوْ فَرضَ أَنَّهُ مَعَ كَوْنِهِ بَشَرًا يَكُونُ رَسُولًا ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ﴾ وَمَعْجَزَةٌ قَاهِرَةٌ لَا تَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا الْإِحْتِمَالَاتُ الْمَذْكُورَةُ ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ وَالْأَنْبِيَاءُ السَّابِقُونَ بِآيَاتٍ قَاهِرَةٍ وَمَعْجَزَاتٍ عَظِيمَةٍ كَالْعَصَا وَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى حَتَّى تُؤْمِنَ بِهِ.

ثُمَّ كَذَّبَهُمُ اللَّهُ فِي وَعْدِهِمُ الْإِيمَانَ عِنْدَ إِبَاجَتِهِمْ فِي مُقْتَرَحَاتِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ وَبِلَدَةٍ كُنَّا ﴿أَهْلُكُنَّهَا﴾ بِعَذَابِ الْإِسْتِنْصَالِ لَعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ بَعْدَ إِبَاجَتِهِمْ فِي مَا اقْتَرَحُوهُ مِنَ الْآيَاتِ ﴿أَنَّهُمْ﴾ مَعَ شِدَّةِ لِحَاجَتِهِمْ وَغَايَةِ عِنَادِهِمْ لَكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بِكَ؟ كَلَّا فَإِنَّهُمْ أَغْنَى مِنَ الْأَمْسِ الْمَاضِيَةِ الْمُهْلِكَةِ.

ثُمَّ أَجَابَ سَبْحَانَهُ عَنْ شُبُهَتِهِمْ فِي رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِكَوْنِهِ بَشَرًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يَا مُحَمَّدٌ إِلَى قَرْيَةٍ أَوْ أُمَّةٍ ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ مُتَنَازِلِينَ عَنِ سَائِرِ النَّاسِ بِالْمَعَارِفِ وَكَرَامَةِ الصِّفَاتِ، فَخَصَّضْنَاهُمْ بِأَنْ ﴿تُوحَى إِلَيْهِمْ﴾ الشَّرَائِعُ وَالْأَحْكَامُ بِتَوْسِطِ الْمَلِكِ، كَمَا تُوحَى إِلَيْكَ مَعَ أَنَّكَ أَوَّلُ رَجُلٍ فِي عَالَمِ الْوُجُودِ، فَإِنْ لَا يَقْبَلُوا قَوْلَكَ قُلْ لَهُمْ: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ وَالْعُلَمَاءُ بِالْكَتَبِ السَّمَاوِيَّةِ وَأَحْوَالِ الرِّسَالِ الْمَاضِيَةِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَحْوَالَهُمْ حَتَّى تَعْلَمُوا وَتَنْزُولِ شُبُهَتِكُمْ، ثُمَّ أَكَّدَ كَوْنَ عَادَتِهِ تَعَالَى إِسْرَالِ الْبَشَرِ دُونَ الْمَلِكِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا﴾ مَلَكُوتِيًّا ﴿لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ غَنِيًّا عَنْهُ كَالْمَلَائِكَةِ، بَلْ جَعَلْنَاهُمْ مُتَحَاجِّينَ إِلَيْهِ كَمَا تَحْتَاجُونَ ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ فِي الدُّنْيَا كَالْمَلَائِكَةِ، بَلْ كَانُوا مَيِّتِينَ كَمَا أَنْتُمْ تَمُوتُونَ.

ثُمَّ صَدَّقْنَاهُمْ بِالْوَعْدِ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ * لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [١٠ و ٩]

ثُمَّ أَنَّهُمْ مَعَ تَفَرُّدِهِمْ وَمَعَارَضَةِ النَّاسِ وَعَدْنَاهُمْ النَّصْرَ عَلَى عُمُومِ الْكَفَّارِ ﴿ثُمَّ صَدَّقْنَاهُمْ بِالْوَعْدِ﴾ وَوَفَّيْنَا بِالْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدْنَاكُمْ مِنْ نُصْرَتِهِمْ وَإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ﴾ مِنَ الْعَذَابِ حِينَ نَزُولِهِ عَلَى مَكْدِبِهِمْ ﴿وَمَنْ نَشَاءُ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ الْمَصْرِفِينَ عَلَى الْكُفْرِ

المُجَاوِزِينَ فِي الطُّغْيَانِ بِعَذَابِ الْاسْتِنصَالِ عَقُوبَةً لَهُمْ وَعِبْرَةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ وَيَسْمَعُ خَبَرَهُمْ.
ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَظِيمَ نِعْمَتِهِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ بِوَسْطَةِ مُحَمَّدٍ
﴿كِتَابًا﴾ عَظِيمَ الشَّانِ يَكُونُ ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ وَعِظَتُكُمْ، لِيَحْذَرُوا مِنْ مُوجِبَاتِ هَلَاكِكُمْ، أَوْ فِيهِ ذِكْرُ
دِينِكُمْ وَبَيَانِ مَا يَلْزَمُكُمْ وَمَا لَا يَلْزَمُكُمْ عَلَيْكُمْ، كَيْ تَفُوزُوا بِالْعَمَلِ بِهِ بِالْحَقِّ، أَوْ فِيهِ شَرْفُكُمْ وَصِيَّتُكُمْ
﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. قِيلَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ: أَلَا تَفَكَّرُونَ فَلَا تَعْقِلُونَ أَلَا الْأَمْرُ كَذَلِكَ؟ فَإِنْ تَعَقَّلَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا
بِالتَّذَكُّرِ فِيهِ، أَوْ الْمَعْنَى: أَلَا يَكُونُ لَكُمْ عَقْلٌ يَبْتَغِيكُمْ إِلَى التَّدْبِيرِ فِي الْقُرْآنِ وَالْإِنْعَاطِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ؟

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحْسَاوْا
بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسَاكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ
دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ [١١-١٥]

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ كَيْفِيَّةَ هَلَاكِ الْمُشْرِكِينَ إِرْعَابًا لِلْقُلُوبِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ وَكثييراً كَسَرْنَا كَثْرًا
فَطَلِعُوا بَحِيثَ تَفَتَّتِ الْأَجْزَاءُ ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ وَأَهَالِي مَدِينَةٍ ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْإِعْرَاضِ عَنِ
الْآيَاتِ وَتَكْذِيبِ الرِّسْلِ ﴿وَأَنْشَأْنَا﴾ وَأَوْجَدْنَا ﴿بَعْدَهَا﴾ وَوَرَاءَ إِهْلَاكِهَا ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ لَمْ يَكُونُوا
مِنْهُمْ نَسَبًا وَدِينًا ﴿فَلَمَّا أَحْسَاوْا بِأَسْنَا﴾ وَاسْتَشْعَرُوا بِعَذَابِنَا الْمُسْتَأَصْلِ وَهُمْ فِي الْقَرْيَةِ ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا
يَرْكُضُونَ﴾ وَيَهْرَبُونَ وَيُسْرِعُونَ فِي الْعُدُوِّ لِلْخُرُوجِ مِنْهَا خَوْفًا مِنَ الْمَهَالِكِ.
قِيلَ: هِيَ قَرْيَةُ حَضُورِ الْيَمَنِ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا فَقَتَلُوهُ، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَخْتَ نَصْرَ فَاسْتَأْصَلَهُمْ.
رُوي أَنَّهُ لَمَّا أَخَذَتْهُمْ السُّيُوفُ نَادَى مِنْادٍ مِنَ السَّمَاءِ: يَا لِنَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ.^١

فَقِيلَ لَهُمْ تَوَيْخًا وَتَهْكُمًا: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ﴾ وَأَبْطَرْتُمْ ﴿فِيهِ﴾ مِنَ النِّعَمِ وَرَفَاهِ
الْعَيْشِ ﴿وَمَسَاكِينَكُمْ﴾ الْمَرْضِيَّةِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ غَدًا عَمَّا جَرَى عَلَيْكُمْ وَنَزَلَ بِأَمُوكُمْ وَمَسَاكِنِكُمْ،
فَتَجِيبُوا السَّائِلَ عَنْ عِلْمٍ وَمَشَاهِدَةٍ، أَوْ يَسْأَلُكُمْ النَّاسُ فِي أَنْدِيَتِكُمْ لِمَعَاوَتِهِمْ فِي تَوَازِلِ الْخُطُوبِ،
وَيَسْتَشِيرُونَكُمْ فِي الْمُهَمَّاتِ، وَيَسْتَعِينُونَ بِأَرَائِكُمْ أَوْ يَسْأَلُكُمْ الْوَافِدُونَ عَلَيْكُمْ وَالطَّامِعُونَ فِيكُمْ.
فَلَمَّا يَأْسُوا مِنَ الْخِلَاصِ بِالْهَرَبِ، وَيَأْتُوا بِهَلَاكِهِم بِالْعَذَابِ ﴿قَالُوا﴾ تَأْسَفًا وَتَحَسُّرًا وَنَدَمًا: ﴿يَا
وَيْلَنَا﴾ وَيَا هَلَاكَنَا احْضُرْ، فَهَذَا أَوَانُكَ ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ بِأَعْمَالِنَا ﴿ظَالِمِينَ﴾ عَلَى أَنْفُسِنَا وَمُسْتَحْقِينَ لِهَذَا

١. تفسير أبي السعود ٦: ٥٨، تفسير روح البيان ٥: ٥٧.

٢ و٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٤٦.

العذاب، ولكن لم ينفعهم الاعتراف بذنوبهم والندم عليها ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ﴾ الكلمة والدعوة بالويل ﴿دَعَاؤُهُمْ﴾ ونداءهم ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ﴾ مثل الزرع الذي صار ﴿حَصِيداً﴾ بالذياس ﴿خَامِدِينَ﴾ ميتين لا حِس لهم ولا حراك ولا أثر كالنار الخاملة.

عن السجاء عليه السلام: «لَقَدْ أَسْمَعَكُمْ اللهُ فِي كِتَابِهِ مَا فَعَلَ بِالْقَوْمِ الظَّالِمِينَ مِنْ أَهْلِ الثَّرَى قَبْلَكُمْ حَيْثُ قَالَ: «وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً»، وَإِنَّمَا عَنِ الْقَرْيَةِ أَهْلُهَا حَيْثُ يَقُولُ: «وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ» فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ» يَعْنِي يَهْرَبُونَ، قَالَ: «فَلَمَّا آتَاهُمُ الْعَذَابُ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» قَالَ: وَإِنَّهُ اللهُ إِنَّ هَذِهِ عِظَةٌ لَكُمْ وَتَحْرِيفٌ إِنْ اتَّعَظْتُمْ وَخِفْتُمْ».

وعن الباقر عليه السلام في تأويله: «إِذَا قَامَ الْقَائِمُ وَبَعَثَ إِلَى بَنِي أُمَيَّةَ بِالشَّامِ، هَرَبُوا إِلَى الرُّومِ، فَيَقُولُ لَهُمُ الرُّومُ: لَا تَدْخُلَنَّكُمْ حَتَّى تَنْصَرُوا فَيُعَلِّقُونَ فِي أَعْنَاقِهِمُ الصُّلْبَانَ فَيَدْخُلُونَهُمْ، فَإِذَا نَزَلَ بِحَضْرَتِهِمْ أَصْحَابُ الْقَائِمِ طَلَبُوا الْأَمَانَ وَالصُّلْحَ، فَيَقُولُ أَصْحَابُ الْقَائِمِ: لَا تَقْعَلْ حَتَّى تَدْفَعُوا إِلَيْنَا مَنْ قَبْلَكُمْ مَنَّا، فَيَدْفَعُونَهُمُ إِلَيْهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: «لَا تَرْكُضُوا» إِلَى قَوْلِهِ: «لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ» قَالَ: يَسْأَلُهُمُ الْكَنُوزُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهَا، فَيَقُولُونَ: «يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» إِلَى قَوْلِهِ: «خَامِدِينَ» أَيِ بِالسَّيْفِ»^٢.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا
لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا
هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ
عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ [١٦-١٩]

ثم لما بين الله تعذيبه الظالمين بين أن حكمة خلق العالم إقامة العدل ومجازاة أهل الظلم بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من عجائب المخلوقات حال كوننا ﴿لَاعِبِينَ﴾ وعابثين بالخلق، بل خلقناها لمعرفة بني آدم ربهم بالنظر إليها والتفكير فيها، ولتكميل ثغوسهم، وقيامهم بوظيفة عبودية خالقهم، وشكر الثنيم عليهم، وفعالية استعدادهم وقابليتهم للنعم الأبديّة المَعْدَةُ لهم في الآخرة، ولإقامة العدل ومجازاة الظالمين، فعليهم التفكير في المخلوقات والاجتهاد في الطاعة والشكر، لا الانهماك في الشهوات، ومعارضة الحق، ومشاقة الرُّسل، والظلم على النفس والعباد.

﴿وَلَوْ أَرَدْنَا﴾ وأحببنا ﴿أَنْ تَتَّخِذَ لَهَوًا﴾ وتشتغل بلعب ﴿لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ ومن جهة قدرتنا

على ما تُريد، أو من عندنا وما يليق بشأننا من الرُوحانيات والمُجَرّدات ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ لِلْعِبِّ واللَّهْوِ، لا من الأجسام المرفوعة كالسماوات والأجرام الموضوعة كالأرضين مثل دَيْدَنَ الْجَبَابِرَةِ في رفع الغُرُوش وتحسينها وتسوية الفُرُش وتزيينها بغرض الالتذاذ والتشهي، ولكن لا تُريد اللهو واللعب أبداً لمنافاته الحكمة البالغة التي تُكُونُ لنا.

وقيل: إِنَّ المراد بِاللَّهْوِ الْوَلَدُ أو الزَّوْجَةُ^١.

وقيل: (إِنْ) في قوله: ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ نافية، والمعنى مَا كُنَّا فَاعِلِينَ^٢.

﴿بَلْ نَقْذِفُ﴾ ونَزِمِي ﴿بِالْحَقِّ﴾ الَّذِي هُوَ الْجَدُّ والعدل والقرآن، كَالْحَجَرِ الصُّلْبِ ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ الَّذِي من جملة اللُّبِّ والظُّلْمِ والكُفْرِ وغيرها مَا يَنَافِي الحكمة، ولا ثَبَاتَ لَهُ عند التحقيق ﴿فَيَذْمُوهُ﴾ وَيُهْلِكُهُ وَيَمْحَقُهُ ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ وَذَاهِبٌ بِالْكَلْبَةِ، وَهَالِكٌ بالفور، وَإِنَّمَا استعار القذف الذي هو بمعنى الرمي الشديد البعيد المستلزم لصلابة المرمي وإعدام ما وصل إليه وَمَحْوُهُ، لِتَغْلِيْبِ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ، واستعارة الدَّمْعِ الَّذِي هو بمعنى كَسْرِ الدماغ بحيث يَشَقُّ غِشَاهُ^٣ الْمُؤَذَى إِلَى زُهُوقِ الرُّوحِ، لِمَحَقِّ الْبَاطِلِ، لغاية المبالغة وتمكين الهيئَةِ الْمُعْقُولَةِ في ذهن السامع غاية التمكين. عن الصادق عليه السلام: «ليس من باطلٍ يَقُومُ بِإِزَاءِ حَقٍّ إِلَّا غَلَبَ الْحَقُّ الْبَاطِلَ، وذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ الآية»^٥.

ثُمَّ هَذَّ قَرِيشاً بِمَثَلِ مَا لَأُولَئِكَ مِنَ الْعَذَابِ بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ مَعَشَرَ قَرِيشٍ ﴿أَلْوَيْلٌ﴾ والهلاك ﴿مِنْ﴾ أَجَلٍ ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ الله بِمَا لَا يَلِيْقُ بِشَأْنِهِ مِنْ اتِّخَاذِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ، ثُمَّ قَرَّرَ تَفَرُّدَهُ مِنْهُمَا بقوله: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَلْقاً وَمِلْكاً وَتَصَرُّفاً وَتَدْبِيراً، بلا دَخَلَ لغيره في شيء منها استقلالاً واستِثْبَاعاً ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُهِ أَوْ بَنَاتُهُ، مع كمال شَرَفِهِمْ وَعَظَمَتِهِمْ وَقُرْبِهِمْ وَعُلُوِّ رُتَبِهِمْ، كُلُّهُمْ عِبِيدُهُ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ ولا يَتَعَطَّمُونَ عَنْ طَاعَتِهِ ﴿وَلَا يَسْتَخِيرُونَ﴾ ولا يَغِيثُونَ عَنْهَا مع ثِقَلِهَا وَدَوَامِهَا، وكانت عبادتهم أَنَّهُمْ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ وَيُزَكِّهِنَ اللهُ ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ مِنَ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ والنقص والحاجة وَيُعَظَّمُونَهُ عَلَى الدَّوَامِ ﴿وَلَا يَفْتَرُونَ﴾ ولا يَتَوَانُونَ فِيهِ طَرَفَ عَيْنٍ، ولا يَتَخَلَّلُ تَسْبِيحَهُمْ فَرَاغٌ وَلَا شُغْلٌ آخَرُ. قيل: إِنَّ التَّسْبِيحَ لَهُمْ كَالْتَمَتِّسِ [لَنَا] فَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ عَمَلٍ آخَرَ، وَإِنْ كَانَ لَعْنٌ مِنَ اسْتَحَقَّ اللَّعْنَ^٦.

١. تفسير أبي السعود ٦: ٦٠، تفسير روح البيان ٥: ٤٦٠.

٢. في النسخة: عصائه، راجع: تفسير روح البيان ٥: ٤٦١.

٣. في النسخة: تحق.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٤٦٢.

٥. المحاسن: ١٥٢/٢٢٦، تفسير الصافي ٣: ٣٣٣.

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ * أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ
* لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا
يُسْئَلُ عَمَّا يَعْمَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ [٢٠-٢٣]

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن الملائكة أينامون؟ فقال: «ما من حيٍّ إلّا وهو ينام ما خلا الله وخذه، والملائكة أينامون» فقيل: يقول الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ قال: «أنفاسهم تسبيح»^١.

وفي رواية أخرى: «ليس شيء من أطباق أجسادهم إلّا ويسبح الله عز وجل ويحمده من ناحيته بأصوات مختلفة»^٢.

وقيل: يعني لا يفترون عن العزم على أدائه في أوقاته لا دوام الاشتغال به^٣. وفيه أنه خلاف الظاهر. ثم وبّخهم سبحانه على إشراكهم وادّعانهم قدرة إلهتهم على إحياء الموتى بقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿إِلَهَةً﴾ ومعبودين ﴿مِنْ﴾ جنس ما في ﴿الْأَرْضِ﴾ كَالْخَشَبِ وَالْحَجَرِ وَالذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وغيرها وقالوا: ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ ويحيون الموتى مع كونهم في أنفسهم أموات لا يشعرون، ولا يقول به من له عقل وشعور.

وقيل: إن هذه الدعوى لازم قولهم بالوهيَّتهم، لأنهم صرّحوا به؛ لأنهم لا يثبتون الإتيان لله، فكيف يثبتونه لآلهتهم^٤.

ثم أنطّل قولهم الشنيع بقوله: ﴿لَوْ كَانَ﴾ في السماوات والأرض ووجد ﴿فِيهِمَا إِلَهًا إِلَّا اللَّهُ﴾ وغيره تعالى يكون كلّ واحدٍ منهم متصرفاً فيها بالخلق والتدبير ﴿لَفَسَدَتَا﴾ وخرّجتا بما فيهما من الاعتدال والنظام الأنتم، سواء أكان الله معهم أو لا، أو المراد لَبَطَلْنَا وتفطرتا لأنه مع فرض قدرة كلّ واحدٍ منهم على الاستقلال في الخلق والتدبير واتفاقهم في المراد والإيجاد بالاستقلال، لزم تواءم العلل على معلول واحد وهو مُحال، ومع تخالفهم في المراد والتزاحم يلزم التعاقق وعدم وجود موجود أصلاً، ومع عدم التزاحم يلزم التعطيل في الواجب والترجيح بلا مرجح، ومع عجز كلّ واحدٍ عن الاستقلال يلزم النقص في الواجب.

عن الصادق عليه السلام أنه سئل: ما الدليل على أنّ الله واحد؟ قال: «إتصال التدبير وكمال الصنع، كما قال

١. كمال الدين: ٨/٦٦٦، تفسير الصافي: ٣: ٣٣٤.

٢. تفسير روح البيان: ٥: ٤٦٣.

٣. تفسير روح البيان: ٥: ٤٦٢.

٤. في التوحيد: وتام.

الله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا آلَهُ لَفَسَدَتَا﴾^١.

ثم رتب سبحانه على ذلك الدليل ثنائي الألوهية للمشاركة فيها بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ أَقْوَرِّبَ الْقُرْشِ﴾ ونزوهه تنزيهاً لا يقال إلا له [لأنه] المدير لجميع الموجودات لعلة ألوهيته وربوبيته ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ذاته المقدسة بما لا يليق به من النقائص التي من جملتها كون الشريك والولد له. ثم أنه تعالى بعد إثبات تفرده في الألوهية بين كمال عظمته وقوة سلطانه بقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ ولا يُناقَش أحد في ما يصدر منه من حكم وتقدير وإثابة وتغذيب ﴿وَهُمْ﴾ لكونهم عبيده وتحت قدرته وسلطانه ﴿يُسْأَلُونَ﴾ عما يفعلون تقييد أو قسطير، وفيه تهديد ووعد للكفار والمشركين.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يعني بذلك خلقه أنهم يسألون»^٢.

وعن الباقر عليه السلام، أنه سئل: وكيف لا يسأل عما يفعل؟ فقال: «لأنه لا يفعل إلا ما كان حكمة وصواباً، وهو المتكبر الجبار الواحد القهار، فمن وجد في نفسه حرجاً في شيء مما قضى [فقد] كفر، ومن أنكر شيئاً من أفعاله جحد»^٣.

عن الرضا عليه السلام أنه قال: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتي أديت إلي فرائضي، وبعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سمياً بصيراً قوياً، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذلك أني أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، وذلك أني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون»^٤.

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ
إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ
بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [٢٤-٢٧]

ثم أنه تعالى بعد إبطال ألوهية غيره بالبرهان، أعاد التوبيخ عليهم بإشراكهم بلا دليل بقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ مع عرأنها من خصائص الألوهية ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين تبكيماً

٢. علل الشرائع: ١/١٠٦، تفسير الصافي ٣: ٣٣٤.

٤. التوحيد: ٦/٣٣٨، تفسير الصافي ٣: ٣٣٥.

١. التوحيد: ٢/٢٥٠، تفسير الصافي ٣: ٣٣٤.

٣. التوحيد: ١٣/٣٩٧، تفسير الصافي ٣: ٣٣٤.

وَالْقَامَا لِلْحَجَرِ^١: «هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» وَأَتَوْا بِحُجَّتِكُمْ عَلَى مَا تَدْعُونَ مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ أَوِ النُّقْلِ، لَعَدَمِ صَحَّةِ الدَّعْوَى بِغَيْرِ حُجَّةٍ خُصُوصاً فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ تَوَافُقَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَنَفْيِ الشِّرْكِ بِقَوْلِهِ: «هَذَا» الْمَوْجُودُ بِأَيْدِينَا مِنَ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي أَحَدُهَا الْقُرْآنُ الَّذِي هُوَ «ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِي» مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِي وَعِظَتُهُمْ، «وَوَيْلٌ لِّإِنثَانٍ مِّنْهَا» «ذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي» مِنَ الْأُمَمِ، وَهَمَّا: التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، بَيَّنَّ أَيْدِيَكُمْ فَرَاغُوهَا وَانظُرُوا فِيهَا، هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا غَيْرَ الْأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْإِشْرَاقِ؟

وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى: هَذَا الْوَحْيُ الْوَارِدُ فِي شَأْنِ التَّوْحِيدِ الْمُتَضَمِّنُ لِلْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ الْعَقْلِيِّ ذِكْرُ أُمَّتِي وَعِظَتُهُمْ، وَذِكْرُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ قَدْ أَقَمْتُهُ أَنَا، وَاسْتَدْلَلْتُ بِهِ، فَأَقِيمُوا أَنْتُمْ أَيْضاً بُرْهَانَكُمْ^٢.

ثُمَّ أَضْرَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْأَمْرِ بِمُحَاجَّتِهِمْ إِعْلَاناً بِعَدَمِ قَابِلِيَّتِهِمْ لِلخُطَابِ وَالْمُحَاجَّةِ بِقَوْلِهِ: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» الْبَدِيهِيَّاتِ، وَلَا يُمَيِّزُونَ مِنْ غَايَةِ جَهْلِهِمْ وَحُجَّتِهِمْ بَيْنَ «الْحَقِّ» وَالْبَاطِلِ، وَالذَّلِيلِ الصَّحِيحِ وَالْفَاسِدِ، فَعِنْدَهُمْ مَا هُوَ أَصْلُ الْفَسَادِ وَهُوَ الْجَهْلُ «فَهُمْ» لِذَلِكَ «مُعْرِضُونَ» عَنِ التَّوْحِيدِ وَأَيَّاتِهِ وَاتِّبَاعِ الرُّسُولِ وَمُعْجَزَاتِهِ، مُسْتَمِرُّونَ عَلَى الْإِعْرَاضِ غَيْرِ مُنْصَرِفِينَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الضَّلَالِ، وَإِنْ كَرَّرْتَ عَلَيْهِمُ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى التَّوْحِيدِ بِتَوَافُقِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ عَلَيْهِ، اسْتَدَلَّ بِاتِّفَاقِ كَلِمَةِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ هُمْ أَعْقَلُ عَقَلٍ الْعَالَمِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ» إِلَى النَّاسِ «مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا» فَإِذَا عَلِمْتُمْ ذَلِكَ «فَاعْبُدُون» خَاصَّةً وَلَا تَعْبُدُوا غَيْرِي.

ثُمَّ بَعْدَ إِطْطَالِ الشَّرْكِ أَبْطَلَ الْقَوْلَ بِاتِّخَاذِهِ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتٍ بِقَوْلِهِ: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ» وَالْإِلَهَ الْوَاسِعَ الرَّحْمَةَ وَالنَّعْمَةَ لِنَفْسِهِ «وَلَدًا» مَعَ غِنَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. قِيلَ: هُمْ حَيٌّ مِنْ خُرَاقَةٍ^٣. وَقِيلَ: هُمْ قَرِيشٌ وَجُهَيْنَةٌ وَبَنُو سَلَمَةَ وَبَنُو مُلَيْحٍ وَخُرَاقَةُ^٤.

ثُمَّ رَدَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «سُبْحَانَهُ» مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمَلَائِكَةُ أَوْلَادَهُ «بَلْ» هُمْ «عِبَادٌ» لَهُ وَالْعِبَادُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا أَوْلَادَ وَهُمْ «مُكْرَمُونَ» عِنْدَهُ مَقْرَبُونَ لَدَيْهِ مُتَقَادُّونَ لِإِرَادَتِهِ بِحَيْثُ إِنَّهُمْ «لَا يَسْـَٔقُونَ» تَعَالَى «بِالْقَوْلِ».

قِيلَ: نَزَلَ سَبْحَانَهُ سَبْقَهُمُ بِالْقَوْلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى مَنْزِلَةَ سَبْقِهِمْ لَهُ، لِلإِشْعَارِ بِمَزِيدِ تَنْزِهِمْ مِنْهُ^٥ «وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» وَلِحُكْمِهِ مُطِيعُونَ.

١. أَلْقَمَةُ الْحَجَرِ: أَسْكَنَتْهُ عِنْدَ الْمُخَاصِمَةِ.

٢. تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٦: ٦٢، تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٥: ٤٦٦.

٣. ٥. ٤. تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٦: ٦٣.

٤. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٢٢: ١٥٩، تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٦: ٦٣.

نقل معجزة لأمر المؤمنين ﷺ في (الخراج) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه اختصم رجل وامرأة إليه، فعلا صوت الرجل على المرأة، فقال له علي عليه السلام «أخسأ» - وكان خارجياً - فإذا رأسه رأس الكلب، فقيل له: يا أمير المؤمنين، صحت بهذا الخارجي فصار رأسه رأس الكلب، فما يمنعك عن معاوية؟ فقال: «ويحك لو أشاء أن آتي بمعاوية إلى هنا يسريه لدعوت الله حتى فعل، ولكننا لله خزائنا لا على ذهب ولا فضة، ولكن على أسرار^٢، هذا تأويل ما تقرأ: ﴿عِبَادُ مُكْرَمُونَ﴾ الآية»^٣.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصُرَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ [٢٨]

ثم تبه سبحانه على سبب طاعتهم وغاية انقيادهم بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وما قدموا من أعمالهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وما آخروا، كما عن ابن عباس^٤.
وقيل: يعني يعلم أحوال آخرتهم^٥، دنياهم أو بالعكس^٥.
وقيل: يعني يعلم ما قبل خلقهم وما بعد خلقهم، فيكون المراد أنهم يتقبلون تحت قدرته ومحاطون بعلمه^٦، وهذا العلم يدعوهم إلى غاية الخضوع والانقياد.
﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ عنده تعالى ﴿إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصُرَ﴾ الله أن يشفعوا له من أهل التوحيد مهابة منه ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ والخوف منه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ وجِلُون، أو مرتعدون، أو من عظمتهم ومهابته خائفون.

روى عن النبي ﷺ أنه رأى جبرئيل ليلة المعراج ساقطاً كالحلجس من خشية الله^٧.

عن ابن عباس: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصُرَ﴾ أي لا لمن قال لا إله إلا الله^٨.

وعن الرضا عليه السلام: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصُرَ﴾ [الله] دينه^٩.

وعن الصادق عليه السلام: «أصحاب الحدود فساق لا مؤمنون ولا كافرون، ولا يحلدون في النار،

١. في النسخة: ولكن لله خزائن.

٣. الخرائج والجرائح ١: ٣١٧/٣، تفسير الصافي ٣: ٣٣٥.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٠.

٧. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٠، تفسير روح البيان ٥: ٤٦٩، والحلجس: ما يبسط في البيت من حصير ونحوه.

٨. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٠، تفسير روح البيان ٥: ٤٦٨.

٩. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٥/١٣٦، تفسير الصافي ٣: ٣٣٦.

٢. في المصدر: ولا إنكار على أسرار تدبير الله.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٠.

وَيُخْرِجُونَ مِنْهَا يَوْمًا، وَالشَّفَاعَةُ جَائِزَةٌ لَهُمْ وَلِلْمُشْتَغَعِينَ إِذَا ارْتَضَىٰ اللَّهُ دِينَهُمْ^١.

وعن الكاظم، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي، فَأَمَّا الْمُحْسِنُونَ مِنْهُمْ فَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ».

قيل: يا ابن رسول الله: كيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله يقول: ﴿لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ وَمَنْ يَرْتَكِبُ الْكَبِيرَةَ لَا يَكُونُ مَرْضًى؟

فقال: «ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلا ساء له ذلك وَيَذِمُّ عَلَيْهِ، وقال النبي ﷺ: كفى بالنَّدَمِ تَوْبَةً. وقال ﷺ: مَنْ سَرَّتهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتُهُ سَيِّئَتُهُ فهو مؤمن، فمن لَمْ يَنْدَمْ على ذَنْبٍ يَزْنِيهِ فليس بمؤمن، ولم تَجِبْ له الشفاعة، وكان ظالماً، والله يقول: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾^٢.

فقيل له: يا ابن رسول الله، وكيف لا يكون مؤمناً مَنْ لَمْ يَنْدَمْ على ذَنْبٍ يَزْنِيهِ؟ فقال: «ما من أحدٍ يرتكب كبيرةً من المعاصي وهو يعلم أنه سَيُعَاقَبُ عَلَيْهَا إِلَّا نَدِمَ على ما ارْتَكَبَ، ومتى نَدِمَ كان تائباً مستحقاً للشفاعة، ومتى لم يَنْدَمْ عليها كان مُصِرّاً، والمُصِرُّ لَا يُغْفَرُ له، لأنه غير مؤمن بِعُقُوبَةِ مَا ارْتَكَبَ، ولو كان مؤمناً بالعقوبة لَنَدِمَ، وقد قال النبي ﷺ: لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

وأما قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ [الله] دِينَهُ، والدِّينُ الإِقْرَارُ بِالْجَزَاءِ عَلَى الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، فَمَنْ ارْتَضَىٰ [الله] دِينَهُ نَدِمَ على ما ارْتَكَبَهُ مِنَ الذُّنُوبِ لِمَعْرِفَتِهِ بِعَاقِبَتِهِ فِي الْقِيَامَةِ^٣.

وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ يَرِ الْآلِيزِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ [٢٩ و ٣٠]

ثم بالغ سبحانه في إظهار غَضَبِهِ على الإشراك وقولهم: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ آلَهُ بِقوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَيَدْعِي﴾ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ، ومتجاوزين إِيَّاهُ تعالى ﴿فَذَلِكَ﴾ القائل بهذا القول منهم على فَرَضِ الْمَحَالِ ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ كغيره من المُجْرِمِينَ، ولا يُغْنِي عنهم ما ذكر من صفاتهم السيئة وأعمالهم المرضية، فكيف بغيرهم؟ ﴿كَذَلِكَ﴾ الجزء ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ على الله بتضييع حقّه

بالإشراك، وعلى أنفسهم بتعريضها للهلاك.

في ذكر بدو خلق ثم عاد سبحانه إلى الاستدلال على توحيده وتنزيهه من الشُّرك بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله وأشركوا به وَلَمْ يَخْلُقُوا بِالْغَفْكَرِ والاستفسار من العلماء ومطالعة الكتب ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ في بدو خلقتهما ﴿كَانَتَا﴾ شيئاً ﴿رَتْقًا﴾ ومُتَّصِمًا لَا فُرْجَةً بينهما وَلَا فُضَاءً ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ وفصلناهما وفرقنا بينهما.

عن ابن عباس وجمع من المفسرين: أن المعنى: كانتا شيئاً واحداً مُلتَزِمَتَيْنِ، ففصل الله بينهما، فَرَفَعَ السَّمَاءَ إِلَى حَيْثُ هِيَ، وَأَفْرَأَ الْأَرْضَ^١.

وعن كُعب: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مُلْتَصِقَتَيْنِ، ثُمَّ خَلَقَ رِيحاً تَوَسَّطَتْهُمَا فَفَتَقَتْهُمَا^٢. وقيل: إِنَّهُ جَاءَ فِي التَّوْرَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ جَوْهَرَةً ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنِ الْهَيْبَةِ فَصَارَتْ مَاءً، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا وَفَتَقَ بَيْنَهُمَا^٣.

وعن مجاهد: أَنَّ السَّمَاوَاتِ كَانَتْ مُرْتَمِقَةً وَمُتَّصِلَةً، فَجَعَلَتْ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وَكَذَلِكَ الْأَرْضُونَ^٤. وقيل: رَتْقَهُمَا: كَوْنُهُمَا مَدْدُومَتَيْنِ؛ لِأَنَّهُ لَا تَمَازٍ بَيْنَ الْإِعْدَامِ، وَفَتْقَهُمَا: إِجَادَهُمَا. وقيل: رَتْقَهُمَا: اتِّصَالُهُمَا بِالظُّلْمَةِ، وَفَتْقَهُمَا: إِظْهَارُ النَّهَارِ الْمُبْصِرِ بَيْنَهُمَا^٥. وعن ابن عباس وأكثر المفسرين: أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا بِالْإِسْتِوَاءِ وَالصَّلَابَةِ، فَفَتَقَ اللَّهُ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ، وَالْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ^٦.

وعن الباقر عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: «لَعَلَّكَ تَزْعُمُ أَنَّهُمَا كَانَتَا رَتْقًا مُلْتَزِمَتَيْنِ مُلْتَصِقَتَيْنِ، فَفَتِقَتْ إِحْدَاهُمَا مِنَ الْآخَرَى؟» فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُ رَبِّكَ، فَإِنْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ يَقُولُ: كَانَتِ السَّمَاءُ رَتْقًا لَا تُنْزِلُ الْمَطَرُ، وَكَانَتِ الْأَرْضُ رَتْقًا لَا تُنْبِتُ الْحَبَّ، فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، وَبَتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، فَفَتَقَ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ، وَالْأَرْضَ بِنَبَاتِ الْحَبِّ».

فَقَالَ السَّائِلُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ مِنْ وُلْدِ الْأَنْبِيَاءِ، وَعِلْمُكَ عَلَيْهِمْ^٧.

وفي (الكافي) عنه عليه السلام: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَهْبَطَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْأَرْضِ، وَكَانَتِ السَّمَاءُ رَتْقًا لَا تُمْطَرُ، وَكَانَتِ الْأَرْضُ رَتْقًا لَا تُنْبِتُ شَيْئًا، فَلَمَّا تَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٢، تفسير أبي السعود ٦: ٦٤.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٢، وفيه: وَفَتَقَ بَيْنَهُمَا.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٣.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٦٣.

٧. الكافي ٨: ٦٧/٩٥، تفسير الصافي ٣: ٣٣٧.

أَمَرَ السَّمَاءَ فَتَفَطَّرَتْ بِالْغَمَامِ، ثُمَّ أَمَرَهَا فَأَرْخَتْ عِزَّيْهَا^١، ثُمَّ أَمَرَ الْأَرْضَ فَأَنْبَتَ الْأَشْجَارَ وَأَنْثَمَرَتِ الثَّمَارُ، وَتَفَهَّقَتْ^٢ بِالْأَنْهَارِ، فَكَانَ ذَلِكَ رُتْقُهَا، وَهَذَا فَتْقُهَا^٣.

عن الصادق عليه السلام أنه سُئِلَ عن ذلك فقال: «هو كما وَصَفَ نَفْسَهُ، كان عرشه على الماء، والماء على الهواء، والهواء لا يتحد ولم يكن يومئذ خلق غيرهما، والماء يومئذ عَذْبٌ فَرَاتٌ، فلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْأَرْضَ أَمَرَ الرِّيحَ فَضْرِبَتِ الْمَاءَ حَتَّى صَارَ مَوْجًا، ثُمَّ أَزِيدَ وَصَارَ زَبَدًا وَاحِدًا، فَجَمَعَهُ فِي مَوْضِعِ الْبَيْتِ، ثُمَّ جَعَلَهُ جَبَلًا مِنْ زَبَدٍ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَيْكَةِ مَبَارَكًا﴾^٤ ثُمَّ مَكَثَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا شَاءَ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاءَ أَمَرَ الرِّيحَ فَضْرِبَتِ الْبُحُورَ حَتَّى أَزْبَدَتْهَا، فَخَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْجِ وَالزَّبَدُ دُخَانٌ سَاطِعٌ مِنْ غَيْرِ نَارٍ، فَخَلَقَ مِنْهُ السَّمَاءَ، وَجَعَلَ فِيهَا الْبُرُوجَ وَالنُّجُومَ وَمَنَازِلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَأَجْرَاهَا فِي الْفُلْكِ، وَكَانَتِ السَّمَاءُ خَضْرَاءَ عَلَى لَوْنِ الْمَاءِ الْأَخْضَرِ، وَكَانَتِ الْأَرْضُ غَبْرَاءَ عَلَى لَوْنِ الْمَاءِ الْعَذْبِ، وَكَانَتَا مَرْتُوقَتَيْنِ لَيْسَ لِهَمَا أَبْوَابٌ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْأَرْضِ أَبْوَابٌ، وَهُوَ الثَّبْتُ، وَلَمْ تَمْطُرِ السَّمَاءُ عَلَيْهَا فَتُتِبَ، فَفَتَقَتِ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ، وَفَتَقَ الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^٥ الْآيَةَ^٦.

أقول: رَجَحَ الْقَائِلُونَ بِهَذَا الْقَوْلِ قَوْلَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^٧ وَالْمَعْنَى فَفَتَقْنَا السَّمَاءَ لِإِثْزَالِ الْمَطَرِ، وَجَعَلْنَا مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ مِنَ النَّبَاتِ وَغَيْرِهِ حَيًّا.

وقيل: إِنَّ الْمَرَادَ بِالْمَاءِ النُّطْفَةِ^٨، فَيَكُونُ الْمَرَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خُصُوصَ الْحَيَوَانِ، لِأَنَّ النَّبَاتَ لَا يُسَمَّى حَيًّا، وَفِيهِ مَنَعٌ لِإِطْلَاقِ الْحَيِّ عَلَى الْأَرْضِ، فَضْلًا عَنِ النَّبَاتِ.

عن الباقر عليه السلام: «نَسَبَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى الْمَاءِ، وَلَمْ يَجْعَلِ لِلْمَاءِ نَسَبًا إِلَى غَيْرِهِ»^٩.

وعن الصادق: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ طَعْمِ الْمَاءِ فَقَالَ: «طَعْمُ الْمَاءِ طَعْمُ الْحَيَاةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾»^{١٠}.

ثُمَّ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عَدَمَ الْإِيمَانِ بِالتَّوْحِيدِ مَعَ دَلَالَةِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ.

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ

١. الغزالي: جمع عزلاء، وهو مصب الماء من القرية ونحوها، ويقال: أرسلت السماء عزاليها: انهمرت بالمطر.

٢. فُتِقَ الحوض: امتلأ حتى تصبب.

٣. تفسير الصافي ٣: ٩٣/١٢١، تفسير الصافي ٣: ٣٣٧.

٤. آل عمران: ٩٦/٣. ٥. تفسير القمي ٢: ٦٩، تفسير الصافي ٣: ٣٣٨.

٦. تفسير روح البيان ٥: ٤٧١. ٧. الكافي ٨: ٦٧/٩٤، تفسير الصافي ٣: ٣٣٨.

٨. مجمع البيان ٧: ٧٢، تفسير الصافي ٣: ٣٣٨.

يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ
الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [٣١-٣٣]

ثم ذكر برهاناً آخر بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ وَخَلَقْنَا فِيهَا جِبَالًا ﴿وَوَاسِي﴾ وَثَوَابَتْ فِيهَا، كراهة
﴿أَنْ تَمِيدَ﴾ وَتَمِيلَ ﴿بِهِمْ﴾ وَتَضْطَرِبَ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ وَطَرَقًا وَاسِعَةً لِيَكُونَ لَهُمْ ﴿سُبُلًا﴾
وَمَسَالِكَ إِلَى الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إِلَى مَصَالِحِهِمْ وَمُهَمَاتِهِمُ الَّتِي تَكُونُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، أَوْ
لِيَهْتَدُوا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَمَعَارِفِهِ.

وقيل: إِنَّ ضَمِيرَ (فِيهَا) رَاجِعٌ إِلَى الْجِبَالِ، لِأَنَّهَا الْمَحْتَاجَةُ إِلَى الطَّرِيقِ^١.

ثم ذَكَرَ دَلِيلًا آخَرَ بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ﴾ لَهُمْ ﴿سَفْفًا مَحْفُوظًا﴾ مِنْ الْوُقُوعِ وَالشَّقُوطِ وَالزَّوَالِ
وَالْإِنْحِلَالِ إِلَى الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَمِنْ اشْتِرَاقِ السَّمْعِ بِالشُّبْهِ.

والقَمِي: عَنِي مِنَ الشَّيَاطِينِ، أَيْ لَا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ^٢ ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ وَعَجَائِبِهَا الدَّالَّةُ عَلَى
كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لَا يَتَذَكَّرُونَ فِيهَا حَتَّى يَقِفُوا عَلَى فساد
مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشُّرْكِ وَالضَّلَالِ.

ثم تَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى بَعْضِ آيَاتِهَا بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ وَاللَّهُ ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ﴿اللَّيْلَ
وَالنَّهَارَ﴾ مُخْتَلِفِينَ ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ دَائِبِينَ ﴿كُلٌّ﴾ مِنْهُمَا ﴿فِي فَلَكٍ﴾ عَلَى حِدَةٍ ﴿يَسْبَحُونَ﴾
وَيُسْرِعُونَ فِي السَّيْرِ، كَمَا يَسْبَحُ السَّمَكُ فِي الْمَاءِ.

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ
الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَاءَ الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهُتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ
كَافِرُونَ [٣٤-٣٦]

ثم لَمَّا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ النِّعَمَ الدُّنْيَوِيَّةَ، تَبَّهَ الْمَشْرُكِينَ الظَّالِمِينَ بِقَاءِهِمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى قَتَانِهَا وَزَوَالِهَا بقوله:
﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ وَمَا قَدَرْنَا ﴿لِبَشَرٍ﴾ وَفَرَدَ مِنْ بَنِي آدَمَ الَّذِينَ كَانُوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْخُلْدَ﴾
وَالْحَيَاةَ الدَّائِمَةَ فِي الدُّنْيَا ﴿أَفَإِنْ مِتَّ﴾ يَا مُحَمَّدُ، وَأَنْتَ سَيِّدُ الْبَشَرِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَقْرَبُ الْخَلْقِ إِلَيْنَا
﴿فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ وَالْبَاقُونَ فِيهَا؟ كَلَّا، لَا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا، بَلْ أَنْتَ وَهُمْ عَلَى سُنَّتِنَا وَمَقْتَضَى الْحِكْمَةِ
الْبَالِغَةِ الَّتِي تَكُونُ لَنَا مَبْتُوتَانِ لَا مُحَالَةٍ.

قيل: إِنَّ أَنَسًا كَانَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَا يَمُوتُ، فَنَزَلَتْ^١.

وقيل: كانوا يُقَدِّرون أَنَّهُ ﷺ سَيَمُوتُ فَيَسْتَمُوتُونَ^٢ بموته، فَتَنَى اللهُ عَنْهُ الشَّمَاتَةَ وَبَيَّنَ أَنَّ حَالَهُ كَحَالِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ وَحَالِ سَائِرِ الْبَشَرِ، والمعنى: أَفَأَنْ مِتَّ فَهَمَّ الْخَالِدُونَ حَتَّى يَسْتَمُوتُوا بِمَوْتِكَ؟!^٣ وقيل: إِنَّهَا نَزَلَتْ حِينَ قَالَ: الْمُشْرِكُونَ: ﴿تَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾^٤.

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ عُمُومَ الْمَوْتِ لِكُلِّ أَحَدٍ بِقَوْلِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِنَ النَّفُوسِ نَبِيًّا كَانَ أَوْ وَلِيًّا، أَوْ مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا ﴿ذَائِقَةً﴾ وَطَاعِمَةً طَعْمِ ﴿الْمَوْتِ﴾، وَإِنَّمَا تَكُونُ حِكْمَةٌ تَعِيشُكُمْ وَحَيَاتِكُمْ فِي الدُّنْيَا أَنْ نَخْتَبِرَكُمْ ﴿وَنُبَلِّغُكُمْ﴾ فِي مَدَّةِ حَيَاتِكُمْ ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ وَالْبَلَاءِ وَالنُّعْمِ ﴿فِتْنَةً﴾ وَامْتِحَانًا لِيَسْتَمَيِّزَ الصَّابِرُ وَالشَّاكِرُ مِنْ غَيْرِهِمَا ﴿وَالْيَنَّا﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿تَرْجِعُونَ﴾ لِجَزَاءِ مَا اخْتَبَرْتُمْ بِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ.

عَنِ الصَّادِقِ ﷺ: «أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ مَرِضَ فَعَادَهُ إِخْوَانُهُ، فَقَالُوا: كَيْفَ نَجِدُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: بِشَرٍّ، قَالُوا: مَا هَذَا كَلَامُ مَنْكَ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَنُبَلِّغُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، فَالْخَيْرُ: الصَّحَّةُ وَالْغِنَى، وَالشَّرُّ: الْمَرَضُ وَالْفَقْرُ»^٥.

فَحَاصِلُ الْآيَةِ أَنَّ الْغُرَصَ مِنْ حَيَاةِ الدُّنْيَا الْإِبْتِلَاءُ، وَالتَّرَبُّصُ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَأَنَّ الْقَوْلَ بِنَفْيِ الْبَعْثِ وَالْمَعَادِ بَاطِلٌ مُخَالَفٌ لِلْحِكْمَةِ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ.

ثُمَّ حَكَى سُبْحَانَهُ اسْتِهْزَاءَ الْمُشْرِكِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ لِقَوْلِهِ بِالتَّوْحِيدِ وَذَمَّهُ الْأَصْنَامَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ ﴿إِنْ يَسْخَرُونَكَ﴾ وَلَا يَفْعَلُونَ بِكَ ﴿إِلَّا هُزُوءًا﴾ وَشُخْرِيَةً لِأَدْعَانِكَ التَّوْبَةَ وَدَعْوَتِكَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَذَمِّكَ الْأَصْنَامَ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ اسْتِهْزَاءً: ﴿أَهَذَا﴾ الرَّجُلُ الْوَحِيدُ الْفَقِيرُ هُوَ ﴿الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ بِالسُّوءِ ﴿وَهُمْ﴾ أَحِقَّاءُ بِالْاسْتِهْزَاءِ وَالْتُعِيبِ، لِأَنَّهُمْ ﴿يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ﴾ الْمُتَعَبِّعَ عَلَى عَامَّةِ الْمَوْجُودَاتِ ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ وَلِحَقُوقِهِ وَصِفَاتِهِ الْكَمَالِيَّةِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعَنَاءِ عَمَّا سِوَاهُ مَنْكُرُونَ.

قِيلَ: نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي أَبِي جَهْلٍ، مَرَّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ مَعَ أَبِي سَفْيَانَ، فَقَالَ لِأَبِي سَفْيَانَ: هَذَا نَبِيٌّ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ؟! فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: مَا أَشْكُرُ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا فِي بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْلَهُمَا، فَقَالَ لِأَبِي جَهْلٍ: «مَا أَرَأَيْكَ تَنْتَهِي حَتَّى يَنْزِلَ بِكَ مَا نَزَلَ بِعَمَلِكَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَأَنَا أَنْتَ يَا أَبَا سَفْيَانَ فَإِنَّمَا

٢. فِي النُّسخَةِ: فَيَسْتَمُوتُونَ.

١. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٢٢: ١٦٩.

٣. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٢٢: ١٦٩.

٤. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٥: ٤٧٥، وَالْآيَةُ مِنْ سُورَةِ الطُّورِ: ٣٠/٥٢.

٥. مَجْمَعُ الْبَيَانِ ٧: ٧٤، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ٣: ٣٣٩.

قُلْتُ مَا قُلْتُ حَمِيَّةً^١ فنزلت^١.

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا
الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [٣٧ و ٣٨]

ثم أنه تعالى بعد ذم المشركين على استهزائهم بالنبي ﷺ ذمهم على تعجيلهم في العذاب الموعود استهزاء بقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ﴾ بنوعه ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ والسُّرْعَةِ فِي طَلَبِ الْمَطْلُوبِ، وَقِلَّةِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ، فنزل سبحانه الخلق الذي طبع عليه منزلة مبدئية خلقه إيداناً بعدم انفكاكه منه. وَمِنْ عَجَلَتِهِ استعجاله نزول العذاب الذي كان يعدهم النبي ﷺ إياه.

رُوي أنها نزلت في النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ حِينَ اسْتَعْجَلَ الْعَذَابَ بقوله: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ^٢.

وعن ابن عباس: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِنْسَانِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ حِينَ بَلَغَ الرُّوحَ صَدَّرَهُ أَرَادَ أَنْ يَقُومَ^٣.

أقول: لعل المراد أَنَّ الْعَجَلَةَ أَوَّلًا كَانَتْ خُلُقُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ سَرَى هَذَا الْخُلُقُ فِي أَوْلَادِهِ وَذُرِّيَّتِهِ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْعَجَلِ الطَّيْنُ^٤، والمعنى: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ طَيْنٍ، وهذا المعنى في غاية البعد.

ثم وجه سبحانه الخطاب إلى المُسْتَعْجِلِينَ وهددهم بقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ﴾ وأنزل عليكم عن قريب ﴿آيَاتِي﴾ وعقوباتي الدالة على كمال قدرتي وقهارتي في الدنيا أو في الآخرة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالآيتين بها، فَإِنَّهُ اسْتَعْجَلَ فِي مَا يَضُرُّكُمْ غَايَةَ الضَّرَرِّ، وَهُوَ خِلَافُ الْعَقْلِ وَعَيْنُ السُّفْهِ وَ﴿يَقُولُونَ﴾ استعجالاً عن استهزاء بالنبي^٥ والمؤمنين بعد وعدهم إياهم بالعذاب: ﴿مَتَى﴾ يَقَعُ ﴿هَذَا الْوَعْدُ﴾ الَّذِي تَعِدُونَنَا بِهِ، فَأَتُونَا بِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي وَعْدِكُمْ.

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُونُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارُ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * قُلْ مَنْ يَكْلُو كُمُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرِّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ [٣٩-٤٢]

٢. تفسير أبي السعود ٦: ٦٧.

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٠.

٤. تفسير أبي السعود ٦: ٦٧.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ٦٧، تفسير روح البيان ٥: ٤٨٠.

٥. في النسخة: للنبي.

ثُمَّ أَجَابَهُمْ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ﴾ وَلَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ۖ لِإِحَاطَتِهَا بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ مِنْ أَحَدٍ فِي دَفْعِهَا، وَلَا يُعَاوَنُونَ مِنْ نَفْسٍ عَلَيْهَا^١ لَمَّا اسْتَعَجَلُوا بِهِ، أَوْ يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ الْحَالِ ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ الْعِدةُ أَوْ النَّارُ أَوْ السَّاعَةُ ﴿بَغْتَةً﴾ وَغَفْلَةً عَنْهُ ﴿فَتَنفَعَتْهُمْ﴾ وَتُحْزِرُهُمْ أَوْ تَغْلِبُهُمْ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ حِينَ إِيْتَانِهَا ﴿رَدَّهَا﴾ وَصَرَفَهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ وَيُثْمَلُونَ، كَيْ يَسْتَرْيَحُوا مِنْهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَإِنَّ الْإِهْمَالِ مَخْتَصٌّ بِالدُّنْيَا، أَوْ كَيْ يَتَخَذَرُوا مِنْ مَعَاصِيهِمْ، أَوْ لَا يُنْظَرُ إِلَيْهِمْ وَآلِي تَضَرَّعِهِمْ.

ثُمَّ لَمَّا حَكَى سُبْحَانَهُ اسْتِهْزَاءَ الْمُشْرِكِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ سَلَاةً وَوَعَدَهُ بِالنَّصْرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ﴾ كَثِيرَةٍ عَظَمَاءُ الْقَدَرِ كَانُوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ كَمَا اسْتَهْزَأَ قَوْمُكَ بِكَ فَصَبَرُوا ﴿فَحَاقَ﴾ وَأَحَاطَ ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ بَعْدَ سَخَرِيَّتِهِمْ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ مِنَ الْعَذَابِ، فَهَلَكُوا جَمِيعًا، وَكَذَلِكَ حَالُ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِكَ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَسْلِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَهْدِيدِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِهِ أَمْرَهُ بِتَقْرِيعِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدٌ لِلْمُسْتَهْزِئِينَ: ﴿مَنْ﴾ الَّذِي ﴿يَكْلُؤُكُمْ﴾ وَيَحْفَظُكُمْ ﴿بِاللَّيْلِ﴾ الَّذِي هُوَ أَغْلَبُ مَوَاقِعِ الْبَلِيَّاتِ ﴿وَالنَّهَارِ﴾ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالْآفَاتِ ﴿مِنْ﴾ عَذَابِ ﴿الرَّحْمَنِ﴾ غَيْرُهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُثْمَلُكُمْ مَعَ شِدَّةِ اسْتِحْقَاقِكُمْ ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ بِحَيْثُ لَا يَخْطُرُ بِإِلَيْهِمْ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَخَافُوا مِنْهُ، وَلَا يَعُدُّونَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْنِ وَالِدَّعةِ حِفْظًا وَكَلَاءَةً حَتَّى يَسْأَلُوا عَنِ الْكَالِينِ. وَفِي إِضَافَةِ الْإِعْرَاضِ إِلَى الذِّكْرِ، وَإِضَافَةِ الذِّكْرِ إِلَى الرَّبِّ، تَثْبِيَةً عَلَى كَوْنِهِمْ فِي الْغَايَةِ الْقُصْوَى مِنَ الضَّلَالِ.

أَمْ لَهُمْ إِلَهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ
* بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ
نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ [٤٣ و ٤٤]

ثُمَّ بِالْعَ سُبْحَانَهُ فِي تَقْرِيعِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهَةٌ﴾ قِيلَ: الْمَعْنَى بَلْ لَهُمْ^٢، أَوْ أَلَهُمْ^٣، أَوْ بَلْ أَلَهُمْ^٤ إِلَهَةٌ تَمْنَعُهُمْ وَتَحْفَظُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالْآفَاتِ اللَّيْلِيَّةِ وَالنَّهَارِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ ﴿مِنْ دُونِنَا﴾ وَعِنْدَنَا. وَقِيلَ: يَعْنِي تَتَجَاوَزُ مَعْنَاهُ، أَوْ أَلَهُةٌ يَكُونُونَ مِنْ دُونِنَا، وَهُمْ مُعَوْلُونَ عَلَيْهَا، مَعَ أَنَّهُمْ لَغَايَةِ ضَعْفِهِمْ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ وَرَفَعَ الْكُسْرَ وَالْقَطْعَ وَالتَّلْوِيثَ عَنْهَا ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ بِالنَّصْرِ،

٢. تفسير روح البيان ٥: ٤٨٣.

٤. تفسير البيضاوي ٢: ٧١.

١. هكذا الظاهر، وفي النسخة: عليه.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٤.

٥. تفسير أبي السعود ٦: ٦٩.

أَوْ يُنْتَفُونَ، كما عن ابن عباس^١.

وقيل: يعني لا يكون لهم من جهنما ما يَصْحَبُهُم من السُّكينة والرُّوح والرفق وغير ذلك مما يَصْحَبُ أوليائنا، فكيف يَتَوَهَّم أَنَّهُمْ يَتَضَرَّوْنَ غَيْرَهُمْ؟^٢ ﴿يَلْ﴾ مَعَ أَنَا حَفِظْنَاهُمْ مِنْ كُلِّ آفَةٍ ﴿مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ وأنعمنا عليهم بالنعم الكثيرة الدنيوية في المدة الطويلة ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ في العُقلة فَتَسُوا عَهْدَنَا، وَجَهِلُوا مَوْقِعَ نِعْمَتِنَا، وَاعْتَرَوْا بِهَا، مَعَ أَنَّهُ لَا وَجْهَ لِاغْتِرَارِهِمْ بِهَا مَعَ أَنَّهُ نَزَّلَ وَتَذَهَبُ بِسُرْعَةٍ، وَأَنَّهُمْ مَتَّهَرُونَ تَحْتَ قُدْرَتِنَا، وَيَزَوُّونَ آثَارَ عَذَابِنَا ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ الَّتِي يَسْكُنُونَهَا ﴿وَنَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ وَجَوَانِبِهَا بِتَسْلِيطِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا، وَتَنْجِيهِمْ بِلَادَهَا وَقَرَاهَا، وَنَزِيدُهَا فِي مَلِكٍ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقيل: يعني: إِنَّمَا تَمِيتَ رُؤْسَاءَهُمْ، أَوْ نَقَصْتَ مِنَ الشَّرِّكَ بِإِهْلَاكِ أَهْلِهَا، فَيَعْتَبِرُونَ بِمَا يَزَوُّونَ. فَيُؤْمِنُونَ بِالرُّسُولِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ نِعْمَتَهُمْ مِنَّا وَبِقَاءِهَا وَزَوَالِهَا بِيَدِنَا، أَوْ يَعْلَمُونَ أَنَّا قَادِرُونَ عَلَى إِنْجَازِ وَعْدِنَا إِيَّاهُمْ بِالْعَذَابِ، وَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى حِفْظِهِ مِنْهُ^٣.

عن ابن عباس: تفسير نَقَصَ الْأَرْضَ نَقَصُهَا بِفَتْحِ الْبِلَادِ، أَوْ تَقْصَانِ أَهْلِهَا وَبَرَكَّتْهَا^٤.

وقيل: تخريب قَرَاهَا بِمَوْتِ أَهْلِهَا^٥.

وقيل: هو مَوْتُ الْعُلَمَاءِ^٦، كَمَا رَوَى عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^٧ وَاعْتَرَضَ عَلَيْهِ الْبَعْضُ بِأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي كُفَّارِ مَكَّةَ، فَكَيْفَ يَدْخُلُ فِيهَا الْعُلَمَاءُ وَالْفُقَهَاءُ؟

وفيه: أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأَرْضِ عَلَى هَذَا التفسيرِ مُطْلَقُهَا، وَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ اعْتِبَارَ أَهْلِ مَكَّةَ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ النقصِ الْمَعْنَى الْعَامَّ الشَّامِلَ لِلْجَمِيعِ بِإِرَادَةِ عُمُومِ الْمَجَازِ.

ثُمَّ أَنْكَرَ سَبْحَانَهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ تَوَهُّمَ غَلَبَتِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَ مَشَاهِدَتِهِمْ آثَارَ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنَّهُمْ أَغْلَابُونَ﴾ وَالْقَاهِرُونَ عَلَى نَبِيِّنَا ﷺ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِ مَعَ رُؤْيَتِهِمْ آثَارَ قُدْرَتِنَا وَتَضَرُّعِنَا إِيَّاهُمْ، أُمُّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَحُزْبُهُ الَّذِينَ هُمْ حِزْبُ اللَّهِ غَالِبُونَ عَلَى أَوْلَئِكَ الْكُفْرَةِ الطُّغَاةِ.

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يَسْتَدْرُونَ * وَلَكِنَّ مَسْتَهْتَمَهُمْ نَفْحَةً مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ * لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ [٤٥ و ٤٦]

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٨٣.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٤٨٣.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٤.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٥.

٥ و ٦. مجمع البيان ٧: ٧٩، تفسير الرازي ٢٢: ١٧٥.

٧. مجمع البيان ٧: ٧٩، تفسير الصافي ٣: ٣٤١.

ثم أنه تعالى بعد إكثار الأدلة على بطلان الشرك وتكرارها على التوحيد وعدم انتفاع المشركين بها، والإبلاغ في وعيدهم بالعذاب وعَدَمِ مبالايتهم به، ومبالغتهم في الاستعجال بوعد الرسول إستهزاءً به، أمر نبيه ﷺ بالتبليغ والاهتمام بأداء وظيفة الرسالة، وعدم الاعتناء بثرهاتهم بقوله: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِكَ﴾ **﴿إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ﴾** أيها الطغاة على حسب وظيفتي من قِبَلِ رَبِّي **﴿بِالْوَحْيِ﴾** الذي جاءني بتوسط جبرئيل، وبالقرآن الذي نَزَلَ إليّ، وليس لي أن آتيكم بما أنذركم به من العذاب، فإنه بقدره رَبِّي ومشيئته، وأنتم لعدم انتفاعكم بدعوتي وإنذاري كالصَّمْ **﴿وَلَا يَسْمَعُ الدُّعَاءُ﴾** ونداء المُنادي **﴿إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾** وإنما قيّد الدعاء بوقوعه وَقْتُ الإنذار؛ لأنَّ الْمُتَعَذِّدَ فِي إنذار الأصم الإفراط في رَفْعِ الصوت وتكريره والإبلاغ في تفهيمه بالإشارة الدالة عليه، فإذا لم يَسْمَعُوا مَعَ ذلك يكون صَمَمَهُمْ إلى حدٍّ لا وِراءَ له.

ثم بيّن سبحانه أن تعجيلهم بالعذاب إنما هو لِجَهْلِهِمْ بشدته وكيفيته، وأنهم إذا رأوه يعترفون على أنفسهم بالظلم ويَعْتَذِرُونَ من تصاممهم بقوله: **﴿وَلَكِنَّ مَسَّتْهُمْ﴾** ووالله إن أصابهم أدنى مرتبة الإصابة **﴿نَفْحَةً﴾** وشيء يسير كالرائحة **﴿مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾** لتنادوا بالويل والثبور **﴿كَيْقُولٌ﴾** تَذَلُّاً وتحسراً وتندماً واعتراضاً بفساد عقائدهم وأعمالهم: **﴿يَا وَيَلْنَا﴾** وهلاكنا **﴿إِنَّا كُنَّا﴾** في الدنيا **﴿ظَالِمِينَ﴾** على الله بإثبات الشريك له، وعلى الرسول بالاستهزاء، وعلى أنفسنا بتعريضها للهلاك.

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ [٤٧ و ٤٨]

ثم بيّن سبحانه كمال العدل في تعذيبهم بقوله: **﴿وَنَضَعُ﴾** وننصب **﴿الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾** والعدل **﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾** لوزن العقائد والأعمال بها، ليُعلم النَّاسُ مقدار سيئاتهم وحسناتهم، وما يستحقّون من الثواب والعقاب، وقد مرّ تحقيق المراد من الموازين وما يُوزَنُ بها في سورة الأعراف^١ **﴿فَلَا تُظْلَمُ﴾** نفوس من النفوس **﴿شَيْئاً﴾** من حقّها، بل يوفى حقُّ كلِّ ذي حقٍّ إن خيراً أفضح، وإن شراً فشر **﴿وَأَنْ كَانَ﴾** عملها **﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾** ومقدارها في الصِّغَرِ والحقارة، أخضّرنا ذلك العمل الَّذِي لَهُ وَزَنٌ حَبَّةٌ هي أصغر الحبوب **﴿وَأَتَيْنَا بِهَا﴾** للحساب، ونَضَعُها في الموازين **﴿وَوَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾** للأعمال عادلين فيها.

عن ابن عباس: يعني عالمين^١، إذ لا أعلم ولا أحفظ منا.

ثم أنه تعالى بعد إبطال الشرك، وإثبات التوحيد والمعاد بالأدلة القاطعة، ودفع شبهة المشركين في الرسالة، شرع في بيان أحوال الأنبياء العظام الذين كانوا من البشر ودعاة إلى التوحيد والتمتع بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَآخَاهُ هَارُونَ﴾ التوراة التي تكون هي ﴿الْفُرْقَانُ﴾ والمميز بين الحق والباطل ﴿وَضِيَاءُ﴾ يستضاء بها في ظلمات الخيرة والجهالة ﴿وَذِكْرًا﴾ وعظة عظيمة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمحترزين من القبائح وشور العواقب، فإنهم المستضيئون بأنواره المتعتمون بغنائم آثاره. وقيل: إن الفرقان هو الضر على الأعداء^٢.

وقيل: هو البرهان الذي فرق به الدين الحق عن الأديان الباطلة^٣.
وقيل: هو قلن البحر^٤.

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكِ
أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ [٥٠ و ٤٩]

ثم وصف الله المتقين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ ويحافون من عذابه الذي يكون ﴿بِالْغَيْبِ﴾ عنهم، وفي السر عن أعينهم.
وقيل: يعني يخشون ربهم وهم غائبون عن الآخرة^٥.

وقيل: يخشون ربهم في الخلوات والغياب عن الناس^٦ ﴿وَهُمْ مِنْ﴾ عذاب ﴿السَّاعَةِ﴾ وأهوالها ﴿مُشْفِقُونَ﴾ ووجلون، أو مترعدون، فلذلك يحترزون عن اتباع الشهوات وآرتكاب السيئات.
ثم لما مدح الله سبحانه التوراة، مدح القرآن بقوله: ﴿وَهَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿ذِكْرٌ﴾ وعظة للناس إلى يوم القيامة و﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير والنفع، أو ما يترك به ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ بتوسط جبرئيل كما أنزلنا التوراة من قبل ﴿أَفَأَنْتُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿لَهُ﴾ نزولاً وبركة ﴿مُنْكَرُونَ﴾ مع عدم المجال لإنكاره لاشتماله على معجزات كثيرة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ
الْأَسْمَائِيلُ أَلَيْسَ أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ

٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٨، تفسير أبي السعود ٦: ٧١.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٩، تفسير أبي السعود ٦: ٧١.

١. تفسير روح البيان ٥: ٤٨٦.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٩.

٥ و ٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٧٩.

كُنْتُمْ أَنتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ
الْأَلَاغِينِ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى
ذِكْرِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ *
فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ [٥٨-٥١]

ثم بين سبحانه عظم شأن إبراهيم عليه السلام ورسالته وكيفية دعوته بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿رُشْدَهُ﴾ وهدايته إلى الحق ومصالح الدين والدنيا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي العصر السابق على عصر موسى عليه السلام، كما عن ابن عباس^١. أو في عالم الذر حين أخذنا ميثاق النبيين، كما عنه أيضاً^٢ ﴿وَكُنَّا بِهِ﴾ وبأهليته لذلك العطاء ﴿عَالَمِينَ﴾ وأذكر يا محمد ﴿إِذْ قَالَ﴾ حسب وظيفة الرسالة ﴿لِأَيُّهِ﴾ أزر ﴿وَقَوِيهِ﴾ قيل: هم أهل بابل^٣: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ والصُورُ المُجَسِّمَةُ ﴿الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ وإلى عبادتها مقبلون، ولخدمتها ملتزمون؟ ﴿قَالُوا﴾ في جوابه: إِنَّا ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ لها عابدين، ونحن لهم مقلدون، وبهم متقنون.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام: بالله ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ﴾ أيها المقلدون ﴿وَأَبَاؤُكُمْ﴾ الَّذِينَ اقْتَدَيْتُمْ بِهِمْ ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وخطأ ظاهر عظيم لا يخفى على ذي شعور ﴿قَالُوا﴾ تعجباً واستبعاداً منه لمخالفته أهل بلده: ﴿أَجِئْنَا بِالْحَقِّ﴾ وكلام صِدْقٍ وعن جدٍّ ﴿أَمْ أَنْتَ مِنَ الْالَّاغِينِ﴾ والهازلين بهذا القول المخالف للأكثرين ومن المازحين معنا؟ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: لست من اللاعبين والمازحين ﴿بَلْ﴾ أقول عن جدٍّ وحقبة: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾ وَخَلَقَهُمْ بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ بِلا مثال سابق، أو الذي خَلَقَ التماثيل ﴿وَأَنَا عَلَى ذِكْرِكُمْ﴾ الذي ذكرته من كون الرب والإله رب جميع الموجودات وَخَدَهُ دون التماثيل وغيرها ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ والعالمين به بالبراهين.

قيل: إن قومه كان لهم عيدٌ يَخْرُجُونَ فيه من البلد إلى الصحراء للطَّربِ والبَطْرِ، ثم يعودون إلى بيوت أصنامهم وَيُزَيِّنُونَهَا وَيُعْبَدُونَهَا، فلما ناظر إبراهيم عليه السلام بعضهم قالوا: غداً يوم العيد فأخرج معنا وانظر محاسن ديننا، فسكت إبراهيم عليه السلام، فلما كان الغد جاءوا إليه وسألوه الخروج معهم، فاعتل وتمارض وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعني عن عبادة الأصنام^٤، فلما ذهبوا قال إبراهيم في نفسه: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ واحتالَنَ واجتهدن في كسرهما، أو لأحتالَنَ بكم في كسرهما ﴿بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا﴾ وترجعوا ﴿مُدْبِرِينَ﴾ وذاهبين من بيوتها إلى عيدهم.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٠.

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٠.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٢.

وعن السُّدِّي: كانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان هذا الوقت قال آزر لإبراهيم عليه السلام: لو خرجت معنا؟ فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ واشتكى رجله، فلما مَضَوْا وبقي الصُّغَاء نادى ﴿و﴾ قال: ﴿تَأْتِيهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾^١.

وعن الكلبي: كان إبراهيم من أهل بيت ينظر [ون] في النجوم، وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يتركوا إلا مريضاً، فلما هم إبراهيم بكسر الأصنام، نظر قبل يوم العيد إلى السماء، فقال لأصحابه: أراني اشتكى غداً، فأصبح من الغد معصباً رأسه، فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلف أحد غيره، فقال: أما والله لأكيدَنَّ أصنامَكُمْ، فسمع قوله رجلٌ منهم، فأخبر به غيره فانتشر ذلك^٢.

وَرَوَى أَن آزَرَ خَرَجَ بِهِ فِي عِيدِ لَهُمْ، فَبَدَأُوا بَيْتَ الْأَصْنَامِ فَدَخَلُوهُ، وَسَجَدُوا لَهَا وَوَضَعُوا بَيْنَهَا طَعَاماً وَخُبْزاً، وَقَالُوا: الْآنَ تَرْجِعُ بَرَكَةَ الْإِلَهِةِ عَلَى طَعَامِنَا، فَذَهَبُوا وَبَقِيَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَنَظَرَ إِلَى الْأَصْنَامِ فَقَالَ مُسْتَهْزِئاً بِهِمْ: مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَأْكُلُونَ؟! ثُمَّ التَفَتَ إِلَى فَاوِسَ مَعْلَقٍ فَنَآوَلَهُ، وَكَانَ هُنَاكَ سَبْعِينَ صِنماً، وَكَانَ صِنَمٌ عَظِيمٌ مُسْتَقْبِلُ الْبَابِ، وَكَانَ مِنْ ذَهَبٍ، وَكَانَ فِي عَيْنَيْهِ جَوْهَرَتَانِ تَضِيئَانِ، فَكَسَرَ الْكُلَّ بِالْفَأْسِ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ وقطعاً متفرقة ﴿إِلَّا كَبِيرًا﴾ كان ﴿لَهُمْ﴾ فإنه عليه السلام لم يكسره وعلق الفأس في عنقه^٣ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بعد رجوعهم من عيدهم ورؤيتهم فعل إبراهيم عليه السلام ﴿إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ في تعيين الكاسر لتسامعهم إنكاره لدينهم وسبه آلهتهم، أو إلى مقاتله من التوحيد يرجعون، وعن دينهم الباطل يعدلون، لؤييتهم أن أصنامهم لم تغدروا على أن يدفعوا عن أنفسهم ضرراً ولم يتل من أهانهم^٤ وكسرهم ضرراً.

وقيل: يعني لعلهم إلى الصنم الكبير يرجعون، وإنما قال عليه السلام ذلك استهزاء بهم^٥.

وقيل: يعني يرجعون إليه في حل مشكلهم من تعيين الكاسر، وعلّة إبقاء الكبير وتعليق الفأس في عنقه وكسر ما عداه^٦، حتى يظهر غاية جهالتهم وحمافتهم.

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَغْيَنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا

٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٢.

٤. في النسخة: أهان بهم.

١. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٢.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ٧٣.

٥ و ٦. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٣.

يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ [٥٩-٦٥]

ثم لما رجع القوم من عيدهم ودخلوا بيت الأصنام ليسجدوا لهم، رأوا ما فعل إبراهيم عليه السلام بهم ﴿قَالُوا﴾ تشبيهاً على كاسرهم وتهديداً له: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا﴾ الفعل ﴿بِأَلْهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بتعريضها للهلاك، أو على الآلهة المستحقة للتعظيم بجراته على كسرهم وتوهمهم، فلما سمع هذا الكلام الذين علموا أنه قال إبراهيم عليه السلام: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾^١، ﴿قَالُوا﴾: يا قوم إنا ﴿سَمِعْنَا﴾ من الناس أن ﴿قَتَى﴾ وشاباً يعيب الآلهة و﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ بشوءٍ ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ فلعله فعل ذلك بهم. فلما سمع القوم ذلك ﴿قَالُوا﴾ - وقيل: إن نموذ وأشراف قومه قالوا في ما بينهم -: ﴿فَأْتُوا بِهِ﴾ وأحضروه ﴿عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾^٢ وبمراى منهم ومنظر، وفيهم الذين عرفوه ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بأنه فعل ذلك، أو قال ذلك القول لئلا يأخذه بلا بيعة، فلما أحضروا إبراهيم عليه السلام ﴿قَالُوا﴾ تقريراً له: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾ الفعل ﴿بِأَلْهَتِنَا﴾ وأصنامنا ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ﴾ في جوابهم تهكماً: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ الذي لم يكسر، لغضبه على أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، كما قيل^٣، فان لم تقبلوا قولي ﴿فَسْأَلُوهُمْ﴾ عمن فعل بهم ذلك ﴿إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ حتى يصدقوني في ما أخبركم به.

روت العامة عن النبي ﷺ: «أنه لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات؛ أحدها أنه قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، والثانية أنه قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، والثالثة أنه [قال لسارة: هي أختي]»^٤. وعن الصادق عليه السلام: «إنما قال إبراهيم عليه السلام: إن كانوا ينطقون فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فلم يفعل كبيرهم شيئاً، فما نطقوا، وما كذب إبراهيم»^٥.

وعنه عليه السلام أيضاً إنما قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، إرادة الإصلاح ودلالة على أنهم لا يفعلون^٦، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ مَا فَعَلَهُ وَمَا كَذَّبَ﴾^٧.

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ ورأجعوا إلى عقولهم، وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه، ولا على الإضرار بمن كسره، يستحيل أن يقدر على دفع الضرر عن غيره، وما يكون كذلك لا يجوز عبادته.

١. الأنبياء: ٥٧/٢١. ٢. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٤.

٣. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٤. ٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٥، تفسير روح البيان ٥: ٤٩٤.

٥. معاني الأخبار: ١٧٢١٠، تفسير الصافي ٣: ٣٤٣. ٦. الكافي ٢: ١٧/٢٥٦، تفسير الصافي ٣: ٣٤٣.

٧. الكافي ٢: ٢٢/٢٥٦، تفسير الصافي ٣: ٣٤٣.

وقيل: يعني رَجَعُوا إلى أنفسهم فَلَا مَوْهًا **﴿فَقَالُوا﴾** فيما بينهم: **﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾** على أنفسكم بعبادتهم لَا مَن كَسَرَهُم، أو ظالمون على إبراهيم عليه السلام حيث تَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَسَرَهُم، مع أَنَّ النَّاسَ عند الصنم الكبير، أو الظالمون على أنفسهم حيث سَأَلْتُمْ إبراهيم عليه السلام عن ذلك، فأخذ يستهزئ بكم في الجواب **﴿ثُمَّ تُكْسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾** وعادُوا إلى ما كانوا عليه من الْحَقِّ والمجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة إلى عقولهم.

وقيل: يعني ثُمَّ قَبِلُوا على رُؤُوسِهِمْ لِقِرَاطِ إِطْرَاقِهِمْ خَجَلًا وانكسارًا بما بهتهم به إبراهيم عليه السلام، فما أَحَارُوا جوابًا إِلَّا أَنَّهُمْ قَالُوا: والله **﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾** يا إبراهيم **﴿مَا هَؤُلَاءِ﴾** الأصنام **﴿يَنْطِقُونَ﴾** فكيف تأثرنا بالسؤال، عنهم فاعترفوا بلزوم حُجَّة إبراهيم عليه السلام عليهم.

وقيل: يعني قَبِلُوا على رُؤُوسِهِمْ في الْحُجَّة على إبراهيم عليه السلام، واحتجوا عليه بما هو الْحُجَّة له، لغاية تحيُّرهم، والمراد تُكْسِتُ حُجَّتَهُم، فأقامُوا الْحُجَّة عليهم مقام الْحُجَّة لهم ^٢.

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا جِرِّقُوا وَأَنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَأَنَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ [٦٦-٦٩]

ثُمَّ **﴿قَالَ﴾** إبراهيم عليه السلام توبيخاً عليهم وتبكيئاً لهم: **﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا﴾** إنَّ عِبَادَتِهِمْ **﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾** إِنْ لَا تَعْبُدُوهُ، بل ولو أَهْتَمُّوهُ؟ مع أَنَّ المعبود لابدَّ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى الإِنْفَاعِ والإِضْرَارِ، كَيْ لَا تَكُونَ عِبَادَتُهُ عِبثًا.

ثُمَّ لَمَّا رَأَى إِصْرَارَهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ قَالَ تَضَجُّرًا مِنْهُمْ: **﴿أَفْ لَكُمْ﴾** وَتَبَحًا **﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾** من الجمادات الخسيسة **﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾** قُبِحَ صَنِيعُكُمْ وَشَنَاعَةُ عَمَلِكُمْ. ثُمَّ لَمَّا عَجَزُوا عَنِ الْعَلِيَّةِ عَلَيْهِ بِالْحُجَّة تَشَاوَرُوا فِي إِهْلَاكِهِ **﴿وَقَالُوا﴾** إِنْ أَرَدْتُمْ إِهْلَاكَهُ **﴿حَرِّقُوهُ﴾** بالنار، فَإِنَّهُ أَشَدَّ الْعُقُوبَاتِ **﴿وَأَنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾** بِالْإِنْتِقَامِ لَهَا **﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾** فَعَلًا فِي نُصْرَتِهِمْ وَالْإِنْتِقَامِ لَهُمْ.

قِيلَ: إِنَّ الْقَائِلَ تَمْزُودٌ ^٤. وقيل: إِنَّهُ رَجُلٌ مِنَ الْكُرْدِ، مِنْ أَعْرَابِ فَارَسٍ ^٥. وقيل: إِنَّهُ رَجُلٌ اسْمُهُ هَبْرَيْنَ، خَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ^٦.

قصصة إلقاء ثم لما اتفقوا على إحراقه، حبسه نمرود وبني ثيناناً كالخطيرة، واهتم الناس بجمع الخطب، حتى إن المرأة لو مرضت نذرت إن عافاها الله منه جمعت الخطب لإبراهيم عليه السلام في النار لإبراهيم، وكانوا على ذلك أربعين يوماً.

وروي أن الدواب امتنعت من حمل الخطب إلا البغال، فعاقبها الله بأن أعقمتها.^١
 قيل: صبوا على الخطب دهنًا كثيرًا، ثم أضرموا فيه النار، وأوقدوها سبعة أيام، فلما اشتعلت النار صار الهواء بحيث لو مرَّ الطير في أقصى الجوّ لا حترق.^٢
 روي أنهم لم يعلموا كيف يُلْقون إبراهيم عليه السلام فيها لعدم إمكان قربهم منها، فجاء إبليس في صورة شيخ وعلمهم عمل المنجّيق.^٣

وقيل: تمثل لهم في صورة نجار فصنع لهم، ثم نصبوه على رأس الجبل، ووضعوا إبراهيم عليه السلام فيه مقيدًا مغلولًا، فصاحت السماء والأرض ومن فيهما إلا الثقلين صيحة واحدة: أي ربنا ما في أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم، وهو يحرق فيك! فأذن لنا في نصرته. فقال تعالى: إن استعان بأحد منكم لينصره، فقد أذنت له في ذلك، وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه، فخلوا بيني وبينه، فإنه خليلي ليس لي خليل غيره، وأنا إله ليس له إله غيري.

فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه خازن الرياح فقال: إن شئت طيرت النار في الهواء، وأتاه خازن المياه وقال: إن أردت أخمدت النار. فقال إبراهيم عليه السلام: لا حاجة لي إليكم، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض من يعبدك غيري، حسبي الله ونعم الوكيل.

وأقبلت الملائكة فلزموا كفة المنجّيق، فرفعه أعوان نمرود، فلم يرتفع. فقال لهم إبليس: أتجنون أن يرتفع؟ قالوا: نعم. قال: اتوني بعشر نساء، فأتوا بهنّ، إلى أن قال: فمدت الأعوان المنجّيق، وذهبت الملائكة، فلما ألقى في النار قال: لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك.^٤

وروي أن جبرئيل أذركه في الهواء، وقال: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال: سل ربك حاجتك. قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فأخبر سبحانه عن إجابته له بقوله: ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.^٥

٤. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٧.

١-٣. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٧.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٤٩٨.

عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: إن إبراهيم عليه السلام لما ألقى في النار قال: اللهم إني أشألك بحق محمد وآله لما أنجيتني منها، فجعلها الله عليه بزداً وسلاماً»^١.

وعن ابن عباس: لو لم يتبع برداً سلاماً لمات إبراهيم عليه السلام من بزدها، ولم يتبق يومئذ في الدنيا نازلاً طيفت^٢.

قيل: فأخذت الملائكة بصنعي إبراهيم عليه السلام، وأفعدوه في الأرض، فإذا عين ماء عذب، ووزد أخمر وتزجس، ولم تحرق النار منه إلا وثاقه^٣.

وقيل: إن إبراهيم عليه السلام لما ألقى في النار كان فيها أربعين يوماً أو خمسين، وقال: ما كنت أياًماً أطيب عيشاً مني إذ كنت فيها^٤.

وقيل: بعث الله ملك الظل في صورة إبراهيم عليه السلام، فقعده إلى جنبه يؤنسه، وأتاه جبرئيل بقميص من حرير الجنة وقال: يا إبراهيم، إن ربك يقول: أما علمت أن النار لا تضر أجبانتي؟ ثم نظر ثمزود من صرح له مشرف على إبراهيم عليه السلام، فرآه جالساً في روضه، ورأى الملك قاعداً إلى جنبه، وحوله نار تحرق الحطب، فناده: يا إبراهيم، هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: فم فأخرج منها، فقام يمشي حتى خرج منها.

قال له ثمزود: من الرجل الذي رأيته معك في صورتك؟ قال: ذلك ملك الظل أرسله ربي ليؤنسني فيها. فقال ثمزود: إني مقرب إلى ربك قرباناً لما رأيته من قدرته وعزته في ما صنع بك، فإني ذابح له أربعة آلاف بقرة.

فقال إبراهيم عليه السلام: لا يقبل الله منك ما دمت على دينك. فقال ثمزود: لا أستطيع أن أشرك ملكي، ولكن سوف أذبحها له؛ ثم ذبحها له، ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام، ثم أطبقوا عليه، ثم فتحو عليه من العد، فإذا هو [غير] محترق يغرق عرقاً^٥.

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ

١. الاحتجاج: ٤٨، تفسير الصافي ٣: ٣٤٤. ٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٨.

٣. الضبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها، وهما ضبعان.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٨، والوثاق: ما يشد به، كالجل وغيره.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٨٨.

وَإِنِّي أَنَا لَزَكَاةٌ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ [٧٠-٧٣]

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ إِيَّاهُمُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي النَّارِ صَارَ مُعْجَزَةً قَاهِرَةً لَهُ يَقُولُهُ: ﴿وَأَرْأُوهُ بِكَ كَيْدًا﴾ وَمُكْرًا عَظِيمًا فِي الْإِضْرَارِ بِهِ وَإِهْلَاكِهِ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ مِنْ كُلِّ خَاسِرٍ حَيْثُ صَارَ سَعْيُهُمْ فِي إِهْلَاكِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالنَّارِ دَلِيلًا ظَاهِرًا كَالنَّارِ عَلَى الْمَنَارِ عَلَى رِسَالَتِهِ، وَ[صَارَ] اتِّفَاقُهُمْ عَلَى إِطْفَاءِ نَوْرِ الْحَقِّ بُرْهَانًا قَاطِعًا عَلَى حَقَّانِيَّتِهِ.

وَقِيلَ: يَعْنِي جَعَلْنَاهُمْ الْهَالِكِينَ بِتَسْلِيْطِ الْبَعُوضِ عَلَيْهِمْ وَقَتْلِهِ إِيَّاهُمْ مَعَ كَوْنِهِ أَوْسَعُ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا بَرِحَ نَمُودُ حَتَّى رَأَى أَصْحَابَهُ قَدْ أَكَلَ الْبَعُوضُ لُحُومَهُمْ، وَشَرِبَ دِمَاءَهُمْ، وَوَقَعَتْ بَعُوضَةٌ فِي مَنْخَرِهِ، فَلَمْ تَزَلْ تَأْكُلُ مِنْهُ إِلَى أَنْ وَصَلَتْ إِلَى دِمَاعِهِ، وَكَانَ أَكْرَمَ النَّاسِ عَلَيْهِ الَّذِي يَضْرِبُ رَأْسَهُ بِمِرْزَبَةٍ^١ مِنْ حَدِيدٍ، فَأَقَامَ بِهَذَا الْحَالِ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ ثُمَّ مَاتَ، كَذَا قِيلَ^٢.

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ سَائِرَ نِعَمِهِ الْعِظَامِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُهُ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾ الَّذِي هُوَ ابْنُ أَخِيهِ، أَوْ ابْنُ خَالَتِهِ، مِنْ شَرِّ الْكُفَّارِ وَمَجَاوَرَتِهِمْ مُهَاجِرِينَ مِنْ بَابِلَ وَأَرْضِ الْعِرَاقِ ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا﴾ وَأَكْثَرْنَا نِعْمًا ﴿فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ مِنْ حَيْثُ إِكْثَارُ الْمِيَاهِ وَالْأَشْجَارِ وَالشَّمَارِ وَالْحَطَبِ، وَطَيْبِ الْعَيْشِ لِلْعَبْدِيِّ وَالْفَقِيرِ، وَيَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ وَنَشَرَ الشَّرَائِعِ، وَهِيَ أَرْضُ الشَّامِ.

وَعَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ: سَمَّاها مَبَارَكَةً لِأَنَّهُ مَا مِنْ مَاءٍ عَذْبٍ إِلَّا وَيَنْبُتُ أَصْلُهُ مِنْ تَحْتِ الصَّخْرَةِ الَّتِي يَنْبُتُ الْمَقْدِسُ^٣.

قِيلَ: خَرَجَ إِبْرَاهِيمُ مَعَ لُوطَ وَسَارَةَ مِنْ كُوثَى، وَهُوَ مِنْ بِلَادِ أَرْضِ بَابِلَ، مُهَاجِرًا إِلَى رَبِّهِ، وَفِرَارًا بِدِينِهِ، حَتَّى نَزَلَ بِحَرَانَ، فَمَكَثَ بِهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ ارْتَحَلَ مِنْهَا وَنَزَلَ بِفَلَسْطِينَ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا مُهَاجِرًا حَتَّى قَدِمَ مِصْرًا، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مِصْرَ وَعَادَ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ، وَنَزَلَ لُوطَ بِالْمُوتَعِيقَةِ وَبَعَثَهُ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَى أَهْلِهَا^٤.

وَفِي الْحَدِيثِ: بَنِيَ الْمَقْدِسَ أَرْضُ الْحَشْرِ وَالشَّيْرِ، وَالشَّامُ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ بِلَادِهِ يَجِيئُ إِلَيْهَا صَفْوَةُ خَلْقِهِ^٥.

وَكَانَ مِنَ الْيَمَنِ أَنَّا أُنْعِمْنَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ بَعْدَ هِجْرَتِهِ إِلَى الْأَرْضِ الْمَبَارَكَةِ وَنَزُولِهِ فِيهَا ﴿إِسْحَاقَ﴾ مِنْ صُلْبِهِ وَرَجِمَ سَارَةَ ﴿وَيُعْقُوبَ﴾ مِنْ صُلْبِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَالِ كَوْنِهِ ﴿نَافِلَةً﴾

١. الْمِرْزَبَةُ: عُصْبَةٌ مِنْ حَدِيدٍ، وَمَطْرَقَةٌ كَبِيرَةٌ تُكْسَرُ بِهَا الْحِجَارَةُ.

٢. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٥: ٥٠٠.

٣. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٥: ٥٠١.

٤. ٥. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٥: ٥٠١.

وعطية زائدة ﴿وَكَلَّا﴾ مِنَ الْأَرْبَعَةِ، أو من إسحاق ويعقوب عليه السلام ﴿جَعَلْنَا﴾ هُمْ بتوفيقنا ﴿صَالِحِينَ﴾ وجامعين لخيرات الدين والدنيا ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ بِرَحْمَتِنَا ﴿أَيَّمَةً﴾ لِلنَّاسِ وَمُتَّقِدِينَ لَهُمْ فِي أُمُورِ الدِّينِ، وَهَذِهِ ﴿يَهْدُونَ﴾ الْخَلْقَ إِلَى الْحَقِّ ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَإِزَالِنَا إِيَّاهُمْ إِلَيْهِمْ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ﴾ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ لِيُخَوِّا النَّاسَ عَلَيْهَا ﴿وَكَانُوا﴾ أَنْفُسَهُمْ ﴿لَنَا﴾ خَاصَّةً ﴿عَابِدِينَ﴾ وَخَاضِعِينَ وَمُطِيعِينَ.

وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَنُوحًا إِذْ نَادَى رَبَّهُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصْرَانًا مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ [٧٤-٧٧]

ثم ذكر الله نعمته على لوط بإيمانه بإبراهيم عليه السلام وتبعيته له بقوله: ﴿وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ﴾ مِنْ فَضْلِنَا ﴿حُكْمًا﴾ وَقَضَاءً بَيْنَ النَّاسِ، أَوِ الْحِكْمَةَ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ النُّعْمِ، أَوِ النُّبُوَّةَ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الْمَنَاصِبِ ﴿وَعِلْمًا﴾ نَافِعًا، وَهُوَ الْعِلْمُ بِأُمُورِ الدِّينِ وَأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ﴾ جَمَاعَةُ سُكَّانِهَا ﴿تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ وَتَفْعَلُ الْفَوَاحِشَ مِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ، وَإِثْنَانِ الْمُنْكَرِ فِي الْأُنْثَى، وَنِكَاحِ الرِّجَالِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ لَمْ تَكُنْ فِيهِمْ جِهَةٌ حَسَنَةً، وَكَانُوا ﴿فَاسِقِينَ﴾ وَخَارِجِينَ عَنْ حُدُودِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ، مُتَهَمِّكِينَ فِي الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ الْخَاصَّةِ، وَهِيَ النُّبُوَّةُ، وَالثَّوَابُ الْعَظِيمُ، كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^١ إِنَّهُ كَانَ وَاحِدًا ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مَنَا الْحُسْنَى.

ثم ذكر سبحانه نعمته على نوح عليه السلام بقوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى﴾ رَبَّهُ، وَالْمَعْنَى: أَذْكَرُ نَبَأُ الْوَاقِعِ حِينَ دَعَاهُ عَلَى قَوْمِهِ بِالْهَلَاكِ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وَفِي الزَّمَانِ السَّابِقِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دُعَاةً عَلَى قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ: «رَبِّ إِنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَ الصِّرَاطُ» فَسَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ، وَأَوْلَادَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وَالْعَمِّ الشَّدِيدِ، مِنْ تَكْذِيبِ الْقَوْمِ وَإِذْنَانِهِمْ، أَوْ مِنْهُ وَمِنَ الْعَذَابِ ﴿وَنَصْرَانًا﴾ نَصْرًا مُسْتَشْتَبَعًا لِلانْتِقَامِ ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وَذَلَالِلِ تَوْحِيدِنَا، وَرِسَالَةِ رُسُلِنَا.

وقيل: يعني نصرته من مكروه القوم^٢، أَوْ عَصْمَانَهُ مِنْ مَكْرِهِمْ. وَقِيلَ: إِنَّ كَلِمَةَ (مِنْ) بِمَعْنَى عَلَى^٣ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ وَأُمَّةً زَايِلَةَ الْأَخْلَاقِ، وَفَاسِدَةً الْعُقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ بِالطُّوفَانِ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بَحِثْ لَمْ يَنْقَلِبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ [٧٨-٨٠]

﴿و﴾ اذْكُرْ ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾، أو التقدير: وآتينا داود وسليمان رُشدَهما ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي﴾ قضية ﴿الْحَرْثِ﴾ وَالزَّرْعُ ﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾ وتفرقت ﴿فِيهِ﴾ بالليل ﴿غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ وقطيعهم ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ وقضائهم في تلك القضية ﴿شَاهِدِينَ﴾ وحاضرين عِلْمًا وإحاطةً ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ وألهمناها ﴿سُلَيْمَانَ﴾ وهو ابن أحد عشر سنة، على ما روته العامة^١.

ثم دفع سبحانه توهم اختصاص العلم بالحكم بسليمان عليه السلام بقوله: ﴿وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان عليه السلام ﴿آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ كثيراً، لا سليمان وحده.

روت العامة: أنه دخل رجلان على داود عليه السلام، أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إِنَّ غَنَمَ هَذَا دَخَلَتْ حَرْثِي، فَمَا أَتَيْتُ مِنْهُ شَيْئًا. فقال داود عليه السلام: اذْهَبْ فَإِنَّ الْغَنَمَ لَكَ. فخرجوا فمرا بسليمان عليه السلام، فقال: كيف قضى بينكما؟ فأخبراه، فقال: لو كنت أنا الْقَاضِي لَقَضَيْتُ بِغَيْرِ هَذَا، فأخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال: كيف قضيتَ بينهما؟ فقال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له منافعها مِنَ الدَّرِّ وَالسَّلِّ وَالْوَرِّ، حتى إذا كان الحرث من العام المستقبل كهيشة يوم أكل، دَفَعْتَ الْغَنَمَ إِلَى أَهْلِهَا، وَقَبَضَ صَاحِبُ الْحَرْثِ حَرْثَهُ^٢.

وعن ابن مسعود: إِنَّ رَاعِيًا نَزَلَ ذَاتَ لَيْلَةٍ بِجَنْبِ كَرْمٍ، فَدَخَلَ الْأَغْنَامَ الْكَرْمَ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَأَكَلَتْ الْقُضْبَانَ، وَأَفْسَدَتِ الْكَرْمَ، فَذَهَبَ صَاحِبُ الْكَرْمِ مِنَ الْغَدِ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَضَى لَهُ بِالْغَنَمِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ثَمَنِ الْكَرْمِ وَثَمَنِ الْغَنَمِ تَفَاوُتٌ، فَخَرَجُوا فَمَرَوْا بِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُمْ: كَيْفَ قَضَى بَيْنَكُمَا؟ فَأَخْبَرَاهُ بِهِ، فَقَالَ: غَيْرِ هَذَا أَرْفَقَ بِالْفَرِيقَيْنِ، فَأَخْبَرَ دَاوُدَ بِذَلِكَ، فَدَعَا سُلَيْمَانَ وَقَالَ لَهُ: بِحَقِّ الْأَبْوَةِ وَالنَّبْوَةِ إِلَّا أَخْبَرْتَنِي بِالَّذِي هُوَ أَرْفَقُ بِالْفَرِيقَيْنِ؟

فقال: هو رد الغنم إلى صاحب الكرم حتى يَرْتَفِقَ^٣ بمنافعها، وَيَعْمَلَ الرَّاعِي فِي إِصْلَاحِ الْكَرْمِ حَتَّى يَصِيرَ كَمَا كَانَ، ثُمَّ تَرَدَّدَ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِهَا. فقال داود عليه السلام: إِنَّمَا الْقَضَاءُ مَا قُضِيَ، وَحَكَمَ بِذَلِكَ^٤.

٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٩٥، تفسير روح البيان ٥: ٥٠٥.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ١٩٥.

١. تفسير روح البيان ٥: ٥٠٥.

٣. ارتَفَقَ بالشيء: انتفع واستعان.

وَرَوَوْا أَنَّ حَكَمَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ عَلَى الْبَثِّ، وَحَمَلُوا حُكْمَهُمَا عَلَى الْاجْتِهَادِ^١. وَلَا يَخْفَى مَا فِي هَذَا الْحَمَلِ مِنَ الْفَسَادِ.

وعن الصادق عليه السلام: «أَنَّهُ كَانَ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى النَّبِيِّينَ قَبْلَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَيُّ غَنَمٍ نَفَقَتْ فِي الْحَزْثِ فَإِنَّ لَصَاحِبِ الْحَزْثِ رِقَابَ الْغَنَمِ، وَلَا يَكُونُ النَّقْشُ إِلَّا بِاللَّيْلِ، فَإِنَّ عَلَى صَاحِبِ الزَّرْعِ أَنْ يَحْفَظَ زَرْعَهُ بِالنَّهَارِ، وَعَلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ أَنْ يَحْفَظَ غَنَمَهُ بِاللَّيْلِ. فَحَكَمَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا حَكَمَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِ، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَيُّ غَنَمٍ نَفَقَتْ فِي زَرْعِ فُلَيْسَ لَصَاحِبِ الزَّرْعِ إِلَّا مَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِهَا، وَكَذَلِكَ جَرَتِ السَّنَةُ بَعْدَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَكَلَّلْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وَحَكَمَ كُلُّ وَاحِدٍ بِحُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^٢.

وفي رواية أخرى ما يَقْرَبُ مِنْهُ^٣.

وعنه عليه السلام: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ اتَّخِذْ وَصِيًّا مِنْ أَهْلِكَ، فَإِنَّهُ قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِي أَنْ لَا يَبْعَثَ نَبِيًّا إِلَّا وَلَهُ وَصِيٌّ مِنْ أَهْلِهِ، وَكَانَ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِدَّةُ أَوْلَادٍ وَفِيهِمْ غُلَامٌ كَانَتْ أُمُّهُ عِنْدَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ لَهَا مُحِبًّا، فَدَخَلَ عَلَيْهَا دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أَتَاهُ الْوَحْيُ فَقَالَ لَهَا: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ اتَّخِذَ وَصِيًّا مِنْ أَهْلِي، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: فَلْيَكُنْ ابْنِي، قَالَ: ذَلِكَ أُرِيدُ، وَكَانَ السَّابِقُ فِي عِلْمِ اللَّهِ الْمَحْتُومِ عِنْدَهُ أَنَّهُ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْ لَا تَعْجَلَ دُونَ أَنْ يَأْتِيكَ أَمْرِي.

فَلَمْ يَلْبَثْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ وَرَدَ عَلَيْهِ رَجُلَانِ يَخْتَصِمَانِ فِي الْغَنَمِ وَالكَرْمِ، وَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْ أَجْمَعَ وَكَذَلِكَ، فَمَنْ قَضَى بِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ فَأَصَابَ فَهُوَ وَصِيُّكَ مِنْ بَعْدِكَ، فَجَمَعَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَدَهُ، فَلَمَّا أَنْ قَصَّ الْخَصْمَانِ قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا صَاحِبَ الْكَرْمِ، مَتَى دَخَلْتَ غَنَمَ هَذَا الرَّجُلِ كَرْمُكَ؟ قَالَ: دَخَلْتُهُ لَيْلًا، قَالَ: قَدْ فَضَيْتُ عَلَيْكَ يَا صَاحِبَ الْغَنَمِ بِأَوْلَادِ غَنَمِكَ وَأَصَوَافِهَا فِي عَامِكَ هَذَا.

ثُمَّ قَالَ لَهُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَكَيْفَ لَمْ تَقْضِ بِرِقَابِ الْغَنَمِ وَقَدْ قَوْمَ ذَلِكَ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَكَانَ ثَمَرُ الْكَرْمِ قِيَمَةُ الْغَنَمِ؟ فَقَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْكَرْمَ لَمْ يُجَنَّتْ مِنْ أَصْلِهِ، وَإِنَّمَا أَكَلَ حَمْلَهُ وَهُوَ عَائِدٌ مِنَ الْقَابِلِ.

فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْقَضَاءَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ مَا قَضَى سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِ، يَا دَاوُدُ: أَرَدْتُ أَمْرًا وَأَرَدْنَا أَمْرًا غَيْرَهُ. فَدَخَلَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ: أَرَدْنَا أَمْرًا وَأَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا غَيْرَهُ، وَلَمْ

٢. الكافي ٥: ٣٠٢/٣، تفسير الصافي ٣: ٣٤٨.

٤. في الكافي: في.

١. تفسير أبي السعود ٦: ٧٩.

٣. الكافي ٥: ٣٠١/٢، تفسير الصافي ٣: ٣٤٨.

يكن إلا ما أراد الله، فقد رَضِينَا بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَسَلَّمْنَا. وكذلك الأوصياء ليس لَهِمْ أَنْ يَتَّعَدُوا بِهَذَا الأَمْرِ فَيَجَاوِزْنَ صاحبه إلى غَيْرِهِ»^١.

وعنه عليه السلام قال: «كان في بني إسرائيل رجلٌ وكان له كَرْمٌ، وَنَفَسَتْ فِيهِ غَنَمٌ لرجلٍ [آخر] بِالليل، وَقَصَمَتْهُ وَأَفْسَدَتْهُ، فجاء صاحب الكَرْمِ إلى داود عليه السلام، فَاسْتَعْدَى عَلَى صاحب الغنم فقال داود عليه السلام: إِذْهَبَا إِلَى سُلَيْمَانَ لِيَحْكُمَ بَيْنَكُمَا. فذهبَا إليه، فقال سليمان عليه السلام: إِنَّ كَانَتِ الْغَنَمُ أَكَلَتِ الْأَصْلَ وَالْفَرْعَ، فَعَلَى صاحب الغنم أَنْ يَدْفَعَ إِلَى صاحبِ الكَرْمِ الْغَنَمَ وما فِي بَطْنَيْهَا، وَإِنْ كَانَتْ ذَهَبَتْ بِالْفَرْعِ وَلَمْ تَذْهَبْ بِالْأَصْلِ، فَإِنَّهُ يَدْفَعُ وَلَدَهَا إِلَى صاحبِ الكَرْمِ، وكان هذا ما حكم داود عليه السلام، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُعَرِّفَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصِيَّةٌ بَعْدَهُ، وَلَمْ يَخْتَلِفَا فِي الْحُكْمِ، وَلَوْ اخْتَلَفَ حُكْمُهُمَا لَقَالَ: كُنَّا لِحُكْمِهِمَا شَاهِدِينَ»^٢.

وعن الباقر عليه السلام قال: «لَمْ يَحْكُمَا، إِنَّمَا كَانَا يَتَنَظَّرَانِ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ»^٣.
وعن الكاظم عليه السلام: «كَانَ حُكْمُ دَاوُدَ رِقَابَ الْغَنَمِ، وَالَّذِي فَهَّمَهُ اللَّهُ سُلَيْمَانَ أَنَّ لِصَاحِبِ الْكَرْمِ اللَّبَنَ وَالصُّوفَ ذَلِكَ الْعَامَ كُلَّهُ»^٤.

أقول: هذه جملة الروايات الواردة، وَتَبَيَّنَ أَنَّ صَرِيحَ جُمْلَةٍ مِنْهَا عَدَمَ صُدُورِ حُكْمٍ مِنْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا عَلَيْهِ بَعْضُ مَفْسَّرِي الْعَامَةِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهَا مُخَالَفَةٌ لظَاهِرِ الْكِتَابِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِذْ يَخْجُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ وَتَرْتَّبِ قَوْلِهِ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ وَلَا زِمَ التَّرْتِّبُ سَبْقَ الْحُكْمِ الْمَخَالَفَ عَلَى التَّقْيِيمِ، فَلَا يَدَّ مِنْ طَرَحِ الرِّوَايَاتِ الْمَخَالَفَةَ لِلْكِتَابِ، وَحَمَلَ الْمَوَافَقَةَ لَهُ عَلَى حُكْمِ دَاوُدَ فِيهَا بِحُكْمِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ. ثُمَّ نَسَخَهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِظْهَاراً لِعَظَمَةِ شَأْنِهِ وَكَوْنِهِ نَبِيّاً، أَوْ بِلِسَانِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنَّمَا كَانَ مَا فَهَّمَهُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حُكْمَهُ الْحُكْمَ النَّاسِخَ، وَبَيَانَ أَوْلَوِيَّتِهِ وَأَرْجَحِيَّتِهِ مِنَ الْحُكْمِ الْمَنْسُوخِ، لَوْضُوحِ عَدَمِ جَوَازِ الاجْتِهَادِ وَالْحُكْمِ بِالظَّنِّ وَالِاسْتِحْسَانِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا عَلَيْهِ الْعَامَةُ^٥.

قال الفاضل المِقْدَادُ فِي آيَاتِ أَحْكَامِهِ: هَلْ كَانَ حُكْمُهُمَا بُوْحِيٍّ أَوْ بِاجْتِهَادٍ؟
الجواب: الوجه الحقُّ عِنْدَنَا أَنَّهُ بُوْحِيٌّ، وَالثَّانِي نَاسِخٌ، كَمَا هُوَ قَوْلُ الْجَبَانِيِّ^٦.
ثُمَّ يَبَيِّنُ نِعْمَتَهُ الْمُخْتَصَّةَ بِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَسَخَّرْنَا﴾ وَدَلَّلْنَا ﴿مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾ حَالِ تَسْبِيحِهِ،

١. الكافي ١: ٢١٩/٣، تفسير الصافي ٣: ٣٤٨. ٢. تفسير القمي ٢: ٧٣، تفسير الصافي ٣: ٣٤٩.

٣. المحاسن: ٣٩٧/٢٧٧، من لا يحضره الفقيه ٣: ١٩٨/٥٧، تفسير الصافي ٣: ٣٤٩.

٤. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٩٩/٥٧، تفسير الصافي ٣: ٣٤٩. ٥. تفسير الرازي ٢٢: ١٩٦.

٦. كنز العرفان ٢: ٣٧٩.

حَيْثُ إِنَّهُمْ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بِتَبَعِهِ. قِيلَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ كَيْفَ سَخَّرَهَا اللَّهُ فَقِيلَ يُسَبِّحُنَ^١. ﴿وَالطَّيْرُ﴾ بِحَيْثُ يَسْمَعُ كُلُّ أَحَدٍ تَسْبِيحَهَا، وَإِنَّمَا قَدَّمَ الْجِبَالَ لَكُونَ تَسْبِيحَهَا أَعْجَبَ.

قِيلَ: كَانَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا وَجَدَ فِتْرَةً سَبَّحَتِ الْجِبَالُ وَالطَّيْرُ بِأَمْرِ اللَّهِ لِيَزْدَادَ اشْتِيَاقًا وَشَاطَاطًا^٢ ﴿وَكُنَّا﴾ بِقُدْرَتِنَا ﴿فَاعِلِينَ﴾ ذَلِكَ الْأَمْرَ الْعَجِيبَ.

وقيل: يعني كنا فاعلين ذلك وأمثاله بالأنبياء، ليكون لهم معجزة^٣.

عن ابن عباس: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا قَدْ تَفَرَّقُوا قَبْلَ مَبْعَثِ دَاوُدَ، وَأَقْبَلُوا عَلَى مَلَاهِي الشَّيْطَانِ، وَهِيَ الْعِيدَانُ وَالطَّنَائِيرُ وَالْمَزَامِيرُ وَالصُّوُجُ^٤ وَمَا أَشْبَهَهَا، فَبَعَثَ اللَّهُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَعْطَاهُ مِنْ حُسْنِ الصُّوْتِ وَنِعْمَةِ الْأَلْحَانِ حَتَّى كَانَ يَتْلُو التَّوْرَةَ بِتَرْجِيْعٍ وَخَفْضٍ وَرَفْعٍ، فَأَذَلَّ عُقُولَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَشَغَلَهُمْ عَنْ تِلْكَ الْمَلَاهِي، وَصَارُوا يَجْتَمِعُونَ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْتَمْعُونَ أَلْحَانَهُ، وَكَانَ إِذَا سَبَّحَ تَسَبَّحَ مَعَهُ الْجِبَالُ وَالطَّيْرُ وَالرَّخَشُ^٥.

وعن الصادق عليه السلام: «أَنَّ دَاوُدَ خَرَجَ يَقْرَأُ الزُّبُورَ، وَكَانَ إِذَا قَرَأَ الزُّبُورَ لَا يَبْقَى جَبَلٌ وَلَا حَجَرٌ وَلَا طَائِرٌ إِلَّا أَجَابَهُ»^٦.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: أَنَّ يَهُودِيًّا قَالَ لَهُ: هَذَا دَاوُدُ بَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ حَتَّى سَارَتِ الْجِبَالُ مَعَهُ لَخَوْفِهِ. فَقَالَ: «إِنَّهُ كَانَ كَذَلِكَ»^٧.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ وَعَمَلَ دُرُوعٍ يَكُونُ ذَلِكَ التَّغْلِيمُ أَوِ الدَّرْعُ ﴿لَكُمْ﴾ أَنَّهَا النَّاسُ يَعْنِي ﴿لِشَخْصَتِكُمْ﴾ وَتَحْفَظُكُمُ اللَّبُوسُ وَالدُّرُوعُ ﴿مِنْ﴾ أَنْ تُصِيبَكُمْ الْجَرَاحَاتُ فِي «بَأْسِكُمْ» وَحَرْبِكُمْ ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ لِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ حَيْثُ سَهَّلَ عَلَيْكُمُ الْمَخْرَجَ مِنَ الشَّدَانِدِ.

قِيلَ: إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ يَوْمًا مُتَنَكِّرًا لِيَطْلُبَ مَنْ يَسْأَلُهُ عَنْ سِيرَتِهِ فِي مَمْلَكَتِهِ، فَاسْتَقْبَلَهُ جَبْرَائِيلُ عَلَى صُورَةِ آدَمِي وَلَمْ يَعْرِفْهُ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ تَرَى سِيرَةَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَمْلَكَتِهِ؟ فَقَالَ لَهُ جَبْرَائِيلُ: نِعَمَ الرَّجُلِ هُوَ لَوْلَا أَنْ فِيهِ حَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ. قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: بَلَّغْنِي أَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ مِنْ كَدِّ يَمِينِهِ، فَرَجَعَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ رِزْقَهُ مِنْ كَدِّ يَمِينِهِ،

١. الكشف ٣: ١٢٩، تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٠.

٢. تفسير الرازي ٢٢: ١٩٩.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٠.

٤. الطَّنَائِيرُ: جمع طَبْنُور وهو آلة من آلات اللُّهْر واللَّعْب والطَّرْب، ذات عنق وأوتار. والمَزَامِيرُ: جمع مِزْمَار، وهو آلة من خشب أو معدن تنتهي قصبتها بربوب صغير. والصُّوُجُ: جمع صَنْج، وهو صفيحة مدورة من صُفْر يُضْرَبُ بِهَا عَلَى أُخْرَى، وصفائح صغيرة مستديرة تثبت في أطراف الدف، أو في الأصابع ليدق بها عند الطرب.

٥. تفسير روح البیان ٥: ٥٠٧.

٦. إكمال الدين: ٦/٥٢٤، تفسير الصافي ٣: ٣٤٩.

٧. الاحتجاج: ٢١٩، تفسير الصافي ٣: ٣٥٠.

فَلَا نَ لَهُ الْحَدِيدَ، وَكَانَ يَتَّخِذُ الدَّرْعَ مِنَ الْحَدِيدِ وَيَبِيعُهَا، وَيَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ^١.
وعن الصادق عليه السلام: «أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَالَ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَى دَاوُدَ عليه السلام: أَتُكِّ نَعَمَ الْعَبْدَ لَوْلَا أَتُكَّ نَأْكُلُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، وَلَا نَعْمَلُ بِيَدِكَ شَيْئاً. قَالَ: فَجَبَى دَاوُدُ عليه السلام أَرْبَعِينَ صَبَاحاً، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْحَدِيدِ: أَنْ لِيَنَّ لِعَبْدِي دَاوُدَ. فَلَا نَ اللَّهُ لَهُ الْحَدِيدَ، فَكَانَ يَعْمَلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ دِرْعاً، فَيَبِيعُهَا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ، فَعَمَلَ ثَلَاثِمِائَةَ وَسِتِّينَ دِرْعاً، فَبَاعَهَا بِثَلَاثِمِائَةِ وَسِتِّينَ أَلْفاً، وَاسْتَفْنَى عَنْ بَيْتِ الْمَالِ»^٢.

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ عَاصِفَةٌ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ [٨١ و ٨٢]

ثُمَّ يَبَيِّنُ سُبْحَانَهُ نِعْمَةَ الْخَاصَّةِ عَلَى سُلَيْمَانَ عليه السلام بقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ﴾ سَخَرْنَا ﴿الرِّيحَ﴾ التي تكون ﴿عَاصِفَةً﴾ شديدة الهبوب بحيث تقطع المسافة البعيدة في المدة القليلة، وكانت ﴿تَجْرِي﴾ من كلِّ جانبٍ ﴿بِأَمْرِهِ﴾، وإرادته ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا﴾، وَأَكْثَرْنَا النِّعَمَ الدُّنْيَوِيَّةَ وَالْآخِرَوِيَّةَ ﴿فِيهَا﴾.
قيل: كانت تذهب به غدوةً من الشام إلى ناحية من نواحي الأرض بينها وبين الشام مسيرة شهر إلى وقت الزوال، ثُمَّ تَرْجِعُ [به] منها إلى الشام بعد الزوال عند الغروب^٣.

قيل: عَمِلَتِ الشَّيَاطِينُ لِسُلَيْمَانَ بِسَاطًا، فَرَسَخًا فِي فَرَسَخٍ مِنْ ذَهَبٍ وَابْرِيسَمٍ، وَكَانَ يُوضَعُ لَهُ مِثْبَرٌ فِي وَسْطِ الْبَسَاطِ فَيَقْعُدُ عَلَيْهِ، وَحَوْلَهُ كِرَاسِيٌّ مِنْ ذَهَبٍ وَفِصَّةٌ، يَقْعُدُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَى كِرَاسِيٍّ الذَّهَبِ، وَالْعُلَمَاءُ عَلَى كِرَاسِيٍّ الْفِصَّةِ، وَحَوْلَهُمُ النَّاسُ، وَحَوْلَ النَّاسِ الْجِنَّ وَالشَّيَاطِينُ، وَتُظَلُّهُ الطَّيْرُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى لَا تَطْلُعَ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، وَتَرْفَعُ رِيحُ الصَّبَا بِسَاطَ مَسِيرَةِ شَهْرٍ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الرَّوَّاحِ، وَمِنَ الرَّوَّاحِ إِلَى الْغُرُوبِ، وَكَانَ عليه السلام أَمْرًا قَلَمًا يَقْعُدُ عَنِ الْغُرُوبِ، وَلَا يَسْمَعُ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْأَرْضِ مَلِكًا إِلَّا آتَاهُ وَدَعَاهُ إِلَى الْحَقِّ^٤.

وقيل: جَرَّيْنَاهَا بِأَمْرِهِ كَوْنَهَا مَطِيعَةً لَهُ، إِنْ أَرَادَهَا عَاصِفَةً كَانَتْ عَاصِفَةً، وَإِنْ أَرَادَهَا لِينَةً كَانَتْ لِينَةً^٥.
وَكَانَتْ تَسِيرُ مِنْ مُسْطَظَّرٍ إِلَى الشَّامِ^٦. وقيل: إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ^٧.

ثُمَّ يَبَيِّنُ سَعَةَ عِلْمِهِ بِالصَّالِحِ بقوله: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾، وَلِذَا صَحَّ مِمَّا أَنْ تُدَبِّرَ هَذَا التَّدْبِيرَ فِي رُسُلِنَا وَخَلْقِنَا، وَأَنْ نُعْطِيَ هَذِهِ الْمَعْجَزَاتِ لِمَنْ نَرَاهُ أَهْلًا لَهَا، أَوْ لِعِلْمِنَا بِكُلِّ شَيْءٍ تُجْرِيهِ عَلَى مَا

١. تفسير روح البيان ٥: ٥٠٨.

٢. الكافي ٥: ٥٧٤، تفسير الصافي ٣: ٣٥٠.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠١.

٤. تفسير روح البيان ٥: ٥١٠.

٥. تفسير الصافي ٣: ٣٥٠.

٦. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠١، تفسير أبي السعود ٦: ٨٠.

٧. تفسير القمي ٢: ٧٤، تفسير الصافي ٣: ٣٥٠.

تقتضيه الحكمة ﴿و﴾ له ﴿مِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ وَكَفَّرَ الْجَنَّ ﴿مَنْ يُقْوِصُونَ﴾ وَيَذْخُلُونَ ﴿لَهُ﴾ فِي الْبَحَارِ وَيَسْتَخْرِجُونَ لَهُ مِنْ نَفَاسِهَا ﴿وَيَعْمَلُونَ﴾ لَهُ بِأَمْرِهِ ﴿عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ وَصَنَعَةَ غَيْرِ مَا ذُكِرَ مِنْ بِنَاءِ الْمُدُنِ وَالْقُصُورِ وَالْمَحَارِبِ وَتَمَائِيلِ وَمَخْتَرَعَاتِ الصَّنَاعِ الْغَرِيبَةِ ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ مِنْ إِفْسَادِ مَا عَمِلُوا.

قيل: كان ذأبهم أَنْ يَعْمَلُوا بِالنَّهَارِ وَيُفْسِدُوا بِاللَّيْلِ، أَوْ مِنْ أَنْ يُزَيِّغُوا عَنْ أَمْرِهِ^١، وَأَنْ يَتَمَرَّدُوا عَلَيْهِ. وَقِيلَ: إِنْ حَفِظَ كَفَّرَ الْجَنَّ مِنَ التَّمَرُّدِ وَالْإِفْسَادِ، بِإِلْقَاءِ الْخَوْفِ الشَّدِيدِ مِنْ سُلَيْمَانَ، وَالْحُبِّ الْمُفْرِطِ لَطَاعَتِهِ فِي قُلُوبِهِمْ، أَوْ بِتَوَكُّلِ جَمْعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ جَمْعٍ مِنْ مُؤْمِنِي الْجَنِّ عَلَيْهِمْ^٢، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ الْمَخْصَصَةِ بِهِ، وَأَمَّا مُؤْمِنُو الْجَنِّ فَلَمْ يَكُونُوا مُحْتَاجِينَ إِلَى الْحِفْظِ لِأَنَّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ لَهُ كَانُوا مُطِيعِينَ لَهُ، مُتَعَادِينَ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ.

وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [٨٣]

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ نِعْمَتَهُ عَلَى أَيُّوبَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ وَالتَّقْدِيرُ أَذْكَرَ أَمْرَ أَيُّوبَ ﴿إِذْ نَادَى﴾ وَدَعَا ﴿رَبَّهُ﴾ وَقَالَ: رَبِّ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ وَأَصَابَنِيَ الضُّرُّ وَالْبَلَاءُ الْعَظِيمُ، اِرْحَمْنِي ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

رَوَى عَنْ وَهْبِ بْنِ مَثْبُةٍ: أَنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلًا مِنَ الرُّومِ، وَهُوَ ابْنُ أَنْوَصَ، مِنْ وَلَدِ عِيصَ^٣ بْنِ إِسْحَاقَ، وَكَانَتْ أُمُّهُ مِنْ وَلَدِ لُوطَ، وَكَانَ اللَّهُ [قَدْ] اصْطَفَاهُ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ [قَدْ] أَعْطَاهُ مِنَ الدُّنْيَا حَقًّا وَافِرًا مِنَ النِّعَمِ وَالذَّوَابِّ وَالْبَسَاتِينِ، وَكَانَ لَهُ خَمْسَمِائَةِ زَوْجٍ مِنَ الْبَقَرِ لِلزَّرْعِ، وَخَمْسَمِائَةِ مَمْلُوكٍ، كُلُّ وَاحِدٍ مُوَكَّلٌ عَلَى زَوْجٍ مِنْهَا، وَكَانَ لَهُ أَرْبَعَمِائَةِ مَمْلُوكٍ، كُلُّ مِنْهُمْ رَاعِي قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، وَكَانَ لَهُ أَهْلٌ وَوَلَدٌ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ، وَكَانَ رَحِيمًا بِالسَّكِينِ، وَكَانَ يَكْفُلُ الْيَتَامَ وَالْأَرَامِلَ، وَيُكْرِمُ الضَّعِيفَ، وَكَانَ مَعَهُ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ آمَنُوا بِهِ وَعَرَفُوا فَضْلَهُ.

وَأَنَّ لَجَبْرِئِيلَ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَعَالَى مَقَامًا لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مِثْلُهُ فِي الْقُرْبِ وَالْمَنْزِلَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَتَلَقَّى الْكَلَامَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ عَبْدًا بِخَيْرٍ تَلَقَّاهُ جَبْرِئِيلُ، ثُمَّ تَلَقَّاهُ مِيكَائِيلُ، ثُمَّ مَنَّ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فَإِذَا شَاءَ ذَلِكَ فِيهِمْ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ، ثُمَّ صَلَّتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاوَاتِ ثُمَّ مَلَائِكَةُ الْأَرْضِ. وَكَانَ إِبْلِيسُ لَمْ يُحْجَبْ عَنْ شَيْءٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكَانَ يَقِفُ فِيهِمْ حَيْثُمَا أَرَادَ، وَمِنْ هُنَاكَ

٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٢.

١. تفسير أبي السعود ٦: ٨١.

٣. في النسخة: عيصوا.

وصل إلى آدم ﷺ حتى أخرجه من الجنة، ولم يزل على ذلك حتى رُفِعَ عيسى فُحِجِبَ عن أربع سَمَاوَات، فكان بعد ذلك يَصْعَدُ إلى ثلاث إلى زمان نبينا مُحَمَّد ﷺ، فُحِجِبَ عند ذلك عن جميع السماوات إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ.

فَسَمِعَ إبليس تَجَاوَبَ الملائكة بالصلاة على أَيُوبَ ﷺ، فأدركه الحَسَدُ، فصَعِدَ سريعاً حتى وَقَفَ مِنَ السَّمَاءِ مَوْقِعاً كَانَ يَقِفُهُ، فقال: يَا رَبِّ، إِنَّكَ أَنْعَمْتَ عَلَى عَبْدِكَ أَيُوبَ فَشَكَرَكَ، وَعَافَيْتَهُ فَحَمِدَكَ، وَأَنْتَ لَمْ تُجْزِهِ بِشِدَّةٍ وَلَا بِلَاءٍ، وَأَنَا لَكَ زَعِيمٌ لَئِنْ ضَرَبْتَهُ بِالْبَلَاءِ لَيَكْفُرَنَّ بِكَ.

فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّطَلِقْ فَقَدْ سَلَطْتُكَ عَلَى مَالِهِ، فَانْقَضَ الملعون حتى وقع على الأرض، وَجَمَعَ عَفَارِيتَ الشَّيَاطِينِ، وَقَالَ: مَاذَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْقُوَّةِ، فَإِنِّي سَلَطْتُ عَلَى مَالِ أَيُوبَ؟ فَقَالَ عَفْرِيتٌ: أُعْطِيتُ مِنَ الْقُوَّةِ مَا إِذَا شِئْتَ تَحَوَّلَتْ إِعْصَاراً مِنْ نَارٍ فَأَحْرَقْتَ كُلَّ شَيْءٍ أَتَى عَلَيْهِ. فَقَالَ إِبْلِيسُ: قَاتِ الْإِبِلِ وَرِعَاؤَهَا. فَذَهَبَ وَلَمْ يَشْعُرِ النَّاسُ حَتَّى نَارٌ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ إِعْصَارٌ مِنْ نَارٍ لَا يَدْنُو مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا اخْتَرَقَ، فَلَمْ يَزَلْ يُحْرِقُهَا وَرِعَاؤَهَا حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهَا.

فَذَهَبَ إِبْلِيسُ عَلَى شَكْلِ بَعْضِ أَوْلَئِكَ الرِّعَاةِ إِلَى أَيُوبَ ﷺ، فَوَجَدَهُ قَانِماً يَصَلِّي، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ: يَا أَيُوبَ، هَلْ تَذَرِي مَا صَنَعَ رَبُّكَ الَّذِي اخْتَرْتَهُ بِإِبْلِكَ وَرِعَائِنَا؟

فَقَالَ أَيُوبَ: إِنَّهَا مَالُهُ أَعَارَنِيهِ، وَهُوَ أَوَّلِي بِهِ إِذَا شَاءَ نَزَعَهُ.

قَالَ إِبْلِيسُ: إِنَّ رَبُّكَ أَرْسَلَ عَلَيْهَا نَاراً مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَرَقَتْ وَرِعَاؤَهَا كُلَّهَا، وَتَرَكْتَ النَّاسَ مَبْهُوثِينَ مُتَعَجِّبِينَ مِنْهَا، فَجِنِّ قَانِلٍ يَقُولُ: مَا كَانَ أَيُوبَ يَغْدِي شَيْئاً، وَمَا كَانَ إِلَّا فِي غُرُورٍ. وَمِنْ قَانِلٍ يَقُولُ: لَوْ كَانَ إِلَهُ أَيُوبَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ لَمَنَعَ مِنْ وَلِيِّهِ، وَمِنْ قَانِلٍ آخَرَ يَقُولُ: بَلْ هُوَ الَّذِي فَعَلَ مَا فَعَلَ لِيَشْتِمَ عَدُوَّهُ بِهِ، وَيَفْجَعَ صَدِيقَهُ بِهِ.

فَقَالَ أَيُوبَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ حِينَ أَعْطَانِي وَحِينَ نَزَعَ مِنِّي، خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِ أُمِّي غُرِياناً، وَأَحْشَرْتُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى غُرِياناً، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى فِيكَ خَيْراً إِثْمًا الْعَبْدُ لَنَقَلَ رُوحَكَ مَعَ تِلْكَ الْأَرْوَاحِ، وَصِرْتَ شَهِيداً وَأَجْرَنِي فِيكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَلَّمَ فِيكَ شَرّاً فَأَخْرَكَ.

فَرَجَعَ إِبْلِيسُ إِلَى أَصْحَابِهِ خَاسِئاً، فَقَالَ عَفْرِيتٌ آخَرٌ: عِنْدِي مِنَ الْقُوَّةِ مَا إِذَا شِئْتَ صَبَحْتَ صَبِيحَةً لَا يَسْمَعُهَا ذُو رُوحٍ إِلَّا خَرَجْتُ رُوحَهُ. فَقَالَ إِبْلِيسُ: قَاتِ الْعَنَمَ وَرِعَاؤَهَا، فَأَنْطَلَقَ فَصَاحَ بِهَا، فَمَاتَتْ وَمَاتَ رِعَاؤُهَا، فَخَرَجَ إِبْلِيسُ مُتَمَتِّلاً بِقَهْرِمَانِ الرِّعَاةِ إِلَى أَيُوبَ ﷺ، فَقَالَ لَهُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ، وَرَدَّ عَلَيْهِ أَيُوبَ ﷺ الْجَوَابَ الْأَوَّلَ.

فَرَجَعَ إِبْلِيسُ صَاحِغِراً، فَقَالَ عَفْرِيتٌ آخَرٌ: عِنْدِي مِنَ الْقُوَّةِ مَا إِذَا شِئْتَ تَحَوَّلَتْ رِيحاً عَاصِفَةً أَقْلَعَ كُلَّ

شيء أتيت عليه قال: فأذهب إلى الحَرثِ والثَّيرانِ، فأتاها وأهلكها، ثم رَجَعَ إبليس متملاً حتى جاء أيوب عليه السلام وهو يصلي، فقال مثل القول الأول، فردَّ عليه أيوب عليه السلام مثل الردِّ الأول. فجعل إبليس يُصيب أمواله شيئاً فشيئاً، حتى أتى على جميعها، فلما رأى إبليس صبره على ذلك، وقف الموقف الذي كان يقفه عند الله، وقال: يا إلهي، هل أنت مُسلَّطي على ولده، فإنها الفِتنة المُضِلَّة؟ فقال الله تعالى: إنطلق فقد سلَّطتك على ولده.

فأتى أولاد أيوب في قَصْرهم، فلم يزل يزلُّه من قواعده حتى قلب القصر عليهم، ثم جاء إلى أيوب عليه السلام متملاً بالمُعَلَّم وهو جريح مشدوخ^١ الرأس يسيل دمه ودماعه، فقال: لو رأيت بَيْنَك كيف انقلبوا منكوسين على رؤسهم تَسِيل أذِيعَتهم من أثْوَفهم لتقطع قلبك. فلم يزل يقول هذا ويُرفقه حتى رَقَّ أيوب عليه السلام وبكى، وقبض قبضةً من التراب ووضعها على رأسه، فأغتم ذلك إبليس، ثم لم يلبث أيوب عليه السلام حتى استغفر واسترجع، ثم صعد إبليس حتى وقف موقفه وقال: يا إلهي، إنما يَهْوُو خطر المال والولد على أيوب لِعِلْمِهِ أَنَّكَ تُعيدهما له، فهل أنت مُسلَّطي على جسده، وإني لك زعيم لو ابتليته في جسده لَيَكْفُرَنَّ بِكَ. فقال الله تعالى: إنطلق فقد سلَّطتك على جسده، وليس لك سلطان على عقله وقلبه ولسانه.

فانقَضَ عدوُّ الله سريعاً، فوجد أيوب عليه السلام ساجداً لله تعالى، فأتاه من قِبَل الأرض فنفخ في منخره نَفْخةً اشتعل منها جسده، وخرج به من قرنه إلى قدمه ثأليل، ووقعت فيه حِكَّةٌ لا يَمْلِكُها، وكان يَحْكُ بأظفارِهِ حتى سقطت أظفاره، ثم حكَّها بالمُسُوحِ الخَشِنة، ثم حكَّها بالفَخَّارِ والجِجَارَةِ ولم يزل يَحْكُها حتى تقطَّع لحمه وتغيَّر وتين، فأخرجه أهل القرية، وجعلوه على كُنَاسَةٍ، وجعلوا له عَرِيشاً، ورَفَضَهُ الناسُ كُلُّهم غيرِ امرأته [فكانت] تُصَلِّحُ أُمُورَهُ.

ثم أطال وهب في الحكاية إلى أن قال: إنَّ أيوب عليه السلام أَقْبَلَ على الله مستغيثاً متضرعاً إليه، فقال: يا رب، لأي شيء خَلَقْتَنِي؟ يا ليتني كنتُ حَيْضَةً أَلْقَيْتَنِي أُمِّي، ويا ليتني عرفتُ الذَّنْبَ الذي أَذْنَبْتُهُ والعمل الذي عَمِلْتُهُ حتى صَرَفْتَ وجهك الكريم عني؟ أَلَمْ أَكُنْ للغريبِ داراً، وللمسكينِ قراراً، ولليتيم ولياً، وللأرامل قِيماً؟

إلهي، أنا عبدك الدَّلِيلُ إن أحسنتُ إِلَيَّ فالْمُنُّ لك، وإن أسأتُ فبَيْدَكَ عُقُوبَتِي، جَعَلْتَنِي لِلْبَلَاءِ غَرَضاً، وللْفِتْنَةِ نَصِيباً، سَلَّطْتَ عَلَيَّ ما لو سَلَّطْتَهُ على جَبَلٍ لَصَغَفَ مِنْ حَمْلِهِ.

إلهي، تقطَّعت أصابعي، وتساوَّطتْ لَهَوَاتِي، وتَنَاطَرَ شُعْرِي، وذَهَبَ مالِي، وَصِرْتُ أَسْأَلَ اللُّقْمَةَ

فأطعمني مَنْ يَمُنُّ بِهَا عَلَيَّ، وَيُعِيرَنِي بِفَقْرِي وَهَلَكَ أَوْلَادِي^١. وَبَقِيَ فِي الْبَلَاءِ ثَلَاثَ سِنِينَ^٢.
وعن الحسن: أَنَّهُ ﷺ مَكَثَ بَعْدَمَا أَلْقَى عَلَى الْكُنَاسَةِ سَبْعَ سِنِينَ وَأَشْهُرًا^٣.
وعن مقاتل: بَقِيَ أَيُّوبُ ﷺ فِي الْبَلَاءِ سَبْعَ سِنِينَ وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَسَبْعَةَ أَيَّامٍ وَسَبْعَ سَاعَاتٍ^٤.
وعن أنس، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّهُ بَقِيَ فِي الْبَلَاءِ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ
مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا يَغْدُوَانِ وَيَزُوحَانِ إِلَيْهِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ ذَاتَ يَوْمٍ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْتُبُ أَيُّوبَ ذَنْبًا مَا
أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ فَقَالَ: مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى
وَلَمْ يَكْشِفْ مَا بِهِ.

فَلَمَّا رَاحَا إِلَى أَيُّوبَ، لَمْ يَضْرِبِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لِأَيُّوبَ، فَقَالَ أَيُّوبُ ﷺ: مَا أَدْرِي مَا تَقُولَانِ
غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَرْجِعْ إِلَى بَيْتِي
فَأَكْفُرْ عَنْهُمَا كِرَاهِيَةً أَنْ يَذْكُرَ اللَّهُ إِلَّا فِي حَقٍّ»^٥.

وفي رواية: أَنَّ الرَّجُلَيْنِ لَمَّا دَخَلَا عَلَيْهِ وَجَدَا رِيحًا فَقَالَا: لَوْ كَانَ لِأَيُّوبَ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مَّا بَلَغَ إِلَى هَذِهِ
الْحَالَةِ، قَالَ: فَمَا شَقَّ عَلَى أَيُّوبَ شَيْءٌ مِمَّا ابْتَلَى بِهِ أَشَدَّ مِمَّا سَمِعَ مِنْهُمَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي
لَمْ أَبْتَ شَيْعَانًا وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَكَانٍ جَانِعٍ فَصَدَّقْنِي. فَصَدَّقَهُ وَهُمَا يَسْمَعَانِ، ثُمَّ خَرَّ أَيُّوبُ، سَاجِدًا. ثُمَّ
قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَرْفَعُ رَأْسِي حَتَّى تَكْشِفَ مَا بِي^٦.

وعن الحسن: أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِأَيُّوبَ ﷺ مَالٌ وَلَا وَلَدٌ وَلَا صَدِيقٌ إِلَّا أَمْرَاتُهُ رَحِمَةً صَبَرَتْ مَعَهُ، وَكَانَتْ
تَأْتِيهِ بِالطَّعَامِ، وَتُحَمِّدُ اللَّهَ تَعَالَى مَعَ أَيُّوبَ ﷺ، وَكَانَ أَيُّوبُ مُوَظَّبًا عَلَى حَمْدِ اللَّهِ، وَالشَّعْنَاءِ عَلَيْهِ،
وَالصَّبْرِ عَلَى مَا ابْتَلَاهُ، فَصَرَخَ إِبْلِيسُ صَرْخَةً جَزَعًا مِنْ صَبْرِ أَيُّوبَ، فَاجْتَمَعَ جُنُودُهُ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ،
وَقَالُوا لَهُ: مَا خَبَرُكَ؟ قَالَ: أَعْيَانِي هَذَا الْعَبْدُ الَّذِي سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَلِّطَنِي عَلَيْهِ وَعَلَى مَالِهِ وَوَلَدِهِ، فَلَمْ
أَدَعْ لَهُ مَالًا وَلَا وَلَدًا، وَلَمْ يَزِدْ بِذَلِكَ إِلَّا صَبْرًا وَحَمْدًا لِلَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ سَلَّطْتُ عَلَى جَسَدِهِ، فَتَرَكْتُهُ مُتَلَقًى
عَلَى كُنَاسَةٍ وَمَا يَقْرَبُهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَقْتَرِعُ مِنَ الذُّكْرِ وَحَمْدِ اللَّهِ، فَاسْتَعَنْتُ بِكُمْ لِتُعِينُونِي
عَلَيْهِ.

فَقَالُوا لَهُ: أَيْنَ مَكْرُوكُ؟ أَيْنَ عَمَلُكَ الَّذِي أَهْلَكْتَ بِهِ مَنْ مَضَى؟ قَالَ: بَطَلْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي أَيُّوبَ،
فَأَشِيرُوا عَلَيَّ.

٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.

٦. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٦.

١. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٣.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٦.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٥.

قالوا: أدليت آدم حين أخرجه من الجنة من أين أتيته؟ قال: من قبل امرأته. قالوا: إنَّ أيوب أيضاً من قبل امرأته، قالوا: فإنه لا يستطيع أن يعصمها لأنه لا يقر به أحد غيرها. قال: أصبتم.

فأنطَلَقَ حتى أتى امرأته، فتمثَّل لها في صورة رجل، فقال لها: أين بَعْلُكِ يا أُمّة الله؟ قالت: هو هذا الذي يَحْكُ قُروحه ويتردّد الدوابُّ في جسده. فلَمَّا سَمِعَ منها ذلك طَمِعَ أن يكون ذلك كُلّه جَزَعاً، فوسوس إليها وذكرها ما كان من النعم والمال، وذكرها جمال أيوب وشبابه فَصَرَخَتْ، فلَمَّا صَرَخَتْ عَلِمَ أنها [قد] جَزِعَتْ فأناها بِسَخْلَةٍ وقال: قولي لأَيوب ليذبح هذه لي ويترأ.

فجاءت تُصْرُخُ إلى أَيوب فقالت: يا أَيوب حتى يُعَذِّبَكَ ربُّكَ؟ ألا يَزَحْمُكَ؟! أين المال، أين الماشية، أين الولد، أين الصديق، أين اللؤلؤ الحسن، أين جِسمُكَ الذي قد بلى وصار مثل الرماد وتردّد فيه الدوابُّ؟ إذنَحْ هذه واسترح.

فقال أَيوب ﷺ: أتاكَ عدو الله وَفَخَ فِيكَ فَاجِئِيهِ، وَيَلْكَ أَتْرِينَ ما تَبْكِينَ عليه من المالِ والوَلَدِ والصَّحَّةِ، مَنْ أعطانا ذلك؟ قالت: الله. قال: فَكَمْ مَتَّعَنَاهُ؟ قالت: ثَمَانِينَ سنة. قال: فَمَتْنَدُكُمْ ابتِلانَا الله بهذا البلاء؟ قالت: مَتْنَدُ سَبْعِ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ،

قال: وَيَلْكَ ما أَتَصَفَّتْ رَبُّكَ، ألا صَبَرْتَ في البلاء ثَمَانِينَ سَنَةً، كما كُنَّا في الرِّخَاءِ ثَمَانِينَ سَنَةً؟ والله لَئِنْ شَفَايَ الله لأَجِلْدُكَ مائة جِلْدَةٍ، أَمَرْتَنِي أن أذُنِحَ لِغَيْرِ الله؟ حَرَامٌ عَلَيَّ أن أدُوقَ بعد هذا شَيْئاً من طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ الذي تَأْتِينِي بِهِ، فَطَرَدَهَا فَذَهَبَتْ، فلَمَّا نَظَرَ أَيوب ﷺ في شَأْنِهِ وَلَيْسَ عِنْدَهُ طَعَامٌ وَلَا شَرَابٌ ولا صَدِيقٌ، وقد ذَهَبَتْ امرأته خَرَّ ساجداً وقال: رَبِّ ﴿أَنَّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^١.

وعن وَهْبٍ: لَمَّا غَلَبَ أَيُوبُ إبليسَ، ذَهَبَ إبليسُ إلى امرأته على هَيْئَةٍ لَيْسَتْ كَهَيْئَةِ بَنِي آدَمَ في العِظَمِ والجِسْمِ والجَمالِ، على مَرْكَبٍ ليس كَمَرَائِبِ الناسِ، وقال لها: أَنْتِ صاحبة أَيوب؟ قالت: نعم. قال: فهل تُعْرِفينِي؟ قالت: لا. قال: أنا إله الأرض، أَنَا صَنَعْتُ بِأَيُوبَ ما صَنَعْتُ، لأنَّ عَبْدَ إلهِ السَّماءِ وَتَرَكَنِي فَأَغْضَبَنِي، وَلَوْ سَجَدَ لِي سَجْدَةً واحدةً رَدَدْتُ عَلَيْكَ وعليهِ جَمِيعُ مالِكُما مِن مالٍ وولَدٍ فَإِنْ ذَلِكْ عِنْدِي.

قال وَهْبٌ: وَسَمِعْتُ أَنَّهُ قال: لو أَنَّ صاحِبَكَ أَكَلَ طَعاماً ولم يَسْمِ الله لَعُوفِي مِمَّا هو فِيهِ مِنَ البلاءِ، وقيل: إِنَّهُ قال لها: لَوْ شِئْتُ فَاسْجُدِي لِي سَجْدَةً واحدةً حتى أُرَدَّ عَلَيْكَ المال والولد وأعافي زوجكِ. فَرَجَعْتُ إلى أَيُوبَ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قال لها، فقال أَيُوبُ: أتاكَ عدو الله لِيَقْتَتِكَ عن دينكِ، ثُمَّ أَقْسَمَ لَئِنْ

عافاني الله لأجل ذلك مائة جلد، وقال عند ذلك: رَبِّ **﴿أَنْتَى مَسْنَى الضُّرِّ﴾** يعني من طَمَعَ إبليس في سُجُودِي له وسُجُود زوجتي ودعائه إياها وإِيَّايَ إلى الكُفْرِ^١.

وعنه أيضاً: أَنَّ امرأةَ أَيُّوبَ كانت تَعْمَلُ للنَّاسِ وتأتيه بِقُوَّتِهِ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِ البَلَاءُ سَمَّهَا النَّاسُ ولم يستعملوها، فالتَمَسَتْ [ذات] يومَ شَيْئاً مِنَ الطَّعَامِ فَلَمْ تَجِدْ، فَجَزَّتْ مِنْ رَأْسِهَا قَرْناً فَبَاعَتْهُ بِرَغِيبٍ فَأَتَتْهُ، فَقَالَ لَهَا: أَيْنَ قَرْنُكَ؟ فَأَخْبَرَتْهُ بِذَلِكَ. فَحَيَّزَ قَالَ: **﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾**^٢.

وقيل: كان لها ثلاث دَوَائِبَ، فَقَطَعْتَ إحداهما، فَبَاعَتْهَا بِخَبَرٍ وَلَحْمٍ، فَجاءت إلى أَيُّوبَ عليه السلام فقال: مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ فَقَالَتْ: كُلُّ فَإِنَّهُ حَلَالٌ، فَلَمَّا كَانَ [مِنْ] الغَدِ لم تَجِدْ شَيْئاً فَبَاعَتْ الثَّانِيَةَ، وَكَذَلِكَ فَعَلَتْ فِي اليَوْمِ الثَّالِثِ، وَقَالَتْ: كُلُّ، فَقَالَ: لَا أَكُلُ مَا لَمْ تُخْبِرْ بِي فَأَخْبَرَتْهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مِنْ أَيُّوبَ مَا اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ^٣. وقيل: إِنَّ إبليسَ تَمَثَّلَ للِقَوْمِ فِي صُورَةِ بَشَرٍ وقال: لئن تركتم أَيُّوبَ فِي الْقَرْيَةِ تَتَعَدَّى إِلَيْكُمْ عِلَّتُهُ، فَأَخْرِجُوهُ إِلَى بَابِ الْقَرْيَةِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: إِنَّ امْرَأَتَهُ تَدْخُلُ بيوْتَكُمْ وَهِيَ تَمَسُّ زَوْجَهَا، فَإِنْ تَعْمَلْ لَكُمْ تَتَعَدَّى إِلَيْكُمْ عِلَّتُهُ، وَلِذَا لَمْ يَسْتَغْمِلْهَا أَحَدٌ، فَبَاعَتْ ضَفِيرَها^٤.

وقيل: سَقَطَتْ دُودَةٌ مِنْ فِخْذِ أَيُّوبَ، فَرَفَعَهَا وَرَدَّهَا إِلَى مَوْضِعِهَا، وَقَالَ: جَعَلَنِي اللَّهُ طَعَمَةً لَكَ، فَعَصَّتْهُ عَصَةً شَدِيدَةً فَقَالَ: **﴿أَنْتَى مَسْنَى الضُّرِّ﴾** فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: لَوْلَا أَنِّي جَعَلْتُ تَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ مِنْكَ صَبْرًا لَمَّا صَبَرْتَ^٥.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا

وَذُكِّرَى لِلْعَائِدِينَ [٨٤]

ثم أخبر سبحانه بإجابة دعائه بقوله: **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾** دعاءه **﴿فَكَشَفْنَا﴾** وأزَلْنَا **﴿مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾** ومَرَضٍ.

قيل: أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: ارْفَعْ رَأْسَكَ فَقَدْ اسْتَجَبْتُ لَكَ، أَرْكَضْ بِرِجْلِكَ الْأَرْضَ. فَرَكَضَ بِرِجْلِهِ، فَنَبَعَتْ عَيْنٌ مَاءً، فَأَغْتَسَلَ مِنْهَا، فَلَمْ يَبْقَ فِي بَدَنِهِ دَابَّةٌ إِلَّا سَقَطَتْ مِنْهُ عليه السلام، ثُمَّ ضَرَبَ بِرِجْلِهِ مَرَّةً أُخْرَى فَنَبَعَتْ عَيْنٌ أُخْرَى، فَشَرِبَ مِنْهَا فَلَمْ يَبْقَ فِي جَوْفِهِ دَاءٌ إِلَّا خَرَجَ، وَقَامَ صَحِيحاً، وَعَادَ إِلَيْهِ شَبَابُهُ وَجَمَالُهُ، حَتَّى صَارَ أَحْسَنَ مَا كَانَ، ثُمَّ كَسَى حُلَّةً^٦.

﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ وولده **﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾** قيل: لَمَّا قَامَ جَعَلَ يَلْتَقِثُ فَلَا يَرَى شَيْئاً مِنْ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ

٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.

٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٨.

١. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٨.

٦. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.

وماله إلا ضغفه الله تعالى^١.

قيل: إنه تطاير من الماء الذي اغتسل منه إلى صدره الجراد من ذهب، فجعل يصمّه بيده، فأوحى الله إليه: يا أيوب، ألم أغنيك؟ قال: بلى، ولكنها بركتك، فمن يشبع منها؟ ثم جلس على مكان مشرف^٢.

ثم أن امرأته قالت: هب إنه طردني، أفأتركه حتى يموت جوعاً وتأكله السباع؟ فرجعت، فما رأت تلك الكئاسة^٣ ولا تلك الحالة، فجعلت تطوف حيث كانت الكئاسة وتبكي، وأيوب عليه السلام ينظر إليها، وهابث أن تأتيه وتسأله عنه، فأرسل إليها أيوب ودعاها وقال لها: ما تريد؟ قالت: أردت المبتلى الذي كان ملقى على الكئاسة، قال لها: ما كان هو منك؟ قالت: هو يغلي. قال: أتعرفينه إذا رأيته؟ قالت: وهل يخفى على أحد يراه؟ فتبسم وقال: أنا هو، فعرفته بضحكها فاعتقته^٤.

روي أن الله رد على امرأته شبابها، فولدت له ستة وعشرين ولداً^٥.

وكان ذلك لأجل أنه رحماً عليه ﴿رَحْمَةً﴾ خاصة ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ ومن قُدْرَتنا ﴿و﴾ تكون ﴿ذِكْرِي﴾ وعبرة ﴿لِلْعَابِدِينَ﴾ ووسيلة لهم إلى معرفتنا بكمال القدرة والرحمة حتى يصبروا كما صبر أيوب، ويتأبوا كما أتى.

وعن الصادق عليه السلام: أنه سئل كيف أوتي مثلهم معهم؟ قال: «أحيي له من ولده [الذين كانوا] ماثوا قبل ذلك بأجلهم»^٦.

وعنه عليه السلام قال: «ابتلي أيوب سبع سنين بلا ذنب»^٧.

[وفي العلل عنه عليه السلام قال]: «وإنما كانت بلية أيوب لنعمة أنعم الله بها عليه فأدى شكرها...»^٨.

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِذْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي

رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ [٨٥ و ٨٦]

ثم ذكر سبحانه بعض الصابرين من الأنبياء بقوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم الذي قال لأبيه: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿وَإِذْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على طاعة الله

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.

٣. الكئاسة: موضع القمامة.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ٢٠٧.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٥١٤.

٦. الكافي ٨: ٢٥٢/٣٥٤، تفسير الصافي ٣: ٣٥١.

٧. الخصال: ١٠٧/٣٩٩، تفسير الصافي ٣: ٣٥١.

٨. علل الشرائع: ١/٧٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥١، وللحديث تنمة في (العلل)، وقد نقل المصنف هذا المقدار من تفسير الصافي، وأحال في الصافي إلى تنمة الحديث في سورة (ص).

وَأَذَى قَوْمِهِمْ ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ الخاصة من النبوة والزُّلْفَى ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ والكاملين في الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة والأعمال الحسنة.

عن ابن عباس: أن نبياً من أنبياء بني إسرائيل آتاه الله الملك والنبوة، ثم أوحى الله إليه: أني أريد أن أقبض رُوحك، فأعرض مُلكك على بني إسرائيل، فمن تكفل لك أن يُصلي بالليل حتى يُصبح، ويصوم بالنهار ولا يُفطر، ويُفضي بين الناس ولا يُغضب، فأدفع مُلكك إليه.

فقام ذلك النبي في بني إسرائيل، وأخبرهم بذلك، فقام شاب وقال: أنا أتكفل لك بهذا. فقال: في القوم من هو أكبر منك فأقعد، ثم صاح الثانية والثالثة فقام الرجل وقال: أنا أتكفل لك بهذه الثلاث، فدفع إليه مُلكه ووفى بما ضمن، فحسده إبليس، فأناه في وقت يريد أن يقبل فقال: إن لي غريباً مَطْلَنِي حَتَّى، و[قد] دعوته إليك فأبى، [فأرسل معي من يأتيك به] فَأَرْسَلْ مَعَهُ وَقَعْدَ حَتَّى فَاتَتْهُ الْقَبِيلُ، وعاد إلى صلاته وصلى ليله إلى الصبح، ثم آتاه من الغد عند القبولة، فقال: إن الرجل الذي أَسْتَأْذَنْتُكَ له في موضع كذا، فلا تَبْرَحْ حَتَّى آتِيكَ به، فذهب وبقي هو مُتَنَظِّراً حَتَّى فَاتَتْهُ الْقَبِيلُ، ثم آتاه فقال له: هَرَبَ مِنِّي، فَمَضَى ذُو الْكِفْلِ إِلَى صَلَاتِهِ، فَصَلَّى لَيْلَتَهُ حَتَّى أَصْبَحَ، فَأَتَاهُ إِبْلِيسُ وَعَرَفَهُ نَفْسُهُ^١.

قال الفخر: ذكر علي عليه السلام نحو ما ذكره ابن عباس، وزاد: «أَنَّ ذَا الْكِفْلِ قَالَ لِلْبَوَّابِ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ: قَدْ غَلَبَ عَلَيَّ الثُّعَاسُ، فَلَا تَدْعُ أَحَدًا يَتَقَرَّبُ هَذَا الْبَابَ حَتَّى أَنَامَ، فَإِنِّي قَدْ شَقَّ عَلَيَّ الثُّعَاسُ، فَجَاءَ إِبْلِيسُ فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ الْبَوَّابُ، فَدَخَلَ مِنْ كُوَّةٍ فِي الْبَيْتِ، وَتَسَوَّرَ فِيهَا، فَإِذَا هُوَ يَدُقُّ الْبَابَ مِنْ دَاخِلٍ، فَاسْتَقْبَلَ الرَّجُلَ، وَعَاتَبَ الْبَوَّابُ، فَقَالَ: أَمَّا مِنْ قِبَلِي فَلَمْ يَأْتِ، فَقَامَ إِلَى الْبَابِ، فَإِذَا هُوَ مَغْلُوقٌ، وَإِبْلِيسُ عَلَى صُورَةِ شَيْخٍ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ وَالْخُصُومُ عَلَى الْبَابِ فَعَرَفَهُ، فَقَالَ: أَنْتَ إِبْلِيسُ؟ قَالَ نَعَمْ، أَعْيَيْتَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَقَعَلْتُ هَذِهِ الْأَفْعَالُ لِأَغْضَبِكَ، فَعَصَمَكَ اللَّهُ مِنِّي، فَسَمِّيَ ذَا الْكِفْلِ، لِأَنَّهُ [قَدْ] وَفَى بِمَا تَكْفُلُ بِهِ»^٢.

وعن مجاهد: لما كبر اليسع قال: لو أتني استخلفت رجلاً على الناس في حياتي حتى أنظر كيف يعمل؟ فجمع الناس وقال: من يتقبل مني ثلاثاً حتى أستخلفه^٣، وذكر الثلاث المذكورة. وقيل: إنه لقَبَ زكريا^٤. وقيل: لقَبَ يوشع بن نون، كما عن الرضا، عن أمير المؤمنين عليه السلام^٥. وقيل:

٤- ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢١١.

١. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٠.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١/ ٢٤٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥١.

٣٠٨ نفعات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

لَقَبَ الْيَاسَ^١. وقيل: خمسة من الأنبياء سَمَّاهُم اللهُ بِاسْمَيْنِ: إِسْرَائِيلَ وَيَعْقُوبَ، الْيَاسَ وَذُو الْكِفْلِ، عِيسَى وَالْمَسِيحَ، يُونُسَ وَذُو النَّوْنِ، مُحَمَّدَ وَأَحْمَدَ^٢.

وقيل: وجه تسميته ذِي الْكِفْلِ، أَنَّهُ تَكَفَّلَ ضِعْفَ عَمَلِ الْأَنْبِيَاءِ فِي زَمَانِهِ، وَضِعْفَ ثَوَابِهِمْ^٣.

وقيل: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، بَلْ كَانَ عَبْدًا صَالِحًا^٤.

وَذَا النَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ

وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ [٨٧ و ٨٨]

ثم ذكر الله نعمته على يونس عليه السلام باستجابة دعائه ونجاته من بطن الحوت بقوله: ﴿وَذَا النَّوْنِ﴾ وصاحب الحوت وهو يونس بن متى، قيل: إِنَّ مَتَّى اسْمُ أَبِيهِ وَاسْمُ أُمِّهِ بِذُورَةٍ^٥، وقيل: مَتَّى اسْمُ أُمِّهِ، وكانت من ولد هارون^٦. وقيل: يعني اذكر خبره^٧ ﴿إِذْ ذَهَبَ﴾ من بين قومه - وهم أهل نينوى - حال كونه ﴿مُغَاضِبًا﴾ ومُراغماً لهم إلى البحر.

عن ابن عباس: كان يونس وقومه يَشْكُونُ فِلَسْطِينَ، فغزاهم مَلِكٌ وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقي سبطان ونصف، فأوحى الله إلى شعيب عليه السلام: أَنْ اذْهَبْ إِلَى حَزَقِيلَ الْمَلِكِ، وَقُلْ لَهُ حَتَّى يُوَجِّهَ نَبِيًّا قَوِيًّا أَمِينًا، فَأَنِّي أَلْقِي فِي قُلُوبِ أَوْلَئِكَ أَنْ يُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: فَعَمَّنْ تَرَى - وكان في مملكته خمسة من الأنبياء؟ - فقال: يونس بن متى، فَإِنَّهُ قَوِيٌّ أَمِينٌ، فدعا المَلِكُ بيونس، وأمره أَنْ يَخْرُجَ، فقال يونس عليه السلام: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا، قال: فهل سَمَّاني لك؟ قال: لا، قال: فها هنا أنبياء غيري، فَأَلْحُوا عَلَيْهِ، فخرج مُغَاضِبًا لِلْمَلِكِ وَلِقَوْمِهِ^٨.

﴿فَظَنَّ﴾ يونس عليه السلام ﴿أَنْ لَنْ نَقْدِرَ﴾ وَلَنْ نَضِيقَ ﴿عَلَيْهِ﴾ بإيجاب الإقامة في القوم، أو إيجاب الخروج إلى المَلِكِ، بل نوسّع عليه بتخييره بين الإقامة والخروج، فكان هذا وجه عدم تعمّده المعصية حيث ظنَّ أَنَّ الْأَمْرَ فِي خُرُوجِهِ مُوسَّعٌ عَلَيْهِ، يجوز له تقديمه وتأخيرها، وكان الصلاح خلافه. أو المراد تمثيل حاله بحال مَنْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فِي خُرُوجِهِ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ غَيْرِ انْتِظَارِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى. أو المراد فَظَنَّ أَنَّ لَنْ تَقْضِيَ عَلَيْهِ بِالشَّدَّةِ، كما عن ابن عباس وجمع من المفسرين^٩.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٠.

٥. تفسير روح البيان ٥: ٥١٦، وفيه: أُمُّهُ بِذُورَةٍ.

٨. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٢.

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢١١.

٤. تفسير الرازي ٢٢: ٢١١.

٦ و ٧. تفسير روح البيان ٥: ٥١٦.

٩. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٥.

وقيل: إِنَّ الظَّنَّ بمعنى الخطور بالبال، وإن دفعه بالحجة^١. وقيل: إِنَّهُ استفهام توبيخي، والمعنى أَفَظُنُّ أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ؟^٢

عن الرضا عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال: «ذاك يونس بن متى، ذَهَبَ مُغَاضِبًا لقومه ﴿فَظُنُّ﴾ يعني استيقن ﴿أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي لن نضيق عليه رزقه»^٣ الخبر.
وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «ولو ظُنَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ لَكَانَ قَدْ كَفَرَ»^٤.
وعن الباقر عليه السلام في قوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ يقول: «مِنْ أَعْمَالِ قَوْمِهِ ﴿فَظُنُّ أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ يقول: ظُنُّ أَنْ لَنْ تُعَاقِبَهُ بِمَا صَنَعَ»^٥.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «إِنَّمَا وَكَّلَ اللَّهُ يُونُسَ بْنَ مَتَّى إِلَى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَكَانَ مِنْهُ مَا كَانَ»^٦.
وعن الصادق عليه السلام ما يَقْرُبُ مِنْهُ^٧.

وعن ابن عباس: أَنَّهُ أَتَى يُونُسَ بَحْرَ الرُّومِ، فَوَجَدَ قَوْمًا هَيُّوْا سَفِيْنَةً فَرَكِبَ مَعَهُمْ، فَلَمَّا تَلَكَّحَتْ^٨ السَّفِيْنَةُ تَكَفَّأَتْ بِهِمْ، وَكَادُوا أَنْ يَغْرُقُوا، فَقَالَ الْمَلَّاحُونَ: هَاهُنَا رَجُلٌ عَاصٍ أَوْ عَبْدٌ آبِقٌ، لِأَنَّ السَّفِيْنَةَ لَا تَفْعَلُ هَذَا مِنْ غَيْرِ رِيحٍ إِلَّا فِيْهَا رَجُلٌ عَاصٍ، وَمَنْ رَسَمْنَا أَنَا إِذَا ابْتَلَيْنَا بِمِثْلِ هَذَا الْبَلَاءِ أَنْ نَقْرَعَ، فَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ أَلقَيْنَاهُ فِي الْبَحْرِ، لَأَنَّهُ إِنْ يَغْرُقُ وَاحِدٌ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَغْرُقَ السَّفِيْنَةُ، فَأَقْرَعُوا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَوَقَعَتْ الْقُرْعَةُ فِيْهَا كُلِّهَا عَلَى يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: أَنَا الرَّجُلُ الْعَاصِي وَالْعَبْدُ الْآبِقُ، وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ، فَبَاءَ حَوْتَ فَأَبْتَلَعَهُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْحَوْتِ: لَا تُؤْذِ مِنْهُ شَعْرَةً، فَإِنِّي جَعَلْتُ بِطْنَكَ سِجْنًا لَهُ، وَلَمْ أَجْعَلْهُ طَعَامًا لَكَ^٩.

وفي رواية: أَنَّ جَبْرِئِيلَ قَالَ لِيُونُسَ: انْطَلِقْ إِلَى أَهْلِ نِينَوَى، وَأَنْذِرْهُمْ أَنَّ الْعَذَابَ قَدْ حَضَرَهُمْ، فَقَالَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَلْتَمَسْتُ دَابَّةً. فَقَالَ: الْأَمْرُ أُعْجِلَ مِنْ ذَلِكَ، فَغَضِبَ وَأَنْطَلَقَ إِلَى السَّفِيْنَةِ ... ثُمَّ سَاقَ الْكَلَامَ كَمَا سَبَقَ، إِلَى أَنْ قَالَ: التَّقِيْمَةُ الْحَوْتُ فَانْطَلَقَ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى نِينَوَى، فَأَلْقَاهُ هُنَاكَ^{١٠}.

أقول: أكثر المفسرين والعلماء على أن قضية إلقائه في البحر، وابتلاع الحوت إياه، كان بعد رسالته إلى أهل نينوى ودعوتهم ورفع العذاب عنهم بالتوبة، كما مرّت القصّة في سورة يونس.

وعن أم سلمة، عن النبي صلى الله عليه وآله: «لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ حَبْسَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْحَى إِلَى الْحَوْتِ أَنْ خُذْهُ وَلَا تَخْذِشْ لَهُ لَحْمًا، وَلَا تَكْسِرْ لَهُ عَظْمًا. فَأَخَذَهُ وَهَوَى بِهِ إِلَى أَسْفَلِ الْبَحْرِ، فَسَمِعَ يُونُسَ حِسًا، فَقَالَ فِي

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٥.

٣ و ٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٣، تفسير الصافي ٣: ٣٥٢.

٥ و ٦. تفسير القمي ٢: ٧٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥٢. ٧. الكافي ٢: ٤٢٣/١٥. ٨. أي اضطربت.

٩. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٢، روح البیان ٥: ٥١٧، ولم ينسبه إلى ابن عباس. ١٠. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٣.

نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه: هذا تسبيح دواب البحر^١ الخبر.

﴿فَتَادَى﴾ ودَعَا رَبَّهُ ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ الثلاث: ظُلْمَةُ الليل، وظُلْمَةُ البحر، وظُلْمَةُ بطن الحوت، كما عن الرضا عليه السلام^٢، وهذا على تقدير كون النداء بالليل. أو المراد الظلمة المُتَكَثِفَةُ، أو المراد: ظلمة البحر، وظُلْمَةُ بطن الحوتين، فإنه ابتلع حوت يونس حوتاً آخر كما قيل^٣.

وكان نداءه ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ وَأَنْزَهَكَ تَنْزِيهاً لَانْفَاقَ بِكَ عَنْ كُلِّ نَقِصٍ وَعَيْبٍ، ومنه العجز عن إنفاذ إرادتك، أو من أَنْ تَفْعَلَ ذلك جَوْرًا أو شَهْوَةً لِلانْتِقَامِ، أو عَجْزًا عَنْ تَحْلِيصِي مِنْ هَذَا الْحَبْسِ، بَلْ فَعَلْتَهُ بِحَقِّ الْأَوْهِيَةِ وَبِمَقْتَضَى الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ﴿إِنِّي كُنْتُ﴾ مستحقاً لعقوبتك، لكوبيي ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ على النفس بفراري مِنْ قَوْمِي بِغَيْرِ إِذْنِكَ، أو بِتَرْكِي فِي الْمَدَّةِ الَّتِي كُنْتُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذِهِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَشْتَغِلُ بِهَا حَالَ فِرَاقَتِي فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، كما عن الرضا عليه السلام^٤.

زُوي أَنْ الْمَلَانِكَةَ سَمِعَتْ تَسْبِيحَهُ فَقَالُوا مِثْلَهُ^٥.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاء الذي فِي ضِمْنِ اعترافه بِالذَّنْبِ عَلَى أَلْطَفِ الْوَجْهِ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ وَخَلَصْنَاهُ ﴿مِنَ الْغَمِّ﴾ الْحَاصِلُ لَهُ مِنَ الذَّنْبِ وَالْحَبْسِ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، بِأَنْ عَفَوْنَا عَنْهُ، وَقَذَفْنَا الْحَوْتَ إِلَى السَّاحِلِ الْقَرِيبِ مِنْ نِينَوَى بَعْدَ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ، أَوْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، أَوْ سَبْعَةٍ، أَوْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، كَالْفَرْخِ الْمَتَّوْفِ لَيْسَ عَلَيْهِ شَعْرٌ وَلَا جِلْدٌ، وَأُتْبِنَا عَلَيْهِ شَجَرَةٌ مِنْ يَتْقِينِ لِيَسْتَظِلَّ بِهَا، وَيَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِهَا حَتَّى يَشْتَدَّ، كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^٦ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الْإِنْجَاءُ الَّذِي لَا إِنْجَاءَ أَسْرَعَ مِنْهُ ﴿تُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنَ الْغَمِّ الَّتِي يَدْعُونَهَا فِيهَا بِالْإِخْلَاصِ.

عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ قال: «دعوة ذي النون في بطن الحوت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ مَا دَعَا بِهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ قطُّ وَهُوَ مَكْرُوبٌ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاؤَهُ»^٧. وعنه عليه السلام: «اسمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ أُعْطِيَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾» إِلَى آخِرِهِ^٨. وروى بعض العامة عن الصادق عليه السلام قال: «عَجِبْتُ مِمَّنْ يُبْتَلَى بِأَرْبَعٍ كَيْفَ يَقُولُ عَنْ أَرْبَعٍ^٩» إِلَى أَنْ قَالَ: «وَعَجِبْتُ مِمَّنْ اعْتَمَّ كَيْفَ لَا يَتَزَعَّ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ بِعَقْبِهَا: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي

١. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٦، عن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة.

٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٦.

٢. عبون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٠١، تفسير الصافي ٣: ٣٥٢.

٤. عبون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٠١، تفسير الصافي ٣: ٣٥٢.

٦. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٣.

٥. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٦، تفسير روح البيان ٥: ٥١٨.

٨. تفسير روح البيان ٥: ٥١٨.

٧. تفسير الرازي ٢٢: ٢١٦.

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيِي وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَيَدْعُونَ رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ [٨٩ و ٩٠]

ثم ذكر سبحانه نعمته على زكريا عليه السلام باستجابة دعائه بقوله: ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ بن آزر ﴿إِذْ نَادَى﴾ ودعا ﴿رَبَّهُ﴾ متضرعاً بقوله: يا ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي﴾ ولا تَدْعِنِي في الدنيا ﴿فَرْدًا﴾ وحيداً بلا وَلَدٍ يَرْتْنِي وَيَرِثُ مِنِّي آل يعقوب، وإن قَرَضَ أن لا تستجيب دعائي فلا أبالي، لأنك أفضل الأولياء ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ من كل أحد بعد موته، ففيه إظهار غاية الاستشلال والرضا برضاه، وإيكال أمره إليه تعالى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه في حق الولد ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ من فَضْلِنَا ﴿يُحْيِي﴾ ولداً وولياً ووارثاً تَرَبَّ به عينه، ويَحْيَاهُ ذِكْرُهُ ودينه ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ وصاحبه إشباع في الأخلاق والدِّين، فإنها على ما قيل كانت سَيِّئَةَ الْخُلُقِ^٢، وفي الولادة فإنها كانت عَقِيمَةً كبيرة السن.

ثم مدح سبحانه زكريا عليه السلام وزوجه وولده، أو مَدَحَ الأنبياء المذكورين في السورة بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ في مَدَّةِ أَعْمَارِهِمْ ﴿يُسَارِعُونَ فِي﴾ عمل ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ وفعل الطاعات والعبادات الموجبة للمثوبات والدرجات العاليات ﴿وَيَدْعُونَ﴾ ويتضرعون إلينا ﴿رَغَبًا﴾ في الثواب وشوقاً إليه ﴿وَرَهَبًا﴾ من عظمتنا، وخوفاً من العذاب والعتاب ﴿وَكَانُوا لَنَا﴾ بِقُلُوبِهِمْ وشرائش^٣ وجودهم ﴿خَاشِعِينَ﴾ ومُتَوَاضِعِينَ، أَوْ عَلَى الدَّوَامِ وَجَلِينَ، وفي الآية دلالة على غاية فضيلة المسارعة إلى الطاعة كَالصَّلَوَاتِ الْوَاجِبَةِ في أَوَّلِ أَوقَاتِهَا.

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ
* إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ
إِلَيْنَا رَاجِعُونَ [٩١-٩٣]

ثم ذكر سبحانه نعمته على مريم بنت عمران بقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ وحَفِظَتْ سَوَاتِهَا من أن تَمَسَّ بحرام أو حلال ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ بتوسط جَبْرَائِيل ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ وَوَهَبْنَا لَهَا بِذَلِكَ النُّعْنَ

وَلَدَا زَكِيًّا ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ عيسى ﴿آيَةً﴾ عَظِيمَةً وَدَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى قُدْرَتِنَا الْكَامِلَةِ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ وَأَهَالِي الْأَعْصَارِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ حَيْثُ إِنَّ مَرْيَمَ وُلِدَتْ مِنْ عَجُوزٍ عَقِيمٍ وَتَكَلَّمَتْ فِي الصَّبَا كَمَا قِيلَ^١، وَأَزْتَرَقَتْ مِمَّا يَأْتِيهَا مِنْ عِنْدِ رَبِّهَا الْكَرِيمِ، وَاحْتَبَلَتْ بِغَيْرِ فَعْلٍ، وَإِنَّ ابْنَهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وُلِدَ بِنَفْثِ الرُّوحِ الْأَمِينِ، وَتَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ كَمَا تَكَلَّمَ فِي الْكُهُولَةِ، وَأَظْهَرَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَرَفَعَ فِي السَّمَاءِ حَيًّا، وَإِنَّمَا عَدَّهُمَا آيَةً وَاحِدَةً مَعَ تَعَدُّدِهِمَا لِكَمَالِ ارْتِبَاطِهِمَا.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَاتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ، دَعَا النَّاسَ إِلَيْهِمَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ الْمِلَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ وَدِينَ التَّوْحِيدِ ﴿أُتِّكُمُ﴾ وَمَلَّتْكُمْ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْكُمْ الْمَحَافَظَةُ عَلَيْهَا أَيُّهَا النَّاسُ حَالُ كَوْنِهَا ﴿أُمَّةٌ﴾ وَمِلَّةٌ ﴿وَاحِدَةٌ﴾، إِنْ تَقَفَّ عَلَيْهَا جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُلِ مِنْ أَوَّلِ الدُّنْيَا إِلَى فَنَائِهَا ﴿وَأَنَا﴾ وَخَلْدِي ﴿رَبِّكُمْ﴾، وَاللَّهُمَّ الْمَذِيرَ لِأُمُورِكُمْ، فَإِذَا عَلِمْتُمْ ذَلِكَ ﴿فَاعْبُدُونِ﴾، وَاخْضَعُوا لِي، وَتَضَرَّعُوا وَلَا تَجَاوِزُوا عَنِّي إِلَى غَيْرِي.

ثُمَّ صَرَفَ اللَّهُ الْخُطَابَ عَنْهُمْ إِلَى الْعُقَلَاءِ، أَوْ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ إِعْظَامًا لِمَا أَرْكَبَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْإِشْرَافِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ وَفَرَّقُوا ﴿أَمْرَهُمْ﴾ وَدِينَهُمُ الَّذِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وَصَارُوا فِرْقًا مُخْتَلِفَةً وَأَحْزَابًا شَتَّى.

ثُمَّ هَدَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿كُلٌّ﴾ مِنْ أَحَادِ الْفِرَقِ ﴿إِلَيْنَا﴾ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ﴿رَاجِعُونَ﴾ فَتُجَازِيهِمْ بِحَسَبِ عِقَابِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَكْفُرْهُنَّ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ *
وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ [٩٤ و ٩٥]

ثُمَّ بَيَّنَ سَبْحَانَهُ الْفِرْقَةَ الْحَقَّةَ مِنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَخُلَفَائِهِمْ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ﴿فَلَا يَكْفُرْهُنَّ﴾ مِنَّا ﴿لِسَعِيهِ﴾ وَلَا جِزْمَانُ لَهُ مِنْ ثَوَابِ عَمَلِهِ، بَلْ تُشْكِرُهُ أَعْظَمُ الشُّكْرِ، وَتُعْطِيهِ أَفْضَلَ الْأَجْرِ عَلَى عَمَلِهِ وَإِيْمَانِهِ ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ فِي صَحِيفَتِهِ وَمُثَبِّتُوهُ فِي دَفْتَرِهِ. ثُمَّ بَالِغُ سَبْحَانِهِ فِي تَقْرِيرِ رُجُوعِ النَّاسِ إِلَيْهِ لِلْمُجَازَاةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَحَرَامٌ﴾ وَمُثَبِّتٌ ﴿عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ بِإِهْلَاكِ أَهْلِهَا ﴿أَنَّهُمْ﴾ فِي الْقِيَامَةِ ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾، إِنِنَا لِلْحَسَابِ وَجِزَاءِ الْأَعْمَالِ، بَلْ يَجِبُ رُجُوعُهُمْ بِمَقْتَضَى الْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى وَوَاجِبٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنْ لَا يَرْجِعُوا إِلَى التَّوْحِيدِ، أَوْ إِلَى الدُّنْيَا^٢.

وقيل: إن لفظ الحرام مستعمل في معناه لا في ضده، وكلمة (لا) في قوله: ﴿لَا يَزْجَعُونَ﴾ زائدة والمراد: حرام عليهم أن يرجعوا إلى الدنيا^١.

وعن (الفقيه) عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة الجمعة: «ألم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقيين منكم لا يبتغون، قال الله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾»^٢.
وعن القمي عنهما عليه السلام قال: «كل قرية أهلكها الله بالعذاب لا يرجعون في الرجعة»^٣.
وعن الباقر عليه السلام قال: «كل قرية أهلكها الله بالعذاب فإنهم لا يرجعون»^٤.

حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ
الْوَعْدُ أَلْحَقُ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ
مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ * إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا
وَارِدُونَ [٩٨-٩٦]

ثم بين سبحانه غاية حرمة رجوعهم بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ﴾ جهة ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أو سدة
القبيلتين اللتين مر تفصيلهما في الكهف^٥ ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ ومرتفع من الأرض ﴿يَنْسِلُونَ﴾
وينزّلون بسرعة، روي أنهم يسيرون في الأرض ويقبلون على الناس من كل موضع مرتفع^٦.
القمي: إذا كان آخر الزمان خرج يأجوج ومأجوج إلى الدنيا ويأكلون الناس^٧.

﴿وَاقْتَرَبَ﴾ عند ذلك ﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ بالحقير للحساب بعد النسخة الثانية ﴿فَإِذَا﴾ القصة ﴿هِيَ
شَاخِصَةٌ﴾ ومنفتحة من غير طرف ﴿أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مما يرون من الأحوال والشدايد قائلين
تحسراً وتندماً: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وبأهلا كنا احضر إنا ﴿قَدْ كُنَّا﴾ في الدنيا متعمرين ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عظيمة
﴿مِنْ هَذَا﴾ الذي نرى من البعث وأحواله ﴿بَلْ﴾ لم تكن في غفلة عنه لكثرة الآيات الدالة عليه، وإنما
﴿كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ على أنفسنا بتعريضها للهلاك بسبب الإعراض عن الآيات وتكذيب الرسل.

ثم أنه تعالى بعد بيان بعض أحوال القيامة صرف الخطاب إلى مشركي مكة بقوله: ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا معشر
المشركين ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام كلكم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وقودها الذي يرمى به
فيها لتشتعل ﴿أَنْتُمْ﴾ مع أضانيكم ﴿لَهَا وَارِدُونَ﴾.

١. تفسير الرازي ٢: ٢٢١. ٢. من لا يحضره الفقيه ١: ٢٧٦/٢٧٢، تفسير الصافي ٣: ٣٥٤.

٣. تفسير القمي ٢: ٧٦، تفسير الصافي ٣: ٣٥٤. ٤. مجمع البيان ٧: ١٠٠، تفسير الصافي ٣: ٣٥٥.

٥. في تفسير الآية (٩٣) من سورة الكهف. ٦. تفسير روح البيان ٥: ٥٢٣.

٧. تفسير القمي ٢: ٧٦، تفسير الصافي ٣: ٣٥٥.

لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهِ مَا وَرَدُوها وَكُلَّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا
يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُنْعَدُونَ * لَا
يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ
الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [١٩٩-١٠٣]

ثُمَّ بَيَّنَّ سبحانه امتناع كون الأصنام آلَهِ بقوله: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ﴾ المعبودون ﴿آلَهِةَ﴾ على الحقيقة
كما تَزْعُمُونَ ﴿مَا وَرَدُوها﴾ وما دخلوها البتة ﴿وَكُلَّ﴾ من المعبودين وعابديهم ﴿فِيهَا﴾ بعد ورود
﴿خَالِدُونَ﴾ لا خلاصَ لَهُمْ مِنْهَا أبداً، هذا حال جميعهم، وأما حال خصوص عَبْدَهُمْ فهو أنه ﴿لَهُمْ
فِيهَا زَفِيرٌ﴾ وأنيقُ وتنشُّ شديدة عَنْ غَمٍّ مَالِيٍّ للصدور ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ مع كونهم عُمِيًّا وَبُكْمًا ﴿لَا
يَسْمَعُونَ﴾ زَفِيرَ أَنفُسِهِمْ فَضْلاً عَنْ زَفِيرِ غَيْرِهِمْ.

عن ابن مسعود قال: يُجْعَلُ المشركون في نَوَابِيتٍ من نار، ثُمَّ تُجْعَلُ التوابيت في توابيت أخرى، ثُمَّ
تُجْعَلُ تلك في أخرى عَلَيْهَا مَسَامِيرٌ من نار، فلا يَسْمَعُونَ شَيْئاً، ولا يَرَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ فِي النَّارِ أَحَداً
يُعَذِّبُ غَيْرَهُ.^٢

عن الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِكُلِّ
شَيْءٍ يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، مِنْ شَمْسٍ أَوْ قَمَرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ يَسْأَلُ كُلَّ إِنْسَانٍ عَمَّا كَانَ يُعْبَدُ، فيقول كُلُّ مَنْ
عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ: رَبُّنَا إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُهُ لِيُقَرِّبَنَا إِلَيْكَ زُلْفَى. فيقول الله تبارك وتعالى للملائكة: اذْهَبُوا بِهِمْ وَبِمَا
كَانُوا يُعْبَدُونَ إِلَى النَّارِ مَا خَلَا مِنْ اسْتَنْثَيْتُ، فَأُولَٰئِكَ عَنْهَا مُنْعَدُونَ».^٣

وعنه عليه السلام: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَتَى بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فِي صُورَةِ تَوْرَيْنَ، فَيُقَدِّفُ بِهِمَا وَبَيْنَ عَبْدَهُمَا
فِي النَّارِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمَا عُبِدَا قَرَضِيًّا».^٤

أقول: فيه دلالة على أَنَّ الأجرام الفلكية لها حياة وشعور.

رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَصَانِدُ قُرَيْشٍ فِي الْحَطِيمِ^٥، وَحَوْلَ الْكُعْبَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ
صَنَماً، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَعَرَضَ لَهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، فَكَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَفْحَمَهُ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمْ
﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ الآية، فَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، فَرَأَاهُمْ يَتَهَامِسُونَ فقال: فِيمَا خُصِمْتُمْ؟ فَأَخْبَرَهُ
الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقال عبدالله: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ لَخَصَمْتُهُ فَدَعَوُهُ، فقال ابن

١. في النسخة: أَنْ، ولا تناسب من حيث الإعراب.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٢٤٤.

٣. قرب الإسناد: ٢٧٩/٨٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥٥.

٤. علل الشرائع: ٧٨/٦٠٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥٥.

٥. الحطيم: بناءٌ قُبالة الميزاب من خارج الكعبة.

الزُبَيْرى: أَنْتَ قُلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «نعم»، قَالَ: قد خصمتك ورب الكعبة، أليس اليهود عَبَدُوا الْغُزَيْرِ، وَالنَّصَارَى عَبَدُوا الْمَسِيحَ، وَبَنُو مُلَيْحٍ عَبَدُوا الْمَلَائِكَةَ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَصَحَّحَ الْقَوْمُ، فَزَلَّ **﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾**^١ وَقَوْلُهُ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمُ﴾**^٢.

وفي رواية أخرى قَالَ: **﴿بَلْ هُمْ عَبَدُوا الشَّيَاطِينَ الَّذِينَ أَمَرُوهُمْ بِذَلِكَ﴾**^٣.

وعن الباقر (عليه السلام): **﴿لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَجَدَ مِنْهَا أَهْلَ مَكَّةَ وَجْداً شديداً، فدخل عليهم عبد الله بن الزُبَيْرى وَكُفَّار قُرَيْشٍ يَحْضُرُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِى: أَتُكَلِّمُ مُحَمَّدًا بِهِذِهِ الْآيَةِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَيْنَ اعْتَرَفَ بِهَا لِأَخْصِمْنَهُ، فَجَمَعَ بَيْنَهُمَا، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ الْآيَةَ الَّتِي قَرَأْتَهَا آتِفاً، أَفِينَا وَفِي آلِهَتِنَا خَاصَّةً، أَمْ فِي الْأُمَمِ وَالْأَلِهَتِهِمْ؟ قَالَ: بَلْ فِيكُمْ وَفِي آلِهَتِكُمْ، وَفِي الْأُمَمِ وَالْأَلِهَتِهِمْ إِلَّا مَنْ اسْتَشْنَى [الله]. فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِى: خَصَمْتُكَ وَاللهُ، أَلَسْتَ تُثْنِي عَلَى عِيسَى خيراً، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّ النَّصَارَى يَعْبُدُونَ عِيسَى وَأُمَّهُ، وَأَنْ طَائِفَةً مِنَ النَّاسِ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ؟ أَفَلَيْسَ هَؤُلَاءِ مَعَ الْآلِهَةِ فِي النَّارِ؟ قَالَ: لَا، فَضَجَّتْ قُرَيْشٌ وَضَحِكُوا وَقَالُوا: خَصَمْتُكَ ابْنُ الزُّبَيْرِى؟ فَقَالَ ﷺ: قُلْتُمْ الْبَاطِلَ، أَمَا قُلْتَ إِلَّا مَنْ اسْتَشْنَى [الله]. وَاللهُ قَوْلُهُ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمُ﴾**^٤ الْآيَةُ.**

وقيل: لَمَّا كَانَ الْخُطَابُ فِي الْآيَةِ خُطَابُ الْمُشَافَهَةِ لَا يَشْمَلُ غَيْرَ مُشْرِكِي مَكَّةَ، وَهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: **﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾** وَلَمْ يَقُلْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ^٥، فَلَا يَشْمَلُ عِيسَى وَالْغُزَيْرِ وَالْمَلَائِكَةَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ بِالْهَيْئَةِ الْمَلَائِكَةِ، وَأَنَّ الْعُمُومَ الْمُفْتَرَضُ^٦ مُخَصَّصٌ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ فِي حَقِّ أَوْلَئِكَ الْكِرَامِ، فَكَانَ سَوَالُ ابْنِ الزُّبَيْرِى سَاقِطاً.

وفيه: أَنَّ خُطَابَاتِ الْقُرْآنِ شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ أَهْلِ عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا تَخْتَصُّ بِقُرَيْشٍ، خُصُوصاً مَعَ قَوْلِهِ: **﴿بَلْ فِيكُمْ وَفِي آلِهَتِكُمْ، وَفِي الْأُمَمِ وَالْأَلِهَتِهِمْ﴾** وَكَلِمَةِ (مَا) كَثِيراً مَا تُطْلَقُ عَلَى الْأَعْمِ مِنْ ذَوِي الْعُقُولِ وَلَوْ تَغْلِيظاً لِيُغَيِّرَهُمْ عَلَيْهِمْ، أَوْ لِيُخَيِّرَ ذَوِي الْعُقُولِ، وَعُمُومُ اللَّفْظِ كَافٍ لاعتراضِ الْخَصْمِ اللَّجُوجِ. وَلِذَا صَرَحَ سَبْحَانَهُ بِالتَّخْصِصِ بَعْدَ عُمُومِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا﴾** الْخَصْلَةُ **﴿الْحُسْنَى﴾** وَهِيَ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، أَوِ الْكَلِمَةُ الْحُسْنَى، وَهِيَ الْبَشَارَةُ بِالنَّوَابِ، لَا يَرَوْنَ جَهَنَّمَ، بَلْ **﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾** لِأَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ، شَتَانٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ جَهَنَّمَ، حَيْثُ إِنَّ الْجَنَّةَ فِي أَعْلَى عَالَمَيْنِ، وَجَهَنَّمَ فِي أَثْقَلِ السَّافِلِينَ، وَلِذَا يَكُونُ يُغْدَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ بِحَيْثُ **﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾** وَالصَّوْتِ

٣. تفسير الرازي ٢٢: ٢٢٣.

١. الزخرف: ٤٣/٥٧. ٢. تفسير الرازي ٢٢: ٢٢٣.

٤. تفسير القمي ٢: ٧٦، تفسير الصافي ٣: ٣٥٦. ٥. تفسير الرازي ٢٢: ٢٢٣.

٦. في النسخة: الفرضية.

الخفي منها.

وروى بعض العامة عن الصادق عليه السلام أنه قال: «كيف يسمعون حبيسها والنار تخمد لمطاعهم وتلاشى؟» ثم أنه تعالى بعد إشارتهم بخلاصهم من المهالك بشرهم بالفوز بالحظوظ بقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ﴾ وَأَشْتَاَتْ إِلَيْهِ ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ مِنَ الْعَمِ الرَّوْحَانِيَّةِ وَالْجَسَادِيَّةِ ﴿خَالِدُونَ﴾ مُقِيمُونَ لَا يَنْصَوِرُ زَوَالُهَا وَانْقِطَاعُهَا ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ قِيلَ: هُوَ دَنْحُ الْمَوْتِ بِصُورَةِ الْكَبْشِ الْأَمْلَحِ^٢. وقيل: النسخة الثانية^٣. وقيل: إطباق النار على أهلها فيفزعون لذلك فرعة عظيمة^٤. وقيل: هو الفرع عند مشاهدة النار، إذ لا فرع أعظم وأكثر منه، فمن آمن من ذلك آمن مما دونه بالأولوية^٥.

﴿وَتَتَلَقَّاهُمْ﴾ وَتَسْتَقْبِلُهُمُ ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ الَّذِينَ كَانُوا كَتَبَ أَعْمَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْبَشَرِ وَيَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿هَذَا﴾ الْيَوْمَ ﴿يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿تُوعَدُونَ﴾ وَتُبَشِّرُونَ بِمَا فِيهِ مِنْ قُنُونِ الثَّوَابِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَاتِ.

في (المجالس) عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام: «يا علي، أنت وشيعتك على الحوض تشقون من أحبيبتهم، وتمنعون من كرهتهم، وأشم الآمنون من الفرع الأكبر في ظل العرش، يفرح الناس ولا تغزعون، ويحزن الناس ولا تحزنون، وفيكم نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ الآية، وفيكم نزلت ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ الآية»^٦.

وعن الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ شِيعَتَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا فِيهِمْ مِنَ الذُّنُوبِ أَوْ غَيْرِهِ، مَبِضَّةً وَجُوهَهُمْ، مَسْتَوْرَةً عَوَارِثُهُمْ، آمِنَةً [رُؤُوعَتُهُمْ]، قَدْ سَهَّلَتْ لَهُمُ الْمَوَارِدَ، وَدَهَبَتْ عَنْهُمْ الشَّدَائِدَ، يَرْكَبُونَ ثَوْقًا مِنْ يَاقُوتٍ، فَلَا يَزَالُونَ يَدُورُونَ خِلَالَ الْجَنَّةِ، عَلَيْهِمْ شَرَكٌ مِنْ ثَوْبٍ يَتَلَأَلُ، تَوْضَعُ لَهُمُ الْمَوَائِدَ فَلَا يَزَالُونَ يَطْعَمُونَ [و] النَّاسُ فِي الْحِسَابِ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ الآية»^٧.

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا
إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ * وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي
الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ [١٠٤-١٠٦]

٢- ٥. تفسير الرازي ٢٢: ٢٢٧.

١. تفسير روح البيان ٥٢٥: ٥.

٦. أمالي الصدوق: ٨٩١/٦٥٧، تفسير الصافي ٣: ٣٥٦.

٧. المحاسن: ١٦٦/١٧٩، تفسير الصافي ٣: ٣٥٧.

ثُمَّ وَصَفَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ طَيًّا﴾ كَطَيٍّ الطَاوِي ﴿السَّجِّلَ﴾^١ والطُّومَارَ الموضوع ﴿لِلْكِتَابِ﴾ وَضَبَطَ المعاني الكثيرة فيه، قيل: إِنَّ مَعْنَى طَيِّ السَّجِّلِ لِلْكِتَابِ كونه ساتراً للكتابة^٢ التي فيه، ومُخْفِياً لها، ونشره: كشفه^٣.

وعن ابن عباس: السَّجِّلُ اسم مَلَكٍ يَطْوِي كِتَابَ بَنِي آدَمَ إِذَا رُفِعَتْ إِلَيْهِ^٤.

ورواه بعض العامة عن أمير المؤمنين^٥.

وقيل: معنى طَيَّهَا إِفْنَاؤُهَا فَتَتَحَوَّلُ دُخَانًا^٥.

ثُمَّ وَصَفَ الْيَوْمَ بِإِعَادَةِ الْخَلْقِ فِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا﴾ وَابْتَدَأْنَا ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ لِلْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا ﴿نُعِيدُهُ﴾ فِي الْآخِرَةِ، وَخَلَقَهُ ثَانِيًا لِلْحَشْرِ وَالْحِسَابِ، وَقَدْ وَعَدْنَا إِعَادَتَهُ ﴿وَعَدًّا﴾ حَتْمِيًّا وَاجِبًا الْإِنْجَازَ ﴿عَلَيْنَا﴾ بِمَقْتَضَى الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَلِذَا «إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» لِلْوَعْدِ وَمَنْجَزِينَ لَهُ لَا مُحَالَه.

عن النبي ﷺ قال: «تُحْشَرُونَ عِرَاءَ خُفَاءَ» كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ^٦.

أقول: أي كما خَلَقْتُمْ فِي الدُّنْيَا عِرَاءَ خُفَاءَ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْبَشَارَةِ بِحَسَنِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ، بِشَرِّ بِحَسَنِ مَالِ أَمْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا﴾ وَأَثَبْنَا ﴿فِي الزُّبُورِ﴾ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى دَاوُدَ، أَوْ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، أَوْ فِي الْقُرْآنِ ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ مَا أَثَبْنَاهُ فِي «الدُّكْرِ» وَاللُّوحِ الْمَحْفُوظِ، أَوْ فِي التَّوْرَةِ «أَنَّ الْأَرْضَ» كُلَّهَا، أَوْ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، أَوْ أَرْضَ الْجَنَّةِ «يَرِثُهَا» وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهَا «عِبَادِي الصَّالِحُونَ» فِي زَمَانِ الرَّجْعَةِ وَبَعْدَ ظُهُورِ الدَّوْلَةِ الْحَقَّةِ، أَوْ فِي الْآخِرَةِ.

عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ آيَةِ: مَا الزُّبُورُ، وَمَا الدُّكْرُ؟ قَالَ: «الدُّكْرُ عِنْدَ اللَّهِ، وَالزُّبُورُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى دَاوُدَ، وَكُلُّ كِتَابٍ أُنْزِلَ فَهُوَ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَنَحْنُ هُمْ»^٧.

وعن الباقر عليه السلام فِي قَوْلِهِ: «أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ»، قَالَ: «هُمْ أَصْحَابُ الْمَهْدِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ»^٨.

﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ الْمَذْكُورِ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْمَوَاعِظِ وَاللَّهْجَةِ وَكِفَايَةِ فِي الْهَدَايَةِ وَالْتَنْبِيهِ، وَمَا يَنَالُ بِهِ الْبَغْيَةُ وَالْمَطْلُوبُ «لِقَوْمٍ عَابِدِينَ» وَالْعَالَمِينَ الْعَامِلِينَ.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ [١٠٧]

١. فِي النسخة: لِكِتَابَةٍ. ٢. ٤. تفسیر الرازی ٢٢: ٢٢٨.

٥. تفسیر القمي ٢: ٧٧، تفسیر الصافي ٣: ٣٥٧. ٦. مجمع البيان ٧: ١٠٥، تفسیر الصافي ٣: ٣٥٧.

٧. الکافي ١: ١٧٦، تفسیر الصافي ٣: ٣٥٧. ٨. مجمع البيان، ٧: ١٠٦، تفسیر الصافي ٣: ٣٥٧.

ثم أنه تعالى بعد ذكر رحمته ونعمته على المؤمنين، يبين أن الرسول الذي أرسله إليهم أفضل النعم عليهم وعلى جميع الخلق بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد لغرض من الأغراض ﴿إِلَّا﴾ لتكون ﴿رَحْمَةً﴾ ونعمة عظيمة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ وسبباً لسعادة الدارين للخلق أجمعين.

عن أبي هريرة: قيل رسول الله ﷺ أذع على المشركين. قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً، وَلَمْ أُبْعَثْ عَذَاباً». وعنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَجَبْرِئِيلَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «هَلْ أَصَابَكَ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ شَيْءٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي كُنْتُ أَخْشَى عَاقِبَةَ الْأَمْرِ، فَأَمَنْتُ بِكَ لَمَّا أَتَى اللَّهَ عَلَيَّ بِقَوْلِهِ: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾.^١

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث مجيباً لبعض الزنادقة: «وَأَمَّا قَوْلُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ وَأَنَّكَ تَرَى أَهْلَ الْمَلَلِ الْمُخَالَفَةَ لِلْإِيمَانِ وَمَنْ يَجْرِي مَجْرَاهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ مُقِيمِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ رَحْمَةً عَلَيْهِمْ لَاهْتَدَوْا جَمِيعاً وَنَجَّوْا مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنَّمَا عَنَى بِذَلِكَ أَنَّهُ جَعَلَهُ سَبِيلًا لِإِنْذَارِ أَهْلِ هَذِهِ الدَّارِ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَهُ بُعِثُوا بِالتَّصْرِيحِ لَا بِالتَّعْرِيزِ، وَكَانَ النَّبِيُّ مِنْهُمْ إِذَا صَدَعَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَأَجَابَهُ قَوْمُهُ سَلِيمُوا وَسَلِمَ أَهْلُ دَارِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْخَلِيقَةِ، وَإِنْ خَالَفُوا هَلَكُوا وَهَلَكَ أَهْلُ دَارِهِمْ بِالْآلَةِ الَّتِي كَانَ نَبِيُّهُمْ يَتَوَعَّدُ بِهَا وَيَخَوِّفُهُمْ حُلُولَهَا وَنَزُولَهَا بِسَاحَتِهِمْ مِنْ خَسْفٍ أَوْ قَذْفٍ أَوْ رَجْفٍ أَوْ زَلْزَلَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الْعَذَابِ الَّتِي هَلَكَتْ بِهَا الْأُمَمُ الْخَالِيَةِ.

وإن الله عليم من نبينا ﷺ وَمِنَ الْحُجَجِ فِي الْأَرْضِ الصَّبْرَ عَلَى مَا لَمْ يُطَقْ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ الصَّبْرَ عَلَى مِثْلِهِ، فَبِعَثَهُ اللَّهُ بِالتَّعْرِيزِ لَا بِالتَّصْرِيحِ، وَأَثَبَتْ حُجَّةُ اللَّهِ تَعْرِيزاً لَا تَصْرِيحاً بِقَوْلِهِ فِي وَصِيَّةٍ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاً فِهَذَا عَلَيَّ مَوْلَا، وَهُوَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي.

وليس من خَلِيقَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا شَيْئَ مِنْهُ أَنْ يَقُولَ قَوْلًا لَا مَعْنَى لَهُ، فَلَزِمَ الْأُمَّةُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ النُّبُوَّةُ وَالْأُخُوَّةُ مَوْجُودَتَيْنِ فِي خَلْقَةِ هَارُونَ وَمَعْدُومَتَيْنِ فِي مَنْ جَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِمَنْزِلَتِهِ أَنَّهُ قَدْ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى أُمَّتِهِ كَمَا اسْتَخْلَفَ مُوسَى هَارُونَ حَيْثُ قَالَ لَهُ: ﴿اخْلُقْنِي فِي قَوْمِي﴾^٢ وَلَوْ قَالَ: لَا تُقَلِّدُوا الْإِمَامَةَ إِلَّا فَلَانًا بَعْدِي وَإِلَّا نَزَلَ بِكُمْ الْعَذَابُ لِأَنَّهُمْ الْعَذَابُ وَزَالَ بَابُ الْإِنْظَارِ وَالْإِمَهَالِ.^٣

وعن الباقر عليه السلام: «أَمَّا لَوْ قَامَ قَانِمًا رُذَّتْ إِلَيْهِ الْحُمَيْرَاءُ^٤ حَتَّى يَجْلِدَهَا الْحَدَّ وَحَتَّى يَنْتَقِمَ لِنَبْتِ مُحَمَّدٍ فَاطِمَةَ مِنْهَا». قيل: لِمَ يُجْلِدُهَا؟ قَالَ: «لِفِرْيَتِهَا عَلَى أُمِّ إِبْرَاهِيمَ»، قيل: فَكَيْفَ أَخْرَهُ اللَّهُ لِلْقَانِمِ؟ قَالَ: «إِنْ

١. تفسير الرازي ٢٢: ٢٣١.

٢. تفسير روح البيان ٥: ٥٢٧، الآية من سورة التكوين: ٨١/٢٠.

٣. الأعراف: ١٤٢/٧.

٤. الاحتجاج: ٢٥٥، تفسير الصافي ٣: ٣٥٨.

٥. في النسخة: رُذَّتْ بِالْحُمَيْرَاءِ.

الله تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ رحمةً، وبعث القائم نعمةً^١.

قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ
أَدْنَيْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبُ مِنَ
الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ

حِينَ [١٠٨-١١١]

ثم أنه تعالى بعد بيان أن بعثة محمد ﷺ كانت رحمة للعالمين، وكان من آثار رحمته دعوة الناس إلى التوحيد الموجب لكمال سعادة الدارين، أمر نبيه ﷺ بالدعوة إليه بِالطَّفِّ بيان وأبلغه بقوله: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ﴾ مِنْ رَبِّي ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾ وَمَعْبُودُكُم الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ ﴿إِلَهُ﴾ وَمَعْبُودٌ ﴿وَاحِدٌ﴾ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فبعد ما أخبرتكم بذلك مع دلالة المعجزات على صدقي، وبيّنت لكم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة عليه وعلى بطلان الشُّرك ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿مُسْلِمُونَ﴾ لَهُ، وَمَخْصَصُونَ عِبَادَتِكُمْ بِهِ، أَمْ تُصِرُّونَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشُّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ﴾ وَأَعْرَضُوا عَنْ قَوْلِكَ، وَلَمْ يَعْتَنُوا إِلَى دَعْوَتِكَ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ إِذْنَارًا: إِنِّي ﴿أَدْنَيْتُكُمْ﴾ وَأَعْلَمْتُكُمْ مَا أَوْحَى إِلَيَّ وَلَمْ أَقْصُرْ فِيهِ، أَوْ أَنْذَرْتُكُمْ عَذَابَ اللَّهِ عَلَى كُفْرِكُمْ حَالِ كُونِكُمْ ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ فِي الْإِعْلَامِ وَالْإِبْلَاحِ، بَلَا فَرْقٍ بَيْنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَالشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، وَالْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ، أَوْ الْمَرَادِ أَذْنَيْتُكُمْ بِالْحَرْبِ عَلَى مَهْلٍ، وَلَا أَعَاجَلْتُكُمْ فِيهِ رَجَاءً إِسْلَامِكُمْ.

﴿وَإِنْ أَدْرَى﴾ وَلَا أَعْلَمُ ﴿أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ وَتُنذَرُونَ بِهِ مِنَ الْقِيَامَةِ، أَوْ الْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ، أَوْ الْحَرْبِ وَغَلْبَةِ الْمُسْلِمِينَ، مَعَ أَنَّهُ آتٍ لَا مُحَالَهَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْذِّبُكُمْ عَلَى مَا تَجَاهَرْتُمْ بِهِ مِنَ الطَّعْنِ فِي نَبِيِّهِ وَكِتَابِهِ، وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِ، وَمَا تَسْرُونَ مِنَ الْحَسَدِ عَلَى مَا آتَانِي مِنْ فَضْلِهِ وَعَدَاوَتِكُمْ لِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿إِنَّهُ﴾ تَعَالَى ﴿يَعْلَمُ الْغَيْبُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الصَّادِرُ مِنْكُمْ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ وَتَسْرُونَ أَيُّ قَوْلٍ كَانَ أَوْ سِرٌّ ﴿وَإِنْ أَدْرَى﴾ وَمَا أَعْلَمُ أَنَّ تَأْخِيرَ تَعْذِيبِكُمْ أَوْ إِبْهَامِ وَقْتِهِ أَوْ تَأْخِيرِ الْأَمْرِ بِجِهَادِكُمْ، أَوْ مَا أَدْرِي مَا يَبِيتُ وَأَعْلَمْتُ^٢ ﴿لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ وَامْتِحَانٌ ﴿لَّكُمْ﴾ حَتَّى يَرَى أَنَّكُمْ تُحَدِّثُونَ التَّوْبَةَ وَتُؤْمِنُونَ أَمْ لَا، أَوْ بَلِيَّةٌ وَزِيَادَةٌ عَذَابٍ لَّكُمْ ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وَانْتِفَاعٌ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَنْعَمُهَا ﴿إِلَى حِينٍ﴾ وَأَجَلٍ مُّقَدَّرٌ تَقْتَضِيهِ مَشِيئَةُ اللَّهِ الْمُبِينَةُ عَلَى الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ.

قَالَ رَبِّ أَخْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ [١١٢]

ثم لما دعاهم النبي ﷺ على حَسَبِ وظيفته المقررة، وتمرد القوم عن إجابة دعوته وإطاعته، حكى سبحانه شكايته منهم إليه بقوله: ﴿قَالَ﴾ الرسول ﷺ ﴿رَبِّ أَخْكُم﴾ بيني وبين قومي ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل المقضي لتعجيل نزول العذاب عليهم، فَحَكَمَ الله عليهم بالقتل يوم بدر.

ثم حكى سبحانه توجهه إلى قومه، وتوعيده إياهم بالعذاب بقوله: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ﴾ والقادر الواسع الرحمة بالمؤمنين ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ والمتوقع منه النصر ﴿عَلَىٰ﴾ دفع ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ من الشرك وما تُعَارِضُونَ مِنَ الْآبَاطِيلِ.

وقيل: إِنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الشُّكُوكُ وَالغَلْبَةُ، فَكَذَّبَ اللهُ ظُنُونَهُمْ، وَخَيَّبَ آمَالَهُمْ، وَنَصَرَ رَسُولَهُ ﷺ [والمؤمنين] وَخَذَلَهُمْ^١.

رُوي أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَقُولُهُ فِي حُرُوبِهِ^٢.

عن الصادق عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَنْبِيَاءِ حُبًّا لَهَا، كَانَ مِنْ رَافِقِ النَّبِيِّينَ أَجْمَعِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَكَانَ مَهِيئاً فِي أَعْيُنِ النَّاسِ حَيَاةَ الدُّنْيَا»^٣.

وعن أَبِي بِنِ كَعْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَنْبِيَاءِ سَهَّلَ اللهُ الْحِسَابَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وَصَافَحَهُ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ ذَكَرَ اللهُ أَسْمَهُمْ فِي الْقُرْآنِ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ»^٤.

الحمد لله الذي وفَّقني لإتمام تفسير سورة الأنبياء، ونسأله التوفيق لتفسير بقية الكتاب الكريم

١. تفسير الرازي ٢٢: ٢٣٤.

٢. نواب الاعمال: ١٠٨، مجمع البيان ٧: ٦١، تفسير الصافي ٣: ٣٦٠.

٣. في مجمع البيان وتفسير أبي السعود: حاسبه الله حساباً يسيراً.

٤. مجمع البيان ٧: ٦١، تفسير أبي السعود ٦: ٩٠.

في تفسير سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ
كُلَّ مُرْضِعَةٍ عَنْ مَآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى
وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ [١ و ٢]

ثم لما ختم الله سورة الأنبياء المبتدئة بتهديد المشركين باقتراب القيامة، وذمهم على غفلتهم عنها، وإعراضهم عن آيات الله، وجدالهم في رسالة رسوله، ونسبة معجزاته إلى السحر، المختمة بأمر نبيه ﷺ بدعوة الناس إلى التوحيد، وتهديدهم على الشرك، وحكاية شكايته نبيه ﷺ إلى ربه من تمردهم، أردفت بسورة الحج المبتدئة بتحذير الناس عن الشرك، وتهديد المشركين بأحوال القيامة، وذمهم على مجادلة الرسول، واستدلاله تعالى على المعاد، المختمة بتسليية الرسول ﷺ في مجادلة قومه، وأمر المؤمنين بجهادهم، وتوجههم إلى عبادة الله والتوكل عليه، ووعدهم بالنصر، فأبتدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم شرع سبحانه فيها بتحذير الناس عن الشرك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ وأخذوا عذابه بقبول التوحيد والتوبة من الشرك والعصيان ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ التي تكون حين طلوع الشمس من مغربها، أو حين قيام الساعة ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا يحيط به الوصف، وأمر شديد لا يخويه البيان. عن ابن عباس: أن زلزلة الساعة حين قيامها^١.

وعن النبي ﷺ في حديث الصور: «أنه قرن عظيم يُنْفَخ فيه ثلاث نفخات: نَفْخَةُ الْقَرْعِ، ونفخة الصَّعْقَةِ، ونفخة [القيام] لرب العالمين، وأن عند نفخة القَرْع يَسِيرُ [الله] الجبال، وتَرْجُف الأرض الراجفة تُتْبِعُهَا الرادفة، قُلُوبٌ يَوْمُئِذٍ واجفة، وتكون الأرض كالسفينة تضربها الأمواج أو كالتقديل المعلق تُرْجَرُجه الرياح»^٢.

١. تفسير أبي السعود ٦: ٩١، تفسير روح البيان ٦: ٢. ٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢.

وعنه عليه السلام: «معاشير الناس، التقوى التقوى، إخذروا الساعة كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ زُلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾»^١.

ثم بين سبحانه بعض آثار عَظَمَةِ تلك الزَّلْزَلَةِ بقوله: ﴿يَوْمَ﴾ تشهدون فيه الزَّلْزَلَةُ و﴿تَرَوْنَهَا﴾ تَرَوْنَ ﴿تَذْهَلُ﴾ وتَغْفُلُ لِهَوْلِ مُطْلَعِهَا ﴿كُلُّ﴾ امرأة ﴿مُوضِعَةٍ﴾ لولدها ﴿عَمَّا أَوْضَعَتْ﴾ وعَنِ الطِّفْلِ الذي لَقِمَتْ ثَدْيُهَا فِيهِ مع غاية جهالة اهتمامها^٢ بإرضاعه ﴿وَتَضَعُ﴾ وتُلْقِي ﴿كُلُّ﴾ امرأة ﴿ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ وجنينها مِن بطنِها لغير تمام.

القمي: كل امرأة تموت حاملة عند [زلزلة] الساعة تَضَعُ حَمْلَهَا يوم القيامة^٣.

والظاهر أن الأمور الثلاثة تمثيل لتحويل الأمر ﴿وَتَرَى﴾ أيها السامع ﴿النَّاسُ﴾ في ذلك اليوم كأنهم ﴿شُكَّارَى﴾ مِن غاية البهت ﴿وَمَاهَمُ﴾ حقيقة ﴿بِشُكَّارَى﴾ مِن الْحَمْرِ ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فَمِنْ هوله تطير عقولهم ويسلب تمييزهم.

زوي أن هاتين الآيتين نزلتا بالليل في غزوة بني المصطلق، وهم حَيٍّ مِن خُرَاعَة، فنادى رسول الله ﷺ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ حوله، فقرأهما عليهم، فلم ير أكثر باكياً مِن تلك الليلة، فلما أَضَبَحُوا لم يحطوا السُّرُوح، ولم يَضْرِبُوا الخيام، ولم يَطْبَحُوا القُدُور، والناس بين بالٍ وجالِسِ حزين مُتَفَكِّر، فقال ﷺ: «اتَّذَرُونَ أَيُّ ذَلِكَ اليوم [هو]؟» قالوا: الله ورَسُولُهُ أعلم، قال: «ذلك يوم يقول الله لأدم: قُمْ فابعث بَعَثُ النَّارِ من ولدك، فيقول آدم: وما بعث النار؟ يعني من كم [وكم]، فيقول الله عز وجل: مِن كُلِّ أَلْفِ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فعند ذلك يَثِيبُ الصَّغِير، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَّارَى».

فكبر ذلك على المؤمنين، وبكوا وقالوا: فَمَنْ يَنْجُو يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فقال: «ابشروا وسددوا وقاربوا، فَإِنَّ مَعَكُمْ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَا فِي قَوْمٍ إِلَّا كَثَرَتَا: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ».

ثم قال: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبِّرُوا». ثم قال: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فكَبِّرُوا وحمدوا الله، ثم قال: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلْثِي أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنْ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ صَفًّا، ثَمَانُونَ مِنْهَا أُمَّتِي، وَمَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ، أَوْ كَالشُّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثُّورِ الْأَسْوَدِ».

ثم قال: «وَيَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا فِي الْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ» فقال عمر: سبعمائة ألفاً؟ قال: «نعم،

٢. في النسخة: واهتمامها.

١. الاحتجاج: ٦٥، تفسير الصافي ٣: ٣٦١.

٣. تفسير القمي ٢: ٧٨، تفسير الصافي ٣: ٣٦١.

ومع كل واحد سبعون ألفاً» الخبر^١.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [٤ و ٣]

ثم أنه تعالى بعد الأمر بالتقوى وبيان أهوال القيامة، بين لجاح القوم الموجب لغاية استحقاقهم العذاب بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ كالنصر بن الحارث وأضرابه من المشركين المنكرين للبعث ﴿مَنْ يُجَادِلُ﴾ ويخاصم ﴿فِي﴾ صفات ﴿اللَّهِ﴾ وإنما يكون جداله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وعرفان وحجة وبرهان ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في جداله وأقواله ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ﴾ إنسي أو جنّي ﴿مَرِيدٍ﴾ مبالغ في الفساد ومجاوز الحد في الطغيان والعتاد ﴿كُتِبَ﴾ وأثبت على ذلك الشيطان أو المجادل في اللوح المحفوظ أو قضي ﴿عَلَيْهِ﴾ في الأزل، أو جعل في طبعه كأنما كتب عليه ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ واتبعه ﴿فَإِنَّهُ﴾ بإغوانه وتسويلاته في قلب وليه ﴿يَضِلُّهُ﴾ ويخرجه عن طريق الحق والخير ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ بحمله على المعاصي ﴿إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ والنار الحريق.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَّى وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْأَعْمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِّن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبِتَتْ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ [٧-٥]

ثم لما هددهم الله بعذاب الآخرة، وكانوا منكرين للبعث ومجادلين فيه، استدل سبحانه عليه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ وشك مما وعدناكم ﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾ والإحياء بعد الموت، فأذكروا خلقكم الأول. وتفكروا فيه حتى يزول ريبكم ﴿فَإِنَّا﴾ بقدرتنا ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ وجعلنا مبدأ تكونكم ﴿مِن تُرَابٍ﴾ حيث خلق أبوكم آدم عليه السلام منه ﴿ثُمَّ﴾ خلقنا كل فرد منكم ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ وماء متكون في صلب الرجل خارج منه بدقي وشهوة ﴿ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ﴾ وقطعة دم جامدة مكونة من النطفة ﴿ثُمَّ مِّن

مُضْغَةً ﴿ وقطعة لحم مكوّنة من علقة ﴾ **مُخْلَقَةً** ﴿ ومصوّرة وتامة الحواس والتخاطيط ﴾ **وَعَبِيرٍ مُخْلَقَةٍ** ﴿ وغير مصوّرة وناقصة الحواس والتخاطيط، أو المراد تامة الخلق وغير تامة، أو خارجة من الرّحم حيّة، أو ساقطة منه ميتة، وإنّما نقلنا مبدأ وجودكم من حالٍ إلى حال ومن هيئة إلى هيئة ﴾ **لِتُبَيِّنَ لَكُمْ** ﴿ أنكم تتّعلّبون تحت قُدْرَتنا، وأن تغيير المُضْغَة إلى المخلّقة إنّما هو باختيار الفاعل القادر الحكيم المختار، ولولا لما صار بعضه مخلّقة وبعضه غير مخلّقة ﴾ **وَتَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ** ﴿ بعد ذلك ﴾ **مَا نَسَاءً** ﴿ قراره فيها ﴾ **إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴿ ووقت مضروب للولادة أدناه ستة أشهر عند الكلّ، وأقصاه عند المشهور من الخاصة تسعة أشهر، وعند قليلٍ منهم عشرة، وعند الأقلّ ستة، وعند أبي حنيفة ستّين، وعند الشافعي أربع سنين، وعند مالك خمس سنين ^١ .

عن الباقر عليه السلام: «الطُّفَة تُكُونُ بَيْضَاءَ مِثْلِ النُّخَامَةِ الْغَلِيظَةِ، فَتَمَكُّثُ [فِي الرَّحِمِ] إِذَا صَارَتْ فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تَصِيرُ عَلَقَةً، وَهِيَ عَلَقَةٌ كَعَلَقَةِ دَمِ الْمِحْجَمَةِ الْجَامِدَةِ، تَمَكُّثُ فِي الرَّحِمِ بَعْدَ تَحْوِيلِهَا مِنَ الطُّفَةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تَصِيرُ مُضْغَةً وَهِيَ مُضْغَةٌ لَحْمٌ فِيهَا عُرُوقٌ خُضِرَ مُشْتَبِكَةٌ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى عَظْمٍ، وَيُشَوِّقُ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَتُرْتَبُ جَوَارِحُهُ» ^٢ .

وسُئِلَ عَنِ الْمَخْلُوقَةِ فَقَالَ: «الْمَخْلُوقَةُ هُمُ الذَّرُّ الَّذِينَ خَلَقَهُمُ اللَّهُ فِي صُلْبِ آدَمَ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ، ثُمَّ أَجْرَاهُمْ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، وَهُمْ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ إِلَى الدُّنْيَا حَتَّى يَسْأَلُوا عَنِ الْمِيثَاقِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَعَبِيرٍ مُخْلَقَةٍ﴾ فَهِيَ كُلُّ نَسَمَةٍ لَمْ يَخْلُقْهُمُ اللَّهُ فِي صُلْبِ آدَمَ حِينَ خَلَقَ الذَّرَّ وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ، وَهُمْ الطُّفُفُ مِنَ الْعَزَلِ وَالسَّقَطُ قَبْلَ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ وَالْحَيَاةُ وَالْبَقَاءُ» ^٣ .

وعنه عليه السلام: «أَنَّ الطُّفَةَ تَكُونُ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تَصِيرُ عَلَقَةً أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تَصِيرُ مُضْغَةً أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَإِذَا كَمُلَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرَ بَعَثَ اللَّهُ مَلَكَتَيْنِ خَلَائِقَيْنِ يَقُولَانِ: يَا رَبِّ، مَا نَخْلُقُهُ ذَكَرًا أَمْ أُنْثَى؟ فَيُؤَمِّرَانِ، وَيَقُولَانِ: يَا رَبِّ شَقِيًّا أَمْ سَعِيدًا؟ فَيُؤَمِّرَانِ، يَقُولَانِ: يَا رَبِّ مَا أَجَلُهُ؟ وَمَا رِزْقُهُ؟ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ حَالِهِ، وَعَدَدٌ مِنْ ذَلِكَ أَشْيَاءَ، وَيَكْتُبَانِ الْمِيثَاقَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَإِذَا اكْتُمَلَ اللَّهُ [لَهُ] الْأَجَلُ بَعَثَ اللَّهُ مَلَكَاً فَرَجَرَهُ زَجْرَةً، فَيَخْرُجُ وَقَدْ نَسِيَ الْمِيثَاقَ» ^٤ .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا تِلْدُ الْمَرْأَةُ لِأَقَلِّ مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ» ^٥ .

وعن الباقر عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ غَايَةِ الْحَمْلِ بِالْوَلَدِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ كَمْ هِيَ، فَإِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: رُبَّمَا بَقِيَ

١. راجع: كنز العرفان ٢: ٢٣٥، وتفسير روح البيان ٦: ٦.

٢. الكافي ٧: ١٠٠/٣٤٥، تفسير الصافي ٣: ٣٦٣.

٣. الكافي ٦: ١١٢/١، تفسير الصافي ٣: ٣٦٣.

٤. الكافي ٦: ١٣/٣، تفسير الصافي ٣: ٣٦٣.

٥. الكافي ٥: ٣٢/٥٦٣، تفسير الصافي ٣: ٣٦٤.

فِي بَطْنِهَا سِينِينَ؟ فَقَالَ: «كَذَّبُوا، أَقْضَى حَدَّ الْحَمْلِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ لَا يَزِيدُ لِحَظَةٍ، وَلَوْ زَادَ سَاعَةً لَقَتَلَ أُمَّهُ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ»^١.

«ثُمَّ تُخْرِجُكُمْ» بعد ذلك من بطون أمهاتكم حال كونكم ﴿طِفْلًا﴾ ضَعِيفًا لَا تَقْوَمُونَ بِأُمُورِكُمْ
«ثُمَّ» سَهْلٌ فِي تَرْبِيَتِكُمْ وَأَغْذِيَتِكُمْ أُمُورًا ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ وكما لكم في القُوَّةَ والعقل والتمييز
«وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى» ويُقبض روحه قبل بلوغ الأشدَّ أو بعده «وَمِنْكُمْ مَنْ» يَبْقَى حَيًّا «يُرَدُّ إِلَى
أُذُنِ الْعُمْرِ» مِنَ الْهَرَمِ وَالْخَرَفِ.

عن الصادق عليه السلام، عن أبيه: «إِذَا بَلَغَ الْعَبْدُ مِائَةَ سَنَةٍ، فَذَلِكَ أُرْدَلِ الْعُمْرِ»^٢.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «يَعْنِي خَمْسًا وَسِتِّينَ»^٣. «لِكَيْلَا يَغْلَمَ مِنْ بَغْوِ عِلْمٍ» كثير ﴿شَيْئًا﴾ مِنْ
الْأَشْيَاءِ، أَوْ مِنَ الْعِلْمِ، لِقَلَّةِ فَهْمِهِ، وَسَخَافَةِ عَقْلِهِ، وَغَلَبَةِ النِّسيانِ عَلَيْهِ، كَحَالِهِ فِي أَوَّلِ طِفُولِيَّتِهِ.

ثم استدل سبحانه على قدرته على البعث بقوله: «وَتَرَى: أَيُّهَا الرَّائِي الْأَرْضَ» أَوَّلًا «هَامِدَةً»
وَبَاسَةً خَالِيَةً مِنَ النَّبَاتِ «فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ» مِنَ السَّمَاءِ «اهْتَزَّتْ» وَتَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ كَمَا
يَتَحَرَّكُ الشَّابُّ النَّشِيطُ وَزَيَّنَتْ بِالْأَزْهَارِ «وَوَرَّثَتْ» وَانْتَفَخَتْ وَنَمَتْ «وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ» وَنَوْعٍ
مِنَ الزَّرْعِ وَصَنَفٍ مِنَ الْغَرَسِ «يَهْبِجُ» وَذِي حُسْنٍ وَنَضَارَةٍ «ذَلِكَ» الصَّنْعُ الْبَدِيعُ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ
عَلَى أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَانَتْ «بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ» وَالْمَوْجُودُ الثَّابِتُ لِدَاثِهِ
الَّذِي لَا عَجَزَ لَهُ وَلَا فَنَاءَ «وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى» كَمَا أَمَاتَ الْأَحْيَاءَ «وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» مِنْ بَدْءِ
الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ «قَدِيرٌ» وَإِلَّا لَمَا صَدَّرَ مِنْهُ تِلْكَ التَّعَاجِبِ «وَأَنَّ السَّاعَةَ» وَالْقِيَامَةَ الَّتِي تُجْزَى فِيهَا
الْعِبَادَ «آتِيَةٌ» لَا حَالَةَ بِمَقْتَضَى حِكْمَتِهِ وَوَعْدِهِ الَّذِي لَا خُلْفَ فِيهِ، «وَلَا رَيْبَ فِيهَا» لَوْضُوحِ دَلِيلِهَا
«وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» إِلَى الْمَحْشَرِ، فَإِنَّهُ لَوْلَا السَّاعَةُ وَالْبَعْثُ لَمَا خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَمَا أَحْيَا
الْأَرْضَ، بَلْ لَمَا خَلَقَ الْعَالَمَ أَصْلًا، لَكُنْ خَلَقَهُ عِبَادًا.

والحاصل: أَنَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ وَإِحْيَاءِ الْأَرْضِ، إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ الْقُدْرَةِ وَظُهُورِ شُؤْنِ الْإِلَهِيَّةِ وَحَقِّقَتِهِ
فِي كِمَالِ صِفَاتِهِ، وَبِسَبَبِ حِكْمَتِهِ الْمَقْتَضِيَةِ لِإِتْيَانِ السَّاعَةِ وَالْبَعْثِ، وَحَقِّقَتِهِ فِي أَعْمَالِهِ.

وقيل: إِنَّ قَوْلَهُ: «وَأَنَّ السَّاعَةَ» خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: الْأَمْرُ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ^٤.

وقيل: إِنَّ الْبَاءَ^٥ فِي قَوْلِهِ: «بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ» لَيْسَ لِلْسَّبَبِيَّةِ، بَلْ مُتَعَلِّقٌ بِالْفِعْلِ الْمَحْذُوفِ^٦،

٢. تفسير القمي ٢: ٧٨، تفسير الصافي ٣: ٣٦٤.

٤. تفسير أبي السعود ٦: ٩٦.

٦. تفسير أبي السعود ٦: ٩٦.

١. الكافي ٦: ٥٢/٣، تفسير الصافي ٣: ٣٦٤.

٣. مجمع البيان ٦: ٥٧٤، تفسير الصافي ٣: ٣٦٤.

٥. في النسخة: إن كلمة باء.

والتقدير: ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِي
عَظِيمُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَتَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابُ
الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ [٨-١٠]

ثم أنه تعالى بعد ذم أتباع شياطين الإنس ذم المتبوعين بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَلَا هُدًى﴾ ودليل واضح ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ووحى موضح للحق.
وقيل: إن الآية السابقة نزلت في النضر بن الحارث، وهذه الآية نزلت في أبي جهل^١.
وعن ابن عباس: هذه الآية أيضاً نزلت في النضر^٢، ويكون التكرير للمبالغة في الذم^٣.
وقيل: إن المراد بالعلم العلم الضروري، وبالهدى العلم النظري والاستدلالي، وبالكتاب المنير
الدليل السمعي^٤، ويحتمل أن يكون المراد بالعلم العلم الكشفي، وبالهدى البرهان العقلي، وبالكتاب
الوحي السماوي.

ثم أنه تعالى بعد ذمهم بضلالة أنفسهم ذمهم بالتكبر وإضلال الناس بقوله: ﴿ثَانِي عَظِيمُهُ﴾ تكبراً،
ولاوي عتقه وكنيته تعظماً، ويكون جداله ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ويحرفهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ودين الإسلام.
ثم هددهم بقوله: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهوانٌ وذُلٌّ وفضيحةٌ ﴿وَتَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابُ النَّارِ
الْحَرِيقِ﴾ أو العذاب المحرق، ويقال له: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الخزي في الدنيا والعذاب الحريق
في هذا اليوم هو ما تستحقه ﴿بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ واكتسبته بسعيك من الكفر والمعاصي ﴿وَالْأَمْرُ
أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بل هم ظالمون على أنفسهم.
قيل: إن ذكر (ظلام) المتضمن للكثرة في موقع لفظ الظلم للتنبيه على أن قليل الظلم منه تعالى كثير،
أو باعتبار كثرة العبيد^٥.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ
فِتْنَةٌ اِنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ [١١]

ثم أنه تعالى بعد ذم المتجاهرين بالكفر المصيرين عليه، ذم المنافقين المتبطين للكفر المطهرين
للإسلام بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ﴾ ويتدين بدينه ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ وطرف واحد من الدين

وهو لسانه، لا على وسطه وهو قلبه، وهو كناية عن قلَّقه واضطرابه في الدين، فهو كالذي يقوم على طرف الجيش ليسهل عليه الفرار، إن أحسَّ بشرَّ فهو لا شكَّون له ولا طمأنينة ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ من سعة^١ وراحة ﴿أَطْمَأَنَّ﴾ بسبب ذلك الخير وسكن ﴿بِهِ﴾ في الدين، وثبت على ما كان عليه من الإيمان الظاهري اللساني ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ وبلية من شرٍّ ومكروه يعثره في نفسه أو أهله أو ماله ﴿أَنقَلَبَ﴾ وانصرف ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ وطريقه السابق من الكفر، ورجع إلى ما كان عليه من الضلال ﴿خَسِرَ﴾ وفقد ﴿الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ وذهبتا من يده وتضرر فيهما بضياغ مقصوده في الدنيا من العز والسلامة وسائر المنافع والتمتعات وفوات غرضه في الآخرة من ثيل الثواب والسَّلامة من العقاب ﴿ذَلِكَ﴾ الخسران ﴿هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ والضَّرر الواضح عند العقلاء، إذ لا خسران أعظم منه.

عن ابن عباس: نزلت في أعراب كانوا يتقدمون على النبي ﷺ بالمدينة مهاجرين من باديتهم، فكان أحدهم إذا صحَّ [بها] جسمه، وتنجت فرسه مَهْرًا حسنًا، وولدت امرأته غلامًا، وكثر ماله وماشيته، رضي بالدين واطمئنَّ إليه، وإن أصابه وجع، وولدت امرأته جارية، أو أجهضت رِمَاكه^٢، وذهب ماله، وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان وقال له: ما جاءك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين، فَيَنْقَلِبْ عَنْ دِينِهِ^٣.

وقيل: نزلت في المؤلفَّة قلوبهم، منهم: عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، قال بعضهم لبعض: ندخل في دين محمد، فإن أصبنا خيرًا عرفنا أنه حق، وإن أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل^٤.

وقيل: أسلم رجل من اليهود، فذهب بصره وماله وولده، فقال: يا رسول الله أفلني، فإنني لم أصب من ديني هذا خيرًا، ذهب بصري وولدي ومالي. فقال ﷺ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُقَالُ، إِنْ الْإِسْلَامَ لَيْسَبِكَ كَمَا تَسَبِّحُ النَّارَ حَبَّتِ الْحَدِيدُ وَالذَّهَبُ» فنزلت هذه الآية^٥.

عن الباقر عليه السلام قال: «هم قوم وخذوا الله، وخَلَعُوا عِبَادَةَ مَنْ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فخرجوا من الشُّرك ولم يعرفوا أنَّ محمدًا ﷺ رسول الله، فهم يعبدون الله على شك في محمد وما جاء به، فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا: ننظر، فإن كثرت أموالنا وعوفينا في أنفسنا وأولادنا، عَلِمْنَا أَنَّكَ صَادِقٌ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ نَظَرْنَا. قَالَ اللَّهُ: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَأَنَّ بِهِ﴾ يعني عافية في الدنيا ﴿وَإِنْ

١. في النسخة: وسعة. ٢. الرماك: جمع زمكة، وهي الفرس أو البرذونة تُتخذ للنسل.

٣. ٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٣: ١٣.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ١٣.

أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ، يعني بلاء في نفسه ﴿أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي انقلب على الشُّرْكِ^(١).

يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُوا
لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ * إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا
يُرِيدُ [١٢-١٤]

ثم ذم سبحانه العابد على حَرْفٍ على شركه الْمُضْمَر بقوله: ﴿يَدْعُوا﴾ ذلك الضال في الباطن
وَيَعْبُدُ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه ﴿مَا لَا يَنْصُرُهُ﴾ إن لم يعَّده ﴿وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ إن عَدَّه ﴿ذَلِكَ﴾
الدُّعَاءُ ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عَنِ الْحَقِّ والصواب بحيث لا يرجى هدايته، لَوْضُوح أَنَّ الْجَمَادَ لَا يَبْلُغُ
بالدعاء ولا يَجِيءُ منه الصَّرَرُ والنفخ.

ثم بالغ سبحانه في تَفْجِيعِ عَمَلِهِمْ وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِهِمْ بقوله: ﴿يَدْعُوا﴾ ذلك الْأَحْمَقُ الْعَبِيءُ ﴿لَمَنْ
ضَرُّهُ﴾ بسبب عبادته ودُعائه الموجب للمقتل والخذلان في الدنيا، والعذاب بالنار في الآخرة
﴿أَقْرَبُ﴾ إليه ﴿مِنْ نَفْعِهِ﴾ الْمُتَوَقَّعِ مِنْ عبادته بِزَعْمِهِمْ مِنَ الشِّفَاعَةِ والقَرَبِ مِنَ اللَّهِ، واللَّهُ ﴿لَيْسَ
الْمَوْلَى﴾ والناصر ذلك المعبود ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ والصاحب، وإِنَّمَا ذَكَرَ كلمة (مَنْ) في قوله:
﴿لَمَنْ﴾ في مورد كلمة (ما) وصيغة التفضيل مُمَاشَاةً للمشركين المنزِلين للأصنام منزلة العقلاء،
والقائلين بأنها الضارَات النافعَات.

ثم أَنَّهُ تعالى بعد ذم الأصنام، وَأَنَّهُ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، بَيَّنَّ نَفْعَهُ بِالْمُؤْمِنِينَ وَتَفْضُلَهُ عَلَيْهِمْ بقوله: ﴿إِنَّ
اللَّهَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِاللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بَلْطَفِهِ وَتَفْضُلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ مِنْ إِثَابَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ لَا
دَافِعَ لَهَا وَلَا مَانِعَ.

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمِذْدُذْ بِسَبَبٍ إِلَى
السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ [١٥]

ثم لَمَّا بَيَّنَّ تَفْضُلَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ^٢، بَيَّنَّ لَطْفَهُ بِنَبِيِّهِ ﷺ وَتَفْضُلَهُ عَلَيْهِ بِنَصْرَتِهِ بقوله: ﴿مَنْ كَانَ
يَظُنُّ﴾ وَيَتَوَكَّمُ فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾ بِإِعْلَاءِ دِينِهِ، وَقَهْرِ أَعْدَائِهِ، ﴿وَوَ﴾

في ﴿الْآخِرَةِ﴾ بإِعْلَاءِ دَرَجَتِهِ وَدَرَجَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَالْإِنْتِقَامِ مِنْ مُعَارَضِيهِ وَمُكَذِّبِيهِ، وَيُعْظِمُهُ مَا يَرَى مِنْ خِلَافِ مَا تَوَهَّمَهُ ﴿فَلْيَمْدُدْهُ﴾ وَلْيَرْبِطْ عُنُقَهُ ﴿بِسَبَبٍ﴾ وَحَبْلِ ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ الْمُطِيلَةِ، أَوْ سَقْفِ بَيْتِهِ ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ ذَلِكَ الْحَبْلَ فَيَسْقُطَ عَلَى الْأَرْضِ وَيَمُوتَ، أَوْ لِيَقْطَعَ نَفْسَهُ وَيَحْتَقِ وَيَنْتَظِرَ ﴿فَلْيَنْتَظِرْ﴾ وَلِيَتَصَوَّرَ فِي نَفْسِهِ ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ﴾ وَيُزِيلَنَّ ﴿كَيْدُهُ﴾ وَتَدْبِيرُهُ وَفَعَلَهُ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ ﴿مَا يَغِيظُ﴾ مِنْ نُصْرَةِ اللَّهِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ؟ كَلَّا، لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ نُصْرَةِ اللَّهِ لَهُ وَإِنْ أَهْلَكَ نَفْسَهُ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ عَنْ إِنْغَازِ إِرَادَتِهِ.

قيل: كَانَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَشِدَّةِ غَيْظِهِمْ عَلَى الْمَشْرِكِينَ يَسْتَبْطِنُونَ مَا وَعَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ مِنَ النُّصْرِ، فَنَزَلَتْ ١.

وقيل: إِنَّ أَعْدَاءَهُ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ أَنْ لَا يَنْصُرَهُ اللَّهُ، فَلَمَّا شَاهَدُوا أَنَّ اللَّهَ نَصَرَهُ غَاطَّاهُمْ ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ ٢. وَحَاصِلُ الْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى نَاصِرُ رَسُولِهِ لَا مُحَالَةَ، فَمَنْ كَانَ يُغَيِّظُهُ ذَلِكَ أَنْ لَنْ يَفْعَلَهُ تَعَالَى بِسَبَبٍ مَدْفَعَتَهُ فَلْيُبَالِغْ فِي الْجَدِّ فِي دَفْعِهِ، فَقَصَّارَى أَمْرِهِ وَعَاقِبَةُ مَكْرِهِ أَنْ يَخْتَنِقَ مِمَّا يَرَى مِنْ بُطْلَانِ سَعْيِهِ فِي ذَلِكَ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ فَلْيَمْدُدْ حَبْلًا إِلَى السَّمَاءِ الْمُطِيلَةَ وَلِيَصْعَدَ عَلَيْهَا، ثُمَّ لِيَقْطَعْ الْوَحْيَ، أَوْ فليَقْطَعْ نَصْرَ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ ٣.

وقيل: إِنَّ ضَمِيرَ (لَنْ يَنْصُرَهُ) رَاجِعٌ إِلَى الْمَوْصُولِ، وَالْمُرَادُ مِنَ النُّصْرَةِ الرِّزْقُ، وَالْمَعْنَى مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَرْزُقَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِذَا يَغْدُلُ عَنْ التَّمَسُّكِ بِدِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلْيُبَالِغْ فِي الْجَزَعِ، وَغَايَةِ الْإِخْتِنَاقِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَقْلِبُ الْقِسْمَةَ وَلَا يَجْعَلُهُ مَرْزُوقًا ٤.

عن مقاتل: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنْ أَسَدٍ وَغُطْفَانٍ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: نَخَافُ أَنْ لَا يَنْصُرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا، فَيَنْقُطِعَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ خُلَفَائِنَا مِنَ الْيَهُودِ، فَلَا يَجِيرُونَنَا ٥.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [١٦ و ١٧]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ حَالِ الْمَشْرِكِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَعَدَمِ قُدْرَةِ أَحَدٍ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ إِنْغَازِ إِرَادَتِهِ بِأَبْلَغِ

بيان، يَنْ أُنَّ جميعَ القرآن في البيان في درجة الإعجاز بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الإنزالِ البديع المنطوي على الحكم البالغة في هذا القرآن ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ كله حال كون جميعه ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ والبيانات البالغة حد الإعجاز الواضحات الدلالة على المعاني الرائقة اللطيفة مع غاية الإيجاز ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ به إلى الحق والدرجات العالية في الدنيا والآخرة ﴿مَنْ يُرِيدْ﴾ هدايته إليها.

قيل: إن التقدير ولأن الله يهدي مَنْ يريد أنزله كذلك، أو الأمر أن الله يهدي، إلى آخره^١.

في الحديث: «أَنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»^٢.

ثم بين الله الفرقة المهدية والفرق الضلال، وأخبرهم بإعطاء كل منهم ما يستحقه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وَأَتَّخَذُوا الْمِلَّةَ الْيَهُودِيَّةَ ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ وَعَبَدَةَ الملائكة والكواكب الخارجين عن الأديان كلها، وقيل: هم المتدينون بدين نوح^٣ ﴿وَالنَّصَارَى﴾ الَّذِينَ اخْتَارُوا دِينَ الْمَسِيحِ ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ الَّذِينَ عَبَدُوا النَّارَ ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وَعَبَدُوا الْأَصْنَامَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ﴾ وَيَقْضِي ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بِإِثَابَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وتعذيب الفرق الخمس الآخر المتفقين على الكفر، ولا تخفى عليه بواطنهم وظواهرهم ومقدار استحقاقهم وما يستحقون، بل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خفيات عوالم الملك والملكوت وجلياتها ﴿شَهِيدٌ﴾ وبها عليهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ
الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ [١٨]

ثم بين سبحانه ما يوجب الفصل بينهم من التوحيد والشرك والخضوع لله والاستنكاف منه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم تعلم أيها الذي من شأنك العلم ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ﴾ ويخضع ﴿لَهُ﴾ وحده ويتقاد لحكمه طوعاً أو كرهاً ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الثقلين ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ﴾ كالوحوش والطيور ونظائرهما ﴿و﴾ يسجد له ﴿كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ سجد طاعة وعبادة، أو يوحد: كما عن ابن عباس^٤. أو في الجنة، أو حق له الثواب ﴿وَكَثِيرٌ﴾ منهم ﴿حَقَّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ بكفره وإشراكه وعصيانه ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ﴾ ويُشقيه بخذلانه وتعذيبه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ يُكْرِمه بإسعاده وإثابته ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ وحده هو الذي

٢. تفسير روح البيان ٦: ١٤.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠.

١. تفسير أبي السعود ٦: ١٠٠.

٣. تفسير روح البيان ٦: ١٥.

﴿يَفْعَلْ مَا يَشَاءُ﴾ من الإكرام والإهانة وغيرهما.

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ
يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ
مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا
عَذَابَ الْحَرِيقِ [١٩-٢٢]

ثم أنه تعالى بعد ذكر فرقة المؤمنين وفرقة الكفار المنقسمة إلى خمس فرق، بين ما فيه اختلافهم
وكيفية الفصل بينهم بقوله: ﴿هَذَانِ﴾ الفريقان ﴿خَصْمَانِ﴾ متنازعان، الذين ﴿اخْتَصَمُوا﴾ وتنازعا
﴿فِي﴾ ذات ﴿رَبِّهِمْ﴾ وصفاته كما عن ابن عباس^١. أو في دينه المَرَضِيِّ عنده، وإنما كان تخصمهم
[يتمثل في] بناء أقوالهم وأفعالهم على ما كانوا يعتقدون، وإن لم يَجْرِ بينهما تحاور.
قيل: تخصمت اليهود والمؤمنون فقالت اليهود: نحن أحق بالله، لأن كتابنا أقدم^٢، ونبينا قبل نبيكم.
وقال المؤمنون: نحن أحق بالله، لأننا أمنا بمحمد ﷺ وبنبيكم، وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون
كتابنا ونبينا، ثم كفرتم به حسداً، فنزلت^٣.

وَرُوي أن تلك المحاجة كانت بين عامة أهل الكتاب والمؤمنين^٤.

وَرُوي أن أبا ذر رضوان الله عليه كان يحلف بالله على أن الآية نزلت في سبته من قريش تبارزوا يوم
بذر: حمزة، وعلي، وعبيدة، وعتبة، وشيبة، والوليد. وقال علي عليه السلام: «أنا أول من يجتأ للخصومة بين
يَدَيِ الله تعالى يوم القيامة»^٥.

وقيل: إن الخصمين الجنة والنار؛ قالت النار، خلقتني الله لعقوبته، وقالت الجنة: خلقتني الله لرحمته،
فقص الله خبرهما لنبيه ﷺ^٦.

وعن الحسين بن علي عليه السلام قال: «نحن وبنو أمية، صدق الله ورسوله، وقالت بنو أمية: كذب الله
ورسوله، فنحن الخصمان يوم القيامة»^٧.

وأما كيفية الفصل ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنَ الْفِرْقِ ﴿قُطِّعَتْ﴾ وَقُدِّرَتْ ﴿لَهُمْ﴾ على مقادير جُزْئِهِمْ
﴿ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ يَلْبَسُونَهَا.

٢. في تفسير أبي السعود: وأقدم منكم كتاباً.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢١.

٧. الخصال: ٣٥/٤٢، تفسير الصافي ٣: ٣٦٨.

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢١.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ١٠١.

٥ و٦. تفسير الرازي ٢٣: ٢١.

وقيل: شبه الله إحاطة النار بهم بإحاطة الثياب بلباسها^١.

وعن سعيد بن جبیر: أی من نحاس أُذِيب بالنَّارِ^٢.

﴿يُصْبِ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ والماء الحار المتناهي في الحرارة. عن ابن عباس: لو قطرت قطرة منه على جبال [الدنيا] لأذابها^٣. ﴿يُضْهِرُّ﴾ ويذهب (بِهَ مَا فِي بُطُونِهِمْ) من الأحشاء والأمعاء وَالْجُلُودُ فتأثيره في بواطنهم كآثاره في ظواهرهم[هم].

القمي قال: تشويه النار، فسترخي شَفَتَهُ السُّفلى حتى تَبْلُغَ شَرَّتَهُ، وتقلص شَفَتَهُ العُلىا حتى تَبْلُغَ وسط رأسه^٤. «وَوَ» أَعَدَّ «أَلَهُمْ مَقَامِعٌ» وأَعْمَدَةٌ كما قال القمي^٥. أو سِياط «مِنْ حَدِيدٍ» مُحَمَّاةٌ.
عن النبي ﷺ قال: «وَأَلَهُمْ مَتَاعٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ وَضِعَ مَتَمَعٌ مِنْ حَدِيدٍ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّقْلَانِ مَا أَقْلَوْهُ مِنَ الْأَرْضِ»^٦.

﴿كَلَّمَا أَرَادُوا﴾ وَأَيَّ وَقْتٍ أَشْرَفُوا عَلَى ﴿أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ وَيَتَخَلَّصُوا ﴿مِنْ عَمٍّ﴾ مِنْ غُثُمِهَا الشَّدِيدَةِ الَّتِي تُصِيبُهُمْ فِيهَا، بَأَنْ يَضْرِبَهُمْ لَهَبُهَا فَيَرْفَعُهُمْ إِلَى أَعَالِيهَا ﴿أَعِيدُوا فِيهَا﴾ وَرَدُّوا مِنْ أَعَالِيهَا إِلَى أَسَافِلِهَا بِضَرْبِ الْأَعْمِدَةِ عَلَى رُؤُوسِهِمْ ﴿وَقَدْ قِيلَ لَهُمْ: ﴿ذُوقُوا﴾ وَأَطِيعُوا ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وَالْمُتَّعِينَ بِالنَّارِ الْبَالِغَةِ فِي الْأَحْزَانِ، أَوْ أَلَمِ الْغَلِظِ مِنَ النَّارِ.

عن الصادق عليه السلام في رواية: «أَنَّ أَهْلَ النَّارِ [يُعْظَمُونَ النَّارَ، وَإِنَّ] أَهْلَ الْجَنَّةِ [يُعْظَمُونَ الْجَنَّةَ] وَالنَّعِيمَ، وَإِنَّ أَهْلَ جَهَنَّمَ إِذَا دَخَلُوهَا هَوَّوْا فِيهَا [مُسِيرَةً] سَبْعِينَ عَامًا، فَإِذَا تَلَقَّوْا أَغْلَاهَا قَمِعُوا بِقِمَاعِ الْحَدِيدِ وَأَعْيَدُوا فِي ذَرْكِهَا، هَذِهِ حَالُهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ثُمَّ تَبَدَّلَ جُلُودَهُمْ غَيْرَ الْجُلُودِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ»^٧ الخبر.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهَدُوا
إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ [٢٣ و ٢٤]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ قَضَاءَهُ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ وَشَوْءَ حَالِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، بَيَّنَّ قَضَاءَهُ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ وَحَسَّنَ حَالَهُمْ فِيهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فَعَظَّمَ اللَّهُ شَأْنَهُمْ بِإِسْنَادِ إِدْخَالِهِمُ الْجَنَّةَ إِلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ بَيَّنَّ مَا أَعَدَّ لِلْمُؤْمِنِينَ بِدَلِّ مَا أَعَدَّ لِلْكَفَّارِ

۲. تفسیر الرازی ۲۳: ۲۲.

٤ و ٥. تفسير القمي، ٢: ٨٠، تفسير الصافي، ٣: ٣٦٨.

٤ و ٥. تفسير القمي، ٢: ٨٠، تفسير الصافي، ٣: ٣٦٨.

٧. تفسير القمي، ٢: ٨١، تفسير الصافي، ٣: ٣٦٩.

٦. مجمع البيان ٧: ١٢٤، تفسير الصافي، ٣: ٣٦٨.

۲. تفسیر الرازی ۲۳: ۲۲.

٤ و ٥. تفسير القمي، ٢: ٨٠، تفسير الصافي، ٣: ٣٦٨.

مِنَ الْمَقَامِعِ بقوله: ﴿يُحْلَوْنَ﴾ وَيُزَيَّنُونَ ﴿فِيهَا﴾ بِأَمْرِ اللَّهِ وَتَصَدَّى الْمَلَائِكَةُ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ كَانَتْ ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ أَخْمَرَ عَلَى مَا قِيلَ^١ ﴿وَيُحْلَوْنَ﴾ ﴿لُؤْلُؤًا﴾ لَتَرْيَنَهُمْ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ لِبَاسِ الْكَفَّارِ فِي جَهَنَّمَ، بَيَّنَّ لِبَاسَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ بقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وَثَوْبٌ مِنْ إِبْرَيْسَمٍ مَخْصُصٍ، وَإِنَّمَا غَيَّرَ الْأَشْلُوبَ، حَيْثُ لَمْ يَثَلْ: وَيَلْبَسُونَ حَرِيرًا، إِشْعَارًا بِأَنَّ لِبَاسَهُمْ أَمْرًا غَنِيًّا عَنِ الْبَيَانِ، وَإِنَّمَا الْمَحْتَاجُ إِلَى الْبَيَانِ تَغْيِيرُ جَنْسِهِ ﴿وَهُذُوا﴾ فِيهَا ﴿إِلَى الطَّيِّبِ﴾ وَالْأَخْسَنِ ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾ كَقَوْلِهِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا، وَقَوْلِهِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ، وَقَوْلِهِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ، كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^٢.

وقيل: هو البشارة التي تأتيهم من قِبَلِ اللَّهِ^٣.

وقيل: يعني هُذُوا فِي الدُّنْيَا إِلَى الْقَوْلِ الطَّيِّبِ، وَهُوَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^٤.

وقيل: هو القرآن^٥.

﴿وَهُذُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ وَالطَّرِيقِ الْمَحْمُودِ نَفْسَهُ أَوْ عَاقِبَتِهِ. وَقِيلَ: إِنَّ الصِّرَاطَ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَالْحَمِيدُ هُوَ اللَّهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْحَمْدِ بِذَاتِهِ، وَإِنَّمَا آخِرُ هَذِهِ الْهَدَايَةِ عَنْ الْهَدَايَةِ إِلَى الْقَوْلِ الطَّيِّبِ مَعَ تَقَدُّمِهَا عَلَيْهَا رِعَايَةً لِلْمَوَاضِلِ^٦.

عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) - فِي هَذِهِ الْآيَةِ - قَالَ: «ذَاكَ حَمْرَةٌ وَجَعْفَرٌ وَعُبَيْدَةُ وَسَلْمَانُ وَأَبُو ذَرٍّ وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ وَعَمَّارٌ، هُذُوا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)»^٧.

وَعَنِ الْبَاقِرِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «هُوَ وَاللَّهُ هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ»^٨.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ

سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدْفَةً مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [٢٥]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ قَضَائِهِ فِي حَقِّ الْكَفَّارِ وَشِدَّةِ عَذَابِهِمْ، ذَكَرَ أَظْهَرَ جَرَائِمِهِمْ بَعْدَ الْكُفْرِ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ النَّاسَ وَيَمْنَعُونَهُمْ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَالْدُخُولِ فِي دِينِهِ وَطَاعَتِهِ وَالْهَجْرَةِ إِلَى رَسُولِهِ ﴿وَمَنْ دَخَلَ﴾ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴿وَطَوَافَ الْبَيْتِ فِيهِ﴾، مَعَ أَنَّهُ الْمَكَانَ ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ﴾ وَصَيْرْنَاهُ مَعْبَدًا ﴿لِلنَّاسِ﴾ كَانُوا مِنْ كَانَ ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ﴾ وَالْمَقِيمُ ﴿فِيهِ﴾

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٠.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢، تفسير أبي السعود ٦: ١٠٢، ولم ينسبه إلى ابن عباس. ٣- ٥. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢.

٦. تفسير أبي السعود ٦: ١٠٢.

٧. الكافي ١: ٣٥٢، تفسير الصافي ٣: ٣٧٠.

٨. المحاسن: ١٣٣/١٦٩، تفسير الصافي ٣: ٣٦٩.

وَالْبَادِي» وَالْمَسَافِرُ الْبَعِيدُ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ السُّكْنَى وَالطَّوْفُ وَالتَّعَبُّدُ.

عن ابن عباس: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَأَصْحَابِهِ حِينَ صَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْخُدَيْيَةِ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَأَنْ يَحْجَّ وَيَعْتَمِرَ وَيَتَحَرَّ الْهَدْيَ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِتَالَهُمْ، وَكَانَ مُخْرِجاً بِعُمْرَةٍ، ثُمَّ صَالِحُوهُ عَلَى أَنْ يَعُودَ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ^١.

وعنه أيضاً: أَنَّهُمَا يَسْتَوِيَانِ فِي سُكْنَى مَكَّةَ وَالنُّزُولِ بِهَا، فَلَيْسَ أَحَدُهُمَا أَحَقَّ بِالْمَنْزِلِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْآخَرِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ سَبَقَ إِلَى الْمَنْزِلِ^٢.

وعن النبي ﷺ: «مَكَّةٌ مَبَاحٌ لِمَنْ سَبَقَ إِلَيْهَا»^٣.

القلمي: نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ حِينَ صَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، وَقَوْلُهُ: «سَوَاءٌ أَلْعَاكُفُ فِيهِ وَالْبَادِي» قَالَ: أَهْلُ مَكَّةَ وَمَنْ جَاءَ [إِلَيْهِمْ] مِنَ الْبُلْدَانِ، فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ، لَا يُمْنَعُ مِنَ النَّزُولِ وَدُخُولِ الْحَرَمِ^٤.

في (نهج البلاغة) - فِي كِتَابِ كِتَبَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ إِلَى قَتْمِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى مَكَّةَ - : «[وَمَنْ أَهْلُ مَكَّةَ] أَنْ لَا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنِ أَجْرَاءَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: «سَوَاءٌ أَلْعَاكُفُ فِيهِ وَالْبَادِي» فَالْعَاكُفُ الْمُقِيمُ بِهِ، وَالْبَادِي الَّذِي يَحْجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ»^٥.

وعنه ﷺ أَنَّهُ كَرِهَ إِجَارَةَ بَيْتِ مَكَّةَ^٦.

وعن الصادق ﷺ: «أَوَّلُ مَنْ عَلَّقَ عَلَى بَابِهِ الْمِصْرَاعِينَ بِمَكَّةَ مَعَاوِيَةُ، فَمَنَعَ حَاجَ بَيْتِ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «سَوَاءٌ أَلْعَاكُفُ فِيهِ وَالْبَادِي»، وَكَانَ النَّاسُ إِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ نَزَلَ الْبَادِي عَلَى الْحَاضِرِ حَتَّى يَقْضِيَ حُجَّهَ الْخَبَرِ»^٧.

وعنه ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي أَنْ يُوضَعَ عَلَى دُورِ مَكَّةَ أَبْوَابٌ، لِأَنَّ لِلْحُجَّاجِ أَنْ يَنْزِلُوا مَعَهُمْ فِي دُورِهِمْ فِي سَاحَةِ الدَّارِ حَتَّى يَقْضُوا مَنَاسِكَهُمْ، وَإِنْ أَوَّلُ مَنْ جَعَلَ لِدُورِ مَكَّةَ أَبْوَاباً مَعَاوِيَةُ»^٨. ثُمَّ بَيَّنَ سَبْحَانَهُ حُرْمَةَ الْمَسْجِدِ بِقَوْلِهِ: «وَمَنْ يُرِذْ» مُرَاداً «فِيهِ» حَالُ كَوْنِهِ مُتَلَبِّساً «بِالْحَادِي» وَعُدُولُ عَنِ الْقَصْدِ مُتَلَبِّساً «بِظُلْمٍ». وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَأْتِيَ فِيهِ بِالْحَادِي، وَهُوَ الشُّرْكُ بِاللَّهِ، كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^٩.

رُوي أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ حِينَ اسْتَسْلَمَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَرَادَتْهُ مُشْرِكاً، وَفِي قَيْسِ بْنِ صَبَابَةَ^{١٠}. وَعَنْ مِقَاتِلٍ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَطْلٍ حِينَ قَتَلَ الْأَنْصَارِيَّ وَهَرَبَ إِلَى مَكَّةَ كَافِراً، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢٣.

٢. تفسير القلمي ٢: ٨٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧١.

٣. نهج البلاغة: ٤٥٨ كتاب ٦٧، تفسير الصافي ٣: ٣٧١.

٤. الكافي ٤: ١٢٤٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧١.

٥. قرب الإسناد: ١٤٠/٤٩٨، تفسير الصافي ٣: ٣٧١.

٦. علل الشرائع: ١/٣٩٦، تفسير الصافي ٣: ٣٧١.

٧. تفسير الرازي ٢٣: ٢٥.

٨. تفسير الرازي ٢٣: ٢٥.

٩. تفسير الرازي ٢٣: ٢٥.

١٠. تفسير الرازي ٢٣: ٢٥.

بقتله يوم فتح مكة^١.

وقيل: إنه قُتل ما نهى الله عنه من الصيد^٢.

وقيل: إنه دُخِل مكة بغير إحرام وارتكاب ما لا يحل للمحرم^٣.

وقيل: إنه الاحتكار^٤.

وقيل: إنه المنع من عمارته^٥.

وقيل: هو قول الرجل: لا والله، وبلى والله^٦.

وقيل: عام في كل المعاصي^٧.

وعن ابن مسعود: لو أن رجلاً بعدن هم بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً^٨.

ويُحتمل أن يكون المراد من يُرد فيه مراداً عادلاً عَنِ الْقَصْدِ بسبب ارتكابه الظلم على نفسه أو غيره ﴿يَذِقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فالواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعَدْل في جميع ما يهَم به ويقصده.

عن الصادق (عليه السلام) في هذه الآية: «مَنْ عَبَدَ فِيهِ غَيْرَ اللَّهِ وَتَوَلَّى فِيهِ غَيْرَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، فَهُوَ مُلْجِدٌ بِظُلْمٍ، وَعَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَذِيقَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ»^٩.

وعنه (عليه السلام) فيها: «كُلُّ ظُلْمٍ لِلْحَادِ، وَضَرْبُ الْخَادِمِ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ مِنْ ذَلِكَ الْإِلْحَادِ»^{١٠}، وسئل عن أدنى الإلحاد فقال: «إِنْ كَثُرَ أَدْنَاهُ»^{١١}.

وعنه (عليه السلام): «كُلُّ ظُلْمٍ يَظْلِمُ بِهِ الرَّجُلُ نَفْسَهُ بِمَكَّةَ مِنْ سَرِقَةٍ أَوْ ظُلْمٍ أَحَدٍ أَوْ شَيْءٍ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنِّي أَرَاهُ لِلْحَادِ، وَلِذَلِكَ كَانَ يَنْهَى عَنْ أَنْ يُسَكَّنَ [الْحَرَمَ]»^{١٢}.

وعنه (عليه السلام): أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: إِنْ سَبَعًا مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ عَلَى الْكَعْبَةِ، لَيْسَ يَمُرُّ بِهِ شَيْءٌ مِنْ حِمَامِ الْحَرَمِ إِلَّا ضَرَبَتْهُ؟ فَقَالَ: «انْصَبُوا لَهُ وَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّهُ قَدْ أَحَدَ فِي الْحَرَمِ»^{١٣}.

وعنه (عليه السلام) قال: «نَزَلَتْ فِيهِمْ حَيْثُ دَخَلُوا الْكَعْبَةَ فِتَاهَةً وَتَعَاهَدُوا وَعَاقَدُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَجُحُودِهِمْ بِمَا نَزَلَ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام)، فَالْحَدُّوا فِي الْبَيْتِ بِظُلْمِهِمُ الرِّسُولَ وَوَلِيَّهِ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^{١٤}.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ

١- تفسير الرازي ٢٣: ٢٥.

٢- الكافي ٨: ٥٣٣/٣٣٧، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.

٣- الكافي ١١: ١/٢٣٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.

٤- الكافي ٤: ٢٧٧/٢، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.

٥- الكافي ٤: ٢٢٧/٣، علل الشرائع: ١/٤٤٥، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.

٦- الكافي ٤: ٢٢٧/١، علل الشرائع: ٤/٤٥٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.

٧- الكافي ١: ٤٤/٣٤٨، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.

وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ [٢٦]

ثم ذكر سبحانه جملة من تشريفات البيت الحرام بقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ وبيناً ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أن يبني ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ وقيل: إن المعنى اذكر وقت جعلنا مكان البيت مباءةً ومزجعاً لإبراهيم عليه السلام يرجع إليه للعمارة والعبادة^١.

وقلنا له: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي﴾ يا إبراهيم في العبادة وعمل العمارة ﴿شَيْئاً﴾ من الأشياء، وغرضاً من الأغراض ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ بعد بنائه من الأوثان والأقدار ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ به ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ العاكفين فيه ﴿وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ﴾.

عن ابن عباس قال: للطائفين بالبيت من غير أهل مكة، والقائمين أي المقيمين بها، والركع السجود أي من المصلين^٢.

وقيل: إن المراد من الأوصاف الثلاثة المصلون؛ لأن الصلاة جامعة للقيام والركوع والسجود^٣. وعن الصادق عليه السلام قال: «إن الله يقول: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ﴾ فينبغي للعبد أن لا يدخل مكة إلا وهو طاهر قد غسل عرقه والأذى وتطهر^٤.

قيل: لعله كان ذلك المكان صحراء، وكانوا يزعمون إليها الأقدار، فأمر إبراهيم عليه السلام ببناء البيت في ذلك المكان، وتطهيره من الأقدار، أو كان معموراً، وكانوا قد وضعوا فيه الأصنام، فأمره الله بتخريبه ووضع بناء جديد^٥.

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ

عَمِيقٍ [٢٧]

ثم أوحى الله إليه بعد إتمام البيت بقوله: ﴿وَأَذِّنْ﴾ يا إبراهيم ﴿فِي النَّاسِ﴾ وأعلمهم ﴿بِالْحَجِّ﴾ فإذا أذنت فيهم ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾ ومشاة على أرجلهم ﴿وَوُكْبَاناً﴾ على كل ضامر، وبغير مهزول من بُعد المسير ﴿يَأْتِينَ﴾ إلى هذا البيت ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ﴾ وطريق واسع، أو طريق بين الجبالين ﴿عَمِيقٍ﴾ وبعيد منحدر إلى السفلى^٦.

روي أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء البيت قال الله تعالى له: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ قال: يا

٢ و٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧.

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢٦.

٥. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧.

٤. الكافي ٤: ٣٠٠/٣، التهذيب ٥: ٣٢٢/٩٨، تفسير الصافي ٣: ٣٧٢.

٦. السفلى: نقيض العلو.

رَبِّ، وما يَبْلُغُ صَوْتِي؟ قال تعالى: عَلَيْكَ الْأَذَانُ وَعَلَيْكَ الْبَلَاغُ، فَصَعِدَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام عَلَى الصَّفَا^١. وفي رواية: على أَبِي قُبَيْسٍ^٢. وفي أخرى: على الْمَقَامِ^٣؛ فارتفع المقام حتى صار كطُول الْجِبَالِ، فَأَدْخَلَ إِصْبَعِيهِ فِي أُذُنَيْهِ، وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا وَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ قَدْ بَنَى بَيْتًا، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، فَأَجِيبُوا رَبَّكُمْ، وَحُجُّوا بَيْتَهُ الْحَرَامَ، لِتُتِيبَكُمْ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُجِيرَكُمْ مِنَ النَّارِ.

وفي رواية: قال إِبْرَاهِيمُ عليه السلام كَيْفَ أَقُولُ يَا جَبْرَيْلُ؟ قَالَ جَبْرَيْلُ: قُلْ لَّيْكَ اللَّهُمَّ لَيْكَ، فَهَوَّ أَوَّلَ مَنْ لَبَّى^٤.

وفي رواية أخرى قال: إِنَّ اللَّهَ يَدْعُوكُمْ إِلَى حَجِّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ لِتُتِيبَكُمْ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُخْرِجَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَأَجَابَهُ يَوْمَئِذٍ مَنْ كَانَ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، وَكُلُّ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ صَوْتُهُ مِنْ حَجَرٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ مَدَرٍ أَوْ أَكْمَةٍ أَوْ تُرَابٍ^٥.

وفي رواية: فَسَمِعَهُ أَهْلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَمَا [بَقِيَ شَيْءٌ] سَمِعَ صَوْتَهُ إِلَّا أَقْبَلَ يَقُولُ: لَّيْكَ اللَّهُمَّ لَّيْكَ، فَأَوَّلَ مَنْ أَجَابَ أَهْلَ الْيَمَنِ، فَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ حَجًّا^٦.

وقال مجاهد: مَنْ أَجَابَ مَرَّةً حَجًّا مَرَّةً، وَمَنْ أَجَابَ مَرَّتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ يَحُجُّ مَرَّتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ بِذَلِكَ الْمِقْدَارِ^٧.

وعن ابن عباس: لَمَّا أَمَرَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام بِالْأَذَانِ تَوَاضَعَتْ لَهُ الْجِبَالُ وَخَفَضَتْ، وَارْتَفَعَتْ لَهُ الْقُرَى^٨. وعن الصادق عليه السلام قال: «لَمَّا أَمَرَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عليهما السلام بِنَاءَ الْبَيْتِ، وَتَمَّ بِنَاؤُهُ، قَعَدَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام عَلَى رُكْنٍ ثُمَّ نَادَى: هَلُمَّ الْحَجَّ، هَلُمَّ الْحَجَّ، فَلَوْ نَادَى: هَلُمُّوا إِلَى الْحَجِّ، لَمْ يَحُجَّ إِلَّا مَنْ كَانَ [يَوْمَئِذٍ] إِنْسِيًّا مَخْلُوقًا، وَلَكِنْ نَادَى: هَلُمَّ الْحَجَّ، هَلُمَّ الْحَجَّ، فَلَبَّى النَّاسُ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَقَالُوا: لَبَّيْكَ دَاعِي اللَّهِ، لَبَّيْكَ دَاعِي اللَّهِ، فَمَنْ لَبَّى عَشْرًا حَجًّا عَشْرًا، وَمَنْ لَبَّى خَمْسًا حَجًّا خَمْسًا، وَمَنْ لَبَّى أَكْثَرَ فَبَعْدَ ذَلِكَ، وَمَنْ لَبَّى وَاحِدًا حَجًّا مَرَّةً، وَمَنْ لَمْ يَلْبَبْ لَمْ يَحُجَّ»^٩.

وعن الباقر عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ لَمَّا أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام ينادي فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، قَامَ عَلَى الْمَقَامِ فَارْتَفَعَ بِهِ حَتَّى صَارَ بِإِزَاءِ أَبِي قُبَيْسٍ، فَنادى فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، فَاسْمَعْ مَنْ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ

١ و٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧، تفسير روح البيان ٦: ٢٤.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧، تفسير روح البيان ٦: ٢٥. ٤ و٥. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٢٥. ٧. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧، تفسير روح البيان ٦: ٢٥.

٨. تفسير الرازي ٢٣: ٢٧.

٩. الكافي ٤: ٦/٢٠٦، علل الشرائع: ١/٤١٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧٣.

النساء إلى أن تقوم الساعة^١.

وقال القمي: لما قرع إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج، فقال: يا رب، ما يتبلغ صوتي، فقال الله: أذن، عليك الأذان، وعليّ البلاغ. وارتفع على المقام وهو يومئذ مئضق بالبيت، فارتفع المقام حتى كان أطول من الجبال، فادخل أضيقه في أذنيه، وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً، ونادى: أيها الناس، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق، فأجيبوا ربكم؛ فأجابوه من تحت البحور السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أطراف الأرض كلها، ومن أصلاب الرجال وأرحام النساء بالثنية: لبيك اللهم لبيك، ألا ترون يأتون يلبون، فمن حج يومئذ إلى يوم القيامة، فهم ممن استجاب الله سبحانه [و] ذلك [و] قوله: ﴿فيه آيات بينات﴾^٢.

وقال بعض العامة: إن الأمور بقوله: ﴿أذن﴾ هو محمد صلى الله عليه وآله، ونسب ذلك القول إلى أكثر المعتزلة، واستدل عليه بأن الخطابات التي تكون في القرآن إذا أمكن حملها على كون المخاطب بها محمداً صلى الله عليه وآله، وجب حملها على ذلك، لأنه أولى^٣. وعليه يكون معنى الآية: اذكر يا محمد إذ بوأنا لإبراهيم... إلى آخره، وأذن أنت يا محمد بالحج يأتوك رجالاً.

وقيل: إن المراد بالأذان إعلانه صلى الله عليه وآله بالثنية حتى يعلم الناس أنه حاج فيحجوا معه ويتقدوا به^٤. وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله أقام بالمدينة عشر سنين لم يحج، ثم أنزل الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ الآية، فأمر المؤذنين أن يؤذّنوا بأعلى أصواتهم بأن رسول الله يحج في عامة [هذا] فعلم به من حضر بالمدينة وأهل العوالي والأعراب، واجتمعوا للحج رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنما كانوا تابعين ينظرون ما يؤمرون فيتبعونه، أو يصنع شيئاً فيصنعونه»^٥. وإنما قدم ذكر المشاة للإشعار بفضيلتهم على الركبان.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «أن الحاج راكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة، وللماشي سبعمائة حسنة من حسنات الحرم» قيل: يا رسول الله، وما حسنات الحرم؟ قال: «الحسنة بمائة ألف حسنة»^٦.

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ
بِهِمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا
نُدُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ [٢٨ و ٢٩]

١. علل الشرائع: ٢/٤١٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧٣.
٢. تفسير القمي ٢: ٨٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧٣.
٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢٨.
٥. الكافي ٤: ٢٤٥، تفسير الصافي ٣: ٣٧٣.
٦. تفسير الرازي ٢٣: ٢٨.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ حِكْمَةَ الْأَمْرِ بِالْحَجِّ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ وَلِيَخْصُرُوا ﴿مَنَافِعَ﴾ مُخْتَصَّةً بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ ﴿لَهُمْ﴾ مِنَ الْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ، كَالتِّجَارَةِ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ كَمَا قِيلَ^١، أَوْ مَنَافِعَ أُخْرَوِيَّةٍ كَمَا رَوَاهُ بَعْضُ الْعَامَّةِ عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام^٢، أَوْ هُمَا كَمَا عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام أَنَّهُ يُطَافُ بِهِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ فِي مَحْجِلٍ، وَهُوَ شَدِيدُ الْمَرَضِ، فَكَانَ كَلِمًا بَلَغَ الرُّكْنَ الْيَمَانِي أَمْرَهُمْ فَوْضَعُوهُ عَلَى الْأَرْضِ، فَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ كُوَّةِ الْمَحْجِلِ حَتَّى يَجْرَهَا عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ يَقُولُ: «ارْفَعُونِي» فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ مَرَّاراً فِي كُلِّ شَوَاطِئِ قَبِيلٍ لَهُ: يَا بَنَ رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا يَشُقُّ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ فَقِيلَ لَهُ: يَا بَنَ رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا يَشُقُّ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: «الْكُلُّ»^٣.

وَعَنِ عليه السلام أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: لَوْ أُرِحَتْ بَدَنُكَ مِنَ الْمَحْجِلِ؟ فَقَالَ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَشْهَدَ الْمَنَافِعَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ إِنَّهُ لَا يَشْهَدُهَا أَحَدٌ إِلَّا نَفَعَهُ اللَّهُ، أَمَّا أَنْتُمْ فَتَرْجِعُونَ مَغْفُوراً لَكُمْ، وَأَمَّا غَيْرُكُمْ فَيُحْفَظُونَ فِي أَهَالِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ»^٤.

وَفِي (الْمَجْمَعِ) عَنْ عليه السلام: «مَنَافِعُ الْآخِرَةِ هِيَ الْعَفْوُ وَالْمَغْفِرَةُ»^٥.
وَعَنِ الرِّضَا عليه السلام: «وَعَلَّةُ الْحَجِّ الْوِفَادَةُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَطَلَبُ الزِّيَادَةِ، وَالْخُرُوجُ مِنْ كُلِّ مَا اقْتَرَفَ، وَلِيَكُونَ تَانِباً مِمَّا مَضَى، وَمُسْتَأْنِفاً لِمَا يَسْتَقْبِلُ، وَمَا فِيهِ مِنْ اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ وَتَعَبِ الْأَبْدَانِ، وَحَظَرِهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ، وَالتَّقَرُّبِ بِالْعِبَادَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ وَالذَّلِّ، شَاخِصاً [إِلَيْهِ] فِي الْخَرِّ وَالْبَرِّدِ وَالْأَمْنِ وَالْخَوْفِ، دَانِباً فِي ذَلِكَ دَائِماً، وَمَا فِي ذَلِكَ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْهُ تَرْكُ قِسَاوَةِ الْقَلْبِ، وَجَسَارَةِ الْأَنْفُسِ، وَنِسْيَانِ الذِّكْرِ، وَانْقِطَاعِ الرَّجَاءِ وَالْأَمَلِ، وَتَجْدِيدِ الْحَقُوقِ، وَحَظَرِ الْأَنْفُسِ عَنِ الْفُسَادِ، وَمَنْعَةِ مَنْ فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا، وَمَنْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّنْ يَحُجُّ وَمِمَّنْ لَا يَحُجُّ مِنْ تَاجِرٍ وَجَالِبٍ، وَبَانِعٍ وَمُشْتَرٍ، وَكَاسِبٍ وَمُسْكِينٍ، وَقَضَاءِ حَوَائِجِ أَهْلِ الْأَطْرَافِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُمْكِنِ لَهُمْ الْجَمَاعَةُ كَذَلِكَ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ»^٦.

وَفِي رِوَايَةٍ: «مَعَ مَا فِيهِ مِنَ التَّفَقُّهِ»^٧ ﴿وَيَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ﴾ عِنْدَ إِعْدَادِ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا وَذَبْحِهَا ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ وَهِيَ أَيَّامُ النَّحْرِ، وَقِيلَ: عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ^٨ ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ﴾ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ ﴿مِنْ

٣. الكافي ٤: ١/٤٢٢، تفسير الصافي ٣: ٣٧٤.

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢٨.

٤. الكافي ٤: ٤٦/٢٦٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧٤.

٥. مجمع البيان ٧: ١٢٩، عن الباقر عليه السلام، تفسير الصافي ٣: ٣٧٤.

٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/٩٠، علل الشرائع ٥/٤٠٤، تفسير الصافي ٣: ٣٧٤.

٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/١١٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧٥.

٨. تفسير الرازي ٢٣: ٢٩.

٣٤٠..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

بِهَيْمَةٍ» وحيوان ذات أربع يكون من ﴿الْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم. قيل: كَتَى عَنْ الذَّبْحِ بذكر الله^١، لعدم انفكك المُسْلِم عَنْ ذِكْرِهِ تعالى عند الذَّبْحِ والتَّخَرُّ، وللتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْعَرَضَ الْأَصْلِي فِي مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنْ يَخَالَفَ الْمُشْرِكِينَ فِي ذَلِكَ.

قيل: كان التقرب بإراقة دمها متصور بصورة مَنْ يَفْدِي نَفْسَهُ بِمَا يَعَادِلُهَا، وَيَبْذُلُ تِلْكَ الذَّبِيحَةَ بَدَلَ مَهْجَتِهِ، طَلِباً لِمَرْضَاةِ اللَّهِ، واعترافاً بِأَنْ تَقْصِيرَهُ مُوجِبٌ لاسْتِحْقَاقِ مُهْجَتِهِ^٢.

قيل: إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ عِنْدَ الذَّبْحِ: بِسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ مِتْكَ وَإِلَيْكَ، إِنَّ صَلَاتِي وَتُسْكِي وَمَخْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^٣.

وعن الباقر عليه السلام: «ذَكَرَ اللَّهُ هُوَ التَّكْبِيرُ عَقِيبُ خَمْسَةِ عَشْرَةَ صَلَاةٍ أَوَّلَهَا ظَهَرَ الْعِيدُ»^٤.

وعن الباقر عليه السلام: «الْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ، وَالْمَعْدُودَاتُ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ»^٥.

أقول: نسب الفخر الرازي هذا القول إلى ابن عباس وكثير من المُفَسِّرِينَ وَأَكْثَرَ الْعُلَمَاءِ، وَقَالُوا فِي وَجْهِ تَسْمِيَةِ الْعَشْرِ بِالْمَعْلُومَاتِ أَنَّهَا مَعْلُومَةٌ عِنْدَ النَّاسِ، لِجَزْئِهِمْ عَلَى الْعِلْمِ بِهَا، لَكُونَ الْحَقُّ فِي آخِرِهَا^٦.

وعن الباقر عليه السلام قال: «قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ أَيَّامُ الْعَشْرِ»^٧.

أقول: الظاهر أَنَّ مَا رَوَى عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عَكْسِ ذَلِكَ فَهُوَ سَهْوٌ مِنَ الرَّوَائِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ مَصْرَفَ الضَّحَايَا بِقَوْلِهِ: «فَكُلُّوْا» أَنْفُسَكُمْ «مِنْهَا» نَذْباً أَوْ وَجُوباً «وَأَطْعِمُوْا» مِنْهَا «الْبَائِسَ» وَمَنْ فِي شِدَّةِ الْعَيْشِ وَ«الْفَقِيرَ» وَالْمُحْتَاجِينَ إِلَى مُؤْنَةِ سَنَةٍ.

عن ابن عباس: الْبَائِسُ: الَّذِي ظَهَرَ بُؤْسُهُ فِي ثِيَابِهِ وَوَجْهِهِ، وَالْفَقِيرُ: الَّذِي لَا يَكُونُ كَذَلِكَ، وَتَكُونُ ثِيَابُهُ نَقِيَّةً، وَوَجْهُهُ وَجْهٌ غَنِيٌّ^٨.

وعن الصادق عليه السلام: «الْبَائِسُ هُوَ الزَّيْمُنُ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ لِزِمَانَتِهِ»^٩.

وعنه أيضاً: «الْبَائِسُ [هُوَ] الْفَقِيرُ»^{١٠}.

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢٩. ٢ و ٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٩.

٤. عوالي اللآلي ٢: ٢٣٧/٨٨، عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٣: ٣٧٥، عنهما عليه السلام.

٥. جوامع الجامع: ٣٠٠، تفسير الصافي ٣: ٣٧٥. ٦. تفسير الرازي ٢٣: ٢٩.

٧. معاني الأخبار: ١/٢٩٦، تفسير الصافي ٣: ٣٧٥. ٨. تفسير الرازي ٢٣: ٢٩.

٩. الكافي ٤: ٤٦/٤، تفسير الصافي ٣: ٣٧٥، والزَّيْمَانَةُ: مَرَضٌ يَدُومٌ، وَالزَّيْمُنُ: وَصْفٌ مِنَ الزَّمَانَةِ.

١٠. الكافي ٤: ٦/٥٠٠، تفسير الصافي ٣: ٣٧٥.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا﴾ وَلْيَزِيلُوا ﴿تَفْتَهُمْ﴾ وَوَسَّحَهُمْ بِحَلَقِ الرَّأْسِ وَقَصَّ الشَّارِبِ وَقَلَمَ الْأُظْفَارِ وَنَتَفَ الْإِطْ. أو المراد: وليؤدوا مناسك الحج كلها، كما عن ابن عباس^١ ﴿وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ﴾ وغهدهم بالنذر من الحج وسائر الطاعات في تلك الأيام، فيضاعف لهم الثواب.

عن الصادق عليه السلام: «التفت هو الحلق وإزالة ما في جلد الإنسان»^٢.

وعن الرضا عليه السلام: «هو تقليم الأظفار، وطرح الوسخ وطرح لباس الإحرام عنه»^٣.

وعن الباقر عليه السلام: «التفت خُوف الرجل من الطيب، فإذا قضى نُسكه حل له الطيب»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «من التفت أن تتكلم في إحرامك بكلام قبيح، فإذا دخلت مكة وطفت بالبيت [أو] تكلمت بكلام طيب فكان ذلك كفارة»^٥.

وعن ذريح المحاربي: قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن الله تعالى أمرني في كتابه بأمر فأجبت أن أعلمه، قال: «وما ذاك؟» قلت: قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفْتَهُمْ وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال عليه السلام: «لْيَقْضُوا تَفْتَهُمْ» لقاء الإمام ﴿وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ﴾ تلك المناسك.

قال عبد الله بن سنان: فأتيت أبا عبد الله، فقلت: جعلت فداك، قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفْتَهُمْ وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ﴾؟ قال: «أخذ الشارب، وقص الأظفار وما أشبه ذلك».

قلت: جعلت فداك، إن ذريح المحاربي حدثني عنك بأنك قلت له: «لْيَقْضُوا تَفْتَهُمْ» لقاء الإمام ﴿وَلْيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ﴾ تلك المناسك؟ قال: «صدق وصدقت، إن للقرآن ظاهراً وباطناً، ومن يحتمل ذريح؟»^٦.

أقول: لا شبهة أن لقاء الإمام يزِيل الأوساخ الباطنية من الذنوب والأخلاق الرذيلة، فإزالة الأوساخ الظاهرية ظاهر القرآن، وإزالة الأوساخ الباطنية بلقاء الإمام باطنه.

وعن الباقر عليه السلام يقول: ويرى الناس بمكة وما يعملون -: «فعالهم كفعال الجاهلية، أما والله ما أمروا إلا أن يقضوا تفتهم ويؤفوا نذورهم، فيمروا بنا فيخبرونا بولائيتهم، ويعرضوا علينا نصرتهم»^٧.

﴿وَلْيَطُوفُوا﴾ وجوباً طواف النساء، كما عن الصادق عليه السلام^٨، أو طواف الزيارة والنساء والعمرة

١. مجمع البيان ٧: ١٣٠.

٢. الكافي ٤: ٨/٥٠٣، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٣٤/٢٩٠، تفسير الصافي ٣: ٣٧٦.

٣. الكافي ٤: ١٢/٥٠٤، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٣٦/٢٩٠، تفسير الصافي ٣: ٣٧٦.

٤. من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٣٥/٢٩٠، تفسير الصافي ٣: ٣٧٦.

٥. الكافي ٤: ٣/٣٣٧، تفسير الصافي ٣: ٣٧٦.

٦. الكافي ٤: ٤/٥٤٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧٦.

٧. الكافي ١: ٢/٣٢٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧٦.

٨. الكافي ٤: ٢/٥١٣، تفسير الصافي ٣: ٣٧٧.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ الْفَلِيقِيَّ﴾، والقديم، أو الذي أعتقه الله من العرق يوم الطوفان كما عن الصادق عليه السلام^١، أو من تسلط الجابرة عليه كما عن ابن عباس^٢، أو من أن يملكه أحد كما عن الباقر عليه السلام^٣.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا
يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ [٣٠]

ثم أنه تعالى بعد ذكر تشريفات بيته، قطع الكلام بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ قيل: يعني الأمر أو الشأن^٤ ذلك الذي ذكر، ثم حث الناس على حفظ حرمة بقوله: ﴿وَمَنْ يُعْظَمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ﴾ وما لا يصلح هتكه من البيت الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ ثواباً ﴿عِنْدَ اللَّهِ رَبِّهِ﴾ في الآخرة.

ثم عاد سبحانه إلى بيان أحكام الحج، ولما كان مجال توهّم أكل لحوم الأنعام حال الإحرام كحرمة الصيد، صرح بحليته بقوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ﴾ وجميع أجزائها ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في آية أخرى في المائدة، فلا تحرموا منها ما أحله الله، ولا تجتنبوا منه، وإن كنتم محتجبين عن شيء من القبايح فآخروا ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ والخبث القذر ﴿مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ والأحجار التي يعبدها المشركون ويذبحون عندها، وآخروا منها احترازكم من الرجس ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ والكلام المشحرف عن الحق كالقول بالوهية الأصنام، وحرمة السائبة وأخواتها، والشهادة بغير الحق، وسائر الأقوال المحرمة.

عن النبي ﷺ قال: «عدلت شهادة الزور الإشرار بالله تعالى، ثلاثاً» وتلا هذه الآية^٥.

وقيل: هو الكذب والبهتان^٦.

وقيل: هو قول أهل الجاهلية: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك^٧.

وعن الصادق عليه السلام: «الرجس من الأوثان: الشطرنج، وقول الزور: الغناء»^٨ [وزاد في المجمع] «وسائر أنواع القمار والأقوال الملهية»^٩.

حُفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ

١. تفسير القمي ٢: ٨٤، المحاسن: ١١٣/٣٣٦، علل الشرائع: ١/٣٩٩ و ٥٤ و ٥٥، تفسير الصافي ٣: ٣٧٧.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ٣٠. ٣. الكافي ٤: ٦/١٨٩، تفسير الصافي ٣: ٣٧٧.

٤. فسر الرازي ٣٣: ٣١. ٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٠. ٦ و ٧. تفسير الرازي ٢٣: ٣٢.

٨. تفسير القمي ٢: ٨٤، الكافي ٦: ٦/٤٣٥، تفسير الصافي ٣: ٣٧٧.

٩. مجمع البيان ٧: ١٣١، تفسير الصافي ٣: ٣٧٧.

الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ [٣١]

ثمَّ كأنه تعالى قال: اعملوا بأحكامي حال كونكم ﴿حُنَفَاءَ﴾ ومخلصين ﴿لِلَّهِ﴾ مانلين عن كل باطلٍ إلى التوحيد والدين الحقَّ ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ شيئاً في الألوهية والعبادة.

ثمَّ بيّن سبحانه غاية ضرر الشرك وكونه سبباً للهلاكه الأبدية بِضَرْبِ مَثَلَيْنِ بقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ غيره في الألوهية أو العبادة ﴿فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ﴾ وسقط ذلك المشرك ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ على الأرض فهلك بالفور ﴿فَتَخَطَّفَهُ﴾ وتختلسه ﴿الطَّيْرُ﴾ بسرعةٍ من الأرض فتفرقه وتمزقه وتُمحي أثره ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ العاصفة وتُسقطه من جبلٍ شامخٍ ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ ويبعده عن محلِّ سَقَطِ منه، أو عن من يغيثه فلا يراه أحدٌ ولا يسمع صوته، فشبه سبحانه التوحيد في علوِّ رُتبته بالسماء، والمشرك بالساقط منها على الأرض في تنزله وهلاكه، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطَّير الذي تَحْطِفُهُ، والشيطان المُطْرَح له في وادي الضلال بالريح العاصفة التي عصفت به في المهاري المُتلفَة.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ [٣٢]

ثمَّ قرّر سبحانه ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرت حقّاً ثابت، أو الأمر أو الشأن ذلك الذي ذكرت، ثمَّ حتَّ سبحانه الناس على العمل وطاعة الأحكام بقوله: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ ويهتم بالعمل بِمَعَالِمِ الْحَجِّ وعلامته دينه من الهدايا والقلائد بأن يختار لها جساماً حسناً سِماناً غالبية الأثمان، معتقداً بأن طاعة الله في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المُعَظَّم [فإنها] ناشئة، ﴿وَمِنْ تَقْوَى﴾ الذي مَرَكَزَه في ﴿الْقُلُوبِ﴾ أو المراد أن تعظيمها من أعمال ذوي تقوى القلوب.

القمي قال: تعظيم البدن جودتها^١.

وعن الصادق عليه السلام: «إنما يكون الجزاء مضاعفاً فيما دون البدنة، فإذا بلغ البدنة فلا تضاعف؛ لأنه أعظم ما يكون، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾» إلى آخره^٢.

وعنه عليه السلام في قصة حجة الوداع: «وكان الهدي الذي جاء به رسول الله ﷺ أربعة وستين أو ستة وستين، وجاء علي عليه السلام بأربعة وثلاثين أو ستة وثلاثين»^٣.

وروى بعض العامة أنه أهدى رسول الله ﷺ مائة بدنة فيها جمل أبي جهل، وكان في أنفه بزة^٤ من

١. في النسخة: ناش. ٢. تفسير القمي ٢: ٨٤، تفسير الصافي ٣: ٣٧٨، وفيها: وجودتها.

٣. الكافي ٤: ٥٣٩٥، تفسير الصافي ٣: ٣٧٨. ٤. الكافي ٤: ٢٤٧، تفسير الصافي ٣: ٣٧٨.

٥. البزة: حلقة تجعل في أنف الناقة.

دَهَبٌ ١.

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلُهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ [٣٣]

ثم بين سبحانه أحكام الهدايا بقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كثيرة من ظَهرها ولبنها، فأنفقوا بها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ووقت معين، وهو وقت نُحرها كما عن ابن عباس ٢. أو وقت تسميتها أَضْحِيَّةً وَهْدْيًا، كما في رواية أخرى عنه ٣.

﴿ثُمَّ مَحْلُهَا﴾ ووجوب نحرها أو وقت وجوبه انتهى ﴿إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وهو هنا جميع الحرم كما قيل ٤.

وقيل: إن الآية بيان علة إيجاب تعظيم ذبح الأنعام، والمراد أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دينكم ودنياكم، وأعظمها كون محلها إلى البيت العتيق ٥.

عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِرْكَبُوا الْهَذِي بِالْمَعْرُوفِ حَتَّى تَجِدُوا ظَهْرًا» ٦. القمي، قال: البدن يركبها المَحْرَم من المَوْضِع الذي يُحْرَم فيه غير مُضَرٍّ بها ولا مُغْنِفٍ عليها، وإن كان لها لَبَنٌ يَشْرَب من لبنها إلى يوم النحر ٧.

وعن الصادق عليه السلام قال: «إِذَا اخْتَأَجَ إِلَى ظَهْرِهَا رَكْبَتَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُغْنِفَ عَلَيْهَا، وَإِنْ [كَانَ] لَهَا لَبَنٌ حَلَبَهَا جَلَابًا لَا يَنْهَكُهَا» ٨.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ
فَالْهَكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ [٣٥ و ٣٤]

ثم حث سبحانه الناس على إهداء الهدايا بقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم السالفة من زمان إبراهيم عليه السلام ﴿جَعَلْنَا﴾ وشرعنا ﴿مَنْسَكًا﴾ وقرباناً يتعبدون به ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ وخده ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ﴾ وأنعم عليهم ﴿مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ عند ذبحها أو نُحرها، ويجعلوا شُكْرَهُمْ وقربانهم لوجهه

٢ و ٣. تفسير الرازي ٢٣: ٣٣.

٥. تفسير الرازي ٢٣: ٣٤.

٧. تفسير القمي ٢: ٨٤، تفسير الصافي ٣: ٣٧٨.

١. تفسير الرازي ٢٣: ٣٢.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٣٤.

٦. تفسير الرازي ٢٣: ٣٣.

٨. الكافي ٤: ٤٩٢، تفسير الصافي ٣: ٣٧٨.

الكريم، فالمقصود الأضلي من القربان تذكر المعبود ﴿فَالِهَكُمْ إِلَهَ وَاحِدٌ﴾ ومعبودكم فارِد، ودينكم الإسلام، وإِنما اختلفت الأحكام لاختلاف الأزمنة والأشخاص في المصالح، فإذا كان إلهكم واحداً ﴿فَلَّهْ أُسْلِمُوا﴾ واتقادوا في جميع أحكامه وتكاليفه، وتواضعوا له، وأخلصوا ذكره بحيث لا يشوبه إشراك ﴿وَبَشِّرْ﴾ يا محمد، بالثواب العظيم الموحدين ﴿الْمُخْتَبِينَ﴾ لله المتواضعين له المخلصين في عبادته.

وعن القمي: أي العابدين له^١.

ثم وصف الله سبحانه المختبين المتواضعين لعظمته بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ أَفْتَدَتْهُمْ﴾، ظهرت لهم عظمته ومهابته، ولذلك ﴿وَجِلَّتْ﴾ وارتعدت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ من خشيته وهيبته وخوف عقابه.

ثم لما كان من آثار خوفه الصبر على المكاره والشدائد والاجتهاد في عبادته والإنفاق في سبيله، أورد توصيفهم بالخوف بقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ من المصائب ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ التي هي أهم العبادات وأفضلها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأعطيناهم من الأموال ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ويبتذلون في سبيله ومرضاته.

وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ [٣٦ و ٣٧]

ثم أنه تعالى بعد مدح المؤمنين بالبدل، حثهم في إهداء البدنة التي هي أحب الأموال عند العرب بقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ والإبل ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ وقرَرنا نحرها ﴿لَكُمْ﴾ بعضاً ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ومعالِم دينه التي شرعها مع أنه^٢ ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ ونفع كثير دنيوي وأخروي ﴿فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عند نحرها حال كونها قائمات ﴿صَوَافٍ﴾ أيديهن وأزجلهن ﴿فَإِذَا﴾ نحرنا ﴿وَجَبَتْ﴾ وسقطت ﴿جُنُوبُهَا﴾ على الأرض، وخرَجَتْ رُوحُهَا ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ نَدباً ﴿وَأَطِيعُوا﴾ منها وجوباً الفقير

١. تفسير القمي ٢: ٨٤، تفسير الصافي ٣: ٣٧٨.

٢. في النسخة: مع أن، ولانصَح من حيث إعراب (خير) و(نفع).

﴿الْقَانِعُ﴾ بما عنده الراضي بقسمة الله، أو الراضي بما أعطيته، ولا يَسْخَطُ ولا يَكْزُلُ ولا يُلَوِّي شِدْقَهُ غَضَباً كما عن الصادق عليه السلام^١ ﴿وَرِ الْفَقِيرَ الْمُتَعَزِّزَ﴾ المتعزِّز للِسؤال، ولم يسأل على قول^٢، أو يعترِك ولا يسأل كما عن الصادق عليه السلام^٣، أو المارِّ بك لتعطيه كما عنه أيضاً^٤ ﴿كَذَلِكَ﴾ التسخير البديع لها مع عظم جُثَّتْها وقُوَّتْها ﴿سَخَّرْنَاَهَا لَكُمْ﴾ ودَلَّلْنَاهَا لمنافعكم بحيث يَسْهَلُ عليكم التصرُّف فيها كيف تشاءون ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة العظيمة التي تتفعون بها في دينكم ودنياكم.

ثم أنه تعالى بعد بيان أن البدن من الشاعن وتعظيم الشاعن من التقوى، رَغِبَ المؤمن إلىها بقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ﴾ ولا يَصِلُ إليه أبداً ﴿لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ بوجه من الوجوه ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ﴾ ويرتفع إليه ﴿الَّتَقْوَى﴾ والطاعة ﴿مِنْكُمْ﴾ ويوجب رضا عنكم فيُثَبِّتُكم عليها.

في (الجوامع): رُوي أن أهل الجاهلية كانوا إذا نَحَرُوا لَطَخُوا البيتَ بالدم، فلما حجَّ المسلمون أَرَادُوا بِمِثْلِ ذَلِكَ فَنَزَلَتْ^٥.

وعن الصادق عليه السلام أنه سُئِلَ ما عِلَّةُ الأُضحية؟ قال: «إِنَّهُ يُتَغَفَّرُ لصاحبها عند أول قطرة قطرت^٦ من دَمِهَا عَلَى الأرض، وَلِيَعْلَمَ الله مَنْ يَتَّقِيهِ بِالْغَيْبِ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا﴾ الآية» ثم قال: «أُنْظِرْ كيف قبل الله قربانَ هابِلَ ورَدَّ قربانَ قابِلٍ»^٧.

ثم حُثُّهم بتذكير نعمته وذِكْرَ عِلَّتِهِ بقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ﴾ وتَعْرِفُوا عظمته وقُدْرته على ما لا يقدِّر عليه غيره، فتوحِّدوه بالكبرياء، أو تُكَبِّرُوهُ على إرشادكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرُّب بها ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ في عقائدهم وأعمالهم المخلصين لله في ما يأتون وَيَذَرُونَ بقبول الطاعات والفوز بالدرجاتِ العالِياتِ في الآخرة.

إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ [٣٨ و ٣٩]

ثم أنه تعالى بعد ترغيب الناس في الحج، بَشَّرَهُم بتأمينهم من أذى المشركين مع كونهم صَادِقِينَ عنه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ﴾ ويُبَالِغُ في دَفْعِ ضَرَرِ المشركين ﴿عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَيُخَيِّمُهُم أَشَدَّ الحِمَايةِ مِنْ أَذَاهُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ ومبَالِغٍ في تَضْيِيعِ أحكامه التي هي أمانته، وكُلِّ

١. الكافي ٤: ١/٤٩٩، معاني الأخبار: ١/٢٠٨، تفسير الصافي ٣: ٣٧٩.
 ٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٦.
 ٣. معاني الأخبار: ٢/٢٠٨، تفسير الصافي ٣: ٣٧٩.
 ٤. في معاني الأخبار: تطعمه.
 ٥. معاني الأخبار: ١/٢٠٨، تفسير الصافي ٣: ٣٧٩.
 ٦. جوامع الجامع: ٣٠١، تفسير الصافي ٣: ٣٨٠.
 ٧. في علل الشرائع: فقطر.
 ٨. علل الشرائع: ٢/٤٣٧، تفسير الصافي ٣: ٣٨٠.

﴿كُفُورٍ﴾ ومبالغ في تضييع حقوق نعمه حيث يَصْرِفُهَا في معاصيه، وَيَتَّقَرَّبُ بِهَا إِلَى الْأَصْنَامِ، وَيَأْكُلُ نعمه، وَيَقَرَّرُ أَنَّهُ صَانِعُهُ وَيَعْبُدُ غَيْرَهُ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يُرِيدُ نَصْرَهُمْ، وَلَا يَرْضَى فِعْلَهُمْ، وَيَدْفَعُ عَنْ أَحِبَّائِهِ شَرَّهُمْ.

قيل: نزلت حين أمر المؤمنين بِالْكَفِّ عَنِ كُفَّارِ مَكَّةَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ، وَكَانُوا يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ، فَاسْتَأْذَنُوا النَّبِيَّ ﷺ فِي قَتْلِهِمْ سِرًّا، فَنهَاهُمْ اللَّهُ عَنْهُ، وَبَشَّرَهُمْ بِاعْلَانِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ وَدَفْعِ بَوَائِقِهِمْ عَنْهُمْ^١.
ثم رَخَّصَ سَبَاحَهُ لَهُمْ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿أُذِنَ﴾ وَرَخَّصَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ ﴿لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾.

رُوي أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَأْتُوهُ ﷺ بَيْنَ مَضْرُوبٍ وَشُجُوجٍ وَيَظْلَمُونَ إِلَيْهِ، فَيَقُولُ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِصْبِرُوا فَإِنِّي لَمْ أَوْمَرْ بِقِتَالِ»، حَتَّى هَاجَرُوا فَنَزَلَتْ، وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ^٢.

عن الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَمْ يُؤْمَرْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقِتَالِ، وَلَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ حَتَّى نَزَلَ جَبْرِئِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَقَلَّده سَيْفًا»^٣.

ثم أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ وَعْدِ الْمُؤْمِنِينَ بِدَفْعِ أَذَى الْمُشْرِكِينَ عَنْهُمْ، وَعَدَهُمُ بِالنَّصْرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ﴾ وَتَقْلِيدِهِمْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴿لَقَدِيرٌ﴾ فَيَنْصُرُهُمْ لَا مُحَالَةَ. وَقِيلَ نَزَلَتْ: فِي قَوْمِ خَرَجُوا مُهَاجِرِينَ، فَأَعْتَرَضَهُمْ مُشْرِكُو مَكَّةَ، فَأُذِنَ فِي مَقَاتِلَتِهِمْ^٤.

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا
اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [٤٠]

ثم أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ أَنَّ سَبَبَ الْإِذْنِ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ ظَلْمُهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، بَيَّنَّ أَعْظَمَ ظَلْمِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وَسَاذِلَهُمْ، أَوْ أَوْطَانَهُمْ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وَمَوْجِبٍ لِإِخْرَاجِهِمْ ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ وَسِوَى أَنْ يَقْرَأُوا بِتَوْحِيدِهِ.

عن الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَزَلَتْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلِيٍّ وَحَمْزَةَ وَجَعْفَرٍ، وَجَرَتْ فِي الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَجْمَعِينَ»^٥.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ٣٩، مجمع البيان ٧: ١٣٨.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٣٩.

١. تفسير الرازي ٢٣: ٣٨.

٣. مجمع البيان ١: ٣٥٤، تفسير الصافي ٣: ٣٨٠.

٥. الكافي ٨: ٣٣٧/٥٣٤، تفسير الصافي ٣: ٣٨١.

وعنه عليه السلام: «نزلت في المهاجرين، وجرت في آل محمد عليه السلام الذين أخرجوا من ديارهم وأخيفوا»^١.

ثم بين سبحانه حكمة أمره بالقتال بقوله: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ» يعني «بِنَفْضِهِمُ» المشركين «بِنَفْضِ» المؤمنين في كل عصر «لَهَدَمْتُ» وخربت بتعدي الطغاة «صَوَامِعَ» الرهبان ومعابدهم «وَبَيْعَ» النصارى وكنائسهم في مدة بقاء شرع عيسى «وَصَلَوَاتَ» ومعابد كانت لليهود في زمان بقاء شريعة موسى، قيل: هو معرب، وبالعبدية صلوات^٢، بالثاء المثلثة^٣ «وَمَسَاجِدَ» تكون للمسلمين «يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ» ذكراً، أو وقتاً «كَثِيراً» فبأمر الله بالقتال بقي الدين ومعابد المتدينين، وفي توصيف المساجد بكونها محال ذكر الله دلالة على فضلها، ويجوز أن يكون الوصف للزينة «و» بالله «لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ» ويؤيد «مَنْ يَنْصُرُهُ» ينصر أوليائه ودينه، ولقد أنجز سبحانه وغده حيث سَلَطَ المؤمنين على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقيصرة الروم، وأزوتهم أرضهم وديارهم «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ» بذاته قادر على إنفاذ إرادته «عَزِيزٌ» وغالب على كل شيء، لا يُمانع ولا يذافع، فلا يحتاج إلى نصره أحد، وإنما كلف المؤمنين بالقتال ليصلوا بامتثال أمره إلى منافعهم الدنيوية والأخروية.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ [٤١]

ثم بين غاية شناعة الظلم على المؤمنين الذين أخرجوا من ديارهم بمدحهم بقوله: «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ» وسلطانهم على أهلها، وأعطيناهم نفوذ القول «أَقَامُوا الصَّلَاةَ» بشرانطها وأدابها لتعظيمي، وحثوا الناس عليها «وَأَتَوُا الزَّكَاةَ» أداءً لحقّي وتوسعة على عبادي «وَأَمَرُوا» الناس «بِالْمَعْرُوفِ» وفعل المستحسن عند الشرع والعقل «وَنَهَوْا» هم «عَنِ» فعل «الْمُنْكَرِ» والقيح عند الله وعند العقلاء، فإن كانوا اليوم عندكم أذلاء مستحقين، فهم أولياء الله «وَاللَّهُ» وحده «عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» ولذا لا يتعد أن يصيروا أعزاء معظمين ويجعلهم في الأرض متمكنين.

نقل كلام للفخر قال الفخر الرازي: ولكن ثبت أن الله مكّن الأئمة الأربعة في الأرض، وأعطاهم الرازي ورده السلطنة عليها، فوجب كونهم آتين بالأمر الأربعة، فإذا كانوا أمرين بكل معروف

٢. في روح البيان: صلواتا.

١. مجمع البيان ٧: ١٣٨، تفسير الصافي ٣: ٣٨١.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٩.

[و] ناهين عن كُلِّ مُنْكَرٍ، وَجَبَ أَنْ يَكُونُوا عَلَى الْحَقِّ، فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى إِمَامَةِ الْأَنْمَةِ الْأَرْبَعَةِ، وَلَا يَجُوزُ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحْدَهُ، لِأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى الْجَمْعِ^١.

في رد كلام الفخر الرازي أقول: فيه أن الآية خاصة بالذين أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ ظُلْمًا، وَابْتُلُوا بِأَذَى الْمُشْرِكِينَ كَعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَعْفَرٍ وَسُلَيْمَانَ وَعَمَّارٍ وَأَضْرَابِهِمْ؛ وَلَا يَشْمَلُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْهَا طَوْعًا لخدمَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُبْتَلُوا بِأَذَى الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ، وَلَوْ شَمَلَتْهُمْ الْآيَةُ لَشَمَلَتْ مَعَاوِيَةَ أَيْضًا، لِأَنَّهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَمِنْ كِتَابِ الْوَحْيِ فِيهَا، وَمِنْ الْمُتَمَكِّنِينَ فِي الْأَرْضِ، مَعَ ظُهُور كَوْنِهِ آتِيًا بِالْمُنْكَرَاتِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُخَصَّى.

مَعَ أَنَّ الْآيَةَ ظَاهِرَةٌ فِي مَذْحِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ كَانُوا حِينَ إِخْرَاجِهِمْ مِنْ مَكَّةَ مُتَلَتِّزِينَ بِالْمَعْرُوفِ تَارِكِينَ لِلْمُنْكَرِ مُطْلَقًا، بَحِثْ لَوْ مُتَّكِنُوا فِي الْأَرْضِ أَمَرُوا غَيْرَهُمْ أَيْضًا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَوْا غَيْرَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَلَمْ يَكُنِ الثَّلَاثَةُ كَذَلِكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، لَوْضُوحُ كَوْنِ عُمَرَ وَعُثْمَانَ بِالْإِجْمَاعِ وَأَبِي بَكْرٍ فِي اعْتِقَادِنَا مِنَ الْفَارِزِينَ مِنَ الرُّخْفِ فِي أَحَدٍ؛ فَلَا بَدَّ مِنَ الْقَوْلِ بِكَوْنِ الْوَصْفِ لَخُصُوصِ الْمُخْرَجِينَ الَّذِينَ كَانُوا لَهُمْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ مِنَ الْكَمَالِ، وَإِنْ لَمْ يَتِمَّ كَوْنُهُمْ فِي الْأَرْضِ، لِأَنَّ صِدْقَ الشَّرْطِيَّةِ لَا يَسْتَلْزِمُ صِدْقَ مُقَدِّمِهَا، فَيَكُونُ الْمَمْدُوحُ فِيهَا عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَمْزَةً وَجَعْفَرًا وَسُلَيْمَانَ وَأَبَاذَرَ وَأَضْرَابَهُمْ، لَا الْمُرْتَكِبِينَ لِلْمُنْكَرِ وَإِنْ كَانُوا مِنَ الْمُخْرَجِينَ.

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [٤٢-٤٤]

ثُمَّ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِدَفْعِ اللَّهِ أَذَى الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَنُصْرَتِهِ لَهُمْ عَلَى الْكَفَّارِ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُكَذِّبُونَهُ فِي ذَلِكَ، سَلَّى سُبْحَانَهُ قَلْبَ نَبِيِّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ فِي مَا تُخْبِرُهُمْ عَنِ اللَّهِ، فَلَيْسَ تَكْذِيبُهُمْ لَكَ أَمْرًا بَدِيعًا حَتَّى يُخْرِجَكَ وَيُعْثَمَكَ ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نُوْحًا ﴿وَعَادٌ﴾ هُودًا ﴿وَتَمُودٌ﴾ صَالِحًا ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ﴾ إِبْرَاهِيمَ ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لُوطًا ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ شُعَيْبًا ﴿وَكَذَّبَ مُوسَى﴾ مَعَ وَفُورِ مُعْجَزَاتِهِ وَوُضُوحِ آيَاتِهِ، فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِ؟ ﴿فَأَمَلَيْتُ﴾ وَأَمَهَلْتُ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الْمَكْذِبِينَ لَهُمْ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ اقْتَضَتْ الْمَصْلَحَةَ إِمْهَالَهُمْ فِيهِ ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ عِقَابًا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يَ وَانْكَارِي عَلَيْهِمْ بِإِزَالِ الْعَذَابِ، حَيْثُ بَدَّلْنَا نِعْمَتَهُمْ

يَنْقُذُ، وحياتهم هلاكاً، وعمارتهن خراباً، وَصَدَقْنَا الرُّسُلَ مَا وَعَدْتُهُمْ مِنَ النُّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَأَصْبِرْ أَنْتَ أَيْضاً عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِكَ كَمَا صَبَرَ أَوْلَا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، فَإِنِّي أَعَامِلُ مَعَ مُكَذِّبِكَ كَمَا عَامَلْتُ مَعَ مُكَذِّبِيهِمْ، وَإِنَّمَا الْمَصْلَحَةُ وَالْحِكْمَةُ اقْتَضَتْ إِهْمَالَهُمْ كَمَا اقْتَضَتْ إِهْمَالُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ.

فَكَأَيُّنَ مِنْ قَوْمٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مُعَطَّلَةٌ

وَقَصْرِ مَشِيدٍ [٤٥]

ثم أنه تعالى بعد بيان تكذيب الأمم ورسولهم وأخذهم بعد الإهمال، يبين كيفية أخذه بقوله: ﴿فَكَأَيُّنَ مِنْ قَوْمٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ وكم من بلدة ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بالعباد من الغرق والصيحة والصاعقة ونظائرهما ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ بالكفر والمعاصي وتكذيب الرسل بمقتضى العدل لا بالتشفي والجور ﴿فَهِيَ﴾ خربة أفضع الخراب حيث إن جذرانها ﴿خَاوِيَةٌ﴾ وساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ وسقوطها بعد سقوطها ﴿وَوَيْلٌ لِمَنْ فِيهَا مِنْ مُعَطَّلَةٍ﴾ لا أهل لها يستسقى منها ﴿وَوَيْلٌ لِمَنْ فِيهَا مِنْ قَصْرِ مَشِيدٍ﴾ ومنزل مرتفع التبنان، أو مخكمه، أو مبني بالجص، أخليناه من ساكنيه.

رُوي أن هذه بئر نزل عليها صالح النبي مع أربعة آلاف ممن آمن به وهي بحضرموت، وإنما سميت بذلك لأن صالحاً حين حَضَرَهَا مات، وكانت بلدة عند البئر اسمها حضرموت، بناها قوم صالح، وأمرُوا عليهم جليس بن جلاس، وأقاموا بها زمناً، ثم كفروا وعبدوا صنماً، فأرسل الله عليهم حنظلة بن صفوان نبياً، وكان حملاً فيهم، فقتلوه في السوق، فأهلكهم الله، وعطل بئْرهم، وخرب قصورهم^١.

وقيل: إن البئر الرّس، وكانت بَعْدَ نَافِثَةٍ مِنْ بَقَايَا ثَمُودَ، وكان لهم مَلِكٌ عَادِلٌ حَسَنُ السَّيْرِ، يقال له العلس، وكانت البئر تَشْقِي المَدِينَةَ كُلَّهَا وبَادِيَتِهَا وَجَمِيعَ مَا فِيهَا مِنَ الدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ، لَأَنَّهَا كَانَتْ لَهَا بَكَرَاتٌ كَثِيرَةٌ مَنْصُوبَةٌ عَلَيْهَا، وَرِجَالٌ كَثِيرُونَ مُوَكَّلُونَ بِهَا، وَحِيَاضٌ كَثِيرَةٌ ثَمَلًا لِلنَّاسِ، وَأَخْرَجَتْ لِلدَّوَابِّ وَأَخْرَجَتْ لِلْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالْهَوَامِّ، يَسْقُونَ عَلَيْهَا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَتَنَاقَشُونَ^٢، ولم يكن ماءً غيره.

فَطَالَ عُمُرُ الْمَلِكِ، فَلَمَّا مَاتَ طَلَبُوا بِذَهْنٍ لَتَبْقَى صُورَتُهُ وَلَا يَتَغَيَّرُ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ مَيِّتٌ يَكْرُمُ عَلَيْهِمْ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ مَوْتُهُ وَفَسَادُ أَمْرِهِمْ، وَصَبَّحُوا جَمِيعاً بِالْبُكَاءِ، فَاعْتَمَنَهَا الشَّيْطَانُ مِنْهُمْ، فَدَخَلَ فِي جُثَّةِ الْمَلِكِ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَيَّامٍ كَثِيرَةٍ فَكَلَّمَهُمْ وَقَالَ: إِنِّي لَمْ أَمُتْ، بَلْ غِيثٌ عَنْكُمْ حَتَّى أَرَى صَنِيعَكُمْ بَعْدِي، فَفَرَحُوا فَرَحاً شَدِيداً، وَأَمَرَ خَاصَّتَهُ أَنْ يَضْرِبُوا لَهُ حِجَاباً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَيُكَلِّمَهُمْ مِنْ

٢. في تفسير روح البيان: يتناولون.

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٣.

وَرَأْنَهُ، كَيْلَا يَعْرِفُوا الْمَوْتَ مِنْ^١ صُورَتِهِ وَوَجْهِهِ، فَنَصَبُوهُ^٢ صَنْمًا مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنِّي لَا أَمُوتُ أَبَدًا، وَأَنِّي إِلَهُ لَكُمْ.

كُلُّ ذَلِكَ يَتَكَلَّمُ بِهِ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ، فَصَدَقَهُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَارْتَابَ بَعْضُهُمْ، وَكَانَ الْمُؤْمِنُ الْمُكَذِّبُ مِنْهُمْ أَقَلُّ مِنَ الْمُصَدِّقِ، وَكُلَّمَا تَكَلَّمَ نَاصِحٌ مِنْهُمْ زَجِرَ وَقْهَرُ، فَاتَّقَوْا عَلَى عِبَادَتِهِ، فَبَعَثَ اللَّهُ لَهُمْ نَبِيًّا كَانَ الْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ فِي النَّوْمِ، وَكَانَ اسْمُهُ حَنْظَلَةُ بْنُ صَفْوَانَ، فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ الصُّورَةَ صَنَمٌ لَا رُوحَ لَهُ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ فِيهِ، وَقَدْ أَضَلَّهُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَمَثَلُ بِالْخَلْقِ، وَأَنَّ الْمَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ شَرِيكًا لِلَّهِ، وَأَوْعَدَهُمْ وَنَصَحَهُمْ وَحَذَّرَهُمْ سَطْوَةَ رَبِّهِمْ وَبِقِسْمَتِهِ، فَأَذَوْهُ وَعَادَوْهُ حَتَّى قَتَلُوهُ، وَطَرَحُوهُ فِي بَثْرِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ حَلَّتْ عَلَيْهِمُ الْيَقْمَةُ؛ فَبَاتُوا شِبَاعًا رَوَاءَ [مِنَ الْمَاءِ] وَأَصْبَحُوا وَالْبَشَرُ قَدْ غَارَ مَاؤُهَا، وَتَعَطَّلَ رِشَاؤُهَا، فَصَاحُوا بِأَجْمَعِهِمْ، وَضَجَّ النِّسَاءُ وَالْوِلْدَانُ، وَضَجَّتِ الْبَهَائِمُ عَطَشًا حَتَّى عَمَّهُمُ الْمَوْتُ وَشَمَلَهُمُ الْهَلَاكُ، وَخَلَّتْهُمْ فِي أَرْضِهِمُ السِّبَاعُ، وَفِي مَنَازِلِهِمُ الثَّعَالِبُ وَالضَّبَابُ، وَتَبَدَّلَتْ بِهِمْ جَنَاتُهُمْ وَأَمْوَالُهُم بِالسُّدْرِ وَالشُّوكِ، شَوْكُ الْعِضَاءِ وَالْقَتَادِ^٣. وَأَمَّا الْقَصْرُ الْمَشِيدُ فَقَصَرَ بَنَاءُ شَدَادِ بْنِ عَادِ بْنِ إِرَمَ، لَمْ يَبْنَ فِي الْأَرْضِ مِثْلَهُ^٤.

وَعَنِ (الْمَجْمَعِ): وَفِي تَفْسِيرِ أَهْلِ الْبَيْتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبِثْرِ مُعْطَلَةٍ﴾ «أَيِ وَكَمْ مِنْ عَالِمٍ لَا يُزْجَعُ إِلَيْهِ وَلَا يُتَّقَعُ بِعِلْمِهِ»^٥.

وَفِي (الْإِكْمَالِ) عَنِ الصَّادِقِ وَ[فِي الْكَافِي عَنْ] الْكَاظمِ: «الْبِثْرُ الْمُعْطَلَةُ: الْإِمَامُ الصَّامِتُ، وَالْقَصْرُ الْمَشِيدُ: الْإِمَامُ النَّاطِقُ»^٦.

وَعَنِ [صَالِحِ بْنِ سَهْلٍ أَنَّهُ قَالَ]: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ [هُوَ] الْقَصْرُ الْمَشِيدُ، وَالْبِثْرُ الْمُعْطَلَةُ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَوَلَدُهَا مُعْطَلُونَ مِنَ الثَّمَلِ^٧.

أَقُولُ: لَا شُبْهَةَ أَنَّ الرِّوَايَاتِ فِي بَيَانِ تَأْوِيلِ الْآيَةِ لَا تَفْسِيرُهَا.

وَعَنِ الْقَمِيِّ: هُوَ مِثْلُ لَالٍ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِثْرُ مُعْطَلَةٍ: هِيَ الَّتِي لَا يُسْتَقَى مِنْهَا، وَهُوَ الْإِمَامُ الَّذِي قَدْ غَابَ، فَلَا يُقْبَسُ مِنْهُ الْعِلْمُ إِلَى وَقْتِ ظَهْوَرِهِ، وَالْقَصْرُ الْمَشِيدُ: هُوَ الْمَرْتَعُ، وَهُوَ مِثْلُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْأَنَمَةِ وَقَالَ الشَّاعِرُ:

١. فِي تَفْسِيرِ رُوحِ الْبَيَانِ: فِي.
٢. فِي النِّسْخَةِ: وَنَصَبُوا.
٣. الْعِضَاءُ: كُلُّ شَجَرٍ لَهُ شَوْكٌ صَغُرَ أَوْ كَثُرَ، وَالْوَّاحِدَةُ عِضَاءَةٌ، وَالْقَتَادُ: نَبَاتٌ صَلَبَ لَهُ شَوْكٌ كَالْإِبْرِ.
٤. تَفْسِيرِ رُوحِ الْبَيَانِ ٦: ٤٣.
٥. مَجْمَعُ الْبَيَانِ ٧: ١٤١، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٣٨٢.
٦. كَمَالُ الدِّينِ ١٠/٤١٧، مَعَانِي الْأَخْبَارِ: ١/١١١، الْكَافِي ١: ٧٥/٣٥٣، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٣٨٢.
٧. مَعَانِي الْأَخْبَارِ: ٣/١١١، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٣٨٣.

بِنَزْ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرٍ مُشْرِفٍ مَثَلُ لَآلِي مُحَمَّدٍ مُسْتَظَرَفٍ
فَالْقَصْرُ مَجْدُهُمُ الَّذِي لَا يُرْتَفَى وَالْبِنْتُ عَلَنُهُمُ الَّذِي لَا يُنْزَفُ^١

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا
فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [٤٦]

ثم حث الله سبحانه المشركين على المسافرة ورؤية مصارع المهلكين مِنَ الْأَمَمِ كعادٍ وشمود
للاعتبارِ بها بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ويسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يذهبوا إلى اليمن والشام، ليَرَوْا
مَصَارِعَ الْمُهْلَكِينَ بالعذاب، كعاد وشمود وقوم لوط.

عن الصادق عليه السلام: «أَيُّ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا فِي الْقُرْآنِ؟»^٢ ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ﴾ بسبب مشاهدة العبرِ وبلادِ
المُكَذِّبِينَ للرُّسُلِ وأثارِ هلاكهم بالعذاب ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما يجب تعقله مِنْ آيَاتِ التَّوْحِيدِ،
وَشِدَّةِ غَضَبِ اللَّهِ عَلَى الشُّرْكِ ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب استماعه مِنْ الْمَوَاعِظِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي
تَكُونُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ هَلَاكِ الْأَمَمِ الطَّاعِيَةِ وَكَيْفِيَّةِ تَعْذِيبِهِمْ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ الَّتِي فِي الرُّؤُوسِ
وَلَا تَخْتَلُ الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةَ بِالْغَفْلَةِ وَالْجَهْلِ وَالْكَفْرِ ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى﴾ بِالْأَهْوَاءِ الزَّائِغَةِ وَالشَّهَوَاتِ
الْبَاطِلَةِ وَالْغَفْلَةِ وَالْجَهْلِ عَنْ رُؤْيَةِ آيَاتِ التَّوْحِيدِ وَالنَّبْوَةِ وَمَا فِيهِ الْعِظَّةُ وَالْإِعْتِبَارُ ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي﴾
تَكُونُ ﴿فِي الصُّدُورِ».

وفي الحديث: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَلَهُ أَرْبَعُ أَغْنِيْن؛ عَيْنَانِ فِي رَأْسِهِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَعَيْنَانِ فِي قَلْبِهِ
يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دِينِهِ وَأَكْثَرُ النَّاسِ عُثْمَانُ بَصَرَ الْقَلْبِ، لَا يُبْصِرُونَ [بِهِ] أَمْرَ دِينِهِمْ»^٣.

وعن السَّجَّادِ عليه السلام: «إِنَّ لِلْعَبْدِ أَرْبَعَ أَغْنِيْن؛ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَعَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ
آخِرَتِهِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا فَتَحَ [لَهُ] الْعَيْنَتَيْنِ اللَّتَيْنِ فِي قَلْبِهِ، فَأَبْصَرَ بِهِمَا الْغَيْبَ وَأَمْرَ آخِرَتِهِ، وَإِذَا
أَرَادَ اللَّهُ غَيْرَ ذَلِكَ تَرَكَ الْقَلْبَ بِمَا فِيهِ»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «إِنَّمَا شِيعَتُنَا الْأَرْبَعَةُ الْأَعْيُنُ؛ عَيْنَانِ فِي الرَّأْسِ، وَعَيْنَانِ فِي الْقَلْبِ، أَلَا
وَإِنَّ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ كَذَلِكَ، أَلَا إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَتَحَ أَبْصَارَكُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ»^٥.

٢. الخصال: ١٠٢/٣٩٦، تفسير الصافي ٣: ٣٨٣.

١. تفسير القمي ٢: ٨٥، تفسير الصافي ٣: ٣٨٣.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٥.

٤. الخصال: ٩٠/٢٤٠، التوحيد: ٤/٣٦٧، تفسير الصافي ٣: ٣٨٣.

٥. الكافي ٨: ٢١٥/٢٦٠، تفسير الصافي ٣: ٣٨٣.

وعن الباقر عليه السلام: «إِنَّمَا الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ» ثم تلا الآية^١.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ
مِمَّا تَعُدُّونَ [٤٧]

ثم أنه تعالى بعد تهديد المكذبين بما نزل على الأمم المكذبة للرسل من العذاب، حكى عنهم الاستهزاء بوعيدهم به بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْعَذَابِ﴾ الذي تهددكم به استهزاءً بتهديدك إياهم به مع أن الله وعدهم بعذاب الآخرة ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ بذلك العذاب بأن يأتيهم به في الدنيا، بل يأتيه كما وعد بلا خلف ولا تغيير، ولم يعدهم بعذاب الدنيا، بل ذكر ما نزل على الأمم من باب العظة والاعتبار ﴿وَأَنَّ يَوْمًا﴾ من أيام الآخرة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يكون في كثرة الآلام والشدائد عندهم ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ وتحسبون من سني الدنيا لو بقيتم وعذبتم فيها. وقيل: إن المراد ببيان طول أيام الآخرة^٢، فالمعنى أن العذاب الذي يكون طول أيامه إلى هذا الحد لا ينبغي للعاقل أن يستعجله.

وقيل: إن المعنى أن اليوم الواحد وألف سنة بالنسبة إليه تعالى سواء؛ لأنه لا يخاف الفوت، فإذا لم تستعبدوا إمهال يوم واحد فلا تستعبدوا إمهال ألف سنة^٣.

وَكَايُنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ * قُلْ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ

الْجَحِيمِ [٤٨-٥١]

ثم أنه تعالى بعد بيان أن عادته الإنهال ثم الأخذ، أكدّه بقوله: ﴿وَكَايُنَ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ وكم من بلدة ﴿أَمْلَيْتُ﴾ وأمهلت ﴿لَهَا﴾ وأخرت إهلاكها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مشتمرة على الكفر والطغيان مستوجبة لتعجيل عقوبتها، كما أنهلت هؤلاء المشتهزين مع غاية ظلمهم وشدة استحقاقهم للعذاب ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعقوبة الشديدة ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ وإلى حُكْمِي المَرَجِع في الآخرة، فأفعل بهم ما أفعل مِمَّا يَلِيْقُ بأعمالهم.

ثم أمر الله النبي ﷺ بالنَّباتِ عَلَى الدَّعْوَةِ وَعَدَمِ الْمُبَالَاةِ بتكذيب الكفار بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ﴾ من قِبَلِ اللَّهِ ﴿تَذِيرٌ﴾ وَمُخَوِّفٌ بِمَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ هَلَاكِ الْأَمَّةِ الْمَكْذِبَةِ لِلرُّسُلِ ﴿مُبِينٌ﴾ وَمَوْضِحٌ لَكُمْ إِذَارِي، وليس لي إتيانكم بالعذاب حتى تَسْتَعِجِلُونِي بِهِ ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ وَسِرٌّ لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ ﴿وَرِزْقٌ﴾ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَصَنَفٍ مِنَ النِّعَمِ بِلاَكُدٍّ وَمِنَّةٍ ﴿كَرِيمٌ﴾ وَجَامِعٌ لِلْفَضَائِلِ ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾ وَاجْتَهَدُوا ﴿فِي﴾ الطُّغْيَانِ ﴿فِي﴾ آيَاتِنَا وَمُعْجَزَاتِ رَسُولِنَا بِنِسْبَتِهَا إِلَى السَّحَرِ أَوْ الشُّعْرِ أَوْ التَّقْوَلِ حَالِ كَوْنِهِمْ ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ وَظَانِينَ فِيهَا الْعَجْزَ عَنِ الْأَخْذِ وَالْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ، أَوْ فِي الْأَنْبِيَاءِ الْعَجْزَ عَنِ إِبْرَاطِ نَبِيِّتِهِمْ، أَوْ مُعَايِدِينَ لَنَا أَوَّلَهُمْ، أَوْ مَسَابِقِينَ لَهُمْ لِيُخَوِّرَهُمْ وَيُعْجِزَهُمْ ﴿أُولَئِكَ﴾ السَّاعُونَ الْمُعَاجِزُونَ ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وَمَلَا زُمُو النَّارِ.

وفي بعض الروايات: أَنَّ الْجَحِيمَ اسْمٌ لِدَرْكَةٍ مِنْ دَرَكَاتِ جَهَنَّمَ^١.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ
فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [٥٢]

ثُمَّ لَمَّا أَثَرَ تَكْذِيبَ الْمُشْرِكِينَ وَاسْتِهْزَاءَهُمْ بِمَا وَعَدَهُمُ الرُّسُلُ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى الْإِيمَانِ وَأَوْعَدَهُمُ مِنَ الْعِقَابِ فِي قَلْبِهِ الشَّرِيفِ غَايَةَ التَّأْثِيرِ، بَالِغٌ سَبْحَانَهُ فِي تَسْلِيَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ فِي أُمَّةٍ أَوْ قَرْيَةٍ ﴿مِنْ رَّسُولٍ﴾ يُوحَى إِلَيْهِ بِتَوْسِطِ جَبْرَائِيلَ ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ يُوحَى إِلَيْهِ فِي مَنَامِهِ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْمَفْسِّرِينَ^٢ وَمَذَلُولِ بَعْضِ الرِّوَايَاتِ^٣ ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ قَبُولُ دَعْوَتِهِ وَرَوَاجُ دِينِهِ، أَوْ إِذَا بَلَغَ عَنِ اللَّهِ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ﴾ الطُّغْيَانَ وَالْقَدَحَ ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ وَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ اللَّهِ، أَوْ أَحْدَثَ الْمَوَانِعَ عَنْ تَقْوُذِ دَعْوَتِهِ ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ﴾ وَيُبْطِلُ ﴿مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ فِي أَلْسِنَةِ مُعَارِضِيهِ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالْإِعْتِرَاضَاتِ، وَيَرْفَعُ مَا يُبْدِعُهُ مِنَ الْمَوَانِعِ ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ﴾ وَيُثَبِّتُ ﴿آيَاتِهِ﴾ وَيَسُدُّهَا فِي الْقُلُوبِ بِإِظْهَارِ دَلَائِلِ صِدْقِهَا، وَدَفْعِ الشُّبُهَاتِ عَنْهَا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِمَقَالَتِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَمَا يُوْرِدُهُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهَا مِنَ الطُّغْيَانِ وَالْإِسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ عَلَى لِسَانِ الْغَاةِ وَالْمَرَدَّةِ مِنَ الْإِنْسِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي إِنْزَالِ الْآيَاتِ وَتَمْكِينِ الشَّيْطَانِ عَلَى الْإِقَاءِ مَا يَشَاءُ فِي أَلْسِنَةِ أَتْبَاعِهِ.

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

١. تفسير البيضاوي ٢: ٩٣، تفسير أبي السعود ٦: ١١٣.

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٨.

٣. الكافي ١: ١٣٤، و: ١٣٥.

فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ [٥٣ و ٥٤]

ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ بَعْضَ حِكْمِهِ وَمَصَالِحِهِ بقوله: ﴿لِيَجْعَلَ﴾ الله ﴿مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ﴾ في قُلُوبِ الْكَفَّارِ وَالنَّسِيئَةِ ﴿فِتْنَةً﴾ وَآيَاتٍ عَظِيمًا ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ مُهْلِكٌ لَا مَرَضَ أَشَدَّ مِنْهُ كَالشَّكِّ وَالنَّفَاقِ وَالْكِبْرِ وَالْحَسَدِ وَحُبِّ الدُّنْيَا ﴿وَلِلْكَفَرَةِ﴾ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴿الشَّدِيدَةُ الصَّلَابَةُ﴾ أَفْنِدَتْهُمْ ﴿وَأَنَّ﴾ الْفِرْقَ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ وَالشَّرِّ وَالنَّفَاقِ ﴿لَقَى شِفَاقِي بَعِيدٌ﴾ عَنِ الْحَقِّ وَالسَّعَادَةِ وَعَدَاوَةُ شَدِيدَةٌ لِلرُّشُولِ وَكِبَابِهِ وَدِينِهِ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ﴾ آمَنُوا ﴿وَأُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بِجِهَاتِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَكَمَالِ دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ النَّازِلُ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ عِلْمًا لَا يَزُولُ بِتَشْكِيكِ الْمُشْكِكِينَ ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ إِيْمَانًا كَامِلًا ﴿فَتُخْبِتَ﴾ وَتُخْشَعُ ﴿لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ وَتَتَوَاضَعُ لِعَظَمَتِهِ أَفْنِدَتْهُمْ وَجَوَارِحُهُمْ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بِتَوْفِيقِهِ وَتَأْيِيدِهِ ﴿لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَةِ عِنْدَ تَرَاثُمِ ظُلُمَاتِ الشُّبُهَاتِ وَاخْتِلَافِ شُعَبِ الضَّلَالِ ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَالْمَنْهَجِ الْقَوِيمِ الْمُوَصِّلِ إِلَى الْحَقِّ. وَأَعْلَمُ أَنَّ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ الَّتِي زَلَّتْ فِيهَا أَقْدَامُ الْأَعْلَامِ مِنَ الْعَامَّةِ، حَيْثُ فَسَّرُوهَا بِوُجُوهِ لَا يُمَكِّنُ الْإِثْرَامَ بِهَا لِلَّذِينَ شَمُّوا رَائِحَةَ الْإِيْمَانِ، وَلَذَا أَعْرَضْنَا عَنْ تَقْلِيلِهَا، بَلْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ إِلَيْنَا لَمَحَوْنَاهَا مِنَ الدَّفَاطِيرِ وَالْكَتُوبِ.

وَأَمَّا أَصْحَابُنَا الْإِمَامِيَّةُ فَقَدْ رَوَى بَعْضُهُمْ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الْآيَةُ أَنَّهُ قَالَ: «يَعْنِي مَا مِنْ نَبِيٍّ تَمَنَّى مُفَارَقَةً مَا يَعْانِيهِ مِنْ نِفَاقِ قَوْمِهِ وَغُفُوقِهِمْ، وَالْإِثْقَالَ عَنْهُمْ إِلَى دَارِ الْإِقَامَةِ، إِلَّا أَلْقَى الشَّيْطَانُ الْمَغْرَضَ بَعْدَاوَتَهُ عِنْدَ فَقْدِهِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ ذِمَّةُ وَالْقَدَحَ فِيهِ وَالطَّعْنَ عَلَيْهِ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ فَلَا تَقْبَلُهُ، وَلَا تُضْغِي إِلَيْهِ غَيْرَ قُلُوبِ الْمُتَافِقِينَ وَالْجَاهِلِينَ. وَيُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ بِأَنْ يَحْمِي أَوْلِيَائِهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْعُدُوَانِ وَتَشَابَعَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالطَّغْيَانِ الَّذِينَ لَمْ يَرْضَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ كَالْأَنْعَامِ حَتَّى قَالَ: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾»^١.

وَرَوَى الْقَمِي عَنْ الصَّادِقِ عليه السلام: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَصَابَهُ خَصَاصَةٌ^٢، فَجَاءَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ لَهُ: هَلْ عِنْدَكَ مِنْ طَعَامٍ؟ قَالَ: نَعَمْ يَارَسُولَ اللَّهِ، وَذَيْحٌ لِي عَنَاقًا^٣ وَشِوَاهُ، فَلَمَّا أَذْنَاهُ مِنْهُ تَمَنَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَكُونَ مَعَ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهم السلام فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ عليه السلام بَعْدَهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى

١. الاحتجاج: ٢٥٧، تفسير الصافي ٣: ٣٨٦، والآية من سورة الفرقان: ٢٥/٤٤.

٢. الخَصَاصَةُ: الحاجة.

٣. العَنَاقُ: الْأُنثَى مِنْ أَوْلَادِ الْمَعَزِ وَالْغَنَمِ مِنْ حِينَ الْوِلَادَةِ إِلَى تِمَامِ الْحَوْلِ.

الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ» يعني أبا بكر وعمر «فَتَسْخُفُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ» يعني لما جاء علي عليه السلام بعدهما «ثُمَّ يُخَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ» يعني سَيَضْرِبُ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً» يعني فلاناً وفلاناً «وَلِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» قال: شَكٌّ.^١
أقول: أمّا الرواية الأولى فَفَهْمُ المراد منها في غاية الإشكال، وأمّا الثانية فلا شبهة أنها بيان التأويل لا التّزويل.

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ يَوْمٌ عَقِيمٌ * أَلَمْ تَكُ يَوْمَئِذٍ إِذْ يُخَكِّمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُهِينٌ [٥٧-٥٥]

ثمّ لما بين سبحانه حال الكفار ثمّ حال المؤمنين، عاد إلى بيان إصرار الكفار على الكفر، واستمرار شكهم في صدى القرآن أو الرسول بقوله: «وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ» وَشَكٌّ «مِنْهُ» أو في مِرْيَةٍ من صدى الرسول «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ» والقيامة «بَغْتَةً» وَفَجْأَةً وَعَلَى غَفْلَةٍ مِنْهُمْ «أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٌ عَقِيمٌ» لا يَوْمٌ بعده لأنه لا لَيْلَ لَهُ، أو لا يَوْمٌ بعده مثله لِعِظَمِ أمره، أو المراد أنه لا يَرَوْنَ لأنفسهم فيه خيراً، وهو يَوْمٌ تُزُولُ العذاب عليهم.

وقيل: إنه يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَالسَّاعَةُ مِنْ مَقْدَمَاتِهِ، فلا تَكَرَّرَ في الآية.^٢

«أَلَمْ تَكُ» وَالسُّلْطَنَةُ التَّامَّةُ الظَّاهِرَةُ وَالْوَاقِعِيَّةُ «يَوْمَئِذٍ اللَّهُ» وَخَدَهُ، وَالْحُكُومَةُ بَيْنَ الْعِبَادِ مُخْتَصَّةٌ بِهِ، لا حَاكِمَ فِيهِمْ سِوَاهُ، وهو «يُخَكِّمُ بَيْنَهُمْ» بِالْعَدْلِ، ثُمَّ فَسَّرَ حُكْمَهُ بَيْنَهُمْ بقوله: «فَالَّذِينَ آمَنُوا» بِالرُّسُولِ وَالْقُرْآنِ، وَلَمْ يُجَادِلُوا فِي شَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» وَأَطَاعُوا أَحْكَامَ اللَّهِ الْمُنْزَلَةَ فِي كِتَابِهِ، أُولَئِكَ فِي الْآخِرَةِ مُتَمَكِّنُونَ «فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» وَبَسَاتِينِ كَثِيرَةٍ النِّعَمِ «وَالَّذِينَ كَفَرُوا» بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ «وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» الْمُنْزَلَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَأَصْرُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ «فَاُولَئِكَ لَهُمْ» فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ «عَذَابٌ مُهِينٌ» وَمِثْلَ لَهُمْ، وَمَذْهَبٌ بِعِزِّهِمْ وَكِبَرِهِمْ.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ
اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ [٥٨-٥٩]

ثُمَّ فَحَمَّ شَأْنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِتَخْصِيصِهِم بِالذِّكْرِ وَالْوَعْدِ بِالثَّوَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وَخَرَجُوا مِنْ أَوْطَانِهِمْ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَطَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ، وَتَرْوِيجًا لِدِينِهِ، وَنُصْرَةً لِرَسُولِهِ ﴿ثُمَّ قَاتِلُوا﴾ فِي الْجِهَادِ، أَوْ فِي طَرِيقِ الْمُهَاجَرَةِ ﴿أَوْ مَا تَوَا﴾ حَتَّى الْأَنْفِ فِيهِ، بِاللَّهِ ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وَيُنْعِمَ عَلَيْهِمْ بِعَيْشَةٍ مَرْضِيَّةٍ وَنِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ دَائِمَةٍ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ حَيْثُ إِنَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ بِلاَ عَوْضٍ وَلاَ مِثَّةٍ وَلاَ حِسَابٍ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ رِزْقِهِمْ، بَيَّنَّ مَسْكَنَتَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا﴾ وَلَيَمْسِكَنَّهُمْ مَسْكَنًا ﴿يَرْضَوْنَهُ﴾ وَيَرْضَوْنَ بِهِ، وَهُوَ الْجَنَّةُ الَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ فِي قَلْبٍ بَشَرٍ، فَيَرْضَوْنَهُ وَلَا يَتَّبِعُونَ عَنْهَا جَوْلًا، كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^١.

وَقِيلَ: إِنَّهُ خِيَمَةٌ مِنْ دَرَّةٍ بَيْضَاءَ لَا فَضْمَ فِيهَا وَلَا وَضْمَ، لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مِصْرَاعٍ^٢.
﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بِمَا يَسْتَحِقُّونَهُ أَوْ يَرْضَوْنَهُ فَيُعْطِيهِمْ وَيَرْبِّدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴿حَلِيمٌ﴾ لَا يُعَجِّلُ بِعُقُوبَةِ أَعْدَائِهِ وَغُصَاةٍ خَلَقَهُ لِيَتَوَّابًا.

رَوَى أَنَّ طَوَائِفَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَاتَلُوا قَدْ عَلِمْنَا مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَنَحْنُ نُجَاهِدُ مَعَكَ كَمَا جَاهَدُوا، فَمَا لَنَا إِنْ مَثَا مَعَكَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ^٣.
وَعَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «الْمَقْتُولُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُتَوَفَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَغْيَرُ قَتْلُ [هُمَا] فِي الْخَيْرِ وَالْأَجْرِ شَرِيكَانِ»^٤.

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ
* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [٦٠-٦٢]

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ الْوَعْدَ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ قِيلَ: يَعْنِي الْأَمْرُ مَا بَيَّنَّا لَكَ مِنْ إِنْجَازِ الْوَعْدِ لِلْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ قَاتَلُوا أَوْ مَا تَوَا^٥.

ثُمَّ وَعَدَ سُبْحَانَهُ الْمُهَاجِرَ الَّذِي قَاتَلَ اضْطِرَارًا بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ

١. تفسير الرازي ٢٣: ٥٨، تفسير أبي السعود ٦: ١١٦.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ٥٨، تفسير روح البيان ٦: ٥٢.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ٥٨.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٥٩.

عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ، وَقَاتَلَ مَنْ يُقَاتِلُهُ وَجَازَى الظَّالِمَ عَلَيْهِ بِمِثْلِ ظُلْمِهِ وَلَمْ يَزِدْ ﴿ثُمَّ بُغِيَ﴾ وَظَلِمَ ﴿عَلَيْهِ﴾ أَنَّ اضْطُرَّ إِلَى الْهَجْرَةِ بِاللَّهِ ﴿لَيَنْصُرُنَّهُ اللَّهُ﴾ وَيُعِينُهُ عَلَى مَنْ بُغِيَ عَلَيْهِ الْبَتَّةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لِلْمُنْتَصِرِ.

قيل: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَقُوا قَوْماً مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِلثَّلَاثِينَ بَقِيَّتًا مِنَ الْحَرَمِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ يَكْرَهُونَ الْقِتَالَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَأَحْمِلُوا عَلَيْهِمْ. فَتَأَسَّدَهُمُ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَكُونُوا عَنْ قِتَالِهِمْ فَأَبَوْا وَقَاتَلُوهُمْ، فَذَلِكَ بَغْيُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَثَبَّتَ الْمُسْلِمُونَ لَهُمْ، فَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ، فَوَقَعَ فِي أَنْفُسِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ مَا وَقَعَ، فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ وَعَفَا عَنْهُمْ وَغَفَرَ لَهُمْ.^٢

وعن القمي: هو رسول الله ﷺ لَمَّا أَخْرَجَتْهُ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ، وَهَرَبَ مِنْهُمْ إِلَى الْغَارِ، وَطَلَبُوهُ لِيَقْتُلُوهُ، فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرَ. وَقُتِلَ عَثْبَةُ وَشَيْبَةُ وَالْوَلِيدُ وَأَبُو جَهْلٍ وَحَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ وَغَيْرُهُمْ. فَلَمَّا قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طُلِبَ بِدَمَانِهِمْ، فَقَتِلَ الْحُسَيْنُ (ع) وَأَلَّ مُحَمَّدٌ ﷺ بَغْيًا وَعُدْوَانًا، وَهُوَ قَوْلُ يَزِيدَ لَعَنَهُ اللَّهُ حِينَ تَمَثَّلَ بِهَذَا الشَّعْرِ: لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدُرُ شَهْدَاؤُا...إِلَى آخِرِهِ.

فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ يَعْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ يَعْنِي حِينَ أَرَادُوا أَنْ يَقْتُلُوهُ ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرُنَّهُ اللَّهُ﴾ يَعْنِي بِالْقَائِمِ مِنْ وَلَدِهِ.^٣

قيل: إِنَّ تَوْصِيفَ ذَاتِهِ الْمَقْدَسَةِ بِالْعَفْوِ وَالْغُفُورِ مَعَ أَنَّهُ لَا ذَنْبَ لِلْمُعَاقِبِ؛ لِأَنَّ الْعَفْوَ عَنِ الْبَاغِي فِي غَايَةِ الْخُسْنِ، فَكُنَّ سُبْحَانَهُ تَرْكُهُ مَزَلَةَ الْإِسَاءَةِ، فَبَيَّهَ عَلَى عَفْوِهِ عَنْهَا، أَوْ لِيُثَبِّتَ عَلَى أَنَّ الْإِنْصَافَ بِصِفَاتِ اللَّهِ غَايَةُ آمَالِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى أَنَّهُ عَفُوٌّ غَفُورٌ، فَيُخَسِّنُ مِنْهُمْ الْعَفْوَ وَالْغُفْرَانَ.

﴿ذَلِكَ﴾ النَّصْرُ ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، بِذَلِيلِ أَنَّهُ تَعَالَى ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وَيَغْلِبُ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ، فَكَيْفَ يَغْلِبُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴿و﴾ بِسَبَبِ ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ مَعَ كَمَالِ قُدْرَتِهِ ﴿سَمِيعٌ﴾ لِمَقَالَتِ الظَّالِمِينَ وَالْمَظْطُومِينَ ﴿بَصِيرٌ﴾ بِأَعْمَالِهِمْ، فَيَجَازِيهِمْ عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ وَاسْتِحْقَاقِهِمْ ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنَ الْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ وَالْعِلْمِ الشَّامِلِ ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ وَالوَاجِبُ الْوُجُودَ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا نَقْصَ وَلَا عَجْزَ وَلَا جَهْلَ، وَأَنَّهُ مُتَفَرِّدٌ بِالْأَلُوْهِيَّةِ وَاسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ وَيَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ وَالْفَانِي الْعَاطِلُ، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ الْغَانِي بِقُدْرَتِهِ الْغَالِبُ عَلَى

١. في النسخة: ما. ٢. تفسير الرازي ٢٣: ٥٩.

٣. تفسير القمي ٢: ٨٦، تفسير الصافي ٣: ٣٨٨.

كُلِّ بِذَاتِهِ ﴿الْكَبِيرُ﴾ وَالْعَظِيمُ فِي سُلْطَانِهِ، الْمَتَعَالَى أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ فِي مُلْكِهِ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَأَلْفَلَكَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ [٦٦-٦٣]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْاِسْتِدْلَالِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ بِتَصَرُّفِهِ فِي أَجْزَاءِ الزَّمَانِ وَتَغْيِيرِهِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، اسْتَدْلَلَ عَلَيْهِ بِتَصَرُّفِهِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ بَعَيْنِ قَلْبِكَ وَثَوْرِ عَقْلِكَ ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ بِقُدْرَتِهِ ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ نَافِعًا بِالْأَمْطَارِ ﴿فَتُصْبِحُ﴾ وَتَصِيرُ ﴿الْأَرْضُ﴾ بِتَزْوِيلِ الْمَطَرِ عَلَيْهَا ﴿مُخْضَرَّةً﴾ بِالنَّبَاتِ وَالزَّرْعِ، وَإِنَّمَا قَالَ ﴿فَتُصْبِحُ﴾ بَدَلِ أَضْبَحَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالْحُدُوثِ وَبَقَاءِ أَثَرِ الْمَطَرِ زَمَانًا بَعْدَ زَمَانٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بِعِبَادِهِ، وَلِذَا فَعَلَ ذَلِكَ كَيْ يَعْظُمَ انْتِفَاعُهُمْ ﴿خَبِيرٌ﴾ وَعَالِمٌ بِمَقَادِيرِ مَصَالِحِهِمْ.

وعن ابن عباس: لَطِيفٌ بِأَرْزَاقِ عِبَادِهِ، خَبِيرٌ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْقُتُوبِ^١.

وقيل: لَطِيفٌ بِاسْتِخْرَاجِ الثَّبَتِ، خَبِيرٌ بِكَيْفِيَّةِ خَلْقِهِ^٢.

وقيل: لَطِيفٌ فِي أَفْعَالِهِ، خَبِيرٌ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ^٣.

﴿لَهُ﴾ تَعَالَى وَحْدَهُ ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خَلَقًا وَمِلْكًا وَتَصَرُّفًا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ بِذَاتِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴿الْحَمِيدُ﴾ الْمَسْتُوجِبُ لِلثَّنَاءِ عَلَيْهِ فِي صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ بِبَصِيرَةِ قَلْبِكَ، وَلَمْ تَعْلَمْ بِهِدَايَةِ عَقْلِكَ ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، وَذَلَّلَهَا تَحْتَ إِرَادَتِكُمْ تَتَصَرَّفُونَ فِيهَا كَيْفَ شِئْتُمْ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾ أَلْفَلَكَ ﴿بِأَنَّ تَرْكُوبَهَا وَتَحْمِيلُوا الْأَثْقَالَ عَلَيْهَا حَالَ كَوْنِهَا﴾ تَجَرَّى وَتَسِيرُ ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ إِلَى الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ ﴿بِأَمْرِهِ﴾ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ ﴿وَيُمْسِكُ﴾ وَيَأْخُذُ ﴿السَّمَاءَ﴾ فَوْقَكُمْ، مَحْفُوظَةً مِنْ ﴿أَنْ تَقَعَ﴾ أَوْ كَرَاهَةً أَنْ تَقَعَ، أَوْ كَيْلًا تَقَعَ ﴿عَلَى الْأَرْضِ﴾ بِسَبَبِ مِنَ الْأَسْبَابِ ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ تَعَالَى وَمَشِيتِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ أَنْعَمَ بِهَذِهِ النِّعَمِ الْعِظَامِ لِأَنَّهُ ﴿بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ﴾ وَشَدِيدُ الْمَحَبَّةِ ﴿رَحِيمٌ﴾ وَعَظُوفٌ بِهِمْ.

عن الصادق عليه السلام [عن أبيه، عن أبائه] عن النبي ﷺ أَنَّهُ بَعْدَ ذِكْرِ الْاِئِمَّةِ الْاِثْنِي عَشَرَ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ:

٣٦٠..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

«وَمَنْ أَنْكَرَ وَاحِدًا مِنْهُمْ فَقَدْ أَنْكَرَنِي، بِهِمْ يَغْنِيكَ اللَّهُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَبِهِمْ يَحْفَظُ [اللَّهُ] الْأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا»^١.

﴿وَهُوَ﴾ الْإِلَهَ الْقَادِرُ ﴿الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ بَعْدَ مَا كُنْتُمْ تَرَابًا وَنُطْفًا بِلا حَيَاةٍ ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بَعْدَ انْقِصَاءِ أَجَالِكُمْ الْمُقَدَّرَةِ ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ فِي الْقُبُورِ لِلْبَعْثِ وَالنُّشُورِ.

قيل: إنما ذُكِرَ هذان الإحياءان^٢ للدلالة على أن سائر النعم لذلك^٣.

ثم تَبَّ سبحانه على غايَةِ جهلِ الناسِ بقول: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾. لِنِعَمِ مُنْعِمِهِ حيث إنه مُسْتَفْرَقٌ في نِعَمِ اللَّهِ وَيَعْبُدُ غَيْرَهُ.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَذْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ

لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ * وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ [٦٧ و ٦٨]

ثم أنه تعالى بَعْدَ ذِكْرِ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ الدِّينِيَّةَ بقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ وَأَهْلِي عَصْرِ ﴿جَعَلْنَا﴾ وَشَرَعْنَا ﴿مَنْسَكًا﴾ وَشَرَعًا وَمَذْهَبًا خَاصًّا بِهِمْ ﴿هُمْ﴾ بِالْخُصُوصِ ﴿نَاسِكُوهُ﴾ وَأَجْزُوهُ، لَا يَجُوزُ لَهُمُ التَّعَدِّيُّ إِلَى مَنْسَكٍ غَيْرِهِمْ، وَالْعَمَلُ بِشَرِيعَةِ أُمَّةٍ أُخْرَى، فَإِذَا كَانَتْ أَحْكَامُهُ تَعَالَى مُخْتَلِفَةً بِاخْتِلَافِ الْأُمَمِ ﴿فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ وَلَا يُجَادِلُكَ فِي أَحْكَامِ الدِّينِ، بَلْ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُكَ وَالْعَمَلُ بِشَرِيعَتِكَ ﴿وَأَذْعُ﴾ جَمِيعَ النَّاسِ ﴿إِلَى﴾ تَوْحِيدِ ﴿رَبِّكَ﴾ وَدِينِهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿إِنَّكَ﴾ وَاللَّهُ ﴿لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ وَطَرِيقٍ مُوَصِّلٍ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ﴾ فِي الْحَقِّ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، وَعَدَلُوا عَنْ طَرِيقِ الْإِنْصَافِ إِلَى طَرِيقِ اللَّجَاجِ وَالْبِرَاءِ، فَلَا تُجَادِلُهُمْ أَنْتَ بَعْدَ وُضُوحِ الْحَقِّ وَدَلَالَةِ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ عَلَى صِحَّةِ دِينِكَ ﴿فَقُلْ﴾ إِعْرَاضًا عَنْهُمْ وَرِفْقًا بِهِمْ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وَتَرْتَكِبُونَ مِنَ الْمُجَادَلَةِ الْبَاطِلَةَ وَغَيْرِهَا مِنَ السَّيِّئَاتِ، فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا أَسْوَأَ الْجَزَاءِ.

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ

مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [٦٩ و ٧٠]

ثم أَخْبَرَ سبحانه نَتِيجَةَ عِلْمِهِ بِأَعْمَالِهِمْ بقوله: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. مِنْ أَمْرِ الدِّينِ بِإِتَابَةِ الْمُحَقِّ وَتَعَذِيبِ الْمُبْطِلِ.

١. كمال الدين: ٣/٢٥٩، تفسير الصافي ٣: ٣٨٩.

٢. في النسخة: هذه الإحياء.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ٦٣.

ثم استدل سبحانه على علمه بأعمالهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أيها الإنسان بشهادة عقلك ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ الخالق لجميع الأشياء ﴿يَعْلَمُ﴾ لا محالة ﴿مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لعدم إمكان خفاء مخلوقاته عليه ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المذكور مما في السماء والأرض مثبت ﴿فِي كِتَابٍ﴾ مبين ولوح محفوظ من قبل أن يترأه ويخلقه ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المذكور من إحاطة علمه بالموجودات وتبيينه في اللوح ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ الخالق لها سهل ﴿يَسِيرٌ﴾ بحيث لا يحتاج إلى إرادته.

قيل: فائدة ثبت الموجودات في الكتاب نظر الملائكة فيه، فإذا رآوه مطابقا للموجودات يزيد معرفتهم بسعة علمه تعالى^١.

وقيل: إن المراد بالكتاب حفظه تعالى لجميع الأشياء^٢، ومعنى قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ إنه محفوظ عنده.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ
مِنْ نَّصِيرٍ * وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ
ذَلِكَمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ السَّامِئُ [٧١ و ٧٢]

ثم أنه تعالى بعد بيان نعمه وكمال قدرته وعلمه، وبخ المشركين على عبادة الأصنام بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ وحجة من السمع والعقل ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ﴾ بأحد الطرقي الموجبة للعلم ﴿بِهِ﴾ وبجواز عبادته ﴿عِلْمٌ﴾ فإذا لم يستند مذهب الشرك إلى دليل، ولم يكن التزامهم به من علم، فيكون تقليدا، أو جهلا واتباعا للهوى، وهذا من أقوى الدليل على بطلانه، ومن المعلوم أن الالتزام به عين الظلم على النفس ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم باختيار الشرك ﴿مِنْ نَّصِيرٍ﴾ ومدافع ينصرونهم ويدفع العذاب عنهم.

وقيل: يعني ما لهم ناصر بالحجة، لأن الحجة لا تكون إلا للحق^٣.

ثم ذمهم سبحانه على شدة عنادهم للحق بقوله: ﴿وَإِذَا تَنَلَّى﴾ وقرأ ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ القرآنية حال كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضحات الدلالات على أنها كلام الله ﴿تَعْرِفُ﴾ وتبين ﴿فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المنكر، والجحود بكونها من الله. أو تعرف في وجوههم التجبر والترفع، كما عن ابن عباس^٤. أو

الكرهية لِلْقُرْآنِ بِحَيْثُ «يَكَادُونَ يَسْطُونَ» وَيَطِشُونَ «بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا» وَيَبْشُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ شِدَّةِ عَذَابِهِمْ وَأَنْصَجَارِهِمْ مِنْ تِلَاوَتِهَا «قُلْ» يَا مُحَمَّدُ رَدًّا عَلَيْهِمْ وَإِقْنَاعًا لَهُمْ مِمَّا يَقْصِدُونَهُ مِنَ الْإِضْرَارِ بِالتَّالِينَ: «أَفَأَنْتُمْ تُكْفِرُونَ» وَأَخْبِرْكُمْ «بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ» الَّذِي تَهْتُمُونَ بِهِ مِنَ الْبَطْشِ وَالْوُثْبِ عَلَى تَالِيِ الْقُرْآنِ، أَوِ الْكَرَاهِيَّةِ وَالضَّجَرِ الَّذِي يُصِيبُكُمْ بِاسْتِمَاعِ مَا تُلِيَّ عَلَيْكُمْ، وَهُوَ «التَّارُ» الَّتِي تَصْلُوْنَهَا بِسُوءِ فِعَالِكُمْ، وَهِيَ الَّتِي «وَعَدَهَا» اللَّهُ «الَّذِينَ كَفَرُوا» إِذَا مَاتُوا عَلَى كُفْرِهِمْ «وَيُسْأَلُ الْمَصِيرُ» النَّارُ وَسَاءَ الْمَرْجِعُ هِيَ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ [٧٣]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ عَدَمِ الْحُجَّةِ عَلَى جَوَازِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، أَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى عَدَمِ جَوَازِهَا بِقَوْلِهِ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرِبَ مَثَلٌ» بِدَيْعٍ وَذَكَرَ لَكُمْ بُرْهَانَ قَاطِعًا عَلَى عَدَمِ جَوَازِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ «فَاسْتَمِعُوا لَهُ» وَتَدَبَّرُوا فِيهِ حَقَّ التَّدَبُّرِ «إِنَّ» الْأَصْنَامَ «الَّذِينَ تَدْعُونَ» وَتَعْبُدُونَ «مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا» مَعَ غَايَةِ صِغَرِهِ وَضَعْفِهِ، بَلْ لَنْ يَقْدِرُوا عَلَى إِجَادِ جُزْءٍ مِنْهُ «وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ» وَتَظَاهَرُوا عَلَيْهِ، فَكَيْفَ بِحَالِ أَفْرَادِ كُلِّ فَرْدٍ «وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ» وَيَجْتَذِبُ مِنْهُمْ «شَيْئًا» قَلِيلًا أَوْ جَلِيلًا «لَا يَسْتَنْقِذُوهُ» وَلَا يَسْتَرِدُّوهُ «مِنْهُ» مَعَ كَمَالِ ضَعْفِهِ «ضَعُفَ» عَابِدُ الصَّنَمِ «الطَّالِبُ» مِنْهُ النِّفْعَ وَالشَّفَاعَةَ «وَالصَّنَمُ» الْمَطْلُوبُ «مِنْهُ» الْعَوْنُ، أَوْ ضَعُفَ الذُّبَابِ الطَّالِبِ لِمَا يَسْلُبُهُ مِنَ الصَّنَمِ، وَالصَّنَمُ الْمَطْلُوبُ مِنْهُ.

قِيلَ: إِنَّ الْمَشْرِكِينَ كَانُوا يَطْلُونَ أَصْنَامَهُمْ بِالْعَسَلِ وَالْخَلْقِ، وَيَسُدُّونَ أَبْوَابَ بُيُوتِ الْأَصْنَامِ عَلَيْهَا، ثُمَّ يَدْخُلُ الذُّبَابُ عَلَيْهَا وَيَأْكُلُ جَمِيعَ الطَّيِّبِ وَالْعَسَلِ الَّذِي عَلَيْهَا، ثُمَّ يَجِئُونَ بَعْدَ أَيَّامٍ وَيَفْتَحُونَ الْأَبْوَابَ، فَإِذَا لَمْ يَجِدُوا أَثَرَ الْعَسَلِ وَالطَّيِّبِ عَلَيْهَا فَرَحُّوا.^١
وَقِيلَ: إِنَّ الصَّنَمَ كَالطَّالِبِ لِيَخْلُقِ الذُّبَابَ، وَالْمَطْلُوبُ الذُّبَابُ.^٢

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ

تُزَجُّعُ الْأُمُورُ [٧٤-٧٦]

ثُمَّ وَجَّعَ سبحانه المشركين على غايَةِ جهْلِهِم بقوله: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وما عَرَفُوهُ مَعْرِفَةً يَعُدُّهَا الْعَقْلُ مَعْرِفَةً، وما عَظَّمُوهُ تَعْظِيماً يَلِيْقُ بِهِ، حَيْثُ جَعَلُوا الأصنامَ الَّتِي تَكُونُ فِي غَايَةِ الْخَسَاسَةِ وَالضُّعْفِ شُرَكَاءَ اللَّهِ الْقَادِرِ الْعَظِيمِ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ عَلَى خَلْقِ الْمُتَمَكِّنَاتِ وَإِعْدَامِ الْمَوْجُودَاتِ ﴿عَزِيزٌ﴾ وَغَالِبٌ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَلَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

ثُمَّ أَنَّهُ تعالى بعد إِبْطَالِ مَذْهَبِ عِبَادَةِ الأصنامِ، أَنْطَلَ الْقَوْلَ بِالْوَهِيَّةِ الْمَلَانِكَةِ بقوله: ﴿اللَّهُ يَضْطَفِي﴾ وَيَخْتَارُ بَعْضاً ﴿مِنْ الْمَلَائِكَةِ﴾ كَجَبْرِئِيلَ وَمِيكَائِيلَ ﴿رُسُلًا﴾ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِ ﴿وَرَبَّ﴾ بَعْضاً ﴿مِنْ النَّاسِ﴾ أَيْضاً رُسُلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، فَالْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ كَالْأَنْبِيَاءِ عِبِيدُهُ وَخَدَمُهُ، مُطِيعُونَ لِأَمْرِهِ، مَخْضُوعُونَ بِحُكْمِهِ، مَشْهُورُونَ تَحْتَ قُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِأَقْوَالِهِمْ ﴿بَصِيرٌ﴾ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وَمَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وَيَأْتِي مِنْ أَعْمَالِهِمْ، أَوْ الْعَكْسُ، أَوْ مِنْ أَمْرِ آخِرَتِهِمْ وَأَمْرِ دُنْيَاهُمْ.

ثُمَّ إِنَّهُ تعالى بعد بيان إحاطة عِلْمِهِ بِهِمْ، بَيَّنَّ كَمَالَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِمْ بقوله: ﴿وَالَى اللَّهُ تُزَجُّعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا؛ لِأَنَّهُ مَالِكُهَا وَمُدَبِّرُهَا، فَلَا يَمْلِكُ أَحَدُهُمْ لِنَفْسِهِ نَفْعاً وَلَا ضَرراً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ

تُقْلِحُونَ [٧٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تعالى بعد إثبات تَوْحِيدِهِ، وَإِبْطَالِ عِبَادَةِ الأصنامِ وَالْمَلَائِكَةِ، دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ وَالْخُصُوعِ لَهُ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ «أَرْكَعُوا» لهُ «وَاسْجُدُوا» لَهُ وَاحْضَعُوا وَتَوَاضَعُوا لِعَظَمَتِهِ.

قيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ هُنَا هُوَ الصَّلَاةُ، لَكُونُهُمَا أَكْثَرُ أَجْزَائِهَا^١.

وعن ابن عباس: إِنَّ النَّاسَ فِي أَوَّلِ إِسْلَامِهِمْ كَانُوا يَرْكَعُونَ وَلَا يَسْجُدُونَ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^٢.

وقيل: كَانُوا يَسْجُدُونَ بِغَيْرِ رُكُوعٍ حَتَّى نَزَلَتْ^٣.

وقيل: كَانَتِ الصَّلَاةُ قِيَاماً وَقُعُوداً حَتَّى نَزَلَتْ^٤.

﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَأَطِيعُوا أَوْامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ، وَأَخْلِصُوا لَهُ فِي الْعِبَادَةِ، وَلَا تُشْرِكُوا

٣٦٤ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

بِهِ شَيْئًا ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ وَتَحَرُّوا مَا هُوَ صَلاَحُكُمْ، أَوْ الْأَصْلَحُ لَكُمْ فِي كُلِّ مَا تَأْتُونَ كَالنَّوَافِلِ وَالْفَرَائِضِ، وَصَلَةُ الْأَرْحَامِ، وَالْبِرُّ وَالْإِنْفَاقِ عَلَى الْإِخْوَانِ وَالْفُقَرَاءِ، وَحُسْنُ الْبُشْرِ وَالْقَوْلِ وَمُكَارِمُ الْأَخْلَاقِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ وَبِكُلِّ خَيْرٍ مِنْ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا تَتَوَرَّونَ.

عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَرَضَ الْإِيمَانَ عَلَى جَوَارِحِ ابْنِ آدَمَ، وَقَسَّمَهُ عَلَيْهَا، وَفَرَقَهُ فِيهَا... وَفَرَضَ عَلَى الْوَجْهِ السُّجُودَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَزْكُمُوا وَاسْجُدُوا﴾ هَذِهِ فَرِيضَةٌ جَامِعَةٌ عَلَى الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَالرُّجُلَيْنِ»^١.
وعنه عليه السلام: «جَعَلَ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي بَيْتٍ، وَجَعَلَ مِفْتَاحَهُ الرُّهْدَ فِي الدُّنْيَا»^٢.

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ [٧٨]

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْخَيْرَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي﴾ ذَاتِ ﴿اللَّهِ﴾ أَوْ قَاتِلُوا الْكُفَّارَ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي سَبِيلِهِ، وَمِنْ أَجْلِهِ، وَطَلَبًا لِرِضَاةِ ﴿حَقِّ جِهَادِهِ﴾ وَاسْتَفْرَعُوا الْوَسْعَ وَأَخْلَصُوا الْبَيَّةَ فِيهِ. وعن ابن عباس: هُوَ أَنْ لَا تَخَافُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَانِمَ^٤.

وقيل: إِنْ الْمَرَادُ إِعْمَلُوا [لِللَّهِ] حَقَّ عَمَلِهِ^٥.

وقيل: حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ وَالْهَوَى^٦.

رُوي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالَ: «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ، فَعَلَيْكُمْ بِالْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»^٧. قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ؟ قَالَ: «هُوَ أَنْ تُجَاهِدَ نَفْسَكَ الَّتِي بَيْنَ جَنِينِكَ»^٨.

ثُمَّ حَتَّ سَبْحَانَهُ النَّاسَ فِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ﴾ تَعَالَى اللَّطِيفُ الَّذِي ﴿اجْتَبَاكُمْ﴾ بِلَطْفِهِ وَأَضْطَفَاكُمْ بِرَحْمَتِهِ لِدِينِهِ، وَاخْتَارَكُمْ لِنُصْرَةِ رَسُولِهِ وَتَرْوِيجِ شَرِيعَتِهِ، وَخَصَّكُمْ بِالتَّوْفِيقِ لِخِدْمَتِهِ وَالِاشْتِغَالِ بِطَاعَتِهِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ التَّنْشِيرِيَّاتِ، وَأَفْضَلِ الْكِرَامَاتِ.

عن الباقر عليه السلام: «إِنَّا عَنَى، وَنَحْنُ الْمُحِبُّونَ»^٩.

١. الكافي ٢: ٢٩ - ١/٣١، تفسير الصافي ٣: ٣٩١. ٢. الكافي ٢: ٢/١٠٤، تفسير الصافي ٣: ٣٩١.

٣. في النسخة: وتخلصوا. ٤. تفسير الرازي ٢٣: ٧٢.

٥. تفسير الرازي ٢٣: ٧٢، تفسير البيضاوي ٢: ٩٧، تفسير أبي السعود ٦: ١٢٢، تفسير روح البيان ٦: ٦٤.

٦. معاني الأخبار: ١/١٦٠ تفسير الصافي ٣: ٣٩١. ٧. الكافي ١: ٤/١٤٧، تفسير الصافي ٣: ٣٨٩.

وَمِنْ أُلَاطِفِهِ أَنَّهُ تَعَالَى سَهَّلَ عَلَيْكُمْ تَكْلِيفَهُ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وَتَكْلِيفَهُ شَيْئاً ﴿مِنْ حَرْجٍ﴾ وَمَشَقَّةٍ وَضَيْقٍ.

وعن ابن عباس، أنه قال لبعض هُذَيْلٍ: مَا تَعُدُّونَ الْحَرْجَ فَيْكُمْ؟ قَالَ: الضِّيقُ^١.

وعن عائشة: سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «الضِّيقُ»^٢.

ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ: كَيْفَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ﴾ مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى مَتَّعَنَا عَنِ الرُّثَا وَالسَّرِيقَةِ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَلَى، وَلَكِنَّ الْأَصْرَ الَّذِي كَانَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَضَعَ عَنْكُمْ^٣.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا اجْتَمَعَ أَمْرَانِ، فَأَحْبَبُهُمَا إِلَى اللَّهِ إِسْرَهُمَا»^٤.

وَمِنْ أُلَاطِفِهِ الْخَاصَّةِ عَلَيْكُمْ أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ لَكُمْ - أَيُّهَا الْعَرَبُ - «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ» أَوْ الْمَرَادِ وَسَّعَ عَلَيْكُمْ تَوَسُّعَةً مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، أَوْ أَغْنَى بِالْدِّينِ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا مُحِبِّينَ لِإِبْرَاهِيمَ لَكُرْبِهِمْ وَأَوْلَادِهِ، فَكَانَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ حَتَّى لَمْ عَلَى قَبُولِهِ وَإِنْقِيَادِهِمْ لَهُ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْخِطَابَ لِعُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ حُرْمَةَ إِبْرَاهِيمَ كَحُرْمَةِ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ^٥.

وَمِنْ أُلَاطِفِهِ أَنَّهُ تَعَالَى «هُوَ» الَّذِي «سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» فِي لِسَانِ أَنْبِيَائِهِ وَكُتِبَ السَّمَاوِيَّةُ ﴿وَفِي هَذَا﴾ الزَّمَانِ، أَوْ فِي هَذَا الْقُرْآنِ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ اللَّهَ «سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» أَيَّ فِي كُلِّ الْكُتُبِ ﴿وَفِي هَذَا﴾ أَيَّ فِي الْقُرْآنِ^٦.

وَأَمَّا شَرَفُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا التَّشْرِيفِ وَسَمَّاكُمْ بِهَذَا الْإِسْمِ الْأَكْرَمِ «لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» وَقَدْ مَرَّ بِبَيَانِ كَيْفِيَةِ تِلْكَ الشَّهَادَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ^٧.

وَعَنِ الْبَاقِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» فِي الْكِتَابِ الَّتِي مَضَتْ ﴿وَفِي هَذَا﴾ الْقُرْآنِ «لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» - قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: فَرَسُولُ اللَّهِ شَهِيدٌ عَلَيْنَا بِمَا بَلَّغْنَا عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَنَحْنُ الشُّهُدَاءُ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^٨، فَمَنْ صَدَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَدَقْنَا، وَمَنْ كَذَبَ كَذَّبْنَا»^٩.

وَقِيلَ: إِنَّ ضَمِيرَ «هُوَ سَمَّاكُمْ» رَاجِعٌ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ

٥ و ٦. تفسير الرازي ٢٣: ٧٤.

٨. (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) لَيْسَ فِي الْكَافِي.

١. ٤. تفسير الرازي ٢٣: ٧٣.

٧. عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ (١٤٣).

٩. الْكَافِي ١: ١٤٧/٤، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٣٩٢.

ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُنْجِلَةً لَكَ^١.

رُوي أن إبراهيم عليه السلام أخبر بأن الله سيبعث محمداً عليه السلام بعثلي مبعوثي، وأنه سيسمي أمته بالمسلمين^٢.
وعن كعب: أن الله أعطى هذه الأمة ثلاثاً لم يُعْطِهنَّ إلا الأنبياء: جعلهم شهداء على الناس، وما جعل عليهم في الدين من حرج، وقال: ﴿أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^٣.

وعن الصادق عليه السلام، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مِمَّا أُعْطِيَ اللَّهُ أُمَّتِي، وَفَضَّلَهُمْ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ ثَلَاثَ خِصَالٍ لَمْ يُعْطِهَا إِلَّا نَبِيٌّ: وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَانَ إِذَا بَعَثَ نَبِيًّا قَالَ لَهُ: اجْتَهِدْ فِي دِينِكَ وَلَا حَرَجَ عَلَيْكَ، وَأَنَّ اللَّهَ أُعْطِيَ أُمَّتِي ذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يقول: من ضيق. وكان إذا بعث نبياً جعله شهيداً على قومه، وإن الله جعل أمتي شهداء على الخلق حيث يقول: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ الحديث^٤.

فَإِذَا عَلِمْتُمْ الْطَّافَ رَبِّكُمْ بِكُمْ ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ لَهُ ﴿الصَّلَاةَ﴾ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ عِبَادَاتِهِ ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ الَّتِي هِيَ قَرِيبَتُهَا وَأَكْمَلُ الْقُرْبَاتِ بَعْدَهَا ﴿وَاغْتَصِمُوا﴾ وَتَّقُوا ﴿بِاللَّهِ﴾ فِي جَمِيعِ أُمُورِ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ وَلَا تَسْتَعِينُوا بِغَيْرِهِ وَلَا تَسْأَلُوا أَحَدًا سِوَاهُ.

وقيل: إن المراد من الاعتصام به التمسك بكتابه وأحكامه^٥.

عن ابن عباس: سَلُوا اللَّهَ الْعِصْمَةَ عَنْ كُلِّ الْمُحَرَّمَاتِ^٦.

وقيل: يعني اجعلوا الله عِصْمَةً وحافظاً لكم مما تَحَذَرُونَ^٧.

﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ وَالنَّاطِقُ فِي خَيْرِكُمْ وَصَلَاتِكُمْ، وَالْمُنْصَرِّفُ فِيكُمْ، وَمَنْ بِيَدِهِ جَمِيعُ أُمُورِكُمْ ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ لَكُمْ رَبُّكُمْ ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ وَالْعَوْنُ إِلَهُكُمْ، إِذْ لَا تَوَانِي مِنْهُ فِي الْقِيَامِ بِشُؤْنِ الْوَلَايَةِ وَالنُّصْرَةِ، وَلَا يَنْقُطُ عَنِ مَنِّهِ إِلَى الْأَبَدِ.

عن الصادق عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَجِّ فِي كُلِّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، لَمْ تَخْرُجْ سَنَّتُهُ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَإِنْ مَاتَ فِي سَفَرِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ». قيل: وَإِنْ كَانَ مُخَالَفًا؟ قال: «يُخَفَّفُ عَنْهُ [بَعْضُ مَا هُوَ فِيهِ]»^٨.
وَفَقَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنِلاَوَتِهَا.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ٧٣، والآية من سورة غافر: ٦٠/٤٠.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٦٥.

٨. ثواب الأعمال: ١٠٨، تفسير الصافي ٣: ٣٩٢.

١ و٢. تفسير الرازي ٢٣: ٧٤.

٤. قرب الإسناد: ٢٧٧/٨٤، تفسير الصافي ٣: ٣٩٢.

٦ و٧. تفسير الرازي ٢٣: ٧٤.

في تفسير سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
الْفُحْشِ مُغْرَضُونَ [١-٣]

ثُمَّ لَمَّا خَتَمَ اللَّهُ السُّورَةَ الْمُبَارَكَةَ الَّتِي فِي أَوَّلِهَا إثْبَاتُ الْمَعَادِ، وَالْاِسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ بِقُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ
الْإِنْسَانِ مِنَ التُّرَابِ، وَتَقْلِيدِهِ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَبِخَلْقِ النَّبَاتَاتِ، وَفِي آخِرِهَا إثْبَاتُ التَّوْحِيدِ وَإِبْطَالُ
الشِّرْكِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى الْإِيمَانِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ بِرَجَاءِ الْفَلَاحِ، أَرْدَفَهَا بِسُورَةِ «الْمُؤْمِنُونَ»
الَّتِي فِي أَوَّلِهَا تَخْصِصُ الْفَلَاحِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَمَذْجِهِمْ، وَبَيَانُ رُجْحَانِ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ وَلَزُومِ
الِاهْتِمَامِ بِهَا، وَذِكْرُ الْمَعَادِ وَالْاِسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ بِالْأَدْلِيَّةِ الْمَذْكُورِينَ، وَحِكَايَةُ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى التَّوْحِيدِ
وَأَتْبَاعِهِ مُنْكَرِيهِ بِالْعَذَابِ، وَفِي آخِرِهَا تَهْدِيدُ مُنْكَرِ الْمَعَادِ بِأَهْوَالِ الْقِيَامَةِ، وَحِزْمَانِ الْكُفَّارِ مِنَ الْفَلَاحِ،
فَأَتْبَدَأَهَا بِقَوْلِهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ثُمَّ افْتَتَحَهَا بِوَعْدِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْفَلَاحِ بِقَوْلِهِ: «قَدْ أَفْلَحَ»
وَسَعِدَ وَفَارَ «الْمُؤْمِنُونَ» وَالْمُؤَحِّدُونَ بِأَعْلَى الْمَقَاصِدِ وَأَسْأَهَا.

رَوَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ قَالَ: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ^١، فَقَالَ: طُوبَى
لَكَ مَثَرُ الْمَلُوكِ، أَيْ مَلُوكِ الْجَنَّةِ^٢.

وَعَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا يَقْرَبُ مِنْهُ إِلَى قَوْلِهِ: طُوبَى^٣.

وَعَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «أَتَذَرِي مَنْ هُمْ؟» قِيلَ: أَنْتَ أَعْلَمَ، قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ، إِنَّ
الْمُسْلِمِينَ هُمْ النَّجَبَاءُ»^٤.

ثُمَّ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» وَيَقُولُ بِهِمْ مِنْ مَهَابَةِ اللَّهِ خَائِفُونَ،
وَيَجُورِ جِهْمٌ مَتَوَاضِعُونَ.

١. تفسير روح البيان ٦: ٦٦.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ٨٢.

٣. تفسير القمي ٢: ٨٨، تفسير الصافي ٣: ٣٩٣، وفيهما إلى قوله: المؤمنون.

٤. الكافي ١: ٣٢٢/٥، تفسير الصافي ٣: ٣٩٣.

رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى رَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ رَمَى بِبَصَرِهِ نَحْوَ مَسْجِدِهِ، وَأَنَّهُ رَأَى مُصَلًّى يَتَعَبَّثُ بِلُحْيِيَّتِهِ فَقَالَ: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»^١.

وَرَوَى أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَإِنَّمَا هُوَ يَتَرَى يَدَيِ الرَّحْمَنِ، فَإِذَا التَفَتَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِلَى مَنْ تَلَفَّتْ، إِلَى خَيْرٍ مِنِّي؟ أَقْبَلَ يَا بَنَ آدَمَ [إِلَيَّ] فَأَنَا خَيْرٌ مِنْكَ تَلَفَّتْ إِلَيْهِ^٢.

ثُمَّ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ» وما لا فائدة فيه مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ «مُعْرِضُونَ» وَتُبَاعِدُونَ. قِيلَ: هُوَ الْقَوْلُ الْحَرَامُ^٣. وَقِيلَ: هُوَ كُلُّ حَرَامٍ أَعَمَّ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ^٤. وَقِيلَ: هُوَ أَعَمٌّ مِنَ الْحَرَامِ وَالْمَكْرُوهِ وَالْمُبَاحِ الَّذِي لَا حَاجَةَ فِيهِ^٥.

وَقَالَ الْقَمِي: يَعْنِي الْغِنَاءَ وَالْمَلَاهِي، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ الصَّادِقِ ﷺ^٦.

وَعنه ﷺ أَيْضاً: «هُوَ أَنْ يَتَقَوَّلَ الرَّجُلُ عَلَيْكَ بِالْبَاطِلِ، أَوْ يَأْتِيكَ بِمَا لَيْسَ فِيكَ فَتَعْرِضَ عَنْهُ»^٧. رَوَى بَعْضُ الْعَامَّةِ أَنَّهُ تَكَلَّمَ رَجُلٌ فِي زَيْنِ الْعَابِدِينَ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ ﷺ وَافْتَرَى عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ ﷺ: «إِنْ كُنْتُ كَمَا قُلْتَ فَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَإِنْ لَمْ أَكُنْ كَمَا قُلْتَ فَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ» فَقَامَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَقَالَ: جُعِلَتْ فِدَاكَ، لَسْتُ كَمَا قُلْتَ فَأَغْفِرْ لِي، قَالَ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ» فَقَالَ الرَّجُلُ: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ.

وَخَرَجَ يَوْمًا مِنَ الْمَسْجِدِ، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ فَسَبَّهُ، فَتَارَتْ إِلَيْهِ الْعَبِيدُ وَالْمَوَالِي، فَقَالَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ ﷺ: «مَهْلًا عَلَى الرَّجُلِ»، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ وَقَالَ: «مَا سَبَّكَ عَنْكَ مِنْ أَمْرٍ نَاكَرًا، أَلَيْكَ حَاجَةٌ تُعِينُكَ عَلَيْهَا؟» فَاسْتَحْيَى الرَّجُلُ، فَأَلْقَى إِلَيْهِ خَمِيصَةً^٨ كَانَتْ عَلَيْهِ، وَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ، فَكَانَ الرَّجُلُ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ مِنْ أَوْلَادِ الرَّسُولِ^٩.

وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ: «كُلُّ قَوْلٍ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ فَهُوَ لَغْوٌ»^{١٠}.

وَأَمَّا ذِكْرُ سُبْحَانِهِ الْإِعْرَاضِ عَنِ اللَّغْوِ بَعْدَ ذِكْرِ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ، لِكَمَالِ الْمُلَاطَبَةِ بَيْنَهُمَا. وَقِيلَ: إِنَّ الْإِعْرَاضَ عَنِ اللَّغْوِ مِنْ مُتَمَمَاتِ الصَّلَاةِ^{١١}.

وَالَّذِينَ هُمْ لِلرُّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِإِفْرَاجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى

٢. تفسير روح البيان ٦: ٦٧.

١. تفسير أبي السعود ٦: ١٢٣، تفسير روح البيان ٦: ٦٧.

٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٣: ٧٩.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ٧٩.

٧. مجمع البيان ٧: ١٥٨، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤.

٦. تفسير القمي ٢: ٨٨، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤.

٩. تفسير روح البيان ٦: ٦٣.

٨. الخَمِيصَةُ: ثَوْبٌ أَسْوَدٌ أَوْ أَحْمَرٌ لَهُ أَعْلَامٌ.

١١. تفسير الرازي ٢٣: ٨٠.

١٠. إرشاد المغيب ١: ٢٩٧، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤.

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ آتَتْكَ وَرَاءَ ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ [٤-٧]

ثمَّ أنه تعالى بعد توصيف المؤمنين بالقيام بأداء العبادات البدئية، التي أهمها الصلاة والخشوع فيها، وصفهم بالاهتمام بالعبادات المالية التي أهمها الزكاة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ومؤدون.

عن الصادق عليه السلام: «مَنْ مَنَعَ قِرَاطًا مِنَ الزَّكَاةِ فَلَيْسَ هُوَ بِمُؤْمِنٍ وَلَا مُسْلِمٍ وَلَا كَرَامَةٍ»^١.

وقيل: إن الزكاة هنا كُلُّ فِعْلٍ مَحْمُودٍ مَرْضِيٍّ^٢.

ثمَّ وصفهم بالتحرُّزِ عَنِ الْحَرَامِ الْمُتَعَلِّقِ بِأَنْفُسِهِمْ بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ﴾ وعوراتهم ﴿حَافِظُونَ﴾ ومنسكون لها من أن تُكْشَفَ أو تُمَسَّ، فَإِنَّهُمْ يُحَرِّمُونَهَا عَلَى كُلِّ أَحَدٍ ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾ وَمَنْكُوحَاتِهِمُ الدَّائِمَةِ أَوْ الْمُتَقَطِّعَةِ.

وقيل: إنَّ التَّقْدِيرَ فَإِنَّهُمْ يَلَامُونَ عَلَى تَرْكِ التَّحْفِظِ إِلَّا عَلَى تَرْكِهِ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ^٣. أو التقدير فَإِنَّهُمْ لَا يُزِيلُونَ فُرُوجَهُمْ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ﴿أَوْ﴾ عَلَى ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ بالأسر، أو الإِزْث، أو المُعَامَلَةِ. وقيل: إنَّ (على) بمعنى (من).

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ عَلَى الْكَشْفِ لَهَنَ وَمُبَاشَرَتِهِنَّ ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ وَلَا مَذْمُومِينَ ﴿فَمَنْ آتَتْكَ﴾ وَطَلَبَ لِلْمُبَاشَرَةِ ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ المذكور من الأزواج^٤ والإماء وسواهن ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الْمُتَبَعُونَ لِلْحَرَامِ ﴿هُمْ﴾ الْعَادُونَ، وَالْمُتَجَاوِزُونَ عَنْ حُدُودِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ، أَوْ الْمُتَعَدُّونَ مِنَ الْحَلَالِ إِلَى الْحَرَامِ، أَوْ الْمُتَنَاهُونَ فِي الْعُدْوَانِ.

بيان جليلة المنفعة عِلمُ أَنَّهُ اسْتَدَلَّ بَغَضُ الْعَامَةِ عَلَى حُرْمَةِ الْمُتَعَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، بِتَقْرِيبِ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِلْكٌ يَمِينٍ وَلَا زَوْجَةٍ، لِعَدَمِ التَّوَارِثِ فِيهَا، فَإِنَّ لَارِمَ الزَّوْجَةِ التَّوَارِثَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ مِنْ نِصْفِ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾^٥.

وفيه: أَنَّ الزَّوْجَةَ هِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي حَلَّ بَعْضُهَا، وَالتَّمَتُّعُ بِهَا سَبَبُ حَصُولِ عُلُقَةِ الزَّوْاجِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، بِسَبَبِ الْعَقْدِ الْخَاصِّ الْمَفِيدِ لِجَلِيلَةِ التَّمَتُّعَاتِ وَهِيَ صِنْفَانِ: صِنْفٌ مِنْهَا عُلُقَةٌ دَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا، لَا تَزُولُ إِلَّا بِالطَّلَاقِ، أَوْ بِحُصُولِ أَحَدِ مَوَاقِعِ النِّكَاحِ، كَعُلُقَةِ مِلْكِ الْأَعْيَانِ، وَلَا تَزُولُ إِلَّا بِالْمَرْبِلِ. وَصِنْفٌ

١. تفسير القمي ٢: ٨٨، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ٧٩.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ٨٠، تفسير أبي السعود ٦: ١٢٤.

٤. في النسخة: الأزواج.

٥. تفسير الرازي ٢٣: ٨٠، والآية من سورة النساء: ١٢/٤.

مِنْهَا عُلْفَةٌ مُقَيَّدَةٌ بِأَجَلٍ مَعَيَّنٍ، تَزُولُ بِمُلُوغِ أَجَلٍ تِلْكَ الْعُلْفَةُ، نَظِيرُ إِبَاحَةِ الْمَالِكِ لِلغَيْرِ التَّصَرُّفِ فِيهِ مِنْكَ. فَإِذَا كَانَتْ مُطْلَقَةً أَفَادَتْ جَوَازَ التَّصَرُّفِ فِيهِ مُطْلَقًا غَيْرَ مُقَيَّدٍ بِوَقْتٍ، وَلَا تَرْتَفِعُ إِلَّا بِرُجُوعِ الْمَالِكِ عَنْهَا أَوْ بِانْتِفَاءِ الْمَوْضُوعِ وَنَظَائِرِهِ، وَإِذَا كَانَتْ مُقَيَّدَةً بِمُدَّةٍ مَعَيَّنَةٍ تَزُولُ بِمُلُوغِ الْمُدَّةِ.

وَأَمَّا التَّوَارِثُ فَهُوَ حَكْمٌ تَعْبُدِي لِخُصُوصِ الصَّنِيفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْعُلْفَةِ بِالْأَدْلَةِ الْمُخَصَّصَةِ لِعُمُومِ الْآيَةِ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الْأَدْلَةُ الْمُخَصَّصَةُ لِعُمُومِ الْآيَةِ، لَكُنَّا نَحْكُمُ بِثَبُوتِهِ لِكُلِّ الصَّنِيفَيْنِ، كَمَا خُصِّصَتْ الْأَدْلَةُ بِقَبْضَةِ الْأَحْكَامِ الْآخَرِ مِنْ وَجُوبِ الثَّقَّةِ، وَالْكُسُوفَةِ، وَالسُّكْنَى، وَالْقَسَمِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْحُقُوقِ بِالصَّنِيفِ الْأَوَّلِ.

فَتَبَيَّنَ أَنَّ التَّمَسُّكَ بِالْآيَةِ لِإثْبَاتِ حُرْمَةِ الْمُتْعَةِ بَعْدَ ثُبُوتِ شَرْعِيَّتِهَا بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ وَالْإِجْمَاعِ مِنْ غَايَةِ الْجَهْلِ، وَأَمَّا الْكَلَامُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُخَالَفِينَا فِي نَسْخِهِ، وَلَمْ يَدُلَّ دَلِيلٌ عَلَيْهِ، بَلْ ثَبَّتَ بَقَاؤُهُ بِالْأَدْلَةِ الْقِطْعِيَّةِ، بَلْ يَقُولُ مَنْ أَبْدَعَ تَحْرِيمُهَا حَيْثُ قَالَ: مُتَعَتَانِ كَانَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ، وَأَنَا أَخَرَمُهُمَا^١. فَإِنَّ إِسْنَادَهُ التَّحْرِيمَ إِلَى نَفْسِهِ دَالٌّ عَلَى عَدَمِ نَسْخِهَا مِنْ شَارِعِهَا.

عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَحَلَّ لَكُمْ الْفُرُوجَ عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ: فَرْجٌ مُورَثٌ^٢ وَهُوَ النَّبَاتُ، وَفَرْجٌ غَيْرُ مُورَثٍ وَهُوَ الْمُتْعَةُ، وَمِلْكٌ يَمِينٍ^٣».

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْمُتْعَةِ فَقَالَ: «حَلَالٌ، فَلَا تَتَزَوَّجُ إِلَّا غَافِقَةً، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرَوِجُهُمْ حَافِظُونَ﴾^٤».

وَعَنْهُ عليه السلام: «تَحِلَّ الْفُرُوجُ بِثَلَاثَةِ وَجُوهِ: نِكَاحٍ بِمِيرَاثٍ، وَنِكَاحٍ بِلَا مِيرَاثٍ، وَنِكَاحٍ بِمِلْكٍ يَمِينٍ^٥».

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ

* أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٨-١١]

ثُمَّ وَصَفَ سَبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّحَرُّرِ عَنِ التَّعَدِّيِّ عَلَى الْغَيْرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ وَالْوَدَائِعِ الَّتِي أَوْدَعَهَا غَيْرُهُمْ عِنْدَهُمْ ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ وَالْمِيثَاقِ الَّذِي بَيَّنَّهُمْ وَبَيَّنَّ غَيْرُهُمْ مِنَ الْخَالِقِ وَالْخَلْقِ ﴿رَاعُونَ﴾ وَحَافِظُونَ لَا يَخُونُونَ فِي مَالٍ، وَلَا يَنْقُضُونَ عَهْدًا، وَمِنْ جُمْلَةِ الْأَمَانَاتِ الْوِلَايَةُ وَالتَّكَالِيفُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾^٦ الْآيَةِ. وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ:

١. صحيح البخاري ٢: ١٦٤/٢٨٢ و٦: ٤٣/٥٩، الأوثال للعسكري: ١١٢.

٢. في التهذيب: موروث، وكذا التي بعدها. ٣. التهذيب ٧: ١٠٥١/٢٤١، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤.

٤. الكافي ٥: ٢/٤٥٣، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤.

٥. الكافي ٥: ١/٣٦٤ - ٣، الخصال: ١٠٦/١١٩، تفسير الصافي ٣: ٣٩٤. ٦. الأحزاب: ٧٢/٣٣.

«أَعْظَمُ النَّاسِ خِيَانَةً مَنْ لَمْ يَتِمَّ صَلَاتُهُ»^١. «وَمِنْ جُمْلَةِ الْعُهُودِ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ مِنْ بَنِي آدَمَ فِي الذَّرِّ. ثُمَّ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِالْإِهْتِمَامِ بِالصَّلَاةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ﴾ الْمَفْرُوضَةِ ﴿يُحَافِظُونَ﴾ وَيُؤَاطِلُونَ بِرِعَايَةِ شَرَائِطِهَا وَخُدُودِهَا وَأَوْقَاتِهَا، وَإِنَّمَا غَيَّرَ الْأَسْلُوبَ بِإِثْنَانِ الْفِعْلِ لِكُونَ الصَّلَاةِ مُتَجَدِّدَةً مُتَكَرِّرَةً.

وقيل: إِنَّمَا فَصَّلَ بَيْنَ تَوْصِيْفِهِمْ بِالْحَشْوِ فِي الصَّلَاةِ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَيْهَا، لِلإِذْنِ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا فَضِيلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ^٢، أَوْ لِلإِشْعَارِ بِتَعْظِيمِ الصَّلَاةِ حَيْثُ ذَكَرَهَا فِي مَبْدَأِ أَوْصَافِهِمْ وَمُنْتَهَاهَا. ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ كَيْفِيَّةَ فَلَاحِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمُتَّصِفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ ﴿هُمْ الْوَارِثُونَ﴾ دُونَ غَيْرِهِمْ ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ وَيَخْلُقُونَهَا بِحَسَنِ عَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، أَوْ يَنْتَقِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْكَفَّارِ الَّذِينَ قَوَّتُوها عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دَائِمُونَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا.

عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا إِلَّا جَعَلَ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مَنَزَلًا، وَفِي النَّارِ مَنَزَلًا، فَإِذَا سَكَنَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَشْرِفُوا، فَيُشْرِفُونَ عَلَى أَهْلِ النَّارِ، وَتُرْفَعُ لَهُمْ مَنَارِلُهُمْ فِيهَا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ: هَذِهِ مَنَارِلُكُمْ الَّتِي لَوْ عَصَيْتُمْ اللَّهَ لَدَخَلْتُمُوهَا، قَالَ: فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مَاتَ فَرَحًا لَمَاتَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَرَحًا، لِمَا صُرِفَ عَنْهُمْ مِنَ الْعَذَابِ.

ثُمَّ يَنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ النَّارِ ارْزُقُوا زُؤُسَكُمْ، فَيَرْفَعُونَ زُؤُسَهُمْ فَيَنْزُقُونَ إِلَى مَنَارِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَذِهِ مَنَارِلُكُمْ الَّتِي لَوْ أَطَعْتُمْ رَبَّكُمْ لَدَخَلْتُمُوهَا، قَالَ: فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مَاتَ حُزْنًا لَمَاتَ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا، فَيُورِثُ هَؤُلَاءِ مَنَارِلَ هَؤُلَاءِ [وَيُورِثُ هَؤُلَاءِ مَنَارِلَ هَؤُلَاءِ] وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^٣.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ إِلَّا وَلَهُ مَنَزَلَانِ: مَنَزَلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنَزَلٌ فِي النَّارِ، فَإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَزِلَهُ»^٤.

وقيل: إِنَّ اللَّهَ شَبَّهَ انْتِقَالَ الْجَنَّةِ إِلَيْهِمْ بِغَيْرِ مُحَاسَبَةٍ وَمَعْرِفَةٍ بِمَقَادِيرِهَا بِاتِّقَالِ الْمَالِ إِلَى الْوَارِثِ^٥.

وقيل: لِمَا كَانَتِ الْجَنَّةُ مَسْكَنَ أَبْنَاءِ آدَمَ، صَارَ انْتِقَالُهَا إِلَى أَوْلَادِهِ شَبَّهًا بِالْمِيرَاثِ^٦.

قِيلَ: إِنَّ الْفِرْدَوْسَ هُوَ الْجَنَّةُ بِلِسَانِ [الْحَبَشَةِ]^٧ وَقِيلَ: بِلِسَانِ الرُّومِ^٨.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْفِرْدَوْسُ مَقْصُورَةُ الرَّحْمَنِ، فِيهَا الْأَنْهَارُ وَالْأَشْجَارُ»^٩.

١. تفسير الرازي ٢٣: ٨١. ٢. تفسير أبي السعود ٦: ١٢٥.

٣. تفسير القمي ٢: ٨٩، تفسير الصافي ٣: ٣٩٥. ٤. مجمع البيان ٧: ١٥٩، تفسير الصافي ٣: ٣٩٥.

٥. تفسير الرازي ٢٣: ٨٢. ٦. ٩- تفسير الرازي ٢٣: ٨٢.

وعنه عليه السلام قال: «سَلُوا اللَّهَ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهَا أَعْلَى الْجَنَانِ، وَإِنَّ أَهْلَ الْفِرْدَوْسِ يَسْمَعُونَ أَطِيطَ الْفَرْشِ»^١.
وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «فِي نَزَلَتْ»^٢.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ *
ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا
الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ
بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ [١٢-١٦]

ثُمَّ لَمَّا أَخْبَرَ بِاخْتِصَاصِ الْفَلَاحِ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ، اسْتَدَلَّ عَلَى الْبَعْثِ فِيهَا بِقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ عَلَى
خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَتَقْلِيهِ فِي أَطْوَارِ الْخِلْقَةِ وَأَكْوَانِ مُخْتَلِفَةٍ يَقُولُهُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ فِي بَدْوِ خِلْقَتِهِ
﴿مِنْ سَلَالَةٍ﴾ وَخُلَاصَةٍ مُسَلَّةٍ وَمُسْتَخْرَجَةٍ ﴿مِنْ طِينٍ﴾.

وقيل: إِنَّ الْمَرَادَ بِالْإِنْسَانِ أَوْلَادَ آدَمَ، وَالْمَرَادُ مِنَ الطِّينِ آدَمَ، وَمِنْ السَّلَالَةِ الْأَجْزَاءُ الطَّبِيعِيَّةُ الْمُشْتَبِهَةُ فِي
أَعْضَائِهِ الَّتِي حِينَ اجْتِمَاعِهَا فِي أَوْعِيَةِ الْمَنِيِّ صَارَتْ مَيِّتًا^٣.

وقيل: لَمَّا كَانَتِ الْأَغْذِيَّةُ الَّتِي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا الْمَنِيُّ مُتَوَلِّدَةً مِنْ صَفْوِ الْأَرْضِ وَالْمَاءِ، كَانَ مَبْدَأَ خَلْقِ
الْإِنْسَانِ الطِّينَ لِكَوْنِ الْمَنِيِّ مِنْهُ^٤.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ وَصَيْرْنَاهُ ﴿نُطْفَةً﴾ وَمَاءً صَافِيًا فِي صُلْبِ الرَّجُلِ، ثُمَّ نَقَلْنَاهُ بِسَبَبِ الْجِمَاعِ ﴿فِي قَرَارٍ
مَكِينٍ﴾ وَمُسْتَقَرٍّ حَصِينٍ، وَهُوَ الرَّجِمُ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا﴾ وَصَيْرْنَا ﴿النُّطْفَةَ﴾ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ﴿عَلَقَةً﴾
وَدُمًّا جَامِدًا ﴿فَخَلَقْنَا﴾ وَصَيْرْنَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ﴿الْعَلَقَةَ﴾ وَالْدَّمَ الْجَامِدَ ﴿مُضْغَةً﴾ وَقَطَعَهُ لَحْمَ
﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ﴿عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ وَسَتَرْنَاهُ بِهِ بَعْدَ ثَبَتِ الْغُرُوقِ
وَالْأَعْصَابِ وَالْأُوتَارِ وَالْعَصَلَاتِ عَلَيْهَا ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ﴾ وَأَوْجَدْنَاهُ ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ مُبَينًا لِلْخَلْقِ الْأَوَّلِ
بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ، فَصَارَ حَيًّا بَعْدَ مَا كَانَ مَيِّتًا، وَحَيَوَانًا بَعْدَ مَا كَانَ جَمَادًا، وَنَاطِقًا بَعْدَ مَا كَانَ أَتَمًّا،
وَسَمِيعًا بَعْدَ مَا كَانَ صَمًّا، وَبَصِيرًا بَعْدَ مَا كَانَ أَعْمَى، وَأَوْدَعَ فِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَجَائِبَ فَطَرَةٍ وَغَرَائِبَ
حِكْمَةٍ لَا يَحِيطُ بِهَا وَصْفُ الْوَاصِفِينَ.

عن ابن عباس: هُوَ تَصْرِيْفُ^٥ اللَّهِ الْإِنْسَانَ بَعْدَ الْوِلَادَةِ فِي أَطْوَارِهِ فِي زَمَنِ الطُّفُولَةِ، وَمَا بَعْدَهَا إِلَى

١. تفسير الرازي ٢٣: ٨٢.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٨٨/٦٥، تفسير الصافي ٣: ٣٩٥.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ٨٤.

٥. في تفسير الرازي: تَصَرَّفَ.

استواء الشَّبابِ، وما بَعْدَهُ إلى أَنْ يَمُوتَ^١.

ثُمَّ أَنْتَى سُبْحَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِخَلْقِ هَذَا الْمَخْلُوقِ الْبَدِيعِ بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ وتعالى شأنه من قُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ وَحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ وَهُوَ ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ خَلْقًا، وَأَكْمَلُ الْمُقَدِّرِينَ تَقْدِيرًا؛ لِأَنَّهُ خَلَقَ أَحْسَنَ الْمَخْلُوقِينَ، حَيْثُ إِنَّهُ مَعَ صِغَرِ جُزْمِهِ انْطَوَى فِيهِ الْعَالَمُ الْكَبِيرُ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مَرْكَبٌ مِنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ، وَأَنَّ فِي الْمَوْجُودَاتِ خَالِقِينَ.

عن الرضا عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ: أَوْ غَيْرُ الْخَالِقِ الْجَلِيلِ خَالِقٌ؟ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ فِي عِبَادِهِ خَالِقِينَ، مِنْهُمْ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ، خَلَقَ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَخَلَقَ السَّامِرِيُّ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ حُورًا^٢.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ يَا بَنِي آدَمَ ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنْ أَطْوَارِ الْخَلْقِ وَالتَّعْيِشِ إِلَى الْأَجَلِ الْمُسَمًّى وَاللَّهُ ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ بِقُدْرَتِهِ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ بَعْدَ انْقِضَاءِ الدُّنْيَا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَعِنْدَ النُّفْخَةِ الثَّانِيَةِ تُحْيُونَ ثَانِيًا بِقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ كَمَا حَيَّيْتُمْ أَوَّلًا، وَتُبْعَتُونَ وَتُخْرَجُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ لِلْحِسَابِ وَالْمُجَازَاةِ عَلَى الْأَعْمَالِ.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ * وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تُخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَبْنِ لِلْكَافِلِينَ [١٧ - ٢٠]

ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ الْإِعَادَةُ مَتَوَلَّةً بِكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ، بِالْغِ سُبْحَانَهُ فِي إِبْتَاهِمَا لِنَفْسِهِ بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ وَطَبَقَاتٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ كَالسُّقْفِ الْمَحْفُوظِ، سَمَّيْتَ طَبَقَاتِهَا طَرَائِقَ لِطُرُوقِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِنَّ كُلَّ مَا فَوْقَ مِثْلِهِ طَرِيقُهُ، أَوْ لَأَنَّهُ طُرُقُ الْمَلَائِكَةِ وَالْكَوَاكِبِ وَمَسِيرُهَا ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ﴾ وَالنَّاسِ، أَوْ عَنِ السَّمَاوَاتِ، أَوْ عَنِ الْمَوْجُودَاتِ ﴿غَافِلِينَ﴾ وَذَاهِلِينَ حَتَّى تُهْمَلَ أَمْرُهَا وَتَذِيرُهَا، بَلْ تَحْفَظُهَا عَنِ الزَّوَالِ وَالِاخْتِلَالِ إِلَى الْأَجَلِ الْمُقَدَّرِ بِمُقْتَضَى الْحِكْمَةِ، وَتَعْلَمُ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا وَجَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي بَقَائِهَا.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ خَلْقَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فِي بَقَايِهِ بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ بِسُحُوبٍ الْأَنْطَارِ مَاءً﴾ نَافِعًا ﴿بِقَدَرٍ﴾ وَحَدَّ فِيهِ صَلَاحَ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنبَاتَاتِ ﴿فَأَسْكَنَّاهُ﴾ وَمَكَانَهُ ﴿فِي

الْأَرْضِ ﴿لَا نُنْفِئُكُمْ بِهِ﴾ **﴿وَلِنَأْتِيَنَّ عَلَى دَهَابٍ بِهِ﴾** مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ وَإِزَالَتِهِ بِالْأَسْبَابِ الْعَادِيَةِ وَغَيْرِهَا بِاللَّهِ **﴿لَقَادِرُونَ﴾** كَمَا كُنَّا قَادِرِينَ عَلَى إِزَالِهِ وَإِتْيَانِهِ.

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ الْجَنَّةِ خَمْسَةَ أَنْهَارٍ: جَنِيحُونَ، وَسَيْحُونَ، وَدِجْلَةٌ، وَالْفُرَاتُ، وَالْيَلِيلُ، فَأَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عُيُونِ الْجَنَّةِ مِنْ أَشْفَلِ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِهَا عَلَى جَنَاحِي جَبْرَيْلَ، اسْتَوْدَعَهَا الْجِبَالُ وَأَجْرَاهَا فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ فِيهَا مَنَافِعَ لِلنَّاسِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: **﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾** وَإِذَا كَانَ عِنْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ أَرْسَلَ اللَّهُ جَبْرَيْلَ فَرَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ الْقُرْآنَ، وَالْعِلْمَ، وَالْحَجَرَ الْأَسْوَدَ مِنَ الْبَيْتِ، وَمَقَامَ إِبْرَاهِيمَ، وَتَابَوْتَ مُوسَى بِمَا فِيهِ، وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ الْخَمْسَةُ إِلَى السَّمَاءِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: **﴿وَلِنَأْتِيَنَّ عَلَى دَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾** فَإِذَا رُفِعَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ مِنَ الْأَرْضِ، فَقَدْ أَهْلَهَا خَيْرَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا»^١.

وعن الباقر عليه السلام: «هِيَ الْأَنْهَارُ وَالْعُيُونُ»^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «يَعْنِي مَاءَ الْعَقِيقِ»^٣.

أقول: الْعَقِيقُ اسْمُ وَادٍ.

﴿فَأَنْشَأْنَا﴾ وَخَلَقْنَا **﴿لَكُمْ﴾** بَعْدَ إِزَالِ الْمَاءِ **﴿بِهِ﴾** فِي الْأَرْضِ **﴿جَنَّاتٍ﴾** وَبَسَاتِينَ ذَاتِ أَشْجَارٍ **﴿مِنْ تَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾** هِيَ أَحَبُّ الْأَشْجَارِ عِنْدَكُمْ وَأَنْفَعُهَا، حَيْثُ تَكُونُ ثِمَارُهَا غَذَاءً وَفَاكِهَةً **﴿لَكُمْ﴾** فِيهَا، مَعَ تِلْكَ الْأَشْجَارِ النَّافِئَةِ **﴿فَوَاكِهَ﴾** وَثِمَارٍ **﴿كَثِيرَةً﴾** بِهَا تَتَفَكَّهُونَ **﴿وَمِنْهَا﴾** ثِمَارٌ وَزُرُوعٌ، **﴿تَأْكُلُونَ﴾** وَبِهَا تَتَعَبَّشُونَ **﴿وَأَنْشَأْنَا لَكُمْ﴾** شَجَرَةً مُبَارَكَةً زَيْتُونَةٌ تَكُونُ مِنْ شَرَفِهَا أَنَّهَا بِالْخُصُوصِ **﴿تَخْرُجُ مِنْ﴾** جَبَلٍ **﴿طُورِ سَيْنَاءَ﴾** الَّذِي مِنْهُ يُودِي مُوسَى عليه السلام وَكَلَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ تَكْلِيمًا. وَهِيَ بَيْنَ مِصْرَ وَأَيْلَةَ، أَوْ بِفِلَسْطِينَ.

وقيل: إِنَّ سَيْنَاءَ اسْمُ الْبُقْعَةِ. وقيل: إِنَّ مَعْنَاهُ حَسَنٌ. وقيل: أَوَّلُ مَا نَبَتْ الزَّيْتُونُ هُنَاكَ. وقيل: فِيهِ مَغْظَمُهَا^٥.

وفاندها أَنَّهَا **﴿تَثْبُتُ﴾** مُسْتَصْحَبَةٌ **﴿بِالدُّهْنِ﴾**. وقيل: إِنَّ (الْبَاءَ) بِمَعْنَى (مَعَ)^٦. وقيل: إِنَّهَا لِلتَّعْدِيَةِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهَا تَثْبُتُ بِشِمْرَةٍ جَامِعَةٍ لِدُهْنٍ يُدَهَّنُ وَيُسْرَحُ بِهِ^٧ **﴿وَصِنْفٍ﴾** وَإِدَامٍ يُصْبَغُ وَيُغْمَسُ فِيهِ الْخُبْزُ، وَيُلَوَّنُ بِهِ مِثْلُ الدُّبْسِ وَالْحَلِّ **﴿لِلْأَكْلِينَ﴾**.

١. تفسير روح البيان ٦: ٧٤.

٢. تفسير القمي ٢: ٩١، تفسير الصافي ٣: ٣٩٦.

٣. تفسير الكافي ٦: ٣٩٦، تفسير الصافي ٣: ٣٩٦.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٨٩، تفسير روح البيان ٦: ٧٦.

٥. تفسير البيضاوي ٢: ١٠٢، تفسير روح البيان ٦: ٧٦، تفسير الصافي ٣: ٣٩٧.

عن النبي ﷺ قال: «الرَّيْتُ شَجَرَةً مَبَارَكَةً فَأَتَدِمُوا بِهِ، وَادَّهُوا»^١.

وعن الباقر عليه السلام: «كان في وصية أمير المؤمنين عليه السلام: أن أخرجوني إلى الظُّهْرِ، فإذا تَصَوَّبت أقدامكم وَاسْتَقْبَلْتُمْ الرِّيحَ فَادْفَتُونِي، فَهُوَ أَوَّلُ طُورِ سَيْنَاءَ، فَعَلُوا ذَلِكَ»^٢.

وعن الصادق عليه السلام وقد ذُكِرَ العَرِّيُّ عنده، قال: «وهو قِطْعَةٌ مِنَ الْجَبَلِ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَقَدَّسَ عَلَيْهِ عِيسَى تَقْدِيسًا، وَاتَّخَذَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَاتَّخَذَ عَلَيْهِ مُحَمَّدًا حَبِيبًا، وَجَعَلَهُ لِلنَّبِيِّينَ مَسْكَنًا، وَاللَّهُ مَا سَكَنَ [فيه] بَعْدَ أَبَوَيْهِ الطَّيِّبِينَ آدَمَ وَنُوحَ أَكْرَمَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^٣.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ [٢١ و ٢٢]

ثم أنه تعالى بعد الاستدلال على قدرته بأحوال النباتات، استدلل عليها بأحوال الحيوانات بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أيها الناس ﴿فِي﴾ أحوال ﴿الْأَنْعَامِ﴾ وعجائب الأزواج الثمانية: الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، والله ﴿لَعِبْرَةٌ﴾ وحجة واضحة على قدرة خالقها ولطيف حكمته، فإن من عجائب أحوالها أنا ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا﴾ يتكون ﴿فِي بُطُونِهَا﴾ وضروعها من الألبان، أو مما في أجوافها من العلف بعد تَكُونِ اللبن منه ﴿وَلَكُمْ﴾ مع ذلك ﴿فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من أشعارها وأصواتها وأوبارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وبلحومها وأعيانها تتفغون، كما تتفغون بما يحصل منها ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البراري والجبال ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ والسفن في البحار والشطوط ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وتزكبون وتتقلون من بلد إلى بلد.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ [٢٣ و ٢٤]

ثم شرع سبحانه في بيان أحوال الأمم الماضية وعدم اعتبارهم بتلك العبر، وعدم تفكيرهم في عجائب الخلق، وعدم تذكرهم بتذكير الرسل، حتى استحقوا نزول العذاب عليهم لغفلتهم وشركهم، فابتدأ بذكر قصة قوم نوح، ليكونها أقدام القصص وأعظمها وأنسبها بذكر الفلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

٢. التهذيب ٦: ٦٩/٣٤، تفسير الصافي ٣: ٣٩٧.

١. مجمع البيان ٧: ١٦٥، تفسير الصافي ٣: ٣٩٧.

٣. التهذيب ٦: ٥١/٢٣، تفسير الصافي ٣: ٣٩٧.

نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴿لِيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ﴾ فَقَالَ ﴿دَاعِيًا لَهُمْ بِاللُّطْفِ وَلِإِنِ الْقَوْلُ بِمَا أَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِعِظَانِهِمُ النَّعْمَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا فِي الْآلُوْهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ، لِأَنَّهُ مَا لَكُمْ﴾ فِي عَالَمِ الْوُجُودِ ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾ وَمَعْبُودٍ مُسْتَحَقٍّ لِلْعِبَادَةِ ﴿غَيْرُهُ﴾ تَعَالَى، لِأَنَّهُ كُلُّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقُونَ لَهُ وَمَرْبُوتُونَ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وَلَا تَخَافُونَ أَن يَسْلُبَ عَنْكُمْ نِعْمَهُ وَيُنْزِلَ عَلَيْكُمْ عَذَابَهُ ﴿فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ وَالْأَشْرَافُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللَّهِ ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ لِاتِّبَاعِهِمُ وَالسَّيْلَةَ مِنْهُمْ، تَوَهَّنَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَطَّأَ لَهُ عَنْ قَابِلِيَّةِ الرِّسَالَةِ، وَحَتَّى لَهُمْ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْهُ ﴿مَا هَذَا﴾ الرَّجُلُ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ خَلَقًا وَخَلْقًا وَأَعْمَالًا، لَا مَزِيَّةَ لَهُ عَلَيْكُمْ ثُوْجِبَ أَنْ يَخْتَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِهَذَا الْمُنْصِبِ، وَمَعَ ذَلِكَ ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ﴾ وَيَتَفَوَّقَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بِإِعْزَازِ الرِّسَالَةِ، وَيَجْعَلَكُمْ أَتْبَاعَهُ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إِسْرَافَ رَسُوْلٍ ﴿لَأَنْزَلَ﴾ مِنْ السَّمَاءِ ﴿مَلَائِكَةً﴾ بِالرِّسَالَةِ إِلَيْكُمْ مِنْ قَبْلِهِ لِأَقْرَبِيَّةِ قَوْلِهِمْ إِلَى الْقَبُولِ، وَكَوْنِهِمْ مُطِيعِينَ لَهُ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ الَّذِي يَدْعِيهِ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ رِسَالَةِ الْبَشَرِ وَتَوْحِيدِ الْمَعْبُودِ ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وَكُتْرَانَا الْمَاضِيْنَ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ لِلْإِفْرَاطِ فِي تَكْذِيبِهِ وَعِنَادِهِ، أَوْ لِطَوَّلِ الْفِتْرَةِ بَيْنَ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي كَانَ نَبِيًّا ظَاهِرًا وَبَيْنَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَرَبَّضُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ * قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كُذِّبْتُ
 * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ أَفْلُكَ بِأَعْيُنِنَا فَاذًا جَاءَ أَهْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ
 فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا
 تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * فَاذًا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى
 أَفْلُكٍ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي
 مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ [٢٥-٢٩]

ثُمَّ بِالْقَوْلِ فِي تَوْهِينِهِ وَتَكْذِيبِهِ يَقُولُ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ وَاخْتِلَالُ عَقْلٍ، وَلِذَا يَقُولُ مَا يَقُولُ خِلَافًا لِأَكْثَرِ النَّاسِ ﴿فَرَبَّضُوا بِهِ﴾ وَاصْبِرُوا عَلَى مَا يَقُولُهُ وَانْتَظِرُوا ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ مَوْتَهُ فَتَسْتَرْيَحُونَ مِنْهُ، أَوْ انْتَظِرُوا إِلَى وَقْتِ إِفَاقَتِهِ مِنَ الْجُنُونِ، فَيَكْفُ عَنْ أَبَاطِيلِهِ، فَلَمَّا بَيَّسَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ إِيْمَانِهِمْ وَعَالَ صَبْرَهُ^٢ عَلَى إِيْدَانِهِمْ ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبِينَ بِتَعْجِيلِكَ فِي إِهْلَاكِهِمْ بِالْعَذَابِ جَزَاءً ﴿بِمَا كُذِّبْتُ﴾ وَنَسَبْتَهُمْ إِيَّايَ إِلَى الْجُنُونِ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ إِجَابَةً لِدَعَائِهِ ﴿أَنْ﴾ يَانُوحُ ﴿اصْنَعْ

الْفُلْكَ^١ مَتَلَبَسًا^٢ بِأَعْيُنِنَا^٣ وَحَفِظْنَا إِيَّاكَ مِنْ أَنْ تَحْطِيَءَ فِي صُنْعِهَا، وَمِنْ أَنْ يُفْسِدَهَا عَلَيْكَ مُفْسِدٌ^٤ وَوَحَيْنَا^٥ إِلَيْكَ كَيْفَيَّةَ صُنْعِهَا، وَتَعْلِيمُنَا إِيَّاكَ عَمَلَهَا وَتَسْوِيَّتَهَا. روي أنه أوحى إليه أن يُصَنِّعَهَا عَلَى مِثَالِ الْجُجُرْ^٦.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا^٧ وَاقْتَرَبَ تَرُّوْلُ عَذَابِنَا عَلَى الْقَوْمِ^٨﴾ وَفَارَ التَّنُّورُ^٩ وَاشْتَدَّ غَلْيَانُ الْمَاءِ مِنْهُ، قِيلَ: كَانَ تَنُّورُ آدَمَ^{١٠}، وَكَانَ مِنَ الْحِجَارَةِ. وعن ابن عباس: التَّنُّورُ وَجْهُ الْأَرْضِ^{١١}. وقيل: أَعْلَى الْأَرْضِ^{١٢}. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أَي طَلَعَ الْفَجْرُ»^{١٣}.

﴿فَاسْأَلْكَ^{١٤} فِي الْفُلْكِ وَأَدْخَلَ فِيهَا^{١٥} حَيْثَ مِنْ كُلِّ^{١٦} مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِاتِ^{١٧} وَزَوَّجْنِي^{١٨} وَفَزَوَّجْنِي^{١٩} مُزْدَوَّجِينَ^{٢٠} اثْنَيْنِ^{٢١}﴾ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، لِئَلَّا يَنْقَطِعَ نَسْلُهَا ﴿و﴾ أَدْخَلَ فِيهَا ﴿أَهْلُكَ﴾ وَأَقَارِبَكَ مِنَ الزَّوْجَةِ وَالْأَوْلَادِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ وَقَضِيَ عَلَيْهِ بِالْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ ﴿مِنْهُمْ﴾ كَزَوْجَتِهِ وَاعِلَةٍ، وَابْنِهِ كَتَعَانَ عَلَى مَا قِيلَ^{٢٢} ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي﴾ وَلَا تُكَلِّمْنِي ﴿فِي﴾ نَجَاةِ الْكُفَّارِ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَنْفُسَهُمْ بِالشَّرْكِ وَالطُّغْيَانِ وَلَا تَشْفَعْ لَهُمْ ﴿إِنَّهُمْ﴾ لَا مَحَالَةَ ﴿مُغْرَقُونَ﴾ لِعَدَمِ قَابِلِيَّتِهِمْ^{٢٣} لِقَبُولِ الشَّفَاعَةِ فِي حَقِّهِمْ.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ^{٢٤} وَعَلَوْتَ^{٢٥} أَنْتَ﴾ يَا نُوحُ ﴿وَمَنْ مَعَكَ﴾ مِنْ أَهْلِكَ وَأَشْيَاعِكَ ﴿عَلَى الْفُلْكِ﴾ وَرَكَّبْتَهُمْ فِيهَا ﴿فَقُلْ﴾ شُكْرًا لِي وَنِئَاءً عَلَى إِنْعَامِي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْ﴾ عَشْرَةِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿فَإِنَّ النِّجَاةَ مِنْ عَشْرَتِهِمْ وَصَحْبِهِمْ وَمَجَاوَرَتِهِمْ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَقُلْ ﴿جِئِ الدُّخُولَ فِي السَّفِينَةِ، أَوْ جِئِ الْخُرُوجَ مِنْهَا، أَوْ فِي الْحَالَيْنِ: رَبِّ أَنْزِلْنِي﴾ فِي السَّفِينَةِ، أَوْ فِي الْأَرْضِ مِنْهَا ﴿مُنْزَلًا مُبَارَكًا﴾ وَأَنْزَالًا مُسْتَتَبِعًا لِكُلِّ خَيْرٍ.

قيل: الْإِنْزَالُ الْمُبَارَكُ هُوَ الْوُرُودُ فِي مَنْزِلٍ مَأْمُونٍ مِنَ الْهَوَاجِسِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِيَّةِ^{٢٦}.
﴿وَأَنْتَ﴾ يَا رَبِّ ﴿خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾^{٢٧} فَبَارَكَ فِيهِمْ حَيْثُ جَعَلَ جَمِيعَ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ نَسْلِهِ وَنَسْلِ مَنْ كَانَ مَعَهُ، وَإِنَّمَا خَصَّه اللَّهُ بِالْأَمْرِ بِالْحَمْدِ وَالِدُّعَاءِ لِكُونِهِ إِمَامًا لِمَنْ مَعَهُ، فَكَانَ قَوْلُهُ قَوْلَهُمْ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْإِشْعَارِ بِبُكُوتِهِ وَعَظَمَةِ اللَّهِ وَكِبَرِيَاءِ رُبُوبِيَّتِهِ الْمُقْتَضِيَةِ لِعَدَمِ خِطَابِهِ إِلَّا إِلَى مَلِكٍ مُقَرَّبٍ أَوْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، وَفِي النَّهْيِ عَنْ شَفَاعَتِهِ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ وَالْأَمْرِ بِالْحَمْدِ عَلَى النِّجَاةِ مِنْهُمْ مُبَالَغَةٌ فِي تَقْيِيهِهِمْ

٢. تفسير روح البيان ٦: ٧٩.

٤-٦. تفسير الرازي ٢٣: ٩٤.

٨. يريد عدم استحقاقهم.

١٠. هود: ٤٨/١١.

١. في تفسير روح البيان ٦: ٧٩؛ ملتبساً.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٨٠.

٧. تفسير روح البيان ٦: ٨٠، وفيه: وأمه واعلة.

٩. تفسير روح البيان ٦: ٨٠.

وَشِدَّةِ اسْتِحْقَاقِهِمُ الْعَذَابَ.

عن ابن عباس: كَانَ فِي السَّفِينَةِ ثَمَانُونَ إِنْسَانًا: نُوحٌ وَامْرَأَتُهُ [سُورَةُ النُّوحِ] الَّتِي عَرَفْتُمْ، وَثَلَاثَةُ بَنِينَ: سَامٌ، وَحَامٌ، وَيَافِثٌ، وَثَلَاثَ نِسْوَةٍ لَهُمْ، وَاثْنَانِ وَسِتُّونَ إِنْسَانًا، فَكُلُّ الْخَلَائِقِ نَسْلٌ مَن كَانَ فِي السَّفِينَةِ^١.
 قِيلَ: عَلَّمَكُمُ [اللَّهُ] أَنْ تَقُولُوا عِنْدَ الرُّكُوبِ فِي السَّفِينَةِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمَرْسِيهَا﴾^٢ وَعِنْدَ الرُّكُوبِ الدَّابَّةِ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا [وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ]﴾^٣ وَعِنْدَ التَّرْوِيلِ: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلَ مُبَارَكًا [وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ]﴾^٤.

«وفي (القصية): قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: «يَا عَلِيُّ، إِذَا نَزَلْتَ مُنْزَلًا فَقُلْ: (اللَّهُمَّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) تَرْزُقَ خَيْرَهُ وَيُدْفَعَ شَرَّهُ»^٥.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ [٣٠]

ثُمَّ بَيَّنَّ شُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْعِبَرِ الَّتِي تَكُونُ فِي قِصَّةِ نُوحٍ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْ كَانَ لَهُ الْبَصِيرُ﴾^٦ مِنْ إِنْجَاءِ نُوحٍ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ، وَإِهْلَاكِ الْكَفَّارِ بِالطُّوفَانِ «لَآيَاتٍ» وَدَلَالِ وَاضِحَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا أُولُو الْأَبْصَارِ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعَظَمِيَّتِهِ وَشِدَّةِ غَضَبِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ وَالْمُشْرِكِينَ بِهِ، وَكَمَالِ لَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ عَلَى مُجِبِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ «وَإِن» الشَّأْنُ إِنَّا «كُنَّا» بِتِلْكَ الْآيَاتِ «لَمُبْتَلِينَ» وَمُخْتَبَرِينَ عِبَادَنَا لِنَنْظُرَ مَنْ يَغْتَبِرُ وَمَنْ لَا يَغْتَبِرُ، أَوْ مُبْتَلِينَ قَوْمَ نُوحٍ بِبَلَاءٍ عَظِيمٍ وَعِقَابٍ شَدِيدٍ، أَوْ كُنَّا مُعَاقِبِينَ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ فِي تَكْذِيبِ الرُّسُلِ.

عن أمير المؤمنين ﷺ «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَادَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ، وَلَمْ يُعَذِّبْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾»^٧.

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَأُتْرِفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا

١. تفسير الرازي ٢٣: ٩٥.

٢. هود: ١١/٤١.

٣. الزخرف: ٤٣/١٣.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٩٥.

٥. في النسخة: قضية.

٦. من لا يحضره الفقيه ٢: ٨٨٧/١٩٥، تفسير الصافي ٣: ٣٩٩.

٧. نهج البلاغة: ١٥٠ الخطبة ١٠٣، تفسير الصافي ٣: ٣٩٩.

لَخَاسِرُونَ [٣١-٣٤]

ثُمَّ ذَكَرَ سبحانه قصة هُودَ وَقَوْمِهِ ازدياداً للعبارة بقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ وَخَلَقْنَا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ وَهُمْ قَوْمٌ عَادٌ، كما عن ابن عباس وجماعة^١، لأنهم بعد قوم نوح. وقيل: هم ثمود لأنهم الذين هلكوا بالصيحة^٢ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾ كَانَ ﴿مِنْهُمْ﴾ نَسَبًا، فَدَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ أَوَّلًا بقوله: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وَخَدَّه لِأَنَّهُ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وَمُسْتَحَقٌّ لِلْعِبَادَةِ سِوَاهُ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ رَبَّكُمْ وَلَا تَحَافُونَ عَذَابَهُ عَلَى الشِّرْكِ.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ وَالْكِبَرَاءِ وَالْأَشْرَافِ مِنْ قَبِيلَتِهِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللَّهِ ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَدَارِ الْآخِرَةِ﴾ وَالْبَغْيِ لِلْجَزَاءِ ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ وَأَكْثَرْنَا عَلَيْهِمْ نِعْمًا ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَمُدَّةِ أَعْمَارِهِمْ فِيهَا لِقَاءَ لِلشَّهَةِ فِي قُلُوبِ أَتْبَاعِهِمْ وَاضْلَالِهِمْ: ﴿مَا هَذَا﴾ الرَّجُلُ الْمَدْعَى لِلرَّسَالَةِ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْأَفْعَالِ وَالْحَاجَةِ إِلَى الْغِذَاءِ وَالشَّرَابِ لِمَا تَرَوْنَ أَنَّهُ ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ مِنَ الْأَطْعِمَةِ﴾ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ مِنْهُ مِنَ الْأَشْرَبِ، فَلَا فَضِيلَةَ لَهُ عَلَيْكُمْ يَسْتَحِقُّ بِهَا الرِّسَالَةَ دُونَكُمْ ﴿وَوَاللَّهِ﴾ لَئِنْ أَطَعْتُمْ وَاتَّبَعْتُمْ ﴿بَشَرًا﴾ فِيمَا يَقُولُ مَعَ كَوْنِهِ ﴿مِثْلَكُمْ﴾ فِي الْفَضْلِ ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ وَمُتَضَرَّرُونَ بِاتِّبَاعِهِ لِإِذْلَالِكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَهُ بِلَا نَفْعٍ عَائِدٍ إِلَيْكُمْ.

أَيَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ * هِيَ هَاتِ هَاتِ لِمَا تُوْعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيبَهُمْ نَادِمِينَ * فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً فَبَعْدُ لِلْفُجُورِ الظَّالِمِينَ [٣٥-٤١]

ثُمَّ بِالْعَوَا فِي تَنْفِيرِ النَّاسِ عَنْ أَتْبَاعِهِ بِتَسْفِيهِهِ وَتَهْجِينِ قَوْلِهِ بِالْبَغْيِ بقولهم: ﴿أَيَعِدُّكُمْ﴾ بِمَا قَوْمُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَأَقْبِرْتُمْ وَكُنْتُمْ فِي قُبُورِكُمْ بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ ﴿تُرَابًا﴾ وَ﴿وَعِظَامًا﴾ نَجْرَةً مُخْرَجَةً عَنِ اللَّحْمِ وَالْعَصَبِ ﴿أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءَ كَمَا كُنْتُمْ ﴿هِيَ هَاتِ هَاتِ﴾ وَبَعْدَ بَعْدٍ فِي الْعَقْلِ وَالْعَادَةِ ﴿لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ مِنَ الْإِحْيَاءِ ثَانِيًا بِتِلْكَ الْأَبْدَانِ الْأُولَى، لَا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا. قيل: لِمَا اسْتَبَعَدُوا بِكَلِمَةِ ﴿هِيَ هَاتِ﴾ كَأَنَّهُ قِيلَ: لِمَا اسْتَبَعَدُكُمْ؟ قيل: لِمَا تُوْعَدُونَ^٣.

١. تفسير الرازي ٢٣: ٩٧، تفسير روح البیان ٦: ٨١. ٢. تفسير الرازي ٢٣: ٩٧.

٣. تفسير البيضاوي ٢: ١٠٤، تفسير أبي السعود ٦: ١٣٤، تفسير روح البیان ٦: ٨٢.

ثُمَّ بِالْعَوَا فِي إِنْكَارِ الْمَعَادِ يَقُولُهُمْ: ﴿إِنْ﴾ الْحَيَاةُ وَمَا ﴿هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، يَعْنِي «تَمُوتُ» فِيهَا وَتَفْنَى، وَلَا حَيَاةَ بَعْدَهَا وَتَوَلَّدَ «وَتَحْيَا» وَتَعِيشُ فِيهَا مَدَّةٌ مُعَيَّنَةٌ «وَمَا نَحْنُ» بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ «بِمَبْنُوثِينَ» وَمُنْشَرِينَ مِنَ الْقُبُورِ، كَمَا يَزْعُمُ هَذَا الرَّجُلُ «إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى» وَاخْتَرَعَ «عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» صَرِيحًا فِي مَا يَدْعِيهِ مِنْ إِسْأَالِهِ إِلَيْنَا وَبَعَثَكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ «وَمَا نَحْنُ لَهُ» فِي مَا يَقُولُ «بِیُؤْمِنِينَ» وَمُصَدِّقِينَ، فَلَمَّا يَسَّ هُودُ أَوْ صَالِحٌ مِنْ إِيْمَانِهِمْ «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي» عَلَى قَوْمِي «يَمَّا كَذَبُوا» وَتَسْبُوبِي إِلَى الْفِرْيَةِ «قَالَ» تَعَالَى إِبْرَاهِيمُ لِدَعَائِهِ: اَعْلَمْ أَنَّ قَوْمَكَ «عَمَّا قَلِيلٍ» مِنَ الزَّمَانِ وَفِي أَسْرَعِ الْوَقْتِ، وَاللَّهُ «لَيُضِلَّحَنَ» وَلَيَبْصِرَنَّ «نَادِيَيْنِ» عَلَى كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ بِمَعَانِيَةِ الْعَذَابِ «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ» الَّتِي صَاحَ بِهَا جِبْرِيلُ مِنَ السَّمَاءِ، عَلَى مَا قِيلَ^١ «بِالْحَقِّ» وَالْعَدْلِ، أَوْ بِغَيْرِ دَافِعٍ، فَتَصَدَّعَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ.

وعن ابن عباس: الصَّيْحَةُ هِيَ الرَّجْفَةُ، وَقِيلَ: هِيَ نَفْسُ الْعَذَابِ وَالْمَوْتِ، كَمَا يُقَالُ فِي مَنْ يَمُوتُ: إِنَّهُ دُعِيَ فَأَجَابَ^٢. وَقِيلَ: هِيَ الْعَذَابُ الْمُضْطَلَمُ^٣.

«فَجَعَلْنَاهُمْ» وَصَرَّيْنَاهُمْ بِتِلْكَ الصَّيْحَةِ «غُثَاءً» وَيَثَلُ حَمِيلٍ سَيْلٍ مِنَ الزَّبَدِ وَالْحَشَائِشِ الْبَالِيَةِ الْمُسَوَّدَةِ فِي تَبَدُّدِ الْأَجْزَاءِ وَبِلَاهَا.

عن الباقر عليه السلام «الْغُثَاءُ: الْيَابِسُ الْهَامِذُ مِنْ ثَبَاتِ الْأَرْضِ»^٤. وَقِيلَ: إِنَّهُ كُنَايَةٌ عَنْ هَلَاكِهِمْ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ لِمَنْ هَلَكَ: سَالَ بِهِ الْوَادِي^٥. «فَتُبْعِدُوا» مِنَ الْخَيْرَاتِ، وَلَعْنًا دَائِمًا، أَوْ سُخْقًا وَهَلَاكًا «لَلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ
* ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا
وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعْدَ لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ
بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ *
فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنْ

الْمُهْلَكِينَ [٤٢-٤٨]

١. تفسير الرازي ٢٣: ٩٩، تفسير الصافي ٣: ٤٠٠.
٢. تفسير القمي ٢: ٩١، تفسير الصافي ٣: ٤٠٠.
٣. تفسير الرازي ٢٣: ٩٩.
٤. تفسير البيضاوي ٢: ١٠٤، تفسير روح البيان ٦: ٨٣.

ثُمَّ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى قَصَصِ الْأُمَمِ الْكَثِيرَةِ الْآخِرِ بقوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا وَاقْنًا ۖ وَآخِرِينَ﴾ كَقَوْمِ لُوطٍ وَشُعَيْبٍ وَغَيْرِهِمْ، وَلَقَدْ كَانَ لِكُلِّ قَرْنٍ وَأُمَّةٍ أَجَلٌ مُقَدَّرٌ مَكْتُوبٌ لِمَوَظِعِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ وَ﴿مَا تَسْقِي مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه.

قيل: يعني لا يَتَقَدَّمُونَ الْوَقْتَ الْمُؤَقَّتَ لِعَذَابِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَلَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ، وَذَلِكَ الْوَقْتُ وَفَتْ عِلْمُ اللَّهِ أَنَّهُمْ لَا يَزِدَادُونَ إِلَّا كُفْرًا وَعِنَادًا، وَلَا يَلْدُونَ إِلَّا فَاجِرًا كَذَابًا، وَلَا نَفْعَ لِأَحَدٍ فِي بَقَائِهِمْ، وَلَا ضَرَرَ عَلَى أَحَدٍ فِي هَلَاكِهِمْ^١.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ كَمَا أَنْشَأَ الْأُمَمَ الْكَثِيرَةَ بَعْضُهُمْ بَعْدَ بَعْضٍ، أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ بقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ﴿رُسُلَنَا﴾ حَالُ كَوْنِهِمْ ﴿تَتَرَا﴾ وَمُتَعَابِقَةً عَلَى نَحْوِ تَعَابِقِ الْأُمَمِ، فَكَانَ لِكُلِّ قَرْنٍ وَأُمَّةٍ رَسُولٌ، وَلَكِنْ ﴿كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهَا كَذَّبُوهُ﴾ وَعَارَضُوهُ ﴿فَاتَّبَعْنَا﴾ الْقُرُونَ ﴿بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ فِي الْإِهْلَاكِ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ بَعْدَ إِهْلَاكِهِمْ وَإِذْهَابِ أَعْيَانِهِمْ وَأَنَارِهِمْ مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ ﴿أَحَادِيثَ﴾ وَحِكَايَاتٍ لِمَنْ بَعْدَهُمْ يَتَخَدُّثُونَ بِهَا فِي أَتَدِلِّيهِمْ، وَيَحْكُونَ قَضَايَاهُمْ، وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، وَيَغْتَبِرُونَ بِهَا. وَقِيلَ: إِنَّهُ جَنَعَ أَخْذُوقَةً، وَهِيَ مَا يَتَخَدَّثُ بِهِ تَلَهُّتًا أَوْ تَعَجُّبًا^٢.

ثُمَّ ذَكَرَهُمْ سُبْحَانَهُ وَوَبَّخَهُمْ بقوله: ﴿فَبُعْدًا﴾ أَبَدِيًّا وَهَلَاكًا دَائِمِيًّا، أَوْ الْمَرَادُ يَكُونُ انْقِطَاعًا أَبَدِيًّا مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِآيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا﴾ بَعْدَ انْقِرَاضِ تِلْكَ الْأُمَمِ وَهَلَاكِهِمْ ﴿مُوسَى وَآخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ التَّسْعَ ﴿وَسُلْطَانِ مُبِينٍ﴾ وَحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ عَلَى رِسَالَتِهِمَا وَصِحَّةِ دَعْوَاهُمَا مِنَ الْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ، أَوْ أُعْظِمَ مُعْجَزَاتِهِ وَهِيَ الْعَصَا، أَوْ الْمَرَادُ مِنْهُ قُوَّةٌ دَلَالَةٌ مُعْجَزَاتِهِمَا عَلَى مُدْعَاهُمَا ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ﴾ وَأَشْرَافِ قَوْمِهِ ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ وَتَعَظَّمُوا مِنْ قَبُولِ قَوْلِهِمَا، وَتَأَنَّفَوْا عَنِ الْإِيمَانِ بِهِمَا وَالاعْتِرَافِ بِمُعْجَزَاتِهِمَا ﴿وَكَانُوا﴾ قَوْمًا عَالِينَ وَمُجَاوِزِينَ عَنِ الْحَدِّ فِي الْكِبَرِ وَالتَّمَرُّدِ وَالطُّغْيَانِ ﴿فَقَالُوا﴾ فِيمَا بَيْنَهُمْ تَكْبَرًا أَوْ نُصْحًا: لَا يَنْبَغِي مِنَّا الْإِيمَانُ بِهِمَا ﴿أَنْتُمْ لَيْسْتُمْ مِثْلَنَا﴾ وَتَبِعَهُمَا، وَالْحَالُ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ هُمْ يَكُونُونَ أَقْرَبَاؤَهُمَا ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ جَمِيعًا ﴿لَنَا عَابِدُونَ﴾ وَكَالْمَمَالِكِ لَنَا خَادِمُونَ. قِيلَ: إِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ يَتَّبِعُ الصَّنَمَ، وَتَبَوَّأَ إِسْرَائِيلَ كَانُوا يَتَّبِعُونَهُ^٣ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ مُصِرِّينَ عَلَى مُعَارَضَتِهِمَا حَتَّى يَسْأَلَ مِنْ إِيْمَانِهِمْ ﴿فَكَانُوا﴾ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمَا مَحْكُومِينَ بِكَوْنِهِمْ ﴿مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بِالْفَرْقِ فِي الْبَحْرِ.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا آيَاتٍ مَرِئَةً وَأُمَّةً آيَةً

وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى زَيْتُونَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ [٥٠ و ٤٩]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِخْبَارِهِ بِسَخَطِهِ عَلَى مُكَذِّبِي مُوسَى، أَخْبَرَ بِطُغْيَانِهِ بِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ فِي الطُّورِ لُطْفًا بِهِ وَبِأَمْنِهِ ﴿الْكِتَابَ﴾ الْمَعْقُودَ الْمَسْمُومَ بِالتَّوْرَةِ بَعْدَ إِخْلَاكِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَانْجَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بِذَلِكَ الْكِتَابِ وَبِمَا فِيهِ مِنَ الْعُلُومِ وَالشَّرَائِعِ ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إِلَى كُلِّ حَقٍّ وَخَيْرٍ.

ثُمَّ ذَكَرَ شَبَحَانَهُ أَلْفَاظَهُ بِعِيسَى وَمَرْيَمَ رَغْمًا لِلْيَهُودِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ عِيسَى ﴿ابْنَ مَرْيَمَ﴾ بِسَبَبِ وَلادَتِهِ بِفَتْخِ رُوحِ الْقُدُسِ وَتَكْلُمِهِ فِي الْمَهْدِ وَإِحْرَاءِ الْمُعْجَزَاتِ الْعَظِيمَةِ عَلَى يَدِهِ ﴿وَأَمَّهُ﴾ مَرْيَمَ بِسَبَبِ تَكْلُمِهَا فِي الصُّغَرِ كَاتِبَهَا، عَلَى مَا قِيلَ^١. وَوَعَدَمِ ارْتِضَاعِهَا مِنْ ثَدْيِ قُطٍّ، وَاخْتِيَالِهَا بِغَيْرِ فَحْلٍ ﴿آيَةً﴾ عَظِيمَةً عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِنَا. وَقِيلَ: يَعْنِي جَعَلْنَاهُمَا عِبْرَةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُوسَى^٢ ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا﴾ وَأَسْكَنَاهُمَا بَعْدَ فِرَارِهِمَا مِنَ الْيَهُودِ ﴿إِلَى زَيْتُونَةٍ﴾ وَمَكَانٍ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ. قِيلَ: هُوَ إِيْلِيَا مِنْ أَرْضِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَإِنَّهَا مُرْتَفِعَةٌ^٣. وَقِيلَ: إِنَّهَا كَيْدُ الْأَرْضِ^٤. وَقِيلَ: هُوَ قَرْيَةٌ نَاصِرَةٌ^٥ كَانَتْ ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ وَائِسَاطٍ تَسْهَلُ السُّكُوتَةُ فِيهَا، أَوْ ذَاتِ ثِمَارٍ وَزُرُوعٍ ﴿وَذَاتِ مَعِينٍ﴾ وَمَاءٍ جَارٍ. عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «الرَّيْبُوتَةُ: نَجَفُ الْكُوفَةِ، وَالْمَعِينُ الْفَرَاتُ»^٦. قِيلَ: إِنْ مَرْيَمَ وَعِيسَى وَيُوشَعَ بْنِ مَائَانَ ابْنِ عَمَّاهُ، أَقَامُوا بِهَا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَتْ تُقْتَلُ الْحَبْلُ وَعِيسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يَبِيعُهُ وَيَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهِ^٧. رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) صَلَّى الصُّبْحَ بِمَكَّةَ فَقَرَأَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا أُنِيَ عَلَى ذِكْرِ عِيسَى وَأَمَّهُ أَخَذَتْهُ شَرَفَةٌ فَرَكَعَتْ^٨. قِيلَ: الشَّرَفَةُ: شِدَّةُ الْبُكَاءِ.

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّى جِيئَ [٥١- ٥٤]

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَكْلِيفِ الْأَنْبِيَاءِ تَهْيِيجًا لِلْعِبَادِ عَلَى الْعَمَلِ بِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وَالْمَأْكُولَاتِ ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ وَالْأَغْذِيَةِ الْمُسْتَلَذَاتِ الْمَحَلَّلَاتِ ﴿وَاعْمَلُوا﴾ شَرًّا كُلَّمَا كَانَ ﴿صَالِحًا﴾ فَإِنَّهُ الْمَقْصُودُ مِنْكُمْ وَالنَّافِعُ لَكُمْ ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ﴿عَلِيمٌ﴾ فَاجْازِيَهُمْ

٢-٥. تفسير روح البيان ٦: ٨٦.

١. تفسير الرازي ٢٣: ١٠٢.

٦. كامل الزيارات: ٥٤٧، التهذيب ٦: ٧٩/٣٨، تفسير الصافي ٣: ٤٠١.

٧ و ٨. تفسير روح البيان ٦: ٨٦.

عَلَيْهِ ﴿وَإِنَّ هَذِهِ الْعَمَلَةُ الَّتِي هِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ وَالتَّوْحِيدِ﴾ **﴿أُتِّكْتُمْ﴾** وَمِلَّتْكُمْ حَالُ كَوْنِهَا **﴿أُمَّةٌ﴾** وَمِلَّةٌ **﴿وَاحِدَةٌ﴾** وَشَرِيعَةٌ مُتَّحِدَةٌ فِي الْأَصُولِ وَإِنْ اختلفت في الفُرُوعِ.

وقيل: كَلِمَةٌ (هَذِهِ) إِيضَارَةٌ إِلَى جَمَاعَةِ الْأُمَمِ الْمُؤْمِنَةِ بِالرُّسُلِ، وَالْمَعْنَى: إِنَّ هَذِهِ الْجَمَاعَةَ الْمُتَّفِقَةَ عَلَى الْإِيمَانِ بِالتَّوْحِيدِ وَالرُّسُلِ الْمُتَّحِدَةَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ أُتِّكْتُمْ^١ **﴿وَأَنَّا﴾** وَخَدِي **﴿رَبُّكُمْ﴾** لَا شَرِيكَ لِي فِي الْأَلُوْهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ، إِذَا **﴿فَاتَّقُوا﴾** أَيُّهَا الرُّسُلُ وَالْأُمَمُ جَمِيعاً فِي اخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ فِي التَّوْحِيدِ وَالذِّينِ **﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾** وَدِينَهُمْ **﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾** وَقِطْعاً، وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ^٢ **﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾** وَفِرْقَةٍ مِنَ الْفِرَقِ **﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾** وَاخْتَارُوهُ مِنَ الذِّينِ **﴿فَرَحُونَ﴾** وَمُعْجِبُونَ، لِاعْتِقَادِهِمْ حَقَاقِيَّتَهُ **﴿فَلَزَهُمْ﴾** وَدَعَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ **﴿فِي غَمَرَتِهِمْ﴾** وَجَهَالَتِهِمْ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِمْ كَالْمَاءِ الَّذِي ارْتَمَسُوا فِيهِ، وَلَا تَشْغَلُ قَلْبَكَ بِهِمْ وَيَتَفَرَّقُوا **﴿حَتَّى حِينٍ﴾** مَوْتِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، أَوْ قَتْلِهِمْ، أَوْ نُزُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ، وَفِيهِ وَعَيْدٌ لَهُمْ وَتَسْلِيَةٌ لِلرُّسُلِ، وَفِي تَنْكِيرٍ **﴿حِينٍ﴾** وَإِنْهَاءٍ الْوَقْتِ بِهَيَاةِ التَّهْوِيلِ.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِينَ * تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ [٥٦ و ٥٥]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْكَفَّارُ يَفْتَحِرُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ الْمَالِ وَالْبَيْنِينَ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّ تَنْعُمَهُمْ بِتِلْكَ النِّعَمِ لِقُرْبِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَالتَّزَامِهِمْ بِدِينِ الْحَقِّ، أَنْكَرَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ الْحِسَابَ بِقَوْلِهِ: **﴿أَيَحْسَبُونَ﴾** وَيَتَوَهَّمُونَ **﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ﴾** وَتَقْوِيَهُمْ **﴿بِهِ مِنْ مَّالٍ﴾** عَظِيمٍ **﴿وَبَيْنِينَ﴾** كَثِيرَةً أَنَا **﴿تُسَارِعُ﴾** وَتُعَجِّلُ **﴿لَهُمْ﴾** بِهَذَا الْإِمْدَادِ **﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾** وَالْمَثُوبَاتِ وَالْأَجْرِ عَلَى تَذْيِينِهِمْ بِدِينِ الْحَقِّ وَعَمَلِهِمْ بِهِ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَحْسَبُونَ **﴿بَلْ﴾** هَذَا الْحِسَابُ لِأَنَّهُمْ **﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾** أَنَّ هَذَا الْإِمْدَادَ اسْتِدْرَاجٌ وَاسْتِجْرَارٌ بِهِمْ إِلَى الشَّرِّ وَزِيَادَةِ الْإِثْمِ، لَا مُسَارَعَةٌ لَهُمْ إِلَى الْخَيْرِ.

روي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى نَبِيٍِّّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: أَيْفَرَحُ عَبْدِي أَنْ أُبْسِطَ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ أَبْعَدُ لَهُ مِنِّي؟ أَيْجَزُ عَبْدِي أَنْ أَقْضِيَ عَنْهُ الدُّنْيَا وَهُوَ أَقْرَبُ لَهُ مِنِّي؟ ثُمَّ قَالَ: **﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ﴾** إِلَى آخِرِهِ^٣. وعن الصادق عليه السلام عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى] يَقُولُ: يَخْزُنُ عَبْدِي الْمُؤْمِنُ إِذَا أَفْتَرْتُ عَلَيْهِ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ أَقْرَبُ لَهُ مِنِّي، وَيَفْرَحُ إِذَا بَسَطْتُ لَهُ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ أَبْعَدُ لَهُ مِنِّي، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ فِتْنَةٌ لَهُمْ»^٤.

١. تفسير أبي السعود ٦: ١٣٨.

٢. في تفسير الآية ٩٣.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٩٠.

٤. مجمع البيان ٥: ١٧٥، تفسير الصافي ٣: ٤٠٣.

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ *
وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ
إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ [٥٧-٦١]

ثُمَّ وَصَفَ سُبْحَانَهُ الَّذِينَ يُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ» وَمَهَابَتِهِ وَخَوْفِ عَذَابِهِ «مُشْفِقُونَ» وَوَجَلُونَ، أَوْ مُرْتَعِدُونَ. وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْخَشْيَةِ نَفْسَ الْعَذَابِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ خَائِفُونَ^١. وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْإِشْفَاقِ شِدَّةُ الْخَوْفِ^٢. وقيل: هُوَ الدَّوَامُ فِي الطَّاعَةِ^٣.

«وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ» وَخِدَائِيَّةِ «رَبِّهِمْ» الْآفَاقِيَّةِ وَالْأَنْثَسِيَّةِ وَالْمُتَزَلَّةِ بِتَوْسِطِ الْأَنْبِيَاءِ وَشَوَاهِدِ كَمَالِ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ «يُؤْمِنُونَ» وَيَصْدُقُونَ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ «وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ» فِي الْأَلْوَهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ «لَا يُشْرِكُونَ» غَيْرَهُ شِرْكًا حَلِيلًا أَوْ خَفِيًّا، وَلَا يَفْصِدُونَ بِأَعْمَالِهِمْ غَيْرَهُ، وَلَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَىٰ سِوَاهُ «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ» وَيُعْطُونَ «مَا آتَوْا» وَأَعْطَوْا مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ وَغَيْرِهَا مِنْ حَقَقِ اللَّهِ، وَمِنْ الْأَمَانَاتِ وَالذُّيُونِ وَغَيْرِهَا مِنْ حَقَقِ النَّاسِ «وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ» وَخَائِفَةٌ أَوْ مُرْتَعِدَةٌ مِنْ تَقْصِيرِهِمْ وَإِخْلَالِهِمْ فِي الْأَدَاءِ بِتَنْقِصٍ أَوْ غَيْرِهِ، لِيَكُونَهُمْ مُتَعَتِدِينَ «أَنَّهُمْ» بَعْدَ الْمَوْتِ «إِلَىٰ رَبِّهِمْ» وَمِلِكِهِمْ «رَاجِعُونَ» وَعَنْ تَقْصِيرَاتِهِمْ مَسْزُولُونَ، لِيَعْلَمِيَهُ تَعَالَىٰ بِمَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخَلَلِ وَيُؤَاخِذَهُمْ عَلَيْهِ.

عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ سَبَّلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: «هِيَ إِشْفَاقُهُمْ وَرَجَاؤُهُمْ؛ يَخَافُونَ أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ إِنْ لَمْ يُطِيعُوا اللَّهَ عَزَّ ذِكْرُهُ وَيَرْجُونَ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ»^٤.

وعنه عليه السلام: «وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ» معناه خائفةٌ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْهُمْ»^٥. وفي رواية: «يُؤْتِي مَا آتَىٰ وَهُوَ خَائِفٌ رَاجٍ»^٦.

وعنه عليه السلام في هذه الآية: «يَعْمَلُونَ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ وَهُمْ يَتَلَمَّحُونَ أَنَّهُمْ يَتَأْتُونَ عَلَيْهِ»^٧.
وعنه عليه السلام في رواية: «أَلَا وَمَنْ عَرَفَ حَقَّنًا، وَرَجَا الثَّوَابَ فِينَا، وَرَضِيَ بِقُورَتِهِ نَصْفَ مَدٍّ فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَمَا سَتَرَ عَوْرَتَهُ، وَمَا أَكَنَّا رَأْسَهُ، وَهُمْ وَاللَّهِ فِي ذَلِكَ خَائِفُونَ، وَدُؤَا أَنَّهُ حَظُّهُمْ مِنَ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فَقَالَ: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا» إِلَىٰ آخِرِهِ».

ثُمَّ قَالَ: «مَا [الَّذِي] آتَوْا؟ وَاللَّهِ الطَّاعَةُ مَعَ الْمَحَبَّةِ وَالْوَلَايَةِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَائِفُونَ، لَيْسَ خَوْفُهُمْ

٤. الكافي ٨: ٢٢٩/٢٩٤، تفسير الصافي ٣: ٤٠٢.

١- ٣. تفسير الرازي ٢٣: ١٠٦.

٧. المحاسن: ٢٥٢/٢٤٧، تفسير الصافي ٣: ٤٠٢.

٥. مجمع البيان ٧: ١٧٦، تفسير الصافي ٣: ٤٠٢.

خَوْفَ شَلْكَ، وَلَكِنَّهُمْ خَافُوا أَنْ يَكُونُوا مُقْصِرِينَ فِي مَحَبَّتِنَا وَطَاعَتِنَا»^١.

﴿أُولَئِكَ﴾ الْمُتَصِفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ هُمُ الَّذِينَ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ﴿يُسَارِعُونَ﴾ إِلَى نَيْلِ الْمَثُوبَاتِ فِي الدُّنْيَا وَيَقْبَلُونَ ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾ وَالْمَنَافِعِ الْكَثِيرَةِ فِي الدَّارَيْنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ﴾^٢ ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ حَيْثُ عَجَّلَتْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَنَالُوهَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، فَأَثَبَتْ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مَا نَفَاهُ عَنِ الْكُفَّارِ.

وَفِي إِسْنَادِ الْمُسَارَعَةِ إِلَيْهِمْ إِشْعَارٌ بِغَايَةِ اسْتِحْقَاقِهِمْ، فَكَأَنَّ اللَّهَ قَرَّبَ إِلَيْهِمُ الْخَيْرَاتِ حَتَّى يُسَارِعُوا إِلَيْهَا وَيَخَيَّرُوهَا.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْخَيْرَاتِ الطَّاعَاتِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الثَّوَابِ، وَالْمَعْنَى يَجْتَهِدُونَ فِي الطَّاعَاتِ بِأَشَدِّ الشَّوْقِ وَالرَّغْبَةِ، وَهُمْ لِأَجْلِهَا سَابِقُونَ النَّاسَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَذَرِكَهُمُ الْمَوْتُ وَيَبْتَلُوا بِحَسْرَةِ الْفَوْتِ^٣.
عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، لَمْ يَسْبِقْهُ أَحَدٌ»^٤.
أَقُولُ: يَعْنِي هُوَ عليه السلام أَظْهَرَ مَصَادِقِهِ.

وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [٦٢]

ثُمَّ رَغَّبَ سَبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَهَمِّينَ بِالطَّاعَةِ فِيهَا، بِبَيَانِ مِثْقَلِ تَكْلِفِهِمْ بِتَسْهِيلِ تَكْلِيفِهِ وَوَعْدِهِمْ بِالثَّوَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ مِنَ التُّبُوسِ تَكْلِفًا ﴿إِلَّا﴾ مَا كَانَ ﴿وُسْعَهَا﴾ وَدُونَ طَاقَتِهَا بِحَيْثُ لَا تَكُونُ فِي امْتِثَالِهِ مُشَقَّةً عَلَيْهَا ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ مَكْتُوبٌ فِيهِ أَعْمَالُ النَّاسِ أَوْ طَاعَاتُ الْمُسَارِعِينَ وَالسَّابِقِينَ ﴿يَنْطِقُ﴾ وَيُبَيِّنُ الْأَعْمَالَ لِلنَّاطِرِينَ فِيهِ كَالطُّقِيِّ بِهَا حَالُ كَوْنِهِ مُلْتَبِسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ وَالصَّدْقِ وَمُطَابَقَةِ الْوَاقِعِ كَمَا وَكَيْفًا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بِتَنْقِصِ الثَّوَابِ وَازْدِيَادِ الْعِقَابِ.

عَنِ السَّجَّادِ عليه السلام أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ يَكْتُبُ عَلَى غُلَمَانِهِ ذُؤَبِيَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرَ لَيْلَةٍ مِنْهُ دَعَاهُمْ، ثُمَّ أَظْهَرَ لَهُمُ الْكِتَابَ وَقَالَ: «يَا فَلَانُ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا وَلَمْ أَوْدُبْكَ» فَيَقْرَءُونَ أَجْمَعُ، فَيَتَوَمَّ وَسَطَهُمْ وَيَقُولُ: «ارْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ وَقُولُوا: يَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، رُبُّكَ قَدْ أَحْصَى عَلَيْكَ مَا عَمِلْتَ كَمَا أَحْصَيْتَ عَلَيْنَا، وَلَدَيْهِ كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، فَاذْكُرْ ذَلِكَ مَقَامِكَ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّكَ الَّذِي لَا يُظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، فَأَعْفُ وَاصْفَحْ يَغْفِرْ عَنْكَ التَّلِيكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾»^٥ وَيَبْكِي وَيَتَوَحَّجُ^٦.

٢. آل عمران: ١٤٨/٣.

١. الكافي ٢: ١٥/٣٣٠، تفسير الصافي ٣: ٤٠٢.

٤. تفسير القمي ٢: ٩٢، تفسير الصافي ٣: ٤٠٣.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ١٤٠.

٥. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٥٨، تفسير الصافي ٣: ٤٠٣.

٥. النور: ٢٢/٢٤.

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ *
حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا
لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُثَلَّى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ *
مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ [٦٣ - ٦٧]

ثُمَّ دَمَّ سَبْحَانَهُ الْكَفَّارَ عَلَىٰ غَمَلَتِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ﴾ وَغَمَلَةٌ سَاتِرَةٌ لَهَا ﴿مِنْ هَذَا﴾ الْكِتَابِ الَّذِي فِيهِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِمْ، وَقَرَأَتْهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، فَيَجْأَرُونَ عَلَيْهَا، أَوْ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ، أَوْ مِنْ هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ فِيهِ ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ سَيِّئَةٌ آخَرُ كَمُعَادَاةِ الرُّسُولِ، وَالطُّغْيَانِ فِيهِ وَفِي كِتَابِهِ ﴿مِنْ دُونِ﴾ مَا ذُكِرَ مِنَ الشُّرْكِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ الْآخِرَةِ، وَسِوَى ﴿ذَلِكَ هُمْ﴾ بِخُبْثِ ذَاتِهِمْ وَزَدَالَةِ أَخْلَاقِهِمْ ﴿لَهَا عَامِلُونَ﴾ وَعَلَيْهَا مُسْتَمِرُّونَ ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا﴾ وَابْتَلَيْنَا ﴿مُتْرَفِيهِمْ﴾ وَمُسْتَعْبِيهِمْ ﴿بِالْعَذَابِ﴾ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ وَيَسْتَفِيثُونَ، أَوْ بِأَعْلَى صَوْتِهِمْ يَصْجُرُونَ، فَيَقَالُ لَهُمْ تَفْرِيعًا وَتَبْكِيَةً: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ وَلَا تَسْتَفِيثُوا فِي هَذَا الْوَقْتِ الَّذِي هُوَ وَقْتُ إِعْطَاءٍ مَا تَسْتَجِيعُونَ مِنَ الْجَزَاءِ ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ وَلَا تَعَاوَنُونَ عَلَىٰ مَا دَعَمْتُمْ مِنْ الْعَذَابِ، وَلَا تَنْجُونَ مِنْهُ لِأَنَّهُ ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي﴾ الْقُرْآنِيَّةُ ﴿تُثَلَّى﴾ وَتُفْرَأُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿فَكُنْتُمْ﴾ عِنْدَ سَمَاعِهَا ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ مِنْ شِدَّةِ الثُّرَّةِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهَا ﴿تَنكِصُونَ﴾ وَتَرْجِعُونَ الْفَهْقَرَى، وَالْحَالُ أَتُكْمُ^١ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ بِالتَّبَاعِدِ مِنَ الْقُرْآنِ وَمُكَذِّبِينَ ﴿بِهِ﴾.

وقيل: إِنَّ الصَّمِيرَ رَاجِعٌ إِلَى الْحَرَمِ، لِكُونِهِمْ مُفْتَحِرِينَ بِهِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: لَا يَظْهَرُ عَلَيْنَا أَحَدٌ لَنَا أَهْلُ الْحَرَمِ، وَشَهَرَتُهُمْ بِهِ كَافِيَةً عَنْ ذِكْرِهِ^٢.

وقيل: إِنَّ ﴿بِهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿سَامِرًا﴾ وَالْمَعْنَى حَالُ كَوْنِكُمْ بِذِكْرِ الْقُرْآنِ وَبِالطُّغْيَانِ فِيهِ^٣ كُنْتُمْ ﴿سَامِرًا﴾ وَمُتَكَلِّمًا بِاللَّيْلِ. كَمَا قِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَجْتَمِعُونَ بِاللَّيْلِ حَوْلَ الْبَيْتِ وَيَسْمُرُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ بِذِكْرِ الْقُرْآنِ وَالطُّغْيَانِ فِيهِ، وَ﴿تَهْجُرُونَ﴾ وَتَفْحَشُونَ وَتَهْزَوْنَ بِسِنِّيَّتِهِ إِلَى الشُّعْرِ وَالسَّحْرِ وَيَسَبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَالْقَدَحَ فِيهِ.

أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا

٢. تفسير الرازي ٢٣: ١١١.

١. كذا، ولا تناسب النصب في الآية، ولعلها تصحيف (كونكم).

٣. تفسير الرازي ٢٣: ١١١، تفسير أبي السعود ٦: ١٤٣.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ١١١، تفسير أبي السعود ٦: ١٤٣، تفسير روح البيان ٦: ٩٣.

رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ
لِلْحَقِّ كَارِهُونَ [٦٨ - ٧٠]

ثُمَّ وَبَّحَهُمْ سُبْحَانَهُ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾ هذا ﴿الْقَوْلُ﴾ وَالْكَلَامَ النَّازِلَ مِنْ اللَّهِ، وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي وُجُوهٍ عَجَازِهِ، وَبِدَاعَةٍ أَشْلُوهُ، وَلَطَافَةٍ مَعَانِيهِ ﴿أَمْ جَاءَهُمْ﴾ قِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى بَلْ أَجَاءَهُمْ^١ ﴿مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبْعِدُوا إِتْيَانَهُ مِنَ السَّمَاءِ وَيُنْكِرُوهُ، مَعَ أَنَّ إِنْزَالَ الْكُتُبِ وَإِرْسَالَ الرُّسُلِ سُنَّةٌ قَدِيمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ إِنْكَارُهَا؟ فَلَيْسَ لِإِنْكَارِهِمْ كَوْنُ الْقُرْآنِ كَسَائِرِ الْكُتُبِ نَازِلًا مِنَ اللَّهِ وَجْهٌ.

ثُمَّ أَتَكَرَّ عَلَيْهِمْ عَدَمُ إِيْمَانِهِمْ بِالرُّسُولِ يَقُولُ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ بِالصَّدْقِ وَالْأَمَانَةِ وَحُسْنِ الْأَخْلَاقِ وَكَمَالِ الْعِلْمِ مَعَ أَمْنِيَّتِهِ وَغَيْرِهَا مِنْ كِمَالِ الْأَنْبِيَاءِ ﴿فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ وَلِتَبَيَّنَ جَاحِدُونَ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ وَاخْتِلَالُ عَقْلِ، وَلِذَا لَا يُعْنَى يَقُولُهُ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُونَ ﴿بَلْ﴾ هُوَ أَغْفَلَ النَّاسِ وَ﴿جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ وَالَّذِينَ النَّاسِ الَّذِي لَا يَسْتَبْغِي الانْحِرَافَ عَنْهُ ﴿وَلَكِنْ﴾ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ، لِمُخَالَفَتِهِ أَهْوَاءَهُمُ الزَّائِغَةَ وَشَهْوَاتِهِمُ الْبَاطِلَةَ، فَلِذَا تَمَسَّكُوا بِالتَّقْلِيدِ، وَزَاغُوا عَنْ نَهْجِ الْحَقِّ وَالَّذِينَ الْقَوِيمِ، وَأَمَّا الْأَقْلُونَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُمْ أَغْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ لَاسْتِنْكَافِهِمْ مِنْ تَوْبِيخِ قَوْمِهِمْ، أَوْ لِعَدَمِ تَفَكُّرِهِمْ فِيهِ، أَوْ لِقُصُورِ الْعَقْلِ، لَا لِلكَرَاهَةِ لَهُ.

وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ
بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ
خَيْرُ الرَّاغِبِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ [٧١ - ٧٤]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ هَوَى الْمُشْرِكِينَ فِي كُؤُنِ الشِّرْكِ وَدِينِهِمُ الْبَاطِلِ حَقًّا، رَدَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ﴾ وَالَّذِينَ ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ وَمُسْتَهْيَاتِ أَنْفُسِهِمْ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ مُوَافِقًا لِمَلِيقِ قُلُوبِهِمْ فِي الشِّرْكِ وَتَعَدَّدِ الْآلِهَةِ ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالتَّقْلِيلِ، لِمَا سَبَقَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ دَلِيلِ التَّمَانُعِ، أَوْ الْمُرَادِ لَوْ أَتَبَعَ أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ أَهْوَاءَهُمْ مَعَ تَخَالُفِهَا، لَوَقَعَ التَّنَاقُضُ فِيهَا، وَلَا خُتْلَ نِظَامُ الْعَالَمِ.

عن القمي: الحق: رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام ... وفساد السماء: إذا لم تمطر، وفساد الأرض

إذا لم تُثبِت، وفساد الناس في ذلك^١.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ﴾ وأنعمنا عليهم ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾ والقرآن الذي فيه شرفهم وفخرهم وصيتهم، أو وعظهم ونصيحهم، وما فيه صلاحهم. وقيل: هو الذكر الذي كانوا يسمّونه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنْ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾^٢.

﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ﴾ لغاية حمقهم ﴿مُغْرِضُونَ﴾ وبه لا يعتنون، مع أن العاقل مشتاق إلى ما فيه خيره وشرفه ﴿أَمْ﴾ يتوهمون أنك ﴿تَسْأَلُهُمْ﴾ وتطلب منهم ﴿خَرْجًا﴾ وأجرًا على أداء الرسالة، فيمنعهم البخل بالمال، أو اتهامك بكون دعواك الرسالة لجلب المال وحب الدنيا لا لإطاعة الله ﴿فَخَرَجَ رَبُّكَ﴾ ورزقه الذي أوجبه لك على نفسه في الدنيا، وثوابه الذي أعدّه لك في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ من جميع ما بأيديهم من الأموال، بل من جميع الدنيا لسعة عطائه ودوامه ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿خَيْرٌ﴾ الرّازقين ﴿وَالْمُعْطِينَ﴾ لعدم قدرة أحدٍ على مثل عطائه، فلا وجه لاعراضهم عنك وعدم إيمانهم بك ﴿وَإِنَّكَ﴾ والله ﴿لَتَذْعُرُهُمْ﴾ وتهديهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصِل إلى كلّ خير، وتأويله - كما عن القمي - إلى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام^٣.

﴿وَإِنَّ﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولا يخافون عقاب الله في القيامة، لانهماكهم في الشهوات وحب الدنيا ﴿عَنْ﴾ هذا ﴿الْصِّرَاطِ﴾ المستقيم ﴿لَنَّاَكِبُونَ﴾ ولعادلون؛ لأن خوف الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق.

عن الصادق عليه السلام، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله تعالى لو شاء لعرف العباد نفسه، ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله والوجه الذي يوتى منه، فمن عدل عن ولايتنا أو فضل علينا غيرنا، فإنهم عن الصراط لناكبون»^٤.

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاثُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ [٧٧-٧٥]

ثمّ ذمهم الله بغاية اللجاج والتمرد بقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ كالجوع والمرض والقتل والسبي ﴿لَلَجُّوا﴾ وتماذوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ وإفراطهم في الكفر والشقاق وعداوة

١. تفسير القمي ٢: ٩٢، تفسير الصافي ٣: ٤٠٥.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ١١٢، والآية من سورة الصافات: ١٦٩/٣٧.

٣. تفسير القمي ٢: ٩٢، تفسير الصافي ٣: ٤٠٥. ٤. الكافي ١: ٩/١٤١، تفسير الصافي ٣: ٤٠٦.

الرسول حال كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عن الهدى، ويترددون في شُعب الضلال، لا يدرون الى أين يتوجهون ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ وشدة الجوع ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما تذللوا ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم ﴿وَمَا يَنْصَرِعُونَ﴾ له أبداً.

رؤي أنه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي، ولحق باليمامة، ومنع الميرة عن أهل مكة، وأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز^١ - قيل: هو شيء يتخذونه من الدم والور^٢ - وقيل: حتى أكلوا الجيف^٣، جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ في المدينة، فقال: أنشدك بالرحم، ألسنت ترعّم أنك بُعثت رحمة للعالمين؟ فقال: «بلى». فقال: قتل الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع، فادع أن يكشف عنا هذا القحط، فدعا فكشّف عنهم، فأنزل الله هاتين الآيتين^٤.

وقيل: إن المراد بالعذاب القتل والأسر يوم بدر^٥.

وعن الباقر عليه السلام: «الاستكانة: هي الخُضوع، والتضرّع: رفع اليدين والتضرّع بهما»^٦.

وعن الصادق عليه السلام: «الاستكانة: الدعاء، والتضرّع: رفع اليدين في الصلاة»^٧.

وحاصل المراد: أنهم أقاموا على الكفر والاستكبار ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخرة ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وآيسون من النجاة ومن كل خير.

قيل: هو باب من أبواب جهنم، عليه من الخزنة أربعمائة ألف، شوذّ وجوههم، كالحة^٨ أنيابهم، قد قُلعت الرحمة من قلوبهم، إذا بلغوه فتحه الله عليهم^٩.

وعن الصادق عليه السلام: «ذلك حين دعا النبي ﷺ فقال: اللهم اجعل عليهم سنين كسني يوسف، فجاجوا»^{١٠}.

وعن الباقر عليه السلام: «هو في الرجعة»^{١١}.

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ

الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ

أَخْيَالٌ أَتِيلٌ وَالنَّهَارِ أَفْلًا تَعْقِلُونَ [٧٨-٨٠]

٢. تفسير روح البيان ٦: ٩٧.

١. تفسير أبي السعود ٦: ١٤٦، تفسير روح البيان ٦: ٩٧.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ١١٣، تفسير روح البيان ٦: ٩٧.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ١١٣.

٦. الكافي ٢: ٦٣٤٩، تفسير الصافي ٣: ٤٠٦.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٩٨.

٧. مجمع البيان ٧: ١٨١، تفسير الصافي ٣: ٤٠٦.

٩. تفسير روح البيان ٦: ٩٨.

٨. كَلَج: تكثر في عبوس، وقيل: الكلوح في الأصل بدو الأسنان عند العبوس.

١٠ و ١١. مجمع البيان ٧: ١٨١، تفسير الصافي ٣: ٤٠٦.

ثم ذكر سبحانه كمال قدرته وإنعامه عليهم بقوله: ﴿وَهُوَ الْقَادِرُ﴾ والَّذِي أَنشَأَ، وخلق ﴿لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتستعملوها في تحصيل معرفته، ولكن ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ نعمه العظام، بل تكفرونها باستعمالها في غير ما خلقت له.

ثم أردف ذكر هذه النعم يذكر ما هو أعظم منها بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ وخلقكم أو بئسكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بالناسل ﴿وَالْيَهُ﴾ تعالى ﴿تُخْشَرُونَ﴾ وتجمعون بعد التفرق، وتعدّون على كفران نعمه ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي الْمَوْتَى وَيُيْتِي الْأَحْيَاءَ بِمَقْتَضَىٰ فِإِصْبَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحُكْمَتِهِ وَهُوَ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بالتعاقب والزيادة والنقص ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أيها المشركون تلك الآيات الواضحة الدلالة على التوحيد والقدرة على إعادة الخلق للحساب.

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ءِإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [٨٣-٨١]

ثم لما ذكر سبحانه الحشر، حكى من المشركين إنكاره بالتقليد وتبعية الآباء مع دلالة البراهين القاطعة عليه بقوله: ﴿بَلْ﴾ أعرضوا عن البراهين و﴿قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ والكفار السابقون تقليداً لهم.

ثم كأنه قيل: ما قال المشركون؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا﴾ إنكاراً للحشر ﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا فِي الْقُبُورِ تُرَابًا وَعِظَامًا نَجْرُهُ ءِإِنَّا﴾ لمحيون ثانياً و﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ ومخرجون من القبور؟! حاشا لا يكون ذلك أبداً بالاله الذي تعبده ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا﴾ تخويفاً ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا﴾ الأقدمون ﴿هَذَا﴾ البعث البعيد في نظر العقل ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السابقة على مجيء محمد ﷺ.

ثم بالغوا [في] إنكاره بقولهم: ﴿إِن هَذَا﴾ الوعد وما ذلك الحديث ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وأكاذيب السابقين التي لفقوها وسطروها في الدفاتر لتقرأ ويضحك منها.

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن يَدِينُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ

لَكَاذِبُونَ [٨٤-٩٠]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ هَذَا الْإِنْكَارَ لِقُصُورِ عَقُولِهِ عَنْ إدْرَاكِ كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِالْإِزَامِهِمْ عَلَيْهِ، بِاعْتِرَافِ بَقْدَرَتِهِ تَعَالَى عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْإِعَادَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ إِزَامًا لَهُمْ: يَا أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿لَيْمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَعَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مُبْدِعَهُمَا، أَوْ تَذَرِكُون شَيْئًا؟ أَجِيبُونِي بِعِلْمِ ﴿سَيَقُولُونَ﴾ وَيَعْتَرِفُونَ الْبَتَةَ بِأَنْ كُلَّهَا ﴿لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ خَلَقًا وَتَصَرُّفًا وَتَدْبِيرًا. لِاضْطِرَارِهِمْ إِلَى الْاعْتِرَافِ بِمَا هُوَ بِدِيهِ الْعَقْلُ، فَإِذَا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ ﴿قُلْ﴾ حَتَّى لَهُمْ عَلَى التَّفَكُّرِ وَالتَّدْبِيرِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وَتَتَبْهَوْنَ أَنْ مَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى إِبْدَاعِ تِلْكَ الْمَوْجُودَاتِ الْعَظِيمَةِ الْعَجِيبَةِ، [فَهُوَ] قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ لِلْحِسَابِ بِطَرِيقٍ أُولَى، لِأَنَّ الْإِعَادَةَ أَهْوَنُ مِنَ الْإِبْدَاعِ أَوَّلًا بَلَا مِثَالٍ سَابِقٍ.

ثُمَّ أَمَرَ سَبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِالترقي فِي إِزَامِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ: قُولُوا لِي ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّنْعِ﴾ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ ﴿وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ * سَيَقُولُونَ ﴿كُلَّهَا﴾ لِلَّهِ وَحْدَهُ خَلَقًا وَتَرْتِيبًا ﴿قُلْ﴾: بَعْدَ اعْتِرَافِهِمْ بِمَا هُوَ ضَرُورِي الْعَقْلِ تَوْبِيخًا لَهُمْ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عَذَابَهُ عَلَى الشَّرْكِ بِتَرْكِهِ، وَعَلَى إِنْكَارِ الْبَعْثِ بِالْأَقْرَارِ بِهِ؟ وَإِنَّمَا قَدَّمَ التَّذَكُّرَ عَلَى التَّقْوَى لِكَوْنِ التَّذَكُّرِ مُوجِبًا لِلْمَعْرِفَةِ الَّتِي هِيَ بَاعِثَةٌ عَلَى الْإِنْتَاءِ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَنْ يَبْدِئُهُ﴾ وَفِي قُدْرَتِهِ ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وَوُجُودُهُ، أَوْ سُلْطَانُهُ وَالتَّصَرُّفُ وَالتَّدْبِيرُ فِيهِ ﴿وَهُوَ يُحْيِيهِ﴾ وَيَغِيثُ كُلَّ مُسْتَغِيثٍ ﴿وَلَا يُجَاوِزُ﴾ وَلَا يُغَاثُ ﴿عَلَيْهِ﴾ مِنْ أَحَدٍ لِعَدَمِ احْتِيَاجِهِ وَاضْطِرَارِهِ؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ، فَأَخْبِرُونِي ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ وَالْجَوَارُ ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ وَمَنْ أَيْنَ تُخَدَعُونَ، وَعَنِ الرُّشْدِ تُصْرَفُونَ؟ مَعَ عِلْمِكُمْ بِأَنْ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرْكِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ عَيْنُ الضَّلَالِ ﴿بَلْ﴾ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ عَذْرٌ إِذْ ﴿أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي حَقِيقَتُهُ مَعْرِفَةُ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، وَبِالْعُنَا فِي الْحِجَاجِ ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ مَعَ ذَلِكَ ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ فِي قَوْلِهِمْ بِالشَّرْكِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَمُصْرَوْنَ عَلَيْهِ.

مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [٩١ و ٩٢]

ثُمَّ بَالِغِ سَبْحَانِهِ فِي إِطْطَالِ الشَّرْكِ بِأَقْسَامِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ﴾ وَمَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾ كَمَا يَقُولُ بِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَبَعْضُ فِرْقِ الْمُشْرِكِينَ لَوْجُوبِ الْمِمَاتِلَةِ وَالْمَجَانَسَةِ بَيْنِ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ

والوالد والولد، وامتناعهما بينه تعالى وبين ما سواه ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ لَأَنَّهُ ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ﴾
وانفرد كل خالق ﴿بِمَا خَلَقَ﴾ واستبدَّ به وامتازَ مُلكُ كلٍّ عن مُلك الآخر، كما هو دأب الملوك
﴿وَلَقَلَّا﴾ وَعَلَبَ ﴿بَغَضُّهُمْ﴾ في المُلكِ ﴿عَلَىٰ بَغْضٍ﴾ آخر كما هو العادة الجارية بين الملوك، فلم
يكن بيدَ أحدٍ منهم ملكوت كل شيء، فوَحدةُ المُلكِ واتساقُ النِّظامِ أقوى دليلٍ على وَحدةِ الإله.
ثُمَّ نَزَّهَ ذاته المقدسة عن البِدِّ والولد بقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ وتنزَّهَ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ رُبُّهُم من كونه ذا
ولدٍ وشريك.

ثُمَّ استدلَّ سبحانه على توحيده بسعة علمه بقوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ والسِّرِّ والعَلانية التي
تكون لجميع الموجودات بالاحاطة والقيومية، ولو لم يكن جميعها مخلوقاته لم يكن له العلم
بجميعها وليس لغيره ذلك، فكيف يُمكن أن يكون له شريك مساوٍ له في الألوهية ﴿فَتَعَالَىٰ﴾ شأنه،
وتقدَّس ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به ممَّا لا علم له بشيء.
قيل: في ذكر الوصفين إشعارٌ بوعيد المشركين^١.

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ [٩٣ و ٩٤]

ثُمَّ بالغ سبحانه في تهديدهم بأمر نبيه ﷺ بالاستعاذة ممَّا وعدهم من العذاب بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا
محمد، متضرعاً إلي: يا ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ قيل: يعني يا رب إن كان ولا بد أن تُريني ما
وعدت المشركين من العذاب المستأصل في الدنيا^٢ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي﴾ ولا تبقي ﴿فِي الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ﴾ وأخرجني من بينهم لئلا يُصيبني ما يُصيبهم من العذاب.

وفيه بيان لغاية فضاغة ما وعده، بحيث يجب أن يستعِذ منه من لا يكاد أن يحقيق به، ورَدُّ
لإنكارهم إياه واستعجالهم له بطريق الاستهزاء.

قيل: هُضمًا لنفسه، أو إمَّا أمر ﷺ بهذا القول؛ لأنَّ شؤم الكُفْرَةِ قد يحقيق بمن وراءهم، كما قال
تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^٣.

رُوي أنه لما أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بأن له في أمته نعمة ولم يُطلعه على وقتها، أمره بهذا الدعاء^٤.
في (المجمع) عن النبي ﷺ، أنه قال في حجة الوداع وهو يمضي: «لا تُرجِعوا بعدي كفاراً يضرب

٢. تفسير الرازي ٢٣: ١١٧، تفسير روح البيان ٦: ١٠٣.

١. تفسير الرازي ٢٣: ١١٧.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ١٤٩، والآية من سورة الأنفال: ٢٥/٨.

٤. تفسير أبي السعود ٦: ١٤٩.

بعضكم رقاب بعض، وأيم الله لئن فعلتموها لتعرفُنني في كتيبة يُضاربونكم» قال الراوي: فغَمِرَ من خلف منكبه الأيسر، فالتفت فقال: «أو علي» فنزلت^١.

وعن جابر بن عبد الله أنه قال: قال رسول الله ﷺ وقد خطبنا يوم الفتح: «أيها الناس، لأعرفنكم^٢ ترجعون بعدي كفراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ولئن فعلتم ذلك أضربكم بالسيف» ثم التفت عن يمينه فقال للناس: غمزه جَبْرَيْلُ، فقال له: أو علي فقال: «أو علي»^٣.

وفي رواية عن الصادق عليه السلام قال: «فنزل عليه جَبْرَيْلُ فقال: يا محمد، [قل] إن شاء الله، أو يكون ذلك علي بن أبي طالب^٤. فقال رسول الله ﷺ: أو يكون ذلك علي بن أبي طالب إن شاء الله. فقال له جَبْرَيْلُ: واحدة لك، واثنان لعلي، وموعدكم السلام»^٥.

فقال أبان بن تغلب راوي الحديث: جُعِلَتِ فِدَاكَ، وأين السلام؟ فقال: «يا أبان، السلام من ظهر الكوفة»^٦.

أقول: الظاهر أنه يكون في الرجعة، كما قال به الفيض^٧.

وَأِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ * أَذْفَعُ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ
أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ
رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ [٩٥-٩٨]

ثم لما كان المشركون يستهزئون بالنبي ﷺ بوعده بالعذاب، أعلن سبحانه بقدرته على إنزاله بقوله: ﴿وَأِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ﴾ في حياتك ﴿مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لِقَادِرُونَ﴾ البتة، ولكن المحكمة البالغة اقتضت تأخيرها.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بالجلم والصفح بقوله: ﴿أَذْفَعُ﴾ يا محمد ﴿بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ طرق الدفاع - وهي خصلة الصفح والجلم - أعمالهم ﴿السَّيِّئَةِ﴾ من التكذيب والاستهزاء والإيذاء^٨.

عن الصادق عليه السلام: «التي هي أحسن: التقية»^٩

أقول: يعني أنها منها.

١. مجمع البيان ٧: ١٨٦، تفسير الصافي ٣: ٤٠٨.

٢. مختصر البصائر: ٢١، تفسير الصافي ٣: ٤٠٨.

٣. في مختصر البصائر: السلم، وكذا الذي بعدها.

٤. تفسير الصافي ٣: ٤٠٩.

٥. المحاسن: ٢٩٧/٢٥٧، تفسير الصافي ٣: ٤٠٩.

٦. في النسخة: لأعرفنكم.

٧. زاد في مختصر البصائر: إن شاء الله.

٨. مختصر البصائر: ١٩، تفسير الصافي ٣: ٤٠٩.

٩. في النسخة: والإيذاء.

ثُمَّ سَلَىٰ سُبْحَانَهُ قَلْبَهُ الشَّرِيفُ يَقُولُ: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ جَنَابُكَ بِهِ مِنَ الْجُنُونِ وَالشَّعَرِ وَالْكِبَاهَةِ فَتَجَاوِزُهُمْ أَسْوَأَ الْجَزَاءِ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الطَّيْشُ وَقَلَّةَ الصَّبْرِ مِنَ الشَّيْطَانِ، أَمَرَهُ بِالْإِسْتِعَاذَةِ مِنْهُ يَقُولُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ وَوَسَّاسِهِمُ الْمَغْوِيَّةَ عَلَىٰ خِلَافِ رِضَاكَ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ﴾ مِنْ «أَنْ يَخْضَرُونَ» عِنْدِي وَيَحْمُونَ حَوْلِي فِي حَالِ الْغَضَبِ وَالرِّضَا وَالشَّدَّةِ وَالرَّجَاءِ وَغَيْرِهِمَا.

رُويَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ اسْتِفْتَاكِ الصَّلَاةِ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ثَلَاثًا، «وَاللَّهُ أَكْبَرُ» ثَلَاثًا، «وَاللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَلَمَّهَا^١ وَنَفْثَهَا وَنَفَخَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَخْضَرُونَ»^٢.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ [١٠٠ و ٩٩]

ثُمَّ هَدَّدَ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ اسْتِمْرَارِهِمْ فِي وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَا لَيْسَ فِيهِ يَقُولُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ وَعَايِنَ أَحْوَالَ الْبَرْزَخِ ﴿قَالَ﴾ تَحَسَّرًا عَلَىٰ مَا فَرَّطَ فِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ: يَا «رَبِّ ارْجِعُونِ» إِلَى الدُّنْيَا «لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ» وَفِي زَمَانٍ قَصُرَتْ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ مِنْ أَيَّامِ عَمْرِي فِي الدُّنْيَا.

قِيلَ: إِنْ خِطَابُ اللَّهِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ لِلتَّعْظِيمِ^٣.

وَقِيلَ: إِنْ ذَكَرَ الرَّبَّ قِسْمًا^٤، وَخِطَابُ «ارْجِعُونِ» لِلْمَلَانِكَةِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ (أَحَدِهِمُ) الْكَفَّارَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ يَعْمُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقْصِرِينَ^٥.

عَنِ الضَّحَّاكِ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: مَنْ لَمْ يَزَلْ وَلَمْ يَحْجَ سَأَلَ الرَّجْعَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ، [فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ]: أَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكَ بِهِ قِرَاءً يَقُولُ: «رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ»^٦.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا حَضَرَ الْإِنْسَانَ الْمَوْتُ جُمِعَ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْ حَقِّهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَعِنْدَهُ يَقُولُ: «رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ»»^٧.

١. في تفسير روح البيان: الشياطين من همزها. وفي تفسير الرازي: الشياطين همزه ونفثه ونفخه.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ١١٩، تفسير روح البيان ٦: ١٠٤.

٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٠، تفسير روح البيان ٦: ١٠٥.

٥. تفسير روح البيان ٦: ١٠٦. ٦. المنافقون: ١٠/٦٣. ٧. تفسير الرازي ٢٣: ١١٩.

قيل: إن الاستغاث^١ بهذا البيان حسنة ولو مع العلم بامتناع الرجوع؛ لأنه من باب التمني^٢.
ثم ردعهم الله من هذا القول بقوله: ﴿كَلَّا﴾ لا رجوع لك إلى الدنيا أبداً، ثم أقنطهم بعد كلمة
﴿أَرْجِعُونِ﴾ بقوله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ ولفظة صرفة لا يعمل بها، وإنما ﴿هُوَ﴾ عند الموت ﴿قَاتِلُهَا﴾
تحسراً وتندماً ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ﴾ وخلفهم أو أمامهم ﴿بَزَزَخْ﴾ وحاجز بينهم وبين الرجوع وهو
الموت، أو عالم يعدّون فيه ﴿إِلَى يَوْمٍ يُنْعَثُونَ﴾.

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ [١٠١]

ثم بين سبحانه كيفية ذلك اليوم بقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ النفخة الثانية التي يحيا بها الأموات
﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ تعيدهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وتنجيهم من أهواله، وزال التراحم والتعاطف من قلوبهم
﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فيما بينهم عنها، ولا يقول أحدٌ لأحدٍ: أنت ابن من، وأبو من، ومن أي قبيلة
وعشيرة؟ بل يفزع المرء من فرط الدهشة والوحشة من أخية وصاحبه وبنيه.

رؤي أن عائشة قالت: يا رسول الله، أما نتعارف يوم القيامة؟ إني أسمع الله يقول: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ
يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فقال ﷺ: «ثلاثة مواطن تذهل فيها كل نفس: حين يرمى إلى كل إنسان كتابه،
وعند الموازين، وعلى جسر جهنم»^٣.

في (روح البيان) عن الأصمعي، أنه قال: كنت أطوف بالكعبة في ليلة مقمرة، فسمعت صوتاً حزيناً
فتبعت، فإذا أنا بشاب حسن ظريف متعلق بأستار الكعبة، وهو يقول: «نامت العيون، وغارت النجوم،
وأنت المليك الحي القيوم، قد غلقت الملوك أبوابها، وأقامت عليها حراسها، وحجّابها، وبابك
مفتوح للسائلين، فما أنا سائلك ببابك، مذنباً فقيراً مسكيناً أسيراً، جثتك^٤ انتظر رحمتك يا أرحم
الراحمين». ثم أنشأ يقول:

يا من يجيب دُعا المضطر في الظلم يا كاشف الضر والبلى مع السقم
قد نام وفدك^٦ حول البيت قاطبة^٧ وأنت وخذك^٨ يا قيوم لم تنم
أدعوك ربّي ومولاي ومعتمدي^٩ فازحم بكائي بحق البيت والحرّم
أنت الغفور فجد لي منك مغفرة أو اعف عني يا ذا الجود والنعيم

١. في تفسير الرازي: الاستعانة.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٢.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٢، تفسير روح البيان ٦: ١٠٧.

٤. في المصدر: حرسها.

٥. في المصدر: جثت.

٦. في المصدر: وفدي.

٧. في المصدر: والمستندي.

٨. في المصدر: وانتبهوا.

٩. في المصدر: ومستندي.

إن كان عفوك لا يرجوه ذو سرف^١ فمن يجود على العاصين بالكرم
ثم رفع رأسه نحو السماء، وهو ينادي: «يا إلهي وسيدي ومولاي، إن أعطتك فلك الجنة علي، وإن
عصيتك فجهلي فلك الحجة علي، اللهم فبإظهار مِتِّكَ علي وإثبات حُجَّتِكَ لدي أرحمني واغفر لي
ذنوبي. ولا تحرمني رؤية جدِّي وقرّة عيني وحبيبك وصفيك ونبيك محمد ﷺ»، ثم أنشأ يقول:

ألا أيها المأمول في كل شدة إليك شكوت الضّر فارحم شيكايي
ألا يا رجائي أنت كاشف كربتي فهب لي ذنوبي كلّها واقض حاجتي
فزادي قليل لا أراه مُبلّغي على الزاد أبكي أم لطول^٢ مسافتي
أتيت بأعمالٍ قباح رديّة وما في الوزي عبد^٣ جنى كجنايتي

فكان يكرّر هذه الأبيات حتى سقط مغشياً عليه، فدنوت منه فاذا هو زين العابدين علي بن
الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فوضعت رأسه في حجره، وبكيت لبكائه بكاءً شديداً شَفَقَهُ
عليه، فَقَطَّرَ من دموعي على وجهه، فأفاق من غشيته وفتح عينيه وقال: «من الذي شغلني عن ذكر
مولاي؟» فقلت: أنا الأصمعي يا سيدي، ما هذا البكاء، وما هذا الجزع، وأنت من أهل بيت النبوة،
ومعدن الرسالة؟ أليس الله يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيراً﴾؟^٤

قال: فاستوى جالساً، وقال: «يا أصمعي هيهات، إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً،
وخلق النار لمن عصاه وإن كان ملكاً قرشياً، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا
أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾»^٥.

واعترض بعض الملاحدة على القرآن المجيد بوقوع التناقض بين قوله: ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وقوله:
﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾^٦ وبين قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^٧ وقوله:
﴿يتعارفون بينهم﴾^٨ وقد مرّ الجواب عنه في بعض الطرائف.^٩

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ
الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلَفَحَ وَجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا
كَالْحُوتِ [١٠٢-١٠٤]

١. في المصدر: جرم. ٢. في المصدر: لبعد. ٣. في المصدر: خلق. ٤. الأحزاب: ٣٣/٣٣.
٥. تفسير روح البيان ٦: ١٠٧. ٦. المعارج: ١٠/٧٠. ٧. الصافات: ٢٧/٣٧.
٨. بونس: ٤٥/١٠. ٩. تقدم في الطرف (٢٦) من مقدمة المصنف.

ثم يبين سبحانه كيفية المحاسبة وحسن حال المؤمنين بقوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وَرَجَحَتْ حسناته على سيئاته في ميزان الأعمال ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالجنة والنعم الدائمة. ثم يبين سوء حال الكفار بقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ وَرَجَحَتْ سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ وَأَضَرُوا ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع ما أعطاهم الله من الاستعداد والجوارح والقوى الظاهرية والباطنية والعمر والعقل، لِيُحْصَلُوا بها السعادة الأبدية والنعم الدائمة.

عن ابن عباس: يعني غُيِّبُوا بها^١ بأن صارت منازلهم في الجنة للمؤمنين^٢. وقيل: يعني امتنع انتفاعهم بأنفسهم لكونهم في العذاب^٣. وهم ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ومقيمون أبداً.

ثم يبين سبحانه بعض شدائد عذابهم في جهنم تهويلاً للقلوب بقوله: ﴿تَلْفَحُ﴾ وتُحْرِقُ ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ النَّارُ عن ابن عباس: أي تضرب وتأكل لحومهم وجلودهم^٤ ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِإِخْوَانِ﴾ ومتقاصرون الشفتين من شدة الاحتراق.

عن النبي ﷺ قال: «تشويه النار، فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سُرته»^٥.

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُثَلِّى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ أَحْسِنُوا فِيهَا وَلَا تَكَلُمُونَ [١٠٥-١٠٨]

ثم يبين عذابهم الروحاني بتقريعهم وتوبيخهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ أيها المشركون ﴿آيَاتِي﴾ ومواعظي وزواجري ﴿تُثَلِّى﴾ وتُثَلِّى ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا﴾ حيثنذ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ وتستهنون ﴿قَالُوا﴾ اعترافاً بتقصيرهم: يا ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ﴾ واستولت ﴿عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ وسَلَكْنَا شهواتنا المؤدية إلى العقابية السيئة والجحيم الحاطمة. عن الصادق عليه السلام: «بالأعمال شقوا»^٦ ففعلنا ما فعلنا من تكذيب الرسل والآيات والأعمال القبيحة ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ وناساً منحرفين عن الصراط المستقيم، وسالكن طريق الجحيم حتى وقعنا فيها ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ وأعدنا إلى الدنيا ﴿فَإِنَّا عُدْنَا﴾ إلى ما كنا فيه من الشرك والتكذيب ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ومبالغون في التعدي عن حدود

١ - ٢. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٣.

١. في تفسير الرازي: غبنوها.

٥. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٣، تفسير روح البيان ٦: ١٠٩.

٦. التوحيد: ٢/٣٥٦، تفسير الصافي ٣: ٤١١، وفيهما: بأعمالهم شقوا.

العقل ﴿قَالَ﴾ تعالى قهراً عليهم: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا﴾ وانزجروا زجر الكلاب وأسكوا سكوت الذل والهوان ﴿وَلَا تُكَلِّمُون﴾ بشيءٍ من الاعتذار، ولا تسألوا رفع العذاب عنكم أو تخفيفه، لعدم قابليته للقبول والاجابة.

قيل: هو آخر كلام يتكلمون به، ثم ليس لهم بعد ذلك إلا الزفير والشهيق والغواء كغواء الكلب^١.
عن ابن عباس: لهم ست دعوات: إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة: ﴿رَبَّنَا أَبْصِرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ فيجابون: ﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾^٢. ثم ينادون ألف سنة ثانية: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا أَفْتِنَا أَفْتِنَا وَأَحْيَيْنَا أَتْنِنَا﴾ فيجابون: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخَذَهُ قَهْرُهُ﴾^٣. ثم ينادون ألف سنة ثالثة: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيجابون: ﴿إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ﴾^٤. ثم ينادون ألف سنة رابعة: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ فيجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾^٥. ثم ينادون ألف سنة خامسة: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ فيجابون: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ﴾^٦ ثم ينادون ألف سنة سادسة: ﴿رَبِّ أَرْجِعُونِ﴾ فيجابون: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا﴾^٧.

وعن القمي: بلغني والله أعلم أنهم يتداكون بعضهم على بعض سبعين عاماً حتى يتنها إلى قعر الجحيم^٨.

إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخَرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ * قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَأَلِ الْعَادِيْنَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [١٠٩-١١٤]

ثم بين سبحانه علّة استحقاقهم العذاب المهيمن بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ وطائفة من المؤمنين بؤخدانيتي ورسالة رسولي ﴿يَقُولُونَ﴾ في الدنيا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بك وبما جاء به رسولك، وصدقنا جميع ما أردت تصديقه منا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا، واسأرها بكرمك ﴿وَارْحَمْنَا﴾ وأنعم علينا بنعملك الواسعة الدنيوية والأخروية ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ وأفضل المنعمين ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ

١. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٥.
٢. السجدة: ١٢/٢ و ١٣.
٣. غافر: ١١/٤٠ و ١٢.
٤. الزخرف: ٧٧/٤٣.
٥. إبراهيم: ٤٤/١٤.
٦. فاطر: ٣٧/٣٥.
٧. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٥.
٨. تفسير القمي ٢: ٩٤، تفسير الصافي ٣: ٤١٢.

سَخِرِيًّا» وتشاغلتم بالاستهزاء بهم «حَتَّىٰ أَنسَوَكُم» أولئك المؤمنون بسبب الاستهزاء بهم «ذُكِّرِي» والتدبر في آياتي، وأداء شكري، والعمل بطاعتي، فلم تخافوني في الإهانة بأوليائي «وَكُنْتُمْ» مبالغين في الاستهزاء بهم، حَتَّىٰ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ «مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ».

قيل: إن رؤساء قريش كأبي جهل وعتبة وأبي بن خلف، كانوا يستهزئون بأصحاب النبي ﷺ، ويضحكون بالفقراء منهم مثل بلال وخباب وعمار وصهيب^١.

ثم بين سبحانه من حال المؤمنين عنده ما يوجب ازدياد أسف المستهزين وحسرتهم بقوله: «إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ» الجنة ونعيمها «بِمَا صَبَرُوا» على استهزائكم بهم وإيذاكم لهم «أَنَّهُمْ هُمْ أَفْلَاحُكُمْ» بجميع مقاصدهم من الإيمان والأعمال الصالحة والتعم الأخروية.

ثم أنه تعالى بعد إقناطهم من الرجوع إلى الدنيا «قَالَ» لهم تذكيراً لقلّة مكثهم فيها، أو قال المَلَكُ المأمور بالسؤال عنهم: «كَمْ لَبِثْتُمْ» وأي مقدار من الزمان مكثتم «فِي الْأَرْضِ» التي تدعون الرجوع إليها «عَدَدَ سِنِينَ» ومن حيث تعداد الأعوام «قَالُوا» استقصاراً لمدة لبثهم فيها بالنسبة إلى مدة إقامتهم في النار، أو بالنظر إلى انقضائها، فإن المتقضي في النظر قليل، أو بالنظر إلى كونها أيام ضرورهم وهي قصار: «لَبِثْنَا» ومكثنا فيها «يَوْمًا» واحداً «أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» وإن أردت تحقيق المدة «فَسْأَلِ الْعَادِّينَ» والتمسكين من تعداد الأيام والسنين، فإنّا بسبب ما دهمنا من العذاب لا يمكننا إحصاؤها.

وقيل: إن المراد من العادين الملائكة العادون لأعمار الناس وأنفاسهم وأعمالهم^٢.

القمي، قال: يعني سَل الملائكة الذين يعدّون علينا الأيام، ويكتبون ساعاتنا وأعمالنا التي اكتسبناها فيها^٣.

«قَالَ» الله تعالى أو المَلَكُ: «إِن لَّبِثْتُمْ» وما مكثتم في الدنيا متمتعين بنعيمها «إِلَّا» زماناً «قَلِيلًا» لم يكن للعاقل أن يعتد بالنعم والتلذذ فيه، وأنتم أنتمكم في الشهوات في ذلك الزمان القليل، وغفلتم عن سوء العاقبة، وأتبعتم هوى أنفسكم، وهيأت لها بأعمالكم العذاب المخلّد، وأهلكتموها إلى الأبد، وحرمتوها من النعم التي ليس لها حدّ «وَلَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» سوء عاقبة التنعم في الدنيا والغفلة عن الآخرة، لما فعلتم ما فعلتم، أو لو كنتم تعلمون الحشر والبعث لعلمتم قلّة لبثكم في الدنيا كما علمتم اليوم.

٢. تفسير روح البيان ٦: ١١٠.

١. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٥.

٣. تفسير القمي ٢: ٩٥ تفسير الصافي ٣: ٤١٢.

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ
الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [١١٥ و ١١٦]

ثُمَّ وَبَحْثِهِمْ سَبْحَانَهُ عَلَىٰ إِنكَارِهِمُ الْبُعْثَ مَعَ دَلَالَةِ الْبِرْهَانِ الْقَاطِعِ عَلَيْهِ وَغَفَلَتُهُمْ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ قِيلَ: التَّكْدِيرُ أَغْفَلْتُمْ عَنِ الْبُعْثِ فَحَسِبْتُمْ^١ ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ وَلَعِبًا بِلا حِكْمَةٍ وَصَلَّاحٍ ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ بَلْ تَمُوتُونَ وَتَفْتَنُونَ^٢.

عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَخْلُقْ خَلْقَهُ عَبَثًا، وَلَمْ يَتْرُكْهُمْ شَدِيدًا، بَلْ خَلَقَهُمْ لِإِظْهَارِ قُدْرَتِهِ، وَلِيُكَلِّفَهُمْ طَاعَتَهُ، فَيَسْتَوْجِبُوا بِذَلِكَ رِضْوَانَهُ، وَمَا خَلَقَهُمْ لِيُجْلِبَ مِنْهُمْ مَنَافِعًا، وَلَا لِيُدْفَعَ بِهِمْ مُضَرَّةٌ، بَلْ خَلَقَهُمْ لِيَنْفَعَهُمْ وَيُوصِلَهُمْ إِلَى النِّعَمِ»^٣.

وَعَنْهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: خُلِقْنَا لِلْفَنَاءِ؟ فَقَالَ: «خُلِقْنَا لِلْبَقَاءِ، وَكَيْفَ وَجَبَتْهُ لَا تَبِيدُ، وَنَارُهُ لَا تَخْتَمِدُ، وَلَكِنْ أَقْبَلْ: إِنَّمَا نَحْوَلُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ»^٤.

ثُمَّ نَزَّهَ سَبْحَانَهُ ذَاتَهُ الْمَقْدَسَةَ عَنِ الْعَبْثِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ وَارْتَفَعَ بِذَاتِهِ عَنِ الْعَبْثِ، وَتَقَدَّسَ عَنِ اللَّغْوِ، وَتَنَزَّهَ عَنِ فِعْلِ مَا لَا حِكْمَةَ فِيهِ لِأَنَّهُ ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ وَالسُّلْطَانُ الْحَقِيقُ بِالسُّلْطَنَةِ، الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ عَمَّا سِوَاهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ.

قِيلَ: إِنَّ الْحَقَّ هُوَ الْمَوْجِدُ لِلشَّيْءِ بِمَقْتَضَى الْحِكْمَةِ^٥، وَالثَّابِتُ الَّذِي لَا يَزُولُ ذَاتُهُ، وَلَا يَبِيدُ مَلِكُهُ وَقُدْرَتُهُ، وَلِذَا ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ.

ثُمَّ قَرَّرَ كِمَالَ سُلْطَنَتِهِ وَاسْتِحْقَاقَهُ الْعِبَادَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فَكَيْفَ بِمَا هُوَ دُونَهُ وَتَحْتَهُ، وَإِنَّمَا وَصَفَ الْعَرْشَ بِالْكَرِيمِ لِنُزُولِ الرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَاتِ مِنْهُ، أَوْ لانتسابِهِ إِلَى اللَّهِ الْكَرِيمِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْعَرْشِ هُنَا السَّمَاوَاتُ وَمَا فِيهَا^٦.

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْكَافِرُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعِظْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ [١١٧ و ١١٨]

ثُمَّ هَدَّدَ الْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ﴾ وَيَعْبُدُ ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ الْمَتَفَرِّدَ بِالْأُلُوهِيَةِ ﴿إِلَهًا﴾ وَمَعْبُودًا ﴿آخَرَ﴾ مَعَ أَنَّهُ ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وَلَا حُجَّةَ عَلَى جَوَازِ عِبَادَتِهِ ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ﴾ وَجَزَاؤُهُ الْإِتِّاقُ بِهِ

٢. في النسخة: وَتَفْتَنُونَ.

٤. في علل الشرائع: وَكَيْفَ تَفْنَى جَنَّةَ لَا تَبِيدُ، وَنَارَ.

٦. تفسير روح البيان ٦: ١١٢.

١. تفسير روح البيان ٦: ١١١.

٣. علل الشرائع: ٢/٩، تفسير الصافي ٣: ٤١٢.

٥. علل الشرائع: ٥/١١، تفسير الصافي ٣: ٤١٢.

٧. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٨.

﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ وعقوبته بيده لعدم قدرة غيره عليها.

ثم نبّه سبحانه عليها إجمالاً بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ ولا يفوز بالمقصود من النجاة من العذاب والنيل بالثواب ﴿الْكَافِرُونَ﴾ بتوحيد الله، ومن بدائع السورة أنّه تعالى افتتحها بثبوت الفلاح للمؤمنين، وختمها بنفيه عن الكافرين.

ثم أمر نبيه ﷺ بموافقة المؤمنين في التضرّع وطلب المغفرة رغماً للكفار المستهزئين بهم بقوله: ﴿وَقُلْ﴾ يا محمد ﴿رَبِّ اغْفِرْ﴾ لي خطاياي ﴿وَأَرْحَمْ﴾ ذلّي وفقرّي وحاجتي ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فإنّ رحمة من سواك قطرة من بحار رحمتك الواسعة.

زوي أنّ أول هذه السورة وآخرها من كنوز العرش، من عمل بثلاث آيات من أولها، واتّعظ بأربع آيات من آخرها، فقد نجا وأفلح^١.

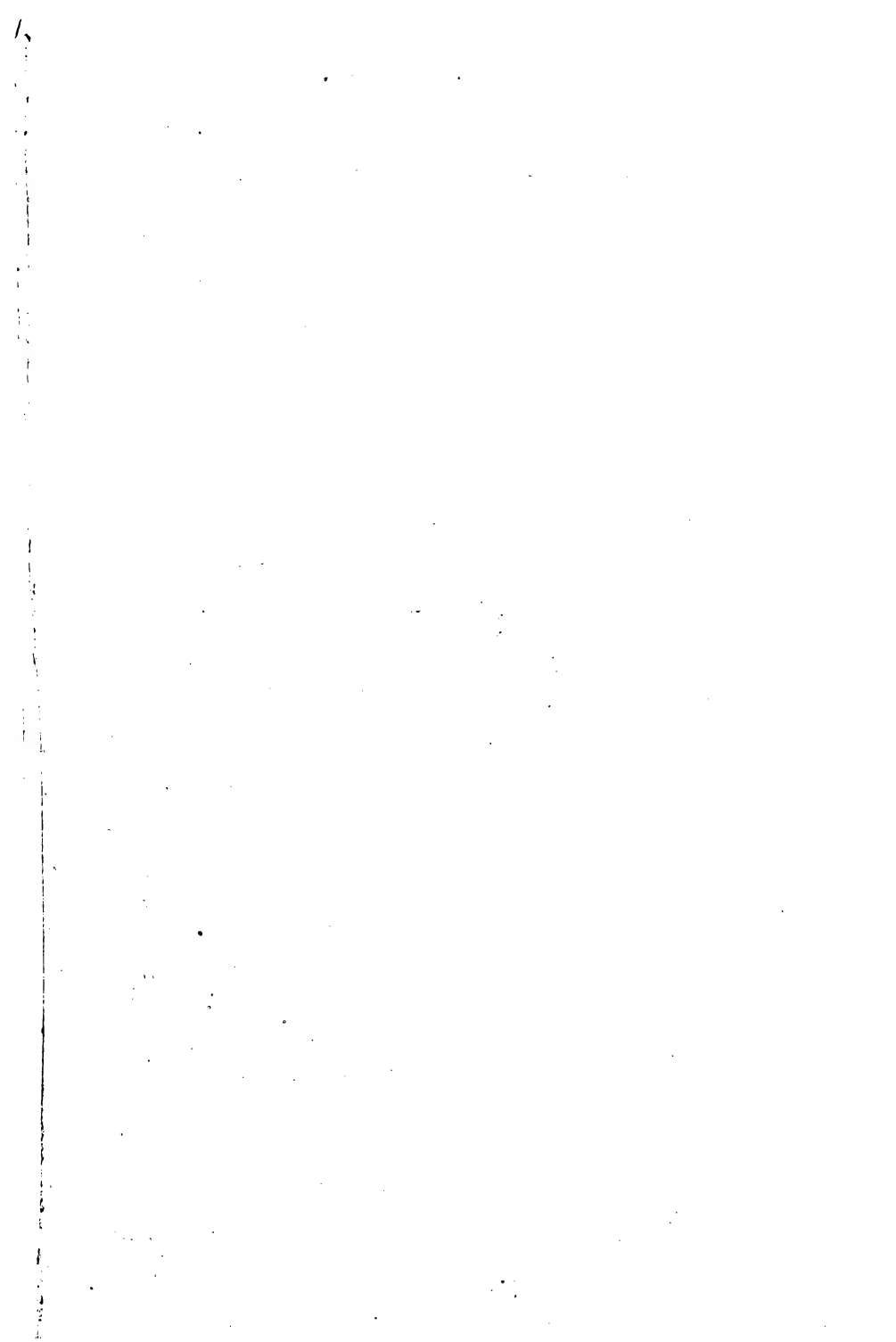
وفي رواية، قال ﷺ: «لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة» ثم قرأ ﴿قد أفلح المؤمنين﴾ حتى ختم العشر^٢.

وعن عبدالله بن مسعود: أنّه مرّ بمُصاب مبتلى فقرأ في أذنه ﴿أَفْحَسِبْتُمْ﴾ [حتى ختم السورة، فبرئ بإذن الله].^٣

١. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٨، تفسير البيضاوي ٢: ١١٤، تفسير روح البيان ٦: ١١٣.

٢. تفسير البيضاوي ٢: ١١٤، تفسير روح البيان ٦: ١١٣.

٣. تفسير روح البيان ٦: ١١٣.



في تفسير سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * الزَّانِيَةُ
وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ
اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهْدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ
الْمُؤْمِنِينَ [٢١ و ٢]

ثم لما ختمت السورة المباركة المتضمنة لاثبات التوحيد والمعاد وإبطال الشرك، والمفتحة بالوعد
بالفلاح بالمؤمنين المختمة بسلبه عن الكافرين وحثّ العباد على العمل بأحكام الله وإيجاب حفظ
الفرج عن الحرام، نُظِمت سورة النور المشتملة على تأكيد تلك المطالب العالية، وبيان حرمة الزنا،
وتزويج المشركات والمشركين، وإيجاب حدّ الزاني والزانية، وحكم رمي الزوج زوجته بالزنا، ورمي
الأجنبي الأجنبية المُحصنة به، ووجوب التعفّف عليهنّ، وغير ذلك من أحكام النساء، ولذا روي عن
النبي ﷺ أنه قال في رواية: «وعلموهنّ سورة النور والمِغْزَل»^١. فافتتحها سبحانه بذكر أسمائه
الحسنى على حسب دأبه ورسمه سبحانه في الكتاب الكريم بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.
ثم مدح سبحانه السورة وعظّمها بقوله: ﴿سُورَةٌ﴾ قيل: إنّ التقدير هذه سورة^٢. وقيل: لما أمر في
آخر السورة السابقة بسؤال الرحمة، أجابه بأن من رحمتنا عليك سورة عظيمة الشأن، وقطعة كريمة
من القرآن الكريم^٣، نحن ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ عليك من اللوح المحفوظ بتوسط أمين الوحي ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾
وأوجبنا العمل بما فيها من الأحكام ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالات على الأحكام،
وما فيها من المطالب العالية ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتستحضرون مضامينها، أو المراد كي تتعظوا وتتقوا
المحارم.

١. مجمع البيان ٧: ١٩٤، تفسير روح البيان ٦: ١١٣. ٢. تفسير الرازي ٢٣: ١٢٩.

٣. تفسير روح البيان ٦: ١١٣.

٤٠٤ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

ثم شرع سبحانه في بيان الأحكام، فابتدأ بذكر حد الزنا اهتماماً بالرّدع عنه بقوله: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي، إِنْ كَانَا غَيْرِ مُحْصَنِينَ» فَأَجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا» بانفراد «بِأَمْنَةٍ جَلْدًا».

عن الصادق عليه السلام: «الحرّ والحرّة إذا زنيا جلد كل واحد منهما مائة جلدة، فأما المُحصَن والمُحصنة فعليهما الرّجم»^١.

وفي رواية عنه عليه السلام: «وفي البكر والبكرة جلد مائة ونفي سنة في غير بصرهما»^٢.

وعنه عليه السلام: أنّه شتل عن المُحصَن فقال: «الذي يزني وعنده ما يُغنيه»^٣.

وعن الباقر عليه السلام: «من كان عنده فرجٌ يغدو عليه ويروح فهو مُحصَن»^٤.

وعن الأصمغيني ثبّات: أنّ عمر أتى بخمسة نفرٍ أُخذوا في الزنا، فأمر أن يُقام على كلّ واحدٍ منهم الحدّ، وكان أمير المؤمنين عليه السلام حاضراً، فقال: «يا عمر، ليس هذا حكمهم» قال: فأقم أنت الحدّ عليهم، فقدم واحداً منهم فضرب عنقه، وقدم الآخر فرجمه، وقدم الثالث فضربه الحدّ، وقدم الرابع فضربه نصف الحدّ، وقدم الخامس فعزّره، فتحرّج عمر، وتعجّب الناس. فقال له عمر: يا أبا حسن، خمسة نفر في قضية واحدة، أقمت عليهم خمسة حدودٍ ليس شيءٌ منها يُشبه الآخر؟

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أما الأول فكان ذمياً فخرج عن ذمته، ولم يكن له حدّ إلا السيف، وأما الثاني فرجلٌ مُحصَن كان حدّه الرّجم، وأما الثالث فغير مُحصَن حدّه الجلد، وأما الرابع فعبداً ضربناه نصف الحدّ، وأما الخامس فمجنونٌ مغلوبٌ على عقله»^٥.

وعن القمي مثله إلا أنه قال: ستّة نفرٍ، وخلى سبيل السادس قال: «وأما الخامس فكان منه ذلك الفعل بالشبهة فعزّزناه وأدّبناه، وأما السادس فمجنونٌ مغلوبٌ على عقله سقط عنه التكليف»^٦.

وعن الصادق عليه السلام: «لا يُرجم الرجل ولا المرأة حتى يشهد عليهما أربعة شهوداء على الجَماع والإيلاج والإدخال كالميل في المُكْحَلَة»^٧.

أقول: وكذا في الجَلد.

وعن الباقر عليه السلام قال: «يُضرب الرجل الحدّ قائماً والمرأة قاعدة، ويُضرب كلّ عضوٍ ويترك الرأس

١. الكافي ٧: ٢/١٧٧، التهذيب ١٠: ٦/٣، تفسير الصافي ٣: ٤١٤.

٢. الكافي ٧: ٧/١٧٧، التهذيب ١٠: ٩/٣، تفسير الصافي ٣: ٤١٤.

٣. الكافي ٧: ٤/١٧٨، التهذيب ١٠: ٢٧/١٢، تفسير الصافي ٣: ٤١٥.

٤. الكافي ٧: ١٠/١٧٩، التهذيب ١٠: ٢٨/١٢، تفسير الصافي ٣: ٤١٥.

٥. تفسير الصافي ٣: ٤١٥.

٦. تفسير القمي ٢: ٩٦، تفسير الصافي ٣: ٤١٥.

٧. الكافي ٧: ٤/١٨٤، تفسير الصافي ٣: ٤١٥.

والمذاكير»^١.

وعن الكاظم عليه السلام أنه سُئِلَ عن الزاني كيف يُجْلَدُ قال: «أشدَّ الجَلْدِ» فقيل: فوق الثياب؟ فقال: «لا بل يُجْرَد»^٢.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ﴾ أيها المؤمنون أو الولاة ﴿بِهِمَا زَانَةً﴾ ورحمة وإن كانت أقلّ قليل ﴿فِي﴾ إطاعة أحكام ﴿دِينِ اللَّهِ﴾ وإجراء حدوده، فتعطّلوا أو تسامحوا فيها ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فإن الإيمان بهما باعثٌ على الاهتمام والجِدِّ في طاعة الله، والعمل بأحكامه وإجراء حدوده. زوّي أنه يُوتى بوالٍ نَقَصَ من حدٍّ سوطاً فيقال له: لم نَقَصْتَ؟ فيقول: رحمة لعبادك. فيقال له: أنت أرحم مني بعبادي! انطلقوا به إلى النار^٣.

﴿وَلْيَشْهَدْ﴾ وليحضر ﴿عَذَابَهُمَا﴾ وجلدهما ﴿طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأجل التشهير حتى يرتدع الناس عن فعلهما.

قيل: إن تخصيص المؤمنين بالحضور والشهود، لثلاث تكون إقامة الحدّ مانعة للكفّار عن قبول الاسلام، ولذلك كره إقامة في أرض العدو.

عن الباقر عليه السلام قال: «وليشهد عذابهما» يقول: ضربهما ﴿طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يجمع لهما الناس إذا جلدوا^٤.

وعن ابن عباس: أقلّ الطائفة أربعة، وقيل: ثلاثة، وقيل: اثنان^٥.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «الطائفة واحد»^٦.

وعن الباقر عليه السلام: «الطائفة الحاضرة هي الواحدة»^٧.

وعنه عليه السلام أيضاً: «أَنْ أَقْلَهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ»^٨.

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ [٣]

١. الكافي ٧: ١٨٣، التهذيب ١٠: ٣١/١٠٤، تفسير الصافي ٣: ٤١٥.

٢. الكافي ٧: ١٨٣، تفسير الصافي ٣: ٤١٥. ٣. تفسير الرازي ٢٣: ١٤٨، تفسير روح البيان ٦: ١١٥.

٤. تفسير القمي ٢: ٩٥، تفسير الصافي ٣: ٤١٦. ٥. تفسير الرازي ٢٣: ١٤٩.

٦. التهذيب ١٠: ٣٣/١٥٠، تفسير الصافي ٣: ٤١٦.

٧. عوالي اللآلي ٢: ٤٢٨/١٥٣، وفيه: الحاضرة للحدّ، هي الواحدة، تفسير الصافي ٣: ٤١٦.

٨. جوامع الجامع ٣: ٣١٢، تفسير الصافي ٣: ٤١٦.

٤٠٦ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

ثم أنه تعالى بعد بيان حدِّ الزنا والزجر عنه، نهى عن نكاح الزواني قبل التوبة بقوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ﴾ ولا يتزوج ﴿إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ ولا يرغب في نكاح المؤمنة الصالحة لعدم السُّنْخَةِ والمشاكلة بينهما ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا﴾ ولا يرغب في تزويجها ﴿إِلَّا﴾ رجل ﴿زَّانٍ أَوْ مُشْرِكٍ﴾.

رُوي أنه كانت في المدينة بغايا وزانيات ذوات الأعلام من اليهود والمشرِكين مُوسِرَات، فرغب بعض فقراء المهاجرين في نِكَاحهنَّ لينفقنَّ عليهم من أكسابهنَّ على عادة الجاهلية، فاستأذنا النبي ﷺ في ذلك، فنزلت الآية في ردِّهم عنه ببيان أنَّ نِكَاحهنَّ من خصائص الزواني والمشرِكين، حيث إنَّ الزاني لا يرغب إلَّا في نكاح الزانية والمشرِكة، والزانية لا ترغب إلَّا في نكاح الزاني والمشرِك^١.

﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ﴾ النِّكَاحُ ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لما فيه من التشبيه بالفِسْقة، والتعرُّض للثَّمة، والتسبب بسوء المقالة، والظن في النسب، وغير ذلك من المفاسد التي لا تليق بالأداني والأزْذل فضلاً عن المؤمنين، فلا ينبغي أن يحوموا حولها.

قيل: إيراد الجملة الأولى مع أن مناط التنفير هي الثانية، لتأكيد العلاقة بين الجانبين، مبالغة في الزَّجر، وعدم ذكر المشرِكة في الجملة الثانية، للتنبيه على أنَّ مناط الزَّجر هو الزنا لا مُجرَّد الإِشْرَاق، وأنَّما التعرُّض لها في الأولى إشباعاً في التنفير عن الزانية بنظمها في سلك المشرِكة^٢، كما هو الوجه في التعبير عن الكراهة بالتحريم.

وقيل: إنَّ التحريم على حقيقته، والحكم مخصَّص بمورد النزول، أو منسوخ بقوله: ﴿وَأَنْكِحُوا﴾ آيَاتِي مِنْكُمْ^٣، فأنه متناول للزانيات، وعموم قوله ﷺ: «لَا يُحَرِّمُ الْحَرَامُ الْحَلَالَ»^٤ وقد تضافر دعوى الإجماع على جوازه، سواء أكان قبل التوبة أو بعدها.

فما عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال: «هنَّ نساء مشهورات بالزنا، والرجال مشهورون بالزنا، شُهِرُوا به وعُرِفُوا به، والناس اليوم بتلك المنزلة، فمن أقيم عليه حدُّ الزنا وشُهِرَ بالزنا، لم يَنْبَغِ لأحد أن يَنَاقِحه حتَّى يعرف منه التوبة»^٥.

ومن قوله ﷺ: «لو أن إنساناً زنى ثم تاب تزوج حيث شاء»^٦.

وما عن الباقر عليه السلام: «هم رجالٌ ونساء كانوا على عهد رسول الله ﷺ مشهورين بالزنا، فنهى الله عن

١. تفسير أبي السعود ٦: ١٥٦، تفسير روح البيان ٦: ١١٦.

٢. تفسير أبي السعود ٦: ١٥٧، تفسير روح البيان ٦: ١١٧، والآية من سورة النور: ٣٢/٢٤.

٣. التهذيب ٧: ٣٢٨/١٣٥١.

٤. الكافي ٥: ١٣٥٤، تفسير الصافي ٣: ٤١٦.

٥. الكافي ٥: ٣٥٥، تفسير الصافي ٣: ٤١٦.

أولئك الرجال والنساء، والناس اليوم على تلك المنزلة، من شهر شيئاً من ذلك، أو أقيم عليه الحدّ، فلا تزوّجوه حتى تُعرّف توبته^١ فمحمولٌ على الكراهة، لمخالفتها للاجماعات المتقولة المعتضة بالشهرة العظيمة والمعتبرة المستفيضة منها: الصحيح «أيما رجل فجر بامرأة، ثم بدا له أن يتزوّجها حلالاً، فإذا أوله سيفاح وآخره نكاح، فمثله مثل النخلة أصاب الرجل من تمرها حراماً، ثم اشتراها بعده، فكانت له حلالاً»^٢.

والصحيح الآخر عن المرأة الفاجرة يتزوّجها الرجل المسلم، قال: «نعم، وما يمنع؟ ولكن إذا فعل فليحصن بابه»^٣.

ومنها الخبر: «نساء أهل المدينة فواسق» قلت: فأتزوّج منهن؟ فقال: «نعم»^٤.
ومنها الخبر الآخر: عن الرجل يتزوّج الفاجرة مُتعة؟ قال: «نعم لأبأس به، وإن كان التزويج الآخر فليحصن بابه»^٥.

ومنها خبر آخر عن رجلٍ أعجبه امرأة، فسأل عنها، فإذا النساء ثبني عليها بشيءٍ من الفجور. فقال: «لا بأس بأن يتزوّجها ويحصنها»^٦.

مع أن في بعض الروايات المانعة لفظ (لم ينبح) الظاهر في الكراهة، وفي جميعها التصريح باتخاذ حكم الزاني والزانية مع قيام الإجماع على جواز تزويج العفيفة من الزاني، والسياق يقتضي جواز العكس.

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ
جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٤ و ٥]

ثم بين سبحانه حكم نسبة الزنا إلى العفيفات بقوله: «وَالَّذِينَ يَزْمُونَ» وينسبون المؤمنات «الْمُحْصَنَاتِ» والعفيفات إلى الزنا «ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا» عند الامام أو نائبه «بِأَرْبَعَةِ» رجالٍ «شُهَدَاءَ» عدول يشهدون عليهن بما زعموهن به وعجزوا عن إثبات صدق هذه النسبة «فَاجْلِدُوهُنَّ» أيها الولاة الحق «ثَمَانِينَ جَلْدَةً» إن كان الطرفان بالغين عاقلين، سواء كانا ذكراً، أو أنثيين، أو مختلفين، وسواء كان الرامي حرّاً أو مملوكاً.

١. الكافي ٥: ٣٥٦، ٢/٣٥٦، نوادر أحمد بن عيسى: ٢٣٥/٩٨.

٢. التهذيب ٧: ١٠٩١/٢٥٣.

٣. التهذيب ٧: ١٣٦٣/٣٣١.

٤. الكافي ٥: ٣٥٥، تفسير الصافي ٣: ٤١٦.

٥. نوادر أحمد بن عيسى: ٣٤٢/١٣٣.

٦. التهذيب ٧: ١٠٩٠/٢٥٣.

٤٠٨ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

عن الصادق عليه السلام: في رجل يقدف الرجل بالزنا. قال: «يُجْلَد هو في كتاب الله عز وجل وشنة نبيه صلى الله عليه وآله»^١.

وعن الباقر عليه السلام في امرأة قذفت رجلاً. قال: «تُجْلَد ثمانين جلدة»^٢.

وعنه عليه السلام: «إذا قَذَفَ العبد الحرَّ ثمانين، و[قال: هذا من حقوق الناس]»^٣.

وأما المقدوف فيعتبر أن يكون حراً مسلماً مستتراً، عن الصادق عليه السلام: «من أفرى على مملوكٍ عَزَرَ لخرمة الاسلام»^٤.

وعنه عليه السلام: «لو أتيت برجلٍ قد قَذَفَ عبداً [مسلماً] بالزنا لا نعلم منه إلا خيراً، لضربه الحدَّ حدَّ الحرِّ إلا سوطاً»^٥.

وفي الصحيح في الرجل يقدف الصبية، أيجلد؟ قال: «لا، حتى تبلغ»^٦ وأما اعتبار التستر فلدلالة الآية، وظهور قوله «لا يعلم منه إلا خيراً»^٧.

ثم بالغ سبحانه في الزجر عن القذف بقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ على شيءٍ من الحقوق والحدود «أبدأ» إن لم يتوبوا، قيل: لأنهم آذوا المقدوف بلسانهم، فحرموا من منافعه^٨ «وَأُولَئِكَ» الرامون «هُمْ أَفْاسِقُونَ» والخارجون عن طاعة الله، المتجاوزون عن حدوده «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» الذنب العظيم الذي اقترفوه «وَأَصْلَحُوا» أعمالهم بالتدارك، ومنه الاستسلام للحد، والاستحلال من المقدوف «فَإِنَّ اللَّهَ» يغفر ما فرط منهم، ولا يؤاخذهم به، ولا ينظمهم في سلك الفاسقين الذين لا تُقبل شهادتهم لأنه «عَفَّوْرٌ رَحِيمٌ».

عن الصادق عليه السلام: «القاذف يجلد ثمانين جلدة، ولا تُقبل لهم شهادة أبداً إلا بعد التوبة أو يكذب نفسه»^٩.

وفي (الكافي) أنه سُئِلَ: كيف تُعرَف توبته؟ فقال: «يُكْذَب نفسه على رؤوس الخلائق حين يُضْرَب ويستغفر ربّه، فإذا فعل ذلك فقد ظهرت توبته»^{١٠}.

وعنه عليه السلام أنه سُئِلَ عن الرجل يقدف الرجل، فيُجلد حداً، ثم يتوب ولا يعلم منه إلا خيراً، أتجوز

١. الكافي ٧: ٣٢٠٥، التهذيب ١٠: ٢٣٨/٦٥، تفسير الصافي ٣: ٤١٧.

٢. الكافي ٧: ٢٠٥، التهذيب ١٠: ٢٣٩/٦٥، تفسير الصافي ٣: ٤١٧.

٣. التهذيب ١٠: ٣٥/٧٢، تفسير الصافي ٣: ٤١٧.

٤. الكافي ٧: ١٧/٢٠٨، التهذيب ١٠: ٣١/٧١، تفسير الصافي ٣: ٤١٧.

٥. الكافي ٧: ٢٣٩٧، تفسير الصافي ٣: ٤١٩.

٦. تفسير أبي السموذ ٦: ١٥٧.

٧. الكافي ٧: ٧/٢٤١، تفسير الصافي ٣: ٤١٩.

٨. تفسير القمي ٢: ٩٦، تفسير الصافي ٣: ٤١٩.

شهادته؟ قال: «نعم، ما يقال عندكم؟».

قيل: يقولون توبته فيما بينه وبين الله، ولا تقبل شهادته أبداً. فقال: «بسمنا قالوا، كان أبي يقول: إذا تاب ولم يعلم منه إلا خيراً، جازت شهادته»^١.

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ
أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ
مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ
الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ [٦-٩]

ثم أنه تعالى بعد بيان حكم رمي المحصنات عموماً، بين حكم رمي الزوج زوجته تخصيصاً
للمعوم أو نسخاً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ﴾ ويقذفون بالزنى ﴿أَرْوَاجَهُمْ﴾ الدائمات ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ
شُهَدَاءُ﴾ يشهدون بما رموهن ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ وفي استثناء أنفسهم من الشهداء، مع كونهم مدعين
إيدان من أول الأمر بعدم إلقاء قولهم عند عدم الشهود بالمرّة، بل يتظّمون في سلك الشهود في
الجملة ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ وكل واحد منهم المشروعة لهم ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ
الصَّادِقِينَ﴾ في ما رماها به من الزنا، ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ هي ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ﴾ فيه، قيل: تحبس المرأة حتى تُقَرَّ أو تُلَاعَنَ^٢ بمقتضى قوله تعالى.

﴿وَيَذَرُوا﴾ عن الزوجة ويدفع ﴿عَنْهَا الْعَذَابَ﴾، والرجم الذي استحقتّه بشهادة الزوج إلا ﴿أَنْ
تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ على زوجها ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في ما رماها به ﴿وَالْخَامِسَةَ
لِلْأَرْبَعِ الْمُتَقَدِّمَةِ﴾ هي ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ﴾ زوجها ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيه.

عن ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الآية، قال عاصم بن عدي
الأنصاري: إن دخل رجل بيته فوجد رجلاً على بطن امرأته، فإن جاء بأربعة يشهدون بذلك فقد
قضى الرجل حاجته وخرج، وإن قتله قُتِلَ به، وإن قال وجدته فلاناً مع تلك المرأة ضريب، وإن
سَكَتَ سَكَتَ على غَيْظٍ، اللهم افتح.

وكان له ابن عم، يقال له عويمر، وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس، فأتى عاصماً، وقال: لقد رأيت
شريك بن سمحاء على بطن امرأتي خولة، فاسترجع عاصم، وأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول
الله، ما أسرع ما بتليت بهذا في أهل بيتي! فقال ﷺ: «وما ذاك؟» قال: أخبرني عويمر ابن عمي بأنه

رأى شريك بن سمحاء على بطن امرأته خولة، وكان غويمر وخولة وشريك كلهم بنو عم عاصم. فدعا رسول الله ﷺ بهم جميعاً وقال لغويمر: «اتقي الله في زوجتك وابنة عمك ولا تقذِفها». فقال: يا رسول الله، أقسم بالله إنِّي رأيت شريكاً على بطنها، وإنِّي ما قربتها أربعة أشهر، وإنَّها حُبلى من غيري.

فقال لها رسول الله ﷺ: «اتقي الله ولا تخبري إلا بما صنعت» فقالت: يا رسول الله، إن غويمراً رجلٌ غيور، وإنَّه رأى شريكاً يطيل النظر إليّ ويتحدّث، فحملته الغيرة على ما قال. فنزلت هذه الآية، فأمر رسول الله ﷺ حتى تُودي الصلاة جامعة، فصلّى العصر، ثم قال لغويمر: «قُم قل: أشهد بالله أن خولة لزانية وأنا لمن الصادقين» ثم قال في الثانية: «قل أشهد بالله أني رأيت شريكاً على بطنها، وأنِّي لمن الصادقين» ثم قال في الثالثة: «قل أشهد بالله أنَّها حُبلى من غيري، وأنِّي لمن الصادقين». ثم قال في الرابعة: «قل أشهد بالله أنَّها زانية، وأنِّي ما قربتها منذ أربعة أشهر، وأنِّي لمن الصادقين». ثم قال في الخامسة: «قل لعنة الله على غويمر - يعني نفسه - إن كان من الكاذبين فيما قال».

ثم قال: «اقعد» وقال لخولة: «قومي» فقامت، وقالت: أشهد بالله ما أنا بزانية، وأن زوجي غويمراً لمن الكاذبين. وقالت في الثانية: أشهد بالله أنَّي حُبلى منه، وأنَّه لمن الكاذبين، وقالت في الرابعة: أشهد بالله أنَّه ما رأياني على فاحشة قطَّ وأنَّه لمن الكاذبين، وقالت في الخامسة: غضب الله على خولة إن كان غويمر من الصادقين في قوله، ففرّق رسول الله ﷺ بينهما^١.

وفي رواية أخرى: عن ابن عباس: أنَّ عاصماً ذات يوم رجع إلى أهله، فوجد شريكاً على بطن امرأته إلى آخر ما تقدّم^٢.

وفي رواية ثالثة عنه: لما نزلت ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ قال سعد بن عبادة - وهو سيد الأنصار -: لو وجدت رجلاً على بطن امرأتي فإن جثت بأربعة شهداء يكون قد قضى حاجته وذهب. فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار، أما تسمعون ما يقول سيدكم؟» فقالوا: يا رسول الله، لا نلّمه فإنَّه رجلٌ غيور. فقال سعد: يا رسول الله، والله إنني لأعلم أنَّها من الله، وأنَّها حقٌّ، ولكنني عجبت منه. فقال ﷺ: «إن الله يأبى إلا ذلك».

قال: فلم يلبثوا إلا إذ جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم - فقال: يا رسول الله، إنِّي وجدت مع امرأتي رجلاً رأيت بعيني وسمعت بأذني، فكفره رسول الله ﷺ ما جاء به. فقال هلال: والله يا رسول الله لأجد الكراهة في وجهك ممَّا أخبرتك به، والله يعلم أنِّي

لصادق، وما قلت إلا حقاً. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْبَيْتَةُ، وَإِنَّمَا إِقَامَةُ الْحَدِّ عَلَيْكَ».

فاجتمعت الأنصار، فقالوا: ابثلينا بما قال سعد، فبينما هم كذلك إذ نزل عليه الوحي، وكان إذا نزل عليه الوحي أربد وجهه، وعلا جسده حمرة، فلما سري عنه قال ﷺ: «ابشر يا هلال، فقد جعل الله لك فرجاً» قال: قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى، فقرأ عليهم هذه الآيات.

فقال ﷺ: «ادعوها» فدُعيت فكذبت هلالاً، فقال: الله يعلم أن أحكما كاذب، فهل منكما تائب، وأمر بالملاعنة، فشَهِد هلال أربع شهادات بالله أنه لمن الصادقين، فقال ﷺ له عند الخامسة: «اتقِ الله يا هلال، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» فقال: والله لا يُعَذِّبُنِي الله عليها، كما لم يُجْلِدْنِي رسول الله، وشهد الخامسة.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أتشهدين» فشهدت أربع شهادات بالله أنه لمن الكاذبين، فلما أخذت في الخامسة قال ﷺ لها: «اتقي الله فإن الخامسة هي الموجبة» فتفكرت ساعة وهمت بالاعتراف، ثم قالت: والله لا أفصح قومي، وشَهِدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ففرق رسول الله ﷺ بينهما، ثم قال: «انظروها إن جاءت به أبلج^١ أصهب^٢ أحمر الساقين^٣ فهو لهلال، وإن جاءت به خَدْلَج^٤ الساقين^٥ أورق^٦ جَعْدَأ^٧ فهو لصاحبه». فجاءت به أورق خَدْلَج الساقين. فقال ﷺ: «لولا الإيمان لكان لي ولها شأن».

قال عكرمة: رأيت بعد ذلك أمير مصرٍ من الأمصار ولا يُدرى من أبوه^٨.

وعن الصادق عليه السلام: «أن رجلاً من المسلمين أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن رجلاً دخل منزله، فوجد مع امرأته رجلاً يجامعها، ما كان يصنع؟ قال: فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فأنصرف الرجل، وكان ذلك الرجل هو الذي ابتلى بذلك مع امرأته، فنزل الوحي من عند الله بالحكم فيهما، قال: فأحضرها زوجها فأوقفها رسول الله ﷺ، ثم قال للزوج: اشهد أربع شهادات بالله أنك لمن الصادقين في ما رميتها به. قال: فشَهِد، ثم قال له: اتقِ الله، فإن لعنة الله شديدة، ثم قال له: اشهد الخامسة أن لعنة الله عليك إن كنت من الكاذبين، فشَهِد، ثم أمر به فتُحِي، ثم قال للمرأة: اشهدي أربع شهادات بالله أن زوجك لمن الكاذبين في ما رماك به. فشَهِدت، ثم قال لها: امسكي فوعظها وقال لها: اتقي الله، فإن غضب الله شديداً. ثم قال لها: اشهدي الخامسة أن غضب الله عليك إن كان زوجك من

١. الأبلج: المفترق الحاجبين، الطلق الوجه، وفي تفسير الرازي: أبيض مصغر أنجب، وهو العريض الشَّحج الناتج، والشَّحج: ما بين الكاهل إلى الظهر.
٢. أحمر الساقين: دقيق الساقين.
٣. خَدْلَج الساقين: مُمْتَلئ الساقين.
٤. الأورق من الناس: الأسمر.
٥. تفسير الرازي ٢٣: ١٦٥.

الصادقين في ما رماك به فشَهِدت، قال: ففَرَّقَ بينهما، وقال لهما: لا تجتمعا بِنِكَاح أبداً بعد ما تلاعتما^١.

عن الصادق عليه السلام، أَنَّهُ سُئِلَ عن هذه الآية فقال: «هي في القاذف الذي يَقْذِف امرأته، فاذا قَذَفَهَا ثُمَّ أَقَرَّ أَنَّهُ كَذَبَ عَلَيْهَا، جُلِدَ الحَدَّ، وَرُدَّتْ إِلَيْهِ امرأته، وإن أبى إِلَّا أَن يَمْضِيَ فَشَهِدَ عَلَيْهَا أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بالله أَنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، والخامسة يَلْعَنُ فِيهَا نَفْسَهُ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ.

وإن أرادت أن تَدْرَأَ عن نَفْسِهَا العَذَابَ - والعَذَابُ هُوَ الرُّجْمُ - شَهِدَتْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بالله أَنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ، والخامسة أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فإِنْ لَمْ تَفْعَلْ رُجِمَتْ، وإن فَعَلَتْ دَرَأَتْ عَنِ نَفْسِهَا الحَدَّ، ثُمَّ لَا تَحِلُّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

قيل: أَرَأَيْتَ إِنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا وَلَهُمَا وَلَدٌ فَمَاتَ؟ قال: «تَرِثُهُ أُمُّهُ، وإن مَاتَتْ أُمُّهُ يَرِثُهُ أَخُوَالَهُ، وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ وَلَدُ زَنَّا جُلِدَ الحَدَّ».

قيل: يُرَدُّ إِلَيْهِ الْوَلَدُ إِذَا أَقَرَّ بِهِ؟ قال: «لَا وَلَا كَرَامَةً، وَلَا يَرِثُ الْإِبْنُ، وَيَرِثُهُ الْإِبْنُ»^٢.

وعنه عليه السلام: «إِذَا قَذَفَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ، فَانْه لَا يَلْعَنُهَا حَتَّى يَقُولَ: رَأَيْتُ بَيْنَ رَجُلَيْهَا رَجُلًا يَزْنِي بِهَا»^٣.
وعن الباقر عليه السلام: «يَجْلِسُ الْإِمَامُ مُسْتَدِيرَ الْقِبْلَةِ، فَيَقِيمُهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَا الْقِبْلَةِ بِحِذَاهُ، وَيَبْدَأُ بِالرَّجُلِ ثُمَّ الْمَرْأَةِ»^٤.

وفي رواية: «يَجْعَلُ الرَّجُلَ عَنْ يَمِينِهِ، وَالْمَرْأَةَ عَنْ يَسَارِهِ»^٥.

وعن الصادق عليه السلام في رجل أَوْقَعَ الْإِمَامُ لِلْعَانِ، فَشَهِدَ شَهَادَتَيْنِ، ثُمَّ نَكَلَ فَأَكْذَبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغَ مِنَ الْعَلَانِ؟ قال: «يُجْلَدُ جِلْدَ الْقَاذِفِ، وَلَا يُفَرَّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ»^٦.

وعن الجواد عليه السلام: أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: كَيْفَ صَارَ إِذَا قَذَفَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ كَانَتْ شَهَادَتُهُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ، وَإِذَا قَذَفَهَا غَيْرُهُ أَبٌ أَوْ أَخٌ أَوْ وَلَدٌ أَوْ قَرِيبٌ جُلِدَ الحَدَّ، أَوْ يَقِيمُ الْبَيْتَةَ عَلَى مَا قَالَ؟ فقال: «قَدْ سُئِلَ أَبُو جَعْفَرٍ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّ الزَّوْجَ إِذَا قَذَفَ امْرَأَتَهُ فَقَالَ: رَأَيْتُ ذَلِكَ بَعِينِي، كَانَتْ شَهَادَتُهُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ، وَإِذَا قَالَ إِنَّهُ لَمْ يَرَهُ، قِيلَ لَهُ: أَقِمِ الْبَيْتَةَ عَلَى مَا قُلْتَ، وَإِلَّا كَانَ بِمَنْزِلَةِ غَيْرِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلزَّوْجِ مَدْخَلًا لَمْ يَجْعَلْهُ لَغَيْرِهِ وَالِدٌ وَلَا وَلَدٌ يَدْخُلُهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَجَازَ أَنْ يَقُولَ: رَأَيْتُ، وَلَوْ قَالَ غَيْرُهُ: رَأَيْتُ قِيلَ لَهُ: مَا أَدْخَلَكَ الْمَدْخَلَ الَّذِي تَرَى هَذَا فِيهِ وَحْدَكَ، أَنْتَ مَتَّهَمٌ فَلَا يَدَّ أَنْ يُقَامَ عَلَيْكَ

١. الكافي ٦: ١٦٣/٤، تفسير الصافي ٣: ٤٢٠.

٢. الكافي ٦: ١٦٢/٣، تفسير الصافي ٣: ٤٢٠.

٣. الكافي ٦: ١٦٣/٦، تفسير الصافي ٣: ٤٢٢.

٤. الكافي ٦: ١٦٥/١٠، تفسير الصافي ٣: ٤٢٢.

٥. الكافي ٦: ١٦٥/١١، تفسير الصافي ٣: ٤٢٢.

٦. الكافي ٦: ١٦٣/٥، تفسير الصافي ٣: ٤٢٢.

الحَدَّ الَّذِي أَوْجِبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ».

قال: «وإنما صارت شهادة الزوج أربع لمكان الأربعة شهداء مكان كل شاهدٍ [يمين]»^١.
وعن الصادق عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ: لِمَ جُعِلَ فِي الزَّنا أَرْبَعَةُ شُهُودٍ، وَفِي الْقَتْلِ شَاهِدَانِ؟ فَقَالَ: «[إِنَّ] اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَلَّ لَكُمْ الْمُتَعَةَ، وَعَلِمَ أَنَّهَا سَتُنْكَرُ عَلَيْكُمْ، فَجُعِلَ الْأَرْبَعَةُ شُهُودَ احتياطاً لَكُمْ، لَوْ لَا ذَلِكَ لَأُتِيَ عَلَيْكُمْ، وَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ أَرْبَعَةُ شُهَدَاءَ بِأَمْرٍ وَاحِدٍ»^٢.

وفي رواية أخرى قال: «الزنا فيه حدان، ولا يجوز أن يشهد كل اثنين على واحد، لأن الرجل والمرأة جميعاً عليهما الحد، والقتل إنما يُقام الحد على القاتل ويُدفع عن المقتول»^٣.

وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا
بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا
اَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ [١٠ و ١١]

ثم بين سبحانه منته على عباده بتشريع اللعان بقوله: «وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ» وإحسانه إليكم وإنعامه أيها الرامون والمرميات «وَوَ» لولا «أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ» ومبالغ في قبول التوبة «حَكِيمٌ» في أفعاله وأحكامه التي من جملتها ما شرع من حكم اللعان، لعاجلكم بالفضيحة وعقوبة حد القذف على الزوج أو حد الزنا على الزوجة، أما أثر الفضل والرحمة على الصادق فظاهر، وأما على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا، ودرء الحد عنه، وتعريضه للتوبة بتوصيف ذاته المقدسة بالتوايه. ثم ذكر الله سبحانه قضية رمي المنافقين عائشة بما صاها الله منه لحرمة نبيه الأكرم ﷺ بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ» وصدر منهم أعظم الفرية والبهتان في أمر عائشة «عُصْبَةٌ» وجماعة «مِنْكُمْ» منافقون كعباد الله بن أبي، ومسطح، وزيد بن رفاعه، وحنثة بنت جحش وغيرهم ممن ساعدتهم على ما قيل^٥، لا توهموا ذلك الإفك «وَلَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ» أيها الرسول والمؤمنون «بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» لاستحقاقكم به الثواب العظيم والكرامة على الله الكريم، وكونه سبب نزول آيات فيها تشييد الحق، وتضعيف الباطل، وتشديد الوعيد في من تكلم فيه، والثناء على من ظن بالمؤمنين خيراً.

ثم هدّد سبحانه العصبة بقوله: «لِكُلِّ امْرِئٍ» ورجل «مِنْهُمْ مَا اَكْتَسَبَ» وحصل لنفسه «مِنْ

١. الكافي ٧: ٤٠٣، تفسير الصافي ٣: ٤٢٢.

٢. علل الشرائع: ١/٥٠٩، تفسير الصافي ٣: ٤٢٢.

٣. علل الشرائع: ٣/٥١٠، تفسير الصافي ٣: ٤٢٣.

٤. في النسخة: رحمته بنت عجن.

٥. تفسير الرازي ٢٣: ١٧٣.

إِلَانِمُ ﴿ وَالْعِصْيَانِ وَيَعَاتِهِ مِنَ الْعَذَابِ بِالتَّكَلُّمِ فِيهِ وَالْإِذْعَانِ بِهِ وَالضُّحْكَ مِنْهُ وَالسُّكُوتَ وَعَدَمَ النَّهْيِ عَنْهُ ﴾ وَالَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ وَتَصَدَّى ﴿ كَبِيرَةٌ ﴾ وَمُعْظَمُهُ ﴿ مِنْهُمْ ﴾ بِأَنْ أَبْدَاهُ وَأَشَاعَهُ عِدَاوَةً لِلرَّسُولِ ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فِي الْآخِرَةِ.

روى الزُّهري عن جماعة، عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أفرع بين نسائه، فأَيْتَهُنَّ خَرَجَ اسْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَفْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ قَبْلَ غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَخَرَجَ اسْمِي فِيهَا، فَخَرَجْتُ مَعَهُ ﷺ، وَذَلِكَ بَعْدَ نَزُولِ آيَةِ الْحِجَابِ، فَحُجِّلْتُ فِي هَوْدَجٍ، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَرَّبَ مِنَ الْمَدِينَةِ، نَزَلَ مِنْزَلًا، ثُمَّ أَذِنَ بِالرَّحِيلِ، فَقَمْتُ حِينَ أَذْنُوا بِالرَّحِيلِ، وَمَشِيتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي وَأَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عَقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ أَظْفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ وَالتَّمَسْتُ عِقْدِي، وَحَسْبَنِي طَلْبُهُ، وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَحْمِلُونِي، فَحَمَلُوا هَوْدَجِي وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنِّي فِيهِ لَخِيفَتِي، فَأَنِّي كُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَظَنُّوا أَنِّي فِي الْهُودَجِ، وَذَهَبُوا بِالْبَعِيرِ.

فَلَمَّا رَجَعْتُ لَمْ أَجِدْ فِي الْمَكَانِ أَحَدًا، فَجَلَسْتُ وَقُلْتُ: لَعَلَّهُمْ يَبْعُدُونَ فِي طَلْبِي، فَنِمْتُ وَقَدْ كَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُصْطَلِقِ يَمْكُتُ فِي الْمَعْسَكِ يَتَّبِعُ أَمْتَعَةَ النَّاسِ، فَيَحْمِلُهُ إِلَى الْمَنْزِلِ الْآخِرِ لئَلَّا يَذْهَبَ مِنْهُمْ شَيْءٌ، فَلَمَّا رَأَى عِرْفَنِي، وَقَالَ: مَا خَلَفَكَ عَنِ النَّاسِ؟ فَأَخْبَرْتَهُ الْخَبَرَ، فَتَزَلَّ وَتَنَحَّى عَنِّي حَتَّى رَكِبْتُ، ثُمَّ قَادَ الْبَعِيرَ.

وَأَفْتَقَدْنِي النَّاسُ حِينَ نَزَلُوا، وَوَجَدُوا النَّاسَ فِي ذِكْرِي، فَبَيَّنَا النَّاسُ كَذَلِكَ، إِذْ هَجَمْتُ عَلَيْهِمْ، فَتَكَلَّمَ النَّاسُ وَخَاضُوا فِي حَدِيثِي، وَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَلَحَقَنِي وَجَعٌ، وَلَمْ أَرَ مِنْهُ ﷺ مَا عَاهَدْتَهُ مِنَ اللَّطْفِ الَّذِي كُنْتُ أَعْرِفُهُ مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ ﷺ ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تَيْكُم؟» فَذَلِكَ يُرِيْبُنِي، وَلَا أَشْعُرُ بِمَا جَرَى بَعْدَ حَتَّى تَقَهَّتْ، فَخَرَجْتُ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي مَعَ أُمِّ سَيْطَحَ لِمَهْمٍ لَنَا، ثُمَّ أَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ سَيْطَحَ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَعْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرْتُ أُمَّ سَيْطَحَ فِي مِرْطَها، فَقَالَتْ: تَعِيسَ سَيْطَحَ، فَانْكَرْتُ ذَلِكَ، وَقُلْتُ: أَتَسْتَبِينَ رَجُلًا شَهِدَ بِدِرْأِي؟ فَقَالَتْ: أَوْ مَا بَلَغَكَ الْخَبَرَ؟ فَقُلْتُ: وَمَا هُوَ؟ فَقَالَتْ: أَشْهَدُ أَنَّكَ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ، ثُمَّ أَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكَ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَرَجَعْتُ أَبْكِي.

ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: «كَيْفَ تَيْكُم؟» فَقُلْتُ: انْذَن لِي أَنْ آتِيَ أَبُوِّي فَأَذِنَ لِي، فَجِئْتُ

١. الجَزَعُ: ضَرْبٌ مِنَ الْعَقِيقِ يُعْرَفُ بِخَطَوطِهِ مُتَوَازِيَةٍ مُسْتَدِيرَةٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ، وَأَظْفَارُ: اسْمُ مَوْضِعٍ.

٢. الْمِرْطُ: كِسَاءٌ مِنْ خَزٍّ أَوْ صُوفٍ أَوْ كَتَانٍ يُوْتَرَزُ بِهِ وَتَتَلَفَّعُ بِهِ الْمَرْأَةُ.

أبوي، وقلت [لأمي]: يا أمة، ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقد كانت امرأة وضيفة عند رجل يحبها ولها صرائر إلا أكثرن عليها. ثم قالت: ألم تكوني علمت ما قيل حتى الآن؟ فأقبلت أبكي، فبكيت تلك الليلة، ثم أصبحت أبكي، فدخل علي أبي وأنا أبكي، فقال لأمي: ما يبكيها؟ قالت: لم تكن علمت ما قيل فيها حتى الآن، فأقبل يبكي^١، ثم قال: اسكتي يا بنية.

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسماء بن زيد، واستشارهما في فراق أهله، فقال أسماء: يا رسول الله، هن^٢ أهلك ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي فقال: «لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك». فدعا رسول الله ﷺ بريدة وسألها عن أمري، قالت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها حتى تأتي الداجن فتأكله.

فقام النبي ﷺ خطيباً على المنبر فقال: «يا معشر المسلمين، من يعذرني^٣ من رجل قد بلغني أذاً في أهلي - يعني عبدالله بن أبي - فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا الذي^٤ ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي».

فقام سعد بن معاذ فقال: أعذرك يا رسول الله منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج فما أمرتنا [فعلنا]، فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، لكن أخذته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت والله لا تقدر على قتله. فقام أسيد بن خضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ وقال: كذبت والله لتقتلنه، وإنك لمنافق تجادل عن المنافقين. فثار الحَيَّان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزَل يخفضهم حتى سكتوا.

قالت: ومكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، وأبوي يظن أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم وجلس، ولم يجلس عندي منذ قيل في ما قيل، ولقد لبث شهراً لا يُوحى الله إليه في شأني شيئاً. ثم قال: «أما بعد يا عائشة، فانه قد بلغني عندك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى، وإن كنت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا تاب تاب الله عليه».

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته فاض دمعِي، ثم قلت لأبي: أجب رسول الله عني. فقال: والله ما أدري ما أقول. فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله. فقالت: والله ما أدري ما أقول، فقلت وأنا

١. في النسخة: فأقبلت تبكي.

٢. في تفسير الرازي: هم.

٣. في تفسير الرازي: ذكروا رجلاً.

٤. أي بنصفني.

جارية حديثة السن ما قرأ من القرآن كثيراً: إِنِّي والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتكم به، فإن قلت لكم إِنِّي بريئة لا تصدقوني، وإن اعترفت لكم بأمرٍ والله يعلم أَنِّي بريئة تصدقوني، والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال العبد الصالح أبو يوسف ولم أذكر اسمه:

﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾^١.

ثم تحولت واضطجعت على فراشي وأنا والله أعلم أَنَّ الله تعالى يُبرِّني، ولكن والله ما كنت أظنُّ أَن يَترَل في شأني وحي يَتلى، فشأنِي كان أحقر في نفسي من أَن يتكلم الله فيَّ بأمرٍ يَتلى، ولكن كنت أرجو أَن يرى الرسول في النوم رؤيا يبرِّني الله بها. فوالله ما قام رسول الله من مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله الوحي على نبيِّه، فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي حتى إنَّه لينحدر عنه مثل الجُمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل الوحي، فسجِّي بثوب ووضعت وسادة تحت رأسه، فوالله ما فرغت وما باليت لعلمي ببراءتي، وأما أبواي فوالله ما شرِّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننتُ أَن نفسي أبوي ستخرجان فرقاً من أَن يأتي الله بتحقيق ما قال الناس، فشرِّي عنه وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أَن قال: «إبشري يا عائشة، أما والله لقد برأك الله». فقلت: بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد أصحابك. فقالت أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقومُ إليه، ولا أحمَدُ أحداً إلا الله الذي أنزل براءتي، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ العشر آيات.

فقال أبو بكر: والله لا أنفق على منطَح بعد هذا، وكان يُنفق عليه لقرابته منه وفقره، إلى أن قالت: فلما نزل عُذري قام رسول الله ﷺ على المنبر، فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل ضرب عبدالله بن أبي ومنطَحاً وحمته وحسان الحدَّ^٢.

أقول: في هذه الرواية التي وضعتها لاثبات شرفها بأن أوحى الله في شأنها آيات تتلى إلى يوم القيامة، دلالة على كونها سبباً لا يذاء النبي ﷺ وجسارتها عليه، وإثارة الفتنة، وعلى عدم اطمئنان أبويها بعفتها، وعدم تعقلها وتعقل أبويها وجوب عصمة زوجات النبي ﷺ من الفحش، لكونه من أعظم الشين عليه، وعلى كون صلحاء أصحاب النبي ﷺ الذين أهل العصبة والحمية الجاهلية، وعلى كون بعض البدرين من أفسق الفساق، إلى غير ذلك مما فيه دلالة على فساد اعتقاد العامة في حقها وحق أصحاب النبي روي في شأنهم أنهم كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.

وقال القمي رحمه الله: روت العامة أنها نزلت في عائشة وما رميت به في غزوة بني المصطلق من خزاعة،

وأما الخاصة فإنهم رَوَوْا أنها نزلت في مارية القبطية وما رمتها به عائشة^١.

ثم روى عن الباقر عليه السلام أنه قال: «لما هلك إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، حزن عليه رسول الله ﷺ حزناً شديداً، فقالت له عائشة: ما الذي يحزنك عليه، فما هو إلا ابن جُريح، فبعث رسول الله ﷺ علياً وأمره بقتله، فذهب علي عليه السلام [إليه] ومعه السيف، وكان جُريح القبطي في حائط، [وَضَرَبَ علي عليه السلام باب البستان، فأقبل إليه جريح ليفتح له الباب، فلما رأى علياً عليه السلام عرف في وجهه الغضب، فأدبر راجعاً ولم يفتح الباب، فوثب علي عليه السلام على الحائط] ونزل إلى البستان واتبعه، وولى جُريح مذبذباً، فلما خشي أن يَرَهَّقه صَعِدَ في نخلة، وصَعِدَ علي عليه السلام في أثره، فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة، فبدت عورته، فاذا ليس له ما للرجال، ولا له ما للنساء، فانصرف علي عليه السلام إلى النبي ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إذا بعثني في أمر أكون فيه كالمسمار المحمى في الوبر، أمضى على ذلك^٢ أو اتبعت؟ قال: لا، بل تتبعت قال: والذي بعثك بالحق ماله ما للرجال، ولا له ما للنساء. فقال [رسول الله ﷺ]: الحمد لله الذي صَرَفَ عَنَّا السوء أهل البيت»^٣.

وزاد في رواية أخرى: «فأتى به رسول الله ﷺ فقال له: ما شأنك يا جُريح؟ فقال: يا رسول الله، إن القبط يحبون حشَمهم ومن يدخل إلى أهاليهم، والقبطيون لا يأنسون إلا بالقِبطيين، فبعثني أبوها لأدخل عليها وأخدمها وأونسها»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: أنه سُئِلَ: كان رسول الله ﷺ أمر بقتل القبطي وقد عَلِمَ أنها كَذِبَت عليه، أو لم يعلم، وإنما دفع الله عن القبطي القتل بثبَّت علي عليه السلام فقال: «بلى، قد كان والله أعلم، ولو كانت عزيمة من رسول الله ﷺ القتل لما رجع علي عليه السلام حتى يَقْتُلَهُ، ولكن إنما فعل رسول الله ﷺ لترجع عن ذنبها، فما رجعت، ولا اشتدَّ عليها قتل رجلٍ مسلمٍ بكذبها»^٥.

أقول: حاصل المراد أن رسول الله ﷺ كان عالماً بكذب عائشة في رمي مارية، وكان يعلم أن الله يُظهِرُ الحقَّ، وإنما بعث علياً عليه السلام لذلك، ولترجع عائشة عن ذنبها، ولعل النبي ﷺ ترك جَلْدَها لعفو مارية عنها لمثل رسول الله ﷺ إليها.

إن قلت: ظاهر الآية أن الإفك صدر من جماعة حيث قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ ومقتضى الرواية أنه صدرت من عائشة فقط.

١. تفسير القمي ٢: ٩٩، تفسير الصافي ٣: ٤٢٣.

٣. تفسير القمي ٢: ٩٩، تفسير الصافي ٣: ٤٢٣.

٥. تفسير القمي ٢: ٣١٩، تفسير الصافي ٣: ٤٢٤.

٢. (أمضى على ذلك) ليس في تفسير القمي.

٤. تفسير القمي ٢: ٣١٩، تفسير الصافي ٣: ٤٢٤.

قلت: نعم، ولكن لما وافقتها عليه حفصة وأبوها وبعض المنافقين الموافقين لأبويهما، صار أهل الإفك جمعاً كثيراً، وأما ضمير الجمع في قوله: «عُصْبَةُ مِنْكُمْ» فالظاهر أن المراد منه رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والخوَص من المؤمنين كسلمان وأبي ذر وأضرابهما.

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ [١٢ و ١٣]

ثم أخذ سبحانه في تقرير المؤمنين الذين استمعوا هذا الإفك، ولم يردعوا عنه، بل تكلموا فيه بقوله: «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ» أيها المؤمنون، وهلا حين أطلعت على هذا البهتان «ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ» بمقتضى وظيفتهم الإيمانية «بِأَنْفُسِهِمْ» وبالذين هم بمنزلة روحهم «خَيْرًا»، وحسناً وطهارة منه «وَيَوْمَ» لما «قَالُوا»: من غير ريث تكذيباً له «هَذَا» القول الشنيع في حق المؤمنين «إِفْكٌ مُبِينٌ» وبهتان ظاهر، وفي العدول من الخطاب في قوله: «سَمِعْتُمُوهُ» إلى الغيبة في قوله: «ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ» تأكيداً للتوبيخ.

ثم لام سبحانه القاذفين بقوله: «لَوْلَا جَاءُوا» وهلا أتوا حين قالوا ما قالوا «عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ» عدول يشهدون بما قالوا «فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ» الأربعة «فَأُولَئِكَ» الخاضعون في الإفك «عِنْدَ اللَّهِ» وفي حكمه «هُمُ الْكَاذِبُونَ» في الظاهر والباطن بخلاف ما إذا أتوا بالشهداء فإنهم صادقون في الظاهر، وإن كانوا كاذبين في الباطن، لا متناع صدور هذا العمل الشنيع من أزواج الأنبياء - عن ابن عباس: ما زلت امرأة نبي قط^٢ - لما في ذلك من التنفر عن الرسول ﷺ وإلحاق الوضمة به.

وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ [١٤ و ١٥]

ثم أظهر سبحانه شدة غضبه على الخاضعين في الإفك ومته عليهم بالامهال بقوله: «وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ» أيها الخاضعون «وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا» من أنواع النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة

١. في تفسير الرازي: ما بغت، وفي تفسير روح البيان: لم تبغ.

٢. تفسير الرازي ٣٠: ٥٠، تفسير روح البيان ٦: ١٢٥.

﴿و﴾ في «الْآخِرَةِ» من ضروب الآلاء التي من جملتها العفو والمغفرة المقدران والله «لَمَسَّكُمْ» ولأصابكم عاجلاً «فِي مَا أَفْقَضْتُمْ» وبسبب ما خضتم «فِيهِ» من حديث الإفك «عَذَابٌ عَظِيمٌ» يُسْتَحَقَّرُ دونه كل عذاب، فضلاً عن التوبيخ والجَلْد.

ثم يبين سبحانه وقت المَسِّ، أو وقت الإفاضة والخوض في الإفك بقوله: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ» وتأخذونه من غيركم حين ملاقة بعضكم لبعض «يَالسَّيِّئَاتِ» حتى شاع وانتشر هذا الحديث بين الناس بحيث لم يبق بيت إلا طار فيه على ما قيل^١.

«وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ» قولاً ليس معناه في قلوبكم لكونه «مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ» واعتقاده، مع أن الواجب أن يكون القول ناشئاً عن الاعتقاد بمدلوله في القلب «وَتَحْسَبُونَهُ» وتوهمونه «هَيِّنًا» وسهلاً لا تبعه له «وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ» وفي حكمه «عَظِيمٌ» غايته لاستتباعه الذل والهوان في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة، فإن الافتراء على المؤمن خصوصاً مثل هذا الافتراء الذي ليس أعظم منه من أكبر الكبائر، ولذا كان عذابه أشد العذاب وأعظمه.

وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ
* يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [١٦-١٨]

ثم بالغ سبحانه في توبيخ الخائضين في الإفك بقوله: «وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ» من المُخْتَرَعين له «قُلْتُمْ» تكذيباً له وتبرءاً من موافقتهم «مَا يَكُونُ» حلالاً «لَنَا» من جانب الله «أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا» الكلام الشنيع، وهلاك قلتهم تعجباً من إجترانهم على التفوه به «سُبْحَانَكَ هَذَا» الإفك الذي هو من أشنع الشنائع «بُهْتَانٌ» وافتراء «عَظِيمٌ» عند الله؟ لشدة قبحه، وسوء عاقبته، ووضوح كذبه، لدلالة العقل على امتناعه، لكونه شيناً على النبي المنزه من كل شين.

ثم زجرهم سبحانه من إتيان مثله بقوله: «يَعِظُكُمُ اللَّهُ» ويُنصَحكم أيها الخائضون في حديث الإفك بهذه المواعظ التي تعرفون بها عظمة هذا الذنب، كراهة «أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ» وترتكون نظيره في مدة حياتكم «أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بالله ورسوله واليوم الآخر، فإن الإيمان أقوى الروادع من المعاصي، وفيه تهيج وتقرع.

ثم نبه سبحانه على عظيم مته بقوله: «وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ» الدالة على الشرائع ومحاسن

٤٢٠ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

آداب دلالة واضحة، لتعظوا بها وتأدبوا بآداب الله ﴿وَأَلِّمُوا وَلَدَكُمْ﴾ بمصالح عباده وأحوالهم الظاهرة لباطنة ﴿حَكِيمٌ﴾ في أحكامه وتدابيره.

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [١٩]

ثم أنه تعالى بعد ذم الرامين بالفحش والجائين بالافك وإبعادهم بالعذاب، بين اشتراك المحبين شاعة الفواحش بين المؤمنين في جميع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ ويريدون ﴿أَنْ تَشِيعَ فَاحِشَةُ﴾ وتنتشر القبايح العظيمة ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا من الحدِّ والفضيحة ﴿وَفِي﴾ فِي ﴿الْآخِرَةِ﴾ من النار وسائر الشدائد ﴿وَأَلِّمُوا﴾ خفيات الأمور وجلياتها، وضمان العباد وظواهرهم، فيجازيهم على ضمانهم كما يجازيهم على ظواهرهم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إِلَّا مَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ من ظواهرهم، فعاملوهم بها.

عن النبي ﷺ: «إني لأعرف قوماً يضرّون صدورهم ضرباً يسمعه أهل النار، وهم الهمازون لمازون الذين يلتمسون عورات المسلمين، ويهتكون ستورهم، ويشتيعون فيهم من الفواحش ما س فيهم»^١.

وعنه ﷺ: «لا يستر عبد مؤمن عورة مؤمن إلا ستره الله يوم القيامة»^٢.

وعنه ﷺ: «المسلم من سلّم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هاجر»^٣ ما نهى الله عنه»^٤. وعن الصادق عليه السلام: «من قال في مؤمن ما رآته عيناه وسميعته أذناه، فهو من الذين قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ الآية»^٥.

وعن الكاظم عليه السلام أنه قيل له: الرجل من إخواني يبلغني عنه شيء الذي أكرهه، فأسأله عنه فينكر لك، وقد أخبرني عنه قوم من الثقات؟ فقال: «كذب سمعتك وبصرك عن أخيك، وإن شهد عندك حمسون قسامة، وقال لك قولاً فصدقه وكذبهم، ولا تذرعن عليه شيئاً تشينه به وتهدم به مروءته، تكون من الذين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ الآية»^٦.

وعن الصادق عليه السلام: قال: «قال رسول الله ﷺ: من أذاع فاحشة كان كمتديها»^٧.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ١٨٣.

١. تفسير الرازي ٢٣: ١٨٣.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ١٨٣.

٢. في تفسير الرازي: هجر.

٣. تفسير القمي ٢: ١٠٠، الكافي ٢: ٢٦٦/٢، أمالي الصدوق: ٥٤٩/٤١٧، تفسير الصافي ٣: ٤٢٦.

٤. الكافي ٨: ١٤٧/١٢٥، تفسير الصافي ٣: ٤٢٦. ٥. الكافي ٢: ٢٦٥/٢، تفسير الصافي ٣: ٤٢٦.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَوْوَفٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٢٠ و ٢١]

ثم بين سبحانه ميثه على ناشر الفواحش بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإمهالككم وتمكينكم من تدارك ما فرطتم على أنفسكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ زَوْوَفٌ﴾ وشديد المودة بكم ﴿رَحِيمٌ﴾ وعطوف عليكم بالنعم لعذبتكم، ولكن لرأفته ورحمته يراعي ما هو أصح لكم، وإن عصيتموه. ثم وعظهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ بإشاعة الفاحشة، ولا تشلوكوا مسالكه ولا تعملوا بسيرته، كما عمل أهل الإفك بإشاعة الفواحش ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ويحذو حذوه ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ بتزيينهما في نظره وترغيبه إليهما بوسوسته ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بوعظكم وتوفيقكم للتوبة، وتشريع الحدود المكفرة للذنوب، وتأنيده إياكم لتهذيب الأخلاق ﴿مَا زَكَا﴾ وما طهر من دنس الذنب والأخلاق الرذيلة ﴿مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ وإلى آخر الدهر ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ بفضلته ورحمته ﴿يُزَكِّي﴾ ويظهر من الذنوب بالحدود والتوفيق للتوبة وقبولها، والتأييد لتهذيب الأخلاق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده التي من جعلها ما قالوه من حديث الإفك والتكلم بالفواحش، وما أظهره من التوبة ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالهم من السعي في إشاعة المنكر، وأحوالهم من النفاق والخلوص في الإيمان والتوبة، أو عليم بما في قلوبهم من حب إشاعة الفاحشة وكرهاها.

وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [٢٢ و ٢٣]

ثم لما حلف أبو بكر على أن يقطع نفقته عن مِسْطَحَ ابن خالته مع كونه بدرياً مهاجراً فقيراً على ما قيل^١، نهى سبحانه أبا بكر عن الحلف المذكور وبره بقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلف ﴿أُولُوا الْفَضْلِ﴾

٤٢٢..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

وأصحاب الثروة ﴿مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ في العيش والمال على ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ أو المراد لا يقصروا في أن يعطوا من أموالهم ﴿أُولَى الْقُرْبَى﴾ وذوي الأرحام ﴿وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. قيل: نزلت في جماعة من الصحابة حلفوا على أن لا يتصدقوا على من تكلم بشيء من الإفك ولا يواسوهم^١.

وعن الباقر عليه السلام: «هم قرابة الرسول ﷺ»^٢.

ثم حث سبحانه على العفو والصَّحِّح بقوله: ﴿وَلْيَغْفُوا﴾ البتة عنهم ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ وليغضوا عن ذنوبهم وليعرضوا عن لومهم.

ثم بالغ سبحانه في الحث والترغيب بقوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بمقابلة عفوكم وصَّححكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم.

وعن الباقر عليه السلام: «يعفو بعضكم عن بعض ويصَّح بعضكم عن بعض، فإذا فعلتم ذلك كان رحمة من الله لكم، يقول الله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ الآية»^٣.

﴿وَ﴾ إن^٤ ﴿اللَّهُ غَفُورٌ﴾ ومبالغ في ستر الذنوب مضافاً إلى العفو و﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده المذنبين مع كمال قدرته على المواخظة.

ثم أكد سبحانه تهديد قاذفي المحصنات بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ﴾ بالفاحشة، ويقذفون النساء ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ والعفيفات ﴿الْعَافِلَاتِ﴾ عنها بحيث لا يخطر ببالهن شيء منها و﴿لَا﴾ من مقدماتها أصلاً، كما قيل^٥ ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بم يجب الايمان به إيماناً حقيقياً خالصاً من الشُّرك والشك ﴿لَعَنُوا﴾ بما قالوا في حقهن، وأبعدوا من الرحمة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أو يدعوا عليهم باللعن المؤمنون والملائكة أبدأ ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم ذنوبهم إذا لم يحدوا ولم يتوبوا.

قيل: إن المراد من المحصنات خصوص عائشة، ومن الموصول خصوص ابن أبي^٦ للدلالة الآية السابقة على العفو عن غيره.

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ

١. جوامع الجامع: ٣١٤، تفسير الصافي ٣: ٤٢٦. ٢. تفسير القمي ٢: ١٠٠، تفسير الصافي ٣: ٤٢٦.

٣. تفسير القمي ٢: ١٠٠، تفسير الصافي ٣: ٤٢٦.

٤. كذا، والتعبير لا يتفق مع حركة لفظ الجلالة، فهو مرفوع والسياق يقتضي النصب.

٥. تفسير أبي السعود ٦: ١٦٥، تفسير روح البيان ٦: ١٣٣.

٦. تفسير روح البيان ٦: ١٣٤.

يُؤْفِقُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ [٢٤ و ٢٥]

ثم قرّر سبحانه الوعد بالعذاب بتعيين وقت حلوله وتهويله ببيان ظهور موجبة من القذف وسائر المعاصي في ذلك الوقت بشهادة الجوارح عليها على رؤس الأشهاد بقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ التي نطقوا بها بالقذف وغيره من الكلمات المحرمة ﴿وَأَيُّدِيهِمْ﴾ التي عملوا بها المعاصي ﴿وَأَرْجُلُهُمْ﴾ التي سَعَوْا إليها ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من القذف وغيره مما صدر عنهم بانطاق الله جميعها بقدرته، فكل جارحة تشهد بما صدر عن صاحبها من القبائح والمعاصي ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِقُهُمُ اللَّهُ﴾ ويُعطيهم كاملاً ﴿دِينَهُمْ﴾ وجزاءهم ﴿الْحَقَّ﴾ الثابت الذي يستحقونه بمعاصيهم ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند شهادة الجوارح ومعاينة الأحوال وحكمه تعالى بتعذيبهم ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ والثابت الذي لا زوال لذاته وصفاته التي منها الحكمة والعدل، وأفعاله التي منها إعطاء كل مستحق ما يستحقه من الثواب والعقاب ﴿الْمُبِينُ﴾ والمظهر للأشياء كما هي في أنفسها، أو الثابت في ألوهيته الظاهر فيها، أو العادل الظاهر في عدله.

قيل: لو تَبَعَتْ ما في القرآن المجيد من آيات الوعيد الواردة في حق كل كفّارٍ مريدٍ وجبارٍ عنيدٍ لا تجد شيئاً منها فوق هاتيك القوارع المشحونة بفنون التهديد والتشديد، وما ذاك إلا لأجل إظهار منزلة النبي ﷺ في علو الشأن والنباهة وإبراز عصمة أزواجه^١ من الفحش المثافي لشأن النبوة.

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [٢٦]

ثم ختم سبحانه قصة الإفك بالحكم بطهارة أزواج النبي ﷺ من الفحش بقوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ من أقاويل أهل الإفك، أو الكلمات الدالة على الذم واللعن، أو النساء الزانيات ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الأقاويل، أو الذمائم، أو النساء الزواني بحيث لا يتجاوزهنّ ومن الرجال والنساء على التفسيرين الأولين، ومن الرجال على الثالث ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ من الفريقين، أو من الرجال ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ على المعنيين الأولين، أو من الرجال على الثالث.

القمي قال: الخبيثات من الكلام والعمل للخبيثين من الرجال والنساء.^٢

﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ من أقاويل منكري الإفك، أو الكلمات المحسنات مما فيه رضا الله، أو النساء العفيفات ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ والأعفاء من الرجال والنساء، يسلمونهم ويصدق عليهم من قال

﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ من الرجال والنساء ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ من الكلام والعمل.

وفي الإحتجاج عن الحسن المجتبى عليه السلام وقد قام من مجلس معاوية وأصحابه، وقد ألقمهم الحجر قال: «﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ هم والله يا معاوية أنت وأصحابك هؤلاء وشيعتك ﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ إلى آخر الآية، هم علي بن أبي طالب عليه السلام [وأصحابه] وشيعته^١.

﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون من الطيبين والطيبات من النساء، أو الطيبين على المعنيين الآخرين للطيبات ﴿مُبَرَّزُونَ﴾ ومنزهون ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيهم، أو من أن يقولوا مثل قولهم، أو من أن يقال بشيء في حقهم من الذم واللعن.

ثم أنه تعالى بعد تنزيههم من الفحش، أو القول والعمل السيئين، أثبت لهم الكرامة عنده بقوله: ﴿لَهُمْ﴾ بالاستحقاق ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة، لما لا يخلوا البشر من الزلات ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، وكثير أو الحسن الطيب في الآخرة من الجنة والدرجات العالية والنعم الدائمة والكرامات الفائقة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا
عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا
تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ [٢٧ و ٢٨]

ثم أنه تعالى بعد بيان حكم الرمي والقذف وعقابهما وسائر ما يتعلّق بهما، نهى عن الدخول في الخلوات الموجب للتهمة بغير إذن بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا﴾ مسكونة بالملك أو الإجارة أو العارية حال كونها ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ التي تسكنونها بأنفسكم ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ وتستأذنوا من ساكنيها في الدخول، وتستعلموا رضاهم به بالتسبيح أو التكبير أو التهنيت، كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أو وقع الفعل كما عن الصادق عليه السلام ^٢ ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ وساكنيها من وراء الباب بأن تقولوا: السلام عليكم أهل البيت أدخل.

روي أنه جاء امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على الحالة التي

١. الإحتجاج: ٢٧٨، تفسير الصافي ٣: ٤٢٧.

٢. تفسير روح البيان ٦: ١٣٧.

٣. تفسير القمي ٢: ١٠١، معاني الأخبار: ١/١٦٣، تفسير الصافي ٣: ٤٢٨.

لا أحب أن يراني عليها أحد، فيأتي الآتي فيدخل، فكيف أصنع؟ قال: «ارجعي» فنزلت هذه الآية^١. وفي (المجمع) عن النبي ﷺ: أن رجلاً استأذن عليه فتفتح، فقال [رسول الله ﷺ] لامرأة يقال لها روضة: «قومي إلى هذا فعلميه، وقولي له: قل السلام عليك^٢ أأدخل؟» فسمِعها الرجل فقالها، فقال: «أدخل»^٣.

وروي الفخر الرازي أنه استأذن رجلاً على رسول الله ﷺ فقال: أألج؟ فقال ﷺ لامرأة يقال لها روضة: «قومي إلى هذا فعلميه، فإنه لا يحسن أن يستأذن، قولي له يقول: السلام عليكم أأدخل؟» فسمِعها الرجل فقالها، فقال: «أدخل» فدخل، وسأل رسول الله ﷺ عن أشياء، وكان يجيبه، إلى أن قال: وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته: حَيَّيْتُمْ صباحاً، وحَيَّيْتُمْ مساءً، ثم يدخل، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحافٍ واحدٍ فصد الله تعالى عن ذلك، وعَلِمَ الأحسن والأجمل^٤.

وروي أبو هريرة عنه ﷺ أنه قال: «الاستئذان ثلاث: بالأولى يستنصتون، وبالثانية يستصلحون، وبالثالثة يأذنون أو يَرُدُّون»^٥.

وعن جندب، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يُؤذَنَ له فليرجع»^٦. وعن عطاء قال: سألت ابن عباس وقلت: استأذن على أختي وأنا^٧ أتفق عليها؟ قال: نعم، إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾^٨ ولم يفرق بين من كان أجنبياً أو ذا رحم^٩.

وروي أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: استأذن على أختي؟ فقال النبي ﷺ: «نعم، أتحب أن تراها عُريانة»^{١٠}.

وعن (المجمع) أن رجلاً قال للنبي ﷺ: استأذن على أُمِّي؟ قال: «نعم» قال: إنها ليس لها خادم غيري، أفأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: «أتحب أن تراها عُريانة» قال الرجل: لا. قال: «فأستأذن عليها»^{١١}.

وعن الصادق عليه السلام: «يستأذن الرجل إذا دخل على أبيه، ولا يستأذن الأب على ابنه، ويستأذن الرجل

٢. في مجمع البيان وتفسير الصافي: عليكم.

٤ - ٦. تفسير الرازي ٢٣: ١٩٧.

٨. النور: ٥٨/٢٤.

١٠. تفسير الرازي ٢٣: ١٩٩.

١. تفسير روح البيان ٦: ١٣٧.

٣. مجمع البيان ٧: ٢١٣، تفسير الصافي ٣: ٤٢٨.

٧. في تفسير الرازي: ومن.

٩. تفسير الرازي ٢٣: ١٩٩، وزاد فيه: محرم.

١١. مجمع البيان ٧: ٢١٣، تفسير الصافي ٣: ٤٢٨.

على ابنته وأخته إذا كانتا متزوجتين؟^١

وعنه **عليه السلام**: «إِنَّمَا الْإِذْنُ عَلَى الْبُيُوتِ، لَيْسَ عَلَى الدَّارِ إِذْنٌ»^٢.

ثُمَّ حَتَّى سَبَّحَانَهُ عَلَى الْاسْتِئْذَانِ وَالتَّسْلِيمِ بِقَوْلِهِ: «ذَلِكُمْ» الْمَذْكُورُ مِنَ الْاسْتِئْذَانِ وَالتَّسْلِيمِ «خَيْرٌ لَّكُمْ» مِنَ الدَّخُولِ بِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا أَمَرْتُمُ بِهِمَا «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» وَتَعْلَمُونَ مَا هُوَ أَصْلَحُ لَكُمْ، أَوِ الْمُرَادُ تَتَعَيَّنُونَ وَتَعْمَلُونَ بِمُوجِبِهِ «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا» فِي الْبُيُوتِ، وَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ «فِيهَا أَخْدًا» مِنْ سَاكِنِهَا أَصْلًا «فَلَا تَدْخُلُوهَا» وَاصْبِرُوا «حَتَّى يُؤْذَنَ» فِي الدَّخُولِ «لَكُمْ» لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِطْلَاعِ عَلَى مَا يَعْتَادُ النَّاسُ إِخْفَاءَهُ، أَوْ ثِمَّةَ السَّرْقَةِ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ جَعَلَ النَّهْيَ مَغْنًى بِالْاسْتِئْذَانِ مَوْجِباً لِلرُّخْصَةِ فِي تَكَرُّرِ الْاسْتِئْذَانِ وَلَوْ بَعْدَ الرَّدِّ دَفَعَ اللَّهُ التَّوَهُّمَ بِقَوْلِهِ: «وَإِنْ قِيلَ» مِنْ جِهَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ «لَكُمْ» لَا مَجَالَ لِلْإِذْنِ، وَنَحْنُ مُعْذَرُونَ فِيهِ «أَزْجِعُوا» وَانصَرَفُوا «فَارْجِعُوا» وَلَا تَلْجُوا فِي الْاسْتِئْذَانِ بِتَكَرُّرِهِ، وَلَا تَلْجُوا فِي الدَّخُولِ بِالْإِصْرَارِ عَلَى الْإِنْتِظَارِ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ الْإِذْنُ، فَإِنَّ الرُّجُوعَ «هُوَ أَزْكَى» وَأَطْهَرُ «لَكُمْ» مِمَّا لَا يَخْلُو عَنْهُ السُّجُودُ وَالْإِلْحَاحُ مِنْ جَلْبِ الْكِرَاهَةِ فِي الْقُلُوبِ وَالْقَدَحِ فِي الْمَرْوَةِ «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ» مِنَ الْإِلْحَاحِ وَالرُّجُوعِ «عَلِيمٌ» فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ [٢٩]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ حُكْمِ الْبُيُوتِ الْمَسْكُونَةِ لِلْأَشْخَاصِ الْخَاصَةِ، بَيَّنَّ حُكْمَ الْبُيُوتِ غَيْرِ الْمَوْضُوعَةِ لِسُكْنَى طَائِفَةٍ خَاصَةٍ بِقَوْلِهِ: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ» وَخَرَجَ فِي «أَنْ تَدْخُلُوا» بِغَيْرِ الْاسْتِئْذَانِ «بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ» لِشَخْصٍ مُخْصُوصٍ «فِيهَا مَتَاعٌ» وَاتْتِفَاعُ «لَكُمْ».

رَوَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيْكَ آيَةً فِي الْاسْتِئْذَانِ، وَإِنَّا نَخْتَلِفُ فِي تَجَارَتِنَا فَنَنْزِلُ هَذِهِ الْخَانَاتِ، أَفَلَا نَدْخُلُهَا إِلَّا بِإِذْنٍ؟ فَزِلْتُ^٣.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ: أَنَّهَا الْخَانَاتُ وَالرِّبَاطَاتُ وَحَوَانِيتُ الْبَيَّاعِينَ وَالْمَتَاعِ الْمُنْفَعَةِ كَالْإِسْتِئْذَانِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَإِيَاءِ الرِّجَالِ^٤ وَالسَّلْعِ وَالشَّرَاءِ وَالْبَيْعِ^٥.

١. الكافي ٥: ٣/٥٢٨، تفسير الصافي ٣: ٤٢٨.

٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ٦٧٧/١٥٤، تفسير الصافي ٣: ٤٢٨.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٠، تفسير أبي السعود ٦: ١٦٩.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٠.

٥. في تفسير الرازي: الرحال.

وقيل: إنها الحمامات^١.

وعن الصادق عليه السلام: «هي الحمامات والخانات والأرحية، وتدخلها بغير إذن»^٢.

أقول: الظاهر أن المراد كل بيت مُعد لدخول الناس ولو لبعض حوائجهم، وما ذُكر في الروايات إنما هو من باب المثال وذكر المِصدق، فيدخل في الآية محكمة القضاء، ومُطَب الأطباء، والمكتبة المُعدة لورود الناس ومطالعة الكتب ونظائرهما.

ثم أوعد الله سبحانه الداخلين في البيوت بقصد الفساد والاطلاع على العورات بقوله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ» وتُظهرون من الأعمال «وَمَا تَكْتُمُونَ» وتُسْتَرُونَ من الضمان والنيات فيجازيكم عليها.

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ خَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْزَاقِ أَوْ الرِّجَالِ أَوْ الْطُفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [٣٠ و ٣١]

ثم لما كان غَضُّ البصر وحِفْظُ الفروج من شؤون العفاف ووظيفة المستأذنين، أمر الرسول صلى الله عليه وآله بتبليغ وجوبهما إلى المؤمنين والمؤمنات بقوله: «قُلْ» يا محمد «لِلْمُؤْمِنِينَ» أيها المؤمنون غُضُّوا، كي «يَغُضُّوا» بعضاً «مِنْ أَبْصَارِهِمْ» عن النساء الأجنبية وخصوص عورات المحارم سوى الأزواج.

وقيل: إن كلمة (من) زائدة^٣ والمعنى يغضوا أبصارهم.

وقيل: إن المعنى أن يُقَيِّصُوا من نظرهم^٤ «وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» وعوراتهم من أن ينظر إليها الرجال والنساء من الأجنبية والمحارم سوى الأزواج.

وقيل: إنما قال «مِنْ أَبْصَارِهِمْ» ولم يقل: من فروجهم؛ لأنه قد يجوز النظر إلى ما عدا عورة

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٠، تفسير أبي السعود ٦: ١٦٩، تفسير روح البيان ٦: ١٣٩.

٢. تفسير القمي ٢: ١٠١، تفسير الصافي ٣: ٤٢٩. ٣. كنز العرفان ٢: ٢٢٠. ٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٢.

المحارم وإلى ما يظهر في العادة من وجوه الأجنيبات وأكفهن حال الضرورة، وإلى وجوه الإماء المستعرضات للبيع، وكذا الطبيب للعلاج، والشاهد لتحمل الشهادة وإقامتها، والنظر إلى المخطوبة مع إمكان نكاحها شرعاً وعرفاً، ويقتصر على نظر الوجه، وكذا النظرة الأولى من غير لذو أو ريبة لقوله ﷺ: «ولكم أول نظرة، فلا تتبعوها بالثانية»^١ وأما حفظ الفرج فهو أضيّق من الغض، لاختصاص التحريم بمن عدا الزوجة وملك اليمين، فلذلك لم يقل: من فروجه.

«ذُلك» المذكور من غَضِ البصر وحفظ الفرج «أزكى» وأظهر «لهم» من دس الريبة «إنَّ اللهَ حَيَّيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ» لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وأحوالهم، فليكونوا منه على حذر. روي أنَّ النظر سهم من سهام إبليس^٢.

وعن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال: إياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلوب شهوة^٣. وفي الحديث: «احفظوا لي ستاً من أنفسكم، أضمن لكم الجنة» - إلى أن قال: - «واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم»^٤.

«وَقُلْ» يا محمد «لِلْمُؤْمِنَاتِ» إِنَّهُنَّ «يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ» فلا ينظرون إلى ما لا يحل النظر إليه «وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ» بالتستر والتصون، وإنما قدّم الأمر بالغض لأنَّ النظر بريد الزنا ورائد الفجور.

عن الصادق عليه السلام: «كل آية في القرآن في حفظ الفروج فهي من الزنا إلا هذه الآية، فإنها من النظر، فلا يحل لرجل مؤمن أن ينظر إلى فرج أخيه، ولا يحل للمرأة أن تنظر إلى فرج أختها»^٥.

وفي رواية عنه عليه السلام: «وفرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرّم الله عليه، وأن يعرض عما نهى الله عنه ممّا لا يحل له، وهو عمله، وهو من الإيمان، فقال الله تعالى: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ - يُغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» فنهاهم أن ينظروا إلى عوراتهم، وأن ينظر المرأة إلى فرج أخيه، ويحفظ فرجه من أن ينظر إليه، وقال: «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ» فنهاهن من أن تنظر إحداهن إلى فرج أختها، وتحفظ فرجها من أن ينظر إليها». وقال: «كل شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنا إلا هذه الآية، فإنها من النظر»^٦.

وعن الباقر عليه السلام قال: «استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدينة وكان النساء يتقنعن خلف آذانهن،

١. كنز العرفان ٢: ٢٢١. ٢. تفسير روح البيان ٦: ١٤١.

٣. تفسير روح البيان ٦: ١٤٠. ٤. في تفسير روح البيان اضمموا.

٥. تفسير روح البيان ٦: ١٤٠. ٦. في تفسير القمي والصابي: ذكر.

٧. تفسير القمي ٢: ١٠١، تفسير الصافي ٣: ٤٢٩. ٨. الكافي ٢: ١٠٣، تفسير الصافي ٣: ٤٢٩.

فَنظَرَ إِلَيْهَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ، فَلَمَّا جَازَتْ نَظَرَ إِلَيْهَا وَدَخَلَ فِي زُقَاقٍ - سَمَاءُ بَنِي^١ فَلَانَ - فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا مِنْ خَلْفِهَا، فَاعْتَرَضَ وَجْهَهُ عَظْمٌ فِي الْحَانِطِ أَوْ زُجَاجَةٍ، فَشَقَّ [وَجْهَهُ] فَلَمَّا مَضَتْ الْمَرْأَةُ نَظَرَ فَإِذَا الدَّمَاءُ تَسِيلٌ عَلَى ثَوْبِهِ وَصَدْرُهُ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَتَيْنَ رَسُولَ اللَّهِ وَلَأُخْبِرَنَّهُ، فَأَتَاهُ فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: مَا هَذَا؟ فَأَخْبَرَهُ، فَهَبَطَ جَبْرِئِيلُ ﷺ بِهَذِهِ الْآيَةِ^٢.

ثُمَّ خَصَّ سَبْحَانَهُ النَّسَاءَ بِالنَّهْيِ عَنْ إِظْهَارِ الزَّيْنَةِ وَمَوَاضِعِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾ وَلَا يُظْهِرْنَ ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ قِيلَ: يَعْنِي الْمَحَاسِنَ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ عَلَيْهَا^٣.

وَقِيلَ: الْمَحَاسِنُ الْمَكْتَسِبَةُ الْقَلْبَ، وَالْقِلَادَةَ، وَالْقُرْطَ، وَالْخَلْخَالَ^٤ ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عَلَى حَسَبِ الْعَادَةِ كَالْكُحْلِ، وَالْخَاتَمِ، وَالسَّوَارِ.

عَنِ الصَّادِقِ ﷺ قَالَ: «الزينة الظاهرة الكحل والخاتم»^٥.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «الخاتم، والمَسَكَةُ، وَهِيَ الْقَلْبُ»^٦.

وَعَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: «هِيَ الثِّيَابُ، وَالْكُحْلُ، وَالْخَاتَمُ، وَخِضَابُ الْكَفِّ، وَالسَّوَارِ».

وَقَالَ: الزينة ثلاثة: زينة للناس، وزينة للمَحْرَمِ، وزينة للزوج، فَأَمَّا زينة الناس فقد ذكرناها، وَأَمَّا زينة المَحْرَمِ فموضع القِلَادَةِ فَمَا فَوْقَهَا، وَالدَّمْلُجُ^٧ وَمَا دُونَهُ، وَالْخَلْخَالُ وَمَا اسْتَقْلَّ^٨ مِنْهُ، وَأَمَّا زينة الزوج فَالْجَسَدُ كُلُّهُ^٩.

وَعَنِ الصَّادِقِ ﷺ، أَنَّهُ سَثَلَ: مَا يَجَلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَرَى مِنَ الْمَرْأَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَحْرُومًا؟ قَالَ: «الْوَجْهَ وَالْكَفَّانَ وَالْقَدَمَانِ»^{١٠}.

وَعَنِ (الْجَوَامِعِ) عَنْهُمْ ﷺ: «الْكَفَّانَ وَالْأَصَابِعُ»^{١١}. وَحَمَلَ الْأَخْبَارَ الْمَعَارِضَةَ عَلَى الْكَرَاهَةِ أُولَى مِنْ حَمَلِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ عَلَى التَّقْيَةِ أَوْ النَّظَرِ الْإِتْفَاقِي.

ثُمَّ قِيلَ: إِنَّ نِسَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ كُنَّ يَشُدُّنَ حُمْرَهُنَّ وَمَقَانِعَهُنَّ مِنْ خَلْفَهُنَّ، وَإِنَّ جُيُوبَهُنَّ كَانَتْ مِنْ قُدَامِ، فَكَانَتْ تَتَكَشَّفُ نَحْوَرُهُنَّ وَقِلَائِدُهُنَّ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنَاتِ بِسِتْرِ أَعْنَاقِهِنَّ وَنَحْوَرِهِنَّ^{١٢} بِقَوْلِهِ:

٢. الكافي ٥: ٥٢١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٠.

١. في تفسير الصافي: لبني.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٥٥.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢٥٥، وَالْقَلْبُ السَّوَارِ يَكُونُ نَظْمًا وَاحِدًا، وَالْقُرْطُ: مَا يَعْلَقُ فِي شَحْمَةِ الْأُذُنِ مِنَ الْخُلْيِ، وَالْخَلْخَالُ: حَلِيهِ كَالسَّوَارِ تَلْبِسُهَا النِّسَاءُ فِي أَرْجُلِهِنَّ.

٥. الكافي ٥: ٥٢١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٠.

٦. الكافي ٥: ٥٢١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٠.

٧. الدَّمْلُجُ سِوَارٌ يُحِيطُ بِالْعَصْدِ.

٨. تفسير القمي ٢: ١٠١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٠.

٨. فِي تَفْسِيرِي الْقَمِي وَالصَّافِي: وَمَا اسْفَلَ.

١١. جوامع الجامع ٣: ٣١٥، تفسير الصافي ٣: ٤٣٠.

١٠. الكافي ٥: ٥٢١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٠.

١٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٦.

٤٣٠ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

﴿وَلْيُضْرِبْنَ﴾ وليلقين ﴿بِخُمْرِهِنَّ﴾ وما يستر به رؤوسهن من المقانع ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ لتستر أعناقهن وتُحورهن وصدورهن وقلاندهن وقروطنهن وشعورهن عن الأجانب.

ثم أعاد سبحانه النهي عن إبداء الزينة بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ لتخصيصه بقوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ وأزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ وإن علوا ﴿أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ وفحولهن ﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ﴾ وإن نزلوا ﴿أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ كذلك ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ المختصات بهن من حرائر المؤمنات المؤمنات عن وصفهن للرجال، فإن الكافرات لا يؤتمن على ذلك.

عن الصادق عليه السلام: «لا ينبغي للمرأة أن تنكشف بين يدي اليهودية والنصرانية، فانهن يصفن ذلك لأزواجهن»^١.

أقول: لا شبهة أن النهي فيه للكرهة، كما يشعر به لفظ (لا ينبغي).

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من الإماء دون العبيد، كما عليه المشهور^٢ أو ولو كان عبداً كما عليه بعض العامة^٣، والخاصة لقول الصادق عليه السلام: «يعني العبيد والإماء»^٤.

وقوله عليه السلام: «لا بأس أن يرى المملوك الشعر والساق»^٥، وفي رواية: «شعر مولاته وساقها»^٦. وفي أخرى: «إلى شعرها إذا كان مأموماً»^٧. وعنه عليه السلام: «لا يحل للمرأة أن ينظر عبدها إلى شيء من جسدها إلا إلى شعرها غير متعمد لذلك»^٨.

أقول: يعني غير مُريد للتلذذ، وفي صورة الشك يُحتمل نظره على الصحة، ويؤيد ذلك نفي الحرج، وكون الدين سمحاً سهلاً أو المراد الإماء وخصوص الحصى من العبيد، لنقل الإجماع المعتقد بالشهرة على حرمة النظر في غيره، والصحاح سئل عن قناع الحرائر من الخصيان، فقال: «كانوا يدخلون على بنات أبي الحسن عليه السلام ولا يتقنعن».

قلت: إن كانوا أحراراً؟ قال: «لا».

قلت: فالأحرار يتقنع منهم؟ قال: «لا»^٩.

١. الكافي ٥: ٥١٩، من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٦٦/١٧٤٢، تفسير الصافي ٣: ٤٣١.

٢. مجمع البيان ٧: ٢١٧، تفسير روح البيان ٦: ١٤٣.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٠٧، تفسير البضاوي ٢: ١٢٢، تفسير أبي السعود ٦: ١٧٠.

٤. مجمع البيان ٧: ٢١٧، تفسير الصافي ٣: ٤٣١. ٥. الكافي ٥: ٥٣١/٢، تفسير الصافي ٣: ٤٣١.

٦. الكافي ٥: ٥٣١/٣، تفسير الصافي ٣: ٤٣١. ٧. الكافي ٥: ٥٣١/٤، تفسير الصافي ٣: ٤٣١.

٩. الكافي ٥: ٥٣٢/٣.

وقيل: المملوك منه داخل في قوله: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ﴾^١ لَهُنَّ، لأجل المعيشة حال كونهم ﴿غَيْرَ أَوْلَى الْأَرْزَاقَةِ﴾ والحاجة إلى النساء ﴿مِنْ الرِّجَالِ﴾ لعدم الشهوة كالخَصِيِّ المقطوع الأنثيين، والشيوخ الذين سقطت شهوتهم كما عن الكاظم عليه السلام.

نعم رُوِيَ عنه عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَكُونُ لَهُ الْخَصِيُّ يَدْخُلُ عَلَى نِسَائِهِ يُنَالُوهُنَّ الْوَضُوءَ^٢، فَيَرَى شُعُورَهُنَّ؟ قَالَ: «لَا»^٣.

وفي خبر آخر: سئل عن أُمٍّ وَلَدَ هَلْ يَصْلُحُ لَهَا أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهَا خَصِيٌّ مَوْلَاهَا وَهِيَ تَغْتَسِلُ؟ قَالَ: «لَا يَجَلُ ذَلِكَ»^٤.

ويمكن حمل الأول على الكراهة، والظاهر من الثاني السؤال عن رؤيته جميع بدنهما، مع أَنَّ بعض الأخبار المجوزة صحاح وبعضها موثقات بخلاف الأخيرين المانعين، وقيل بترجيح الأخيرين لموافقتهما للمشهور بين الخاصة، ومخالفتهما لما عليه أساطين^٥ العامة.

وفي أَنَّ ذهاب المشهور إلى المنع لعلَّه لتوهم الاجماع عليه، لا لِخَلَلٍ فِي الروايات المجوزة، ومخالفتها^٦ لما عليه الأساطين^٧، لو سلمت المعارضة بموافقتها^٨ لما عليه أساطين العامة، كأبي حنيفة فإنه حمل التابعين على العبيد الصغار حتى إِنَّه قَالَ: لَا يَجَلُ إِسْكَ الْخِصْيَانِ وَاسْتِخْدَامَهُمْ وَبِعَهُمْ وَشُرَاؤُهُمْ^٩، بل لم يُنْقَلِ الْجَوَازُ إِلَّا عَنِ الشَّافِعِيِّ فَإِنَّهُ حَمَلَ التَّابِعِينَ عَلَى الْخَصِيِّ وَالْمَجْثُوبِ^{١٠}. وَقَالَ الصَّبْرِيُّ: إِنَّهُ لَمْ يُشَبَّحْ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ.

والحاصل أَنَّ الأخبار المانعة موافقة للمشهور بين العامة الذين أَمَرْنَا بِمُخَالَفَتِهِمْ، مع أَنَّهُ مُخَالَفَةٌ لظَاهِرِ الْكِتَابِ الَّذِي أَمَرْنَا بِالْأَخْذِ بِمَا وَاقِفُهُ وَطَرَحَ مَا خَالَفَهُ، والأخبار المجوزة مؤيدة في صورة نظر الْخَصِيِّ الْمَمْلُوكِ لِلْمَرْأَةِ إِلَى شَعْرِ مَوْلَاتِهِ بِأَدَلَّةِ نَفْيِ الْحَرَجِ، وَكَوْنِ الشَّرِيعَةِ سَمْحَةً سَهْلَةً، وَجَوَازِ النِّظَرِ إِلَى شَعْرِ الْقَوَاعِدِ مِنَ النِّسَاءِ لِعَدَمِ كَوْنِهَا مُعْرِضَةً لِلشَّهْوَةِ وَالرَّيْبَةِ، وَنَظَرِ الْبُتْلَةِ^{١١} الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئاً مِنَ أُمُورِ النِّسَاءِ، كَمَا عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام تَفْسِيرَ التَّابِعِينَ بِهِمْ^{١٢}.

والظاهر من عبارة كثير من المانعين المنع من كون الْخَصِيِّ محرماً لمولاته بحيث يجوز له النظر إلى

١. مجمع البيان ٧: ٢١٨.

٢. الكافي ٥: ٥٣٢، تفسير الصافي ٣: ٤٣٢.

٣. الكافي ١: ٥٣٢.

٤. في النسخة: مخالفتها.

٥. في النسخة: بموافقتها.

٦. كنز العرفان ٢: ٢٢٣، وفيه الخصى المَجْثُوبُ، والمَجْثُوبُ: المقطوع الأنثيين.

٧. كنز العرفان ٢: ٢٢٣.

٨. البُتْلَةُ: جمع أبلة، وهو الذي ضعف عقله وغلبت عليه الغفلة.

٩. كنز العرفان ٢: ٢٢٣.

١٠.

ما عدا عورتها كسائر المحارم، ولا نقول به، بل نقول بجواز نظره إلى شعرها وساقها، وما في (المسالك) من جواز نظر الخَصِيّ بل الفحل إلى مالكته، وتبعه عليه بعض من تأخر عنه، محمول عليه.

فتبين من جميع ما ذكر أنه لولا الشهرة العظيمة، ودعوى الاجماع على المنع، لكان القول بجواز نظر كل من المرأة ومملوكها الخَصِيّ إلى شعر الآخر وساقه هو المتعين إلا أن الأحوال خلافه.

﴿أَوِ الطَّغْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا﴾ ولم يظهروا، أو لم يقدروا ﴿عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ لعدم تميزهم بينها وبين غيرها، أو عدم بلوغهم حداً يشتهون التمتع منهن ويتمكنون من جماعهن.

ثم بالغ سبحانه في نهى النساء عن إظهار زيتهن بقوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ﴾ على الأرض ﴿لِيُعْلَمَ﴾ بصوت الخلخال وغيره ﴿مَا يُخْفِينَ﴾ عن أعين الرجال ﴿مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ فإن ذلك مما يؤرث ميل الرجال إليهن، ويؤهم أن لهن الميل إلى الرجال.

قيل: كانت الجاهليات يضربن بأرجلهن على الأرض، ليشمّع صوت خلخالهن، فنهى المسلمات عن ذلك لأنه في حكم النظر^١.

وعن ابن عباس: كانت المرأة تثر بالناس وتضرب برجلها لتسمع قعقة الخلخال^٢. وفي النهي عن استماع صوت الزينة الدال على وجودها تأكيد للمنع عن إظهارها.

ثم لما كان حفظ النفس عن الشهوات في غاية الصعوبة بحيث لا تخلو نفس عن التقصير فيه، حث سبحانه الناس على التوبة بقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ من التفريط في أوامره ونواهيه، سيما في الكف عن الشهوات ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بها ﴿تُقْلِحُونَ﴾ وتفوزون بخير الدنيا والآخرة. وعن ابن عباس: توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون^٣.

وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ

يُعْظِمُهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [٣٢]

ثم أمر سبحانه بالنكاح الصائن عن السفاح بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا﴾ وزوجوا أيها الأولياء والموالي ﴿الْأَيَامَىٰ﴾ والغراب الأحرار من الذكر والأنثى ﴿مِنكُمْ﴾ ومن عشيرتكم ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ والمؤمنين أو الأهلين للنكاح ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.

وقيل: إن المراد من الصلاح معناه الظاهر، والتقيد به للترغيب فيه، فإنهم إذا علموا به رغبوا في

الصلاح والتقوى^١.

وقيل: إنه من باب التسمية باسم ما يؤول إليه، فإن الفاسق إذا زَوَّج استغنى بالحلال عن الحرام^٢.
ثم بالغ سبحانه بالحث عليه بقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا﴾ الأحرار والمماليك ﴿فُقَرَاءَ﴾ وعادمي المال
﴿يُغْنِيهِمُ اللَّهُ﴾ ويكفيهم مؤنتهم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وإحسانه فلا يمنع فقر الخاطب والمخطوبة من
المناسحة؛ لأن في فضل الله غنية ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ فضلاً وقدرة ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده في بسط الرزق
والتقدير، ففي الآية دلالة على استحباب النكاح للعزَّاب [سواء أكانوا أغنياء أم فقراء تانقين^٣ أم
مطيقين.

روي أنه «من تزوج فقد أحرز نصف دينه»^٤.

وعن الصادق عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: من ترك التزويج مخافة
العيلة^٥ فقد أساء ظنه بالله عز وجل، إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ﴾»^٦.

وعنه عليه السلام: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فشكا إليه الحاجة، فقال: تزوج فتزوج فوسع عليه»^٧.
وروى بعض العامة عنه عليه السلام: أن رجلاً شكاً إليه الفقر فأمره أن يتزوج فتزوج الرجل، فشكا إليه الفقر
فأمره بأن يطلّقها فستل عن ذلك فقال: «قلت له تزوج، لعله من أهل هذه الآية: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ
يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فلمّا لم يكن من أهلها قلت: طلقها، لعله من أهل آية أخرى: ﴿وإن يترفقا يغن
الله كلا من سعته﴾»^٨.

وفي الحديث: «يأتي على الناس زمان لا ثنّال فيه المعيشة إلا بالمعصية، فإذا كان ذلك الزمان حلت
العزوبة»^٩.

ثم إنه استدلل كثير من العامة بهذه الآية على أن أمر نكاح النساء بيد الأولياء، وليس لهم الاستبداد به
كالإماء اللاتي أمر نكاحهن بيد مواليهن. وفيه منع واضح، مضافاً إلى معارضتها بقوله: ﴿فلا
تعضلوهن إن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بالمعروف﴾^{١٠} وإلى الإجماع المحقق على استبداد
التيّبات به.

١. ٢. كنز العرفان ٢: ١٣٥.

٣. التائق: الشديد الاشتياق إلى الوطن.

٤. أمالي الطوسي: ١١٣٧/٥١٨.

٥. العيلة: الفقر والحاجة.

٦. الكافي ٥: ٣٣٠، تفسير الصافي ٣: ٤٣٢.

٧. الكافي ٥: ٢/٣٣٠، تفسير الصافي ٣: ٤٣٢.

٨. تفسير روح البيان ٦: ١٤٧، والآية من سورة النساء: ١٣٠/٤.

٩. تفسير روح البيان ٦: ١٤٨.

١٠. البقرة: ٢٣٢/٢.

وَلَيْسَتَغْفِبَ الَّذِينَ لَا يَعِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ
يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ
مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تَكْرِهُوا فَعَيَا تَكُمْ عَلَى أَسْيَاءٍ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحْصُنَا
لِنَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ عَفُورٌ
رَّحِيمٌ [٣٣]

ثم لما أمر سبحانه بالتزويج وترك الكف عنه مخافة العجز عن النفقة، أمر من لا يقدر على مقدماته
بالتعفف بقوله: ﴿وَلَيْسَتَغْفِبَ﴾ وليجتهد في حفظ النفس عن الحرام الرجال ﴿الَّذِينَ لَا يَعِدُونَ
نِكَاحًا﴾ ولا يقدر على مقدماته من المهر وسائر لوازمه المتعارفة بالرياضة الكاسرة للشهوة،
كالصوم كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يا معشر الشبان، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم
يستطع فعليه الصوم فإنه وجاء»^١.

أقول: الباءة: هو الجماع، واستعجل هنا في النكاح، والوجاء: رض أنثي الفحل رضاً شديداً قامعاً
لشهوة الجماع.

والمراد أن الصوم كالرض قاطع للشهوة، فعلى المؤمنين الفقراء أن يرضوا أنفسهم بالصوم،
ويضعفوا شهوتهم كي يحصل بذلك صيانة فروجهم وعفة أنفسهم ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ﴾ باعطائهم
ما يتزوجون به ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وجوده.

وعن الصادق عليه السلام - في تفسيره - قال «يتزوجون حتى يغنيهم الله»^٢.

أقول: يعني الذين ليس لهم مؤنة النكاح زائدة على معاشهم، فليستعففوا بالتزويج، بأن يسترضوا،
أو يبيعوا من أثاثهم وغيره كي يغنيهم الله.

ثم إنه تعالى بعد ترغيب الموالي في الإحسان إلى ممالئهم بالتزويج، رغبهم في الإحسان إليهم
بمكاتبتهم إذا طلبوها لأن يتحرروا ويتخلصوا من ذل الرقبة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون
منكم أيها الموالي ﴿الْكِتَابَ﴾ وجعل مال عليهم بعوض عتقهم ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من عبد أو
أمة ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ وأجيبوهم إلى ما طلبوه من بيعهم من أنفسهم ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ ورشداً
لتحصيل مال الكتابة من الحلال وقدرة عليه كما قيل^٣.

وعن النبي ﷺ: «إِنْ عَلِمْتُمْ لَهُمْ حِرْفَةً، فَلَا تَدْعُوهُمْ كَلًّا عَلَى النَّاسِ»^٤.

٢. الكافي ٥: ٧/٣٣١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٣.

١. تفسير الصافي ٣: ٤٣٣.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٧.

٣. تفسير أبي السعود ١٧٢: ٦، تفسير روح البيان ٦: ١٤٩.

وقيل: يعني إن عَلِمْتُمْ لَهُمْ صلاحاً في الدين^١.

وعن ابن عباس: إن عَلِمْتُمْ لَهُمْ مالاً، وهو مروى عن الصادق عليه السلام^٢.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «إن عَلِمْتُمْ ديناً ومالاً»^٣.

وفي الثالثة: «الخير أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويكون بيده عمل يكتسب به، و^٤ يكون له حِرْفَةٌ»^٥.

وعنه عليه السلام أنه سئل عن العبد يُكاتبه مولاه وهو يعلم أنه ليس له قليل ولا كثير؟ قال: «يكاتبه وإن كان يسأل الناس، ولا يمنعه المكاتبه من أجل أنه ليس له مال، فإن الله عز وجل يرزق العباد بعضهم من بعض، والمؤمن مُعَانٌ»^٦.

أقول: حاصل مجموع الروايات أنه يعتبر في استحباب المكاتبه إيمان العبد، وتمكّنه من أداء مال الكتابة، ولو بإعانة الغير.

ثم حثّ سبحانه الموالى إلى إكثار الإحسان إلى المكاتبين بقوله: ﴿وَأَتَوْهُمْ﴾ أيها الموالى، وأدفعوا إليهم شيئاً ﴿مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ﴾ ولو كان بعضاً ممّا جعلتم عليهم من مال الكتابة.

عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «كفى بالمرء شحاً أن يقول: آخذ حقّي ولا أترك منه شيئاً»^٧.

عن أبي عبد الرحمن أنه كاتب غلاماً له، فترك له ربع مكاتبته، وقال: إن علياً عليه السلام كان يأمرنا بذلك ويقول: «هو قول الله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ﴾ فان لم تفعل فالسُّعْيُ»^٨.

وعن الصادق عليه السلام قال: «تضع [عنه] من نجومه التي لم تكن تُريد أن تُنْقِصه [منها]، ولا تزيد فوق ما في نفسك». فقيل: كم؟ فقال: «وضع أبو جعفر عليه السلام [عن مملوكه] ألفاً من سِتَّةِ آلاف»^٩.

وعنه عليه السلام: «لا تقول أكتابه بخمسة آلاف وأترك له ألفاً، ولكن [انظر] إلى الذي أضمرت عليه فأعطه»^{١٠}.

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٨، تفسير البيضاوي ٢: ١٢٣.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٨، التهذيب ٨: ٩٧٥/٢٦٨، تفسير الصافي ٣: ٤٣٣.

٣. الكافي ٦: ١٠/١٨٧، التهذيب ٨: ٩٨٤/٢٧٠، تفسير الصافي ٣: ٤٣٣.

٤. في من لا يحضره الفقيه وتفسير الصافي: أو.

٥. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢٧٨/٧٨، تفسير الصافي ٣: ٤٣٣.

٦. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢٦٨/٧٦، وفيه: فالمحسن مُعَان، تفسير الصافي ٣: ٤٣٣.

٧. تفسير روح البیان ٦: ١٤٩. ٨. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٨.

٩. الكافي ٦: ١٧/١٨٩، تفسير الصافي ٣: ٤٣٤.

١٠. الكافي ٦: ٧/١٨٧، عن أحدهما عليه السلام، تفسير الصافي ٣: ٤٣٤.

وعن ابن عباس: أَدَّ الخطاب لغير السادات^١، والمراد وآتوهم سهمهم الذي جعل الله لهم من الصدقات في قوله: ﴿وفى الرقاب﴾^٢.

وقيل: هذا أمرٌ من الله للسادة وللناس أن يعينوا المكاتب على كتابته بما يمكنهم^٣.
وعن النبي ﷺ: «من آعان مكاتباً على فك رقبته أظله الله تعالى في ظل عرشه»^٤.
وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: علمني عملاً يدخلني الجنة. قال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعظمت المسألة، أعتق النَّسَمَةَ وفكَّ الرقبة» فقال: أليسا واحداً؟ فقال: «لا، عتق النَّسَمَةَ أن تنفرد بعتقها، وفكَّ الرقبة أن تُعين في ثمنها»^٥.

روي أن صبيحاً مولى خويطب بن عبد الغزى سأل مولاه أن يكتابه فأبى عليه فنزلت الآية^٦.
ثم أنه تعالى بعد أمر المولى بتزويج العبيد والإماء ومكاتبتهم، نهى عن الاساءة إليهم بإكراههم على الفجور بقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا﴾ أيها المولى ﴿فَتَيَاتِكُمْ﴾ وإماءكم ﴿عَلَى الْبَغَاءِ﴾ والفجور والتكسب بفروجهم ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ وتعففاً.

قيل: إن الشرطية لبيان تحقق موضوع الإكراه، لأن الإكراه لا يتحقق إلا مع إرادة الأمة التعفف^٧.
وقيل: إن القيد مبني على الغلبة، كما في قوله: ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾^٨.
وقيل: إن كلمة (إن) بمعنى إذا التوقيتية^٩.

﴿لِيَتَّبِعُوا﴾ وتطلبوا بإكراههم على الفجور ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وحطامها الفانية الدنية. روي أنه كان لعبد الله بن أبي سئ جوار: معاذة، ومسيكة، وأميمة، وعمرة، وأروى، وقتيلة، يكرههن على البغاء، وضرب عليهن الضرائب، فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت^{١٠}.
وقيل: إن عبد الله بن أبي اسر رجلاً، فراود الأسير جارية عبد الله، وكانت الجارية مسلمة، فامتنعت منه لاسلامها، فأكرهها ابن أبي على ذلك رجاء أن تحمل الجارية من الأسير، فيطلب فداء ولده فنزلت^{١١}.

وعن ابن عباس: أن عبد الله بن أبي جاء إلى رسول الله ﷺ ومعه جارية من أجمل النساء تسمى معاذة، فقال: يا رسول الله هذه الأيتام^{١٢}، أفلا نأمرها بالزنا فيصيبون من منافعها؟ فقال ﷺ: «لا» فأعاد

١. البقرة: ١٧٧/٢.

٢. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٨، وفيه: السادة.

٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٨.

٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٨.

٥. مجمع البيان ٧: ٢٢١.

٦. تفسير الرازي ٢٣: ٢١٧.

٧. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢٠.

٨. النساء: ٢٣/٤.

٩. تفسير الكشاف ٣: ٢٤٠.

١٠. في تفسير الرازي: لأيتام فلان.

١١. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢٠.

الكلام فنزلت^١.

وعن جابر بن عبدالله، قال: جاءت جارية لبعض الناس فقالت: إن سيدي يكرهني على البغاء، فنزلت^٢.

والقمي رحمه الله: كانت العرب وقريش يشترون الإماء، ويضعون^٣ عليهن الضريبة الثقيلة، ويقولون: اذهبن وازنين واكتسبن، فهاهم الله عز وجل عن ذلك^٤.

ثم بين سبحانه إحسانه بالمكرهات بقوله: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ﴾ على البغاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بهن لكونهن معذورات بسبب الإكراه، وإنما الإثم على المكرهين.

القمي رحمه الله: أي لا يؤاخذهن الله بذلك إذا أكرهن عليه^٥.

وعن الباقر عليه السلام: «هذه الآية منسوخة نسختها» فان اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب^٦.

أقول: الرواية مخالفة للقاعدة المتفق عليها.

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * اللَّهُ تَوَّابٌ أَلْهَمَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلَ نُّورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ * الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [٣٥ و ٣٤]

ثم أنه تعالى بعد بيان الأحكام الكثيرة، مدح كتابه الكريم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ وأحكام واضحة بلسانكم ﴿وَمَثَلًا﴾ وقصة عجيبة نظيرة للقصص العجيبة المتواترة ﴿مِنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ الذين خَلَوْا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الدنيا، كرمي البرئ الذي وقع في شأن يوسف ومريم، أو المراد إنا بينا قصة حلول العذاب بالأمم الذين من قبلكم لتكذيبهم الرسل، وجعلنا ذلك مثلاً لكم، لتعلموا أنكم إذا شاركتهم في المعصية كنتم مثلهم في استحقاق العذاب

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢٠.

٢. في تفسير القمي: ويجعلون.

٣. تفسير القمي ٢: ١٠٢، تفسير الصافي ٣: ٤٣٤.

٤. تفسير القمي ٢: ١٠٢، تفسير الصافي ٣: ٤٣٤، والآية من سورة النساء: ٢٥/٤.

﴿و﴾ انزلنا ﴿مَوْعِظَةً﴾ نافعة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والخائفين من الله، وسوء العاقبة من الوعيد، والتحذير عن المعاصي، كي تتعظوا بها وتنزجروا عنها.

ثم لما بين سبحانه الأحكام والحدود التي بها يتنظم العالم، وتتنسق أمور عيش بني آدم، وكان ذلك من شؤون مديريته للكل، وصف ذاته المقدسة بكمال التدبير وغاية الحكمة، أو من شؤون كونه هادياً إلى الخيرات ودليلاً منجياً من الظلمات بقوله: ﴿أَفَلَا تُرَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ومدبرهما بقدرته الكاملة وحكمته البالغة، وسائق الموجودات إلى كمالها اللاتق بها برحمته الواسعة، أو ناظمها أحسن نظام، أو منورهما بالشمس والقمر والكواكب، أو مظهرهما ومخرجهما من كتم العدم إلى الوجود، أو مزين السماوات بالكواكب، والأرض بالعلماء، أو هادٍ لأهل السماوات ولأهل الأرض، كما عن ابن عباس وأكثر مفسري العامة^١. وعن الرضا عليه السلام أيضاً^٢.

وعن البرقي هدى من في السماوات، وهدى من في الأرض^٣.

ثم بين وضوح هدايته بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ والحالة العجيبة لهدايته التي هي الآيات البينات الدالة على توحيده وكمال صفاته، أو القرآن الذي هو نور ومظهر للصراف المستقيم، أو الرسول الهادي إلى الدين القويم، أو معارفه في قلوب المؤمنين كما عن ابن عباس^٤ ﴿كَمِشْكَاتٍ﴾ ومثل كوة غير نافذة في الجدار موصوفة بأن^٥ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وسراج ضخم مثير ثاقب يكون ذلك ﴿الْمِصْبَاحُ﴾ موضوعاً ﴿فِي رُجَاجَةٍ﴾ وقنديل صافٍ أزهر متلألئ، تلك ﴿الرُّجَاجَةُ﴾ بحيث تكون من غاية تلالوها ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مضيء متلألئ من الكواكب الدراري المشهورة كالمشتري والزهرة والمريخ وعطارد وزحل و﴿يُوقَدُ﴾ ويشعل ذلك المصباح بذهن ﴿مِنْ﴾ ذهن ﴿شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ عظيمة النفع، أو النابتة في الأرض المباركة، تسمى بشجرة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ التي دعا عليها سبعون نبياً منهم الخليل كما قيل^٦ ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ﴾ تطلع عليها الشمس حين طلوعها دون غيرها ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تقع عليها حين غروبها فقط، بل تكون بين الجهتين كالشام، فتكون ثمرتها في غاية النضج، وزيتها في غاية الصفاء، لشروق الشمس عليها كل حين.

وقيل: يعني أنها لا توصف بالشرقية والغربية لأنها من شجر الجنة^٧.

١. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢٤، تفسير أبي السعود ٦: ١٧٥، تفسير روح البيان ٦: ١٥٣.

٢. التوحيد: ١١/١٥٥، تفسير الصافي ٣: ٥٣٨. ٣. تفسير الرازي ٢٣: ٢٢٣.

٤. كذا، والسياق يقتضي نصب كلمة (مصباح) وما بعدها، إلا أن تكون (أن) مخففة من الثقيلة مهملة.

٥. مجمع البيان ٧: ٢٢٥، تفسير الرازي ٢٣: ٢٣٦، تفسير روح البيان ٦: ١٥٥.

٦. تفسير الرازي ٢٣: ٢٣٦، تفسير روح البيان ٦: ١٥٥.

ومن صفات تلك [الشجرة] أَنَّهُ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ وَذَهْنُ ثَمَرِهَا ﴿يُضِيءُ﴾ بِنَفْسِهِ وَيَنُورُ مَا حَوْلَهُ ﴿وَأُولَٰئِكَ تَمْسِكُهُ﴾ وَلَمْ تُصَبِّهْ ﴿نَارٌ﴾ لِّغَايَةِ صَفَانِهِ وَتَلَاثِهِ، فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُ نَارٌ، فَذَلِكَ الْمِصْبَاحُ الْمُوقَدُ الْمُنِيرُ غَايَتُهُ مَعَ اجْتِمَاعِ نُورِهِ فِي الْمِشْكَاةِ وَالْكُوَّةِ، وَانْضِمَامِ نُورِهِ بِصَفَاءِ ذَهْنِهِ وَتَلَاوُزِ رُجَاجَتِهِ كَانَ لَهُ ﴿نُورٌ﴾ شَدِيدٌ مُضَاعَفٌ ﴿عَلَى نُورٍ﴾ شَدِيدٍ بَحِيثٌ بَلَغَتْ شَدَّتُهُ غَايَتَهَا.

وحاصل المعنى أَنَّهُ بِنَاءٌ عَلَى كَوْنِ الْمَرَادِ بِالنُّورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ الْهَدَايَةُ أَوِ الْقُرْآنُ أَوْ هَدَايَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ حَقَّانِيَةِ الْقُرْآنِ قَدْ بَلَغَتْ فِي الظُّهُورِ وَالْجَلَاءِ إِلَى أَقْصَى الْغَايَاتِ، وَصَارَتْ فِي الظُّهُورِ بِمَنْزِلَةِ الْمِشْكَاةِ الَّتِي فِيهَا رُجَاجَةٌ صَافِيَةٌ مُتَلَاثِنَةٌ، وَفِي الرُّجَاجَةِ مِصْبَاحٌ مُتَوَقَّدٌ بِزَيْتٍ لَهُ نِهَازَةُ الصَّفَاءِ، وَأَمَّا شَبْهُهَا بِسَبْحَانِهِ بِذَلِكَ، مَعَ أَنَّ التَّشْبِيهَ بِضَوْءِ الشَّمْسِ أَبْلَغُ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ التَّشْبِيهَ بِضَوْءٍ كَامِلٍ ظَاهِرٍ بَيْنَ الظُّلُمَاتِ، وَلَيْسَ ضَوْءُ الشَّمْسِ كَذَلِكَ، لِأَنَّهُ إِذَا ظَهَرَ امْتَلَأَ الْعَالَمُ وَلَا تَبْقَى ظِلْمَةٌ فِيهِ ﴿يَهْدِي اللَّهُ﴾ بِهَدَايَتِهِ الْخَاصَّةِ الْمَوْصَلَةِ ﴿لِلنُّورِ﴾ وَشُرْعُهُ وَأَحْكَامُهُ، أَوْ إِلَى فَهْمٍ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ دَلَالَتِ حَقَّانِيَّتِهِ وَالْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هَدَايَتِهِ مِنْ عِبَادَةٍ ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ وَيَقْرُبُ الْمَطَالِبَ الْعَقْلِيَّةَ الْعَالِيَةَ إِلَى الْأَفْهَامِ الْقَاصِرَةِ بِتَصَوِيرِهَا بِصُورَةِ الْمَحْسُوسَاتِ لُطْفًا بِالْعِبَادِ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مِنْ الْمَعْقُولَاتِ وَالْمَحْسُوسَاتِ وَدَقَائِقِهَا وَجَلَالَتِهَا، وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ وَغَيْرِهَا ﴿عَلِيمٌ﴾، وَأَمَّا بِنَاءٌ عَلَى كَوْنِ الْمَرَادِ مِنَ النُّورِ نَوْرَ الْإِيمَانِ، فَالْمَرَادُ تَشْبِيهُ صَدْرِ الْمُؤْمِنِ بِالْمِشْكَاةِ، وَقَلْبُهُ بِالرُّجَاجَةِ الْكَائِنَةِ فِي الْمِشْكَاةِ، وَالْإِيمَانُ بِالْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ، وَحَصُولُهُ مِنَ الْبَرْهَانِ وَالْإِيَانِ بِتَوَقُّدِ الْمِصْبَاحِ مِنْ ذَهْنِ الزَّيْتُونِ الصَّافِي.

عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، عَنْ أَبِيهِ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ: «إِبْدَأُ بِنُورِ نَفْسِهِ ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يَعْنِي مِثْلَ هِدَاةٍ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الْمِشْكَاةُ جُوفُ الْمُؤْمِنِ، وَالْقِنْدِيلُ قَلْبُهُ، وَالْمِصْبَاحُ النُّورُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ^١ ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ قَالَ: الشَّجَرَةُ الْمُؤْمِنُ ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قَالَ: عَلَى سِوَاءِ الْجَبَلِ، لَا شَرْقِيَّةٌ أَيْ لَا شَرْقَ لَهَا، وَلَا غَرْبِيَّةٌ أَيْ لَا غَرْبَ لَهَا، إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ طَلَعَتْ عَلَيْهَا، وَإِذَا غَرِبَتْ غَرِبَتْ عَلَيْهَا ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ يَكَادُ [النُّورُ] الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ يُضِيءُ وَإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ فَرِيضَةٌ بَعْدَ^٢ فَرِيضَةٍ، وَسَنَةٌ بَعْدَ^٣ سَنَةٍ ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ قَالَ: يَهْدِي اللَّهُ لِفَرَاغِهِ وَسُنَّتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: فَهَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ، قَالَ: فَالْمُؤْمِنُ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةِ مِنَ النُّورِ: مَدْخَلُهُ

١. فِي تَفْسِيرِ الْقَمِي: اللَّهُ فِي قَلْبِهِ.

٢. ٣. فِي تَفْسِيرِ الْقَمِي: عَلَى.

نور، ومخرجه نور، وعلمه نور، وكلامه نور، ومصيره يوم القيامة إلى الجنة والنور^١.

قال الراوي: قلت لجعفر عليه السلام: إنهم يقولون مثل نور الرب؟ قال: «سبحان الله ليس لله مثل، أما قال ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ؟﴾^٢».

وقيل: إن المراد بالنور هو المعارف الالهية^٣، فشبه سبحانه صدر المؤمن بالمشكاة، وقلبه بالزُّجاجة، وعرفانه بالمصباح، وتوقده من الشجرة المباركة حصوله من إلهامات الملائكة، وإنما شبه الملائكة بالشجرة المباركة لكثرة منافعهم، وإنما وصفها بأنها لا شرقية ولا غربية لأنها روحانية، وإنما وصفهم بقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ لكثرة علومهم وإطلاعهم على أسرار ملكوت الله.

وقيل: إن المراد من النور دين الإسلام^٤، فشبه سبحانه صدر النبي ﷺ بالمشكاة، وقلبه بالزُّجاجة، ودينه بالمصباح، وتوقده من شجرة مباركة وصوله إلى النبي ﷺ من إبراهيم، فإن دين الإسلام هو ملة إبراهيم، ثم وصف إبراهيم بكونه لا شرقية ولا غربية، لأنه لم يصل قتل المشرق كالنصارى وقبل المغرب كاليهود، بل صلى إلى الكعبة.

وقيل: إن المراد من النور نبوة محمد ﷺ، فشبه صلب عبدالله بالمشكاة، وجسد محمد ﷺ بالزُّجاجة، ونبوته في قلبه بالمصباح^٥.

وقيل: إن في الآية قلباً، والتقدير: مثل نوره كمصباح في مشكاة^٦.

وعن الصادق عليه السلام: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: «كذلك الله عز وجل ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ قال: محمد ﷺ ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ قال: صدر محمد ﷺ ﴿فِيهَا مُصْبَحٌ﴾ قال: فيه نور العلم، يعني النبوة ﴿الْمُصْبَحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ قال: علم رسول الله ﷺ صَدَرَ إِلَى قَلْبِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، لا يهودي ولا نصراني ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [قال: يكاد] يخرج العلم من فم [العالم من] آل محمد من قبل أن ينطق به ﴿تُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قال: الامام في أثر الامام^٧.

«وعن الباقر عليه السلام - في حديث - «يقول الله: أنا هادي السماوات والأرض، مثل العلم الذي أعطيته وهو النور الذي يُهْتَدَى به مثل المشكاة فيها المصباح، المشكاة قلب محمد ﷺ والمصباح نوره

١. في تفسير القمي والصابي: الجنة نور.

٢. تفسير القمي ٢: ١٠٣، تفسير الصافي ٣: ٤٣٦، والآية من سورة النحل: ٧٤/١٦.

٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٣: ٢٣٢ و ٢٣٣. ٥ و ٦. تفسير الرازي ٢٣: ٢٣٥.

٧. التوحيد: ٣/١٥٧، تفسير الصافي ٣: ٤٣٥.

الذي هو^١ العلم، وقوله: ﴿الْمُصْبِحُ فِي رُجَاةٍ﴾ يقول: إني أريد أن أقيضك فأجعل الذي عندك عند الوصي، كما يجعل المصباح في رُجَاةٍ كأنها كوكبٌ دُرِّي، فأعلمهم فضل الوصي ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ فأصل الشجرة المباركة إبراهيم عليه السلام، وهو قول الله عز وجل: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾^٢ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم^٣.

﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ يقول: لستم بيهود فصلوا قِبَلَ المغرب، ولا نصارى فصلوا قِبَلَ المشرق، وأنتم على مِلَّةِ إبراهيم عليه السلام، وقد قال الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^٤.

وقوله عز وجل: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ يقول: مثل أولادكم الذين يؤلّدون منكم مثل الزيت [الذي] يُغَصَّر من الزيتون، يكادون أن يتكلّموا بالنبوة ولم لم ينزل عليهم المَلَكُ^٥.
أقول: لا يخفى اغتشاش متن الرواية.

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ *
رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ
يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا
وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [٣٦-٣٨]

ثم إنه تعالى بعد بيان عظّمته وظهور توحّيده بالآيات التكوينية، وظهور هدايته لأهل العالم، وأن هداية المهتدين بتوفيقه، ذكر حال المهتدين واستغراقهم في ذكره وتسبيحه بقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ عظيمة الشأن التي ﴿أَذِنَ اللَّهُ﴾ وأعلن بالاجازة والرخصة في ﴿أَنْ تُرْفَعَ﴾ تلك البيوت قدراً وتعظيماً وتقديساً ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بالثناء والتمجيد ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ والصباح والمساء.
قيل: إن ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ صفة (مشكاة) والمعنى: كمشكاة فيها مصباح في بيوت^٦.
وقيل: متعلّق بـيوقد، والمعنى: يؤقّد من شجرة مباركة في بيوت^٧، أو بالفعل المقدّر، والمعنى: صلّوا في بيوت.

٣. آل عمران: ٣٣/٣ و٣٤.

٢. هود: ٧٣/١١.

١. في الكافي: النور الذي فيه.

٦ و٧. تفسير الرازي ٢: ٤٣٥.

٥. الكافي ٨: ٥٧٤/٣٨٠، تفسير الصافي ٣: ٤٣٥.

٤. آل عمران: ٦٧/٣.

قيل: إن المراد المساجد الأربعة^١.

وعن ابن عباس: جميع المساجد^٢.

وعن الباقر عليه السلام: «هي بيوت الأنبياء والرسل والحكماء وأئمة الهدى»^٣.

والقمي عنه عليه السلام: «هي بيوت الأنبياء، وبيت علي عليه السلام منها»^٤.

وعن الصادق: «هي بيوت النبي صلى الله عليه وآله»^٥.

وروى أن قتادة قال للباقر عليه السلام: والله لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدامهم^٦ فما اضطرب قلبي

قدام واحد منهم ما اضطرب قدامك. فقال له: «أتدري أين أنت؟ بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع» إلى آخر الآية «فأنت ثم ونحن أولئك».

وقيل: إن المراد بالتسبيح مطلق تنزيه الله تعالى ممّا لا يليق به^٧.

وقيل: إنه الصلوات الخمس كلها^٨.

وعن ابن عباس: أن صلاة الصُّحى لفي كتاب الله تعالى مذكورة، وتلا هذه الآية^٩.

وقيل: إنه صلاة الصبح والعصر^{١٠}.

ثم كأنه قيل: من يسبح فيها؟ فأجاب سبحانه بقوله: «رِجَالٌ» مؤمنون «لَّا تُلهِيهِمْ» ولا تشغلهم

«تِجَارَةٌ» ومعاملة مالية رابحة «وَلَا بَيْعٌ» ومبادلة مال بمال «عَن ذِكْرِ اللَّهِ» قلباً ولساناً «وَأَقَامِ

الصَّلَاةَ» وأدائها بأدائها وشرائطها، فرائضها ونوافلها كما عن ابن عباس^{١١} «وَأَيَّاءَ الزَّكَاةِ» الواجبة،

وصرفها في مصارفها المقررة وعن ابن عباس المراد منها طاعة الله تعالى والاخلاص^{١٢}، وهم مع ذلك

«يَخَافُونَ يَوْمًا» هائلاً عظيماً «تَتَّقَلَّبُ» وتتغير «فِيهِ» من حال إلى حال «الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» من

شدة أهواله كما قال تعالى: «مَهْطَعِينَ مَقْنَعَىٰ رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدَّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ أَسْوَادُ»^{١٣}.

قيل: تقلّب القلوب بالتفقه بعد الطمع، وتقلّب الأبصار بالتبصر بعد العمى^{١٤}.

وقيل: تقلّب القلوب بلوغها الحناجر، وتقلّب الأبصار صيرورتها زرقاً^{١٥}.

وقيل: تغيرهما بالحرقة والنضج بسبب العذاب، إذ تقلبهما على جمر جهنم^{١٦}.

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٣.

٣. كمال الدين: ٢/٢١٨، تفسير الصافي ٣: ٤٣٦.

٤. الكافي ٨: ٥١٠/٣٣١، تفسير الصافي ٣: ٤٣٦.

٥. الكافي ٦: ١٢٥٦، تفسير الصافي ٣: ٤٣٧.

٦ و ١٢. تفسير الرازي ٢٤: ٥.

٧ و ١٦. تفسير الرازي ٢٤: ٦.

٨. في كمال الدين وتفسير الصافي: بيوتات.

٩. تفسير القمي ٢: ١٠٤، تفسير الصافي ٣: ٤٣٦.

١٠. في الكافي: وقدام ابن عباس.

١١ و ٩. تفسير الرازي ٢٤: ٤.

١٢ و ١٤. إبراهيم: ٤٣/١٤، ١٥. تفسير الرازي ٢٤: ٥.

وقيل: إن القلوب تتقلب طمعاً في النجاة، وحذراً من العذاب، والأبصار تتقلب ليرى من أي ناحية يؤمر بهم إلى النار، ومن أي جهة يُعطون كتابهم.

وانما يداومون على التسبيح، ويستغفرون في الذكر، ويهتمون بالعبادات البدنية والمالية ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ ويثيبهم في ذلك اليوم ﴿أَحْسَنَ﴾ جزاء ﴿مَا عَمِلُوا﴾ من العبادات والطاعات حسبما وعد لهم ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ على ما وعدهم أطفافاً وأنعاماً آخر لم يعدهم بها ولا تخطر على قلب أحد ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وكرمه ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ﴾ ويعطي نعمة ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إعطاء الرزق والتعم ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وبحيث لا يقدر أحد على تعداده وتقديره.

ثم اعلم أن بعض العامة نسب إلى كثير من الصحابة أنهم قالوا: نزلت هذه الآية في أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة تركوا كل شغل وبادروا إليها، لا في أصحاب الصفة الذين تركوا التجارة ولزموا المسجد^٢.

عن الصادق عليه السلام - في هذه الآية - قال: «كانوا أصحاب تجارة، فإذا حضرت الصلاة تركوا التجارة وانطلقوا إلى الصلاة، وهم أعظم أجراً ممن لا يتجر»^٣.

وفي (الكافي) رفعه قال: «التجار الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله عز وجل، إذا دخلت مواقيت الصلاة أدوا إلى الله حقها فيها»^٤.

وعنه عليه السلام أنه سأل عن تاجر ما فعل؟ فقيل: صالح ولكنه قد ترك التجارة، فقال: «عمل الشيطان - ثلاثاً - أما علم أن رسول الله ﷺ اشترى عيراً أتت من الشام، فاستفضل فيها ما قضى دينه، وقسم في قرابته، يقول الله عز وجل «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» الآية، يقول القصاص: إن القوم لم يكونوا يتجرون، كذبوا ولكنهم لم يكونوا يدعون الصلاة في ميقاتها، وهو أفضل ممن حضر الصلاة ولم يتجر»^٥.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ

١. زاد في تفسير روح البيان: وأمثالهم. ٢. تفسير روح البيان ٦: ١٦٠.

٣. من لا يحضره الفقيه ٣: ٥٠٨/١٩٩، تفسير الصافي ٣: ٤٣٧.

٤. الكافي ٥: ٢١/١٥٤، تفسير الصافي ٣: ٤٣٧. ٥. الكافي ٥: ٨/٧٥، تفسير الصافي ٣: ٤٣٧.

نور [٣٩ و ٤٠]

ثم إنه تعالى بعد بيان حسن حال المؤمنين، وأنهم في الدنيا في النور، وفي الآخرة في النعيم والسرور، بين سوء حال الكفار في الدارين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿أَعْمَاءُ لَهُمْ﴾ الخيرية كصلة الأرحام وإطعام الطعام وأمثالهما مما لو قارنه الإيمان كان لهم أجراً عظيماً عند الله يكون ﴿كَسْرَابٍ﴾ وسبخة تُلْمَع الشمس عليها عند الظهيرة، فيرى أنها ماء جارٍ ﴿بِقِيَعَةٍ﴾ وأرض منبسطة مستوية ﴿يَخْسَبُهُ الظُّلُمَانُ﴾ ويؤوئهم العطشان إذا رآه من البعيد ﴿مَاءٌ﴾ جارياً، ويسعى في الوصول إليه ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ قَرَّبَ منه و ﴿جَاءَهُ﴾ طامعاً لرفع العطش به ﴿لَمْ يَجِدْهُ سَيْئًا﴾ قابلاً للشرب والانتفاع به، فيخيب رجاءه، كذلك الكافر يعمل عمل البر في الدنيا [أو] يطمع الانتفاع به في الآخرة، ثم إذا وافى عرصات القيامة وجد ما عمل هباءً منثوراً، لا يكون له فيه نفع وثواب، بل حاله أسوأ من الظلمات الذي قصارى أمره الخيبة، فإن الكافر الخائب خيبته أعظم من خيبة الظلمات، ومع ذلك ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ﴾ ورأى عقابه الشديد، أو وجد زبانية الله ﴿عِنْدَهُ﴾ فانقلب ظن الانتفاع به بيقين الضرر العظيم فيه لكفره، فتعظم حسرته، ويتناهى غمه وكربه ﴿فَوَقَاةٌ﴾ الله وأعطاه بنحو الكمال ﴿حِسَابَةً﴾ وجزاء بلا رَيْثٍ ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وإنما أفرد سبحانه الضميرين الراجعين إلى الكفار والضمير الراجع إلى أعمالهم للحمل على إرادة كل واحدٍ منهم ومنها.

قيل: نزلت في عتبة بن ربيعة، فإنه كان قد تعبد في الجاهلية، وليس المسوح^١، والتمس الدين، فلما جاء الإسلام كفر^٢.

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر لأعمالهم الفاسدة بقوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ كانه ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ وبعد القعر حين ﴿يَغْشَاهُ﴾ ويشتريه ﴿مَوْجٌ﴾ عظيم ﴿مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ عظيم آخر، فلما تراكمت الأمواج ارتفع على الموج الأعلى وحدث ﴿مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ غليظ ظلماتي سائر أضواء النجوم، فتحصل بسبب ظلمة البحر العميق وظلمة الأمواج المتراكمة ظلمة السحاب ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ عديدة متكاثفة ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فتشتد الظلمة بحيث إنه ﴿إِذَا أُخْرِجَ﴾ المبتلى بها ﴿يَذْهَبُ﴾ من جيبه وقربها من عينه ﴿لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا﴾ فضلاً من أن يراها مع كونها أقرب شيء منه، وكذا لا يمكن أن يرى الكافر المبتلى بظلمة الكفر وظلمة الأخلاق السيئة وظلمة حب الدنيا عمله.

قيل: إن المثل الأول لأعمالهم الحسنة، والثاني لأعمالهم القبيحة^٣.

١. المسوح: جمع مسح، وهو كساء من شعر.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٨.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٨، تفسير البياضوي ٢: ١٢٦، تفسير أبي السعود ٦: ١٨١.

وقيل: إن الأول لأعمالهم، والثاني لعقائدهم، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^١ واستدل عليه بقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ وإيماناً وهداية ﴿فَمَا لَهُ﴾ شيء ﴿مِنْ نُورٍ﴾ وهداية إلى خير أصلاً.

وقيل: إن المثل لمجموع عقائدهم وأعمالهم، والمراد من الظلمات ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل^٢.

وعن أبي بن كعب: الكافر يتقلب في خمسين من الظلم: ظلمة كلامه، وظلمة عمله، وظلمة مدخله، وظلمة مخرجه، وظلمة مصيره إلى النار^٣.
وقيل: إنه مثل للكافر نفسه^٤.

عن ابن عباس: شبه قلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث^٥.

وقيل: قلبه مظلّم وصدّره مظلّم، وجسده مظلّم^٦.

وقيل: إن الكافر في ظلمات ثلاث، حيث إنه لا يدري، [ولا يدري] أنه لا يدري، ويعتقد أنه يدري^٧.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلُّ قَدْ
عِلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَفِي تِلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ [٤١ و ٤٢]

ثم لما بين الله سبحانه حال رجال مهتدين بنوره، مستغرقين في أنوار توحيده ومعارفه، ومتوجهين إلى ذكره وتسبيحه والقيام إلى الصلاة له، بخلاف المشركين المنغمسين في الظلمات، بين أن لكل موجود معرفة بتوحيد خالقه وذكره وتسبيحه^٨ وصلاة له تعالى على حسبه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾ ويُنْزِّهه في ذاته وصفاته وأفعاله مما لا يليق به من القصد والخلل ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما^٩ من العقلاء وغيرهم تنزيهاً معنوياً بلسان الحال، وهو إمكانه وتكوينه وتغييره، أو تعبير مناسب بحيث تفهمه العقول السليمة، وذكر (من) في الآية لتغليب العقلاء ﴿و﴾ تسبيح ﴿الطَّيْرِ﴾ بأنواعها حال كونها ﴿صَافَّاتٍ﴾ بأجنحتها، باسقاط لها في الهواء، متمكنات من الوقوف والحركة في الجوز كيف تشاء، مع اقتضاء ثقل جسمها السقوط وإنما أفردا بالذكر مع كونها داخلة^{١٠}.

٦. تفسير الرازي ٢٤: ٩.

٩. في النسخة: وما فيها.

٢. ٥. تفسير الرازي ٢٤: ٨.

٨. في النسخة: وذكر وتسبيح.

١. البقرة: ٢٥٧/٢.

٧. تفسير الرازي ٢٤: ٨.

١٠. في النسخة: داخلاً.

٤٤٦ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

في ما في الأرض، لكونها حال الطيران بين السماء والأرض، و﴿كُلُّ﴾ من الأشياء المذكورة مع تنزيهه التكويني ودلالة كمال نقصه على كمال خالقه ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ بإلهام الله ﴿صَلَاتُهُ﴾ وابتهاله إلى الله في حاجته واستغاضته من فضله ﴿وَتَسْبِيحُهُ﴾ وتنزيهه الاختياري خالقه.

عن الصادق عليه السلام: «ما من طير يُصاد في بَرٍّ أو بحرٍ، ولا يُصاد شيءٌ من الوحش إلا بتضييعه التسبيح»^١.

وروى بعض العامة عن أبي ثابت، قال: كنت جالساً عند أبي جعفر^٢ الباقر عليه السلام، فقال لي: أتدري ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها؟ قلت: لا. قال: «إِنَّهُنَّ يُقَدِّسْنَ رَبَّهُنَّ وَيَسْأَلُنَهُ قُوَّتَ يَوْمِهِنَّ»^٣.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ مَلَكاً في صورة الديك الأملح الأشهب، برائته^٤ في الأرض السابعة، وعُرفه تحت العرش، له جناحان: جناح بالشرق، وجناح بالمغرب، فأما الجناح الذي في المشرق فمن ثلج، والجناح الذي في المغرب فمن نار، فكلما حضر وقت الصلاة قام [الديك] على برائته، ورفع عُرفه تحت العرش، ثم أمال أحد جناحيه إلى الآخر يُصَفِّقُ بهما كما يُصَفِّقُ الديك في منازلكم، فلا الذي من الثلج يُطْفِئُ النار، ولا الذي من النار يُذِيبُ الثلج، ثم ينادي بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين، وأن وصيه خير الوصيين شُوح قُدُّوس رب الملائكة والروح. فلا يبقى في الأرض ديك إلا أجابه، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾»^٥.

قيل: إننا نشاهد أن الله تعالى ألهم الطيور والحشرات أعمالاً لطيفة، يعجز عنها أكثر العقلاء، فلم لا يجوز أن يُلهمها معرفته ودعائه وتسبيحه؟^٦

وقال آخر: إن الله خلق الخلق ليسبحوه، فأنطقهم بالتسبيح له والثناء عليه والسجود له، وأشهد نبيه^٧ ذلك وأراه، ولذا قال مخاطباً لنبيه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾ إلى آخره، ولم يقل: ألم تروا، لأننا ما رأيناه فهو لنا إيمان، ولمحمد ﷺ عيان^٨.

١. تفسير القمي ٢: ١٠٧، تفسير الصافي ٣: ٤٣٩.

٢. في النسخة: جعفر بن محمد، وفي تفسير الرازي: محمد بن جعفر.

٣. تفسير الرازي ٢: ١٠، تفسير روح البيان ٦: ١٦٤. ٤. البرائن: جمع بُرْن: وهو مخلب الطائر الجارح.

٥. تفسير القمي ٢: ١٠٦، تفسير الصافي ٣: ٤٣٩. ٦. تفسير الرازي ٢: ١١.

٧. في تفسير الصافي: والسجود له فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ...﴾ الآية، وخاطب بهاتين الآيتين نبيه الذي اشهده.

٨. تفسير الصافي ٣: ٤٣٩.

وقيل: إن المراد قد علم الله صلاته وتسيحه لقوله بعده: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^١ من التسيح والدعاء، فيجازيهم بما يستحقون، وفيه تهديد للغافلين ثم بين سبحانه كمال عظمته الموجهة للخضوع له والثناء عليه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنه خالقهما وخالق ما فيهما من الذرة والدرة، والمتصرف في الجميع إيجاداً وإعداماً وتقليباً وتغييراً ﴿وَالِإِلَى اللَّهِ﴾ خاصة ﴿الْمَصِيرُ﴾ والرجوع للكل بالفناء والبعث، فعلى العاقل أن يخضع لهذا المَلِكِ القادر الفاهر العظيم، ويسبحه ويُقدّسه من الشريك والمثل والحاجة والتقاضى الإمكانية.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ
يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ
يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَارِ [٤٣]

ثم استدلّ سبحانه على كمال عظمته وقدرته بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، أو أيها الإنسان بعين رأسك ﴿أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي﴾ وينشئ شيئاً فشيئاً، أو يسوق قليلاً قليلاً ﴿سَحَابًا﴾ متقطعاً ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ ويجمع ﴿بَيْنَهُ﴾ ويضم بعض القطعات إلى بعض ﴿ثُمَّ﴾ بعد تأليف قطعاته وصيرورته سحاباً واحداً ﴿يَجْعَلُهُ رُكَّامًا﴾ ويصيره متراكماً حتى يكون غليظاً قابلاً لحمل الماء الكثير ﴿فَتَرَى﴾ بعد ذلك التأليف والتراكم ﴿الْوَدْقَ﴾ [الودق]: المطر، كما عن ابن عباس^٢ ﴿يَخْرُجُ﴾ ويتقاطر ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ وفرجه التي حدثت من تراكمه وتعصيره بسبب الرياح.

عن الباقر عليه السلام - في حديث يذكر فيه أنواع الرياح - قال: «ومنها رياح تحبس السحاب بين السماء والأرض، ومنها رياح تعصر السحاب فتمطر بإذن الله، ومنها رياح تفرق السحاب»^٣.

﴿وَيُنَزِّلُ﴾ الله أيضاً ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ المَطْلَ^٤ أو جهة الغلو بعضاً ﴿مِنْ جِبَالٍ﴾ وقطع عظام يكون ﴿فِيهَا﴾ مقدار معين ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ ومطر منجمد في الجو كالثلج ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يصيبه، فينال ما يناله من الضرر في نفسه وماله ﴿وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ﴾ صرفه عنه ومنعه من السقوط عليه، كي لا يتضرر به.

قيل: إن أكثر المفسرين قالوا: إن في السماء جبلاً من بَرَدٍ، خلقها الله تعالى كذلك، ثم ينزل منها ما شاء^٥ من السحاب.

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٠. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٣.

٣. من لا يحضره الفقيه ١: ١٥٢٥/٣٤٥، تفسير الصافي ٣: ٤٤٠.

٤. كذا، ولفظ السماء مؤنث، ويجوز تذكره. ٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٤.

عن الصادق عليه السلام قال: «الْبَرْدُ لَا يُؤْكَلُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾»^١.
 ﴿يَكَادُّ﴾ وَيَقْرُبُ ﴿سَنًا بَرْقِهِ﴾ وَضَوْءُ لَمَعَانِهِ ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ الَّتِي لِلنَّاظِرِينَ إِلَيْهِ، وَيَخْطِفُهَا^٢
 مِنْ شِدَّةِ الْإِضَاءَةِ وَسُرْعَةِ الْوُرُودِ.

قِيلَ: إِنَّ الْبَرْقَ يَخْدُثُ مِنْ ضَرْبِ تِلْكَ السَّحَابِ^٣. وَقِيلَ: إِنَّهُ نَارٌ تَقْدَحُ مِنْ اصْتِكَاكِ الْأَجْزَاءِ
 الدُّخَانِيَةِ فِي جَوْفِ السَّحَابِ^٤، وَمِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ ظُهُورِ النَّارِ مِنَ الْبَرْدِ الَّذِي هُوَ ضِدُّهَا.
 وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ السَّحَابَ غَرَابِيلَ لِلْمَطَرِ،
 هِيَ تُذِيبُ الْبَرْدَ [حَتَّى يَصِيرَ] مَاءً لِكَيْلَا يَضُرَّ شَيْئاً يُصِيبُهُ، وَالَّذِي تَرَوْنَ فِيهِ مِنَ الْبَرْدِ وَالصَّوَاعِقِ نِقْمَةٌ
 مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»^٥.

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ * وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ
 مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ
 يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٤٤ و ٤٥]

ثُمَّ اسْتَدَلَّ سَبْحَانَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ ثَالِثًا بِقَوْلِهِ: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وَيَجْعَلُهُمَا مُتَعَاقِبَيْنِ، أَوْ
 يُغَيِّرُهُمَا بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ، وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ، مِمَّا يَقَعُ فِيهِمَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا
 إِزْجَاءُ السَّحَابِ وَمَا يَتَرَبَّعُ عَلَيْهِ.

وَفِي الْحَدِيثِ، قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ بِسَبِّ الدَّهْرِ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ أَقْلَبُ اللَّيْلِ
 وَالنَّهَارَ»^٦.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنَ الْآيَاتِ الْمَفْصَلَةِ ﴿لَعِبْرَةً﴾ وَعِظَةً أَوْ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ
 وَقُدْرَتِهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلخُضُوعِ وَالتَّعْظِيمِ ﴿لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الثَّاقِبَةِ وَذَوِي الْأَنْظَارِ الصَّابِتَةِ.
 ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الاسْتِدْلَالِ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْآثَارِ الْعُلُويَّةِ، اسْتَدَلَّ بِخُصُوصِ خَلْقِ
 الْحَيَوَانِ وَاخْتِلَافِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ﴾ بِقُدْرَتِهِ ﴿كُلَّ دَابَّةٍ﴾ وَحَيَوَانٍ مُتَحَرِّكٍ ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ فَأَنَّهُ أَصْلُ
 جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ جَوْهَرَةً فَنَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنِ الْهِبَةِ، فَصَارَتْ مَاءً،
 ثُمَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ خَلَقَ النَّارَ وَالْهَوَاءَ وَالنُّورَ، فَأَصْلُ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ حَتَّى الْمَلَائِكَةُ وَالْجِنُّ وَآدَمُ مِنْ
 مَاءٍ^٧.

٢. فِي النُّسخَةِ: وَيَخْطِفُهَا.

١. الْكَافِي ٦: ٣٨٨، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٤٤٠.

٥. الْكَافِي ٨: ٣٢٦/٢٤٠، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٣: ٤٤٠.

٣ وَ ٤. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٦: ١٦٦.

٧. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٦: ١٦٧.

٦. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٦: ١٦٦.

وقيل: إن المراد كل دابة متولدة من ماء خلقها الله^١.

وقيل: إن المراد كل دابة سكنت الأرض، فإن غالبها مخلوقة من الطفة، والحكم على الغالب، أو على الكل، لأن الماء أحد عناصر الكل^٢.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ لعدم آلة المشي له كالحية، وإنما قدم ذكره لكونه أعجب ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ قوائم كالنعم والوحش، أو أربع جهات كالعناكب والعقارب وغيرها مما يمشي على أكثر من أربع قوائم.

وقيل: إنه تعالى تبه على سائر أقسام الحيوانات بقوله: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر^٣.

وقيل: عدم ذكرها لعدم الاعتماد بها، وإنما أتى سبحانه بضمير جمع العقلاء لتغليبهم، وأتى بالموصول الذي للعقلاء ليوافق التفصيل الإجمال^٤.

ثم قرر سبحانه كمال قدرته بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء.

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ [٤٦ و ٤٧]

ثم تبه سبحانه على تمامية الحجة على توحيده وكمال صفاته بقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ وموضحات لجميع ما يحتاج إليه البشر من دلائل التوحيد وكمال الصفات والأحكام الدينية والأسرار التكوينية ﴿وَاللَّهُ﴾ بالتوفيق للنظر والتفكر فيها ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والدين القويم المرضي عنده الموصول إلى كل خير في الدنيا وإلى كل نعمة في الآخرة، وهو الاسلام. ثم أنه تعالى بعد التنبيه بنزول الآيات المتممة للحجة على التوحيد والرسالة وصحة دين الاسلام، ذم المنافقين المصريين على الكفر بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هؤلاء المنافقون كذباً ونفاقاً ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ ووخدانته ﴿وَبِالرَّسُولِ﴾ عن صميم القلب ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أحكامهما، وامتلنا أوامرهما ونواهيهما بإخلاص النية ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ ويُعرض عن قبول حكمه ﴿فَرِيقٌ﴾ وطائفة ﴿مِّنْهُمْ﴾ عناداً للحق ﴿وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ القول النفاقي من إظهار الايمان والطاعة ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ ما أولئك الذين يدعون

الإيمان والطاعة ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله والرسول عن صميم القلب.

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ [٤٨ و ٤٩]

ثم بين سبحانه توليهم عن حكمه بقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ﴾ الرسول ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عند تنازعهم في شيء ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن التحاكم إليه، لعلهم بأنهم على خلاف الحق، وأن الرسول لا يساعدهم على باطلهم بالرشوة والمصانة ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ والحكم لا عليهم ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ للمحاكمة حال كونهم ﴿مُذْعِنِينَ﴾ ومُتَقَادِينَ لحكمه لجزمهم بأنه ﷺ يحكم لهم.

قيل: الآيات في بشر المنافق، خاصم يهودياً في أرض، فدعاه إلى كعب ابن الأشرف من أحبار اليهود، ودعاه اليهودي إلى النبي^١.

وعن الضحاك: أنها نزلت في المغيرة بن وائل، كان بينه وبين علي بن أبي طالب ﷺ أرض فتقاسمها، فوقع إلى علي ﷺ منها ما لا يصله الماء إلا بمشقة، فقال المغيرة: يعني أرضك، فباعها إياه وتقابضا، فقبل للمغيرة: أخذت أرضاً سبخة لا ينالها الماء، فقال لعلي ﷺ: اقْبِضْ أرضك فإنما اشتريتها أن رضيتها ولم أرضها لأنه لا ينالها الماء، فقال علي ﷺ: «بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك» ودعاه إلى أن يخصمه إلى رسول الله ﷺ فقال المغيرة: أما محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه، فإنه يُغضني، وإني أخاف أن يحيف علي، فنزلت^٢.

وعن (المجمع)، وعن البلخي، قال: كانت بين علي وعثمان منازعة في أرض اشتراها من علي ﷺ فخرجت فيها أحجار، فأراد ردّها بالعيب، فلم يأخذها، فقال: بيني وبينك رسول الله ﷺ. فقال الحكم بن أبي العاص: إن حاكمته إلى ابن عمه حكم له، فلا تحاكمه إليه، فنزلت. قال: وهو المروي عن أبي جعفر ﷺ، أو قريب منه^٣.

وعن الصادق ﷺ: نزلت في أمير المؤمنين ﷺ وعثمان، وذلك أنه كان بينهما منازعة في حديقة، فقال أمير المؤمنين ﷺ: نرضى برسول الله ﷺ. فقال عبد الرحمن بن عوف لعثمان: لا تحاكمه إلى رسول الله، فإنه يحكم له عليك، ولكن حاكمه إلى ابن شيبه^٤ اليهودي. [فقال لأمير المؤمنين ﷺ: لا

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠، تفسير روح البيان ٦: ١٦٩.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠.

٣. مجمع البيان ٧: ٢٣٦، تفسير الصافي ٣: ٤٤٢.

٤. في تفسير القمي: ابن أبي شيبه.

أرضى إلا بآبين شبيبة اليهودي]. فقال ابن شبيبة لعثمان: تأتمنون محمداً على وحي السماء، وتتهمونه في الأحكام؟! فأنزل الله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية^١.

أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُمرَنَّهُمْ لِيُخْرِجَنَّ قُلَ لَّا تُفْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [٥٣-٥٠]

ثم بين سبحانه نهاية شناعة إعراضهم ببيان انحصار علته في أحد الأمور التي كلها من أشنع الشنائع بقوله: ﴿أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من الكفر والنفاق من أول الأمر ﴿أَمْ أَرْتَابُوا﴾ وشكوا في رسالة الرسول بعد اليقين بها ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ﴾ ويجوز ﴿عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ في حكمهما، وليس أحد الأمرين مع تحققهما فيهم، لأنهما مقتضيان لعدم اتيانهما إليه، ولو كانوا محققين، ولا الثالث لوضوح أمانة الرسول وعدم اغماضه عن الحق عندهم ﴿بَلْ أُولَئِكَ﴾ المعرضون ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ على المحققين، المصرون على البغي على الناس.

ثم بين سبحانه صفة المؤمنين المخلصين بقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ﴾ الرسول ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين خصومهم، ولو كانوا من غيرهم ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ للداعين ﴿سَمِعْنَا﴾ دعاءكم ﴿وَأَطَعْنَا﴾ بالاجابة والقبول ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المؤمنون ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفائزون بجميع المطالب الدينية والأخروية، الناجون من كل محذور.
عن الباقر عليه السلام: «إِنَّ الْمَعْنَى بِالْآيَةِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^٢.

ثم أكد سبحانه وجوب طاعة الرسول بقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في ما ساءه، وسره، ونفعه وضره ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ في ما مضى من ذنوبه أن يؤاخذه عليه ﴿وَيَتَّقْهُ﴾ ويحذره في ما بقي من عمره ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المطيعون الخاشعون المتقون ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالفيوضات الأبدية والنعم الدائمة.
قيل: إن ملكاً سأل علماء عصره عن آية في القرآن إن عمل بها عمل بجميع القرآن، فاتفق العلماء

على هذه الآية^١ حيث إنها على إيجازها حاوية لجميع ما ينبغي للمؤمن أن يفعله.

ثم لما بين سبحانه استنكاف المنافقين عن إطاعة الرسول والالتقياد لحكمه، حكى حلفهم الكاذب على طاعتهم له بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وحلفوا أشد حلفهم تقوية لما أخبروا به من قولهم: ﴿لَئِنْ أُمِرْتُمْ﴾ بالخروج ﴿لَنَخْرُجَنَّ﴾.

عن مقاتل لما بين الله تعالى كراهة المنافقين لحكم الرسول فقالوا: والله لئن امرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا^٢.

ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ نهيمهم عن هذا القسم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿لَا تُقْسِمُوا﴾ على ما تقولون غدراً ونفاقاً، فإن المطلوب منكم ﴿طَاعَةٌ﴾ للرسول ﴿مَعْرُوفَةٌ﴾ لكل أحد بالأفعال والإخلاص وصدق النية، لا اليمين الكاذبة. أو المعنى طاعة معروفة أمتل من قسمكم بما لا تصدقون فيه، أو المعنى دعوا القسم فإن عليكم طاعة معروفة فتمسكوا بها، أو طاعتكم طاعة نفاقية فإنها معروفة منكم لكل أحد ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الغدر والنفاق لا يخفى عليه سرايركم، وإنه فاضحكم ومجازيكم على نفاقكم.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاسُ الْمُؤْمِنِينَ [٥٤]

ثم بالغ سبحانه في وجوب طاعته وطاعة رسوله بقوله: ﴿قُلْ﴾: يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في جميع الفرائض والسنن من صميم القلب وصدق الإيمان برجاء الفوز والفلاح.

ثم صرف سبحانه الكلام عن الغيبة إلى الخطاب إبلاغاً في تبكيهم بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وتعرضوا عن الطاعة الحقيقية لله والرسول ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ صلى الله عليه وآله ﴿مَا حُمِّلَ﴾ وكُلّف به من تبليغ الرسالة ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ وكُلّتم من الإجابة والطاعة، فإن لا تطيعوه فقد بقيتم تحت هذا الحمل والثقل، وبقيت عليكم تبعاته ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ﴾ في ما أمركم به ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى جميع الخيرات الأبدية التي هي أقصى المطالب، وتخلصوا من الشرور والمهالك ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ المكرم ﴿إِلَّا أَلْبَاسُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والتبليغ الواضح الموضح لجميع ما تحتاجون إليه، وقد فعل وليس عليه إجباركم على الطاعة، وإنما بقي ما حُمِّلتم، فإن أديتم فلكم، وإن توليتم فعليكم.

عن الصادق عليه السلام - في خطبة في وصف النبي صلى الله عليه وآله قال: «وَأَدَّى مَا حُمِّلَ مِنْ أَنْقَالِ النَّبُوَّةِ»^١.
وعن الباقر عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله يا معاشر قراء القرآن، اتَّقُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَا حَمَلَكُمْ
من كتابه، فَإِنِّي مُسْئِلٌ وَإِنَّكُمْ مُسْئِلُونَ، إِنِّي مُسْئِلٌ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَسْأَلُونَ عَمَّا
حُمِّلْتُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُئِلْتُمْ»^٢.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا
اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [٥٥]

ثم لما وصف سبحانه المؤمنين بالطاعة والانقياد للرسول صلى الله عليه وآله وحرّض الناس عليه، وعد من جمع
بين الإيمان والعمل بالأحكام بغاية الإعزاز والاكرام في الدنيا بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾
أيها الناس ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من أداء الواجبات وترك المحرمات مؤكداً وعده بالقسم بذاته
المقدسة، إنه ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ وليجعلهم متصرفين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تصرف الملوك في ممالكهم،
ومسلطين عليها سلطنة السلاطين في أقاليمهم ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ
قَبْلِهِمْ﴾ في زمن داود وسليمان وغيرهما ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾ وليسهل ﴿لَهُمْ﴾ بالتوفيق والتأييد
﴿وَدِينَهُمْ﴾ والعمل بأحكام شرعهم ﴿الَّذِي ارْتَضَى﴾ واختار ﴿لَهُمْ﴾ من غير مانع ومزاحم
﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ من الأعداء ﴿أَمْنًا﴾ من ضررهم وشرهم، بأن ينصرهم عليهم،
فيقتلونهم ويستريحون من كيدهم وبأسهم، فعند ذلك ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ آمين و ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي﴾ في
عبادتي ﴿شَيْئًا﴾ ولا يتقون في العمل بأحكامي أحداً ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وارتد عن الدين المرضي له، أو
ثبت على كفره، أو جحد حق هذه التهمة ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الترغيب والترهيب ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الكافرون
﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ والكاملون في الخروج عن حدود العقل والشرع.

قيل: إن الله انجز هذا الوعد بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة، فإن أصحابه كانوا قبل الهجرة في أكثر
من اثني عشر سنة^٣ خائفين من الكفار، فلما هاجروا كانوا يُصبحون ويُمسون في السلاح حتى

٢. الكافي ٢: ٩/٤٤٣، تفسير الصافي ٣: ٤٤٣.

١. الكافي ١: ١٧/٣٦٩، تفسير الصافي ٣: ٤٤٣.

٣. في تفسير البيضاوي وروح البيان: من عشر سنين.

أظهرهم الله على العرب كلهم، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب^١، فدلّت الآية على صحة نبوة النبي ﷺ؛ لأن فيها إخباراً بالغيب، لوقوع ما أخبر في الخارج مطابقاً للخبر^٢.

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية، فقال: «هم الائمة عليه السلام»^٣.

وعن الباقر عليه السلام: «ولقد قال الله عز وجل في كتابه لولا الأمر من بعد محمد ﷺ خاصة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يقول: استخلفكم لعلمي وديني وعبادتي بعد نبيكم، كما استخلفت^٤ وصاة آدم من بعده حتى تبعث النبي الذي يليه، يعبدونني بإيمانٍ بأنه لا نبي بعد محمد ﷺ، فمن قال غير ذلك فأولئك هم الفاسقون، فقد مكّن ولاية الأمر بعد محمد ﷺ بالعلم، ونحن هم، فاسألونا فان صدقناكم فأقروا، وما أنتم بفاعلين»^٥.
والقمي: نزلت في القائم من آل محمد عليه السلام^٦.

وعن (المجمع): المروي عن أهل البيت عليه السلام: «أنها في المهدي من آل محمد عليه السلام»^٧.

وعن العياشي، عن علي بن الحسين عليه السلام: أنه قرأ الآية وقال: «هم والله شيعتنا أهل البيت، يفعل [الله] ذلك بهم على يدي رجلٍ منا، وهو مهدي هذه الأمة، وهو الذي قال رسول الله ﷺ: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلي رجلٌ من عترتي اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»^٨.

وعن الصادق عليه السلام في رواية، قال الراوي: قلت: يابن رسول الله فإن هذه النواصب تزعم أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي عليه السلام؟ فقال: «لا يهدي [الله] قلوب النواصب، متى كان الدين الذي ارتضاه الله ورسوله ﷺ متمكناً بانتشار الأمن^٩ في الأمة، وذهاب الخوف من قلوبها، وارتفاع الشك من صدورها في عهدٍ واحدٍ من هؤلاء؟ وفي عهد علي عليه السلام مع ارتداد المسلمين والفتن التي كانت تُثور في أيامهم، والحروب التي كانت تُنشَب بين الكفار وبينهم؟»^{١٠}.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديث ذكر [فيه] مثالب الثلاثة وإمهال الله إياهم - قال: «كل ذلك لتيمم النظرة التي أوجبها الله تعالى لعدوه إبليس إلى أن يبلغ الكتاب أجله، ويحق القول على الكافرين

١. تفسير البضاوي ٢: ١٣٠، تفسير روح البيان ٦: ١٧٤.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٤ المسألة السادسة.

٣. الكافي ١: ٣/١٥٠، تفسير الصافي ٣: ٤٤٣.

٤. الكافي ١: ٧/١٩٥، تفسير الصافي ٣: ٤٤٣.

٥. مجمع البيان ٧: ٢٣٩، تفسير الصافي ٣: ٤٤٤.

٦. مجمع البيان ٧: ٢٣٩، تفسير الصافي ٣: ٤٤٤، عن العياشي.

٧. في النسخة: الأمر.

٨. كمال الدين: ٥٠/٣٥٦، تفسير الصافي ٣: ٤٤٤.

ويقرب الودع^١ الذي بينه الله في كتابه بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى آخره، وذلك إذا لم يبق من الاسلام إلا اسمه، ومن القرآن إلا رسمه، وغاب صاحب الأمر بإيضاح العذر^٢ له في ذلك، لاشتمال الفتنة على القلوب، حتى يكون الأقرب إليه أشد^٣ عداوة له، وعند ذلك يؤيده الله بجنود لم تزوها، ويظهر دين نبيه ﷺ على يديه، ويظهره على الدين كله ولو كره المشركون^٤.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَاهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ [٥٧ و ٥٨]

ثم أنه تعالى بعد وعد المؤمنين بالاستخلاف والتمكين لهم، حث إلى الأعمال الصالحات التي أحتمها الصلاة والزكاة وطاعة الرسول بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في جميع أحكامه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ثم هدّد سبحانه الكافرين بقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ ولا تتوهمن يا أيها النبي والمؤمنون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ الله عن إدراكهم وإهلاكهم ﴿فِي﴾ قُطْرٍ مِنْ أَقْطَارِ ﴿الْأَرْضِ﴾ بما رَحِيت، وإن هربوا كل مهرب، بل هم مهجورون تحت قدرته في كل آنٍ وحالٍ ومكانٍ في الدنيا ﴿وَمَا وَاهُمُ النَّارُ﴾ في الآخرة، ﴿وَاللَّهُ﴾ ﴿لَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ والمرجع تلك النار لهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا
الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ
الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ
جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [٥٨]

ثم أنه تعالى بعد بيان جملة من أحكام التعفف والحث على امتثالها بالوعد والوعيد، عاد إلى بقية تلك الأحكام بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الرجال والنساء ﴿لِيَسْتَأْذِنَكُمْ﴾ في الدخول عليكم ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد، أو العبيد والجواري ﴿وَالَّذِينَ﴾ يميّزون بين العورة وغيرها من

٢. في الاحتجاج: بإيضاح العذر.
٤. الاحتجاج: ٢٥٦، تفسير الصافي ٣: ٤٤٥.

١. في الاحتجاج: ويقرب الودع الحق.
٣. في الاحتجاج: أقرب الناس إليه أشدهم.

الصبيان الذين ﴿لَمْ يَلْتَقُوا الْحُلُمَ﴾ ولم يصلوا إلى حد البلوغ ﴿وَيُنْكُمُ﴾ أيها الأحرار ﴿ثَلَاثَ مَرَاتٍ﴾ في اليوم والليلة في أوقات تكثرهون أن يمرّ عليكم فيها أحد.

أحدها: الوقت الذي يكون ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ فأنه وقت القيام من المضاجع وخلع ثياب النوم، ولبس ثياب اليقظة.

﴿و﴾ الثاني: ﴿حِينَ تَضَعُونَ﴾ وتخلعون ﴿ثِيَابَكُمْ﴾ التي تلبسونها في النهار ﴿مِنَ الظَّهِيْرَةِ﴾ وشدة الحر لأجل القيلولة، وهي بعد انتصاف النهار.

وقيل: ﴿مِنَ الظَّهِيْرَةِ﴾ بيان للحين^٢، والمعنى وقت الظهر، وإنما عبر عن الوقت بملك الأمر، وهو وضع الثياب والتجرد دون الوقت الأول الثالث لمعروفتيهما به دون الوسط.

والثالث: الوقت الذي يكون في الليل حين النوم ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ فأنه وقت التجرد عن اللباس والدخول في فراش النوم والاتحاف باللحاف، فتلك الأوقات ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾ وأوقات تكون ﴿لَكُمْ﴾ يختل فيها التستر بحسب العادة.

ثم صرح سبحانه بالترخيص في الدخول بغير الاستئذان للمماليك والصبيان الأحرار بعد كل واحد من تلك الأوقات، وكأنه قيل: ما حكم الأوقات الأخرى؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ﴾ وحرّج أو إثم ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ في الدخول بغير الاستئذان، لعدم ما يوجب من الإطلاع على العورات، مع أن المماليك والصبيان ﴿طَوَّافُونَ﴾ ودوّارون ﴿عَلَيْكُمْ﴾ للخدمة بل ﴿بَعْضُكُمْ﴾ طائف ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ هم يطوفون عليكم للخدمة، وأنتم تطوفون عليهم للاستخدام والتربية فالاستئذان بعد الضرورة إلى المخاطلة مستلزم للحرّج والضيق، ولما كان الطواف شاملاً للفريقين، لم يكتف سبحانه بقوله: ﴿طَوَّافُونَ﴾ بل أبدل من ﴿طَوَّافُونَ﴾ بقوله: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ وهذا الأمر بالنسبة إلى البالغين تكليف، وبالنسبة إلى الصبيان تمرين.

ثم أظهر سبحانه اليمّة على الناس بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على المعارف والأحكام، ويُنزلها واضحة الدلالة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ومصالحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وتشريع أحكامه.

رؤي أن غلاماً لأسماء بنت أبي مرثد دخل عليها في وقت كرهته فنزلت^٣.
وقيل: إنّه أرسل رسول الله ﷺ مدليح بن عمرو الأنصاري وقت الظهيرة ليدعو عمر، وكان غلاماً،

٢. تفسير روح البيان ٦: ١٧٥.

١. في النسخة: اليوم، وليس.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٢٩، تفسير أبي السعود ٦: ١٩٣.

فدخل عليه وهو نائمٌ قد انكشف عنه ثوبه، فقال عمر: لوددت أن الله تعالى نهى أباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذنٍ، ثم انطلق معه إلى رسول الله ﷺ فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية^١.

روى عكرمة: أن رجلين من أهل العراق سألا ابن عباس عن هذه الآية، فقال: إن الله سترٌ يحب الستر، وكان الناس لم يكن لهم ستور على أبوابهم ولا حِجَال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل ولده أو خادمه أو يتيماً في حجره، ويرى منه ما لا يحب، فأمرهم الله تعالى أن يستأذنوا الثلاث ساعات التي سماها، ثم جاء باليسر وبسط الرزق عليهم، فاتخذوا الستور والحِجَال، فرأى الناس أن ذلك [قد] كفاهم عن الاستئذان الذي أمروا به^٢.

عن الصادق عليه السلام قال: «ليستأذن عليك بعد العشاء التي تسمى عَمَّة، وحين تُصْبِح، وحين تَصْعُون ثيابكم من الظهيرة، إنما أمر الله عزَّ وجلَّ بذلك للخلوة وإنها ساعات غِزَّة وِخْلَوَة»^٣.

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [٥٩]

ثم أنه تعالى بعد بيان حكم غير البالغين من الأطفال، ونفي الجُنَاح في الدخول بغير الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة، بين حكم البالغين منهم بقوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ الْأَحْرَارَ الْكَائِنِينَ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ وحدَّ البلوغ، وأرادوا الدخول عليكم في وقتٍ من الأوقات ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ منكم فيه ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الْأَحْرَارَ الَّذِينَ﴾ بلغوا الحلم ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ والذين ذكروا من قبل، ذكرهم بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسْلَمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾^٤.

ثم أكد سبحانه تفخيم آياته والأمر بالاستئذان بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

عن الصادق عليه السلام قال: «ليستأذن الذين ملكت أيمانكم، والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات كما أمركم الله». قال: «ومن بلغ منكم الحلم فلا يبلغ على أمه، ولا على أخته، ولا على خالته - وفي رواية عن الباقر عليه السلام بدل الخالة الابنة^٥ - ولا على من سوى ذلك إلا بإذن؛ ولا تأذنوا حتى تسلموا، فإن السلام طاعة لله عزَّ وجلَّ» وقال: «ليستأذن عليك خادمك إذا بلغ الحلم في ثلاث عورات، إذا

١. تفسير روح البيان ٦: ١٧٦.

٢. الكافي ٥: ٣٠٥.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ١٩٣.

٤. النور: ٢٤/٢٧.

٥. الكافي ٥: ١٥٢٩.

دخل في شيءٍ منهم، ولو كان بيته في بيتك» الخبر^١.

وتخصيص الأمر بالاستئذان بالأحرار يدل على أن الأرقاء البالغين كغير البالغين في اختصاص الاستئذان بالأوقات الثلاثة لبقاء العلة.

وقيل: إن الرقَّ البالغ مخرم على مولاته، يجوز له النظر إلى ما يجوز للمحارم^٢، وادعى جمع من الأصحاب الإجماع على عدم مخرميته، وادعى بعض أن الآية منسوخة، كما عن بن جببر وغيره وهو باطل^٣.

وَأَلْفَوْاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ
ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [٦٠]

ثم أنه تعالى بعد أمر النساء بالتعفف والستر من البالغين، رخص للنساء العجائز كشف الرأس والوجه، ووضع القناع والجلباب بقوله: «وَأَلْفَوْاعِدُ» عن الولد والحيض والزوج «مِنَ النِّسَاءِ» العجائز «اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا» ولا يطمعون في أن يتزوجهن الرجال لكبرهن «فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ» وإثم في «أَنْ يَضَعْنَ» ويلقین عند الرجال وفي مرأهم «ثِيَابَهُنَّ» الساترة لرؤوسهن وشعورهن كالجلباب والإزار والقناع، حال كونهن «غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ» ومنكشفات للرجال مصاحبات «بِزِينَةٍ» ومحاسن أمرن أن يخفينها من الرجال كالسوار والخلخال والقيلاة، وغير مظهرات لها لعدم خوف الفتنة في حقهن.

عن الصادق عليه السلام: «أنه قرأها فقال: الجلباب والخمار إذا كانت المرأة مسنة^٤.

وعنه عليه السلام، قال: «الخمار والجلباب». قيل: بين يدي من كان؟ فقال: «بين يدي من كان»^٥.

وفي رواية أخرى: «نضع الجلباب وحده»^٦، [وفي أخرى]: «إلا أن تكون أمة، فليس عليها جناح أن تضع خمارها»^٧.

وعن الرضا عليه السلام، قال: «أي غير^٨ الجلباب» قال: «فلا بأس بالنظر إلى شعور مثلهن»^٩.

أقول: حاصل المراد أنهن إذا خرجن من بيوتهن بالزينة التي يجب سترها من الحلي وثياب التجميل، يجب عليهن أخذ الجلباب، لأن هذا النحو من الخروج يدل على أنهن متبرجات وداعيات

٣. الكشاف ٣: ٢٥٤.

١. الكافي ٥: ١/٥٢٩. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٨.

٥. الكافي ٥: ١/٥٢٢، تفسير الصافي ٣: ٤٤٧.

٤. الكافي ٤: ١/٥٢٢، تفسير الصافي ٣: ٤٤٧.

٧. التهذيب ٧: ١٩٢٨/٤٨٠، تفسير الصافي ٣: ٤٤٧.

٦. الكافي ٥: ٢/٥٢٢، تفسير الصافي ٣: ٤٤٧.

٨. في النسخة: عنى. ٩. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١/٩٨، تفسير الصافي ٣: ٤٤٧.

للشبان إلى التفرج، لا طالبات لحاجتهن، وإذا خرجن بغير زينة فلا جناح عليهن أن يضعن الجلباب والبرد والقناع ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ﴾ بترك الوضع وَيَشْتَرْنَ بالجلباب ونظارته ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ من الوضع بعده عن التهمة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يجري بينهما وبين الرجال من المقال ﴿عَلَيْمٌ﴾ بضمائرهن ومقاصدهن.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مُفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [٦١]

ثم لما نفى سبحانه الجناح عن المرأة المسنة في وضع الثياب، نفى الحرج عن أصناف في ترك العمل ببعض التكاليف بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ وبإل وإثم ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ﴾ والزمن ﴿حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في ترك الجهاد على قول^١ أو في مؤاكلة الأصحاء على آخر^٢. قيل: إنهم كانوا يمتنعون من مؤاكلة الأصحاء، أما الأعمى فلا احتمال أكله الأجود وتركه الازدأ للمبصر، وأما الأعرج فلا احتمال تضيق المكان على جلسيه لاحتياجه إلى مكان زائد، وأما المريض فلا احتمال تأذي الصحيح من مجالسته لمرضه، أو كانوا جميعاً يتحذرون من استقذار الأصحاء إياهم^٣.

وقيل: إن الأصحاء كانوا لا يأكلون مع الفرق الثلاث، لأن الأعمى لا يبصر الطعام الجيد فلا يأخذه، والأعرج لا يستطيع الجلوس فيأكل هو لقمة ويأكل غيره لقمتين، والمريض لا يمكنه أن يأكل كما يأكل الصحيح^٤، وعلى هذا الوجه يكون (على) بمعنى (في) ولا بد من تقدير المضاف، والمعنى ليس في مؤاكلة الأعمى حرج.

وعن عبيد الله بن عبد الله: أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمنهم^٥، وكانوا يسلمون إليهم مفاتيح

١. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥، تفسير روح البيان ٦: ١٧٩.

٥. أي مرضاهم.

١. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.

أوابهم، ويقولون [لهم]: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يخرجون من ذلك، وقالوا: لن ندخلها وهم غائبون، فنزلت الآية رخصة لهم^١.

وعن ابن عباس، نزلت في الحارث بن عمرو، وذلك أنه خرج مع رسول الله ﷺ غازياً، وخلف مالك^٢ بن زيد على أهله، فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله، فقال: تحرّجت أن أكل من طعامك بغير إذنك^٣.

وعن الباقر عليه السلام في هذه الآية. قال: «وذلك أن أهل المدينة قبل أن يسلموا كانوا يعتزلون^٤ الأعمى والأعرج والمريض، وكانوا لا يأكلون معهم، وكان الأنصار فيهم ثيَّة^٥ وتكرُّم^٦، فقالوا: إن الأعمى لا يبصر الطعام، والأعرج لا يستطيع الزَّحَام على الطعام، والمريض لا يأكل كما يأكل الصحيح، فعزلوا لهم طعامهم على ناحية، وكانوا يرون [عليهم] في مواكلتهم جُناحاً، وكان الأعمى والأعرج والمريض يقولون: لعننا نؤذيهم إذا أكلنا معهم، فاعتزلوا من مواكلتهم» الخير^٧.

ثم أباح سبحانه للناس الأكل من بيوت أزواجهم وأولادهم وأقاربهم بقوله: «وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» حرج في «أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ» بيوت أزواجكم وأولادكم التي هي بمنزلة «بُيُوتِكُمْ» لشدة الاتصال بينكم وبينهم «أَوْ» من «بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ» من «بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ» من «بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ» من «بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ» من «بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ» من «بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ» من «بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ» من «بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ» من «مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ» وتملكتم التصرف فيه باذن ربه «أَوْ» من بيت «صَدِيقِكُمْ».

قيل: كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوي العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وقربائهم وأصدقائهم، فيطعمونهم منها، فلما نزل قوله تعالى: «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً»^٨ فعند ذلك أمتنع الناس أن يأكل بعضهم من طعام بعض فنزلت^٩.

وقيل: كانت الأنصار في أنفسهم قزاة^{١٠}، وكانوا لا يأكلون من هذه البيوت إذا استغنوا^{١١}.

وقيل: كان الرجل يدخل بيت أبيه، أو بيت أخيه، أو أخته، فيشجفه المرأة بشيء من الطعام، فيتحرّج

١. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.

٢. في تفسير الرازي: بن مالك.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.

٤. في تفسير القمي: يعزلون.

٥. الثيَّة: التكبر.

٦. في تفسير القمي: تكربة.

٧. تفسير القمي ٢: ١٠٨، تفسير الصافي ٣: ٤٤٨.

٨. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.

٩. زاد في تفسير الرازي: أي بيعاً، والآية من سورة النساء: ٢٩/٤.

١٠. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.

١١. التفَرَّق: التباعد عن المعاصي وترفعاً وتنزهاً.

لأنه ليس ثم رب البيت^١.

وعن الصادق عليه السلام قال: «الرجل [يكون] له وكيل يقوم في ماله، فيأكل بغير إذنه»^٢.

وعن أحدهما عليه السلام، قال: «ليس عليك جناح فيما أطعمت أو أكلت مما ملكت مفاتيحه ما لم تفسده»^٣.

وعن (المجمع) عن أئمة الهدى عليه السلام أنهم قالوا: «لا بأس بالأكل لهؤلاء من بيوت من ذكره الله تعالى قدر حاجتهم من غير إسراف»^٤.

وعن الصادق عليه السلام أنه سئل: ما يعني بقوله: «أَوْ صَدِيقُكُمْ»؟ قال: «هو والله الرجل يدخل بيت صديقه فيأكل بغير إذنه»^٥.

وعنه عليه السلام: «هؤلاء الذين سَمَى الله عز وجل في هذه الآية، تأكل بغير إذنه من التمر والمأدوم، وكذلك طعم المرأة من منزل زوجها بغير إذنه، فأما ما خلا ذلك من الطعام فلا»^٦.

وعنه عليه السلام قال: «للمرأة أن تأكل وأن تصدق، وللصديق أن يأكل من منزل أخيه ويتصدق»^٧.

ثم لما ذكر أن الأنصار كانوا يتحرّجون من مؤكلة الأصناف الثلاثة ويعزّلون لهم طعامهم على ناحية، وهم أيضاً كانوا يتحرّجون من مؤكلة الأصحاء خوفاً من تأذيتهم، نفى الله الجناح في مؤاكلتهم بقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ» أيها الأصحاء وذوي العاهات «جُنَاحٌ» في «أَنْ تَأْكُلُوا» الطعام «جَمِيعاً» ومجتمعين «أَوْ أَشْتَاتاً» ومتفرّقين.

عن ابن عباس: أنها نزلت في بني ليث بن عمرو، وهم حيّ من كنانة، كانوا يتحرّجون أن يأكلوا طعامهم منفردين، وكان الرجل لا يأكل، ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه، فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً، وربما قعد الرجل والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الزّواجر، وربما كان معه الإبل المملوءة الصّرع لبناً، فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يُشاربه، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل، فرخص الله في هذه الآية الأكل وحده^٨.

وقيل: إن الأنصار كانوا إذا نزل بواحدٍ منهم ضيف، لم يأكل إلا وضيفه معه، فرخص الله لهم أن

١. تفسير الرازي ٢٤: ٣٥.

٢. الكافي ٦: ٢٧٧، ٥، تفسير الصافي ٣: ٤٤٩.

٣. زاد في المصدر: بغير إذنه.

٤. الكافي ٦: ٢٧٧، ٤، تفسير الصافي ٣: ٤٤٩.

٥. مجمع البيان ٧: ٢٤٦، تفسير الصافي ٣: ٤٤٩.

٦. الكافي ٦: ٢٧٧، ٢، تفسير الصافي ٣: ٤٤٩.

٧. الكافي ٦: ٢٧٧، ٣، تفسير الصافي ٣: ٤٤٩.

٨. تفسير الرازي ٢٤: ٣٧، تفسير أبي السعود ٦: ١٩٦، تفسير روح البيان ٦: ١٨١.

يَأْكُلُوا كَيْفَ شَاءَ وَاجْتَمَعِينَ أَوْ مَتَفَرِّقِينَ^١.

وقيل: إِنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ فَرَادَى خَوْفًا مِنْ أَنْ يَحْصُلَ عِنْدَ الْجَمْعَةِ مَا يُنْفَرُ أَوْ يُوْذَى فَنَفَى^٢ اللَّهُ الْخَنَاحَ فِي أَنْ يَأْكُلُوا مَعًا^٣.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْإِذْنِ فِي الْأَكْلِ مِنَ الْبُيُوتِ الْمَذْكُورَةِ، بَيَّنَّ آدَابَ الدَّخُولِ فِيهَا بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ﴿بُيُوتًا﴾ مِنَ الْبُيُوتِ الْمَذْكُورَةِ ﴿فَسَلِّمُوا عَلَيْهَا﴾ أَهْلِهَا الَّذِينَ هُمْ بِمَنْزِلَةِ ﴿أَنْفُسِكُمْ﴾ لِمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ النَّسَبِيَّةِ وَالِدِينِيَّةِ الْمَوْجِبَةِ لِذَلِكَ.

عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: «هُوَ تَسْلِيمُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ حِينَ يَدْخُلُ، ثُمَّ يَرُدُّونَ عَلَيْهِ، فَهُوَ سَلَامُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ»^٤ فَإِنَّ السَّلَامَ يَكُونُ ﴿تَحِيَّةً﴾ وَتَكْرُمَةً، أَوْ الْمَعْنَى فَحِيَّوْا تَحِيَّةً تَكُونُ ﴿مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وَمَشْرُوعَةً مِنْ لَدُنْهُ مَأْمُورًا بِهَا مِنْ قَبْلِهِ، وَتَكُونُ ﴿مُبَارَكَةً﴾ وَمُسْتَبْعَةً لَزِيَادَةِ الْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ، وَتَكُونُ أَيْضًا ﴿طَيِّبَةً﴾ تَطْيِبُ بِهَا نَفْسَ الْمَسْتَمِعِ.

عَنِ النَّبِيِّ عليه السلام: «إِذَا دَخَلْتَ بَيْتًا^٥ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، يَكْثُرُ خَيْرُ بَيْتِكَ»^٦.

عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام: قَالَ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ بَيْتَهُ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ أَحَدٌ فَلْيَسَلِّمْ عَلَيْهِ^٧، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَحَدٌ فَلْيَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا يَقُولُ اللَّهُ: تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ»^٨.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَنْ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، [مَعْنَاهُ] اسْمُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ^٩.

وَعَنِ الطَّبْرَسِيِّ: وَصَفَهَا بِالْبَرَكَةِ وَالطَّيِّبِ لِأَنَّهَا دَعْوَةٌ مُؤْمِنٍ لِمُؤْمِنٍ يَرْجُو بِهَا^{١٠}. زِيَادَةُ الْخَيْرِ وَطَيِّبِ الرِّزْقِ^{١١}.

ثُمَّ مَنْ سَبَّحَانَهُ عَلَى الْعِبَادِ بِإِيضَاحِ الْأَحْكَامِ الْفَخِيمَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ﴾ التَّيْسِينَ ﴿يُيَسِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وَتَفْهَمُونَ مَا فِي تَضَاعُفِهَا مِنَ الْأَحْكَامِ، وَتَعْمَلُونَ بِهَا وَتَحُوزُونَ بِهِ سَعَادَةَ الدَّارِينَ.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٣٧.

٤. معاني الأخبار: ١/١٦٢، تفسير الصافي ٣: ٤٥٠.

٦. تفسير أبي السعود ٦: ١٩٧، تفسير روح البيان ٦: ١٨٢، وفيه: يكثر خيرك.

٧. في تفسير القمي: يسلم عليهم.

٩. تفسير الرازي ٢٤: ٣٨.

١١. جوامع الجامع ٣١٩، تفسير الصافي ٣: ٤٥٠.

٣. في النسخة: يَأْكُلُوا مَعَهُ.

٥. في تفسير أبي السعود وروح البيان: بيتك.

٨. تفسير القمي ٢: ١٠٩، تفسير الصافي ٣: ٤٥٠.

١٠. زاد في جوامع الجامع: من الله.

وَرَسُولُهُ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٦٢]

ثم أنه تعالى بعد بيان آداب الدخول في البيوت والورود على الأهل، بين آداب الخروج من عند الرسول بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الخالصون في الإيمان الصادقون في تصديق الرسول هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وأطاعوهما في جميع الأحكام واتباعوا الرسول ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ مجتمعين ﴿عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وفي خطب مهم موجب لاجتماع المؤمنين عليه، كالتشاور في أمر عظيم، ومقاتلة الأعداء والجمعة والأعياد ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ من عنده، ولم يخرجوا من محضره ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا﴾ ولم يتفرقوا عنه حتى يستجيزوا منه، ويأذن لهم ويخبرهم، فإن الاستئذان وأخذ الإذن منه ﷺ مميّز المخلص من المنافق. ثم أكد سبحانه ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ﴾ يا محمد، تعظيماً لك ورعايةً للأدب^١ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حقاً، لا الذين لا يستأذنون لأنهم عملوا بوظيفة الإيمان، فإذا علمت أن المستأذنين هم المخلصون في الإيمان ﴿فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ﴾ في الخروج والانصراف من عندك ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ المهم وخطبهم العظيم الملم ﴿فَأَذِّنْ﴾ أيها الرسول ﴿لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ ورأيت الصلاح في الإذن له، ولا اعتراض عليك ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾ بعد الإذن ﴿لَهُمْ اللَّهُ﴾ فإن الاستئذان - وإن كان للأمر المهم - لا يخلو عن شائبة ترجيح أمر الدنيا على الآخرة، كما استأذن عمر في غزوة تبوك رسول الله ﷺ في الرجوع إلى أهله، فأذن له^٢ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفرط العباد ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

قيل: نُسخت الآية بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾^٣ وفيه ما لا يخفى من الضعف.

قيل: كان النبي ﷺ يعرض في خطبته بالمنافقين ويعييبهم، فينظر المنافقون يميناً وشمالاً، فإذا راوا أن المسلمين لا يرونهم انسلوا وخرجوا ولم يصلوا، وإن رأوا أنهم يرونهم ثبتوا وصلوا خوفاً فنزلت، فكان بعد نزول الآية لا يخرج المؤمن لحاجة حتى يستأذن رسول الله ﷺ، وكان المنافقون يخرجون بغير إذن^٤.

وقيل: نزلت في حفر الخندق^٥. وكان المنافقون ينصرفون بغير أمر رسول الله ﷺ، وكان الحفر من أهم الأمور حتى حفر رسول الله ﷺ بنفسه.

١. في النسخة: الأدب. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٣٩، تفسير روح البيان ٦: ١٨٣.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٣٩، والآية من سورة التوبة: ٤٣/٩.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ٣٩.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ٤٠.

وعن القمي: نزلت في حنظلة بن أبي عامر^١، وذلك أنه تزوج في الليلة التي في صبيحتها حرب أحد، فاستأذن رسول الله ﷺ أن يقيم عند أهله، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿فَأَذِنَ لِمَن شِئْتُمِنْهُمْ﴾ فأقام عند أهله، ثم أصبح وهو جنب، فحضر القتال واستشهد، فقال رسول الله ﷺ: رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المُرْن في صحائف فضة بين السماء والأرض، فسمي غسيل الملائكة^٢.

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوْأَدَا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [٦٣]

ثم أنه تعالى بعد بيان إذن الخروج من عند الرسول ﷺ، بين آداب مخاطبته بقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا﴾ أيها المسلمون ﴿دُعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ ونداءه ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ﴾ آخر وندانه. عن سعيد بن جبیر: يعني لا يتأدى كما يتأدى بعضهم بعضاً: يا محمد، يا أبا القاسم، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله^٣.

وعن الباقر عليه السلام [قال]: «يقول: لا تقولوا يا محمد، ولا يا أبا القاسم، ولكن قولوا: يا نبي الله، يا رسول الله»^٤. وعن الصادق عليه السلام، قال: «قالت فاطمة عليها السلام: لما نزلت هذه الآية هبت رسول الله ﷺ أن أقول له يا أبة، فكنت أقول: يا رسول الله، فأعرض عني مرة أو اثنتين أو ثلاثاً، ثم أقبل إلي فقال: يا فاطمة، إنها لم تنزل فيك، ولا في أهلك، ولا في نسلك، أنت مني وأنا منك، إنما نزلت في أهل الجفاء والغلظة من قريش أصحاب البذخ والكبر، قلوا: يا أبة، فإنها أحياى للقلب، وأرضى للرب»^٥. وعن ابن عباس: يعني لا ترفعوا أصواتكم في دعائه^٦.

وقيل: لا تجعلوا أمره [إياكم] ودعاءه لكم، كما يكون من بعضهم لبعض، إذا كان أمره فرضاً لازماً^٧. وقيل: أحذروا دعاءه عليكم إذا أسخطتموه، فإن دعاءه مستجاب ليس كدعاء غيره^٨. ثم هدّد سبحانه المنافقين الخارجين بلا إذن الرسول ﷺ بقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ﴾ ويخرجون ﴿مِنْكُمْ﴾ قليلاً قليلاً من بين المؤمنين ﴿لَوْأَدَا﴾ وتستراً ببعض لئلا يراهم

١. في تفسير القمي والصابي: ابن أبي عياش، تصحيف انظر أسد الغابة ٢: ٥٩.

٢. تفسير القمي ٢: ١١٠، تفسير الصافي ٣: ٤٥١. ٣. تفسير الرازي ٢٤: ٤٠.

٤. تفسير القمي ٢: ١١٠، تفسير الصافي ٣: ٤٥١.

٥. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٣٢٠، تفسير الصافي ٣: ٤٥١. ٦. تفسير الرازي ٢٤: ٤٠.

٧. تفسير الرازي ٢٤: ٤٠. ٨.

النبي ﷺ والمؤمنون أنهم يخرجون بغير إذن.

وقيل: كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأذن فيؤذن له، فينطلق الذي لم يؤذن له معه^١، وعلى أي تقدير فيه تهديد شديد.

ثم هدد سبحانه المعرضين عن أمر الرسول ﷺ وسنته بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ البتة ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ﴾ ويتخلفون ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾ ويعرضون أو عن أمر الله من ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ وعقوبة عظيمة في الدنيا، كما عن ابن عباس^٢، أو الزلازل والأحوال^٣، أو ظهور يفاقمهم^٤، أو تسلط السلطان الجائر عليهم، كما عن الصادق عليه السلام^٥ ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ
فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [٦٤]

ثم أعلن سبحانه بكمال قدرته وسعة علمه إرعاباً للقلوب، وزجراً عن مخالفته ومخالفة رسوله بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إيجاداً وإعداماً، وتصرفاً وتديباً، وإبداءً وإعادةً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها الناس من الأحوال التي من جملتها النفاق وخلوص الإيمان والطاعة والمخالفة ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ ويردّون إلى محضر عدله ودار جزائه ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ ويُعلمهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الأعمال السيئة، ويُظهر لهم على رؤوس الأشهاد شنائعهم، ويرتب عليها ما يليق بها من الجزاء ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ محيط لا يعزّب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

عن الصادق عليه السلام: «حصّنوا أموالكم وفروا بكم بتلاوة سورة النور، وحصّنوا بها نساءكم، فإن من أدمن قراءتها في كل يوم، أو في كل ليلة، لم يزن أحد من أهل بيته أبداً حتى يموت، فإذا هو مات شيعة سبعون ألف ملك كلهم يدعون ويستغفرون الله حتى يدخل في قبره»^٦.

وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: لا تنزلوا النساء الغُرف، ولا تلعنوهن الكتابة، وعلموهن المغزل وسورة النور»^٧.

الحمد لله الذي من علي لاتمام تفسير سورة النور وأسأله التوفيق لاتمام تفسير ما يليها من السور.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٤٢، ولم ينسب إلى أحد.

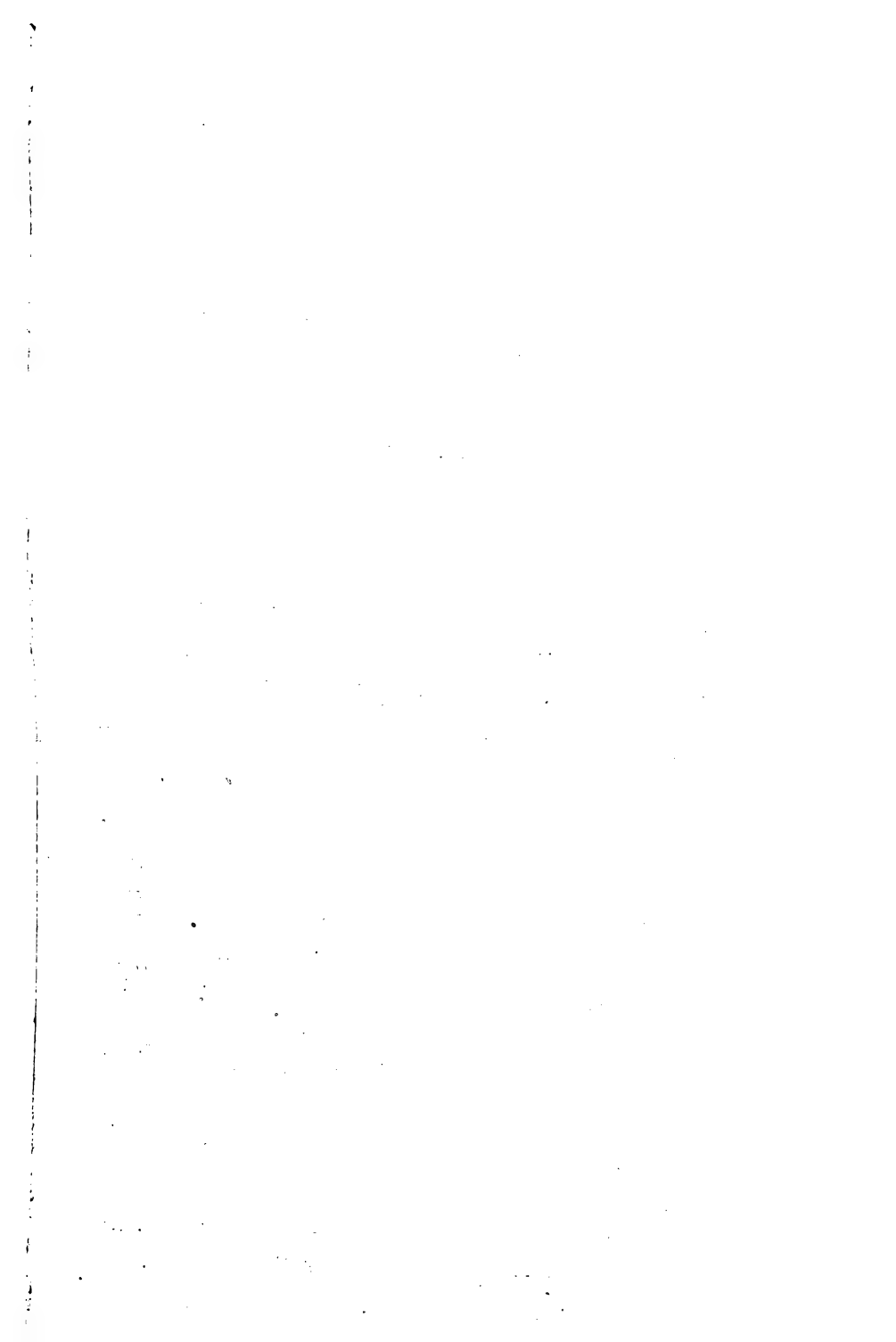
٥. جوامع الجامع: ٣٢٠، تفسير الرازي ٢٤: ٤٢.

٦. نواب الاعمال: ١٠٩، مجمع البيان ٧: ١٩٤، تفسير الصافي ٣: ٥٢٢.

٧. الكافي ٥: ١٧٥١٦، تفسير الصافي ٣: ٥٢٢.

١. تفسير الرازي ٢٤: ٤٠.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٤٢.



في تفسير سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مَلِكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ
شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا [١ و ٢]

ثم لما ختم سبحانه السورة المباركة بتوصيف المؤمنين الخُلص^١ وإيجاب طاعة النبي وتعظيمه،
وتهديد المنافقين والمخالفين لأمره بالعذاب، وبيان كمال قدرته وسلطته وعلمه ترهيباً للقلوب،
أردفت بسورة الفرقان التي أفتتحت بإثبات التوحيد ونبوة نبيه، وذكر أحوال القيامة، وختمت بذكر
صفات العباد المخلصين، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات حسب دأبه بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ﴾

ثم لما كان إثبات الصانع وكمال صفاته أهم الأمور افتتحها بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ وتكاثر خير الإله
﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ وأنزل نجوم القرآن الذي هو معدن العلوم والمعارف والحكم، ومنع جميع
الخيرات، والفارق بين الحق والباطل ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ ورسوله محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ هو، أو الفرقان
﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ وكافة الجن والإنس إلى يوم القيامة ﴿نَذِيرًا﴾ ومخوفاً من العذاب على عصيان الله
﴿الَّذِي﴾ يكون من شواهد عظيمته وعظيم سلطانه وكمال قدرته أن ﴿لَهُ﴾ وحده ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ والسلطنة التامة في عالم الوجود من الجبروت والملكوت والناسوت ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ﴾
لنفسه ولم يَخْتَرْ لذاته ﴿وَلَدًا﴾ يَعْبُدُ من دونه وَيَرِثُ مملكه ﴿وَلَمْ يَكُنْ﴾ له من الأزل ﴿شَرِيكٌ﴾ وبذ
﴿فِي الْمُلْكِ﴾ والسلطنة، بل هو متمفرد في الألوهية والربوبية ﴿وَخَلَقَ﴾ وأوجد ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ قابل
للوجود ﴿فَقَدَرَهُ﴾ وهياه لما يصلح من الكمال والادراك والنظر والتدبير في أمور المعاش والمعاد
﴿تَقْدِيرًا﴾ بديعاً وتهياً عجيباً.

عن الرضا عليه السلام قال: «أندري ما التقدير؟» قيل: لا. قال: «هو وضع الحدود من الآجال والأزاق والبقاء والفناء»^١.

وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ
ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ
هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً [٥-٣]

ثم ويخ المشركين العابدين لغيره بقوله: «وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ» ومما سواه «آلِهَةً» كثيرة، ومعبودين وفيرين^٢ من الأصنام والأوثان مع أنهم «لَا يَخْلُقُونَ» من الموجودات «شَيْئاً» وإن كان حقيراً، ولا يقدرّون على إيجاد شيء وإن كان يسيراً «وَهُمْ يُخْلَقُونَ» بقدرة الغير وهو كسائر الموجودات «وَلَا يَمْلِكُونَ» ولا يستطيعون «لِأَنْفُسِهِمْ» التي هي أعزّ الأنفس عند ذوي الشعور أن يدفعوا «ضَرّاً وَلَا» أن يجلبوا^٣ «نَفْعاً» فكيف لغيرهم «وَلَا يَمْلِكُونَ» أن يوجدوا «مَوْتاً» لحَيٍّ «وَلَا حَيَاةً» لمَيّتٍ «وَلَا نُشُوراً» وبعثاً من القبور للجزاء يوم القيامة، وفيه تنبيه على أن القدرة على الإحياء والإماتة والبعث للجزاء من لوازم الألوهية، فمن لا يقدر عليها فهو بمنزلة من الألوهية.

ثم أنه تعالى بعد إثبات التوحيد وإبطال الشرك، شرع في إثبات نبوة خاتم الأنبياء وردّ شبهات منكرها بقوله: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» بنبوة محمد صلى الله عليه وآله: «إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَاطِلِ» ما هو «إِلَّا إِفْكٌ» وكذب وشيء مصروف عما هو عليه من الباطل إلى صورة الحق هو «افْتَرَاهُ» واختلقه من عند نفسه «وَأَعَانَهُ» وساعده «عَلَيْهِ» في إخباره بتاريخ الأمم الماضية لكونه أمياً لم يقرأ الكتب «قَوْمٌ آخَرُونَ» مطلعون على كتب التواريخ من اليهود.

قيل: نزلت في النضر بن الحارث، فإنه الذي قال هذا القول، والمقصود من القوم الآخرين عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار غلام عامر بن الحضرمي، وجبير^٤ مولى عامر، فإنهم كانوا من أهل الكتاب، وكانوا يقرؤون التوراة، ويحدثون منها أحاديث، فلما أسلموا كان النبي صلى الله عليه وآله يتعهدهم، فلذا قال النظر ذلك^٥.

١. تفسير القمي ١: ٢٤، تفسير الصافي ٤: ٤.

٢. في النسخة: وفيرة.

٣. في النسخة: (ضراً) أو يجلبوا.

٤. في تفسير الرازي: وجبر.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ٥٠.

ثم رَدَّهم سبحانه بقوله: ﴿فَقَدْ جَاءُوا﴾ وأتوا بما قالوا ﴿ظُلُمًا﴾ عظيمًا حيث جعلوا الكلام المعجز إفكًا واختلاقًا مفتعلًا من اليهود ﴿وَزُورًا﴾ وكذبًا واضحًا حيث نسبوا إلى النبي ﷺ ما هو برئ منه، لأنه ﷺ تحدى بالقرآن مع كون معارضيه مهرة الكلام وخِرَاريت^١ فنَّ الفصاحة، قادرين على الاستعانة بأهل الكتاب والمُطَّلعين على التواريخ السالفة، حريصين على إبطال أمره وإطفاء نوره، ومع ذلك عَجَزوا عن إتيان أقصر سورة مثله، ولو كان من كلام البشر لأتوا به ﴿وَقَالُوا﴾ أيضاً هذا القرآن الذي جاء به ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وخِرَافَاتِ الْمُتَقَدِّمِينَ والأحاديث الملقَّفات المتقولة من السابقين هو ﴿اَكْتَسَبَهَا﴾ وأمر غيره بشتها في أوراق ﴿فَهِيَ ثُمْلَى﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْهِ﴾ بعد كتابتها ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وأول النهار وآخره ليَحْفَظَهَا من أفواه الذين يقرءونها، لكونه أمياً لا يعرف الخطَّ حتى يقدر على قراءتها بنفسه.

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا *
وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ
فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
الظَّالِمُونَ إِنَّا تَسْتَبِشُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا [٨-٦]

ثم أمر سبحانه النبي ﷺ بجوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، إن ما أتاكم به من القرآن إنما ﴿أَنْزَلَهُ﴾ على الإله ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ الكامن ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وخفِيَّاتِ الموجودات، لأنَّ القادر على تركيب الألفاظ تركيباً يعجز عنه جميع الفصحاء مع اشتغالها على الأخبار بالمغيبات والعلوم الكثيرة والأحكام الموافقة لصلاح العباد ونظام العالم، لا يكون إلا من العالم بجميع الأمور حتى الأسرار والخفِيَّات في عالم الكون، فهو يعلم سرَّكم وجَهركم، وظاهركم وباطنكم، وباطن أمر الرسول، وبراءته ممَّا تهمونه به، ويجازيكم على ما عَلم منكم، ولكن لا يُعَاجِلُكم بالعقوبة ﴿إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ مع استحقاق العقوبة.

ثم أنه تعالى بعد حكاية قدح المشركين في القرآن، حكى قدحهم في الرسول بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ اعتراضاً على رسالة محمد ﷺ وتصغيراً لشأنه، وإظهاراً للتعجب من ادَّعائه واستهزاءً به بتسميته بالرسول ﴿مَا﴾ هذا الحال المُعْجَب الذي يكون ﴿لِهَذَا الرَّسُولِ﴾ على قوله، وهو أنه ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كما نأكل ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ لحوانجه وطلب معاشه كما نمشي، إذن هو بشر مثلنا لا

١. الخِرَاريت، جمع خَرَيْت: أي الحاذق الماهر، والدليل الحاذق بالدلالة، وفي النسخة: خِرَاريط.

فضيلة له علينا، مع أن الرسول لابد أن يكون ملكاً لا يأكل ولا يحتاج إلى ما نحتاج إليه.
ثم لو سلمنا إمكان كون الرسول بشراً نقول: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَهُ﴾ من قبل ربه ﴿إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ من الملائكة
على صورته المبينة لصورة الجن والإنس ﴿فَيَكُونُ﴾ ذلك الملك باتفاق هذا الرسول و﴿مَعَهُ﴾
للناس ﴿تَذِيرٌ﴾ ومبلغاً عن الله، وشاهداً له على رسالته حتى يعلم الناس صدقه ﴿أَوْ يُلْقَى﴾ من
السماء ﴿إِلَيْهِ كَذِبٌ﴾ ومالٌ كثيرٌ مجتمعٌ حتى يُنفق منه على نفسه، ويعيش بالشفعة، وعلى الفقراء
المؤمنين به، وعلى غيرهم، ترويحاً لدينه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ﴾ على فرض التنزيل ﴿جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾
ويعيش بشمارها كواحد من الدهاقين حتى يخرج من ذل الفقر والحاجة ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾
والمتجاوزون عن حدود العقل، المتعدون على أنفسهم باهلاكها، وعلى سائر الناس باضلالهم: أيها
المؤمنون بمحمد ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ وما تَقْلُدُونَ في دينكم ﴿إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ومغلوباً على عقله،
لأنه يقول على خلاف قومه قولاً لا يقبله منه عاقل.

أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا [٩]

ثم لما كان قولهم في نهاية القباحة والشناعة وغاية البعد عن حدود العقل، أعرض سبحانه عن
جوابهم، وخاطب نبيه بقوله: ﴿أَنْظُرْ﴾ يا محمد إلى مقالة هؤلاء السفهاء، وتعجب من أنهم ﴿كَيْفَ﴾
ضَرَبُوا لَكَ ﴿وَقَالُوا فِي حَقِّكَ تِلْكَ الْأَمْثَالَ﴾ والأقوال الغريبة المعجبة الخارجة عن العقول،
فأنهم أرادوا القدح في نبوتك ﴿فَضَلُّوا﴾ وتاهوا عن سلك العقل وطريق معرفة النبي ﷺ ﴿فَلَا﴾
يَسْتَطِيعُونَ ولا يقدرون أن يجدوا إلى الطعن فيك أو إلى الرشد والهدى ﴿سَبِيلًا﴾ فإن الطعن في
نبوة مدعيها لا يكون إلا بالطعن في معجزاته لا بهذه الأباطيل.

روي عن العسكري عليه السلام قال: «قلت لأبي، علي بن محمد: هل كان رسول الله ﷺ يُناظر اليهود
والمشركين إذا عاتبوه ويحاجهم؟ قال: [بلى] مراراً كثيرة، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قاعداً ذات
يوم بفناء الكعبة، فابتدأ عبدالله بن [أبي] أمية المخزومي فقال: يا محمد، لقد ادعيت دعوى عظيمة،
وقلت مقالاً هائلاً؛ زعمت أنك رسول رب العالمين، وما ينبغي لرب العالمين وخالق الخلق أجمعين
أن يكون مثلك رسوله بشراً مثلنا، يأكل كما نأكل، ويمشي في الأسواق كما نمشي، فهذا ملك الروم،
وهذا ملك فارس لا يبعثان رسولاً إلا كثير المال عظيم الخطير، له قصورٌ ودورٌ وفساطيطٌ وخيامٌ
وعبيدٌ وخُدّامٌ، ورب العالمين فوق هؤلاء كلهم، فهم عبيده، ولو كنت نبياً لكان معك ملكٌ يُصدقك

وَتَشَاهِدُهُ، بل لو أراد الله أن يبعث نبياً لكان إنَّما يبعث مَلَكاً لا بشراً مثلاً، ما أنت يا مُحَمَّدٌ إِلَّا مسحوراً، ولست بنبي، ثم اقترحوا أشياء كثيرة».

إلى أن قال الامام: «فقال رسول الله ﷺ: اللهم أنت السامع لكل صوت، والعالم بكل شيء، تعلم ما قاله عبادك، فأنزل الله عليه: يا مُحَمَّدٌ ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ إلى قوله: ﴿قُصُورًا﴾ مع آيات أخر. قال: فقال رسول الله ﷺ: يا عبد الله، أما ما ذكرت [من] أنني أكل الطعام كما تأكلون، وزعمت أنه لا يجوز لأجل هذه أن أكون لله رسلاً، فإنَّما الأمر لله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو محمود، وليس لك ولا لأحد الاعتراض [عليه] بلم وكيف، ألا ترى أن الله تعالى كيف أفقر بعضاً وأغنى بعضاً، وأعزَّ بعضاً وأذلَّ بعضاً وأصحَّ بعضاً وأسقم بعضاً، وشرف بعضاً ووضَّع بعضاً، وكلَّهم ممن يأكل الطعام؟

ثم ليس للفقراء أن يقولوا: لم أفقرنا وأغنيهم، ولا للضعفاء أن يقولوا: لم وضعفنا وصحَّحتهم؟ ولا للزُّمَّاء والضعفاء أن يقولوا: لم أزممتنا وأضعفنا وصحَّحتهم؟ ولا للآذلاء أن يقولوا: لم أذللنا وأعززهم؟ ولا لقباح الصور أن يقولوا: لم أقبحنا وجملتهم؟ بل إن قالوا ذلك كانوا على ربهم رادِّين، وله في احكامه منازعين، وبه كافرين، وكان جوابه لهم: أنا المَلِكُ الخافض الرافع، المُغْنِي المفقِر، المُعْزِّ المذلَّ، المُصَحِّح المُسْقِم، وأنتم العبيد، ليس لكم إلَّا التسليم لي والانتقاد لحكمي، فإن سلمتم كنتم عباداً مؤمنين، وإن أبيتم كنتم بي كافرين [وبعقوباتي] من الهالكين.

ثم أنزل الله تعالى عليه: يا مُحَمَّدٌ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يعني أكل الطعام و﴿يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَهَمِ وَاحِدٌ﴾^١ يعني قل لهم: أنا في البشرية مثلكم، ولكن ربي خصني بالنبوة [دونكم] كما يَخْصُ بعض البشر بالغي والصحَّة والجمال دون بعض من البشر، فلا تُنْكِرُوا أن يَخْصِي أيضاً بالنبوة».

إلى أن قال: «فقال رسول الله: وأما قولك: ما أنت إلَّا رجلاً مسحوراً، فكيف أكون كذلك وقد تعلمون أنني في صحة التميَّز والعقل فوقكم؟ فهل جرَّبتُم علي منذ نشأت إلى أن استكملت أربعين سنة خرقاً^٢ أو زلَّةً أو كذباً أو خيانة أو خطأ من القول أو سفهاً من الرأي؟ أتظنون أن رجلاً يعتصم طول هذه المدة بحول نفسه وقوتها، أو بحول الله وقوته؟ وذلك ما قال الله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ إلى أن يُثَبِّتُوا عليك عمى بحجَّة الخبر^٣.

١. الكهف: ١٨/١١٠. ٢. في تفسير العسكري: جريرة، وفي الاحتجاج: خزية.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٣١٤/٥٠٠، الاحتجاج: ٢٩، تفسير الصافي: ٤: ٦.

تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا [١٠]

ثم أجاب سبحانه عن خرافاتهم بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى الإله ﴿الَّذِي إِنْ شَاءَ﴾ ورأى الصلاح ﴿جَعَلَ لَكَ﴾ في الدنيا ﴿خَيْرًا﴾ وأفضل ﴿مِّنْ ذَلِكَ﴾ الذي يقولون من النعم الدنيوية كالكنز والجنة، وذلك الخير هو ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ مشيدة كقصور الجنة. روي أن مترفي قريش عبّروا النبي ﷺ بالفقر، فجاء رضوان خازن الجنان بعد نزول تلك الآيات إلى النبي، وكانت معه حقة^١، فوضعها عند النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إن فيها مفاتيح خزائن الأرض، أعطاك ربك [إياها] ويقول: خُذْهَا وَتَصَرَّفْ فِي خَزَائِنِ الْأَرْضِ كَيْفَ شِئْتَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ كِرَامَتِكَ عَلَيَّ شَيْءٌ. فقال النبي ﷺ: «يا رضوان، مالي إليها حاجة، فإن الفقر أحب إليّ، وأريد أن أكون عبداً شكوراً صبوراً»^٢.

وفي الحديث: أن ربي عرض عليّ أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه فاتصّرَ إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك^٣.

عن ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ جالس وجبرئيل عليه السلام عنده، قال جبرئيل عليه السلام: هذا ملك قد نزل من السماء، استأذن ربه في زيارتك، فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاء الملك، وسلم على رسول الله ﷺ وقال: إن الله يخبرك بين أن يعطيك مفاتيح كل شيء، لم يعطها أحداً قبلك، ولا يعطيها أحداً بعدك، من غير أن ينقصك ممّا أذخر لك شيئاً. فقال ﷺ: «بل يجمعها جميعاً لي في الآخرة». فنزل [قوله] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ﴾ الآية^٤.

وعنه عليه السلام قال ﷺ: «عرض عليّ جبرئيل بطحاء مكة ذهباً، فقلت: [بل] شبعة وثلاث جوعات، وذلك أكثر لذكري ومسانئي لربي»^٥.

وفي رواية قال: «أشبع يوماً وأجوع ثلاثاً، فأحمدك إذا شُبع، واتصّرَ إليك إذا جعت»^٦. وعن الضحاك: لما عبّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة حزن رسول الله ﷺ لذلك، فنزل جبرئيل عليه السلام معزياً له وقال: إن الله يقرنك السلام، ويقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ

١. في أسباب النزول: سفت.

٢. أسباب النزول للواحدي: ١٨٨، تفسير روح البيان ٦: ١٩٢.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٥٤.

٤. تفسير روح البيان ٦: ١٩٢.

لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ^١ الآية.

قال: فبينما جبرئيل عليه السلام والنبي صلى الله عليه وسلم يتحدثان إذ فُتِحَ باب من أبواب السماء لم يكن فُتِحَ قبل ذلك، ثم قال: ابشر يا محمد، هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك، فسلم عليه، وقال: [إن] ربك يُخَيِّرُكَ بين أن تكون نبياً ملكاً، وبين أن تكون نبياً عبداً، ومعه سَفَطٌ من نور يتلألأ، ثم قال: هذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير أن يُنْقِصَكَ الله ممَّا أَعَدَّ لك في الآخرة جَنَاحَ بعوضة، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبرئيل كالمستشير، فأومأ بيده أن تَوَاضَعَ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل نبياً عبداً». قال: فكان صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لم يأكل متكئاً حتى فارق الدنيا^٢.

وعن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت: فبكيت لما رأيْتُ به من الجُوع وشَدَّ الحَجَرِ [على بطنه] من السَّغْبِ، فقال: يا عائشة، والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يُجْري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض، ولكن اخترت جُوع الدنيا على شِيعِها، وفَقَرها على غناها، وحَزنها على فَرَحها. يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد^٣.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ

بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا [١١ و ١٢]

ثم بيّن سبحانه علّة صدور هذه الخرافات عنهم بقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ كأنه^٤ سبحانه قال: لم يحملهم على هذه الأقاويل الباطلة شُبْهة حَقِيقَةٍ في نبوتك، بل حملهم عليها وعلى تكذيبك عنادهم وعدم خوفهم من الساعة ودار الجزاء، لأنهم يكذبونها، أو أنهم كذبوها لثقل الاستعداد لها عليهم، أو المراد أنهم لا ينتفعون بدلائل نبوتك، ولا يتفكرون فيها لتكذيبهم بالساعة، وعدم رجائهم الثواب، وعدم خوفهم من العقاب، وقصور أنظارهم على الزخارف الدنيوية، وظنهم أن الكرامة إنما هي في الغنى والثروة، ولذا عيروك بالفقر.

ثم هدّد المكذّبين بالساعة بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ وهيناً في الآخرة ﴿لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ﴾ وأنكر دار الجزاء ﴿سَعِيرًا﴾ وناراً شديدة الحر والاشتعال.

وقيل: إن السعير من أسامي جهنم^٥.

ثم وصف الله السعير بقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ تلك السعير ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ غاية البعد، كما بين

١. الفرقان: ٢٥/٢٠. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٥٤.

٣. تفسير روح البيان ٦: ١٩٣. ٤. في النسخة: كان.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ٥٥، تفسير البضاوي ٢: ١٣٦.

المشرق والمغرب، وهو على ما قيل خمسمائة عام^١، وعن الصادق: «مسيرة سنة»^٢ ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ من شدة غضبها عليهم ﴿تَغِيْطًا﴾ وصوتاً هائلاً ﴿وَزَفِيرًا﴾ وهَمَّهَةٌ، وهي على ما قيل: صوت خارج من الجوف مع التردد^٣. وقيل: يعني علموا لها التغيط، وسَمِعُوا لها زفيراً^٤. وقيل: يعني سَمِعُوا تغيط الخزنة^٥.

وعن عبيد بن عمير: أن جهنم لتزفر زفرة، لا يبقى نبي مرسل، ولا ملك مقرَّب إلا خرَّ لوجهه، ترعد فرائصهم حتى أن إبراهيم عليه السلام ليحشو على ركبته ويقول: يا رب^٦. لا أسألك إلا نفسي^٧. أقول: ظاهر الآية أن النار في الآخرة حيَّة شاعرة، كما يدل عليه قوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ﴾^٨.

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٣ و ١٤)

ثم أنه تعالى بعد بيان حال الكفار حين التبعد من جهنم، بين حال ورودهم فيها بقوله: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ قيل: إن جهنم لتضيق على الكفار كضيق الرُّج على الرُّمَح^٩. وعن النبي ﷺ: «أنهم يُسْتَكْرَهُونَ في النار كما يُسْتَكْرَهُ الوَدَّ في الحائط»^{١٠}. وقيل: الأسفلون يرفعهم اللهب، والأعلون يحفظهم الداخلون فيزدحمون^{١١}، حال كونهم ﴿مُقَرَّنَيْنِ﴾ ومقيدين في السلاسل تُقَرَّن أيديهم إلى أعناقهم، أو يُقَرَّن بعضهم مع بعض، أو كل مع شيطانه في سلسلة، مع ما هم عليه من العذاب الشديد والضيق، وحينئذٍ ﴿دَعَا﴾ ونادوا تمنياً ﴿هُنَالِكَ﴾ وفي ذلك المكان الضيق ﴿ثُبُورًا﴾ وهلاكاً لأنفسهم بقولهم: يا ثبوراه، أو يا ثبور تعال فهذا حينك وأوانك.

زوي أن أول من يُكسى يوم القيامة إبليس حُلَّة من النار بعضها على جانبه^{١٢} فيسحبها من خلفه، وذريته خلفه، وهو يقول: واثبوراه، وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار، فينادي: يا ثبوراه،

٢. مجمع البيان ٧: ٢٥٧، تفسير الصافي ٤: ٧.

٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٤: ٥٦.

٧. تفسير روح البيان ٦: ١٩٤.

٨. المكنوت: ٦٤/٢٩. ٩. الرُّج: الحديدية في أسفل الرمح.

١٠- ١٢. تفسير الرازي ٢٤: ٥٦.

١٣. في تفسير الرازي: جانبه، وفي تفسير روح البيان: حاجبيه.

١. تفسير روح البيان ٦: ١٩٤.

٣. تفسير روح البيان ٦: ١٩٤.

٦. زاد في تفسير روح البيان: يا رب.

وينادون: يا ثورهم^١، فيقول الله أو الملائكة: إعلنا لهم بالخلود في العذاب ﴿لَا تَدْعُوا﴾ في هذا ﴿الْيَوْمَ﴾ العظيم ﴿ثُبُوراً وَاحِداً﴾ أو لا تقتصروا على دعاء واحد ﴿وَأَدْعُوا﴾ لكثرة أنواع العذاب وألوانه ﴿ثُبُوراً كَثِيراً﴾ لكل واحد منها ثبور لشدة وقضاعته، أو لأن العذاب دائم وخالص من شوب غيره، فلكل وقت من الأوقات التي لا نهاية لها ثبور.

قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً *
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدٌ مَسْئُولاً [١٥ و ١٦]

ثم أنه تعالى بعد تهديد المكذبين للساعة أمر نبيه بإعلامهم بحسن حال المؤمنين ترغيباً إلى الإيمان وترهيباً عن الحسرة والندامة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: أنصفوا ﴿أَذَلِكَ﴾ العذاب الذي لا نهاية لشدة ومدة ﴿خَيْرٌ﴾ وأحسن ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي﴾ لا انقطاع لنعيمها، ولا انقضاء لمدة البقاء فيها، وقد ﴿وُعِدَ﴾ بها ﴿الْمُتَّقُونَ﴾ والمحترزون من الكفر والشرك والعصيان، فإنها ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ على تقواهم وأعمالهم الحسنة ﴿وَمَصِيراً﴾ ومرجعاً يرجعون إليه بالموت والخروج من الدنيا ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ ويشتهون حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ودائمين في نعيمها ﴿كَانَ﴾ ذلك الجزاء المذكور ثابتاً ﴿عَلَى رَبِّكَ﴾ الكريم، لأنه وعد بذلك ﴿وَعْدٌ مَسْئُولٌ﴾ واجب الوفاء، أو حقيقة بأن يسأل ويطلب به، أو مسؤولاً للمؤمنين بقولهم: ﴿ربنا واتنا ما وعدتنا على رسلك﴾^٢ أو مسؤول الملائكة للمؤمنين بقولهم: ﴿ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾^٣.

وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ
أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ
مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا [١٧ و ١٨]

ثم أنه تعالى بعد تهديد المنكرين للساعة هدّد المنكرين للتوحيد بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ﴾ من القبور إلى الغرصات ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿فَيَقُولُ﴾ الله لهم تقريباً لعبادهم: ﴿أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ﴾ وصرفتم عن طريق توحيد وعبادتي ﴿عِبَادِي﴾ يعني ﴿هَؤُلَاءِ﴾ المشركين بأن دعّوتموهم إلى عبادتكم وأمرتموهم بها ﴿أَمْ هُمْ﴾ بأهوائهم ﴿ضَلُّوا﴾ وأخطأوا ﴿السَّبِيلَ﴾ المرضي عندي الموصول إلى كل خير، وهو التوحيد، بأن اختاروا الشرك وعبادتكم ﴿قَالُوا﴾ تعجباً من هذا

السؤال، أو تنزيهاً له تعالى من الأنداد: ﴿سُبْحَانَكَ رَبَّنَا مَا كَانَ يَنْبَغِي﴾ وما استقام ﴿لَنَا﴾ بعد معرفتنا بألوهيتك وتوحيديك وعظمتك ﴿أَنْ تَتَّخِذَ﴾ لأنفسنا ﴿مِنْ دُونِكَ﴾ ومما سواك ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ ومعبودين، فكيف ندعو غيرنا إلى أن يتخذنا ولياً ومعبوداً؟

وقيل: يعني ما كان ينبغي لنا أن نتخذ الكفار الذين هم أعداؤك أولياء، فنكون كالشياطين الذين تولوا الكفار كما يولونهم^١، أو ما كان لنا أن نتخذ من دون رضاك ولياً ومحباً فضلاً عن أن نتخذ عبداً^٢. ﴿وَلَكِنْ﴾ يا إلهنا أنت ﴿مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ من الدنيا، وأكثرت عليهم نعميها ﴿حَتَّى﴾ استغفروا فيها و ﴿نُشُوا الذُّكْرَ﴾ والإيمان بك، أو القرآن والأحكام، أو ما فيه حسن ذكرهم في الدارين، أو التذكر لآلائك، والتدبر في آياتك، أو تركوا ما وعظوا به ﴿وَكَاثُوا﴾ لذلك ﴿قَوْماً بُوراً﴾ وصاروا جماعةً هلكى بعداب الآخرة.

فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِثْقَلِ نُفْثَةٍ
عَذَابًا كَبِيرًا * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ
وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ
بَصِيرًا [١٩ و ٢٠]

ثم التفت سبحانه من الغيبة إلى الخطاب للعبيد، احتجاجاً عليهم، والزماً لهم بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ في الدنيا من أنهم آلهة وأنهم أضلونا ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا تملكون ﴿صَرْفًا﴾ ودفعاً للعذاب عنكم بوجه من الوجوه ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لأنفسكم من قيد أصنامكم التي تزعمون أنهم يشفعونكم ويدفعون البليات عنكم، ثم عمّ التهديد لكل عاص بقوله: ﴿وَمَنْ يَظْلِم مِثْقَلِ نُفْثَةٍ﴾ أيها الناس على نفسه باختيار الشرك والعقائد الفاسدة والأعمال السيئة ﴿نُفْثَةٍ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ وعقوبة شديدة في الغاية.

ثم صرح سبحانه بجواب المعترضين على رسالة الرسول ﷺ بكونه بشراً بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ أحداً ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ العظام الذين ثبتت رسالتهم بالمعجزات الباهرات ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ﴾ والله ﴿لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ كسائر الناس، ولم يكن ذلك منافياً لرسالتهم، فلا تكون أنت يدعاً منهم ﴿وَجَعَلْنَا﴾ الناس ﴿بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ﴾ آخر ﴿فِتْنَةً﴾ وابتلاءً وامتحاناً للرسول والمرسل اليهم، والفقراء للأغنياء، والسُّقَمَاءَ للأصحاء، والسُّفِلَةَ للأعالي، والعبيد للموالي، والرعابا للسلطين.

عن النبي ﷺ: «وَيْلٌ لِلْعَالَمِ مِنَ الْجَاهِلِ، وَوَيْلٌ لِلسُّلْطَانِ مِنَ الرُّعْيَةِ، وَوَيْلٌ لِلرُّعْيَةِ مِنَ السُّلْطَانِ، وَوَيْلٌ لِلْمَالِكِ مِنَ الْمَمْلُوكِ، وَوَيْلٌ لِلشَّدِيدِ مِنَ الضَّعِيفِ، وَلِلضَّعِيفِ مِنَ الشَّدِيدِ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةٌ» ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ^١.

وقيل: إن هذا في رؤساء المشركين وفقراء الصحابة، فاذا رأى الشريف الوضيع قد أسلم قبله أنف أن يسلم، فأقام على كفره لثلاثين موضع السابقة والفضل عليه^٢.

وعن ابن عباس: أن هذا في أصحاب البلاء والعافية، هذا يقول: لِمَ لَمْ أَجْعَلْ مِثْلَهُ فِي الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ وَفِي الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ، وَالرِّزْقِ وَالْأَجْلِ^٣. وفيه احتجاج على المشركين في تخصيص محمد ﷺ بالرسالة مع مساواته إياهم في البشرية، فابتلي المرسل إليهم بالرسول، والرسول بالمرسل إليهم^٤.

فاذا علمتم أنها المؤمنون أن دأبه تعالى الابتلاء والامتحان «أَتَصْبِرُونَ» على البلاء والمحن أم لا؟ فان تصبروا فلکم ما وعد الله الصابرين من الأجر الجزيل والثواب العظيم «وَكَانَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ، أَوْ أَيُّهَا الصَّابِرُ «بَصِيرًا» وعالمًا بالصابر وغيره، فيجازي كلًا بما يستحقه من ثواب وعقاب.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا [٢٢ و ٢١]

ثم حكى سبحانه اعتراضاً آخر من المشركين على رسالة النبي ﷺ بقوله: «وَقَالَ» المشركون «الَّذِينَ» ينكرون البعث ودار الجزاء «وَلَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» ولا يتوقعون الرجوع إلينا بعد الموت، ولا يخافون عقابنا ضلالاً وإضلالاً: «لَوْلَا أُنْزِلَ» من قبل الله «عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ» بالرسالة، فإن رسالتهم أولى من رسالة البشر وأقرب بالتصديق «أَوْ نَرَى رَبَّنَا» جَهْرَةً وَعِيَاناً، فيأمرنا بتصديق محمد وآتباعه، فإن أمره شفاهاً بتصديقه أدل على صدقه من المعجزات التي تظهر على يده، وعلى الحكيم أن يسلك الطريق الأقرب إلى المقصود.

ثم ردهم سبحانه بقوله: «لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا» والله أظهرها ترفعاً مضمراً «فِي أَنْفُسِهِمْ» وقلوبهم «وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا» وطغوا طغياناً مفرطاً، وغلوا في الكفر غلواً شديداً بسؤالهم الرؤية التي لا تمكن للممكن، ولو كان نبياً مرسلًا أو ملكاً مقرباً لفقد شرائط الرؤية. نعم، يمكن رؤيتهم الملائكة، ولكن

٤٧٨ نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٤

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ الموكّلين بالعذاب عند الموت، كما عن ابن عباس^١، أو في القيامة^٢ ﴿لَا بُشْرَى﴾ ولا خير فيه سرور القلب ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ والغصاة والمشرّكين.

قيل: المراد أن ما سألوه من نزول الملائكة عليهم سيكون، ولكن لا إجابة لما اقترحوه^٣، لعدم حسن إجابة السؤال الاقتراحي مع وجود المعجزات الكافية، بل لعقوبتهم وتعذيبهم على كفرهم وتعتاتهم، ﴿و﴾ لذا ﴿يَقُولُونَ﴾ عند مشاهدة الملائكة الغلاظ الشداد كراهة للقائهم وفزعاً منهم: يا ملائكة العذاب، أسأل الله ﴿حِجْرًا﴾ ومنعاً لكم، وكونكم ﴿مُخْجَرًا﴾ ومنعاً من قربنا. قيل: العرب تقول ذلك عند لقاء العدو ونزول نازلة، وهو في معنى الاستعاذة^٤.

وقيل: إن ﴿مُخْجَرًا﴾ تأكيد للحجر، كما يقال: لَيْلُ أَيْلٍ، وموت مائت، وحرام محرّم^٥.
وقيل: إن الكفار إذا خرجوا من قبورهم قالت الحَفَظَةُ لهم ذلك^٦ ومنعاً حراماً محرّماً عليكم الغفران والجنة.

وقيل: إذا كان يوم القيامة تلقى الملائكة المؤمنين بالبشرى، فإذا رأى الكفار ذلك قالوا لهم: بشرونا، فيقولون: ﴿حِجْرًا مُخْجَرًا﴾^٧.

وقيل: إن الملائكة الذين هم على أبواب الجنة يبشرون المؤمنين بالجنة، ويقولون للمشرّكين ذلك^٨.

وقيل: إن الكفار [يوم القيامة] إذا شاهدوا ما يخافونه يتعوّذون منه، ويقولون: حجراً محجوراً، فيقول الملائكة: لا يُعَاذُ من شرّ هذا اليوم^٩.

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا [٢٣]

ثم بيّن سبحانه حال أعمالهم الخيرية دفعاً لتوهم فائدتها لهم، وأزدياداً لحسرتهم بقوله: ﴿وَقَدِمْنَا﴾ وقصدنا ﴿إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ خير كانوا يظنون أنه ينفعهم كالانفاق على الفقراء، وصلة الرّحم، وإعانة الملهوفين ونظائرهما ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ وصيرناها ﴿هَبَاءً﴾ وغباراً في شُعاع الشمس ﴿مَّنْثُورًا﴾ ومتفرقاً، وهذا كناية عن إبطاله بالكلية، بحيث لا يُمكنهم الانتفاع كما لا يُمكن قبض الهباء المنثور وجمعه.

عن الصادق عليه السلام قال: «إن كانت أعمالهم لأشدّ بياضاً من القَبَاطِي^{١٠}، فيقول الله عزّ وجلّ لها: كوني

٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٠٠.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ٧١.

١٠. القَبَاطِي: ثياب بيض رفاق من كتّان.

١ و٢. تفسير الرازي ٢٤: ٧٠.

٤. جوامع الجامع: ٣٢٢، تفسير الرازي ٢٤: ٧١.

٩. تفسير الرازي ٢٤: ٧١.

هَبَاءٌ مَثْثُورًا، وذلك أَنَّهُم كانوا إِذَا شَرَعَ لَهُم الحرام أَخَذُوهُ^١.

وعنه عليه السلام: أَنَّهُ شُئِلَ أَعْمَالٌ مِنْ هَذِهِ؟ قَالَ: «أَعْمَالٌ مِبْغَضِينَا وَمِبْغُضِي شِيعَتِنَا»^٢.

وعن الباقر عليه السلام، قَالَ: «يَبْعَثُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَوْمًا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ نُورٌ كَالْقَبَاطِي، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: كُنْ هَبَاءً مَثْثُورًا، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا اللَّهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يَصُومُونَ وَيَصَلُّونَ، وَلَكِنْ كَانُوا إِذَا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْحَرَامِ أَخَذُوهُ، وَإِذَا ذُكِرَ^٣ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ فَضْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنْكَرُوهُ. قَالَ: وَالْهَبَاءُ الْمَثْثُورُ هُوَ الَّذِي تَرَاهُ يَدْخُلُ الْبَيْتَ فِي الْكُؤَةِ مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ»^٤.

أَقُولُ: هَذِهِ الرِّوَايَاتُ فِي بَيَانِ تَأْوِيلِ الْآيَةِ وَانْطِبَاقِهَا عَلَى هَذَا النَّوعِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ كَانَ نَزُولُهَا فِي الْمَشْرُكِينَ.

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا [٢٤]

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ سُوءِ حَالِ الْكُفَّارِ وَغَايَةِ حَرَمَانِهِمْ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَثَوَابٍ، بَيَّنَّ حَسَنَ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ» وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُطِيعُونَ لِلَّهِ «يَوْمَئِذٍ» وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ الَّذِي يَكُونُ الْمَشْرُكُونَ فِي أَشَدِّ الْعَذَابِ «خَيْرٌ» مِنْ سَائِرِ النَّاسِ «مُسْتَقَرًّا» وَمَنْزَلًا «وَأَحْسَنُ مَقِيلًا» وَمُسْتَرَحًا.

قِيلَ: إِنَّ مُسْتَقَرَّ أَهْلِ الْجَنَّةِ غَيْرُ مَكَانٍ قِيلُولَتِهِمْ^٥، فَإِنَّهُمْ يَقْبَلُونَ فِي الْفِرْدَوْسِ ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَى مُسْتَقَرِّهِمْ^٦.

قِيلَ: إِنَّ الْمَقِيلَ زَمَانَ الْقِيلُولَةِ^٧، فَبَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَكَانَهُمْ أَحْسَنُ الْأَمَكْنَةِ، وَزَمَانُهُمْ أَطْيَبُ الْأَزْمَنَةِ.

قِيلَ: إِنَّهُ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْمَحَاسِبَةِ وَالذُّهَابِ إِلَى الْجَنَّةِ يَكُونُ الْوَقْتُ وَقْتُ الْقِيلُولَةِ^٨.

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: لَا يَتَنَصَّفُ النَّهَارُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقِيلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ^٩.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَخَذَ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ، قَضَى بَيْنَهُمْ بِقَدْرِ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ إِلَى انْتِصَافِ النَّهَارِ، فَيَقِيلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ^{١٠}.

وَقِيلَ: يُخَفِّفُ اللَّهُ الْحِسَابَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَكُونَ بِمَقْدَارِ نِصْفِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَقْبَلُونَ

٢. بصائر الدرجات: ١٥/٤٤٦، تفسير الصافي ٤: ١٠.

٤. تفسير القمي ٢: ١١٢، تفسير الصافي ٤: ١٠.

٦. تفسير الرازي ٢٤: ٧٢.

١٠. تفسير الرازي ٢٤: ٧٣.

١. الكافي ٥: ١٠/١٢٦، تفسير الصافي ٤: ٩.

٣. في تفسير القمي والصافي: عرض.

٥. في تفسير الرازي: غير مقبلهم.

٩. تفسير الرازي ٢٤: ٧٢.

في^١ يومهم ذلك^٢.

وعن الصادق عليه السلام: «لا يتصف ذلك اليوم حتى يُقِيلَ أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار»^٣.
وعن أمير المؤمنين - في حديث سؤال القبر - قال: «ثم يفتحان له باباً إلى الجنة، ثم يقولان له: نم
قريب العين نوم الشاب^٤ الناعم، فإن الله عز وجل يقول ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الآية»^٥.
أقول: لعل المراد من قيلولتهم استراحتهم في أحسن مكان وزمان، كما أن موضع القبولة أحسن
المواضع، وزمانها أطيب الأزمنة، فلا ينافي ما دل على أن أهل الجنة والنار لا يتأمون.

وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ
لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعْصُ الْأَطْلَامُ عَلَى يَدَيْهِ
يَقُولُ يَا لَيْتَنِي آتَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا
خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ
خَذُولًا [٢٩-٢٥]

ثم أنه تعالى بعد بيان أن المشركين المقترحين على النبي نزول الملائكة إذا رأوا نزولهم يُدهشون
ويُفزعون أشد الدهشة والفزع، ويكرهون لقاءهم بين أهوال يوم رؤيتهم وكيفية نزولهم المفزعة
بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ﴾ وَتَفْطَرُ ﴿السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ والسحاب الأبيض الرقيق، كُطِلَ بني إسرائيل على
قول^٦، أو الغليظ كخِلَظ السماوات السبع على آخر^٧.

قيل إن الغمام أثقل من السماوات، فاذا أراد الله تشقيق السماوات ألقى الغمام عليها فانشقت،
فمعنى الآية يوم تشقق السماء يُثقل الغمام، فيظهر الغمام فيخرج منها وفيها الملائكة، كما قال تعالى:
﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ﴾ إلى عرصة القيامة ﴿تَنْزِيلًا﴾ عجيبياً.

قيل: تَشَقَّقُ سماء سماء، وتنزل الملائكة في خلال ذلك [الغمام] بصحائف الأعمال^٨.
وروي أنه تشقق سماء الدنيا فتنزل الملائكة التي فيها بعثل من في الأرض من الجن والإنس،
فيقول لهم الخلق: أفيكم ربنا؟ يعنون هل جاء أمر ربنا بالحساب. فيقولون: لا، وسوف يأتي، ثم تنزل
ملائكة السماء الثانية بعثلي من في الأرض من الملائكة والجن والإنس، ثم تنزل ملائكة كل سماء

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٧٣.

٤. في النسخة: الشباب.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٢٠٣.

١. في تفسير الرازي: من.

٣. مجمع البيان ١٠: ٥٣١، تفسير الصافي ٤: ١٠.

٥. الكافي ٣: ١٧٢٢٢، تفسير الصافي ٤: ١٠.

على هذا الضعف^١ حتى تنزل ملائكة سبع سموات، فيظهر العمام وهو كالسحاب الأبيض فوق سبع سموات، ثم ينزل الأمر بالحساب، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ^٢﴾.

وقيل: إن الملائكة في زمان^٣ الأنبياء عليهم السلام كانوا ينزلون من مواضع مخصوصة [والسما على اتصالها]. وفي ذلك اليوم تنشق السماء، فاذا انشقت خرجت من أن تكون حائلاً بين الملائكة وبين الأرض، فينزلون^٤ إلى الأرض^٥.

وعن مقاتل: تَشَقُّقُ السماء الدنيا، فينزل أهلها وهم أكثر من سكان الدنيا، كذلك تَشَقُّقُ سماء سماء، ثم ينزل الكروبيون وحَمَلَةُ العرش^٦.

وعن ابن عباس: تنشق كل سماء، وينزل سكانها، فيحيطون بالعالم، ويصيرون سبع صفوف حوله^٧.

﴿أَلْمُلْكُ﴾ والسُّلْطَانُ القاهر والاستيلاء التام الكامل في الظاهر والواقع والصورة والمعنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت، أعني الملك المتصف بأنه ﴿أَلْحَقُّ﴾ الثابت يكون ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ والفياض المطلق خاصة، فإن كل ملك يزول ويَبْطُلُ إلا ملكه يوم القيامة ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم ﴿يَوْمًا﴾ عظيماً ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ وشديداً^٨ أهواله ﴿وَيَوْمَ يَعْصُصُ﴾ ويحسك بالنواجذ [مسكاً] شديداً ﴿الظَّالِمُ﴾ على الله وعلى رسوله بعصيانهما ﴿عَلَى يَدَيْهِ﴾ من فرط التحسر والندم.

عن ابن عباس: المراد عَقْبَةُ بن أبي معيط، كان لا يقدّم من سفر إلا صنع طعاماً يدعو إليه جبرته من أهل مكة، ويكثر مجالسة الرسول ويعجبه حديثه، فصنع طعاماً، ودعا الرسول ﷺ، فقال ﷺ: «ما آكل من طعامك حتى تأتني بالشهادتين» ففعل، فأكل الرسول ﷺ من طعامه، فبلغ هذا أمية بن خلف، فقال: صوبت يا عَقْبَةُ وكان خليله، فقال: إنما ذكرتُ ذلك لياكل من طعامي. فقال: لا أرضى ابداً حتى تأتية فتبرق في وجهه وتطأ على عنقه، ففعل، فقال ﷺ: «لا أفاك خارجاً من مكة إلا علوث رأسك بالسيف» فنزل ﴿وَيَوْمَ يَعْصُصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ ندامة، يعني عقبة^٩.

القمي قال: زوي أنه يأكل يديه حتى يبلغ مِرْقَيقِهِ، ثم تَثْبِثَانِ، ثم يأكلهما، هكذا كلما نبتتا أكلهما تحسراً وندامة على التفريط والتقصير^{١٠}، وهو ﴿يَقُولُ﴾ تمنياً: ﴿يَا﴾ هؤلاء ﴿لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ﴾ في

١. في تفسير روح البيان: التضعيف.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٠٣.

٤. في تفسير الرازي: فنزلت الملائكة.

٧. تفسير الرازي ٢٤: ٧٤، وفيه: حول العالم.

٥ و٦. تفسير الرازي ٢٤: ٧٤.

٨. في النسخة: شديداً. ٩. تفسير الرازي ٢٤: ٧٥.

١٠. تفسير روح البيان ٦: ٢٠٤، وقد نسب المصنف إلى تفسير القمي سهواً.

الدنيا ﴿مَعَ﴾ مُحَمَّدٍ ﴿الرَّسُولِ﴾ الصَّادِقِ ﴿سَيِّلًا﴾ وطريق مودةً وتبعيةً، وكنت معه على الاسلام، أو سيلاً إلى النجاة من العذاب.

وعن الباقر عليه السلام: «يعني علياً ولياً»^١.

﴿يَا وَيْلَتَى﴾. وبها هلكنا احضري فهذا أوانك ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾ الضالَّ المُضِلَّ ﴿خَلِيلًا﴾ لنفسي وصديقاً، فإنه والله ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي﴾ وصرفني ﴿عَنِ﴾ قَبُولِ ﴿الذِّكْرِ﴾ وموعظة الرسول، أو عن الإقرار بالقرآن والايمان به بعد إذ جاءني من جانب الله بتوسط محمد، وتمكنت من العمل به.

عن ابن عباس: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ ندامةً، يعني عقبة يقول: يا ليتني لم اتخذ أمية خليلاً ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ وهو القرآن والإيمان به ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ مع محمد صلى الله عليه وآله ^٢ ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ المُغْوِي لِي ولخليلي، والمُضِلَّ عن اتباع الرسول والايمان بالقرآن ﴿لِلْإِنْسَانِ﴾ المطيع له ﴿خَذُولًا﴾ وتاركاً لنصرته مع أنه يعدّه نصره ويؤمنه نفعه.

قيل: إن الذيل ^٣ من كلام الله تعالى ^٤.

عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة الوسيلة. قال: «في مناقب لو ذكرتها لعظم بها الارتفاع، وطال لها الاستماع، ولئن تَمَصَّصَها دوني الأشقياء، ونازعاً^٥ في ما ليس لهما بحق، ورَكِبَها ضلالةً، واعتقداها جهالةً، فلبس ما عليه ورداً، ولبس ما لأنفسهما مهذا، يتلاعنان في دُورهما، ويبرأ كل منهما من صاحبه، يقول لقرينة إذا التقيا: ﴿يَا لَيْتَنِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾^٦ فيجيبه الأشقى على رثوته^٧ يا ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ * ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ فأنَا الذَّكَرُ الذي عنه ضلَّ، والسبيل الذي عنه مال، والإيمان الذي به كفر، والقرآن الذي إِيَّاهُ هَجَرَ، والدين الذي به كَذَبَ، والصراط الذي عنه نَكَبَ»^٨.

وعنه عليه السلام في احتجاجه على بعض الزنادقة، قال: «إِنَّ اللَّهَ وَرَى أَسْمَاءَ مِنْ اغْتَرَّ وَفَنَ خَلَقَهُ وَضَلَّ وَأَضَلَّ، وَكَتَى عَنْ أَسْمَائِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ الْآيَاتِ»^٩.

قال الفخر الرازي: قالت الرافضة، هذا الظالم هو رجلٌ بعينه، وإنَّ المسلمين غَيَّرُوا اسْمَهُ وَكَتَمُوهُ، وجعلوا فلاناً بدلاً من اسمه، وذكروا فاضلين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله، ثم أطال الكلام في إثبات

١. تفسير القمي ٢: ١١٣، تفسير الصافي ٤: ١١. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٧٥.

٣. أي ذيل الآية، قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾. ٤. تفسير الرازي ٢٤: ٧٥.

٥. في الكافي وتفسير الصافي: نازعاني. ٦. الزخرف: ٣٨/٤٣.

٧. في النسخة: وثوبه، ورثت هيئة الرجل رُثُوته: قبحت وهانت.

٨. الكافي ٨: ٢٧/٤، تفسير الصافي ٤: ١١. ٩. الاحتجاج: ٢٤٥، تفسير الصافي ٤: ١١.

دلالة لفظ الظالم على العموم، ثم قال: وأما قول الرافضة فذلك لا يتم إلا بالظن في القرآن و[إن]بات أنه غير وبذل، ولا نزاع في أنه كفر^١.

وفيه: أنه لم يقل أحد من أصحابنا رضوان الله عليهم في خصوص الآية بالتغيير والتبديل، كما افتراه عليهم، بل يقولون: إن المراد من لفظ فلان ولفظ الشيطان هو الثاني، وإنما كنى الله عنه ولم يُصرح باسمه لحكم كثيرة منها: عدم سد باب الضلال والامتحان على الناس، وكذلك لفظ الظالم في الآية - وإن كان عاماً - إلا أن المراد أو أظهر مصاديقه هو الظالم لآل محمد حقهم، وهو الأول، كما أن المراد من لفظ الفاسق في قوله: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾^٢ هو الوليد بن المغيرة^٣، وإن كان اللفظ عاماً، والمراد من لفظ المؤمن في كثير من الآيات ومن قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^٤ خصوص أمير المؤمنين^٥، وإن كان اللفظ عاماً.

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا [٣٠ و ٣١]

ثم حكى سبحانه شكايه النبي ﷺ من قومه المعترضين عليه بقوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ شكايه إلى ربه إثر ما شاهد من قومه العتو والطغيان والظن في القرآن: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ فريشاً ﴿اتَّخَذُوا﴾ وجعلوا ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الذي أنزلته لهدايتهم ﴿مَهْجُورًا﴾ ومتروكاً، بأن أعرضوا عنه، وصدوا الناس عن الايمان به، أو مهجوراً فيه ومستهزأ به بقولهم: إنه شعر، أو سحر، أو كيهانة، أو كذب. قيل: إن الرسول يقول ذلك في الآخرة^٦.

ثم سلى سبحانه قلب حبيبه بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ العدو الذي جعلنا لك من مجرمي قومك كأبي جهل وأضرابه ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ قبلك ﴿عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ والمتمردين من قومهم كنمرود لإبراهيم، وفعرون لموسى، واليهود لعيسى، فاصبر أنت كما صبروا وتظنر كما ظفروا ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ لك إلى جميع مطالبك التي منها رواج شرعك ﴿وَنَصِيرًا﴾ لك على أعدائك، فاجتهد في التبليغ ولا تبالي أحداً.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا [٣٢ و ٣٣]

٣. مجمع البيان ٩: ١٩٨.

٢. الحجرات: ٤٩/٦.

١. تفسير الرازي ٢٤: ٧٥.

٦. تفسير الرازي ٢٤: ٧٧.

٢٣٩. كفاية الطالب:

٤. البقرة: ٢٠٧/٢.

٥. تفسير الرازي ٥: ٢٠٤، كفاية الطالب:

ثم حكى سبحانه اعتراض المشركين على القرآن بنزوله نجوماً بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قريش طعنوا على القرآن: ﴿لَوْلَا﴾ وهلا ﴿تُؤَلِّىهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً﴾ ودفعه ﴿وَاحِدَةً﴾ كتوراة موسى، وإنجيل عيسى على ما قاله أهل الكتاب؟ فأجاب سبحانه عنه بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ التفريق فرفقاه ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ ولنقوي ﴿بِهِ فُؤَادَكَ﴾ وقلبك في التبليغ، لكون كل آية في حادثة وواقعة معجزة ظاهرة مستقلة، فعجزهم عن إثبات مثلها دليل واضح على صدقك، فيكون القرآن معجزات كثيرة بحسب كثرة آياته، فلو نزل جملة واحدة لعد جميعه معجزة واحدة، ولكون نزوله على حسب أسئلة الناس والوقائع موجبا لازدياد بصيرتهم، لانضمام فصاحته بالأخبار المغيبة، مع أن في نزوله مفرقا رفقا بالعباد وتسهيلا^١ للعمل بالأحكام قليلا قليلا، فلو نزلت الأحكام جملة واحدة لثقلت عليهم، وخرجوا من الدين، ففي ثباتهم عليه مع ما استلزم التفريق من رؤية جبرئيل وقتا بعد وقت وحالا بعد حال تقوية لقلبك الشريف.

﴿وَ﴾ كذلك ﴿رَتَّلْنَاهُ﴾ وقرأناه عليك شيئا فشيئا، وعلى تَوَدَّةٍ ومهل ﴿تَرْتِيلًا﴾ حسنا موجبا لتيسر فهمه وحفظه والاتفات إلى جهات إعجازه ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ يا محمد ﴿بِمِثْلٍ﴾ وسؤال عجيب واعتراض غريب يُعد في الغرابة من الأمثال، يُريدون به القُدْح في نبوتك، والطمع في كتابك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ﴾ وأوحينا إليك جواباً مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ المبطل لما أتوا به ﴿وَ﴾ بما يكون ﴿أَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وألطف بياناً وتفصيلاً، لما هو الصواب ومقتضى الحكمة.

قيل: إن كل نبي إذا اعترض عليه قومه، كان هو بنفسه يرد عليهم، وأما نبينا ﷺ فكان إذا قال له قومه شيئا كان الله يرد عليهم^٢.

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا [٣٤]

ثم هدّد الله الطاعنين في القرآن المعترضين عليه بقوله: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ ويساقون من قبورهم إلى المحشر ماشين ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ويُسْحَبُونَ عليها وَيَجْرُونَ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

في الحديث: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صَنَفٌ عَلَى الدُّوَابِّ، وَصَنَفٌ عَلَى الْأَقْدَامِ، وَصَنَفٌ عَلَى الْوُجُوهِ» فقيل: يا نبي الله، كيف يُحْشَرُونَ على وجوههم؟ فقال: «إِنَّ الَّذِي أَمَاشَهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمَشِّهِمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ»^٤.

١. في النسخة: موجب. ٢. في النسخة: رفق بالعباد وتسهيل.

٣ و٤. تفسير روح البیان ٦: ٢٠٩.

﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ وأسوء مقامًا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أخطأ طريقاً من كل أحد، لأن طريقهم مود إلى الهلاك الأبدي والعذاب المخلد.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْرنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا هُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرُّسِّ وَقَوْمًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا [٣٩-٣٥]

ثم لما أخبر سبحانه بأنه جعل لكل نبي عدواً، ذكر جماعة من الأنبياء الذين ابتلوا بالأعداء فأهلكهم الله بعداوتهم لهم، فابتدأ بذكر موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ كما أعطيناك القرآن ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ﴾ النبي الذي كان اسمه ﴿هَارُونَ وَزِيرًا﴾ ومعيناً يعاونه في الدعوة وتحمل أعباء الرسالة، كما جعلنا معك أخاك الحسي علياً وزيراً وخليفةً يعاونك في إعلاء كلمة التوحيد، وترويج دينك في حياتك، وحفظ شريعتك بعد وفاتك ﴿فَقُلْنَا﴾ لهما بعد تشريفهما بمنصب الرسالة: ﴿أَذْهَبَا﴾ بالرسالة من قبلي ﴿إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدي وكمال صفاتي، والمعجزات الباهرات التي أجريناها بيدكما تصديقاً لرسالتكما، وهم فرعون وقومه من القبط، فذهب إليهم وأرياهم آياتنا فكذبوهما وعادوهما ﴿فَدَمْرنَاهُمْ﴾ وأهلكناهم بالعذاب المستأصل بعد التكذيب ﴿تَدْمِيرًا﴾ وإهلاكاً عجيباً هائلاً، وهو الغرق في بحر القلزم، ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا﴾ عادوه وكذبوه و﴿كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾ الذين قبله، أو الذين قبله وبعده بتكذيبه، لاستلزام تكذيبه تكذيب الكل، وكان تدميرهم أنه ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ﴾ إلى يوم القيامة ﴿آيَةً﴾ عظيمة على توحيدنا وكمال قدرتنا، وعظة ظاهرة تغتبر بها كل من شاهدها أو سمع قصتها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ المغرقين بظلمهم، أو لكل من سلك سبيلهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة، ﴿وَقَوْمُ عَادٍ﴾ بتكذيبهم هوداً ﴿وَتَمُودَ﴾ بتكذيبهم صالحاً ﴿وَأَصْحَابَ الرُّسِّ﴾ بتكذيبهم شعيباً على ما قيل من أنهم كانوا عبدة أصنام وأصحاب آبار ومواس فبعث الله إليهم شعيباً، فدعاهم إلى الاسلام، فتمادوا في الطغيان و[في] إيدانه، فبينما هم حول الرُّس خسف الله بهم وبدارهم^١.

وقيل: إنهم بقية ثمود، سكنوا الرُّس، وهي قرية بقلج اليمامة، قتلوا نبيهم فهلكوا^٢.

وقيل: إنهم بقية ثمود، وكان نبيهم حنظلة بن صفوان، وكان قبل موسى، وكانوا على بئر يرويهما ماؤها، ويكني أرضهم جميعاً، فرسوا حنظلة فيها، فغار ماؤها وبُيِّست أشجارهم، وانقطعت ثمارهم فهلكوا^١.

وقيل: ابتلاههم الله تعالى بطيرٍ عظيمٍ ذي عُتْقٍ طويل، كان فيه من كل لون، فكان إذا أعوزه الصيد يخطف صبيانهم ويذهب بهم إلى جهة المغرب، فسمّوه لطول عنقه وذهابه إلى جهة المغرب عَتَقَاءَ المغرب، فخطف يوماً ابنة مراهقة فشكوا ذلك إلى حنظلة، وشرطوا إن كفّوا شرّه أن يؤمنوا به، فدعا حنظلة على تلك العتقاء، فأرسل الله [عليها] صاعقة فأحرقتها ولم تعقب، أو ذهب الله بها إلى بعض جزائر البحر المحيط تحت خط الاستواء، وهي جزيرة لا يصل إليها الناس، ثم خالفوا شرطهم وقتلوه، أو رسّوه في البئر^٢.

وقيل: هم أصحاب الأخدود، والرّسّ هو الأخدود^٣.

وقيل: هم قوم نساؤهم سخاقات، فسلط الله عليهم صاعقة في أول الليل، وخسفاً في آخره، وصيحة مع الشمس، فلم يبق منهم أحد^٤.

وقيل: هم قومٌ كذبوا نبياً أتاهم فحبسوه في بئر ضيقة القطر، ووضعوا على رأسها صخرة عظيمة لا يقدر على حملها إلا جماعة من الناس، وما آمن به إلا عبد أسود، وكان العبد يأتي الجبل فيحتطب، ويحمل على ظهره، ويبيع الحزمة، ويشتري بئسها طعاماً، ثم يأتي البئر فيلقى إليه الطعام من خروق الصخرة، وكان على ذلك سنين، ثم إن الله أهلك القوم، وأرسل ملكاً فرفع الحجر، وأخرج النبي من البئر^٥.

وقيل: إن الأسود رفع الصخرة، فقواه الله لرفعها، وألقى جبلاً إليه واستخرجه من البئر فأوحى الله إلى ذلك النبي أنه رفيقه في الجنة^٦.

والقمي: قال الرّسّ نهر بأذربايجان^٧.

وعن الرضا، عن أبائه، عن الحسين بن علي عليه السلام، قال: «أتى علي بن أبي طالب عليه السلام قبل مقتله بثلاثة أيام رجلٌ من أشرف تميم، يقال له عمرو، فقال له: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن أصحاب الرّسّ في أي عصر كانوا: وأين كانت منازلهم، ومن كان ملكهم، وهل بعث الله إليهم رسولاً أم لا،

١ و ٢. تفسير روح البيان ٦: ٢١٢.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٨٢.

٤ و ٥. تفسير روح البيان ٦: ٢١٢.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٢١٣.

٧. تفسير القمي ٢: ٣٢٣، تفسير الصافي ٤: ١٥.

وبماذا أهلکوا؟ فإني أجد في کتاب الله تعالى ذکرهم، ولا أجد خبرهم؟

فقال علي عليه السلام: لقد سألت عن حديث ما سألني عنه أحد قبلك، ولا يحدثك به أحد بعدي إلا عني، وما في کتاب الله عز وجل آية إلا وأنا أعرفها، وأعرف تفسيرها، وفي أي مكان نزلت من سهل أو جبل، وفي أي وقت من ليل أو نهار، وإن [ها] هنا لعلماً جماً - وأشار إلى صدره - ولكن طلابه يسير، وعن قليل تندمون لو فقدتموني^١.

وكان من قصتهم يا أخت تميم أنهم كانوا يعبدون شجرة صنوبر يقال لها شاه درخت، كان يافث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها دوشاب، كانت انبطت^٢ لنوح عليه السلام بعد الطوفان، وإنما سموا أصحاب الرئس لأنهم رسوا نبيهم في الارض، وذلك بعد سليمان بن داود عليه السلام وكانت لهم اثنتا عشرة قرية على شاطئ نهر يقال له الرئس من بلاد المشرق، وبهم سمي ذلك النهر، ولم يكن يومئذ نهر أغزر منه ولا أعذب منه، ولا قرى أكثر ولا أعمر منها، تسمى إحداهن أبان، والثانية أذر، والثالثة دي، والرابعة بهمن، والخامسة إسفندار، والسادسة فروردين، والسابعة أردي بهشت، والثامنة خرداد، والتاسعة مرداد، والعاشر تير، والحادية عشرة مهر، والثانية عشرة شهر يور.

وكانت أعظم مدائنهم إسفندار، وهي التي ينزلها ملكهم، وكان يسمى تركور بن عابور^٣ بن يارش بن سار^٤ بن نمرود بن كنعان فرعون إبراهيم عليه السلام، وبها العين والصنوبر، وقد غرسوا في كل قرية منها حبة من طلع تلك الصنوبر، فنبتت الحبة وصارت شجرة عظيمة، وحرّموا ماء العين والأنهار، فلا يشربون منها ولا أنعامهم، ومن فعل ذلك قتله، ويقولون: هو حياة ألهتنا، فلا ينبغي لأحد أن ينقص من حياتها، ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرئس الذي عليه قراهم.

وقد جعلوا في كل شهر من السنة في كل قرية عيداً تجتمع إليه أهلها، فيضربون على الشجرة التي بها كُتلة من حرير فيها من أنواع الصور، ثم يأتون بشاة ويقرّ يذبحونها^٥ قرباناً للشجرة، ويُسْعِلُون فيها النيران بالحطب، فإذا سَطَعَ دخان تلك الذبائح وقُتَرها^٦ في الهواء، وحال بينهم وبين النظر إلى السماء خرواً سجداً للشجرة، ويكون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم، وكان الشيطان يجيء فيحرك أغصانها، ويصبح من ساقها صباح الصبي: إني رضيت عنكم عبادي، فطيبوا أنفساً، وقرّوا عينا،

١. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: يندمون لو فقدوني.
 ٢. في النسخة: أنبتت.
 ٣. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: تركوذ بن غابور.
 ٤. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: ساذن.
 ٥. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: فيذبحونها.
 ٦. القُتار: دخان ذو رائحة خاصة ينبعث من الطيب أو الشّواء أو التّبجور.

فيرفعون رؤوسهم عند ذلك، ويشربون الخمر، ويضربون بالمعازف، ويأخذون «الدست بند»^١، فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم، ثم ينصرفون.

وإنما سُميت العجم شهرها بأبان ماه وآذر ماه وغيرهما اشتقاقاً من أسماء تلك القرى، يقول^٢ أهلها بعضهم لبعض هذا عيد شهر كذا، وعيد^٣ شهر كذا، حتى إذا كان عيد^٤ قريتهم العظمى اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم، فضربوا عند الصنوبرية والعين سُرّادقاً من ديباج^٥ عليه أنواع الصور، له اثنا عشر باباً، كل باب لأهل قرية منهم، ويستجدون للصنوبرية خارجاً من السُرّادق، وما يُقرَّبون لها من الذبائح أضاعاف ما قرَّبوا للشجرة التي في قراهم فيجيء إليهم عند ذلك فيحرك الصنوبرية تحريكاً شديداً، ويتكلم من جوفها كلاماً جهورياً ويعددهم ويُمْنِيهم بأكثر ممّا وعدتهم ومَنّتهم الشياطين كلها، فيرفعون رؤوسهم من السُّجود وبهم من الفرح والنشاط ما لا يُثَقِّقون ولا يتكلمون من الشُّرب والعزف، فيكونون على ذلك اثني عشر يوماً ولياليها بعدد أعيادهم سائر السنة، ثم ينصرفون.

فلَمّا طال كفرهم بالله عز وجل وعبادتهم غيره، بعث الله سبحانه إليهم نبياً من بني إسرائيل من ولد يهودا بن يعقوب، فلبث فيهم زماناً طويلاً يدعوهم إلى عبادة الله عز وجل ومعرفته وربوبيته فلا يتَّبِعونه، فلَمّا رأى شِدَّةَ تماديهم في العيِّ والضَّلَال، وتَرَكهم قَبول ما دَعاهم إليه من الرُّشد والنجاح، وحضر عيد قريتهم العظمى قال: يا ربِّ، إنَّ عبادك أبوا إلّا تكذِّبني والكفر بك، وغدوا يَعْبدون شجرةً لا تنفع ولا تُضر، فأيسس شَجَرهم أجمع، وأرهم قُدرك وسلطانك.

فأصبح القوم وقد يَسَّ شَجَرهم، فهاهم ذلك، وفضع^٦ بهم، وصاروا فرقتين: فرقة قالت: سَحَر ألَهِتكم هذا الرجل الذي يزعم أنه رسول إله السماء والأرض إليكم ليصرف وجوهكم عن ألَهِتكم إلى إلهه، وفرقة قالوا: لا، بل غضبت ألَهِتكم حين رأت هذا الرجل يعيها ويقع فيها ويدعوكم إلى عبادة غيرها، فحجبت حسننها وبهاها لكي تغضبوا عليه^٧، فتتصروا منه، فأجمع رأيهم على قتله، فاتخذوا أنابيب طوالاً من رصاص واسعة الأفواه، ثم أرسلوها في قرار العين إلى أعلى الماء واحدة فوق الأخرى مثل البرايخ^٨، ونزحوا ما فيها من الماء، ثم حفروا في قرارها بئراً ضيقة المدخل عميقة،

١. الدست بند: لعبة للمجوس يدورون فيها وقد أمسك بعضهم يد بعض كالرقص.

٢. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: لقول.

٣. في النسخة: عيد.

٤. زاد في عيون أخبار الرضا عليه السلام: شهر.

٥. السُرّادق: كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب، والديباج: قماش سده ولحمته حرير.

٦. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: وقطع.

٧. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: لها.

٨. البرايخ: جمع بَرَيْخ، منفذ الماء ومجره، والبالوعة من الخزف.

وارسلوا فيها نبيهم، وألقموا فاهها صخرة عظيمة، ثم أخرجوا الأنابيب من الماء، وقالوا: نرجو الآن أن ترضي عنا آلهتنا إذ رأنا قتلنا من كان يقع فيها ويصد عن عبادتها ودفنائه تحت التراب، وإن كبيرها يتشفى منه، فيعود لنا نورها ونضرتها^١ كما كان، فبقوا عامة يومهم يسمعون أنين نبيهم وهو يقول: سيدي قد ترى ضيق مكاني وشدة كربى، فارحم ضعف ركني، وقلة حيلتي، وعجل قبض روحي، ولا تؤخر إجابة دعوتي، حتى مات.

فقال الله تعالى لجبرئيل عليه السلام: يا جبرئيل، أيطن عبادي هؤلاء الذين غرهم حلمي، وأمنوا مكري، وعبدوا غيري، وقتلوا رسولي أن يقوموا الغصبي، ويخرجوا من سلطاني؟! كيف وأنا المنتقم ممن عصاني، ولم يخش عقابي، وإني حلفت بعزتي لأجعلنهم عبرةً ونكالا للعالمين، فلم يرعهم وهم في عيدهم ذلك إلا بريح عاصفة شديدة الحمرة، فتحيروا فيها ودعروا منها وتضام بعضهم الى بعض، ثم صارت الأرض من تحتهم كحجر كبير يتوقد، وأظلمت سحابة سوداء، فألقت عليهم كالقبة جمرأ يلتهب، فذابت أبدانهم [في النار] كما يذوب الرصاص في النار^٢ الخبر.

وروى بعض العامة هذه الرواية بتفاوت يسير^٣.

عن علي بن الحسين عليه السلام، عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليه السلام، وعن الصادق عليه السلام أنه دخل عليه نسوة فسألته امرأة منهن عن السحق، فقال: «حذا حد الزاني، فقالت: ما ذكر الله عز وجل ذلك في القرآن؟ فقال عليه السلام: «بلى». فقالت: وأين هو؟ قال: «هن أصحاب الرئس»^٤.

والقمي عنه عليه السلام، قال: دخلت امرأة مع مولاتها على أبي عبدالله عليه السلام، فقالت: ما تقول في اللواتي مع اللواتي؟ قال: «هن في النار، إذا كان يوم القيامة أتى بهن فالبسن جلباباً من نار، وخفين من نار، وقناعاً من نار، وأدخل في أجوافهن وفروجهن أعمدة من نار، وقذف بهن في النار» فقالت: ليس هذا في كتاب الله؟ قال: «بلى» قالت: أين هو؟ قال: «قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ فهن الرسيات»^٥.

أقول: هذه الروايات في بيان سبب إهلاك نسوتهم، وما سبق في بيان سبب عقوبة الرجال، فلا تنافي بينها.

﴿و﴾ أهلك ﴿قُرُونًا﴾ وأممًا كانوا ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المذكور من الأمم حال كونهم ﴿كَثِيرًا﴾ لا يعلمهم

١. في عيون أخبار الرضا عليه السلام: ونضارتها.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٠٥، تفسير الصافي ٤: ١٣.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٢١٣.

٤. الكافي ٧: ١٢٠٢، تفسير الصافي ٤: ١٥.

٥. تفسير القمي ٢: ١١٣، تفسير الصافي ٤: ١٥.

إلا الله.

﴿وَذَكَرْنَا كُتْلًا﴾ من الأمم المهلكين و﴿صَرَيْنَا﴾ وبيننا بتوسط الرسل ﴿لَهُ الْأَنْثَالُ﴾ والقصاص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من الكفر والمعاصي و﴿وَكَلَّا﴾ من الطوائف بعد تكذيبهم الرسل وإصرارهم على الطغيان ﴿تَبَرَّنَا﴾ هم وأهلكناهم و﴿تَتَبَّرْنَا﴾ وإهلاكاً عجيماً هائلاً.

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرُ السَّوَاءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَزُجُّونَ نُشُورًا * وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا [٤٠-٤٢]

ثم استشهد سبحانه على قدرته على تعذيب المكذبين للرسل وشدة غضبه عليهم بما وقع في سدوم من قرى قوم لوط بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ هؤلاء المشركون من قريش، ومزوا مراراً كثيرة في أسفارهم إلى الشام للتجارة ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ الموسومة بسدوم ﴿الَّتِي أَمْطَرْتُ﴾ من السماء ﴿مَطَرُ السَّوَاءِ﴾ وأهلك أهلها بنزل الحجارة عليهم ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا﴾ في ذهابهم إلى الشام، ولم ينظروا إلى آثار العذاب فيها فيخافوا ويعتبروا ويؤمنوا ﴿بَلْ﴾ علة عدم إيمانهم أنهم ﴿لَا يَزُجُّونَ﴾ ولا يتوقفون ﴿نُشُورًا﴾ ولا يؤمنون به حتى يرجوا ثواب الآخرة على الإيمان وطاعة الله مع وضوحه، فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوي حتى يتعظوا بما شاهدوا من آثار العذاب؟ وإنما يحملونه على الاتفاقيات.

ثم أنه تعالى بعد حكاية إنكار المشركين نبوة نبيه وشبهاتهم فيها، حكى استهزاءهم به بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ الذين كفروا بالله وبرسالتك من قريش ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ وما يفرضونك ﴿إِلَّا هُزُوءًا﴾ ومحلاً للسخرية، وكان كيفية استهزائهم أنه يقول بعضهم لبعض: ﴿أَهْذَا﴾ الرجل الفقير المهين فينا ﴿الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ فتبعه في ما يقول، وتطيعه في ما يحكم؟! ويقولون: ﴿إِنْ﴾ الشأن أنه ﴿كَادَ﴾ وقرب أنه ﴿لَيُضِلَّنَا﴾ ويضربنا ﴿عَنْ عِبَادَةِ آلِهَتِنَا﴾ وأصنامنا بلطف بيانه، وإكثار الحجج على التوحيد، واجتهاده في الدعوة إليه ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا﴾ وثبتنا ﴿عَلَيْهَا﴾ وأصررنا على عبادتها.

ثم هددهم سبحانه بقوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ البتة ﴿حِينَ يَرُونَ﴾ عياناً في الآخرة ﴿الْعَذَابَ﴾ الأليم الشديد بالنار، أو في الدنيا بالقتل والأسر والذلّ والجلاء ﴿مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾؟ وأي الفريقين

أفسد مذهباً، هم أم محمد والمؤمنون به الذين يدعون أنهم في ضلالٍ عن الحق؟ وفيه دلالة على أنهم لم يكونوا على حجة في مذهبهم الباطل، وإنما عارضوه بمخص الجحود والتقليد واللجاج الذي هو دأب الجهال.

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا [٤٤ و ٤٣]

ثم أنه تعالى بعد الحكم بضالهم، وتهديدهم بالعذاب، زيف مذهبهم بأنه في الحقيقة عبادة هوى أنفسهم وشهوتهم لا إطاعة حكم عقولهم بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا محمد ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ﴾ ومعبوده ﴿هَوَاهُ﴾ وشهوة نفسه، وهل تعجبت من حُقم من بني أمر دينه على ميل طبعه، فكلما دعاه هواه إليه انتقاد له، سواء منع عنه العقل السليم أم وافقه.

قيل: إن قوماً من العرب كانوا يعبدون الحجر، وإذا رأوا حجراً أحسن شكلاً ولونا من غيره سجدوا له^١. وعن سعيد بن جبيرة: كان الرجل من المشركين يعبد الصنم، فاذا رأى أحسن منه رماه واتخذ الآخر وعبد^٢.

وعن ابن عباس: الهوى إله يعبد^٣.

وفي الحديث: «ما عبد إله أبغض على الله من الهوى»^٤.

ثم آيس سبحانه نبيه ﷺ عن هدايتهم لأن لا يتعبد نفسه الشريفة في دعوتهم بقوله: ﴿أَفَأَنْتَ﴾ يا محمد، ببذل جهدك في دعوتهم ﴿تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ وحفيظاً تحفظهم من اتباع الهوى وعبادة الأصنام، لا لا تكون حافظاً لهم إلا بالإيجاب الذي ليس لك، بل إنما أنت منذر، وقد قضيت ما عليك. وقيل: إن المراد إنكار كونه ﷺ حفيظاً لهم من العذاب بإتباع نفسه في دعوتهم^٥.

ثم نفى سبحانه عنهم أهلية الهداية بقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ وتوهم ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ حُججك وإنذارك ومواعظك ﴿أَوْ﴾ إذا سمعوها ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ويتفكرون فيها، ولذا تطمع في إيمانهم، وتهتم في دعوتهم، لا توهم ذلك ﴿إِنْ هُمْ﴾ وما هؤلاء ﴿إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ والبهائم في العزاء من السمع والعقل ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وأبعد من البهائم ﴿سَبِيلًا﴾ وطريقاً الى الرشاد، لأنها تنقاد لمن يقودها إلى ما فيه خيرها، وتطلب نفعها، وتجنب عما فيه ضررها، وتعرف من يحسن إليها مع عرائنها عن العقل، وهم

٢ و ٣. تفسير الرازي ٢٤: ٨٦.

٥. تفسير أبي السعود ٦: ٢٢١.

١. تفسير روح البيان ٦: ٢١٧.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٢١٧.

مع عقلهم لا يعرفون ربهم المحسين إليهم، ولا ينقادون لمن يدّلهم إلى معرفته، ولا يطلبون ثوابه الذي هو أعظم المنافع، ولا يجتنبون عقابه الذي هو أعظم المضار، ولأنها لو لم تعتقد حقاً لا تعتقد باطلاً ولا تكسب شراً بخلاف هؤلاء، ولأن جهالتها وضلالها لا تقصر أحداً، وجاهالة هؤلاء وضلالهم تؤدي إلى هجّ الفتن وصدّ الناس عن كلّ حقٍّ وخير، ولأنها عاجزة عن تحصيل الكمال، فلا تقتصر منها ولا ذمّ عليها، بخلاف هؤلاء فإنهم قادرون عليه، مقصرون فيه، مستحقون لأشدّ الذمّ والعقاب.

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ
دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا [٤٦ و ٤٥]

ثمّ أنّه تعالى لما ذمّ المشركين بعدم سماعهم الحجج على توحيدهم، وعدم تفكيرهم فيها، شرع في بيان أوضح الحجج عليها زائداً على ما سبق بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بعين رأسك، وبعين قلبك يا محمد ﴿إِلَى﴾ صنّع ﴿رَبِّكَ﴾ أنّه بقدرته الكاملة ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ وبسط الكيفية المتوسطة بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة التي تكون بين الطلوعين وتحت السقوف وأفنية الجدران، وهي الحالة التي تكون أطيب الأحوال، لأنّ الظلمة الخالصة يكرها الطبع، وينفر عنها الحس، والضوء الخالص يبهّر البصر، ويؤثر السخونة الشديدة، ولذا وصف سبحانه الجنة بها بقوله: ﴿وِظِلٌّ مِمْدُودٌ﴾^٢ ومن المعلوم أنّه من النعم العظيمة والمنافع الجليلة التي لا بدّ لها من موجد، ولا يكون إلّا الله، لعدم قدرة غيره على إيجادها.

﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ الله سكونه، ورأى الصلاح فيه ﴿لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ وثابتاً على حاله واحدة من الطول والعرض والامتداد والاقامة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ومعرفاً، لأنّ الأشياء تُعرف بأضدادها، فأنّه لولا الشمس لما رُوي^٣ غير الجسم ولونه، ولا يُرى الظلّ موجوداً ثالثاً، فإذا أشرقت الشمس وزال الظلّ بضوئها، عُرف أنّه شيء بحياله، كما أنّه لولا الظلمة لما عُرف النور، فالمراد من الآية أنا خلقنا الظلّ أولاً لما فيه من المنافع، ثم هدينا العقول إلى معرفة وجوده باطلاع الشمس، فكانت الشمس دليلاً على وجود الظلّ الذي هو نعمة عظيمة.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ ورفعناه ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا﴾ ورفعاً، ولكن لا دفعة، بل يسيراً ﴿يَسِيرًا﴾ فإنّ الشمس كلما ازدادت ارتفاعاً ازداد الظلّ نقصاناً من جانب المغرب.

وقيل: لَمَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاءَ والأَرْضَ وَالشَّمْسَ والقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ، وَقَعَ الظَّلُّ عَلَى الأَرْضِ^١.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا * وَهُوَ
الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا *
لِنُخْضِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا [٤٧-٤٩]

ثمَّ لَمَّا كَانَتِ الأَظْلَالُ تَحْرُكُ بِحَرَكَاتِ الأَصْوَاءِ، جَعَلَ ضَوْءَ الشَّمْسِ كَالِهَادِي، وَالظَّلَّ كَالْمَهْدِي فِي
سُلُوكِهِ بِالضَّوِّءِ، وَقَبْضُهُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ بِقَبْضِ الأَجْرَامِ الَّتِي يَقَعُ الظَّلُّ عَلَيْهَا، وَيَكُونُ هَذَا
الْقَبْضُ يَسِيرًا وَسَهْلًا عَلَى اللهِ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ﴾ بِقُدْرَتِهِ وَحُكْمَتِهِ ﴿لَكُمْ اللَّيْلَ﴾ سَاتِرًا بَظْلَامِهِ، كَأَنَّهُ
يَكُونُ ﴿لِبَاسًا﴾ لَكُمْ ﴿وَوَجَعَلَ﴾ النَّوْمَ ﴿فِيهِ سُبَاتًا﴾ وَرَاحَةً لِأَبْدَانِكُمْ، حَيْثُ إِنَّهُ مُسْتَلَزِمٌ لِلْفَرَاغِ
مِنَ الْمَشَاغِلِ وَالزَّحَمَاتِ، أَوْ مَوْتًا كَمَا قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ^٢﴾.

﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ﴾ وَالْوَقْتُ الَّذِي يَتَشَرُّ فِيهِ ضَوْءُ الشَّمْسِ ﴿نُشُورًا﴾ لَكُمْ وَوَقْتُ التَّفَرُّقِ فِي الأَرْضِ
لِطَلْبِ مَعَاشِكُمْ وَتَحْصِيلِ رِزْقِكُمْ، أَوْ وَقْتُ الْقِيَامِ مِنَ الْمَوْتِ، فَشَبَّهَ سُبْحَانَهُ النَّوْمَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ،
وَالْيَقِظَةَ بِالْبَعْثِ بَعْدَهُ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ النَّوْمَ وَالْيَقِظَةَ كَمَا يَكُونَانِ نِعْمَةً عَظِيمَةً يَكُونَانِ أَنْمُودَجَ الْمَوْتِ
وَالْبَعْثِ.

عَنِ لِقْمَانَ، أَنَّهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ كَمَا تَنَامُ فَتَوْقُظُ، كَذَلِكَ تَمُوتُ فَتُنْشَرُ^٣، أَوْ فَتُحْشَرُ^٤.
﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ﴾ حَالَ كَوْنِهَا ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وَقَدَّامَ الْمَطَرِ النَّافِعِ الَّذِي فِيهِ
حَيَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ بِقُدْرَتِنَا وَرَحْمَتِنَا بَعْدَ إِسْأَالِ الرِّيَّاحِ ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ الْمَطْلُ، وَالسَّقْفَ
الْمَحْفُوظَ، أَوْ مِنْ جِهَةِ الْعُلُوِّ ﴿مَاءً طَهُورًا﴾ يَتَطَهَّرُ بِهِ مِنَ الأَحْدَاثِ وَالْأَرْجَاسِ وَالْقَذَارَاتِ، فَإِنَّ
الطَّهَارَةَ نِعْمَةٌ وَمِنَّةٌ زَائِدَةٌ، حَيْثُ إِنَّ الْمَاءَ الطَّهُورَ أَنْفَعُ وَأَهْنَأُ، وَيَكُونُ إِزَالَهُ ﴿لِنُخْضِيَ بِهِ﴾ بِالنَّبْتِ وَالزَّرْعِ
وَالْأَشْجَارِ وَالْأَزْهَارِ وَالشَّمَارِ ﴿بَلْدَةً﴾ وَقِطْعَةً مِنَ الأَرْضِ الَّتِي تَكُونُ ﴿مَيِّتًا﴾ لَا نَبْتَ فِيهَا وَلَا عِمَارَةً،
وَلِنَشْرِبَ ذَلِكَ الْمَاءَ ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ بَعْضًا ﴿مِمَّا خَلَقْنَا﴾ أَعْنِي ﴿أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ﴾ وَمَوَاشِي وَبُشْرًا
﴿كَثِيرًا﴾.

قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهِمْ أَهْلَ الْبُؤَادِي، فَأَنَّهُمْ يَعِيشُونَ بِمَاءِ الْمَطَرِ، وَلِذَا نَكَرَ سُبْحَانَهُ الْأَنْعَامَ وَالْأَنْآسِيَّ.
وَأَمَّا أَهْلُ الْمُدُنِ وَالْقُرَى، فَأَنَّهُمْ يَقِيمُونَ بِقُرْبِ الْأَنْهَارِ وَالْمَنْابِعِ، وَالْوَحُوشُ وَالطَّيُورُ تَبْعُدُ فِي طَلْبِ

١. تفسير الرازي ٢٤: ٨٩.

٢. الأنعام: ٦٠/٦.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٩٠.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٢٢٢.

الماء^١.

وإنما خص سبحانه الأنعام بالذكر، لأن غاية معاشهم ومنافعهم منوطة بها، ولذا قدم سقيها على سقيهم، كما قدم إحياء الأرض على سقيها، لأنه سبب لحياتها وتعيثها.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَلَوْ شِئْنَا لَسَبَّحْنَا
فِي كُلِّ قَرْيَةٍ تَذِيرًا * فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا [٥٠-٥٢]

ثم أنه تعالى بعد بيان المنافع الدنيوية للمطر، بين منافعه الآخروية بقوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ أنزلنا المطر و﴿صَرَّفْنَا﴾ وأجربناه ﴿فِيهِمْ﴾ في أنهارهم وأوديتهم، أو أنزلناه في مكانٍ دون مكانٍ، أو في عامٍ دون عامٍ.

روي عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه [قال]: «ما من عام بأمر من عام، ولكن إذا عَمِلَ قَوْمٌ بالمعاصي حَوَّلَ اللهُ ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفياضي»^٢.

وعن ابن عباس: ما عام بأمر من عام، ولكن الله يصرفه في الأرض^٣.

وقيل: إن المراد صرفنا وكَوَّرْنَا المذكور من الاظلال والرياح والسحاب والمطر وسائر ما ذُكر من الأدلة في القرآن وسائر الكتب السماوية^٤ ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ ويتفكروا حتى يعرفوا قدرة الله وحكمته وحق نعمته، ويقوموا بشكره وأداء تكاليفه ﴿فَأَبَى﴾ وامتنع مع ذلك ﴿أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ ممن سلف وخلف ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ لنعمه، وعدم المبالاة بشأنها، وعدم تأدية شكرها والقيام بحَقِّها، بل جحدوها باسنادها إلى الطبايع وتأثير الكواكب.

ثم لما كان للكفار اعتراض في بعث الرسول وشخصه، بين أن أمره راجع إلى اختياره ومشيئته بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ ورأينا صلاح ﴿لَبَشَّيْنَا﴾ من قبلنا ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ ومجتمع للناس من بلد ومدينة ﴿تَذِيرًا﴾ ورسولاً من البشر، يُنذِرُ أهلها، ليخفف عليك أعباء الرسالة، ولكن أجللناك وعظّمنا شأنك بأن خصصناك بهذا المنصب العظيم، وبعثناك إلى الخلق أجمعين إلى يوم الدين تفضيلاً لك على سائر الأنبياء والمرسلين، فليس لأحدٍ أن يعترض علينا في إكثار الرسل أو تخصيصه بشخص واحدٍ من أيِّ صنفٍ كان، فإذا عَلِمْتَ اختيارنا فيه وعِظَمَ شأنك لدينا ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ في ما يطلبون منك من الإمساك عن الدعوة إلى التوحيد ودعوى الرسالة، وموافقتهم في عبادة أصنامهم خوفاً منهم، واتل عليهم القرآن الذي هو أعظم معجزاتك ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ واجتهد في مُحاجّتهم

ودفعهم عن باطلهم بهذا القرآن، أو بسبب علو قدرك، أو بسبب كونك نذير جميع القرى ﴿جِهَاداً كَبِيراً﴾ وعظيماً.

قيل: يعني جامعاً لمجاهدات الرسل الكثيرة^١.

قيل: إن توصيف مجاهدته بالقرآن بالكبير، لأنه أكبر وأعظم من الجهاد بالسيف^٢.

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مُّحْجُوراً * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا [٥٤ و ٥٣]

ثم بالغ سبحانه في بيان كمال قدرته بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ﴾ وأرسل، أو خلط، أو خلى ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾ والماء العظيمين في مجاريهما حال كونهما ممتازين كل من الآخر بحيث يقال: ﴿هَذَا﴾ الماء ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ وطيب رافع للعطش لغاية عذوبته وطيبه ﴿وَهَذَا﴾ الماء الآخر ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغ في الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً﴾ وحاجزاً وحائلاً من الأرض، أو من قدرته، كأنه يتنفر كل منهما من الآخر، ويقول له: ﴿وَحِجْراً مُّحْجُوراً﴾ كما يقول الرجل ذلك لعدوه تعوداً من شره، والمعنى أنه يقول كل من البحرين للآخر: حرامٌ مُحَرَّمٌ عليك أن تختلط بي، وتغلب عليّ، وتزيل صفتي، أو المراد تنافراً بليغاً، أو حداً محدوداً، والظاهر أن المراد بالبحر العذب الأنهار الكبار كالنيل والفرات ودجلة، ومن المِلْحِ الأجاج البحر المعهود، لما قيل من أنه لا وجود للبحر العذب^٣.
قيل: إن دجلة تدخل في بحر فارس، وهو المسمى بالبحر الأخضر، وتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها^٤.

وقيل: إن النيل يدخل في البحر الأخضر^٥، وهو بحر فارس، وهو على عذوبته، والبحر مَرُّعَاق. ثم إنّه تعالى بعد بيان كمال قدرته بصنعه في الماء، بين قدرته بخلق الانسان الذي هو أحسن مخلوقاته وأشرفها منه بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ﴾ الدافق المخلوق في أصلاب الرجال ﴿بَشَرًا﴾ وإنساناً ينطوي فيه العالم الكبير ﴿فَجَعَلَهُ﴾ أو جعل الماء ﴿نَسَباً﴾ وذكر أن ينسب إليه ويقال: فلان بن فلان ﴿وَصِهْراً﴾ وإنائاً يتزوج بهن.

والظاهر أن النسب القرابة بالولادة، والصهر القرابة بالتزويج ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ بحيث لاحد

٢. تفسير الصافي ٤: ١٩، تفسير روح البيان ٦: ٢٢٧.

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٠.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٢٩.

لقدرته، حيث خلق بقدرته من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة، وجعله قسمين متباينين متقابلين، وربما يخلق من مادة واحدة في رَجَم واحدة ذكراً وأنثى توأمين.

عن ابن سيرين والسُّدِّي: أن الآية نزلت في النبي ﷺ وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث زوج النبي ﷺ ابنته فاطمة عليها السلام فكان علي نسباً حيث إنه ابن عمه، وصِهراً حيث إنه زوج ابنته^١.

وعن الباقر عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «ألا وإني مخصّوص في القرآن بأسماء، احذروا أن تُغلبوا عليها فتُضِلُّوا في دينكم، أنا الصهر لقول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾»^٢.

وفي (روضة الواعظين) أنه قال رسول الله ﷺ: «خلق الله عز وجل نُطفةً بيضاء مكنونة، فنقلها من صلبٍ إلى صلبٍ حتى ثقلت النطفة إلى صلب عبدالمطلب، فجعلها نصفين، فصار نصفها في عبدالله، ونصفها في أبي طالب، فأنا من عبدالله، وعلي من أبي طالب وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا...﴾»^٣.

وقيل: إن المراد من الماء الذي هو أصل الموجودات^٤، والمراد من البشر آدم عليه السلام.

عن الصادق عليه السلام: أنه سُئِلَ عن هذه الآية فقال: «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من الماء العذب، وخلق زوجه من سِنِّه، فبرأها من أسفل أضلاع، فجرى بذلك الصِّلُع بينهما سببٌ ونسبٌ، ثم زوجها إياه، فجرى بينهما بسبب ذلك صِهْر، فذلك قوله: ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ فالنسب ما كان بسبب الرجال، والصَّهر ما كان بسبب النساء»^٥.

أقول: يعني بسبب النطفة والتزويج.

وعن الصدوق بإسناده عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: قلت له: يا رسول الله، علي أخوك؟ قال: «نعم، عليّ أخي». قلت: يا رسول الله، صف لي كيف عليّ أخوك؟ قال: «إن الله عز وجل خلق ماءً تحت العرش قبل أن يخلق آدم بثلاثة آلاف عام، وأسكنه في اللؤلؤة خضراء في غامض علمه، إلى أن خلق آدم، فلما خلق آدم نقل ذلك الماء من اللؤلؤة، فأجراه في صلب آدم إلى أن قبضه الله تعالى، ثم نقله إلى صلب شيث، فلم يزل ذلك الماء ينتقل من ظهرٍ إلى ظهرٍ حتى صار في عبدالمطلب، ثم شَقَّ

١. مجمع البيان ٧: ٢٧٣، وتفسير الصافي ٤: ١٩، وتفسير روح البيان ٦: ٢٣٠، عن ابن سيرين.

٢. معاني الأخبار: ٩/٥٩، تفسير الصافي ٤: ٢٠. ٣. روضة الواعظين: ٧١، تفسير الصافي ٤: ٢٠.

٤. الرازي ٢٤: ١٠١. ٥. مجمع البيان ٧: ٢٧٣.

٦. تفسير القمي ٢: ١١٤، تفسير الصافي ٤: ١٩.

[الله] عزَّ وجلَّ نصفين، فصار نصفه في أبي عبدالله بن عبدالمطلب، ونصف في أبي طالب، فأنما من نصف الماء، وعلي من النصف الآخر، فعلي أخى في الدنيا والآخرة^١.
أقول: للرواية وأمثالها تأويلات لا يفهمها إلا من نور الله قلبه بالإيمان، وأنعم عليه بالفكر الصائب والبصيرة الكاملة.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا *
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن
يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا [٥٥-٥٧]

ثمَّ أنه تعالى بعد بيان كمال قدرته وعظمته، ويخ المشركين على عبادة الأصنام التي لا قدرة لها على شيء بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ومجاوزين عنه ﴿مَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبده ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن لا يعبدوه، لأنها جمادات لا ينبغي لذي مسكة^٢ الاعتماد عليها ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ﴾ المشرك بشركه وعداوته للحق ﴿عَلَىٰ رَبِّهِ﴾ الخالق له وإلهه المربى له ﴿ظَهِيرًا﴾ وعونا للشيطان. وقيل: يعني هيناً^٣.

وعن الباقر عليه السلام - في رواية - «علي هو ربّه في الولاية»^٤.

والقمي، قال: الكافر هو الثاني، وكان علي أمير المؤمنين عليه السلام ظهيراً^٥.

ثمَّ أنه تعالى بعد بيان عداوة الكفار له، يبيّن لطفه بهم الموجب لحبهم له بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد، إلى الناس ﴿إِلَّا﴾ لتكون ﴿مُبَشِّرًا﴾ لهم بالنواب على الطاعة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لهم بالعقاب على العصيان، فمن أجهل ممّن اجتهد في إظهار العداوة لمن يحبه ويلطف به ويصلح مهماته من دون طمع في مالهم، ولذا أمر نبيّه بإعلامهم بعدم توقّع أجرٍ منهم على الرسالة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين: أنا مبعوث إليكم لتبليغ الحقّ و﴿مَا أَسْأَلُكُمْ﴾ ولا أطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ شيئاً ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ ومالٍ لنفسي حتى تقولوا: إنَّ محمداً يطلب أموالنا بما يدعونا إليه ﴿إِلَّا﴾ عمل ﴿مَن شَاءَ﴾ واراد ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ﴾ قرب ﴿رَبِّهِ﴾ ورحمةً مليكة ﴿سَبِيلًا﴾ من الإيمان والطاعة له، فأنّه أجرى وجعلني على التبليغ والدعوة، فإن أجرى على رسالتي طاعتكم لله وتقرّبكم إليه، فإن النبي يتّاب بقدر

١. أمالي الطوسي: ٦٣٧/٣١٢، تفسير الصافي: ٤: ٢٠، ولم نعثر عليه في مصنفات الشيخ الصدوق، والذي في

الصافي: وعن الأمالي، بدل وعن الصدوق.

٢. المسكة: العقل والوافر والرأي.

٣. تفسير أبي السعود ٢٢٦: ٢٢٦.

٤. بصائر الدرجات: ٥/٩٧، تفسير الصافي: ٤: ٢٠.

٥. تفسير القمي ٢: ١١٥، تفسير الصافي: ٤: ٢٠.

عبادة أمته، وفيه المبالغة في دفع شبهة طمعه في الأجر الدنيوي وإظهار غاية الشفقة بهم، فهذا نظير قول الوالد لولده: إني لا أطلب باحساني إليك وتربيتي إياك أجراً إلا أن تحفظ نفسك ومالك من التلّف.

وقيل: إن المراد لا أسألكم على الدعوة إلى الله إلا أن يشاء أحد أن يتقرب إلى الله بالاتفاق في الجهاد وسائر الخيرات، فيتخذ به سبيلاً إلى رحمة ربه وتبيل ثوابه^١.

وقيل: إن الاستثناء منقطع^٢، والمعنى لا أسألكم عليه أجراً لنفسي، ولكن أسألكم أن تطلبوا الأجر لأنفسكم باتخاذ السبيل إلى ربكم^٣.

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا [٥٨]

ثم لما بين سبحانه تظاهر الكفار على عداوة الله ورسوله، أمر نبيه ﷺ بالاعتماد عليه في دفع شرهم بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ واعتمد يا محمد في دفع شرهم وكفاية أمور معاشك ومعادك ﴿عَلَى﴾ ﴿الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الحي الذي من شأنه أن يموت، فإنه بالموت يضيع من توكل عليه ﴿وَسَبِّحْ﴾ ونزه ربك من النقص الامكانية كالعجز والحاجة والجهل والغفلة ونظائرها، أو صلّ لربك، أو قل: سبحانه الله، حال كونك مقرناً له ﴿بِحَمْدِهِ﴾ والثناء عليه بنعوت الكمال وطلب مزيد إنعامه بشكره على سوابق نعمه.

ثم وعد سبحانه نبيه بالانتقام من أعدائه بقوله: ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ ما ظهر منها وما بطن ﴿خَبِيرًا﴾ ومطلعاً لا يحتاج إلى غيره في تعذيبهم والانتقام منهم، لكمال قدرته عليه، فيجزئهم جزاءً وافيًا، فلا عليك أن آمنوا أو كفروا، أو أطاعوا أو خالفوا.

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَبِيرًا [٥٩]

ثم وصف نفسه بالقدرة الكاملة إرعاباً للقلوب وتقويةً للدواعي على التوكل عليه بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ بقدرته ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات ﴿فِي﴾ مدة مقدارها مقدار ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا، أو في ستة أوقات كل وقت منها محدود بالإضافة إلى ما خلق فيه، على

ترتيب اقتضته الحكمة، فالمدة المتوهمه التي خلق فيها الأرض يوم، والتي خلق فيها السماوات يوم وهكذا، وإنما خلق العالم على التدرج مع قدرته على خلقه جميعاً في أقل من طرفة عين، لحكم لا يعلمها إلا هو، منها تعليم العباد الثاني في الأمور ﴿ثُمَّ أَشْتَوَى﴾ واستولى بقدرته الكاملة وعلمه الشامل ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ ونفذ تصرفه وتديره في جميع الموجودات.

قيل: إن الاستقرار على سرير الملك، كما هو الظاهر من الاستواء على العرش، كناية عن قوة سلطانه ونفاذ أمره^١، أو رفعه على السماوات^٢. فهذا القادر على خلق الموجودات العلوية والسفلية المنبسطة رحمته على الممكنات هو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ فإن الرحمانية هي الاستواء والقاهرة على جميع الممكنات ﴿فَسْأَلُ﴾ يا محمد ﴿بِهِ﴾ شخصاً ﴿خَيْراً﴾ وعالماً بكيفية خلق الموجودات والاستواء عليها. قيل: هو الله لعدم علم غيره بها^٣. وعن ابن عباس: هو جبرئيل^٤. وقيل: هو العالم بالكتب السماوية ليصدقك فيه^٥.

قيل: إن لفظ (به) متعلق بخير، وإنما قدّم تحفظاً على رؤوس آلاي وحسن النظم^٦. وقيل: إن الباء زائدة، والمعنى فأسأله حال كونه خيراً^٧. وقيل: إنها بمعنى (عن)^٨. وقيل: إنها للتعدية لتضمن السؤال معنى الاعتناء^٩. وقيل: إنها للقسم كقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾^{١٠}.

روي أن اليهود حكوا ابتداء خلق الأشياء بخلاف ما أخبر الله تعالى^{١١}. وقيل: إن ضمير (به) راجع إلى الرحمن ردّاً على إنكار المشركين إطلاق اسم الرحمن على الله، بأن العالم بالكتب السماوية يعلم أن ما يُرادف هذا الاسم أطلق على الله في الكتب^{١٢}.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ
ثُفُوراً [٦٠]

ثم لما توهّم المشركون من أمر النبي ﷺ بالسجود للرحمن، أمره بعبادة غير الله، لجهلهم بأن الرحمن من أسمائه تعالى، ذمهم سبحانه على ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ والإله

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٣٤. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٥.
٣. ٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٥. ٥. تفسير البيضاوي ٢: ١٤٦.
٦. ٨. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٥. ٩. تفسير البيضاوي ٢: ١٤٦.
١٠. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٥، والآية من سورة النساء: ١/٤.
١١. مجمع البيان ٧: ٢٧٥، تفسير الصافي ٤: ٢١.
١٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٢٧، تفسير الصافي ٤: ٢٢.

الذي خلق برحمته جميع الموجودات قيل: إن المراد بالسجدة هنا الصلاة^١ «قَالُوا» اعتراضاً على النبي ﷺ ما تقول «وَمَا الرَّخْمُنُ» وأي شيء هو؟ فأن لا نعرف أن يكون اسماً لشيء «أَتَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا» بالسجود له مع عدم معرفتنا إياه، لا نطيعك في ذلك «وَزَادَهُمْ» الأمر بالسجود للرحمن «تُقُورًا» وانزعجاً عن الإيمان.

روي أن أبا جهل قال: إن الذي يقوله محمدٌ شِعْرٌ. فقال ﷺ: «الشعر غير هذا، إن هذا إلا كلام الرحمن» فقال أبو جهل: بخ، بخ، لمعري والله إنه لكلام الرحمن الذي باليامة، هو يعلمك. فقال ﷺ: «الرحمن الذي هو إله السماء، ومن عنده يأتيني الوحي» فقال: يا آل غالب، من يعذرني من محمد، يزعم أن الله واحد، وهو يقول: الله يعلمني والرحمن، ألستم تعلمون أنهما إلهان؟ ثم قال: «ربكم الله الذي خلق هذه الأشياء، أما الرحمن فهو مسيلمة»^٢. قيل: فسجد رسول الله ﷺ وعليه وجماعة الصحابة، ولما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين، فهذا هو المراد من قوله: «وَزَادَهُمْ تُقُورًا» أي فزادهم سجودهم تقوراً^٣.

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا [٦٢ و ٦١]

ثم لما ذكر الله تفورهم عن السجود له، بين كمال عظمتة الموجبة لسجود جميع الموجودات له بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى، أو تكاثر خير الإله ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ بقدرته وحكمته ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ لنفع الناس ﴿بُورُوجًا﴾ ومنازل الكواكب السبعة السيارة. وعن ابن عباس: البروج: هي الكواكب العظام^٤.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ لهذا العالم المظلم ﴿سِرَاجًا﴾ وشمساً مضيئةً ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ بالليل ﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ وذوي عتبة يعقب كل منهما الآخر، ويأتي خلفه. وعن ابن عباس: جعل كل واحد منهما يخلف صاحبه في ما يحتاج أن يعمل فيه، فمن فرط في عمل أحدهما قضاء في الآخر^٥.

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: وقد فاتته قراءة القرآن بالليل: يا بن الخطاب، لقد أنزل الله فيك آية، وتلا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً...﴾ ما فاتك من

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٣٥.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٥.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٦.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٦.

النوافل بالليل فاقضه في [نهارك، وما فاتك من النهار فاقضه في] ليلك^١.
 وعن الصادق عليه السلام: «كُلَّ مَا فَاتَكَ بِاللَّيْلِ فَاقْضِهِ بِالنَّهَارِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» وتلا هذه الآية. ثُمَّ
 قال: «يعني أن يقضي الرجل ما فاتته بالليل»^٢.
 وقيل: يعني جعلهما مختلفين بالسواد والبياض والطول والقصر^٣، كُلَّ هَذِهِ النِّعَمِ الْعِظَامِ نَافِعٌ أَوْ
 مَخْلُوقٌ ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ﴾ وَتَفَكَّرَ فِيهَا، فَيَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَلَطْفِهِ ﴿أَوْ
 أَرَادَ شُكْرَ الرَّبِّ﴾ لِمَنِّهِ وَالْقِيَامِ بِحَقِّ نِعْمَتِهِ بِالْجِدِّ فِي الطَّاعَةِ، وَالْجُهْدِ فِي الْعِبَادَةِ.
 وقيل: إنَّ المعنى جعل الليل والنهار ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين، فمن فاتته في أحدهما
 شيء من العبادة قام به في الآخر^٤.

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ
 قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا [٦٣ و ٦٤]

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِمِّ الْمَشْرِكِينَ وَعِبَادِ الشَّيَاطِينِ بِالْإِمْتِنَاعِ عَنِ السُّجُودِ لِلرَّحْمَنِ وَالْخُضُوعِ لَهُ، مَدَحَ
 عِبَادَهُ بِالْخُضُوعِ وَالتَّوَاضُّعِ وَالسُّجُودِ لَهُ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَالْإِقْتِصَادِ فِي الْمَعِيشَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَعِبَادُ
 الرَّحْمَنِ﴾ هُمْ ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ بَيْنَ النَّاسِ ﴿عَلَى﴾ وَجْهِ ﴿الْأَرْضِ﴾ فِي النَّهَارِ حَالِ كَوْنِهِمْ
 ﴿هَوْنًا﴾ وَمَتَذَلِّينَ مُتَوَاضِعِينَ لِنَيْنِ، لَا يَضْرِبُونَ بِأَقْدَامِهِمْ أَشْرًا وَلَا بَطْرًا، وَلَا يَتَجَبَّرُونَ، وَلَا يَتَبَخَّرُونَ،
 لِعِلْمِهِمْ بِعَظَمَةِ رَبِّهِمْ وَهَيْبَتِهِ، وَشُهُودِهِمْ كِبَرِيَاءَهُ وَجَلَالَهُ، فَخَشَعَتْ لَذَلِكَ أَرْوَاحَهُمْ، وَخَضَعَتْ
 نَفُوسَهُمْ وَجَوَارِحَهُمْ.

وفي الحديث: «المؤمنون هينون لئنون، كالجمال الأنف إن قيد انقاد، وإن استئخج^٥ على صخرة
 استناخ»^٦.

وعن الصادق عليه السلام: «هو الرجل يمشي بسجيته التي جبل عليها لا يتكلف ولا يتبختر»^٧.
 والقمي، عن الباقر عليه السلام، أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «الْأَنَمَةُ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا خَوْفًا مِنْ
 عَدُوِّهِمْ»^٨.

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٦.

٢. من لا يحضره الفقيه ١: ١٤٢٨/٣١٥، تفسير الصافي ٤: ٢٢.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٦.

٤. في تفسير روح البيان: انبخ.

٥. مجمع البيان ٧: ٢٧٩، تفسير الصافي ٤: ٢٣.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٢٤٠.

٧. تفسير القمي ١١٦: ٢، تفسير الصافي ٤: ٢٣.

وعن الكاظم عليه السلام: «هم الأئمة عليهم السلام يتقون في مشيهم»^١.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمْ﴾ وكلّمهم ﴿الْجَاهِلُونَ﴾ بكلام فيه خرق وهزل وقباحة ﴿قَالُوا﴾ نطلب منك ﴿سلاماً﴾ وأمناً من الشرّ والضّرّ، لا تُجاهلكم ولا تُخالط بشيء من أموركم، بل بيننا متاركة تامّة.

وقيل: يعني قالوا قولاً سلاماً، أي سداداً، يَسْلَمُونَ فيه من الأذى والإثم^٢.

وقيل: قالوا سلاماً أي سلام توديع لا تحية^٣، والمراد أننا لا نقابلكم بسوء، بل نعدّل عن طريقكم ونحلّم عنكم.

ثمّ إنّ تعالى بعد بيان سيرتهم في النهار مع الخلق، بيّن سيرتهم في الليل مع الخالق بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ﴾ ويصبحون لياليهم حال كونهم ﴿لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا﴾ لله ﴿وَقِيَامًا﴾ قيل: يبيتون لله على أقدامهم، ويقرّشون له وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم خوفاً من ربّهم^٤.

وقيل: يُصَلُّون في جميع الليل، وإنّما ذكر عبادتهم بالليل لكونها أشقّ وأبعد من الرياء^٥، وفي الخبر: من كثّر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار^٦.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا [٦٥-٦٧]

ثمّ ذكر سبحانه أنّهم مع اجتهداهم في العبادة خائفون من عذاب الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في صلاتهم، أو في شجودهم وقيامهم، كما عن ابن عباس^٧، أو في عامّة أوقاتهم^٨ ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ﴾ وادفع ﴿عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ وشرّاً دائماً، وهلاكاً لازماً لكلّ من ابتلى به. عن الباقر عليه السلام يقول: «ملازماً لا يفارق»^٩.

وعن ابن عباس: الغرام هو الموجع^{١٠}.

وقيل في تفسير الغرام: إنّ تعالى سأل الكفار ثمن نعمه، فما أدّواها إليه، فأغرهم فأدخلهم النار^{١١}. ثمّ ذكروا علّة مسألتهم النجاة من جهنّم بقولهم: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ قيل: إنّها مستقرّ

١. تفسير القمي ٢: ١١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٣.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٤١.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٨.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٨.

٥. تفسير القمي ٢: ١١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٣.

٦. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٨.

٧. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٨.

٨. تفسير روح البيان ٦: ٢٤٢.

٩. تفسير روح البيان ٦: ٢٤٣.

١٠. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٨.

١١. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٨.

للعصاة من المؤمنين، حيث إنهم لا يقيمون فيها، ومقام للكفار^١. ويحتمل أن يكون هذا كلام الله تعالى^٢.

في بيان المراد من الاسراف والتفكير
ثم مدحهم سبحانه بالاقتصاد في المعيشة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا﴾ على أنفسهم وعيالهم، وعلى الفقراء ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ ولم يتجاوزوا فيه عن حدّ التوسط ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾.

وعن ابن عباس: الاسراف: هو الانفاق في معصية الله تعالى، والاقتار منع حق الله تعالى^٣.
وعن مجاهد: لو أنفق رجلٌ مثل جبل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله تعالى، لم يكن سرفاً، ولو أنفق صاعاً في معصية الله تعالى يكون سرفاً^٤.

وقيل: يعني لم يُنفقوا في معاصي الله، ولم يُمسِكوا عما ينبغي، وذلك قد يكون في الإمساك عن حق الله، وهو أفتح تقتير، وقد يكون في الامساك عن المندوب، كالانفاق على الفقير^٥.
وقيل: إن السرف مجاوزة الحد في التمتع والتوسع في الدنيا، وإن كان من حلال، كالأكل فوق الشبع بحيث يمنع النفس من العبادة، والاقتار: هو التضييق، كالأكل أقل من الحاجة. قال: وهذه صفة الصحابة، كانوا لا يأكلون طعاماً للتمتع واللذة، ولا يلبسون ثياباً للتجمل والزينة، ولكن يأكلون ما يسد جوعهم، ويعينهم على عبادة ربهم، ويلبسون ما يستر عوراتهم ويصونهم عن الحر والبرد^٦.
وعن القمي: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ يعني لم يُنفقوا^٧ في المعصية ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ يعني لم يبخلوا عن حق الله^٨.

وعن النبي ﷺ: «من أعطى في غير حق فقد أسرف، ومن منع من حق فقد قتر»^٩.
وعن علي عليه السلام: «ليس في المأكول والمشروب سرف وإن كثر»^{١٠}.
وعن الصادق عليه السلام: «إنما الإسراف في ما أفسد المال وأضر بالبدن».
قيل: فما الاقتار؟ قال: «أكل الخبز والملح وأنت تقدر على غيره».
قيل: فما القصد؟ قال: «الخبز واللحم واللبن والخَل والسمن، مرّة هذا، ومرّة هذا»^{١١}.
وعنه عليه السلام: أنه تلا هذه الآية، فأخذ قبضة من حصي، وقبضها بيده، فقال: «هذا الاقتار الذي ذكره [الله] في كتابه» ثم قبض قبضة أخرى، فأرخی كفّه كلها، فقال: «هذا الإسراف» الخبر^{١٢}.

٥٠١. تفسير الرازي ٢٤: ١٠٩.

٧. في المصدر: والإسراف الإنفاق.

٨. تفسير القمي ٢: ١١٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣.

٩ و ١٠. مجمع البيان ٧: ٢٨٠، تفسير الصافي ٤: ٢٤.

١١. الكافي ٤: ١٠/٥٤، تفسير الصافي ٤: ٢٤.

١٢. الكافي ٤: ١/٥٤، تفسير الصافي ٤: ٢٤.

﴿وَكَانَ الْإِتِّفَاقُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المذكور من الاسراف والافتار ﴿قَوَامًا﴾ ووسطاً عدلاً.

وفي الخبر ثم أخذ قبضة أخرى فأرخى بعضها وأمسك بعضها، وقال: «هذا القوام»^١.

وعن القمي: القوام: العدل [والإتفاق] في ما أمر الله به^٢.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا [٦٨]

ثم لما كانت هذه الأعمال من المشركين القاتلين للنبات ممكنة، وصف عباده بالتوحيد واجتناب الكبار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ﴾ ولا يعبدون ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ الحق ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ ولا يشركون به غيره ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها بوجه ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ المبيح لقتلها كالقصاص أو الحد ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ ولا يجامعون امرأة بغير الأسباب المبيحة لجماعها، وفيه تعريض للكفار بأنهم يعبدون إلهاً آخر، ويقتلون النبات، ويزنون ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ المذكور من القبائح ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ ويَلْ وبال تلك الأعمال.

وقيل: إن الآثام وادٍ في جهنم^٣.

وعن القمي: آثام: وادٍ من أودية جهنم من صُفْرِ مُذَابٍ، قُدَّامَهَا حُدَّةٌ في جهنم، يكون فيه من عبد غير الله ومن قتل النفس التي حرم الله، ويكون فيه الرِّثَاءُ^٤.

وقيل: هو جهنم^٥.

وفي الحديث: الغي والآثام بثران يسيل فيهما صديد أهل النار^٦.

وعن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله أي ذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك» فأنزل الله تصديقه^٧.

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا

٢. تفسير القمي ٢: ١١٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣.

١. الكافي ٤: ١/٥٥، تفسير الصافي ٤: ٢٤.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ١١١.

٤. في الحُدَّة: الحفرة المستطيلة في الأرض. وفي النسخة: حُدَّة.

٦. تفسير الرازي ٢٤: ١١١.

٥. تفسير القمي ٢: ١١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٤.

٨. تفسير الرازي ٢٤: ١١١.

٧. تفسير روح البيان ٦: ٢٤٧.

رَحِيمًا [٧٠ و ٧٠]

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ الْآثَامَ، وَأَكَّدَ تَهْدِيدَ الْمُرْتَكِبِينَ لَتِلْكَ الْقَبَائِحِ الْعِظَامَ بِقَوْلِهِ: ﴿يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ﴾ ويتزايد له العقاب وقتاً بعد وقت ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بسبب انضمام شركه بالمعاصي ﴿وَيَخْلُدُ﴾ في العذاب ويقيم ﴿فِيهِ﴾ ابداً حال كونه ﴿مُهَانًا﴾ وذليلاً ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ ورجع عن شركه وعصيانه، وأمن بوحداية ربه ﴿وَعَمِلَ﴾ بعد إيمانه ﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾ مرضياً عند الله ﴿فَأُولَئِكَ﴾ التائبون الصالحون ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ بأن تُمحى سيئاتهم من صحيفة عملهم، وتُكتب مكانها الحسنات، كما عن سعيد بن المسيّب وجماعة من مفسري العامة^١.

عن النبي ﷺ: أَنَّهُ [قال]: «لِتَمَنِينَ أَقْوَامٍ أَنَّهُمْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ» قيل من هم يا رسول الله؟ قال: «الَّذِينَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ»^٢.

وعنه ﷺ: «أَنَّهُ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ: اعْرَضُوا عَلَيَّ صِغَارَ ذَنْبِي، وَيُخَيَّأُ عَنْهُ كِبَارُهَا، فَيَقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَهُوَ مَقَرٌّ لَا يُنْكَرُ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنَ الْكِبَارِ، فَيَقَالُ: أَعْطَوْهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ عَمِلَهَا حَسَنَةً، فَيَقُولُ: إِنَّ لِي ذَنْبًا مَا أَرَاهَا هَاهُنَا». قال: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَضْحَكُ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ تَلَا ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ﴾ إِلَى آخِرِهِ^٣.

في بيان المراد من أقول: يَحْتَمِلُ كَوْنُ الْمُرَادِ مِنَ الرِّوَايَةِ الْمَحْوِ وَالْإِثْبَاتِ لِلَّذِينَ^٤ ذَكَرْنَا، وَإِخْفَاءُ الصُّورَةِ تَبْدِيلِ السَّيِّئَاتِ وَإِظْهَارُهَا بِالْحَسَنَاتِ

عن الباقر ﷺ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْآيَةِ، فَقَالَ: «يُؤْتَى بِالْمُؤْمِنِ الْمَذْنُوبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ بِمَوْقِفِ الْحِسَابِ، فَيَكُونُ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى حِسَابَهُ، لَا يُطْلَعُ عَلَى حِسَابِهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَيَعْرِفُهُ ذَنْبُهُ، حَتَّى إِذَا أَقْرَبَ سَيِّئَاتِهِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَتَبَةِ: بَدِّلُوا هَذِهِ حَسَنَاتٍ، وَأَظْهَرُوا هَذَا لِلنَّاسِ. فَيَقُولُ النَّاسُ حِينَئِذٍ: مَا هَذَا كَانَ لِهَذَا الْعَبْدِ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» إِلَى أَنْ قَالَ: «هِيَ لِلْمُذْنِبِينَ^٦ مِنْ شِيعَتِنَا خَاصَةً»^٧.

وعن الرضا ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَوْقَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ عَمَلَهُ، فَيَنْظُرُ فِي صَحِيفَتِهِ، فَأُولَ مَا يَرَى سَيِّئَاتِهِ، فَيَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ، وَتَرْتَعِدُ فَرَائِصُهُ، ثُمَّ تُعْرَضُ عَلَيْهِ حَسَنَاتُهُ فَتَقَرُّ حِينَئِذٍ لِذَلِكَ^٨ نَفْسُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: بَدِّلُوا سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ، وَأَظْهَرُوا هَذَا لِلنَّاسِ. فَيُبَدِّلُ اللَّهُ لَهُمُ

١. تفسير الرازي ١١٢: ٢٤.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٤٧.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٤٧.

٤. في أمالي المفيد وتفسير الصافي: هي في المذنبين.

٥. في النسخة: الذين.

٦. في أمالي المفيد: ٨/٢٩٨، تفسير الصافي ٤: ٢٤.

٧. في أمالي المفيد: أما.

٨. في تفسير القمي والصافي: فتفرح لذلك.

فيقول الناس: أما كان لهؤلاء سيئة واحدة؟ وهو قول الله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ﴾ إلى آخره^١.
وعنه، عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: حَبَّنَا أهل البيت يكفِّر الذنوب، ويُضَاعِف الحسنات، وإن الله تعالى ليتَحَمَّل من^٢ محبِّينا أهل البيت ما عليهم من مظالم العباد إلا ما كان منهم [على] إصرارٍ وظلمٍ للمؤمنين، فيقول للسيئات: كوني حسنة»^٣.

أقول: الظاهر منه تغيير مُجَسِّمة الأعمال، وقريب منه رواية أخرى عنه عليه السلام^٤.

وعن الباقر عليه السلام - في حديث ما معناه -: «أَنَّ الله سبحانه يأمر بأن تُؤخَذَ حسنات أعدائنا فتردَّ على شعبتنا، وتؤخذَ سيئات شعبتنا فتردَّ على مبغضينا، وهو قول الله تعالى: ﴿قَاتِلْهُمْ لِيُبَدِّلَ اللَّهُ﴾ إلى آخره، يبدِّل الله سيئات شعبتنا حسنات، ويبدِّل الله حسنات أعدائنا سيئات»^٥.

وعن ابن عباس: أنَّ التبدُّيل إمَّا يكون في الدنيا، فيبدِّل الله تعالى قبائح أعمالهم في الشرك بمحاسن الأعمال في الاسلام، فيبدِّلهم بالشُّرك إيماناً، ويقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة [واحصاناً]، فكأنَّه تعالى يُبشِّرهم بأنه يُوفِّقهم لهذه الأعمال الصالحة، فيستوجبوا بها الثواب^٦.

وعن النبي ﷺ: «ما جلس قومٌ يذكرُّون الله إلا نادى بهم منادٍ من السماء: قُومُوا فقد بدَّل الله سيئاتكم حسنات»^٧.

وقيل: إنَّ المراد بالتبدُّيل تبديل عقابهم بالثواب^٨.

ثم بيَّن سبحانه علته بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ فمقتضى الصفتين: هذا التبدُّيل وازدياد الثواب.

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ
وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهَا
صُمّاً وَعُمُيَاناً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ
وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (٧١-٧٤)

ثم إنه تعالى بعد البشارة بقبول توبة المشركين المرتكبين للكبيرتين، بشرَ عُموم القُصاة بقبول توبتهم بقوله: ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ ورجع عن أي معصية ونَدِم عليها ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ يتدارك به ما فرط،

١. تفسير القمي ٢: ١١٧، تفسير الصافي ٤: ٢٥. ٢. في أمالي الطوسي: عن.

٣. أمالي الطوسي ١٦٤/٢٧٤، تفسير الصافي ٤: ٢٥.

٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٥٧/٣٣، تفسير الصافي ٤: ٢٥.

٥. علل الشرائع: ٦٠٩ و ٨١/٦١٠، تفسير الصافي ٤: ٢٥. ٦. تفسير الرازي ٢٤: ١١٢.

٧. روضة الواعظين: ٣٩١، تفسير الصافي ٤: ٢٥. ٨. تفسير الرازي ٢٤: ١١٢.

والتزم بالطاعة ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ﴾ ويرجع بعد الموت ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى ﴿مَتَابًا﴾ عظيم الشأن مرضياً عنده ماحياً للعقاب ومُحصلاً للثواب.

وقيل: يعني من تاب إلى الله من المعاصي الماضية يوفقه الله للتوبة من المعاصي المستقبلية، وهذه بشارة عظيمة^١.

وعن القمي: أي لا يعود إلى شيء من ذلك باخلاص ونية صادقة^٢.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ﴾ ولا يخضرون ﴿الرُّؤُوسَ﴾ والباطل والمجالس التي تتركب فيها المحرمات، أو خصوص الكذب على الله والرسول، كما عن ابن عباس^٣.

وقيل: الرؤوس هو الغناء، كما عن الصادق عليه السلام^٤، وابن الحنفية^٥، وزاد القمي: مجالس اللهو^٦.

﴿وَإِذَا مَرُّوا﴾ بالمشغولين ﴿بِاللُّغُوفِ﴾ والسفهي من القول والفعل، أو الفحش من الكلام ﴿مَرُّوا﴾ به حال كونهم ﴿كِرَامًا﴾ ومنزهين منه، معرضين عنه.

قيل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا عنهم^٧.

وقيل: إذا ذكروا^٨ النكاح كنوا عنه^٩.

وعن الباقر عليه السلام: «هم الذين إذا أرادوا ذكر الفرج كنوا عنه»^{١٠}.

وعن الصادق عليه السلام: أنه قال لبعض أصحابه: «أين نزلتم؟» قالوا: على فلان صاحب القيان. فقال: «كونوا كراماً، أما سمعتم قول الله عز وجل في كتابه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغُوفِ﴾؟» إلى آخره^{١١}.

وقال محمد بن أبي عباد - وكان مشتهراً بالسمع وشرب النبيذ - سألت الرضا عليه السلام عن السماع، فقال: «لأهل الحجاز رأي في فيه، وهو في حيز الباطل واللغو، أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغُوفِ﴾؟» إلى آخره^{١٢}.

أقول: الظاهر أن الجميع من مصاديق اللغو.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا﴾ ونبهوا ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على الموعظ والحكم ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾ ولم يسقطوا ﴿عَلَيْهَا﴾ حال كونهم ﴿صُمًّا﴾ وفاقدی الأسماع لا يصفون إليها إصغاء القبول ﴿وَعُمِّيَانًا﴾

١. تفسير الرازي ٢٤: ١١٣.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ١١٣.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ١١٣.

٧. تفسير الرازي ٢٤: ١١٤.

٩. تفسير الرازي ٢٤: ١١٤.

١١. الكافي ٦: ٤٣٢/٩، تفسير الصافي ٤: ٢٦.

١٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٢٨/٥، تفسير الصافي ٤: ٢٦.

٢. تفسير القمي ٢: ١١٧، تفسير الصافي ٤: ٢٦.

٤. الكافي ٦: ٤٣١/٦، تفسير الصافي ٤: ٢٦.

٦. تفسير القمي ٢: ١١٧، تفسير الصافي ٤: ٢٦.

٨. في تفسير الرازي: ذكر.

١٠. مجمع البيان ٧: ٢٨٣، تفسير الصافي ٤: ٢٦.

وافقدي الأبصار، لم يُبصروا ما فيها من المعجزات والعبر، بل أكبوا عليها وأقبلوا إليها سامعين بأذان واعية، مبصرين بعيون رغبة، متفعين بها حق الانتفاع على خلاف الكفار والمنافقين.

عن الصادق عليه السلام، قال: «مستبصرين ليسوا بشكاك»^١.

﴿وَالَّذِينَ﴾ يتضرعون إلى الله و﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ﴾ جهة ﴿أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ ما يكون لنا ﴿قُوَّةً أَغْنِيَنَّا﴾ وضياء أبصار ومسرة قلوب من الطاعة والصلاح وحياسة الفضائل، ومساعدة في الدين، وقيل: إن المعنى هَبْ لَنَا قُوَّةً أعين^٢.

ثم بيّنها بقوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ بأن يجعلهم الله مؤمنين صالحين ﴿وَأَجْعَلْنَا﴾ بتوفيقك لنا في الإيمان والتقوى بحيث نكون ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ومقتدى في الاجتهاد في الطاعة، والقيام بمراسم الشريعة. قال بعض العامة: إن الآيات نزلت في العشرة المبشرة^٣.

وعن سعيد بن جبیر: أن هذه الآية خاصة في أمير المؤمنين عليه السلام، وكان أكثر دعائه: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ يعني فاطمة ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ يعني الحسن والحسين عليه السلام ﴿قُوَّةً أَغْنِيَنَّا﴾.

قال عليه السلام: «والله ما سألت ربي ولدًا نضير الوجه، ولا سألت ولدًا حسن القامة، ولكن سألت [ربي] ولدًا مطيعين لله خائفين وجلين منه، حتى إذا نظرت إليه وهو مطيع لله قوت به عيني» قال: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [قال]: «نقتدي بمن قبلنا من المتقين، فيقتدي المتقون بنا من بعدنا»^٤.

وقال القمي: روي أن ﴿أَزْوَاجِنَا﴾ خديجة ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ فاطمة، و﴿قُوَّةً أَغْنِيَنَّا﴾ الحسن والحسين ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ علي بن أبي طالب والأئمة عليهم السلام^٥.

وعن الصادق عليه السلام: «إيانا عني» وفي رواية: «هي فينا»^٦.

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا [٧٧-٧٥]

ثم إنه تعالى بعد توصيف عباده بالصفات الكريمة، بين الطافه بهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ وأعلى منازل الجنة التي تكون من ذهب ولؤلؤ ومرجان على ما قيل^٧ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على مشاق

١. الكافي ٨: ١٧٨/١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢٦. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ١١٤.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ١١٥. ٤. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٣٨٠، تفسير الصافي ٤: ٢٧.

٥. تفسير القمي ٢: ١١٧، تفسير الصافي ٤: ٢٧. ٦. جوامع الجامع ٣٢٦، تفسير الصافي ٤: ٢٧.

٧. تفسير روح البيان ٦: ٢٥٤.

الطاعات، ورفض الشهوات، وتحمل المجاهدات ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾ في الغرفة من الملائكة، أو من رب العزة، ويتألمون ﴿فِيهَا تَحِيَّةٌ﴾ ودعاء بطول الحياة ﴿وَسَلَاماً﴾ وصوناً من شوائب الضرر والآفات، فيكون لهم بقاء بلا فناء، وغني بلا فقر، وعز بلا ذل، وصحة بلا شقم، وراحة بلا تعب حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿حَسَنَتْ﴾ تلك الغرفة من حيث كونها ﴿مُسْتَقَرّاً﴾ ومنزلاً ﴿وَمُقَاماً﴾ ومحل إقامة.

ثم أنه تعالى بعد حكاية دعاء العباد حث الناس في الدعاء والعبادة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمؤمنين ﴿مَا يَغْنَوُا﴾ وما يصنع، أو ما يبالي، أو ما يعتني ﴿بِكُمْ رَبِّي﴾.

وقيل: إن (ما) استفهامية^١، والمعنى أي شيء يصنع بكم، أو أي وزن لكم؟^٢
وعن الباقر (عليه السلام): «ما يفعل بكم»^٣ ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ ومسألتكم إياه، أو تضرعكم إليه في الشدائد، أو إيمانكم، أو عبادتكم، أو شكركم له نعمة.

وقيل: يعني لولا دعائي إياكم إلى الإيمان والعبادة.^٤
﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أيها المشركون بما أخبرتكم من أن الله خلقكم، أو من أن الاعتناء بشأنكم إنما يكون للإيمان والعبادة والدعاء ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ هذا التكذيب، أو جزاؤه الدنيوي أو الآخروي ﴿إِلَآمًا﴾ يحق بكم لا محالة.

عن الباقر (عليه السلام)، أنه سئل كثرة القراءة أفضل أم كثرة الدعاء؟ قال: «كثرة الدعاء أفضل» وقرأ هذه الآية^٥.
عن الكاظم (عليه السلام):^٦ «من قرأ هذه السورة في كل ليلة لم يُعَذِّبه الله أبداً، ولم يُحاسبه، وكان^٧ في الفردوس الأعلى»^٨.

٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٣٢.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ١١٧.

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٥٦.

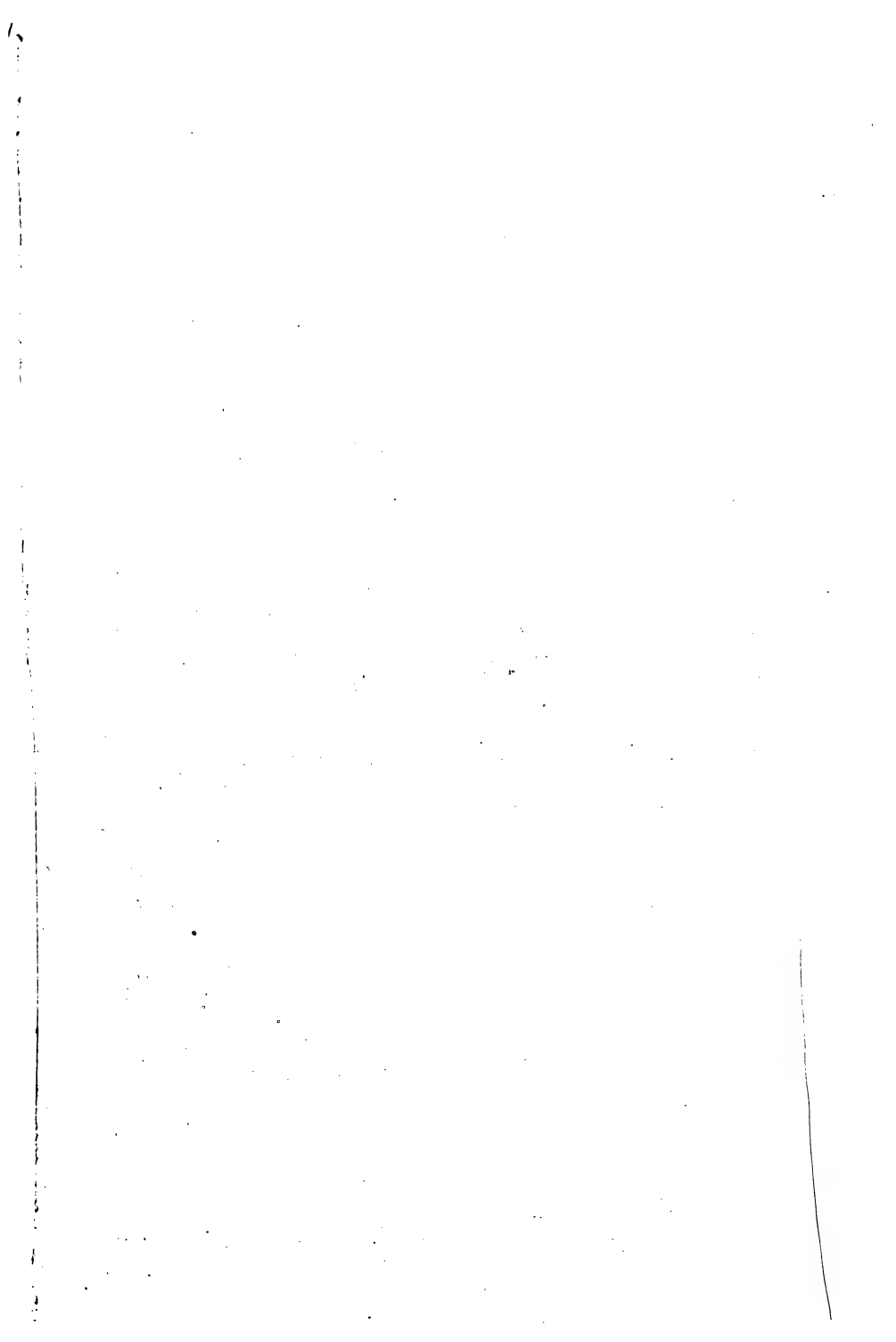
٣. تفسير القمي ٢: ١١٨، تفسير الصافي ٤: ٢٧.

٥. مجمع البيان ٧: ٢٨٥، تفسير الصافي ٤: ٢٧.

٦. في مجمع البيان: أبي الحسن الرضا (عليه السلام) وفي ثواب الاعمال: أبي الحسن (عليه السلام).

٧. زاد في ثواب الاعمال وتفسير الصافي: منزله.

٨. ثواب الاعمال: ١٠٩، مجمع البيان ٧: ٢٥٠، تفسير الصافي ٤: ٢٨.



في تفسير سورة الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ
* إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ [١-٤]

ثم لما ختم سبحانه السورة المباركة ببيان أن الغرض من الخلق الايمان والعبادة، وأنه يعذب مكذب الرسول على تكذيبه بأشد العذاب، أردفها في النظم بسورة الشعراء المتضمنة لبيان عظمة القرآن، وإصرار النبي ﷺ على إيمان قومه، وامتناعهم منه، وتهديدهم بما وقع على الأمم السابقة من العذاب على تكذيب الرسل، وذكر بعض أدلة التوحيد، ودفع بعض شبهات المشركين في الرسالة.

فابتدأ سبحانه فيها على حسب دأبه في الكتاب الكريم بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم افتتحها بذكر الحروف المقطعة بقوله: ﴿طَسَمَ﴾ للحكم التي سبق ذكرها في بعض الطرائف^١، ومرّ فيها بعض ما لها من التأويل.

وعن ابن عباس في ﴿طَسَمَ﴾ عجرت العلماء عن تفسيرها^٢.

وروى بعض العامة عن علي عليه السلام: «أنه لما نزل ﴿طَسَمَ﴾ على رسول الله ﷺ قال: طاء: طور سيناء، وسين: اسكندرية، وميم: مكة»^٣.

وروى بعضهم عن الصادق عليه السلام أنه قال: «أقسم الله بشجرة طوبى، وسدرة المنتهى، ومحمد المصطفى في القرآن بقوله: ﴿طَسَمَ﴾ فالطاء: شجرة طوبى، والسين سدرة المنتهى، والميم: محمد المصطفى»^٤.

وفي (المعاني) عنه عليه السلام: «وأما ﴿طَسَمَ﴾ فمعناه أنا الطالب السميع المبدي المعيد»^٥. ثم ذكر سبحانه جواب القسم، وهو عظمة القرآن وإعجازه بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ السورة أو الآيات التي

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٥٨.

١. راجع: الطرف (١٨) من مقدمة المؤلف.

٣. مجمع البيان ٧: ٢٨٨، تفسير الصافي ٤: ٢٩، تفسير روح البيان ٦: ٢٥٨.

٥. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٤: ٢٩.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٢٥٩.

فيها هي ﴿آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ والقرآن الظاهر إعجازه لعجز الناس عن الاتيان بمثله، أو المظهر للمعارف والأحكام والعلوم المحتاج إليها مع أمية من أتى به، أو المظهر للحق والباطل، أو المراد هي الآيات المكتوبة في اللوح المحفوظ.

ثم لما كان النبي ﷺ مع قوة دلالة القرآن على صدقه شديد الحزن على عدم إيمان قومه به، سلاه سبحانه إشفاقاً عليه بقوله: ﴿لَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿بِاخْبَ﴾ وقَاتِلْ ﴿تَفْسَكَ﴾ غمّاً على قومك لأجل ﴿أَلَّا يَكُونُوا﴾ مع عظمة معجزتك ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ بتوحيد الله وبرسالته وصدق كتابك، لا تغتم فإنهم ليسوا بأهل^١ للإشفاق عليهم، لكونهم في غاية اللجاج والعناد للحق، فلا يؤمنون بالطوع، وإن أُحْبِيت إجبارهم على الايمان، فنحن قادرون عليه لأننا ﴿إِنْ تَشَأْ﴾ إجبارهم عليه ﴿تُنَزِّلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ عظيمة ملحثة لهم إلى الايمان كإنزال الملائكة أو الصيحة ﴿فَطَلَّتْ﴾ وصارت بسبب تلك الآية ﴿أَعْتَابَهُمْ لَهَا خَاصِعِينَ﴾ متقادين بحيث لا يقدر أحدهم أن يميل عتقه إلى المخالفة والعصيان، وإنما لم نشأ ذلك لعدم الفائدة في هذا النحو من الايمان، كما لا فائدة في الايمان في الآخرة. ثم إنه تعالى نسب الخضوع إلى رقابهم، مع أنه حال يعرض لهم لأنها محلّة، ولذا جاء سبحانه بالجمع الذي للعقلاء.

وقيل: إن المراد بالأعناق الرؤساء والكبراء، كما يقال لهم الرؤوس^٢.

وقيل: إن المراد جماعاتهم كما يقال: جاء عتق من الناس^٣.

عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: «سيفعل الله ذلك بهم» قيل: من هم؟ قال: «بنو أمية وشيعتهم» قيل: وما الآية؟ قال: «زكود الشمس ما بين زوال الشمس إلى وقت العصر، وخروج صدر ووجه في عين الشمس، يُعرف بحسبه ونسبه، وذلك في زمان السفيناني، وعندها يكون بواره وبوار قومه»^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «أن القائم عليه السلام لا يقوم حتى ينادي مناد من السماء، تسمعه الفتاة في خدرها، ويسمعه أهل المشرق والمغرب، وفيه نزلت هذه الآية ﴿إِنْ تَشَأْ نُنَزِّلُ﴾، إلى آخرها»^٥.

والقمي عنه عليه السلام قال: «تخضع رقابهم - يعني بني أمية - وهي الصيحة من السماء باسم صاحب الأمر عليه السلام»^٦.

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرِّحْمَنِ مُخَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا

١. في النسخة: بأهلين. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ١١٩.

٤. إرشاد المفيد ٢: ٣٧٣، تفسير الصافي ٤: ٣٠. ٥. غيبة الطوسي: ١٣٤/١٧٧، تفسير الصافي ٤: ٢٩.

٦. تفسير القمي ٢: ١١٨، تفسير الصافي ٤: ٢٩.

فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [٥-٩]

ثم ذمهم سبحانه على إعراضهم عن الآيات بقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ﴾ وعظة، أو تنبيه وتذكير
للحق في القرآن الظاهر كونه ﴿مِّنْ﴾ قبل ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بتوسط نبيه ﷺ ﴿مُحَدَّثٍ﴾ ومجدد إنزاله
لتكرار التذكير ﴿إِلَّا كَانُوا﴾ في كل مرة من التذكير ﴿عَنهُ مُعْرِضِينَ﴾ ومولين ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ بذلك
الذكر المحدث المكرر عقيب الإعراض، وبلغوا النهاية في رد الآيات، حيث نسبوا تارة إلى السحر،
وأخرى إلى الشعر، وثالثة إلى الأساطير ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ البتة من غير تخلف بسبب إعراضهم
وتكذيبهم المقرون بالاستهزاء ﴿أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وأخباره من العقوبة الشديدة العاجلة
والآجلة التي بمشاهدتها يطلعون على حقيقة حال القرآن من أنه كان حقاً نازلاً من الله، أو باطلاً
مُخْتَلَقاً عليه، وحقيقاً بأن يُصدق ويُعظم قدره، أو يُكذَّب ويُستخَفَّ به.

ثم أنه تعالى بعد توبيخهم على تكذيب الآيات التدوينية، أنكر عليهم في ترك النظر والتفكر في
الآيات التكوينية على التوحيد بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم ينظروا ﴿إِلَى﴾ عجائب صنعنا في
﴿الْأَرْضِ﴾ الميّنة اليابسة انا ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ بانزال المطر عليها ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ وصنّف ﴿كَرِيمٍ﴾
ومرضي في ما يتعلق به من المنافع حتى الضار منه، وإن غفل عنه الناس.

وفي (الجمع) بين كلمة (كَمْ) التي للكثرة ولفظ (كُلُّ) دلالة على الكثرة في كل صنف من الأصناف.
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإنبات، أو في كل واحد من الأزواج ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة ودلالة واضحة على كمال
قدرته وحكمته ووجدانيته، ووسعة رحمته الموجبة لايمان الناس والانزجار من الكفر ﴿وَمَا كَانَ﴾
مع ذلك ﴿أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لعدم تفكرهم فيها وانهماكهم في الشهوات ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾
الغالب القاهر على عباده، القادر على الانتقام من الكفار، ومع ذلك يمهّلهم لأنه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم
ورحمته مانعة من تعجيله في عقوبتهم.

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتْبِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمٌ فِرْعَوْنُ أَلَا يَتَّقُونَ *
قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ
إِلَيَّ هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا
مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ

مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُنَا فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ *
وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ
الضَّالِّينَ * فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُرْسَلِينَ [١٠-٢١]

ثم لما وصف ذاته المقدسة بالوصفين المقتضيين لإرسال الرُّسل وإمهال مكذبيهم والانتقام منهم بعد حين، شرع في بيان قصصهم، ولما كان قصة بعث موسى وأمنه أعجب بدأ بذكرها بقوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ في جانب الطُّور الأيمن من الشجرة ﴿أَنْ أَتَيْتَ﴾ يا موسى ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ على ربهم وعلى أنفسهم بالكفر والطغيان، وعلى بني إسرائيل باستعبادهم وذبح أولادهم، أعني بالقوم ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ لدعوتهم إلى توحيدى وطاعتي، وإنذارهم من عذابي على الكفر والعصيان. ثم اظهر سبحانه التعجب من جرأتهم عليه بقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ الله ولا يخافونه، أو لا يحترزون عن عذابه بالإيمان والطاعة.

ثم كأنه قيل: ماذا قال موسى؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿قَالَ﴾ موسى متضرعاً إلى الله ﴿رَبِّ﴾ العالمين ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ من ﴿أَنْ﴾ يُنْكِرُوا نبوتى و﴿يُكَذِّبُونِ﴾ في دعوى رسالتى و﴿يُضَيِّقُونِ﴾ لذلك ﴿صَدْرِي﴾ وقلبي، فينقبض منه روحي و﴿وَلَا يَنْطَلِقُ﴾ لذلك ﴿لِسَانِي﴾ ويزيد فيه الحُبسة^١، ويعسر على الدعوة والمحاجة ﴿فَأَرْسِلْ﴾ جبرئيل بالوحي ﴿إِلَيَّ﴾ أخى ﴿هَارُونَ﴾ الذى هو أفصح لساناً منى، ليكون مُعيناً لى فى تبليغ رسالتك، وهداية خلقك، وإلا لاختلت مصلحة بعثى إليهم ﴿وَمَعَ﴾ ذلك ﴿لَهُمْ﴾ بزعمهم ﴿عَلَيَّ﴾ وفى عهدتى ﴿ذَنْبٌ﴾ عظيم، وهو قتل القبطى دفعاً عن السُّنْطى ﴿فَأَخَافُ﴾ أن آتيتهم وحدي من ﴿أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ قصاصاً قبل ادعاء الرسالة كما ينبغى، وأما هارون فلا ذنب لهم عليه، ففائدة بعثى إليهم معه أنتم وأكمل، فردعه الله أولاً عن احتمال قتله قبل إكمال التبليغ بقوله ﴿قَالَ كَلَّا﴾ لا يقدرّون على قتلك بالقصاص وغيره، ثم أجاب مسأله فى إرسال هارون معه بقوله، ﴿فَاذْهَبَا﴾ أنت وهارون إلى فرعون وقومه برسالتى مستدلين على صدقكما فى دعوتكما ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصرة، ومع عدوكما بالقهر والشُّوكة، ولمقالكما ومقال عدوكما ﴿مُسْتَمِيعُونَ﴾ ولما يجرى بينكما وبينه من الكلام سامعون ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا﴾ لفرعون وقومه: ﴿إِنَّا﴾ معاً ﴿رُسُلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك، وإنما أفرد الرسول للإشعار باستقلاله فى الرسالة

١. الحُبسة: يُقَالُ فى اللسان يمنع من الإبانة.

وتبعيه هارون له، ثُمَّ بَيَّنَّ مَا أَرْسَلَ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وأطلقهم من قَيْدِ الْأَسْرِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِلْقَيْطِ، لِأَذْهَبَ بِهِمْ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ، الَّتِي هِيَ مَسْكَنُ آبَائِهِمْ.

قِيلَ: كَانَ فِرْعَوْنُ اسْتَعْبَدَهُمْ أَرْبَعِمِائَةَ سَنَةٍ، فَانْطَلَقَ مُوسَى إِلَى مِصْرَ، وَكَانَ هَارُونُ بِهَا، فَلَمَّا تَلَاقَا ذَهَبَا إِلَى بَابِ فِرْعَوْنَ لَيْلًا، وَدَقَّ مُوسَى الْبَابَ بِعَصَاهُ، فَفَرَّغَ الْبَوَابُونَ وَقَالُوا: مَنْ بِالْبَابِ؟ فَقَالَ مُوسَى ﷺ: أَنَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَذَهَبَ الْبَوَابُ إِلَى فِرْعَوْنَ فَقَالَ: إِنْ مَجْنُونًا بِالْبَابِ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَذِنَ لَهُ فِي الدَّخُولِ مِنْ سَاعَتِهِ^١.

وَقِيلَ: تَرَكَ حَتَّى أَصْبَحَ فِدْعَاهُمَا^٢.

وَقِيلَ: لَمْ يَأْذِنْ لَهُمَا سَنَةً حَتَّى قَالَ الْبَوَابُ: هَاهُنَا إِنْسَانٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَقَالَ: إِنْذَنَ لَهُ حَتَّى نَضْحَكَ مِنْهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، وَأَذَا الرِّسَالَةَ، فَعَرَفَ مُوسَى^٣ لِأَنَّهُ نَشَأَ فِي بَيْتِهِ فَشَتَّمَهُ وَ﴿قَالَ أَلَمْ تُؤْتِكْ﴾ يَا مُوسَى ﴿فِيْنَا﴾ وَفِي حِجْرِنَا وَنِعْمَنَا حَالُكَ كُنُوكَ ﴿وَوَلِيدًا﴾ وَصَبِيًّا رُضِعًا قَرِيبَ الْوِلَادَةِ ﴿وَوَلِّسْتُ﴾ وَأَقَمْتُ ﴿فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ﴾ كَثِيرَةً. قِيلَ: كَانَ فِيهِمْ^٤ ثَلَاثِينَ سَنَةً^٥ ﴿وَفَعَلْتُ﴾ أَخِيرًا ﴿فَفَعَلْتُكَ﴾ الْقَبِيحَةَ ﴿الَّتِي فَعَلْتُ﴾ مِنْ قَتْلِ الْقِبْطِيِّ ﴿وَأَنْتَ﴾ صَرْتَ بِفَعْلِكَ ﴿مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ لِنِعْمَتِي الْجَاهِدِينَ لِحَقِّ تَرْبِيَّتِي حَيْثُ عَمِدْتُ إِلَى قَتْلِ رَجُلٍ مِنْ خَوَاصِي ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: نَعَمْ، تِلْكَ الْفَعْلَةُ الَّتِي تَقُولُ ﴿فَفَعَلْتُهَا إِذَا﴾ وَحِينَ فَعَلْتُ ﴿وَأَنَا﴾ كُنْتُ ﴿مِنْ الضَّالِّينَ﴾ وَالْخَاطِئِينَ فِيهَا، لَا مِنْ الْمُتَعَمِّدِينَ، فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تُلْمَنِي وَتُوَاخِذَنِي بِهَا، وَتَعُدَّ فَعْلِي مِنْ كُفْرَانٍ نِعْمَتِكَ، لِأَنَّ السُّهُوَ وَالْخَطَأَ عُذْرَانِ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ لَا يُوجِبَانِ الْعِتَابَ وَالْمُؤَاخَذَةَ، وَمَعَ ذَلِكَ بَلَّغْنِي أَنَّكُمْ شَاوَرْتُمْ فِي قَتْلِي ﴿فَفَقَرَزْتُ مِنْكُمْ﴾ وَذَهَبْتُ مِنْ بَلَدِكُمْ إِلَى مَدِينٍ ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ مِنْ أَنْ تَقْتُلُونِي ظُلْمًا وَتُوَاخِذُونِي بِمَا لَا اسْتِحْقَاقَ لَهُ ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي﴾ حِينَ رَجَوَعِي مِنْ مَدِينٍ إِلَى مِصْرَ ﴿حُكْمًا﴾ وَعَقْلًا كَامِلًا، وَرَأْيًا رَزِينًا، وَعِلْمًا بِتَوْحِيدِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ عَلَى عِبَادِهِ.

وَقِيلَ: إِنْ الْمُرَادُ مِنَ الْحُكْمِ النِّيَّةُ، وَالْمَعْنَى جَعَلَنِي أَوَّلَ أَنْبِيَاءٍ، ثُمَّ أَعْطَانِي مُنْصِبَ الرِّسَالَةِ^٦.

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ

١- ٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٦٧.

٤. فِي تَفْسِيرِ الرَّازِيِّ: لَبِثَ عِنْدَهُمْ، وَفِي تَفْسِيرِي أَبِي السَّعُودِ وَرُوحِ الْبَيَانِ: لَبِثَ فِيهِمْ.

٥. تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٢٤: ١٢٥، تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٦: ٢٣٨، تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٦: ٢٣٨.

٦. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٦: ٢٦٨.

لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَّا تَسْمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ
الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ
كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ [٢٢-٢٨]

ثم أجاب ﷺ عن مَسْئَلِهِ عليه بالتربية بقوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ التربية ﴿بِنِعْمَةِ تَمَثُّهَا عَلَيَّ﴾ ولكن كانت لأجل
﴿أَنْ عَدَّتْ﴾ واستعبدت ﴿بِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ﴾ واستخدمتهم وذبحت أبناءهم ولذا ألقني أُمِّي في البِئْسَ،
ولولا هذا الظلم منك عليهم ما احتجتُ إلى تربيتك.

وقيل: يعني إنما أنفقت علي من أموال قومي الذين استعبدتهم وأخذت أموالهم، فلا يَبْنِي لك علي،
أو أنك وإن ربيتني إلا أنك ظلمت قومي، أو أن الذي رباني كان من الذين عبدتهم، وهو أُمِّي وسائر
قومي، وإنما الذي كان منك إنك لم تَقْتُلْنِي^١.

وعلى أي تقدير: لما أجاب عن طعنه فيه ومَسْئَلِهِ عليه، أخذ فرعون في الاعتراض على ما ادَّعاه من
رسالة رَبِّ العالمين و ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ تجاهلاً في معرفته [و] حفظاً لمُلْكِهِ ورياسته: يا موسى
﴿وَمَا﴾ حقيقة مرسلك الذي تقول إنه ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وما كُنْه ذاته؟ فإن رسوله لا يَدَّ من معرفته
بالذات، ولما لم يكن معرفة ذاته البسيطة من جميع الأجزاء العقلية والخارجية ممكناً، أجابه موسى
ببيان صفاته وآثاره و ﴿قَالَ﴾: هو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات وخالقها
ومدبرها، فأغفوه بهذه الصفة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بأن هذه الموجودات الممكنة لا يَدُّ أن يكون
وجودها مستنداً إلى واجب الوجود بالذات، وأقنعوا بهذا الجواب الذي هو أحسن الأجوبة عن
سؤالكم.

وقيل: يعني إن كنتم موقنين بالأشياء محققين لها بالنظر الصحيح المؤدي إلى الإيقان، عَلِمْتُمْ بأن
العالم عبارة عما ذكرت وربّه خالقه ومدبره^٢.

ولما لم يَفْهَمْ فرعون جواب موسى ﷺ ومطابقته لسؤاله تعجّب منه و ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ وفي
مجلسه من الأشراف ﴿أَلَّا تَسْمِعُونَ﴾ إلى هذا الجواب فأبَى أسأله عن حقيقة مرسله وجنسه، وهو
يجيب بأفعاله وآثاره، وهذا عجيب من عقل هذا الرجل.

ثم لما كان مجال دعوى، قدّم السماوات والأرض وعدم احتياجهما إلى التوجّد والمؤثر، عدل
موسى ﷺ عن الجواب الأول و ﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ وخالقكم ومن المعلوم أن الشخص لا يكون خالق

نفسه.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِرْعَوْنُ مَدْعِيًّا أَنَّهُ خَالَقُ أَهْلِ عَصْرِهِ دُونَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ عَقِبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فَإِنَّ الْمُسْتَحَقَّ لِلرَّبُّوبِيَّةِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ رَبًّا لِّجَمِيعِ الْأَعْصَارِ، فَلَمَّا لَمْ يَفْهَمْ فِرْعَوْنُ حَقِيقَةَ الْجَوَابِ ﴿قَالَ﴾ لِأَهْلِ مَجْلِسِهِ اسْتِهْزَاءً بِمُوسَى ﷺ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُزِيلَ إِلَيْكُمْ لَمَخْجُونٌ﴾ حَيْثُ إِنَّهُ لَا يَفْهَمْ السُّؤَالَ وَلَا يَعْرِفُ الْجَوَابَ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﷺ وَهُوَ غَيْرُ مَعْتَنٍ بِكَلَامِهِ السَّفَهِيِّ زِيَادَةً فِي تَعْرِيفِ الرَّبِّ هُوَ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وَمُطْلِعُ الشَّمْسِ وَمُغِيبُهَا ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، وَإِنَّكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ شَيْئًا وَتَمَيِّزُونَ بَيْنَ صَحِيحِ الْكَلَامِ وَسَقِيمِهِ، عَلِمْتُمْ أَنَّ حَقَّ الْجَوَابِ عَنْ سؤَالِكُمْ مَا قُلْتُ، وَأَنَّهُ لَا جَوَابَ عَنْهُ إِلَّا مَا ذَكَرْتُ إِذْ مَعْرِفَةُ حَقِيقَةِ الرَّبِّ غَيْرُ مَعْقُولَةٍ حَيْثُ إِنَّهَا بَسِيطَةٌ لَا جِنْسَ لَهَا وَلَا فَصْلَ، فَاذَنْ لَا يُمْكِنُ تَعْرِيفُهَا إِلَّا بِأَثَارِهَا وَأَفْعَالِهَا وَعَجَائِبِ صَنِيعِهَا، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ سَيْرَ الشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ عَلَى وَجْهِ نَافِعٍ يَنْتَظِمُ بِهِ أُمُورُ الْخَلْقِ، لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَدْبِيرِ الْقَدِيرِ الْحَكِيمِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ، وَلَا تَتَوَقَّفُ الرِّسَالَةُ عَلَى مَعْرِفَةِ ذَاتِ الْمُرْسِلِ بِكُنْهَائِهَا، بَلْ هِيَ مُتَوَقَّفَةٌ عَلَى مَعْرِفَتِهِ بِأَثَارِهِ.

قَالَ لِّئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ [٢٩-٣٣]

ثُمَّ لَمَّا عَجَزَ فِرْعَوْنُ عَنْ مَعَارَضَةِ مُوسَى بِالْحُجَّةِ، عَدَلَ إِلَى التَّهْدِيدِ تَمَرُّدًا وَطَغْيَانًا ﴿قَالَ﴾: يَا مُوسَى، وَعِزَّنِي ﴿لِّئِنْ اتَّخَذْتُ﴾ وَاخْتَرْتُ ﴿إِلَهًا غَيْرِي﴾ وَمَعْبُودًا سِوَايَ ﴿لَأَجْعَلَكَ﴾ الْبَتَّةَ ﴿مِنْ﴾ جَمَلَةِ ﴿الْمَسْجُونِينَ﴾ وَفِي زُمَرَةِ الْمَحْبُوسِينَ. قِيلَ: كَانَ يَسْجُنُهُمْ فِي حُفْرَةٍ عَمِيقَةٍ حَتَّى يَمُوتُوا.^١ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﷺ: اتَّفَعْلُ ذَلِكَ ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ وَمُعْجِزٍ ﴿مُبِينٍ﴾ وَمَوْضِحٍ لِّصَدَقِ دَعْوَايَ فِي الرِّسَالَةِ؟ ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ: ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ وَأُظْهِرْهُ لِي ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ وَالْمُعْجِزَةِ.

قِيلَ: كَانَ فِي يَدِ مُوسَى عَصَاهُ، فَقَالَ لِفِرْعَوْنَ: مَا هَذِهِ الَّتِي بِيَدِي؟ قَالَ فِرْعَوْنُ: هَذِهِ عَصَا^٢ ﴿فَأَلْقَى﴾ مُوسَى ﴿عَصَاهُ﴾ مِنْ يَدِهِ عَلَى الْأَرْضِ ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ وَحَيَّةٌ عَظِيمَةٌ ظَاهِرَةٌ، لَمْ يَشْكُ أَحَدٌ

١. تفسير أبي السعود ٦: ٢٤٠، تفسير روح البيان ٦: ٢٧٠.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٠.

في كونها حية.

قيل: إن فرعون التجأ إلى موسى من شدة الرعب، وقال: يا موسى أسألك بالذي أرسلك أن تأخذها فأخذها فعادت عصا.

وعن الباقر عليه السلام: «فالتقمت الإيوان بلحبيها، فدعاه: أن يا موسى أقلني إلى غد»^٢.
والقمي: فلم يبق أحد من جلساء فرعون إلا هرب، ودخل فرعون من الرعب مالم يملك [به] نفسه، فقال فرعون، أنشدك بالله وبالرضاع إلا ما كفتها عني، فكفها فلما أخذ موسى عليه السلام العصا رجعت إلى فرعون نفسه، وهم بتصدقته، فقام إليه هامان، فقال له: بينا أنت تبعد إذ صرت تابعا لعبد.^٣
﴿وَنَزَعَ﴾ وأخرج ﴿يَدَهُ﴾ من جيبه بعد إدخالها تحته ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ كالقمر ﴿بَيْنَضَاءَ﴾ وذات نور وبياض من غير برص ﴿لِلنَّاطِرِينَ﴾ اليها.

قَالَ لِلْمَلِكِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُواكَ
بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ * فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ
أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ [٣٩-٣٤]

رُوي أن فرعون لما رأى الآية الأولى قال: فهل غيرها؟ فأخرج يده فقال: ما هذه؟^٤ قال فرعون: يدك فما فيها فادخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع كاد يغيي الأربصار ويشد الأفق، فلما خاف فرعون أن يؤمن به خواصه ﴿قَالَ﴾ احتيالا في الصرف عنه، وتعمية لهم هذه الحجة ﴿لِلْمَلِكِ حَوْلَهُ﴾ والأشراف الذين كانوا في مجلسه من القبط: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الرجل ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسحر فانت على الناس فيه، ثم قال تنفيرا لقلوبهم من موسى عليه السلام: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ ومملكتم هذه، ويقهركم على تبعيته ﴿بِسِحْرِهِ﴾ ثم قال تحبيبا لقلوبهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ وتشيروا علي في أمره؟ وترون رأيكم في دفعه حتى اتبعكم وأنقاد لقلوبكم فخطته معجزات موسى عليه السلام عن الاستقلال بالرأي مع دعواه الربوبية إلى إظهار الطاعة لرأي عبيده، فأجابه الملأو ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿أَرْجِهْ﴾ وأخر موسى ﴿وَأَخَاهُ﴾ ولا تعجل في أمرهما، ولا تبادر إلى قتلها قبل أن يظهر كذبهما حتى لا يسيء ظن

٢. مجمع البيان ٧: ٣٩٥، تفسير الصافي ٤: ٣٣.

٤. في النسخة: هي.

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٧١.

٣. تفسير القمي ٢: ١١٩، تفسير الصافي ٤: ٣٣.

٥. تفسير البيضاوي ٢: ١٥٤، تفسير أبي السعود ٦: ٢٤١، تفسير روح البيان ٦: ٢٧١.

الناس بك، فاذا ظهر كذبهما كنت معذوراً فيما فعلت بهما من الحبس والقتل ﴿وَأَبْعَثْ﴾ وارسل الشرط ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ قيل: يعني مدائن الصعيد في نواحي مصر^١ حال كونهم ﴿حَاشِرِينَ﴾ وجامعين الناس حتى ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ في فنّ السحر يَفْضُلُونَ عليه فيه.

روي أن فرعون أراد قتل موسى، ولم يكن يصل إليه، فقالوا له: لا تفعل فانك إن قتلتَه أدخلت على الناس في أمره شُبُهه، ولكن أرحه وأخاه إلى أن تُخْشِرَ السحرة ليقاوموه، فلا تُثَبِّتَ له عليك حُجَّة، ثم أشاروا عليه بأنفاذ حاشرين يُخْشِرُونَ ويجمعون السحرة ظناً منهم بأنهم إذا كثروا غلبوه وكشفوا حاله وعارضوا قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بقولهم: ﴿بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ [فجاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة] لِيُطِيبُوا قلبه، وليسكنوا قَلْبَهُ^٢.

فبعث فرعون الشرط إلى المدائن ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ﴾ وهم اثنان وسبعون، أو سبعون ألفاً، على اختلاف فيه في الإسكندرية على ما قيل^٣ ﴿لِمِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وزمان معين لحضورهم، وهو وقت الضحى، ويوم معين وهو يوم الزينة. وقيل من قبل فرعون ﴿لِلنَّاسِ﴾ من أهالي مصر وغيره ممن يمكن حضوره: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ﴾ في مجمع موسى والسحرة، ولتشاهدوا تعارضهم وتغالهم؟ وإنما قالوا ذلك حقاً على مبادرتهم إليه.

لَعَلَّنَا تَتَّبِعَ السَّحَرَةُ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ
أَيْنَ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ
الْمُقَرَّبِينَ [٤٠-٤٢]

ثم يَبْتَوِ الغرض من الاجتماع بقولهم: ﴿لَعَلَّنَا﴾ ورجاء منا أن تَتَّبِعَ السَّحَرَةُ في دينهم ﴿إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ على موسى في السحر.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ إلى باب فرعون، وأذن لهم في الدخول عليه، واستمال قلوبهم، وحثهم على معارضة موسى ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ﴾ يا فرعون ﴿أَيْنَ لَنَا﴾ عندك ﴿لأَجْرًا﴾ جزيلاً وجُعلاً عظيماً من المال أو الجاه ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ على موسى؟ ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ لكم عندي أجرٌ عظيم من المال ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ذلك ﴿إِذَا﴾ وحين غلبتموه ﴿لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي.

قيل: وعدهم أن يكونوا أول من يدخل عليه وآخر من يخرج من عنده، وكان ذلك أعظم الشأن

عندهم^١.

وفي رواية عن الصادق عليه السلام: «بعث في المدائن حاشرين - يعني مدائن مصر كلها - فجمعوا الف ساحر، واختاروا من الألف مائة، ومن المائة ثمانين، فقال السحرة لفرعون: قد عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا سَحَرٌ مِثْلَ مَا فَانَ غَلْبَنَا مُوسَى فَمَا يَكُونُ لَنَا عِنْدَكَ؟ قَالَ: إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمَقْرَبِينَ عِنْدِي، أَشَارَكُمْ فِي مُلْكِي. قَالُوا: فَإِنْ غَلَبَنَا مُوسَى وَأَبْطَلَ سَحَرَنَا، عَلِمْنَا أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ لَيْسَ مِنْ قِبَلِ السَّحَرِ، وَلَا مِنْ قِبَلِ الْجِيلَةِ، وَأَمَّا بِهِ وَصَدَقَانَا. قَالَ فِرْعَوْنُ: إِنَّ غَلْبَكُمْ مُوسَى صَدَقْتُهُ أَنَا أَيْضاً مَعَكُمْ، وَلَكِنْ أَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ^٢، وَكَانَ مَوْعِدُهُمْ يَوْمَ عِيدِهِمْ لَهُمْ، فَلَمَّا ارْتَفَعَ النَّهَارُ جَمَعَ فِرْعَوْنُ الْخَلْقَ وَالسَّحَرَةَ، وَكَانَتْ لَهُ قُبَّةٌ طُولُهَا فِي السَّمَاءِ ثَمَانُونَ ذِرَاعاً، وَقَدْ كَانَتْ أَلْبَسَتْ الْحَدِيدَ وَالْقَوْلَازِ الْمَصْقُولَ، وَكَانَتْ إِذَا وَقَعَتِ الشَّمْسُ عَلَيْهَا لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا مِنْ لَمْعِ الْحَدِيدِ وَوَهْجِ الشَّمْسِ، فَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَقَعَدَا عَلَيْهَا يَنْظُرَانِ، وَأَقْبَلَ مُوسَى يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَتِ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ: إِنَّا نَرَى رَجُلًا يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، وَلَمْ يَبْلُغْ سِحْرَنَا السَّمَاءَ^٣» الخبر.

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْعَاكُمْ إِنَّهُ لَكَيْبُكُمْ أَلَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَيْكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا صَبِيرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ [٤٣-٥٠]

وأحضروا حبالهم وعصيتهم واصطفوا في قبال موسى عليه السلام، ثم قالوا تأذباً وتعظيماً له: يا موسى إما أَنْ تُلْقِيَ عَصَاكَ أَوَّلًا، وَإِمَّا أَنْ تُلْقِيَ حِبَالَنَا وَعِصِينَا، الْأَمْرُ إِلَيْكَ. فَلَمَّا تَوَاضَعُوا لَهُ تَوَاضَعَ هُوَ أَيْضاً لَهُمْ وَقَدَّمَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾: بَلِ ﴿أَلْقُوا﴾ واطرحوا أَوَّلًا ﴿مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ومطرحون، وافعلوا ما أنتم فاعلون، فإني لأبالي بكم وبصنيعكم، وهذا الأمر إذن لا إيجاب. وقيل: إنه إيجاب لكونه طريقاً إلى كشف الحق^٤.

وقيل: إنه إيجاب مشروط، والمعنى ألقوا إن كنتم محقّين، أو تهديد والمعنى إن ألقيتم فإني آت بما

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٣.

٢. زاد في تفسير القمي والصابي: أي حيلتكم، قال.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٤.

٣. تفسير القمي ٢: ١٢٠، تفسير الصافي ٤: ٣٥.

يُطِلُّه١.

﴿فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ﴾ قيل: كان كل من الحبال والعصي سبعون ألفاً، ﴿وَقَالُوا﴾ غروراً باتيانهم بأقصى ما يمكن من السحر تقسيم ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ وعظمته ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ على موسى وهارون.

عن ابن عباس: قد كانت الحبال مطلية بالزئبق والعصي مُحَوَّفة مملوءة منه، فلما ألقوها حميت بحر الشمس، واشتدت حركتها، [فصارت] كأنها حيات تتحرك من كل جانب من الأرض، فهاب موسى ﷺ ذلك^٢، فأوحى الله إليه أن ألقي ما في يمينك ﴿فَأَلْقَى﴾ عند ذلك ﴿مُوسَى عَصَاهُ﴾ من يده باذن الله ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ وتَلَقَّفَ بسرعة ﴿مَا يَأْكُفُونَ﴾ وما يُظْهِرون على خلاف الواقع، وما يَظْلُبونه بسحرهم عن صورته فيُخَيِّلون في حبالهم وعصيتهم أنها حيات ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ﴾ على وجوههم ﴿سَاجِدِينَ﴾ لله تعظيماً له أثر ما رأوا من بلع العصا جميع آلاتهم، لعلمهم بأنه خارج عن حد السحر، وأنه معجزة عظيمة، وإنما قال سبحانه (ألقى) تشبيهاً، لعدم تماثلهم للحرور للسجود بإلقاء غيرهم إياهم ﴿وَقَالُوا﴾ عن صدق وخلوص: ﴿أَمَّا بَرَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم لما كان فرعون مدعياً لربوبية العالمين فسروه بقولهم: ﴿رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ الذي أرسلهما بهذه المعجزة المَعْظَمَة التي لا تشبه السحر.

فلما رأى فرعون إيمان السحرة بموسى الدال على صدقة ﴿قَالَ﴾ للسحرة تليساً على أتباعه وإظهاراً لبقائه على قدرته: يا قوم ﴿أَمْسِمْ لَهُ﴾. قيل: إن همزة الاستفهام التوبيخي محذوفة، والمعنى أأمستم بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ﴾ تستأذنا مني^٣ و﴿ءَاذَنْ لَكُمْ﴾ في الايمان به مع أنكم عبيدي، وإنما كانت هذه الجرأة على المسارعة في الايمان به لمواطاةكم معه و﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ﴾ وأستاذكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ﴾ فواضعكم على إهلاكه وتغلبه علي وإذهاب سلطاني قبل أن تأتوني وتجيئوا إلى هذا الموضع ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ جزاء عملكم، وعن قريب ترون ويال صنيعكم، ثم بين جزاءهم تفصيلاً بقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ من شق ﴿وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ﴾ شق ﴿خِلَافٍ﴾ آخر جزاء على مخالفتي ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بعد القطع.

قيل: إنه أول من قطع من خلاف وصلب. وقيل: كلمة (من) للتعليل، والمعنى خلاف صار منكم^٤.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٣.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٤، ٣: ٢١٤.

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٤.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٤.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٥.

فلما سمع السحرة تهديده ﴿قَالُوا﴾ مجيبين له: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ فيه علينا، ولا بأس به، فإننا لا نبالي بالموت ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ بعد الموت ﴿مُقْتَلُونَ﴾ وراجعون، وهذا أقصى ثننا، لأنه تعالى يكرمنا ويثيبنا أفضل الثواب على إيماننا بالصبر على ما أصابنا في مرضاته.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥١]

ثم نبهوا على أن الكفر ومعارضة النبي من أعظم المصائب بقولهم: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ ونرجو ﴿أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ ومعاصيتنا من الكفر ومعارضة موسى وغير ذلك لأجل ﴿أَنْ كُنَّا﴾ من بين الناس، أو الذين حضروا الموقف، أو اتبعوا فرعون ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله وبنو موسى عليه السلام.

وعن الصادق عليه السلام - في رواية - «فألقى موسى عصاه، فذابت في الأرض مثل الرصاص، ثم طلع رأسها، وفتحت فاه، ووضعت شيدقها العليا على رأس قبة فرعون، ثم دارت وأرخت شفتها السفلى والتقمت عصي السحرة وجبالهم، وغلب كلهم، وانهمز الناس اجمعون حين رأوها وعظمها وهولها بما لم تر العيون، ولا وصف الواصفون مثله، فقتل في الهزيمة من وطء الناس بعضهم بعضاً عشرة آلاف رجل وامرأة وصبي، ودارت على قبة فرعون، فأحدث هو وهامان في ثيابهما، وشاب رأسهما من الفزع، وفر^٢ موسى في الهزيمة مع الناس، فناداه الله عز وجل: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾^٣ فرجع موسى عليه السلام ولَفَّ على يده عباءة كانت عليه، ثم أدخل يده في فيها فاذا هي عصاه^٤ كما كانت، وكان كما قال الله عز وجل ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ لما رأوا ذلك ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * فغضب فرعون غضباً شديداً ﴿وَقَالَ أَنْتُمْ لَهُ قَتْلٌ أَنْ أَدَّٰنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُم﴾ يعني موسى ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّخَرَ﴾ الآية فقالوا له كما حكى الله عز وجل ﴿لَا ضَيْرَ﴾ الآيتان، فحسب فرعون من آمن بموسى في السجن حتى أنزل الله عز وجل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، فأطلق عنهم^٥.

وقيل: إن اللعين قطع أيدي السحرة وأرجلهم من خلاف، وصلبهم على شاطئ النيل، وكان موسى ينظر إليهم ويبكي، فأراه الله منازلهم في الآخرة، فسلى قلبه^٦.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ * فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي

١. زاد في تفسير القمي: وغشي عليهما. ٢. في تفسير القمي والصابي: مر.

٣. طه: ٢١/٢٠. ٤. في تفسير القمي والصابي: عصاً.

٥. تفسير القمي ٢: ١٢٠، تفسير الصافي ٤: ٣٦. ٦. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٥.

الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا
لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ *
كَذَلِكَ وَأَوْزَيْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ [٥٢-٥٩]

فأقام موسى ﷺ بين أظهرهم سنين يُظهِر لهم الآيات، فلم يزيديدا إلا عُتُوًّا وفساداً، فلما أراد الله تخلص موسى وقومه من أذى القبط وتمليكهم بلاد فرعون وقومه وأموالهم، بين تدبيره فيه بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ بعد الغلبة الظاهرة على فرعون وقومه ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ المؤمنين بك من بني إسرائيل وأخرجهم من مصر لئلا يستأصلهم فرعون بالعذاب بُغْضاً عليك ﴿إِنَّكُمْ﴾ بعد الخروج من مصر ﴿مُتَّبِعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده، فأخبر موسى ﷺ قومه بما أوحى الله إليه فقالوا للقبط: إِنَّ لَنَا عِيداً فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، فَاسْتَعَارُوا مِنْهُمْ خَلِيَهُمْ وَحَلَلَهُمْ، ثُمَّ خَرَجُوا بِتِلْكَ الْأَمْوَالِ إِلَى جَانِبِ الْبَحْرِ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ بعد ما سَمِعَ بخروجهم ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ والبلاد التي تحت سلطانه شُرطاً ﴿حَاشِرِينَ﴾ وجامعين للعساكر، وأمرهم أَنْ يَقُولُوا لِأَهْلِ الْمَدَائِنِ تَضَعِفْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَشِرْذِمَةٌ وَعَدَّةٌ قَلِيلُونَ﴾.

عن ابن عباس: كانوا ستمائة ألف مقاتل، لا شابَ فيهم دون عشرين سنة، ولا شيخ يُوفي على الستين سوى الحشم، وفرعون يُقَلِّلُهُمْ لكَثْرَةِ مَنْ مَعَهُ^١. والمقصود إظهار عدم مبالاته بهم وعدم احتمال غلبتهم.

وعن الصادق ﷺ يقول: «عَصَبَةٌ قَلِيلَةٌ»^٢.

وقيل: أريد بالقلّة الذلة، لا قلة العدد^٣.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾^٤: على الفتنة، ومحترزون عن الفساد على حسب عادتنا وحزمننا في الأمور.

عن الصادق ﷺ: «خرج موسى ﷺ ببني إسرائيل ليقطع بهم البحر، وجمع فرعون أصحابه، وبعث في المدائن حاشرين، وحشّر الناس، وقَدَّمَ مُقَدِّمَتَهُ فِي سِتْمَانَةِ أَلْفٍ، وَرَكِبَ هُوَ فِي أَلْفٍ أَلْفٍ»^٥.
روي أَنَّ فِرْعَوْنَ رَكِبَ^٦ عَلَى فَرَسٍ^٧ حِصَانٍ كَانَ فِي عَسْكَرِهِ عَلَى لَوْنِهِ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ^٨، فخرج كما

٢. في تفسير القمي والصابي: الباقر.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٧.

٦. تفسير القمي ٢: ١٢١، تفسير الصافي ٤: ٣٧.

٨. زاد في تفسير الرازي: آدم.

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٧.

٣. تفسير القمي ٢: ١٢٢، تفسير الصافي ٤: ٣٧.

٥. لم يتعرض المصنف لتفسير الآية (٥٥).

٧. في تفسير الرازي: خرج.

٩ و ٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٧.

حكى الله بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ بتدبيرنا من تهينة أسباب الخروج لهم، وإيجاد الداعي فيهم ﴿مَنْ جَنَّاتٍ﴾ وبساتينهم التي فيها كثير أنهار ﴿وَعُيُونٍ﴾ ومنابع ماء ﴿وَمِنْ كُنُوزٍ﴾ وأموال وفيرة لم يُنفقوها في طاعة كما قيل^١ ﴿وَمِنْ مَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ومنازل حسنة ومجالس بهية والأمكنة التي كانوا يتنعمون فيها، وإنما يكون الإخراج الذي هو من غضب الله ﴿كَذَلِكَ﴾ الإخراج العجيب الهائل من جميع الأحوال والأمكنة ﴿وَأَوْزَنَّاَهَا﴾ وملكانا بعدهم ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قيل: إنهم رجعوا بعد هلاك فرعون إلى مصر، وتصرفوا [في] أموال القبط^٢. وقيل: إنهم تصرفوا فيها^٣ في زمن داود^٤.

فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ [٦٠-٦٢]

ثم بين كيفية إهلاك فرعون وقومه بقوله: ﴿فَأَتَّبَعُوهُمْ﴾ ولحقوهم حال كونهم ﴿مُشْرِقِينَ﴾ وداخلين في وقت طلوع الشمس، وقيل: يعني ذهبوا وراءهم من ناحية المشرق^٥ ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ وتقارب كل من أصحاب فرعون أصحاب موسى من الآخر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى﴾ له يا موسى ﴿إِنَّا﴾ والله ﴿لَمُدْرِكُونَ﴾ وملحقون وماخوذون، أو مهلكون حين لحوقهم بنا ﴿قَالَ﴾ موسى تسلياً وزجراً لهم عن هذا الوهم: ﴿كَلَّا﴾ لن يدركوكم أبداً، وكيف يدركونكم ﴿وَأَنْ مَعِيَ﴾ بالنصرة والحفظ ﴿رَبِّي﴾ وانه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ ويدلني البتة إلى طريق النجاة منهم وكيفية إهلاكهم. روي أن أصحاب فرعون لما قربوا من بني إسرائيل، خلق الله بخاراً حال بين الفريقين بحيث لم يَر أحد منهم الآخر، فقال فرعون لأصحابه: انزلوا وتوقفوا حتى ترتفع الشمس ويوزل البخار، فإنه لا مفر لبني إسرائيل لأن أمامهم البحر، ونحن وراءهم^٦.

وروي أن مؤمن آل فرعون كان عند موسى، فقال له: أين أمرت، فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون؟! فقال موسى: أمرت بالبحر، ولعلي أؤمر بما أصنع^٧.

فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْأَخْرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ

٣. في النسخة: تصرفوها.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٨.

٥. تفسير القرطبي ١٣: ١٠٦، تفسير روح المعاني ١٩: ٨٤.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٨.

٧. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٩.

٦. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٩.

الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [٦٣-٦٨]

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ طَرِيقَ نَجَاتِهِ وَنَجَاةَ أَصْحَابِهِ وَإِهْلَاكَ أَعْدَائِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَوْخَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ عِنْدَ انْتِهَائِهِ وَانْتِهَاءِ أَصْحَابِهِ إِلَىٰ بَحْرِ الْقَلْزَمِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ الْيَمَنِ وَمَكَّةَ، أَوْ إِلَى النَّيْلِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ أُيْلَةَ وَمِصْرَ ﴿أَنِ اضْرِبْ﴾ يَا مُوسَى ﴿بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فَضْرِبُهُ ﴿فَانْفَلَقَ﴾ الْبَحْرُ، وَانْشَقَّ الْمَاءُ، وَانْفَرَقَ اثْنِي عَشَرَ فِرْقًا بِعَدَدِ الْأَسْبَاطِ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقَةٍ﴾ وَقِطْعَةٍ مَاءٍ مُجْتَمِعٍ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ﴿كَالطُّودِ﴾ وَالْجَبَلِ الْمَتَاطُولِ ﴿الْعَظِيمِ﴾.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا انْتَهَى مُوسَىٰ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الْبَحْرِ، أَمَرَهُمْ أَنْ يَخْوِضُوا الْبَحْرَ فَامْتَنَعُوا إِلَّا يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، فَإِنَّهُ ضَرَبَ دَابَّتَهُ وَخَاضَ فِي الْبَحْرِ حَتَّى عَبَّرَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ فَأَبَوْا أَنْ يَخْوِضُوا، فَقَالَ مُوسَى ﷺ لِلْبَحْرِ: انْفِرْ لِي. فَقَالَ: مَا أَمِرتُ بِذَلِكَ، وَلَا يَعْبُرُ عَلَيَّ الْعَصَا. قَالَ مُوسَى ﷺ: يَا رَبِّ، قَدْ أَبَى الْبَحْرُ أَنْ يَنْفِرَ. فَقِيلَ لَهُ: اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَضْرِبُهُ فَانْفَرَقَ، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ، أَيْ كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ، وَصَارَ فِيهِ اثْنِي عَشَرَ طَرِيقًا، لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْهُمْ طَرِيقٌ، فَقَالَ كُلُّ سِبْطٍ: قُتِلَ أَصْحَابُنَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ دَعَا مُوسَى ﷺ رَبَّهُ، فَجَعَلَهَا مَنَازِلَ كَهَيْئَةِ الطَّبَقَاتِ، حَتَّى نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ عَلَى أَرْضٍ يَابِسةً^١.

رُوي أَنَّ جَبْرِئِيلَ ﷺ كَانَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْنَ آلِ فِرْعَوْنَ، وَكَانَ يَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: لِيَتَلَحَّضُوا آخِرَكُمْ بِأَوَّلِكُمْ، وَيَسْتَقْبِلَ الْقَبْطُ فَيَقُولَ: رَوَيْدُكُمْ لِيَحْلِقَ آخِرَكُمْ^٢.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ: لَمَّا انْتَهَى مُوسَى ﷺ إِلَى الْبَحْرِ، قَالَ: «يَا مَنْ كَانَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْمَكُونُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْكَائِنُ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، اجْعَلْ لَنَا فِرْجًا وَمَخْرَجًا»^٣.

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أَعْلَمُكُمُ الْكَلِمَاتَ الَّتِي قَالَهِنَّ مُوسَى حِينَ انْفَلَقَ الْبَحْرُ؟» قُلْتُ: بَلَى قَالَ: «قُلِ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى، وَبِكَ الْمُسْتَغَاثُ، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^٤.

قِيلَ: لَمَّا انْفَلَقَ الْبَحْرُ أَرْسَلَ اللَّهُ رِيحًا فَجَفَّ بِهَا قَعْرُ الْبَحْرِ، ثُمَّ دَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي شِعَابِ جَبَلِ الْمَاءِ وَمَسَالِكِ الْبَحْرِ^٥.

﴿وَأَرْزَقْنَاهُ﴾ وَقَرَّبْنَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ثُمَّ﴾ وَفِي الْمَكَانِ الَّذِي انْفَلَقَ الْبَحْرُ، الْقَوْمُ ﴿الْآخِرِينَ﴾ وَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ حَتَّى دَخَلُوا عَلَى إِثْرِهِمْ مَدَاخِلَهُمْ. وَقِيلَ: يَعْنِي قَرَّبْنَاهُ بَعْضَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ مِنْ بَعْضِهِمْ

٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٩.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٩.

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٩.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٢٧٩.

حتى لا ينجو منهم أحد^١. وقيل: يعني قريبتهم من الموت^٢.

﴿وَأَنْجَيْنَا﴾ من الغرق ﴿مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ من بني إسرائيل ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بحفظ البحر على هينته إلى أن خرجوا إلى أن البر ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾ فيه القوم ﴿الْآخَرِينَ﴾ المتبئين لموسى باطباعه عليهم.

عن الصادق عليه السلام: «لَمَّا قَرَّبَ مُوسَى مِنَ الْبَحْرِ وَقَرَّبَ فِرْعَوْنَ مِنْ مُوسَى، قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى: إِنَّا لَمُدْرِكُونَ» إلى أ، قال: «فَدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهُ انْفِرْ^٣. فَقَالَ الْبَحْرُ: اسْتَكْبَرْتُ يَا مُوسَى عَنْ^٤ أَنْ أَنْفِرَ^٥ لَكَ وَلَمْ أَعِصِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ طَرَفَةَ عَيْنٍ، وَقَدْ كَانَ فِيكُمْ الْعَاصِي^٦؟ فَقَالَ لَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَاحْذَرِ أَنْ تَعْصِيَ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ آدَمَ أَخْرَجَ مِنَ الْجَنَّةِ بِمَعْصِيَتِهِ، وَإِنَّمَا لَعِنَ إِبْلِيسَ بِمَعْصِيَتِهِ. فَقَالَ الْبَحْرُ: رَبِّي عَظِيمٌ مَطَاعٌ أَمْرُهُ، وَلَا يَنْبَغِي لشيءٍ أَنْ يَعْصِيَهُ. فَقَامَ يُوشِعُ بَن تُون فَقَالَ لِمُوسَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا أَمْرُ^٧ رَبِّكَ؟ قَالَ: بَعْبُورِ الْبَحْرِ فَأَقْحَمَ يُوشِعُ فَرَسَهُ فِي الْمَاءِ، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فَانْفَقَ، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ، أَيِ كَالْجِبَلِ الْعَظِيمِ، فَضْرَبَ لَهُ فِي الْبَحْرِ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا، فَأَخَذَ كُلُّ سَبْطٍ مِنْهُمْ فِي طَرِيقٍ، فَكَانَ الْمَاءُ قَدْ ارْتَفَعَ وَبَقِيَتِ الْأَرْضُ يَابِسَةً، طَلَعَتْ فِيهَا الشَّمْسُ فَبَيَسَتْ، كَمَا حَكَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾^٨ ودخل موسى عليه السلام وأصحابه البحر.

إلى أن قال: «فَأَخَذَ كُلُّ سَبْطٍ فِي طَرِيقٍ، وَكَانَ الْمَاءُ قَدْ ارْتَفَعَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ مِثْلَ الْجِبَالِ، فَفَزَعَتْ^٩ الْفِرْقَةُ الَّتِي كَانَتْ مَعَ مُوسَى فِي طَرِيقِهِ، فَقَالُوا: يَا مُوسَى، أَيْنَ إِخْوَانُنَا؟ فَقَالَ لَهُمْ: مَعَكُمْ فِي الْبَحْرِ، فَلَمْ يَصْدُقُوهُ، فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْبَحْرَ فَصَارَ طَاقَاتٍ، حَتَّى كَانَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَيَتَحَدَّثُونَ، وَأَقْبَلَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودُهُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْبَحْرِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَلَا تَعْلَمُونَ أَنِّي رَبُّكُمْ الْأَعْلَى قَدْ فُوجَّ لِي الْبَحْرُ، فَلَمْ يَجْشُرْ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ الْبَحْرَ، وَامْتَنَعَتِ الْخَيْلُ مِنْهُ لِهَوْلِ الْمَاءِ، فَتَقَدَّمَ فِرْعَوْنَ حَتَّى جَاءَ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهُ مُنَجِّمُهُ: لَا تَدْخُلَ الْبَحْرَ وَعَارِضُهُ، فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ حَصَانٍ، فَامْتَنَعَ الْحَصَانُ أَنْ يَدْخُلَ الْمَاءَ، فَعَطَّفَ عَلَيْهِ جَبْرَائِيلُ، وَهُوَ عَلَى مَادْيَانَةَ^{١٠} فَتَقَدَّمَهُ وَدَخَلَ، فَظَنَرَ الْفَرَسَ إِلَى الرَّمَكَةِ فَطَلَبَهَا، وَدَخَلَ الْبَحْرَ، وَاقْتَحَمَ أَصْحَابُهُ خَلْفَهُ، فَلَمَّا دَخَلُوا كُلُّهُمْ - حَتَّى كَانَ آخِرُ مَنْ دَخَلَ مِنْ

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٣٩.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٤٠.

٣. في تفسير القمي: انفلق.

٤. (عن). ليست في تفسير القمي والصافي.

٥. في تفسير القمي: أن تقول لي انفلق.

٦. في تفسير القمي: المعاصي.

٧. في تفسير القمي والصافي: أمرك.

٨. طه: ٧٧/٢٠.

٩. في تفسير القمي والصافي: فجزعت.

١٠. الماديانة: لفظ أعجمي، يراد به الانثى من الخيل، ويقال له بالعربية: الرَّمَكَةُ، وهي الفرس تتخذ للنجاح.

أصحابه وآخر من خرج من أصحاب موسى - أمر الله عز وجل الرياح فضربت البحر بعضه ببعض، فأقبل الماء يقع عليهم مثل الجبال، فقال فرعون عند ذلك: ﴿أمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل﴾ الخبر^١.

وعنه عليه السلام «أَنْ قوماً آمن بموسى عليه السلام قالوا: لو أتينا عسكر فرعون وكنا فيه ونلنا من دنياه، فإذا كان الذي نرجوه من ظهور موسى عليه السلام، صرنا إليه، ففعلوا فلما توجه موسى عليه السلام ومن معه [إلى البحر] هاربين من فرعون، ركبوا دوابهم، وأسرعوا في السير ليلحقوا بموسى عليه السلام وعسكره فيكونوا معهم، فبعث الله عز وجل ملكاً فضرب وجوه دوابهم، فردهم إلى عسكر فرعون، فكانوا في من غرق مع فرعون^٢.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من معاجز موسى عليه السلام، وغلبته على فرعون، وإنجائه من الغرق وإهلاك أعدائه ﴿لَايَةً﴾ ظاهرة ودلالة واضحة على وحدانية الله وكمال قدرته وحكمته، وعبرة عظيمة للمعتبرين ممن شاهد الوقائع، ومن جاء بعدهم إلى يوم القيامة وسَمِعُوا هان فيدخل فيهم قرش الذين سمعوا هان من النبي ﷺ الذي كان أمياً لم يسمعها من أحد ولم يقرأها في كتاب، ولذا كان إخباره بها من الإخبار بالمغيبات، ومن أظهر المعجزات، ﴿و﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: إن ضمير الجمع راجع إلى القبط، وما آمن منهم إلا خربيل أو حزقيل مؤمن آل فرعون، وآسية زوجة فرعون، ومريم بنت موشا^٣ التي دلت على عظام يوسف حين خروج موسى من مصر^٤. وقيل: إنه راجع إلى عموم المصريين^٥، أما القبط منهم، فلما ذكر، وأما بنو إسرائيل فلقولهم حين عبورهم على عبدة العجل: ﴿يا موسى اجعل لنا الها كما لهم الهه﴾^٦.

وقيل: راجع إلى قوم نبينا الذين سمعوا منه قصة موسى وفرعون، لعدم تدبرهم فيها واعتبارهم بها حتى يتحذروا من أن يُصيبهم مثل ما أصاب قوم فرعون^٧.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوَ أَعْرِضٌ﴾ الغالب على ما أراد من تعذيب المكذبين ﴿الزَّحِيمِ﴾ بهم حيث يُمهلهم ولا يُعجل في عقوبتهم، أو بالمؤمنين. وفي الآيتين تسلية للنبي حيث إنه كان يغتم قلبه الشريف بتكذيب قومه مع ظهور معجزاته، وعرفه محنة موسى حتى يصبر كما صبر.

١. تفسير الفمي ٢: ١٢١، تفسير الصافي ٤: ٣٨، والآية من سورة يونس: ٩٠/١٠.

٢. الكافي ٥: ١٣/١٠٩، تفسير الصافي ٤: ٣٩.

٣. في تفسير أبي السعود: يا موشا، وفي تفسير روح البيان: ناموشا.

٤ و ٥. تفسير أبي السعود ٦: ٢٤٦، تفسير روح البيان ٦: ٢٨٠.

٧. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٠.

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا
فَنَنْظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالِ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ
* قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ
يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي
يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ [٦٩-٨٢]

ثم اردف قصة إبراهيم بقصة موسى، ليعرف حبيبه أن حزن جدّه كان أشدّ من حزنه بقوله:
﴿وَأَتْلُ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على مشركي قومك، واقرأ من كتاب ربك ﴿نَبَأَ﴾ أبيهم ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾
الذي يفتخرون بكونهم أولاده، ويستظهرون بأنهم من نسله ﴿إِذْ قَالَ﴾ موعظة وإرشاداً ﴿لِأَبِيهِ﴾
المجازي، وكان في الحقيقة عمّه الذي ربّاه، أو زوج أمّه ﴿وَقَوْمِهِ﴾ الذين بعث فيهم من الرجال،
والذين كانوا في بلدة بابل التي يُنسب إليها السّحرة إنكاراً عليهم عبادة الأصنام، أو سؤالاً مع علمه
بالمسؤول عنه توطئة لتنبههم على ضلالهم: يا قوم ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وأي شيء له تخضعون خضوع
المخلوق لخالقه؟

﴿قَالُوا﴾ جواباً له: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وتماثيل من الفلزات والحجر والخشب. قيل: إنّها كانت اثنتين
وسبعين^١ ﴿فَنَنْظُلُّ﴾ ونشتغل في نهارنا بالتعظيم ﴿لَهَا﴾ أو ندأوم على عبادتها حال كوننا ﴿عَاكِفِينَ﴾
وملازمين لهذا الشغل ومقبليين عليه.

عن ابن عباس: عاكفين مفتخرين بالأصنام^٢. قيل: إنّ إبراهيم لما خرج من الغار ودخل مصر أراد
أن يعلم دين أهله، فلما سمع جوابهم^٣ ﴿قَالَ﴾ تنبيهاً على فساد مذهبهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ﴾
ويُدركون دعاءكم ويستجيبون مسألتكم؟ ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ وحين تسألون حوانجكم ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ﴾
على عبادتكم لهم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ كم إن تركتم عبادتها؟ فإنّ العاقل لا يعمل عملاً إلاّ لجلب المنفعة،
أو دفع الضرر، فلما عجزوا عن إقامة البرهان على صحة عملهم ودفع اعتراض إبراهيم عليهم،
تمسكوا بالتقليد، و ﴿قَالُوا﴾: لا ما رأينا منهم شيئاً من السمع والنفع والضرر ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾
وكبراءنا ﴿كَذَلِكَ﴾ الفعل الذي نحن نفعل كانوا ﴿يَفْعَلُونَ﴾ ومثل هذه العبادة كانوا يعبدون، وهم لما
كانوا أعقل وأبصر منا اقتديا بهم وقلدناهم في رأيهم و ﴿قَالَ﴾ إبراهيم تقريراً لهم وتبرئاً من عملهم:

٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٤٢، ولم ينسب إلى ابن عباس.

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٨١.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٨١.

﴿أَنْزَلْنَاهُمْ﴾ قيل: إن التقدير أنظرتم فأبصرتم، أو تأملتم فعلمتم^١ ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ * أَنتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَنْدَثُونَ وكبرؤكم السابقون حق الإبصار، أو حقيقة العلم بأن الباطل لا يصير حقاً بكثرة قائله وقَدَمَ عامليه، لا والله لم تَنْظُرُوا ولم تَقْفُوا على حال أصنامكم ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ لكثرة ضررهم كأنهم ﴿عَدُوٌّ لِي﴾ في الدنيا، أو في الآخرة بعد إحيائهم، أو عابدهم عدو لي، وفيه تعريض على كونه عدو لعبادتهم، وإظهاراً لثُصْحَمِ بصورة نُصَحَ نفسه ليكون أقرب إلى القبول.

ثم نَبَّهَهُم على حصر النفع في عبادة الله بقوله: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ والتقدير: أن جميع الآلهة الذين كانوا يَعْبُدُونَهُمْ عدوٌ إلا رب العالمين فإنه كان في آباءهم من يَعْبُدُهُ، أو التقدير: لا ولي لي إلا رب العالمين.

وقيل: إن الاستثناء منقطع، والمعنى: ولكن رب العالمين وليي وحيبي في الدنيا والآخرة لا يزال يتفَضَّلُ عليّ بمنافعهما^٢ التي يجب أن يكون المعبود واجداً لها، بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ وأخرجني من كَمَمِ العدم إلى الوجود الذي هو أعظم النعم ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ويرشدني إلى معرفته، وطريق تحصيل مرضاته، وصالح الدارين من بدو الخلق إلى زُهوِّ الرُّوح، ممَّا يَنْتَظِمُ به المعاش والمعاد، فإنه^٣ يَهْدِي في البدو إلى امتصاص دم الحيض، وعند الكمال إلى الحق، وفي الآخرة إلى الجنة. وقيل: يعني خلقني لأقامة الحق، ويهديني إلى دعوة الخلق، أو خلقني للطاعة، ويهديني إلى الجنة^٤، وإنما اختلف الفعلان بالماضوية والمضارعية لتقدّم الخلق واستمرار الهداية.

﴿وَالَّذِي هُوَ﴾ وحده بعد الخلق ﴿يُطْعِمُنِي﴾ نِعْمَةً لتقوية أجزاء بدني ﴿وَيَسْقِينِي﴾ الشراب لتربية أعضاء جسدي بخلق المطعوم والمشروب والتسليط عليهما، وإيجاد جميع مقدمات الانتفاع بهما كالشهوة وقوة المَضْغِ والابتلاع والهضم والدفع وغير ذلك، وإنما كرّر الموصول للدلالة على استقلال كل واحد من الصلات في استحقاق العبادة وإيجابها ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ﴾ من التفریط في المطاعم والمشارب، وفساد الأخلاق، أو اقتضاء الحكمة ﴿فَهُوَ﴾ بَلَطُهُ ﴿يَشْفِينِي﴾ ويبرئني من المرض، وإنما أضاف المرض إلى نفسه مع كونه من الله لرعاية الأدب، أو لكونه بصدد ذكر النعم، ولا يتنقض بذكر الموت، فإنه نعمة من حيث إنه سبب للتخلّص من آفات الدنيا وشوائدها، والخلاص من المضيقَة وقفص الجسد، والدخول في فُسْحَةِ عالم الآخرة، والنيل بالمحَابِّ التي تُسْتَحَقَّرُ دونها

١. تفسير أبي السعود ٦: ٢٤٨، تفسير روح البيان ٦: ٢٨٢.

٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٤٨، تفسير روح البيان ٦: ٨٢، وفي النسخة: منافع.

٣. في النسخة: فاية.

٤. مجمع البيان ٧: ٣٠٣.

الدنيا وما فيها، وذلك لأهل الايمان والتوحيد.

وعن الصادق عليه السلام: «وإذا مرضت بالعصيان فهو يشفيني بالتوبة»^١.

﴿وَالَّذِي يُؤْمِنُ﴾ ويقبض روعي بقدرته وحكمته ﴿ثُمَّ يُخَيِّبُ﴾ للحساب وجزاء الأعمال وقيل: يعني يؤمّنني بالخذلان أو الجهل، ثم يخيبني بالتوفيق للطاعة، أو بالعقل والعلم^٢ ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ﴾ وأرجو ﴿أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ وزلاتي ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ والجزاء وعند الحساب، وفي التعبير عن يقينه بالطمع تأدب وتعليم للعباد، كما أنّ التعبير عما يصدر منه من ترك الأولى بالخطيئة هضم للنفس، وحثّ للعباد على الحذر من المعاصي وطلب المغفرة.

وقيل: إنّ المراد خطايا أمته، أو أمة محمد ﷺ وإنما علّق المغفرة بيوم الدين لظهور فائدتها فيه^٣.

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْجَنَّةَ بِالصَّالِحِينَ * وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي
الْآخِرِينَ [٨٣ و ٨٤]

ثمّ أنّه عليه السلام بعد احتجاجه على قومه بتوصيف المستحق للعبادة بأوصاف فائقة مستلزمة للمعبودية بحيث لا يكون القاعد لواحد منها قابلاً لها، سأل لنفسه أهمّ المطالب بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ وأعطني بكرمك ﴿حُكْمًا﴾ وعلمًا كاملاً أستحقّ به خلافتك ورياسة خلقك، كما عن ابن عباس^٤، وهو المعرفة بحقائق الأشياء ورؤيتها كما هي. وقيل: إنّ الحكم قوة بيان كلّ ما يحتاج إليه الناس على مقتضى الحكمة^٥ ﴿وَالْجَنَّةَ﴾ بتوفيقك للعمل بمرضاتك ﴿بِالصَّالِحِينَ﴾ والكاملين في الأخلاق والأعمال والمنزهين عن النقائص الحيوانية والشهوات النفسانية، واجعلني في زميرتهم، أو أجمع بيني وبينهم في الجنة ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ وحسن ذكرٍ وجاءٍ عظيمٍ باقي ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ وبين الناس إلى يوم الدين.

قيل: إنّّه عليه السلام ابتدأ في دعائه بطلب الكمال الذاتي وهو العلم، ثمّ بالكمال الأخلاقي وهو الصلاح، ثمّ بالكمال الدنيوي الرّوحاني وهو الجاه والذكر الجميل الباقي إلى آخر الدهر^٦. وعلة طلبه أنّ النفوس البشرية إذا انصرفت همهم إلى شخص واحد بالمدح والتناء، أثرت في ذلك الشخص كمالاً زائداً على ما يكون له، وإنّ شهرة شخص بين الناس بسبب ماله من الفضائل وجريان مدحه

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٥.

٢ و ٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٥.

٤. يعني مستحقاً.

٥. تفسير الصافي ٤: ٤٠، تفسير روح البيان ٦: ٢٨٦، ولم ينسب إلى ابن عباس، مجمع البيان ٧: ٣٠٤، وفيه: إنه العلم.

٦. مجمع البيان ٧: ٣٠٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٤٩.

فيهم داعية لهم في اكتساب فضائله.

عن الصادق عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: لسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خير له من المال الذي يأكله ويورثه»^١.

وقيل: إن المراد أن يجعل الله في ذريته في آخر الزمان من يكون داعياً إلى الله تعالى^٢. وحاصل الدعاء: واجعل صادقاً من ذريتي يُجَدِّدُ ديني، ويدعو إلى ما أدعوا إليه، وهو محمد وأوصياؤه عليهم السلام^٣.

القمي قال: هو أمير المؤمنين عليه السلام^٤.

وقيل: إن المراد اتفاق أهل الأديان على حبه، فاستجيب دعاؤه، فإنه لا يرى أهل دين إلا وهم يثنون عليه ويؤولونه^٥.

وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ [٨٥-٨٧]

ثم أنه عليه السلام بعد طلب السعادة الدنيوية طلب السعادة الأخروية بقوله: «وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ» فيها جميع «النَّعِيمِ» في الآخرة، ومن مستحقها كاستحقاق الوارث لمال مورثه.

ثم لما وعد عليه السلام أن يستغفر له في السورة السابقة، وفي بوعده بقوله: «وَأَغْفِرْ» يارب «لِأَبِي» أَرَّ «إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ» والمُتَحَرِّفِينَ عن صراط الحق وطريق الجنة. قيل: إن المراد بالمغفرة هدايته إلى الإيمان^٦.

وقيل: هي بمعناها، ولكن لما كانت مشروطة بالإيمان كان طلبها مستلزماً لطلبه^٧.

وقيل: إن أباه وعده بالإيمان^٨، فدعا له بهذا الشرط^٩. وقيل: إن أباه قال له: إنا على دينك باطناء، وانما اظهر الشرك خوفاً من نمرد، فدعا له بظن أنه مؤمن^{١٠}. ولذا قال: إنه كان من الضالين، وليس الآن منهم، فلمّا تبين له أنه على كفره تبرأ منه.

١. الكافي ٢: ١٢٣/١٩، تفسير الصافي ٤: ٤٠.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٤٩.

٣. زاد في تفسير الصافي: أصل.

٤. تفسير الصافي ٤: ٤٠، وفيه: محمد وعلي والأئمة عليهم السلام من ذريتهما.

٥. تفسير القمي ٢: ٢٢٣، تفسير الصافي ٤: ٤١.

٦. تفسير أبي السعود ٦: ٢٥٠، تفسير روح البيان ٦: ٢٨٦.

٧. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٦.

٨. في تفسير الرازي: الإسلام.

٩ و ١١. تفسير الرازي ٢٤: ١٥٠.

ثم أنه ﷺ بعد سؤال العزّ الديني لنفسه، سأل الأخروي منه بقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ ولا تهني بحطّ درجتي في الجنة عن درجة غيري، وبعتابي على ترك ما هو الأولى مني، أو لا تفضحني بين الناس باظهاره، أو لا تخجلني عندهم ﴿يَوْمَ يُنْعَثُونَ﴾ من القبور إلى المحشر ويجمعون فيه، وإنما كان سؤاله هذا مع علمه بأن الله لا يخزي النبي لهضم النفس وإظهار العبودية والحاجة وتعليم العباد وحثهم على الاقتداء به.

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ
لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ [٨٨-٩١]

ثم بين عظمة ذلك اليوم بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ﴾ أحداً في نجاته من أهواله، وإن صرفه في الدنيا في وجه الخيرات ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ نفساً في خلاصها من العذاب بالنصرة والشفاعة ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ فيه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وبريء من العقائد الفاسدة والأخلاق الرذيلة والشهوات النفسانية، أو أمن فتنة المال والبنين، أو من حب الدنيا.

عن الصادق ﷺ: «هو القلب السليم من حب الدنيا»^١.

وعنه ﷺ: «صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم، لأن سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله تعالى في الأمور كلها» ثم تلا هذه الآية^٢.

وعنه ﷺ أنه سئل عن هذه الآية فقال: «القلب السليم الذي يلقي ربه وليس فيه أحد سواه» قال: «وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط، وإنما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة»^٣.

وقيل: إنه انقطع كلام إبراهيم بقوله: ﴿يَوْمَ يُنْعَثُونَ﴾ ووصف اليوم من كلام الله رداً على الكفار الذين قالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً، فأخبر بأنهما لا ينفعان من لا سلامة لقلبه في الدنيا، وأما من سليم قلبه فتنفعه خيراته وأولاده فإذا مات ابنه قبله يكون له ذخراً وأجرأ، وأن تحلف بعده فإنه يذكره بصلاح دعائه ويتوقع منه شفاعته^٤.

وقال بعض العامة: القلب السليم من بغض أهل بيت النبي وأزواجه وأصحابه^٥.

وقيل: إن القلب السليم هو القلب القلق المضطرب من خشية الله، كالذي لدغته الحية^٦.

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ وقرئت فيه «الجنة للمتقين» من موقفهم لينظروا إليها ويفرحوا بأنهم يدخلونها

١. مجمع البيان ٧: ٣٠٥، تفسير الصافي ٤: ٤١.

٢. مصباح الشريعة: ٥٣، تفسير الصافي ٤: ٤١.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٧.

٤. الكافي ٢: ٥/١٣، تفسير الصافي ٤: ٤١.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٨.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٨.

فيعجل سرورهم ﴿وُزِّزَتْ﴾ وأظهرت ﴿الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ﴾ والضالين، وتَجَعَّلَ بمرآهم لينظروا إليها ويتحسروا على أنهم مساقون إليها فيعجل عنهم.

عن الصادق عليه السلام: «الغاوون [هم] الذين عرفوا الحق وعملوا بخلافه»^١.

قيل: يؤتى بالبحيم في سبعين ألف زمام، وفي اختلاف الفعلين دلالة على ترجيح جانب الوعد، فإن التبريز لا يستلزم التقريب، وفي تقديم ذكر إزلاف الجنة إشعار بسبق رحمته غضبه^٢.

وَقِيلَ لَهُمْ أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ أَوْ يَنْتَصِرُونَ *
فَكُبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا
يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نَسُوَكُمْ رَبِّ أَلْعَالَمِينَ * وَمَا
أَصْلَنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [٩٢-١٠١]

ثم حكي سبحانه تقرير المشركين بقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ في ذلك اليوم من قبل الله تعالى تقريراً وتوبيخاً أيها المشركون ﴿أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْبُدُونَ﴾ من دُونِ اللَّهِ ومما سواه من الأصنام الذين تقولون: هؤلاء شُعَاعُونَا عند الله ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ﴾ اليوم بدفع العذاب عنكم ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم؟ فلما لم يكن للتقرير جواب، حكم بدخول الآلهة وعابديهم في النار ﴿فَكُبِّبُوا﴾ وألقوا ﴿فِيهَا﴾ على الرؤوس منكوسين مرة بعد أخرى ﴿هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ والمعبودون والعابدون و ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من الشياطين الذين يُزَيِّنُونَ في قلوبهم عبادة الأصنام والمعاصي ويوسوسون إليهم ﴿أَجْمَعُونَ﴾ لا يَشِدُّ مِنْهُمْ أَحَدٌ، ليجتمعوا في العذاب كما كانوا يجتمعون في الضلال.

ثم أنهم بعد اجتماعهم في جهنم ﴿قَالُوا﴾ لآلهتهم ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ وينازعون مع آلهتهم بعد ما أحياهم وأنطقهم بقدرته: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وانحراف واضح عن الحق ﴿إِذْ نَسُوَكُمْ﴾ ونَعَدَلْكُمْ ﴿بِرَبِّ أَلْعَالَمِينَ﴾ في استحقاق العبادة مع أنكم أدنى خلقه وأذلهم وأعجزهم ﴿وَمَا أَصْلَنَا﴾ عن الهدى ودين الحق، وما صرفنا عن التوحيد إلّا كبراً ونا وروساؤنا ﴿الْمَجْرُمُونَ﴾ الطاغون حيث زينوا لنا عبادتكم وأمرنا بها ﴿فَمَا لَنَا﴾ اليوم أحدٌ ﴿مِنْ شَافِعِينَ﴾ فيشفعوا لنا عند ربنا كما يشفع الملائكة والأنبياء والأئمة والصديقين للمؤمنين ﴿وَلَا﴾ من ﴿صَدِيقٍ﴾ ولا من

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٨٨.

١. عدة الداعي: ٧٦، بحار الأنوار ٢: ٥٢/٣٧.

٣. في النسخة: فيشفعون.

﴿حَمِيمٌ﴾ وخاصة مهتمٌ بأمْرنا أو رؤوفٌ وشفيقٌ كما يكون للمؤمنين، فإنَّ بين أهل النار التعادي والتباغض.

وقيل: يعني ما لنا من شافعين ولا صديق من الأصنام الذين كُنَّا نَحْسِبُهُمْ شُفْعَاءَ، ومن شياطين الإنس الذين نزعمهم أنَّهم أصدقاء^١.

عن الصادق عليه السلام: «الشافعون الأئمة عليهم السلام، والصديق من المؤمنين»^٢.

والقمي عنهما عليه السلام: «والله لشفِيعَ في المذنبين من شيعتنا حتى يقول أعداؤنا إذا رأوا ذلك: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ»^٣.

وعن الباقر عليه السلام: «أَنَّ الشفاعة لمقبولة، وما تقبل في الناصب، وإنَّ المؤمن ليُشَفَّعَ لجاره وماله حسنة، وإنَّ أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع في ثلاثين^٤، فعند ذلك يقول أهل النار ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾»^٥.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أَنَّ الرجل يقول في الجنة: ما فعل صديقي فلان؟ وصديقه في الجحيم، فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه في^٦ الجنة، فيقول: من بقي في النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ»^٧.

قيل: إنَّ جمع الشافعين وتوحيد الصديق لكثرة الأول وقلة الثاني^٨، فإنَّ الصادق في المودة الذي هو المراد من الصديق أعزَّ من الكبريت الأحمر، وقيل: إنَّ الصديق يُطْلَقُ على الجميع كالعدو^٩.

فَلَوْ أَنَّ لَنَا كُوَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

مُؤْمِنِينَ * وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [١٠٢-١٠٤]

ثمَّ لما يشسوا من النجاة تَمَنَّوا العود إلى الدنيا بقولهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كُوَّةً﴾ ورجعة إلى الدنيا، وباليث لنا عودة إليها ﴿فَنَكُونُ﴾ فيها ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين تنالهم الشفاعة وتنفعهم الصداقة.

وقيل: إنَّ كلمة (لو) شرطية، والمعنى لو أنَّ لنا الرجوع فنكون من المؤمنين لفعلنا كذا وكذا^{١٠}، أو لنلنا بغاية آمالنا.

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٥٢.

٣. تفسير القمي ٢: ١٢٣، تفسير الصافي ٤: ٤٣.

٥. الكافي ٨: ٧٢/١٠١، تفسير الصافي ٤: ٤٣.

٧. مجمع البيان ٧: ٣٠٥، تفسير الصافي ٤: ٤٣.

٨. جوامع الجامع: ٣٣٠، تفسير البيضاوي ٢: ١٥٩، تفسير الرازي ٢٤: ١٥٢.

٩. تفسير البيضاوي ٢: ١٥٩، تفسير أبي السعود ٦: ٢٥٣، وفيه: الجمع كالعدو.

١٠. تفسير أبي السعود ٦: ٢٥٣.

٢. المحاسن: ١٨٤/١٨٧، تفسير الصافي ٤: ٤٣.

٤. في الكافي وتفسير الصافي: ليشفع لثلاثين إنساناً.

٦. في مجمع البيان وتفسير الصافي: إلى.

القمي قال: من المؤمنين، أي من المهتدين، لأن الإيمان قد لزمهم بالاقرار^١.
ثم حكى سبحانه شدة قساوة قلوب أكثر أمة إبراهيم تسلياً لحبيبه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾
المذكور من احتجاجات إبراهيم عليه السلام ولجاج قومه ﴿لَايَةً﴾ عظيمة وعظة نافعة لمن يتعظ، وعبرة
لمن يعتبر من قوم إبراهيم ﴿وَمَا كَانَ﴾ مع ذلك ﴿أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ به، كما لم يكن أكثر قومك
مؤمنين بك.

روي أنه لم يؤمن بابراهيم عليه السلام من أهل بابل إلا لوط وبنو نمرود^٢.
﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ والقادر على الانتقام وتعجيله، لكنه ﴿الَرْحِيمُ﴾ بهم
لإمهالهم كي يؤمنوا أو يلدوا مؤمناً.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ
الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ
تَشْعُرُونَ [١٠٥-١١٣]

ثم ثلث سبحانه بقصة نوح وقومه التي كانت أعظم من القصتين^٣ السابقتين ازدياداً لتسليّة
النبي ﷺ بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً من ابتداء دعوته إلى انتهائها، وهم بتكذيبه كذبوا الأنبياء
﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ جميعهم، أو المراد أنهم كذبوا جميع المرسلين، وكان نوح عليه السلام منهم ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ
أَخُوهُمْ﴾ وواحد منهم معروف بينهم بالصدق وسلامة النفس والشفقة عليهم اسمه ﴿نُوحٌ﴾ نصحاً
وعظةً. يا قوم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله في ترك عبادته والاشتغال بعبادة غيره، واعلموا ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾
من الله مبعوث فيكم لدعوتكم إلى توحيده وعبادته، وقد علمتم أنني ﴿أَمِينٌ﴾ في جميع الأمور،
فعليكم أن تأمنوني على دينكم، وما أخبر به عن ربكم، ولا تتهموني بالكذب والخيانة في نصحكم
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفتي ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في ما أمركم به من توحيده وعبادته ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾
شيئاً ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ وجعل ﴿إِنْ أَجَرْتُ﴾ وما جعلني على تأدية الرسالة ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأن
عملي له، فيكون أجري عليه، فإذا علمتم عدم طمعي في أموالكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في إنكار رسالتي

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٩١.

١. تفسير القمي ٢: ١٢٣، تفسير الصافي ٤: ٤٣.

٣. في النسخة: القضيتين.

﴿وَأَطِيعُوا﴾ في أمري.

فلَمَّا سَمِعَ قومه دعوته ﴿قَالُوا﴾ له إنكاراً عليه: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَنَتَّبِعُكَ فِي قَوْلِكَ، وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ **﴿اتَّبَعَكَ﴾** الفقراء **﴿الْأَزْدَلُونَ﴾** والسُّفلة الأذنون جاهاً ومالاً ونسباً فَإِنَّ إيمانهم لا يكون عن نظير وبصيرة لعدم رزاة عقلهم ومثانة رأيهم، بل نظرهم إلى جلب المال وتحصيل الجاه، فهم في الباطن كافرون بك، لا ينبغي لنا أن نجعل أنفسنا في رديفهم.

قيل: كانوا من أهل الصناعات الخسيسة^١. وقيل: إنهم كانوا حُجَّاماً^٢. وعن ابن عباس: كانوا حانكين^٣.

﴿قَالَ﴾: نوح عليه السلام في جوابهم: ما إحاطتي ﴿وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من إيمانهم الحقيقي بربي، وإقرارهم القلبي برسالتي، ومالي إطلاع على خلوصهم في الإيمان أو نفاقهم، وليس علي التفقيش عن باطنهم وشنَّ قلوبهم، بل علي الاكتفاء والاعتبار بظاهر إقرارهم ﴿إِنْ جَسَابُهُمْ﴾ ومؤاخذتهم على بواطنهم وسرائرهم ﴿إِلَّا عَلَيَّ﴾ عهدة ﴿رَبِّي﴾ المطلع على البواطن والسرائر، العالم بالخفيات، وأنتم ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وتذكرون المطالب الواضحة لشعرتهم صحة قلبي، وأدركتم صدق خبري، ولكنكم تجهلون وتقولون ما لا تعلمون.

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [١١٤-١٢٢]

ثم لما كان في قدح أتباعه إيهام توقع طردهم عن مجالسه وإبعادهم عن حوله، قطع طمعهم هذا بقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ﴾ هؤلاء **﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾** ومباعدهم عن حولي ومجلسي، ولا يمكنني موافقتكم في ما توقعون مِنِّي من الاعراض عمن أقبل على ربي، لأنه خلاف وظيفتي **﴿إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾** وما أنا إلا رسول مبعوث لتخويف الناس من العذاب على الكفر بالله وعصيان **﴿مُيِّنٍ﴾** ومظاهر بالانذار، أو موضح لما أرسلت به سواء كانوا أعزاء أو أذلاء، أغنياء أو فقراء، بل وظيفتي تقريب من قبل قلبي ودعوى رسالتي، وأمن بربي، فلَمَّا عَجَزُوا عن معارضته بالحجة أخذوا في تهديده و﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ

تَنْتَهُ **﴿**وَلَمْ تَرُدَّ **﴿**يَا نُوحُ **﴾** عن الدعوة إلى التوحيد والایمان بك والانذار والوعظ **﴿**لَتَكُونَنَّ **﴾** البتة فيما بيننا **﴿**مِنَ الْمُزْجُومِينَ **﴾** والمطرودين عن أرضنا، أو من المقتولين بالأحجار، لأنه أقيح قتله، أو من المشتومين.

عن الثمالي: الرجم في جميع القرآن بمعنى القتل، إلا في سورة مريم في قوله: **﴿**لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهُ لِأَرْحَمَتِكَ **﴾**^١ فإنه بمعنى الشتم^٢.

فعند ذلك يش نوح **﴿**عَلَيْهِ السَّلَامُ **﴾** من إيمانهم، واشتكى إلى ربه و**﴿**قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ **﴾** وأصرّوا في ردّ قولي بعد ما دعوتهم ليلاً ونهاراً **﴿**فَاتَّخَذَ **﴾** واحكم **﴿**بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحَا **﴾** بما يستحق كل منا ومنهم من الرحمة والعذاب **﴿**وَتَجَنَّى **﴾** وخلّصني **﴿**وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ **﴾** من شرّ الكفار ومما ينزل بهم من العذاب، فاستجبتنا دعاءه **﴿**فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ **﴾** من أهله والمؤمنين به بعد إرسال الماء من السماء وفورانه من الأرض بحملهم **﴿**فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ **﴾** والسفينة المملوءة بهم وبكل صنف من الحيوانات والأمتعة والمأكولات.

عن الباقر **﴿**عَلَيْهِ السَّلَامُ **﴾**: «المشحون: المجهر الذي قد فرغ منه ولم يبق إلا دفعه»^٣.

﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا **﴾** في الماء **﴿**بَعْدَ الْبَاقِينَ **﴾** من الناس مَنْ لم يكن في السفينة **﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ **﴾** المذكور من الانجاء والاغراق **﴿**لَايَةً **﴾** وعظة وعبرة لمن بعدهم من الناس **﴿**وَمَا كَانَتْ **﴾** مع ذلك **﴿**أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ **﴾** بالله ورسله، فلا تحزن يا محمد على عدم إيمان قومك، واصبر على أذاهم كما صبر نوح **﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ **﴾** يا محمد **﴿**لَهُوَ الْعَزِيزُ **﴾** والقادر على الانتقام وتعجيله، ولكنه **﴿**الرَّحِيمُ **﴾** بهم لإمهالهم كي يؤمنوا، أو يلدوا مؤمناً.

كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ [١٢٣-١٣٠]

ثم بالغ سبحانه في تسلية نبيه **﴿**عَلَيْهِ السَّلَامُ **﴾** بذكر قصة هود بقوله: **﴿**كَذَّبَتْ **﴾** قبيلة يقال لها **﴿**عَادَ **﴾** انتساباً على جدّهم الأعلى **﴿**الْمُرْسَلِينَ **﴾** كلهم بتكذيبه **﴿**إِذْ قَالَ لَهُمُ **﴾** عظة **﴿**أَخُوهُمْ **﴾** في النسب اسمه

١. مريم: ٤٦/١٩.

٢. تفسير القرطبي ١٣: ١٢١.

٣. تفسير القمي ٢: ١٢٥، وفيه: إلّا رفعه، تفسير الصافي ٤: ٤٥.

﴿هُودٌ﴾ وقيل: هو لقبه لوقاره وسكيتته واسمه عابر^١: يا قوم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله في كفركم وعصيانكم له ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه، أو مشهور عندكم بالأمانة، فإذا سَلَّمْتُمْ ذلك ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا من عقابه على الكفر به وإنكار رسالتي ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في ما أمركم به أداءً للرسالة ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ شيئاً ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ ولا أتوقع منكم مثقال ذرة من جُعَلٍ ﴿إِنْ أَجْرِي﴾ وما جُعَلِي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنَّ عملي لا يكون إلا له.

ثم نهاهم عن اللغو والعبث بقوله: ﴿أَتُبْنُونَ﴾ يا قوم ﴿بِكُلِّ رِيحٍ﴾ ومكانٍ مرتفع ﴿آيَةً﴾ وعلامة ﴿تَقْبُضُونَ﴾ بها قيل: إنهم كانوا يَبْنُونَ في الأماكن الرفيعة^٢ ليعرف غناهم تفاخراً^٣. وقيل: إنهم كانوا يبنون بها بروج الحمام^٤.

وعن ابن عباس: أنهم كانوا يبنون بكل رِيحٍ علماً يعيثون فيه بمن يمرُّ في الطريق إلى هود^٥. ﴿وَتَتَّخِذُونَ﴾ لأنفسكم ﴿مَصَانِعَ﴾ وحياضاً من ماءٍ، أو أمكنة شريفة، أو قصوراً مشيدة، أو حصوناً مُحَصَّنَةً ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ وبرجاء أنكم ﴿تَخْلُدُونَ﴾ أو كأنكم تدومون^٦ في الدنيا ولا تموتون أبداً.

عن النبي ﷺ - في حديث - قال: «كل بناءٍ بُنِيَ فَانَهُ وَبَالَ عَلَى صاحبه يوم القيامة إلا ما لبَّدَ منه»^٧. ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ وتناولتم سيفاً أو سوطاً بصولةٍ وقهر ﴿بَطَشْتُمْ﴾ وتناولتم بالقهر حال كونكم ﴿جَبَّارِينَ﴾ ظالمين وقاتلين لمن تغضبون عليه بلا رَأْفَةٍ ورحمةٍ وقصد تأديبٍ ونظرٍ في العاقبة. والحاصل أنه ﷺ ذمهم أولاً: ببناء الأبنية الرفيعة بلا حاجة إليها، بل لإظهار التكبر والخيلاء، وثانياً: بإحكام الأبنية الدالَّ على طول الأمل والغفلة عن أن الدنيا دار مجازٍ، وثالثاً: بالظلم على الناس وقلة الرأفة والرحمة، والجميع دالٌّ على استيلاء حب الدنيا عليهم حتى أخرجهم عن حدِّ العبودية وادخلهم في حدِّ العتو والطغيان.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [١٣١-١٣٥]

ثم بالغ هود في زجرهم عن حب الدنيا ودعائهم إلى الآخرة بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا عقابه على الانهماك في الشهوات، واتركوا تلك الأعمال الشنيعة ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في ما أمركم به من الإقبال

٢. في تفسير الرازي: المرتفعة.

٦. في النسخة: تديمون.

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٩٤.

٣- ٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٥٧.

٧. مجمع البيان ٧: ٣١٠، تفسير الصافي ٤: ٤٥.

على الله والدار الآخرة والقيام بالعدل والانصاف، وقصر الأمل فإنه النافع لكم.

ثم حثهم على التقوى بتذكيرهم نعم ربهم الموجب لإيقاظهم من سنة الغفلة، ورغبتهم إلى الايمان وقيامهم بالشكر بقوله: ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله ﴿الَّذِي أَمَدَّكُمْ﴾ وقواكم ﴿يَمَا تَعْلَمُونَ﴾ به من أنواع نعمه منها أنه ﴿أَمَدَّكُمْ﴾ وأعانكم ونظم أمور معاشكم ﴿بِأَنْعَامٍ﴾ كثيرة من الإبل والبقر والغنم لتستفيدوا منها ﴿وَبَيْنَينَ﴾ عديدة لتستعينوا بهم في الحوانج ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ وبساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ غزيرة الماء تشربون منها، وتسقون بها أنعامكم وزروعكم وبساتينكم.

ثم هددهم على بقائهم على الكفر والعصيان مع إظهار الشفقة عليهم بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن تدوموا^١ على الكفر وكفران النعم من أن ينزل الله عليكم ﴿عَذَابٍ﴾ الاستئصال في ﴿يَوْمٍ﴾ ذي هول ﴿عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة لعظم ما يحل فيه.

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ

الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٦-١٣٨﴾

ثم أن القوم بعد إبلاغ هود عليه السلام في نصيحهم ووعظهم ﴿قَالُوا﴾ في جوابه طغياناً وعتواً: يا هود ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ ولا يتفاوت في نظرنا ﴿أَوَعَضْتَ﴾ ونصحتنا ﴿أَمْ﴾ سكت و ﴿لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ والناصحين، فأننا لن نكثر بكلامك، ولن نعتز بقولك، ولن ننصرف عما نحن عليه بدعواك ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الدعوى الذي تدعي من الرسالة والتوحيد والتحذير من الشرك ﴿إِلَّا خُلُقٌ﴾ جماعة من ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ ودأب عدة من السابقين، أو المراد ما هذا الذي نحن عليه من العقائد والأعمال إلا عادة الأقوام السابقين والأمم الماضين، فإنهم كانوا على ديننا وملتزمين بأعمالنا، ونحن مقتدون بهم، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة الناس من قديم الدهر جارية فينا نحيا كحياتهم، ونموت كموتهم، لا بعث ولا حساب ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ على عقائدنا وأعمالنا، لا في الدنيا لعدم مقتضى للعذاب، ولا في الآخرة لعدم عالم آخر وراء هذا العالم.

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ

الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَالَّا

تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ

أَجْرِي إِنْ أُجِرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٣٩-١٤٥]

ثم حكي سبحانه إهلاكهم بتكذيب هود بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وأصرّوا على إنكار رسالته عناداً ولجاجاً ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بسبب تكذيبهم إياه بريح صرصر عاتية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ الْإِهْلَاكَ﴾ الآية، وعبرة عظيمة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

ثم ذكر سبحانه قصة صالح بقوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبيلة يقال لها ﴿ثَمُودُ﴾ لأنهم أولاد ثمود بن عبيد بن عوص بن عاد كما قيل^١ ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ كلهم ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ وواحد منهم يقال له ﴿صَالِحٌ﴾ نصحاً: يا قوم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله ولا تخافون عذابه على عبادة غيره؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من قبل الله ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه، أو مشهور بينكم بالأمانة والصدق، فاذا سلّمتم ذلك ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفتي ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في ما أَدْعُوكُمُ إِلَيْهِ، فإنّ وظيفتي الدّعاء إلى التوحيد ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وجعل ﴿إِنْ أُجِرِي﴾ وجعلني، وما جزاء عملي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي نُبِيتُ بِأَرْحَامِهِمْ * فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ [١٤٦-١٥٤]

ثم وُيِّحَ قومه بطول الأمل وإنكار المعاد وكفران نعم الله بقوله: ﴿أَتَتْرَكُونَ﴾ وهل تطمعون أن تبقوا^٢ ﴿فِي مَا هَاهُنَا﴾ من الديار والعقار والنعم حال كونكم ﴿آمِنِينَ﴾ ومحفوظين من الآفات والموت والمجازاة على كفرانه؟^٣ لا يكون ذلك أبداً.

ثم فسر الموصول وفصل النعم بقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ وبساتين كثيرة الأشجار والثمار ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهارٍ أو آبار كثيرة الماء.

قيل: إنهم لم يكن لهم أنهار جارية^٤. وقيل: كانت لهم في الصيف لأنهم كانوا يخرجون في الصيف إلى القصور والكروم والأنهار، وأما في الشتاء فلم يكن لهم إلا الآبار^٥.

﴿وَزُرُوعٍ﴾ كثيرة من الحنطة وسائر الحبوب النافعة ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ وما يخرج منها من غلاف

٢. في النسخة: تبقون. ٣. زاد في النسخة: بعده.

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٩٧.

٤ و ٥. تفسير روح البيان ٦: ٢٩٧.

كنصل السيف فيه الشَّعْرَاخ الذي هو للنخيل كالعتقود للكرم ﴿هَضِيمٌ﴾ وداخل بعضها في بعض، أو مُدَلَّ لنقل الحُخْل، أو لطيف وهو كناية عن لطافة ثمره، لأنه كلما لَطَفَ الثمر لَطَفَ طَلْعُهُ، أو كناية عن كون النخل أنثى لأن طَلَعَ الذَّكَرَ صَلَبَ غَلِيظَةً، كذا قيل^١.

وقيل: إِنَّ الطَّلَعَ زَهْرَةُ النخل^٢، وقيل: إِنَّهُ أَطْيَبُ الرطب^٣، وَإِنَّمَا خَصَّ النَّخْلَ بِالذَّكَرِ مع دخولها في البساتين للتنبية على فضلها.

﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ لسكونتكم ﴿مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ ومساكن حال كونكم ﴿فَارِهِينَ﴾ ومنتشطين وطيبين القلوب بالنَّحَتِ، أو حاذقين فيه، فإذا عَلِمْتُمْ أَنَّ الله هو الذي أنعم عليكم بتلك النِّعَمِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الشُّرْكِ وطول الأمل ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في أحكامي التي جنتكم بها من الله ﴿وَلَا تُطِيعُوا﴾ وتَّبِعُوا ﴿أَمْرَ الْمُؤْسِرِينَ﴾ والمفْرَطِينَ في اتباع الشهوات، المتجاوزين عن الحدِّ في حُبِّ اللذات، وهم ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي﴾ هذه ﴿الْأَرْضِ﴾ التي تَسْكُنُونَهَا باشاعة الكفر والعصيان وإضلال الناس وصدِّهم عن الحقِّ ﴿وَلَا يُضْلِحُونَ﴾ أمراً من الأمور، ولا يصدرُ منهم شيءٌ من الخير، بل كلما يصدرُ منهم مَحْضُ الشرِّ وشرٌّ محض، فأجابه قومه و﴿قَالُوا﴾ ردأ عليه وتكديباً له في دعواه الرسالة: يا صالح ﴿إِنَّمَا أَنْتَ﴾ أحد ﴿مِنَ الْمُتَحَرِّينَ﴾ والمغلوبين على عقولهم بكثرة سحر السحرة بهم لما نرى منك من كلمات لا يتفوه بها عاقل، أو المراد إِنَّمَا أَنْتَ من الذين لهم بَطُون يأكلون ويشربون ﴿مَا أَنْتَ﴾ إذن ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا مزية لك علينا، لو كنت مَلَكًا لَكُنَّا نَقْبَلُ دُعَاكَ بلا آية ولا بينة، ولكن لما تحقَّق أنَّكَ بَشَرٌ ﴿فَأَتِ بِآيَةٍ﴾ وَحُجَّةٍ واضحة الدلالة على صحَّة دعواك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيه وقد مرَّ تفصيل اقتراحهم الناقاة في الأعراف^٤.

قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَّرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ

الرَّحِيمُ [١٥٥-١٥٩]

فلما خرجت الناقاة من الصخرة، وبركت بين أيديهم ﴿قَالَ﴾ صالح يا قوم ﴿هَذِهِ﴾ الناقاة التي تَرَوْنَهَا ﴿نَاقَةٌ﴾ افترحموها عليّ، وليكن ﴿لَهَا شِرْبٌ﴾ ونصيب من الماء في يومٍ معينٍ ﴿وَلَكُمْ﴾

١. تفسير روح البيان ٦: ٢٩٨.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٢٩٨.

٣. راجع تفسير الآية (٧٣) وما بعدها من سورة الأعراف.

٤. الكشف ٣/٣٢٨، الدر المنثور ٦/٣١٥.

شَرِبَ يَوْمَ تَغْلُومُ» لا تشرب هذه من نصيبكم، ولا تشربوا أنتم من نصيبها «وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ» ولا تصدوها بمكروه وإيذاء وضربٍ وعقرٍ وقتلٍ «فَيَأْخُذْكُمْ» عند ذلك من قبل الله «عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ» لعظم ما يجل فيه «فَعَقَّرُوهَا» ببغيهم «فَأَضْبَحُوا» بعده «نَادِيبِينَ» عليه لما رأوا من آثار غضب الله عليهم «فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ» الموعود إجمالاً، وهو صيحة جبرئيل ﷺ، فهلكوا جميعاً بها «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَهْلِكَ» الآية» وعبرة عظيمة للناس «وَمَا كَانَ» مع ذلك «أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ» به، قيل: ما آمن به منهم إلا أربعة آلاف^١ «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجَكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ [١٦٠-١٦٨]

ثم ذكر سبحانه قصة لوط بمبالغة في تسلية حبيبه بقوله: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ

الْمُرْسَلِينَ» إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ» وصاحبهم «لُوطٌ» بن هادان نصحاً لهم «أَلَا تَتَّقُونَ» وكيف لا تخافون عذاب الله على الشرك والعصيان «إِنِّي لَكُمْ» من جانب الله «رَسُولٌ أَمِينٌ» على دينكم ودنياكم «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا» في ما أبلغكم من الله «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ».

ثم إنه تعالى بعد إعلامهم برسائله ودعوتهم إلى التوحيد وطاعة الله وإظهار عدم طمعه في أموالهم، وبخهم على عملهم الشنيع من وطئهم الرجال بقوله: «أَتَأْتُونَ» يا قوم «الذُّكْرَانَ» وتطوئونهم أنتم «مِنْ» أهل «الْعَالَمِينَ» ولا يشاركم فيه غيركم، لكونه أفيح القبانع عند كل أحد، أو المراد أتاتون الذكور من أولاد آدم «وَتَذَرُونَ» وتذرون «مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجَكُمْ» ونسائكم، ولا تجمعونهم مع كونهم مخلوقات لاستمتاعكم بهن بأي نحو شئتم «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ» ومتجاوزون عن الحد في جميع المعاصي التي من جملتها هذا العمل الشنيع، أو المراد: بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم هذه الفاحشة، فأجابه قومه و«قَالُوا» تهديداً له: «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ» ولم ترتدع «يَا لُوطُ» عن تعييب عملنا والانكار علينا «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ» من بلادنا

والمنفيين من ديارنا بأسوأ حال ﴿قَالَ﴾ لوط: يا قوم ﴿إِنِّي﴾ أبغض المقام فيكم، واتمنى الخروج من بينكم، لأنني ﴿لِعَمَلِكُمْ﴾ الشنيع من وطئ الرجال ونكاح الذكور ﴿مِنْ أَقْلَالَيْنِ﴾ والمبغضين أشدَّ البغض، فكيف ارتدع عن نهيكهم عنه وإنكاره عليكم بسبب تهديدكم بإخراجي من بينكم، مع أنه غاية أُملي؟

رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَتَجَنَّنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزاً فِى
الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ *
إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ [١٦٩-١٧٥]

ثم أعرَض عنهم وتضرع إلى ربِّه في إخراجهم من بينهم، وخلّص نفسه وأهله من شؤم عملهم بقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي﴾ وخلّصني ﴿وَأَهْلِي مِنْ﴾ سوء ﴿مَّا يَعْمَلُونَ﴾ من العمل الشنيع وعذابه بإخراجي من بينهم ﴿فَتَجَنَّنَاهُ﴾ وخلّصناه ﴿وَأَهْلَهُ﴾ ومن تعلق به ﴿أَجْمَعِينَ﴾ استجابة لدعائه ﴿إِلَّا عَجُوزاً﴾ وامرأة مسنة اسمها والهة على ما قيل^١، فإنها لكفرها ورضاها بعمل القوم بقيت ﴿فِى الْغَابِرِينَ﴾ والباقيين في البلد والعذاب.

رُوي أنها خرجت مع لوط، فلَمَّا سَمِعَت الرَّجْفَةَ التفتت فأصابها حجر فهلكت^٢. وقيل: إنها بقيت في البلد ولم تخرج مع لوط^٣.

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا﴾ وأهلكنا أضع الهلاك وأشدّه ﴿الْآخَرِينَ﴾ من قومه وأهل بلده حيث قلبت عليهم بلادهم وجعل عاليها سافلها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ عجيماً هائلاً وهو مطر الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ والقوم الذين خُوفوا من العذاب ولم يؤمنوا ولم يرتدعوا من ارتكاب الفاحشة. قيل: إنَّ الحاضرين في البلاد أهلكوا بانقلاب بلادهم، والمسافرون منهم أهلكوا بمطر الحجارة^٤. ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ﴾ العذاب المستأصل الذي على هؤلاء القوم ﴿لَآيَةً﴾ وعبرة عظيمة لمن بعدهم، ولمن بقي في الأرض من العصاة ﴿وَمَا كَانَ﴾ مع ذلك ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ مع إبلاغ لوط في النصح ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ به قيل: ما آمن به إلا بتيه وصهره^٥ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ والقادر على تعذيب أعدائه وقهرهم لكنّه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم لإمهالهم.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٢.

١. ٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٢.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٢.

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٧٦ - ١٨٠]

ثم حكى سبحانه كيفية دعوة شعيب، وامتناع قومه من الايمان به بقوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وأهل الغيلة التي كانت بقرب مدين ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ كلهم بتكذيبهم شعيباً، أو كذبوا جميع الرسل ومنهم شعيب المبعوث لدعوتهم ودعوة أهل مدين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ﴾ نصحاً وإنذاراً: يا قوم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله ولا تخافون عقابه على الشرك والعصيان.

في حديث عامي: أن شعيباً أخاً مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة^١.

وروي أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجرٍ ملتفٍّ كان حَمَلُهَا الْمُقْلُ^٢.

ثم قال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله مبعوثٌ لدعوتكم إلى التوحيد وإلى ما هو خيرٌ لكم في الدارين ﴿أَمِينٌ﴾ عنده على وحيه، وعندكم على دينكم ودنياكم، وقد عرفتموني أَنِّي [أدعوكم] إلى الايمان لم أطلب إلا ما هو صلاح حالكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ إذن ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في ما أمركم به، فإن أمرى أمر الله، وطاعتي طاعته، واعلموا أن وظيفتي تبليغ أحكام ربي ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ﴾ ولا أطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ شيئاً ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ وجعل ﴿إِنْ أَجَرْتُ﴾ وما جعلني ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ومالك السماوات والأرضين، لأن عملي له.

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [١٨١ - ١٨٣]

ثم أنه تعالى بعد الاعلان برسالته، ودعوتهم إلى طاعته، واطهار عدم طمعه في دنياهم وأموالهم، شرع في بيان ما أمر بتبليغه من الله إليهم من الأحكام، ونهيهم عما تداول بينهم من أقبح الأعمال بقوله: ﴿أَوْفُوا﴾ للناس ﴿الْكَيْلَ﴾ وأتموه كاملاً إذا استحقوا منكم الكيل ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ والمتقصين لحقوقهم بتنقيص أكيالهم ﴿وَزِنُوا﴾ الموزونات من حقوقهم ﴿بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ والميزان العدل السوي. قيل: إن القسطاس روميّ مرعّب^٣.

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٦٣.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٦٣، الْمُقْلُ: حَمْلُ الدَّوْمِ، وهو يشبه النخل.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٣.

ثم عَمَّ سبحانه النهي عن تنقيص الحقوق سواء أكانت مكيلةً أو موزونةً، أو معدودةً أو غيرها بقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تُنقصوا أموالهم وحقوقهم، [سواء] أكان الحقَّ عيناً كنقص العدد والزرع، أو كيفيةً كدفع الرديء مكان الجيد، أو سلطنةً كمنع المالك عن التصرف في ملكه بالغضب والسرقة، أو ذي الحقَّ عن استيفاء حقه، كمنع الزوجة زوجها عن التمتع بها، وامتناع الزوج من أداء حقوق زوجته ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ ولا تعتدوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ كالقتل والغارة، وقطع الطريق، وإهلاك الزرع، وإشاعة الكفر والعصيان. قيل: كان قومه يفعلون جميع ذلك^١.

وَأَتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ *
وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ [١٨٤-١٨٦]

ثم حَثَّهم على إطاعة تلك الأحكام بقوله: ﴿وَأَتَّقُوا﴾ الله العظيم القادر ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ بقدرته ﴿وَهُوَ﴾ خلق ﴿الْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ والخلائق السابقين فرهبهم عن العصيان بكمال قدرته، ورغبهم في الطاعة ببيان أعظم نعمه من خلقهم وخلق أسلافهم الذين لولاهم لما خُلِقُوا.
ثم أنهم بعد استماع البيانات التي لا تصدر إلا من أعقل الناس، نسبوه إلى الجنون و﴿قَالُوا﴾: يا شعيب ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ والمجانين الذين سحرهم الساحرون مرةً بعد أخرى حتى زال عقلهم ولذا تقول ما تقول. ثم نفوا عنه قابلية الرسالة^٢ بقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ وليس لك فضل علينا، والرسول لابد أن يكون ملكاً مُنْزَهاً من شؤون البشرية ثم صرَّحوا بتكذيبه الذي هو نتيجة المقدماتين بقولهم: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعواك الرسالة.

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا
تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنْ فِى
ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [١٨٧-١٩١]

ثم لما كان شعيب عليه السلام يهددهم بالعذاب على تكذيبه وعدم الايمان به، رتبوا على تكذيبه طلب نزول العذاب عليهم استهزاءً بقولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ وقطعةً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ والسحاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك ووعيدك بالعذاب.

قيل: إنما طلبوا العذاب لاستبعادهم وقوعه، وظنهم بأنه إذا لم يقع ظهر كذبه^١. فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ شعيب: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ من الإصرار على الكفر والتكذيب، فيعامل معكم بما تستحقون، فأمركم مفوض إليه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد وضوح الحق وتامية الحجة كما كذبوه من قبل ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ وشملهم ﴿عَذَابَ يَوْمِ الظَّلَّةِ﴾ حسبما اقترحه.

رؤي أنه حبس عنهم الريح سبعا، وسلط عليهم الرمل، فأخذ بأنفاسهم، لا ينفعهم الظل والماء، فاضطروا إلى الخروج إلى البر، فاظلمت سحابة وجدا لها برداً ونسيماً، فاجتمعوا تحتها، فأمرت عليهم ناراً فاحترقوا^٢ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بعظم ما وقع فيه من العذاب.

روي أنه ﷺ بعث إلى أصحاب مدين وأصحاب الأيكة، فأهلك مدين بصيحة جبرئيل عليه السلام وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة^٣ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ العذاب الهائل ﴿لَآيَةً﴾ وعبرة للناس ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

قيل: لم يؤمن من أصحاب الأيكة أحداً، وإنما آمن به جمع من أهل مدين^٤.

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [١٩٢-١٩٥]

ثم أنه تعالى بعد ذكر القصص التي كان الإخبار بها من النبي الأمي من الإخبار بالمغيبات، أعلن بكون القرآن نازلاً منه بقوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾ بدلالة إعجاز البيان والاشتغال على المغيبات والله ﴿لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا اختلاق البشر ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ بأمره جبرئيل الذي يقال له ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ على وحيه، وتلاه عليك بحيث وعاه قلبك وحفظه كأنه نزل به أولاً ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ ثم على ظاهرك.

وقيل: لما كان المخاطب في الحقيقة القلب لكونه محل التميز والاختبار وسائر الأعضاء مسخرة له^٥، يكون هو محل النزول في الحقيقة، فكأنه قال: نزل عليك بحيث تفهمه حق الفهم ﴿لَتَكُونَ﴾ منذراً ﴿مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ورسولاً من المرسلين الذين أرسلوا ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ واضح المعنى لقومهم، كهود وصالح وشعيب وإسماعيل، أو المراد نزل به على قلبك بلغوة عربية حتى لا يقول قومك: لا تفهم كتابك.

عن أحدهما عليه السلام أنه سئل عنه فقال: «يبين الألسن، ولا تبينه اللسان»^٦.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٥.

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٦٤.

٦. الكافي ٢: ٢٠/٤٦٢، تفسير الصافي ٤: ٥١.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٦٦.

وعن الصادق، عن أبيه عليه السلام قال: «ما أنزل الله تبارك وتعالى كتاباً ولا وحياً إلا بالعربية، فكان يقع في مسامع الأنبياء باللغة قومهم، وكان يقع في مسامع نبيينا عليه السلام بالعربية، فاذا كلم به قومه كلمهم بالعربية، فيقع في مسامعهم بلسانهم، وكان احداً لا يخاطب رسول الله عليه السلام بأي لسان خاطبه إلا وقع في مسامعه بالعربية كل ذلك يترجم جبرئيل عليه السلام عنه تشریفاً من الله عز وجل له»^٢.

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ *
وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ
سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ *
فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ [١٩٦-٢٠٣]

ثم استدلل سبحانه على نزول القرآن منه بقوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾ بمعناه وأوصافه وعلائمه ﴿لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ وكتب الأنبياء السابقين، فإنه تعالى أخبر فيها بنزوله على النبي المبعوث في آخر الزمان، أو المراد أن ذكر النبي كان في الكتب السابقة كما روي أن أهل مكة بعثوا إلى يهود المدينة يسألونهم عن محمد عليه السلام وبعثته، فقالوا: إن هذا لزمانه، وإننا نجد في التوراة نعتة وصفته^٣، فنزل ﴿أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾ ودلالة على صدق محمد عليه السلام وصحة كتابه ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ ويشهد بصدق نبوته أو كتابه ﴿عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كعبدالله بن سلام وأضرابه من أحبارهم.

ثم بين سبحانه أن قريش مع كون القرآن نازلاً بلسان عربي مقترناً بشواهد الصدق كفروا به بقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾ بهذه الفصاحة التي عجزت العرب عن إتيان مثله ﴿عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ الجاهلين بلغة العرب ﴿فَقَرَأَهُ﴾ ذلك الأعجمي ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قراءةً صحيحةً خارقةً للعادة ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أيضاً لفرط عنادهم ولجاجهم مع انضمام القراءة إلى إعجاز العبارة مع عدم احتمال كونه من تقولات الأعجمي.

وقيل: إن المراد لو أنزلنا هذا القرآن بلسان العجم على رجل أعجمي فقرأه على قريش، لامتنعوا من الإيمان به اعتذاراً بعدم فهمه، فأنزلناه بلسانهم قطعاً لغذرهم، ومع ذلك لا يؤمنون به^٤. وعن الصادق عليه السلام: «لو نزلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب، وقد نزل على العرب فأمنت به

٢. علل الشرائع: ١/١٢٦، تفسير الصافي ٤: ٥١.

٤. تفسير أبي السعود ٦: ٢٦٥.

١. في علل الشرائع: أحدنا.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٠٧ و ٣٠٨.

٥. في تفسير القمي: أنزل.

العجم^١ وفيه دلالة على كمال عصبية العرب وفضيلة العجم عليهم بالانصاف.

وقيل: إن المعنى لو أنزلنا القرآن على بعض الحيوانات فقرأه ذلك الحيوان عليهم بلسان فصيح ما كانوا به مؤمنين^٢.

وعن ابن مسعود: أنه سُئل عن هذه الآية فأشار إلى ناقته فقال: هذه من الأعجمين^٣.

﴿كَذَلِكَ﴾ الإنزال بلسان عربي ﴿سَلَكْنَاهُ﴾ وأدخلناه بمعانيه وجهات إعجازه ﴿فِي قُلُوبِ الْمُضْجِرِينَ﴾ المصرين على الكفر، ومع ذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ عناداً ولجاجاً واستكباراً ﴿حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ في الدنيا أو الآخرة، فإذا رأوه يؤمنون به لاجءً واضطراراً، ولا ينفعهم ذلك الايمان، أو المراد كذلك الادخال والسلك للقرون بالتكذيب سلكناه وأدخلناه في قلوب المصرين على الكفر، ولذا لا يؤمنون به حتى يَرَوْا العذاب المُلْجئ لهم إلى الايمان ﴿فَيَأْتِيَهُمْ﴾ ذلك العذاب ﴿بَغْتَةً﴾ وفجأة في الدنيا أو الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت إتيانه ﴿فَيَقُولُوا﴾ عند ذلك تحسراً وتأسفاً على تفریطهم ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ومُتَهَلِّون حتى تندارك ما فرطنا في جنب الله، أو لنؤمن ونصدق.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَفْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ [٢٠٤-٢٠٧]

ثم وبخهم سبحانه على تعجيل العذاب الموعود استهزاء بقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ والتقدير أيستهلون عند نزول العذاب فيعذبنا في الحال ﴿يَسْتَفْجِلُونَ﴾ بقولهم: فاتنا بما تعدنا، ومن المعلوم أن بين الاستعجال والاستمهال غاية التنافي.

ثم نبه سبحانه على عدم فائدة الاستمهال بعد نزول العذاب بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أيها العاقل، وأخبرني ﴿إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ﴾ ونفعناهم بالحياة الدنيا ونعمها ﴿سِنِينَ﴾ متطاولة، أو سنين أعمارهم، أو من بدو الدنيا إلى آخرها ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ وما نفعهم شيئاً ﴿مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ ويتنعمون به من العمر والنعم في الدنيا في رفع العذاب وتخفيفه.

عن الصادق عليه السلام قال: «أرى رسول الله ﷺ في منامه بني أمية يصعدون منبره من بعده، ويُضِلُّون الناس عن الصراط القهقري، فأصبح كئيباً [حزيناً] فهبط عليه جبرئيل عليه السلام فقال: يا رسول الله، مالي

أراك كئيلاً حزيناً؟ قال: يا جبرئيل، إني رأيت بني أمية في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي، ويضلون الناس عن الصراط القهقري، فقال: والذي بعثك بالحق نبياً إن هذا شيء ما اطلعت عليه، فخرج إلى السماء، فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يؤنسه بها قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ الآيات^١.

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ
الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ
لَمَعْمُورُونَ [٢٠٨-٢١٢]

ثم نبه سبحانه على أن عذابه لا يكون إلا بعد إتمام الحجة بقوله: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ ظالمة من القرى بالعذاب ﴿إِلَّا﴾ كان ﴿لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ من النبي والمؤمنين من أتباعه، وإنما كان إنذارهم لأجل أن يكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ وعظة لهم وإتماماً للحجة عليهم ﴿وَمَا كُنَّا﴾ باهلاكمهم في حال جهلهم ووجود العذر لهم ﴿ظَالِمِينَ﴾ بهم، بل كان مخض العدل.

ثم أنه تعالى بعد بيان أن القرآن تنزيل رب العالمين لاشتماله على إعجاز البيان والإخبار بالمغيبات من ذكر قصص الأنبياء كما هي في زبر الأولين مع كون النبي أمياً، دفع قول القائلين بأنه من إلقاءات الشياطين كسائر ما نزل على الكهنة بقوله: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وما أتت به مردة الجن ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ وما يصح منهم إنزاله، مع اشتماله على المعارف والعلوم الحقة الحقيقية وجدهم فيه ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك أصلاً لأنهم لا يمكنهم العلم بالحقائق والمغيبات إلا بالسَّمْع من الملائكة و﴿إِنَّهُمْ﴾ بالشَّهْب ﴿عَنِ السَّمْعِ﴾ من الملائكة ﴿لَمَعْمُورُونَ﴾ وممنوعون، ولو كانوا غير معزولين عن السمع لنزلوا بمثله على الكهنة والكفار مع كمال ارتباطهم بهم والمودة بينهم، ولم ينزلوا على النبي ﷺ الذي هو أعدى عدوهم وهم أعدى عدوه، لأنه يلعنهم ويذمهم دائماً ويصرف الناس عن أتباعهم.

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ
الْأَقْرَبِينَ [٢١٣ و ٢١٤]

ثم أنه تعالى بعد إثبات كون القرآن العظيم نازلاً من رب العالمين بتوسط جبرئيل، دعا الناس إلى التوحيد المقصود من إنزاله بنهي نبيه عن الاشرار الدال على إرادة نهى أمته عنه بقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ﴾ ولا تعبُد يا محمد ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ المنزِل للقرآن ﴿إِلَهُاً آخَرَ﴾ ومعبوداً غيره ﴿فَتَكُونُ﴾ إذن مع كمال قُربك من الله ومحبيبتك عنده ﴿مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ بأشد العذاب، فكيف بغيرك؟ ثم بعد نهية عن الشرك وإنذاره وتحذيره عنه، أمره بإنذار أقاربه الأقرب فالأقرب بقوله: ﴿وَأَنْذِرْ﴾ وخَوْف من عقاب الله على الشُّرك وعصيانهِ ﴿عَشِيرَتِكَ﴾ وأرحامك ﴿الْأَقْرَبِينَ﴾ منهم فالأقربين، لأن الاهتمام بشأنهم أهم، فالبدء بإنذارهم أولى، ولأن تأثير كلامه في الأجانب والأبعدين بعد التشدد على نفسه، ثم على الأقرب فالأقرب منه أشد.

روي أنه لما نزلت [هذه] الآية صَعِدَ ﷺ الصَّفا فنَادَى الأقرب فالأقرب، وقال: يا بني عبدالمطلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، يا عباس عمَّ محمد، يا صفية عمَّة محمد، إني لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من المال ما شئتم^١.

وفي رواية قال: «افتدوا أنفسكم من النار، فأني لا أغني عنكم من الله شيئاً^٢، أطيعوني واعترفوا بتوحيد الله ورسالتي تنجوا من العذاب، وسلوني من المال ما شئتم.

وفي رواية: [أنه] جمع بني عبدالمطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً على رجل شاة وقَعِب^٣ من لبن، وكان الرجل منهم يأكل الجَدعة ويشرب العُس^٤، فأكلوا وشربوا ثم قال: «يا بني عبدالمطلب، لو أخبرتمكم أن يَسْفَحَ هذا الجبل خيلاً أكنتم مُصَدِّقِي؟» قالوا: نعم. فقال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»^٥.

وروي عن البراء بن عازب^٦ أنه لما نزلت الآية أرسل النبي ﷺ إلى بني عبدالمطلب، فجمعوا في دار عمِّه أبي طالب، وكانوا أربعين رجلاً، فأمر علياً ﷺ أن يطبخ لهم فَخْذَ شاة ومُدّاً من حِنطة فوضع الطعام عندهم، وأتاهاهم بصاع من لبن، وكان كلُّ منهم يأكل جَدْعاً^٧ ويشرب عليه عَساً من لبن، فلما رأوا الطعام الذي أحضره علي ﷺ عندهم صَحَّحُوا وقالوا: هذا الطعام لا يكفي واحداً ممَّا فقال النبي ﷺ: «كُلُوا بِسْمِ اللَّهِ» فأكلوا منه عشرة عشرة حتَّى شَبِعُوا، فقال: «اشربوا بِسْمِ اللَّهِ» فشربوا الصاع من اللبن حتَّى رَوُوا جميعاً، فلما رأوا ذلك المُعْجِز قال أبو لهب: هذا ما سحركم به الرجل فسكت

٢. تفسير روح البيان ٦: ٣١١.

٤. العُس: القَدَح الكبير. ٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٧٣.

٧. الجَدْع من الضأن: ما بلغ ثمانية أشهر أو تسعة.

١. تفسير الرازي ٢٤: ١٧٢.

٣. القَعِب: القَدَح الضخم الغليظ.

٦. في النسخة: عن غارب.

النبي ﷺ فقاموا وذهبوا، ثم دعاهم في يومٍ آخر، وأحضر لهم مثل ذلك الطعام والشراب، فأكلوا وشربوا، ثم قام النبي ﷺ وقال: «يا بني عبدالمطلب، إن الله بعثني إلى الخلق كافةً وإليكم خاصة فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين على الميزان تَمْلِكُون بهما العرب والعجم، وتقاد لكم بهما الأمم، وتدخُلون بهما الجنة، وتنجون بهما من النار، شهادة أن لا إله إلا الله، وإني رسول الله، فمن يُجيبني إلى هذا الأمر، ويؤازرنِي إلى القيام به يكن أخي ووزيرِي ووارثِي وخليفتي من بعدي؟» فما أجابه أحدٌ إلا عليٌّ عليه السلام فأنه قام وقال: «أنا أوأزرك على هذا الأمر» وهو أصغرهم سنًا وأحمشهم ساقًا، وأمرضهم عينًا، فقال له النبي ﷺ: «اجلس؟»

ثم أعاد النبي ﷺ كلامه، فلم يُجبه أحدٌ، فقام عليٌّ عليه السلام وقال: «أنا أنصرك يا رسول الله» فقال: «أجلس يا علي، فإنك أخي ووصيِّي ووزيرِي ووارثِي وخليفتي من بعدي» فقام القوم وقالوا لأبي طالب استهزاءً: «أطع ابنك فقد أمر عليك»^١.

وروى العلامة ﷺ في (نهج الحق) عن (مسند [أحمد بن] حنبل): لَمَّا نَزَلَ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ جمع النبي ﷺ من أهل بيته ثلاثين رجلاً، فأكلوا وشربوا [ثلاثاً] ثم قال لهم: «مَنْ يَشْمَن عَنِّي ديني ومواعيدي، ويكون خليفتي، ويكون معي في الجنة» فقال عليٌّ عليه السلام: «أنا» فقال: «أنت». قال ﷺ: ورواه الثعلبي في (تفسيره) وزاد: يعيد ثلاث مرات في كل مرة يسكت القوم غير عليٍّ عليه السلام^٢.

وقال بعض المحققين: إن لفظ (ديني) بكسر الدال، لأنه لم يكن على النبي ﷺ عند وفاته دينٌ. وعن أبي رافع أنه جمع النبي ﷺ بني عبدالمطلب، وطبخ لهم فخذ شاة، فأكلوا منه وشبعوا كلهم، ثم أعطاهم قَدْحاً من اللبن فشرَبوا، ثم قال: «إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأنتم عشيرتي ورَفْطِي، وإن الله لم يبعث نبياً إلا جعل له من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصياً وخليفةً في أهله، فأينكم يقوم فيبايعني على أنه أخي ووارثِي ووزيرِي ووصيِّي، ويكون مِنِّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» ثم قال: «القوم قانمكم أو ليكونن من غيركم» فأعاد هذا الكلام ثلاثاً، فقام عليٌّ عليه السلام فبايعه، ثم قال: «ادُّ مِنِّي يا علي» فدنا منه، ففتح فاه فبزق في فمه، وتفل بين كتفيه وبين يديه، فقال

١. أي أدفعهم.

٢. مجمع البيان ٧: ٣٢٢، الطرائف: ٢٠/١٣، تأويل الآيات: ١/٣٩٤، بحار الأنوار ٣٨: ١١١/١٤٤، و: ٤٦/٢٥١.

٣. مسند أحمد ١: ١١١، كشف الحق: ٢/٢١٣، تاريخ الطبري ٢: ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٦٣، معالم التنزيل ٤:

٢٧٨، شرح النهج ١٣: ٢١٠، كنز العمال ١٣: ٣٦٤١٩/١٣١.

٤. كشف المراد: ٣٩٦ «نحوه».

أبو لهب بنس ما حَبَوْتَ ابنَ عَمِّكَ أَنْ أَجَابَكَ فَمَلَأَتْ فَاهُ وَوَجْهَهُ بَزَاقًا. فقال النبي ﷺ: «ملأته حكمةً وعلمًا»^١.

وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ
مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ جِئِينَ تَقُومُ * وَتَقْلِبُكَ
فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٢١٥-٢٢٠]

ثمَّ أَمَرَ اللهُ بَعْدَ أَمْرِ نَبِيِّهِ ﷺ بِإِذَارِ الْأَقْرَبِينَ مِنْ عَشِيرَتِهِ أَمْرَهُ بِحَسَنِ الْعِشْرَةِ وَالتَّوَاضُعِ لِعُمُومِ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وَلِتَيْنِ جَانِبِكَ وَتَوَاضِعِ ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ وَأَطَاعِ أَمْرَكَ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِكَ.

عَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَالَ: «قَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى أَعَزَّ خَلْقِهِ وَسَيِّدَ بَرِيَّتِهِ مُحَمَّدًا ﷺ بِالتَّوَاضُعِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَالتَّوَاضُعُ مَزْرَعَةُ الْخُشُوعِ^٢ وَالْخَشْيَةِ وَالْحَيَاءِ، وَانْهَن لَّا يَتَّبِعَنَّ إِلَّا مِنْهَا وَفِيهَا، وَلَا يَسْلَمْ الشَّرَفَ الْحَقِيقِي إِلَّا لِلْمُتَوَاضِعِ فِي ذَاتِ اللهِ تَعَالَى»^٣.

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ بِالتَّبَرُّيِّ مِنَ الْعِصَاةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ وَخَالَفُوا حُكْمَكَ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْمَعَاصِي بِلا خَوْفٍ مِنْ كَيْدِهِمْ وَضُرَرِهِمْ ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ فِي جَمِيعِ حَالَاتِكَ ﴿عَلَى﴾ اللهِ ﴿الْعَزِيزِ﴾ الْقَادِرِ الْقَاهِرِ لِأَعْدَائِهِ ﴿الرَّحِيمِ﴾ بِأَوْلِيَانِهِ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ بِالنَّصْرِ وَالتَّائِيدِ، فَيَنْصُرُهُمْ وَيَكْفِيهِمْ شَرَّ كُلِّ ذِي شَرٍّ.

ثُمَّ وَصَفَ ذَاتَهُ الْمَقْدَسَةَ بِالْعِلْمِ الْكَامِلِ بِأَحْوَالِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يَرَاكَ جِئِينَ تَقُومُ﴾ بِوُضَائِفِ النُّبُوَّةِ، أَوْ لِلصَّلَاةِ بِالنَّاسِ جَمَاعَةً، أَوْ لِلتَّهَجُّدِ، أَوْ لِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ﴿وَتَقْلِبُكَ فِي﴾ تَصَفِّحِ أَحْوَالِ ﴿السَّاجِدِينَ﴾ وَالْعَابِدِينَ لِتَطَّلِعَ عَلَى أَسْرَارِهِمْ.

قِيلَ: لَمَّا نَسِخَ فَرَضَ قِيَامِ اللَّيْلِ، طَافَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) تِلْكَ اللَّيْلَةَ بِبُيُوتِ أَصْحَابِهِ، لِيَنْظُرَ عَلَى مَا يَبِيتُونَ^٤، لِحِرْصِهِ عَلَى طَاعَتِهِمْ، فَوَجَدَهَا كَبُيُوتَ الزَّنَائِرِ، لَمَّا سَمِعَ مِنْهَا مِنْ دَنَدَنَتِهِمْ^٥.

أَوِ الْمُرَادُ نَرَى تَصَرُّفَكَ فِيمَا بَيْنَ الْمَأْمُومِينَ^٦ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^٧، أَوْ تَقْلِبُكَ فِي الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَلِّينَ لِكِفَايَةِ أُمُورِ الدِّينِ، أَوْ تَقْلِبُكَ فِي أَصْلَابِ آبَائِكَ الْمُؤْمِنِينَ، أَوِ النَّبِيِّينَ، كَمَا عَنْ ابْنِ

١. مجمع البيان ٧: ٢٢٣، تأويل الآيات ١: ١٩/٣٩٣، بحار الأنوار ٣٧: ٤١/٢٧١.

٢. زاد في مصباح الشريعة: والخضوع. ٣. مصباح الشريعة: ٧٤، تفسير الصافي ٤: ٥٤.

٤. في تفسير الرازي: لينظر ما يصنعون. ٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٧٣.

٦. في مجمع البيان: ويرى تصرفك في المصلين. ٧. مجمع البيان ٧: ٣٢٣.

عباس أيضاً^١.

﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأذكرك وأقولك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائر ونياتك.

عن الباقر عليه السلام: «الذي يراك حين تقوم في النبوة ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال: أصلاب النبيين»^٢.
وعنه عليه السلام: قال: «في أصلاب النبيين نبي بعد نبي حتى أخرجه من صلب أبيه عن نكاح غير سيفاح من لذن آدم»^٣.

وعن الباقر عليه السلام: قال: «قال رسول الله ﷺ: لا ترفعوا قبلي - يعني رؤوسكم^٤ - فإني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي، ثم تلا هذه الآية»^٥.

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ
السَّمْعَ وَكَثُرُهُمْ كَاذِبُونَ [٢٢١-٢٢٣]

ثم أنه تعالى بعد بيان عدم قدرة الشياطين على إنزال القرآن، بين أنهم لا ينزلون على النبي الذي هو عدوهم ومخالفهم، بل ينزلون على أوليائهم وأتباعهم بقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ وأخبركم أيها المشركون ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ اعلموا أنه ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ دائم العصيان، فإنهم ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ إلى الشياطين فيتلقون منهم ما يؤخون إليهم، أو المراد أنهم يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس ﴿وَكَثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ في ما يخبرون عن الشياطين، مفترون عليهم ما لم يؤخروا إليهم ولم يسمعوا منهم، وأما القليل منهم يكتبون بذكر ما سمعوا بزيادة عليه، وإن كانوا في سائر أخبارهم كاذبين.

وقيل: إن المراد بالقليل سطوح وشقّ وسواد بن قارب الذين كانوا يخبرون بالنبي ويصدقونه^٦ ويشهدون بنبوته، ويدعون الناس إليه^٧.

وقيل: إن المراد من أكثرهم أكثر أقاويلهم لا أشخاصهم، فيُطابق الأفاكين^٨.

وقيل: إن المراد من أكثرهم كلهم^٩.

١. متشابه القرآن ومختلفه لابن شهر آشوب ٢: ٦٤. ٢. تفسير القمي ٢: ١٢٥، تفسير الصافي ٤: ٥٤.

٣. مجمع البيان ٧: ٣٢٤، تفسير الصافي ٤: ٥٤.

٤. في مجمع البيان وتفسير الصافي: قبلي، ولا تضعوا قبلي.

٥. مجمع البيان ٧: ٣٢٤، تفسير الصافي ٤: ٥٤.

٦. في تفسير روح البيان: كانوا يلهمون بذكر رسول الله وتصديقه.

٧. تفسير روح البيان ٦: ٣١٤. ٨. تفسير روح البيان ٦: ٣١٤.

٩. تفسير روح البيان ٦: ٣١٤.

وحاصل المراد أن الأفاكين يُلْقُونَ آذَانَهُمْ إلى الشياطين فيتَلَقُونَ منهم أو هاماً لنقص عقولهم، فيَضْمُونَ إليها بحسب تخيلاتهم الباطلة خرافات لا يطابق أكثرها الواقع، فأين حال هؤلاء من محمد الصادق الذي لم يصُدَّر منه كذب في ما أخبر به من المعيّبات وغيرها.

وقيل: إنَّ المعنى أنَّ الشياطين يُلْقُونَ السمع إلى الملائكة الأعلى فيختطفون من الملائكة بعض ما يتكلمون به من المعيّبات، ثمَّ يُوحون به إلى أوليائهم، وأكثرهم كاذبون في ما يُوحون به إليهم، لأنهم لم يسمعوا من الملائكة جميع ما يُوحون إلى أوليائهم^١.

أو المراد أنهم يُلْقُونَ السمع، أي المسموع من الملائكة إلى أوليائهم^٢.

عن الباقر عليه السلام: «ليس من يومٍ ولا ليلةٍ إلَّا وجميع الجنِّ والشياطين تزور أئمة الضلال ويزور عدهم من الملائكة أئمة الهدى، حتى إذا أتت ليلة القدر، فيهِطُ فيها من الملائكة إلى وليِّ الأمر عدد خلق الله، وقد قَيَّضَ الله عزَّ وجلَّ من الشياطين بعددهم، ثمَّ زاروا وليَّ الضلالة^٣ فاتوه بالآفك والكذب حتى يُصبح ليلة^٤ فيقول: رأيت كذا وكذا، فلو سألت وليَّ الأمر عن ذلك لقال: رأيت شيطاناً أخبرك بكذا وكذا حتى يُفسَّر له تفسيراً، ويعلمه الضلالة التي هو عليها»^٥.

وعن الصادق عليه السلام - في هذه الآية - قال: «هم سبعة: المغيرة، وبنان، وصاند، وحمزة بن عماره البريري، والحارث الشامي، وعبدالله بن الحارث، وأبو الخطاب»^٦.

وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ
مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا
مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ [٢٢٤-٢٢٧]

ثمَّ أنه تعالى بعد بيان الفرق بين الكاهن والنبي في جواب القائلين بنزول القرآن على محمد صلى الله عليه وآله بتوسط الشياطين كنزول الكهانة على الكهنة، أجاب سبحانه القائلين بأنَّ محمدًا صلى الله عليه وآله شاعرٌ من الشعراء ببيان الفرق بين النبيِّ والشاعر بقوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ والضاوون، ومحمد صلى الله عليه وآله يتبعه الراشدون.

رُوي أنَّ شعراء العرب^٧ كابن الرُّبْعَرِي، وأبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وهبيرة بن أبي

٣. في النسخة: أئمة الضلال.

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٧٤.

٤. في الكافي وتفسير الصافي: حتى لعله يصبح.

٥. الكافي ١: ٩/١٩٧، تفسير الصافي ٤: ٥٥.

٦. الخصال: ١١١/٤٠٢، تفسير الصافي ٤: ٥٥.

٧. في مجمع البيان وجوامع الجامع: المشركين.

وهب المخزومي، ومُسافِع بن عبد مَنَاف الجُمحي، وأبو عَزَّة عمرو^١ بن عبد الله، كلّموا أُمّية ابن أبي الصلت الثقفي بكِذِب وبُطلان^٢ وقالوا: نحن نقول مثل ما قال محمد، فقال الشعراء أشعاراً في هجو النبي ﷺ وذمّ الاسلام، فاجتمع عليهم عُوة قریش، وسَمِعوا أشعارهم وحَفَظوها، وكانوا يُنشدونها فنزلت^٣.

وقيل: إنّه كان في عهد النبي ﷺ شاعران تخاصما، فهجا كلّ منهما الآخر، كان أحدهما من الأنصار والآخر من غيرهم، وكان مع كلّ منهما جمّع يُعاونوه فنزلت^٤.

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ المراد بالشعراء الكفّار الذين هجوا رسول الله ﷺ وأنشدوا أشعارهم، فاتبعهم جمّع من الكفّار حين يُنشدونها»^٥.

وعن ابن عباس: أريد بالشعراء الشياطين، فإنّ العرب كانوا يقولون: الشعراء تبعّة الشياطين^٦. وعن الباقر عليه السلام: «في هذه الآية -: «هل رأيت شاعراً يتبعه أحد؟ إنما هم قومٌ تفقّهوا الغير الله فضّلوا وأضلّوا»^٧.

وعن الصادق عليه السلام: «هم قومٌ تعلّموا وتفقهوا بغير علم فضّلوا وأضلّوا»^٨.

وعنه عليه السلام: أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «هم القُصّاص»^٩.

وقيل: إنّ المراد بالشعراء في الآية الذين شغلّهم الشعر عن القرآن والسنة^{١٠}.

وقيل: إنهم الذين إذا غَصِبوا شتموا، وإذا قالوا شعراً كان شعرهم الكذب والبهتان ومدح الناس بما ليس فيهم بقصد الصلة والجائزة أو لحميّة الجاهلية»^{١١}.

ثمّ بيّن سبحانه غاية غوايتهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها العاقل ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ ومسلّك في فنّ الكلام من المدح والدّم والجدل والغزل والحماسة وغيرها ﴿يَهيمُونَ﴾ ويذهبون على وجوههم إلى سبيل غير معيّن كالمتحير، أو المراد أنّهم يتحیرون في أودية المقال والوهم والخيال والغّي والضلال كالبهائم الضالة، حيث إنهم يمدحون الشيء بعد أن ذمّوه، ويُعظّمونه بعد أن استحقروه وبالعكس. القمي: يتناظرون بالأباطيل، ويُجادلون بحجج المضلّين^{١٢}، وفي كلّ مذهبٍ يذهبون^{١٣}.

١. في النسخة: أبو غرة عمر.

٣. مجمع البيان ٧: ٣٢٥، جوامع الجامع: ٣٣٤.

٤. الدر المنثور ٦: ٣٣٣، تفسير روح المعاني ١٩: ١٤٦.

٦. تفسير أبي السعود ٦: ٢٧٠، جوامع الجامع: ٣٣٤.

٨. مجمع البيان ٧: ٣٢٥، تفسير الصافي ٤: ٥٥.

٧. معاني الأخبار: ١٩/٣٨٥، تفسير الصافي ٤: ٥٥.

٩. اعتقادات الصدوق: ١٠٩، تفسير الصافي ٤: ٥٥.

١٠ و ١١. مجمع البيان ٧: ٣٢٥.

١٣. تفسير القمي ٢: ١٢٥، تفسير الصافي ٤: ٥٦.

١٢. في المصدر: بالبحجج المضلة.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ بَأَن يَعْظُوا النَّاسَ وَلَا يَتَّعِظُونَ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ لَا يَنْتَهُونَ، وَيُرْغِبُونَ النَّاسَ فِي الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ وَلَا يَتَخَلَّقُونَ بِهَا، وَفِي الْأَعْمَالِ الْخَيْرِيَةِ وَلَا يَسْعَى لَهَا، بِخِلَافِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهُ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ، وَالتَّرْغِيبُ فِي الْآخِرَةِ، وَالتَّزْهِيدُ عَنِ الدُّنْيَا، وَبَدَأَ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ حَيْثُ قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمَعْذِبِينَ﴾^١ ثُمَّ بِالْأَقْرَبِينَ مِنْهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَانْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^٢ وَكُلَّ ذَلِكَ مُخَالَفٌ لَطَرِيقَةِ الشُّعْرَاءِ، فَعَلِمَ أَنَّهُ ﷺ لَيْسَ بِشَاعِرٍ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ لَمَّا نَسَبَ الْمُشْرِكُونَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ مِنْ حَيْثُ الْإِخْبَارُ بِالْمَغِيبَاتِ إِلَى الْكِبَاهِنَةِ وَقَالُوا: إِنَّمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ، وَمِنْ حَيْثُ فَصَاحَةُ الْكَلَامِ وَبَلَغَتْهُ إِلَى الشُّعْرِ وَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا شَاعِرٌ، رَدَّ اللَّهُ الْخَوَافِتَيْنِ بَيَانِ مَنَافَةِ الْكِبَاهِنَةِ وَالشَّاعِرِيَةِ لِحَالِ الرُّسُولِ الْعَاقِلِ الْكَامِلِ الصَّادِقِ التَّارِكِ لِلْهَوَى وَالدُّنْيَا. ثُمَّ أَنَّهُ رَوَى أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَاتُ الدَّائِمَةُ لِلشُّعْرَاءِ قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَابْنُ رَوَاحَةَ وَجَمَعَ مِنْ شُعْرَاءِ الصَّحَابَةِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّا شُعْرَاءُ، وَنَخَافُ أَنْ نَمُوتَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، وَنُحَسِّبَ مِنْ أَهْلِ الْعَوَايَةِ وَالضَّلَالَةِ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ مُجَاهِدٌ بِسَيْفِهِ وَلِسَانَهُ» فَنَزَلَتْ^٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الَّتِي مِنْهَا مَدَحُ النَّبِيِّ وَدِينِ الْإِسْلَامِ وَهَجْوُ الْكُفَّارِ وَنَصْرَةُ الرُّسُولِ ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ﴾ بِأَشْعَارِهِمْ ذَكَرَ «كَثِيرًا» بَأَن كَانَتْ فِي إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ، وَبَيَانِ الْمَعَارِفِ، وَصِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَدْحِهِ وَمَدْحِ الْمُعْصومِينَ مِنْ آلِهِ وَتَرْغِيبِ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ وَزَجْرِهِمْ عَنِ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَالتَّزْهِيدِ فِي الدُّنْيَا وَالتَّرْغِيبِ فِي الْآخِرَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ وَنَظَائِرِهَا ﴿وَأَنْتَصِرُوا﴾ وَانْتَقِمُوا مِنَ الْكُفَّارِ بِهَجْوِهِمْ ﴿مِنْ يَغْدِي مَا ظَلَمُوا﴾ مِنْ قَبْلِهِمْ بِالْهَجْوِ وَالْإِيذَاءِ. رَوَى أَنَّهُ لَمَّا هَجَا الْمُشْرِكُونَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَتِ الصَّحَابَةُ: مَا مَنَعَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَنْصُرُونَ النَّبِيَّ ﷺ بِسُيُوفِهِمْ أَنْ يَنْصُرُوهُ بِاللِّسَانِ، فَقَالَ حَسَّانُ بْنُ رَوَاحَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَكْفِيهِمْ. فَقَالَ ﷺ: «أَهْجُوهُمْ وَرُوحُ الْقُدُسِ مَعَكُمْ»^٤.

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ ﷺ لِحَسَّانٍ: «أَهْجِ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ جَبْرِئِيلَ مَعَكَ»^٥.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ لِحَسَّانٍ: «أَهْجِهِمْ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهْوَ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ [رَشَقِ] النَّبْلِ»^٦.

١. الشعراء: ٢١٣/٢٦. ٢. الشعراء: ٢١٤/٢٦.

٣. مجمع البيان ٧: ٣٢٦، الدر المنثور ٦: ٣٣٤، تفسير الصافي ٤: ٥٧.

٤. مجمع البيان ٧: ٣٢٦. ٥. تفسير روح البيان ٦: ٣١٧.

٦. تفسير الرازي ٢٤: ١٧٦.

وعن الشعبي أنه قال: كان أبو بكر يقول الشعر، وكان عمر يقول الشعر، وكان عثمان يقول الشعر، وكان عليّ أشعر الخلفاء^١.

ثم هدد الله الهاجيين للرسول والمؤمنين بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ البتة الكفار ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم بهجو النبي ﷺ والمؤمنين، أو عليهم بهجوهم وإيذائهم ﴿أَيُّ مُتَقَلِّبٍ﴾ ومرجع، أو أي رجوع بعد الموت ﴿يَتَقَلَّبُونَ﴾ ويرجعون، ولا يخفى أن في هذا الإيهام تهويلاً عظيماً ودلالة على أن مكانهم في جهنم أسوأ الأمكنة، وعذابهم فيها أشد العذاب.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ^٢ الطواسين^٣ في ليلة الجمعة، كان من أولياء الله وفي جواره وكنفه^٤، ولم يصبه في الدنيا بؤس أبداً، وأعطى في الآخرة من [الأجر] الجنة حتى يرضى وفوق الرضا^٥، وزوجه الله مائة زوجة^٦ من الحور العين»^٧.

نسأل الله التوفيق لتلاوتها، ونشكره على التوفيق لإتمام تفسير السورة المباركة.

١. مجمع البيان ٧: ٣٢٦، وفيه: أشعر من الثلاثة.

٢. زاد في ثواب الأعمال: سورة، وفي تفسير الصافي: سور.

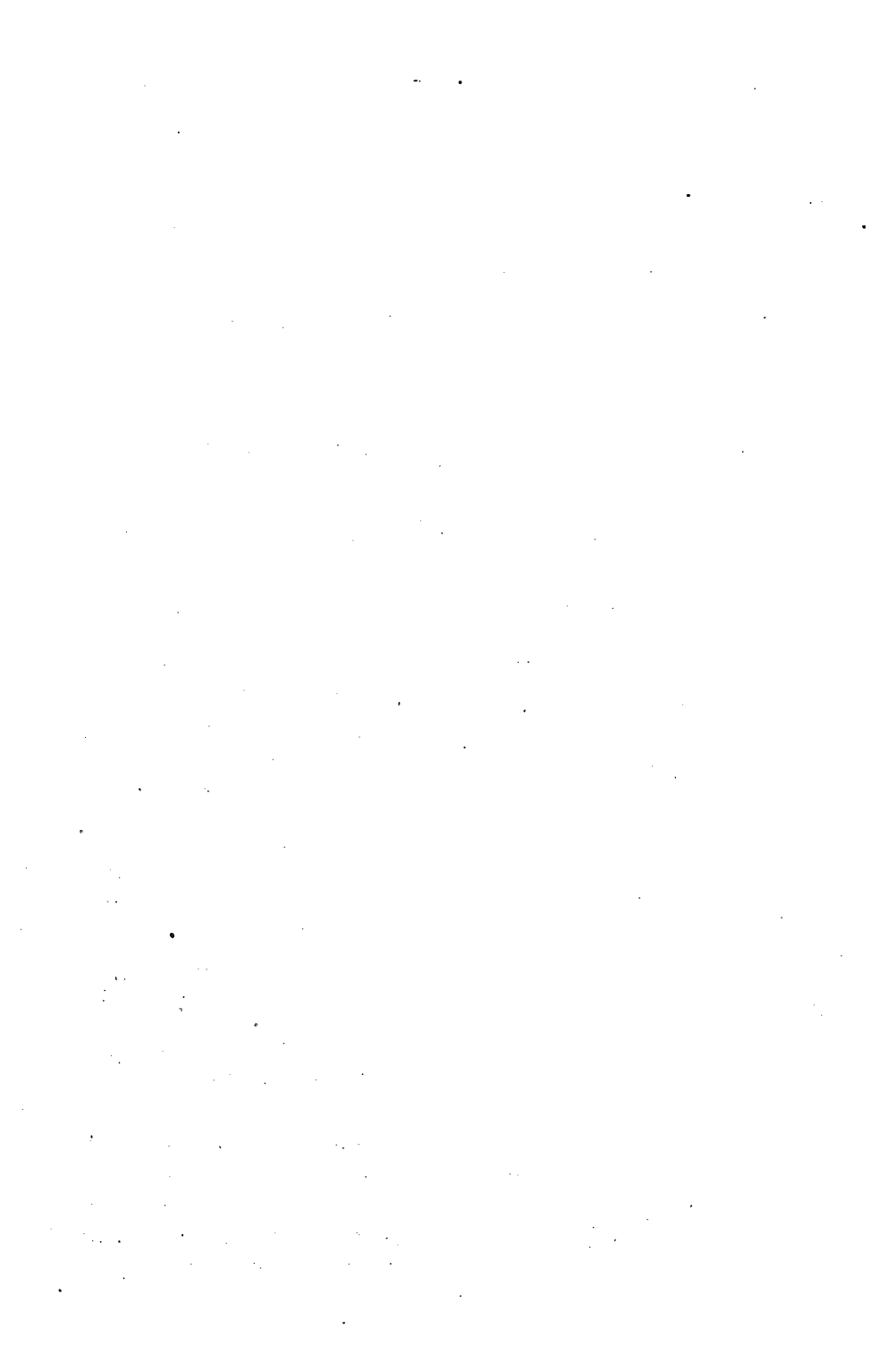
٣. زاد في مجمع البيان وتفسير الصافي: الثلاث، وفي ثواب الأعمال: الثلاثة.

٤. زاد في مجمع البيان: وأسكنه الله في جنة عدن وسط الجنة مع النبيين والمرسلين والوصيين الراشدين.

٥. في ثواب الأعمال ومجمع البيان وتفسير الصافي: رضاه.

٦. في مجمع البيان: حوراء.

٧. ثواب الأعمال: ١٠٩، مجمع البيان ٧: ٢٨٦، تفسير الصافي ٤: ٥٧.



في تفسير سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [١-٣]

لَمَّا خَتَمَ سبحانه سورة الشعراء بدفع نسبة الكهانة والشعر عن القرآن العظيم، ومدح المؤمنين به، وتهديد الظالمين الهاجين له وللرسول والمؤمنين، أردفها في السَّطَم بسورة النمل المُفتتحة والمُختتمة بمدح القرآن وتعظيمه، وبيان فوائده المهمة وفصله، المتضمنة لكثير من المطالب التي تضمنتها السورة السابقة من بيان كيفية بعثة موسى ﷺ ودعوته لفرعون، وإظهاره المعجزات الباهرات، وقصة صالح ولوط، وبيان التوحيد والمعاد وغيرها، فابتدأها بذكر أسمائه المباركة بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم افتتحها بالحروف المقطعة من قوله: ﴿طَسَ﴾ لما مرَّ في بعض الطرائف من التُّكْت^١ وقيل: معناه الطاهر السني، وأنا اللطيف السميع^٢.
عن الصادق عليه السلام: «أنا الطالب السميع»^٣.

وعن ابن عباس: أنه اسم من أسماء الله أقسم به على أن ﴿تِلْكَ﴾ السورة أو الآيات التي فيها ﴿آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ الذي بشر به الأنبياء السابقون، وعُرفَ بعِظَمِ القدر وعُلُوِّ الشأن ﴿و﴾ آيات ﴿كِتَابٍ﴾ لا يُشابهه كتاب ﴿مُبِينٍ﴾ ومُظهر ما في تضاعيفه من المعارف والحكم والأحكام واليعبر وبيان أحوال الآخرة، أو ظاهر إعجازه وصدقه لكل أحد.

ثم بالغ سبحانه في إصافه بكونه هادياً ومبشراً بقوله: ﴿هُدًى﴾ بالبراهين إلى الحق وجميع الخيرات ﴿وَبُشْرَى﴾ برحمة الله ورضوانه ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به فأنهم المتفعون بما فيه وهم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ حق الإقامة ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الواجبة، ويؤتونها لمستحقَّيها، ويَصْرِفونها في

٢. تفسير الصافي ٤: ٥٨، تفسير روح البيان ٦: ٣١٨.

٤. مجمع البيان ٧: ٢٨٨.

١. راجع: الطرفة (١٨) من مقدمة المؤلف.

٣. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٤: ٥٨.

مصارفها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ ودار جزاء الأعمال ﴿هُمْ يُوقْتُونَ﴾ حق الإيمان، ولذا يجتهدون في الطاعات البدنية التي أهمها الصلاة، والعبادات المالية التي أهمها الزكاة رجاء الثواب وخوفاً من العقاب، وإنما أتى بضمير الجمع للإشارة إلى اختصاصهم بهذا اليقين ووصفهم بهذا الوصف لإخراج من يظهر الإيمان ويعمل تلك الأعمال مع الشك احتياطاً.
وقيل: إن الجملة^١ اعتراضية، والمعنى أن المؤمنين العاملين هم الموقنون بالمعاد^٢.

أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ * وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ [٤-٦]

ثم أنه تعالى لما خصَّ البشري بالمؤمنين الموقنين بالآخرة، ذمَّ الكفار وذكر ما خصَّ بهم من العذاب الشديد بقوله ﴿أَنَّ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ الحسنة ببيان كثرة ثوابها وترغيبهم إليها، أو أعمالهم القبيحة بأن جعلناها مشتهاة لطباعهم محبوبة لأنفسهم، أو بأن سلبنا عنهم التوفيق للأعمال الخيرية الموجبة لسلطنة الشيطان عليهم، وترغيبه لهم، وتزيينه الأعمال السيئة في نظرهم ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ عنها ولا يدركون ما يتبعها من الثواب على الوجه الأول، أو من العقاب على الوجه الثاني، أو المراد يترددون في الاشتغال بالقبائح والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يترتب عليها من الضرر والعقوبة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وشديده في الدنيا، أو في الآخرة ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ والأغبون لتضييعهم العمر والعقل للذين هما بمنزلة رأس المال، وتفويتهم الثوبات العظيمة، وتحصيلهم العقوبات الشديدة، فلا يغدِّلهم خاسر.

ثم أنه تعالى بعد تعظيم القرآن وبيان فوائده وكثرة علومه، صرح بكونه نازلاً منه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَلْقَى﴾ ولتلقى ﴿الْقُرْآنَ﴾ وتأخذه بتوسط جبرئيل ﴿مِنْ لَدُنْ﴾ إله ﴿حَكِيمٍ﴾ أي حكيم و﴿عَلِيمٍ﴾ أي عليم! فبحكمته بين فيه المعارف والأحكام، ويعلمه ذكر فيه القصص والعبر الكثيرة.
قيل: إن هذا تمهيد لما يريد أن يسوق بعده من القصص، فكانه تعالى قال: خُذْ مِنْ آثَارِ حِكْمَتِهِ وعلمه قصة موسى عليه السلام المشتملة على العلوم النظرية من توحيده وقدرته وسائر صفاته الكمالية^٣.

١. في النسخة: الجملتين.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٠.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٧٨، تفسير البضاوي ٢: ١٧٠، تفسير روح البيان ٦: ٣١٩.

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا
وُسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٨ و ٧]

ثم شرع سبحانه في بيان قصة موسى ﷺ بقوله: ﴿إِذْ قَالَ﴾ والتقدير اذكر يا محمد إذ قال. وقيل: إن كلمة (إِذْ) متعلقة بعليم^١. والمعنى عليم بمقال موسى ﷺ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِيهِ﴾ وزوجته بنت شعيب وأولاده حين رجوعه من مدين إلى مصر. وقد ضلوا الطريق في الليلة المظلمة الباردة: يا أهلي، تفوا مكانكم ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ وأبصرت من البعيد ﴿نَارًا﴾ مشتعلة أريد أن أذهب إليها، ولا يخلو ذهابي من أحد الأمرين: إما ﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا﴾ ومن الذين حولها ﴿بِخَبَرٍ﴾ عن حال الطريق ﴿أَوْ آتِيكُمْ﴾ منها ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ وشعلة مأخوذة من تلك النار، إن لم أجد عندها أحداً ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وتدفعون بحرّها عن أنفسكم البرد، وإنما وعدهم بأحد الأمرين لقوة رجائه بأنّه إن لم يظفر بكلّهما يظفر بأحدهما، لأنّه لا يجمع الله بين الجزأين على عبده.

قيل: لم يكن معه إلا زوجته، فكفى سبحانه عنها بالأهل، ثم أتى بضمان الجمع تبعاً له^٢.

وقيل: لما أقام زوجته عند جماعة كانوا هناك لتأنس بهم، خاطبهم بضمان الجمع.

وعلى أي تقدير خلف أهله وذهب إلى النار ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ وقرب منها رأى شجرة مخضرة عليها نارٌ لا تحرقها ولا تحرق أوراقها، فعجب من ذلك ثم هم أن يأخذ منها، فلما رفع عصاه إلى رأس الشجرة نزلت إلى أصلها، فلما أراد أن يأخذ من أصلها علت على الشجرة، فبقي متفكراً في أمرها، فإذا ﴿نُودِيَ﴾ من الشجرة. وقيل له بصوت عالٍ: ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ وكثر خير ﴿مَنْ فِي﴾ البقعة المباركة التي هي مكان ﴿النَّارِ﴾ التي على الشجرة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أراضيّ الشام التي هي مبعث أنبياء الله ومحلّ أحيانهم وأمواتهم ومهيّط الوحي إليهم^٣.

عن ابن عباس: المعنى تبارك من في النور وهو الله، ومن حولها يعني الملائكة^٤.

أقول: لا بدّ من حمل كلامه على إرادة أن كلامه تعالى أو قدرته أو سلطانه أو عظمته في النار، وقيل: إنّ المراد ممّن في النار، هو موسى ﷺ وحده^٥. أو هو وجميع من كان في تلك البقعة، ومن قوله

٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٨١.

١. تفسير البضاوي ٢: ١٧١.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٢.

٣. تفسير أبي السعود ٦: ٢٧٣ و ٢٧٤، تفسير روح البيان ٦: ٣٢١.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٢، تفسير أبي السعود ٦: ٣٧٤.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ كُلٌّ مِنْ كَانَ فِي أَرْضِ الشَّامِ^١.

ثُمَّ نَزَّ سَبْحَانَهُ نَفْسَهُ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى الْمَكَانِ وَالْعَوَارِضِ الْإِمْكَانِيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دَفْعاً لَتَوَهُّمِ التَّشْبِيهِ مِنْ سَمَاعِ كَلَامِهِ، أَوْ تَعَجُّباً مِنْ عَظَمَةِ ذَلِكَ الْأَمْرِ.

يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ [٩-١١]

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ فِي ابْتِدَاءِ خُطَابِ اللَّهِ لِمُوسَى ﷺ عِنْدَ مَجِيئِهِ بِشَارَةً لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ قُضِيَ لَهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ تَنْتَشِرُ مِنْهُ الْبَرَكَةُ فِي أَرْضِ الشَّامِ، وَهُوَ رِسَالَتُهُ وَظُهُورُ مُعْجَزَاتِهِ، وَفِي تَنْزِيهِ ذَاتِهِ وَتَوْصِيْفِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ تَمْهِيدٌ مُقَدِّمَةٌ لَصَحَّةِ رِسَالَةِ مُوسَى، وَأَنَّهَا مِنْ شُؤْنِ رُبُوبِيَّتِهِ لِلْعَوَالِمِ، وَمِنْ جَلَالِ الْأُمُورِ وَعِظَامِ الْوَقَائِعِ. ثُمَّ أَنَّهُ زَوَى أَنَّ مُوسَى ﷺ لَمَّا سَمِعَ النِّدَاءَ قَالَ: مِنَ الْمَنَادِي؟ فَجَادَهُ اللَّهُ ثَانِيًا بِقَوْلِهِ: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ الشَّانُ أَوْ الْمَنَادَى﴾ «أَنَا اللَّهُ» ثُمَّ عَرَفَ نَفْسَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿الْعَزِيزُ﴾ الْقَوِيُّ الْقَادِرُ عَلَى مَا لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ وَالْعُقُولُ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ «الْحَكِيمُ» فِي فِعَالِهِ.

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَوْصِيْفِ ذَاتِهِ بِالْوَصْفَيْنِ تَمْهِيداً لِإِظْهَارِ إِرَادَةِ إِجَادِ الْمُعْجَزِ عَلَى يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: ﴿وَأَلْقِي﴾ مِنْ يَدِكَ «عَصَاكَ» فَأَلْقَاهَا بِلَا رِيثٍ فَانْقَلَبَتْ حَبِيَّةً عَظِيمَةً تَسْعَى «فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ» وَتَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةٍ «كَأَنَّهَا جَانٌّ» أَوْ حَبِيَّةٌ صَغِيرَةٌ فِي سُرْعَةِ الْحَرَكَةِ وَالِاتِّوَاءِ «وَلَّى» مِنْهُ «مُدْبِرًا» وَفَرَّ مُعَقِّبًا «وَلَمْ يُعَقِّبْ» وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ بَعْدَ مَا فَرَّ مِنْهُ. قِيلَ: كَانَ عِنْدَ فِرْعَوْنَ ثُعْبَانٌ وَفِي الطُّورِ جَانٌّ^٢، فَنُودِيَ «يَا مُوسَى» يُذَكِّرُهُ بِوَعْدِهِ «وَلَا تَخَفْ» مِنْ غَيْرِي «إِنِّي» إِلَهُ «لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ» قِيلَ: يَعْنِي حِينَ نَزُولِ الْوَحْيِ لِاسْتِغْرَاقِهِمْ فِي مَطَالَعَةِ شُؤْنِ اللَّهِ، فَانَّهُمْ حِينَئِذٍ لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمُ الْخَوْفُ، وَأَمَّا فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ هُمْ أَخَوْفُ النَّاسِ مِنْهُ تَعَالَى^٣.

أَوْ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ لَهُمْ سُوءُ الْعَاقِبَةِ فَيَخَافُونَ مِنْهُ^٤، وَإِنَّمَا يَخَافُ غَيْرَهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ «إِلَّا مَنْ ظَلَمَ» مِنْهُمْ نَفْسَهُ بَارْتِكَابِ عَمَلٍ سُوءٍ وَتَرْكِ الْأَوَّلَى «ثُمَّ بَدَّلَ» وَصَيَّرَ عَمَلَهُ «حُسْنًا» بِالتَّوْبَةِ وَالتَّدَارُكِ «بَعْدَ» كَوْنِهِ عَمَلٍ «سُوءٍ» وَعَصْيَانٍ فِي حَقِّهِ، فَإِنَّ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتِ الْمُقْرِبِينَ «فَإِنِّي» بَعْدَ التَّوْبَةِ وَالتَّدَارُكِ «غَفُورٌ» لِلثَّانِيينَ «رَحِيمٌ» بِالْمُؤْمِنِينَ.

١. تفسير أبي السعود ٦: ٣٧٤.

٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٧٤، تفسير روح البيان ٦: ٣٢٢.

٣ و ٤. تفسير أبي السعود ٦: ٢٧٤، تفسير روح البيان ٦: ٣٢٣.

وقيل: إن الاستثناء متقطع، والمعنى ولكن من ظلم نفسه من المرسلين بارتكاب ما هو ذنب بالنسبة إليه من الترك للأولى، كآدم الذي قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾^١ وداود، وسليمان، وموسى حيث قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾^٢ وإنما حسن هذا الاستثناء للتعريض بما وجد من موسى عليه السلام من قتل القبطي بغير إذن من الله، أو للاعلان بسعة رحمته للمذنبين.

وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [١٢-١٤]

ثم أراه المعجزة الأخرى بقوله: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ قيل: لم يقل في كُمك؛ لأنه كان عليه جبة صغيرة من صوف لا كم لها، كان يلبسها بدل القميص^٣، فأمر بإدخال يده فيها، ثم كأنه قال: فان أدخلت يدك فيها ﴿تَخَرُّجَ﴾ منها حال كونها ﴿بَيْضَاءَ﴾ براءة لها شعاع كشعاع الشمس ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وأفة فيها من برص ونحوه.

عن الصادق عليه السلام قال: «من غير برص»^٤.

فهذان الآيتان ﴿فِي﴾ جملة ﴿تِسْعِ آيَاتٍ﴾ التي أعطيكها، وقيل: إن كلمة (في) بمعنى (مع)^٥ والمعنى: اذهب مع تسع آيات معهودة من العصا، واليد البيضاء، والجذب، والطوفان، والجراد، والتمل، والضفادع، والدم، والطمس ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ القبطيين داعياً لهم إلى توحيد وطاعتي ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وخارجين عن الحد في الكفر والطغيان.

ثم بين سبحانه كثرة شقاوتهم بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ توسط موسى عليه السلام ﴿آيَاتُنَا﴾ التسع حال كونها ﴿مُبْصِرَةً﴾ مستنيرة واضحة الدلالة مغرطة في الإنارة ووضوح الدلالة بحيث كادت أن تبصر نفسها لو كانت قابلة للإبصار ﴿قَالُوا﴾ عناداً وشقاقاً: ﴿هَذَا﴾ الذي جاء به موسى ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشعبذة ظاهرة لكل أحد ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ وأنكروا كونها آيات إلهية ومعجزات باهرة بالسستهم ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ قَدْ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ وعرفوا إعجازها بقلوبهم، وإنما كان جحودهم بها

١. الأعراف: ٢٣/٧. ٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٢٣، والآية من سورة القصص: ١٦/٢٨.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٢٤. ٤. معاني الأخبار: ١/١٧٣، تفسير الصافي ٤: ٥٩.

٥. مجمع البيان ٧: ٣٣٢.

﴿ظُلُمًا﴾ على أنفسهم ﴿وَعُلُوًّا﴾ وطلباً للرفعة بين الناس، أو استكباراً من الايمان بموسى عليه السلام. قيل: كان ظهور استيقانهم من استغاثتهم بموسى عليه السلام عند نزول كل آية في كشفها فكشفها عنهم^١. ﴿فَانظُرْ﴾ يا نبي الرحمة، أو أنها الناظر العاقل ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ وإلى ما صار ﴿عَاقِبَتُهُ﴾ أمر ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض، وما كان نتيجة إفسادهم، كان إغراقهم في الدنيا في الماء، وإحراقهم في الآخرة بالنار.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ [١٥]

ثم أنه تعالى بعد بيان تفضله على موسى عليه السلام بإعطائه الآيات التسع، وتخصيصه بمناجاته معه، ذكر تفضله على داود وسليمان بالعلم بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ شريفاً عزيزاً لانفاً بهما، وهي معرفة كاملة بربهما وبحقائق الأشياء وبالأحكام الشرعية، فشكراً ذلك ﴿وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾ بما آتانا من العلم ﴿عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين هم أفضل مخلوقاته. أقول: فيه دلالة واضحة على كون العلم أفضل الكمالات الدنيوية والأخروية.

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ [١٦]

ثم شرع سبحانه في بيان ما خص به سليمان من الفضائل والنعم بقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ﴾ أباه ﴿دَاوُدَ﴾ ماله وملكه ونبوته. وقال بعض مفسري العامة: المراد إرث المال^٢. وعن بعضهم: إرث المُلْك والسياسة^٣. وعن الحسن وكثير منهم: إرث المال والمُلْك، وهو مروى عن أهل البيت عليه السلام^٤، ولا يَزِدُّ الحديث الموضوع «نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث، ما تركناه صدقة» كما زعمه الفخر الرازي^٥ وغيره من العامة^٦، بل تَزِدُّ الآية الرواية المذكورة، لكونها مخالفة لكتاب الله، كما استدلت فاطمة عليها السلام على بطلان الرواية بهذه الآية ونظائرها^٧. نعم يمكن إرادة المال والمُلْك والنبوة كما فسرناها أولاً بطريق عموم المجاز.

٢. ٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٦.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٦.

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٢٤.

٤. مجمع البيان ٧: ٣٣٤.

٦. تفسير القرطبي ١٣: ١٦٤.

٧. راجع: بلاغات النساء: ٢٦، الطرائف: ٢٦٥، كشف الغمة ١: ٤٨٨، الاحتجاج: ١٠٢.

ويؤيده ما روي عن الجواد عليه السلام من أنه قيل له: إنهم يقولون في حَدَاثَةِ سَنَكْ؟ فقال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ أَنْ يَسْتَخْلِفَ سُلَيْمَانَ عليه السلام وَهُوَ صَبِيٌّ يَرْعَى الْغَنَمَ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَبْدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعُلَمَانُهُمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى دَاوُدَ عليه السلام أَنْ خُذْ عَصِيَّ الْمُتَكَلِّمِينَ وَعَصَا سُلَيْمَانَ وَاجْعَلْهَا فِي بَيْتٍ وَاخْتِمِ عَلَيْهَا بِخَوَاتِيمِ الْقَوْمِ، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ فَمَنْ كَانَتْ عَصَاهُ قَدْ أَوْرَقَتْ وَأَثْمَرَتْ فَهُوَ الْخَلِيفَةُ، فَأَخْبَرَهُمْ دَاوُدَ عليه السلام فَقَالُوا: قَدْ رَضِينَا وَسَلَّمْنَا الْخَيْرَ^١.

وعن الصادق عليه السلام: «يَعْنِي الْمُلْكُ وَالنَّبُوءَةُ»^٢ وَعَلَى أَيْ تَقْدِيرٍ جَلَسَ سُلَيْمَانُ بَعْدَ أَبِيهِ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ «وَقَالَ» تَحْدِيثًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ عَلَيْهِ وَدَعْوَةً إِلَى تَصْدِيقِ نَبُوته «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» اعْلَمُوا أَنَا «عَلَّمْنَا» مِنْ قِبَلِ اللَّهِ وَأَلْهَمْنَا «مَنْطِقَ الطَّيْرِ» وَفَهُمْ مَرَادَاتُهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ الَّتِي يُصَوِّتُونَ بِهَا لِفَهْمِهِمْ أَغْرَاضَهُمْ.

ثُمَّ بَعْدَ حَدِيثِهِ بِنِعْمَةِ عِلْمِهِ بِمَنْطِقِ الطَّيْرِ حَدَّثَ بَعْلَمَهُ لِمَنْطِقِ الْحَيَوَانَاتِ وَسَائِرِ مَا تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «وَأَوْتَيْنَا» وَأَعْطَيْنَا حِظًّا وَافِرًا «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» كَالْمُلْكِ وَالنَّبُوءَةِ وَالْكِتَابِ وَتَسْخِيرِ الرِّيحِ وَالْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ وَمَنْطِقِ الدَّوَابِّ وَعَيْنِ الْقِطْرِ^٣ وَالصُّفْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ «إِنَّ هَذَا» الْمَذْكُورَ مِنَ الْعُلُومِ وَالنِّعَمِ «لَهُوَ الْقُضْلُ الْمُبِينُ» وَالْعَطَاءُ الْجَسِيمُ وَالْمَرْيَةُ الظَّاهِرَةُ الَّتِي لَا يُشَارِكُنَا فِيهَا أَحَدٌ. قِيلَ: أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ جَمِيعَ مَا أُعْطِيَ دَاوُدَ، وَزِيدَ لَهُ تَسْخِيرُ الْجِنِّ وَالرِّيحِ وَمَنْطِقُ الطَّيْرِ، وَلَمَّا تَوَلَّى الْمُلْكُ جَاءَهُ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ يَهْتَنُونَ إِلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً، فَجَاءَتْ تَعَزُّيَةً فَعَاتِبَهَا النَّمْلُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَتْ: كَيْفَ أَهْتُهُ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا زَوَى عَنْهُ الدُّنْيَا وَحَبَّبَ إِلَيْهِ الْآخِرَةَ، وَقَدْ شَغِلَ سُلَيْمَانُ بِأَمْرِ لَا يَدْرِي [مَا] عَاقِبَتُهُ، فَهُوَ بِالتَّعَزُّيَةِ أُولَى^٥.

عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ مَعَ عِلْمِهِ مَعْرِفَةَ الْمَنْطِقِ بِكُلِّ لِسَانٍ^٦، وَمَنْطِقُ الطَّيْرِ وَالبَهَائِمِ وَالسَّبَاعِ، وَكَانَ إِذَا شَهِدَ الْحُرُوبَ تَكَلَّمَ بِالفَارْسِيَّةِ، وَإِذَا قَعَدَ لِعِمَالِهِ وَجُنُودِهِ وَأَهْلَ مَمْلَكَتِهِ تَكَلَّمَ بِالرُّومِيَّةِ، وَإِذَا خَلَا بِنِسَائِهِ تَكَلَّمَ بِالسَّرْيَانِيَّةِ وَالنَّبَطِيَّةِ، وَإِذَا قَامَ فِي مُحَارِبِهِ لِمَنَاجَاةِ رَبِّهِ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَإِذَا جَلَسَ لِلْوُفُودِ وَالْخُصَمَاءِ تَكَلَّمَ بِالعِبرَانِيَّةِ»^٧.

أَقُولُ: الْحَقُّ أَنَّهُ عليه السلام كَانَ يَتَكَلَّمُ مَعَ أَهْلِ كُلِّ لِسَانٍ بِلِسَانِهِمْ، وَإِنَّمَا أَتَى فِي كَلَامِهِ بَنُونَ الْوَاحِدِ الْمُطَاعِ لِقَضَاءِ صَلَاحِ الْمُلْكِ إِظْهَارَ عَظَمَتِهِ وَنُفُوذِ سُلْطَانِهِ.

١. الكافي ١: ٣/٣١٤، تفسير الصافي ٤: ٦٠.

٢. جوامع الجامع: ٣٣٥، تفسير الصافي ٤: ٦٠.

٣. القِطْر: النحاس.

٤. في تفسير روح البيان: وفهم نطق.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٣١.

٦. زاد في تفسيري القمي والصافي: ومعرفة اللغات.

٧. تفسير القمي ٢: ١٢٩، تفسير الصافي ٤: ٦٠.

وَحْشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا
 أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ
 سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ
 أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً
 تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ
 لَا أَرَى الْهَدْماً أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ [١٧ - ٢٠]

ثم حكى سبحانه عظمة ملكه بقوله: ﴿وَحْشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ﴾ وجمع من أطراف مملكته
 عسكره ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ وأحضروا عنده ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ويَكْفُونَ عن الخروج عن
 طاعته ويَحْسُونَ عليها، أو يمنعون من تقدم بعض على بعض ليكون سيره على ترتيب واحد، أو
 يوقفون في مكان واحد ويُمْنَعُونَ عن التفرق.

روي أن معسكره كان مائة فرسخ في مائه، خمسة وعشرون منه للإنس، وخمسة وعشرون للجن،
 وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش، وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب
 وإبريسم فرسخاً في فرسخ، وكان يوضع منبره في وسطه، وهو من الذهب فيقعد عليه، وحوله
 ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة،
 وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس،
 وترفع الريح البساط فتسير به مسيرة شهر^٢، فسار سليمان عليه السلام وجنوده يوماً على البساط ﴿حَتَّى إِذَا
 أَتَوْا﴾ وأشرفوا ﴿عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ أو بلغوا آخره. قيل: هو بالشام^٣. وقيل: بالطائف كثير النمل^٤.

عن الصادق عليه السلام: ﴿أَنَّ اللَّهَ وادياً يَبْثُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَقَدْ حَمَاهُ اللَّهُ بِأُضْعَفِ خَلْقِهِ وَهُوَ النَّمْلُ، لَوْ
 رَامَتْهُ الْبَهَائِيُّ^٥ مَا قَدِرَتْ عَلَيْهِ^٦﴾.

ثم قيل: إنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي ومتنهاه^٧، إذن ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ حين ما رأتهم
 متوجهين إليهم، قاصدين للنزول قريباً منهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ لأجل أن ﴿لَا
 يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ ولا يقتلنكم بأرجلهم ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ إذا نزلوا بواديكم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم

١. في تفسير روح البيان: وترفع ربح الصبا.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٢.

٣ و ٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٣.

٥. زاد في تفسير القمي: من الإبل، والبخاتي، جمع بختي: وهي الإبل الخراسانية.

٦. تفسير القمي ٢: ١٢٦، تفسير الصافي ٤: ٦٢.

٧. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٧، تفسير روح البيان ٦: ٣٣٣.

يَخْطُمُونَكُمْ. وقيل: يعني لا يَخْطُمَنَّكُمْ جنود سليمان، فجاء بما هو أبلغ^١.

قيل: إنها كانت نملة عرجاء في عِظَم الدَّيْكِ، أو التَّعْجَةِ، أو الذَّنْبِ، لها جَنَاحَانِ، وكانت مَلِكَةَ النَّمْلِ، وكان اسمها منذرة أو طاحية أو جرمي، سَمِيَتْ بهذا الاسم في التوراة، أو الانجيل، أو في بعض الكتب السماوية^٢، سَمَّاها الله تعالى بهذا الاسم وعرفها به الأنبياء قبل سليمان^٣.

رُوي أَنَّ سليمان يَأْمُرُ الرِّيحَ العاصِفَ بحمله^٤، ويَأْمُرُ الرِّخَاءَ بسيره^٥، فأوحى الله تعالى إليه وهو يسير بين السماء والأرض: أَنِّي قد زدت في مُلكِكَ أَنْ لا يَتَكَلَّمَ بشيءٍ إِلَّا ألقته الرِّيحُ في سمعِكَ فألقت الرِّيحُ كلام النَّمْلة في سمع سليمان من ثلاثة أميال^٦ ﴿فَتَبَسَّمْ﴾ سليمان حال كونه ﴿ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ متعجباً من حَذَرِها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالح بني نوعها.

روي أَنَّهُ ﷺ لَمَّا سَمِعَ قول النملة قال: انتوني بها، فأتوا بها، فقال لها: أما علمت أن جُنْدِي لا يَظْلِمُونَ؟ قالت: بلى، ولكن لَمَّا كُنْتُ أَمِيرَهُمْ كان عليَّ نُصْحُهُمْ. فقال سليمان: إِنَّ جُنْدِي كانوا يسيرون في الهواء، فكيف كانوا يَخْطُمُونَكُمْ؟ قالت: ما أردت حطهم في الأرض، بل أردت أن لا ينظروا إلى سلطانك وَحَشَمَتِكَ، فَيَشْغَلَهُمْ ذلك عن ذكر الله، فَيَخْطُمَهُمُ الْخِذْلَانُ فَتَقْبِلَ قُلُوبُهُمْ إلى الدنيا، والدنيا مِغْوُضَةٌ عند الله. فقال سليمان: صدقت. فقالت: أعلمت لم سَمِيَ أبوك داود؟ قال: لا قالت: لأنك سليم قال: لأنه داوى جراحة قلبه بالود، وهل تدري لم سَمِيَتْ سليمان؟ قال: لا. قالت: لأنك سليم الصدر والقلب^٧.

وعن الرضا ﷺ أَنَّهُ قال: «قالت النملة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ الآية، حملت الرِّيحُ صوت النملة إلى سليمان ﷺ، وهو^٨ [مازاً] في الهواء، والرِّيحُ قد حملته، فوقف وقال: عليّ بالنملة، فلَمَّا أَتَى بها قال سليمان: [يا] أَيُّهَا النملة، أما علمت أَنِّي نَبِيُّ الله، وَأَنِّي لا أَظْلِمُ أَحَدًا؟ قالت النملة: بلى. قال سليمان ﷺ: فلم تحذرينهم ظُلْمِي وقلت: يا أَيُّهَا النمل ادخلوا مساكنكم؟ قالت النملة: خشيت أن ينظروا إلى زيتك فيفتتنوا بها فيعبدوا غير^٩ الله عز وجل.

ثم قالت النملة: أنت أكبر أم أبوك داود؟ قال سليمان: [بل] أبي داود. قالت النملة: فلم زيد في حروف اسمك حرف على حروف اسم أبيك؟ قال سليمان: ما لي بهذا علم. قالت النملة: لأن أباك

١. جوامع الجامع: ٣٣٦. ٢. في تفسير روح البيان: الصحف الالهية.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٣. ٤. في تفسير روح البيان: تحمله.

٥. في تفسير روح البيان: تسيره. ٦. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٢.

٧. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٤. ٨. زاد في عيون أخبار الرضا ﷺ، وتفسير الصافي: ماز.

٩. في عيون أخبار الرضا ﷺ: فيعبدون عن ذكر.

داوي جرحه بوذ فسمي داود، وأنت يا سليمان أرجو أن تُلَحَقَ بأبيك.

ثم قالت النملة: هل تدري لم سَخَرْتُ لك الريح^١؟ قال سليمان: ما لي بهذا علم، قالت النملة: يعني عزَّ وجلَّ بذلك لو سَخَرْتُ لك [جميع المملكة كما سَخَرْتُ لك] هذه الريح لكان زوالها من يدك كزوال الريح. فحينئذٍ تَبَسَّمَ ضاحكاً من قولها^٢.

وروى أنه ﷺ قال لها: كم عدد جندك؟ قالت: إن لي أربعين ألف أمير، تحت كلِّ أمير أربعون ألف نقيب، تحت كلِّ نقيب أربعون ألف نملة. قال: لِمَ لَمْ تَسْكُنِي أنت وجندك فوق الأرض؟ قالت: اخترنا تحت الأرض لأن لا يطلع على حالنا غير الله.

ثم قالت النملة: يا نبي الله أخبرني عن عطية من عطايا ربِّك قال: إن الله سَخَّرَ لي الريح، فتحمل بساطي وتسير به إلى أي مكان أريد. قالت: أتدري حكمة ذلك؟ قال: لا. قالت: أراد الله أن يُبْهِتَكَ بأن مُلِكَ الدنيا كالريح تجيء سريعاً وتذهب سريعاً، فمن اعتمد على الدنيا فكأنما اعتمد على الريح، فعند ذلك ناجى سليمان ربه^٣ ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ وأحسنني على ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من العلم والنِّبْوة والملك والعدل وفهم منطق الطير والحشرات وسائر الحيوانات ونحوها ﴿وَعَلَى الْوَالِدَيْنِ﴾ داود وتيسان بنت البائن^٤ ﴿وَقَدْ﴾ على ﴿أَنْ أَعْمَلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحاً﴾ وحسناً ﴿تَرْضَاهُ﴾ وتقبله مِنِّي إتماماً للشكر واستدامة للنعمة ﴿وَأَدْخِلْنِي﴾ الجنة بعد ما قبضتني إليك ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ وفضلك ﴿فِي﴾ زمرة ﴿عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

عن ابن عباس: أراد من الصالحين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء^٥. وقيل: إن المعنى اجعلني أزعم شكر نعمتك عندي، وأكفّه وأربطه بحيث لا يغفل عني ولا أنفك عنه أصلاً^٦.

وفي الحديث: «النعمة وحشية، فيدوها بالشكر»^٧.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا وَصَلَتْ إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر» انتهى^٨. وإنما شكر على النعم التي أنعم الله بها على والديه، لأن النعمة على الوالدين نعمة على الولد، فإن

١. زاد في عيون أخبار الرضا عليه السلام وتفسير الصافي: من بين سائر المملكة.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٨/٧٨، تفسير الصافي ٤: ٦٢.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٤.

٤. مجمع البيان ٧: ٣٣٦.

٥. تفسير البضاوي ٢: ١٧٣، تفسير أبي السعود ٦: ٢٧٩، تفسير روح البيان ٦: ٣٣٥.

٦ و٧. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٥.

شرافة الوالدين موجبة لشرافة الولد، لكونه فرعاً للأصل الكريم، وأما النعم التي أنعم الله بها على داود فهي النبوة، والمُلك، وخلافة الله في الأرض، وتسييح الجبال والطير معه، وحسن الصوت، وإلانة الحديد في يده، وتعليمه صنعة اللبوس، وإنزال الزُّبور عليه، وأما النعمة على والدته فهي تزويجها من داود بعد أن كانت زوج أوريا، وإسلامها، وتزكيتها، وطهارتها.

ثم قيل: إن سليمان كان إذا قعد على الكرسي جاءت جميع الطيور التي سخرها الله له فتَظَلُّ الكرسي والبساط وجميع من عليه من حرّ الشمس^١.

قيل: إنه ﷺ قعد يوماً على كرسيه، فوقع الشمس، في حجره، فرفع رأسه^٢.

﴿وَتَقَدَّرَ الطَّيْرُ﴾ وتعزف أحوالها وتصفحها، فلم ير الهدد فيما بينها، وكان رئيس الهداهد على ما قيل^٣ ﴿فَقَالَ﴾ لحاضري مجلسه: ﴿مَا لِي﴾ وأي حال عرض لي فصار سبباً لأن ﴿لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ﴾ في مكانه؟ أسأتر بيني وبينه يمنعني من رؤيته؟ ﴿أَمْ كَانَ﴾ اليوم ﴿مِنْ﴾ جملة ﴿الْعَائِيَيْنِ﴾ عن محضري؟

قيل: خرج سليمان ﷺ من مكة عند طلوع الشمس متوجّهاً إلى اليمن، وكان بينهما مسيرة شهر، فسار حتى أتى إلى وادٍ كثير الأشجار حسن الهواء، فنزل لأن يتغذى فيه، فجاء وقت الصلاة، فأراد أن يتوضأ فلم يجد ماءً، وكان الهدد دليل الماء، فطلبه فلم يجده^٤.

وعن العياشي أنه قال أبو حنيفة لأبي عبدالله ﷺ: كيف تقدّر سليمان ﷺ الهدد من بين الطير، قال: «لأن الهدد يرى الماء في بطن الأرض كما يرى أحدكم [الدهن] في القارورة».

فنظر أبو حنيفة إلى أصحابه فضحك. فقال أبو عبدالله ﷺ: «مَا يَضْحَكُ؟» قال: ظفرت بك جعلت فداك. قال: «وكيف ذلك؟» قال: الذي يرى الماء في بطن الأرض لا يرى الفخ في التراب حتى يؤخذ بعنقه!

قال أبو عبدالله ﷺ: «يا نعمان، أما علمت أن القدر إذا نزل غمي البصر»^٥.

وقيل: إن سليمان ﷺ جلس على سريره في نواحي بيت المقدس، واشتغل بأمور المملكة والدين، فقال هدهد في نفسه: إن سليمان مشغول عني، فأرتفع في الهواء ساعةً لأنظر في قسحة الدنيا وطولها وعرضها، فطار في الهواء، فوقعت فرجةً في مظلة الطيور، فوقع شعاع الشمس على

١. تفسير القمي ٢: ١٢٧، تفسير الصافي ٤: ٦٣. ٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٦.

٣. في النسخة: علي صار. ٤. تفسير أبي السعود ٦: ٢٧٩، تفسير روح البيان ٦: ٣٣٧.

٥. مجمع البيان ٧: ٣٤٠، وفيه: أنه إذا نزل القدر اغشى البصر.

سليمان، فنظر إلى الطيور فرأى مكان الهدهد خالياً منه، فتفحص عنه، واحتمل أن يكون عدم رؤيته إياه لتغييره مكانه، أو لعروض مانع عن رؤيته فقال: مالي لا أرى الهدهد؟

لَا عَذْبَتُهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَا ذَبْحَتُهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَتْ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتًا يَمِينٍ [٢١ و ٢٢]

ثم [لما] احتاط وبالغ في التفتيش والسؤال عنه، حتى عَلم أنه غائب، أَضْرَبَ عَمَّا احتمل، وقال: بل كان من الغائبين، وغضب عليه، وقال: والله ﴿لَا عَذْبَتُهُ﴾ تأديباً وصلاًحاً لانتظام الملك ﴿عَذَاباً شَدِيداً﴾ وهو تَفَرُّش ريشه^١ والقَاوِز في الشمس، كما عن بن عباس^٢، أو ألقاؤه حيث النمل فتأكله، أو طليه بالقطران وتشميسه، أو عزله من خدمته، أو إلزامه خدمة أقرانه، أو التفريق بينه وبين إله زوجته، أو تزويجه من عجوز، أو جعله مع ضده في قَفْص^٣ ﴿أَوْ لَا ذَبْحَتُهُ﴾ لتعتبر به أبناء جنسه، ولئلا يكون له نسل ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وَحِجَّةٌ واضحة على عذره في غيبته.

وإنما كان الخلف في الواقع على أحد الفعلين الأولين على تقدير عدم الثالث، ولكن لما كان مقتضياً لوقوع أحد الثلاثة جعل الثلاثة في الظاهر متعلقاً للحلف على سبيل المجاز، فحلف على أنه لابد من وقوع أحد الثلاثة.

خُكِّي أَنَّهُ لَمَّا أَرْتَفَعَ الْهَدَّهْدُ إِلَى الْهَوَاءِ رَأَى هَدَّهْدًا آخَرَ وَقَفًا فَانْحَطَّ إِلَيْهِ فِي الْهَوَاءِ، وَوَصَفَ لَهُ مُلْكُ سُلَيْمَانَ وَمَا سَخَّرَ لَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَوَصَفَ لَهُ صَاحِبَهُ مُلْكٌ بَلْقِيسٍ وَاقْتِدَارَهَا، وَأَنَّ تَحْتَ يَدِهَا اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ قَائِدٍ، تَحْتَ يَدِ كُلِّ قَائِدٍ مِائَةُ أَلْفٍ، فَذَهَبَ مَعَهُ لِيَنْظُرَ، فَمَا رَجَعَ إِلَّا بَعْدَ الْعَصْرِ^٤ ﴿فَمَكَتْ﴾ سليمان وانتظره زماناً قريباً ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وأمدأ غير مديد.

قيل: دعا سليمان ﷺ عريف الطير، وهو النسر، فسأله عن الهدهد فلم يجد علمه عنده، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب: عليّ به، فارتفعت فنظرت، فاذا هو مقبلاً فقصدته، فناشدها الله تعالى وقال: بحق الذي قوّاك وأقدرك إلّا رحمتي، فتركته وقالت: ثكلتك أمك، إنّ نبي الله حلف ليعذبك، قال: أو ما استثنى؟ قالت: بلى. قال: أو ليأتيني بعذر مبين، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجزّهما على الأرض تواضعاً له، فلما دنا منه أخذ ﷺ برأسه فمدّه إليه، فقال: يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله، فارتعد سليمان، ثم قال له: يا هدهد، كيف أنت إن نتفت ريشك وألقيتك في حرّ

١. في النسخة: شعره. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ١٨٩.

٣ و ٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٢٧.

الشمس؟ قال: أعلم أنك لا تفعل ذلك، لأنك نبي الله لا ترضى بذلك. قال: إن حبستك في قفص مع صدك؟ قال: أعلم أنك لا تفعل ذلك أيضاً لأنك كريم. إلى أن قال: قل ما أفعل بك؟ قال: العفو عني فإنه سجيّة الكرام، فغفاه عنه^١.

ثم سأله عما جاء به ﴿فَقَالَ أَحْطُثْ﴾ مع حقارتي وغاية ضغفي ﴿بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ واطلعت على ما لم تطلع عليه مع سعة علمك وكمال قدرتك ﴿وَجِثَّتْكَ مِنْ﴾ بلد ﴿سَبَأَ﴾ يقال له: مدينة مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام^٢ ﴿بَنِي يَاقِينَ﴾ وخبر خطير محقق لاشك فيه.

عن ابن عباس عن النبي ﷺ: أن سبأ اسم أبي حيّ باليمن، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، كان له عشر بنين، ذهب ستة منهم إلى اليمن، وسكنوا فيه، وهم: كندة والأزد، ومذحج، وجُمَيْر، وأشعر، وأنمار. وكان خثعم وُجيلة من أنمار، وذهب أربعة منهم إلى الشام، وهم: لخم وجذام وغسان وعاملة، فسَمِيَ الحَيَّ باسم أبيهم^٣.

وقيل: إن اسمه عبد شمس، ولَقِبَ بسبأ لأنه أول من سبى^٤.

وقيل: إنه أول من تتوج من ملوك اليمن^٥، ولعل إخفاء أمر مملكة سبأ على سليمان عليه السلام مع قربها منه لمصلحة رآها الله تعالى فيه^٦.

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنْنَظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَيْهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ [٢٣-٣١]

ثم بين الهدى ما أحاط به بقوله: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ﴾ حين ذهب متفقداً لما خفي من الأمور قياماً

١. تفسير روح البیان ٦: ٣٣٨، تفسير أبي السعود ٦: ٢٨٠، تفسير روح البیان ٦: ٣٣٨.

٢. تفسير روح البیان ٦: ٣٣٨، ولم ينسبه إلى ابن عباس.

٣. تفسير روح البیان ٦: ٣٣٩.

٤. تفسير روح البیان ٦: ٣٣٨.

بخدمتك «أَمْرًا» في مملكة سبأ وأهله «تَمْلِكُهُمْ» وتحكم عليهم، وتدير أمورهم، ولها السلطنة عليهم، اسمها بلقيس بنت شرجيل، أو شراحيل بن مالك بن ريان، من نسل يعرب بن قحطان، وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها، وَرِثَ الْمُلْكُ مِنْ أَرْبَعِينَ أَبًا، ولم يكن له ولدٌ غيرها، فغلبت بعده على المُلْك، ودانت لها الأمة^١ «وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» تحتاج إليه الملوك من الحشم، والخيل، والعدد، والسياسة، والهيبة، والرأي، والمال، والنعم «وَلَهَا عَرْشٌ» وسرير «عَظِيمٌ» بالنسبة إلى عروش غيرها من الملوك.

قيل: كان عرشها ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً عرضاً، في ثمانين ذراعاً ارتفاعاً^٢، مُقَدَّمَةٌ مِنْ ذَهَبٍ مُفَصَّصٌ بالياقوت الأحمر، والزُّبَرْجَدُ الأخضر، ومُؤَخَّرَةٌ مِنْ فِضَّةٍ مُكَلَّلٌ بأنواع الجواهر، له أربع قوائم: قائمة من ياقوت أحمر، وقائمة من ياقوت أصفر^٣، وقائمة من زَبَرْجَدٍ، وقائمة من دُرٍّ، وصفائح السرير من ذهب، وعليه سبعة أبيات، لكل بيت بابٌ مُغْلَقٌ، وكان عليه من الفُرش ما يليق به^٤.

«وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ» وَيَعْبُدُونَهَا «مِنْ دُونِ اللَّهِ» ومتجاوزين عن عبادته «وَزَيْنَ» وَحَسَنَ «لَهُمُ الشَّيْطَانُ» بوسوسته وتسويله «أَعْمَالَهُمْ» القبيحة التي منها عبادة الشمس «فَصَدَّهُمْ» ومنعهم بسبب ذلك التزيين «عَنِ» سلوك «السَّبِيلِ» المستقيم، واختيار المذهب الحق، وهو توحيد الله وعبادته «فَهُمْ» بسبب ذلك الصدَّ «لَا يَهْتَدُونَ» إلى الحق، ولا يصلون إلى خيرٍ أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم أن الهدده أظهر معارفه التي اقتبسها من سليمان عليه السلام إظهاراً لتصلبه في التوحيد، وتوجيهاً لقلب سليمان نحو قبول قوله، وصرفاً لعزيمته إلى تسخير مملكة بلقيس بقوله: «أَلَّا» وهلا^٥ «يَسْجُدُوا لِلَّهِ».

وقيل: إن المراد أن تزيين الشيطان عبادة الشمس^٦، لأجل أن يعبدوا الله المتفرد باستحقاق العبادة، حيث إنه القادر «الَّذِي» بقدرته «يُخْرِجُ الْخَبَاءَ» ويظهر المدخر المستور «فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» من الكواكب والأمطار والأرزاق والنباتات وغيرها «وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ» من العقائد

١. تفسير أبي السعود ٦: ٢٨١، تفسير روح البيان ٦: ٣٣٩.

٢. في تفسير روح البيان: ذراعاً وطوله في الهواء ثمانين ذراعاً.

٣. في تفسير روح البيان: اخضر.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٣٩.

٥. بل إن إعراب (ألا يسجدوا) هنا مفعول له للصد على حذف اللام منه، أي فصدهم لثلاث يسجدوا. راجع: تفسير

روح البيان ٦: ٣٤٠. ٦. تفسير البيضاوي ٢: ١٧٤، تفسير أبي السعود ٦: ٢٨١، تفسير روح البيان ٦: ٣٣٩.

وَالنِّبَاتِ ﴿وَمَا تُغْلِثُونَ﴾ وَتُظْهِرُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ، ثُمَّ صَرَحَ بنفي الشريك له في العبادة بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ثُمَّ لَمَّا وَصَفَ عَرْشَ بَلْقِيسَ بِالْعِظْمَةِ، وَصَفَ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الَّذِي لَا يُعَادِلُهُ فِي الْعِظْمَةِ عَرْشُ أَحَدٍ مِنَ الْمُلُوكِ، بَلْ لَا يَلِيْقُ تَوْصِيْفُهُ بِالْعِظْمَةِ فِي قِبَالِهِ.

فِي الْحَدِيثِ: «أَنَّهُمْ عَنْ قَتْلِ الْهَدَّادِ فَأَنَّ كَانَ دَلِيلَ سُلَيْمَانَ عَلَى قَرَبِ الْمَاءِ وَبَعْدِهِ، وَأَحَبُّ أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ * إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ» إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ^١.

قِيلَ: إِنْ قَوْلَ الْهَدَّادِ إِلَى ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وَمَا بَعْدَهُ كَلَامُ اللَّهِ^٢.

ثُمَّ ﴿قَالَ﴾ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِهِ: ﴿سَنَنْظُرُ﴾ فِي مَا أَخْبَرْتَنَا بِهِ وَنَفْتِشُهُ حَتَّى نَعْلَمَ ﴿أَصْدَقْتَ﴾ فِي مَا قُلْتَ ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

رَوَى أَنَّ سُلَيْمَانَ لَمَّا سَمِعَ إِشْرَاكَ أَهْلِ سَبَأٍ غَضِبَ، وَقَالَ انْتَوْنِي بِدَوَاةٍ وَقَلَمٍ حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا أَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِ الْحَقِّ، فَأَتَى بِهِمَا، فَكُتِبَ فِي الْمَجْلِسِ أَوْ بَعْدَهُ إِلَى بَلْقِيسَ: مِنْ عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ إِلَى مَلِكَةِ سَبَأٍ بَلْقِيسَ. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، السَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَا بَعْدُ فَلَا تُعْلُوا عَلَيَّ وَانْتَوْنِي مُسْلِمِينَ. ثُمَّ طَبَعَهُ بِالسَّكِّ وَخَتَمَهُ بِخَاتَمِهِ الْمَقْشُوشِ عَلَى قُصَّةِ اسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، وَقَالَ الْهَدَّادُ: إِنَّكَ رَسُولُ أَخْلَعِكَ بِخَلْعَةٍ، فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَى رِيشِهِ، فَظَهَرَتْ فِيهِ الْأَلْوَانُ الْمُخْتَلِفَةُ، ثُمَّ وَضَعَ إصْبَعَهُ عَلَى رَأْسِهِ فَخَرَجَ مِنْهُ تَاجٌ، وَإِنَّمَا خَصَّةٌ بِالرَّسَالَةِ مِنْ سَائِرِ رَعِيَّتِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالطَّيْرِ، لَمَّا رَأَى فِيهِ مِنَ الْمَعَارِفِ، وَقُوَّةَ الْفِرَاسَةِ، وَبَذَلَ التُّصَحُّ لَهْ وَلِمُلْكِهِ، وَرَعَابَتَهُ جَانِبَ الْحَقِّ، فَعَلَّقَ الْكِتَابَ إِلَى عُنُقِهِ أَوْ أَعْطَاهُ بِمَنْقَارِهِ وَقَالَ لَهُ: ﴿أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا﴾ إِلَى بَلْقِيسَ، وَأَهْلِ سَبَأٍ ﴿فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ﴾ وَاطْرَحَهُ لَدَيْهِمْ ﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾ وَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَبَاعَدَ مِنْهُمْ إِلَى مَكَانٍ لَا يَرَوْنَكَ وَتَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ ﴿فَانْظُرْ﴾ وَتَعْرِفْ ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ وَاسْتَمَعَ مَا يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بَعْدَ قِرَاءَةِ كِتَابِي^٣.

رَوَى أَنَّ الْهَدَّادَ أَخَذَ الْكِتَابَ وَأَتَى بَلْقِيسَ، فَوَجَدَهَا رَاقِدَةً فِي قَصْرِهَا بِمَارِبَ، وَكَانَتْ إِذَا رَفَدَتْ غَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَوَضَعَتْ الْمِفْتَاحَ تَحْتَ رَأْسِهَا، فَدَخَلَ مِنْ كُوَّةٍ وَأَلْقَى الْكِتَابَ عَلَى نَحْرِهَا وَهِيَ مُسْتَلْقِيَةٌ، وَقِيلَ: فَفَرَّهَا وَتَأَخَّرَ يَسِيرًا فَانْتَبَهَتْ فَرَعَةً، وَكَانَتْ قَارِئَةً كَاتِبَةً عَرَبِيَّةً مِنْ نَسْلِ ثَيْعِ الْجُمَيْرِيِّ، فَلَمَّا رَأَتْ الْخَاتَمَ ارْتَعَدَتْ وَخَضَعَتْ، لِأَنَّ مَلِكَ سُلَيْمَانَ كَانَ فِي خَاتَمِهِ، وَعَرَفَتْ أَنَّ الَّذِي أَرْسَلَ

الكتاب أعظم ملكاً منها، لطاعة الطير إياه وهيئة الخاتم، فعند ذلك ﴿قَالَتْ﴾ لأشراف قومها وأعظم مملكته بعد إحضارهم^١: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا﴾ وعظماء القوم قد حدث لي أمرٌ عظيمٌ ﴿إِنِّي أُلْقِيَ﴾ اليوم ﴿إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ﴾ عليّ، ومعظمٌ لديّ، أو مختومٌ كما عن القمي^٢، وفي الحديث: «كُرم الكتاب ختمه»^٣.

قيل: كانت معجزة سليمان ﷺ وملكه في خاتمه، فختم الكتاب به، فألقى الرُّعب في قلبها حتى شهدت بكرَم كتابه^٤.

وقيل: الكريم يعني حسناً ما فيه^٥، أو مرضياً في لفظه ومعانيه^٦، أو شريفاً لتصدّره بالبسملة^٧، أو اصلاً عن نهج غير معتاد^٨.

قيل: إنها لما سمعت قبلها بسلطنة سليمان على الجنّ والانس والوحش والطير، عظمت كتابه^٩. وإنما رُزقت الايمان لتكريمها الكتاب، ثم سألتها الأشراف عن مرسله ومضمونه فقالت: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ﴾ مكتوب في أوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم مكتوب فيه ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ﴾ ولا تترفعوا عن طاعتي، ولا تكبروا بكبر الجابرة ﴿وَأَتُونِي﴾ جميعاً حال كونكم ﴿مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لأوامري، أو مؤمنين موحدين.

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُوْنَ *
قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ *
قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [٣٤-٣٢]

فلما رأت أنه مع إيجازه فيه الدعوة إلى التوحيد بذكر البسملة، والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل، والأمر بالاسلام الذي هو أم الفضائل، مع الحجة القاطعة على عظم شأن مرسله وصدقه بارساله بتوسط الهدده، واتصاله إليها بنحوٍ خارجٍ للعادة ﴿قَالَتْ﴾ للأعظم الذين كانوا يحضرتها، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو اثني عشر ألفاً: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ وقولوا ما تستفتون في

١. تفسير أبي السعود ٦: ٢٨٣، تفسير روح البيان ٦: ٣٤١.

٢. تفسير القمي ٢: ١٢٧، تفسير الصافي ٤: ٦٥.

٣. جوامع الجامع: ٣٣٧، تفسير الصافي ٤: ٦٥.

٤. تفسير الرازي ٤: ١٩٤، تفسير روح البيان ٦: ٣٤٢.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٤١.

٦. تفسير أبي السعود ٦: ٢٨٣.

٧. تفسير روح البيان ٦: ٣٤٢.

٨. مجمع البيان ٧: ٣٤٣.

٩. في النسخة: قلبها سلطنة.

شأنِي؟ فَأَنِي مِمَّنْ مَلَكَتْ زِمَامَ السُّلْطَانَةِ ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً﴾ وَمَنْفَذَةً ﴿أَمْرًا﴾ مِنَ الْأُمُورِ الْمَهْمَةِ وَغَيْرِهَا ﴿حَتَّى تَشْهَدُون﴾ وَتَحْضُرُونَ عِنْدِي، وَتَصَوِّبُونَ عَمَلِي، اعْتِمَادًا عَلَى عَقُولِكُمْ، وَاسْتِمْدَادًا بِأَرَانِكُمْ ﴿قَالُوا﴾ فِي جَوَابِهَا: ﴿تَحْنُ﴾ رَجَالٌ ﴿أَوَّلُوا قُوَّةً﴾ وَذَوُو الْأَجْسَامِ الْعَظِيمَةِ السَّالِمَةِ وَالْعَدَدِ الْكَثِيرِ، وَالغَدَّةِ الْكَامِلَةِ لِلْحَرْبِ ﴿وَأَوَّلُوا بِأَيْسٍ﴾ وَيَطِشُ ﴿شَدِيدًا﴾ وَنَجْدَةٌ وَشَجَاعَةٌ تَامَةٌ فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ حَسَنُ الْأَدَبِ فِي أَنْ لَا يَحْكُمَ أَهْلُ الْمَشُورَةِ عَلَى الرَّئِيسِ الْمُسْتَشِيرِ بِالْعَمَلِ بِرَأْيِهِمْ، بَلْ عَلَيْهِمْ أَنْ يُخْبِرُوهُ فِي مَا أَرَادَ قَالُوا: ﴿وَالْأَمْرُ﴾ مَفُوضٌ ﴿إِلَيْكَ﴾ مُوَكَّلٌ إِلَى نَظَرِكَ وَرَأْيِكَ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ بِهِ حَتَّى تُطِيعَكَ فِيهِ، فَلَمَّا رَأَتْ مِيْلَهُمْ إِلَى الْحَرْبِ بِإِظْهَارِ قُوَّتِهِمِ الدَّائِيَةِ وَالْعَرْضِيَّةِ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَهَا خِلَافَ الصَّوَابِ، أَخَذَتْ فِي تَزْيِيفِ رَأْيِهِمْ. ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا﴾ بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ وَبِطَرِيقِ الْمَقَابِلَةِ ﴿قَرْيَةً﴾ مِنَ الْقُرَى، وَبِلَدَةٍ مِنَ الْبِلَادِ ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ وَخَرَّبُوهَا، وَأَتْلَفُوا مَا فِيهَا مِنَ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ ﴿وَجَعَلُوا أَعْيُنَ أَهْلِهَا﴾ وَصَيَّرُوا أَشْرَافَ سَاكِنِهَا ﴿أَذَلَّةً﴾ بِالْأَسْرِ وَالْإِجْلَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فُنُونِ الْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ.

ثُمَّ أَكَّدَتْ قَوْلَهَا بِقَوْلِهَا: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الَّذِي قُلْتَ مُلُوكَ الدُّنْيَا ﴿يَفْعَلُونَ﴾ بِحَسَبِ الْعَادَةِ وَالسَّيْرِ الْمُسْتَمِرَّةِ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ فِي مَقَاتِلَتِهِمْ وَغَلْبَتِهِمْ عَلَيْنَا تَخْرِيبُ مَلِكِنَا، وَإِذْلَالُ رَعَايَانَا، فَإِذَا كَانَ الْأَصْلَحُ هُوَ الصَّلَحُ.

وَعَنِ الْقَمِيِّ وَبَعْضِ الْعَامَةِ: أَنَّ الدَّلِيلَ كَلَامُ اللَّهِ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ بَلْقَيْسٍ^١.

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظَرْتُ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سَلِيمَانُ قَالَ
أَتَمِدُّونَ بِسَمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ
تَفْرَحُونَ [٣٥ و ٣٦]

ثُمَّ ذَكَرَتْ مُقَدِّمَةَ الصَّلَحِ بِقَوْلِهَا: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ عَظِيمَةٍ ﴿فَنَظَرْتُ﴾ وَرَائِيَّةً، أَوْ مُنْتَظَرَةً ﴿بِمِ يَرْجِعُ﴾ إِلَيَّ مِنَ الْخَبَرِ ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ مِنْ قِبَلِي إِلَى سَلِيمَانَ، أَنَّهُ قَبْلَ الْهَدِيَّةِ أَوْ رَدِّهَا، فَتَسْتَكْشِفُ مِنْ مَعَامِلَتِهِ وَمَكَالَمَتِهِ حَالَتَهُ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ مَلِكٌ، وَنَعْلَمُ غَرَضَهُ أَنَّهُ السُّلْطَانَةُ أَوْ الْهَدِيَّةُ، فَتَعْمَلُ بِمَقْتَضَاهَا. رُوي أَنَّهَا بَعَثَتْ خَمْسَمِائَةَ غُلَامٍ، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الْجَوَارِي وَحُلِيِّهِمْ^٢ كَالْأَسَاوِرِ وَالْأَطْوَاقِ وَالْقِرَاطِ مَخْضَبِي الْأَيْدِي، رَاكِبِي خَيْلٍ مُغَشَّاةٍ بِالْدَّبِيَّاجِ، مُحَلَّاةٍ اللَّجْمِ وَالسُّرُوجِ بِالذَّهَبِ الْمَرْصُوعِ بِالْجَوَاهِرِ،

٢. فِي النُّسخَةِ: سَلِيمَانَ.

١. تَفْسِيرُ الْقَمِيِّ ٢: ١٢٨، تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٦: ٣٤٤، تَفْسِيرُ الصَّافِي ٤: ٦٥.

وخمسائة جارية على رِماك^١ في زِيِّ الْعُلَمَانِ، وَأَلْفَ لَبَنَةٍ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، وَتَاجاً مُكْدَلًا بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ الْمُرْتَفَعِ قِيَمَتَهُ، وَمَقْدَاراً كَثِيراً مِنَ الْمِسْكِ وَالْعَبَرِ، وَحَقَّةً فِيهَا دُرَّةٌ ثَمِينَةٌ غَيْرُ مَثْقُوبَةٍ، وَخَرَزَةٌ جَزَعِيَّةٌ مَعُوجَةٌ الثَّقَبِ، وَكُتِبَتْ كِتَاباً فِيهِ نَسْخَةُ الْهِدَايَا، وَبَعِثَتْ مَعَ الْهِدَايَا رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهَا يُقَالُ لَهُ الْمُنْذِرُ بْنُ عَمْرٍو، وَضُمَّتْ إِلَيْهِ رَجَالًا مِنْ قَوْمِهَا ذَوِي رَأْيٍ وَعَقْلٍ، وَقَالَتْ: إِنْ كَانَ نَبِيًّا مَيَّزَ بَيْنَ الْعُلَمَانِ وَالْجَوَارِي، وَأَخْبَرَ بِمَا فِي الْحَقَّةِ قَبْلَ فَتْحِهَا، وَثَقَبَ الدَّرَّةَ ثَقَبَاتٍ مُسْتَقِيمَاتٍ^٢، وَسَلَكَ فِي الْخَرَزَةِ خَيْطًا. ثُمَّ قَالَتْ لِلْمُنْذِرِ: إِنْ نَظَرَ سُلَيْمَانُ إِلَيْكَ نَظَرَ غَضَبَانٍ فَهُوَ مَلِكٌ، فَلَا يَهْوِلَنَّ مَنَظَرُهُ، وَإِنْ رَأَيْتَهُ هَشًّا لَطِيفًا فَهُوَ نَبِيٌّ.

فَاقْبَلِ الْهَدَاهِدَ نَحْوَ سُلَيْمَانَ مُسْرِعًا، فَأَخْبِرْهُ الْخَبَرَ، فَأَمَرَ سُلَيْمَانُ الْجَنَّ فَضَرَبُوا لَبَنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَفَرَشُوهَا فِي مِيدَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِ طُولُهُ سِتَّةُ فَرَاسِخَ، وَجَعَلُوا حَوْلَ الْمِيدَانِ حَائِطًا شُرَفَاتِهِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَمَرَ بِأَحْسَنِ الدَّوَابِّ الَّتِي فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَرِطُوهَا عَنْ يَمِينِ الْمِيدَانِ وَيسَارَ [عَلَى اللَّبَنِ وَأَمَرَ بِأَوْلَادِ الْجَنِّ وَهُمْ خَلَقَ كَثِيرٌ فَأَقِيمُوا عَلَى الْيَمِينِ وَاليسَارِ]، ثُمَّ قَعَدَ عَلَى سَرِيرِهِ وَالْكَرَاسِيِّ مِنْ جَانِبِيهِ، فِي يَمِينِهِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ كُرْسِيِّ مِنْ ذَهَبٍ، وَفِي يسَارِهِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ، وَاصْطَفَتْ الشَّيَاطِينُ صُفُوفًا فَرَاسِخَ، وَالْإِنْسُ صُفُوفًا، وَالْوَحْشُ وَالسَّبَاعُ وَالْهُوَامُ كَذَلِكَ فَلَمَّا دَنَا رَسُلُ بَلْقَيْسَ مِنْ مَجْلِسِ سُلَيْمَانَ وَنَظَرُوا إِلَيْهِ بُهِتُوا، وَرَأَوْا الدَّوَابَّ تَرُوتُ عَلَى لَبَنِ الذَّهَبِ، فَكَانَ حَالَهُمْ كَحَالِ أَغْرَابِيٍّ أَهْدَى إِلَى خَلِيفَةٍ بِغَدَادِ جَزَةِ مَاءٍ، فَلَمَّا رَأَى رَجُلَةً خَجَلٍ وَصَبَةٍ.

وَلِذَا قِيلَ: إِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى سُلَيْمَانَ مِنَ الْمُلْكِ الْكَبِيرِ، اسْتَقَلُّوا مَا عِنْدَهُمْ حَتَّى هَمَّوْا بِطَرَحِ اللَّبَنَاتِ، إِلَّا أَنَّهُ مَنَعَتْهُمْ الْأَمَانَةُ مِنْ ذَلِكَ، وَجَعَلُوا يَمْزُونُ بِكَرَادِيسِ الْجَنِّ وَالشَّيَاطِينِ فَيَفْزَعُونَ، وَكَانَتِ الشَّيَاطِينُ يَقُولُونَ: جُوزُوا وَلَا تَخَافُوا، فَلَمَّا وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيْ سُلَيْمَانَ ﷺ نَظَرَ إِلَيْهِمْ بِوَجْهِ حَسَنِ طَلَّقِي، وَقَالَ: مَا وَرَاءَكُمْ؟ فَأَخْبَرَ الْمُنْذِرُ الْخَبَرَ، وَأَعْطَى كِتَابَ بَلْقَيْسَ، فَنَظَرَ فِيهِ فَقَالَ: أَيْنَ الْحَقَّةُ؟ فَجِئْتُ بِهَا، فَقَالَ: إِنَّ فِيهَا دُرَّةً ثَمِينَةً غَيْرَ مَثْقُوبَةٍ، وَخَرَزَةً جَزَعِيَّةً مُعُوجَةً الثَّقَبِ، وَذَلِكَ بِإِخْبَارِ جَبْرِئِيلَ أَوْ الْهَدَّهِدِ.

فَأَحْضَرَ سُلَيْمَانُ ﷺ الْجَنَّ وَالْإِنْسَ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ عِلْمُ الثَّقَبِ وَالسَّلَكِ، فَقَالَتِ الشَّيَاطِينُ لِسُلَيْمَانَ ﷺ: إِرْسِلْ إِلَى الْأَرْضَةِ، فَجَاءَتِ الْأَرْضَةُ فَأَخَذَتْ شَعْرَةً فِي فِيهَا، فَدَخَلَتْ فِي الدَّرَّةِ وَثَقَبَتْهَا حَتَّى خَرَجَتْ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ ﷺ: مَا حَاجَتُكَ؟ فَقَالَتْ: تُصَيِّرُ رِزْقِي فِي الشَّجَرِ. قَالَ: لَكَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ لِهَذِهِ الْخَرَزَةِ يُسَلِّكُهَا الْخَيْطُ؟ فَقَالَتْ دُودَةٌ بِيضَاءُ: أَنَا لَهَا يَا أَمِينَ اللَّهِ. فَأَخَذَتْ

٢. فِي تَفْسِيرِ رُوحِ الْبَيَانِ: ثَقَبَاتٍ مُسْتَوِيَّاتٍ.

١. رِمَاكٌ، جَمْعُ رَمَكَةٍ الْفَرَسِ.

الخيط في فمها، ونفذت في الحَرَزَة حتى خرجت من الجانب الآخر. فقال سليمان: ما حاجتك؟ قالت: تجعل رزقي في الفواكه. قال: لك ذلك، فجمع سليمان بين طرفي الخيط وختمه، ودفعها إليهم.

ثم طلب سليمان ﷺ الماء، فأمر الغلمان والجواري أن يغسلوا وجوههم من الغبار، ليميز بين الجواري والغلمان، فكانت الجارية تأخذ الماء بإحدى يديها فتجعله في الأخرى، ثم تضرب به وجهها، والغلام كان يأخذه من الآنية ويضرب به وجهه^١.

وأما الهدية ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ المنذر بها ﴿سُلَيْمَانَ﴾ وقد قالت بلقيس: إن قبلها سليمان كان ملكاً، وإن ردها كان نبياً، ولذا ﴿قَالَ﴾ سليمان ﷺ للمنذر وبلقيس تغليلاً للحاضر على الغائبة أو للرسول: ﴿أَتَمِدُّونَنِي﴾ وتَقَوُّونِي ﴿بِمَالٍ﴾ لا اعتداد به ﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ﴾ وهب لي من الملك العظيم الذي لا ينبغي لأحد من بعدي مع العلم والزلفى والنبوة والمال ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿مِمَّا آتَاكُمْ﴾ وأنعم عليكم من المال القليل والمتاع اليسير الدنيوي، فلا حاجة لي إلى هديتكم، ولا وَقَع لها عدي ﴿بَلْ أَنتُمْ لِحَبِكُمُ الدُّنْيَا وَخُطَايَاكُمْ﴾ وما يَهْدِي إليكم من المال ﴿تَفْرَحُونَ﴾ فليس لكم أن تستميلوا قلبي إليكم بالأموال.

روى بعض العامة عن الصادق ﷺ قال: «الدنيا أصغر قدراً عند الله وعند أنبيائه وأوليائه من أن يفرحوا بشيء منها أو يحزنوا عليه»^٢.

وقيل: إنه ﷺ بعد إنكاره عليهم إمداده بالمال، أضرب عنه إلى توبيخهم بفرحهم بهديتهم التي أهدوها إليه افتخاراً وامتناناً واعتداداً بها^٣.

وقيل: إن المعنى بل أنتم من حَقَّكم أن تأخذوا هديتكم وفرحوا بها^٤.

أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَّا تِيبَتْهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ * قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَفْكُم بِأُتَيْنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجَرِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ

٢ و ٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٤٦.

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٤٤ - ٣٤٥.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٩٦.

وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رُبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ [٣٧-٤٠]

ثم هدّد سليمان بلقيس وقومها على امتناعهم عن طاعته بقوله: ﴿أَزِجْ﴾ أيها الرسول المبعوث من قبل ملكة سبأ وقومها ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وأخبرهم أنني لا اتخذ بالهدايا والتحف، بل أريد منهم الطاعة والانقياد، فان أطاعوني واستسلموا لي والّا ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ﴾ من الجنّ والإنس ﴿بِجُنُودٍ عَظِيمَةٍ﴾ لّا قِبَلٍ ولا طاقة ﴿لَهُمْ﴾ للمقاومة ﴿بِهَا﴾ أصلاً ﴿وَوَ﴾ والله ﴿لَنَخْرِجَنَّهُمْ﴾ من مملكتهم ولنجليّهم ﴿مِنْهَا﴾ حال كونهم ﴿أَذَلَّةٌ﴾ بعد كونهم أعزّة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ومستحقرون بالأسر والإجلاء بعد كونهم معظّمون.

القمي: فرجع إليها الرسول فأخبرها^١ برّد الهدية وثقب الدرّة وسلك الخيط في الخرزّة، وعظمة حشمة سليمان وكمال قدرته، فعلمت أنّه لا محيص لها من الانقياد والتسليم، فبعثت إلى سليمان: أني قادمة إليك بمُلوّك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك، ثم جعلت عرشها في بيت وقلعت أبوابه، وجعلت عليه خُراساً، وأخذت مفتاح البيت عند نفسها، ثمّ توجّهت مع عسكرها نحو سليمان.

قيل: كان لها اثنا عشر ألف ملك كبير، تحت كلّ ملك ألوف كثيرة، وكان سليمان ﷺ رجلاً مهيباً لا يبدأ بشيء حتى يسأل عنه، فجلس يوماً على سريره، فرأى جمعاً جمّاً على فرسخٍ عنه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: بلقيس بملوكها وجنودها، فأقبل سليمان ﷺ على أشراف قومه، وقيل: حين علم بمسيرها إليه^٢ ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ من بلدة مأرب، ويحضّره لديّ في مكاني هذا ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي﴾ حال كونهم ﴿مُسْلِمِينَ﴾ ومتقادين، أو مؤمنين.

أقول: لعله ﷺ أراد من إحضاره عنده إراءتها معجزةً أخرى أول ورودها عليه، لتكون في إيمانها على بصيرة كاملة، أو أراد اختبار عقلها وفطانتها بعد تنكيره عرشها عندها، لينظر أنها تعرفه أو تنكره. قيل: ذلك لأنّ الجنّ قدحوا فيها بنقص العقل لثلاث تزوّجها^٣. وقيل: إنّهُ أراد تملك عرشها قبل إيمانها لاحترام مالها بعده^٤.

﴿قَالَ﴾ ذكوان، أو كوزي، أو اصطرخر، وهو ﴿عَفْرِيتٌ﴾ ومارّة خبيث ﴿مِّنْ﴾ شياطين ﴿الْجِنِّ﴾ قيل: كان رئيسهم، وكان قبل ذلك متمرّداً على سليمان ﷺ، وكان كالجبل العظيم يضع قدمه عند

١. تفسير القمي ٢: ١٢٨، تفسير الصافي ٤: ٦٦. ٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٤٨.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠١، تفسير أبي السعود ٦: ٢٨٩.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ١٩٧، وفيه: قبل إسلامها لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها.

متهى طرفه^١: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ وأحضره عندك ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ ومجلس حكومتك، وكان جلوسه إلى نصف النهار ﴿وَرَأَى عَلَيْهِ لَقَويَّ آمِينَ﴾ على حفظه وحفظ ما فيه من الجواهر والنفائس لا اختلس منه شيئاً ولا أبدله.

قيل: إنه قال سليمان عليه السلام: أريد أسرع من هذا^٢ ﴿قَالَ﴾ آصف بن برخيا وهو على ما قيل: كان ابن خالة سليمان ووزيره وكتابه ومؤدبه في صغره وصديقه^٣ ﴿الَّذِي عِنْدَهُ﴾ الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب و﴿عَلَّمَ﴾ كثير ﴿مَنْ الْكِتَابِ﴾ المنزل على الأنبياء السابقين كإبراهيم وموسى وغيرهما، وعمله به، أو علم ببعض اللوح المحفوظ وإساره المكتوبة فيه. عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ذلك وصي أخي سليمان بن داود»^٤: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ويرجع إليك ناظر، ويتحرك جفئك. قيل: خرّ ساجداً، وقال: يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام^٥. ثم سأل الله إحضار عرش بلقيس فحضر، وقيل: خسف الله به الأرض^٦، ثم أخرجه منها في محضر سليمان عليه السلام ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ﴾ سليمان ﴿مُسْتَقِرًّا﴾ وتمكناً ﴿عِنْدَهُ﴾ وحاضراً لديه في أقل من طرفة عين.

عن الباقر: «أن اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً، وإنما كان عند آصف منه حرف^٧، فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده، ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين»^٨.

وفي رواية أخرى: «فتكلم به، فانخسفت الأرض ما بينه وبين السرير، والتقت القطعتان، وحول من هذه على هذه»^٩.

﴿قَالَ﴾ سليمان تشكراً للنعمة ﴿هَذَا﴾ الذي أرى من حضور العرش لديّ بأسرع زمان، وحصول مرادي بأحسن وجه ﴿مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ عليّ وإحسانه إليّ بلا استحقاقٍ مِنِّي، وإنما أعطاني هذه النعمة ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ ويختبرني ﴿أَمْ أَنَا أَشْكُرُ﴾ ها، بأن أراها منه بلا حول وقوة مِنِّي، وأأذي حقها من الطاعة والعبادة ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ ها، بأن لا أراها منه، ولا أقوم بموجها.

قيل: فلما رآه رفع رأسه وقال: الحمد لله الذي جعل في أهلي من يدعوهُ فيستجيب له^{١٠}.

١- ٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٤٩.

٤. أمالي الصدوق: ٨٩٢/٦٥٩، روضة الواعظين: ١١١، تفسير الصافي ٤: ٦٧.

٥ و ٦. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٠.

٧. في الكافي وبصائر الدرجات وتفسير الصافي: منها حرف واحد.

٨. الكافي ١: ١٧٩، بصائر الدرجات: ١/٢٢٨، تفسير الصافي ٤: ٦٧.

٩. بصائر الدرجات: ٦/٢٢٩، تفسير الصافي ٤: ٦٧، وفيه: إلى هذه.

١٠. تفسير روح البيان ٦: ٣٥١ و ٣٥١.

ثُمَّ نَبِّهَ ﷺ بِحَاجَةِ الْعَبْدِ إِلَى الشُّكْرِ، وَغْنَى الرَّبِّ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ شَكَرَ﴾ نِعَمَ اللَّهِ ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرْ لِنَفْسِهِ﴾ وَنَفَعَهُ عَانِدٌ^١ إِلَيْهَا، لِكَوْنِهِ سَبَبًا لِدَوَامِهَا وَمَزِيدَهَا، وَالثَّوَابِ عَلَيْهِ ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ النِّعَمَ بِعَدَمِ مَعْرِفَةِ قُدْرَتِهَا، وَحَقَّ مَنَعِهَا، وَتَرَكَ أَدَاءَ حَقِّهَا، فَإِنَّ ضَرَرَ كُفْرَانِهِ عَلَيْهِ ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عَنْ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ ﴿كَرِيمٌ﴾ وَتَمَنُّضَ عَلَيْهِمْ بِجُودِهِ بِنِعْمِهِ، وَإِنْ لَمْ يَشْكُرُوا.

قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ
[٤١-٤٤]

ثُمَّ ﴿قَالَ﴾ سُلَيْمَانُ لِحَدَمِهِ: إِذَا جَاءَتْ بَلْقِيسُ ﴿نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ بِأَنْ غَيَّرَ وَاهِيَتُهُ وَشَكَّلَهُ بِحَيْثُ لَا تَعْرِفُهُ فِي بَادِي النَّظَرِ ﴿نَنْظُرُ﴾ وَنَرَاهَا ﴿أَتَهْتَدِي﴾ إِلَى مَعْرِفَتِهِ فَتُظْهِرُ كِيَاْسَتَهَا وَقُوَّةَ فَطَانَتِهَا النَّاشِئَةِ مِنْ كَمَالِ عَقْلِهَا ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إِلَى مَعْرِفَتِهِ فَتُظْهِرُ سَخَافَةَ عَقْلِهَا.

قِيلَ: إِنَّ الشَّيَاطِينَ خَافُوا أَنْ تُفْشِيَ بَلْقِيسُ أَسْرَارَهُمْ إِلَى سُلَيْمَانَ ﷺ، لِأَنَّ أَمَهَا كَانَتْ جَنِيَّةً، وَإِنْ يَتَزَوَّجُهَا سُلَيْمَانُ ﷺ، وَيَكُونُ مِنْهُمَا وَلَدٌ جَامِعٌ لِلْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَيُرِثُ الْمُلْكَ فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَلِكِ سُلَيْمَانَ ﷺ إِلَى مَلِكٍ هُوَ أَشَدُّ وَأَفْضَعُ، وَلَا يَنْفَكُونَ مِنَ التَّسْخِيرِ، فَأَرَادُوا أَنْ يُبْغِضُوهَا إِلَى سُلَيْمَانَ ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ فِي عَقْلِهَا خِلَافًا وَقُصُورًا، وَأَنَّهَا شَعْرَاءُ السَّاقِينَ، وَأَنَّ رَجُلَيْهَا كَحَافِرِ حِمَارٍ، فَأَرَادَ سُلَيْمَانُ ﷺ أَنْ يَخْبِرَهَا فِي عَقْلِهَا^٢ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ إِلَى سُلَيْمَانَ ﷺ وَالْعَرْشَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿قِيلَ﴾ لَهَا مِنْ قَبْلِ سُلَيْمَانَ: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾؟ وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ: أَهَذَا عَرْشُكَ؟ لِثَلَاثِ أَسْبَابٍ: أَوَّلُهَا لِيَكُونَ تَلْقِينًا لَهَا، فَتُظْهِرَ إِلَيْهِ فَعْرِفَتَهُ، وَلَكِنْ لَمَّا رَأَتْ فِيهِ تَغْيِيرًا لَمْ تَقُلْ لَا وَلَا نَعَمْ، بَلْ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فَلَوْحَتْ إِلَى نَوْعٍ مَغَايِرَةٍ لَهُ.

قِيلَ: جَعَلَتِ الشَّيَاطِينَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، وَبَنَوْا فَوْقَهُ قِيَابًا^٣ [أُخْرَى]، وَجَعَلُوا مَوْضِعَ الْجَوْهَرِ الْأَحْمَرِ

١. في النسخة: عانده. ٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٢.

٣. زاد في تفسير روح البيان: هي أعجب من تلك القباب.

الأخضر وبالعكس^١.

ثُمَّ ظَنَّتْ أَنَّ سُلَيْمَانَ أَرَادَ اخْتِبَارَ عَقْلِهَا وَإِظْهَارَ مَعْجَزَةٍ لَهَا، قَالَتْ: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ بِنُتُوكَ ﴿مِنْ قَبْلِهَا﴾ لِدَلَالَةِ غَيْرِهَا مِنَ الْمَعْجَزَاتِ عَلَى صِدْقِ دَعْوَاكَ ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وَمُؤْمِنِينَ بِكَ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ عِلَّةَ إِخْفَانِهَا الْإِيمَانَ بِهِ قِيلَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَصَدَّهَا﴾ وَمَنْعَهَا مِنْ إِظْهَارِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِنُبُوءَةِ سُلَيْمَانَ قَبْلَ الْوَقْتِ ﴿مَا كَانَتْ تَتَعَبَّدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مِنَ الشَّمْسِ، أَوِ النَّارِ، وَعِبَادَتِهَا الْقَدِيمَةِ لَهَا.

ثُمَّ نَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى نَكْتَةِ سَبَبِيَّةِ عِبَادَتِهَا السَّابِقَةِ لَصَدَّهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وَنَاشِئَةٍ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ، فَلَمْ يُمْكِنْهَا إِظْهَارُ الْإِسْلَامِ حَتَّى دَخَلَتْ فِي مَمَكَلَةِ سُلَيْمَانَ فَصَارَتْ مِنْ قَوْمِ مُسْلِمِينَ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ صَدَّهَا اللَّهُ أَوْ سُلَيْمَانَ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ^٢، أَنَّهَا كَانَتْ قَبْلَ تَوْفِيقِ اللَّهِ وَهَدَايَةِ سُلَيْمَانَ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ، لَا تَعْرِفُ غَيْرَ مَذْهَبِهِمْ.

وَقِيلَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ إِلَى آخِرِهِ، مِنْ كَلَامِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَيْثُ إِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ قَالُوا: إِنَّهَا أَصَابَتْ فِي الْجَوَابِ، فَهِيَ عَاقِلَةٌ، وَقَدْ رَزَقَتْ الْإِسْلَامَ^٣.

ثُمَّ عَظَفُوا عَلَى ذَلِكَ قَوْلِهِمْ: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ بِاللَّهِ وَبِقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ ﴿قَبْلَ عِلْمِهَا﴾ إِظْهَاراً لِلشُّكْرِ عَلَى تَقَدُّمِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ عَلَيْهَا.

قِيلَ: لَمَّا قَالَتِ الشَّيَاطِينُ: إِنَّ سَاقِيهَا شَعْرَاوَانٌ وَإِنْ رَجَلَيْهَا كَحَافِرِ الْحِمَارِ لَا أَصَابِعَ لَهَا، أَمَرَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَاءِ قَصْرِ صَحْنِهِ مِنْ زَجَاجٍ أَبْيَضَ وَأَجْرَى مِنْ تَحْتِ الْمَاءِ، وَأَلْقَى فِيهِ السُّمُوكَ^٤ وَدَوَابَّ الْبَحْرِ، وَوَضَعَ سَرِيرَهُ فِي وَسْطِهِ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ، وَعَكَفَ عَلَيْهِ الطَّيْرُ وَالْجِنَّ وَالْإِنْسُ، فَلَمَّا جَاءَتْ بَلْقِيسُ إِلَى بَابِ الْقَصْرِ^٥ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ وَالْقَصْرِ الرَّفِيعَ ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ وَالشَّمْسُ تُشْرِقُ عَلَيْهِ، وَالْمَاءُ يَمُوجُ فِي صَحْنِهِ، وَالسُّمُوكُ تَسِجُ فِيهِ ﴿حَسِبْتُهُ﴾ وَتَوَهَّمَتْهُ ﴿لُجَّةً﴾ وَمَاءً قَلِيلاً يَبْلُغُ الْكَعْبِينَ، أَوْ أَنْصَافَ السُّوقِ، أَوْ مَاءً كَثِيراً تُرَدُّ أَمْوَاجُهُ، فَشَمَرَتْ ذَيْلُهَا ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ لثَلَا تَبْتَلَّ ثِيَابَهَا، فَرَأَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهَا أَحْسَنَ النِّسَاءِ سَاقاً وَقَدَمًا، خَلَا أَنَّهَا شَعْرَاءُ ﴿قَالَ﴾ سُلَيْمَانَ لَهَا: لَا تَكْشِفِي عَنْ سَاقِيكَ، فَإِنْ مَا تَرَيْنَهُ لَيْسَ بِمَاءٍ ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ﴾ وَقَصْرٌ ﴿مُزْمَدٌ﴾ وَمَسْوَى ﴿مِنْ قَوَارِيرَ﴾ وَمَصْنُوعٌ مِنَ الزَّجَاجِ الْأَبْيَضِ الصَّافِي فَوْقَ مَاءٍ، أَوْ لَمْ يَكُنْ مَاءً، بَلْ كَانَ الزَّجَاجُ الصَّافِي شَبِيهاً بِالْمَاءِ.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠٠.

٤. السُّمُوكُ، جَمْعُ سَمَكٍ.

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٢.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ١٩٩ و ٢٠٠.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٣.

قيل: إنه لما رأى ساقها شعراء كرهه، وأمر الشياطين أن يتخذوا لها شيئاً يذهب الشعر، فقالوا: نحتال لك حتى تصير كالفضة، فاتخذوا التورة والحمام، فكانت التورة والحمام من يومئذ^١.
وقيل: إن الحمام الذي ببית المقدس بباب الأسباط بُني لها، وهو أول حمام بني على وجه الأرض^٢.

وقيل: إن جنياً قال لسليمان: ابني لك داراً تكون في بيوته الأربعة الفصول الأربعة، فبنى الحمام^٣.
فلما عُلِمَت بلمقيس أنه قوارير، استحييت وتسترّت وكملت إيمانها بالتوحيد ونبوة سليمان عليه السلام. **﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾** باختيار الشرك قبل اهتدائي إلى التوحيد بهداية سليمان.

وقيل: حُيِبَت أن سليمان عليه السلام أراد غرقها بالماء، فلما تبين لها خطأ ظنّها قالت: **﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾** بسوء ظنيّ بسليمان^٤ **﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾** وأخلصت التوحيد اقتداءً به **﴿لَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** فأظهرت كمال معرفتها بألوهيته تعالى، وتفردّه باستحقاق العبادة، ومعرفتها بالربوبية لجميع الموجودات التي من جملتها الشمس التي كانت تعبدها من قبل، بالجمع بين ذكر اسم الجلالة ووصفه بالربوبية، ثم تزوّجها سليمان، ومن قال بذلك استدلّ عليه بنظره عليه السلام إلى ساقها، فلو لم يكن مريداً لتزويجها لم يكن له ذلك، ولم يشاور الإنس والجنّ في علاج إزالة شعرها مع أنه شاور الإنس فقالوا: موسى، فقال: موسى يخذش ساقها، ثم شاور الجنّ فما اهتدوا إلى شيء، ثم شاور الشياطين فعبّزوا التورة والحمام.

قيل: أحبّها حباً شديداً، وأقرّها على ملكها، وأمر الجنّ فبنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم يُر مثلاً في الارتفاع والحسن، وكان عليه السلام يزورها في كلّ شهرٍ مرّة، ويقيم عندها ثلاثة أيام، وولدت له داود بن سليمان، ثم مات في حياة أبيه^٥.

وقيل: إنه عليه السلام عرض عليها النكاح فأبته، وقالت: مثلي لا ينكح الرجال، فأعلمها سليمان عليه السلام أن النكاح من شريعة الاسلام، فقالت: إن كان ذلك فزوّجني من ذي ثبّع، وكان هو فتى من أبناء ملوك اليمن، فزوّجها إياه، ثم ردها إلى اليمن، وسلّط زوجها على اليمن، ودعا زبوجة أمير جنّ اليمن، فأمره أن يكون في خدمته، ويعمل له ما استعمله فيه^٦.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ

٤. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠١.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٣.

١ - ٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٤.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٤.

يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ
 اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ
 أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ [٤٧-٤٥]

ثم حكى سبحانه لطفه بصالح بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَبِيلَةِ ﴿تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ وكان ما
 أرسل به ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ولا تعبدوا غيره، فأمن به جمع منهم ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ بعد هذه الدعوة
 ﴿قَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ويجادلون في صدق نبوته ودعواه التوحيد وكذبهما ﴿قَالَ﴾ صالح - للفرقة
 المكذبة القائلين له: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابٍ اللَّهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^١ - ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾
 وتطلبون سرعة نزول العقوبة عليكم ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ والتوبة ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ وهلا تتوبون
 إليه قبل نزول العذاب؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبولها وصرفه عنكم، كيلا تُعَذَّبُونَ بل تُنعمون.

قيل: إنهم كانوا يقولون من جهلهم وغوايتهم: إن أتيتنا بما تعدنا من العذاب تبنا حينئذٍ وإلا فنحن
 على ما كنا عليه^٢، فويخهم صالح على هذا القول، وحثهم على استعجال التوبة.

وقيل: إن المعنى لم تسألون البلاء والعقوبة قبل سؤال العافية والرحمة، ولم لا تُقدِّموا طلب
 الرحمة على طلب العقوبة^٣.

ثم إنهم بعد دعوة صالح بالطف بيان ونُصحه لهم بأبلغ وجه، عارضوه بأسوأ قول حيث ﴿قَالُوا﴾
 في جوابه: يا صالح إنا ﴿أَطَّيَّرْنَا﴾ وتشاء منا ﴿بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ من المؤمنين حيث تابعت علينا بعد
 دعوتك وإيمانهم بك الشدائد والبلايا.

قيل: أنهم قَطَّعُوا فقالوا: أصابنا هذا الشر من شؤمك وشؤم أصحابك^٤ ﴿قَالَ﴾ صالح: ﴿طَائِرُكُمْ﴾
 وما جاء به الشر إليكم كائنٌ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وسابقٌ في علمه، أو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، وهو
 تقديره وإرادته، أو عملكم الذي هو محفوظٌ عنده.

ثم أضرَبَ ﷺ عن إسناد شرهم إلى الطائر الذي هو السبب لابتلائهم إلى الإسناد إلى الحكمة
 الداعية له بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بالبلايا وتُخْتَبَرُونَ بإنزال الشرور عليكم، ليتضح أنكم
 تردعون عن الكفر والمعاصي أم لا، وتنصرفون عن قبائح الأعمال أم تديمون عليها؟ أو المراد بل
 أنتم قوم تُعَذَّبُونَ على معاصيكم، أو أنتم قوم تقعون في الفتنة بوسوسة الشيطان.

١. العنكبوت: ٢٩/٢٩. ٢. تفسير أبي السعود: ٦، ٢٩٠، تفسير روح البيان: ٦، ٣٥٥.

٣. تفسير روح البيان: ٦، ٣٥٥. ٤. تفسير روح البيان: ٦، ٣٥٦.

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا
تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [٤٨-٥٣]

ثم بين سبحانه أنهم بعد إساءتهم القول أساءوا في معاملتهم معه بقوله: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ التي فيها صالح من أرض الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ جماعة أو أشخاص، كانت أسماؤهم على ما قيل: هذيل بن عبد الرب، وغنم بن غنم، وياب بن مهرج، ومصدق بن مهرج، وعمير بن كردية، وعاصم بن مخزومة، وسيط بن صدقة، وسمعان بن صفي، وقدار بن سالف، وهو رئيسهم^١. وقيل: قدار بن سالف، ومصدق بن دهر، وأسلم، ورهمي، ورهميم، ودعيمي ودعيم، وقبال، وصداف، وكانوا عتاة القوم وأبناء أشرافهم^٢.

وهم ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ التي سكنوها بالاشتغال بالمعاصي وإشاعة الكفر ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أمراً من الأمور، ولا يمزجون شرهم بشيء من الخير، وفسادهم بشيء من الصلاح، وكان من إفسادهم المحض أن ﴿قَالُوا﴾ في أثناء مشاورتهم في أمر صالح حال كونهم ﴿تَقَاسَمُوا﴾ وتحالفوا ﴿بِاللَّهِ﴾ على نحو معتبر عندهم: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَلَنُهَاجِمَنَّ عَلَيْهِ فِي اللَّيْلِ بَغْتَةً وَلَنَقْتُلَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ ومن معه ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ ووارث دمه إذا سئلنا عن قاتله: ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ وما حضرنَا مَهْلِكَ صالح ﴿وَمَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ ومقتلهم، أو هلاكهم وقتلهم حتى تعرف قاتلهم ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما نقول من عدم حضورنا في ذلك المكان فضلاً عن التولي له.

﴿وَمَكَرُوا﴾ في قتل صالح ﴿مَكْرًا﴾ ضعيفاً، واحتالوا حيلةً هينةً بهذه المواضع ﴿وَمَكَرْنَا﴾ في إهلاكهم ﴿مَكْرًا﴾ عجيبةً، ودبرنا تدبيراً متيناً بجعل مواضعهم سبباً لهلاكهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

روي أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه، فلما وعدهم بعد عقرهم الناقة بالعذاب إلى ثلاثة أيام، قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشعب ليقتلوه إذا جاء للصلاة ثم يرجعوا إلى أهله فيقتلوه، فبعث الله صخرة

من جبالهم، فبادروا فطبقت عليهم في الشَّعب، فهلكوا ثَمَّةً وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة^١. وعن ابن عباس: أنه كان لصالح مسجد في غار يجيئه في الليل ويصلي فيه، فقالت التسعة: إن صالحاً وعدنا العذاب بعد ثلاثة أيام، ونحن نقتله قبلها، فجاءوا أول الليل إلى باب الغار، فكمنوا له وسَلُّوا سيوفهم كي يقتلوه إذا جاء، فأرسل الله ملائكة، فاهبطوا على رأس كل واحد حجراً، وقتلوا جميعهم^٢.

وفي رواية: أنهم دخلوا الغار، فأَنْزَلَ اللهُ صخرةً من الجبل، ووقعت في باب الغار فسده فهلكوا^٣. وعن مقاتل: أنهم انتظروا صالحاً في أصل الجبل، فانحطَّ عليهم الجبل فهلكوا^٤. والقمي: فأُتُوا صالحاً ليلاً ليقتلوه، وعند صالح ملائكة يحرسونه، فلَمَّا أُتُوا قاتلهم - أو قتلهم^٥ - الملائكة في دار صالح رجماً بالحجارة، فأصبحوا في داره مقتولين، فأخذت^٦ قومه الرجفة فأصبحوا في دارهم^٧ جائمين^٨.

﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ﴾ وهي ﴿أَنَا دَمَرْنَا هُمْ﴾ وأهلكناهم ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ الذين لم يكونوا معهم في التثبيت ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بحيث لم يبقَ منهم أحد ﴿فَتِلْكَ﴾ البيوت الخربة التي تَمُرُّونَ عليها في أسفاركم ﴿يُبَيِّنُهُمْ﴾ حال كونها ﴿خَاوِيَةً﴾ وخالية، أو ساقطة ومنهدمة ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم بالكفر والطغيان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التدمير العجيب ﴿لَايَةً﴾ وعبرة عظيمة كافية ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيتعظون به ﴿وَأُنَجِّينَا﴾ من العذاب ومجاورة العتاة صالحاً و﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما آمن به ﴿وَكَاثُوا يَتَّقُونَ﴾ الله، أو يحترزون من الكفر والعصيان. قيل: هم أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حَضْرَمَوْتَ^٩.

وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ آلِفَاحِشَةً وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَتُنْكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ
شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [٥٤ و ٥٥]

ثم ذكر سبحانه تفضله على لوط بانجائه من قومه والعذاب النازل عليهم بقوله: ﴿وَلَوْطاً﴾ والتقدير: وأرسلنا أو أذكر يا محمد لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم: ﴿أَتَأْتُونَ﴾

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٧، تفسير الصافي ٤: ٧٠. ٢. تفسير الكشاف ٣: ٣٧٣.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٧. ٤. مجمع البيان ٧: ٣٥٥.

٥. في تفسيري القمي والصافي: أتوه قاتلهم.

٦. في تفسير القمي: مقتلين وصيحت، وفي تفسير الصافي: مقتلين وأخذت. ٧. في تفسير القمي: ديارهم.

٨. تفسير القمي ٢: ١٣٢، تفسير الصافي ٤: ٧٠. ٩. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٨.

وترتكبون ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ والفعله الشنيعة في الغاية ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ فُحْشَهُ وَشِدَّةُ قُبْحِهِ، وتعلمون غاية شناعته؟! ومن الواضح أن ارتكاب القبيح من العالم بقُبْحِهِ أَقْبَحُ، أو تبصرون عمله فيما بينكم، وتعلمون به بلا تخفٍّ وتسترٍ، أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم من العذاب.

ثم يبين الفاحشة بقوله: ﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ في أدبارهم لتقصوا ﴿شَهْوَةً﴾ حيوانية ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ ومتجاوزين عنهم مع كونهن محال الشهوة ﴿يَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ سوء عاقبة عملكم، أو كالذين تجهلون قباحة هذا العمل، لكونكم غير عاملين بعلمكم، أو قوم شفاء لا تميزون بين حسن الفعل وقبحه.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَبْتَغِھِرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنْ الْغَابِرِينَ * وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا مُسَاءً مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ [٥٨-٥٦]

ثم يبين سبحانه غاية جهلهم بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ له بعد إبلاغه في نصيحهم شيء. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾: يا قوم ﴿أَخْرِجُوا﴾ لوطاً و ﴿آلَ لُوطٍ﴾ ومن تبعه ﴿مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ وبلدكم، وهي بلدة سدوم ﴿إِنَّهُمْ أَنْاسٌ﴾ وجماعة ﴿يَبْتَغِھِرُونَ﴾ بأنفسهم من دَسَّ الفُحْشَ باعتقادهم، ويتزهدون عن فعلنا القبيح.

عن ابن عباس: أنه [على] طريق الاستهزاء بلوط^١.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ وأقاربه من العذاب بأمرهم بالخروج من القرية وقت نزوله ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ وزوجته الكافرة المسماة بواهلة على ما قيل^٢، فإنا ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ وقضينا كونها ﴿مِنْ الْغَابِرِينَ﴾ والباقيين في البلدة، أو في العذاب مع القوم ﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بعد خروج لوط وأهله من بينهم وقلب قريتهم، أو على من كان منهم في الأسفار ﴿مَطَرًا﴾ عجباً غير الأمطار المعتادة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ والكفار المتوعدون بالعذاب؛ لأنه كان من حجارة من سجيل، وهو أضعف العذاب، كما أن اللواط أفحش الفواحش.

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؕ اللَّهُ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ

١. تفسير أبي السعود ٢٩٢: ٦، تفسير روح البيان ٦: ٣٥٩.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٥٩.

بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ [٥٩ و ٦٠]

ثم لما كان إهلاك أعداء الله نعمةً على أوليائه، أمر سبحانه نبيه ﷺ بالشكر عليه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمه التي منها إهلاك أعدائه ﴿وَسَلَامٌ﴾ وعافية دائمة من كل آفة دينية ودينية ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَا﴾ هم وخصهم بالعصمة من كل سوء، والطهارة من كل رِجس. وقيل: إنه تعالى لما بين ابتلاء أُمم الماضين بالعذاب، وكان من النعم على خاتمهم رفع عذاب الاستئصال عن أمتهم ببركته وحرمة، أمره بالحمد له والدعاء للأنبياء الذين صبروا على مشاق الرسالة^١، أو لما كان إطلاعهم ﷺ على قصص الأنبياء الماضين التي تكون من الأخبار الغيبية وفيها الآيات والحكم الكثيرة من النعم العظيمة عليه، أمره بالحمد عليها والدعاء بالسلامة لأمتهم^٢.

ثم أنه تعالى بعد بيان كمال قدرته وحكمته، وغاية تفضله على أوليائه وغضبه على أعدائه، شرع في تزيين العابدين للأصنام التي لا تُضر ولا تنفع بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذي بيده كل خير ﴿خَيْرٌ﴾ للعبادة ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الأصنام والأوثان التي لا يترتب على عبادتها فائدة.

روي أن النبي ﷺ لما تلا هذه الآية قال: «بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم»^٣.

ثم أخذ سبحانه في بيان خيرات وعظائم نعمه الدالة على وُحْدانيته واستحقاقه للعبادة بقوله: ﴿أَمْثَنَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والأجرام العلوية والسفلية التي هي أصول الكائنات ومباني جميع الخيرات والبركات ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ نافعاً بنحو الأمطار.

ثم عدل سبحانه عن الغيبة إلى التكلّم لتأكيد الاختصاص بقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ وبساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ وغيّرة وحسن لون ومنظرة.

ثم نبّه سبحانه على تفرد هذه القدرة الكاملة التي خلق بها السماوات والأرض، وجعل السماء محلاً للماء، والأرض محلاً للنبات، وأنبت بالماء الحدائق التي لها بهاء وزُخْرُفٌ بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ وما استقام ﴿لَكُمْ﴾ مع عقلكم وقوتكم وتديبركم ﴿أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ ولأما كنتم محتاجين إلى الغرس وتحمل كلفة السقي وغيره ممّا له دخل في نمو الشجر والمصابرة على ظهور الثمر، فكيف بغيركم من الجمادات، ومع ذلك أتقولون ﴿أَوَّلَهُ﴾ ومعبود آخر مشارك ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ العظيم القادر على كل شيء في الألوهية، لا يقول ذلك عاقل ﴿بَلْ﴾ المشركون ﴿هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ويميلون بجهلهم من التوحيد إلى الشُّرك، أو يسوون لسفهمهم مع الله غيره.

٢. تفسير أبي السعود ٦: ٢٩٢.

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠٥.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٢٠٥، تفسير روح البيان ٦: ٣٦٠.

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُھُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

ثم أضرِبَ سبحانه عمَّا ذكر من التبكيت إلى التبكيت بوجه آخر بقوله: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ﴾
للإنسان وغيره من الحيوانات ﴿قَرَارًا﴾، ومستقرًا بإخراج بعضها من الماء وتوسيتها حسبما تدور
عليه منافعهم ﴿وَجَعَلَ﴾ بلفظه ﴿خِلَالَهَا﴾ وفي فُرَجِهَا، أو في أوساطها ﴿أَنْهَارًا﴾ جارية تنتفعون بها
﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ جبالًا ﴿رَوَاسِيًا﴾ وثوابت تمنعها من الاضطراب والانتقال بأهلها، وتكون فيها
المعادن، وتنبع منها الينابيع، وتتعلق بها مصالح لا تحصى ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ العَذْبَ والمالح،
أو بحر فارس والروم ﴿حَاجِزًا﴾ مانعًا من المخالطة والامتزاج، فمع ما ترون من قدرته الكاملة ﴿أَلَيْسَ﴾
تقولون: ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ يُشَارِكُهُ في استحقاق العبادة؟! ﴿بَلْ﴾ المشركون ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾
الحُجَجَ والبراهين على التوحيد، ولا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشُّرْك مع كمال وضوحه.

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ
مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُزِيلِ
الْريَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٢﴾ و ﴿٦٣﴾

ثم أضرِبَ سبحانه عن تبكيت المشركين بِنِعْمَةِ العامة لجميع الموجودات وانتقل إلى تبكيتهم
بشدة حاجة الخلق إليه بقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ ويستجيب دعاء المبتلى بالضيق والشدة مع
عدم ملجأ له ولا حيلة ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ وسأله كشف ضَرِّه ورفع شدَّته وتضرَّع إليه؟ ﴿و﴾ من
﴿يَكْشِفُ﴾ عن عباده ﴿السُّوءَ﴾ ويدفع عنهم المكروه كالمرض والفقر والغرق بالشَّفاء والغنى
والنَّجاة، وإن لم يدعوه؟ ﴿و﴾ من ﴿يَجْعَلُكُمْ﴾ بعد إهلاك الأمم الماضية ﴿خُلَفَاءَ﴾ هم في
﴿الْأَرْضِ﴾ وساكنين في مساكنهم، ومتصرفين فيها بعد موتهم مع ذلك؟ ﴿أَلَيْسَ﴾ تقولون: ﴿إِلَهُ﴾ آخر
﴿مَعَ اللَّهِ﴾ المُنِيع عليكم بتلك النِّعَمِ الجِسام ﴿قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ﴾ آلانَه، وتتوجَّهون إلى نِعْمائه، أو
تنتبهون للحقِّ مع غاية الوضوح.

وقيل: إنَّ المراد من القليل العدم^١.

عن الصادق (عليه السلام)، قال: «نزلت في القائم من آل محمَّد، هو والله المضطرُّ إذا صَلَّى في المقام

ركعتين، ودعا الله عز وجل أجابه^١، ويكشف السوء، ويجعله خليفة في الأرض^٢.

أقول: يعني أنه أظهر مصاديق المضطر، لأن المراد شخصه فقط، ثم أضرب سبحانه عما ذكر إلى التبكيت بذكر نعمة أخرى بقوله: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ﴾ ويُرشدكم إلى الطريق مع كونكم ﴿فِي ظُلُمَاتٍ نَّبْرٍ وَالْبَحْرِ﴾ بالنجوم في السماء وعلامات الطريق في الأرض؟

وقيل: أريد من الظلمات مُشْتَبِهَاتِ الطُرُق^٣ ﴿وَمَنْ يُزِيلِ الرِّيَّاحَ﴾ لتكون ﴿بُشْرًا﴾ ومبشرات ﴿بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ﴾؟ وقيل: إنزاله المطر^٤ الذي به حياة الأرض وما فيها مع الوصف.

﴿أَ﴾ تقولون: ﴿إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يقدِّر على مثل ذلك؟! ﴿تَعَالَى اللَّهُ﴾ العظيم القدير الحكيم ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الجمادات التي هي أعجز مخلوقاته.

أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلْ آدَارُكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ [٦٤-٦٦]

ثم أضرب سبحانه من النعم المذكورة إلى ذكر أصل النعم الدنيوية والأخروية، وهو نعمة اليجاد في الدنيا والاعادة في الآخرة بقوله: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ في هذا العالم ويجر من كتم العدم إلى الوجود في الدنيا ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ويؤجده ثانياً في الآخرة بعد إماتته في الدنيا.

ثم لما كانت نعمة الوجود لا تتم إلا بالبقاء المتوقف على إيصال ما يحتاج بقاؤهم إليه، أردفه بذكره بقوله: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾ ويوصل إليكم جميع ما يتوقف عليه بقاؤكم عليه ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ بالأمطار ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ﴾ بالإنبات، ومع ذلك ﴿أَ﴾ تقولون ﴿إِلَهٌ﴾ آخر يكون ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ ويشركه في الألوهية واستحقاق العبادة ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين هذه المذكرات براهيننا على مدعانا من التوحيد، وأنتم ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على أن مع الله آلهة أخرى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

ثم أنه تعالى بعد بيان اختصاصه بالقدرة الكاملة، بين اختصاصه بالعلم غير المتناهي بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الإنس والجن

١. في تفسير الصافي: فأجابه.

٢. تفسير القمي ٢: ١٢٩، تفسير الصافي ٤: ٧١.

٣. تفسير البضاوي ٢: ١٨١، تفسير أبي السعود ٦: ٢٩٥، تفسير روح البيان ٦: ٣٦٣.

٤. تفسير البضاوي ٢: ١٨١، تفسير روح البيان ٦: ٣٦٣.

﴿الْغَيْبِ﴾ وما لا يدركه الحواس ﴿إِلَّا أَفْهَ﴾ قيل: إن الاستثناء منقطع، والمعنى لكنه تعالى يعلمه^١.
عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه أخبر يوماً ببعض الأمور التي لم تأت بعد، فقليل له: أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب؟ فصَحَّكَ وقال: «ليس هو بعلم غيب، إنما هو تعلُّم من ذي علم، وإنما علم الغيب علم الساعة وما عدَّه الله سبحانه بقوله ﴿إِنَّ أَفْهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية، فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكرٍ وأنثى، وقبيحٍ أو جميلٍ، وسخيٍّ أو بخيلٍ وشقيٍّ أو سعيدٍ، ومن يكون للنار خطباً أو في الجنان للنبیین مرافقاً، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه، ودعا لي أن يعيَّه صدري وتضطَّم عليه جوانحي»^٢.

وأما غيره من الانس والجن لا يعلمون ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ من القبور، وأي وقت يُنْشَرُونَ للحساب، فإنه من علم الغيب الذي اختصَّ بذاته تعالى ﴿بَلِ آدَارُكَ﴾ وتكامل واستحكم ﴿عِلْمُهُمْ﴾ بتكامل أسبابه من الدلائل والحجج ﴿فِي﴾ شأن ﴿الْآخِرَةِ﴾ وتمكنوا من معرفتها، ومع ذلك لما لم يتفكروا فيها جهلوا بوقوعها.

وقيل: يعني انتهى علمهم وانتهى إدراكهم بلحوقها فجهلوا بها^٣.

وعن ابن عباس: أن وصفهم باستحكام العلم بالآخرة على سبيل التهكم والاستهزاء^٤.

﴿بَلِ﴾ المشركون ﴿هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ ثم أضرب سبحانه عن كونهم شاكِّين إلى بيان كونهم في أقطع حالٍ من الشك بقوله: ﴿بَلِ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ وفاقدو البصيرة بحيث لا يكادون يدركون دلالتها.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَءِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاءُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ [٦٧ - ٧٠]

ثم حكى سبحانه مقاتلهم في المعاد الدالة على عميمهم منه بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مشركي مكة: ﴿أَوَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَ﴾ كان ﴿آبَاءُنَا﴾ أيضاً تُرَاباً ﴿أَوَءِذَا كُنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ من القبور أحياء؟ وإنما كزروا الاستفهام الإنكاري مبالغة في الإنكار.

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٦٤.

٢. نهج البلاغة: ١٨٦ الخطبة ١٢٨، تفسير الصافي ٤: ٧٢، وفي النسخة وتفسير الصافي: وتضم عليه جوارحي.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٦٥.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ٢١٢، وتفسير البيضاوي ٢: ١٨١، ولم ينسب إلى ابن عباس.

ثُمَّ حَكَى اسْتِدْلَالَهُمْ عَلَى بَطْلَانِ الْقَوْلِ بِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا﴾ الْإِخْرَاجَ وَالْحَشْرَ وَالنَّشْرَ ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ وَزَمَانَ ظَهُورِ مُحَمَّدٍ، وَلَمْ تَرَ أَحَدًا مِنْهُمْ خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ، فَلِذَا ﴿إِنْ هَذَا﴾ الْوَعْدُ، وَمَا هُوَ ﴿إِلَّا أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وَخُرَافَاتُ السَّابِقِينَ.

ثُمَّ أَمَرَ سَبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِتَهْدِيدِهِمْ بِمَا نَزَلَ عَلَى أَصْرَابِهِمْ مِنْ مَكْذِبِي الرِّسْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: ﴿سِيرُوا﴾ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ وَسَافِرُوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الَّتِي كَانَتْ مَسْكَنَ مَكْذِبِي الرِّسْلِ، كَأَرْضِ الْحَجَرِ وَالْأَحْقَافِ وَسُدُومَ وَغَيْرَهَا ﴿فَانظُرُوا﴾ بِنَظَرِ الْإِعْتِبَارِ ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أَمْرِ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ وَمَالَ الْمَكْذِبِينَ لِلرِّسْلِ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُمُ النَّالِيَةُ الْهَلَاكُ بِالْعَذَابِ. ثُمَّ سَلَّى نَبِيَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إِنْ أَصْرُوا عَلَى التَّكْذِيبِ، أَوْ ابْتَلَوْا بِالْعَذَابِ.

ثُمَّ قَوَّى قَلْبَهُ الشَّرِيفَ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ وَحَرَجٍ وَخَوْفٍ ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وَيَحْتَالُونَ فِي قَتْلِكَ وَيَدْبُرُونَ فِي إِهْلَاكَكَ، فَإِنَّا كَافِلُوكَ وَنَاصِرُوكَ.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُغْلِثُونَ [٧٤-٧١]

ثُمَّ حَكَى سَبْحَانَهُ اسْتِهْزَاءَهُمُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي وَعْدِهِمُ بِالْعَذَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ اسْتِهْزَاءً: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الَّذِي تَعِدُونَنَا؟ وَفِي أَيِّ وَقْتٍ يَنْزِلُ الْعَذَابُ الَّذِي تَخُوفُونَا بِهِ؟ عَيْنُوهَ لَنَا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي وَعْدِكُمْ بِهِ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، ﴿عَسَى﴾ وَقُرْبُ ﴿أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ﴾ وَلِحَقِّكُمْ ﴿بَعْضُ﴾ الْعَذَابِ ﴿الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وَهُوَ عَذَابُ يَوْمِ بَدْرٍ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ وَإِنْعَامٍ ﴿عَلَى﴾ كَافَةِ ﴿النَّاسِ﴾ بِتَأْخِيرِ عِقَابَتِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ﴾ لَا يَعْرِفُونَ هَذِهِ النِّعْمَةَ، وَلِذَا ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ بَلْ لَجْهَلُهُمْ يَسْتَعْجِلُونَهُ.

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّ تَأْخِيرَ عَذَابِهِمْ لَيْسَ لَجْهَلِهِ تَعَالَى بِأَعْمَالِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ وَتَسْتَرُّ ﴿صُدُورُهُمْ﴾ مِنَ النَّبَاتِ وَالِدَوَاعِي ﴿وَمَا يُغْلِثُونَ﴾ وَيُظْهِرُونَ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ مِنْ عَدَاوَةِ الرِّسُولِ وَاسْتِهْزَاءِهِمْ بِهِ وَتَكْذِيبِهِمْ لَهُ فَيُعَاقِبُهُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ.

وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [٧٧-٧٥]

ثم قرّر سبحانه سعة علمه بقوله: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ وأمر خفي غاية الخفاء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا﴾ وهو مكتوف عنده، ومكتوب ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ واللوح المحفوظ الظاهر للناظرين فيه من الأنبياء الصالحين والملائكة المقربين.

ثم أنّه تعالى بعد إثبات توحيده وسعة قدرته وعلمه المستلزمة للمعاد، شرّع في إثبات نبوة نبيه باعجاز القرآن بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الذي جاء به محمد الأمي الذي لم يخالط عالماً، ولم يستفد من أحد العلماء، ولم يقرأ كتاباً ﴿يَقْضَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ويبيّن لهم ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كشأن عيسى وعزير، والمعارف الالهية من التشبيه والتنزيه، وأحوال المعاد والجنة والنار، وقصص الأنبياء وغيرها، حتى لعن بعضهم بعضاً، ﴿وَأَنَّهُ﴾ بفصاحته وبلاغته البالغتين حد الإعجاز، ومطابقة ما فيه من المعارف والأحكام للعقول السليمة، وخلوة من التناقض والتهاوت ﴿لَهْدَى﴾ ورشاد إلى نبوة محمد ﷺ وسائر العقائد الحقّة ﴿وَوَحْمَةً﴾ ووسيلة للفوز إلى السعادة الأبدية والمقامات العالية ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى
الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُّوْا
مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا
فَهُمْ مُسْلِمُونَ [٧٨-٨١]

ثم أنّه تعالى بعد ذكر اختلاف الناس، بين أنّه مع إنزاله القرآن الرافع للاختلاف، يكون هو الحاكم بينهم يوم القيامة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ حين حضور المصيب والمُخطئ عنده يوم القيامة ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ العدل وفصله الحقّ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على إنفاذ حكمه من غير مدافع ومزاحم و﴿الْعَلِيمُ﴾ بكلّ شيء، ومنه الحقّ الذي اختلفوا فيه، فلا تكن من اختلافهم في تعب، فإذا كان ربك قادراً على حفظك عالماً بحالك ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وفوض أمرك إليه، ولا تبالي بهم، ولا تلتفت إلى اختلافهم ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ والدين الواضح صحته، ومن المعلوم أن من هو على الحقّ حقيق بنصر الله.

ثم ذم سبحانه المخالفين له، المصيرين على الكفر والباطل، وقطع طمعه عن هدايتهم وإيمانهم، إراحة لقلبه الشريف من تعب اجتهداه في دعوتهم بقوله: ﴿إِنَّكَ﴾ لا تقدر على هداية هؤلاء الكفرة؛ لأنهم بمنزلة الموتى، لسقوط قلوبهم عن قابلية الانتفاع بالآيات واستماع الدلائل والبراهين والاعتاظ

بالمواعظ، وأنت ﴿لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ ولا يمكنك تفهيمهم الحكم والحقائق، وهم بمنزلة الصَّم ﴿و﴾ أنت ﴿لَا تُسْمِعُ الصَّمَّ﴾ والأشخاص الفاقدين لقوة السمع ﴿الدَّعَاءُ﴾ والدعاء فضلاً عن الآيات القرآنية سيما ﴿إِذَا وَلَّوْا﴾ وأعرضوا عنك حال كونهم ﴿مُذْبِرِينَ﴾ وجاعلين ظهورهم نحوك، فإن الصَّم إذا كانوا مقبلين ومتوجهين نحو الداعي والمتكلم، فإنهم بمقابلة صماخهم وقربهم منه لعلهم يسمعون أو برؤية حركات وجهه وشفثيه لعلهم يفهمون، وأما إذا كانوا منصرفين عن الداعي، ومخلفين له وراء ظهورهم وبعيدين منه، لا يرجى منهم السمع والفهم، وهم بمنزلة الصَّمي الذين ضلُّوا الطريق ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى﴾ هداية نافعة ﴿عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ في الطريق، لأن الأعمى الضال إذا قيل له هذا الطريق لا يراه ولا يهتدي إليه، بل ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ﴾ سلّم قلبه عن العناد واللجاج، فإنه سبق في علمنا أنه ﴿يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ لطيب طيبته وسلامة قلبه من الأمراض المانعة عن الايمان كالحسد والعناد واللجاج وحب الرئاسة والدنيا، وغلبة عقله على شهوته وهوى نفسه ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ومتقادون لما سمعوا من الحق، ومخلصون في الايمان.

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ
كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ [٨٢]

ثم هدّد سبحانه هؤلاء الكفّار بأحوال قبل القيامة بقوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ﴾ وقرب العذاب الموعود إليهم ودنا نزوله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بظهور أمارات القيامة ووقت إنجاز الوعيد ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾.

قيل: هي دابة طولها ستون ذراعاً^١.

وقيل: يبلغ رأسها السحاب، وما بين قرنيها قرسخ للراكب، ولها أربع قوائم وزعَب وریش [وجناحان]، ورأسها رأس الثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، ولها قرن إبل، وصدر أسد، ولون نمر، وخاصرة بقرة، وذنب كبش، وخفّ بعير، تخرج من المسجد الحرام من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد، أو من الصفا، ومدة خروجها ثلاثة أيام^٢.

وقيل: إنها جمعت خلق كل حيوان، ولها وجه آدميين مُصي^٣، ومعها خاتم سليمان، وعصى موسى، يراها أهل المشرق والمغرب^٤، وهم ينظرون وهي ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ بالعربي الفصح، أو مع كل

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢١٧، تفسير البضاوي ٢: ١٨٣، تفسير روح البيان ٦: ٣٧٢. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢١٧.

٣. في تفسير روح البيان: مضبئة. ٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٧٢.

طائفة بلسانهم، وتقول من قبل الله: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الناطقة بمجيء الساعة ويوم الجزاء ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ بل فيها يشكون.

وفي الخبر: بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون، إذ تضطرب الأرض تحتهم وتحرك تحرك القنديل، فينشق جبل الصفا مما يلي المسعى، فتخرج الدابة منه كما خرجت ناقة صالح من الصخرة، ولا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام، فقوم يقفون نظاراً، وقوم يقرعون إلى الصلاة، فتقول للمصلّي: طول ما طوّلت، فوالله لأحطمتك، فتخرج ومعها عصى موسى وخاتم سليمان فتضرب المؤمن في مسجده بالعصا فيظهر أثره كالقطة، فينبسط ثوره على وجهه، ويكتب على جبهته: هو مؤمن، وتخيّم الكافر في أنه بالخاتم، فتظهر ثكنة فتقشو حتى يسود لها وجهه، ويكتب بين عينيه: هو كافر، ثم تقول لهم: أنت يا فلان من أهل الجنة، وأنت يا فلان من أهل النار^١، ولم يبق في الدنيا إلا من ابيض وجهه.

وفي الحديث: أن خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب متقاربان^٢.
 قيل: إنه أول أشرار الساعة^٣. وقيل: إنه آخرها^٤.

ونسب بعض علماء العامة إلى محدّثهم أن بني الأصفر - وهم الأفرنج - إذا خرجوا وظهروا إلى الأعماق في ست سنين يظهر المهدي عليه السلام في السنة السابعة، ثم يظهر الدجال، ثم ينزل عيسى عليه السلام، ثم تخرج دابة الأرض، ثم تطلع الشمس من المغرب، وقالوا: إذا خرجت الدابة حُيست الحفظة، ورُفعت الأقلام، وشهدت الأجساد على الأعمال^٥.

أقول: كل ذلك بروايات العامة، وأما الروايات الخاصة، فعن القمي، عن الصادق عليه السلام، قال: «انتهى رسول الله ﷺ إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو نائم في المسجد قد جمع رملًا ووضع رأسه عليه، فحرّكه برجله، ثم قال له: قم يا دابة الأرض^٦، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، يسمي بعضها بعضاً بهذا الاسم؟! فقال: لا والله، ما هو إلا له خاصة، وهو الذي ذكره^٧ الله في كتابه، فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا﴾ الآية، ثم قال: يا علي، إذا كان في^٨ آخر الزمان، أخرجك الله في أحسن صورة، ومعلك ميسم تسم به أعداءك».

فقال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: إن العامة^٩ يقولون: إن هذه الدابة تكلمهم؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام:

١ - ٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٧٢.

٦. في المصدر: دابة الله.

٧. في المصدر: وهو الدابة التي ذكر، وفي تفسير الصافي: وهو الدابة الذي ذكره.

٨. (في) ليست في المصدر وتفسير الصافي.

٩. ليس في المصدر: الناس.

«كَلَّمَهُمُ اللَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، إِنَّمَا هُوَ يُكَلِّمُهُمْ مِنَ الْكَلَامِ»^١.

أقول: الظاهر أنه نسب إلى العامة القول بأن يُكَلِّمُهُمْ مِنَ الْكَلَمِ بمعنى الْجَرْحِ^٢، فردّه عليه.

وعنه عليه السلام أنه قال: «[قال:]: رجل لعمار بن ياسر: يا أبا اليقظان، آية في كتاب الله قد أفسدت قلبي؟ فقال: وآية آية هي؟ قال: قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. فآية دابة^٣ هي؟ فقال عمار: والله ما أجلس ولا أكل ولا أشرب حتى أريكمها، فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يأكل تمرًا وزبدًا، فقال [له]: يا أبا اليقظان هلّم، فأقبل عمار وجلس يأكل معه، فتعجب الرجل منه، فلما قام عمار قال [له] الرجل: سبحان الله! إنك حلفت أن لا تأكل ولا تشرب ولا تجلس حتى تُريني الدابة! قال عمار: قد أريتها إن كنت تعقل^٤.

وروى العياشي هذه القصة عن أبي ذرٍّ، وعن الباقر عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: ولقد أُعْطِيتُ السَّيِّءَ: علم المنايا والبلايا، والوصايا، وفصل الخطاب، وإني لصاحب الكُرَاتِ ودولة الدول، وإني لصاحب العصا والمِيسَمِ، والدابة التي تُكَلِّمُ النَّاسَ»^٥.

وفي (الاكمال) عن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديث بعد أن ذكر الدجال وقاتله - قال: «ألا إن بعد ذلك الطامة الكبرى. فقيل: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: خروج دابة الأرض من عند الصفا، ومعها خاتم سليمان وعصا موسى، تضع الخاتم على وجه كل مؤمن فينطبع فيه: هذا مؤمن حقاً، وتضع العصا^٦ على وجه كل كافر فيُكْتَبُ: هذا كافر حقاً، حتى إن المؤمن لينادي: الويل لك يا كافر، وإن الكافر ينادي: طوبى لك يا مؤمن، وددت أني كنت مثلك، فأفوز فوزاً عظيماً، وترفع الدابة رأسها [فيراها] من بين الخافقين باذن الله جلّ جلاله، وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها، فعند ذلك تُرْفَعُ التوبة، فلا تُقْبَلُ توبة وعَمَلٌ^٧، ولا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً. ثم قال عليه السلام: لا تسألوني عما يكون بعد هذا، فإنه عهد إلي حبيبي رسول الله ﷺ أن لا أخبر به غير عترتي»^٨.

وفي (المجمع) عن النبي ﷺ قال: «دابة الأرض طولها ستون ذراعاً، لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب، تقسم المؤمن بين عينيه [ويكتب بين عينيه] مؤمن، وتسم الكافر بين عينيه [ويكتب بين

١. تفسير القمي ٢: ١٣٠، تفسير الصافي ٤: ٧٤. ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢١٨، تفسير أبي السعود ٦: ٣٠٢.

٣. في النسخة: آية. ٤. تفسير القمي ٢: ١٣١، تفسير الصافي ٤: ٧٤.

٥. مجمع البيان ٧: ٣٦٦، تفسير الصافي ٤: ٧٥. ٦. الكافي ١: ٣/١٥٤، تفسير الصافي ٤: ٧٥.

٧. في المصدر: ويضعه، وفي تفسير الصافي: وتضعه.

٨. في المصدر: فلا توبة تقبل ولا عمل يرفع. ٩. كمال الدين: ١/٥٢٧، تفسير الصافي ٤: ٧٥.

عينه [كافر، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالعصا، وتختيم أنف الكافر بالخاتم حتى يقال: يا مؤمن ويا كافر].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه شغل عن الدابة، فقال: «أما والله لا يكون لها ذنب، وإن لها ليلحية»^٢.

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا
جَاءُوا قَالَ أَكُذِّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آثًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ
الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ [٨٣-٨٥]

ثم ذكر سبحانه بعض أحوال يوم القيامة بقوله: «وَيَوْمَ نَحْشُرُ» والتقدير اذكروا، أو اذكر يا محمد لقومك يوم نحشر «مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ» من أمم الرسل، أو كلِّ قَرْنٍ من القرون «فَوْجًا» وجمعاً كثيراً «مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا» ودلائل توحيدنا ورسالة رسلنا «فَهُمْ يُوزَعُونَ» ويخسسون كي يُلْحَقَ بهم أسافلهم التابعون.

عن ابن عباس، قال: أبو جهل، والوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة، يساقون بين يدي أهل مكة، وهكذا تحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار^٣.

وقيل: إن المراد بالفوج الذين يرجعون إلى الدنيا بعد قيام القائم «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا» إلى موقف السؤال والحساب أو التوبيخ^٤ «قَالَ» الله أو الملك من قبله تعالى توبيخاً لهم: «أَكُذِّبْتُمْ» في الدنيا، أو في زمان حياتكم «بِآيَاتِي» الدالة على توحيدي والناطقة ببقاء يومكم هذا «وَقَدْ» أنتم «لَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا» ولم تَنْظُرُوا فيها نظراً يؤدي إلى معرفة حقيقتها وصدقها. ويَحْتَمِلُ أن تكون الواو للعطف لا للحال، والمعنى: جمعتم بين تكذيبها وعدم التفكير والتدبر فيها «أَمْ آثًا كُنْتُمْ» بعد ترك التفكير فيها، أو عدم الاعتناء بها «تَعْمَلُونَ» وبأي شيء بعد ذلك كنتم تشتغلون غير الكفر والتكذيب والعصيان؟ فلا يمكنهم إلا الإقرار بأنهم ما فعلوا إلا ذلك.

وعن الصادق عليه السلام - في الحديث الذي مضى في تفسير دابة الأرض - أنه قال: «والدليل على أن هذا في الرجعة: [قوله]: «وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا» الآية». وقال: «الآيات أمير المؤمنين والائمة عليه السلام»^٥.

أقول: والمعنى على هذا: أنه يُحْشَرُ مكذِّبو الائمة في الرجعة، ويحييهم ثانياً، ويوبخهم بلسان

١ و ٢. مجمع البيان ٧: ٣٦٥، تفسير الصافي ٤: ٧٥. ٣. تفسير أبي السعود ٦: ٣٠٢، تفسير روح البيان ٦: ٣٧٣.

٥. تفسير القمي ٢: ١٣٠، تفسير الصافي ٤: ٧٦.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٧٣.

مَلَكٌ، ويقول: إِنِّي نَصَبْتُ لَكُمُ أَمْنَةً لِيَهْدُوكُم، أَكْذَبْتُمُوهُمْ وَلَمْ تَتَفَكَّرُوا فِي دَلِيلِ أَمَانَتِهِمْ؟! ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ وحلَّ العذاب بهم ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ به أنفسهم من التكذيب بالآيات ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ولا يقدِّرون على التكلُّم بالغُذر وغيره، لشدة هول ما يشاهدون من أنواع العذاب، أو للختم على أفواههم.

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَنْزِعُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ [٨٦ و ٨٧]

ثمَّ أنه تعالى بعد إرعايهم بذكر أهوال القيامة، بيَّن دليلاً قاطعاً على التوحيد والمعاد بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ هؤلاء المشركون المنكرون للمعاد ببصيرة قلوبهم ﴿أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ﴾ المظلم ﴿لَيْسَكُنُوا﴾ عن الحركة ويستريحوا ﴿فِيهِ﴾ من التعب بالنوم والقرار ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ ومضيئاً ليصروا فيه طرق القلب في معاشهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من جعل الليل والنهار كما وُصِفَا ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة وبراهين واضحة على التوحيد والمعاد ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنَّ من كان قدرته وحكمته بحيث يُقَلِّب الليل والنهار، ويُعَيِّب النور بالظلمة وبالعكس، كان متوحداً بالألوهية، وقادراً على قلب الحياة إلى الموت، والموت إلى الحياة مع اقتضاء الحكمة ذلك.

ثمَّ عاد سبحانه إلى بيان أهوال القيامة ازدياداً لإرعاي القلوب بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ﴾ النفخة الأولى أو الثانية ﴿فِي الصُّورِ﴾ والقرن الذي بيد إسرافيل، وهو نَافِخُهُ مرَّةً للموت وأخرى للحشر ﴿فَفَزَعَ﴾ وخاف من هول صوته خوفاً موجباً للنفار ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ السبع من الملائكة ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ من الجن والإنس ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ ثبات قلبه وعدم فزعه، وهم الملائكة أو ساداتهم كجبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، أو خزنة الجنة والنار، أو خصوص إسرافيل، أو الخور العين أو الخور وخزنة جهنم، أو حملة العرش.

وعن جابر: أنَّ موسى منهم حيث صَعِقَ مرَّةً^١.

وعن النبي ﷺ: «أَنَّهُمُ الشَّهَدَاءُ»^٢.

﴿وَكُلٌّ﴾ منهم ﴿أَتَوْهُ﴾ وحضروا بعد النفخة الثانية في الموقف حال كونهم ﴿دَاخِرِينَ﴾ وذليلين

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٠.

٢. تفسير الطبري ٢٠: ١٣، تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٠، نسبة إلى القيل، مجمع البيان ٧: ٣٧٠.

للسؤال والحساب، وإنما عبّر سبحانه عن الفزع والإتيان بصيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعهما، وقد مرّ كيفية بيان الصور، والتفخ فيه، وعدد التفخ، والفصل بين التفختين^١.

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ
كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ [٨٨]

ثم ذكر سبحانه من أهوال القيامة حال الجبال بقوله: «وَتَرَى» أيها الرائي «الْجِبَالَ» يومئذ حال كونك «تَحْسَبُهَا» وتوهمها «جَامِدَةً» وساكنة في أماكنها «وَهِيَ» في ذلك الوقت «تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» وتسير كسيره في السرعة، فإن الجسم العظيم إذا تحرك حركة سريعة على نهج واحد في السمت والكيفية، ظن الناظر أنه واقف، مع أنه متحرك في غاية السرعة، وكذا الشيء العظيم الذي لا يحيط بأطرافه البصر، إذا سار لا يحس الناظر سيره، ويتوهمه واقفاً، وذلك يكون عند النفخة الثانية حين تبدل الأرض غير الأرض، وتغير هيئتها، وتسير^٢ الجبال عن مقارها.

وعن بعض العامة، عن الصادق عليه السلام - في تأويل الآية - قال: «وترى الأنفس جامدة عند خروج الروح، والروح تسير^٣ في القدس لتأوي إلى مكانها تحت العرش»^٤.

ثم نبّه سبحانه على عظم شأن تلك الأفعال، وتهويل أمرها، وكونها من بدائع صنعه المبنية على الحكمة البالغة المستتعبة للغايات الجميلة التي رُتبت لأجلها مقدمات الخلق ومبادي الإبداع على الوجه المثقن المُستحكم بقوله: «صُنِعَ أَشْرَ» وفعله الجيد غايته «الَّذِي أَتَقَنَ» وأحكم «كُلَّ شَيْءٍ» خلقه، وسواه على ما ينبغي، ثم علل التفخ والبعث وسائر أهوال القيامة بقوله: «إِنَّهُ» تعالى «خَبِيرٌ» وعالم «بِمَا تَفْعَلُونَ» من الطاعة والعصيان، فيجازيكم عليه بما تستحقون.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ
فَكَثُرَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [٨٩ و ٩٠]

ثم بين حال المطيعين والعاصين في ذلك اليوم بقوله: «مَنْ جَاءَ» في ذلك اليوم «بِالْحَسَنَةِ» والأمور الحميدة من العقائد الصحيحة والطاعات الخالصة «فَلَهُ» من الثواب ما هو «خَيْرٌ» وأفضل «وَمِنْهَا» فإن تجلياته تعالى في الجنة أفضل من معرفته له تعالى في الدنيا، ويعمه الأبدية خير من

١. تقدم ذكر الصور في الأنعام/ ٧٣ والكهف/ ٩٩ وطه/ ١٠٢ والمؤمنون/ ٢٣. ٢. في النسخة: وسير.

٣. في تفسير روح البيان: تسري. ٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٧٦.

طاعاته في الدنيا.

وقيل: يعني له خيرٌ حاصلٌ من جهتها^١.

﴿وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ﴾ عظيم يكون لأهل العصيان ﴿يُؤْمِنُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ومؤمنون لا يُرعبهم بعد الفَرْع من نفخ الصُّور شيءٌ من أهوال الموقف التي هي الفرع الأكبر ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ من الشُّرك والكفر، وما هو بمنزلة من إنكار الولاية ﴿فَكَفَّتْ﴾ وأسقطت منكوسة^٢ ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ أو المعنى ألقوا على وجوههم ﴿فِي النَّارِ﴾. وقيل: إن المراد بالوجه أبدانهم^٣. ثم يقال لهم توبيخاً: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ اليوم ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك، والعقائد الفاسدة، والأعمال الشنيعة.

في الحديث: «إذا كان يوم القيامة جاء الإيمان والشُّرك يجثوان بين يدي الرب تعالى، فيقول الله تعالى للإيمان: انطلق أنت وأهلك إلى الجنة ويقول للشُّرك: انطلق أنت وأهلك إلى النار». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ إلى قوله: ﴿فِي النَّارِ﴾^٤.

وروى بعض العامة عن أبي عبدالله الجدلي قال: دخلتُ على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «يا أبا عبدالله، ألا أتيتك بالحسنة التي من جاء بها أدخله الله الجنة، والسيئة التي من جاء بها أكبّه الله في النار ولم يقبل معها عملاً؟» قلت: بلى. قال: «الحسنة حَبِئًا، والسيئة بُغْضًا»^٥.

وعن الصادق، عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليه السلام - في هذه الآية - قال: «الحسنة معرفة الولاية وحبنا أهل البيت، والسيئة إنكار الولاية وبُغْضنا أهل البيت» ثم قرأ الآية^٦.

وعن الباقر عليه السلام - في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّوْدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا﴾ - قال: «من تَوَلَّى الأوصياء من آل محمدٍ واتَّبَعَ آثارهم، فذاك يزيده ولاية من مضى من النبيين والمؤمنين الأولين حتى تصل ولايتهم إلى آدم عليه السلام، وهو قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ يَدْخِلُهُ الْجَنَّةَ»^٧.

وعنه عليه السلام - في هذه الآية - قال: «الحسنة ولاية عليٍّ وحبّه، والسيئة عداوته وبُغْضه، ولا يُرفع معهما عمل»^٨.

إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَأِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَّرَكُمْ بِآيَاتِهِ

٢. في النسخة: منكوسة.

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢١.

٦. الكافي ١: ١٤٢/١٤، تفسير الصافي ٤: ٧٨.

٣- ٥. تفسير روح البیان ٦: ٣٧٧.

٨. روضة الواعظين: ١٠٦، تفسير الصافي ٤: ٧٨.

٧. الكافي ٨: ٣٧٩/٥٧٤، تفسير الصافي ٤: ٧٨.

فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [٩١-٩٣]

ثم أنه تعالى بعد الاحتجاج على التوحيد وإبلاغ البيان فيه، ختم الكلام بأمر نبيه بإظهار التزام نفسه به، قبلوا قوله وخججه أولاً، قطعاً لطمع المشركين من أن يميل عليه إلى دينهم، وإظهاراً لعدم المبالاة بلجاجهم وعنادهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ التي هي أحب البلاد لدي وأكرمها وأعظمها عندي وعند ربي ﴿الَّذِي خَرَّمَهَا﴾ وجعلها لمن دخلها، ومنوعة من أن تهتك حرمتها، ويُعَصَّد شجرها، ويُفَرَّ صيدها، ومن المعلوم أن ذلك كله من نعم ربي عليّ وعليكم، وليس إضافتها إليه لاختصاص ربوبيته بها، بل ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من هذه البلدة وغيرها من الموجودات ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ والمنقادين له، والمطيعين لأحكامه، أو من الثابتين على دينه ﴿وَأُمرْتُ أَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ الذي أنزله عليّ، وإن تجحدونه أنه منه، وتُسيبونه إلى السحر مرة، وإلى الشعر أخرى، وإلى الكهانة ثالثة، وإلى الأساطير رابعة ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى﴾ إلى التوحيد ودين الاسلام والسعادة الأبدية بهدايته وإرشادك ﴿فَأِنَّمَا يَهْتَدَى﴾ إلى كل خير عائد ﴿لِنَفْسِهِ﴾ لا يتعدى إلى غيره ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بمخالفتك عن الصراط المستقيم، وانحرف عن الطريق القويم ﴿فَقُلْ﴾ له: ليس عليّ وبال ضلالك و﴿إِنَّمَا أَنَا﴾ مُنْذِرٌ ﴿مِنْ﴾ جملة ﴿الْمُنْذِرِينَ﴾ ورسول من الرسل ليس عليّ إلا الإنذار والتبليغ، وقد أذيت ما عليّ، وخرجت عن عهدة ما كُلفت به، وعليكم الاهتداء والايمان، وبقي ما عليكم والله مجازيكم عليه.

ثم لما بين وظيفة وهو التبليغ، وخروجه من عهدها، وبراءته من وبال مخالفة أمته، أمره الله سبحانه بالشكر على نعمه عليه بقوله: ﴿وَقُلْ﴾ يا محمد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إكمال نعمه عليّ من العلم والحكمة والنبوة والكتاب، وتوفيقه للقيام بوظيفة الرسالة وتحمل أعباء النبوة، وأما أنتم يا مشركي قريش، فأعلمكم أن الله الممتقم ﴿سَيَّرِيكُمْ﴾ في الدنيا أو الآخرة ﴿آيَاتِهِ﴾ القاهرة وعقوباته الشديدة ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ حين لا ينفعكم معرفتها، وتقرّون بها حين لا يفيدكم الإقرار.

القمي، قال: الآيات أمير المؤمنين والأئمة عليهم إذا رجعوا إلى الدنيا يعرفهم أعداؤهم إذا رأوهم في الدنيا^١.

وعن أمير المؤمنين عليه، أنه قال: «والله ما لله آية أكبر مني»^٢.

قال مقاتل: يعني سيريكم آياته عن قريب من الأيام، فطوبى لمن رجع قبل وفاته، والويل على من

٢. تفسير القمي ٢: ١٣٢، تفسير الصافي ٤: ٧٩.

١. يُعَصَّد شجرها: أي يقطع.

٣. تفسير القمي ٢: ١٣٢، تفسير الصافي ٤: ٧٩.

رجع بعد وفاته وبعد ذهاب الوقت^١.

ثم بالغ سبحانه في تهديد الضالين بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿بِعَاقِلٍ﴾ وذاهل ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه أسوأ الجزاء، وإنما أخره لحكم كثيرة لا للغفلة عنه وعدم إطلاعه عليه.

عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة طس كتب الله تعالى له عشر حسنات بعدد من آمن بسليمان وهود وشعيب وصالح وإبراهيم، وبعدد من كذبهم، وإذا خرج من قبره يوم القيامة يقول: لا إله إلا الله»^٢.

اللهم وفقني لأداء شكر نعمتك من التوفيق لاتمام تفسير السورة المباركة، ووفقني وجميع المؤمنين لتلاوتها آناء الليل وأطراف النهار.

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٧٩.

٢. مجمع البيان ٧: ٣٢٧، تفسير أبي السعود ٦: ٣٠٧.



في تفسير سورة الإسراء..... ٥

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سُبحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ..... ٥

[٢ و ٣] وَأَنزَلْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي..... ٢٤

[٤-٦] وَفَضَّلْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدَنَّهُ فِي الْأَرْضِ مَرَوِّتِينَ وَلَئَعْلَنَّهُ..... ٢٤

[٧] إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ..... ٢٥

[٨] عَسَىٰ رُبُّكُمْ أَن يُزَحِّمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ..... ٢٧

[٩] إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُنَشِّئُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ..... ٢٨

[١٠ و ١١] وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * وَبَدَعَ الْإِنْسَانُ..... ٢٩

[١٢] وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً..... ٣٠

[١٣ و ١٤] لَوْ كُلُّ إِنْسَانٍ أَلْمَنَاءُ طَائِفَةٌ فِي عِصْيَانِهِ لَبَدَّلْنَا فِي الْآخِرَةِ..... ٣٢

[١٥] مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ..... ٣٣

[١٦ و ١٧] وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَوْمًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا تَشْرِفُهَا فَفَاسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ..... ٣٤

[١٨ و ٢١] مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْمَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ..... ٣٥

[٢٢] لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُولًا..... ٣٧

[٢٣ و ٢٤] وَفَضَّلْنَا رُبُّكَ الْأَتَّعِبُوا إِلَّا إِثَابَهُ وَبِالَّذِينَ إِحْسَانًا إِنَّمَا يَتُبعُونَ عِندَكَ الْكِبَرُ..... ٣٨

[٢٥ و ٢٦] رُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا *..... ٤٠

[٢٧ و ٢٨] إِنْ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كُفُورًا * وَإِنَّمَا..... ٤٢

[٢٩] وَلَا تَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ قُرْبَىٰ وَلَا تَبْسُطْ كُلَّ تَبْسُطٍ فَتَقْعُدَ مَلُومًا..... ٤٣

[٣٠] إِنْ رُبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا..... ٤٤

[٣١] وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِنْ هَلَكُوا بِإِثْلَاحٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِبَارِكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِيئًا..... ٤٤

[٣٢] وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا..... ٤٥

[٣٣] وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا..... ٤٥

- [٣٤] وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأُولَئِكَ بِالْعَهْدِ ٤٧
- [٣٥ و ٣٦] وَلَا تُولُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنتُمْ وَرَثًا بِالْقِسْطِ الْمُنْقِصِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ ٤٧
- [٣٧ و ٣٨] وَلَا تَمْسِسْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ٤٩
- [٣٩] ذَلِكَ بِمَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ بِرَأْسِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ تَتَلَفَى ٥٠
- [٤٠ و ٤١] أَفَأَمَّا خُنُوفُكُمْ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَبُّكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَّا إِنَّا لَنَقُولُ لَكُمْ قَوْلًا ٥١
- [٤٢ و ٤٣] قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَيْنَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ ٥١
- [٤٤] تَسْبُحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ ٥٢
- [٤٥ و ٤٦] وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا ٥٣
- [٤٧ و ٤٨] نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ ٥٥
- [٤٩ - ٥١] وَقَالُوا أَيُّذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْتَا لِمَنُوعُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا ٥٦
- [٥٢] يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِن لَّبِثْنَا إِلَّا قَلِيلًا ٥٧
- [٥٣ - ٥٥] قُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا آلَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ ٥٧
- [٥٦] قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا ٦٠
- [٥٧] أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ ٦٠
- [٥٨] وَإِنْ مِنْ قَرْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ٦٠
- [٥٩] وَمَا سَمِعْنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ ٦١
- [٦٠] إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ أَرْبَابًا وَلَا يَتَّبِعُهُ ٦٢
- [٦١ - ٦٤] إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ ٦٥
- [٦٥] إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْدَىٰ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ٦٧
- [٦٦ و ٦٧] رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّه كَانَ بِكُمْ ٦٧
- [٦٨ و ٦٩] أَفَأَمْسَيْتُمْ أَنْ يَخْشِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا ٦٨
- [٧٠] وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَنَاءِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ٦٩
- [٧١] يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوْحِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ٧٠
- [٧٢] وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ٧٢
- [٧٣ و ٧٤] وَإِنْ كَانُوا لَا يُفْقَهُونَكَ عَنْ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ لِتُفْهَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا ٧٣
- [٧٥ - ٧٧] إِذَا لَدَّخْنَاكَ فَعَفَا وَضَعَفَ الْحَبَا وَضَعَفَ الْعَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * ٧٥

- [٧٨] أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ ٧٦
- [٧٩] وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَافً عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٧
- [٨٠] وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ أَمْرِي ٧٨
- [٨١] وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٧٩
- [٨٢] وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْبُدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ٨٠
- [٨٣] وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِنِعْمَتِنَا إِذَا كَانَهُ لَاسِيًا ٨١
- [٨٤] وَ ٨٥] قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرُكْمٌ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا * وَتَسْأَلُونَكَ ٨١
- [٨٦] وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَتَنْفَعَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا ٨٥
- [٨٨] قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ ٨٦
- [٨٩] وَلَقَدْ صَوَّرْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا ٨٧
- [٩٠-٩٣] وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تُفْعَلَ لَنَا مِنْ الْأَرْضِ شَيْئًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ ٨٧
- [٩٤-٩٦] وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا ٩٤
- [٩٧] وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَوْقَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ٩٤
- [٩٩] وَلَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ ٩٦
- [١٠١-١٠٤] وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ بَشَعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ ٩٧
- [١٠٥-١٠٦] وَإِنَّا لَنُزَلُّهُنَّ بِالْحَقِّ نَزْلًا وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ٩٩
- [١٠٧-١٠٩] قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ٩٩
- [١١٠] قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا ١٠٠
- [١١١] وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن ١٠٢
- في تفسير سورة الكهف ١٠٥
- [١-٥] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ ١٠٥
- [٦-٨] فَلَمَّا كُنَّا نَقُصُّكَ عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ إِذْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * وَإِنَّا ١٠٦
- [٩] أَلَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ١٠٦
- [١٠-١٣] إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ ١٠٩
- [١٤-١٦] وَرَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ ١١١
- [١٧] وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوِعَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ ١١٣

- [١٨-٢٠] وَنَحْنَبُهُمْ أَتِغَافاً وَهُمْ رُفُودٌ وَتُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكُلُّهُمْ ١١٤
- [٢١] وَكَذَلِكَ أَعْتَدْنَا عَلَيْهِمْ لِيُغْلَبُوا أَنْ وَعَدَ أَهْرَ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ ١١٧
- [٢٢] سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كُذِّبُوا وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُذِّبُوا رَجْماً ١١٩
- [٢٣-٢٦] وَلَا تَقُولُوا لِنَا إِهْوَ بِأَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَتَذَكَّرَ أَنْ يَفْعَلَ ١٢٠
- [٢٧] وَتَقُلْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا تُبَدِّلْ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ ١٢٣
- [٢٨] وَأَضْمِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا ١٢٤
- [٢٩] وَقُلِ النَّحْنُ مِنَ رَبِّكُمْ مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ١٢٥
- [٣٠ و ٣١] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * ١٢٦
- [٣٢ و ٣٣] وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أُغَابٍ وَخَفَّافًا هُمَا ١٢٧
- [٣٤-٣٨] وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُخَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * ١٢٨
- [٣٩-٤١] وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَوْنَنَا أَقَلَّ مِنْكَ ١٢٩
- [٤٢-٤٤] وَأَحْبَبَ بِخَمْرِهِ فَأَضْحَجَ يَغْلِبُ كَقَبِي عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى ١٣٠
- [٤٥ و ٤٦] وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتٌ ١٣١
- [٤٧ و ٤٨] وَيَوْمَ نَسْفُتُ الْجِبَالَ نَنزِلُهَا ذُرًّا ذَرًّا وَنَبْذُهَا مُبْقَرَةً وَخَشَرَتْنَا فِيهَا كَلْبًا * ١٣٢
- [٤٩] وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُحْسِنِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالٌ ١٣٣
- [٥٠ و ٥١] وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ ١٣٤
- [٥٢ و ٥٣] يَقُولُ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ١٣٥
- [٥٤] وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ نُفُورًا ١٣٥
- [٥٥ و ٥٦] وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ ١٣٦
- [٥٧] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا ١٣٧
- [٥٨ و ٥٩] وَرَبُّكَ الْمَغْفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ ١٣٧
- [٦٠ و ٦١] وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * ١٣٨
- [٦٢-٦٥] فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنِّي جَدَّةٌ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ ١٤١
- [٦٦-٧٠] قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلًا * قَالَ إِيَّاكَ لَنْ ١٤٤
- [٧١-٧٧] فَاطْلُقْ حَتَّى إِذَا رَكِبْنَا فِي السَّيْفَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ ١٤٥
- [٧٨ و ٧٩] قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا ١٤٨

- [٨٠-٨٢] وَأَمَّا الْفُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُزَيِّجَهُمَا طَغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا ١٤٩
- [٨٣] وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ١٥٣
- [٨٤-٩٠] إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا ١٥٥
- [٩١-٩٨] كَذَلِكَ * وَقَدْ أَحْنَا بِمَا لَدَيْهِ حُبًّا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ١٥٩
- [٩٩-١٠٠] وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِجَ فِي الصُّورِ فُجِعْمَانَهُمُ جَمْعًا * ١٦١
- [١٠١ و ١٠٢] الَّذِينَ كَانَتْ أَغْنِيَهُمْ فِي غَطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَصْغِيونَ سَمْعًا * ١٦٢
- [١٠٣-١٠٦] قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ١٦٣
- [١٠٧ و ١٠٨] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * ١٦٤
- [١٠٩ و ١١٠] قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ١٦٥
- في تفسير سورة مريم ١٦٩
- [١-٦] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كَهَيْصَلُ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ ١٦٩
- [٧-٩] يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ ١٧٢
- [١٠ و ١١] قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آتَيْنَاكَ الْأَمْثَلَ فَلَمَّا قَالَ لِيَاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سُوِّيَّا * فَمَرَجَ ١٧٣
- [١٢-١٤] يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً ١٧٤
- [١٥] وَسَلَامًا عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُنْعَثُ حَيًّا ١٧٥
- [١٦-٢٨] وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ ١٧٦
- [٢٩-٣٤] فَأَنشَأَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأُمْنِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ١٨١
- [٣٥-٣٩] مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ١٨٣
- [٤٠-٤٣] إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ * وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ ١٨٤
- [٤٤-٥٠] يَا أَبَتِ لَا تُعْبِدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي ١٨٥
- [٥١-٥٣] وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَادَيْنَاهُ مِنْ ١٨٧
- [٥٤ و ٥٥] وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ ١٨٨
- [٥٦-٥٨] وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا * ١٨٩
- [٥٩ و ٦٠] فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ ١٩٠
- [٦١-٦٣] جَنَّاتٍ عَذْبٍ تَلِي * وَعَدِ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا ١٩١
- [٦٤ و ٦٥] وَمَا تَنْزِيلُ الْإِنشَارِ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفُنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ ١٩٢

- [٦٦ و ٦٧] وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَيْدَا مَا مِثْ لَسُوْف أَخْرُج حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّمَا ١٩٣
- [٦٨-٧٢] فَوَرَّكَ لَئَحْضَرْتَهُمْ وَاللَّيَاطِينَ ثُمَّ لَئَحْضَرْتَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ حَيًّا * ثُمَّ ١٩٤
- [٧٣ و ٧٤] وَإِذَا تَنَافَى عَلَيْهِمْ آبَاؤُنَا يَنُوبُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَمْثَلُ أُنْثَى الْفَارِغِيَّةِ ١٩٧
- [٧٥ و ٧٦] أَفَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْإِنْسَانِ الَّذِي لَعَنَّا لَنُعَذِّبَهُ لَكَ الْإِرْحَمُ مَدًّا حَتَّى إِذَا زُفْنَا مَا يُوعَدُونَ ١٩٨
- [٧٧-٨٠] أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآبَائِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّهُ مَا لَا يُؤْتِيَنَّهُ * أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَتَّخَذَ ١٩٨
- [٨١ و ٨٢] وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ١٩٩
- [٨٣ و ٨٤] أَلَمْ تَرَأْنَا أَرْسَلْنَا الْغَلِيَّاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْوُهُمْ أَرْضًا * فَلَا تَعْمَلُ عَلَيْهِمْ ٢٠٠
- [٨٥-٨٧] يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الْإِرْحَمِ وَنُدَا * وَنَسْوَ السَّجِرِينَ إِلَى جَهَنَّمَ ٢٠١
- [٨٨-٩٥] وَقَالُوا اتَّخَذَ الْإِرْحَمُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا * تَكَادَ السَّمَاوَاتُ ٢٠٤
- [٩٦] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الْإِرْحَمُ وِدًّا ٢٠٥
- [٩٧ و ٩٨] فَإِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ بِلِسانِكَ لِلْمُتَّقِينَ وَتَنذِرُ بِهِ قَوْمًا لَدًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا ٢٠٦
- في تفسير سورة طه ٢٠٩
- [١-٥] بِسْمِ اللَّهِ الْإِرْحَمِ الرَّحِيمِ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ ٢٠٩
- [٦ و ٧] مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ ٢١١
- [٨-١٢] اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى * وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى ٢١١
- [١٣ و ١٤] وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٢١٤
- [١٥ و ١٦] إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا ٢١٥
- [١٧-٢١] وَمَا بَلَكَ بِبَيْبِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى ٢١٦
- [٢٢-٢٨] وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْشَعُ بِبَيْضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آتَى أَوْخَى * لِيُرِيكَ ٢١٧
- [٢٩-٣٦] وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي ٢١٩
- [٣٧-٣٩] وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مِرَّةً أَوْخَى * إِذْ أَنْوَحْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنْ أَقْذِفِيهِ ٢٢١
- [٤٠] إِذْ نَمْسِي أُخْتُكَ فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ ٢٢٣
- [٤١-٤٤] وَأَضْمَعْنَاكَ لِنَفْسِي * أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * ٢٢٤
- [٤٥-٤٧] قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا نُو أَنْ يَطْعَمَ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا ٢٢٥
- [٤٨-٥٢] إِنَّا قَدْ أَوَحَيْنَا إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَنْ رَجَعْنَا يَا ٢٢٦
- [٥٣ و ٥٤] الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَرَجَعْنَا لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ٢٢٧

- [٥٥-٥٧] مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى * وَلَقَدْ أَوْفَيْنَاهُ ٢٢٨
- [٥٨-٦٤] فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسَحَابٍ مُمِثِّلِهِ فَنُجْعِلُ بِهِ نَارًا تَلْقَى * وَلَقَدْ أَوْفَيْنَاهُ ٢٢٩
- [٦٥-٦٨] قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكَ وَإِنَّمَا اتَّخَذْتَنِي مِثْلَهُ فَأَمَّا إِيَّاكَ فَأَعْتَدْنَا عَذَابًا لَّهُنَّ ٢٣١
- [٦٩-٧٣] وَالَّذِي مَنَى بِعِمْقِكَ ثَقُلَتْ مَا صَنَعُوا إِنَّهُمْ صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرًا وَلَا يَفْلَحُ ٢٣٢
- [٧٤-٧٦] إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ ٢٣٤
- [٧٧-٧٩] وَلَقَدْ أُوحِينَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِتَابِي فَإِذَا هُوَ خَاطِبًا ٢٣٥
- [٨٠ و ٨١] يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ عَذَابِكُمْ وَعَظَمْنَاكُمْ جَانِبَ الصُّورِ فَاتَّقُوا اللَّهَ ٢٣٧
- [٨٢] وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ٢٣٨
- [٨٣-٨٥] وَمَا عَجَبَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ ٢٣٩
- [٨٦ و ٨٧] فَوَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبًا أُسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا ٢٤١
- [٨٨-٩٠] فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * ٢٤٢
- [٩١-٩٤] قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى * قَالَ يَا هَؤُلَاءِ مَا ٢٤٦
- [٩٥-٩٧] قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَعَضْتُ قَبْضَةً ٢٤٨
- [٩٨-١٠١] إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا * كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ ٢٤٩
- [١٠٢-١٠٤] يُؤْمِنُ بِشَيْءٍ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَخَافَتُونَ بِهِتَمَّ ٢٥٠
- [١٠٥-١٠٧] وَيُسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا ٢٥١
- [١٠٨ و ١٠٩] يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِزَّ لَهُ وَخَسَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا ٢٥٣
- [١١٠-١١٢] إِنَّا نَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا * وَنَبِّئُكَ ٢٥٤
- [١١٣ و ١١٤] وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ ٢٥٥
- [١١٥] وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَاسِي * وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا ٢٥٧
- [١١٦-١٢٧] وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ ٢٥٧
- [١٢٨ و ١٢٩] أَنْعَلْمْ بِهِدْ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ ٢٦٠
- [١٣٠] فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ٢٦٠
- [١٣١] وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَتْهُ إِنْزَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثِهِمْ ٢٦١
- [١٣٢] وَأَمَّا أَهْلُكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْصَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ ٢٦٢
- [١٣٣-١٣٥] وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ يَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى * ٢٦٢

في تفسير سورة الأنبياء ٢٦٧

[٣-١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ٢٦٧

[٨-٤] قَالَ رَبِّیْ بَعْلُكُمْ يَقُولُ فِی السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِیمُ * بَلْ قَالُوا ٢٦٨

[١٠ و ٩] ثُمَّ صَدَقْنَاهُمْ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَعْلَنَّا لِمُسْرِفِیْ * لَقَدْ أَنْزَلْنَا ٢٦٩

[١٥-١١] وَأَكْمَرْنَا مِنْ قُرْبَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْدَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِیْنَ * فَلَمَّا أَحْسَوْا ٢٧٠

[١٩-١٦] وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَآعِیْبٍ * لَوْ أَنْزَلْنَا أَنْ نَخْلُجَ لَهَا ٢٧١

[٢٣-٢٠] إِنْ سَجَوْا اللَّیْلَ وَالنَّهَارَ لَا یَفْقَهُونَ * أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ٢٧٣

[٢٧-٢٤] أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِیْ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِی ٢٧٤

[٢٨] بَعْلُكُمْ مَا بَیْنَ أَيْدِیْهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا یَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ ٢٧٦

[٣٠ و ٢٩] وَمَنْ یَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّیْ إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكْ نَجْرٌ بِهِ جَعَلْنَا لَیْلِ الْفَالِغِیْنَ ٢٧٧

[٣٣-٣١] وَجَعَلْنَا فِی الْأَرْضِ رَوَاسِیَ أَنْ یَمِیدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِیْهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ ٢٧٩

[٣٦-٣٤] وَمَا جَعَلْنَا لِیَشْرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَنْ یَنْ مِثَّ هُمْ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَتْ ٢٨٠

[٣٨ و ٣٧] خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِیکُمْ آيَاتِیْ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ * وَیَقُولُوا مَتَى ٢٨٢

[٤٢-٣٩] لَوْ بَعْلُكُمْ الَّذِیْنَ كَفَرُوا حِیْنَ لَا یَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ٢٨٢

[٤٤ و ٤٣] أَمْ لَهُمْ إِلَهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا یَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْ ٢٨٣

[٤٦ و ٤٥] قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْیِ وَلَا یَسْمَعُ الدُّعَاءُ إِذَا مَا یُنْذَرُونَ * وَلَیْنِ ٢٨٤

[٤٨ و ٤٧] وَنُفِخَ الْمَوَازِیْنِ الْقِیَاسُ یَوْمَ الْقِیَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ ٢٨٥

[٥٠ و ٤٩] الذِّیْنَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَیْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ ٢٨٦

[٥٨-٥١] وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِیمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلِ وَكُنَّا بِعَالِیِّیْنَ * إِذْ قَالَ لِأَبِیْهِ وَقَوْمِیْ مَا ٢٨٦

[٦٥-٥٩] قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِبْرَاهِیمَ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِیْنَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًی یَذْكُرُهُمْ ٢٨٨

[٦٩-٦٦] قَالَ أَتَقْبَلُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا یَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا یَضُرُّكُمْ * أُنْتُ لَكُمْ وَلِیٌّ ٢٩٠

[٧٣-٧٠] وَأَزَادُوا بِهِ كِبْدًا فَعَجَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِیْنَ * وَنَحْنَاهُ وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِیْ ٢٩٢

[٧٧-٧٤] وَلَوْطًا أَنْبَأَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَحْنَاهُ مِنَ الْقُرْبَى الَّتِیْ كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ٢٩٤

[٨٠-٧٨] وَدَاوُدَ وَسُلَیْمَانَ إِذْ یَخْجَمَانِ فِی الْحَرْبِ إِذْ نَفَسَتْ فِیْهِ عَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا ٢٩٥

[٨٢ و ٨١] وَلِسُلَیْمَانَ الرِّیحَ عَاصِفَةً تَجْرِیْ بِأَمْرِیْ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِیْ بَارَكْنَا فِیْهَا وَكُنَّا ٢٩٩

[٨٣] وَأَبِیُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّیْ مَسْكِیْنٌ فَطَرَّوْا لَهُ زَوْجًا مِّنَ الرَّاحِمِیْنَ ٣٠٠

[٨٤] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ صُرٍّ وَأَنْبَأَهُ أَهْلَهُ وَبِئْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ ٣٠٥

[٨٥ و ٨٦] وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي ٣٠٦

[٨٧ و ٨٨] وَذَا الْقُرْآنِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا ٣٠٨

[٨٩ و ٩٠] وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ٣١١

[٩١-٩٣] وَالَّذِينَ أَحْصَيْنَا فَزَجَّهَا فَنَكَّحْنَاهَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً ٣١١

[٩٤ و ٩٥] لَنْ يَمُوتَ يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ * ٣١٢

[٩٦-٩٨] حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَقَبِضَ ٣١٣

[٩٩-١٠٣] الْوَيْلُ كَانَ هَؤُلَاءِ إِلَهُهُمَا وَرَدُّوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَّهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا ٣١٤

[١٠٤-١٠٦] يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًا ٣١٦

[١٠٧] وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ٣١٧

[١٠٨-١١١] قُلْ إِنَّمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ٣١٩

[١١٢] قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ٣٢٠

في تفسير سورة الحج ٣٢١

[١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ٣٢١

[٣ و ٤] وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَسْتَعْ كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٌ * كُتِبَ ٣٢٣

[٥ و ٧] يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ نَرْفَعُهُ ٣٢٣

[٨-١٠] وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * نَأْتِي ٣٢٦

[١١] وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْبِدُ اللَّهَ عَلَىٰ خَوْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ٣٢٦

[١٢-١٤] بُدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَمَا لَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاةُ الْبَعِيدُ * ٣٢٨

[١٥] مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٣٢٨

[١٦ و ١٧] وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ * إِنَّ الَّذِينَ اسْتَوْا ٣٢٩

[١٨] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ ٣٣٠

[١٩-٢٢] هَذَانِ خُضَمَاءٌ اتَّخَذُوا فِي رَبِّهِمْ آلَاءِينَ كَفَرُوا فَصَعَّتْ لَهُمْ نَيَابٍ مِنْ ثَارٍ ٣٣١

[٢٣ و ٢٤] إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ اسْتَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٣٣٢

[٢٥] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَشْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ ٣٣٣

[٢٦] وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ٣٣٦

- [٢٧] وَذُنَّ فِي النَّاسِ بِالْحَقِّ يَا أَيُّكَ رَجُلًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ ٣٣٦
- [٢٨ و ٢٩] لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا فِيهِمْ مَعْلُومَاتٌ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ ٣٣٨
- [٣٠] ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا ٣٤٢
- [٣١] حَنْفَاءَ فِي غَيْرِ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ ٣٤٣
- [٣٢] ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ٣٤٣
- [٣٣] لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ جَعَلَهَا إِلَى الْيَتِيمِ الْغَلِيظِ ٣٤٤
- [٣٤ و ٣٥] وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ ٣٤٤
- [٣٦ و ٣٧] وَلِيَذُنَّ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ عَلَيْهَا ٣٤٥
- [٣٨ و ٣٩] إِنَّ اللَّهَ يَدْعُ الْبَنِيَّانِ إِلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُبِحَ كُلَّ حَوَائِجِكُمْ * أَذِنَ لِلَّذِينَ ٣٤٦
- [٤٠] الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ ٣٤٧
- [٤١] الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ اقْنُمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَامْزُرُوا ٣٤٨
- [٤٢ و ٤٤] وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ ٣٤٩
- [٤٥] فَكَأَنَّمِنْ قَوْمِهِ أَهْلُكُنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنُفْسٍ خَارِجَةٍ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ ٣٥٠
- [٤٦] أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يُغْفِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ٣٥٢
- [٤٧] وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ ٣٥٣
- [٤٨ و ٥١] وَكَأَنَّمِنْ قَوْمِهِ أَهْلُكُنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنُفْسٍ خَارِجَةٍ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ ٣٥٣
- [٥٢] وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْفَقْرُ الشَّيْطَانُ فِي ٣٥٤
- [٥٣ و ٥٤] لِيَجْعَلَ مَا يُلْفَى الشَّيْطَانُ فَيَنْفَعُ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ٣٥٥
- [٥٥ و ٥٧] وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ ٣٥٦
- [٥٨ و ٥٩] الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قِيلُوا أَوْ مَا تَأْتُوا لِيَرْزُقَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٣٥٧
- [٦٠ و ٦٢] ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ يَبغِ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ ٣٥٧
- [٦٣ و ٦٦] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَخَسَّبُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَغَفِيظٌ ٣٥٩
- [٦٧ و ٦٨] وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِبُوهُ فَلَا يَبْنِئُ عَمَلُكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى ذِكْرِكَ ٣٦٠
- [٦٩ و ٧٠] اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ٣٦٠
- [٧١ و ٧٢] وَيُعِيدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا ٣٦١
- [٧٣] يَا أَيُّهَا النَّاسُ صِرْتُ مَثَلًا فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ ٣٦٢

- [٧٤-٧٦] مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ٣٦٢
- [٧٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ ٣٦٣
- [٧٨] وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ ٣٦٤
- في تفسير سورة المؤمنون ٣٦٧
- [٣-١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٣٦٧
- [٤-٧] وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ يَغُورُونَ حَافِضُونَ * إِلَّا عَلَى ٣٦٨
- [٨-١١] وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ ٣٧٠
- [١٢-١٦] وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْثَةً فَفَرَّ مَكِينٍ * ٣٧٢
- [١٧-٢٠] وَلَقَدْ خَلَقْنَا فُوقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ * وَأَنزَلْنَا مِنْ ٣٧٣
- [٢١-٢٢] وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ٣٧٥
- [٢٣-٢٤] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا ٣٧٥
- [٢٥-٢٩] إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَضُّوا بِهِ حَتَّىٰ حَبِثَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا ٣٧٦
- [٣٠] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ٣٧٨
- [٣١-٣٤] ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا ٣٧٨
- [٣٥-٤١] أَتَبْعُكُمْ وَلَكُمُ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَتَكُمُ مُحَرَّجُونَ * هِيَئَاتِ هِيَئَاتِ ٣٧٩
- [٤٢-٤٨] ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ * مَا تَسْبِيحُ مِنْ أُمَّةٍ أَدْبَلْنَا وَمَا ٣٨٠
- [٤٩ و ٥٠] وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا آيَاتٍ مُّزِينَةً وَأَمْرًا أَنبَى ٣٨١
- [٥١-٥٤] يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * ٣٨٢
- [٥٥ و ٥٦] أَنْخَسِبُونَ أَمَّا مُدَّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ * تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا ٣٨٣
- [٥٧-٦١] إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٣٨٤
- [٦٢] وَلَا تَكُلْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَذُنَّ كِتَابٌ بَيِّنٌ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَضِلُّونَ ٣٨٥
- [٦٣-٦٧] بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ * ٣٨٦
- [٦٨-٧٠] أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَنْبَغُوا ٣٨٦
- [٧١-٧٤] وَلَوْ تَنَّبَعِ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ ٣٨٧
- [٧٥-٧٧] وَرَوَّوْا رَحْمَتَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لِلْجُورِ فِي طُعْيَانِهِمْ نِعْمُوهُو * وَلَقَدْ ٣٨٨
- [٧٨-٨٠] وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ ٣٨٩

[٨١-٨٣] قُلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ۖ إِنَّا... ٣٩٠

[٨٤-٩٠] قُلْ لِلَّهِ لَمَنَ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ... ٣٩١

[٩١-٩٢] مَا تَتَّخِذُ اللَّهُ مِن دَلِيلٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ... ٣٩٢

[٩٣-٩٤] قُلْ رَبِّ إِنَّمَا قَرَّبَنِي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ... ٣٩٣

[٩٥-٩٨] وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّبْرِكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ * أَدْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَخْسَرُ النَّفِثَةِ... ٣٩٤

[٩٩-١٠٠] حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا... ٣٩٥

[١٠١] فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ... ٣٩٦

[١٠٢-١٠٤] أَلَمْ نَقُلْكَ مَوَازِينَهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِسُونَ * وَمَن خَفَىٰ مَوَازِينَهُ فَأُولَٰئِكَ... ٣٩٧

[١٠٥-١٠٨] أَلَمْ تَكُنْ أَتَايَ تُنَادِي عَلَيْهِمْ فَكَفَرُوا بَهَا فَكَذَّبُوا * قَالُوا رَبَّنَا غُلَبْنَا عَلَيْهِتَا... ٣٩٨

[١٠٩-١١٤] إِنَّهُ كَانَ قَرِيبٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَبِيرٌ... ٤٠٠

[١١٥-١١٦] أَنُحْيِيهِمْ لِمَا خَلَقْنَاهُمْ عِبَادًا لَّكُم إِنَّا لَا نُزِجُوهُمْ * فَتَعَالَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ... ٤٠٠

[١١٧-١١٨] وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ... ٣٩٩

في تفسير سورة النور... ٤٠٣

[١-٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سُورَةُ النُّورِ وَأَنزَلْنَاهَا وَفَرَّغْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ... ٤٠٣

[٣] الَّذِينَ لَا يَنْتَعِبُونَ إِلَّا رَابِعَةً أَوْ مَشْرِكَةً وَالرَّابِعَةَ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ... ٤٠٥

[٤-٥] وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ... ٤٠٧

[٦-٩] وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحْدِهِمْ... ٤٠٩

[١٠-١١] وَلَا تَزُولَ فِيكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا... ٤١٣

[١٢-١٣] أَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا أَفْكٌ... ٤١٨

[١٤-١٥] وَلَا تَزُولَ فِيكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ... ٤١٨

[١٦-١٨] أَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ... ٤١٩

[١٩] إِنَّ الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي... ٤٢٠

[٢٠-٢١] وَلَا تَزُولَ فِيكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَوَّافٌ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... ٤٢١

[٢٢-٢٣] وَلَا يَأْتَلِ أُولَٰؤُا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينِ... ٤٢١

[٢٤-٢٥] يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ... ٤٢٢

[٢٦] الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ... ٤٢٣

- [٢٧ و ٢٨] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا ٤٢٤
- [٢٩] أَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ٤٢٦
- [٣٠ و ٣١] قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَبَحْضُوا قُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ ٤٢٧
- [٣٢] وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ ٤٣٢
- [٣٣] وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ يَكَاحًا حَتَّى يُمْسِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ ٤٣٤
- [٣٤ و ٣٥] وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً ٤٣٧
- [٣٦-٣٨] فِي بُيُوتٍ إِذَنْ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَتُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُوَسِّخُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدْوِ وَالْآصَالِ ٤٤١
- [٣٩ و ٤٠] وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ ٤٤٣
- [٤١ و ٤٢] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَسِّخُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ ٤٤٥
- [٤٣] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ ٤٤٧
- [٤٤ و ٤٥] انْقَلَبَ اللَّهُ الْبَلَّ وَالنَّهَارَ إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لَأُولِي الْأَبْصَارِ * وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ ٤٤٨
- [٤٦ و ٤٧] لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ٤٤٩
- [٤٨ و ٤٩] وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ ٤٥٠
- [٥٠-٥٣] أَفَبَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ زَاغَتْ أَعْيُنُهُمْ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْبِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ ٤٥١
- [٥٤] قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا ٤٥٢
- [٥٥] وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ٤٥٣
- [٥٦ و ٥٧] وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لَا ٤٥٥
- [٥٨] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٤٥٥
- [٥٩] وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ٤٥٧
- [٦٠] وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ يَكَاحًا فَلْيَسَّ عَلَىٰ عَيْنَيْ جُنَاحٌ أَنْ ٤٥٨
- [٦١] أَلَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَوْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَوْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَوْجٌ وَلَا ٤٥٩
- [٦٢] إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ ٤٦٢
- [٦٣] لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ ٤٦٤
- [٦٤] إِلَّا إِنْ هِيَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ ٤٦٥
- في تفسير سورة الفرقان..... ٤٦٧
- [٢١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ ٤٦٧

- [٥-٣] وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ٤٦٨
- [٨-٦] قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * ٤٦٩
- [٩] أَنْظِرْ كَيْفَ صَرَّيْنَاكَ الْأَمْثَالَ فَصَلُّوا فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَبِيلاً ٤٧٠
- [١٠] إِن تَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٤٧٢
- [١١ و ١٢] بَلْ كَذَّبُوا بِالشَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالشَّاعَةِ سَعيراً * إِذَا زُلْزِلَتْ مِنْ مَكَانٍ ٤٧٣
- [١٣ و ١٤] وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَبْحاً يَقُولَ دَعُوا هَٰؤُلَاءِ لَنَا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ٤٧٤
- [١٥ و ١٦] قُلْ ذَلِكَ خَيْرٌ أَمِ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً * ٤٧٥
- [١٧ و ١٨] وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ ٤٧٥
- [١٩ و ٢٠] فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَغِيصُونَ صَرْفًا وَلَا نَصراً وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ ٤٧٦
- [٢١ و ٢٢] وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ ٤٧٧
- [٢٣] وَفَعَلْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءاً مُنْشُوراً ٤٧٨
- [٢٤] أَصْحَابَ الْحَيَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ٤٧٩
- [٢٥-٢٩] وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ٤٨٠
- [٣٠ و ٣١] وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا ٤٨٣
- [٣٢ و ٣٣] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ ٤٨٣
- [٣٤] الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ ٤٨٤
- [٣٥-٣٩] وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً * فَقُلْنَا أَهْبَا إِلَى ٤٨٥
- [٤٠-٤٢] وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْفُرْقَةِ الَّتِي أَفْطَرْتُ مَطَرُ السَّيِّئِ أَقْلَمَ بِكُفْرَانِهَا بَلْ كَانُوا ٤٩٠
- [٤٣ و ٤٤] أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا هَٰؤُلَاءِ أُمَّاتٍ وَكَانُوا يَنْقُرُونَ عَلَيْهِمْ كَيْلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ ٤٩١
- [٤٥ و ٤٦] أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَيْثِكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا السَّمْسَ ٤٩٢
- [٤٧-٤٩] وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِيَسَآءَ وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً * وَهُوَ ٤٩٣
- [٥٠-٥٢] وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً * وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهُ ٤٩٤
- [٥٣ و ٥٤] وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُراتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا ٤٩٥
- [٥٥-٥٧] وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ٤٩٧
- [٥٨] وَتَرَكُوا عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَخَّ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ ٤٩٨
- [٥٩] الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى ٤٩٨

- [٦٠] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ٤٩٩
- [٦١ و ٦٢] تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ ٥٠٠
- [٦٣ و ٦٤] وَجَعَدَ الرَّحْمَنُ الَّذِينَ يَمُنُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونًَا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ ٥٠١
- [٦٥-٦٧] وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا ٥٠٢
- [٦٨] وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا ٥٠٤
- [٦٩ و ٧٠] يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ ٥٠٤
- [٧١-٧٤] وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَنْتَهُدُونَ ٥٠٦
- [٧٥-٧٧] أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا كَبِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا ٥٠٨
- في تفسير سورة الشعراء ٥١١
- [١-٤] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طه * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسَكَ ٥١١
- [٥-٩] وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ ٥١٢
- [١٠-٢١] وَإِذْ نَادَىٰ ذُنُورُكَ مُوسَىٰ أَنْ اتَّبِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمٌ فِرْعَوْنَ أَلا يَبْقَوْنَ * ٥١٣
- [٢٢-٢٨] وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَدَدْتُ نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٥١٥
- [٢٩-٣٣] قَالَ لَنْ يَخْذَلَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْمَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ * قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ ٥١٧
- [٣٤-٣٩] قَالَ لِلْمَلِكِ حَوْلَةٌ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ٥١٨
- [٤٠-٤٢] أَلَعَلَّآ تَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِلْفِرْعَوْنَ ٥١٩
- [٤٣-٥٠] قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ ٥٢٠
- [٥١] إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ٥٢٢
- [٥٢-٥٩] وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي ٥٢٣
- [٦٠-٦٢] فَأَتَيْنَاهُمُ مُّشْرِيقِينَ * فَلَمَّا نَزَّاهِ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا ٥٢٤
- [٦٣-٦٨] فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اصْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ ٥٢٤
- [٦٩-٨٢] وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نُعْبُدُ ٥٢٨
- [٨٣ و ٨٤] رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٥٣٠
- [٨٥-٨٧] وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَلَا ٥٣١
- [٨٨-٩١] يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ٥٣٢
- [٩٢-١٠١] وَقِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ٥٣٣

[١٠٢-١٠٤] قُلُوا أَنَا نَذَرْنَا أَنْ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ٥٣٤

[١٠٥-١١٣] كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ ٥٣٥

[١١٤-١٢٢] وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ نَافِثًا إِلَّا يَدِيرُ تُبْيَنُ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ ٥٣٦

[١٢٣-١٣٠] كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ ٥٣٧

[١٣١-١٣٥] فَأَتَوْهَُا فَقَالُوا قَاتِلِي أَوْطِئِي * وَأَتَقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ ٥٣٩

[١٣٦-١٣٨] قَالُوا اسْوَأُ عَلَيْنَا نُعْظَتُ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ ٥٣٩

[١٣٩-١٤٥] فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ ٥٤٠

[١٤٦-١٥٤] أَتَنْتَرِكُونَ فِي مَا هَآءُنَا بَيْنِينَ * فِي جَنَاحٍ وَعُقُوبٍ * وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ طَلْعُهَا ٥٤٠

[١٥٥-١٥٩] قَالَ هَذِهِ نَافِثَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ ٥٤١

[١٦٠-١٦٨] كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ ٥٤٢

[١٦٩-١٧٥] رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي ٥٤٣

[١٧٦-١٨٠] كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ ٥٤٤

[١٨١-١٨٣] أَرْفُؤُوا الْكَفَّيْ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُنْصَفِيمِ * ٥٤٤

[١٨٤-١٨٦] وَأَتَقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبَّةَ الْأُولَى * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * ٥٤٥

[١٨٧-١٩١] فَأَسْفِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَأَيْ أَعْلَمَ بِمَا ٥٤٥

[١٩٢-١٩٥] وَأَوَّاهُ لَنَزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٥٤٦

[١٩٦-٢٠٣] وَأَوَّاهُ لَقَى دُرَيْرَ الْأُولَى * أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * ٥٤٧

[٢٠٤-٢٠٧] أَفَبِعَدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا ٥٤٨

[٢٠٨-٢١٢] وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا أَنَّا مُنْذِرُونَ * ذِكْرُنَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَمَا نُنْزِلُ ٥٤٩

[٢١٣-٢١٤] فَلَا تَدْعُ مَعَ إِلَهِآ آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٥٥٠

[٢١٥-٢٢٠] وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ ٥٥٢

[٢٢١-٢٢٣] أَهْلُ أَنْبِئَكُمْ عَلَى مَنْ نُنْزِلُ السَّيَّاطِينَ * نُنْزِلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ ٥٥٣

[٢٢٤-٢٢٧] وَالشَّعْرَاءُ يَبْغِيهِمُ الْعَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ ٥٥٤

في تفسير سورة النمل ٥٥٩

[٣-١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طَسَّ بَلَكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى ٥٥٩

[٤-٦] أَنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ ٥٦٠

- [٨ و ٧] إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ ۖ فَشَاهَبَ ٥٦١
- [٩- ١١] تَامُوا مَوْسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَالَّذِي عَصَاكَ فَلَئِمَّا رَأَاهَا قَهَرْتُهُ فَأَتَتْهَا حَارٌّ ٥٦٢
- [١٢- ١٤] وَأُذْخِلْ بِدَكَ فِي جَنِينِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سِتْعِ آيَاتٍ إِلَى ٥٦٣
- [١٥] وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَطَرْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ ٥٦٤
- [١٦] وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ ٥٦٤
- [١٧- ٢٠] وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِبِ وَالْإِلَاسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُورَعُونَ * حَتَّى إِذَا ٥٦٥
- [٢١ و ٢٢] الْأَعْدَابُ عَدَابًا شَدِيدًا أَوْ لَذَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَصَكَتْ غَيْرَ ٥٧٠
- [٢٣- ٣١] إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * ٥٧١
- [٣٢- ٣٤] قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُو أَتَقْتُونَنِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ فَاطِمَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون * ٥٧٤
- [٣٥ و ٣٦] وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ ٥٧٥
- [٣٧- ٤٠] رَاجِعٍ إِلَيْهِمْ فَلَمَّا بُشِّرُوهُمْ بِجُنُودٍ لَا فَيْلَ لَهُمْ بَهَا وَلَتُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أُنْزِلَ وَهُمْ ٥٧٧
- [٤١- ٤٤] قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَنْهَدُونَ * فَلَمَّا ٥٨٠
- [٤٥- ٤٧] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ ٥٨٢
- [٤٨- ٥٣] وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا ٥٨٤
- [٥٤ و ٥٥] وَلَوْ طَافَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَالِجَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أُنِيتُكُمْ لِقَاتِي ٥٨٥
- [٥٦- ٥٨] فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ ٥٨٦
- [٥٩ و ٦٠] قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۗ اللَّهُ خَبِيرٌ أَمَّا يُبْشِرُكُمْ ٥٨٦
- [٦١] أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ ٥٨٨
- [٦٢ و ٦٣] أَمْنَ يُحِبُّ الْمَغْضُوبَ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ٥٨٨
- [٦٤- ٦٦] أَمْنَ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِلَهُهُ مَعَ اللَّهِ ٥٨٩
- [٦٧- ٧٠] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَوْيَا لِمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا ٥٩٠
- [٧١- ٧٤] وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ ٥٩١
- [٧٥- ٧٧] وَمَا مِنْ غَالِيَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ ٥٩١
- [٧٨- ٨١] إِنَّ رَبَّكَ يَفْضِلُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٥٩٢
- [٨٢] وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ ٥٩٣
- [٨٣- ٨٥] وَيَوْمَ نَخْسِفُ مِنْ كُلِّ آتَةٍ فُوجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُورَعُونَ * حَتَّى إِذَا ٥٩٦

[٨٦ و ٨٧] أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ٥٩٧

[٨٨] وَنَزَّلْنَا السَّحَابَ مُغْتَمِرًا وَفَجَّرْنَا فِيهَا سُرُجًا وَظَلَمْنَا فِيهَا كُوفًا وَجَعَلْنَا سُلَكًا مِّنَ الْبَلَدِ لَنُغْنِيَ لَكَ بِهِ عَنْهُ عَيْنًا ذَلِكُمْ فَتَعِلُّ لَعُنْتَ ٥٩٨

[٨٩ و ٩٠] مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ ٥٩٨

[٩١ - ٩٣] إِنَّمَا أُعِيتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُعِيتُ أَنْ ٥٩٩